عبد الكريم الخطيب

التفسير القرآني للقرآن

الكتاب الرابع

الجزءان : السابع والثامن

من مباحث هذا الكتاب
- الخمر .. مادتها .. حكم شاربها
- المسيح الإله .. والمسيح الإنسان
- مشيئة الله .. ومشيئة العباد

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

مطبعة السنة المحمدية
١٧ شارع شريف باشا الكبير - عابدين
تليفون ٩٠٦٠١٧



الآيات (٨٢ - ٨٦)

« لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦)

التفسير : الخطاب فى قوله تعالى : « لتجدنّ » موجّه إلى النبيّ صلىّ الله عليه وسلم ، ثم هو خطاب من بعده لكل من هو أهلٌ لأن يخاطَب ، من المؤمنين ، وغير المؤمنين .

فاليهود والنصارى ، هم فيمن دخل فى هذا الخطاب .

وفى قوله تعالى : « لتجدنّ أشدّ النّاس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » هو كشف لهذا الموقف العدائى ، الذى يقفه اليهود من الدعوة الإسلامية وأهلها .. فهم .. كما يقول الله تعالى : « لتجدنّ أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهودَ . . . » ثم يأتى من بعدهم فى العداوة للمؤمنين ، الذين أشركوا . .

وهذا وضع مقلوب بالنسبة لليهود ، إذ كانوا ـ وهم أهلُ كتاب ـ أولى الناس بأن يناصروا أهل الكتاب ويوادّوهم ، لا أن يكونوا فى الجبهة الأولى من الجبهات المعادية للمؤمنين ، إذ يتقدمون فى هذا الموقف اللئيم أهلَ الكفر والشرك ، فيكونون قادة الحملة الموجهة لحرب الله والمؤمنين بالله !

وفى قوله تعالى « لتجدَنَّ » إشارة إلى أن هذا الحكم الذى فضح الله به اليهود ، ليس حكما مُعلّقا على أى شرط ، بحيث يقع إذا وقع هذا الشرط ، أو هو حكم خفىٌّ لاتظهر آثاره للعيان .. وإنما هو حكم مطلق ، واقع دائما ، ظاهر لاخفاء فيه ، ولهذا جاء التعبير عنه بلفظ « تجد » بمعنى ترى ، وتبصر ، وتتحقق ، ثم جاء هذا اللفظ مؤكداً بالقسم ، وبنون التوكيد « لتَجِدَنَّ » .. فهو أمر واقع ، مؤكد الوقوع ، لا احتمال فيه لشك أو ريب .

هذه هى وجهة اليهود فى الحياة ، وهذا هو حكم الله عليهم .. فماذا يرى الراءون منهم ؟ وما مدى انطباق هذا الحكم عليهم ؟

إن مسيرتهم فى الحياة تشهد شهادة ناطقة بأنهم حربٌ على الأديان وعلى المؤمنين .. بل هم حرب على الإنسانية كلّها ، قبل أن يكونوا حرباً على الأديان التى يَدِين بها الناس .

ولكن لمّا كان الدّين هو مِلاك أمر المجتمعات الإنسانية ، ومُنطَلَق حياتها الرُّوحية والاجتماعية ـ كان الميدان الذى يعمل فيه اليهود ، لإفساد المجتمعات ، وإصابتها فى مقاتلها ، هو ميدان الدين ، فإذا تحلّل الناس من الدّين ، وتقطعت بينهم وبينه الأسباب ، تحوّلوا إلى حيوانات ضارية ، يقتل بعضها بعضها ، بلا حساب من عقل أو ضمير ..

وهذا مايفعله اليهود فى كل مجتمع يعيشون فيه ..

لقد دخلت الدعوة المسيحية أوربّا ، فأحيت كثيراً من معالم الإنسانية التى

كانت قد افتقدتها زمناً طويلاً ، ولكن ما إن كادت هذه الصحوة الإنسانية تُسفر عن وجهها ، حتى تصدّى لها اليهود ، فدخل كثيرٌ منهم فى المسيحية كذباً ، واجتهد كثير منهم فى الدعوة لها ، زوراً وبهتاناً ، حتى إذا بلغ مكانةً بين المسيحيين ، لعب بالدين ، ومسخ تعاليمه ، وجاء إلى الناس بالمفتريات والأباطيل ، حتى كانت تلك الحروب التى اشتعلت فى أوربا بين العلم والدين ، وإذا العلم فى مواجهته للدّين يجد الطريق مهيأة له ، للنّيل منه ، بل والقضاء عليه ، فأجْلاه عن موطنه من القلوب التى كانت تجد فيما احتفظت به من دين ، شيئاً تمسك به ، وتحرص عليه !

ومن هنا كان هذا الإلحاد الذى طغى على المجتمع الغربى كله فى أوربا وأمريكا .. وإذا الحياة هناك حياة مادية طاغية ، تعصف بالناس عصفاً ، وتسوقهم سوقاً عنيفاً إلى هذا الصراع المرير ، الذى أشعل نار الحرب ، فشملت العالم كلّه ، ودارت دورتها مرتين فى أقل من ربع قرن من مطلع هذا القرن الذى نعيش فيه ــ القرن العشرين الميلادى ــ دون أن يكون هناك وازع من الدّين يحمى الناس من هذا الضَّياع المستولى عليهم ، ودون أن يكون لدعوة المسيح عليه السلام أى أثر فى إقامة الناس على الأمن والسلام اللذيْن جاء مبشراً بهما .

واليهود ، هم تجار هذه الحروب الدائرة فى كل صُقْع من هذا العالم ، يجنون منها مكاسبها ، ويجمعون من مخلّفات رمادها الشىء الكثير !

فهم ــ أولاً ــ يُشبعون نقمتهم من الإنسانية ، بهذه الأنهار المتدفقة من الدماء المُراقة من الناس ، على اختلاف أجناسهم وأديانهم !

وهم ــ ثانياً ــ يقطعون علائق المودة والإخاء بين الناس ، بهذه الحروب التى لا تنقطع أبداً .

وهم ــ ثالثاً ــ يشترون الذّمم والضمائر ، التى تَرُوجُ سوقُها أعظم رواج ،

فى هذه الأجواء العاصفة ، التى تشتمل على النـاس ، وتستولى على عقولهم وقلوبهم .. فلا ثمن لضمير - حيث لاضمير - ولا حساب لشرف ، حيث الموت راصد يخطف النفوس !

« لتجدنَّ أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهودَ » .. ففتش وراء كلّ شر يهبّ على المجتمعات الإنسانية من أى أفق ، تجد أن مطلعه اليهود .. قديماً وحديثاً .. اليوم ، وما بعد اليوم ..

ونـكاد نقف عند قوله تعالى : « لتجدَنَّ أشدَّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود » .. أما « الذين أشركوا » فهم من صُنع اليهود ، إذ هم الذين أفسَدوا على كثير من المؤمنين دينهم ، وساقوهم إلى الشرك ، كما أنهم - وقد سَبَقوا إلى الإيمان بالله ، بما أرسل الله إليهم من رسل ، وما أنزل عليهم من كتب - لم يفتحوا للمشركين طريقاً إلى الإيمان بالله ، ولم يدْعوهم إليه ، بل ضنّوا بما فى أيديهم ، وحجبوه عن كل عين .. بل وأكثر من هذا ، فإنهم زيّنوا الشرك للمشركين ، ويسَّروا لهم سبله ، بما أذاعوا فى المجتمعات الإنسانية من مفاسد وشرور .

وقوله تعالى: « ولتجدنّ أقربهم مودّةً للذيَن آمنوا الذين قالُوا إنانصارى » هو وجه مشرق من وجوه الدّين وما يفعله فى المتدينين ، يقابل هذا اوجه الـكريه الذى بدا من بعض أصحاب الدين ، وهم اليهود .. ففى دعوة المسيح التى يدين بهاالنصارى دعوة كريمة إلى التواضع ، والتسامح ، والإخاء .. مع الإنسانية كلها ،بل والتآلف مع الوجود كلّه ، ناطقه وصامته !

وإذا كانت المسيحية اليوم قد تغيرّ وجهها عند المتدينين بها ، فذلك من جناية اليهود عليها ، وعلى المتدينين بها .

والنصرانىّ المتمسك بنصرانيته ، الموالى لعقيدته . هو إنسان وديعٌ رقيق ، يتأسّى بالسيد المسيح فى وداعته ، ورقته ، ورحمته ، وإنسانيته .

وأىّ نصرانى يستمع إلى قولة المسيح : « أحبّوا أعداءكم ،باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مُبغضيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم » ــ أى نصرانى يستمع إلى تلك القولة الكريمة ، ثم لا يمسّ قلبَه شعاعة من نورها الألِق ، أو قبسة من نفحاتها المباركة ؟ولكن اليهود أدخلوا على المسيحية ما غيّر وجهها ، وأفسد طبيعتها . . وحسبنا أن نذكر هنا « بولس الرسول » وما كان له ــ هو اليهودى ــ من شأن فى هذا المقام!

وقوله سبحانه : « ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانًا » إشارة إلى أن علماء النصارى ، وأصحاب الرياسة والتوجيه الدينى فيهم، هم جماعة يمثلون الوجه المشرق المسيحية ، فى وداعتهم ، ولطفهم ، وحبهم للإنسانية .. على حين يقابل هذا : الربانيون والأحبار ، الذين هم قادة اليهود وأصحاب الرياسة الدينية عندهم ، والذين هم العقل المفكر واليد العاملة للمجتمع اليهودى ، وما يُرمَى به الناس من شر وبلاء بأيديهم !. .

فالقسيسون والرهبان .. رأس سليم ، معافًى مِن الأمراض الخبيثة .. يقوم على جسد المسيحية ، ويعمل على حمايته من الآفات ، التى يرمى بها اليهود فى كيانه . .

والربانيون والأحبار . . رأس فاسد ، تدور فيه عواصف الشر والبغى .. يقوم على جسد اليهود ، فيغذى بذور الشر والبغى الكامنة فيه !

وشتان بين رأس ورأس ، وجسد وجسد !

وقوله تعالى : « وأنهم لا يستكبرون » إشارة أخرى إلى ما بين رؤساء المسيحيين ورؤساء اليهود ، وبين المسيحيين وبين اليهود ،من تفاوت بعيد !

فهؤلاء ــ أى النصارى ــ لا يستكبرون ، ولا يعزلون أنفسهم عن المجتمع الإنسانى ، ولا يرون ما يراه اليهود فى أنفسهم من أنهم شعب الله المختار . .

ولهذا اختلط المسيحيون بالعالم كله ، ودعوا الناس جميعاً إلى ما معهم من دين الله ..

أما اليهود ، فقد عزلهم الكبر والغرور عن أن يختلطوا بالناس ، وأن يدعوهم إلى دين الله الذى معهم ..

وقوله تعالى : « وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينَهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » .. هو شاهد ثالث على الإنسانية المنطلقة التى تنشد الخير ، وتطلب الحق ، وأنها حين تستمع إلى كلمات الله ، تستمع إليها فى غير كبر أو استعلاء ، فإذا اهتدت إلى طريق الحق ، استقامت عليه ، ولزمته .. وإن لم تهتد ، توقفت وأمسكت فى رفق ولطف .

ولهذا دخل كثير من أتباع المسيح فى الإسلام عن اعتقاد صحيح ، وإيمان وثيق : « ترى أعينَهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » أى اجعلنا من الذين شهدوا النبى واستمعوا إليه وآمنوا به.

وليس كذلك شأن اليهود ، قد أعماهم التعصب ، وأصمّهم الكبر ، عن أن يستمعوا لكلمة حق ، أو يستجيبوا لدعوة رسول ..!

وقوله تعالى : « وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين » .. إنه لسان الحال ، لكل طالب حق ، حين تبدو له أماراته ، وتلوح لعينيه دلائله ، لا يتردد أبداً فى قبوله ، والأخذ به ، ليرشدَ وليكون فى عباد الله الصالحين ..

وقوله تعالى : « فأثابهم الله بما قالوا جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين » .. هو الجواب المسعد لهذا التساؤل المتعاطف مع الحق ، المستجيب له ..

فقد تلقاهم الله ــ سبحانه ــ بهذا اللطف الكريم ، وملأ أيديهم من هذا

الرزق الطيب .. « جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين » ..

وفى قوله تعالى : « بما قالوا » إشارة إلى أن قولهم هذا لم يكن مجرّدَ قول ، وإنما هو ترجمة عن إيمان صادق ، خفق به القلب ، واهتزت له المشاعر ، وفاضت به العيون ، دمعاً خاشعاً .. لو ظفرت الأرض بقطرة منه لاهتزت ورَبَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج .

وقوله تعالى : « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم » يطالعُ على الناس فى الموقف بصورة ذات دلالتين : دلالة يرى منها أولئك الذين كفروا وكذبوا بآيات الله ، ما أعد لهم من نكال وعذاب ، جزاء كفرهم وتكذيبهم بآيات الله ، ورسل الله ، وعداوتهم للمؤمنين بالله وبرسل الله .. والوجه البارز فى هذه الصورة هم اليهود ومِن ورائهم كل كافر ، وكل مكذب .. والدلالة الأخرى يراها المؤمنون الذين أضافهم الله فى رحابه ، وأنزلهم منازل إكرامه ، وعافاهم من هذا البلاء ، الذى يتقلب فيه الكافرون المكذبون — فيضاعَف بهذا نعيم المؤمنين ، وتردّد ألسنتهم قول الحق جل وعلا : « الحمد لله الذى أذهب عنا الحزَنَ إنَّ ربنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ » . (٣٥ : فاطر)

(الآيات : ٨٧ — ٨٨)

« يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ » (٨٨)

التفسير : هؤلاء المؤمنون الذين يستجيبون لله ولرسوله ، ويدخلون فى دين الله ، سيجدون ديناً سمحاً ، وشريعةً رفيقة رحيمة ، تأسو جراح الإنسانية ، وتَطِبّ لأدوائها ، وتقوم على أمنها وسلامتها ..

فهذه طيبات الحياة مما أحلّ الله ، هى مباحة للمؤمنين ، ينالون منها ما تبلغه أيديهم ، وتشتهيه أنفسهم ، غيرَ مضيّق عليهم فى شىء منها .. « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيباتِ من الرزق » (٣٢ : الأعراف) .

والله سبحانه ينهَى عباده أن يحرموا شيئاً مما أحل الله لهم .. إذ أن ذلك ــ وإن كان منهم مبالغة فى تأديب النفس بالحرمان ــ هو اجتراء على الله ، وتبديل فى شرعه ، وخروج على أحكامه .. وللإنسان أن يقتصد فى الطيّب الحلال ، أو أن يؤدب نفسه بالحرمان من بعض الطيبات ، ولكن على اعتقاد أن ذلك الذى حَرَم نفسه منه ، هو حلال مباح .. فذلك مما لا بأس به ، فهو أشبه شىء بالإمساك عن الطعام والشراب ، بالصيام .

وكما نهى الله المؤمنين عن الجوْر على أنفسهم بتحريم ما أحل الله لهم من طيبات ــ نهاهم عن متابعة أهواء النفس ، باستباحة ما حرم الله . فذلك عدوان على شريعة الله ، ونسخ لأحكامه .

والذى تغلبه نفسه ، فتحمله على ارتكاب مأثم من المآثم ، وهو على علم من أنّ ما يفعله هو منكر ، حرّمه الله على المؤمنين ، ورصد لمقترفه العقاب الأليم ــ هذا الإنسان هو خير من ذلك الذى يتأوّل فى شرع الله ، فيحل الحرام ، ويفتح له من التأويل باباً يُدخله منه إلى ما أحل الله من طيبات .

إن الأول مؤمن عاصٍ ، يعلم من أمر نفسه أنه منحرف عن الطريق القويم ، خارج على أوامر الله ونواهيه .. وهذا العِلْم من شأنه أن يُزعج مرتكبَ المنكر ، ويَنْخَس ضميره ، فلا يستمرىء هذا المنكر ، ولا يستسيغه على إطلاقه .. وقد

يجىء اليوم الذى يرجع فيه إلى الله ، وينتهى عما نهى الله عنه ..

أما الآخر ـ وقد تأول للحرام ، وأدخله مداخل الحلال ـ فإنه لن يجد لهذا الحرام مرارة فى نفسه ، ولا وخزاً فى ضميره .. ومن هنا فلن تكون له إلى الله رجعة عن هذا المنكر ، الذى خادع به نفسه ، وخَدَع به عقله، وخالف ربه ، وأفسدو وجدانه ومشاعره .

« يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لايحبّ المعتدين » .. والمعتدون هم من يخرجون على شريعة الله ، بتحريم ما أحل الله من طيبات ، وإباحة ماحرم من خبائثَ ومنكرات.

وقوله تعالى : « وكلو مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون» هو دعوة إلى الإقبال على الحياة، وترك الزهد فيها ، والعزوف عنها.. فما قام الإنسان خليفةً لله على هذه الأرض ، إلا ليعْمُرَها ، ويفتح مغالقها ، ويستخرج الطيب الكريم منها ، ثم يكون له من هذا الثمر الذى غرسه ماينعم به ، من رزق الله الذى بثّه فى كل مكان فى هذه الدنيا .. فى أرضها وسمائها ، وبحرها وجوّها ..

وقوله تعالى : « واتّقوا الله » هو الميزان الذى تنضبط عليه تصرفات المؤمنين ، فيما بين أيديهم من رزق ، وفيما حصّلوه من ثمرات سعيهم وجِدّهم.. فما دام معهم هذا الميزان ـ وهو تقوى الله ـ ومادامت تصرفاتهم قائمة على هذا الميزان ، فإنه لاجناح عليهم فى أى شىء يعملونه أو يَطْعَمونه .

وفى قوله تعالى : « الذى أنتم به مؤمنون » هو تذكير للمؤمنين ، بالله الذى آمنوا به ، واتقوه ، وجعلوا تقواه وخشيته مِلاك أمرهم فيما يأخذون أو يدعون من أمور ..

فالتقوى إذا لم تسكن إلى قلب مؤمن بالله ، ذاكر له ، كانت عرضة لأن يهتز ميزانها إذا طلعت عليها أهواء النفس ، ونزغات الشيطان .. وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة فى قوله تعالى : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين » (٩٣ : المائدة) فقد رفع الله عن المؤمنين الحرج فى كل ما يطعمون ، بعد أن شدّهم إليه بالتقوى ، ثم ربط التقوى بالإيمان ، والعمل الصالح ، والإحسان .

(الآية : ٨٩)

« لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ وَلٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (٨٩)

التفسير : مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هو أن ما قبلها كان بيانا لحدود الله ، وأن فى هذه الحدود سَعَةً تسمح للإنسان أن يتحرك فيها كيف شاء ، غير مُضيَّق عليه فى شىء ، مادام قائما على تقوى الله . . هنالك يجد المؤمن دينا سمحا ، وشريعة ميسّرة ، تفتح له أبواب العمل فى كل مجال ، وتملأ يديه من كل خير . .

وهنا فى هذه الآية باب من أبواب اليسر والسماحة فى دين الله ، الذى يؤمن به المؤمنون . .

فما أكثر مايجرى ذكر الله على ألسنة المؤمنين ، وما أكثر مايستحضرونه فى كل أمرٍ يعرض لهم ، ثم ما أكثر مايزكّون هذه الأمور بالقَسَم عليها باسم الله ، دون أن يكون ذلك بقصد الحِلف لإجازتها ، وعقد اليمين بها . .

فهناك فرق بين القَسَم ، والحلف . . إذ القسم لتعظيم الشىء وتزكيته ، ورفع قدره ، وقد أقسم الله سبحانه ببعض مخلوقاته . . من شمس ، وقمر ، ونجم ، وليلٍ ، وضحى .

أما الحِلف فهو إقرار يشهد به الإنسان على نفسه ، أو غيره . وقد جعل اللهَ كفيلاً عليه ، بالحِلف به . . ومن هنا كان لزاماً عليه ـ ديانةً ـ أن يحترم هذه الكفالة ، ويقوم على الوفاء بما التزم به ، وإلا أَثِمَ ، بجرأته على الله ، والاستخفاف بكفالته له ، والله تعالى يقول : « وأوْفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولاتنقضوا الأيْمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ماتفعلون » (٩١ : النحل) .

وكان من رحمة الله بعباده ، ورفقه بهم ، وإسباغ نعمه عليهم ، فى تعاملهم مع اسمه الكريم ـ ما حملته هذه الآية الكريمة من لطف ، ورحمة ، وحكمة :

فأولاً : قد عفا الله سبحانه عن الأيْمان التى لايُقصد بها الحِلف ، والتى تجرى على الألسنة خارجةً عن هذا القصد . . « لايؤخذكم الله باللغو فى أيْمانكم » وتسمية هذه الأيمان لغواً ، لأنّها لاتُحِلُّ حراماً ، ولا تحرّم حلالاً ، ولاتجلب خيراً ، ولا تدفع ضُرًّا . .

والأيْمان جمع يمين ، وقد سُمّى اليمين يميناً ، لأنه مشتق من اليُمْن والبركة ، إذ كان الذى يُقسَم به ـــ عادة ـــ اسم كريم عزيز ، عند من أقسم به ؟

وهو عند المؤمنين اسمُ الله جلّ وعلا . . فما أكرم هذا الاسم الكريم ، وما أيمنه .

وثانياً : الأيْمان التى يُراد بها الحلف ، وينعقد بها أمر من الأمور ، بين الإنسان ونفسه ، أو بينه وبين غيره ـ هذه الأيمان كما قلنا ـ هى أيْمان وَثّقت عهداً ، وجعلت الله ـ سبحانه ـ شاهداً على هذا العهد وكفيلاً له .. فإذا حنَث الحالف بيمين الله هنا ، فإنه يكون قد اقترف ذنباً عظيما فى حق الله سبحانه وتعالى ، وفى حقّ الناس ، بما استباح من حقوقهم ، بنقض العهد معهم .

أما حقّ الله المتعلق بالحانث فى يمينه ، فقد جُعل فيه للحانث ما يكفّر به ذنْبَهَ ، ويغسل به حَوْبته، وهو أن يطعم عشرة مساكين ، من أوسط ما يُطعَمُ هو وأهله ، أى مما يَغْلب أن يكون طعامَهم ، فى حياتهم ، فى غير أيام السَّعة أو الضيق .. فإن لم يكن طعامٌ ، فكسوة عشرة مساكين ، مقدرةً هذه الكسوة بحال الحانث فى يمينه . . فإن لم يكن طعام أو كسوة ، فتحرير رقبة ، أى عتق رقبة من الرّق . . فإن كان الحانث مُعسراً ، لا يستطيع أن يطعم أو يكسوَ أو يعتق ، فصيام ثلاثة أيام .

وقد اختُلف فى تتابع هذه الأيام ، وفى إفرادها ، فرأى بعضهم الأخذ بما أطلقه القرآن ، حيث لم يقيد الصوم بالتتابع ، ولا حجة عنده فى قراءة من قرأ «ثلاثة أيام متتابعات» .. لأن الإطلاق هنا والتقييد فى قوله تعالى: «فصيام شهرين متتابعين» يقوّى الأخذ بمنطوق الآية ، وعدم التعويل على هذه القراءة التى لم تتأكد بالتواتر . . على حين يرى البعض الأخذ بالقراءة « ثلاثة أيام متتابعات» حيث وجدت مثبتة فى مصحف السيدة عائشة رضى الله عنها ، فيوجب التتابعَ فى الصوم .

ويقوّى هذا الرأى عندنا : أن صيام ثلاثة الأيام هذه فى تتابعها ، هى التى تَعْدِل إطعامَ عشرة مساكين ، أو كسوتهم ، مع أن إطعام مسكين واحد ،

يُجزى عن إفطار أى يوم من أيام رمضان لمن لايقدر على الصوم ، كما يقول الله تعالى : « وعلى الذين يُطيقونه فدية طعامُ مسكين » فتتابع أيام الصوم هو الذى يجعل صيام الأيام الثلاثة على هذا الوجه ، موازنا لإطعام عشرة مساكين أو كسوتهم .

والتكفير عن الحِنْث فى اليمين يجزى بأىٍّ من هذه الكفارات الثلاث : إطعام عشرة مساكين ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة . . فمن كفّر بأىٍّ منها أجزأه ذلك ، دون نظر إلى ترتيب فيها ، حيث كان الحكم بالتخيير بينها بحرف العطف « أو » . . ولا يُصار إلى الصيام إلا عند فقد القدرة على الوفاء بالإطعام ، أو الكسوة ، أو تحرير الرقبة .

وقد اختلف فى صِفة الرقبة التى تُحرّر هنا ، وهل يلزم أن تكون مؤمنة ، أم أن تحرير أى رقبة أعتقها الحانث يُجزىء فى التكفير عن اليمين ؟

يرى بعض الفقهاء أن يكون العتق لرقبة مؤمنة ، وكونها لم توصف هنا بأنها مؤمنة ، ولم يُجعل الإيمان شرطا لعِتقها ــ إحالةً على ماوُصفت به فى قوله تعالى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً ومن قتل خطأً فتحرير رقبة مؤمنة » (٩٢ : النساء) .

ونرى ــ كما يرى بعض الفقهاء ــ الوقوفَ عند منطوق الآية ، والأخذ بالحكم على إطلاقه ، دون قيد للرقبة بأنها مؤمنة أو غير مؤمنة .

ففى فكّ الرقبة وعتقها إحياء لنفس ميتةً ، أيًّا كانت تلك النفس ، مؤمنة أو كافرة . . وإحياء النفس ــ أى نفسٍ ــ شىء عظيم ، لايحتاج إلى وصفٍ آخر يرفعه ويُعلى من قدره . .

وكيف والله سبحانه وتعالى يقول : « ومن أحياها فكأنما أحيا النّاس جميعاً » ؟ (٣٢ : المائدة) .

وأما قيد الرقبة بوصف الإيمان فى دية القتل الخطأ ، فهو لموافقة النفس المؤمنة التى قُتلت خطأ . . « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلّمة إلى أهله إلاّ أن يصّدّقوا فإن كان من قوم عدوّ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبةٍ مؤمنة . . (٩٢ : النساء) . . وذلك مما يوجبه القصاص . . النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسنّ بالسنّ . . وقياساً على هذا يكون من دِية المؤمن فى القتل الخطأ إحياء نفس مؤمنة . . أما هنا فهو إحياء لنفسٍ أيّاً كانت هذه النفس ، ففى إحيائها كفارة لأى ذنب وإن عظم ، إنه إحياء للإنسانية كلها . . ومع هذا ، فإن المسلم حين ينظر فى أى الرقاب يعتق ، فإنه يتجه أولَ مايتجه إلى الرقبة المؤمنة ، امتثالاً لقول الله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ولاشك أن الرقبة المؤمنة أحب إلى مالكها من الرقبة غير المؤمنة . . وقد روى مُسلم أن أبا ذَر رضى الله عنه ، سأل النبى صلى الله عليه وسلم : أى الرقاب أفضل ؟

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أنْفَسُها عند أهلها وأكثرها ثمناً » . . والرقبة المؤمنة أنفس عند المسلم وأكثر ثمنا .

وفى قوله تعالى : « فكفارته » إشارة إلى اليمين بلفظ المفرد ، لأن هذه الكفارة هى كفّارة عن اليمين الواحد . . فإذا حَنِث الإنسان فى أكثر من يمين كان لكل يمين كفارته ، على هذا النحو . . وهذا هو السرّ فى إفراد الضمير . . وكان النظم يقضى بأن يجىء هكذا : « فكفارتها » إذ كان الحديث عن الأيمان . .

وقوله تعالى : « واحفظوا أيمانكم » إشارةٌ إلى أن هذه الكفارة هى دواء الداء ، جلبه الإنسان إلى نفسه ، وكان أحرى به أن يتجنب هذا الداء ، وأن يظل سليمًا معافًى . . إذ أن الوقاية دائمًا خير من العلاج . . أما إذا كان

الحلف على منكر ، فإن الحنث فيه واجب ، ولا كفارة فيه ، كمن حلف أن يشرب خمراً . . مثلاً ، فعليه أن يحنث فى يمينه ، ولا كفّارة عليه .

أما من حلف على غير منكر ، ثم بان له أن الحنث فى اليمين يترتب عليه إلحاق ضرر به أو بغيره ، فإن الحنث خير له من البرّ بيمينه ، ولكن عليه كفارة الحنث . . كمن حلف على ألا يسافر إلى جهة ما ، ثم بدا له أن فى السفر خيراً يعود عليه منه ، وكمن حلف ألا يتعامل فى تجارة مع فلان . . ثم ظهر له أن هذا يعود عليه أو عليهما بالخسارة والضرر ـ فالحنث هنا خير من البرّ باليمين ، وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حَلَفَ على يمين فرأى غيرها خيراً منها ، فليأت الذى هو خير ، وليكفر عن يمينه » .

أما حقوق الناس فيما ترتب على الحنث باليمين ، فلن تشفع لها هذه الكفارة ، ولن تدفع عن الحانث ما نجم عن هذا الحِنْثِ من ضرر وقع على الغير بسببه . فذلك له حسابه عند الله ، وله العقاب الراصد له .

وقوله تعالى : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » إشارة إلى ما تحمل آيات الله إلى عباده ، من رحمة ، ولطف ، إذ تقيلهم من عَثَراتهم ، وتقيمهم على طريقه القويم . . وهذا من شأنه أن يستقبله العباد بالحمد والشكر لله رب العالمين .

الآيات : (٩٠ ـ ٩٢)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُمْ مُنتَهُونَ (٩١)

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ » (٩٢)

التفسير : الخمر : ما خامر العقل ، وستره ، كما يستر الخمار وجه المرأة . . فكلّ ما ستر العقل ، وحجب عنه الرؤية الصحيحة التى يرى بها الأشياء ، ويتصور حقائقها ــ هو خمرٌ ، سواء أكان شراباً أو طعاماً ، وسنعرض لهذا ، بعد قليل .

والميسر : هو القمار ، والمخاطرة بالمال .

والأنصاب : هى حجارة كانت تُنصب حول الأصنام ، لتُذبح عليها الذبائح ، تقربا إليها .

والأزلام : جمع زَلَم ، وهى قداح الميسر ، يُلعب بها على الذبائح ، مقامرةً .

وقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا » هو خطاب عام للمؤمنين ، واستدعاء لما فى قلوبهم من إيمان ، ليكون هذا الإيمان بمحضر من تلك المنكرات التى يُدْعون إلى اجتنابها . . إذ لا يجتمع الإيمان وهذه المنكرات فى قلب مؤمن . . حيث أن من شأن الإيمان أن يقيم فى كيان المؤمن وازعاً يزع كل منكر ، ويدفع كل ضلال .

وقوله تعالى : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان » هو عرض لبعض المنكرات التى تغتال إيمان المؤمن ، وتقطع الصلة بينه وبين ربّه .. وهى : الخمر ، والميسر ، والأنصاب ، والأزلام .. وقد وصفها الله سبحانه بصفتين : أنها رجس .. والرجس ما تعافه النفس بفطرتها وتتقذّره بطبيعتها ، من غير حاجة إلى من يلفتها إليه ، ويحذّرها منه ، إذ كان أمره من القذارة والفساد بحيث لا يخفى إلاّ على من فسدت طبيعته ، وشاهت فطرته . .

والصفة الأخرى لهذه المنكرات : أنها من عمل الشيطان . . وإضافة

هذه المنكرات إلى الشيطان يجعلها منكراً إلى منكرٍ . . فالرجس فى ذاته، على أى وجه ظهر ، ومن أى أفق طلع ، هو شر وبلاء على من يُقْبل عليه ويتعامل معه ، فإذا كان هذا الرجس هو من عمل الشيطان ، ومن صنعة يده ، ومن الطعام الممدود على مائدته ، لم يكن فيه مَظِنّة لخير أبداً . . إذ يكفى الخيرَ شناعةً وسوءاً أن يجىء من قِبَل الشيطان ، وعلى يده . . فكيف إذا كان ما يحمله الشيطان ويدعو إليه هو « الرجس » ؟

أرأيتَ إلى طعام طيب هنىء تحمله إلى آكليه يد إنسان رَعَى الُجذام وجْهه وقضم يديه ؟ . . أفتجد نفس لهذا الطعام مساغاً ، أو يمدّ إليه إنسان يداً ولو هلك جوعاً ؟ فكيف إذا كان ما يحمله هذا الإنسان المجذوم طعاماً فاسداً متعفناً تعافه الكلاب ؟ ذلك أقرب شىء شبهاً إلى الرجس الذى يكون من عمل الشيطان وصنعته .

فالرجس ـ وتلك صفته من السوء ـ فى غير حاجه إلى أمرٍ بحظرٍ يُضرب عليه ، ويحال بين الناس وبينه .

والرجس الذى هو من عمل الشيطان ، أمره أظهر وأبين من أن يُنبَّه على اجتنابه ، إشارة أو عبارة . . ومع هـذا فإن بعض الناس تضيع إنسانيتهم ، وتنطمس معالم فطرتهم ، وتفسد طبيعتهم ، فلا تزكُمُ أنوفَهم رائحةٌ كريهة ، ولا تلفظ أفواهُهم طعاماً خبيثاً .

ولهذا كان من فضـل الله على الناس ورحمته بهم ، أن بعث فيهم رسله مبشرين ومنذرين ، ليصلحوا ما فسد منهم ، ويصححوا عمل أجهزتهم التى عطبت أو فسدت .

ومن أجل هذا جاء قوله تعالى هنا « فاجتنبوه » تعقيباً على ما كُشف من أمر الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، ووصفها بأنها رجس ، وأنها من

عمل الشيطان . . فهذا الأمر باجتناب هذه المنكرات ، هو فى الواقع توكيد لما تحمل فى أوصافها من أكثر من نهى ضِمْنىّ باجتنابها . وذلك زيادةُ عناية بالإنسان ، وحراسةٌ مضاعفةٌ له من الموبقات والمهلكات . . وضمير الغائب فى « فاجتنبوه » يعود إلى الرجس الذى جمع هذه المنكرات كلها فى كيانه .

أما الأنصاب ـ وإن كان الإسلام قد حطم الأصنام التى كانت مشرفة عليها ـ ، فإن الإبقاء على عادة الذبح على هذه النُّصُب ، مما يثير غُبار الشرك ، ويحرّك ريح الوثنية الكريهة . . فضلاً عن أن هذه الذبائح التى تُذبح على النصب كانت مجالاً للمقامرة ، إذ تقتسم لحومها بين المقامرين عليها ، فيربح من يربح ، ويخسر من يخسر .

وفى قوله تعالى : « لعلكم تفلحون » ترغيب فى الاستجابة لهذا الأمر ، الذى فى الامتثال له مدخل إلى الفَلاَح والسلامة ، وإنه لا فلاح ولا سلامة مع صحبة هذه المنكرات ، والولاء لها .

وقوله تعالى : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوةَ وَالْبَغْضَاء فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَة » هو بيان لما يبغيه الشيطان من وراء هذه المنكرات التى عرضها للناس ، فى معارض مغوياته ، ومفسداته . . إنه يريد أن يوقع العداوة والبغضاء بين الناس فى مواطن الخمر والميسر ، حيث يفقد الإنسان عقله بالخمر ، فلا يُدارى قَوْلةَ سوء ، ولا يُمسك كلمة شر ، وحيث يستنزف الميسر أموال الناس ، ويريهم أن بعضهم أكل بعضاً ، وهم ـ فى الواقع ـ مأكولون جميعاً ، فيقع بينهم الشر ، وتشتعل نار العداوة والبغضاء . . وبهذا تتمزق وحدة المجتمع ، ويصبح الإنسان فى مجتمعه إما طالباً أو مطلوباً ، لا يبيت على أمن ، ولا يستقرّ على حال . .

ثم إن هذه المنكرات من خمر وميسر وأنصاب وأزلام ، مع ما تزرع

بين الناس من أشواك العداوة والبغضاء . . تصدّ عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، حيث تُلْهى أصحابها ، وتمسك بهم فى مجالها ، فلا يخطر ببال أحدهم ذكرُ الله ، وقد استولى عليه هذا الرجس ، ولا يجيب داعى الله إلى الصلاة ، إن هو وجد أذناً تستمع إلى هذا الداعى .

وقوله تعالى : « فهل أنتم منتهون » يحمل تحريضاً قوياً على الانخلاع عن هذه المنكرات ، ومجاهدة النفس فى اجتنابها ، ومغالبة الأهواء الداعية إليها . .

فهذه المنكرات لها سلطانها المتسلط على النفوس ، بما فيها من مغويات تدعو الإنسان إلى التحلل من سلطان العقل ، ومايدعو إليه من وقار ، وجدّ ، لتحمله على أجنحة الخلاعة والعبث والمجون . . ومن وراء ذلك شيطان يستحثّ أهواء النفس ، ويثير غرائزها الحيوانية الخسيسة . . فإذا لم يأخذ الإنسان حِذْره ويتجرد لحرب هذه المغويات المتسلطة عليه ، ويلقاها بإيمان وثيق وعزم ثابت ، غلبته على أمره ، وأخذته من مِقْوَده ، وأقامته على هذا المرعى الوبيل ، ليطعَمَ منه ، ويعيش عليه . .

ففى قوله تعالى « فهل أنتم منتهون » استفهام مطلوبٌ الجوابَ عليه ، ولن يُعْطِىَ الجوابَ الذى ينبغى أن يجيب به المؤمن إلاَّ من نظر إلى نفسه ، وإلى موقفه من ربه الذى يدعوه إليه ، فإن استجاب لله ، وانتهى عن هذه المنكرات واجتنبها ، كان له أن يلقى الله بوجهه ، وأن يدخل فى عباده المؤمنين ، وإلا اختطفه الشيطان ، وألقى به بين ضحاياه وصرعاه !

قوله تعالى : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا » هو دعوة مجدّدة إلى المؤمنين ، إلى طاعة الله ورسوله ، والحَذَر من هذا الرجس ، الذى بين يدى الشيطان . . يدعوهم إليه ، ويغريهم به . .

وليس للمؤمنين بعد هذا البلاغ بلاغ ، فإن تولَّوْا ، ولم يستجيبوا لأمر الله، فلهم مااختاروا ، وليس لأحد سلطان عليهم إلا وازع ضمائرهم .. « فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين » . . وقد بلّغ الرسول هذا البلاغ المبين ، الذى تلقاه من ربّه ، « فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضلّ عليها » (١٠٨ : يونس) .

الخمر .. مادتها ، وصفتها ، وحكم شاربها

ونودّ أن نشير هنا إلى أمرين .

أولهما : الخمر . . ماهى ؟

وثانيهما : الخمر . . ومكانها بين المحرمات . .

أما الخمر ، فأمرها معروف ، ولم تكن بنا حاجة إلى الكشف عن وجهها، لولا أن كَثُر كلام الفقهاء فيها ، وفى المادة التى تُصنع منها ، والطريقة التى تصنع بها ، حتى تكون خمراً . .

أما المادة التى تصنع منها الخمر ، فقد اختلف فيها الفقهاء اختلافاً بيناً ، فوقف بها بعضهم عند التمر والعنب ، مستدلّين على هذا بما يُروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الخمر من هاتين الشجرتين » وأشار إلى النخلة والعنبة . .

بل لقد ذهب بعضهم إلى أن الخمر ما كان من العنب وحده ، مستدلاً على ذلك بقوله تعالى : « إنى أرانى أعصر خمراً » ومؤولا الحديث : « الخمر من هاتين الشجرتين » على أن المراد به شجرة العنب .. كما فى قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » والمراد أحد البحرين .

وواضح أن هذا التأويل فاسد ، لايُلتفت إليه ، ولا يوقف عنده .

أما الوقوف بالخمر عندما أُخذ من العنب والنخل ، فهو محمول على قوله تعالى : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَراً ورزقاً حسناً » (٦٧ : النحل) . . ولكن الحديث، وإن أشار إلى أن الخمر من النخل والعنب ، فإنه لم يَحصرْه فيهما ، وكذلك الآية الكريمة .. وإن دل ذلك على أن أكثر ما كان معروفاً متداولاً عند العرب من خمر، هو ما كان من هاتين الشجرتين . إذ كانت النخيل والأعناب أكثرَ أشجار الفواكه ، وأهمّها عند العرب ، ولذلك كان وصف الجنات الدنيوية والأخروية ، أبرز ألوانه النخيل والأعناب كقوله تعالى : « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنّتَيْن من أعناب وحففناهما بنخْلٍ » (٣٢ : الكهف) . .

وقوله سبحانه : « أيودّ أحدُكم أن تكون له جنّةٌ من نخيلٍ وأعنابٍ تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كلّ الثمرات وأصابه الكِبَر وله ذريةٌ ضعفاء فأصابها إعصارٌ فيه نار فاحترقت » (٢٤٤ : البقرة) . . وقوله : « وقَالُوا لن نؤمن لك حتى تَفْجُر لنَا من الأرض ينبوعاً * أو تكونَ لك جَنّةٌ من نخيلٍ وعِنَبٍ فتفجّر الأنْهار خلالها تفجيراً » (٩٠ ـ ٩١ : الإسراء) .

وإشارة النبي صلى الله عليه وسلم إلى النخل والعنب ، تعنى أنه لم يكن من بين الأشجار القائمة بين يديه ، والماثلة أمام عينيه ، ما يُتخذ منه الخمر غير هاتين الشجرتين .. يومئذ ..

ولهذا ، فإنه صلى الله عليه وسلم فى موقف آخر ، لم يكن بين يديه أشجار ، قال : « إن من العِنَبَ خمراً ، وإنّ من التمر خمراً ، وإن من العسل خمراً ، وإن البُرّ خمراً ، وإنّ من الشعير خمراً » . . وحصْرُ النبي صلى الله عليه وسلم الخمرَ فيما صُنع من هذه الأشياء ، هو تقرير للواقع ، ولو كان هناك مواد أخرى تتخذ منها العرب الخمرَ لذَكرها .

قال الخطابىّ فى تعليقه على هذا الحديث : « ليس معناه أن الخمر لا يكون إلا من هذه الأشياء الخمسة بأعيانها ، وإنما جرَى ذِكرها خصوصاً ، لكونها معهودة فى ذلك الزمان ، فكل ما كان فى معناها . . من ذُرَة ، وسُلْت[1] ، وابّ ثمرة ، وعصارة شجرة ، فحكمه حكمها » .

وفى صحيح مسلم عن أنس قال : « لقد أنزل الله الآية التى حرّم فيها الخمر ، وما بالمدينة شراب يُشرب إلاّ من تمر » .

وفى صحيح البخارى عن أنس قال : « حرمت علينا الخمر حين حُرّمت وما نجد خمرَ الأعناب إلا قليلا ، وعامة خمرنا البُسرْ والتمر »

وعلى هذا ، فمادّة الخمر لا معتبرَ لها فى تحريمه ، وإنما المعتبر فى أية مادة هنا هو لَبُوسُها لباسَ الخمر . أى أنها تسكر من يتعاطاها ، وينال منها . . فكل ما أسكر فهو خمر ، لأنه يخامر العقل ، ويستره .

وفى الحديث : « إن الخمر من العصير ، والزبيب ، والتمر ، والحنطة ، والشعير ، والذرة ، وإنى أنهاكم عن كل مسكر » (مختصر سنن أبى داود : للمنذرى حديث ٣٣٢) . .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال وهو يخطب : « نزل تحريم الخمر يوم نزل ، وهى من خمسة أشياء : من العنب ، والتمر ، والعسلْ ، والحنطة ، والشعير . . والخمر ، ماخامر العقل . . » .

وقد اختلف الفقهاء فى صَنْعة الخمر كما اختلفوا فى مادتها ، فقال بعضهم : الخمر ما خُمِّر ، دونْ أن تمسّه النار ، وأن ماطبخ بالنار فليس خمراً . . كذلك اختلفوا فى « النبيذ » وهو ماينقع ، فقال بعضهم : إذا تخمر وغلا ورمى بالزبد فهو خمر ، قليله وكثيره حرام ، وإذا لم يتخمر ويرمى بالزّبد ، فإذا أسكر فهو مكروه ، وإذا لم يسكر فلا شىء فيه .

---

(١) السلت : الشعير .

ومن هذه المقولات قول أبى حنيفة فى النبيذ : « الأنبذة كلها حلال إلا أربعة أشياء : الخمر ، والمطبوخ إذا لم يذهب ثلثاه ويبقى ثلثه ، ونقيع التمر فإنه السَّكَرُ، ونقيع الزبيب » .. ويعلق ابن حزم على هذا بقوله : « ولا خلاف عن أبى حنيفة فى أن نقيع « الدوشات[1] » عنده حلال وإن أسكر ، وكذلك نقيع الرُّبِّ ، وإن أسكر » .

وقال أبو يوسف ـ صاحب أبى حنيفة ـ : كل شراب من الأنبذة يزداد جودةً على الترك فهو مكروه ، ولا أجيز بيعه ، ووقته عشرة أيام ، فإذا بقى أكثر من عشرة أيام فهو مكروه ، فإن كان فى عشرة أيام فأقل ، فلا بأس . »

وقال محمد بن الحسن ـ صاحب أبى حنيفة ـ : ما أسكر كثيره مما عدا الخمر أكرهه ولا أحرمه .

« فإن صلّى إنسان وفى ثوبه منه أكثر من قدر الدرهم البغلىّ بطلت صلاته وأعادها أبداً » ويعلّق ابن حزم على هذا بقوله : فاعجبوا لهذه السخافات ، لئن كانت تعاد منه الصلاة أبداً ، فهو نجس ، فكيف يبيح شربَ النجس ، ولئن كان حلالاً فلم تعاد الصلاة من الحلال ؟ ونعوذ بالله من الخذلان !!

ثم يعلق ابن حزم على هذه الآراء جميعها ـ رأى أبى حنيفة وصاحبيه ، فيقول : « فأول فساد هذه الأقوال أنها كلها أقوال ليس فى القرآن شىء يوافقها ولا شىء من السنن ، ولا فى شىء من الروايات الضعيفة ، ولا عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ، ولا عن أحد من التابعين ولا عن أحد من خلق الله ، قبلَ أبى حنيفة ، ولا أحد قبل أبى يوسف فى تحديده عشرة أيام . .

« فيالِعِظَم مصيبة هؤلاء القوم فى أنفسهم ، إذ يشرّعون الشرائع ، فى الإيجاب

---

(١) الدوشات : نقيع من الشعير ، والرب : خثارة كل ثمرة بعد اعتصارها .

والتحريم والتحليل ، من ذوات أنفسهم ، ثم بأسخف قول وأبعده عن المعقول »[١] .

وقد تتبع ابن حزم جميع الأدلة والأسانيد التي استند إليها أبو حنيفة وصاحباه في رأيهم في النبيذ ، وفندها ، فرد ضعيف أخبارها ، أو تأولها على وجهها الذي يَدْعَم وجهة نظره ، في دفع هذه المقولات ، ودحضها .

وفي هذا الجدل بين أصحاب تلك الآراء المختلفة ، متعة ذهنية ، ورياضة عقلية ،لاشك فيها،ولكنها متعة تُذهل الإنسان كثيراً عن الحقيقة التي بين يديه، وتفتح لهوى القلوب المريضة طريقاً إلى الجمع بين المتناقضات من الآراء ، فيأخذ من كل رأيٍ ما يرضيه ويوافق هواه ، فإذا دينه رُقع مختلفة الألوان.. رقعة من هنا ، ورقعة من هناك ، وكلها ـ حسب رأيه ـ من الدين ومن مقولات الأئمة الأعلام في الشريعة ! !

وفي هذه القضية بالذات ، أخذ قوم بهذا المذهب الذي يجمع بين متناقضات الآراء ، وينتبع ما يرضي هواه منها ،دون نظر إلى حلال أو حرام .. وفي هذا يقول الشاعر متهكما بهذا التضارب في شأن الخمر ، التي ليس فيها إلا قولا واحداً، هو أنها الخمر ، وأنها الحرام،قليلها وكثيرها سواء ..

يقول الشاعر متهكما .

أحلّ العراقيّ النبيذَ وشربَهُ   وقال الحرامان:المُدامةُ والسَّكَرْ[٢]
وقال الشآمي النبيذ محرَّم   فحلت لنا من بين قوليهما الخمر

ويعني الشاعر بهذا أن أبا حنيفة ومن تابعه (وهو عراقيّ) قد قال في

---

(١) المحلى : لابن حزم ـ الجزء السابع . ص ٥٦٢ وما بعدها .

(٢) المدامة هي الخمر ، أي ماخمر من العنب وحده . على ما ذهب إليه بعض أصحاب أبي حنيفة ، والسكر : نقيع التمر .

فى النبيذ قولا يُخرجه به من الخمر ، ويرفع عنه الحرمة المضروبة على الخمر ، وأن أقصى ما يكون على شاربه أنه أتى فعلا مكروهاً إذا شرب حتى سكر .

أما الحرامان عند أبى حنيفة ومن تابعه فهما المدامة (أى الخمر المصنوعة من العنب) والسَّكر ، وهى الخمر المصنوعة من التمر ، فما خُمِّر من تمر وعنب فهو الخمر ، وهو الحرام قليله وكثيره ، أسكر أو لم يسكر ، أما ما خمِّر من غير العنب والتمر ، فهو نبيذ ـ وقد عرفنا رأيه فيه .

وأما الشآمى الذى يشير إليه الشاعر ، فهو مالك وأصحابه ، ومالك يحرّم النبيذ من أى شىء كان ، إذا أسكر كثيره فقليله حرام ، وهى الخمر التى حرمها الله ..

والشاعر يرى بين يديه رأيين مختلفين فى النبيذ .. وكل رأى هو قولٌ لإمام من أئمة الشريعة .. ولا على الشاعر أن يأخذ برأى أبى حنيفة فى النبيذ !!

وهذه كلها مماحكات ، تُفْسد على المرء رأيه ، وتُشرِّد مجتمع عزيمته ، وتقيمه من هذا المنكر بين الشك واليقين .. إذ ينظر فيرى وجوهاً من الخلاف فى أمرٍ لاخلاف فى أنه منكر ، وقد جاء القرآن الكريم صريحاً قاطعاً بتحريمه : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » وجاءت السنة المطهرة تُحكِم هذا الحكم المحكَم ، فيقول النبى الكريم : « كل مخمِّرٍ خمر ، وكلُّ مسكرٍ حرام ، ومن شَرِبَ مُسْكراً بُخِستْ[1] صلاته أربعين صباحاً .. فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد الرابعةَ كان حقاً على الله أن يُسقيه من طينةِ الخبالِ ، قِيل وما طينَةُ الخبالِ ؟ قال : صديد أهل النار »

---

(١) ومعنى بخست صلاته : أى كانت ناقصة ، ولم يؤت أجرها كاملا .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أسكر كثيره فقليله حرام » .

فكيف يُزَاغُ عن هذا الحكم القاطع فى الخمر وحرمتها ، أيًّا كان الوجه الذى تظهر به ، وأيًّا كان لونها وطعمها ؟

إن كل ما أسكر فهو خمر ، قليله وكثيره حرام .. هذا هو حكم الله ، والحلال بيّن والحرام بيّن.. والمرء مؤتمن على دينه ، فما عَرَف أنه مؤثّر على عقله مِن شرابٍ أو طعام ، كان حراماً عليه أن يذوق قطرة منه ، أو يَطْعَم أقل القليل منه .

هذا هو فيصل الأمر فى الخمر .. وإذن فلا قول بعد هذا ، ولا بحث فى مادتها ، ولونها .

فالعلة فى تحريم الخمر هى الإسكار والتأثير على العقل ، تأثيراً يغيّر طبيعته ، ويفقده توازنه ، والعلة تدور مع المعلول وجوداً وعدماً .. وليست علة تحريم الخمر قلتها وكثرتها ، وإنما علتها أنها الخمر ، وأنها الحرام ، وليس فى الحرام قليل وكثير .. فما حرم كثيره فقليله حرام ، سدًّا للذرائع .. حيث لاحِجاز بين القليل والكثير ، فقد يسكر بعض الناس من قطرات من الخمر بينما لايسكر بعضهم إلا بما يملأ بطنه منها ! !

* * *

وأما مكانُ الخمر بين المحرمات ، فأشهر من أن يُدَلّ عليه ، فهى كبيرة الكبائر ، وأم المحرمات .

ولكن الذى دعانا إلى بحث هذا الأمر مانسمعه يجرى اليوم على أفواه بعض المثقفين من الشبان ، الذين لُقّنوا تأويلاتٍ فاسدة ، دخلت عليهم مدخل الدين ، من مقولات الملحدين ، الذين يكيدون للإسلام ، ويثيرون فى وجهه

العواصف ، التى انتزعت أدياناً كثيرة من مواطنها ، فى الغرب والشرق !
وهيهات أن تنال العواصف والزوابع من دين هو أرسخ من الجبال الراسيات !

يقول بعض المتأولين : إن تحريم القرآن للخمر لم يكن تحريماً قاطعاً ملزِماً ، وإنما هو تحريم أشبه بالكراهية ، الأمر الذى يجعلها لاتدخل فى باب الكبائر من المحرّمات !

وحجة القائلين بهذا القول ، هى أن الله سبحانه وتعالى لم يَقْرِنها بالمحرمات التى وَرد فى القرآن الكريم النصّ على تحريمها بصريح اللفظ : « حُرِّمَ » أو « حرمت » مثل قوله تعالى : « وحُرِّم عليكم صيدُ البرّ مادمتُم حُرُماً » (٩٦ : المائدة) وقوله تعالى : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ماذكيتم وما ذبح على النّصب وأن تستقسموا بالأزلام » (٣ : المائدة) وقوله سبحانه : «حُرّمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم .. الآية (٢٣ : النساء) .

هكذا يجى النصّ القرآنى بلفظ التحريم صريحاً ، فيما أراد الله تحريمه ، من منكرات . . تحريماً قاطعاً جازماً ! !

أما فى الخمر ، فقد جاء النصّ فى معرض الحكم عليها بقوله تعالى : « رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه .، لعلكم تفلحون » .. ولو كان من تدبير الشريعة تحريم الخمر تحريماً قاطعاً لجاء النصّ صريحاً بلفظ التحريم هكذا : « حرمت عليكم الخمر » !

هكذا يهوّن هؤلاء المتأولون من شناعة الخمر ، ويستخفّون بجريمتها ، ويجدون فى الإقدام على شربها ما يرفع عنهم كثيراً من آثامها . . فما شُرْبُها

عندهم ـ وأمرها على هذا الوصف ـ إلا من قبيل الصغائر من الذنوب ، أو إلاّ من اللَّمم المعفوّ عنه من الآثام !

وكذبوا على الشريعة ، وافتروا على كلمات الله !

وقد بينا من قبل أن الأوصاف التي وصفت بها الخمر ، بأنها رجس ، وأنها من عمل الشيطان ، وأنها توقع العداوة والبغضاء،وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة ـ بيّنا أن هذه الأوصاف تضع الخمر على رأس المنكرات كلها ،وتقيمها فوق كل كبيرة . .

فالميتة والدم ولحم الخنزير ، وغيرها مما حرم الله من طعام ، وجاء تحريمها نصاً بلفظ التحريم « حُرمت » ـ لم توصف إلا بأنها فسق ولم تلحق بها تلك الأوصاف التي وُصفت بها الخمر ، بأنها رجس ، وبأنها من عمل الشيطان ، وأنها توقع العداوة والبغضاء ، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة ! ..

ونقول لهؤلاء المتأولين لكلمات الله على هذا الوجه الجريء الفاسد : ألا تقوم تلك الصفات التي وصفت بها الخمر شهادةً على أنها أشنع المحرمات،وأغلظ المنكرات ؟ ثم ألا يكون أمر الله باجتنابها ، ولو لم توصف بما وصفت به ، حكماً ملزماً لكل مؤمن بالله أن يجتنبها اجتنابَه للعدوّ المتربص به ، الراصد لاغتياله والقضاء عليه ؟

إن حكم الله على شيء ، بِأمر المؤمنين باجتنابه ، هو حكم عليه بأكثر من الحكم بتحريمه .. إذ الأمر باجتناب الشيء يجعله تحت حكم مؤبد بحرمته ، بحيث لا يحل أبداً بوجه من الوجوه ، أو فى حال من الأحوال ، وذلك بخلاف الأمور التي حكم الله بتحريمها ابتداء بصريح لفظ التحريم ، حيث تجدّ ظروف وأحوال تغيّر من صفتها ، وتنقلها من الحرمة إلى الحلّ أو الإباحة ..

فالمطاعم التي حرمّها الله ، من الميتة والدم ولحم الخنزير ، وغيرها قد أُبيحَ

للمضطر أن ينال منها مايحفظ عليه حياته ، ولا إثم عليها فيما طَعِمَ منها ..

وصيد البَرِّ ، الذى حرّم على المحرِم ، يصبح مباحاً بعد أن يتحلل المحرم من إحرامه .. والمرأة المحصنة ـ أى المتزوجة ـ محرمة على غير زوجها ، فإذا طلقت منه ، وانتهت عدتها كانت حلاً لأى رجل مسلم ، من غير محارمها ، إذا هو تزوجها .

أما ما أمر الله باجتنابه من منكرات ، فلم يُرفع عنه هذا الحظر بحالٍ أبداً .. ففى قوله تعالى : « فاجتنبوا الرجْسَ من الأوثان واجتنبوا قول الزور » (٣٠ : الحج) أمر ملزم لكل مؤمن باجتناب هذين المنكرين ما دام على الإيمان : عبادة الأوثان ، وقول الزور .

وقوله تعالى : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » (٣٦ : النحل) هو مِلاك دعوة الرسل.. الإيمان بالله ، وترك عبادة الأوثان .. فلايكون فى المؤمنين أبداً من لم يجتنب عبادة الأوثان .. إنه مشرك بالله بلا ريب .

وكانت دعوة إبراهيم إلى ربه قوله : « واجْنُبنِى وبَنِىَّ أن نعبد الأصنام (٣٥ : إبراهيم) .

فتجنب الشىء واجتنابه هو الابتعاد عنه ، اتقاء للخطر المتوقع منه ، إذا داناه الإنسان ، فكيف إذا اختلط به ، وسكن إليه ؟

فالأمر باجتناب الخمر ، وما أُمرنا باجتنابه من منكرات ، هو أمر ملزم مؤبد لافِكاك منه أبداً ، إلا فى حال الاضطرار الذى يشمل الخمر وغيرها من المحَرمات .

وهذا هووجه من وجوه إعجاز القرآن ، فى إلباس المعنى المراد ،اللفظَ المناسب له ، والذى لايصلح له غيره من ألفاظ اللغة العربية كلها .

والدّين ـ كما قلنا ـ هو أمانة بين العبد وربّه ، والحلال بيّن والحرام بيّن ، وخيرٌ للمرء أن يلْقىَ الله عاصياً من أن يلقاه منافقاً ، يمكر به وبآياته ، فذلك منكر إلى منكر وبلاء إلى بلاء ، إذ هو إلى جانب ارتكاب المنكر ، استخفاف بالله ، وإنكار لعلمه به ، وقدرته عليه . .

الآية : (٩٣)

« لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)

التفسير : الجناح : هو اللّوم ، والمؤاخذة ، على أمر فيه حرج وضيق .

وفى قوله تعالى : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناحٌ فيما طعموا » بيانٌ لسعة فضل الله على المؤمنين ، وأنّه وقد أحل لهم الطيبات ، وحرّم عليهم الخبائث ، فإنهم فى سَعة من أمرهم فيما يطعَمون ، حيث لاتطلب أنفسهم إلا الطيب ، على حين تعاف الخبيث وتنفر منه .. فهم ـ والأمر كذلك ـ لايجدون حظْراً على أى طعام يشتهونه ، ولا يستشعرون حرجًا إزاء أى طعام حُرّم عليهم .. إذ كان فى الطيب مايصرفهم عن الخبيث الذى لا تشتهيه إلاّ نفس خبيثة ..

وقوله تعالى : « إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات » هو قيد وارد على رفع الحرج عن المؤمنين فيما يطعمون ، وفى استغنائهم عن الحرام بالحلال ، وعن الخبيث بالطيب ..

فالمؤمن إذا ما اتقى الله وعمل الصالحات .. صلحت نفسه ، وطابت طبيعته

فلا يجد فيما حرّم اللهُ عليه من خبائث ، تضييقاً عليه ، ولا حرجاً على أى طعام يشتهيه ، إذ كان إيمانه وتقواه ، وملازمته لتقوى الله وطاعته ـ إذ كان كل ذلك قد عزل نفسه ، وغضّ بصره عن النظر إلى هذه المحرّمات ، وحسابها فيما يَطْعَمه الناس .

ولا شك أن هذه منزلة لايبلغها الإنسان إلا بعد أن يروض نفسه على التقوى ، ويذلّلها بالعبادات والأعمال الصالحة ، التى تقيمها على الصبر ، والتعفّف والقناعة .. إذ كانت شهوات النفس غالبة ، وأهواؤها متسلطة ، والخبائث محمولة إليها على يد شيطان يُزين الخبيث ويغرى به .. « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة .. فهل أنتم منتهون » ..

فالمؤمنون الذين تخلو أنفسهم من التلفّت إلى تلك المحرمات ، ولايجدون لها فى صدورهم وسواساً يوسوس بها ، أو داعياً يدعوهم إليها ـ هؤلاء المؤمنون هم قلّة فى المؤمنين . . هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم إزدادوا إيماناً بالتقوى والأعمال الصالحة ، ثم لزموا طريق التقوى والإيمان ، ثم انتهوا إلى التقوى والإحسان ـ فهؤلاء هم الذين يبلغون تلك المنزلة التى تطمئن فيها قلوبهم إلى الطيبات ، وتنقطع فيها وساوس الشيطان لهم بالمحرمات ، حيث ييأس من أن يلتفتوا إليه ، أو ينزع بهم منزع إلى شىء مما فى يديه ، من خبيث كل مطعوم ومشروب .

فالآية الكريمة تكشف عن حقيقة الإيمان وأثره فى إقامة النفس على طريق تلتقى فيه لقاء مصافحاً لما أحلّ الله من طيبات ، حيث تجد فى ذلك

راحتها ، وسعادتها ، ولا تستشعر ضيقاً عليها ، ولا حرجاً فى إقامتها على حدود هذا الحلال الطيب المباح لها ..

وهذا هو السرّ فى التكرار الذى جاء عليه النظم القرآنى فى تلك الآية الكريمة ، والذى اضطرب فيه المفسرون اضطراباً مزعجاً ، وذهبوا فى تأويله مذاهبَ تدور لها الرءوس ..

فقد وُصف المؤمنون وصفاً مكرراً بالإيمان والتقوى ، والعمل الصالح ، والإحسان ..

« الذين آمنوا وعملوا الصالحات ..

... اتقوْا وآمنوا وعملوا الصالحات . .

... ثم اتقوْا وآمنوا ...

... ثم اتقوا وأحسنوا ... »

والسبب فى هذا الذى وقع فيه المفسرون من اضطراب هنا ، هو أنهم نظروا جميعاً إلى « الحرَج » على أنه رفع الإثم والمؤاخذة على ما يناله المؤمنون بالله من أطعمة ، بعد أن يتصفوا بتلك الصفات.

ولو أنهم نظروا ــ كما نظرنا بتوفيق الله ــ إلى « الحرج » على أنه ما يقع فى صدور المؤمنين من ضيق ، إذا هم واجهوا المحرمات من المطعومات والمشروبات، حين يدعوهم إيمانهم وامتثالهم لأمر الله إلى التعفف عنها ، والإمساك بأنفسهم عن الإلمام بها ــ لو أنهم نظروا تلك النظرة ــ لرأوا أن المؤمنين ليسوا على درجة واحدة فى موقفهم إزاء هذه المحرمات ، وأنهم على منازل مختلفة منها ..

فبعضهم ينتهى عنها ، وفى صدره حَرَج وضيق ، وفى كيانه مكابدة ومجاهدة ..

وبعضهم ينتهى عنها وفى نفسه ميل إليها ، ورغبة فيها ، ولكنّ خوفَ الله يَغُلّ يده ، وخشية الله تكسر حدة مشاعره . .

وبعضهم تراوده نفسه عليها ، وتؤامره على الإلمام بها ، ثم التوبة عنها . .

وهكذا تتغاير منازل المؤمنين ، وتتعدد مواقفهم ، إزاء هذه المنكرات ، بُعداً وقرباً ، وصبراً ، وجزعاً ، واطمئناناً وقلقاً ، واجتناباً ومقارفة .

أما المنزلة التى يكون فيها المؤمن ، وقد انعزلت مشاعره ، وسكنت بلابله ، فلم يكن لهذه المنكرات من المطاعم والمشارب نخسة فى نفسه ، أو همسة فى صدره ــ فلن يبلغها المؤمن إلا بعد مجاهدة ومصابرة ، وبعدَ طريقٍ شاق طويل يقطعه مع الإيمان والتقوى والعمل الصالح ، متنقلا من حال إلى حالٍ ، مرتفعاً من منزلة إلى منزلة ، حتى يكون المؤمنَ الرّبانى الذى يكون على الوصف الذى ورد فى الحديث القدسى : « مازال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذى يسمع به وبصره الذى يبصربه ، ويده التى يَبطِش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ، وإن استعاذنى لأعيذنّه » .

فنى هذا الإنسان الربانى تموت كل نوازع الهوى ، وتسكن كل دواعى الشهوة إلى محرم أو مكروه .

وفى الفاصلة التى خُتمت بها الآية الكريمة : « والله يحب المحسنين » فى هذه الفاصلة ما يكشف عن هذه المنزلة التى تهتف الآية الكريمة بالمؤمنين أن يسموْا إليها ، وأن يعملوا على بلوغها . .

وتلك هى منزلة الإحسان ، تلك المنزلة التى ذكرها الرسول الكريم فى قوله ، وقد جاءه جبريل عليه السلام ، وهو مع أصحابه فى صورة رجل يسأله عن الإيمان والإحسان . . فقال جبريل يارسول الله : « ما الإسلام ؟ قال ألاّ تشرك بالله

شيئاً ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان ..

قال : صدقت .. ثم قال يارسول الله : « ما الإيمان؟ قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ، ولقائه ، ورسله ، وتؤمن بالبعث ، وتؤمن بالقدر كله » قال صدقت .. قال يارسول الله .. ما الإحسان قال : « أن تخشى الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .... » الحديث كما رواه مسلم .

فالإحسان هو أعلى درجات الإيمان : « أن تخشى الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وتلك منزلة لا ينالها إلا المصطفين من عباد الله . ولهذا ضمهم الله إليه ، وجعلهم من أصفيائه وأحبابه فقال تعالى : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

الآية : (٩٤)

« يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِٱلْغَيْبِ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (٩٤)

التفسير: مناسبة هذه الآية للآية التى قبلها، أنها تعرض للمؤمنين امتحاناً يُمتحن به إيمانهم ، وتُختبر به تقواهم ، فيما هو من طعامهم ، الذى بُيّنت لهم حدود ما بين الحلال والحرام منه .. وأنه ليس على هذه الحدود وازع يزع المؤمنين عن الوقوف عندها إلا ما فى قلوبهم من إيمان وتقوى وإحسان .

والمؤمنون المخاطبون هنا هم الذين فى حالِ إحرامهم بالحج أو العمرة .. والصيد المبتلون به ، والممتحنون فيه ، هو صيد البر ، لا صيد البحر .

وقد يُراد بالمؤمنين مَن هم فى البيت الحرام .. ويكون المراد بالصيد ما احتمى بالبيت الحرام من طير ، وحوّم فى سمائه .

وقوله تعالى : « تناله أيديكم ورماحكم » أى تطوله وتبلغه أيديكم ورماحكم ، أى هو صيد واقع تحت قدرتكم على صيده من غير معاناةٍ ، أو بحث عنه ، إذ هو قريب دانٍ ، يغرى بصيده .

ومعنى الآية : أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيضع المؤمنين موضع امتحان وابتلاء ، فى هذا الصيد الذى يدنو منهم ، ويعرض لهم ، ويقع فى متناول أيديهم ، ورماحهم ، وهو لائذ بالحرم ، ساكن إليه أو هو فى غير هذا الحِمَى ، وهم مُحرمون بالحج أو العمرة .

وقد حرّم الله على المؤمنين صيدَ هذا الحيوان المتعرّض لهم ، الواقع لأيديهم مباشرة ، أو على قِيد رُمح منهم ـ وهو لائذ بالحرم ، أو هو خارج الحرم وهم محرمون ، فمن صاد شيئاً من هذا الحيوان ، وهو فى حاله تلك ، أو هم فى حالهم هذه ، فقد أَثِم ، وخان الله على ما أتمنه عليه من أحكام شرعه .

وقوله تعالى : « ليعلم الله من يخافه بالغيب » إشارة إلى أن هذا الامتحان هو امتحان لما فى القلوب من إيمان وتقوى وإحسان .. حيث لا وازع يزع الإنسان هنا إلا إيمانه وتقواه .. فلا سلطان يحول بين المؤمن وبين هذا الصيد الذى بين يديه .. فمن غفل فى كيانه وازعُ إيمانه وتقواه كان له أن ينال من هذا الصيد ما يشاء ، وعليه أن يلقى العقاب وأصوله .

ومعنى علم الله هنا ، هو العلم المسلط على الواقع بعد أن يقع ، أما علمه سبحانه ، فهو علم شامل محيط بكل ما كان وما سيكون ، وما وقع أو سيقع . .

وفى هذا العلم المتسلط على الواقع يؤخذ الإنسان متلبساً بعمله ، من خير أو شر ، ومن هنا تصح محاسبته ، ويكون ثوابه أو عقابه .

وقوله تعالى : « فمن اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليم » .. الإشارة هنا فى « ذلك » واقعةٌ على مانصبه الله سبحانه وتعالى للمؤمنين من معالم الهدى ، وما رسم لهم من حدود .. فمن اعتدى منهم بعد هذا البيان المبين فلا عذرَ له ، وعليه جزاء المتعدى ، وهو العذاب الأليم .

الآية : (٩٥ ـ ٩٦)

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » (٩٦)

التفسير : مازالت الآيات ، تتحدث إلى المؤمنين ، وتناديهم الحق سبحانه وتعالى بهذه الصفة ، صفة الإيمان ، فيما يشرّع لهم من حدودٍ مايَطعَمون من طيبات ، وما يتجنبون من خبائث .

وواضح من هذا ، عنايةُ الشريعة الإسلامية بهذا الأمر ، والتفاتُها إليه ، والتقاؤها بالمسلمين على كل طريق يكون لهم فيه داعٍ يدعوهم إلى مطعوم أو مشروب .

ذلك أن أكثر مايُبتلى به المؤمنون فى دينهم ماكان مورده من جهة طعامهم .. إذ الطعام قِوام الحياة ، وإليه ينصرف أكثر جهد الإنسان وعمله ، فإذا لم يتحرّ الحلالَ فيما يأكل ، لم يتحرّ الحق فيما يعمل ويكسب .. ولهذا أعطى الله سبحانه وتعالى صفة الأكل لكل مالٍ يقع ليد الإنسان من حرام ، فقال تعالى : « إن الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظُلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصْلَوْن سعيراً » (١٠ : النساء) وقال سبحانه : « الذين يأكلون الرّبا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطانمِن المسّ » (٢٧٥ : البقرة) وقال : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدْلُوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » (١٨٨ : البقرة) .

من أجل هذا كانت عناية الشريعة تلك العنايةَ البالغة ببيان الحلال والحرام ، من طعام الإنسان وشرابه ، ليقيم وجهه على ما أحَلّ الله له من طيبات . وليُعرض عما حرّم عليه من خبائث ..

وفى هاتين الآيتين يبيّن الله سبحانه وتعالى للمؤمنين حكمَ الصيد ، ومالهم منه ، وماعليهم فيه ، وهم مُحْرِمون .

فيقول سبحانه وتعالى : « يٰأَيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصّيد وأنتم حُرمٌ » والخطاب للمؤمنين ، لأنهم أهل لأن يستمعوا لهذا النداء الكريم ، وأن يستجيبوا له ، وهم متحلَّوْن بهذه الصفة ، صفة الإيمان ، وإلا فقد آذنوا أنفسهم بأن يتخلّوا عنها ، وأن يكونوا من غير جماعة المؤمنين .

والمراد بالصيد المنهي عن صيده هنا ، هو صيد البرّ ، ويكشف عن هذا المراد قوله تعالى « لا تقتلوا الصيد » لأن صيد البحر لا يقتل ، وإنما الذى يقتل هو صيد البر ، كما يكشف عنه قوله تعالى بعد ذلك : « أحل لكم صيد البحر

وطعامه ... » فهو استثناء وارد على تحريم الصيد ، وبهذا يُعرف المراد من الصيد المنهى عن صيده ، وهو صيد البر .

والنهى عن صيد حيوان البر مقيد بحال الإحرام فقط ، أما بعد أن يتحلل المسلم من إحرامه فالصيد مباح له .

وقوله تعالى : « ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثلُ ماقتل من النَّعَم » وهو بيان للكفارة الواجبة ، والدية المطلوبة مِن كل من قتل صيداً متعمداً وهو محرِم .. وهذه الدية لاتفى بالمطلوب إلا إذا كانت مثل الحيوان المقتول ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « فجزاء مثل ماقتَلَ من النعم » أى فجزاء القاتل أن يغرم حيواناً مثلِ هذا الحيوان الذى قتله ، إن لم يكن مثله عيناً كان مثلَه قيمة وثمناً .

وقوله تعالى : « يحكم به ذوا عدلٍ منكم » هو بيان للعملية التى يتم بها تقويم الحيوان الذى قُتِلَ ، وتحديد قيمته . . وذلك يكون بالرجوع إلى رَجلَيْن عَدْلين لهما نظر وخبرة ، يُحتكم إليهما فى تقدير قيمة هذا الحيوان . .

وقوله تعالى : « هدياً بالِغَ الكعبة » هو حال من الضمير فى « به » الذى يعود إلى قوله تعالى : « فجزاء » . . أى أن مايحكم به الحكمان يُساق هدياً إلى إلى البَيْت الحرام « بالغَ الكعبة » أى مساقاً إلى الكعبة .

وقوله تعالى : « أو كفارةٌ طعامُ مساكين أو عَدْلُ ذلك صياماً » هو تخيير فيما يُجبَرَ به هذا الذنب ، ويقع كفارةً له .. فالكفارة إما أن تكون هدايا يُساق إلى الكعبة أى البيت الحرام ، مقدَّرا قيمته بقيمة الحيوان الذى قُتل ، وإما أن يكون بإطعام مساكين بقدر هذه القيمة ، وإما بصيامٍ يعدل ما كان يمكن أن يُطعَمَ من مساكين ، من قيمة هذا الصيد المقتول .

وهل يكون حساب الصوم باعتبار اليوم الواحد مقابلاً لإطعام مسكين

واحد، كما فى قوله تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فديةٌ طعامُ مسكين » ، أو أن يكون الحساب قائما على أن يكون صوم كل ثلاثة أيام مقابلاً لإطعام عشرة مساكين ، كما قوله تعالى : « فإطعام عشرة مساكين أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » ؟ وهل يكون الصوم هنا متتابعاً متصلا ، أو مفرّقاً غير متصل ؟

والذى عليه أكثر المفسرين والفقهاء أن يكون الصوم يوماً واحدا ، فى مقابل كل مسكين يُمكن أن يطعم من قيمة الحيوان المقتول .

كما أنّ الذى عليه الرأى فى إفراد الصيام أو تتابعه، أن يكون باختيار الصائم، إن شاء أفرد أو إن شاء تابع ووصل .

كذلك اتفق رأى المفسرين والفقهاء على أن قتل الصيد خطأً من المحرِم ، يلحق بقتله عمداً منه ، حيث ثبت عندهم أن السُّنة ألحقت قتل الخطأ بالقتل العمد فى هذا المقام .

وأمر آخر . . لم اختلف النظم فى قوله تعالى : « هدياً بالغَ الكعبة أو كفارةٌ طعامُ مساكين أو عدل ذلك صياماً » ؟ ولِم لم يكن العطف عطفَ نسق بين قوله تعالى : « هدياً بالغ الكعبة » وبين مابعده . . « أو كفارةٌ طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً » ؟ أو بمعنى آخر . . لم كان العطف على القطع ، ولم يكن على النسق . مع أن الأمر على التخيير فيها جميعاً بحيث يجزئ أىٌّ منها . . الهدى ، أو الإطعام ، أو الصيام ؟

والجواب على هذا :

أولاً : أن تقويم قيمة الصّيد المقتول يكون منظوراً فيه إلى حيوانٍ آخر مثله ، قيمةً وقدراً ، وأن ذلك الحيوان هو الأصل فى الموازنة بينه وبين

الحيوان المقتول ، فكان من الحكمة استحضاره فى تلك الحال ، وجعله حالاً قائمة فى نظر الحكَمين اللذين يُرجع إليهما فى الحكم فى هذا الأمر .. وذلك من شأنه أن يجعل الحيوان المقتول ، والحيوان المنظورَ إلى إحلاله محله فى مجال نظر الحكمين ، مما يجعل حكمهما أقربَ إلى الصحة والسلامة .

وثانيا : تأسيساً على هذا يصبح الحيوانُ الذى يساق هدياً إلى الكعبة أصلاً يقاس عليه ، عند العدول إلى غيره ، مما يساوى قيمته ، من إطعام مساكين ، أو صيام أيام تعادل ما يُطعَم من مساكين . ويكون تقدير النظم القرآنى على هذا الوجه « يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة ، أو مايقوم مقامه من إطعام مساكين ، أو مايعدل إطعامهم من صيام . ومن هنا كان القطع لازماً ، بعد تقرير الحكم ، وتقدير الحيوان الذى يحلّ محلّ الصيد المقتول .

وفى قوله تعالى : « ليذوق وبال أمره » الفاعل هنا هو المحرِم الذى قَتَل الصيدَ ، والوبال : هو السوء والضرّ ، ومنه قولهم طعام وبيل ، وماء وبيل ، إذا كانا فاسدين لم تسغهما النفس ، ومن ذلك قوله تعالى فى فرعون : « فعصى فرعونُ الرسولَ فأخذناه أخذاً وبيلا » (١٦ : المزمل) .

وفى قوله تعالى : « ليذوق وبال أمره » تشنيع على الاعتداء على حرمات الله ، وعلى العدوان على من لاذ بحماه ، ولو كان حيواناً أحَل الله ذبحه وأكله ، فمن فعل ذلك فقد عرّض نفسه لبلاء شديد يلقاه من عذاب الله .

وتظهر بشاعة هذا الفعل ، وشناعته من وجوه :

فأولاً : هذه الكفارة التى تقدّم بها قاتل الصيد فى الحرم ، أو وهو محرم ـ هذه الكفارة عن تقديم هدىٍ مثله إلى الكعبة أو إطعام مساكين أو صيام ـ

لم تكن لتغسل هذا الدّم الذى أريق، فمازال عالقاًبمن أراقه بعضُ الإثم ، ولهذا جاء التعبير القرآنى ـ فى أعقاب تقديم هذه القُربات ـ بهذا اللفظ المؤذن بأن تلك القربات كانت ضرباً من العقاب والنكال لمن قدمها : « ليذوق وبال أمره . . » .

وثانياً : أن الشريعةهنا لم تُعفِ القتل الخطأ من إلحاقه بالعمد ، وأخذ القاتل خطأً بما أُخذ به القاتل عمداً . .

وفى ذلك مايشعر بأن القاتل عمداً هنا أشبه بمن قتل نفساً مؤمنة عمداً ، وأنه إذا كان قد أُخذ بما أُخذ به القاتل خطأ ، فذلك من فضل الله ورحمته بعباده . .

فالشريعة الإسلامية قد رفعت الإثم عمّا وقع من المسلم خَطأً من المنكرات. ولكنها فى باب الدماء ، قد جعلت للخطأ وضعاً خاصاً ، فلم تُعْفِ الذى قتل نفساً خطأ من الأخذ بشىء من العقاب ، صيانةَ لدم الإنسان ، وتكريماً له أن أن يذهب هدراً من غير حساب . .

« ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة وديةٌ مسلمة إلى أهله إلاّ أن يصّدّقوا » (٩١ : النساء) وقد أُلحق الحيوان اللائذ بحمى الله ، بالإنسان . . وفى ذلك مايوقع فى نفس المسلم كثيراً من التأثم والتحرج لأيّة قطرة دم تُراق بغير حقّ ، ولو كانت دمَ حيوان !

ثالثاً : فى التعبير عن صيد الحيوان « بالقتل » فى قوله تعالى : « لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ماقتلَ من النعم » ـ ـ فى هذا ما يشعر بأن عملية الصيد فى هذا الموطن ، وفى تلك الحال هى عملية « قتل » . . تلك الكلمة التى تثير فى النفس مشاعر القتل الذى يقع على

الإنسان ، والذى يكاد يكون لفظاً خاصاً به .

وإذا ذكرنا أن الأمة العربية ـ فى جاهليتها ـ كانت مستخفة بالدماء ، مستبيحة لحرماتها ، مستهينة بإزهاق الأرواح وإراقة الدماء ـ إذا عرفنا ذلك ـ لم نستغرب ، ولم ندهش لهذا التدبير الحكيم فى أخذ النّاس بتلك الأحكام فى قتل الحيوان ، فى حالٍ ما ، وهو الذى أبيح ذبحه وأكله ، فى غير هذه الحال، فما كان لمجتمع ألِفَ الولوغ فى دم الإنسان ، أن تُنتزع منه هذه المشاعر المتحجرة إلا بمثل هذا الأدب السماوى الحكيم . .

ثم إن هذا الأدب ، لن يَبطل حكمه ، ولن تُفتقد حكمته فى أى مجتمع ، وفى أى زمان أو مكان . . فالناس هم الناس ، فى عدوان بعضهم على بعض ، وفى إراقة بعضهم دمَ بعض . . وحسب هذه الحروب المشبوبة اليوم ، فى كل آفاق الأرض ، وما يراق فيها من دماء ، ومايزهق فيها من أرواح ـ شاهداً على أن الناس هم اليوم أشد حاجة إلى هذا الأدب السماوى من حاجة العرب الجاهليين إليه .

وقوله تعالى : « عفا الله عما سَلَفَ » هو رفع للحرج ، وغسل الإثم الذى وقع لبعض المسلمين من قتل الصيد عمداً أو خطأ ، قبل أن ينزل هذا الحكم ، ويصبح أمراً ملزِماً ، بعد أن بلّغه الرسول ، وعرفه المسلمون..

قوله تعالى : « ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام » هو وعيد لمن تجاوز الله سبحانه وتعالى له ، عما كان منه من هذا الأمر ، قبلَ أن يأتى حكم الله فيه ، ثم وقع منه هذا المحظور بعد النهى عنه . . فهو حينئذ معرّض لنقمة الله ، واقع تحت عقابه . . « والله عزيز » لايفلت من سلطانه أحد « ذو انتقام » يأخذ بمن اعتدى على حرماته ، بنقمته ، وعذابه .

قوله تعالى : « أحلّ لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة » هو بيان من الله سبحانه وتعالى ، يفرّق به بين حكم صيد البرّ وصيد البحر . . فإذا كان صيد البر قد أقيم عليه هذا الحظر فى حال الإحرام ، فإن صيد البحر حِلّ مباح ، لاحرج على المحرم أن ينال منه مايشاء ، فيصطاده ، ويبيعه ، ويأكل منه . . « أحل لكم صيد البحر وطعامه » أى والأكل منه . . « متاعاً لكم » أى زاداً لكم تتزودن به ، وتطعمون منه . . « وللسيَّارة » أى وللسائرين الذين ليسوا فى حال إحرام .. أى أن صيد حيوان البحر يستوى فيه المحرم وغير المحرَم ، حيث لم يكن للإحرام أثر فى هذا النوع مما يصاد من حيوان .

وقوله تعالى : « وحرّم عليكم صيد البرّ مادمتم حرماً » هو توكيد لحرمة صيد البر فى حال الإحرام ، واحتراس من أن يكون رفع الحظر عن صيد البحر مُؤذناً برفع الحظر عن صيد البر ، الذى تقرر حكمه من قبل ، وفى هذا مزيد عناية بتقرير هذا الحكم الواقع على صيد البر وحراسة له من أن يقع فيه لَبْس ، أو شك ، ولو على سبيل الاحتمال البعيد .

وقوله تعالى : « واتقوا الله الذى إليه تحشرون » هو حراسة مشدَّدة على الحدّ الذى أقامه الله سبحانه وتعالى على حرمة صيد البرّ فى حال الإحرام أو فى الحَرَم .. وتلك الحراسة هى الخوف من الله ، والتحذير من عقابه للخارجين على حدوده ، والمعتدين على حرماته . .

(الآية : ٩٧ ـ ١٠٠)

« جَعَلَ ٱللهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَآئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٩٧) ٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ شَدِيدُ

ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (٩٨) مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩) قُلْ لَا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَا أُولِى ٱلْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (١٠٠)

التفسير : مناسبة هذه الآيات لما قبلها ، أنها تحدّث عن مواطن حرماتِ الله ، التي بينت الآيات السابقة بعضاً منها .

وقوله تعالى : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » .

القيام : التقويم ، والإصلاح .

أى أن الله سبحانه وتعالى جعل الكعبة ، والبيت الحرام ، المقام عليها ـ جعلها موطن إصلاح وهداية ورشاد للناس ، حيث جعلها حرماً آمناً ، يفيض الأمنُ منها على كل كائن ، من إنسان أو حيوان أو نبات .. بل لقد شمل هذا البلد كله الذى أقيم حول الكعبة ، واحتمى بحماها ، فكان هذا البلد أيضاً حمى لكل من لاذ به ، واحتمى فيه ، وسكن إليه ، استجابةً لدعوة إبراهيم عليه السلام : « رب اجعل هذا البلد آمناً » .

وقوله : « والشهرَ الحرام » أى والشهر الحرام كذلك جعله الله ظرفَ أمن وسلام ، وإصلاح لأمر الناس ، حيث لاقتال فيه ، والمراد بالشهر الحرام ، الأشهر الحرم .. ذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرم ورجب، والتعبير عنها،بالشهر الحرام باعتبارها كياناً واحداً فى حرمة القتال فيها،وإن تفرقت أزماناً،واختلفت أسماءاً .. فهى بمنزلة شهر واحد .. وفى هذا مايقيم شعور المسلم على حال واحدة فيها ، وألا ينعزل عن هذا الشعور بانتقاله من شهر إلى شهر .. بل إن من الخير له أن يصل بعيدها بقريبها .. فشهر رجب وإن سبق الأشهر الثلاثة بشهرين ،

وتأخر عنها بستة أشهر ، جدير به أن يوصل بها من طرفيه ، وبهذا يكون العام كله شهرَ حرام ، لاقتال فيه ، وإن كانت الأشهر الحرم قد أُفردت بهذا الحكم ، فهو حكم واجب فيها ، مستحبّ فى غيرها ..

قوله تعالى : « والهدى والقلائد » معطوف على الشهر الحرام ، الذى هو معطوف على الكعبة . . أى أن الحيوان المساق إلى البيت الحرام هدياً له ، والقلائد التى يُقلَّدها ويعلَّم بها ، هى من حرمات الله ، التى ينبغى ألا يتعرض لها أحد بأذى أو عدوان ، وفى هذا تأديب للناس ، وتهذيب لهم ، وإصلاح لأمرهم .. حيث يعفّ الإنسان عن الاعتداء على حرمات الناس ، إذا هو امتثل أمر الله وكفّ يده عن العدوان على حرماته . . فى رعاية كل حرمة من هذه الحرمات هداية للناس ، وتقويم لانحراف المنحرفين منهم ، وتدريب لهم على الامتثال والطاعة ، ورعاية الحرمات فيما بينهم. وبهذا تكون كل تلك الحرمات: «الكعبةَ البيت الحرام والشهر الحرام والهدى والقلائد » ـ قياما للناس وتسديداً لسلوكهم فى الحياة .

قوله تعالى : « ذلك لتعلموا أن الله يعلم مافى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم » .. الإشارة هنا إلى هذه الحرمات ، التى جعلها الله قياماً للناس ، وإصلاحاً لهم .. وقوله تعالى « لتعلموا أن الله يعلم مافى السموات ومافى الأرض وأن الله بكل شىء عليم » تعليل للحكمة التى تختفى وراء هذه الحرمات التى بيّن الله سبحانه وتعالى معالمها ، وحدد حدودها ، وأنها منصوبة للمؤمنين لتكون امتحاناً لإيمانهم ، وابتلاء لما فى قلوبهم من توقير لله ، واحترام لحرماته ، وذلك لايكون إلا لمن آمن بالله ، واستيقن من أنه سبحانه وتعالى لاتخفى عليه خافية ، ولا يعزب عن علمه شىء .. فمن لم يؤمن بالله هذا الإيمان

لم يقم فى كيانه شعور بمراقبة الله ، أو التوقى من العدوان على حرماته، والتعدى على حدوده ..

فهذه الحرمات التى نصبها الله لأعين المؤمنين هى تدريب لهم على التعرف على الله ، حيث ينتهى بهم الوقوف إزاءها ، وتحريم حرماتها إلى العلم بالله ، وأنه سبحانه يعلم مافى السموات ومافى الأرض ، وأنه بكل شىء عليم ..

وإذن فليس ثمرة هذه الحرمات فيما يُجنى منها من إشاعة الأمن والطمأنينة بين الناس ، بل إنها ـ مع هذا ـ تفتح فى قلب المؤمن طريقاً إلى الله ، يشهد منه سعة علمه ، ونفوذ سلطانه ، إلى ماتكن الضمائر ، وما تخفى الصدور .

وقوله : « اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم » هو تعقيب على هذا الحظر الذى أقامه الله تعالى على حرماته ، وحذّر الناس من العدوان عليها .. فهناك عقاب شديد راصد لمن اعتدى على حرمات الله ... وهناك غفران ورحمة لمن تاب ورجع إلى الله من قريب ، واستغفر لذنبه ، وندم على مافرط منه .

وقُدّم عقاب الله هنا على مغفرته ، لأن ذلك فى مواجهة حدود أقامها الله ، وحذّر من مجاوزتها والاعتداء عليها ، فناسب ذلك أن يجىء العقاب أولاً لمن اعتدى على هذه الحدود ، ثم تجىء الرحمة والمغفرة لمن أثم وأذنب ثم تاب واستغفر ...

وقوله تعالى : « ماعلى الرسول إلا البلاغ » هو تنبيه للناس إلى أنه لاسلطان لأحد عليهم فيما يأتون من طاعات ، أو يرتكبون من آثام ، إلا أنفسهم ، ومافى قلوبهم من إيمان ، ومافى كيانهم من عزائم .. إذ ليس مع أوامر الله ونواهيه قوًى مادية تقهر الناس على امتثال الأوامر واجتناب النواهى ، وإنما كل ما هنالك، هو دستور سماوى، وقانون إلهى، يحمله رسول من

الله إلى عباد الله ، ويبيّن لهم ماحمل إليهم من ربّه .. ثم يتركهم لأنفسهم .. فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .. ومن شاء فليستقم ، ومن شاء فلينحرف : « ماعلى الرسول إلا البلاغ » وليس من رسالته أن يقهر الناس على الخير الذى يحمله إليهم : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (٩٩ : يونس) .

وقوله تعالى : « والله يعلم ماتبدون وما تكتمون » هو بيان لما بعد البلاغ الذى هو من عمل الرسول .. فهناك بعد أن يبلغ الرسول ما أنزل إليه من ربّه ، يتولى الله سبحانه وتعالى مراقبة الناس فيما بلغهم إياه رسوله ، واطلاعه سبحانه على مايكون منهم من طاعة أو عصيان . . « والله يعلم ماتبدون وما تكتمون » .. لاتخفى عليه منكم خافية ، « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » (٣١ : النجم) « إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » (٤٠ : الرعد) .

وقوله تعالى : « قل لايستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » هو إلفات للناس إلى مابين الطيب والخبيث ، من بُعد بعيد . واختلاف شديد ، فى الآثار التى تتبع كل منهما ، وفى الثمار التى يجنيها الزارعون لهما . . من خير أو شر ، ومن طيّب أو خبيث.

فالطيب وإن بدا قليلاً فى كمّه ، هو كثير فى كيفه .. إنه نبتة من نبات الحق ، يزكو مع الزمن ، ويعلو مع الأيام . إنه أشبه بالكلمة الطيبة ، والشجرة الطيبة ، لاتغرب شمسه ، ولا تنقطع موارد الخير منه .. « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيبةً كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء * تؤتى أكلها كلّ حين بإذن ربها » (٢٤ ـ ٢٥ : إبراهيم) .

والخبيث وإن زها وازدهر ، وانداح وامتدّ ، هو كثير فى كونه ، ضئيل

فى قَدْره .. لاظلَّ له ولا ثمر فيه .. « ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثّتْ من فوق الأرض مالها من قرار » (٢٦ : إبراهيم) .

هكذا الطيب والخبيث ، فى كل شىء ، ومن كل شىء .. فى الناس ، وفى الحيوان ، والنبات والجماد ، وفى المعانى والمحسوسات .. وفى القول وفى العمل.. الطيب حيـاة دائمة متجددة لاتموت أبدًا .. والخبيث موات لايمسك ماء ولا يُطلع نبتًا ..

فالذين يستخفّون بالطيّب ، لضمور شخصه ، أو خفوت صوته ، أو احتجاب ضوئه ـ إنما هم مخدوعون فى أبصـارهم ، مصابون فى بصائرهم ، لايرَوْن من الأشياء إلا ظاهرها ، ولا يعلمون من الأمور إلا قشورها ، أما الصميم فهم فى عَمًى عنه ، وأما اللّباب فهم على جهل به .. « يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » (٧ : الروم) .

وقوله تعالى : « فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون » هو دعوة إلى أصحاب العقول أن يستعملوا عقولهم ، وأن يُفيدوا منها فى التعرف على الحق والخير ، والتعامل مع الطيب والحسَن ، ففى ذلك يكون الفلاح ، ونجاح المسعى .

ودعوة ذوى الألباب إلى التقوى ، هى الدعوة المرجوّ لها القبول والنجاح ، حيث لا تُحصَّل التقوى إلا بالعمل الطيب ، وحيث لاَ يَتهدّى إلى الطيب ، ولا يَعمل له ، ويتعامل معه ، إلا أصحابُ العقول السليمة ، الذين احترموا عقولهم ، وأخذوا بما تـكشف لهم بصائرهم من معالم الحق والخير ..

الآية : (١٠١ ـ ١٠٢)

« يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَآءَ إِنْ تُبْدَ لَـكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْـأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْآنُ تُبْدَ لَـكُمْ عَفَا ٱللهُ عَنْهَا وَٱللهُ

غَفُورٌ حَلِيمٌ » (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ » (١٠٢)

التفسير : مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هو أن التعرف على الحلال والحرام، والتهدّى إلى تمييز الطيب من الخبيث ، يكون عن نظر وتقدير ، كما يكون عن مدارسة ، ومساءلة لأهل العلم والذكر ، كما يقول الله تعالى : « فاسألوا أهْلَ الذكر إن كنتمْ لاتعلمون » (٧ : الأنبياء) .

وقد أشارت الآية السابقة إلى التفرقة بين الخبيث والطيب ، وأن الخبيث خسيس لاقيمة له ، ولو لبس ثوبا من البريق الزائف الذى يخدع الحمقَى والسفهاء ..

وكان من هذا أنْ أكثَرَ المسلمون من التنقيب والبحث ، وتقليب الأمور على وجوهها ، ليتعرفوا على ما ينكشف منها من طيب أو خبيث ، ومن خير أو شر ، ومن حق أو باطل .. وقد أغراهم بهذا أن الرسول الكريم قائم فيهم، مقامَ الشمس فى وضاءتها وامتداد سلطانها على الآفاق ، فكانوا يَلْقَوْنَه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بكل عارض يعرض لهم، وبكل شبهة تقع لأبصارهم، فيلقاهم الرسول الكريم بما يجلو الشُّبَه ، ويكشف معالم الطريق إلى الحق والخير . .

وقد تجاوز بعض المسلمين هذه الحدود فيما يَعنيهم من أمر دينهم أو دنياهم، فجعلوا يسألون عن أمور لم تقع ، قد افترضوا وقوعها، واستعجلوا الحكم الشرعى فيها .. وهذا من شأنه أن يجعل الرسول بين أمرين : إما أن يجيبهم إلى ماسألوا، وإما أن يدَعَهم يسألون ولا يجيب .

والأمر الثانى : إن أخذ به الرسول ، ووقف عنده ، أقام السائلين على قَلَق ،

وحيرة ، فتذهب بهم الظنون كل مذهب ، وتتشعب بهم الآراء فى كل وجه . .

فكان لابد ــ والحال كذلك ــ أن يلقى الرسول كلَّ سائل بالجواب عما سأل ، قبولاً أو ردًّا ، وموافقة أو مخالفة ...

وإذا علمنا أن القرآن الكريم كان ينزل منجّماً ، وأن التشريع الإسلامى جاء متدرجاً ، شيئاً فشيئاً ، وحالاً بعد حال ، حسب تقدير العزيز العليم ، وحكمة الحكيم الخبير ، حتى تتأصل أصول الشريعة ، وترسخ أحكامها ، وتنزل من النفوس منزلة الاطمئنان والقرار . .

فالصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وهى أركان الإسلام ، بعد الإيمان بالله ــ هذه العبادات لم تُفرض على المسلمين مرةً واحدة .. بل فرض بعضها فى مكة ، قبل الهجرة ، كالصلاة التى فرضت بعد الإسراء ، ثم فرضت الزكاة ، والصوم ــ فى السنة الثانية بعد الهجرة ، ثم الحج ، الذى كان آخر ما فرض من العبادات !.

ــ إذا علمنا هذا ، كان لنا أن نسأل :

ماذا يكون الأمر لو سأل سائل من المسلمين النبيَّ صلى الله عليه وسلم وهو فى مكة لم يهاجر بعد ــ عن الزكاة ، أو عن الصوم مثلا ؟

أكان الجواب بأن الزكاة فرض على المسلمين ، أو أن الصوم المفروض عليهم هو صوم رمضان ؟

كان لابد إذن أن ينزل قرآن فى هذا ، وأن يعجّل بأمر لم يُرد الله تعجيله ، لحكمة أرادها ، ولتقدير قدره .

إذن ، فإن من الخير للمسلمين أن يسكتوا عما سكتت الشريعة عنه ، إلى

أن تقول كلمتها فيه ، أو تدعه فلا تقول شيئاً عنه .. وفى هذا وذاك خير للمسلمين، ورحمة بهم ، وإحسان إليهم .

ولهذا جاء قوله تعالى : « يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ » والأشياء المنهىّ عن السؤال عنها ليست الأشياء جميعَها على إطلاقها ، وإنما هى الأشياء التى يترتب على إقرار الشريعة لها ، وأخذ المسلمين بها إضافة تكاليف وأعباء ، كتحريم أمرٍ كان غير محرم ، وحظر طعام كان مباحاً .. ونحو هذا .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: « إن تبد لكم تسؤكم » أى إن انكشف لكم حكم الشريعه فيها ساءكم ، وشق عليكم ، وأعنتكم . .

وفى هذا يقول الرسول الكريم : « ذرونى ما تركتكم . . فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيآئهم ، فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه » .

واستمع إلى قوله تعالى : « ويقول الذين آمنوا لولا أنزلت سورة فإذا أُنزلت سورةٌ محكمةٌ وذكر فيها القتال رأيتَ الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشىّ عليه من الموت ... » (٢٠ محمد) ..

فقد سأل المسلمون النبىّ أن تنزل عليهم كلمة الله فى القتال ، وحكمه فيه ، فلما نزلت سورة محكمة ، أى جلية واضحةٌ ، لا تحتمل تأويلاً ، وجاء أمر القتال فيها واجباً ملزِماً ــ ساء ذلك كثيراً من النفوس ، وثقل عليها احتماله ، أما الذين احتملوه فاحتملوه على جَهْدٍ ومشقةٍ . .

واستمع بعد ذلك إلى قوله سبحانه : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ

الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ »
(٧٧ : النساء)

فالذى كان مطلوباً أولا من المسلمين أن يكفّوا أيديهم عن الإثم والعدوان وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة .. وكان ذلك أولَ الإسلام ، وعلى الخطوات الأولى من مسيرة المسلمين فيه .. ثم كان بعد ذلك أن فرض الله عليهم القتال ، فرضه عليهم بعد أن قطع بهم على طريق الإسلام تلك المرحلة التى دَرَبُوا فيها على الطاعات ، وتوثقت فيها صلتهم بالله

فماذا كان بعد أن كُتب عليهم القتال ؟ لقد تمنّى كثير منهم ألا يكون هذا الحكم فريضةً واجبة عليهم .. لقد ضاقت به نفوس ، ووجفت منه قلوب ..
فكيف كان الحال لو أن الأمر بالقتال جاءهم ابتداءً ، فكان فرضاً لازماً من أول يوم الإسلام ؟

كان من الخير إذن المسلمين ألا يسألوا عن مثل هذه الأشياء ، وألا يفتحوا على أنفسهم أبواباً من الأعباء ، سدّها الله دونهم ، وعافاهم مما يجيئهم منها من تكاليف وواجبات .. لا عن نسيان منه ، سبحانه ، وتعالى عن ذلك علوًّا كبيراً ، ولكن كان ذلك رحمة وفضلاً وإحساناً ..

يقول الرسول الكريم : « إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيّعوها ، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء ، فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمةً بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها » . . وفى الحديث ، أنه لما نزلت آية الحج ، نادى النبيُّ صلىّ الله عليه وسلم فى الناس فقال : « أيها الناس . . إن الله قد كتب عليكم الحج فحجّوا » فقالوا يا رسول الله : أعاماً واحداً أم كل عام ؟

فقال : « لا ، بل عاماً واحداً ، ولو قلتُ كلّ عام لوجبت ، ولو وجبت لكفرتم ! » أى لم تستطيعوا الوفاء بما فُرض عليكم ، وفى هذا مخالفة لحكم من أحكام الله ، وتضييع لفريضة من فرائضه ، وذلك هو كفر بالله .

وقوله تعالى : « وإن تسألوا عنها حين ينزّل القرآن تُبدَ لكم » .

المراد بقوله تعالى : « حين ينزل القرآن » أى حين تجىء آيات الله فى الوقت المقدور لنزولها ، بما تنزل به من أحكام ، حتى يتم نزول القرآن الكريم كله . . فإن بقى فى نفوسهم شىء بعدها سألوا عنه . . وفى هذا إشارة إلى أن أحكام الشريعة كانت تتنزل بقَدَر مقدور لها ، وبتوقيت محدد لنزولها . .

فإذا جاء القران بحكم من الأحكام ، كان السؤال مطلوباً من المسلمين عما خفى عليهم من هذا الحكم الذى جاء به ، على أن يكون ذلك موقوفاً به عند حدود الحكم ، وفى بيان محتواه . .

أما مجاوزة هذه الحدود فهى مما نُهى عنه . وهى من التنطع والتكلف الذى لا يجرّ وراءه إلا الحسرة والندم ، كهذا السؤال الذى سُئله الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وهو يدعو الناس إلى أداء فريضة الحج .. فقد كان أمر الرسول واضحاً محدداً ، وكذلك ما نزل به القرآن فى أمر الحج « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » فالسؤال بعد هذا عن الحج ، وهل هو كل عام ، أو مرة واحدة ــ فيه تكلف لا مبرر له ، ولا حاجة إليه .

وقوله تعالى : « عفا الله عنها » الضمير هنا يعود إلى تلك الأشياء التى كانت مباحة للمسلمين فى أول الاسلام ، ثم جاء الإسلام ، فى زمن متراخٍ فحرمها عليهم .. كالخمر ، والربا ، والزواج من زوجات الأبناء من الأصلاب وكثير غير هذا ، مما حرمته الشريعة ، من أمور كان يأتيها الجاهليون وجرى عليها المسلمون فى أول الإسلام . .

فهذه الأشياء قد عفا الله عنها ، فلا يؤاخذهم عليها ، وإن كانوا قد فعلوها وهم مسلمون ، إذ لم يكن قد جاء حكم الشريعة فيها ..

وفى قوله تعالى : « والله غفور حليم » إشارة إلى أنّ فى مغفرته مايسع هذه المنكرات التى أتاها المسلمون ، وهم مسلمون ، ووجدوا فى أنفسهم حرجاً منها ، وضيقاً بها ، وإن كانوا لم يتلقوْا حكم ـ الله فيها ..

فهذه مغفرة الله تدفع عنهم هذا الحرج ، وتذهب بما فى صدورهم من ضيق..

وهذا حِلْمُ الله يأخذهم بالأناة واللطف ، فيما يشرّع لهم من أحكام .. إنه ـ سبحانه ـ يَقْبلهم مسلمين بما كانوا عليه ، وبما فعلوه مما لم ينههم عنه من قبل .. فليرفُقوا بأنفسهم ، ولا يعجَلوا بالسؤال عن حِلّ هذا الشىء أو حرمته ، حتى يأتيهم أمر الله فيه ..

وقوله تعالى : « قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين » .

الضمير فى « سألها » يعود إلى تلك الأشياء التى لم تَقُلْ الشريعة قولا فيها ، بحلّ أو حرمة .

والقوم هنا ، هم بنو إسرائيل ..

والمعنى أن بنى إسرائيل سألوا رسلهم عن كثير من أمور لم يأتهم الرسل بحكم الله فيها ، فلما جاءهم الحكم فيما سألوا عنه، كفروا به ، ولم يمتثلوا حكم الله فيه .

وما كان أغناهم عن أن يسكتوا .. ولكن القوم بما رُكّب فيهم من لجاج وعناد وخلاف ، لايَدعون لرسولٍ من رسل الله فيهم ، سبيلا ، إلا أخذوه عليه ، يسألون ويُلحفون فى السؤال ، فى كل صغير وكبير ، وقريب وبعيد !

ثم ما كان أولاهم إذا لم يسكتوا أن يتقبلوا جوابَ ماسألوه عنه ، وأن ينزلوا على مقرراته ، ويقفوا عند حدوده .. ولكنهم لم يسألوا ليهتدوا من ضلال ، وليُبصروا من عمًى ، ولكن كانت أسئلتهم مماراة ، ومماحكة ، وإعناتاً !

الآية : (١٠٣ ـ ١٠٤)

« مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ » (١٠٤)

التفسير : البَحيرة : الناقة التي بُحِرت أذنها أى شقت ليكون ذلك مَعْلَماً لها وكان الجاهليون يفعلون ذلك بالناقة إذا نَتجت خمسة أبطن وكان آخرَها ذكراً .. فيشقّون أذنها ، ويحرمون ركوبها ، وأكلَ لحمها ، والتعرض لها إذا وردت ماء أو كلأ .

والسائبة : وهى الناقة التى تسيَّب ، وتترك ، وفاء لنذر ينذره صاحبها ، إذا برأ من علة ، أو نجا من مهلكة : أو سلم من قِتال . . مثلاً .

والوصيلة : وهى من الغنم ، وذلك أن الشاة كانت إذا ولدت ولداً ذكراً جعلوه لآلهتهم ، وإذا ولدت أنثى جعلوها لهم ، وإذا ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها ، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم .. !

والحامى : هو الذكر من الإبل ، إذا نتجت من صلبه عشرة أبطن ، قالوا قد حمى ظهره ، فلا يُحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا كلأ ..

وهذه الآية كأنها جواب لسؤال كان من الأسئلة التى تتوارد على خواطر المسلمين ، حين نُهُوا عن أن يسألوا عن أشياء إن تبد لهم تسؤهم ، وأن يدعوا السؤال عن تلك الأشياء التى تدور فى خواطرهم ، أو تتحرك على شفاههم، حتى

ينزل القرآن ، أى حتى يتمّ نزوله ، فإن بقى فى أنفسهم شىء لم يبينه القرآن لهم، كان لهم أن يسألوا .

فقوله تعالى . « ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام » هو بيان لحكم شرعىّ ، جاء فى مرحلة متأخرة من حياة الدعوة الإسلامية ، وقد عاش المسلمون زمناً وهم متلبسون بهذه الأشياء ، لم ينكروها على من أخذ بها منهم ، إذ لم يكن قد جاء حكم شرعىّ فيها بعد ..

فهذه السوائم ، قد عَقَدَ العرب فى جاهليتهم معها روابطَ وصلات ، أشبه بالعهود والمواثيق . . قد ألزموا أنفسهم حِيالَها أموراً اتخذت صبغة عقائدية ، لايمكن أن يتحلّلوا منها ..

فإذا ولدت الناقة كذا ، أو الشاة كذا ، أو علق من الفحل كذا وكذا من النّوق . . أو نحو هذا — كان أمراً لازماً أن يُمضىَ الرجل منهم ماجرت به تلك العادة التى اعتادوها،فإن لم يُمضها توقّع أن يحلّ به البلاء، وتنزل به المكاره ، فى نفسه ، أو ولده وأهله ، أو ماله .. كأنّ قوى خفيّة وراء هذه السوائم ، تقتصّ لها ، وتأخذ بحقها ممن نقض ميثاقه معها . . وهذا مدخل كبير من مداخل الشرك بالله ، وذريعة من الذرائع المؤدية إليه .

وقوله تعالى : « ماجعل الله من بحيرة .. الآية » نفىٌ لهذه المعتقدات السيئة القائمة بين الناس ، وأنها لم تكن مما شرع الله ، ولكنها ممّا ولدته الأهواء المضلّة ، وأملته العقول المظلمة . . وفى قوله تعالى : « ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب » بيان لموقع هذه المنكرات من الحق ، وأنها أبعد ماتكون منه ، إذ هى من مفتريات الكافرين وأباطيلهم ، يضيفونها كذباً إلى الله ، وينسبونها زوراً إلى دينه .. « ويقولون هى من عند الله وماهى من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » .

وقوله تعالى . « وأكثرهم لايعقلون » هو كشف لحقيقة هؤلاء الكافرين، وما فى أيديهم من مفتريات وأباطيل .. فإن أكثر هؤلاء الضالين لايعقلون ، لأنهم لو عقلوا لما حملوا فى نفوسهم هـذا التوقير لتلك الأباطيل ، ولرأوا أنهم قد أذلّوا أنفسهم ، واسترخصوا عقولهم ، فأعطوا ولاءهم لتلك الحيوانات ، وجعلوا لها سلطاناً عليهم ، لاينازعونها فيه ، ولايخرجون عن حدوده معها .

وقوله تعالى : « وإذا قِيلَ لهم تعالَوْا إلى ما أنزلَ اللهُ وإلى الرَّسُولِ قالوا حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا » . . هو تسفيه لأحلام هؤلاء الضالين .. فقد أطبق عليهم الجهل ، واشتمل عليهم السَّفه والضلال . فليس مصيبةُ الإنسان فى أن يضلّ عن جهل ، أو يتعثّر من عَشًى أو عمى ، ولـكن المصيبة كلها فى أن يُنبّه من ضلاله ثم لا ينتبه ، ويُقاد من يده فيأبى أن يتبع قائده . إن ذلك هو الضلال المبين ، والتّيه الذى لاعودة منه ، ولا أمل فى نجاة وراءه .

فهؤلاء الضالون إذا دعاهم داعى الحق إلى أن يردّوا من شرودهم ، وإلى أن يعودوا إلى كتاب الله ، وما تحمل آياته البينات من هدى ونور، وإلى رسول الله، وما يحمل بين يديه وعلى شفتيه من أقباس الحق وأضوائه — إذا دعوا إلى هذا الهدى ، لَوَّوْا رءوسهم ، ولَوَوْا وجوههم ، وقالوا : « حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا » أى أن هذا الذى نحن فيه هو الخيرُ لنا ، والسلامة لأنفسنا ولأهلينا .. إننا نحيا حياة آبائنا ، ونسعى سعيهم ، ونقفو آثارهم .. إننا ـ والحال كذلك ـ نسير على طريق معلوم ، مأنوس بخطو آبائنا وأجدادنا ، فكيف نُدعى إلى السّير فى طريق لم يسلكه أحدٌ قبلنا ؟ وكيف نغامر هـذه المغامرة بالدخول فى تلك التجربة الجديدة ، التى لاندرى ماوراءها ؟ .

وقد ردّ القرآن الـكريم على هذا السفه ، وهذا الجمود الغبيّ ، بما يُفحم ويُخرس . « أوَلو كان آباؤهم لايعلمون شيئاً ولا يهتدون ؟ » .. أفهذا منطق

يأخذون به أنفسهم ؟ وتلك حجة يقيمونها بين يدى ضلالهم وغيهم ؟ إنه لو أُخذت الحياة بهذا المنطق ، وقبلت هذه الحجة ، لكان على الناس أن يُمسكوا بالزمن أن يتحرك ، وبالأشياء أن تظل على حالٍ واحدة ، لاتتحول عنها أبداً .

ولكن أنّى للناس أن يفعلوا هذا ؟ وأنّى للحياة أن تستجيب لهم لو أرادوا؟ إن الحياة وأشياءها فى تحول وتطور .. وفى كل لحظة تلبس الحياة ثوباً جديداً، وتُبلى قديماً .. وهكذا تبلِي وتُجَدِّد : وتخلع وتلبس ..

وماذا يبقى للإنسان من عقله ، بل ماذا يبقى له من وجوده ، إذا لم يكن له حرية التحرك فى الحياة ، والنظر فى كل جديد يطلع عليه منها ، ثم الأخذ بما يقضى به العقل المتحرر من قيود التقاليد ، مما يراه حقاً وخيراً ؟ وإنه لبالغ من ذلك مافيه خيره وسعادته ، إذ لايغيب عن نظر العاقل وجه الخير ، ولا تخفى عليه سِمَته .. فالحلال بين والحرام بيِّن .. « وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ * وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلاَ الْأَمْوَاتُ » (١٩ ــ ٢٢ : فاطر) « وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ » (١٢ : فاطر) .

الآية : (١٠٥)

« يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » (١٠٥)

التفسير : وإذ كان الحلال بيّناً والحرام بيّناً ، وإذ قد دُعى الضالون ، إلى الهدى ، فلم يَسْمَعُوا ، ونُودوا من قريب إلى الرشاد فلم يَرْشدوا . «وقالوا حسبنا

ماوجدنا عليه آباءنا » ـ إذ كان ذلك فلا يَشْغَلُ المؤمنون أنفسَهم بهم ، ولا يقفوا طويلا معهم على هذا المرعى الوبيل ، الذى يَرْعَوْن فيه ، فلربما غفل المؤمنون عن أنفسهم وهم على هـذا الموقف ، وفاتهم ما كان ينبغى أن يحصلوه لأنفسهم من خير . .

وفى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم » دعوة للمؤمنين أن يلتفتوا إلى أنفسهم أولا ، وأن يعملوا على تحصينها من مسارب الضلال ، وتزويدها بالمزيد من البر والتقوى .. فإنهم إن أنقذوا أنفسهم أولاً كان ذلك كسباً لهم ، وللحياة الإنسانية .. وذلك ماينبغى أن يكون موضعَ نظرهم ، ومحل اهتمامهم أولا ، فإن بقى عندهم بعد هـذا فضل من قوة لاستنقاذ من إذا مدوا إليه أيديهم استجاب لهم ، فعلوا ، وإلا كان عليهم أن ينجوا بأنفسهم ، وألاّ يكونوا كمن يمد يده إلى غريق يأبى إلا أن يموت غرقاً ، فيهلك ويهلك من أعطاه يدَه .

وهذا لايمنع المؤمن أن يكون رسولَ خيرٍ وهدًى إلى الناس ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، فهذا من دعوة الإسلام له ، ومن حق العباد عليه . ولكن لن يكون ذلك بالذى يُذهله عن نفسه ، ويَشغله عن مطلوبها منه ، فى تحصيل مايقدر عليه من البر والتقوى . .

فالآية لاتعنى أبداً أن يعتزل المسلم الناس ، وأن يعيش لنفسه وفى داخل نفسه ، ومَن فهمها على هذا الوجه فقد أخطأ الفهم ، وجانب الصواب . .

وإنما الآية دعوة إلى النّجاة بالنفس فى الحال التى يواجه الإنسان فيها شراً صارخاً ، وضلالا متكاثفاً ، بحيث لايصل إلى الآذان صدًى من كلمة حق تقال ، ولا ينفذ إلى العيون لمعة من مصباح هدًى يضىء . .

رُوى أن أبا ثعلبة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ، فقال

صلوات الله وسلامه عليه : « ائتمروا بالمعروف وتناهَوْا عن المنكر ، حتى إذا رأيتَ دُنْيا مُؤْثَرة ، وشحًّا مطاعاً ، وهوًى متَّبعاً ، وإعجابَ كلِّ ذى رأى برأيه ، فعليك بخُوَيْصة نفسك ، ودع الناس وعوامّهم » . .

وتجد فى قول الرسول الكريم ، وفى تلك الكلمات الموجزة ، أوضحَ بيان وأبلغَ بلاغ فى الدلالة على مفهوم الآية الكريمة . .

فنى قول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « ائتمروا بالمعروف وتناهوْا عن المنكر » هكذا بخطاب الجمع ، هو دعوة عامة للمسلمين جميعاً ، أن يكون أمرُهم بينهم قائماً على هذا الدستور : الائتمار بالمعروف ، والتناهى عن المنكر . .

وفى قوله صلوات الله وسلامه عليه : « حتى إذا رأيتَ دنياً مؤثرة وشُحًّا مطاعاً وهوًى متبعاً ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخُوَيّصة نفسك ودع الناس وعوامهم » . فى هذا بيان لموقف آخر من موقف المسلم فيما هو مطلوب منه ، من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفى كلمة « حتى » إشارة إلى تلك الغاية التى يصل إليها المسلم ، ويقف عندها على النظر إلى خاصة نفسه ، وذلك حين يستشرى الفساد ، ويطبق الظلام ، ويتلفتُ إلى الناس من حوله ، فإذا هم على طريق وإذا هو على طريق .. ولهذا جاء الخطاب بلفظ المفرد ، « حتى إذا رأيت » الذى يشعر بأنه يقف وحده ، جبهةً مواجهة لهذا البلاء الجارف ، الذى إن لم يأخذ فيه لنفسه حِذْرَها ، جرفه التيار ، وغرق مع المغرقين .

الآيات : (١٠٦ ـ ١٠٨)

« يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ

حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » (١٠٨)

التفسير : هذه الآيات الثلاث تعَرِض لأمرٍ كان يقع كثيراً فى حياة المسلمين وهم على سفرٍ ، لغزوٍ أو تجارة ، وينقطع عن أهليهم وذوى قرابتهم .. فيمرض أحدهم ، ويجد ريح الموت دانيةً منه ، وبين يديه مال أو متاع ، يريد أن يصل إلى ولده وأهله . .

تلك هى المشكلة التى عرضت لها هذه الآيات ، وجاءت لتضع العلاج السليم لها ، حتى تصل الحقوقُ إلى أهلها ، وحتى يموت الميت وهو مطمئن إلى أنه لن يُعتَدَى على ماله ، وهو لا يملك أن يدفع هذا الاعتداء ، وقد أصبح فى عالم الموتى !

والملاحظ فى هذه الآيات أنها جاءت على نظم خاص ، وأسلوب يكاد يكون فريداً فى القرآن الكريم . .

فقد كثُر فيها الخروج على مألوف النظم القرآنى ، خروجاً متعمَّداً . .

فهناك تقديم وتأخير . . بحيث تبدو الجمل ، وكأنما يدفع بعضُها بعضاً ، ليزيله عن موضعه قسراً . .

وهناك جُمل اعتراضية ، تكاد تعزل المبتدأ عن خبره ، والفعل عن فاعله . . بحيث لا يُهتدى إلى الجمع بينهما إلا بعد نظر دقيق ، وبحث شامل . .

وهناك ضمائر يتجاذبها أكثرُ من عائد يريدها أن تعود إليه ، وتلتقي به . .

ثم هناك هذا العسر الشديد في التقاط الكلمات ، وشدّها إلى اللسان ، وجمعها عليه . .

هذا وذاك كلّه ، مما يجعلنا نقف بين يدى هذه الآيات ، ونملأ العين والقلب من بعض مايفيض من أضوائها ، لعلّنا نمسك بشيء من الحكمة في قيام بنائها على هذه الصورة الفريدة في النظم القرآني !

ونقرأ الآيات مرة ومرة ، فإذا هي كعهدنا بها تتأبّى على اللسان ، وتكاد تمسك به . .

ثم نعود فنقرؤها قرآناً مرتلاً ، ونجيئها مستصحبين قولَه تعالى : « ورتّل القرآن ترتيلاً » ، فإذا هي كلمات متناغمة ، يأنس بعضها إلى بعض ، ويتجاوب بعضها مع بعض ، وإذا هي على اللسان ليّنةَ المسّ ، عذبةَ المذاق ، وإذا هي على الأذن لحن موسيقى ، علوىّ النغم ، يهزّ القلب ، ويمسك بمجامعه !

وننظر في وجه الآيات مرة أخرى ، فإذا هي مسفرة مشرقة ، تتلألأ بأضواء الحكمة والموعظة الحسنة ، وإذا بنا منها بين يدى دعوة قاهرة ، وسلطان غالب ، يُلزمنا أن نقف عند حدوده ، ويمسكنا أن نفلت من بين يديه ، إذا نحن حاولنا ذلك ، واستجبنا لداعى أنفسنا للإفلات منه . .

ونسأل : ماحكمة هذا التدبير في النظم الذى جاءت عليه تلك الآيات ؟

ولم هذا الخروج الذى جاء عن محدٍ ، على غير المألوف من النظم القرآنى ؟

والجواب :

أولا : أن هذه الآيات تَضبط حالا من أحوال الناس ، تقع على صورة غير مألوفة لما تجرى عليه حياتهم ، فى القالب الأعمّ منها . .

فالناس أكثر مايموتون ، يموتون وهم بين أهليهم ، وذوى قَرابتهم . . حيث يجد من يحضره الموتُ منهم ، الوجوهَ التى ألِفَها ، وعاش معها ، وأودعها سرّه وماملكت يمينُه . . فلا يجد ـ والحال هذه ـ من الوحشة للموت ، أو الفزع منه ، والخوف الكارب من الضياع له ، ولماله ومتاعه الذى بين يديه ، مايجده ذلك الذى يموت غريباً ، فى طريق سفر ، أو دار غُربة . .

ومن هنا جاءت كلمات الآية متزاحمة ، متراكبة ، أشبه بتلك الحال القلقة المضطربة ، المستولية على هذا الغريب الذى يحضره الموت ، وفى صدره كثير من الأسرار ، يريد أن يُفضىَ بها إلى أهله ، ويكشف مستورها لهم .

هذه واحدة !

وثانياً : الذين حضروا هذا الميت الغريب ، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة من الحياة ، قد شهدوا منه هذا الاضطراب المستولى عليه ، وتلك الوحشة التى تمسك لسانه ، وتردّ الأسرار التى تضطرب فى صدره . . ثم إذ هم يُطلّون عليه بنظرات حزينة ، مواسية ، يرى أنهم أهلٌ لأن يُفضى لهم ببعض ماعنده .. إذ كان مالابد أن يكون . .

وهنا شدٌّ وجذبٌ ، وأخذ وعطاء ، وخواطر متناثرة ، وكلمات حَذِرة قلقة ، ملفّفة فى دخان من الريبة والشك ، وأسرار تمشى على استحياء ، يُعرّف بعضُها ويُعرض عن بعض . .

ومن هنا أمسك النظم القرآنى بهذه المشاعر المختلطة المضطربة ، وعَرَضها

فى هذه الصورة ، التى تـكاد تـكون وِعاء حاملا لتلك المشاعر ، بحيث تُرى وتُحس .

وتلك أخرى . .

وثالثاً : هذا المتاع الذى بين يدى هذا الإنسان المحتَضَر . . إنه متعلق بأكثر من جهة . . فهناك صاحب هذا المتاع الذى يريده أن يبلغ أهلَه ، وهو فى شك من أن يصل إليهم سالماً . . وهناك الشاهدان اللذان أشهدهما المحتضر على وصيّته ، ووضع فى أيديهما كل مافى يده . . إنهما يحملان أمانة ليس وراءها من يطالبهم بها ، إلا ما معهما من إيمان وتقوى . . وما أكثرَ وساوس النفس فى تلك الحال ، وما أكثر نداءها الصارخ لاغتيال هذا المال الذى غاب عنه صاحبه . . إن لم يكن كله ، فالخيار الـكريم منه .

وهناك ورثة صاحب هذا المال ، ومن أوصى لهم بشىء منه .. إنهم مهما حَرَص الشاهدان على أداء الأمانة كاملة فيما اؤتُمنا عليه ، ومهما تحرّيا الصدق فى قولهما ، وفيما أدى إليهما هذا الميت من اعترافات وأسرار وأموال ـ فان يقع هـذا كله من أهل الميت موقع اليقين والطمأنينة ..

من أجل هذا أيضاً كان تنازع الـكلمات القرآنية فيما بينها ، حتى لـكأنها هذه الجهات المتنازعة المتخاصمة ، فى مسارب نفوسها ، وفى مجرى خواطرها ، حتى وإن لم يتخذ هذا النزاع وذلك التخاصم صورة عملية فى واقع الحياة ..!

وقد آن لنا ـــ بعد هذا ـــ أن ننظر فى معنى هذه الآيات ، على هـذا الوجه الذى فهمناها عليه ، ونظرنا إليها منه ..

فقوله تعالى : « يـأيها الذين آمنوا شهادةُ بينِكم إذا حضر أحدَكم الموتُ حين الوصية اثنان ذوا عدلٍ منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم فى الأرض فأصابتكم مصيبة الموت . » هو تشريع للمؤمنين ، فيما يواجهون به موقفاً كهذا

الموقف ، وهو موت أحدهم ، وهو يضرب فى الأرض ، بعيداً عن أهله ، وذوى قَرابته .

ففى تلك الحال ينبغى أن يتخير المحتضر شاهدين ، يتوسم فيهما الأمانة والاستقامة ، ثم يدعوهما إليه ، ويُفضى إليهما بما يريد أن يوصى به أهلَه فيما خلفه وراءه من شون تتصل بماله وأهله ، ومالَه ، وما عليه .. ثم يسلّم إليهما مايريد أن يحملاه إلى أهله ، من ماله ومتاعه .

فقوله تعالى : « شهادةُ بينِكم » مبتدأ ، خبره « اثنان » . والجملة الخبرية هنا مراد بها الأمر والإلزام .. والتقدير ، إذا حضر أحدكم الموت فشهادةٌ قائمة بينكم لهذا المحتضر ، يشهدها اثنان ذوا عدل منكم .. أى من المؤمنين .

« أو آخران من غيركم » أى غير المؤمنين ، عند الضرورة .

وقوله تعالى : « فأصابتكم مصيبة الموت » إشارة إلى أن هذا الموت الذى يقع فى الغربة هو شىء أكثر من الموت ، لما يبعث من حسرة مضاعفة .. فى المحتضر الذى لم يشهده أهله، وفى أهله الذين لم يحضروا موته ، ولم يؤدّوا ما يجب للميت على الحىّ .. ومن هنا جاء التعبير عن الموت بالمصيبة ، الذى هو فى واقعه شىء طبيعى ، فى غير تلك الحال التى وقع فيها .

« يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ » .

فإذا أدّى الشاهدان ما حمّلهما الميت إلى أهله ، من قول ، ومن مال ومتاع ، ورضى أهله بما أدّى إليهما الشاهدان،فقد انتهى الأمر عند هذا الحدّ،ولا متعلق لأحد عند هذين الشاهدين .

أما إذا وقع فى نفس الورثة وأولياء الميت شىء من الريبة والشك ، فيما

جاءهم به الشاهدان من عند صاحبهم، ثم ارتقى هذا الشك والارتياب إلى التهمة، ثم النزاع والخصام، فإن للقضية وجها آخر .. بل وجهين آخرين :

والوجه الأول، هو أن يُدْعى الشاهدان إلى الحلِف على ما أشهدهما عليه الميت، وما حملهما من مال ومتاع ..

وحَلِف الشاهدين مشروط بشرط، وهو أن يُدْعَيَا بَعَد الصلاة مباشرة، وهما خارجان من بين يدى الله، قبل أن يتلبّسا بشيء من أمور الدنيا، وذلك ليكون لهذا الموقف أثره فى إقامة شهادتهما على الحق والعدل، أو على ما هو أقربُ إلى الحق والعدل . .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « تَحبِسُونَهما من بعد الصلاة إن ارتبتمُ فيقسمان بالله لانشترى به ثمناً ولو كان ذا قُرْبَى ولا نكتمُ شهادةَ الله إنا إذن لمن الآثمين » .

فحبسهما من بعد الصلاة، هو إمساكهما قبل أن يتّصلا بالحياة العامة، ويباشرا شئوناً مختلفة فيها .. حتى يكونا أقربَ إلى الخير، وأبعدَ من الضلال .

وقد اختُلف فى الصلاة التى يُحبسان بعدها، أهى صلاة العصر، أو صلاة الظهر ؟ ..

والرأى، أنها أى صلاةٍ، حيث أطلق القرآن ذلك، ولم يقيده .

وقوله تعالى : « إن ارتبتم » هو جملة اعتراضية، أريد بها بيان الحال الداعية إلى حلف الشاهدين، وهى الشك والريبة فى شهادتهما . .

وقوله تعالى : « لانشترى به ثمناً ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنا إذن لمن الآثمين » هو بيان لنصّ الحلفة التى يحلف بها الشاهدان .. وفيها من التوكيد والتحذير والتخويف، ما يجعل لهذه الحلفة أثراً واقعاً فى نفس الشاهدين . .

والضمير فى قوله تعالى « به » يعود إلى هذا القسم الذى يُقسمان به ، وأنهما لا يحنثان فى هذا القسم ، ولا يبيعانه بهذا الثمن وإن كثر ، لأنه حطام من حطام الدنيا ، لا يساوى شيئاً إزاء جلال الله وعظمته ، وقد أقسما به ، وأشهداه على ما يقولان .

هذا ، وقد أثار بعض الفقهاء والمفسرين اعتراضاً على حلف الشاهدين .. وأنهما حين رَدّ ورثة الميت شهادتهما ، أصبحا متهمين بالنسبة لهم ، على حين أصبح أهل الميت أصحابَ دعوى عليهما . . وإذ لم يكن لأهل الميت بينة على دعواهم ، كان على المدّعَى عليهما الحلف ، عملاً بالمبدأ الشرعى : « البينة على من ادّعى واليمين على من أنكر » . فهما على هذا الرأى متهمان ، وليسا شاهدين .

فإذا وجد أهل الميت مقنعاً بعد حلف الشاهدين ، انتهى الأمر ، وإلا سارت القضية إلى الوجه الآخر من وجهيها ..

وفى هذا الوجه ينتدب أهل الميت اثنين منهما ، فيشهدان بما يعلمان من أمر الميت ، مما لم يشهد به الشاهدان من قبل..

على أنه لا يصار إلى هذا الموقف إلا بعد أنْ يَثْبُت بالبيّنة القاطعة ، والبرهان الواضح ، أن الشاهدين لم يقولا الحق، ولم يؤدّيا الأمانة.. وفى هذا يقول الله تعالى :

« فإن عُثر على أنهما استحقّا إثماً فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنّا إذاً لمن الظالمين » .

والمعنى : فإن ظهر ، أو تبين أن الشاهدين قد اقترفا إثماً بسبب تلك الشهادة التى أدّياها على غير وجهها ، فليقم آخران مقامهما بتلك الشهادة ، من أهل الميت الذين فرُض عليهم الشاهدان السابقان ، واللذان كانا أولى منهم بالحكم فى

شئون قريبهم الميت، لأنهما شاهدان، رأيا، وسمعا، على حين أن أهله غائبون عنه، لم يروْا ولم يسمعوا ..

وفى قوله تعالى : « فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان » تحريض للشاهدين على أن يؤدّيا الشهادة على وجهها، وأنهما بما احتملا من أمانة الشهادة، أصبحا بهذه المنزلة من الميت، وأنهما أقربُ من قرابته وأولى منهم بكلمة الفصل فى شئونه، ولكنهما إذا خانا الأمانة، ولم يؤديا الشهادة على وجهها، زُحزحا عن هذا الموقف، وانتقلا من منصّة الحكم، إلى موقف الاتهام .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى «ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن تُردَّ أيمانٌ بعد أيمانهم » .. أى فى هذا التدبير الحكيم بإقامة شاهدين من أولياء الميت مقامَ هذين الشاهدين ، عند العثور على خيانتهما ـ فى هذا مايدعوهما إلى الحرص على أداء الشهادة، أقربَ ماتكون إلى الحق، إن لم يكن ذلك عن ديانةٍ وإيمان، كان عن خوف من الفضيحة والاتهام والخزى أمام الناس .

وقوله تعالى : « واتقوا الله واسمعوا والله لايهدى القوم الفاسقين » هو دعوة للشاهدين، ولأولياء الميت ، ثم لكل مؤمن ، بتقوى الله ، والامتثال لأمره ونهيه ، فمن خرج عن شريعة الله ، فهو فى ضلال دائم ، لايهتدى إلى خيرٍ أبداً .. « ومن يضلل الله فما له من هادٍ » (٣٥ : الرعد) .

الآية : (١٠٩)

« يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » (١٠٩)

التفسير : الظرف فى قوله تعالى : « يومَ يجمع الله الرسل » متعلق بقوله تعالى فى الآية السابقة : « والله لايهدى القوم الفاسقين » أى أن الله لايهدى الفاسقين ، إلى رضوانه ، ونعيم جناته ، ، يومَ القيامة ، يومَ يجمع الله الرسل ..

وسؤال الرسل يوم القيامة ، يكون فى مواجهة من أُرسلوا إليهم ، ومَن دانوا بشريعتهم، حيث يقول الله تعالى : « فلنسألنّ الذين أُرسِل إليهم ولَنَسْأَلنّ المرسَلين » (٥ : الأعراف) .

وفى هذا الجمع بين الرسل وبين من أُرسلوا إليهم ، وفى هذه المساءلة فى مواجهتهم ، تحذير من هذا الموقف ، الذى يُجزَى فيه من وقف مِن رسل الله موقف المحادّة والعناد ، حيث لايجد الضالّون والمعاندون ما يقولونه ، وحيث لايكون قولُ الرسل فيهم إلا وبالاً عليهم ، وخزياً وفضْحاً لهم ..

وقوله تعالى : « ماذا أجبتم » أى ماذا أُجبتم به ممن دعوتموهم إلى الإيمان ؟ وهل استجابوا أم أبوا ؟ ومن استجاب منهم ومن أبى ؟

وفى قوله تعالى : « قالوا لاعلم لنا » وفى التعبير بلفظ الماضى عن إجابتهم ، مايشير إلى أن ذلك هو قول الرسل دائماً ، إذا سئلوا من قبل الله عن شىء ! إن علمهم بهذا الشىء لايعتبر علماً إلى علم الله ، الذى يعلم الشىء ظاهراً وباطناً ، وحقيقة وكوْناً .

وقوله تعالى : « إنك أنت علام الغيوب » .. الغيوب جمع غيب ، وهو بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى شىء واحد ، واقع تحت علمه ، أما بالنسبة للرسل وغيرهم ، فهو غيب وغيوب .

الآية : (١١٠ ـ ١١١)

« إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ

إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ » (١١١)

التفسير : يوم يجمع الله الرسل ، يوم القيامة ، ويسألهم الحقّ سبحانه وتعالى : « ماذا أُجبتم » ـ في هذا اليوم يستدعى سبحانه وتعالى عيسى عليه السلام بين يديه ، ويذكّره بأفضاله ونعمه، وما أجرى على يديه من معجزات ..

وفى إلفات عيسى ، عليه السلام ، إلى هذه النعم ، وفى تذكيره بالمعجزات التى طلع بها على بنى إسرائيل ـ فى هذا تسفيه لبنى إسرائيل ، السابقين منهم واللاحقين ، إذ كفروا بتلك المعجزات الناطقة ، التى لاينكرها إلا مكابر ومعاند ، ولايمارى فيها إلا غوىّ ضال ، أحمقُ جهول .

فقد كان كلام عيسى فى المهد ، وخَلقه من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً ، وإبراؤه الأكمه والأبرص ، وإحياؤه الموتى ، وبعثهم من القبور ـ كان هذا ، بل بعضُ هذا جديراً به أن يبعث الطمأنينة والإيمان ، فى قلب أى إنسان له مَسْكة من عقل ، أو أثارة من إدراك، حيث يرَى وليداً يخرج من رحم أمه ليومه ، ينطق بلسان مبين ، ومنطق مستقيم ، وهو مع هذا لايملك من أمر نفسه شيئاً ، إذ هو مازال فى صورة الوليد ليومه.. فى كل شىء ، إلا هذا اللسان الذى نطق به . . !

فمن أنطقه ؟ ومن أعطاه تلك الكلمات البيّنات ؟ ومن منح لسانه هذه القدرة على النطق بها فصيحةً مُبِينة ؟ أليس ذلك برهانًا مُبينًا على أن مانطق به هذا الوليد ، هو إشارة إلى أنه آية من آيات الله ، ومعجزة من معجزاته ، تشهد بأنه رسول من الله رب العالمين ؟

وإذا لم يكن فى هذا النطق آية متحدّية ، يشهدها بنو إسرائيل ، أفلم يكن إحياؤه الموتى ، وإبراؤه الأكمه والأبرص ، وخلقه من الطين طيراً .. أفلم يكن فى هذه الآيات المتظاهرة مايقيم لبنى إسرائيل طريقًا إلى الإيمان بهذا الإنسان الذى أجرى الله على يديه تلك المعجزات ، وإلى أنه رسول الله ، يحمل إليهم كلمات الله وآياته ؟

وبأى شىء يؤمن الناس إذا لم يؤمنوا بتلك الشموس الطالعة ، لايحجبها سحاب أو ضباب ؟ وبأى داعٍ يدعوهم الله سبحانه إليه ، إن لم يكن فى هذا الداعى مَقنعاً لهم ، وهاديًا يهديهم إلى الله ؟

إنه ليس بعدَ هذا إلا أن يروْا الله جهرةً .. !

وقد فعلها بنو إسرائيل من قبل ، فقالوا لموسى : « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » (٥٥ : البقرة) .

ألاَ ما أشدَّ غَباء القوم ، وما أقسى قلوبهم ، وما أنكد حظهم من البصيرة والأبصار ! « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً » (٤٤ : المائدة) .

هذا ، وقد توسعنا فى معنى هذه المعجزات فى الآيات الواردة فى سورة آل عمران (٤٨ ـ ٥٠ : آل عمران) . فليرجع إليها من شاء .

وفى قوله تعالى : « وإذ كففتُ بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحرٌ مبين » إشارة إلى ما أبطل الله سبحانه

وتعالى به مكرَ بنى إسرائيل ، حين مكروا بعيسى ، وأرادوا صلبه ، مدّعين عليه كذباً وبهتاناً أنه ساحرٌ مُشَعوِذ ، يدّعى على الله كذباً أنه « المسيح » ، فنجّاه الله منهم ، وأوقعهم فى سوء أعمالهم ، وكتب عليهم عقوبة دم نبىّ ، أيقنوا أنهم قتلوه : « وما قتلوه وماصلبوه ولـكن شُبّه لهم » (٥٦ : النساء) .

وقوله : « و إذ أيدتك إلى الحواريين أن آمنوا بى وبِرَسولى قالوا آمَنَّا واشهَدْ بأنّنا مسلمون » معطوف على قوله تعالى : « إذا أيدتك بروح القدس » وما بعده .. أى واذكر ياعيسى من نعمتى عليك أنى أوحيت إلى الحواريين وألهمتهم أن يتبعوك ، ويكونوا أنصاراً لك ، وقوةً إلى جوارك ، فى مواجهة القوى الضالّة من بنى إسرائيل .. فآمن هؤلاء الحواريون بك ، وصدّقوك ، وكانوا رِدْءا لك ، وأنساً لو حشتك فى هذا الظلام الـكثيف المنعقد حولك .

والحواريون : جمع حوارىّ ، والحوارى : هو الناصر والمعين على الخير ، وأصله اللّباب من كل شىء ، ومنه الُحوارَى ، وهو لباب الدقيق .

الآيات : (١١٢ ـ ١١٥)

« إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ اتَّقُوا ٱللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَآ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ ٱلْعَالَمِينَ » (١١٥)

التفسير : وقع بين المفسرين اختلاف شديد فى مائدة بنى إسرائيل هذه ، وفى الحواريّين الذين طلبوا هذا الطلب ..

فأنكر بعضهم أن يكون من الحواريين هذا الطلب المتحدّى ، الأمر الذى لا يكون إلا من إنسان لم يؤمن بالله . . وكيف وهم قد دعاهم الله إليه فاستجابوا من غير تردد ، وتبعوا المسيح ، وساروا مسيرته خطوة خطوة ، كأنهم بعض ظِلّه على الأرض ؟

وقد كان للمنكرين على الحواريين أن يكون منهم هذا الطلب ، تأويلان لهذا الاعتراض . .

التأويل الأول : أن هؤلاء الحواريين ، لم يكونوا مؤمنين إيمانا صادقا ، وأنهم حين دُعوا إلى الإيمان فقالوا «آمنّا واشهد بأننا مسلمون» ـ لم يكن هذا القول إلا بأفواههم ، ولم تؤمن قلوبهم فلا يُستغرب منهم ـ وهذا إيمانهم ـ أن يطلبوا هذا الطلب ، الذى لا يكون ممن آمن بالله إيمانا صادقا !

وهذا التأويل فاسد ، ظاهر الفساد .

فالحواريون مَدْعوُّون من الله ، مُلهَمون إلى الإيمان به . . فكيف يكون إيمانهم على تلك الصفة المزيلة المنافقة ؟

إن من يُدْعى من الله هذه الدعوة ، ويُلهم هذا الإلهام إلى الإيمان به ، لابدّ أن يكون أشدَّ الناس إيمانا ، وأوثقهم يقينا واطمئنانا . وإن غيرَ ذلك هو اتهام لله ، ولعلمه ، وقدرته . .

ولقد كان الحواريون على إيمان وثيق بالله ، أقربَ إلى إيمان أنبياء الله ورسله ، كما يشهد لذلك قول الله تعالى فيهم : « يا أيها الذين آمَنُوا كُونوا أنْصَارَ الله كما قال عيسى بن مريم للحواريّين من أنصارِى إلى الله قال الحواريّون

نَحْنُ أنْصَارُ الله . . . » (١٤ : الصفّ) . . فهم القدوة فى وَثاقة الإيمان ، وفى نُصرة دين الله . ونصرة رسول الله . . ولهذا دعا الله المؤمنين أن يكونوا أنصارَ الله ورسول الله « محمد » صلوات الله وسلامه عليه . . كما كان هؤلاء الحواريون أنصار اللهِ ، وأنصارَ رسول الله عيسى ، عليه السلام .

فكيف يلتقى هذا القول بنفاقهم وضعف إيمانهم مع هذا الذى يقوله الله سبحانه وتعالى فيهم ؟ إن مثل ذلك القول فى الحواريين هو تكذيب صريح لكلام الله !

أما التأويل الآخر لهذا الطلب الذى كان من الحواريين بإنزال مائدة من السماء عليهم ، فقد اعتمد فيه القائلون به ، على قراءة من قرأ قولَهُ تعالى : « هل يستطيع ربُّك » على هذا الوجه : « هل تَستطيع ربَّك » أى هل تستطيع أنت يا عيسى أن تطلب من ربّك أن ينزل علينا مائدة من السماء . . فتكون الاستطاعة هنا مضافةً إلى عيسى عليه السلام ، لا إلى الله سبحانه وتعالى . . وعلى هذا ، فإنه لابأس من أن يطلبَ الحواريّون إلى عيسى هذا الطلب ، ويُراودوه عليه !

وهذا تأويل مقبول على هذه القراءة . .

ولكن ما تأويل طلب الحواريين على القراءة المشهورة : « هل يستطيع ربُّك أن ينزل علينا مائدة من السماء » ؟

نقول — والله أعلم — إن الاستطاعة هنا لايراد بها القدرةُ على إجابة الطلب ، وإنما المراد بها الرضا والقبول له ، بمعنى : هل يرضى ربّك ، أو يقبل ربّك أن ينزّل علينا مائدة من السماء ؟

فهذا أمر لم تجرِ به العادة ، ولم يقع فى حياة الناس . . والحواريون إذ يطلبون

هذا الطلب الغريب ، لايتوقعون استجابته ، وإنما كان طلبهم له من قبيل الاستطراد للمعجزات الخارقة ، التى كانت تقع تحت حواسِّهم ، من إحياء الموتى ، وخلق طير من الطين ، وبعث الحياة فيه ، وإبراء الأكمه والأبرص . . فماذا لو طلبوا هذا الطلب الغريب ؟ هل يقبله الله ؟ وهل يجيبهم إليه ؟ إنهم لايشكّون فى قدرة الله ، ولكنهم يشكون فى أن يُستجاب لهم فيما طلبوا . . ومن هنا أخذ هذا الطلب صورةَ الاستدعاء بالقدرة والاستطاعة . . لا بالإضافة إلى من طُلب إليه ، ولكن بالنسبة لمن طُلِب له . .

كمن يقول لمن هو أعلى منه منزلة : هل تستطيع أن تعطينى هذا الكتاب الذى معك ؟ إنه لاشك مستطيع ، إذ لاشىء يمسكه عن ذلك . . ولكن الأمر متروك لتقديره هو . . وهل يرى هذا الشخص مستحقاً لهذه المكرمة أو غيرَ مستحق لها ؟

وليس فى قول الحواريين : « هل يستطيع ربُّك » إنكار لربوبية الله لهم ، ولكنه استصغار لشأنهم ، وإخفاء لذاتهم ، وهم يطلبون هذا الطلب ، الذى لايصح أن يكون طالبُه من الله إلا إنساناً له عنده من المنزلة مثل مالعيسى عليه السلام ، فهو ربّه الذى أفاض عليه هذه المكرمات ، وهو ربّه الذى يطلب منه هذه المكرمة . . ولهذا أضافوا عيسى إلى الرب ، ولم يضيفوا هم أنفسهم إليه ، استصغاراً لمكانهم فى هذا المقام .

وفى قول عيسى عليه السلام للحواريين : « اتقوا الله إن كنتم مؤمنين » تأديب لهم ، ودعوة إلى ماهو أولى بالمؤمنين أن يكونوه مع الله ، كما يقول السيد المسيح فى بعض تعاليمه : « لاتجرّب الربَّ إلهك » . . فذلك هو الكمال كلّه ، والإيمان كلّه .

ولكن — كما قلنا — المؤمنين المقربين إلى الله ، المشاهدين لعظمة جلاله ، المحفوفين بخفىّ ألطافه — لهؤلاء المؤمنين أنس بروح الله ، وانتشاء بنسائم قربه ،

وأنفاس مودته ، وذلك مما يحملهم على هذا الدّلال فى طلب مالا يَطلب الناس ، ولا يطمعون فيه . .

وفى إبراهيم عليه السلام مَثَلٌ لهذا .. فقد طلب من الله — سبحانه — أن يُرِيَه كيف يحيي الموتى ! وقد أجابه مولاه — كرماً ولطفا — إلى ماطلب . .

وكذلك ما كان من موسى — عليه السلام — حيث طلب أكثرَ من هذا ، فقال : « ربِّ أرنى أنظرْ إليك » ! وموسى يعلم يقينا أن الله سبحانه وتعالى لايمكن أن يُرَى ، إذ لو رُؤِى لتحدّد ، ولو تحدّد لتحيّز ، ولو تحيّز لكان مخلوقا . . لاخالقاً !

وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . . ومع هذا فقد طلب موسى هذا الطلب، الذى لاتدركه الأبصار . . فكان جواب الحق جلّ وعلا : « لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف ترانى .. فلما تجلّى ربّه للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صَعِقاً . . فلما أفاق قال سبحانك . . تُبتُ إليك وأنا أول المؤمنين » (١٤٣ : الأعراف) .

فمثل هذا الطلب من الحواريين ، لايدلّ بحال على ضعف إيمان ، أو شك فى الله ، ولكنه طلبُ المزيد من الإيمان ، والرضوان من الله! ولهذا كان جوابهم على عيسى عليه السلام : « نُرِيدُ أن نأكلَ منها وتطمئنَّ قلوبُنَا ونعلمَ أن قد صَدَقْتَنَا ونكونَ عليها من الشاهدين » فهم يريدون المائدة لأمور . . منها :

أولا : أن يأكلوا منها . . فهى فى هذا لاتختلف كثيراً عن المنّ والسَّلْوَى الذى أطعمه الله سبحانه وتعالى آباءهم ، حين نجّاهم من فرعون على يد موسى . . فلما كفروا بهذه النعم لعنهم الله ، وضرب عليهم الذلةَ والمسكنة .

وثانياً : أن تطمئن قلوبُهم إلى رحمة الله بهم ، وألطافه عليهم ، باستجابة طلبهم . . وفى هذا مايفتح لهم إلي الله طريقاً يرون منه إشارات السماء

بحواسهم ، بعد أن أدركوها بعقولهم . . وهذا مايبعث فى قلوبهم الطمأنينة التى تثبّت الإيمان ، فلا يهتزّ لعارض يعرض له من ريبة أو شك .

وثالثاً : أن يزداد علمهم بصدق عيسى ، وبصدق هذه الآيات التى تجرى على يديه ، فلا يطوف بأنفسهم منها طائف من الشك والوسوسة ، التى كان يثيرها اليهود حولها .

ورابعاً : أن تكون هذه المائدة المنزلة من السماء شهادة بين أيديهم فى دعوتهم الناسَ إلى الإيمان . . إذ كانوا ممن طعموا منها ، ومثل هذا الطعام السماوى لابدّ أن يترك آثارًا فيمن طعم منه . . وربما كانت آثاره مادية ومعنوية معاً ، يراها الناس ظاهرة عليهم ، فيكون منها شهادة للحواريين ، أنهم ممن لبسوا تلك النعمة الإلهية ، وفى هذا مايجعل القلوب مطمئنة إليهم ، وإلى مايدعون إليه .

وأمر آخر من تلك المائدة ، أثار اختلافاً بين المفسّرين ، حتى لقد رأى بعضهم أن المائدة لم تنزل ، وأن الحواريين حين سمعوا قول الله تعالى : « إنى منزّلها عليكم ، فمن يكفر بعدُ منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين » قالوا : لا حاجة لنا . . فلم تنزل عليهم ! !

وهذا قول مردود ، ورأى فاسد . . وذلك :

أولاً : أن عيسى عليه السلام ، دعا ربّه ، وضَرَع إليه ، أن ينزّل هذه المائدة ، كما طلبها الحواريون ولم يكتف بهذا ، بل لقد جعل لطلبها أسباباً ومبررات من عنده ، حتى لكأن هذا الطلب كان منه ابتداء ، لِمَا حمّل هذا الطلبَ من ثمراتٍ طيبة تجىء معه ، كما يقول الله سبحانه وتعالى على لسانه : « قال عيسى بن مريم اللهمّ ربنا أنزل علينا مائدةً من السماءِ تكون لنا عيداً لأولنا وآخرِنا وآيةً منك وارزقنا وأنت خير الرازقين »

أفبعد هذا لا يستجيب الله لعيسى بن مريم ، ولا يحقق له ما دعا به إليه ؟ إن عيسى يقول : « اللهمّ ربّنا أنزل علينا » ولم يَقلْ عليهم . . ويقول : « تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا » ولم يقل : تكون لهم عيداً لأولهم وآخرهم » وقال « وارزقنا » ولم يقل : وارزقهم . .

فهى عيدٌ وبهجة ومسرّة للمسيح ، ولمن يطعم من تلك المائدة من أتباعه . ثم هى آية من آيات الله وشاهدٌ من شهود قدرته وجلاله .

وهى رزق كريم طيب . . وليست لعنة ، ولا عقوبة . .

وثانياً : أن الله سبحانه وتعالى استجاب لعيسى ، فقال سبحانه : « قال الله إنى منزلها عليكم » . . وفى هذا : أن القائل ليس أيَّ قائل ، بل هو الله سبحانه وتعالى . . «قال الله » .. وأنه سبحانه قد حكم هذا الحكم القاطع المؤكد: « إنى مُنَزلها عليكم » . . هكذا : « إنى منزّلها عليكم » . . وذلك التوكيد. ليرفع أىّ احتمال للشك عند أقلّ المؤمنين إيماناً بالله ، بأن المائدة لم تنزل .

فكيف يقع لعقل عاقل أن كلمة الله لا تنفذ ، وأن قضاءه لا يَمضى ؟ ولا ندرى كيف نظر شيخ المفسّرين « الطبرى » إلى هذه الآية ، ولا كيف طوّع له قلمه أن يجعل لهذا الرأى مكاناً فى تفسيره ؟

وقوله تعالى . « فمن يكفرْ بعدُ منكم فإنى أعذّبه عذاباً لا أعذّبه أحداً من العالمين » إنما هو حِراسة لهذه النعمة العظيمة ، من أن يَعبث بها العابثون ، أو يلحد بها الملحدون.. إنها شمس طالعة فى وجه صبح مشرق . . فمن عَمِى عنها، ولم يهتد بها ، فهو فى حربٍ سافرة مع الله . . لا جزاء له إلا أن يلقى أشد العذاب !

وليس فى هذا تهديد للحواريين ، ولا وعيد لما سيكون منهم من كفر

بهذه الآية ، ومكر بها .. بل هو استبعادٌ لأن يقع شيء من هذا منهم ، وإن جاز أن يقع من غيرهم .. وأنه لو جاز أن يكفر أحد من الحواريين بهذه الآية فإنه سيلقى هذا العذاب .. فكيف يكون العذاب لمن كفر من غيرهم ؟ وهذا أسلوب من أساليب القرآن فى مخاطبة من يُستبعد منهم فعلُ منكر ، ليكون ذلك تخويفاً لغيرهم ، وزجراً لهم عن إتيان هذا الأثم ..

يقول تعالى مخاطباً نبيّه الكريم : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ » (٦٥ : الزمر) .

ويقول سبحانه وتعالى مشيراً إليه صلى الله عليه وسلم : « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » (٤٤ - ٤٧ : الحاقة).

والنبي الكريم أبعدُ من أن يطوف به طائف من الشرك ، وأبعد من أن يتقوّل على الله قولا .. إن ذلك كان أمراً مستحيلا بالنسبة لذاته الكريمة .. ولكنّ المقام مقام تحريم الشرك والتشنيع عليه ، فناسب أن يبرز فى تلك الصورة المفزعة التى تحبط كل عمل ، ولو كان نبيًّا كريماً من أنبياء الله ، ورسولا مجتبًى من رسله .. فكيف غير النبيّ وغير الرسول ! وكذلك الأمر فى التقول على الله والافتراء عليه .

وفى قوله تعالى على لسان السيد المسيح : « تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا » أى ينال منها ، ويسعد بها كلّ من اتبعه ، وآمن به ، واجتمع إليه ، لا الحواريون وحدهم الذين كان منهم هذا الطلب ابتداء - فهى رحمة منزلة من السماء ، ونعمة محمولة على جناح الرحمة ، ينال منها كل من صدّق بصاحب هذه الدعوة ، واتبع سبيله ، مِن أقرب المقربين إليه ، إلى مَن هم أبعد منهم صلة به .

الآيات : (١١٦ ـ ١١٨)

« وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (١١٨)

التفسير : قوله تعالى : « إذ قال الله ياعيسى بن مريم » معطوف على ماقبله مما عطف على قوله تعالى : « يوم يجمع الله الرسل » ..

فهذه المساءلة لعيسى من الله تعالى ، تكون يوم القيامة .. يوم يجمع الله الرسل ..

وفى قوله تعالى : « ياعيسى بن مريم .. أأنت قلت للناس اتخذونى وأمىَ إلهين من دون الله » إنما يراد به إقامة الحجة على أتباعه ، الذين غيّروا معالمَ رسالته ، وقلبوا حقائقها ، واتخذوا من المسيح وأمه إلهين .. المسيح ابن الله ، وأمه مريم زوجاً لله !

وفى خطاب المسيح بقوله تعالى : « ياعيسى بن مريم » إشارة إلى الصفة

التى هى له ولأمه .. فهو ابن مريم لا ابن الله ، وأمّه أمَةٌ من إماء الله ، لما ولد كما للنساء أولاد .

وفى سؤال المسيح : « أأنتَ قلتَ للناس اتخذونى وأمّى إلٰهين من دون الله » أَخْذ اعترافه وإقراره على هؤلاء الذين ألبسوه وأمه هذا الثوب الإلٰهى ، وعبدوهما من دون الله .

وفى هذا الإقرار خِزْىٌ بعد خزى وإذلال بعد إذلال لهم ، حيث يكشف المسيح عن وجهه ووجه أمّه أمام هؤلاء الذين ضلّوا ، ورأوا فيه وفى أمّه غير الحق ..

ويواجه المسيح هؤلاء الذين كفروا بالله ، وجعلوا المسيح وأمه إلٰهين ـ يواجههم بما يخزيهم ويبهتهم ، ويملأ قلوبهم حسرة وندماً : « سُبْحَانكَ مايكونُ لى أن أقول ماليس لى بحق » والذى ليس لى بحق هو أنى لست إلٰهاً ولا ابن إلٰه ، والذى هو لى بحق أنى عبد الله ورسوله .. فإن كنت قلت ماليس لى بحق فقد علمتَه ، وعلىّ تبعة هذا القول المنكر العظيم .. إن يكن قد كان منىّ ..

وفى قوله : « تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك إنك أنت عَلاّم الغيوب » توكيد لما بين المسيح وبين الألوهية من بُعد بعيدٍ .. فلو أنه كان إلٰهاً لعلم مايعلم الله ، ولكنه لا يعلم حتى ما اشتملت عليه ذاته ، وسكن فى كيانه .. أمّا الله سبحانه فهو يعلم كل شىء .. لا يعزب عنه مثقالُ ذرّة فى السموات ولا فى الأرض ..

هذا وسنعرض لألوهية المسيح ، ودعوى الذين يدعونها له ، فى مبحث خاص ، بعد ختام هذه السورة ..

وفى جواب المسيح : « ماقلتُ لهم إلا مآ أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربّكمْ » إشارة إلى أن المسيح مأمور ، وأنه لا يقول شيئاً من عنده ، وإنما هو

رسول يبلغ ما أمره به ربّه ، وقد بلّغ رسالة ربّه ، كما أمره بها : «أن اعبدوا الله ربىّ وربّكم » . . فالمسيح عبد لله ، كما أنهم عبيدٌ له .. ومن كان عبداً لله فليس له إلى الألوهية سبيل .

وقوله : « وكنتُ عليهم شهيداً مادُمْتُ فيهم فلما توفيتنى كنتَ أنت الرقيبَ عليهم وأنت على كل شىء شهيد » هو توكيد لبراءة عيسى مما تقوّله عليه أتبــاعه ، وأنه كان عليهم شهيداً مدّة وجوده مَعهم ، يقوّم انحرافهم ، ويصحح معتقدهم ، فلما قبضه الله إليه ، انقطع اتصاله بهم ، وبما أحدثوا بعده من هذه المعتقدات الفاسدة فيه ، وفى أمّه .. وأنه إذا كان المسيح لم يعلم شيئاً مما أحدثوا من بعده ، فذلك مالا يغيب عن علم الله ، فقد علمه الله منهم ، وأحصاه عليهم ، وهاهم أولاء بين يديه يلقوْن جزاء ماصنعوا ..

والشهيد : من يرى مايقع فى محيط حواسه .. مما يدانيه ويختلط به . .

والرقيب : من يرى من مكان عالٍ ، وهو المرْقَب ، حيث ينكشف له مالا ينكشف لغيره ..

ولهذا كان التعبير فى جانب المسيح ، بالشهيد ، والتعبـير فى جانب الله ، بالرقيب .. وهذا تمثيل ، ولله سبحانه وتعالى المثل الأعلى .

ثم كان من تمام هذا التمثيل قوله : « وأنت على كل شىء شهيد » أى تطلع على كل شىء قريب وبعيد ، ظاهر وخفى ، اطلاع شهادة وحضور .

وقوله : « إن تعذّبهم فإنهم عبادُك وإن تغفرْ لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » هو تفويضٌ لله سبحانه وتعالى للقضاء فى أمر هؤلاء ، الذين حَملوا أوزارهم على ظهورهم ، وأحاطت بهم خطيئتهم . .

فإلى الله سبحانه وتعالى أمرُهم ، لاشفاعة لأحدٍ فيهم .

«إن تعذبهم فإنهم عبادك » وصَنعةُ يديك ، وربائب نعمتك ، وغرس فضلك .. وليس لأحدٍ أن يشارك المالك فى تصرفه فيما ملك .

« وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » لايسألك أحد لم غفرت لهؤلاء العصاة الظالمين .. فما غفرانك لهم عن عجز أو قصور أن تنالهم يدُك ، ويأخذهم عقابك ، وإنما هو حِلم الحليم ، وحكمة الحكيم .. فمن قدرة عفا وغفر ، وعن حكمة كان هذا العفو وتلك المغفرة ..

سمع أعرابى قارئًا يقرأ : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم » فأنكر ما سمع ، وقال ماهذا كلام الله ، إذ ينقض آخِره أولَه .. فأعاد القارىء قراءة الآية على وجهها : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفرْ لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » فقال الأعرابى : نعم هذا كلام الله .. عزّ فحكم ، فإن شاء عفا وغفر ! !

(الآيتان : ١١٩ ـ ١٢٠)

« قَالَ ٱللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » (١٢٠)

التفسير : هذا ختام الموقف ، وتلك كلمة الفصل من رب العزة جلّ وعلا ، فى مجمع الرسل والأمم يوم القيامة ..

ففى هذا اليوم العظيم يجد الصادقون الذين أخلصوا دينهم لله ، ولم يحرّفوا ولم يبدلو افى دين الله ـ يجدون عاقبة هذا الصدق ، مغفرةً ورحمة ورضوانًا فى جنات

تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا .. لا يتحولون عنها ، ولا ينتقلون إلا من نعيم إلى نعيم فيها .

« رضى الله عنهم » بما كان منهم من صدقٍ فى القول والعمل ، « ورضوا عنه » بما أحسن إليهم من جزاء ، وأفاض عليهم من نعيم .. و «ذلك هو الفوز العظيم » الذى تعدل اللحظة منه عُمْر الدنيا كلها ، وما لقى المنعّمون فيها من نعيم ، وما ذاق السعداء فيها من طعوم السعادة . فكل هذا ، لا يعدّ شيئاً إلى نظرةِ رضًى من الله إلى من رضى الله عنهم ، جعلنا الله منهم وأدخلنا فى زمرتهم ، وأرضانا بما أرضاهم ، بما تبلغه بنا سوابغ رحمته ، وتؤهلنا له أمداد مِنَنه وأفضاله .

وفى قوله تعالى « ورَضُوا عنه » لفتة كريمة من ربّ كريم ، إلى عباده المكرمين ، حيث يرضى عنهم ويرضون عنه ، حتى لكأنه رِضًى متبادل بين الخالق والمخلوقين ، والمعبود والعابدين ، فسبحانه من ربّ كريم ، برٍّ رحيم .. شاهت وجوه من يتجهون إلى وجه غير وجهه ، وخَسِئ وخَسِرَ من يلوذون بجنابٍ غير جنابه . ويطوفون بحمًى غير حِماه .

وقوله سبحانه : « لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير » قولة حق ينطق بها الوجود كله فى هذا اليوم ، ويشهد تصريفها الناس عِياناً فى هذا اليوم المشهود ، حيث تخشع الوجوه للحىّ القيوم ، وتخفت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ، وحيث تَذلُّ جباه الجبابرة ، وتغبرّ وجوه الظالمين ، وحيث ينادى منادى الحق : « لِمَنِ الملك اليوم ؟ » فإذا رَجْعُ هذا النداء ، هو هذا الوجود كله لسان يسبّح بكلمة الحق : « لله الواحد القهار » .

* * *

مبحث

فى المسيح الإله والمسيح الإنسان

نعرض فى هذا البحث قضية الألوهية ، التى ادّعاها المدّعون للمسيح ، وآمنوا عليها ، وأقاموا لها منطقاً استساغوه ، وَغَذَّوْا منه مشاعرهم ، وترضَّوْا به عواطفهم ..

وسبيلنا فى عرض هذه القضية ، هى أن نلقاها لقاء بعيداً عن النصوص الدينية ، التى يقيمها أصحاب هذه الدعوى شاهداً على مايدّعون ، وبمنأى كذلك عن النصوص الدينية التى جاء بها القرآن الكريم لدحض هذه الدعوى . وإسقاط كل حجة لمدعيها .

ذلك لأن تعارض هذه النصوص حول تلك القضية فى جانبى الإثبات والنفى ، لا يتيح لمن يقف موقفاً محايداً من هذه القضية سبيلاً إلى الحكم فيها ، إذا هو أخذ بتلك النصوص المتعارضة ، وجعل لها عنده الاحترام والولاء ، الذى يمسكها عليه أصحابها . من طرف الخصومة فى هذه القضية . .

إذن ، فالعقل ، والعقل وحده هو الحكومة التى يُرْجَع إليها للقضاء فى هذه القضية ، أولا .. ثم إذا كان للنصوص الدينية بعدهذا التقاء مع العقل والمنطق أُخذ بها كشاهد يؤيد العقل ويزكّى منطقه ، وإلاّ انفرد العقل بالحكم الذى يطمئن إليه ، ويعيش معه فى تلك القضية على وِفاق ووئام ، وبهذا يحتفظ الإنسان بوحدته ، فلا يكون شعوره الدينى فى ناحية ، واتجاهه العقلى فى ناحية أخرى . . فذلك أشأم بلاء يُبتلى به الإنسان فى مسيرة الحياة .

العقل فى مواجهة المسيح :

وإن العقل إذ يواجه المسيح ، فإنما يواجه منه شخصية تاريخية ، لها وجود مادى محقق ، رآها الناس رأى العين ، كما يرون أنفسهم . . فالمسيح هو « يسوع » الذى ولد فى قرية الناصرة من مقاطعة الجليل ، بأرض اليهودية ، من بلاد الشام ، وأمه « مريم » ، وأبوه الذى وُلد على فراشه ، ونسب إليه ، هو « يوسف » . . وكان مولده إبان حكم الرومان لبلاد الشام فى السنة الثالثة أو الرابعة أو السابعة قبل الميلاد ، على خلاف فى تحديد السنة التى ولد فيها .

والتاريخ يتحدث عن « يسوع » أنه ولد ميلاداً طبيعياً ، حملت به أمّه مدة الحمل المعتاد للناس ، فاحتواه رحمها تسعة أشهر ، وأرضعته من ثدييها ، وكفلته كفالة الأمهات لأطفالهن . ثم كان له صِبىّ ، وشباب ، وكهولة ، وطريق فى الحياة يسلكه ، ورسالة يقوم عليها ، وأنه فى سبيل هذه الرسالة ـ شأنه شأن أصحاب الرسالات ـ قد دخل فى صراع مع القائمين فى طريقه ، والمتصدين لرسالته ، حتى انتهى به الأمر إلى الموت صلباً !

هذا هو مجمل الصورة التى تقع لعينى من يطالع حياة يسوع « المسيح » ويقرأ ما سطر التاريخ من سيرته !

إنه إنسان قبل كل شىء ، وفى كل شىء ؟ لم تفكر أمّه التى امتزج دمها بدمه ، ولحمها بلحمه ، وخالطت روحها روحه ، وأنفاسه ، لم تفكر شيئاً من أمره ، ولم تر فيه غير ماترى الأمهات من أبنائهن ، وإن كانت مخايل النبل والطهر والحكمة تفوحان من أردانه !

إنه بِكرُها ، وواحد من أولادها ، الذين استقبلتهم بعده[1] ! .. ولو أنها

---

(١) كان للمسيح إخوة من أمّه « مريم » ومن زوجها يوسف بن هالى ، كما تحدث بذلك الأناجيل ، بقول صريح قاطع .

رأت فيه شيئاً لم تعرفه الأمهات فى أبنائهن لأنكرته ، أو لأنكرت نفسها ، ثم لكانت منها نُفرة من الاتصال برجلها « يوسف » ومعاودة الحمل والولادة! فهو ـ أى عيسى ـ إن يكن إلٰها فقد ولدته ، ولا يُعقل أن تلد إلٰها أو آلهة غيره . . وإن يكن خلْقا آخر ، غير الإلٰه ، وغير البشر . فلن تطاوعها نفسها على الدخول فى تجربة جديدة ، تلد بها أعجوبة أخرى !

ولكنها إذ لم تتنكر من وليدها « يسوع » شيئاً ، ولم تر فيه غير ماترى الأمهات فى أطفالهن ، مضت فى طريقها ، طريق الأمومة ، الذى تسلكه الأمهات ! واتصلت برجلها « يوسف » فولدت منه بنين وبنات ! !

أين يضع العقل المسيح ؟

والعقل إذ يواجه المسيح ، وإذ يلقاه على هذا الوجه الذى عرفته الحياة منه ، وسجله التاريخ له ـ لايمكن أن يخرجه عن دائرة البشرية ، أو يعزله عن عالم الإنسان . .

والمسألة هنا هى : أين يأخذ المسيح مكانه من الناس ، وأين المكان الذى يُنزله العقل فيه ؟

وهنا نرى « المسيح » يأخذ أوضاعاً مختلفة ، وينزل منازل متباينة . . حسب وزن العقول له ، وتقديرها لشخصيته ، وحسابها لمقومات تلك الشخصية!

وإذن فلا نستبعد أن نرى « المسيح » يأخذ مكان القمة من الإنسانية ، كما لانستغرب إذا رأيناه ينزله منزلة الحضيض فيها . . ففى هذا الفراغ الهائل ، بين السطح والقاع ، يتحرك الناس ، وفيه يتقلّبون ، بحيث يُملأ بهم هذا الفراغ كلّه !

والمسيح ـ فى هذه النظرة ـ واحد من آحاد الناس ، وللناس أن يُنزلوه

فيهم بالمكان الذى يَرَوْنه . . صعوداً ، ونزولاً . . مغالين ، أو مقتصدين ، أو ظالمين . . دون أن يخرج فى هذا كلّه عن دائرة الإنسانية ، أو يتعدّى حدودها !

فكل قول يقال فى « المسيح » ، مما يقع فى محيط الإنسانية ، يمكن أن يوضع موضع البحث والنظر ، وأن يعتبر فى معرض القبول والتسليم . . فإذا قال فيه قوم إنه نبىّ أو صدّيق . . لم يكن هذا القول مستحيلاً . . إذ فى الناس الأنبياء والصدّيقون !

وإذا قال قوم إنه فارس مغوار ، أو فيلسوف عظيم ، أو عالم كبير . . لم يكن هذا القول مستحيلاً أيضاً ، إذ فى الناس الفرسان والفلاسفة والعلماء !
وإذا قال قوم إنه مشعوذ محتال . . لم يكن هذا القول مستحيلاً كذلك ، لأن فى الناس المشعوذين والمحتالين !

وهكذا كل قول يقال فيه ، مدحاً أو ذمّا ، مما هو واقع فى عالم البشر ، لم يكن مستحيلاً ، ولا مستغرباً . . والبحث ، والنظر ، هو الذى يكشف عن صدق أو كذب كل مايقال فيه ، ويمَحّض مافيه من حق أو باطل . .

ماذا عن المسيح الله ؟

فإذا جاء إلى الناس من يقول لهم : إن « يسوع » هذا الذى رأيتموه أو سمعتم أخباره ، والذى عرفتم من أمره أنه لم يكن إلا بشراً سوياً . . فى هيأته وملامحه ، وفى طعامه وشرابه ، ويقظته ونومه ، وفرحه وحزنه ، ورضاه ، وسخطه ، وفى كل ما تعرفون من شئونكم ، وما تتقلّبون فيه من حياتكم — « يسوع » هذا ، هو الله رب العالمين ! عاش تلك الفترة المحدودة من الزمان وفى هذا الوضع المحدود من المكان فى مِسْلاخ الإنسان «يسوع» وفى جسده . . ثم ترك هذا الجلد ، وزايل ذلك الجسد ، وارتفع إلى ملكوته — نقول إذا

جاء أحد يقول للناس هذا القول ، فى شأن المسيح ، أو فى أى إنسان غيره من الناس على طول الإنسانية وعَرضها ، فبأى آذان يستمع الناس إلى هذا القول ، وبأى عقول يلقوْنه ؟

ولنذكر أننا بمعزل عن مقولات الكتب المقدسة فى أمر « المسيح » وأننا إنما نواجه « المسيح » من خارج الدائرة العقيدية ، وأننا إنما ننظر إليه كظاهرة إنسانية ، كان لها فى حياة الناس ـ ولا يزال ـ دور كبير ، دارت وتدور حوله شئون لهم وشئون ! ..

ونعيد سؤالنا مرة أخرى : بأى آذان يستمع الناس إلى هذا القول الذى يقال فى المسيح الإله ، وبأى عقول يلقونه ؟

ولا نتكلّف لهذا السؤال جواباً ، فالجواب حاضر ، نأخذه من فم التاريخ الذى يحدّث عن أعداد كثيرة من الناس قد لبسوا أثواب الآلهة ، أو أُلبسوا هذه الأثواب .. ويحدث التاريخ ـ قبل المسيح وبعده ـ أن الناس انخدعوا لهذه الآلهة ، وآمنوا بها ، وأنزلوها من قلوبهم وعقولهم منزلة الإله الذى يؤمن به المؤمنون بالله !

ففى مصر ، والهند ، وفارس ، وفى بلاد اليونان والرومان ، دان الناس أحقاباً طويلة للآلهة البشرية .. من فراعنة ، وقياصرة وأباطرة ، وهراقلة ، وعبدوهم عبادة المؤمنين لله رب العالمين . . ولازالت بقايا هذه الظاهرة باقية ممتدة فى القرن العشرين إلى الحرب العالمية الثانية ، حيث كان امبراطور اليابان « الإلَهَ » المعبود من دون الله ، فى أمة بلغت من الحضارة والمدنية حظًّا كاد يجعلها على رأس العالم المتحضر فى هذا العصر !

وفى التاريخ الإسلامى ادّعى المدعون ألوهية « علىّ » رضى الله . . وكادت تكون فتنة ، لولا أن صدمتها العقيدة الإسلامية صدمة قاتلة ، بيد « علىّ » نفسه ، الذى أرادوا أن يُلبسوه ثوب الإله . !

ويحدث التاريخ الإسلامى أيضاً أن « المقنّع » الخراسانى ، ـ واسمه عطاء ـ كان صاحبَ فرقة من فرق الشيعة ، وكان مشعوذا ، قد بلغ به الأمر أن ادعى الألوهية لنفسه ، وكان لا يُسفر عن وجهه ، وقد اصطنع لذلك وجها من ذهب ، تقنع به ، فسمى المقنع . . وكانت له شعوذات خدع بها الأغرار من الناس ، فتبعه خلق كثير ، مما وراء النهر ، وآمنوا بألوهيته ، وكادت تـكون فتنة .

« ولما اشتهر أمره ثاروا عليه ، وقصدوه الناس فى قلعته التى اعتصم بها ، فلما أيقن بالهلاك جمع نساءه وسقاهن سماً ، فمتن منه ، ثم تناول شربة من ذلك السم فمات أيضاً ، وذلك فى سنة ثلاث وستين ومئة هجرية [(١)] » .

ويحدّث التاريخ الإسلامى كذلك عن بعض الفرق المنحرفة من الشيعة ، وعن تأليههم للخليفة الحاكم بأمر الله ، الذى لا زالت بقايا هذه الفرقة المارقة تتعبد له ، فى جهات منعزلة من بلاد الشام !

وليس ببعيد خبر «سليمان المرشد » الذى ظهر فى بلاد الشام منذ سنوات وادّعى الألوهية ، ووجد فى الناس من يستجيب له ويؤمن به !

وتستند دعوى الألوهية لإنسان من الناس على قوة غيبية احتوت هذا الإنسان الإلٰهى ، أو احتواها هو . . وبهذه القوة الغيبيّة المقدسة فيه ، صار فوق مستوى الناس ، ونزل منازل الآلهة !

وقد كان الناس قبل عصر العلم التجريبى ، يفتحون آذانهم وعقولهم وقلوبهم للقوى الغيبية هذه ، ويتشوّفون إليها ، فيما وراء المادة ، وكانت حياتهم موصوله بها ، مشدودة إليها . . فإذا جاءهم من يحمل إليهم ـ إن صدقاً وإن كذباً ـ خبراً من تلقائها ، أو حديثاً من عندها ، وجد من يصغى إليه ، ويلهث جرياً

(١) وفيات الأعيان ، لابن خلـكان : جزء أول ص ٤٠٢ .

وراءه ! وبهذا الشعور خلق الفنانون الأساطير ، ونسجوا الخرافات ، التى كانت المورد الذى تتزاحم عليه الإنسانية ، وتَرْوى منه أشواقها ومواجدها ، وتغذّى به آمالها وأحلامها ..

وإذ طلع عصر العلم التجريبى على الناس واستقامت العقول على منطق التجربة ، وحُكم الواقع المادىّ ـ لم يعد للقوى الغيبية هذا السلطان المتسلط على العقول والقلوب ، ولم يعد فى الناس من تستهويه هذه القوى ، أو تحمله على الوقوف طويلاً عندها .. فإن يكن للناس مع هذه القوى وقفة فى هذا العصر ، فهى وقفة اللاهى العابث ، الذى يلتمس التخفف من ضغوط المادة ، وثقل الواقع .. ثم لايلبث أن يأخذ طريقه إلى عالم المادة والواقع ، الذى يتقلب فيه ، ويتعامل معه !

ولهذا ، فإن أى لباس يلبسه الإنسان اليوم غير جلده البشرىّ ، وثوبه الإنسانى ، لايمكن أن يحجب أعين الناس عن حقيقته ، أو أن يخيّل إليهم منه أنه غير إنسان ! !

فقد يلبس الناس على المسارح جلود الحيوانات ، وأثواب الشياطين ، والجن والآلهة .. ثم هم مع هذا فى أعين المتفرجين أناسٌ كسائر الناس .. وأن هذه الأثواب ، وتلك الأصباغ أشياء مستعارة .. لاتغير ولا تبدّل من الحقيقة الواقعة شيئاً .

ولا يخرج الحال بأولئك الذين يدّعون لأنفسهم ، أو يُدّعى لهم أنهم من طينة غير طينة الناس ، ومن جلود غير جلود الناس ـ لايخرج بهم الحال عن تلك الصور المتغايرة التى يلبسها الممثلون والمهرجون !

إن الناس قد استقلّوا اليوم بعالمهم الأرضى ، وأجلَوْا عنه كل قوى غيبية كانت تعيش مع أسلافهم فيه ، وتتحكم فى مصائرهم ، وتبدل من أحوالهم !

وأنهم إذا شاقهم لقاء تلك القوى الغيبية أطلعوها بِقَدَر ، للتسلية والترفيه ، ثم أرسلوها لتعود من حيث جاءت !

والسؤال هنا هو : تُرى لو جاء « الله » إلى الناس اليوم فى صورة إنسان من الناس ، يعرفون وجهه ، وليداً وطفلا ، وصبيا ، وشاباً ، وكهلا .. ثم دعاهم هو ، أو دعاهم داع غيره إلى الإيمان به إلهاً ، والتعبد له رباً ـ أكان يجد من الناس أذناً صاغية ، وقلباً واعياً ، لتلك الدعوة ؟ ربما كان بعض الأغرار ، وأصحاب الأهواء والبدع ، ممن تستهويهم المواقف الشاذة ، وتروقهم الانحرافات والشطحات ـ ربما كان بعض هؤلاء وأولئك يلتفتون إلى هذه الدعوة ، ويستجيبون لها .. ولكنهم مهما بلغ عددهم ، يظلون فى عزلة عقلية واجتماعية عن المجتمع الإنسانى العصرى .. لاينظر إليهم الناس إلا نظره الشذاذ الخارجين على الجماعة الإنسانية ! ينكرهم الناس أينما التقوا بهم .. ثم لايلبث أمرهم أن ينتهى إلى ماينتهى إليه كل أمر لايقوم اليوم على واقع التجربة ، ولايستند إلى برهانها !

والصورة التى ظهر بها « يسوع » المسيح وإن تشابهت مع هذا التصور فى بعض ملامحه ، إلا أنها تخالفه من وجهين :

(الوجه الأول) هو أن « المسيح » ظهر فى عصر غير هذا العصر .. فى عصر كانت فيه صور الآلهة البشرية تعيش فى تفكير الناس ، وفى أحلامهم ، لاينكرونها إذا هى التقت بهم ، وتحدثت إليهم .. فلطالما التقى آباؤهم بالآلهة ، وتحدثوا إليهم وتعبّدوا لهم ، ولا تزال وجوه هذه الآلهة وأشباحها تطلّ عليهم من قريب !

(والوجه الثانى) هو أن ألوهية المسيح لم تعلن إلى الناس وهو حىّ قائم فيهم ، حتى كان يمكنهم أن يعيدوا النظر إليه ، ويملئوا عيونهم منه ، وهم يلتقون به

على تلك الصفة .. وإنما كان ذلك بعد أن انتهي المسيح تلك النهاية المعروفة .. فقيل للناس بعد هذا : إنه بعد أن صُلب عاد إلى الحياة .. وصعد بعد أربعين يوماً إلى ملكوته السماوى الذى نزل منه !

وهنا تكثر الأحاديث عن « المسيح » وعن شخصيته !

إنه ليس مجرد إنسان ! وشاهد ذلك معجزاته الكثيرة التى عرفها الناس منه فى حياته ..

وإنه ابن الله ! .. وشاهد هذا أنه ولد من عذراء ! فليس «يوسف النجار» أباه ، وإنما هو زوج أمه !

وإنه هو الله ذاته ! شاهد ذلك أنه أمات نفسه ثم أحياها . . والله وحده هو الذى يحيي ويميت ، ويميت ويحيي ! « يخرج الحىّ من الميت ، ويخرج الميت من الحىّ » !

وهكذا استدبر الناس حياة « المسيح » إلهاً ، بعد أن استقبلوا حياة المسيح إنساناً بشراً !

وبهذا لم يكن للشاهد أكثر مما للغائب فى شأن البحث عن ألوهية المسيح والتحقق منها .. إذ أن الذين شاهدوا المسيح لم يكن يقع لتفكيرهم أنهم يعيشون مع إله ، ويتحدثون أو يستمعون إلى إله .. وإنما هم مع إنسان ، وإن عظُم فى الناس أمره ، وسَما قدْره .. فهم والذين لم يروْه على سواء ، فى التحقق من الصفة الجديدة التى كان عليهم أن يروه من خلالها .. إنهم يستعيدون ذكريات ، ويتذكرون أحداثاً ، على حين يطالع غيرهم ـ ممن غاب عنهم شخص المسيح ـ تلك الذكريات ، وهذه الأحداث ، مسطورة فى كتب ، مصورة فى رسائل !

وأين الإله إذن فى هذا الإنسان « يسوع » ؟

إن أحداً لم يره إلٰها ، ولم يتعامل معه كإله ، وإلاّ كانت قد دارت الرءوس، وجُنّ جنون الناس !

فالأمر لا يعدو أن يكون مجرد تخريجات وتأويلات، لذكريات وأحداث، وأخبار، عن تلك الذكريات وهذه الأحداث!

فالله الذى تجسد فى «يسوع» المسيح لم يعلن نفسه للناس الذين ظهر فيهم وولد وعاش، وصلب، وقام من الأموات بينهم!

وإنما كان هذا الإعلان بعد أن ترك «الله» هذا الجسد، وزايل هذا المكان الذى كان فيه!

هذه واحدة!

وأخرى، يقف العقل إزاءها متسائلا:

لماذا ظهر الله فى هذا الجسد المحدود؟ فى هذا الزمن المحدود؟ فى هذا المكان المحدود؟

إنه لو كان يريد أن يكشف ذاته للناس لكان غير ذلك أولى به وأجدى!!

كان ينبغى مثلاً أن يظهر ظهوراً متجدداً متكرراً.. فى أجساد كثيرة، وفى أمكنة متعددة، وفى أزمنة متجددة، حتى يستطيع الناس أن يأخذوا جميعاً حظهم من هذا الإعلان.. إن كان لهذا الإعلان حكمة، وكان له أثر.. ولابد أن يكون له حكمة وأثر، وإلا لما كان هناك داعية له.

إن مثل هذه الاعتراضات قد دارت فى كثير من الرءوس التى واجهت تلك المقولات التى تقال فى المسيح، وفى تجسد الله فى الجسد الذى اتخذه من عذراء!

وقد أجاب عليها الذين آمنوا بهذه المقولات، ورضوا بها واطمأنوا إليها.. وإنه لا بأس من أن نعرض هنا نماذج من تلك الاعتراضات، ودفع المعترضين عليها، ثم تعليقنا على هذه الدفوع.

اعتراض: ـ «إن الأنبياء كانوا يقومون بإعلان الله للبشر وهدايتهم

إليه .. لذلك لم يكن هناك داع لأن يقوم الله تعالى بمهمة كان يقوم بها نفر من عبيده ! فما تأويل هذا ؟ » .

وجواب : « إن الأنبياء لم يعلنوا للبشر ذات الله ، بل قاموا فقط بتبليغ أقواله لهم .. إذ فضلا عن أنهم مثل غيرهم من الناس ، غير معصومين من الخطيئة ، الأمر الذى لايجعلهم أهلا لإعلان ذات الله ، فهم أيضاً محدودون فى ذواتهم ، والمحدودون لايستطيعون أن يعلنوا غير المحدود .. فإذا أضفنا إلى ذلك أن غرض التجسد لم يكن مجرد إعلان ذاته للبشر ، بل الظهور بينهم بحالة مدركة لهم ، لكى يستطيعوا معرفته والاقتراب منه ، والتوافق معه ــ اتضح لنا أن هذا الاعتراض لامجال له إطلاقاً »[1] .. والذى يرد على هذا الاعتراض هو رجل من رجال الدين المسيحى ! وعالم من علماء المسيحية[1] .

وتعليق : وندع مقولته فى عصمة الأنبياء ، وأنهم لهذا ليسوا أهلاً لإعلان ذات الله.. ونسأل ما الغاية من إعلان ذات الله ؟ وما أثر هذا الإعلان؟ ألا يكفى الإعلان عن آثاره ، وأعماله ، لتكون عند الناس شاهداً على وجوده ، وعلى ماله من صفات الجلال والكمال ؟

إن الناس يتمثلون ذوات القادة ، والزعماء ، والعلماء فى آثارهم وأعمالهم ، دون أن يروهم أو يتصلوا بهم .. ومع هذا يحبون منهم من يحبون ، ويطيعون من يطيعون ، وينقادون لمن ينقادون ، بقدر ما يقع فى نفوسهم مما لهم من آثار وأعمال ! ..

ثم ألا يكون هذا الوجود كله ، بما فيه من آيات ، وما يشتمل عليه من عجائب وأسرار تقف أمامها العقول مشدوهة ، وتنظر إليها الأبصار خاشعة ــ

---

(١) الله ــ طرق إعلانه عن ذاته للأستاذ عوض سمعان ص ٨٢ وما بعدها .

ألا يكون هذا إعلاناً واضحاً عن الله ؟ ثم ألا يكون فيما يجيء به رسل الله وأنبياؤه من دعوات تكشف عن هذا الوجود ، وتجلّى للأبصار والعقول ما غشّى عليها الجهلُ والضلال منه — ألا يكون فى هذا ما يكشف للناس عن وجود الله ، وعظمة الله ، وجلال الله ، حتى يجيء الله نفسه للناس ليقول لهم : ها أنذا ؟

اعتراض آخر . . يقول : إن التوافق مع الله لا يتوقف على رؤيته بالعين ، بل على إدراك النفس لمحبته ، وكماله ، وجماله ، ولذلك لم يكن هناك داع لأن يتجسد الله .. إذ أنه موجود فى كل مكان .. وفى أقواله لنا ما يكفى نفوسنا لإدراك كل شيء عنه وبالتالى للتوافق معه !

وجواب : « حقاً إن التوافق مع الله لا يتوقف على رؤية العين ، بل على إدراك النفس لمحبته ، وكماله ، وجماله .. لكن هل تستطيع النفس أن تدرك شيئاً عن الله من مجرد السمع أو القراءة عنه ؟ الجواب : طبعاً لا ، لأن النفس كما قلنا محدودة ، والله غير محدود ، والمحدود لايدرك من تلقاء ذاته غير المحدود ، لذلك كان من البديهى أنه إذا أراد الله أن يجعل ذاته مدركا لنفوسنا — وعمل مثل هذا يتفق مع ذاته وصفاته كل الاتفاق — أن يظهر لنا بهيئة محسوسة ، نستطيع عن طريقها الاتصال به ، وهذه هى الهيئة التى تنازل واتخذها ، له المجد ! »[1] .

وتعليق : هذا الجواب ليس بالذى يسدّ هذه الثغرة التى أوجدها الاعتراض ، الذى يجاب عليه بهذا الجواب !

فإذا كان الإيمان بالله لا يكملُ ولا يتم بمجرد السمع أو القراءة عن الله ، بل لا بد من رؤيته مجسداً ، فمعنى هذا أن جميع الذين لم يروا الله مجسداً فى المسيح هم على تلك الصفة .. إيمانهم ناقص ، لايتم إلا برؤية الله مجسداً فى المسيح ،

---

(١) المصدر السابق .

ومعنى هذا أيضاً أن إيمان جميع الذين سبقوا المسيح من الأنبياء والرسل وأتباعهم إيمان ناقص ، وكذلك إيمان أتبـاع المسيح جميعاً الذين لم يروْه رأى العين !! فما الجواب ؟وأظن لاجواب !

اعتراض ثالث : « إن كان ولابد من تجسّد الله .. فلماذا لم يظهر بالهيئة التى تليق بمجده وبهائه ، حتى تهابه الناس وتخضع له ؟ »

وجواب : « إن غرض الله من التجسد ، لم يكن لإظهارعظمته ، أو إثارةِ وإعجابِ الناس به (لأن تصرفاً كهذا لايصدر إلا من الناقص ، الراغب فى تعظيم الناس له) بل هو جَمْعهم حوله لـكى يمتّعهم بحبّه وعطفه ، ويخلصهم من خطاياهم وضعفتهم ، حتى تكون لهم معه حياة روحية سعيدة ، وبما أنه لو كان تعالى قد ظهر لهم بهيئة تناسب مجده الأزلى لارتعب الناس منه ، ولما استطاع واحد منهم أن يدنوَ إليه ــ كان البديهى أن يظهر لهم بالهيئة المألوفة لديهم ، وهى الهيئة البشرية ، لـكى تتحقق أغراضه هذه ، كما أنه لو كان قد تجنب الظهور بمجده الخاص الذى يُرْعِب الناس ، وظهر فقط بإحدى مظاهر العظمة الأرضية ، لحرُم متوسطو الحال والفقراء من التمتع به ، وهؤلاء ــ كما نعلم ــ هم السواد الأعظم من البشر ، وهم فى جملتهم أكثر من الأغنياء استعداداً لمعرفته والسير فى سبيله ، لذلك كان من البديهى أيضاً ألا يظهر بأى مظهر من مظاهر العظمة الدنيوية كذلك ، بل يظهر بالمظهر العادى ، الذى ظهر به فعلاً ، لأنه هو الذى يفسح المجال أمام جميع الناس للاقتراب إليه والاتصال به ، والإفادة منه [1] .

وتعليق وهذا الجواب أيضاً أبعد من أن يدفع الاعتراض المعتَرض به ..

فالله إذ ظهر هذا الظهور الذى هو أقرب إلى الخفاء والتستر ، منه إلى أى

(١) المصدر السابق ص ٨٥ .

شيء آخر ، إذ لم ير الناس ـ الذين رأوه شيئاً منه . . إنهم لم يروا إلا إنساناً . . مجرد إنسان يقال عنه ، أو قيل عنه ـ فيما بعد ـ إنه هو الله !

فأين الله الذى رآه الناس على أنه الله ـ وأين الناس الذين رأوه على تلك الصورة ؟ لا جواب ! .

ثم إن الذين رأوه ، هم قِلّة فى الناس ، لا يكادون يُذكرون إلى تلك الأعداد التى لاحصر لها من الذين لم يروا المسيح ، ولم يضمهم إليه ، ويمتعهم بصحبته !

واعتراض رابع : إذا كان المسيح هو الله .. فلماذا لم يعلن ذلك صراحة أمام الناس ، حتى يؤمنوا جميعاً به ؟ » .

وجواب : « لا يخفى لدى العاقل أنه لو كان المسيح قد أعلن للناس عن حقيقة ذاته قبل أن يختبروها بأنفسهم ، لكانوا قد اعتبروه محترفاً ومدعياً ، ولما كانوا قد آمنوا به إطلاقاً .. لكن شاء أن يستنتجوا هم حقيقة ذاته ، من حياته ، وأعماله ، لكى لا يكون إيمانهم به نظرياً أو سماعياً ، بل إيماناً اختبارياً عملياً ...

« ومع كل فقد أعلن السيد المسيح عن حقيقة ذاته بكل صراحة للذين كانوا يشكّون فى شخصيته ، أو لا يستطيعون الكشف عنها ..

فقد قال مرة لأعمى كان ـ له المجد ـ قد شفاه : « أتؤمن بابن الله ؟ » فلما سأله هذا : « من هو ياسيد لأومن به ؟ أجاب ـ له المجد : قد رأيتَه ، والذى يتكلم معك هو هو » فقال له الأعمى : أومن ياسيد ، وسجد له [1] » .

وتعليق : المسيح ، كما هو ظاهر من هذا القول ، لم يعلن أنه هو الله ، بل قال إنه « ابن الله » . وللبنوة هذه معنى كان معروفاً عند الناس إذ ذاك فى

---

(١) المصدر السابق ص ٨٨ .

الكتب المقدسة .. وطبيعى أن هذا الأعمى لم يكن عنده علم بالأقانيم الثلاثة التى يمثل الابن وجها من وجوه الله بها .. والتى عُرفت بعد ذلك بزمن طويل .

فإذا اعترف بأن المسيح ابنَ الله ، كان اعترافه بأن المسيح ذات مستقلة عن الله .. فالمسيح ابن ، والله أب . . والأب غير الابن . .

أما القول بأن المسيح لم يعلن عن ألوهيته حتى يختبرها الناس فى أعماله وآثاره ، فقد كانت نتيجة هذا الاختبار هو صلب المسيح كما يؤمن بذلك الذين آمنوا بألوهيته . . وهى نتيجة ناطقة ببطلان هذا القول ..

واعتراض خامس : « إن كان ولا بد من تجسد الله ، فلماذا لم يظهر فى العالم رجلا كامل النمو ، بدلاً من ولادته من امرأة ، ومروره فى أدوار الطفولة والصبا ، التى لم يفعل فيها شيئاً مذكوراً ؟ » .

وجواب : « إن السنّة التى وضعها الله للأفراد والجماعات هى النمو والتقدم ، وبناء على ذلك كان من البديهى أن يظهر المسيح ـ وقد رضى أن يكون إنساناً ـ طفلاً ، يتدرج فى النمو ، قامةً وعقلاً ، وتتدرج معه الجماعة المحيطة به يقظة ووعياً ، تتهيأ بسببه لقبول المسيح والاستماع إليه ..

كما أننا إذا وضعنا قِبْلة أنظارنا أن غرض الله من التجسد لم يكن مجرد إعلان ذاته لنا ، بل الاتحاد الجوهرى بنا ، لكى يكون الرأسَ الفعلى أو الحقيقى لجنسنا (عوضاً عن آدم الأرضىّ الذى بانتسابنا إليه ، وتوالدنا منه قد ورثنا الطبيعة الخاطئة ، وورثنا معها قضاء الموت الأبدى) حتى نستطيع بدورنا أن نتحد بالله اتحاداً عملياً حقيقياً ـ اتضح لنا أنه لو كان قد ظهر كامل النمو ، أو بتعبير آخر ظهر دون أن يأخذ جسداً من جنسنا ، لكان قد ظل غريباً عنا ، ومفارقاً لنا ، وبالتبعية لمَا كان رأساً لنا ، ولما كان لنا نحن صلة فعلية به ، لكن بتفضله بالولادة من جنسنا ، قد اتحد بنا ، وأصبح لنا بدورنا أن نتحد به ، اتحاد

الأغصان بالكرمة ، وبذلك تحققت أغراضه السامية بالتجسد[1] » .

وتعليق : لقد انحرف هنا الجواب أيضاً عن الرد المباشر على الاعتراض .. وهو لماذا لم يظهر « الله » حين تجسد ، رجلاً كامل النمو ، بدلاً من أن يمر فى تلك الأدوار التى مرّ فيها .؟ وقد أجاب المجيب إجابة متهافتة ، وإذ شعر بهذا، فقد اتجه اتجاهاً آخر بالإجابة على هذا الاعتراض ، وهو أن الله قد اتحد بجنسنا لكى نتحد نحن به ، لأن الجنس أشكل بجنسه ! وكان على المتصدّى للرد على هذا الاعتراض أن يعلل لتجسد الله ـ لا فى جسد إنسانى وحسب ـ بل وبمرور هذا التجسد فى جميع أدوار الحياة الإنسانية من الميلاد إلى الممات .! ولو أنه فعل لوجد أن المسيح الذى تجسد الله فيه قد مات شاباً ، فلم يمرّ فى أدوار الكهولة ، والشيخوخة ! وكان منطق الردّ يقضى بأن يمر المسيح أو الله المتجسد فى المسيح ، فى جميع هذه الأدوار ، حتى يلبس الإنسانية كلها ، وبهذا يمكن أن يكون رأساً لها ! ثم ماذا يقول المجيب على هذا الاعتراض ،عن حياة المسيح فى رحم أمه ، ثم فى دور طفولته ، وهو فى قيد الضعف والعجز ، لا يملك من أمر نفسه شيئاً ... ؟

واعتراض سادس : « إذا كان المسيح هو الله . . فلماذا ظهر فى أماكن محدّدة ، ولم يظهر فى جميع الأمكنة ، حتى يراه جميع الناس ، ويؤمنوا به ؟

وجوابه : إذا رجعنا إلى العصر الذى عاش فيه المسيح على الأرض ، وجدنا أن الشعب الوحيد الذى كان يؤمن بالله إيماناً خالصاً من كل زيغ ، هو الشعب

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٠ .

اليهودى، ولذلك كان من البديهى أن يظهر المسيح بوصفه « الله المتأنس » ، بين اليهود لأنهم أقرب الناس إلى الإيمان به [(١)] ! .. وكان من البديهى أيضاً أن يظل بينهم حتى يعرفوه حق المعرفة ، ويؤمنوا به كل الإيمان ، ولكن لما رفضوه على الرغم من الأدلة الكتابية والاختبارية التى تثبت حقيقة ذاته [(٢)] ـ اختار من بينهم أشخاصاً كانوا أكثر استعداداً من غيرهم لمعرفته والتوافق معه ، وقضى مدة طويلة فى تدريبهم وتعليمهم [(٣)] ، حتى عرفوا بعد قيامته من بين الأموات حقيقة ذاته كل المعرفة [(٤)] ، ثم كلفهم بعد ذلك أن يحملوا رسالته ، ليس إلى اليهود وحدهم ، بل إلى كل الأمم (متى ٢٨ : ١٨) [وهذا يناقض ما نطق به المسيح : « إلى أمم لا تمضوا : [متى ١٠:٥]

« وإذا أضفنا إلى هذا : (أولا) أن فلسطين التى ظهر فيها المسيح لم يره كل شخص من سكانها ، بل إن كثيرين لم يروه إطلاقاً ، وأنه لو كان قد انتقل إلى كل بلاد العالم لكان كثيرون أيضاً من سكانها لا يرونه . و (ثانياً) أن معرفة الله فى المسيح لا تتوقف على رؤية العين ، بل على الإيمان به بالقلب ، وفى هذه الحالة يستوى الذين رأوه والذين لم يروه ، إذا كانوا قد

(١) وشاهد هذا أنهم كذبوه ، وبهتوه ، وطعنوه فى شرف مولده ، وفى عفة أمه .. ثم ساقوه إلى الصلب ، فصلبوه !! كما يقولون .

(٢) ومفهوم هذا أن الله قدر فلم يحسن التقدير ، واختار فلم يحسن الاختيار ، وهل يكون « الله » الذى يلبس ثوب الإنسان ، ويضع نفسه فى إهابه منزها عن هذا النقص ؟

(٣) انظر إلى « الله » هذا الذى يعانى ما يعانى فى تعليم الناس وتدريبهم .. أهو يخرج عن طبيعة البشر العاجزين الضعفاء ؟

(٤) انظر كيف عجز « الله » هذا ، عن أن يعرف نفسه للخاصة الذين اختارهم من بين البشر ؛ إنه لم يستطع أن يعرفهم به إلا بعد أن مثل أمامهم عملية الموت فى نفسه ، فمات ، وقبر ، ثم قام من الأموات !

آمنوا به ! ! ويستوى الذين رأوه والذين لم يروه إذا كانوا لم يؤمنوا به ! » .

وتعليق : ونقف عند هذا المقطع الأخير من الجواب . . ونسأل : إذا كانت معرفة الله لا تتوقف على رؤيته بالعين ، بل على الإيمان به بالقلب – وفى هذه الحالة يستوى الذين رأوه والذين لم يروه من المؤمنين به وغير المؤمنين – فلماذا إذن هذا التجسد لله ؟ وما حكمته ، إذا كان يستوى فى ذلك الذين رأوه والذين لم يروه ؟ ثم لم هذه البلبلة وهذا الاضطراب ، وهذه الفتن التى تجىء من وراء القول بتجسد الله ؟ . وإن أقلّ ما فيه أنه يفتح باب الادعاء على مصراعيه ، لكل من يدّعى أنه الله ، وأن الله قد تجسّد فيه ! وفى هذا ما فيه من التعمية على الناس ، والتشويش على المؤمنين بالله ! ؟

واعتراض سابع : « إن تجسد الله ، إما أن يظل إلى آخر الدهور ، فتدوم فوائده ، وإما أن يكون مؤقتاً ، وحينئذ لا يكون هناك مبرر لتمتع جيل خاص برؤيته فى الجسد ، دون غيره من الأجيال » .

وجوابه : « بما أنه مع ظهور الله فى الجسد فى العالم ، ورؤية الناس لأعماله ومعجزاته ، استمر معظمهم فى شرورهم وآثامهم . وبما أنه تعالى يريد أن يكون الإيمان به مقترناً كل الاقتران بحياة القداسة . . وبما أن حياة القداسة لا تتأتى بواسطة الاقتناع النظرى بحقيقة الله ، بل بواسطة الاتصال الروحى به . . وبما أن هذا الاتصال لا يتولد عن النظر إليه بعين الجسد الخارجية ، بل عن النظر إليه بعين الإيمان الباطنية – إذن كان من البديهى أن يقتصر الرب فى أمر ظهوره بالجسد على المدة التى قضاها فى العالم (وهذه والحمد لله –

يقول المؤلف ـ كانت كافية كل الكفاية لإثبات شخصيته ، وإظهار محبته للبشر أجمعين ، حتى تكون علاقتهم به ليس العلاقة الجسدية ، بل العلاقة الروحية . . .)[1] .

والتعليق : وإذن فقد كان ظهور الله متجسداً فى تلك المدة المحدودة ،فى الزمان والمكان ـ كان ذلك لمجرد إثبات شخصيته ! ولكن لمن ؟ لجماعة معدودة من الناس . . فى جيل محدود من أجيالهم ، وفى رقعة محدودة من أوطانهم . . وإذن فقد كان على الله أن يقدّم « بطاقة » شخصية إلى كل إنسان ، فى كل زمان ، وفى كل مكان . . وإلا كان من حق الناس أن يجهلوه ولا يعترفوا به !

* * *

مشكلات كثيرة أثارها تجسّد الله فى المسيح . . فى إنسان معروف للناس ، رأوه رأى العين ، يعالج من شئون الحيـاة ما يعالجون ، ويأتى ما يأتون ، ويَذَر ما يذرون . . ثم يعود فيطلع عليهم من عالم الأموات ، فإذا هو الله « رب العالمين !! »

كان يمكن أن تكون هذه الدعوى أكثر احتمالاً ، وأقرب إلى الواقعية لو أن الناس قد التقوا بدعوى ألوهية المسيح حالَ حياته ، حيث يتاح لهم النظر إليه من قرب ، واختبار أحواله عن واقع . . وأدخل من هذا فى باب الاحتمال والواقعية لو أن المسيح لم يلتق بالناس ولم يلتق به الناس إلا رجلاً كاملاً ، لم يروا فيه ضعف الطفولة ، وعجزها ، وتحكّم الضرورات الإنسانية فيها ، وخضوعه خضوعاً مطلقاً ليد من يرعاه ويقوم بأموره !

---

(١) الله ـ طرق إعلانه عن ذاته ص ـ ١٠٤ .

وقد رأينا الدفوع التى دُفعت بها هذه الاعتراضات وأشباهها ، وأنها كانت دفوعاً هزيلة متهافتة ، لاتغنى من الحق شيئاً ، ولاتزيد الأمر إلا غموضاً على غموض ، وشبها فوق شُبه !

حلّ أضاف إلى المشكلة مشكلات :

وأمر آخر من أمر المسيح « الإله » زاد العقدة عُقَدا ، وأضاف إلى المشكلة مشكلات . . وهو هذا الفهم الجديد للألوهية ، ذلك الفهم الذى لم تعرفه الدعوات السماوية من أمر الإله ، فى هذا الوصف الكاشف لذاته ، والتشريح المكيّف لتلك الذات . . حيث ظهر القول بتلك الأقانيم أو التعيّنات الثلاثة « لله » واعتباره ثلاثة فى واحد ، وواحداً فى ثلاثة . . هم : الأب ، والابن ، وروح القدس!

هذه المقولة قد وضعت المسيحَ « اللهَ » وضعاً جانبيا فى الذات الإلهية . . فلم يكن هو « الله » « كلّ الله » وإنما هو « الابن » ظاهراً ، ثم هو فى الوقت نفسه الأب والروح القدس ، قائماً وراء هذا الظاهر !

إنها عملية معقدة ! وحلقة مفرغة لايدرى أحد أين طرفاها ! !

فالمسيح إنسان ، وإله . .

إنسان كامل . . وإله كامل . .

وانظر كيف يجتمع الإنسان والإله فى كيان واحد ! . . شخصية مزدوجة ، وجهها إله ، وظهرها إنسان !

والمسيح . . ابن ، وأب ، وروح قدس !

والابن هو الله . . !

والأب هو الله . .!

وروح القدس هو الله !

والأب ، والابن ، وروح القدس : . هم الله !

إنها ألغاز وطلاسم ، لايمكن أن يتصورها العقل إلا إذا اصطنع لها التشبيهات ، والتخيلات !

ولعل أقرب صورة تمثل هذا المفهوم لله ، هو القمر ، ومنازله المختلفة . .

فالقمر يكون هلالاً . . فبدرا . . فمحاقا . .

وهو هو القمر . !

فإذا كان هلالاً ففى كيانه البدر والمحاق !

وإذا كان بدراً فمن ورائه المحاق والهلال !

وإذا كان محاقاً . . فبين يديه الهلال والبدر !

ومع هذا فإن الناس لايقولون عن الهلال إنه بدر أو محاق . ولا يقولون عن البدر إنه مَحاق أو هلال . . إن لكل وجه من هذه الوجوه مفهوماً خاصًّا عند الناس !

ولكن لو كان لله تعينات ، ووجوه كوجوه القمر ، فإن معنى هذا أن « الله » متحول متغيّر . . يلبس أثواباً مختلفة ، ويبدو فى وجوه متعددة !

والمؤمنون بالله ـ ومنهم أتباع المسيح ـ مؤمنون بأن الله لا يتغيّر ولا يتبدّل، ولا يتحول من حال إلى حالٍ أبداً !

ثم من جهة أخرى . . لايرى الذى يؤمن بألوهية المسيح ـ على هذا المفهوم ـ إلا وجهاً واحداً من « الله » وهو وجه « الابن » أو أقنوم الابن . .

ولهذا فإنه يحدّق دائماً فى هذا الوجه ، ويتعامل معه ، دون أن يكون للوجهين الآخرين حساب أو تقدير ، فى مجال الشعور والوجدان ، وإن كان لهما فى مجال

البحث والدرس حساب وتقدير عند من لهم قدرة على البحث والدرس !

إن « المسيح » الذى يمثل أقنومَ « الابن » فى « الله » هو وحده الذى يتعامل معه أتباع المسيح . . فهو الله المسيح! وهو الله الابن !

أما « بقية » الله ، أو الجوانب الأخرى من الله ، فهى شىء وراء هذا الحساب ، وهذا التقدير ! !

والشعور الذى يقوم فى كيان « المؤمن » بالله على هذا الوجه ، شعور يتسلط عليه إحساس منه ، بإيثار بعض « الله » على بعض ، وأن الله أبعاضاً .. هذا التصور ، لايمكن أن يتخلّص من الإحساس به أى مؤمن بالله المسيح ، ولوحاول ذلك وأجهد نفسه فى المحاولة !

فالمؤمن بالله المسيح ، إنما يعنيه من الله هذا الوجه المطل عليه فى شخص المسيح ، وهو أقنوم « الابن » الذى تجسد الله به فى هذا الجسد !

* * *

ألم نقل إن الحلّ الذى أريد به إيجاد تسوية لألوهية « المسيح » قد أضاف إلى المشكلة مشكلات ، وزاد عقدها عقداً ؟

وبلى ! فإن القول بأن المسيح هو « الله » . . كلّ الله . . بجميع صفاته وأقانيمه ، وتعيّناته ـ هذا القول أقرب إلى العقل من القول بأن « المسيح » هو الله متجسداً فى أقنوم « الابن » دون الأقنومين الآخرين اللذين يقال إنهما لله ، وهما الأب وروح القدس !

إن القول بتجسد « الله » فى أقنوم الابن ، الذى منه كان المسيح ، ثم القول بأن المسيح هو الله ـ يجعل المسيح ذا صور ثلاث : إنساناً ، وإلٰها وبعض إلٰه .

وهذه الصور الثلاث تتخايل دائماً ـ مجتمعة ومتفرقة ـ فى عينى من يعتقد فى ألوهية المسيح . . فـكلما ذكر المرء « المسيح » وقعت فى تصوره هذه الصور الثلاث . . تجتمع ، وتتفرق ، ويختلط بعضها ببعض ، فتتشـكل منها صور وأشـكال . . !

العقل . . والمسيح الإنسان :

الوجه الإنسانى فى المسيح ، هو أبرز هذه الوجوه الثلاثة ، التى تتخايل منه ، لمن ينظر إليه على اعتبار أنه « الله » « مُضْمَنًا » مجملاً ، أو الله «مفككا» مفصلاً . . !

فالمسيح الإنسان قد رآه الناس رأى العين ، وقد وصفه الواصفون وصف رؤية وعِيان . . فهو حقيقة ماثلة فى عين من يؤمنون بألوهيته . . فضلا عن الذين لايؤمنون به إلهاً ! !

وقد استجاب المؤمنون بالمسيح الإله ، لهذا المعطيات التى أعطاها الشهود الحسّى لهم منه ، فتمثلوه ـ وهو الله ـ حاضراً معهم فى جسده ، الذى رأوه رؤية بصرية ، أو خبرية . . فصوروه . وصنعوا له التماثيل ، وليداً ، ومصلوباً ، وصاعداً إلى السماء . بعد قيامته من الأموات !

إن المسيح الإنسان هو الذى يملأ قلوب المؤمنين بأنه هو الله ، وإنهم ـ مهما جَهِدوا ـ لن يستطيعوا أن يتمثلوا الله فى حال من الأحوال ، إلا فى صورة المسيح الإنسان الذى رأوه فى صوره المختلفة التى تمثلوها له ، وصوروه ، أو مثلوه عليها !

ولهذا فقد غلبت صورة المسيح الإنسان على كلّ تصور لله ، ولهذا أيضاً كانت صورة « المسيح » الإنسان فى عينى ، وفى قلب كل مؤمن بأنه « الله » .

ونسأل :

وماذا لو استقام المسيح على وجه واحد . . فكان إنسانا لم يخالطه شيء من الألوهية ، أو كان إلها لم تشبه شائبة من البشرية ؟ إن أعدل صورة للإنسان هو أن يكون إنساناً فى كل شيء . . فى ظاهر أمره وباطنه جميعاً .

فأعضاؤه ، وحواسه ، إذا خرج منها شيء عن حدود البشرية ، ومألوفها . . فسد أمره ، واضطرب وجوده بين الناس !

وانظر كيف يكون حال إنسان له رجل واحدة بدل اثنتين ، أو كان له أربع عيون بدلا من عينين ، أو أن عينيه ركبتا فوق رأسه ، أو أن حاسة بصره كانت أشبه بالمجهر ، أو أن حاسة سمعه كانت كمكبرات الأصوات .. أترى مثل هذا الإنسان يهنؤه طعام ، أو يستقيم له أمر ؟

وقُلْ مثل هذا فى كيانه الداخلى . . فى عواطفه ونوازعه ، وفى أفكاره وخواطره . . إنه إن خرج فى شيء من ذلك عن حدود البشرية ، فى أعلا ذُراها ، أو أدنى مستوياتها ، تَعِس وشقى !

إن الغراب الذى يلبس جلد الطاووس . . ليس غراباً ، وليس طاووساً . . بل ليس من عالم الطير إطلاقاً !

* * *

والمسيح ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تُحدّث سيرته عن إنسانٍ كَرُم فى الإنسانية غرسه ، وطاب ثمره ، فكان غُرَّة فى جبينها ، ودرة فى تاجها ، ونجما لامعاً فى سمائها ، ومصباحاً هادياً فى أرضها . . هيهات أن تلد الأمهات من يدانيه ، نبلًا ، وطهراً ، واستقامة وعفّة . . إلا من كان من الصفوة المتخيّرة من رسل الله وأنبيائه !

فالمسيح ـ الإنسان ـ أمل من آمال الإنسانية ، ومنزع من منازعها ،

وحلم من أحلامها . . قد ظفرت به حقيقةً واقعة ، فرأت فيه الإنسانَ كيف يستعلى على شهواته ، وكيف يقهر هواه ، وكيف يبلغ به خُلُقه فى العالم الأرضى ما لا تبلغ الملائكة فى عالمها العلوى !

وإنه لكسب عظيم للإنسانية أن يكون « المسيح » الإنسان واحداً منها ، إذ به وبمن شابهه أو داناه ، من الأنبياء ، والحكماء ، والقادة ، والمصلحين ـ تَثقل موازين الإنسانية ، ويرتفع قدرها ، ويستقيم خطوها ، وتثبت أقدامها على طريق الحق ، والخير ، والسلام !

وانظر كيف يكون حال الإنسانية من الجدْب والعُقم ، فى خُلقِها ، وفى تفكيرها ، لو أن هؤلاء العباقرة ، وأولئك الرءوس الشوامخ الذين تلدهم الحياة بين الحين والحين ـ أضيفوا إلى عالم غير عالم البشر ، فكانوا من الجن ، أو الملائكة ، أو الآلهة . . أو أى خلق آخر مما يكبُر فى صدور الناس ؟

إن هذه الفتوح العظيمة التى حققتها الإنسانية على هذه الأرض ، فى ميادين العلم والفنّ ، وما أخرج العلم والفن من ثمرات عَمَرت بها الحياة ، وقامت بها تلك الحضارة التى تملأ وجوه الأرض ، حياة وعمرانا ـ هذه الفتوح العظيمة هى من صنع الإنسان ، ومن وحى العباقرة والملهمين من الناس !

فلو أن الإنسانية لم تلد هؤلاء العباقرة والملهمين من أبنائها ، لظلت تحبو فى طفولتها ، وتعيش فى هذا المستوى الطفولى ، الذى لا يرتفع بها كثيراً عن مرتبة الحيوان !

وحول الإنسانية ، وفى محيطها قوًى غيبية لاحدّ لقدرتها ، ولا نفاد لحولها وقوتها . . كالجن والملائكة مثلاً . . ومع هذا فإن الإنسان لم يُفد منها شيئاً ، فى صراعه مع الحياة ، ولا فى غزواته لكشف أسرارها ! .

ولقد تتعلق عيون الناس وآمالهم قروناً وأجيالاً طويلة بهذه القوى الغيبية

تريد عونها ومساندتها ، فى الإمساك بسفينتها المضطربة بين متلاطم الأمواج . .
ولكن الذى كان يطلع على الإنسانية دائماً ، هو واحد من أبنائها ، يستجيب لندائها ، ويحقق ما اتجهت إليه أنظارها ، وتفتحت له آمالها . .

ولو ارتفع المسيح إلى مرتبة الألوهية ، وخرج من حساب الإنسانية ، لخفّ ميزان النّاس ، ولُحرموا هذا الخير الكثير الذى يجدونه فى تلك الكلمات المشرقة المسعدة ، التى تطلع عليهم من فم إنسان ، ومن قلب إنسان ، ومن تفكير إنسان . . . ثم لمّا نزعت بهم نازعة إلى تمثّل سيرته ، واقتفاء أثره ، إلا إذا حسبوه فى سجلّ الإنسانية ، وعدّوه إنساناً من الناس . . أما إذا أضيف إلى الآلهة ، وحسب فى عدادها ، فلا يقع فى نفس إنسان أن يتشبه به ، أو يحذو حذوه . . فذاك إله ، وهذا إنسان . . وأين الإنسان من الإله ؟ لذلك طريق ولهذا طريق ! . .

والأمر أكثر من هذا خسارة على الإنسانية وتفويتاً لما يُرجى لها من خير . . لو أن « المسيح » كان هو « الله » الذى يؤمن به المؤمنون ، ويتعبّد له المتعبّدون !

وانظر كيف يكون هذا الحساب !

إنّ « الله » الذى يؤمن به المؤمنون . . أزلىّ أبدى . !

فهو هو لم يتغيّر ولم يتبدّل ، ولن يتغير أو يتبدل ، ولم يزد ولم ينقص ، ولن يزيد ولن ينقص ! و « المسيح » الذى ظهر فى فترة ما ، لأعين الناس الذين رأوه ، ليس إلا « الله » الأزلى الأبدى . . على ما يؤمن المؤمنون بألوهيته . .

وظهور الله فى هذا « الجسد » لم يغيّر من ذات الله شيئاً !

فالله هو الله ـ فى جسد المسيح ، وفى غير جسد المسيح . . أو فى أى جسد آخر . . بشرى ، أو غير بشرى ! .

وإذن فليس هنا « الله » و « المسيح » . .

وإذن ـ أيضاً ـ فلا ذات إلا ذات واحدة ، تمثلّ الألوهية ، هى : الله أو المسيح ! .

فالله ـ كما قلنا ـ ذات واحدة ، لم ولن تتبدل أو تتغيّر ، ولم ولن تزيد أو تنقص ، وهذا هو ما يقول به أتباع المسيح . . كما يقول به المؤمنون بالله .

فالقول بألوهية المسيح ، وبأنه الله ، قول لا يدخل منه على الألوهية شىء ، فلا يضيف إلى ذات الله بهاء ، ولا جلالاً ، بل إن العكس هو الصحيح ، إذ نزل بقدر الله ، وعفّر ذاته بتراب الأرض ، وعرض وجهه للبصق والصّفع ، وأقام جسده على الصليب مشدوداً ، تدقّ يداه وقدماه بالمسامير ، ويستسقى فيُسقى المرّ المذاب ، ويصرخ صرخات ضارعة مستيئسة ، ولا راحم ، ولا مجيب ! وتعالى الله عند ذلك علوّاً كبيراً .

إن « الله » المسيح ، قد كشف فى هذه الأحوال عن إله لا حول له ولا قوة ، يصارع الخطيئة التى غرسها بيده فى كيان الإنسان . . (ونعم غرسها بيده ، إذ كان الشيطان هو الذى ساقه إليها ، أو ساقها إليه ، والشيطان من صنعة يد الله ، بلاشك) ثم يحتال الله لذلك ، فلا تسعفه الحيل إلا بأن يتخلّق فى رحم امرأة ، ويولد منها ، ويرضع من ثديها ، حتى يشبّ ويكون رجلاً ، فيتخذ له تلاميذ وأتباعاً ، يدعوهم إلى ما يدعوهم إليه . . ثم ينتهى أمره إلى الموت صلباً ، ليكون بهذا الموت ذبيحة ، لغفران الخطيئة التى أخطأها آدم فى عصيانه أمر الله ! .

أرأيت أعجبَ من هذا العجب !

إنسان يخطىء فى حق الله ، ويخرج عن طاعته . .

فلا يعاقبه الله ، ولا يأخذه بجريرته !

ولو وقف الأمر عند هذا الحد ، لكان مفهوماً مقبولاً . . إنسان أخطأ ، ورب غفور رحيم !

ولكن الذى لا يُفهم ، ولا يُقبل ، هو أن يجىء الله ، لكى يغفر جريمة هذا الإنسان ، فيربّى نفسه فى حجر الإنسانية ، ثم إذا أصبح « حَمَلا » صالحاً للذبح ، ذَبَحَ نفسه ، ليكون كفارة لهذا الذنب الذى ارتكبه فى حقه عبد من عبيده !

وندع هذا الحساب المغلوط ، شكلا وموضوعاً . . لمن يقيم خَلَلَهَ ، إن كان فى الناس من يحسن البناء على خَواء ، ويقيم صرحاً فى الهواء .

ونسأل : أين « المسيح » الإنسان ؟

أين ذلك الوجه المشرق الوضىء الذى طالع فيه الناس سمات الإنسانية ، في نبلها ، وطهرها ، وعفتها ، ورحمتها ، وحكمتها ؟ أين ذلك الإنسان الذى عاش فى الناس فآنس وحشتهم ، وفتح لهم طرقاً مستقيمة إلى معالم الخير ، والنور ، والسلام ؟

إنه لا وجود له فى عالم الناس . . !

إنه لم يكن إلا « الله » . . ولم تكن تلك الفترة التى رآه الناس فيها فى صورة إنسان ــ إلا حلماً من تلك الأحلام المسعدة ، التى يصحون بعدها على الواقع الذى يعيشون فيه اهكذا هو فى زى الإله الذى ألبسوه إياه .

إن المسيح « الله » . . لاحساب له في عالم الناس . !

وإنها لخسارة فادحة محققة للإنسانية ، إذ تفتقد المسيحَ إنسانا ، حين تراه إلها . .

ثم تتطلع إليه مقام الألوهية ، فلا ترى له وجوداً . . لأنه عاش على الأرض وصُلب ، ودفن فى الأرض . . وأن من كان هذا شأنه ، فلن يعود إلى مقام الألوهية أبداً ، على فرض أنه كان الإله ، وكان الله رب العالمين . . إن مخايل الإنسانية وصفاتها ، ومشخصاتها لن تفارقه بحال ، ولن تزايل أنظار الناظرين إليه ، والمؤمنين به على تلك الصفة . .

أما الله سبحانه وتعالى ، فهو الله الذى تنزّه عن التجسد والتشكل .

الله وحده . . لاشريك له !

الله فى عظمته وجلاله . . قبل المسيح . . وبعد المسيح !

الله الذى آمن به آدم ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، وجميع أنبياء الله ، ورسله ، ومن استجاب لهم ، وسلك سبيلهم !



سُورَةِ الأَنْعَام

أسماؤها : أشهر أسمائها : الأنعام ، لكثرة ما ذكر فيها من لفظ « أنعام » وتسمى الحجّة ، لأنها اشتملت علما كثيراً من دلائل حجة النبوة .

نزولها : ملكية . . إلا ست آيات نزلت بالمدينة . .

وقيل إن السورة نزلت دفعة واحدة ، ماعدا هذه الآيات الست .

عدد آياتها : مائة وخمس وستون آية .

عدد كلماتها : ثلاثة آلاف واثنتان وخمسون كلمة .

عدد حروفها : اثنا عشر ألفاً ومئتان وأربعون حرفاً .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية : (١)

« ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ » (١)

التفسير : تُفتتح هذه السورة الكريمة ، بالحمد ، لِمستَحق الحمد ، سبحانه وتعالى ، ذى القدرة والطول ، الذى له ملك السموات والأرض ومافيهن وهو على كل شيء قدير ، فتلك صفته ـ سبحانه وتعالى ـ التى كانت مختتم السورة السابقة ، والتى أضيف بها هذا الوجود كله إليه ، لاشريك له فيه ، مَلَكه بسلطانه ، واستولَى عليه بقدرته .. ومن كان هذا شأنه ، وتلك صفته ، فلا متوجّه إلا إليه ، ولاحمدَ إلاّ له .

فقوله سبحانه : « الحمدُ لله » قَصْرٌ للحمد عليه وحده ، وهو حمدٌ مطلوب

من كل كائن أن يسبّح لله به ، إذ هو الذى خلقه وأوجده من عدم .. والوجود بالإضافة إلى العدم نعمة تستأهل الشكر ، وتستوجب الحمد .. فأى موجود ـ على أية صفة ، وعلى أى حال ـ هو نفحة من نفحات الله سبحانه ، وعطاء من عطائه ، وصنعة من صنعته ، وليس كذلك العدم ، الذى هو فناء مطلق ، وتيه وضياع أبدىّ .. إنه لاشىء ، وشىء خير من لاشىء !

إن أى موجود ـ على أية صفة وعلى أى حال ـ هو مَجْلَى قدرة الله ، وآية من آيات تلك القدرة الخالقة المبدعة المصوّرة ، وإشارة دالة على وجود الخالق ، إذ لايعرف الخالق إلا بما خلق ..

وفى أول ماتلقىّ النبىّ الكريم من ربّه : « اقرأ باسم ربِّك الذى خَلَق » فكانت صفة الربوبية والخلق أولَ ماصافح أُذُنَ النبىّ ، ومسّ شَغَافَ قلبه من صفات الحق جلّ وعلا .. فالربوبية والخلق صفتان متلازمتان .... إذ لاربوبية إلا لمربوبين ، ولاخلق بغير ربوبية ، تمسك الخلق ، وتحفظ عليهم وجودهم .. ومن هنا ندرك بعض السرّ فى أن كانت فاتحة الكتاب ، مفتتحاً لرسالة الإسلام وكتابها الكريم ، وأن كانت صَلاتنا ـ وهى عماد ديننا ـ وتسبيحا بالفاتحة ، وأن كان الحمدُ مفتتح الفاتحة .

وقوله سبحانه : « الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » هو صفة الله ، المحمود بما خلق من السموات والأرض ، وما أبدع فى خلقه ، وخالف بين مخلوقاته ، فجعل الظلمات وجعل النور ..

وهنا أمور يجب الوقوف عندها :

فأولا : جَمْعُ السموات وإفرادُ الأرض ..

وفى القرآن الكريم ، جاءت السموات بلفظ الجمع ، كما جاءت بلفظ المفرد: هكذا « السماء » .. ولم تجىء الأرض إلا بلفظ المفرد هكذا : « الأرض » .

فما سر هذا ؟

ومدلول اللغة يقضى بأن الجمع أكثر من المفرد عددًا .. فالجمع ، أكثر من اثنين ، إلى ماتنتهى إليه المعدودات من عدد .. والمفرد واحد ، لايزيد ..

هذا فى الأشياء المتفقة نوعاً أو جنساً ..

فهل يكون ذلك فى المختلف من الأنواع والأجناس ؟ وهل إذا كان الجمع أكثر عدداً ، هل يكون أكبر جِرْماً وقدْراً ؟

والجواب : أن ذلك ليس بالحتم اللازم ، فقد يكون الجمع مع كثرته عدداً ، أقلّ من المفرد ، جِرْماً وقدراً ..

فألوف الألوف من النمل مثلا ، لاتعدل الفيل جِرماً .. وألوف الألوف من الحصا ، لاتعدل حصاة من ذهب .

والسؤال الوارد هنا : هل جمع السموات وإفراد الأرض ، يقضى بأن تكون السموات أكبر جرماً وأعظم قدراً من الأرض ؟

وللإجابة على هذا ، ننظر فى القرآن الكريم ، فنجد أن السموات ذُكرت جمعاً ، فى أكثرمن مائة وخمسين موضعاً ، كما ذكرت بلفظ المفرد فى نحو مئة وعشرين موضعاً . . !

وأنها حين تُذكر جمعاً يكون فى مقابلها الأرض بلفظ المفرد .. هكذا : « السموات والأرض » .. يكاد ذلك يكون مطرداً فى معظم القرآن .. مثل قوله تعالى :

« إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِى الْأَلْبَابِ » (١٩٠ : آل عمران) . وقوله سبحانه : « وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ » (٢٥٥ : البقرة) وقوله : « وَلِلّٰهِ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ

وَالْأَرْضِ » (٧٧ : النحل) . . « قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » (٨٦ : المؤمنون) « لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ » (٣ : سبأ)

وهكذا تُجمع السموات، وتفرد الأرض فى كل مقام يُراد فيه عرض جلال الله ، وعظمة قدرته ، وسعة ملكه ، ليكون فى ذلك العرض مايدعو إلى التأمل والنظر ، وتوجيه البصائر والأبصار إلى ماوراء هذا الأفق المحدود الذى يعيش فيه من لايمدون أبصارهم إلى أكثر من مواقع أقدامهم .

وأما حين تُذكر السماء مفردة ، فتارة يكون فى مقابلها الأرض ، وتارة تذكر وحدها ، غير مقترنة بالأرض ، وهى فى كلا الحالين لايراد بها جِرمُها وبناؤها الكونى ، وإنما يراد بها أنها جهة علوّ بالنسبة للأرض ، وما على الأرض . .

مثل قوله تعالى :

« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ » . . وقوله سبحانه : « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ » (١١ : الطارق) والرجع : هو المطر ، والصدع : تشقق الأرض حين يخرج منها النبات . وقوله : « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ » (٧ : الذاريات) والحُبُك : الطرائق الحسنة بين النجوم .

وقوله تعالى : « وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا » (٢٤ : الروم) وقوله سبحانه : « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ » (٥ : السجدة) وقوله : « اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً » (٦٤ : غافر) وقوله : « الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً » (٢٢ : البقرة) .

ومن هذا نرى أن التعبير القرآنى عن السموات بلفظ الجمع يَرِدُ دائماً حيث يراد المقابلة بينها وبين الأرض، لا من حيث الوضع علواً وسُفْلا ، وإنما من حيث البناء التركيبي لكل منهما ، وأن السموات عوالم متعددة ، والأرض بالنسبة لها أشبه بالمفرد بالنسبة لجمعه ، وأنهما إن اختلفتا اسماً ، فقد اتفقتا صفة ، بأنهما آيتان من آيات الله الدالة على علمه ، وقدرته ، وحكمته ..

وحين ينظر الناظر إلى السماء نظراً مباشراً ، غير معتمد على كشوفات العلم ومقرراته ، فإنه يرى فى السماء من دلائل القـــدرة الإلهية والإبداع الربانى مالا يراه فى الأرض ، ولهذا كان أول مالفت إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى الله ، ماراعه من ملكوت السموات ، فى بنائها وارتفاعها ، سقفاً محفوظاً بغير عمد ، وما زُينت به من كواكب .. « فلما جَنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفَل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفَل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونَنَّ من القوم الضّالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفَلَتْ قال ياقوم إنى برىء مما تشركون * » (٧٦ ـ ٧٨ : الأنعام) .

هذا مايبدو للنظر المجرد ، البعيد عن معطيات العلم ومقرراته .. السماء أكبر جرماً من الأرض ، وأوسع مدى ، وأكثر محتوى للعجائب والغرائب .. فإذا ووزنت بالأرض من تلك الجهة ، فهى جمع والأرض مفرد .. هى سماوات والأرض أرض أو سماء !

ثم إذا كشف العلم أن الأرض ليست إلا ذَرَّة سابحة فى فضاء هذا الـكون العظيم ، لاتعدو أن تـكون قطرة من محيط ـ إذا كشف العلم هذا كان المسلم العالم أن يرى « السموات » جمعاً يدخل فى محتواه كل حقيقة يقررها العلم ، وتبلغها مقاييسه ، وتنـكشف لرؤيته أو لرؤاه . . من اتساع وبسطة ، وامتداد ، بحيث لايرى الأرض إلا أرضاً ، هى ذرة من رمال الصحارى

أو شواطىء البحار ، بالإضافة إلى هذا الكون العظيم . ! فالسموات بصيغة الجمع صالحة لأن يدخل فيها من أعداد السماء ما لا حصر له .. بلا قيود ولا حدود .

آية واحدة ، جاءت فى القرآن الكريم فجمعت بين السموات والأرض بما يشعر بالمساواة بينهما ، وهى قوله تعالى : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن » (١٢ : الطلاق) .

فالمثالية هنا قد حملها المفسرون على المثلية فى العدد ، وأنه كما أن هناك سبع سموات ، فهناك سبع أرضين .. وقد أكثروا من القول فى هذه الأرضين ، وفى اسم كل أرض ، كما قالوا ذلك فى السموات السبع ، واسم كل سماء ..

وتحديد السموات بأنها سبع ، يعنى أنها سبعة أكوان ، ولا يدرى كُنْهَ هذا الكون ، ولا العوالم التى يحتويها إلا الله سبحانه وتعالى ، وأما ما بلغه علمنا من أكوان السموات ، فلا يعدو أن يكون أفقاً محدوداً من آفاق هذه الأكوان ، أو موجة على صدر محيطه الغمر الرحيب .

وأما المثلية بين السموات والأرض فى قوله تعالى : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن » فليس من الحتم أن تكون مثلية فى العدد ، كما فهمها عليه المفسرون ، ولعله من الصواب أن يكون المراد هو المثلية فى الإبداع والقدرة التى تظهر فيها عظمة الصانع ، وقدرته ، وحكمته ، وعلمه . . فليس الأمر أمر جرم عظيم ، وآخر صغير . . وإنما هو ما يتجلى فى أى جرم ــ مهما صغر ــ من دقة الصنعة ، وإحكام البناء ، وروعة التكوين . .

فليس الجبل فى ضخامة جرمه بأعظم من الذرة قدراً ، ولا أظهر منها بياناً ، للدلالة على قدرة الصانع ، وروعة إبداعه ، وسلطان علمه ، وذلك فى نظر من له بصيرة نافذة ، وإدراك سليم . .

الفيل فى ضخامة جسمه ، وقوة احتماله ، ليس أبلغ من النملة فى الدلالة على قدرة الله ، وعلمه ، وحكمته ..

بل ربما كانت النملة فى جرمها الصغير تحمل من الأجهزة العاملة ، مالا يحمله الفيل فى كيانه الضخم العظيم ..

وإذن فلكى تكون الأرض فى صغرها مثل السموات فى كبرها ، وامتداد آفاقها ، ينبغى أن يكون النظر إليها بعين المستبصر الباحث ، الخبير .. فإنه حينئذ تصغر السموات ، وتصبح أى رقعة من الأرض أكثرَ من سماء ، وأكبر من سماوات .. إذ كان سلطان الإنسان على الأرض ، وعمله فيها ، على حين لا سلطان له على السماء ، ليكشف أسرارها ، ويقف على عوالمها التى لاتنتهى حدودها ..

وإذن ـ مرة أخرى ـ فهذه المناظرة التى بين السموات والأرض ، فى قوله تعالى : « الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن » هى إشارة سماوية إلى الإنسان أن يكشف مجاهل هذه الأرض التى يعيش عليها ، وأن يفتش فى الكشف عن أسرارها ، فإنه إن فعل لم يستصغر الكوكب الذى يعيش فيه ، ولوجد فيه ما يذهل ويروع من آيات الله .

وثانياً : قوله تعالى : « وجعل الظلمات والنور » مع قوله تعالى فى السموات والأرض « وخَلَق السموات والأرض » ..

فهل ثَمة فرق بين الخلق والجْعل ؟ أم أن الخلق هو الجْعل ، والجْعل هو الخلق ؟ وأن اختلاف اللفظ مع اتفاق المعنى هو أسلوب من أساليب القرآن ، تحاشياً للتكرار وثقله ، كما يقول بذلك المفسرون ؟

والقول بأن اختلاف اللفظ مع اتفاق المعنى ، إنما داعيته هى أن ينأى القرآن به عن الرتَّابة والثقل بتكرار اللفظ ـ هو قول إنْ قيل به فى أساليب

البلغاء، فلن يُقبل فى نظم القرآن، الذى يعلو ببلاغته عن هذا المعيار الإنسانى..
فإذا كرر القرآن الكريم اللفظ مرة ومرة ومرات، لم يُنزله ذلك قِيدَ شعرة عن مكانه السامى من الفصاحة والبيان، وجاء التكرار كلا تكرار، فى روعة الأداء، وتجاوب النغم، وحلاوة الجرس.. وكم كرّر القرآن من ألفاظ، وحروف، فكان اجتماعها إعجازاً من إعجاز القرآن، وآية من آيات رب العالمين! وسنعرض لهذا فى بحث خاص به إن شاء الله.

فلابد إذن أن يكون لهذا الاختلاف فى النظم بين «خلق السموات والأرض» «وجعل الظلمات والنور» داعية، استدعته وغاية أربد به تحقيقها.

والقرآن الكريم قد فرق بين الخلق والجعل فى المعنى، كما هما مفترقان فى اللفظ..

«فالخلْق» فى القرآن ــ فى كل موضع ورد فيه ــ هو الإيجاد، إيجاد غير الموجود، وإظهاره للوجود..

«خلق السموات والأرض».. «خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجانّ من مارج من نار».. «يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق».. «الله خالق كل شىء».. فالخلق، وهو الإيجاد من عدم، هو مما انفرد به الله سبحانه وتعالى، ولهذا كان من صفاته الكريمة: «الخالق».

أما «الجْعل» فهو إضافة تلحق المخلوق، وتكشف عن صفته، وتبرز طبيعته.. هو توجيه الخالق للمخلوق، ليعطى وظيفته، ويحقق وجوده..

«إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها» (٧: الكهف).. «وجعلنا نوْمكم سباتاً. وجعلنا الليل لباساً. وجعلنا النهار معاشاً» (٩ ــ ١١: النبأ).. «وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لمّا صبروا»، (٢٤: السجدة).. «وكذلك جعلناكم أمة وسطاً» (١٤٣: البقرة).

بل إن « الجعل » يضاف إلى الإنسان ، ويُحسب له ، أو عليه ، كما يقول سبحانه وتعالى : «وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً» (١٩ الزخرف) ويقول سبحانه : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله » (١٩ : التوبة) ويقول : « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » (النحل ٥٧) .

وننظر فى قوله تعالى :

« خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » فنجد أن السموات والأرض ، قد خلقنا بيد القدرة القادرة ، فكان فعل الخلق « خَلَقَ » مطلوباً لتحقيق هذا المعنى المراد هنا . .

ونجد أن الظلمات والنور ، وإن كانا مخلوقين لله ، إلا أن الخلق غير مراد هنا ، وإنما المراد وظيفة هذين المخلوقين ، وأنهما الثّوبان اللذان يَلْبَسان المخلوقات ، أو يَلْبَسان الكوكب الأرضى الذى نعيش عليه ، ونشهد آثارهما فيه .

وثالثاً : جَمْع الظلمات ، وإفراد النور .

ماذا وراء الجمع هناك والإفراد هنا ؟

إن الظلام كثيف ثقيل ، والنور شفيف رقيق .. هكذا موقعهما على العين .. الظلام كأنه ظلمات بعضها فوق بعض . . إذا أقبل عليها النور أزاحها طبقة طبقة ..

هذا فى واقع الحسّ ..

ومن جهة أخرى ، فإن الظلام وحشة وعمًى وضلال ، ومن هنا تتشعب طرقه ، وتتعدد مسالك الهائمين فيه .. أما النور فهو أمْن وهدى وحق .. وجه

واحد ، وطريق واحد .. من قصد وجهاً غير وجهه ضل ، ومن سلك طريقاً غير طريقه هلك .

هذا بعض ماينكشف من قدرة الله ، وعلمه وحكمته ، فيما تعرضه كلمات الله : « خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » .

وقد كان جديراً بالإنسان ، وقد منحه الله نظراً يبصر ، وأذناً تسمع ، وعقلاً يعقل ويدرك ، ومشاعر تتأثر وتنفعل ـ كان جديراً به أن يرى الخالق فى هذه الأكوان التى أبدعها ، وفى هذا الوجود الذى أقامه ، ولكن كثيراً من الناس يُذهله اشتغاله بنفسه ، وبدواعى نزعاته وأهوائه ، عن أن يفتح قلبه لهذا الوجود ، ولذلك فهو يعيش مغلقاً على نفسه ، مقوقعاً فى ظلمات جهله وسَفهه .. « وكأى من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » (١٠٥ : يوسف) .

وكثير من الناس أيضاً ، يرى ، ويبصر ، ويعقل ، ثم يركبه شيطانه ، فيغمض عينه عما رأى ، ويُصِمّ أذنه عما سمع ، ويتهم عقله فيما عقل ، وإذا هو ممن يكفرون بآيات الله ، ويولون وجوههم عن الله إلى آلهة اتخذوها ، وأرباب صطنعوها وعبدوها .

« ثمّ الذين كفروا بربّهم يَعْدلون » أى ثمّ بعد هذه الآيات البينات ، يكون فى الناس من يكفر بالله ، ويجعلون له أنداداً ، يسوّون بينهم وبينه ، ويجعلونهم عِدْلاً له ونِداً ؟

وفى العطف بحرف « ثمّ » مايشير إلى التهديد والوعيد لهؤلاء الذين كفروا بالله ، بعد أن ملأ الله عليهم هذا الوجود بالآيات الناطقة بوجوده ، الدالّة على كمال قدرته ، وشمول علمه ، وبسطة سلطانه . فى هذا العطف

تعقيب على المعطوف ، وهو تعقيب فيه تراخٍ وامتداد فى مسافات الزمان والمكان بين المعطوف والمعطوف عليه ، وهذا يؤذن بالمفارقة البعيدة بين المتعاطفيْن اللذين كان من شأنهما التشاكل والتلاحم .. ولكن كفر الكافرين بالله يجعلهم أبعد من أن يتعاطفوا مع آيات الله ، وأن ينتفعوا بها ، ويهتدوا بهديها : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور . . ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » . . ولو كان ما أعقب هذه الآيات هو التعرف على الله والإيمان به ، لجاء النظم القرآنى عطفا بالفاء ، على هذا النحو مثلا : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » . . فعرفه وآمن به أصحاب الأبصار ، وذوو البصائر . . من عباده . .

الآيات : (٢ ـ ٥)

« هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمٰوَاتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » (٥)

التفسير : الذين كفروا بربهم ، وعمُوا عن آياته التى تملأ الوجود فى سمائه وأرضه . . عمُوا كذلك عن النظر فى أنفسهم ، فلم يرَوْا أنفسهم ، وهم على تلك الصورة البالغة العاقلة .

ماذا كانوا قبل أن يكونوا ؟ ومن أى شىء كان كونهم ؟ . إنهم من طين

هذه الأرض التى يطئونها بأقدامهم ، ويمشون عليها اختيالاً ، ويقومون فوقها آلهةً يطاولون الله ربّ العالمين ، ويحادّونه ، ويأبون الولاء له ، والخضوع لسلطانه . . هكذا الإنسان كما وصفه خالقه : « إن الإنسان لظلوم كفارٌ » (٣٤ : إبراهيم) .

وقوله تعالى : « هو الذى خَلَقكم من طين » هو إشارة إلى قدرة الله سبحانه وتعالى ، وأنه خلق من هذا الطين كائنا ، عاقلا ، ناطقاً ، متصرفاً ، سميعاً ، بصيراً . . ثم هو إشارة أخرى إلى ضآلة قدْر الإنسان ، وصَغاره . . ومهانته ، بالنسبة لجلال قدرة الله وكماله وعظمته . . وأن الله الذى خَلق من هذا الطين المهين كائنا كريماً ، قادر على أن يعيد هذا الكائن إلى مكانه الذى جاء منه ، وهو الطين ، أوما هو دون الطّين قذارة ومهانة !

وقوله سبحانه : « ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً » .

قضى : أى مكث حتى وفّى الزمن المقدور له ، مثل قوله تعالى : « فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ » وقوله : « أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ » .

وفاعل الفعل « قضى » ضمير يعود إلى الطين .

والمعنى أن الله سبحانه وتعالى بدأ خلق الإنسان من طين ، وأن هذا الطين مكث زمناً ، ينتقل من حالٍ إلى حال ، ومن صورة إلى صورة ، حتى كان منه هذا الإنسان .

وفى العطف بالحرف « ثُمَّ » مايشعر بامتداد الزمن وتطاوله ، فى تلك الدورة الطويلة التى انتقل بها الإنسان من عالم الطين إلى عالم البشر . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا

لآدم» فالخلق مرحلة من مراحل تطور الكائن البشرى .. خُلق أولاً، أى بُدِىء فى خلقه، ثم صُوِّر، أى تنقل من حالٍ إلى حالٍ، متصاعداً نحو الكمال، حتى إذا استكمل وجودَه البشرى وصار إنساناً، كان خلقاً آخر، وعالَماً غير العالم الذى جاء منه .. وهذا مايدل عليه قوله سبحانه «يا أيها الإنسان ماغرّك بربك الكريم الّذِى خَلَقَكَ فسوّاك فعدلك فى أى صورة ماشاء ركّبك» .. فهناك خَلْقٌ، أى بدء خلق، فتعديل فى هذا الخَلْق، أى تطور وتنقل من حال إلى حال .. حتى بلغ الصورةَ التى شاء الله سبحانه وتعالى الوقوف بالإنسان عندها، وإخراجه عليها.

وقوله تعالى: «وأجلٌ مسمًّى عنده» هو إشارة إلى الأجل الذى يعيشه الإنسان، كإنسان فى هذه الحياة .. والتقدير: وهناك أجلٌ مسمى يقضيه الإنسان، هو مكتوب عند الله.

وهذا الأجل هو المحسوب على الإنسان، إذ فيه يكون أهلا للتكليف، والحساب والجزاء .. ومن هنا أضيف هذا الأجل إلى الله سبحانه وتعالى، وحُسب أنه أجل مقضىٌّ عند الله، فيه يعرف الإنسان ربّه، ويتعامل معه ..

وفى إضافة هذا الأجل إلى الله سبحانه، إشارة إلى أن الإنسان كائن مضاف إلى الله، إضافة تكريم، اختُص بها من بين كثير من الكائنات، وهذا من شأنه أن يحمل الإنسان على أن يحثّ الخطا إلى الله، وأن يدنو منه، ويتعرف إليه، ويتعامل معه .. ليكون أهلاً للإضافة إلى الله .. كما يقول سبحانه:

«إن المتقين فى جنّاتٍ ونهرٍ، فى مقعدِ صِدق عند مليك مقتدر».

وقوله تعالى: «ثم أنتم تمترون» إشارة إلى مافى الإنسان من ضلالٍ وعَمًى عن الله، وأنه مع هذه الآيات البينات، وتلك النعم والألطاف التى يسوقها

سبحانه إلى النّاس ، فإنهم يمترون فى الله ، ويشكّون فى وجوده ، أو فى قدرته ، أو فى البعث والجزاء . . إلى غير ذلك مماهم فيه مختلفون .

وقوله سبحانه : « وَهُوَ اللهُ فِي السَّمٰوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ » هو استعراض لقدرة الله وعلمه ، وأنه هو الإله الخالق للسموات والأرض ، والمالك لهما ، والمتصرف فيهما ، لايملك أحد معه شيئاً ، ولا لأحدٍ معه تصريف فى هذا الوجود . .

وإذ كان الله على تلك الصفة ، فإنّه يعلم بعلمه كل شىء فى هذا الوجود ، ظاهره وباطنه ، جليّه وخفيّه . . « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » (١٤ : الملك) .

والإنسان صَنعةُ الله .. خَلَقه من طين ، وتنقل به من خلْق إلى خلْق ، حتى صار هذا الكائن البشرى ، العاقلَ ، المدركَ ـ أفيخفى على الله من أمره شىء ؟ وكيف وقد صنعه بيده ، ورباه ونشّأه ، وأمسك عليه حياته ، وعدّ عليه أنفاسه ، وأحصى نبضات قلبه ؟ ألا يعلم الإنسانُ كل خافية من صنعة صَنَعها ، أو مختَرَع اخترعه ؟ فكيف بعلم الله الذى علّم الإنسان مالم يعلم ؟

وفى هذا الاستعراض لعلم الله وقدرته استدعاء للإنسان الشارد عن الله ، الغافل عن ذكره ، المستخفّ بشرائعه ـ أن يعود إلى الله ، وأن يخشاه ، ويتقى محارمه ، حيث يرى اللهُ كلّ ما يعمل ، ويعلم ما يُخفى وما يُعلن ..

وقوله تعالى : « وما يأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » هو تشنيع على الكافرين ، وإعراض عنهم ، حيث أعرضوا عن الله ، واستخفّوا بآياته ، ومكروا بها .. ولهذا لم يخاطبهم الله خطاب حضور ، بل أنذرهم إنذار غيبة ، لأنهم مبعدون من رحمة الله ، غائبون بوجودهم عنه ، مشغولون بأهوائهم وضلالاتهم عن ذكره .

وفى قوله تعالى : « فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون » ـ ما يكشف عن وجه هؤلاء الذين أعرضوا عن آيات الله ، الله ، وكفروا بها ..وأن القرآن الكريم وهو الحق من الله،والآية المشرقة من آياته ، لم يلقه هؤلاء الضالون إلا بالتكذيب والإعراض والاستهزاء .. فصبراً، فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ، يوم يعرضون على الله بهذا الإثم العظيم الذى حملوه ، من التكذيب لكتاب الله ، والاستهزاء بآياته ..

وفى قوله تعالى : « فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون » جاء الفعل « يستهزئون » بدلاً من الفعل الذى يطلبه النظم وهو « يكذبون » .. إذ جاء وصفهم بأنهم كذبوا ، فكان مقتضى هذا الوصف أن تجىء المجازاة عن التكذيب ، لا عن الاستهزاء .

وهذا من القرآن الكريم آية من آيات إعجازه ، إذ يحمّل بهذا النظم المعجز فعلَ التكذيب ، معنى التكذيب والاستهزاء معاً .. فهم لم يكذبوا وحسب ، بل أتبعوا التكذيبَ سخريةً واستهزاء ! وهذا ما يكشف عنه قوله تعالى : «فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون » .

الآية : (٦)

« أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ » (٦)

التفسير : القرن مائة سنة من الزمان ، والمراد به هنا أهل هذا القرن ، الذى ولدوا وعاشوا ، وماتوا ، فيه . . والمدرار : المطر الغزير المتتابع . .

وهذه شواهد محسوسة ونُذر قائمة بين يدى الناس ، يرفعها الله سبحانه وتعالى لهم ، بعد أن رفع لعقولهم ومدركاتهم كثيراً من الشواهد والنذر ، فلم يبصروها ولم ينتفعوا بها . .

فأين تلك الأمم التى كانت أكثر أموالاً وأولاداً ، وأعزّ قوة وسلطاناً من أهل مكة ، بما ساق الله إليهم من نعم ، وما مكّن لهم فى الأرض ، وما بسط لهم من سلطان عليها ، فعمروها أكثر مما عمرها هؤلاء المشركون ، ولكنهم حين مكروا بآيات وكفروا بنعمه ، لم يكن لهم من أموالهم وأولادهم ، وسلطانهم ـ عاصم يعصمهم من نقمة الله ، فصبّ عليهم المهلكات ، فأصبحوا كهشيم تذروه الرياح . . ؟

فأين عاد ؟ وأين ثمود ؟ تلك بيوتهم خاوية بما ظلموا .. يراها المشركون وهم يمرون عليها ، فى غدوهم ورواحهم مع تجارتهم الغادية الرائحة بين مكة والشام ..

وأين سبأ ؟ وأين ما كان فيها من جنات وعيون ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ؟ لقد صارت يباباً خراباً . . يرى المشركون أطلالها فى رحلتهم شتاء إلى اليمن تجاراً ، قد ألهتهم أموالهم وتجارتهم عن النظر فيها ، وأخذ العبرة منها .

لقد هلكت عاد وهلكت ثمود ، وذهبت سبأ .. وخَلَفَهم آخرون ..

وسيهلك هؤلاء المشركون من أهل مكة .. وسيخلفهم غيرهم ...

إنهم لن يخلّدوا بما جمعوا من مال ، وما استكثروا من بنين ، وما بلغوا من جاه وسلطان ..

إنهم سيهلكون كما هلك غيرهم ، وإنهم لن يُعَمَّروا عُمْرَ الزمان ، فما هم إلا جيلٌ من أجيال الناس ، وقرن من قرون الزمان ، ولن يمضى هذا القرن الذى هم فيه حتى يكونوا تراباً فى التراب ، ليس معهم مما جمعوا إلا هذا الشرك الذى هم فيه .. والذى سيوردهم موارد العذاب المهين . .

وفى لفظ « قرن » فى قوله تعالى : « وكم أهلكنا من قبلهم من قرن » إشارة إلى مدى عمر الإنسان فى هذه الحياة ، وأنه محصور فى هذا الإطار من الزمن .. يزيد قليلاً أو ينقص قليلاً ، بل إن ذلك هو عمر الجماعة الإنسانية كلها .. تمر بها القرون قرناً قرناً ، وفى كل قرن زرع جديد ، قائم على الزرع الذى تم حصاده ، مما كان زرعاً للقرن الماضى . . وهكذا الدنيا زرع وحصاد ، وحصاد وزرع !

الآيات : (٧ — ١١)

« وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنْظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ » (١١)

التفسير : تعرض هذه الآيات ما كان عليه مشركو مكة من ضلال وعنادٍ ، فى لقائهم للدعوة الإسلامية ، ووقوفهم منها هذا الموقف المعادى ، الممعن فى

العناد والتحدّى .. فقد ركبوا رءوسهم ، واتبعوا أهواءهم ، واعتصموا بما هم فيه من شرك وضلال .. وهكذا كل من يلقى الأمور بظهره ، وينظر إلى الأشياء بعينِ هواه ، لايرى الحقّ أبداً ، حيث لايستمع لكلمة ناصح ، أو يستجيب لدعوة داع ..

وهؤلاء المشركون .. لن تتغيرّ حالهم أبداً ، ولن يتحولوا عمّا ركبهم من شرك وضلال ، ولوجاءهم النبىّ بكل آية .

وقوله تعالى : « ولو نزّلنا عليكَ كتاباً فى قرطاسٍ فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلاّ سحرٌ مبين » يكشف عن هذا العناد الذى انعقدت عليهم قلوب الكافرين من أهل مكة ، وأنهم لن يؤمنوا أبداً ، ولو نُزّل عليهم كتابٌ من السماء ، مكتوبٌ فى قرطاسٍ يرونه ، ويلمسونه بأيديهم ..

والمراد بالذين كفروا هنا ، هم الذين كتب الله عليهم الشرك من مشركى مكة ، الذين لم يدخلوا فى الإسلام ، وماتوا على الكفر .. وهم الذين أشارت إليهم الآية الكريمة فى قوله تعالى : « إن الذين كفروا سَوَاء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون » (٦ : البقرة)

فالخطاب فى قوله تعالى : « ولو نزّلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحرٌ مبين » لايراد به جميع المشركين من أهل مكة ، الذين وُجهوا بهذا الحكم ، وإنما يُراد به تلك الجماعة التى ظلت سادرة فى غيها وضلالها ، إلى أن ماتت على كفرها وشركها .

وقوله تعالى : « وقالوا لولآ أُنزل عليه مَلَكٌ » هو من مقترحات هؤلاء الكافرين الذين ماتوا على كفرهم .. إنهم يأبوْن أن يقبلوا إنساناً بشراً يحدّثهم عن الله ، ويجىء إليهم بكلماته .. وقد قالها من قبلُ أهل ثمود ، قوم صالح عليه السلام ، كما أخبر القرآن الكريم عنهم : « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا

أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ » (٢٣ — ٢٥ : القمر)

وهـذا الذى يَلْقَى به المشركون النبيّ من تحدٍّ وعنادٍ ، باقتراحهم أن يجىء معه ملك من السماء ، يُزكّيه عندهم ـ هو من بعض ما كانوا يقترحون ، مما تمليه أهواؤهم ، ويدعوهم إليه ضلالهم . . وفى هذا يقول الله تعالى : « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا » (٩٠ — ٩٣ : الإسراء) .

وقد ردّ الله سبحانه وتعالى على مقترحهم هذا بقوله : « وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ » فنزول المَلَك يعنى أنه آيةٌ محسوسةٌ ، ظاهرة قاهرة ، لامجال للابتلاء والاختيار فيها ، فمن أنكرها فهو منكر لوجوده كله ، ظاهراً وباطنا ، ومن كان هذا شأنه فقد استحق أن يؤخذ بجريرته ، دون مهلٍ لابتلاء أو اختبار بعد هذا .. ومن أجل ذلك ، كانت المعجزات الحسيّة التى يحملها الأنبياء إلى أقوامهم ، تحمل معها نُذر الإهلاك لهم ، إذاهم كذبوا بها ، كما كان ذلك فى عصى موسى ، التى كان الغرق جزاء كل من كفر بها ، وكناقة صالح ، التى هلك بها قومه ، ثمود . .

وفى قوله تعالى : « ثم لايُنظَرون » إشارة إلى أن العقاب سيقع بالمكذبين من غير مَهَل ، لونزل الملك من السماء ، كما اقترحوا .. ثم كذبوا !

ولكن الله سبحانه وتعالى ، لم يستجب لمقترحهم هذا، تكريما للنبى الكريم ، وتحقيقا لوعده الذى وعده فى قوله : « وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم » (٣٣ : الأنفال) .

وقوله تعالى : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ولَلَبسنا عليهم مايلبسون » أى لو جعلنا الرسولَ المرسَل إليهم مَلَكا - كما يقترحون - لجعلناه فى أعينهم رجلا ، أى لأنكروا وجود المَلَكَ بينهم ، وتعذّر عليهم الحياة معه .. إنهم والملك طبيعتان مختلفتان ، لايقع الانسجام والاطمئنان بينهما ، وإلى هذا أشار الله سبحانه وتعالى بقوله : « قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا » (٩٥ : الإسراء) .

فقوله تعالى : « ولو جعلناه مَلَكا لجعلناه رجلا » يشير إلى اختلاف الطبيعة البشرية والطبيعة المَلَكية ، وأنه سبحانه وتعالى لو أراد أن يبعث إلى البشر مَلَكا رسولا إليهم لاقتضت حكمته أن يُلبس هذا الملك صورة البشر ، حتى يسكن إليه الناس ، ويكون بينه وبينهم لِقاء وإلف..فالجنس لايألف غير جنسه ، ولا يسكن إلا إليه .

وقوله تعالى : « ولَلَبسنا عليهم مايلبسون » أى ولوجاءهم المَلَك فى صورة إنسان ، لما ارتفع هذا اللّبس ، وهذا الشك والوسواس ، ولبقى حالهم مع المَلَك فى صورة إنسان ، هو حالهم مع الإنسان ، يحمل رسالة من الله رب العالمين .

فالقضية بالنسبة لهؤلاء المعاندين ، هى هكذا ..

يطلبون أن يكون رسولُ الله إليهم ملكا من ملائكة الرحمن .

والملك غير ممكن أن يلقوه على صورته .. بل لابد أن يكون على صورة إنسان ..

والإنسان فى نظرهم هو الإنسان .. سواء أكان مَلَكا تحوّل إلى إنسان أم كان إنسانا أصلاً ..

وإذن فالمشكلة قائمة عندهم ، والشك منعقد عليهم .. لايؤمنون برسولٍ إنسان ، ولن يكون الرسول إلا إنسانا منهم .

وقوله تعالى : « ولقد استُهزئ برسلٍ من قبلِكَ فحاقَ بالذين سخروا منهم ما كانوا يستهزئون » هو مواساة للنبىّ الكريم ، وعزاء له ، مما يلقى من المشركين من عنادٍ ، وما يُساق إليه منهم من ضر وأذى .. فتلك هى سبيل حَمَلة الهدى من عباد الله .. فكم لقى رسل الله من أقوامهم من عنَتٍ وبلاء ، حتى لقد قُتل بعضهم ، ومُثّل به أشنع تمثيل .. ولكن العاقبة للحق والخير ، والنصر لدعوة الحق والخير .. والويل والخذلان والخزى لأولئك الذين كذّبوا برسل الله وسخروا منهم واستهزءوا بهم .. « فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » أى أحاط بهم واشتمل عليهم استهزاؤهم وسخريتهم ، فهذا الاستهزاء هو الذى أوردهم موارد الهالكين فى الدنيا ، وأنزلهم منازل أصحاب النار فى الآخرة .

فإن شك هؤلاء المكذبون ، المستهزئون بآيات الله وبرسول الله .. إن شك هؤلاء فى المصير الذى هم صائرون إليه ، فلينظروا فيما كان لأمثالهم ، الذين كذبوا بآيات الله وبرسل الله ، « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذّبين » لقد أخذهم الله بكفرهم وعنادهم ، وأرسل عليهم الصواعق ، وصبّ عليهم البلاء ، وإذاهم فى لحظة خاطفة جثث هامدة ، وأشلاء ممزقة .. وإذا هم صائرون إلى مصير يلقون فيه العذاب الأليم .. « ولَعَذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » .

الآيتان : (١٢ ـ ١٣)

« قُلْ لِمَنْ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٢) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ » (١٣)

التفسير : قوله تعالى : « قل لمن مافى السموات والأرض » هو سؤال من الحق جلّ وعلا ، على لسان نبيّه الكريم ، وهو سؤال وارد على خاطر كل ذى لُبّ .. فهذا الوجود بما فيه من عجائب وغرائب ، لا يمر عاقل على آية من آياته ، إلاّ وقف عندها ، ونظر فيها ، واجتهد فى التعرف على أسرارها .. ثم سأل نفسه أو سألته نفسه ، عن صانعها : من هو ؟ وأين هو ؟ وكيف هو ؟ وما تزال هذه الأسئلة تلحّ عليه حتى ينسب هذا الوجود إلى صانع عظيم قدير ، ليس كمثله شىء ، لايُسأل عنه : بأين ؟ ولا كيف ؟ .. إذ هو فوق كل أين ، وغير كل كيف ..

وقوله تعالى : « قل لله » هو جواب قاطع ، لا جواب غيره ، عن هذا السؤال ، الذى مطلوب من كل عاقل أن يسأله نفسه ، وأن يجيب عليه .. وسيهديه نظره وعقله إلى هذا الجواب الذى أجاب به الحق سبحانه وتعالى : «قل لله » ـ فالمالك لهذا الوجود ، القائم على كل موجود ، هو الله رب العالمين، لاشريك له فى سلطانه .

وقوله تعالى : « كتب على نفسه الرحمة » أى الذى كتب على نفسه الرحمة، ـ وتلك صفة من صفات الله ـ هو الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ..

ومعنى كتب على نفسه الرحمة ، أى أوجبها سبحانه وتعالى على نفسه ، حيث اقتضتها حكمته ، واستدعاها فضله . .

فالمُلك الذى بين يدى المالك سبحانه وتعالى ، هو من آثار رحمة الله .. تلك الرحمة العامة الشاملة التى تمسّ كل مخلوق ، وتنال البرّ والفاجر ، والمؤمن والكافر . . ولولا هذه الرحمة لما تنفس الكافر نَفَساً فى هذه الحياة ، ولما أُمهل فى محادّته لله ، وعدوانه على رسله ، ولكن رحمة الله التى وسعت كل شىء ، لم يُحرم الكافر نصيبه منها ، فأفسح الله له فى الحياة ، ليرجع إليه ، ويصلح من أمره ما أفسده .

فإذا مضى الكافر على كفره ، ثم أخذ بذنبه ، كان من رحمة الله أن يؤدب وأن يعاقب ، ففى هذا العقاب إصلاح لنفسه التى فسدت ، وصقل لمعدنه الذى أكله الصدأ !

وقوله تعالى : « ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه » فى توكيد الفعل « ليجمعنكم » بالقسم وبنون التوكيد ، إشارة إلى أن البعث أمر كتبه الله سبحانه وتعالى على نفسه ، كما كتب الرحمة ، وأن البعث هو رحمة من رحمة الله ، إذ هو إعادة الحياة التى ذهب بها الموت ، والحياة نعمة من نعم الله ، ورحمة من رحمته . . إنها نعمة تستوجب الشكر ، والحمد لله رب العالمين : « كيف تكفرون بالله ، وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يُميتكم ثم يُحييكم ثُم إليه تُرجعون » (٢٨ : البقرة) .

وفى تعدية الفعل « ليجمعنكم » بحرف الجرّ « إلى » إشارة إلى أن الجمع هو استدعاء من جهات شتى ، ودعوة قاهرة إلى مكان معلوم ، تصبّ فيه وفود المدعوين ، وتجتمع إليه . . فمعنى الجمع ، هو السّوْق ، أى ليسوقنكم إلى يوم القيامة ، إذ كان يوم القيامة هو موعد اللقاء الذى يلتقى عنده الموتى ، المبعوثون

من القبور . . « وَنُفِخَ فِي الصور فإذَاهُمْ مِنَ الأجداث إلى ربهم ينسلون » (٥١ : يس)

وقوله تعالى : « الذين خَسِرُوا أنفسهم فهم لا يؤمنون » أى أن الفساد الذى اشتملت عليه نفوس أهل الضلال ، هو الذى حجبهم عن الإيمان ، وصار بهم إلى طريق الكفر والضلال . . وهذا يعنى أن فى الكافرين ـ قبل كفرهم ـ نفوسًا مهيأة لهذا الكفر ، مستعدة له ، لما فيها من فساد ، وهذا الفساد من شأنه أن يرفض الطيّب ، ويقبل الخبيث الفاسد ، الذى يلائمه ، و يتفاعل معه . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً » (١٠ : البقرة) .

وقوله تعالى : « وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ » فهذه قلوب لا تقبل خيراً ، ولا تمسك به ، ولهذا ختم الله عليها ، فلم يُسمعها كلماتِه ، ولو أنها سمعت كلمات الله ما قبلتها ولا استجابت لها .

وقوله تعالى : « وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم » هو استكمال للجواب الذى أجيب به على قوله تعالى : « قل لمن ما فى السموات والأرض » فكأنه قيل : قل لله ما فى السموات وما فى الأرض ، وله كذلك ما سكن فى اللّيل والنهار ، أى ما اشتمل عليه الليل والنهار من موجودات . . فكل ما طلع عليه النهار ، واستولى عليه سلطان الضوء ، وكل ماغشيه الليل ، واستولى عليه سلطان الظلام ، هو فى ملك الله ، وتحت سلطان علمه وسمعه .

الآيات : (١٤ ـ ١٦)

« قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ

وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ » (١٦)

التفسير : الولىّ : السيد ، والمعين . فاطر السموات والأرض : أى خالقهما ابتداء .

وقوله تعالى : « قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا » استفهام إنكارى ، وكأنه ينكر على نفسه أن تدعوه إلى أن يتخذ من دون الله وليًّا ومعينًا ، أو ينكر على غيره أن يدعوَه إلى تلك الدعوة المنكرة . .

والمعنى : إنى لا أتخذ ولِيًّا ومعتمداً أعتمد عليه ، وأستعين به ، غيرَ الله ، ذى الحول والطول ، وذى القدرة التى لا يعجزها شى . . تلك القدرة التى كان من صَنعتها هذا الوجود كلّه ، فى سماواته وأرضه ، أوجدها ـ سبحانه ـ ابتداء على غير مِثال « فاطر السموات والأرض » .

وهذا الاستفهام الإنكارىّ ، أقوى قوة ، فى إظهار الولاء الخالص لله ، والثبات عليه ـ من الخبر التقريرىّ بالولاء ، إذ فيه إنكار لموالاة غير الله أولاً ، ثم إقبال على موالاته سبحانه ، ثانياً ، وفى هذه العملية إثارة للعقل وتحريك للوجدان ، ومواجهة لمن يدعوهم الدّاعون أن يتخذوا أولياء من دون الله . . حتى إذا أنكرهم العقل ولفظهم الشعور ، أقبل المرء على الله ، وقد صفّى حسابه مع هذه الضلالات القائمة على طريقه إلى الله ، فيلقى ربّه بكيانه كله ، ويُلقى إليه بولائه خالصاً . .

وقوله تعالى : « وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ » أى فالله المستحقّ لأن يتخذه الناس وليًّا ، ومعتمداً ، هو الذى فطر السموات والأرض ، وهو الذى يَقُوت

المخلوقات ويطعمها ، ويمدّها بما يحفظ وجودها ، دون أن يكون لهذا مقابل . . وإنما هو فضلٌ وكرم من ربّ العالمين ، المستغنى عن كلّ عَوْن ، الغنيّ عن كل مخلوق . . وكيف لمن كان مصدرَ العطاء أن يكون محتاجاً إلى عطاء ؟ وكيف لمن يُستمدّ منه العون أن يكون محتاجاً إلى معين ؟ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .

وقوله سبحانه : « قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ » هذا ما أُمر به النبيّ من ربّه ، وهو أن يكون أولَ من أسلمَ وَجْهَهُ لِلّه ، وأولَ من ألقى بنفسه بين يديه ، ووالاه . . إذ كان صلى الله عليه وسلم — هو مفتتح دعوةَ الإسلام ، وحاملَ رسالتها إلى المسلمين ، فكان أولَ من آمن بها ، واستقام على هديها . . وذلك بعد أن استدلّ على خالقه بتفكيره فى خلقه ، وأنكر أن يتحذ وليًّا من دونه ، وهو الذى فطر السموات والأرض . . وهو الذى يطعِم ولا يطعَم ، فإذا جاءت دعوة الله تعالى إليه صادفت تلك الدعوة قلبًا مستقبلًا لها . . والأمر هنا ، هو الدعوة إلى الإيمان بالله ، من الله ، وإلى نبي الله ، وليس فى هذا الأمر إلزام ولا قهر ، ولكن النبيّ الكريم فى استجابته لربّه ، وفى مبادرته إلى الاستجابة ، واحتفائه بها ، وشدّ نفسه إليها ، وعقْد قلبه عليها كل أُولئك قد جعل الدّعوة الإلٰهية أمراً يتلقّاه النبيّ بكيانه كله ، ويعطيه كل ما قدر عليه من قوة وعزم .

وقوله تعالى : « وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِين » هو عطف على الأمر المفهوم من قوله تعالى : « أُمرت » أى أن الله سبحانه وتعالى أمرنى بأن أكون أول من أسلم ، فقال لى : كن أولَ من أسلم ، ونهانى عن أن أشركَ به فقال لى : ولا تكونَنَّ مِنَ المشركين . .

وقوله تعالى : « قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ »

هو بيان لبعض دواعى الإيمان بالله فى نفسِ النبىّ ، وفى نفسِ كل مؤمن بالله، وهو أن الخوف من عذاب الله يوم القيامة ، وطلب النجاة من هول هذا اليوم، هو داعٍ صارخ يدعو الإنسان إلى أن يهرب من هذا البلاء ، إلى الإيمان بالله ، واستجابة دعوته التى يدعو بها عباد الله . . فمن أبى ، وعصى أن يستجيب لله ويؤمن بالله ، فهذا يوم الحساب أمامه ، والنار مثواه .

وقوله سبحانه : « مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ » أى أن من ينجو من عذاب هذا اليوم ، ويسلم من الوقوع تحت وطأته ـ فهذا من فضل الله عليه ، ورحمته به ، وذلك بتوفيقه إلى الإيمان بالله ، والولاء له ، والامتثال لأمره . « وذلك هو الفوز العظيم » إذ لا فوز بعد هذا الفوز ، ولا ربح أعظم من هذا الربح . . حيث خَلَصَ الإنسان بنفسه من العذاب ، ثم لم يقف به الأمر عند هذا الحدّ من الفوز والفلاح ، بل أُخذ بيده بعد هذا إلى جنات النعيم ، وإذا هو فيمن رضى الله عنهم ، وأفاض عليهم الجزيل من عطاياه ومِنَنه . . « وذلك هو الفوز العظيم » .!

الآيات : (١٧ ـ ١٩)

« وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ » (١٩)

التفسير: المسّ: لمس الشيء برفق..

وقوله تعالى «وإن يمسسك الله بضُرٍّ فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير» عرض لقدرة الله سبحانه وتعالى، وأنه سبحانه هو الذى بيده النفع والضرّ، وأنّ أقسى ما يصيب الإنسانَ من ضرٍّ هو لمسة خفيفة، محفوفة برحمة الله ولطفه، ولولا ذلك لما احتملها بَشَر.. وكذلك ما ينال الإنسانَ من خير، هو قطرة من فضل الله، محفوفة بحكمته وتقديره، ولولا ذلك لفاضت فملأت على الإنسان دنياه، ولما وجد لنفسه متنفّساً فيها..

فإذا مسّ الإنسانَ ضرٌّ فهو من الله سبحانه، ولا يُرْجَى لكشف هذا الضرّ غيرُه.. لأنه مما قضى به، ولا رادّ لقضائه الذى قضاه، إلا ما كان من لطفه ورحمته اللذيْن يحفّان بقضائه، فيمضى على ما قضاه، ولكن تقوم إلى جانب ذلك فى كيان الإنسان مشاعرُ تستقبل هذا القضاء برضًى، وتحتمله فى صبر، حتى يأذن الله برفع هذا الضرّ، وكشفه.. وهذا هو بعض اللطف فى القضاء.

وإذا مسّ الإنسانَ خير، فهو كذلك مما قضى الله به، وأراده، ويسرّ الإنسانَ له.. وفى تقديم الشر على الخير هنا ما يملأ مشاعر الإنسان خوفاً من الله، وتعلقاً به، واتجاهاً إليه، فإن الإنسان فى الخير كثيراً ما يذهَلُ عن الله، ويغفل عن ذكره.. ولكنه فى حال الشدّة والضرّ يذكر الله ويهتف به، ويمدّ يده إليه كما يقول سبحانه: «وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ» (٨: الزمر).

وكما يقول: «وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً» (٨٣: الإسراء).. فما أقلّ أولئك الذين يجدون فى

نعم الله طريقاً يصلهم إلى الله ، ويقرّبهم منه ، ويقيمهم على الشكر والحمد ، والله سبحانه وتعالى يقول : « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ » (١٣ : سبأ)

أما فى البلاء ، وأما فى الشدة ، فإن الناس جميعاً ، مؤمنهم وكافرهم ، يذكرون الله ، ويهتفون به ، حتى فرعون ، فإنه حين أدركه الغرق ، قال آمنت ! . . وهكذا الناس . . تُدنيهم الشدائد من الله ، وتقربهم منه . . وإنها لنعمة تلك الشدائد ، التى توجّه الإنسان إلى الله ، لو أنه استقام على طريقه إلى الله ، ولم يكن من الخائنين لنفسه ، الذين يمكرون بآيات الله . .

قوله تعالى : « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ » أى أنه ذو السلطان القائم فوق عباده ، يملكهم ولا يملكونه ، ويقضى عليهم ولا يقضون عليه ، ويُعطى ويمنع ، ويعزّ ويُذل : « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (٢٦ : آل عمران) .

وليس سلطان الله سبحانه ، القائم فوق عباده ، الآخذ على جوارحهم ومشاعرهم ومدركاتهم ـ ليس بالسلطان المستبدّ الجهول ، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً . . وإنما هو سلطان قائم بالعدل ، والحكمة ، والعلم والقدرة ، وما كان كذلك ، فهو سلطان الرحمة والإحسان . .

وفى قوله تعالى : « وهو الحكيم الخبير » إشارة إلى هذا السلطان القاهر الغالب ، وأنه بيد حكيم خبير ، يضع كل شىء موضعه ، بحكمة الحكيم ، وخبرة الخبير ، فيأخذ مكانه الذى هو له ، فى أحسن وضع ، وأكمل صورة ، فى ملك الله : « الذى خلق سبع سمٰوات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمٰن من تفاوت فارجع البصرَ . . هل تَرَى من فُطور ؟ (٣ : الملك) .

وقوله تعالى : « قُل أى شىء أكبر شهادة » هو استدعاء لهؤلاء المكابرين المعاندين ، الذين ينظرون إلى هذا الوجود على أنه لهم وحدهم ، وأن كل ما فيه تبعٌ لأهوائهم : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السّمٰوات والأرض ومن فيهن » (٧١ : المؤمنون) . . فإذا سمع هؤلاء المكابرون هذا النّداء ، وقيل لهم : « أى شَىء أكبرُ شهادة » عندكم ، تأخذون بشهادتهم عليكم ، فى الحكم بينى وبينكم فيما أدعوكم إليه ، من الإيمان بالله ، وأنى رسول الله إليكم ، أحمل إليكم كلمته ، وأوجه وجوهكم وقلوبكم إليه ؟ ما الشاهد الذى تُكبرون شهادته ، وتنزلون على ما يشهد به ؟

ولا يمهلهم الله أن يجيبوا ، لأنهم لايجيبون إلاّ ضلالا ، ولايقولون إلا زوراً وبهتاناً ، بل يلقاهم بالشاهد الذى إن لم يقبلوا شهادته اختياراً قبلوها قسرًا واضطراراً ، لأنه الشاهد الذى يحكم ولامعقب لحكمه ، والقاضى الذى يقضى ولارادّ لقضائه .. إنه هو الله ربّ العالمين .

« قُل الله شهيدٌ بينى وبينَكُمْ » .

هذا هو الشاهد ، والحَكَم بينى وبينكم ، فردّوا عليه شهادته إن استطعتم !

وقوله تعالى : « وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بَلَغ » تلك هى القضية التى بينى وبينكم ، وقد أدليت بشهادتى فيها ، بين يدى أحكم الحاكمين .. « وأوحى إلىّ هذا القرآن » من ربّ العالمين « لأنذركم بِهِ » وأحذركم من عذاب يوم عظيم ، إن أنتم لم تُصدقوا برسالتى ، ولم تؤمنوا بما بين يدَىّ مما أوحى إلىّ ، ولست رسولاً إليكم وحدكم ، بل إن رسالتى إليكم وإلى كل من تبلغه ، وتصل إليه بلسانى ، أو بلسان من يدعو بها ، فهى رسالة عامة للناس جميعاً ، فمن بلغته ولم يؤمن بها ، فقد حُقّ عليه ما حُقّ على الكافرين منكم « لأنذركم به ومن بلغ »

وفى عطف قوله تعالى : « وأُوحِيَ إلىّ هذا القرآن » على قوله تعالى : « الله

شهيدٌ بينى وبينكم » تفويت على أولئك المكابرين المعاندين أن يجدوا فسحة من الوقت يردّون بها الشاهدَ الذى أشهده الرسول عليهم ، وإلغاء لكل شاهد يقيمونه فى هذا الموقف غير الله سبحانه وتعالى ، وقطع لَجاجهم وعنادهم ، وإمساك بآذانهم أن تنحرف عن هذا الموقف الذى هم فيه .

وقوله تعالى : « أإنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى » هو تقرير لهم من الرسول ، وهم فى هذا الموقف ، بعد أن أوقفهم بين يدى الله ، وأشهده عليهم ..

ومع هذا ، فإن العناد لايزال مستولياً عليهم ، وإن اللجاج لايزال يضرب بأمواجه فوقهم ..

ولهذا ، فإن الرسول الكريم ، لاينتظر جوابهم ، إذ كان جواباً منحرفاً عن الحق ، بعيداً عن الهدى .. فليتركهم وشأنهم ، وبين أيديهم دعوة الحق ، وأمامهم طريق الهدى ، فإن أطاعوا فقد اهتدوْا ، وإن تولّوْا فإنما هم فى ضلال وخسران .. أما الرسول الكريم ، فعلى الطريق الذى أقامه الله عليه .. « قل لاأشهد » أن مع الله آلهة أخرى . « قل إنما هو إلَه واحدٌ وإننى برىء مما تشركون » .

وفى قوله تعالى : «قل» تثبيت للنبى من ربِّه ، ووضعٌ للكلمة التى ينبغى أن يقولها ، على لسانه وفى قلبه . . يتلقاها من الله ، فتلتقى مع الكلمة التى يريد أن يقولها ، فإذا هى نور فى قلبه ، وقوة فى عزمه ، وطمأنينة فى صدره ، ولطف عظيم من ألطاف ربه...وفى تكرار «قل» مع كل قول من الله تعالى لهم ، كمال عناية ، وتمام رعاية من الله سبحانه « للنبى » حيث يجد مع كل نَفَس يتنفّسه ، وحىَ السماء يقول له: قل .. قل .. قل.. وبهذا يشتدّ عزمه، وتثبت فى لقاء الكافرين قدمه.

الآيتان : (٢٠ ــ ٢١)

« الذِينَ آتَينَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ

خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ » (٢١)

التفسير : قوله تعالى: «الذينَ آتيناهُمُ الكتابَ يعرفونَهُ كما يعرفون أبناءَهُمُ» هو استدعاء لأهل الكتاب ، من اليهود والنصارى ، لأخذ شهادتهم فى هذا الكتاب الذى بين يدىّ النبىّ ، والذى يواجه به المشركين من العرب ، فيلقَوْنه بالتكذيب والاستهزاء . . وأهل الكتاب هؤلاء يعرفون صِدْق الرسول ، وصدق ماجاء به ، معرفةً محققة مستيقنة ، كما يعرفون أبناءهم ، حيث لاتختلط على أحدهم وجوه أبنائه بغيرهم . . ولو أنهم كانوا مؤمنين بالله ، وبالكتاب الذى معهم ، لآمنوا بمحمد وبالكتاب الذى معه ، ولكنهم كتموا شهادة الحقّ . . بغياً وحسداً . . فخرسوا ، ولم ينطقوا ، أو نطقوا كذباً وبهتاناً . . إنهم « الذين خسروا أنفسهم فهم لايؤمنون » بالرسول وبما معه من كلمات الله ، ولايؤمنون بكتابهم الذى فى أيديهم ، وذلك خسران بعد خسران ، وضلال فوق ضلال .

وقوله سبحانه : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذّبَ بآياته » ، هو تهديد ووعيد للكافرين من أهل الكتاب هؤلاء ، الذين افتروا على الله الكذب ، فحرّفوا كلماته ، وبدّلوا آياته ، وقالوا فى محمد وفى كتابه ، غيرَ ماعرفوه من كتاب الله عندهم ، فإن لم يكن منهم فى هذا تحريف ولاتبديل ، فقد كان منهم تكذيب لآيات الله ، بتأويلها تأويلاً فاسداً ، وحملها على مفاهيم منكرة ، تحجب وجه الحق فيما فى كتابهم من دلائل تدلّ على النبىّ ، وتحدد صفته ، وصفة رسالته .

وقوله تعالى : « إنه لايفلح الظالمون » حكم على أهل الكتاب ، الذين ظلموا الحقّ ، وظلموا أنفسهم ، فضلوا وأضلوا . . وذلك هو الخسران المبين .

الآيات : (٢٢ ـ ٢٤)

« وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » (٢٤)

التفسير : ومن هذا الموقف الذى دُعى إليه المشركون وأهل الكتاب إلى مواجهة الرسول الكريم ، وأخذ شهادتهم فيه ، وفى الكتاب الذى بين يديه ـ من هذا الموقف ينتقل هؤلاء جميعاً انتقالاً سريعاً إلى موقف آخر ، هو موقف الحشر يوم القيامة .. وإذا هم يلقَوْن الجزاء الذى يستحقونه ، لكفرهم بالله ، وتكذيبهم لرسول الله .

« ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا : أين شُرَكَاؤكُمُ الذين كنتم تزعمون » ؟ ويتلفت القوم إلى هؤلاء الشركاء الذين يسألهم الحقّ جلّ وعلا عنهم ، فلا يجدون لهم أثراً ، ويُخيَّل إليهم من ضلالهم أن جسم الجريمة قد اختفى ، وأنهم لن يؤخذوا بهذا الجرم الذى لا يقوم شاهد على وجوده .. فيقولون كذباً ، وبهتاناً : « والله ربّنا ما كنّا مشركين » .. يقسمون بالله ويؤمنون به ، ويدْعونه ربَّهم ، إمعاناً فى الكذب ، وتعلقاً بالوهم ، للفرار من هذا الموقف الرهيب !

وفى قوله تعالى : « ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين » إشارة إلى أن هذا القول الذى قالوه هو فتنة أخرى ، إذ مازالوا على ضلالهم القديم ، وتصورهم الفاسد ، وأنه تعالى لا يعلم ما قدّموا وما أخّروا ، وما أسرّوا وما أعلنوا .. فسمّى سبحانه وتعالى هذا القول منهم فتنة .. ولم يقل سبحانه : ثم لم يكن قولهم ، أو جوابهم .. إذ كان قولهم هذا ، هو فتنة لهم وضلال مبين .

وفى قوله تعالى : « انظر كيف كَذَبوا على أنفسهم » تشنيع عليهم ، وفضح لسوء معتقدهم فى الله ، ودعوة للناس أن يروْهم وهم متلبسون بهذا الضلال المبين ..

وإنهم إذ قالوا هذا القول المفضوح ، قد كَذَبوا على أنفسهم ، وغذّوها بالخداع والضلال ، أما الحقيقة فهى قائمة عليهم ، ممسكة بهم ، « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلّا أنفسهم ومايشعرون » (٤ : البقرة) .

وقوله تعالى : « وضلّ عنهم ما كانوا يفترون » إشارة إلى أن ما كانوا يعبدونهم من دون الله، قد أخلَوْا أيديَهم منهم ، وتبرءوا من الصلة التى أقامها هؤلاء المشركون معهم . « ويومَ يحشرهُم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاءِ إياكم كانوا يعبدون » * قالوا سبحانك أنت وليّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنّ أكثرهم بهم مؤمنون » (٤٠ ـ ٤١ سبأ) ... « إذ تبرأ الّذينَ اتبِعوا من الذين اتَّبعُوا ورأوا العذابَ وتقطعت بهم الأسباب » (١٦٦ : البقرة) .

الآيات : (٢٥ ـ ٢٦)

« وَمِنهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ » (٢٦)

التفسير : ومن هذا الموقف الذى سِيقُوا فيه إلى يوم القيامة ، وإلى الحساب والمساءلة ، وقطع الحجة عليهم ـ من هذا الموقف رُدّوا إلى موقفهم الأول ، حين كانوا فى مواجهة النبىّ ، وفى عنادهم له ، وتصدّيهم لدعوته ..

وكان الجدير بهم ـ لو عقَلوا ـ أن تتأثر وجداناتهم بهذه الإشارات التى تتغيّر بها معالم الوجود فى أعينهم ، حين ينقلون من الدنيا إلى الآخرة ، ثم يردّون من الآخرة إلى الدنيا .. ولكنهم ظلوا على حالٍ واحدة ، حتى لكأنهم أحجار لاتحسّ ولاتعقل .

وفى قوله تعالى : « ومنهم من يستمع إليك » استحضار لهؤلاء المشركين الضالين من موقف الحشر ، الذى نقلتهم إليه الآيات القرآنية السابقة نقلاً قاهراً ، وأحضرتهم مشاهد المحاكمة والمساءلة ـ إلى ما كانوا فيه من مواجهة النبىّ ، وتحدّيه ، وتكذيبه ، والاستهزاء به ..

فمن هؤلاء المشركين الضالين مَن يستمع إلى النبىّ ، ومايرتّل من كلمات الله ، ولكنه استماع لايحدث فيهم أثراً .. فلا تنفذ كلمات الله إلى آذانهم ، ولا تبلغ مواطن الإحساس من قلوبهم ، فقد أصمّ الله آذانهم ، وأعمى قلوبهم .. « إنّا جعلنا على قلوبهم أكِنّةً أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً » . (٥٧ : الكهف)

والأكنّة جمع كِنَان ، مثل قناع وأقنعة ، وزناً ومعنى ، أى أنه ضُرب على قلوبهم حجازٌ يقطع مابينها وبين موارد العالم الخارجى ، فلا تحسّ شيئا ، ولاتنفعل لشىء .

والوَقر : الصمم يصيب حاسة السّمع .

فقد ختم الله على قلوب هؤلاء القوم ، وعلى سمعهم ، فلا يسمعون خيراً ، ولايعقلونه ، فهم ـ والحال كذلك ـ لن يهتدوا أبداً ، « وإن يَرَوْا كلّ آية لايؤمنوا بها » .. « ومن يُرِدِ اللهُ فتنتَهُ فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لَمْ يُرِدِ الله أن يطهّر قلوبَهم » (٤١ : المائدة) .

وختْم الله على القلوب ، هو تركها على ماهى عليه من ضلال وعمًى .. دون أن يُمدّها بأمداد لطفه ، وعونه ، إذ كانت هى لاتستجيب لخير ، ولاتتقبل هدًى : « ولو علِمَ

اللهُ فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولَّوْا وهم معرضون » (٢٣ : الأنفال) .

وقوله تعالى : « حتى إذا جاءوك يجادلونك » يكشف عن طبيعة هؤلاء القوم . وأنهم لا يتحركون إلا إلى الشرّ ، ولا يعملون إلا لما هو شرّ ..

فهم إذا جاءوا إلى النبيّ ، لم يجيئوا لطلب حق ، أو تعرّفٍ على خير ، وإنما هم يجيئون للمجادلة ، والسّفاهة ، والاستهزاء .. إن الحال التي تتلبس بهم ، وتستولى عليهم ، وهم يسعون إلى لقاء النبي ، والاستماع إليه ـ هى المجادلة ، والمماحكة ، ولا شيء غير هذا ..

وقوله تعالى : « يقول الذين كفروا إنْ هذا إلاّ أساطير الأولين » هو بيان لما تكشفت عنه حالهم ، وانتهى إليه أمرهم ، من هذا الموقف الذى جاءوا فيه إلى النبى ، مستمعين مجادلين ، لا طلاب علم واستفادة ..

والأساطير جمع أسطورة ، وهى ما كان من واردات الخيالات والأوهام ، وملفقات الأحاديث .. فهذا هو حكمهم على ما استمعوا إليه من كلام الله : « إن هذا إلاَّ أساطير الأولين » وتلك هى أسلحة المكابرين المعاندين فى معركتهم الخاسرة مع الحق .. فحين تسقط من أيديهم كل حجة ، يُلْقُون بهذه الترهات وتلك الأباطيل ، لتكون وقايةً لهم مما لبسهم من خزيٍ وما لحقهم من هزيمة ..

وفى وصفهم بالكفر ، هكذا : « يقول الذين كفروا » بدلاً من أن يقال : « يقولون » هو حكمٌ عليهم بالكفر ، وإدانة لهم به ، إذ قالوا عن القرآن الكريم : « إن هذا إلاّ أساطير الأولين » .

وقوله سبحانه : « وهم يَنْهَوْن عنه ويَنْأَوْن عنه » .. الضمير فى « عنه » يعود إلى القرآن الكريم ، الملحوظ فى قوله تعالى : « ومنهم من يستمع إليك » .

وجناية هؤلاء المشركين هنا جناية غليظة ، وجرمهم فظيع شنيع .. إذ لم

يكتفوا بأن يكفروا بالقرآن ، ويقولوا فيه مايقولون ، من زور وبهتان ، وإنما وقفوا فى وجه من يطلبون الهدى منه ، وحالوا بينهم وبين النبىّ أن يلقوه وأن يسمعوا كلمات الله منه .. وقُدِّم نهيُهم الناس وصدّهم عن لقاء النبىّ والاستماع إليه ، على نأيهم هم بأنفسهم عنه ، وعزل عقولهم وقلوبهم عن لقائه ، وهم إنما صدُّوا أولاً وكفروا ، ثم كانت فَعلتهم بعد هذا هى نهى غيرهم ، وضمهم إلى جانبهم ــ ولكن لما كان صدّهم الناس عن رسول الله أمراً واقعاً ، وحكماً قاطعاً ، ولم يكن أمراً مستحدثاً منهم ، وإنما الذى استحدثوه بعد أن أخذوا هذا الموقف لأنفسهم ، هو أنهم جاءوا إلى غيرهم ليأخذوا معهم هذا الموقف الذى هم فيه ــ فكان من الحكمة فى لقاء المجرمين بجرمهم ، أن يواجهوا أولاً بما أحدثوا من جرم وهو صدّ الناس ، ثم يساق إليهم بعد ذلك ما كان لهم من سابقة فى هذا الباب ، وهو صدّ أنفسهم .

وقوله تعالى : « وإن يهلِكُونَ إلاَّ أنفُسَهُمْ وما يشعرون » كشف للمصير السيء الذى صيّرهم إليه هذا الموقف الذى ارتضوه لأنفسهم ، من الصدود عن دعوة الإسلام ، وصدّ الناس عنها . . إنهم أهلكوا بذلك أنفسهم ، وأوردوها موارد البوار والخسران ، وإن كانوا لا يشعرون أنهم إلى هذا المصير هم صائرون ، لِما استولى عليهم من غفلة ، وما غشيَهم من ضلال .

وإنْ فى قوله تعالى : « وإن يهلكون إلا أنفسهم » نافية ، بمعنى ما .

الآيات : (٢٧ ــ ٢٩)

« وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩)

التفسير : قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

هو رِدّة أخرى لهؤلاء المكذبين الضالين ، إلى موقف الحساب والجزاء فى الآخرة . . وفى كل مرّةٍ يواجِهُون فى الآخرة ، التى حشروا إليها حشرًا وهم أحياء فى ديارهم وبين أهليهم ـ يواجهون مرحلة من مراحل الحساب فى هذا اليوم العظيم . .

ففى المرّة الأولى ووجُهوا بشركهم : « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون * ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين * انظر كيف كَذَبوا عَلَى أنفُسِهم وَضَلَّ عنهم ما كانوا يفترون » .. ففى هذه المواجهة كشُفَ لهم عن التهمة ، وعن تلبّسهم بها ، دون أن يستمعوا إلى الحكم وإلى العقوبة التى يؤخذون بها . .

ثم رُدّوا إلى الدنيا مرّة أخرى ، ليواجهوا النبىّ من جديد بكفرهم وعنادهم وليصلوا ما انقطع ، بهذه الرحلة التى حشروا فيها للحساب والمساءلة ، وليلقوا النبى بما كانوا يلقونه به من تكذيب واستهزاء..

ثم هؤلاء هم يُردّون مرة ثانية إلى موقف الحساب يوم القيامة ، ولكن لا ليحاسبوا من جديد ، فقد حوسبوا من قبل ، وأُسقط فى أيديهم ، وقامت الحجة عليهم ، وإنما ليستمعوا إلى الحكم فى جناياتهم التى جَنَوْها على أنفسهم .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ولو ترى إذ وقفوا على النّار » . . فهاهم أولاء على حفير جَهنم ، يساقون إليها سَوْقاً عنيفاً ..ولكنهم ما إن يعاينوا هذا البلاء الذى يفتح فاه ليبتلعهم ، حتى يضطربوا ويفزعوا . ويقولون : « يا ليتنا نُردُّ » ؟ وأنىَّ لهم أن يُردّوا ؟ ثم ماذا تنفعهم الرّدّة إلى الحياة مرةً أخرى ؟ ألم يكن فيما عرض الله عليهم من موقف الحساب والجزاء ، وهم فى دنياهم التى كانوا

فيها ــ ألم يكن فى هذا تجربة لهم،لو أنهم أحسنوا النظر إليها،وانتفعوا بمعطياتها ؟ إنهم لن يرجعوا أبداً عما هم فيه من ضلال .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى فى الآية الواردة بعد هذا فى قوله سبحانه : « ولو رُدُّوا لعادوا لِما نهوا عنه وإنهم لـكاذبون » .

وفى قوله تعالى : « يا ليتنا نُرَدُّ ولا نـكذبَ بآيات ربّنا » ما يسأل عنه .. وهو : ماوجه النصب للفعل «ولا نـكذبَ » مع عطفه على الفعل المرفوع قبله : « يا ليتنا نردُّ » ؟

القراءة المشهورة : « ولا نـكذبَ بالنصب » وقد قرىء « ولا نُـكذبُ» بالرفع عطفاً على « نردُّ » .

ووجه النصب أن « ليت» تفيد التمنى ، بمعنى نتمنى أن نُرَدَّ ، ولا نـكذبَ بآيات ربنا ونـكونَ من المؤمنين . . فسُلطت على الفعل « نردُّ» باعتبار ، لفظها ، ثم سلطت على الفعل « نـكذب » باعتبار معناها !

وقوله تعالى : « بل بدا لهم ما كانوا يُخفون من قبلُ » هو إضراب على أمانيهم التى تمنوْها ، وتيئيس لهم منها ، لأنها أمانٍ لم تجىء إلا عن خوفٍ وهلع من هذا الموقف الذى هم فيه ، حين انـكشف لهم ما كانوا يخفون من شرك بالله، وما يجرّهم إليه هذا الشرك من مصير مشئوم ، وعذاب أليم . .

وقوله تعالى : « ولو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لـكاذبون » هو فضح لـكلماتهم الـكاذبة ، التى أجراها على ألسنتهم سـوء الموقف ، ولفح السعير !!

وقوله تعالى : « وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » . هكذا كان دينهم فى الحياة الدنيا ، دين يقطع أصحابَه عن النظر فيما وراء هذه الحياة الدنيا التى استغواهم فيها الغَىّ ، وركبهم الضلال ، فأضافوا وجودَهم كله

إلى هذه الأيام التي يعيشونها من مولدهم إلى موتهم .. ومن هنا أخذوا كل ما قَدَروا على أخذه فى الحياة ، بحق أو باطل ، وأغرقوا أنفسهم فيما وقع لأيديهم من مطعوم أو مشروب ، حلالاً كان أو حراماً .. إنهم أشبه بالجنود ليلة الحرب .. يقضونها ليلةً صاخبة معربدة ، ينفقون فيها كل درهم معهم ، ثم يغدون إلى الحرب مفلسين ، إذ لا ينتظرون حياة بعد يومهم هذا !

الآيات : (٣٠ ـ ٣٢)

« وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » (٣٢)

التفسير : وهذا مشهد آخر من مشاهد القيامة ، يُساق إليه المشركون ، وهم أحياء فى دنياهم التي آمنوا بها وأنكروا ما وراءها .. من بعث ، وحساب وجزاء ..

وهم فى هذا المشهد يتقلّبون فى النار ، التي حُكم عليهم بها ، فى المشهد السابق ، حيث قال تعالى : « ولو ترى إذ وقفوا على النار ... الآية » وحيث كان لهم قبل مشهد الحكم مشهد آخر ، هو مشهد المحاكمة ، فى قوله تعالى : « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون » .

فهم وقد انتهى بهم المطاف إلى النار، يصْلَوْن سعيرها، ويذوقون عذابها - لن يُتركوا هكذا وما هم فيه من بلاء، بل يُسألون سؤال تأنيب، وتعذيب: « أليس هذا بالحق؟ » أى أليس هذا اليوم وما تلقون فيه، قد جاءكم بالحق الذى كنتم تكذبون به ؟

وفى حسرة قاتلة، وفى أنفاس لاهثة مبهورة، وفى كلمات حزينة متقطعة دامية، تتحرك شفاههم بها فى إعياء وتثاقل - يجىء منهم هذا الصوت الخفيض فى أنين ذليل: « بلى وربنا ».. هذا هو جوابهم، وهذا هو ما استطاعوا أن يحركوا شفاههم به.. كلمتان من أخف الكلمات، وأقلها حروفاً، ولو استطاعوا النطق لأكثروا من القول والاعتذار فى هذا المقام، ولوَجدوها فرصة فى إظهار النّدم، والاستعطاف! ولكن أنّى لهم ذلك وهم فى هذا البلاء العظيم ؟

« بلى وربنا » هكذا جوابهم.. نَبْرَتانِ هامستان، يخطِفانهما من كيانهم خطفاً، ثم يعودون إلى أنفسهم فى لهفة، حتى لكأنهم يحاولون إطفاء النار المشتملة عليهم..!

ولكنهم ما يكادون ينصرفون إلى أنفسهم، يعالجون الهمّ الذى هم فيه، حتى يقرعهم صوت الحق: « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون »، وإذا النار تشتد سعيراً، وتعلوا لهيباً، لتذيقهم العذاب الذى آذنها به الله سبحانه وتعالى أن تذيقهم إياه !!

وفى قوله تعالى: « ولو ترى إذ وُقفوا على ربهم » هو مقابل لقوله تعالى: « ولو ترى إذ وقفوا على النار » فالمراد بالوقوف هنا الحبس المقيم، يقال وقف فلان نفسَه على هذا الأمر، أى لزمه، ولم يتحوّل عنه - ومنه قول امرئ القيس:

وقوفاً بها صَحْبِى علىّ مطيّهم يقولون لاتهلِكْ أسًى وتجملِ

وقوله تعالى : « قد خسر الذين كذّبوا بلقاءالله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها » هو تقرير عن هذا الموقف ، الذى انكشف فيه للكافرين ما كانوا فيه من غفلة وضلال ، وفى هذا التقرير ، يرى كل ضال غافلٍ ، المصيرَ الذى ينتهى به ضلاله وغفلته إليه ،وهو الخسران والضياع والهلاك ..

« حتى إذا جاءتهم الساعة بغتةً » أى فجأة على غير انتظار ، إذ كانوا على تكذيب قاطع بهذا اليوم ، فإذا طلع عليهم كان ذلك مباغتاً لهم ومفاجئاً ..

« قالوا ياحسرتنا على مافرطنا فيها » وإنها لحسرة تطول ، لانهاية لها ، حيث أفلت من أيديهم ما كان يمكن أن يُعدّوه لهذا اليوم الذى أنكروه ، ولم يعملوا له حساباً ..

والتفريط : التقصير ، بخلاف الإفراط ، الذى هو المبالغة فى المطلوب ، وتجاوز الحدّ فيه .

والضمير فى قوله تعالى : « فيها » يعود إلى الساعة ، وهى يوم القيامة

قوله تعالى : « وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم » .

الأوزار : جمع وِزْر ، وهو الِحمل الثقيل .. أى أنهم يجيئون إلى يوم القيامة محملين بأحمال ثقيلة ، من الآثام ، تنوء بها ظهورهم .. « ألاَ سَاء ما يَزِرُون » فما أشأم ذلك الِحمْل ، وما أسوأه ، إذ كان هو الجريمة التى تُدين حامله ، والشهادةَ التى تشهد عليه ، وتجرّه إلى النار ..

وقوله تعالى : وما الحياةُ الدُّنيا إلا لَعِبٌ ولَهْو » هو تعقيب على هذا الحكم الذى حَكَم به سبحانه على أهل الضلال والكفر .. فقد غرّتهم الحياة الدنيا ، وألهتهم عن الآخرة ، فلم يعملوا لها ولم يقدموا ليومها ، زاداً ينفعهم فى هذا الموقف العصيب ..

وهكذا هى الدنيا ، لعب ولهو ، إذا وقف الإنسان نفسَه عليها ، وحبس وجوده على مظاهرها ، دون أن يلتفت إلى مابعدها ، من لقاء الله ، وموقف الحساب بين يديه .. ولـكنه إن التفت إلى الآخرة التى وراء هذه الحياة الدنيا ، لم تـكن هذه الحياة الدنيا لعباً ولهواً ، وإنما تـكون حياة جادّة عاملة ، تجمع الدنيا والآخرة معاً ، وبهذا تتفتح أمام الإنسان آفاقٌ فسيحة للعمل الطيب المثمر ، الذى إن فاته حظّه منه فى الدنيا ، فلن يفوته ثوابُه العظيم منه فى الآخرة .. ومن هنا كانت حياة المؤمنين بالله واليوم الآخر ، حياةً عامرة بالعمل والكفاح والجهاد .. إذ كان على المؤمن أن يملأ بوجوده وكفاحه دنياه وآخرته جميعاً .. أما الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، فإن حياتهم فراغ فى فراغ ، يدورون فيه حول أنفسهم ، كما يدور الأطفال فى لهوهم ولعبهم .

قوله تعالى : « وَلَلدَّار الآخرة خير للذين يتقون » إذ عملوا لها ، وآثروها على الدنيا ، وقدّموا مايبقى على مايفنى ، فـكانت عاقبتهم السلامةَ والعافية ، والخلودَ فى جنّات النعيم ..

وفى قوله تعالى : « أفلا تعقلون » إثارة لذوى العقول أن ينظروا لأنفسهم ، وأن يزنوا أمرهم مع الدنيا على ميزان سليم .. فإنهم لوفعلوا لعرفوا أن الدار الآخرة خير وأبقى !

الآيات : (٣٣ ـ ٣٤)

« قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَـكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِى الْمُرْسَلِينَ » (٣٤)

التفسير : بعد أن عرض الله للنبيّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هذا العرض الكاشف للمشركين ، ومايلقون فى موقف الحساب من خزى وهوان ، وما يذوقون فى جهنم من نكال وعذاب ـ بعد هذا العرض الذى يرى فيه النبيّ عاقبة المكذبين به ـ يلقى الله سبحانه النبيّ الكريم بهذه المواساة الكريمة ، وهذا العزاء الجميل ، لِما يلقاه من قومه من تكذيب له ، واستهزاء به ..

وفى قوله تعالى : « قد نعلم إنه لَيَحزنُك الذى يقولون » استجابة لشَكاة النبيّ قبل أن يشكو ، وفى هذا تطمين لقلبه ، وتثبيت لقدمه ، وأن الله يرعاه ، ويعلم مايجد فى نفسه من حزن وألم ، لما يرميه به قومه من باطل القول ، وزور الكَلِم .. وهم يعلمون أنه الإنسان الذى لا يكذب أبداً ..

وفى قوله تعالى : « فإنهم لايكذبونك ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون » ردّ اعتبارٍ للنبيّ عند هؤلاء الذين اتهموه بالكذب زوراً وبهتاناً .. وقد كشف الله مافى نفوسهم عن النبي ورأيهم فيه .. فهم فى دخيلة أنفسهم لا يكذبون « محمداً » .. إنهم يعلمون عن يقين أنه ماقال ولن يقول كلمة الكذب . بل هو عندهم فوق مستوى الشبهة فيما يَشين الناس ، ويُنزل من قدرهم .. « ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » .. إنهم لظلمهم ، وعنادهم يرون الحق ويستيقنونه ، ثم لاتطاوعهم أنفسهم على الإقرار به ، والولاء له .. ولو جاءتهم كل آية لايؤمنون بها .. وهكذا يفعل العناد بأهله ، ويقطع عليهم الطريق إلى الحق والهدى ، ويحجزهم عنه الخير والفلاح .

وفى قوله تعالى : « ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » تهديد ووعيد لهؤلاء المشركين .. إنهم لايكذبون محمداً ولكنّهم يكذبون بآيات الله التى بين يديه .. فانظر كيف هذا التناقض العجيب منهم .. يؤمنون بمحمد وبصدقه

كإنسان ، ويأخذون شهادته على كل مايقول فيما هو من شئون دنياهم .. فإذا جاءهم بآياتٍ ناطقة من عند الله ، وَقال لهم إنها كلام الله ، وأنه رسول الله بها إليهم ، أنكروا عليه هذا القول بنسبتها إلى الله ، وقالوا : إنها سحر ساحرٌ ، وتلفيقات ممسوس ! ولو عَقَلوا لما وجدوا لهذا القول مستنداً من عقل أو منطق.. إذ كيف لا يُتّهم إنسان بالكذب فى حال ، ثم يتهم به فى حال أخرى ؟ إن الإنسان وَحدة متكاملة ، فى خُلقه ، فإمَّا أن يكون صادقاً لا يكذب ، وإما أن يكون ممن لا يتحرّى الصدق فى كلّ قول .. وقد عرفوا « محمداً » أنه صادق على وجه واحد ، مُدّةَ حياته معهم ، من مولده إلى مبعثه .. لم تجرب عليه كِذْبة قط .. فكيف يكذب بعد الأربعين ؟ وكيف يكذب أشنع الكذب ، وأفحشه، بتلك الدعوى التى يدعيها على الله ربّ العالمين؟ ذلك مُحال ، بل وأكثر من محال، لأن شواهد الصِّدق ودلائله ناطقة فى كلام الله ، مستغنية عن صدق من يجىء إلى الناس بها ويعرضهم عليها .. فكيف إذا كان مَن يجيئهم بها ويعرضها عليهم ، غيرَ متّهم بكذب ، أو مجربٍ عليه شهادة زور عندهم ؟

قوله تعالى : « ولقد كُذِّبَت رُسلٌ من قبلك فَصَبروا على ما كُذِّبوا وأُوذُوا حتى أتاهم نَصْرُنا » (٣٤ : الأنعام) هو عزاء بعد عزاء للنبىّ الكريم ، ورحمات من ربّ رحيم تتنزّل عليه ، وهو فى مواجهة هذا العناد والعَنَت الذى يلقاه من قومه .. وفى هذا العزاء يرى النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مشاهد كثيرة لهذا المشهد الذى يعيش فيه .. فهناك رسلٌ كثيرون من رسل الله قد كُذِّبوا من أقوامهم ، وأوذوا فى أنفسهم من سفهاء قومهم ، ولكنهم اعتصموا بالصبر ، واحتملوا الأذى فى سبيل الرسالة الكريمة التى شرفهم الله بها ..

فهذا نوح عليه السلام ـ يلقاه قومه بالنكير والاستهزاء ، ويلاحقونه بالأذى والضرّ ـ وفى هذا يقول الله على لسانه : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ

إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ » (٣٥ : هود) .

وقد أخذهم الله بهذا المنكر . . فأغرقهم ونجّى نوحًا ومن معه : « فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ » (١١٩ ـ ١٢٠ : الشعراء) .

وهذا هود ـ عليه السلام ـ يلقى قومه داعيًا إلى الله ، مبشرًا ومنذرًا بآياته ، فتكون قولتهم له : « يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ » (٥٣ ـ ٥٤ : هود) . . ثم كانت عاقبتهم عاقبة كل ظالم . . فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية : « وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ » (٦ ـ ٨ : الحاقة) .

وهكذا كان الشأن مع صالح ، ولوط ، ومع كلّ نبي أعنته قومه ، وكذبوا بآيات الله التي بين يديه .. النجاة والسلامة للنبيّ والمؤمنين به ، والهلاك والدّمار لمن كذبوا به ، وبآيات ربه . .

وفى هذا أسوة للنبيّ ، وللمؤمنين معه .. فليحتملْ الأذى ، وليصبر على الضرّ ، وليحتمل المؤمنون الأذى وليصبروا على الضرّ ، فإنّ العاقبة له ولهم ، وإن النصر للحق ولمن ينصرون الحق .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « فَصَبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتى أتاهم نَصْرُنا ، ولا مبدِّلَ لكلمات الله » فتلك هى سنّةُ فى الذين خَلَوْا ، ولن تتخلّف آثارُها فى حاضر أو مستقبل .. فإن أحكام الله لاتنُقض وكلماته لن تتبدّل ..

وقوله تعالى : « وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ » تذكير للنبيّ بما قصّ الله ـ سبحانه ـ عليه من قصص الأولين ، فليَمُدْ النبيّ إلى هذا القصص ، ولينظر إلى مافيه من عبر وعظات . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ » (١٢٠ : هود) . ويقول : « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » (١١١ : يوسف) .

الآية : (٣٥)

« وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ » (٣٥)

التفسير : وإذ استمع النبي إلى كلمات ربه ، وما تحمل إليه من مواساة كريمة ، وعزاءٍ جميلٍ ، فقد وجبَ على النبي أن يطمئن قلبه ، وتسكُن نفسه ويذهب حزنه وحسرته ، على ما يلقى من قومه . . فإذا كان قد بقى فى نفس النبي شيء من تلك العوارض التى عرضت له من قومه ، وإن كانت لاتزال به نوازع الحزن والحسرة عليهم ، فإن السماء ليس عندها ما تقدمه لهم من وسائل الإقناع ، بعد أن قدمت لهم ما قدمت من آيات ، وما ساقت إليهم من نُذر ! فإن وجد النبي القدرةَ من نفسه على أن يأتيهم بما يقنعهم ، ويحملهم على التصديق به ، وبما يدعوهم إليه ، فليفعل !! وهذه هى الأرض تحت قدميه ، والسماء فوق رأسه ، فإن استطاع أن يشق الأرض أو يرقى السماء بسلّم ليأتيهم بآية مقنعةٍ ، فليفعلْ . . وهيهات هيهات ! !

« وإن كان كَبُرَ عليك إعراضُهم فإن استطعت أن تبتغىَ نفقاً فى الأرض أو سُلَّماً فى السَّماء فتأتيَهم بآية ؟ » أى إن شقّ عليك إعراض قومك عنك ، فحاول ـ إن استطعت ـ أن تشق الأرض ، أو ترقَى فى السَّماء ، لتأتيهم بما يقترحون عليك من آيات !

وليس هذا دعوةً من الله سبحانه للنبىّ أن يفعل هذا ، وإنما هو صَرْفٌ له عن هذا اللغو الذى يَلْغُوا به قومُه ، من مقترحات يقترحونها عليه ، وتيئيس لهم من أن يكون لهذا اللّغو قبول عنده . .

وفى قوله تعالى : « ولو شاء الله لجمعهم على الُهدَى » إشارة إلى أن ماقدمته السَّماء من آيات هو القدْرُ المطلوب لهداية من فيه استعداد لقبول الحق ، حين تلوح أماراته ، وتظهر له دلائله .. وليس من حكمة السَّماء أن تقهر الناسَ قهراً على الإيمان ، ولاأن تحملهم حملاً على الُهدى ، فإن مثل هذا الإيمان الذى يجىء إليه الإنسان قهراً وقسْراً ، هو إيمان لادخل لـكَسْب الإنسان فيه ، ولاجزَاء له عليه، إذ أنه ليس من سعيه وكسبه ، والله سبحانه وتعـالى يقول : « وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ » (٣٩ ـ ٤١ : النجم) .. ولو أراد سبحانه وتعالى أن يُدخل الناس جميعاً فى الإيمان لفعلَ ، ولوضع بين يدى المعاندين والـكافرين والمشركين من الآيات القاهرة مايحملهم على الإيمان ، حيث لايجدون معها سبيلاً إلى الإنكار والجحْدِ .. ولـكنّه سبحانه أراد أن يكون للإنسان تقديرُه وتفكيره ، فيما يحمل إليه رُسل الله من آيات ، يرى فيها العقلاء دلائل الحق ، وأمارات الهدى ، ولايرى فيها الضّالون والمعاندون شيئاً يفتح لهم الطريق إلى الله .. وفى هذا ابتلاء وامتحان ، « ليميز الله الخبيث من الطيب » .. « ولو شاء الله لجمعهم على الُهدَى» فما قوة فى هذا الوجود تردّمشيئة اللهِ ، ونفاذ ما يشاء .. ولـكنّه سبحانه وضع

الإنسان بهذا الوضع الذى يكون له فيه مجال للاختيار ، « فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » .

وفى هذا يقول الله تعالى : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » (٩٩ : يونس) .

قوله تعالى : « فلا تكونَنَّ من الجاهلين » هو عزلٌ للنبىّ عن أن يكون ممن يجهلون حكمة الله هذه ، وسنّته فى خَلْقِهِ ، وفى هذا وقاية للنبىّ من أن تطرقه طوارق الأسى والحسرة على من تخلّف عن الدعوة التى يدعو بها ، ولوَى وجهه عن الحق الذى بين يديه ، من ذوى قرابته ، ومن يريد لهم الخير ممن يُحبّهم .. « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » (٥٦ : القصص) .

الآيات : (٣٦ — ٣٨)

« إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ » (٣٨)

التفسير : فى قوله تعالى فى الآية (٣٥) « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى » إشارة إلى أن هؤلاء الكافرين المعاندين ، قد أضلّهم الله لعنادهم وكفرهم ، وتركهم وما اختاروا من ضلال وشرك . . ذلك لأنهم عَمُوا عن آياتِ الله ، وأبوْا أن يفتحوا عقولهم وقلوبهم لها . .

وفى قوله تعالى : « إنما يستجيب الذين يسمعون » بيان لحال هؤلاء

الكافرين المعاندين ، وأنهم لن يسمعوا كلمة الحق ، ولن يعطوها آذاناً واعية ، ولهذا كان من الحكمة ألا يُلِحّ عليهم أحد بما يدعوهم إليه من حقّ وهدًى ، فإنهم لن يسمعوا ، ولو سمعوا مااستجابوا .. « إنما يستجيب الذين يسمعون » أى الذين يسمعون سمعاً عاقلا متدبراً .. يصغى ، ويفكر ، ويعقل .. أما هؤلاء وإن كانت لهم آذان يسمعون بها فإنها تصبح ثقيلة عند سماع الحق ، كأن بها وقراً ، لأن قلوبهم مريضة ، وعقولهم سفيهة ، « وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُم مُعْرِضُونَ » (٢٣ : الأنفال) .

وقوله تعالى : « والموتى يبعثهم الله » معطوف على قوله سبحانه : « إنما يستجيب الذين يسمعون » أى أن هذين الأمرين من واد واحد ، إذ هما ممكنان واقعان فى قدرة الله: استجابة الذين يسمعون ويعقلون ، لما يسمعونه ويعقلونه ، وبعث الأموات من قبورهم يوم القيامة .

وفى الجمع بين الأمرين دِلالتان :

أولاهما : أن الناس لهم كسْبٌ ولهم إرادة ، وقدرة ، وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « إنما يستجيب الذين يسمعون » وأن الله سبحانه وتعالى لم يكلّف الناس إلاّ ماهو ملائم لطبيعتهم ، مناسب لقدرتهم ، أما مافوق ذلك فلم يكلّفُوا به ، ولم يحاسبوا عليه ، كبعث الموتى ، الذى هو مما لله وحده « والموتى يبعثهم الله » .

وثانيتهما : أن الضّالين المعاندين من الناس ، الذين لم يستمعوا للحق ، ولم يستجيبوا له ، قد وضعوا بذلك أنفسهم موضع العجز المطلَق ، أمام هذا الأمر الممكن الذى دُعوا إليه ، فكأنهم والأموات سواء .. فكما يستحيل على الأموات أن يبعثوا من تلقاء أنفسهم ، كذلك يستحيل على هؤلاء الضالين المعاندين أن يستمعوا للهدى وأن يستجيبوا له بطبيعتهم .. والأموات يُبعثون حين يريد الله بعثَهم ودعوتهم إليه ، والضالون الشاردون عن الله ، يهديهم الله ، إذا أراد لهم

الهداية، ودعاهم إلى طريقه..ولكن هؤلاء الضالين المعاندين لن يدعوهم الله إليه، ولن يهديهم إلى الحق، كما يقول سبحانه: «أولئك الذين لم يُرِدِ اللهُ أن يطهّر قلوبَهم».. فهم وقد كان الإيمان بالله من الممكنات لهم، قد جعلوه بعنادهم وضلالهم مستحيلاً يحتاج إلى قدرة فوق قدرتهم، هى قدرة الله تعالى، وإذ تخلّى الله عنهم وأخلاهم لقدرتهم، فلن يهتدوا إذن أبداً.. وإن الله ـ سبحانه ـ يبعث الموتى، ولكنه لايهدى هؤلاء الضالين المعاندين.

وفى هذا تيئيس لهم، وخذلان مبين، وخزى فاضح، ووعيد بالحساب الشديد، والعذاب الأليم.

وقوله تعالى: «ثم إليه يُرجعون» الضمير فى «يرجعون»، يعود إلى هؤلاء المعاندين، الذين لن يهتدوا أبداً، إلى أن يموتوا، ثم يبعثوا مع الموتى.. ثم يَرجعون إلى الله، للحساب والجزاء.. وهذا هو سرّ العطف «بثم» الذى يفيد التراخى الزمنىّ..فهم إذ خوطبوا كانوا أحياء.. ثم يبعثون، ثم يحشرون»

قوله تعالى: «وقالوا لولا نُزِّل عليه آيةٌ من ربّه قلْ إن الله قادر على أن ينزّل آيةً ولكنّ أكثرهم لايعلمون» هو بيان لموقف هؤلاء الضالين المعاندين، الذين أبوْا أن يستجيبوا لله ولرسوله، وأصبح قبولهم الإيمانَ أمراً مستحيلاً فى مواجهة ماجاءهم به النبىّ، ولن يكون لهم نظر وكسب فيما كان يدعوهم إليه من إيمان، بعد أن تأتيهم الآيات التى يقترحونها..

«وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» والآية التى يقترحونها هى معجزة مادية، يرونها بأعينهم. كما يقول الله تعالى: «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ

كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * »
(الإسراء : ٩٠ ـ ٩١ ـ ٩٢)

وفى قولهم « من ربّه » كفر صريح بالله ، واتهام للنبىّ بأن له ربًّا غير الرّبّ الذى يعرفونه ، ويتقربون بالأوثان إليه .

وفى قوله تعالى « نُزّل » إشارة إلى أن الآية التى يطلبونها هى آية حسّية ، تتحرك بين الناس ، ويتحرك الناس بين يديها .. فهى ـ والأمر كذلك ـ شىء مغاير للآيات القرآنية التى تنزل على النبىّ ، فلا يكون لها هذا الأثر الحسّى ، الذى يبعث فى الحياة هِزّة ، وثورة ظاهرتين للعِيان !

وقوله تعالى : « قل إن الله قادر على أن ينزّل آيةً » فليس أمام قدرة الله مايعجز ، وقد نزّل الله كثيراً من الآيات الحسّية كهذه الآيات التى يقترحونها ، ولكن كثيراً من الناس كفر بها ، وخادع حواسه وخان عقله فيها . .

وفى قوله تعالى : « ولكن أكثر الناس لايعلمون » إشارة إلى جهل هؤلاء المكذبين ، فوق ماهم فيه من ضلال وكفر . . ولو علموا لرأوا أن هذا المقترَح الذى يقترحونه . فيه هلاكهم ودمارهم . . حيث ذلك هو الجزاء الذى يُعقب التكذيب بالمعجزات الحسّية ، التى هلك المكذبون بها ، حين جاءتهم على يد الأنبياء .. نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وموسى ، وعيسى .

قوله تعالى : « وما من دابةٍ فى الأرض ولاطائر يطير بجناحيه إلا أُمَمٌ أمثالكُم » إشارة إلى أن عالم الأحياء ، من إنسان ، وحيوان ، وطير ، يرجع إلى أصل واحدٍ ، كانت منه جميع هذه المخلوقات ، فى أنواعها وأجناسها . .

وفى قوله تعالى : إلا أمم أمثالكم » تسوية بين عالم الإنسان ، وعالم الحيوان ، فى إقامة كل جنس من أجناس الحيوان ، على نظام فى حياته ، وفى

أسلوب معيشته ، وتوالده ، وصلات أفراده بعضها ببعض أو صلاته بالقريب والبعيد منه من أجناس الحيوان ـ أشبه بنظام المجتمع الإنسانى .

فكما أن الناس يمسكهم نظام ، ويضبط حياتهم سلوك ، وتربط بينهم عادات ، وتحكمهم قوانين ، فكذلك كل جنس من أجناس الحيوان ، وكل نوع من أنواعه .. له عالمه الذى يعيش فيه ، وله تقاليده ، وعاداته ، ولغته التى يتفاهم بها ، وله سلطانه الذى يأخذ به الخارجين على نظام الجماعة ، المتمردين على أوضاعها المستقرة فيها ..

وفى قوله تعالى : « ولا طائر يطير بجناحيه » ـ مايُسأل عنه :

لماذا كان ذِكر الجناحين هنا ، مع أن الطائر لايطير إلا بجناحيه ؟ وهل هناك طائر يطير بغير جناحين ؟ وإذا كان من الطير مايطير بلا جناحين ، فهل يخرج من هذا الحكم الذى قضى الله به على الدواب والطير ؟

والجواب على هذا ، هو أن أجناس الطير كثيرة ، متفاوتة القدْر ، مختلفة الحجم والصورة ، من النّسر ، والصقر ، إلى البعوضة ، والذرّة . . وكلها ذات جناحين تطير بهما ، ومن هذه الطيور مالاترى العين جناحيه ، ولا يكاد يتصور العقل أنه يحمل أجنحة ، وفى ذِكر القرآن للأجنحة التى لكل طائر ، مايدعو الإنسان إلى إعادة النظر وإمعانه فى هذه المخلوقات الضئيلة ، وفى دقة تركيبها ، وروعة بنائها ، وأنها ـ على صغر جرمها ـ عالم متكامل ، فى تكوينه ، قد أوْدعت يد القدرة فيه من الأجهزة ، والحواس ، ماأودعته فى أرقى الكائنات الحية ، من قوّى ، ومشاعر ، ومدركات . .

وفى القرآن الكريم كشوف رائدة ، رائعة ، عن عالم الحيوان ، وما أودع الخالق العظيم فيه من قوّى وأسرار ، لاتقلّ روعة وإحكاماً ، عما فى الإنسان ،

الذى ينظر إلى وجوده بين هذه المخلوقات وكأنه إله ، وكأنها هى من نافلة الحياة ، أو من نفاياتها بالنسبة له ! !

فهذه النملة ــ على صغر جرمها ، وضآلة شأنها . . تقف من سليمان موقف الندّ للندّ ، وتتصدى له ، وهو فى بهاء ملكه ، ومظاهر عظمته ، وقد حُشر له الجنّ والإنس والطير ، فى مظاهرةِ وَلاء ، واستعراضِ انقيادٍ وخضوع ، وإذا النملة التى يمرّ بها سليمان ، فلا يأبه لها ، ولايحفل بها ، بل ولايكاد يذكر عن أمرها شيئاً ، وهو مُتْخَم بهذا السلطان العظيم الذى بين يديه ــ إذا هذه النملة تَلْقَى سُليمانَ لقاء مثيراً ، وتحاجّه فى منطقٍ قاهرٍ ، لايقلّ عن منطق سلطانه القوى المبين ، فيعجب لهذا الذى يأتيه من قِبَل أضعف المخلوقات شأناً ، وأهونها قدراً ، وإذا سلطانه الذى بين يديه يهتزّ ، ثم يتهاوى ، وإذا هو والنملة على سواء . . إنها تقوم على دولة لاتقلّ عن دولته ، نظاماً وإحكاماً وروعة ، وإنها لتقوم على رعية تسوسها بالرأفة والحكمة ، وتحوطها بالرّعاية والعناية ، وتوفر لها الأمن والسلامة ، بما لايكون إلا من القلة القليلة من أصحاب الحكم والسلطان . . !

ونستمع إلى قوله تعالى : « وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » (١٧ ــ ١٩ : النمل)

وإذ نستمع إلى كلمات الله هذه ، نكادُ ننصرف بأبصارنا ومشاعرنا عن سليمان ، عليه السلام ، وحشوده الحاشدة ، من الجنّ والإنس والطير ، إلى هذا

المجتمع الضئيل من النمل ، وإلى هذه النملة التي تقوم على سياسته ، وتدبير أمره . .
بل إن سليمان نفسه ، لينصرف عن حشوده تلك ، حين تلقاه النملة هذا اللقاء المثير ، وإذا هو منها بين يدى قدرة القدير ، وحكمة الحكيم ، فلا يملك إلا أن يتوجه بكيانه كله إلى الله ، ضارعاً بالحمد والشكر : « ربّ أوزعنى أن أشكر نعمتك التي أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » . . وليس ببعيد أن تكون النملة ـ فيما رأى سليمان ـ ممن عدّهم من عباد الله الصالحين ، الذين دعا اللهَ أن يُلحقه بهم ، ويدخله فى زمرتهم !

والهدهد ، وقصته مع سليمان ، لاتقل روعة وعجباً من قصة النملة ، فقد جاء إلى سليمان ، وهو فى أبّهة ملكه ، وعظمة سلطانه ، وبين يديه ماسخّر الله له من الجن والإنس والطير ـ جاءه وهو فى هذا السلطان العظيم ، ليلقاه بهذا الخبر ، وليُلقى به إليه فى صورةِ مَن هو أكثر منه علماً ، وأكبر سلطاناً ، وإن كان ـ فيما يظهر منه ـ ضئيلَ الشأن ، باهتَ القدر ، فيقول لسليمان : « أحَطتُ بما لم تُحِط به » ! ! هكذا المتمكّن من نفسه الواثق من وجوده ، يقول قولة الحق ، فى غير خوف أو تردد !

وكأن الهدهد إنما يثأر بهذا لنفسه ، وللجماعة المسخرة لسليمان ، حين توعّد الهدهد على ملأ منها بقوله : « لأُعَذِّبَنّه عذَاباً شديداً أو لأذبَحنّه أو ليأتينىّ بسلطان مبين » . . فجاءه بهذا الجواب القوىّ المبين !

فى هذه النملة التى تمثّل الدوابّ على الأرض ، وهذا الهدهد الذى يمثل ماطار بجناحيه فى السماء ، شاهدان يشهدان بأن هذه الكائنات التى تعيش معنا على هذا الكوكب الأرضى ، من دواب الأرض ، وطير السماء ، هى أمم مثل الأمة الإنسانية ، فى وحدة التكوين والتنظيم ، والمشاعر ، والمدارك ،

وغيرها ، من تلك التى لا تكون الأمة أمةً إلا بها . .

فالأمة لاتسمى أمة ، إلا إذا كان بناؤها الذى تقوم عليه ينتظم جميع الأفراد الذين يدخلون فى حسابها ، وينتسبون إليها ، بمعنى أن يكون بين أفراد الأمة من قوى التلاحم والترابط مايجمع بعضهم إلى بعض ، ويؤلّف منهم جسداً اجتماعياً أشبه بجسد الكائن الحىّ وما بين أعضائه ، من ترابط ، وتساند ، وانسجام !

ومن هنا يمكن أن تتغير نظرة الإنسان إلى عالم الحيوان ، وأن يفتح له العلم الحديث آفاقاً جديدة فى دراسة علم الحيوان ، فلا يقف عند حدودِ دراسةٍ جسدية له ، تدور حول الوظائف العضوية ومايتصل بها ، بل ينبغى أن يتجاوز العلمُ هذه الدراسة إلى دراسات نفسية ، وعقلية أيضاً . . بحيث يكون من موضوعات هذه الدراسات : لغة الحيوان . . بجميع أجناسه وأنواعه ، وعن طريق التعرف إلى هذه اللغة يمكن التعرّف على معارف عالم الحيوان ، ونظرته إلى الكون ، وصراعه مع الطبيعة ، ووسائله التى بلغها فى التغلب عليها . . ولربما يقع للعلم فى هذه الدراسات ، من أسرار وعجائب ، مالم يقع له إلى اليوم من أسرار وعجائب ! .

وإنّ عجزاً من الإنسان ، وقصوراً فى علمه ، هو الذى وقف به على شاطىء هذا المحيط العظيم من عالم الحيوان ، فلم يعرف كيف يتفاهم مع الحيوانات ، ويترجم مشاعرها وإحساسها ، ويفسّر حركاتها وسكناتها . . وليس بغير العلم تنفتح مغالق هذه العوالم . . ويوم يبلغ الإنسان من العلم مايستطيع به الالتحام مع عالم الحيوان والتفاهم معه ، يومئذ يكون الإنسان بحق هو سيد هذا العالم الأرضى ، وخليفة الله فيه ، وإلا فهو ليس بالسيد ولا بالخليفة ، إذ لاسيادة لمن لايعرف كيف يخاطب المسُودين له ، ولا خلافة لمن لايحسن الفهم

عمن هو خليفة عليهم . . وإنه ماانقادت تلك الجماعات من الجن والإنس والطير لسليمان ، إلا بعد أن أوتى من العلم ما أقدره على فهم هذه الجماعات ، والتفاهم معها . .

وقوله تعالى : « ما فرّطنا فى الكتاب من شىء » .

اختلف فى الكتاب هنا : أهو اللوح المحفوظ ، أم هو القرآن الكريم ..؟

ولعل الأقرب إلى مفهوم الآية الكريمة هنا ، هو « القرآن الكريم » حيث يبيّن فى آياته هذه أصولاً ، وأحكاماً ، ومقررات تندرج تحتها جميع المعارف الإنسانية ، التى بلغها العقل ، والتى فى مقدوره أن يبلغها يوماً ما . . وإذا لم يكن القرآن الكريم قد كشف الغطاء عن هذه المعارف ، فإنما ذلك ليثير فى الإنسان دوافع النظر والبحث ، وليترك لعقله مجال الحركة والصراع ، فينتصر حيناً ، وينهزم حيناً ، وهو فى انتصاراته وهزائمه ، سيّد نفسه ، وقائد سفينة حياته ، وحسب القرآن الكريم فى هذا أن يومىء إليه من بعيد إلى مواطن الصيد ، التى يُلقى بشباكه فيها ، فتجىء إليه بصيد وفير .

وقوله تعالى : « ثم إلى ربهم يحشرون » الضمير فى ربهم يعود إلى هذه المخلوقات كلها ، من دواب الأرض ، وطيور السماء . .

وقد اختُلف فى حشر هذه الكائنات من حيوان ووحش وطير . . وهل تحاسب ؟ وإذا حوسبت فهل تعذّبُ أو تنعّم ، كما يحاسب الإنسان ويعذب أو ينعم ؟

ولاشك فى أنها ستحشر إلى الله ، فهذا صريح بنص القرآن فى هذه الآية ، وفى قوله تعالى : « وإذا الوحوش حشرت » (٥ : التكرير) . . أما ما وراء هذا فأمره إلى الله ، وعلمه عند علام الغيوب .

الآيات : (٣٩ ـ ٤١)

« وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ » (٤١)

التفسير : « والذين كذَّبوا بآياتنا صمٌّ وبكم فى الظلمات » استدعاء لهؤلاء المكذبين الضّالين ، من بين عوالم الأحياء كلها ، التى عرضها الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة ، فى قوله تعالى : « وما من دابةٍ فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أممٌ أمثالكم » .

وفى هذا الاستدعاء ، ينعزل الضالون المكذبون بالله وآياته ، عن هذا الوجود ، كما يُعزل المرضى بأمراض خبيثة عن الأصحاء !

وهؤلاء الضالون المكذبون ، هم فى حقيقتهم مصابون بأمراض خبيثة ، لا فى أبدانهم ، ولكن فى عقولهم . .

إنهم كما وصفهم الحق جلّ وعَلاَ : « صمٌّ وبُكم فى الظلمات » .

وانظر إلى هذا الإنسان الأصم الأبكم الذى يحتويه الظلام ويشتمل عليه !

إنه أصمُّ لايسمع . . أى لايصل إليه من العالم الخارجى مسموع .

وإنه أبكمُ ، لاينطق . . أى لايصل منه إلى العالم الخارجى منطوق .

فهو ـ والحال كذلك ـ مُصْمت مغلق،لايتصل بشىء ، ولايتصل به شىء .

ثم إنه — بعد هذا كله — أعمى ، لايرى شيئاً ، حتى جوارحه التى معه ، من يد أو رجل ! !

هذا هو حال الذين كفروا بآيات الله . .

إنهم كائنات ميّتة ، وإن بدت حيَّةً ، فى صورة الأحياء . . فقد تعطلت حواسّهم ، وأظلمت قلوبهم وعقولهم ، وبهذا لم يكن بينهم وبين آيات الله تعامل ، بسمعٍ ، أو نظر ، أو عقل !

وقوله تعالى : « من يشأ الله يُضْلِلْه ومن يشأ يجعله على صراطٍ مستقيم » هو عرض لمشيئة الله ، وقدرته ، وحكمته . . وأنه سبحانه وتعالى هو مالك الملك، إليه يُرجع الأمر كلّه . .

وهؤلاء الذين عَصوْا الله ، وضلّوا عن سبيله ، لايظنون أنّهم أصحاب قوة وسلطان . . إنهم أذلاّء ضعفاء لايملكون شيئاً . . حتى هذا الضلال الذى هم فيه . . إنه ليس لهم ، وليس من واردات حوْلهم وقوّتهم . . إن هناك سلطانا فوق سلطانهم ، وقدرة فوق قدرتهم ، وبذلك السلطان وبتلك القدرة هم محكومون ، وهم صائرون إلى هذا المصير المشئوم الذى هم فيه . . فليموتوا كمداً وحسرة . . إنهم ممن شاء الله أن يضلّهم ، لأنهم أهل لما أراده الله بهم !

وهؤلاء الذين استجابوا لله ، وآمنوا ، واستقاموا على طريقه القويم ، إنما كانت استجابتهم ، بدعوةٍ من الله ، وتوفيق لهم منه ، إلى الإيمان ، وأن الله سبحانه وتعالى ، هو الذى أخذ بأيديهم إليه ، وأدخلهم فى عباده الصالحين ، ولولا ذلك لـكان شأنهم شأنَ هؤلاء الضالين ، الذين لم يُرد الله أن يطهّر قلوبهم،

وأن يُنزلهم منازل الإكرام عنده . . فليهْنِئْهم هذا الرضوان ، وليسعدوا بما آتاهم الله من فضله . .

وفى مشيئة الله ، ومشيئة العباد ، كثُر القول ، واختلفت المقولات ، وتعدّدت الآراء ، وتشعبت مذاهب الرأى ، فكان من ذلك مقولات كثيرة : فى الجبر والاختيار ، وفى القضاء والقدر ، وفى الثواب والعقاب ، إلى غير ذلك مما يتّصل بمشيئة الله ، ومشيئة عباده . . وهل للعباد مع مشيئة الله مشيئة ؟ وهل إذا كانت لهم مشيئة أفلا ينقص ذلك من كمال الله وقدرته ؟ وإذا لم يكن لهم مشيئة فكيف يُثابون ويعاقبون على مالا مشيئة لهم فيه ؟ إنهم مسيّرون لامخيّرون . . وعدل الله يقضى ألا يحاسب إنسان على ما ليس من كسبه ؟

وهكذا تتشعب مذاهب القول ، وتختلف وجوه الرأى ، ويحتدم الصراع بين أصحاب المقولات ، ويلتحم القتال زمناً طويلاً ، يترامى فيه المقاتلون بكل مايقع لأيديهم من أسلحة ، فى مجال الرأى حيناً ، وفى ميدان الحرب بالرماح والسيوف حيناً . .

هذا ، وسنعرض لهذا الموضوع ، فى بحث خاص إن شاء الله .

وقوله تعالى : « قل أرأيتكم إن أتاكم عذابُ الله أو أتتكم الساعة أغيرَ الله تدعون إن كنتم صادقين » تسفيه وتجريم لهؤلاء الذين أشركوا بالله ، وضلّوا عن سبيله . . فإن هؤلاء الضالّين المشركين ، إذا كربتهم الكروبُ ، وأحاط بهم البلاء ، وعاينوا الموت ، تنبهت فيهم قوى الإدراك التى كانوا قد عطلوها ، ووضحت لهم الحقيقة التى ضلّوا الطريق إليها ، فرأوا أنه لاإله إلا الله وحده ، وأنه هو الذى يملك دفع هذه الشدائد ، ويقدر عليها . . هنالك يدعون الله ، ويضرعون إليه ، أن يكشف الضرّ ، ويرفع البلاء !

وتلك هى حال الإنسان ، فى الشدائد يجتمع رأيه ، وتتفتح مَلَكاته ، فيرى الواقع على حقيقته ، فإذا زالت الشدة، وانفسح الأمل ، أعطى زمامه لهواه ، وأسلم وجوده لشيطانه ، وعاد إلى ما كان فيه من ضلال وكفر .. « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ » (٨ : الزمر)

وقوله تعالى: «أرأيتكم» .. الاستفهام يراد به التقرير .. أى أجيبوا على هذا السؤال الذى أنا سائلكم عنه ..

وأصل هذا الفعل « أرأيتم » مخاطباً به هؤلاء المشركين خطاباً مباشراً .. ولكن لما كان بين هؤلاء المشركين وبين عقولهم حواجز من الضلالات والمنكرات ، فقد جاء خطابهم على تلك الصورة ، الفريدة ، التى تجمع بين مخاطبيْن ، والمخاطب واحد ، حتى لكأنه ذاتان ، أو ذات منقسمة على نفسها .

وفى قوله تعالى : « إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة » .. المراد بالعذاب هنا هو ما يأخذهم به الله من عقاب شديد فى الدنيا ، كما أخذ به الضالين المكذبين من قبلهم ..

وعطف قوله تعالى : « أتتكم الساعة » على قوله تعالى : « عذاب الله » لبيان أن هذا العذاب الذى يُنذَرون به ، هو عذاب شديد ، أشبه بأهوال يوم القيامة ..

ومن أجل هذا ، كان وقوع المشركين تحت وطأة هذا العذاب داعيةً لهم إلى أن ينخلعوا عما كانوا فيه من غفلةٍ ، واستخفافٍ ، بما يشغلهم من مطالب الحياة الجسدية ، التى أعطوها وجودهم كله ..، وأن يولّوا وجوههم إلى الله .

ففى مواجهة الشدائد القاسية التى تتهدد وجود الإنسان ، وتشرف به على

الهلاك ، تنحلّ قوى الجسد ، وتتبخر الأهواء المتسلطة عليه ، وهنا يجد العقل سماء صافية تسطع فيها أنواره ، كما تجد الروح مجالاً للحركة والعمل ، وإذا الإنسان بعقله وقد تخلص من الضباب الذى انعقد عليه ، وبروحه التى انطلقت من قيود هذا الجسد المعربد ، وإذا الإنسان هنا ، يعاين الحقيقة ، ويرى الحق ، فيؤمن ، إن كان كافراً ، ويستيقن ، إن كان مؤمناً .

وهذا أشبه بحال من يعالج سكرات الموت ، فإنه يرى ماوراء المادة من شواهد الحياة الآخرة ، فيؤمن إن كان كافراً ، حيث لاينفعه إيمانه ، ويتوب إن كان عاصياً ، حين لاتنفعه التوبة . . وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى لفرعون ، وقد آمن بعد أن أدركه الغرق ، وأشرف على الموت : « آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ » (٩١ : يونس) ويقول سبحانه فيمن يتوب وهو فى مواجهة الموت : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ » (١٨ : النساء) .

وقوله : « أغيرَ الله تدعون » هو استفهام تقريرى ، يُراد به أخذ اعتراف هؤلاء المشركين بالله .

وجوابهم فى تلك الحال التى يسألون فيها ، وهم فى أمن عافية ، لايذكرون معها تلك الحال التى يكونون فيها تحت قهر البلاء والشدة ، أو فى مواجهة أهوال القيامة — جوابهم فى تلك الحال ، لايكون إلا جحوداً لله ، وكفراً به ، واستغناء عنه .

وقوله تعالى : « إن كنتم صادقين » إشارة إلى هذا الجواب الذى سيعطونه فى تلك الحال ، وأنه ليس الجواب الذى يعطونه لو كانوا فى مواجهة المحنة

والبلاء ، ولهذا جاء قوله تعالى : « إن كنتم صادقين » كاشفا عن حالهم تلك ، وأنهم لو صدقوا أنفسهم ، وتدبّروا الموقف وتصوّروه على حقيقته ، لكان جوابهم : لن ندعوَ غير الله ، ولن نشرك به أحداً . . ولكنهم لم يفعلوا ولن يفعلوا . . ولهذا ضرب الله على الجواب المنتظر منهم ، وتولّى سبحانه الجوابَ عنهم ، وألزمهم به إلزام من يؤمنون بالله ، ويقدُرونه حق قدره ، فقال تعالى : « بل إيّاه تدعون » أى إنكم مع ماتقولون الآن من كذب وشرك ، وأنتم فى سعةٍ من أمركم ، ستقولون هذا القول الحق ، وأنتم فى يد البلاء والمحنة . .

وقوله تعالى : « فيكشف ماتدعون إليه إن شاء » أى أنه سبحانه هو الذى سيكشف الضرّ الذى نزل بكم ، وضرَعْتم به إليه ، على حين هرب من وجوهكم ، وفرّ من بين أيديكم ، تلك الآلهة الباطلة التى كنتم تتعاملون معها ، وتركنون فى أموركم إليها ، وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « وتنسَوْن ماتشركون » لأنها تفاهات لاتُذكر فى ساعة الجدّ ، ولايتعامل معها سفيه حين يثوب إليه عازب عقله .

الآيات : (٤٢ - ٤٥)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » (٤٥)

التفسير : فى هذه الآيات عرض لمقطع من مقاطع الحياة ، قبلَ عصر النبوّة ، وفيه تتمثل مواقف المعاندين والملحدين بالله ، والمكذبين برسله ، وما أخذهم به من نكالٍ وعذاب .

وفى قوله تعالى : « ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك » عزاء للنبىّ الكريم ، ومواساة له ، فيما يلقى من سفاهة السفهاء ، وتطاول الحمقى . . فقد كان قبلَ النبىّ الكريم رسل كرام ، بعثهم الله بالرحمة والهدى لأقوامهم ، فكذبوهم ، وبَهَتوهم ومدّوا أيديهم إليهم بالضرّ والأذى . .

وقوله تعالى : « فأخذناهم بالبأساء والضراء » هو تعقيب على كلام محذوف دل عليه سياق النظم ، أى فكذبوا بآيات الله ، ومكروا برسل الله « فأخذناهم بالبأساء والضراء » أى فأخذهم الله « بالبأساء » أى بالمحن والشدائد ، كتسليط العدوّ عليهم ، ووقوعهم ليده ، يقتل ويسلب ، «والضراء» أى الفقر والجدب، ونقص الأموال والأنفس والثمرات . . وذلك لتتفتح قلوبهم إلى الله ، وتُرفع أكفّهم بالضراعة إليه ، ومن ثمّ يكون لهم إلى الله عودة ، لو عقلوا ، وتدبّروا. إذ أن من شأن الشدائد أن تصفّى النفوس من شوائب الضلال العالقة بها ، وتنقّى القلوب من الوساوس المستولية عليها ، وتكشف عن العقول الظلام المحيط بها . . هذا إذا كان كيان الإنسان سليماً ، وكانت تلك الأمور عللاً عارضة ، تقبل الدواء المرّ وتنتفع به ، وتجد فيه الشفاء والعافية . . أما إذا كان الكيان فاسداً بطبيعته ، فلا دواء ولا شفاء . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « لعلّهم يتضرّعون » أى لعلّهم حين ترهقهم الشدة ، ويكْرَبهم الضرّ ، يتذلّلون لله ، ويتضرعون إليه .

وفى هذا الترجى « لعلّ » إشارة إلى المطلوب منهم فى تلك الحال ، إذ هى

حال من شأنها أن تقيم الضالّين والمنحرفين على رجاء من رحمة الله ، فتُخبِتَ له قلوبهم ، وتَلْهج بالضراعة إليه ألسنتهم .

وقوله تعالى : « فلولا إذ جاءهم بأسنا تَضَرَّعوا » تحريض لهؤلاء الضالين أن يتداركوا أنفسهم ، وأن يعودوا بها إلى الله من قريب ، تائبين ضارعين . .

ولم يُذْكر الضرُّ هنا مع البأس ، لأن البأس أعمّ من الضرّ ، إذ هو ضر ، وأكثر من ضر . .

وقوله سبحانه : « ولكن قسَتْ قلوبهم » فلم يتضرّعوا ، ولم يعودوا إلى الله ، مع ما أخذهم به من بأساء وضراء ، بل ظلوا على ماهم فيه من عمًى وضلال . . « وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون » أى حبّب إليهم الشيطان ، بغوايته ، وخداعه ، هذه المنكرات التى يعيشون فيها ، فلزموها ، وتعلقوا بها . . .

وقوله تعالى : « فلمّا نَسُوا ما ذُكِّروا به فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شىء » بيان للوجه الآخر الذى أراهم الله من آياته ، وأخذهم به من عبر وعظاتٍ ، لتتفتح مغالق قلوبهم إليه ، ويؤمنوا به . .

والذى ذُكِّروا به ونسوه ، هو « البأساء والضراء » وقد أخذهم الله بهما ليكون لهم منهما عبرة وعظة ، ولكنهم لم يعتبروا ، ولم يتعظوا . .

ولكن الله سبحانه — مع هذا — لم يعجّل لهم العقاب ، بل أخذهم بحلمه ، وقدّم لهم الدواء الحلو السائغ ، بدلاً من هذا الدواء المرّ ، الذى لم يستسيغوه ، ولم ينتفعوا به . . فساق إليهم النعم ، وأغدق عليهم العطاء ، « فتحنا عليهم أبوابَ كل شىء » مما تشتهى أنفسهم ، وتهوَى أفئدتهم . . ومع

ذلك فما نفعهم هذا الدواء ، ولاذهب بما بهم من داء .. بل زادهم هذا الرزق الـكريم ، كفراً بالله ، ومحادّة له . .

وإنه إذ لم يكن فى البأساء والضراء ، ولا فى النعمة والرخاء ، مايصحح مُعتقَد هؤلاء القوم فى الله ، ويقيمهم على طريقه — كانت الثالثة ، وهى القاضية ، التى فيها الهلاك والدمار . .

وهذا هو حكم الله فيهم ، وأخْذُه لهم : « حتّى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون » وإنه لأخذ أليم شديد . . إذ كانوا على حال من البهجة والمسرّة ، وفى مقام من الأمل المزهر والرجاء العريض ، فتهبّ عليهم عاصفة جائحة ، تنتزعهم انتزاعاً على حين غفلة ، وهم على تلك المائدة الحافلة بشهىّ الطعام والشراب ، وإذا الأيدى الممدودة إلى المائدة تتجمد فى طريقها إليها ، وإذا الشّفاه المترشفة للـكئوس المترعة تيْبسُ عليها ، وإذا العيون السارحة بين ألوان الطعام والشراب تجمُد حدقاتها ، وينطفىء بريقها .. « وكذلك أخْذُ ربِّك إذا أخذالقُرى وهى ظالمة.. إن أخْذَهُ أليم شديد » (١٠٢ : هود) .. فلو أن هؤلاء المشركين ، أُخذوا وهم فى لباس البأساءْ والضرّاء لخفّف عليهم مرارةَ الموت ، ماهم فيهمن مرارة الحياة التى يحيونْها ، ولـكنهم تجرعوا كأس المنية مرّاً مترعاً ، وفى أفواههم ، وعلى ألسنتهم ، طعوم وطعوم ، من كل حلو وشهىّ !

والإبلاس : الحسرة الشديدة ، والمُبلس : الذى وقع فى معصية ولا حجة له ، ولاعذر بين يدى العقاب الذى وقع به .

وقوله تعالى : « فقُطع دابرُ القوم الذين ظلموا والحمد لله ربّ العالمين » هو آخر مايشيّع به هؤلاء الهالـكون ، ومايتبعهم من دنياهم إلى المصير الذى هم صائرون إليه .. لقد قطع دابرهم ، أى اجتُثّ كل شىء لهم ، ومُحِيت آثارهم ، ولم تبق منهم باقية .. إنهم وباء وبيل ، ومرض خطير ، يتهدد الإنسانية بالفساد

والضلال ، فكان خلاص الإنسانية منهم نعمةً من نعم الله ، تستوجب الحمد والشكران .. « فقُطع دابر القوم الذين ظلموا » ، أى لم تبق منهم باقية ، من أصول وفروع « والحمد لله ربّ العالمين » الذى وقى النّاس هذا الشرّ المستطير ، وعافاهم من هذا البلاء المبين !

الآيات : (٤٦ ـ ٤٩)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ٱنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّالِمُونَ (٤٧) وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » (٤٩)

التفسير : بعد أن عرض الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة (٤٢ ـ ٤٥) مصارع القوم الظالمين ، بعد أن جاءتهم رسل الله ، فكذّبوهم ، وأخذوهم بالضرّ والأذى ـ أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه الكريم أن يلقى المشركين المعاندين من قومه بقوله تعالى : « أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به ؟ » .

والضمير فى « به » يعود إلى المأخوذ ، المفهوم من قوله تعالى : « أخذ »

والمعنى : أجيبوا أيها المكابرون المعاندون ، والمشركون بالله ـ أجيبوا عن هذا السؤال : إذا أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، أى ضَرَبَ عليها سدّاً ، وعطّل وظيفتها ، فلم يكن لها ماللقلوب من مشاعر ومدارك ـ فهل

هناك إله غير الله يأتيكم بهذا الذى أخذه الله منكم ؟

وفى التعبير بالفعل « أخذ » إشارة إلى أن هذه النعم هى منحة لهم من عند الله ، وفضل من أفضاله على عباده ، ولله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يأخذ منهم ما أعطى ، ويسترِدّ مامنح ، ولا اعتراض لهم عليه ..

وإذا كانوا لا يَحيَوْن بغير هذه الحواس من سمع وبصر ، ولا يكونون من عالم البَشَر إلا بهذه القلوب ، فإن عليهم أن يبحثوا عن جهة تعيد إليهم ما أُخذ منهم ، أو مِثلَ هذا الذى أُخذ منهم ، إن كان بهم حاجة إلى وجودهم فى عالم البشر .

وإنهم مهما جدّوا فى البحث ، واجتهدوا فى السعى ، لن يجدوا غير الله لهذا الذى يطلبونه .. فما لهم لا يؤمنون به ؟ وما لهم يعبدون من دونه ما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ؟ أليس ذلك ضلالاً وسفهاً ؟ وبلى إنه الضلال والسّفه والخسران المبين . .

وفى إفراد السّمع ، وجمع الأبصار والقلوب ، إعجاز من إعجاز القرآن ، وآية من آياته ، على علوّ متنزّله ، وأنه تنزيل من ربّ العالمين .

فالسّمع من وظيفته أن يتلقى الأصوات ، وأن يميَز بينها ، ويمسك بالواضح المميز منها ، وإنه لن يحقق هذا ، أو يتحقق له هذا ، إلا إذا عزل الصوت الذى يريد استقباله ، عن كل مايتصل به من أخلاط الأصوات الأخرى .. وهذا يعنى أن السّمع وإن اتسع لمئات الأصوات المختلطة ، فإنه لا يميز إلا واحداً منها ، بالإصغاء إليه ، وعزل ماسواه عنه ، وإلا كان المسموع له ، أصواتاً لا مفهوم لها ، إلا على أنها دوىّ كدوىّ النحل مثلاً !

ومن هنا كانت الحكمة فى إفراد السّمع ، فى القرآن ، وفى جميع الآيات التى ذُكر فيها ، وذلك من القرآن ، هو توجيه لوظيفة السمع ، وإقامتها على الوجه

الذى يَنتفع به صاحبه ، فالكلمة التى تدخل على الإنسان من طريق سمعه ، لاتثير تفكيراً ، ولا تحرك وجداناً ، ولا تَهزّ شعوراً ، إلا إذا كانت ذات مدلول محدّدٍ واضحٍ.. وهذا لايكون إلا إذا استقلّت بذاتها ، واتخذت طريقها من السمع إلى مواطن الإدراك والشعور من الإنسان ، غير مختلطة بغيرها ، مما يسبقها أو يلحقها من كلام .

ومن هنا أيضاً ندرك السِّرّ فى قوله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا » .. فإن أبرز مافى هذا الأمر من حكمة ، هو نَقْل كلمات الله ، من اللسان ، إلى الأذن ، ثم إلى العقل والقلب ، فى صورة سَوِيّة واضحة ، ليكون مفهومها سويًّا واضحاً ..

فالإنسان له سمع ، وإن بدا أن هذا السمع هو أسماعٌ ، فى استقباله لعشرات الأصوات ومثاتها ، دفعةً واحدة . . والمطلوب من الإنسان أن يستعمل سمعاً واحداً ، ليكون لما يسمعه معقول ، ومفهوم ، وثمر !

أما حاسّة البصر ، فهى على خلاف حاسّة السمع .. إذ أن العين تستطيع أن تضبط كثيراً من صور المرئيات فى نظرة واحدة ، كما أنها تستطيع أن تعاود النظر فى الشىء المرئى لها ، مرّةً ومرة ، ومرات كثيرة،حتى تتحققه وتستيقنه .. ومن هنا كانت العين مجموعة من الأعين ، بتردّدها على الشىء ، ومعاودتها النظر إليه ، حالاً بعد حال ، وليس كذلك الأذن التى إن أفلت منها الصوت الملقَى إليها ، لم يكن فى الإمكان ردّه ، فقد ذهب أدراج الرياح ، ولا يمكن أن يعود ، وإن أمكن استدعاء مثله ، من مصدره الذى جاء منه . .

والقلب ، فى تأثره بالمحسوس ، من مرئى ، ومسموع ، ومشموم ، وملموس ، هو أشبه بالعين ، فى قدرته على معاودة النظر إلى تلك الصور التى تُلقى بها الحواس إليه ، فيعيش معها زمناً ، على هيئة خواطر ومشاعر ووجدانات ، يشكّل منها جميعاً عالَمَه الذى يعيش فيه ، و يستملى منه نزعاته وسلوكه .

وقوله تعالى : « انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون » .

تصريف الآيات : تنويعها ، وبسطها ، لتنكشف وتتضح .

ومعنى يصدفون : أى ينصرفون ، ويميلون عن الحق الذى تحمله آيات الله ــ إلى مايشتهون من الباطل والضلال .

وفى هذا المقطع من الآية الكريمة تشنيع على هؤلاء الضالّين ، وفضح لسفاهتهم ، على أعين الناس ، ودعوة لكل ذى عقل أن يرى ويحكم .

وقوله سبحانه : « قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتةً أو جهرةً هل يهلك إلا القوم الظالمون » استحضار لهؤلاء المشركين فى موقف آخر من مواقف المساءلة ، ومواجهة العذاب المعدّ لمن يُدِينهم الحسابُ فى هذا الموقف ، بعد أن ذُكّروا بنعم الله التى تلبسهم ويلبسونها ، والتى إن سلبها الله إياهم لم يكن لقوة فى الوجود أن تأتيهم بها . .

وهنا فى هذا الموقف ، هم مجرمون ، قد حكم بتجريمهم من قبل ، وها هم أولاء يهدّدون بعذاب الله ، الذى يؤخذ به كل متكبر جبار ، وأن هذا العذاب غير موقوت بوقت لديهم ، وإنما أمر ذلك إلى الله ، فقد يأتيهم على حين غفلة ، من حيث لايشعرون أو يتوقعون ، كما فُعل ذلك بقوم لوط وقوم عاد ، أو قد يأتيهم العذاب بعد أن يُنذروا به ، ويحدّد لهم وقته ، تلميحاً ، كما فى قوم نوح ، أو تصريحاً ، كما فى قوم صالح ، إذ يقول الله تعالى : « فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيامٍ ذلك وعد غير مكذوب » (٦٥ : هود) .

وفى قوله تعالى : « هل يهلك إلا القوم الظالمون » دفعٌ بهم إلى يد الهلاك ، ليلحقوا بالظالمين ، الذى أهلكهم الله من قبل ، ودمدم عليهم بذنبهم . . فتلك سنّة الله فى الذين خلوْا من قبل . . وأنه إذا كان سبحانه وتعالى لم يعجّل لهم الهلاك ، ولم يوردهم موارد الظالمين ، فذلك إملاء لهم ، ومظاهرة لحجة الله عليهم ،

ليذوقوا العذاب ضعفين يومَ القيامة « ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا يُنصرون » (١٦ : فصلت) .

الآية : (٤٨ - ٤٩)

« وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » (٤٩)

التفسير : فى قوله تعالى : « وَمَا نُرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين » تعقيب على ما فى الآيات السابقة ، من دعوة الناس إلى الله على لسان رسله ، وإمهال الله - سبحانه - المكذبين منهم ، وأخذهم بالبأساء والضراء حيناً ، وبالنَّعماء والسراء حيناً آخر . وذلك ليكون لهم فى أنفسهم نظر ، ولهم إلى الله رجعة ، حتى إذا بلغ بهم الكتاب أجَلَه ، ولم تنفعهم الآيات والنُّذُر ، أخذهم الله بعذاب بئيس ، وأوردهم موارد الهالكين .

وفى هذه الآية ، بيان لموقف الرسل ممن أرسلوا إليهم .. فما للرسل سلطان على الناس ، أن يؤمنوا أو يضلوا ، وإنما هم دعاة إلى الخير والهدى ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها .. وليس الرسل كذلك ، هم الذين يملكون العفو والمغفرة ، أو يسوقون العذاب والهلاك للمعاندين والمشركين ، فذلك إلى الله وحده ، لا يملكه أحد غيره ، وما على الرسل إلا البلاغ .

وقوله تعالى : « فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » هو بيان لأثرٍ من آثار الرسل فى الناس ، وأن هناك فى الناس من يهتدى بهم ، ويؤمن

بالله عن طريقهم .. وهؤلاء الذين اتبعوا الرسل وآمنوا بالله ، وعملوا الصالحات ، قد فازوا وسَعِدوا ، وأمِنوا من هول يوم القيامة ، ولم يقع فى نفوسهم حزن وحسرة على فائت فاتهم من حظوظ الدنيا ، وخير الآخرة ..

فما فاتهم فى الدنيا مما كان يَعدّه المشركون بالله نعيما استهلكوا فيه أنفسهم، هو رَذْل خسيس إلى جانب النعيم المقيم المعدّ لهم فى جنات الخلد ، أما خير الآخرة فلم يَفُتْهم منه شىء . فقد آمنوا بالله ، وهذا هو رأس كل خير .. ثم هداهم الإيمان إلى الأعمال الصالحة ، التى تُرضى الله الذى آمنوا به ، وتدخلهم فى جنّاته .

وقوله تعالى : « والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون » هو كشف للوجه الآخر من دعوة الرسل ، وأنه إذا آمن بهم كثير من الناس، فقد كفر بهم كثير من الناس أيضاً .. ولكل من المؤمنين والكافرين حسابه وجزاؤه ..

وقد بينت الآية السابقة عاقبة المؤمنين وجزاءهم ، وأنه لا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون ..

وأما الذين كفروا وكذبوا بآيات الله ، فأولئك « يمسّهم العذاب بما كانوا يفسُقون » .

والفسوق ، هو الخروج ، يقال فسق الفرخ من البيضة : إذا خرج منها ، والفاسق هو من يخرج عن حدود الله ، وفى هذا يقول الله تعالى عن إبليس « إلا إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربه » .

وفى قوله تعالى : « يمسّهم العذاب » إشارة إلى أن عذاب الله شديد لا يطاق ، وأن مسّةً من هذا العذاب ، تُحيل حياة من تصيبه إلى شقاء دائم ، وبلاء متصل .. نعوذ بالله من عذاب الله .

الآيات : (٥٠ ـ ٥٢)

« قُلْ لَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ » (٥٢)

التفسير : وإذ بيّن الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة ، محامل الرسالة التى يحملها رسله إلى عباده ، وأنها رسالة قائمة على البلاغ بما يؤمر الرسول بتبليغه إلى قومه .. وأن من استجاب منهم فقد فاز ، ومن أبى واستكبر فقد خاب وخسر.

إذ بين الله سبحانه وتعالى هذا الذى كان بين الرسل وأقوامهم ، فقد بيّن سبحانه وتعالى موقف النبىّ الكريم من قومه ، وأنّه ليس بِدْعاً من الرسل ، فما هو إلا بشير ونذير ، وأن هذه المقترحات التى يقترحها عليه السفهاء من المشركين ، ليست من وظيفة الرسول ، ولا من محامل رسالته .. فالرسول مبلّغ وليس منشئاً لرسالته .. فما جاءه من عند الله بلّغه ، وما لم يجئه أمسك عنه ، وإلا كان متجاوزاً الحدودَ المرسومة له ..

وقوله تعالى : « قل لا أقول لكم عِنْدى خَزَائنُ الله وَلا أَعْلَمُ الْغيْبَ ولا أقول لكم إنّى مَلَكٌ إن أتبع إلاّ مايوحَى إلىّ » هو إقرار على لسان الرسول نفسه ، يواجه به الذين يَرَوْن فى الرسول قوًى لا يراها الرسول نفسه ..

ومن شأن الإنسان أن يستكثر من الفضائل التى تُضاف إليه ، فإذا لم يتحدث بها هو عن نفسه دعا الناس إلى أن يتحدثوا بها عنه ، فإذا تحرّج من هذا ، لم يتحرج مما يراه الناس فيه ابتداء ، من غير أن يحملهم عليه ..

وهنا نجد الرسول الكريم يعرض نفسه على قومه ، نازعاً عنه كل تلك الأثواب الفضفاضة ، التى يُلبسونها إياه ، من نسج خيالاتهم وأوهامهم ، مجرّداً مِن كل قوة إلا قوةَ إيمانه بالله ، واستقامته على الحق الذى يدعو إليه .

فالنبىّ لا يملك للناس سَعَة فى الرزق ، لأنه يُرزَق مثلَهم ، ولا يَرْزُق غيرَه : « لآ أقول لكم عندى خزائن الله » فخزائن الله لِله ، يعطى منها مايشاء لمن يشاء ! .

والنبىّ لايعلم الغيب ، ولايدرى ما يطْلُع به يومه ، أو غده ، عليه أو على الناس ، مما يُحمَد أو يَسُوء . . فعالم الغيب والشهادة هو الله وحده .

والنبىّ .. بَشَر من البشر ، وإنسان من الناس ، هو مثلهم ، مقيّد بقيود هذا الجسد البشرى ، وليس هو مَلكٌ من ملائكة الرحمن يستطيع أن يفعل مالا يفعله الإنسان ، من خوارق ومعجزات .

والنبىّ مُلْزم بالوقوف عند حدود رسالته ، يبلغها كما أنزلت إليه ، لا يزيد عليها شيئاً ، ولا ينقص منها شيئاً . . « إن أتبع إلاّ مايوحى إلىّ » .

وهذا الإقرار من النبى ، والاعتراف على نفسه هذا الاعتراف الواضح الصريح ، هو دليل من أدلة النبوة ، وآية من آيات صدق النبىّ ، وأنه مأمور بأن ينقل إلى النّاس مايوحَى إليه من ربّه ، ولو كان أمراً متعلقاً به ، فى خاصة نفسه ، أو أهله . .

وقوله تعالى : « قل هل يستوى الأعمى والبصير » هو تعقيب على هذا

الاعتراف من النبيّ ، يُلقِى به إلى أسماع من يستمعون إلى هذا الاعتراف ، وأن هؤلاء المستمعين ، بين أعمى لا يرى مواقع الخير ، ولا يهتدى إلى طريق الحق ، وبصيرٍ ، يتهدّى إلى الخير ، ويستقيم على طريق الهدَى . . وأنه لا يستوى الجاهل والعالم ، ولا الأعمى ولا البصير ، ولا الضال ولا المهتدى .. وفى الاستفهام الإنكارى تنبيه للغافلين من غفلتهم ، وإيقاظ للنائمين من نومهم ، ليستقبلوا هذا النور الذى بين يدى النبيّ ، وليفتحوا عيونهم عليه ، وليسيروا على هديه ، إن أرادوا لأنفسهم النجاة والسلامة والخير .

قوله سبحانه : « وأنذرْ بِهِ الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولىّ ولا شفيعٌ » هو توجيه للنبيّ الكريم أن يتّجه بدعوته إلى حيث نجد آذانا تسمع ، وقلوباً تَعِى ، فإنه حينئذ يرجو لدعوته استجابة ونُجحا فى نفوسٍ مهيأة للاستماع والتعقل . . والضمير فى « به » يعود إلى القرآن الكريم .

والنبي — صلوات الله وسلامه عليه — وإن كان مأموراً بأن يدعوَ النّاس جميعاً إلى الله ، وأن يقوم فيهم بشيراً ونذيراً ، إلاّ أن التفاته إلى من فيهم الاستعداد للاستماع والاستجابة ، أولى ممن لا يسمع ولا يعقل ، ولا يجيب .. أو قُلْ إن دعوته وما تحمل من هدًى ونور — وإن كانت موجهة إلى الناس جميعاً — إنّما يفيد منها ، وينتفع بهديها ، هم أولئك الذين يخشون ربهم ، ويخافون عذابه ، وبهذا يبدو غيرهم وكأنه غيرُ مَدْعُوٍّ إلى هذا الخير المساق إلى الناس كلّهم ، وفى هذا مافيه من تضييع لهؤلاء الصادّين عن سبيل الله ، وإهدار لوجودهم بين الناس . . !

وقوله تعالى : « ليس لهم من دونه ولىّ ولا شفيع » جملة حالية ، وصاحب الحال هو الضمير فى « يحشروا » . . أى أن هؤلاء الذين يخافون أن يحشروا

إلى ربهم ، فى حال لبس معهم فيها ولىّ يتولى أمرهم عند الله ، أو شفيع يشفع لهم ، فيخلصهم من عذابه — هؤلاء هم الذين يعملون للقاء الله حساباً ، ومن ثمّ فإنهم يستمعون لكلمات اللهِ ، ويستجيبون لرسول الله ، فيكونون ممن رضى الله عنهم ، ووقاهم عذاب الجحيم .

وقوله سبحانه « لعلّهم يتقون » الرجاء هنا معلق بهؤلاء الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم غير مصحوبين بولىّ أو شفيع ، فهذا الخوف من شأنه أن يبعث الإيمان والتقوى فى أصحابه . . فهم — والحال كذلك — على رجاء من التقوى ، وعلى مداناة منها ، إن هم استقاموا على هذا الطريق ، واحتملوا ما يلقاهم عليه من مشقة وأذًى .

قوله تعالى : « ولا تطردِ الّذين يَدْعون ربّهم بالْغَدَاةِ والْعَشِيِّ يريدون وجهه » .

هنا سؤال : هل طَرَد النبىُّ مَن يدعون ربهم بالغداة والعشىّ يريدون وجهه ؟ أو هل هَمّ بطردهم ؟ وإلا فما معنى هذا النهى من الله تعالى للنبىّ الكريم ؟

والجواب : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يكن منه طرد لجماعة مؤمنة تدعو ربها بالغداة والعشى ، بل ولم يكن منه همٌّ بهذا الأمر . . وكيف يُساغ هذا ؟ ورسالته — عليه الصلاة والسلام — قائمة على دعوة النّاس أن يدعو ربهم بالغداة والعشى ؟ فكيف يدعو إلى أمر ، ثم يقف هذا الموقف ممن يأتون هذا الأمر ؟

وإذن فما معنى هذا النهى الموجه من الله سبحانه إلى النبى الكريم ؟

الواقع أن هذا النهى ، وإن كان فى ظاهره موجهاً إلى النبى — هو ردٌّ على

المشركين من زعماء قريش ، الذين كانوا يأخذون على النبيّ أنه لا يألف إلا هؤلاء الفقراء المستضعفين ، ولا يألفه إلا هؤلاء . . وأن مجلساً يضم مثل تلك الجماعة فى فقرها ، وضعفها ، ليأنف زعماء قريش أن يكون لهم مكان فيه . .

ولهذا جاء النهى إلى النبىّ الكريم ، ليقرع أسماع المشركين ، وليريهم أن محمداً لن يتخلى أبداً عن هؤلاء الفقراء الذين تزدرى أعينُهم ، وأنه إذا كان ألِفَ صحبةَ هؤلاء الفقراء وأنس بهم قبل أن يتلقى أمر ربه بشأنهم ــ فإنه الآن وقد جاءه من ربّه هذا النهى الذى يلبس صورة الأمر بالحفاظ على تلك الجماعة الفقيرة المؤمنة ، وملء يده منها ، وإعطائها وجهه كله ــ إنه لن يتخلّى أبداً عن تلك الجماعة ، ولو وقعت السماء على الأرض . . إنه لن يعصى أمر ربّه ، ولن يخرج عنه بحال أبداً . . هذا ماتعرفه قريش فيما عرفت من محمدٍ ، وأخذه بكل كلمة جاءته من ربه ، أو يقول أنها جاءته من ربه ، كما تزعم قريش .

إذن ، فهذا النهى هو كبْتٌ لقريش ، ولزعمائها خاصة ، واستخفاف بهم ، وأنهم أقلّ شأناً ، وأخفّ ميزاناً عند الله الذى يدعوهم محمد إليه ، وأن حساب النّاس فى هذا الدين الذى يدعو إليه ، ليس بجاههم وسلطانهم ، وأنسابهم ، وأحسابهم ، وإنما هو مائدة ممدودة من اللهِ لعباد الله ، فمن أخذ مكانه منها ، لم يكن لأحدٍ أن يزحزحه عنه . . إنه فى ساحة الله ، وعلى مائدة الله . . وعلى ماتطول يد الإنسان من هذه المائدة يكون حظه من الخير ، ومكانه من الله . .

وفى قوله تعالى : « ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين » ــ فى هذا بيان كاشف لحساب الناس عند الله ، وأنهم عنده بأعمالهم ، لا بأحسابهم وأموالهم . .

وهذا هو النبىّ الكريم ، حامل رسالة السماء ، ومبعوث ربّ العالمين ،

هو والناس عند الله فى ميزان العمل على سواء . . كلٌّ مجزىٌّ بعمله ، من إحسان أو إساءة . .

فهؤلاء الفقراء المستضعفون الذين يَدْعون ربهم بالغداة والعشىّ ، يرجون رحمته ، ويخشون عذابه ـ إنما يعملون لأنفسهم ، كلٌّ يطلب لها السلامة والنجاة ، فكيف يطردهم النبىّ ـ كما تتوهم قريش ـ من هذا الميدان الذى اختاروا العمل فيه ، طالبين النجاة من عذاب الله ، والفوز برضوانه ؟ إن النبىّ لا يحمل عنهم مايكون منهم من تقصير فى جانب الله ، إذا هم طُردوا من هذا المورد العذب الذى يتزودون منه فى طريقهم إلى الله . . فكيف يطردهم ؟ أيحمل عنهم وزرهم يوم القيامة ؟ إنهم محاسبون على أعمالهم ، وإنهم لمجزيّون عنها . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « ما عليك من حسابهم من شىء » أى إن النبىّ لن يُضارّ بما يحملون من سيئات ، إذ أن كلّ نفس تحمل ما كسبت . . والله سبحانه يقول : « وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » (١٨ : فاطر) . . « وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَىْءٍ » أى إنك لن تحمّلهم شيئاً من حسابك . . وإذن ، فدع هؤلاء يعملون لأنفسهم ، كما تعمل أنت لنفسك ، وإنه لمن الظلم أن يرفع أحد يدهم عن العمل الذى يريدون به وجه الله ، وحسن المآب إليه . . ولهذا جاء قوله تعالى : « فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ » ـ حكماً قاطعاً بالظلم على من يتصدّى لمن يؤمن بالله ، ويشغل قلبه ولسانه وجوارحه بذكره .

ولاشك أن المشركين من زعماء قريش إذ يرون هذا الحساب الذى بين النبىّ ـ صاحب الرسالة ـ وبين أضعف الناس شأناً ، وأنزلهم منزلة فى نظرهم ـ إنهم إذ يرون هذا الحساب ، يجدون أنه قائم على العدل والإحسان ، وأن الناس عند الله ـ حتى الأنبياء ـ بأعمالهم ، وليس بمالهم من رياسات دينية

أو مادية .. إنهم ليرون ذلك لو عقلوا .. وقد عقل كثير منهم ، وأسرع إلى الإسلام ، يأخذ لنفسه مكاناً مع السابقين الأولين إليه .

الآيات : (٥٣ ـ ٥٥)

« وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ » (٥٥)

التفسير : كان أكثر مادخل على زعماء قريش وسادتها الذين آثروا الكفر على الإيمان ، واستحبّوا العمى على الهدى ـ كان أكثر مادخل عليهم من دعوة الإسلام ، وصدّهم عنها ، أن سبقهم إليها جماعات ممن لم يكونوا أصحابَ سيادة أو رياسة فيهم ـ بل كانوا من الفقراء والمستضعفين والأرقّاء من الرجال والنساء ـ فأنف هؤلاء السادة أن ينضموا إلى ركب العبيد ، وحسبوا أن الدين والدنيا على سواء ، وأن من كان عزيزاً فى الدنيا ، فهو سيد وعزيز فى الدّين ، وبدَا لهؤلاء السادة أن ماجاء به محمدٌ ليس فيه مايرفع من مقام السادة ، أو حتى يحتفظ لهم بمكانهم الذى هم فيه ـ وإذن فزُهدهم فى هذا الدين ، وصرف وجوههم عنه هو الموقف ، الذى ينبغى عليهم أن يلتزموه، وأن يَدَعوهذا الدين للعبيد والإماء ، ومَن هو مثلُهم ضعفاً وفقراً ، فلن يزيدهم هذا الدين ، إلا فقراً وضعفاً ..

هكذا كان تقدير السادة والزعماء من مشركى قريش ، وهكذا كان تصورهم للرسالة الإسلامية ، وما تحمل من هدًى ونور .. وهذا ماحكاه القرآن عنهم

فى قوله تعالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ماسبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم » (١١ : الأحقاف) .

وقوله تعالى : « وكذلك فتنّا بعضهم ببعضٍ » هو بيان لهذا الموقف الذى وقفه سادة قريش وكبراؤها من دعوة الإسلام ، وأنهم إنما ضلّوا الطريق إلى الإيمان بالله بسبب أنّ جماعة من المستضعفين والفقراء قد سبقوهم إليه ، فقد كان ذلك فتنةً لهم ، وكان لسان حالهم يقول ماحكاه القرآن عنهم : « أهؤلاء مَنّ الله عليهم من بيننا ؟ » يقولونها تهكما وسخريةً . . إذ كيف يختار الله لدينه منهم من هم أنزل الناس منزلةً فيهم ؟

وقد ردّ الله عليهم بقوله : « أليس الله بأعلم بالشاكرين » .. فالله سبحانه وتعالى هو الذى اختار هؤلاء الذين سبقوا إلى الإسلام ، ودعاهم إلى مائدته ، وأقامهم فى الصفوف الأولى منها ، لِما علم سبحانه وتعالى من قبولهم لدعوته ، وشكرهم لفضله ونعمته . أما هؤلاء السادة المتكبرون ، فليسوا أهلاً لأن يُدْعَوا من الله ، ولا أن يكونوا فى السابقين إلى مائدة الإسلام ، والله سبحانه وتعالى يقول : « ولو عَلِم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتوَلَّوْا وهم معرضون » . (٢٣ : الأنفال) .

قوله تعالى : « وإذا جاءكَ الذينَ يُؤمِنُون بآياتنا فقل سَلامٌ عليكُمْ كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سُوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم » ـ هو بيان لوجه كريم من وجوه الدعوة الإسلامية ، وأنها لاتصدّ أحدًا يَرِد شريعتها ، ويريدُ الارتواء منها .. وهؤلاء الذين وقفوا من النبيّ ومن أصحابه هذا الموقف العِنادىّ العنيف ـ هؤلاء لن يُغلق الإسلام بابه دونهم ، ولن يقبض الله يَدَ رحمته عنهم .. بل هم حيث طرقوا باب الإسلام فُتح لهم على مصراعيه ، واستقبلتهم على عَتَبَاته رحمة الله ومغفرته ، فمحت كل ماعاق بهم من آثام وسيئات ، وإذا هم مواليدُ جُددٌ فى الإسلام ، يدخلونه وصفحات

كتابهم بيضاء لم يمسسها سوء .. وأنهم منذ اليوم ؛ هم الذين يُمْلُون ما يُكتب في هذه الصفحات ، من خير أو شر .

وفى قوله تعالى : « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا » استدعاء لأولئك الذين تخلّفوا عن الإسلام ، وحثٌّ لخطاهم على أن يَسْبقوا حتى لا يكونوا فى مؤخرة الركب .. وهذا هو السرّ فى التعبير بقوله تعالى « يؤمنون » الذى يدل على الحال المتجددة فى المستقبل الممتدّ ..

وفى قوله تعالى : « فقل سلام عليكم » هو التحية الطيبة المباركة التى يلقاهم بها الله على لسان رسوله ، وهم على عتبة الإسلام .. وفى هذا الترحيب بهم أنسٌ لهم ، وطمأنينة لمستقبلهم ، فهم فى أمن وسلام ، وفى خـــير وعافية : « سلام عليكم » .. أى سلام يشتمل عليكم ، ظاهراً وباطناً .

فإذا أنِسُوا لهذه التحية الكريمة ، تلقّوا تحيةً أعظم وأكرم .. « كَتَبَ ربّكم على نفسِه الرحمة » فهذه الرحمة التى أوجبها الله على نفسه ، رحمة منه وكرماً وفضلا ، هى التى تضفى على الداخلين فى الإسلام ، الأمنَ والسلام ، بالتجاوز عمّا اقترفوا من قبلُ من آثام .. فهم أبناء الإسلام منذ اليوم الذى دخلوا فيه ، ولا شىء عليهم مما اقترفوه من قبل .. « كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنّه غفورٌ رحيم » وهذا السوء الذى فعلوه بجهالة ، هو ما كان منهم من حرب على الإسلام ، وأذى للمسلمين ، الأمر الذى جعلهم يدخلون الإسلام وأشباح هذه المنكرات تَقُضّ مضاجعهم ، وتكاد تفسد عليهم حياتهم مع الدين الذى دخلوا فيه .. فكان قوله تعالى : « كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عَمِل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم » ـ كان هذا ردًّا لاعتبارهم ، وتصحيحاً لوجودهم ، وسَكَناً لنفوسهم ، وبردا وسلاما على قلوبهم .

قوله تعالى : « وكذلك نفصّل الآيات ولتستبينَ سبيلُ المجرمين » هو بيان لما تحمله دعوة الإسلام من آيات بينات ، وبيان مبين ، بحيث ينفضح على أضوائها أولئك الذين يسلكون طريقاً غير طريقها ، إذ يرى كل عاقل أنهم يمشون فى ظلام ، ويعيشون فى ضلال .

الآيات : (٥٦ ـ ٥٨)

« قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ قُلْ لَآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّى عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِنْدِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ » (٥٨)

التفسير : قوله تعالى : « قلْ إنى نُهيتُ أن أعبد الذين تدعون من دون الله » التفات إلى هؤلاء المشركين ، الذين أرادوا النبىّ على أن يطرد من اجتمع إليه من الفقراء والمستضعفين ، ثم ليتحدث بعد هذا إليهم هم ، إن كان له معهم حديث !

وقد أمر الله النبىّ أن يلقى هؤلاء المشركين بهذا القول الفصل فيما بينهم وبينه : « إنى نُهيت » أى تلقيت نهياً من ربى « أن أعبد الذين تدعون من دون الله » من أصنام ، أو ملائكة أو جنّ ، أو كواكب ، وما أشبه ذلك ..

وقوله تعالى : « قل لا أتبع أهواءكم » بيان لضلال هؤلاء المشركين ، وأنهم إنما يعبدون آلهة من صنعة أهوائهم ، ونزغات شياطينهم ، لا يقبلها عقل ، ولا يتعامل

معها عاقل .. وتكرار الأمر « قل » هو - كما قلنا - مزيد من عناية الله - سبحانه - بالرسول الكريم ، وإشعار له بأنه مأنوس برحمة الله ، إذ يضع سبحانه وتعالى على فمه كلماتِه ، وآياته ، ليلقَى بها المشركين ، ويفضح باطلهم ، ويكشف ضلالهم .

وقوله تعالى : « قد ضللتُ إذًا وما أنا من المهتدين » هو تتمة مقول القول ، فى قوله تعالى : « قل لا أتبع أهواءكم » لأن من يتبع أصحاب الهوى يضلّ ولا يهتدى أبدا . وأنتم أيها المشركون أصحاب هوًى وضلال ، فلو اتبعتكم كنتم مثلكم من الضالين ، وحاشا لله أن أفعل هذا ، وأن ألقى بنفسى إلى التهلكة .

وقوله تعالى : « قلْ إنى على بينة من ربّى » أى على أمر واضح مشرق من صلتى بربّى ومعرفتى به ، تلك المعرفة التى لايدخل عليها شك أو ريب ، ولا يلحقها وهن أو ضعف .. وحرف « على » هنا يفيد الاستعلاء والتمكن ، وهذا يعنى أن معرفة النبىّ بربّه معرفة كاملة ، تملأ القلب يقيناً واطمئناناً ، فلا يتحول عنها أبدا .

وقوله سبحانه : « وكذّبتم به » هو عطف على قوله تعالى : « إنى على بيّنة من ربى » من عطف الجمل .. أى إنى على معرفة بربّى وقد آمنت به ، وأنتم على ضلال وعمى فكذبتم به ، ولم تتخذوه إلهاً واحداً تعبدونه .

وقوله تعالى : « مَا عِنْدِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ » أى ليس فى يدىّ العذاب الذى تستعجلونه ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ » (٥٣ : النمل) .. وما حكاه سبحانه وتعالى على لسانهم فى قوله : « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » (٣٢ : الأنفال)

وقوله سبحانه « إنِ الحكم إلا لله » أى أن إلى الله سبحانه مرجعُ هذا الذى تستعجلون به من عذاب ، إن شاء عجّل لكم العذابَ ، وإن شاء أخره ، وإن شاء رحمكم وأخذ بكم إلى طريق الهدى .. أما أنا فلا أملك من هذا كله شيئاً .. « إن الحكم إلا لله .. » « يقصّ الحق » أى يقضى به ، « وهو خير الفاصلين » فما قضى به فهو الخير كله ، وهو العدل كله .

وقوله تعالى : « قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم » إشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم لو كان فى يده هذا المقترح الذى يقترحونه عليه ، ليكون آيةَ صدقِهِ عندهم ، لجاءهم به ، ولأرسل عليهم العذاب الذى طلبوه ، ولقضى الأمر بينه وبينهم ، ولم يعد ثَمّة جدال ، أو خلاف .. ولكن الأمر بيد الله ، وهو حكيم حليم ، لا يعجّل لكم ما تطلبون ، مما فيه هلاككم ، وقد اقتضت حكمته أن يمهلكم ، فلعل فى امتداد الزمن بكم ما يفسح المجال أمام الكثير منكم ، ليهتدى ، ويؤمن بالله ، ويفوز برضوانه ..

فكل يوم يمر بكم دون أن يأتيكم هذا العذاب الذى تطلبونه ، هو رحمة من الله بكم ، ودعوة مجدّدة منه سبحانه إليكم ، أن ترجعوا إليه ، وتؤمنوا به ، وتكونوا فى عباده المخلصين .. وهذه فرصتكم .. إن أفلتت منكم فلن تعود أبداً .

وقوله تعالى : « والله عليم بالظالمين » تهديد ووعيد لهؤلاء الذين أمهلهم الله ، ولم يعجل لهم العذاب ، ليصححوا عقيدتهم ، ويرجعوا إلى ربهم .. ولكن الظالمين ظلوا على عتوّهم ، وكفرهم ، وعنادهم .. والله عليم بهم ، وسيأخذهم بذنوبهم : « يومَ يَعَضُّ الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذتُ مع الرسول سبيلاً » ..

الآيات : (٥٩ ـ ٦٢)

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَاهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَاسِبِينَ » (٦٢)

التفسير : بدأت السورة بآيات فيها عرض لجلال الله ، وعظمة ملكه ، وبسطة سلطانه ، وسعة علمه ، ثم جاءت بعد ذلك بمواجهة النبي وقومه ، وخاصة المشركين منهم ، الذين أنفوا أن يستجيبوا للرسول ، لأنه بشر مثلهم ، وأبوا أن يدخلوا فى دين يجمعهم والأرقاء والفقراء على سواء . .

ثم تجىء الآيات بعد ذلك ، لتعرض جانباً من جلال الله وعظمته ، ليكون فى ذلك ذكرى لمن غفل عن الله ، ونسى ما ذُكّر به من قبل .

وقوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » الضمير فى « وعنده » يعود إلى الله سبحانه وتعالى ، حيث جاء لفظ الجلالة فى قوله تعالى : « والله عليم بالظالمين » .. الآية (٥٨) .

ومفاتح الغيب : مفاتيحه التى تُفتح بها خزائنه المودع فيها الغيب . .
والغيب : ما غاب عنا إدراكه بحواسنا أو بعقولنا.

والمعنى : أن الغيب المحجب عنا فى أطواء الزمان أو المكان ، هو مما استأثر الله ـ سبحانه ـ بعلمه .وأن ما يضمره هؤلاء الظالمون ، من شر ، وما يبيتونه من سوء ، هو واقع فى علم الله ، وسيحاسبون على كل صغيرة وكبيرة منه

والتعبير عن الغيب بأنه مودع فى خزائن ، وأن هذه الخزائن لها مفاتيح ؛ وأن هذه المفاتيح لا يعلمها إلا الله ـ فى هذا إشارة إلى أن الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، أبعد من أن ينُال ، أو أن يطلع عليه أحد ، إلا لمن أذن له الرحمن ، ممن اصطفاه من خلقه .

وفى هذا يقول سبحانه : « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ » (٢٦ ـ ٢٧ : الجن) .

وإظهار الرسول على الغيب ، هو إعلامه به من قِبَل الله تعالى ، بما يوحَى إليه من أنباء الغيب ، كما يقول سبحانه : « تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَـذَا » (٤٩ : هود) .

وقوله تعالى : « ويعلم ما فى البر والبحر » هو بيـان لبعض علم الله .. وتخصيص البر والبحر ، لأنهما مما يقعان تحت حواسنا ، وقوعاً دائماً متصلا .. ومع هذا فإنهما مما هو غيب عنا ، إذ أن كل ما نعلم من أمرهما هو قليل قليل إلى مالا نعلم .. ثم إن هذا العلم الذى نعلمه هو جهل بالنسبة لعلم الله ، الذى يعلم حقائق الأشياء ، وما أودع فيها من أسرار ، أما علمنا فهو واقف عند ظواهرها، لاينفذ إلى الصميم من أعماقها .

وقوله سبحانه : « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبةٍ فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس » هو تفصيل ، بعد تفصيلٍ ، بعد إجمال..فقد جاء علم الله عاماً شاملا : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » ثم جاء مفصلا .. « ويعلم مافى البر والبحر » ثم فصل هذا المفصل « وما تسقط من ورقةٍ إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس » إلا يعلمها ، وإلا هى « فى كتاب مبين » أى أن كل شىء وُجد أو سيوجد ، هو فى علمه منذ الأزل ، مسجل فى كتاب محفوظ ، لا يتغير ولا يتبدل : « ولا مبدل لكلمات الله » (٣٤ : الأنعام) والكتاب المبين ، هو الواضح ، المحكم ، المتمكن من كل شىء ... « وكلَّ شىء أحصيناه كتاباً » (٢٩ : النبأ) .

قوله تعالى : « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار » إشارة إلى نعمة النوم ، واليقظة ، وأن النوم أشبه بالموت ، حيث تسكن فيه الحواس ، وتتعطل ملكات الإنسان . . ونوم الإنسان ويقظته كل يوم ، فيه تذكير له بالموت والبعث ، إن كان مؤمناً ، وتصوير لهما إن كان شاكاً ، ومظاهرة للحجة عليه ، إن كان منكراً كافراً . .

وفى قوله تعالى : « ويعلم ماجرحتم بالنهار » بعد قوله تعالى« وهو الذى يتوفاكم بالليل » إمساك بالإنسان وهو فى حال النوم ، كميّت بين الأموات ، ووضعه أمام ما كسب فى حال يقظته ، قبل أن يحتويه النوم أو يمسكه الموت. . وتلك عملية يرى فيها الإنسان صورة مصغرة لما يكون عليه حسابه يوم القيامة ، وأنه ماهى إلا نومة كهذه النومة ، حتى يجد نفسه هو وما عمل ، بين يدى الله، للحساب والجزاء ، وللجنة أو النار . .

وفى هذا مايحمل الإنسان على أن يتدبر أمره ، ويراجع حسابه ، ويستعد لليوم العظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ..

وفى التعبير عن أعمال الناس (بالجرح) « ويعلم ماجرحتم بالنهار » إشارة إلى الأعمال السيئة ، وأنها عدوان على حرمات الله ، وجرح لها ، حتى لكأنها كائن حىّ ، يصاب بطعنة رمح ، أو ضربة سيف .. وإذ كانت كذلك فإنه لابد من قصاص ، كما يقول سبحانه : « والجروح قصاص » .

والسؤال الوارد هنا : إذا كان علم الله عامًّا شاملا لكل ما يعمل الإنسان من خير وشر ، فلم اقتصر به هنا على ما اكتسب الإنسان من سيئات ، وما اجترح من حُرمات ؟ .

والجواب على هذا ، هو أن سلامة الإنسان قائمة على تجنبه المعاثر ، ووقوفه على حدود الله .. فإذا كفّ يده عن اجتراح المحارم ، فقد فاز ونجا . ذلك أنه إذا خلّص نفسه من دواعى الإثم والشر ، استقامت طريقه على الحق والهدى ، وانطلق فى حرية إلى حيث أمر الله من خير وإحسان .

وقوله تعالى : « ثم يبعثكم فيه » الضمير المجرور بحرف الجر « فى » يعود إلى النهار .. « ويعلم ماجرحتم بالنهار .. ثم يبعثكم فيه » والمراد بالنهار ليس نهاراً بعينه، وإنما هو مطلق النهار ، حيث تكون فيه يقظة الإنسان والكائنات الحية .. وحيث تقع فيه كل أعمال الإنسان من خير أو شر .

وقوله : « ليُقضى أجلٌ مسمى » أى أن هذا البعث الذى يكون باليقظة من النوم إنما هو لاستيفاء الأجل الذى قدره الله للإنسان فى حياته الدنيا ..

وقوله تعالى : « ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون » أى أنه بعد استيفاء الأجل المقدور لكم ، يُرجعكم الله إليه بالموت ، ثم يبعثكم بعد الموت لتروْا أعمالكم ، وتحاسبوا عليها ..

قوله تعالى : « هو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حَفَظة » بيان لقدرة ، وهو أنه ـ سبحانه ـ بهذه القدرة ، قائم على عباده ، آخذ بنواصيهم ، لايملكون شيئاً معه من أنفسهم ، وأن عليهم حَفَظَة من عنده ، يكتبون مايفعلون ، ويحصون عليهم مايعملون . . « وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون ». (١٠ – ١٢ : الانفطار)

وقوله تعالى : « حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » مجيء الموت : هو حلول وقته ، بانتهاء عمر الإنسان .. فإذا انتهى أجل الإنسان ، أدّى رسل الله مهمتهم معه ، بانتزاع روحه ، دون إهمال أو تفريط . .

وقوله سبحانه : « ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحق . . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين » إشارة إلى أن الموت ليس هو نهاية الإنسان ، وإنما هو بداية مرحلة جديدة ، ونُقلة إلى عالم آخر ، حيث يبعث الناس ، ويردون إلى الله مولاهم الحق ، كما هو حق سبحانه فى ذاته ، وكما يراه المؤمنون والكافرون يومئذ . . حيث ينادي منادى الحق : « لمن الملك اليوم ؟ » فيكون جواب المخلوقات جميعها بصوت واحد : « لله الواحد القهار » .

الآيات : (٦٣ — ٦٥)

« قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ » (٦٥)

التفسير : وهذا مظهر آخر من مظاهر جلال الله وقدرته ، وبسطة سلطانه ، وسعة علمه . .

فهو سبحانه ، هو الذى يُرجَى لكشف الملمّات ، ويُدعى عند الشدائد . حيث تضل عن العقول كل تلك الخرافات التى يعبدها الضالون ، ويتعامل معها المشركون . .

وقوله تعالى : « من ينجيكم من ظلمات البر والبحر » ؟ .

استفهام تقريرى ، مطلوبٌ الجوابُ عليه ، ممن يدخلون فى مثل هذه التجربة القاسية ، التى لا يسلم منها إنسان ، فى جميع أحواله وظروفه . .

وفى قوله تعالى : « من ظلمات البر والبحر » إشارة إلى أن الشدائد التى تصيب الإنسان فى البر والبحر ، هى ظلمات تحجب عنه الرؤية ، وتعمّى عليه طريق النجاة ، فلا يجد إلا الاستسلام ، واللّجأ إلى الله .

والتضرع : التذلل والمسكنة . . والخُفية : التخافت ، والهمس . . وهذا ما يفعله الكافرون والمشركون ، خوفاً من أن يفتضح حالهم ، وذلك حين تكون الشدة الممسكة بهم غير قاهرة ، فإذا كانت الشدة مطبقة ضاغطة ، كان منهم الضّراعة والتذلل .. علانية وصراخاً . .

وفى قوله تعالى : « لئن أنجانا من هذه » ما يكشف عن تلك الطبائع المنكرة ، وهذه القلوب القاسية ، التى تأبى أن تخلص الإيمان ، حتى وهى فى مواجهة الموت ، فلا يَدْعون الله دعاء مَن هو حاضر فى نفوسهم ، مستولٍ على كيانهم ، بل يدعونه دعاء الغائب ، البعيد عنهم . . « لئن أنجانا » ولم يقولوا لئن أنجيتنا . . لأنهم لا يعرفونه ، ولا يعلمون أنه قريب منهم ، يسمع سرّهم ونجواهم .

ومع هذا ، فقد أوسع الله لهم فى باب رحمته ، فكشف عنهم الضرّ ، ودفع عنهم البلاء . . فلما اطمأنوا ، عادوا إلى ما كانوا عليه من شرك وكفر . . « قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون » .

وقوله سبحانه : « قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ » .

فالله الرحمٰن الرحيم ، هو منتقم شديد العقاب . . قادر على أن يبعث على هؤلاء المشركين المحادّين لله ورسوله ، صواعقَ مهلكة من السماء ، أو بحاراً مفرقة من الأرض ، أو أن يُلبسهم شيعاً ، أى يجعلهم أهواء متفرقة ، ومذاهب متقاتلة ، يضرب بعضهم بعضاً ، ويذيق بعضهم بأس بعض . .

وقوله تعالى : « أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا » أى يخالطكم شيعاً وفرقاً ، حتى ليكاد يلبس بعضكم بعضاً ، كما يلبس الجسد الثوب ، مع تفرقكم مشاعر وعواطف ونزعات . . وهذا هو البلاء ، أعظم البلاء ، يصاب به مجتمع ، يحويه مكان واحد ، وحياة واحدة . . وإنه لا نعمة أعظم من نعمة الألفة بين قلوب الجماعة ، تلك الألفة التى تجمعها على الحب والمودة والرحمة ، وفى هذا يقول الله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألَّفَ بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » .

وقوله تعالى : « انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ لعلهم يفقهون » . إلفات لكل ذى عقل أن ينظر إلى هذه الآيات التى تكشف عن جلال الله ، وقدرته ، وعلمه وحكمته ، والتى يجلّيها فى معارض شتّى ، بحيث يرَى منها كل ذى نظر ، وجهَ الحق ، ويتعرف طريقه إلى الله . . وما ذلك إلا لينتبه هؤلاء

الغافلون ، ويفقه أولئك الجاهلون . . لعلّ لَمْعَةً من لَمعَات الهدى والإيمان ، تضىء ظلام عقولهم ، وتكشف ضلالَ قلوبهم . .

الآيات : (٦٦ ـ ٦٧)

« وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » (٦٧)

التفسير : ومع هذه الآيات البينات ، وتلك المعارض المشرقة التى ترفعها لأعين الناس ، فإن كثيراً من الناس ضلّوا عنها ، وكفروا بها ، وأنكروا الواقع المحسوس الذى يُجابه حواسّهم من نورها السنىّ ، وأريجها العطِر .

وفى قوله تعالى : « وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ » تشنيع على هؤلاء المعاندين من زعماء قريش وساداتها . . وأنّهم إذ جحدوا الحقّ ، فقد جحدوا كذلك معه عاطفة القرابة والرحم . . وأنهم بَدَلاً من أن يكونوا إلى جانب النبىّ المبعوث منهم ، يَنصرونه ويشدّون أزره ـ كانوا حرْباً عليه ، وعلى من ظاهره ، وآمن به .

وفى كلمة « قومك » تسفيهٌ لهؤلاء القوم الذين لم يَسْتَنّوا مع النبىّ سنّتَهم فى الحياة التى يحيونْها ، بل لقد خرجوا عليها خروجاً فاضحاً . . ذلك أن من عاداتهم التى تكاد تكون طبيعة فيهم ، الانتصار للقريب ، والاستجابة لدعوته . . ومن مأثور أقوالهم فى هذا : « انصُرْ أخاك ظالماً أو مظلوماً » ومنه قول شاعرهم :

لا يَسألون أخاهم حين يَندُبُهم ... فى النائبات على ما قال برهانا

فكيف وداعيهم هو هـذا النبىّ ، الذى يدعوهم إلى ما فيه خيرهم

وسعادتهم . . « يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويُحِلُّ لهم الطيبات ، ويحرِّمُ عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصْرَهم والأغلالَ التى كانت عليهم » .

وقبل هذا وذاك ، هو يدعوهم إلى أن يرفعوا وجوههم إلى السماء ، وأن يرتفعوا بأنفسهم عن هذا الامتهان المهين ، وهم عاكفون على قطعة حجر ، أو خشب ، يعبدونها ، ويعفّرون وجوههم بالتراب بين يديها ؟

وقوله تعالى : « قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ » هو تهديد لهؤلاء المشركين بأن يُتْرَكوا ليد الضياع والهلاك ، بعد أن أدّى النبىّ رسالة الله إليهم ، فهم الذين جنَوْا على أنفسهم تلك الجناية التى أمسكت بهم على مواقع الشرك والضلال . . والنبىّ ليس وكيلاً عنهم ، بل هم راشدون يتولّوْن أمر أنفسهم ، ويُحاسبون على ما يقع منهم .

وقوله سبحانه : « لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » إما أن يكون من مقول القول الذى قاله النبىّ لهم ، وأسمعه إياهم ، وإما أن يكون من الله سبحانه ابتداء . .

والمعنى أن لكل أمر عاقبة ونهاية ، وسوف تعلمون أيها المشركون عاقبة أمركم ، وسوء مصيركم . . !

الآيات : (٦٨ ـ ٧٠)

« وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩) وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ

لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » (٧٠)

التفسير : بعد أن صرّف الله الآيات للناس ، وأبان لهم فيها معالم الطريق إليه ، فآمن مَن آمن ، وكفر من كفر ، أمر سبحانه النبيّ الكريم ، أن يخلُصَ بنفسه وبدينه من المشركين ، وألا يتحكك بهم ، حتى لا يسمع منهم ما يكره ، أو يرى منهم ما يسوء .

وإذ كان النبيّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حريصًا على هداية قومه ، وإذ كان بينه وبينهم هذه الرابطة من صلات القربى والمخالطة فى الحياة ، الأمر الذى يشق على النبيّ ويعنته ، إذا هو اعتزلهم عزلة كاملة ، وقطع ما بينه وبينهم من صلات ـ فإن الله سبحانه وتعالى قد قصر هذا الأمر للنبيّ باعتزال قومه والإعراض عنهم ، على الحال التى يخوضون فيها فى آيات الله ، ويتخذونها هزواً وسخرية ، ففى تلك الحال ينبغى على النبيّ ألاّ يخوض معهم فى هذا الحديث ، وألا يجادلهم فيما يخوضون فيه ، بل يترك هذا المجلس الذى هم فيه ، لأنهم على منكر ، وهو لا يستطيع أن يغير هذا المنكر بيده ، أو لسانه ، فليغيّره بقلبه . بتلك الصورة التى يريهم منها منطقاً عمليًا لما ينكره عليهم .. « وإذا رأيتَ الذين يخوضون فى آياتنا فأعرِضْ عنهم » . والخوض فى الحديث ، معناه إرسال القول جُزافاً ، بلا حساب ولا تقدير ، وذلك لا يكون إلا فى مجالس الاستهزاء والاستخفاف بالحديث الذى يُدار .

وليس الإعراض الذى يكون من النبيّ فى تلك الحالة ، هو إعراض دائم متصل أبداً ، وإنما هو إعراض موقوت بهذا المجلس ، وبكل مجلس يكون فيه

مثل هذا الخوض فى آيات الله من المشركين .. فإذا كان منهم بعد هذا مجلس يجرى فيه حديث جِدّ ، ووقار ، والتزام عقل ومنطق ، فلا بأس على النبىّ من أن يعود إلى الجلوس معهم ، وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « حتّى يخوضوا فى حديث غيره » أى فى حديث غير حديث الدّين الذى يُدْعَوْن إليه ، أو الدّين الذى هم فيه .. فإذا خاضوا فى أمور غير أمور الدّين ، مما يتصل بحياتهم الخاصة، من تجارة ، وحرب ، وسَلْم ، وغير ذلك، فإن الخوض هنا لا يمسّ الدّين ، ولا يجرح مشاعر النبىّ .. وإنه لا بأس على النبى من الجلوس معهم .

وقوله تعالى : « وإما يُنْسِيَنّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين» هو تنبيه للنبىّ ، وتحذير له من تلك المجالس ، التى تدور فيها أحاديث المشركين ، هازئة عابثة بالدين ، وأنه إذا كان النبىّ فى مجلس مع هؤلاء المشركين ، ثم جرى الحديث بينهم فى هذا الاتجاه ، ثم كان من النبىّ أناة واستماع ، طلباً لكلمة حق تجرى على لسان أحدهم ، أو التماساً لمدخل يَدخل به إلى الحديث معهم فيما هو حق وخير ، فإن هذا الموقف من النبىّ هو مما يدخل فى أمر الحظر الذي جاء فى قوله تعالى « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم » وأن هذا أيضاً مما يغفره الله للنبى ، ويتجاوز له عنه ، إذ كان ذلك عن سهو ونسيان ، لِمَا وقع فى نفسه من رجاء فى هداية القوم .. ولكن إذا ذَكَر النبىّ فى تلك الحال ما أمره الله به من الإعراض عنهم ، فليُعرضْ عنهم فى الحال ، وليأخذ نفسه من بينهم بلا مَهلٍ ، حتى لكأنه وقع تحت خطر يتهَدّده ، ويطلب النجاة منه . . وفى هذا إشعارٌ للنبىّ بأن مجالسة القوم ـ وهم فى تلك الحال ـ شر مستطير ،يجب أن يكون على ذِكرٍ منه دائماً، وعلى حَذَرمنه أبداً..

وفى قوله تعالى : « وإما ينسينك الشيطان » إلفات قوىّ للنبىّ ، لحراسة نفسه من هذا الخطر ، وتحريض شديد له على أن يكون على حذر دائماً من

هؤلاء القوم ، ومن مجالسهم ، التي لاتنضح بغير الشر والسوء ..

والشيطان لاسلطان له على النبيّ ، بل لاسلطان له على أيّ مؤمن صادق الإيمان ، كما يقول الله سبحانه : « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولّونه والذين هم به مشركون (٩٩ - ١٠٠ النحل) .

والباء فى « به » هنا للسببية ، أى أنهم أصبحوا مشركين بسبب متابعتهم للشيطان ، واستسلامهم لغواياته .

وفى نسبة هذا النسيان من النبيّ إلى الشيطان ، وإضافته إليه ، زيادة فى تقبيح هذه المجالس التي يخوض فيها المشركون فى آيات الله ، وأنها تحت سلطان الشيطان ، يمسك فيها زمام الموقف ، ويُجرى على ألسنة القوم مايتساقط منها من هزء وسخرية .. ومجلس هكذا يحضره الشيطان ، ويدير الحديث فيه ، لاينبغى للنبيّ أن يكون من شهوده ، فإن كان فيه لحظة - تحت أى ظرف - وجب أن ينتزع نفسه منه انتزاعاً .

وقوله تعالى : « وما على الذين يتّقون من حسابهم من شىء ولكن ذِكرى لعلهم يتقون » إشارة إلى أن مايقع من المشركين فى تلك المجالس الهازئة الهازلة من منكر ، لايمسّ المتقين بسوء ، ولا يحمّلهم شيئاً من أوزار هؤلاء القوم. ولكن تجنّب هذه المجالس هو حماية للمؤمنين من أن تصيبهم عدوى هذه الأحاديث ، وإن من الخير لهم ، والسلامة لدينهم ، أن يتّقوا هذه المجالس ، ويحذروها ..

وهكذا فى كل شر ، من قول أو عمل.. إنه واقع بأهله أولاً وقبلَ كل شىء ، ومايصيب غيرَهم منه ، لايخفف من آثاره السيئة الواقعة بهم ، بل إنه ليضاعف من إثمهم ، ويُضيف إلى جرمهم جُرماً .. ومايجب على المؤمنين فى تلك الحال

هو أن يعزلوا أنفسهم عن تلك المآثم ، وأن يتقوا الخطر الذى قد يصيبهم من مُداناتهما ..

وهذا الأمر المتوجّه به إلى النبىّ ، هو أمر عام ، متوجّه به إلى كلّ مؤمن ، وأنه إذا كان النبىّ - وهو مَن هو فى وَثاقه إيمانه ، وقوة يقينه ، وعِصمة ربّه له - مدعواً إلى تجنب هذه المجالس الآثمة ، خوفاً عليه فى نفسه ودينه ، فإن غيره من المؤمنين أولى بمحاذرة هذه المجالس ، واجتنابها ..

وقوله تعالى : « وَذَرِ الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرّتهم الحياة الدنيا » هو توكيد لهذا الأمر الذى أمر به النبيّ ، من اجتناب المشركين ، وقطع كل ما فى نفسه من أمل أو طمع فى هدايتهم ، بهذه اللقاءات التى يحرص على لقائهم فيها .. فإنهم ليسوا من أهل الدين ، ولا يُرجَى أن يكون لهم دين ، لأن دينهم الذى يملك عليهم نفوسَهم ، هو اللعب واللهو ، والعكوف على هذه الحياة الدنيا ، التى أعطوها كل وجودهم ، بحيث لاتتسع نفوسهم لشىء آخر غير هذه الدنيا ، وما فيها من لهو ولعب !

وليس معنى هذا أن يطوى النبىّ كتاب دعوته ، وأن يعتزل الناس والحياة ، إنما المطلوب منه هو أن يُذكّر بدعوته ، وأن يُبشّر وينذر ، وأن يُسمع النّاسَ جميعاً كلماتِ ربّه .. « وذكّرْ به » أى بالقرآن الذى معك ، مجرّد تذكير ، وليس للنبىّ أن يحمل الناس حملا عليه ، وأن يقطع أنفاسه بالجرى وراء مَن لا يستمع إليه ، ولا يستجيب له ..

وقوله تعالى : « وذكّرْ به أن تُبسَل نفسٌ بما كسبت ليس لها من دون الله ولىّ ولا شفيعٌ وإن تعدِلْ كلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ منها » أى أن دعوة النبىّ هى البلاغ ، والتذكير بيوم الحساب ، والتخويف من هذا الموقف الذى تُبسَل فيه كل نفسٍ بما كسبت ، أى تُعزَل وتُفرد ، ليس معها إلا ما كسبت من خير

أو شر . . والأصل فى الباسل ، أنه الكريه ، الخيف ، الذى يتجنبه الناس ، ومنه سمىّ الفارس الشجاع : باسلاً ، لأن المحاربين يتجنبونه ، ويصدّون عن لقائه، وفى هذا يقول عنترة :

فإذا ظُلمت فإن ظلمى باسلٌ مُرّ مذاقته كطعم العلقم

وقوله تعالى : « وإن تعدل كلّ عدل لا يؤخذْ منها » أى أن النفس ـ كل نفس ـ لا ينفعها إيمان ، ولا عمل يوم القيامة ، فهى فى دار حساب وجزاء ، وليست فى دار إيمان وعمل . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « يوم يأتى بعضُ آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبلُ أو كسبت فى إيمانها خيراً » (١٥٨ : الأنعام) والمراد ببعض آيات ربك ، هو ما يكون بين يدَى الساعة من علامات وإرهاصات .

وقوله تعالى : « أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شرابٌ من حميم وعذاب أليمٌ بما كانوا يكفرون » هو إمساك بخانق هؤلاء الذين أشركوا بالله، وعرضٌ لهم فى هذا الموقف المعظم على رؤوس الأشهاد ، والإشارة إليهم وهم فى قفص الاتهام : « أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا » من سيئات ، لا شىء معهم غيرها . . والباء هنا للإلصاق ، مثل قوله تعالى : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتُهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألَتْناهم من عملهم من شىء » (٢١ : الطور)

هؤلاء الذين أشركوا بالله ، وأفردوا ، بما كسبت أيديهم من آثام ، ووُضعوا موضع المساءلة والحساب ـ ما تكاد العيون تأخذهم ، وترى ما على وجوههم من غَبَرَة ترهقها قَتَرَة ، حتى يؤذّن مؤذّن الحق ، بالحكم الذى حَكَم عليهم به أحكم الحاكمين : « لهم شراب من حميم وعذابٌ أليم بما كانوا يكفرون » لا شىء لهم غير هذا ، فليذوقوه حميا وغسّاقاً . . فتلك هى عاقبة الكافرين .

والحميم : هو الماء الحار الذى اشتدّ غليانه ، ومنه الحمم ، وهى القطع الملتهبة من النار .

الآيات : (٧١ – ٧٣)

« قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ » (٧٣)

التفسير : فى هذا المعرض الذى يؤخذ فيه المشركون بشركهم ، حيث يُلقوْن فى جهنم ، ويصلَوْن نارها ، ويشربون حميمها ـ يتلفت المؤمنون إلى أنفسهم ، ويتلمسون طريق الخلاص من هذا المصير المشئوم ، فيلقاهم على أول الطريق ، النبىُّ الكريم ، بقول الله تعالى : « أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيرانَ له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا » .

والاستفهام هنا إنكارى ، ينكر فيه المؤمنون على أنفسهم أن يأخذوا طريق هؤلاء القوم الضالين ، الذين ساقهم الضلال إلى هذا المصير المشئوم ، وأن يتخلّوا عن هذا الطريق المستقيم الذى أقامهم الرسول عليه ، ليأخذوا وجهتهم فيه إلى رضوان الله ، وإلى جنات لهم فيها نعيم مقيم .

وإنه لخسران مبين، وسفه جهول،أن يرى المؤمن هذا الذى يلقاه المكذبون

بالله، من بلاء ونكال ثم يسلك طريقهم، ويتبع سبيلهم .. إنه بهذا يُردّ إلى الوراء، على وضع مقلوب: «ونُردُّ على أعقابنا» .. وليس ثمة عذر يقوم لهذه العودة إلى القهقرى، «بعد إذ هدانا الله» وأرانا الهدى مشرقاً وضيئاً، وأقامنا على الصراط المستقيم ..

أفبعد هذا ينتظم المؤمنين ركبٌ مع هؤلاء الضالين، الذين لم يعرفوا غير الظلام لوناً، ولا غير الضلال طريقاً؟

أنردّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، ونكون كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران، وله أصحاب يدعونه إلى الهدى، ويمدّون إليه أيديهم بحبل النجاة، فلا يستجيب لهم، ولا تعلق يدُه بحبالهم؟.

وفى قوله تعالى: «له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا» إشارة إلى أن المؤمنين هم دعاة هدى مع النبىّ، يحملون إلى الناس هذا الخير الذى بين أيديهم، ويُطعمونهم مما طعِموا منه .. إن ذلك أشبه بالزكاة المفروضة على المسلمين للفقراء والمساكين .. وهؤلاء المشركون هم فقراء ومساكين، يستحقون العطف والإحسان .. ولكن كثيراً منهم يموت على ضلاله وكفره، دون أن يمد يده إلى تلك اليد التى تقدم له مركب النجاة!

وقوله سبحانه: «قل إن هدى الله هو الهدى» يحتمل وجهين:

الوجه الأول: هو أنه وصف للقرآن الكريم، ولِمَا حمل من شريعة، وأنه هو هدى الله، وكل ماسواه باطل وضلال .. وهذا الوصف الذى وُصف به القرآن هو وصف لكل كتاب سماوىّ، ولكل شريعة سماوية ..

والوجه الآخر هو أن الهدى الذى يؤثّر أثره فى النفوس، فيستجيب المدعوون إليه ــ هو ما وقع فى نفوسٍ أراد الله لها الخير، ويسر لها السبيل إليه .. أما من لم يرد الله أن يهديه فلا هادى له أبداً .. وفى هذا يقولُ الله تعالى:

« فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ » (١٢٥ : الأنعام) ويقول سبحانه : « مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا » (١٧ : الكهف) ويقول سبحانه : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » (٥٦ : القصص)

وقوله تعالى : « وأمرنا لنسلم لرب العالمين » معطوف على مقول القول : « قل إن الهدى هدى الله وأُمِرنا لنُسْلِم لرب العالمين » .

ووجه آخر .. وهو أن يكون المراد بالواو فى قوله تعالى : « وأمرنا لنسلم لرب العالمين » واو الحال ، والجملة بعدها حال . .

وهذا الوجه يؤيد ما ذهبنا إليه فى فهمنا لقوله تعالى : « قل إن الهدى هدى الله » على الوجه الآخر ، بمعنى أن من أراد الله له الهدى اهتدى . ومع هذا فإن الله قد كلفنا أن نهتدى بهداه الذى ندعى إليه ، وأنّ كون الأمر كله لله لا يرفع عنا هذا التكليف ، ولا يعفينا من مسئولية الجمود على ما كنّا فيه من ضلال ، فهذا الإيمان الذى دخل قلوبنا هو من هدى الله لنا ، ومع هذا فهو من كسبنا . إذا استجبنا لأمر الله ، واستقمنا على ما دعانا إليه .

وقوله تعالى : « وأن أقيموا الصلاة واتقوه » معطوف على جملة « لنسلم لرب العالمين » .. أى أمرنا بأن نسلم لرب العالمين ، ونستجيب لدعوته ، وأن نقيم الصلاة ، وأن نتقيه ، ونتجنب محارمه ، ونلتزم حدوده ..

وفى عطف الأمر فى قوله تعالى : « وأن أقيموا الصلاة واتقوه » على الخبر فى قوله تعالى : « وأمرنا لنسلم لرب العالمين » إشارة إلى أن الخبر يتضمن الأمر والإلزام ، وأن قوله تعالى : « وأمرنا لنسلم » معناه : أسلموا لله رب العالمين .

والحكمة فى المخالفة بين المطلبين، مطلب الإسلام لله والإيمان به، ومطلب إقامة الصلاة وتقوى الله، إذ جاء المطلب الأول بصيغة المتكلم، على حين جاء المطلب الثانى فى صيغة المخاطَب ـ هى أن الإيمان بالله مطلوب من الإنسان أولاً أن يبحث عنه بنفسه، وأن يهتدى إليه بعقله، فإذا هو أصبح فى المؤمنين، كان مهيأ لأن يتلقى شريعة هذا الدين الذى آمن به، وأن يتعرف على ما ينبغى أن يؤديه لله الذى عرفه، وأسلم له . . من عبادات، وطاعات . . فكانت الصلاة بعينها، هى المطلوب الأول من المؤمن أن يؤديه لله، ويتصل به عن طريقه . . ثم كانت «التقوى» على إطلاقها، هى المطلوب الذى يجمع جميع الطاعات والعبادات، ومنها الصلاة، التى أفردت بالذكر، لعِظَم شأنها فى تحقيق التقوى .

وقوله تعالى : «وهو الذى إليه تحشرون» هو تذكير بالله، وبالموقف الذى يقفه الناس بين يديه يوم القيامة .

وقوله سبحانه : «وهو الذى خلق السموات والأرض بالحقِّ» عرض لقدرة الله وجلال عظمته، وأنه قادر على أن يبعث الناس بعد موتهم، ويحشرهم إليه، ويوفّيهم حسابهم عنده ..

وفى قوله تعالى : «بالحق» إشارة إلى أن هذا الخلق الذى خلقه الله من سماوات وأرض، وما فى السموات والأرض، وما هو غير السموات والأرض ـ كله خُلق بالحق، أى متلبساً بالحق .. كل ذرة فيه عن تقدير وعلم، وحكمة، وليس عن مصادفة عابثة أو هوى لاهٍ .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : «وما خلقنا السمواتِ والأرضَ وما بينهما لاعبين * ما خلقناهما إلا بالحق» (٣٨ـ ٣٩ : الدخان) وقوله سبحانه «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاتُرجعون * فتعالى الله الملك الحق ..» (١١٥ ــ ١١٦ المؤمنون) .

وقوله تعالى : « ويومَ يقول كن فيكون » إشارة إلى أن هذا الخلق الذى خلقه الله سبحانه ، كان عن أمره وتقديره ، وأن لاشىء يُعجزه ، وأن تقدير المخلوقات ، ومجيئها على صفاتها وأحوالها وأزمانها ، كل ذلك كان بالحق، وبالحساب ، وبالتقدير .

وقوله سبحانه : « قوله الحق وله الملك يومَ يُنفخ فى الصور » تقرير لهذه الحقيقة ، وأنه سبحانه حين يُنفخ فى الصور لم يكن هذا النفخ إلا عن أمره ، وقوله الحق لنافخ الصور : « أن انفخ فيه » وليس عن مصادفة عمياء .

وقوله تعالى : « عالم الغيب والشهادة الحكيم الخبير » عرض آخر لسعة علم الله ، وسلطان قدرته ، فهو « الحكيم » الذى لايصدر عنه إلا ما كان متلبساً بالحكمة ، قائماً على الحق ، « الخبير » الذى تقوم حكمته على علم شاملٍ بما هو حق وخير .

الآيات : (٧٤ — ٧٩)

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » (٧٩)

التفسير : فى هذه الآيات أمور :

أولًا : صلتها بالآيات التى قبلها .

فهنا قضية ، يُعرض فيها موقف الإنسان من الإيمان بالله ، وأن النّاس ليسوا سواء فى الانتفاع بما أودع الخالق فيهم من قوى العقل والإدراك ، للتهدِّى إلى الخالق والبحث عنه ، والإيمان به . .

وهناك فى الآيات السابقة مواقف للمشركين من الدعوة الإسلامية ، وتأبِّيهم عَلَيْها ، وإعراضهم عنها ، بعد أن جاءتهم بآياتها المشرقة ، وأقامت بين أيديهم شواهد ناطقة تشهد بوجود الله ، وتوقظ قلوبهم النائمة ، وتنبه عقولهم الغافلة ، إلى النظر إليه فى ضوء تلك الآيات البينات . .

فما أبعد الشّقة بين الموقفين ، وما أشد التباين بين الحالين !

وهنا إبراهيم ، الذى هو الأب الأكبر لهؤلاء المشركين من قريش ، والذين يدّعون ـ كذبًا ـ أنهم على دينه ، يطوفون بالبيت الذى طاف به ، ويعبدون الإله عبده أبوهم الأول ، إبراهيم عليه السلام .

وهناك هؤلاء المشركون من أبناء إبراهيم ، وتلك أصنامهم التى شوّهوا بها معالم البيت العتيق ، وأفسدوا بها الدّين الحنيف ، الذى عَبَدَ الله عليه فى هذا البيت ، الذى لا يزال قائمًا يشهد هذا السفه الذى هم فيه .

وهنا داع يدعو إلى الله ، هو إبراهيم عليه السلام ، ويقف من الأصنام وعبّادها هـذا الموقف الذى تتهاوى فيه الأصنام ، حين يفضحها بمنطقه ، قولًا ، وعملًا .

وهناك داع يدعو إلى الله ، بدعوة إبراهيم ، هو محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، ويقف من تلك الأصنام وقفة إبراهيم ، فيفضحها ويكشف ضعفها وعجزها ، ثم يدعها لتُدفن فى غياهب الضّياع .

ثانياً : « آزر » . . ومن يكون هذا الإنسان ؟ .

القرآن الكريم يقول : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر » .

ولكن المفسّرين يذهبون فى هذا الأب مذاهب شتّى .

فمن قائل : إن اسمه « تارَح » ومن قائل : إن آزر اسم جدّه ، أو عمّه ، والعمّ والجدّ يسميان أباً مجازاً ! !

وذهب بعضهم أن « آزر » اسم صنم ، وهذا القول ينسب إلى ابن عباس ، ، وقد فسّره الزمخشرى : أتعبد آزر ! منكراً عليه ذلك ! (أى أن إبراهيم ينكر على أبيه أن يعبد هذا الصنم آزر) .

وذهب آخرون إلى أنه وصف فى لغة قومه ، ومعناه المخطىء ، وقيل بل معناه : الأعوج .

وقيل معنى « آزر » الشيخ الهرم .

ويقول الزجاج : ليس بين النسّابين اختلاف أن اسم أبى إبراهيم « تارح » !

والذى دعا المفسرين إلى تلك المقولات ، هو ما جاء فى التوراة من نسبة إبراهيم إلى أبيه الذى تسميه التوراة « تارحاً » وقد اعتمدالمفسرون هذه النسبة وأخذوا بها ، وتأولوا لها ما جاء فى القرآن . . ولم تحدثهم أنفسهم بأن يتأولوا هذه النسبة التى جاءت فى التوراة كما تأولوها فى القرآن .. ولم تحدثهم أنفسهم بأن فى التوراة تحريفاً وتبديلا تناول كل شىء ، حتى العقيدة .. !

والذى ينبغى أن يكون عليه الأمر فى هذا الموقف ، هو الوقوف عند ماجاء به القرآن الكريم ، الذى يقول الله سبحانه وتعالى فيه : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » (٤٨ المائدة) فالقرآن هو الذى يهيمن على ما سبقه من كتب ، ولا تهيمن عليه ، وَيقضِى عليها ، ولا تقضى عليه . .

وقد جاء القرآن الكريم فى الحديث عن إبراهيم منسوباً إلى أبيه ، باسم هذا الأب ، وهو « آزر » : هكذا : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر». فكيف يجوز لقائل أن يقول فى هذه النسبة ، وفى مسمى هذا الاسم قولا ؟ إنه أبو إبراهيم بلا شك ، وإنّ اسمه « آزر » بلا ريب . . هكذا قال القرآن ، وهكذا يجب أن نقول .

وليس هذا فحسب ، فإن القرآن قد ذكر مواقف بين إبراهيم وأبيه هذا، فقال تعالى : « واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً * إذ قال لأبيه يا أبتِ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً » (٤١ — ٤٢ مريم).

وقال سبحانه على لسان إبراهيم : « واغفر لأبى إنه كان من الضالين » وقال جلّ شأنه : « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عَدُوٌّ لله تبرأ منه » (١١٤ : التوبة) فالجدل والحوار كان دائماً بين إبراهيم وأبيه ، وفى مواجهته ، وليس مع جده ، أو مع صنم !

وقد أثرنا هذه المسألة ، لأنها تمس الصميم من القرآن الكريم ، وتنبىء عن مدى صدقه ، وأنه تنزيل من العالمين ، كما يقول هو عن نفسه ، أو أنه من عمل « محمد » ومن تلقياته التى أخذها من أهل الكتاب وغيرهم ، كما يتخرص المتخرصون .

وهنا اختبار عملى لهذه القضية ، ومقطع من مقاطع القول فيها . .

فإما أن يكون آرز هو الاسم المعروف به أبو إبراهيم ، وفى ذلك حكم قاطع بأن القرآن هو كلام الله ، يقول الحق ، ويأتى بأنباء الغيب ، وإما ألا يكون « آزر » على غير هذا الوصف ، فيكون القرآن كما يقول فيه المكذبون به ، والكائدون له . .

وهذا أمر يمكن أن يحقق تاريخيا . . ولا أحسب أن اليهود تركوا هذه

المسألة دون أن يحققوها ، ولا أن المتربصين بالقرآن غفلوا عن هذا الخلاف الذى بينه وبين التوراة .. ولو أنهم وجدوا فى هذا مطمناً على القرآن لكان ذلك من أقوى حججهم عليه . وطمناتهم له ، الأمر الذى لم يقله اليهود ، الذين لم يتركوا قولا يقولونه فيه . ويفترونه عليه ، ولم يقله أحد من غير اليهود ، الذين رصدوا للقرآن ، وجعلوا يتصيدون كل سانحة من وهم أو خيال تسنح لهم فيه ..

ثالثاً : الطريق سلكه إبراهيم فى التعرف على الله . .

وهو الطريق الاستدلالى بالنظر فى ملكوت السموات والأرض .. وهو نفس الطريق الذى جاءت الرسالة الإسلامية به ، فى دعوتها إلى التعرف على الله والإيمان به ..

وقد سلك القرآن المنهج نفسه ، الذى تعرف به إبراهيم على الله ، فى دعوة المشركين إلى التعرف عليه . .

فكان أول ما لفت القرآن نظر المشركين إليه ، هو النظر إلى آلهتهم تلك التى يعبدونها ، من أصنام وأوثان، وأن يعيدوا النظر إليها مرة بعدمرة ، ليروا إن كانت تدفع عن نفسها ضراً ، أو إن كانت تسمع أو تعقل ما يناجيها به العابدون لها ، أو تستجيب لما يرجى منها من دفع ضر أو جلب خير .. !

وفى هذا يقول الله تعالى على لسان نبيه الكريم مخاطباً المشركين : « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ » (٧٣ : النحل) ويقول سبحانه : « وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً » (٢٢ : العنكبوت) ويقول سبحانه على لسان المشركين : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ » (٣ : الزمر)

وهكذا يلقاهم القرآن فى كل سبيل مع هذه الآلهة ، حتى ينفضح أمرها لهم ، وتزول مشاعر الهيبة والتوقير لها فى نفوسهم . . وهذا ما فعله إبراهيم إذ يقول لأبيه: « أتتخذ أصناماً آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين » وإذ يقول : « ياقوم إنى برىء مما تشركون » .

فإذا وهت هذه المشاعر ، وتقطعت تلك الأسباب التى بين المشركين وبين آلهتهم تلك ـ جاء القرآن إلى هؤلاء المشركين ليجيب على هذا السؤال الذى فرَضه هذا الفراغ الذى أصبحت فيه قلوبهم ، بعد أن تبخرت منها سحب الأصنام التى كانت مخيمة عليها . . وكان السُّؤال المفروض هو : وأين الإله الذى نعبده إذن ، إذا كانت أصنامنا هذه ليست آلهة أو شبه آلهة ؟ . .

ويجىء الجواب من القرآن الكريم بأن الله قريب منهم ، وما عليهم لكى ـ يروه ـ إلا أن ينظروا فى هذا الوجود ، وفيما فيه من مبدعات تدلّ على قدرة الخالق ، وتحدِّث عن سعة علمه ، وبسطة سلطانه ، وروعة حكمته .

والقرآن المكىّ يَكاد يكون كلّه معرضاً لآيات الله ، ودعوة مثيرة للعقول ، مُغرية لها بالنظر فى ملكوت السموات والأرض . . ولا نستشهد لهذا حيث آيات القرآن أكثر من أن تحصى فى هذا الأمر . . وفى سورة الأنعام هذه التى نحن بين يديها ، عشرات الآيات .

وقد كانت نظرة إبراهيم إلى الله قائمة على هذا الوجه الاستدلالىّ ، للتعرف على ربّه ، والإيمان به .

« وكذلك نُرِى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » أى نفتح نظره ، وعقله ، وقلبه ، على هذا الوجود ، ليتعرف إلى الله . . والملكوت ، هو الملك الخاضع لسلطان الله .

وقد وجّه إبراهيم نظره ، وعقله وقلبه ، إلى ملكوت السموات والأرض . .

فماذا رأى ؟ « فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا » أى كوكبا من تلك الكواكب السيارة ، كالزهرة مثلاً . . وقد رصد إبراهيم هذا الكوكب منذ أطلّ على هذا العالم من الأفق الشرقى ، وتبعه فى مسيره ، وكان كلما علا فى السماء وازداد ألقًا وإشراقًا ، ازداد إبراهيم به تعلقًا وشغفًا ، إذ حسبه أنه الكائن الأعلى ، القائم على هذا الوجود . . فلمّا هوى إلى الأفق الغربى خفق قلب إبراهيم خفقة الخوف على هذا الذى تصوّره إلهًا ، أن يهوى وراء هذا الأفق ، فلمّا هوى أخلى إبراهيم بصره ، وعقله ، وقلبه منه ، ونفض يديه من هذا الإله ، كما ينفض الحىّ يديه من ميت عزيز ، أودعه القبر ، وهال عليه التراب . . وقال : « لا أحب الآفلين » . . ! « فلمّا جنّ عليه الليل رأى القمر بازغًا قال هذا ربى » . . وتبعه فى مسيرته من الأفق إلى الأفق . . حتى إذا هوى إلى المغيب ، ودفن وراء الأفق الغربى ، كاد يؤرقه اليأس من أن يعثر على الإله المنشود ، وقال : « لئن لم يهدنى ربّى لأكوننّ من القوم الضّالّين » .

والسؤال هنا : كيف يطلب إبراهيم الهداية من ربّه ، وهو يبحث عنه ؟

والجواب : أن إبراهيم كان على يقين بأن لهذا الوجود ربًّا ، وأن لتلك المصنوعات صانعًا ، قادرًا ، مدبّرا . . ولكن من هو ؟ وأين هو ؟ وكيف هو ؟ هذا ما يبحث عنه إبراهيم . . وهذا ما أشار إليه قوله تعالى : « وكذلك نُرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » فهو يؤمن بحدسه ومشاعره أن لهذا الوجود إلهًا ، وهو فى بحثه هنا إنما ليعرف هذا الإله ، ويستيقنه . . وذلك قبل أن يختاره الله لرسالته . .

وسؤال آخر :

لماذا كان أوّل ما نظر إليه إبراهيم من ملكوت الله ، هو الكوكب ،

أى النجم ، ثم القمر ، ثم الشمس؟ ولِمَ لمْ يتجه نظره أولاً إلى الشمس إذ كانت أعظمَ مايواجه الإنسان من هذه المخلوقات ؟

والجواب . . أن وحشة الليل ، ورهبة ظلامه ، تجعل لأى لَمعة من لمعات الأنوار ، وقعاً على النفس ، وتأثيراً على المشاعر ، وليست كذلك النظرة إلى الشمس التى تكاد سطوة أضوائها ، تذهب بكل إحساس بوجودها !

وهذا مانراه فى نظر إبراهيم إلى هذا الكوكب أولا ، ثم إلى القمر ثانياً . . ذلك أن هذا الكوكب ، وهو نجم من تلك النجوم التى يتلألأ ضوؤها كلّما اشتدّ ظلام الليل ، وأطبقت حلكته ، هو فى تلك الحال أفعل فى النفس ، وأكثر إلفاتاً للنظر من القمر ، الذى يغمر نوره ما احتواه الليل كله . .

وإذ لم يَرَ إبراهيم فى ملكوت الليل ومايبزغ فيه من نجم أو قمر ـ إذ لم ير فى هذا الملكوت إلـهه الذى ينشده ، شَخَص ببصره إلى ملكوت النهار ، فرأى الشمس تبسط سلطانها عليه ، فعَلِقَ بها نظره ، واحتواها عقله وقلبه ، وقال : « هذا ربى . . هذا أكبر ! » . . ولكن الرّب الكبير لم يكن إلاَّ خُدعة خُدع لها إبراهيم ، حتى إذا أفلتْ ودّعها غير آسفٍ ، وأشرق قلبه بنور الإله الحق ، الإله الذى يسيّر هذه الكائنات ويصرّفها كيف شاءت إرادته ، واقتضت حكمته . . « فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون . . إنى وجهت وجْهىَ للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » .

وهكذا عرف إبراهيم ربّه ، وهكذا يعرف كل ذى عقل ربّه ، إذا هو نظر ، وفكّر ، وعقل . . !

الآيات : (٨٠ ـ ٨٢)

« وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَآ أَخَافُ

مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّآ أَنْ يَشَآءَ رَبِّى شَيْئًا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » (٨٢)

التفسير : وإذ يعرف إبراهيم ربّه ، ويملأ قلبَه من الإيمان به ، يقف من قومه مُسفِّهاً أحلامهم ، زارياً عليهم عبادَتهم لهذه الأحجار التى ينحتونها بأيديهم ، ثم يعبدونها ، ويَذِلّون بين يديها . . « أتعبدون ماتنحتون ؟ » (٩٥ : الصافات) .

« وحاجّه قومه » أى جادلوه فيما يقول فى شأن آلهتهم ، وفى الإله الذى يدعوهم إليه . . هو يريدهم على أن يَدَعوا هذه الأصنام ، ويعبدوا ربّ السموات والأرض ، وهم يريدونه على أن يعبدَ آلهتهم ، ويدع الإله الذى يعبده ، ويحذّرونه أن يتخذ غير هذه المعبودات معبوداً ، وإلاّ مسّه منها ضرّ ، وأصابه سوء .. فكان جوابه: « أتحاجّونّى فى الله وقد هدانِ ؟ » . إنه قد عرف الحق واستيقنه ، فكيف تقوم لهم حجة عنده، تَصْرفه عن هذا الإله ، الذى شهد آياته ، وعرف ماعرف ، من علمه ، وقدرته وحكمته . . ؟ ثم كيف يخاف هذه الأحجار الصّماء أن تصيبه بسوء . . إنها لاتملك شيئاً ، وإن شرًّا لن يصيبه منها ، إلاّ أن يكون مايصيبه هو مما أراد الله له ، وما أراد الله له فكلّه خيرٌ . . وكيف يخاف إبراهيم أحجاراً صمّاء ، على حين أنهم لايخافون إلهاً خالقاً رازقاً ، له ملك السماوات والأرض ؟ « وكيف أخافُ ماأشركتم ولاتخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزّل به عليكم سلطاناً ؟ فأىّ الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟ »

ويجيء قول الحق جلّ وعلا بالحكم الفصل في هذه القضية .. « الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمْن وهم مُهْتَدون » .

ولَبْسُ الإيمان بالظلم ، هو خلطه به .. والظلم هو الشرك بالله ، كما يقول سبحانه : « إن الشرك لظلم عظيم » : فالإيمان المصفّى من الشرك ، هو الإيمان الذى يقبله الله من أهله ، ويجزيهم عليه الجزاء الأوفى ، ويحلهم فى أمن وسلام ، يوم يكون الكافرون فى فزع وكرب وبلاء . .

الآيات : (٨٣ ـ ٨٧)

« وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ » (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (٨٧)

التفسير : قوله تعالى « وتلك حُجَّتنا آتيناها إبراهيم على قومه » .. الإشارة هنا إلى الحجة ، أى هذه حجتنا ، والمراد بالحجة ماملأ الله به قلبَ إبراهيم من إيمان ، بما أراه ـ سبحانه ـ فى ملكوت السموات والأرض ، من دلائل القدرة الإلهية ، وسلطانها القوىّ الممسك بكل ذرة فى هذا الوجود .. وبهذا الإيمان وقف إبراهيم وحده ، فى وجه هذا الكفر الذى طوى تحت جناحيه مجتمعه كلَّه الذى يعيش فيه .. ومع هذا فإنه بالحق الذى يملأ كيانه ، قد أخرس كل

ناطق ، وأفحم كل منطيق ، وسقطت بين يدى حجته الدامغة كل مقولة لملحد ، وكل حجة لمشرك ، وبهذا استحق إبراهيم أن يلقى من ربه هذا التكريم ، وأن يمدحه هذا النعت العظيم بقوله سبحانه : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » (١٢٠ : النحل) .

فهو أمة وحده ، ومجتمعه أشبه بفرد واحد إزاء هذه الأمة العظيمة ، أو هو الأمة ، وقومه لاشىء ، إذ كان هو الإنسان الوحيد فيها ، الذى يحمل عقل الإنسان وينتفع به .

وقوله تعالى : « نرفع درجاتٍ من نشاء إنَّ ربك حكيم عليم » هو تنبيه إلى أن هذا الذى كان عليه إبراهيم من قوة الإيمان ، ووثاقة اليقين ، هو من فضل الله ، يضعه حيث يشاء .

وفى قوله سبحانه : « إن ربّك حكيم عليم » التفاتٌ من رب كريم إلى النبىّ الكريم ، وقد نازعته نفسه ، وهفت به أشواقه إلى فضل الله وإحسانه ، الذى رأى آثارَه فى إبراهيم عليه السلام . . فجاء قوله سبحانه : « إن ربّك » ليشعر النبى أنه فى ضيافة ربه ، وكفى ما يلقاه الضيف الذى ينزل فى ضيافة ربّ العالمين . . « الحكيم » فى تقدير الأمور « العليم » بعباده ، وبمن هم أهل لمزيد فضله ، وعظيم إحسانه .

ومن فضل الله على إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن بارك عليه فى ذريته ، وجعل من نسله الأنبياء والمرسلين . .

« ووهبنا لَهُ إسحٰق ويعقوبَ كلاًّ هدينا ، ونوحاً هدينا من قبلُ ، ومن ذرِّيته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزى المحسنين » . . فهذا هو جزاء المحسنين ، وتلك هى عاقبة الإحسان ، تمتد آثاره

إلى صاحبه ، وإلى من يتصل بصاحبه ، من أهل وولد .. كالشجرة الطيبة تؤتى أكلها كل حين بإذن ربّها ، وهذا مايشير إليه قوله تعالى على لسان العبد الصالح لموسى ، عليهما السلام : «وكان أبوهما صالحًا فأرادَ ربّك أن يبلغَا أشُدَّهُمَا ويستخرجا كنزهُمَا رحمةً من ربك » (٨٢ : الكهف) .

وفى الجمع بين نوح وإبراهيم إشارة إلى أنهما الأبوان لهؤلاء الأنبياء ، كما يقول سبحانه : « ولقد أرسلنا نُوحًا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوّة والكتاب » (٢٦ : الحديد) .

وقوله تعالى : « وزكريّا ويحيى وعيسى وإلياس كلٌّ من الصّالحين * وإسماعيل والْيَسَعَ ويونس ولوطًا وكلاًّ فضّلنا على العالمين » .. معطوف على قوله تعالى : « ومن ذريته » أى أن هؤلاء المصطَفيْن من عباد الله ، هم من ذريّة هذين النبيين الكريمين : نوح وإبراهيم ، إذ كان من هؤلاء الأنبياء من ليس من ذرية إبراهيم كلوط مثلا .

وقوله تعالى : « وكُلاًّ فضّلنا على العالمين » أى كلّ واحد من هؤلاء فُضِّل على عالمه الذى كان يعيش فيه ، إذ كان رسولَ الله المبعوث لهداية عالمه هذا ، وهو بهذه الصفة صفوة هذا العالم ، والإنسانُ المتخيرّ لرسالة السماء .

وقوله تعالى : « ومن آبائهم وذرِّياتهم وإخوانهم » إشارة إلى أن هؤلاء الذين اختصهم الله بهذا الذكر ، ليسوا هم وحدهم الذين شملهم فضل الله ، ومسّتهم رحمته ، بل إن مِن آباء هؤلاء وأبنائهم وإخوانهم من شمله هذا الفضل ، ومسّته تلك الرحمة .. سواء مَن كان منهم نبيًّا أو رسولا ، أو عبدًا من عباد الله الصالحين .. وحسب ذريّة هؤلاء الذين لم يُذكروا هنا ـ حسبهم شرفًا وذِكرًا أن يكون منهم خاتم النبيين ، محمد صلوات الله وسلامه عليه .. فهو من ذرية إسماعيل ، ومن حفدة إبراهيم .

وقوله سبحانه وتعالى . « واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم » هو معطوف على محذوف ، يفهم من سياق النظم فى قوله تعالى : « ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم »والتقدير : ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم من ألحقناهم بهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم .

وأمر هنا نحب أن نقف عنده ونلتفت إليه :

وهو أن الترتيب الزمنى لم يكن هو الأساس الذى قام عليه النظم القرآنى فى ذكر هؤلاء الأنبياء ، من ذرية نوح وإبراهيم .

والملحظ الذى نود أن نشير إليه ، هو أن إسماعيل لم يُذكر مع إسحق ، مع أنهما وَلَدا إبراهيم ، لم يكن له ولد غيرهما ، ومنهما كانت جميع ذريته ، وإسماعيل هو البكر ، ووُلد له بعده إسحق .

هذه حقيقة لاخلاف عليها عند أهل الكتاب، من يهود ونصارى ، كما أنها حقيقة مقررة فى القرآن الكريم .. فلمَ لم يجىء النظم القرآنى هكذا :« ووهبنا له إسماعيل وإسحق ويعقوب .. » ؟

ولا جواب لهذا إلاّ أنه كلام رب العالمين ، وأنه لو كان من عمل بشر لما جاء هكذا فى النظم القرآنى ، بل لالتزم فيه واضعه الترتيب الزمنىّ . . أما « محمد » فلو أن هذا الكلام كان من وضعه ، لكان أولَ ما يعمله هو أن يبدأ بإسماعيل ، لأنه أبوه . . أولاً ، ولأنه أسبق ميلاداً من إسحق . . ثانياً !

أليس فى هذا عبرة لمعتبر ؟ أليس فى هذا إخراسٌ لكل مقولة تُقال فى القرآن الكريم ، إنه من قول بشر ؟ وبلى ، ذلك هُدَى الله يهدى به من يشاء من عباده . . !

الآيات : (٨٨ ـ ٩٠)

« ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ » (٩٠)

التفسير : قوله تعالى : « ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده » الإشارة هنا إلى هذا الفضل الذى فَضَل الله به تعالى على إبراهيم ، ومن اجتباهم الله من ذريته ، وأن ذلك لم يكن إلا من هداية الله لهم ، وشرح صدورهم للإيمان به ، ولولا ذلك لما كانوا من المهتدين .

وقوله سبحانه : « ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون » إنكار للشرك ، ووعيد للمشركين ، وأنه مما يجب على الإنسان العاقل أن يحذره كما يحذر النارَ التى تمد ألسنتها لتعلَقَ به، وأن هؤلاء المكرمين من عباد الله لم ينالوا هذه المنزلة إلا بالإيمان بالله ، ولو أنهم كانوا من المشركين لما نالوا شيئاً من هذا، ولكانوا من الخاسرين .

وهذا يعنى أن الهدى وإن كان من الله الذى يهدى به من يشاء من عباده ، فإن ذلك لايُعفى الإنسانَ من أن يطلب الهدى ، ويلتمس مواقعه ، كما يطلب تحصيلَ الرزق ويلتمس وجوهه ، وألاّ يُسْلِم نفسه إلى التواكل والاستنامة ، الأمر الذى لاترضاه البهائم لنفسها ، ولا تتخذه موقفاً لها فى الحياة ،وإلا هلكت، وماتت جوعاً ، مع أن الله سبحانه وتعالى ، كَفَل لها رزقها ، وضمن لها

معاشها ، إذ يقول جل شأنه : « وما من دابة فى الأرض إلاّ على الله رزقها » (٦ : هود)

فالموقف السلبى أو العنادىّ من سنن الله ، هو الذى يُخرج الكائن الحىّ - بل وغير الحىّ - عن طبيعته ، وفى هذا ضياعه ، وفساد أمره .

وهؤلاء رسل الله ، والمصطَفَوْن من عباده .. إنهم لو أهملوا عقولهم، وعطّلوا ملكاتِهم ، لما فتح الله لهم طريق الهداية ، ولما يسّر لهم التعرف إليه، ولكنهم أخذوا بالوسائل الموصلة إلى الهدى ، فأخذ الله بنواصيهم إليه ، ومكّن لهم من الإيمان .. ولو أنهم كانوا على مثل هذا الموقف الذى وقفه ويقفه المشركون والكافرون، لكانوا فى مربط الشرك والكفر ، ولضلوا وضل عنهم الطريق إلى الله ، وإلى صراطه المستقيم .

وفى قوله تعالى : « ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون » ، وفى تعدية الفعل « حبط » بحرف الجرّ « عن » وهو فعل لازم لايتعدى - فى هذا إشارة إلى أن الأعمال التى يعملها الإنسان من شأنها أن تكون درعاً يحميه ، ووقاية يتقى بها ضربات الحياة ، أمّا أعمال المشركين فإنها سراب خادع ، يتخلّى عنهم وقت الحاجة والشدة ، وهذا هو السرّ فى تضمين الفعل « حبط » معنى الفعل : تخلى ، أو ذهب ، أو غاب .. ونحو هذا .

وقوله تعالى : « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة » .. الإشارة هنا إلى هؤلاء الأنبياء والرسل الذين ذُكروا فى الآيات السابقة ، فبعضهم آتاه الله الكتاب ، فكان رسولا بهذا الكتاب الذى بعثه الله به ، وبيّن فيه أحكام شريعته .. وبعضهم أوتى الملك والحُكم ، وهو نعمة من نعم الله ، وسلطان مبين يقيم به - من وفّقه الله - ميزان العدل والحق بين الناس ، فيهدى ضالّهم ويقوّم سفيههم ، ويحفظ أمنهم وسلامتهم . . وتلك رسالة لها خطرها

وأثرها فى إصلاح المجتمع الإنسانى ، الأمر الذى جاءت بهوله رسالات السماء ..
ولهذا كان ذلك مما وصّى به الله سبحانه وتعالى نبيّه داود عليه السلام فى قوله :
« يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ . إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ » (٢٦ : ص) ..
وهذا ما يشير إليه قوله تعالى فى اصطفائه طالوت ملكاً ، إذ يقول سبحانه :
« إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ » (٢٤٧ : البقرة) .

وبعض هؤلاء المصطفَيْن آتاه الله النبوة ، بلا كتاب ، ولا مُلك ، وإنما هى نور سماوى تشرق به نفس النبىّ ، فيكون فى الناس منارة هدى ، ومَعْلماً من معالم الخير ، يتمثله الناس ، ويتأسّوْن به .

وفى ترتيب هذه النعم على هذا الوجه : الكتاب . . والحكم . . والنبوة ، إشارة إلى مابينها من تفاوت وتفاضل . . فالرسول ، صاحب رسالة سماوية ، يعالج بها أرواح الناس ، ويَطِبّ لعللهم النفسية .. والملِك صاحب رسالة دنيوية ، يعالج بها شئون الناس فى الحياة ، ويقيمهم على صراط مستقيم ، فهو بهذا الوصف ـ مكمل لرسالة الرسول ، ومطبّق للقانون السماوى الذى جاء به الرسول . والنبىّ ـ بلا رسالة ، ولا حكم ـ هو « صيدلية » يأخذ منها من يشاء الدواء لروحه وجسده ، معاً ، بالعبرة والعظة ، فيما يرى من هذا المَثَل الكريم للإنسان الكريم . .

وقوله تعالى : « فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين » ..

الإشارة هنا بهؤلاء مراد بها مشركو قريش .. والضمير فى « بها » يعود إلى تلك الآيات والنعم التى حملها أنبياء الله ، والتى حمل مثلها محمد صلوات الله وسلامه عليه إلى هؤلاء المشركين .. والمعنى ، فإن يكفر هؤلاء المشركون بمحمد وبما بين يديه من آيات الله ، فقد وكّل الله بها قوماً ، يؤمنون بها ، ويدافعون عنها ، ويحرسونها من كل عدوان .. فهم وكلاء الله وأمناؤه عليها ـ وهؤلاء هم الطليعة الأولى من المؤمنين ، من المهاجرين والأنصار ، ثم هم كل من يدخل فى الإسلام إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » والذين هدى الله : هم الذين سبقوا إلى الإسلام ، وكانوا درعاً حصينة له .. والأمر فى قوله تعالى : « فبهداهم اقتده » متوجه إلى كل من لم يستجب لدعوة الإسلام ، ولم يكن فى هذا الركب الميمون الذى استقبل فجر الإسلام ، واكتحل بنور الله .. وهم الذين أشار إليهم الله سبحانه بقوله « فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين » ، فمطلوب من كل إنسان يريد الخير ، أن يهتدى بهؤلاء الذين هداهم الله .

وهذا الفهم الذى فهمنا عليه الآية الكريمة ، هو الذى وقع فى إدراكنا الشخصى ، وهو فهم لم نجد من المفسرين من التفت إليه !

والذى عليه إجماع المفسّرين ، هو أن الأمر فى قوله تعالى : « فبهداهم اقتده » موجّه إلى النبى الكريم ، وأن الذين هداهم الله فى قوله تعالى . « أولئك الذين هدى الله » هم مَن ذكرهم الله من الأنبياء والرسل فى الآيات السابقة .

ولهذا كان خروج هؤلاء المفسرين من الاعتراض الذى استقبلهم به من يقول : كيف يُدْعى النبىّ إلى الاقتداء بمن سبقه من أنبياء ورسل ، وهو إمامهم وقدوتهم؟ ـ كان خروجهم من هذا ضيّقاً حَرَجاً ، ومقولاتهم فيه متهافتة مضطربة ..

وقوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً » هو التفات للنبى الكريم من الله سبحانه وتعالى ، ودعوة له أن يلقى قومه الذين دُعوا إلى الاقتداء بمن سبقهم

من إخوانهم إلى الإسلام ، وأن يحثهم على أن يسرعوا ليلحقوا بهم ، وليدخلوا فى دين الله مع الداخلين فيه ، وذلك أمر لا يتكلفون له مالا ، لأن ما مع النبىّ من كتاب ، لا يباع ، وإنما هو ذكرى وموعظة للعالمين ، أى للناس جميعاً . . قريبهم وبعيدهم ، على السواء « إن هو إلا ذكرى للعالمين » .

الآيتان : (٩١ — ٩٢)

« وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » (٩٢)

التفسير : وهنا لا نلتقى مع المفسرين أيضاً فيما ذهبوا إليه من أن قوله تعالى : « وما قدروا الله حقّ قدره » هو موجه إلى اليهود . . ويحكون لذلك قصة ، مضمونها : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، سأل حَبراً من أحبار اليهود ، يقال له مالك بن الصّيف ، فقال : « أُنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل تجد فيها أن الله يّبغض الحبرَ السمين ؟ فأنت الحبر السمين ! قد سمنت مما يطعمك اليهود ! » فغضب اليهودى ، وقال : « ما أنزل الله على بشر من شىء » ! فكان قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره » ردًّا على هذا القول المنكَر . . ونستبعد هذا الخبر من وجوه :

أولا : أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن قد التقى باليهود لقاء مواجهاً

وقت نزول هذه السورة ، المجمع على أنها مكية .. ويقوّى من هذا الإجماع على مكيتها ، أن اليهود لم يُواجَهوا فيها مواجهة صريحة متحدّية .

وثانياً : أن النبيّ أعفّ وأكرم من أن يجابه حَبراً ، هذه المجابهة ، التى لاتكشف عن غرض إلا سبّ هذا الحبر ، وحَقْره ، وما كان النبيّ سبّاباً ولا لعّاناً ، ولا فاحشاً ، ولا متفحشاً ، بل كان فى جميع أحواله على هذا الوصف الكريم الذى وصفه الله به : « وإنّكَ لَعلى خُلق عظيم » .

ثالثاً : جاء فى الآية : « وعُلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم » .. واليهود الذين عاصروا النبيّ لم يُعلّموا ما لَم يعلموا هم ولا آباؤهم .. بل كانوا أسوأ حالاً ، وأكثر غباء وجهلاً مما كان عليه آباؤهم ، حين واجههم القرآن .

ورابعاً : غير مستساغ عقلاً أن يقول اليهود مثل هذا القول ، وأن يقوله حَبْرٌ منهم ، وبين أيديهم التوراة التى لا يختلفون أنها نزلت على موسى ، بل وبين أيديهم أسفار أنبياء كثيرين ضمتها التوراة ، والتى أُطلق عليها « العهد القديم » .. ثم كيف يقول الحبر هذا القول والرسول الكريم يسأله بحق الذى أنزل التوراة على موسى ؟

والذى نطمئن إليه فى فهم هذه الآية ، أن المخاطبين بها هم هؤلاء المشركون من أهل مكة .

وأن الله سبحانه وتعالى ينكر عليهم قولهم : « ما أنزل الله على بشر من شىء » إذ كان ذلك من مقولاتهم التى يَعْذِرون بها لأنفسهم فى انصرافهم عن النبيّ وتكذيبهم له ، كما يقول الله تعالى عنهم : « أَبَشَرًا منّا واحداً نتبعه ؟ إنا إذاً لفى ضلال وسُعُر » (٢٤ : القمر) وقوله سبحانه : « ومامنع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا؟ » (٩٤ :الإسراء) .

فهؤلاء المشركون الذين ينكرون أن يُنزِّل الله على بشرٍ هَدْياً من السماء يهديهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم ـ هؤلاء لم يَقْدُرُوا الله حق قدره ، ولم ينظروا إلى آثار رحمته ، فيما يسوق الله سبحانه إلى عباده من نعمٍ وما يحفّهم به من ألطاف ، ينعمون فيها ، ويتمتعون بها ، فكيف ينكرون على الله أن يسوق إلى عقولهم وقلوبهم ، من رَحَماته ، مايضىء ظلامها ويغسل أدرانها .. ؟

وفى قوله تعالى : « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدًى للنّاس » تحريض المشركين أن يكونوا أهل كتاب ، مثل هؤلاء اليهود الذين كانوا يحسدونهم على أنهم أهل كتاب ، وأصحاب شريعة ، وأنهم كانوا يتمنّوْن قبلَ بعثة النبيّ أن يكون لهم كتاب سماوى، كما يقول تعالى على لسانهم : « لو أنّا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم » (١٥٧ : الأنعام) أى لكنا أهدى من هؤلاء اليهود .

وفى قوله تعالى : « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً » هو إشارة من بعيد إلى اليهود ، بهذا الالتفات إليهم فى هذه المناسبة ، وإرهاص بما سيلقاهم به النبيّ بعد هذا من آيات الله ، التى تفضح مخازيهم ، وتكشف فساد عقيدتهم .. وقد قُرِىء : « يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً » .

والقراطيس جمع قرطاس ، وهو الورقة .. إذ كان اليهود لايتعاملون ولا يعملون بالكتاب الذى بين أيديهم ، ولا يعرضونه على الناس كما هو ، بل يعرضون منه قراطيس ، فيها مايوافق أهواءهم ، ويخفون الكثير مما لا يشتهون ..

وقوله تعالى : « وعُلِّمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم » هو خطاب لهؤلاء المشركين من العرب ، فقد جاءهم الرسول الكريم بعلم جديد ، أذاعه فيهم ، ونشره عليهم ، فيما يتصل بالألوهية ؛ وما ينبغى لها من جلال وتفرد بالوجود .. وقد عرف المشركون هذا ، وكانوا يسمعونه ويردّدونه ، وإن كانوا لا يؤمنون به ..

فهم ـ مع هذا العلم ـ لاعذر لهم فى أن لم يؤمنوا بالله ، بعد أن أراهم الرسول الكريم الطريق إليه ، وهذا علم جديد قد جاء إلى العرب ، ولم يكن لآبائهم شىء منه .

وقوله تعالى : « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » هو دعوة للنبىّ أن يحدّث هؤلاء المشركين عن الله ، وأن يكشف لهم الطريق إليه ..أى قل : « هذا هو الله الذى أدعوكم إليه ، فإن آمنوا فقد اهتدوا ، وإن تولّوا فإنما هم فى ضلال، يخوضون فيه خوضاً .. فذرهم فى خوضهم يلعبون .

وقوله تعالى : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه » هو ردّ على القائلين : « ما أنزل الله على بشرٍ من شىء » فجاء تكذيب الله لهم ، وردّه عليهم بقوله : « وهذا كتاب أنزلناه » أى القرآن وهو كتاب « مبارك » فيه رحمة وهدى وخيرٌ لمن آمن به ، واهتدى بهديه . . وهو « مصدقُ الذى بين يديه » من كتب سبقته ، وهما التوراة والإنجيل .

وقوله تعالى : « لتنذر أم القرى ومن حولها » أم القرى هى مكة ، وهى منارة الإسلام ، ومتوجه كل مسلم فى صلاته وحَجّه .. وهى بهذه المثابة أمّ بلاد الإسلام كلها ، ومركز دائرتها ، وهكذا تكون على هذا الوصف أبداً .

وقوله تعالى : « والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون » .

الضمير فى به ، يعود إلى هذا الكتاب المبارك الذى أنزله الله ، وهو القرآن. وخُصّ الذين يؤمنون بالآخرة ، بالإيمان به ، لأن من لا يؤمن بالآخرة ، وما بعد هذه الدنيا من بعث وحساب ، وثواب وعقاب ، لا يؤمن بالله ، ولا بكتابِ الله ، ولا يوقّر حرماته ، ولا يقع فى قلبه خشية من منكر ..

وخُصّت الصلاة والمحافظة عليها بالذكر ، لأنها أبرز ملامح المؤمنين ، وأوثقها صلة بين المؤمن وربه .

الآيات : (٩٣ — ٩٤)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ » (٩٤)

التفسير : فى قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » اتهام للقائلين بهذه المقولة ، فى تصورهم للألوهية ، وفى فهمهم القاصر لها ، كما أنه تقرير ضمنى بأن بعث الرسل ، وإنزال كلمات الله عليهم ، هو مما اقتضته حكمة الله ورحمته بعباده .

وهنا فى قوله سبحانه : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله » حماية للرسل — عليهم الصلاة والسلام — من أن يكونوا مَظِنّة تهمة فى صدقهم ، وصدق ما جاءوا به من عند الله .. إذ أن الافتراء على الله ، والتلبيس على الناس باسمه ، وادعاء النبوة واختلاق ما يكون بين يديها من كلمات الله وآياته — كل هذا عدوان على

الله ، وتطاول على ما تفرد به سبحانه من قدرة وعظمة ، وفى هذا مَهلكة وضياع لكل من يتلبّس بمنكر من هذه المنكرات .. وليس ثمة عاقل تسول له نفسه أن يقف هذا الموقف المفضوح ، ويعرّض نفسه للفضيحة الفاضحة ، والخزى المبين بين الناس ! فكيف بأنبياء الله ورسله ، وهم دعاة هدى ، لا يبغون عليه من أحد أجراً - كيف يكون منهم الكذب على الله والتقوّل عليه بما لم يقل ؟

وإذن فالذين يصطفيهم الله لحمل رسالته ، ويضع بين أيديهم وعلى ألسنتهم كلماته وآياته - لا يختلط أمرهم على ذى عقل ، ولا تلتبس دعوتهم بدعوة أدعياء النبوة ، لِما بين النبىّ والدعىّ من مفارقات بعيدة ، سواء فى ذات النبىّ والدعىّ ، أو فى محامل دعوة النبىّ ودعوة الدعىّ .

ففى سلوك النبىّ ، استقامة، وصدق، وعفّة ، وكمال ، فى كل أموره ، ظاهرها وباطنها جميعاً، مما لايكون موضع شك أو إنكار عند أعدائه، فضلا عن أوليائه .. وليس كذلك الدعىّ الذى لايمكن أن يقف هذا الموقف المخزى ؛ إلاّ إذا كان على قدر كبير من الوقاحة ، والتجرد من الحياء ، وعدم المبالاة باتهام الناس له ، وتشنيعهم عليه ..

وفى محامل رسالة النبى .. النور والهدى ، والخير ، والعدل ، والإحسان .. للناس جميعاً .. لا لطائفة من الطوائف ، ولا لطبقة من الطبقات . . أما ما تحمل رسالة المدعى - إن كان له رسالة - فهو المَلَق والرياء ، والاستجابة للعواطف الخسيسة فى الناس ، وإباحة المنكرات لهم ، ودعوتهم إلى تلك المنكرات باسم هذا الدين الكاذب ، الذى يباركها ويبارك أهلها . .

وفى قوله تعالى : « ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم . تقولون على الله غير الحق » عرض لهؤلاء الظالمين الذى افتروا على الله الكذب ، وقالوا بما لم يقله الله .

وفى هذا العرض يبدو المصير الذى يصير إليه كل ظالم، حين تنتهى أيامه القصيرة فى هذه الدنيا، بحلوها ومرها، وبلهوها وعبثها، وإذ هو على مشارف الحياة الآخرة، وملائكة الرحمن يمدّون أيديهم لانتزاع ثوب الحياة الذى يلبسه هذا الجسد، الذي كان يمشى فى الأرض مختالا فخوراً، يحسب أن ماله أخلده .. وما هى إلا لحظات، يعالج فيها سكرات الموت، حتى يكون جثة هامدة، كأنه لَقًى مُلْقًى على الطريق، بل إنه يصبح سَوْأة يجب أن تختفى وتتوارى عن الأنظار، وتغيّب فى باطن الأرض .. وليس هذا فحسب، بل إن ذلك هو بدء لمرحلة جديدة، لحياة أخرى غير الحياة التى كان فيها .. إنه سيبعث من جديد، ويلبس ثوب الحياة مرة أخرى، ولكن لا ليكون مطلق السَّراح، يلهو ويعبث، بل ليلقى به فى جهنم، وليكون وقودا لجحيمها المتسعر!

وفى قوله تعالى: «أخرجوا أنفسكم» إشارة إلى هذا الأمر الملزم، الذى يحمله الملائكة، لقبض أرواح الظالمين، وأن الملائكة، وهم الموكلون بقبض هذه الأرواح، يحملون هؤلاء الظالمين حملاً على انتزاعها بأنفسهم، وإعطائها لهم بأيديهم، وفى هذا تنكيل بهم، وإذلال وقهر لهم، بأن يُحملوا حملاً على انتزاع حياتهم بأيديهم .. هكذا «أخرِجوا أنفسكم» .. وهل يُعطى الإنسان نفسه بيده؟ إنه لأهون عليه كثيراً أن ينتزعها أحد منه قهراً وقسراً، من أن يكون هو الذى يُقدّم بيديه أعزّ شىء يملكه، بل كل شىء يملكه ..

قوله تعالى: «ولقد جئتمونا فُرَادى كما خلقناكم أول مرة» هكذا يجد الظالمون أنفسهم يوم القيامة .. فى وحشة قاتلة، لا يلتفت أحد إلى أحد، ولا يفكر إنسان فى إنسان. «لكلّ امرئ منهم يومئذ شأن يُغنيه»، عن أن يُشْغَل بغيره، أو ينظر إليه نظرة.

«وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم» فليس مع الإنسان فى هذا اليوم شىء

مما جمع فى الحياة الدنيا ، من مال ، وما استكثر من متاع ، وما اتخذ من أخدان وخِلّان ..

وفى قوله تعالى : « خوّلناكم » تذكير لهم بأن كل ما كان لهم فى هذه الدنيا هو مما لله عندهم ، فهو الذى خَوّلهم أى أعطاهم هذا الذى كان لهم ، وهم يحسبون أن ذلك كان من صنع أيديهم ، ومن معطيات حَوْلهم وحيلتهم .

وقوله تعالى : « وما نَرَى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء » هو تنبيه لهؤلاء الغافلين ، وإلفات لهم أن يخرجوا من هذا الوجوم الذى هم فيه ، ومن تلك السَّكْرة المستولية عليهم ، حتى يديروا أنظارهم إلى ماحولهم ، ليبحثوا عن معبوداتهم التى كانوا على ولاء لها ، واطمئنانٍ بها .. يفزعون إليها فى كل شدّة ، ويُهرَعون إليها عند كلّ ملمّة . وهذه هى ملمة الملمات ، وشدة الشدائد .. فأين هؤلاء الشفعاء ؟ وأين ما كان يُرجَى منهم عند كل بلاء ؟ . . فليدعوهم . فليجيئوا لهم .. إن كانوا صادقين ! إنه لاشىء هنا ، إلا الوحشة المطبقة ، والحسرة القاتلة ، والخسران المبين .. !

فهذه الأبصار الزائغة ، التى تدور هنا وهناك تبحث عن هؤلاء الشفعاء ، لا تلبث أن تَغيم الرؤية عليها ، فلا ترى شيئاً مما حولها من شفعاء أو غير شفعاء .. وهنا يَدْخل على الظالمين من أسماعهم ، صوتُ الحق ، يجيئهم بجوابِ ماكانوا يبحثون عنه : « لقد تقطع بينكم وضَلّ عنكم ما كنتم تزعمون » .

وفاعل الفعل « تقطع » محذوف دلّ عليه السياق .. ومن السرّ فى حذفه أنه أكثر من فاعل .. فالذى « تقطع » بين الظالمين وبين ماكان لهم ، هو أكثر من أمر ..

لقد تقطع مابينهم وبين ماكان لهم من مال وبنين ، وتقطع مابينهم وبين ماكان لهم من آلهة اتخذوهم شفعاء لهم عند الله . وتقطع مابينهم وبين كل

وسيلة يتوسلون بها إلى الخلاص من هذا البلاء الذى هم فيه .. وهكذا : لقد تقطعت الأسباب بينهم وبين كل ولىّ من أوليائهم ، أو قوة من قواهم .

الآيتان : (٩٥ ـ ٩٦)

« إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ » (٩٦)

التفسير : بعد أن شهد الظالمون المشركون هذا المشهد الذى تقطعت له أنفاسهم ، من مشاهد يوم القيامة ، رُدّوا إلى ما كانوا فيه من تلك الحياة التى كانوا يحيونها ، مع أموالهم وأولادهم وأصنامهم ، وما كانوا عليه من عناد وخلاف مع النبىّ ، وما كان يدعوهم إليه من التعرف إلى الله والإيمان به ..

وهنا تلقاهم كلمات الله وآياته ، يرتلها المؤمنون ، تمجيداً لله ؛ وتسبيحاً بحمده ، وإذا هذه الآيات ، وتلك الكلمات ، هى استعراض لجلال الله ، الذى كانوا منذ لحظات بين يديه ، فى هذا الموقف العظيم ، الذى طلع عليهم منه مالم يكونوا يحتسبون ، من شدة وبلاء ..

« إن الله فالق الحبّ والنّوى يخرج الحىّ من الميت ومخرج الميت من الحىّ » .. ذلكم هو الله ، وتلك هى بعض آثار قدرته .. فلينظروا فى هذا الذى أبدعته القدرة القادرة ، التى قام سلطانها على كل شىء ، ونفذ علمها إلى كل شىء .. !

فهذه الحبة الصغيرة ، التى لاتكاد تمسك بها العين ، يفلقها الخالق العظيم

فيخرج من كيانها الضعيف، وجَرْمها الصغير، شجرةً عظيمة مُورقة مزهرة مثمرة ..!

وهذه النواة اليابسة، التي لايتجاوز جَرْمها جَرْم حصاة صغيرة، يفتّقها الخلّاق العليم، فيخرج من أطوائها نخلة باسقة، تطاول السماء، وتناطح السحاب ..

« إن الله فالق الحبّ والنوى يخرج الحىّ من الميت ومخرج الميت من الحىّ » وفَلْق الحبّ والنوى .. شقّه، حين يُغرس فى مغارس الإنبات، فيُفَتّق كما تُفَتّق الأرحام عند الولادة لتخرج مافيها من أجنّة .. ومن بين هذا الحبّ والنوى ..الميت الهامد.. تخرج الحياة ممثلة فى شجيرة صغيرة، أو نخلة باسقة، أو دوحة عظيمة.

وقوله تعالى: « يخرج الحىّ من الميت » هو خبر ثان لـ (إنّ) فى قوله سبحانه: « إن الله فالق الحبّ والنوى ».

وقوله سبحانه: « ومخرج الميت من الحى » عرضٌ لصورة أخرى من صور الإبداع فى الخلق .. وهو أنه سبحانه إذ يخرج الحىّ من الميت، فإنه سبحانه يخرج الميت من الحىّ، كهذا الحبّ وذلك النوى فإنهما من مواليد النبات الحىّ النامى ..

وفى هذا العرض للإحياء والإماتة، والإماتة والإحياء، مَثَلٌ ظاهر يرَى فيه الإنسان العاقل صورةً لحياته هو .. وأنه كان فى عالم الموات، ثم إذا هو كائن حىّ عاقل .. ثم إذا هو مردود إلى عالم الموات مرة أخرى .. فهل تعجز القدرة الإلهية عن ردّه مرة ثانية إلى الحياة؟ إن ذلك ـ فى تقدير الإنسانية ـ أمر أهون مما سبقه من إيجاد الحياة من العدم!! « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » (٢٨: البقرة)

وقوله تعالى: « ذلكم الله » إشارة إلى الله، سبحانه، وأنه هو الإله الحق الذى لاينبغى لعاقل أن يتخذ إلهاً غيره .. فذلكم هو الله، وتلك هى بعض آثار قدرته.

وقوله سبحانه: « فأنّى تؤفكون » إنكار على هؤلاء الضالين، أن يكون لهم متجه غير الله، ثم هو دعوة مجدّدة لهم أن يتركوا هذا الطريق الآثم الذى هم فيه، وإلا كانوا فى الهالكين.

والإفك، هو الباطل والبهتان، والميل عن طريق الحق إلى الضلال.

قوله تعالى: « فالق الإصباح وجَعَل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً » هو استمرار لعرض آيات من قدرة الله، حتى إذا كان هناك من تنبّه من غفلته من هؤلاء الضالين، بعد أن رأى ما رأى من آيات الله فى خلق الحب والنوى، وخلق الحىّ من الميت، والميت من الحىّ، وبعد أن نبهه صوت الحقّ إلى ما هو فيه من ضلال وغفلة — إذا كان هناك من تنبّه لهذا لوجد بين يديه هذا النور الذى يكشف له معالم الطريق إلى الله، فيما يشهد من آثار صنعته فى هذا الوجود.. « فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً » فذلك مما خلق الخالق، وأبدع المبدع..

وفى قوله تعالى: « فالق الإصباح » مقابلة بين فلق النواة التى تخرج منها أجنّة الحياة ومواليدها، من عالم النبات، وبين فَلْق الإصباح، أى الصبح الذى يتفتق من تفتّقه الحياة، التى يستولى عليها سلطان النهار، ويغذيها ضوء الإصباح.. فهذه الكائنات المتحركة فى ضوء الإصباح، والمنتشرة على بساط ضوئه فى النهار، هى المواليد التى تفتح عنها الضوء، وبعث فيها الدفء والحياة، كما يتفتق الحبّ والنوى عن هذه الحياة التى تتمثل فى عالم النبات.

وقوله تعالى: « وجعل الليل سكنا » هو فى مقابل: « ومخرج الميت من الحىّ »

حيث يكون النيل هموداً وسكوناً أشبه بالموت الذى يسبق الحياة ..

وقوله سبحانه : « والشمس والقمر حسباناً » أى وجعل الشمس والقمر لِيُتعرف بهما على حساب الأيام والشهور ،إلى جانب مالهما من آثار كثيرة أخرى فى الحياة .. فالحسبان ، هو الحساب والتقدير .

وقوله تعالى : « ذلك تقدير العزيز العليم » إشارة إلى أن وضع هذه المخلوقات بموضعها الذى هى فيه ، وتسخيرها على هذا الوجه الذى تقوم به فى الحياة ـ هو من تدبير الله ، ومن تقدير حكمته وسلطان علمه وعزته .

الآيات : (٩٧ ـ ٩٩)

« وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ٱنظُرُوٓا إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (٩٩)

التفسير : تتابع الآيات فى عرض مُبدعات القدرة الإلٰهية وتدبيرها أمرَ هذا الوجود ، والهيمنة على نظامه البديع . .

فمن مبدعات القدرة الإلٰهية ، هذه النجوم التى هى زينة للناظرين فى هذا

السقف المرفوع ، وهى علامات للسائرين ليلا فى البر أو البحر .

وفى إضافة الظلمات إلى البر والبحر إشارة إلى أن الظلام هو الذى يلبسهما ويستولى عليهما ، فكأن السائر فى الليل ،يقطع قِطَعاً من الظلام،سواء أكان فى البر أو البحر .

والمراد بالظلمات هنا ، ليس هو الظلام الذى يلبس الوجود فى الليل ، وإنما هى هذا التيه الذى يستولى على راكب البحر ، أو راكب الصحراء أو نحوها ، فى الليل ، حيث لا يعرف الإنسان أين يتجه ، وهو فى هذا الكون الفسيح الذى لا مَعْلَمَ فيه .. والنجوم هى المعالم التى تكشف لراكب البحر أو الصحراء طريقه ، وتشير له إلى متجهه ، نحو الشرق أو الغرب ، أو الشمال أو الجنوب وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وبالنجم هم يهتدون » (١٦ : النحل)

ومن مبدعات القدرة الإلهية أن عالم الإنسان ــ وهو واحد من عوالم كثيرة لاتحصى ــ هو ثمرة نفس واحدة ،كان منها هذا العالم الإنسانى كله ، فى أممه ، وشعوبه ، المنتشرة فى آفاق الأرض كلها . « وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة » .

وقوله تعالى: «فمستقر ومستودع» أى فمستقر ومستودع هو الذى تتوالدون منه وتتكاثرون ، والمستقر هو النطفة فى صُلْب الرجل ، والمستودع هو النطفة تُستودع فى رَحِم المرأة . . ومن المستقر والمستودع يكون التناسل والتوالد .. أو فمستقر على الأرض مدةَ حياتكم ، ومستودع فى باطنها بعد موتكم . .

وفى فاصلة الآية هنا : «قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون» ، وفى الفاصلة قبلها « قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » تَوَافُقُ كلٍّ فاصلة مع الحال الداعية إليها فى آيتها . .

فعملية الخلق ، والتوالد ، والتناسل ، عملية تحتاج إلى دقة نظر ، ومزيد علم ،

ولهذا كان مطلوبها أن ينظر فيها من يعلم ، ويتدبر ما لا يعلم ، وهو الفقيه . .
« لقوم يفقهون » .

أما النجوم وما يأخذ النظر منها من هداية فى الظلام ، فلا يحتاج من يريد التعرف على هذه الخاصة منها إلى أكثر من نظر يفيد علماً بالواقع كما هو :
« لقوم يعلمون » .

ومن مبدعات هذه القدرة ، هذا الماء المنزل من السماء ، أى من جهة عالية ، تعلو وجه الأرض ، فكل ما علا الأرض فهو سماء .. فمن هذا الماء يخرج كل حىّ ، من إنسان وحيوان ونبات .. كما يقول سبحانه وتعالى : « وجعلنا من الماء كلّ شىء حىّ » (٣٠ : الأنبياء)

ثم خصّ الله سبحانه بالذكر هنا عالم النبات ، إذ كان أكثرَ الكائنات الحية تفاعلا مع الماء واعتماداً عليه .. إذ هو غذاؤه وحياته ، لاشىء له غيره ، به يحيا ، وبفقده يذبل ويموت . . أما الكائنات الأخرى ، وإن كان الماء حياتَها كالنبات تماماً ، إلا أنها تعتمد على أشياء أخرى تقوم إلى جانب الماء لتمسك عليها الحياة ، وهو ما يتغذّى من طعام . .

وقوله تعالى : « فأخرجنا منه خَضِراً » أى نباتاً ذا خضرة ، حيث الخضرة هى الروح السارية فى حياة النبات ، وبغير تلك الخضرة لا ينبض فيه عِرق الحياة أبداً .

وقوله سبحانه : « نُخرج منه حباً متراكباً » أى من هذه الخضرة التى تمسك حياة النبات وتمده بالقوة والنماء ــ من هذه الخضرة يبلغ النبات غايته من النماء ، فيزهو ، ويثمر ، ويخرج حباً متراكباً ، أى يركب بعضه بعضاً ، كما هو الشأن فى سنابل القمح ، وعناقيد العنب ونحوهما .

وقوله سبحانه : « ومن النخل من طلعها قنوان دانية » أى كما أخرجنا من الخَضِرِ حباً متراكباً ، كذلك كان شأن النخل ، الذى نخلق من طلعه قنواناً دانية . .

والطلع ، لقاح النخل ، والقنوان : جمع قِنو ، وهو العِذق ، أى سباطة البلح أو الكباسة .

وفى هذا الذى بين طلع النخل ، وما يتخلق منه من قنوان دانية الثمر ، ما يُلفتنا إلى الخضِر الذى فى النبات وما ينشـأ عنه من حبّ متراكب . . وكأن هذه الخضرة هى اللقاح الذى لولاه ما أثمر نبات .

وفى وصف القنوان بأنها قنوان دانية ، مع أنها قد تـكون والنخلة سابحة فى السماء ـ فى هذا الوصف ما يشير إلى اشتهاء النفس لهذا الثمر الذى يحمله النخل ، وتطلعها إليه ، ورغبتها فيه ـ الأمر الذى يجعل بعيده قريباً ، وكلّ صعب فى الوصول إليه هينا . . هكذا المحبوب المشتهَى أبداً .

وقوله سبحانه : « وجناتٍ من أعناب » معطوف على قوله تعـالى : « فأخرجنا به نبات كل شيء » أى وأخرجنا به ـ أى بالماء ـ جناتٍ من أعنابٍ

وقوله تعالى : « والزيتونَ والرمان » معطوف على جناتٍ من أعناب .

وقوله سبحانه : « مشتبهاً وغير متشابه » أى أن الزيتون والرمان ، منه ما يشبه بعضه بعضاً ، ومنه ما يختلف بعضه عن بعض .. فى اللون ، أو الحجم ، أو الطعم .

ويمكن أن يفهم قوله تعالى : « مشتبهاً وغير متشابه » على وجه آخر . . وهو أن هذه الأشجار من الزيتون والرمان ، وإن بدت أفراد كل جنس منها متشابهة فى هيئتها وثمارها ، إلا أنها فى حقيقة أمرها غير متشابهة ، فبين كل شجرة وأخرى فروق دقيقة ، فى هيئتها ، وفى ثمارها . . وهـذا من بديع

صنع الله ، ومن كمال قدرته . . حيث تتنوع أفراد الجنس الواحد .. شجرة شجرة ، وتختلف ثمرات الشجرة . . ثمرة ثمرة . . وعلى هذا تكون « الواو » فى قوله تعالى : « وغير متشابه » وهى واو الحال ، والجملة بعدها حالية . وذلك فى قراءة من قرأ وغيرُ بالرفع، أى يبدو مشتبها ، والحال أنه غير متشابه، وهذا هو السرّ فى اختلاف النظم بين مشتبه ومتشابه ! !

وقوله تعالى : « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » إغراء بتوجيه النظر ، وإعمال الفكر فى هذه المخلوقات ، وما يجىء منها إلى الناظر إليها وهى فى حال إزهارها وإثمارها ، من جمال رائع ، وحسن فتّان ، يُشيع فى النفس البهجة والمسرّة ، ويثير فى العقل أشواقاً وتطلعات إلى التعرف على أسرار هذا الجمال واستكشاف ينابيعه ومصادره الأولى التى يجىء منها .

والإنسان إذ يَلْقَى الطبيعة وهى فى نضارة شبابها ، وروعة حسنها ، إنما يتيح له ذلك مجالاً فسيحاً للاندماج بها ، والتعايش معها ، الأمر الذى يسمح للطبيعة أن تبوح له بكثير من أسرارها ، وتأتمنه على الكثير مما احتفظت به فى كيانها ، وضنّت به على من لا يدنون منها ، ولا يتعاطفون معها .

أليس هذا شأن كل أمر يريد الإنسان أن ينتفع منه ، ويملأ يديه من الخير الذى فيه ؟ . إنه لن ينال شيئاً من أى أمر يعالجه ، ويريد فتح مغالقه ، إلا إذا تألفه وأحبّه وأنس به ، وأقبل عليه فى حبّ وشوق !

ومن هنا كانت دعوة القرآن بالنظر إلى الطبيعة وهى فى حلل جمالها وبهائها ـ هى فى الواقع دعوة ضمنية إلى التزود من العلم والمعرفة ، إذ يكون النظر إليها فى تلك الحال نظراً جادًّا ، باحثاً ، مستلهماً ، لا نظراً عابثاً ، لاهياً ، متفكهاً بألوانها ، وأصباغها .

وانظر إلى معارض هذه الآيات الكريمة ، وما يحمل كل معرض منها

من دعوة إلى أناسٍ كلّهم طلاب علم ، ولكنّهم درجات متفاوتة ، فيما يعلمون ! .

النجوم . . . « لقوم يعلمون » .

وخلق الناس من نفس واحدة . . . « لقوم يفقهون » .

والماء وأثره فى الحياة ، وفى عالم النبات . . « لقوم يؤمنون » .

فهذه النظرات المردّدة فى الكون . . تجىء أولَ ما تجىء بالعلم ، فإذا كان لصاحب هذا العلم نظرة تجمع الحقائق الجزئية ، وتقيم منها حقائق كلية . . كان علمه هذا فقهاً . فإذا اتخذ من هذه الفقه مادة لجمع الحقائق الكلية ودرْجها تحت حقيقة كلّيّة كبرى ، كان فقهه هذا هو الإيمان . . الإيمان القائم على النظر الاستدلالى ، والبحث الاستقصائى ، لا على الإيمان التقليدى ، الذى يعتمد على مشاعر غامضة، ووجدانات باهتة ، لا تصل الإنسان بالله إلا بخيط واهٍ ضعيف ينقطع عند أول هزّة تمرّ به .

الآيات : (١٠٠ — ١٠٣)

« وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » (١٠٣)

التفسير : وإذ انتهت المعارض التى عرضها الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة ، شاهداً يشهد لوجوده ، ودليلًا يدل على قدرته وعلمه وحكمته — إذ

انتهت هذه المعارض بأرباب العقول إلى أن يهتدوا بها ، ويؤمنوا بالله على هديها - فإن كثيراً من الناس قد عَمَوْا عن هذه الآيات ، فلم يروا فيها بَصيصاً من النور يقودهم إلى الله ، ويفتح قلوبهم وعقولهم للإيمان به ، ولهذا جاءت الآيات بعد هذا تَنْعَى على هؤلاء موقفهم ، وتفضح على الملأ حُمقَهم وجَهلهم . . فقال تعالى : « وجعلوا لِلهِ شركاء الجِنَّ وخلقهم وخَرَقوا لَهُ بَنِينَ وَبنَاتٍ بغير علم » . .

ويلاحظ أنه لم يجر لهؤلاء الذى نُحدّث عنهم الآية الكريمة ، ذِكْرٌ من قبل ، بل جِىءْ بهم هكذا فى هذا الموقف ، حتى لكأنهم كانوا قد أعدّوا من قبل لهذا الذى هم فيه الآن فى موضع التجريم ، والاتهام . . وهذا ما يشير إلى أن هؤلاء المشركين بالله كانوا على حال ظاهرة من الشرك ، بحيث يعرفهم كل أحد ، ويستدل عليهم كل من يريد أن يمسك بأهل الشرك ، ويضع يده عليهم ، دون بحث أو مُعَاناة .

وفى اتخاذهم الجنّ شركاء ، إشارة إلى أن الجنّ هم الذين زينوا لهم الشرود عن الله ، وعبادة كل من عبدوه من دون الله .

وفى قوله تعالى : « وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علم » . . التعبير بخرَقوا فى مقابل « خَلَقَ » إشارة إلى أن هذا الذى نسبه المشركون إلى الله من بنين وبنات ، حين قالوا عن الملائكة إنهم بنات الله ، كما قال الله ، تعالى عنهم : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً » (١٩ : الزخرف) - هذا الذى نسبوه إلى الله ، هو من تلفيّات أوهامهم الضالة ، وأهوائهم الفاسدة ، وأنه خَرْق واختلاق ، لا يقوم على علم ، ولا يستند إلى معرفة . . إنه خرْق لناموس الحق ، وسلطان العقل .

قوله تعالى : « بديع السَّمٰوات والأرض أنّى يكون له ولد ولم تكن له

صاحبة » هو ردٌّ على هذا الافتراء الذى افتراه المشركون على الله ، بنسبة الولد إليه .. إذ كيف يكون له ولد ، وهو سبحانه الخالق لكل شىء ، مبدع السموات والأرض وما فيهن، أوجدهما من عدم، على غير مثال سبق . . ؟ فكيف يصح فى عقل ذى عقلٍ أن يتخذ الله ولدًا ، والولد إنما يطلبه الوالد ليكون سندًا له ، وامتدادًا لحياته من بعده . . ؟ والله سبحانه وتعالى قوىّ لا يحتاج إلى سند ، حىّ حياة أبدية سرمدية لا تنقطع . . فما الداعى لطلب الولد ؟ وما الحاجة إليه ؟ . . ثم كيف يكون له سبحانه ولد ، ولم تكن له صاحبة ـ أى زوج ـ ؟ ولو كانت له صاحبة لكانت إلٰهة مثله . . إذ أن التوالد لا يكون إلا بين المتماثلين . . والله ـ سبحانه ـ منزّه عن المِثل والشبيه !

وقوله تعالى : « وخَلَق كلّ شىء وهُو بكل شىء عليم » تقرير لهذا الحكم ، وتوكيد له . . إذ أن الخالق لكل شىء ، لا يناسبه ولا يماثله شىء من مخلوقاته ، وإذن فلا يكون له من تلك المخلوقات صاحبة ولا ولد . .

وقوله سبحانه : « ذلكم اللهُ ربُّكم لا إلٰه إلا هو خالقُ كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل » الإشارة إلى الله سبحانه وتعالى هنا إشارة إلى المعبود الذى ينبغى أن تتجه إليه وجوه العابدين جميعاً ، فهو ربّهم الذى أوجدهم من عدم ، وأمسك عليهم وجودهم بقدرته ، وأفضاله عليهم ، وليس إلٰه غيره كان له هذا الأثر فيهم ، فهو خالقهم ، وخالق كل شىء عبدوه . أو لم يعبدوه . . فهو المستحق لأن يمجّد وأن يُحمد ، ويُعبد . . وهو سبحانه قائم على كل شىء وكيل على ما يجرى فى ملكه ، وما يقع من مخلوقاته ، من استقامة أو انحراف ، ومن ولاء له ، أو كفر به . . وسيُجزى كلٌّ حسب عمله . ووكالة الله سبحانه على هذا الوجود ليست كوكالة الوكيل عن الأصيل ، وإنما هو وكيل عن هذه المخلوقات كلها ، حيث وَكَلت إليه أمرها ، وفوضت إليه

تصريف وجودها كيف يشاء ، إذ كان كل موجود ـ أيًّا كان سلطانه ، وأيًّا كانت قوته ـ عاجزاً عن أن يملك لنفسه نفعاً ، أو ضراً .

وقوله سبحانه : « لا تدركه الأبصارُ وهو يدرك الأبصارَ وهو اللطيف الخبير » إشارة أنه سبحانه لطيف لا يُرَى ، إذ لو رؤى لتحدّد ، ولو تحدَّد لتجسّم ، ولو تجسّم لكان مركبا ، ولو كان مركباً لكان مخلوقاً . .

سئل الإمام علىّ : هل رأيتَ ربّك ؟ فقال : « نورٌ أنَّى أراه ؟ » أى هو نور يملأ الوجود ، تُرى فى نور أنواره الموجودات . . أما النور فلا تمسك به عين ، ولا يحدّه نظر . . فكيف يرى هذا النور ؟

أما الله سبحانه وتعالى ، فهو يرى كل موجود ، ويبصر كل مبصر ، فهو سبحانه يملأ عين المُبصرين بنوره ، ولكنهم لا يبصرونه . . « وهو اللطيف الخبير » الذى جلّ بلطفه عن أن يُرَى ، وعلا بعلمه أن يغيب شىء عنه . .

الآيات : (١٠٤ — ١٠٧)

« قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ » (١٠٧)

التفسير : البصائر : جمع بصيرة ، والبصيرة الآية التى يتكشف للناظرين فيها عبرة وعظة ، ويقع لهم من الوقوف إزاءها علم ومعرفة . .

وقوله تعالى : « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عَمِيَ فعليها » أى قد جاءتكم آيات بينات ، فيها تبصرة وعظة لأولى الألباب .. « فمن أبصر فلنفسه » حيث يرى طريقه ، ويعرف الاتجاه السليم الذى يسير فيه « ومن عمى فعليها » حيث يضل الطريق ، ويتخبط فى متاهات الضلال ، وتكون عاقبته الهلاك والضياع ..

وقوله سبحانه : « وما أنا عليكم بحفيظ » أى ليس على النبىّ إلا أن يعرض هذه البصائر التى تلقاها من ربه ، ثم إنه ليس عليه بعد هذا أن يتولى حراسة الناس وحمايتهم من أهوائهم الغالبة ، ونزعاتهم المستبدة . . فهذا نور الله بين أيديهم ، وفى مواجهة أبصارهم .. فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها .. والله سبحانه وتعالى يقول :

« أفأنت تهدى العُمْىَ ولو كانوا لايبصرون» (٤٣ : يونس)

قوله سبحانه : « وكذلك نصرّف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون ».. تصريف الآيات ، تنويعها ، وتعدد وجوهها ، بحيث يرى الناظر فيها مشاهد متعددة الألوان ، مختلفة الأشكال .. لجلال الله ، وكمال علمه ، وسلطان قدرته ، وبحيث من أخطأه التهدّى إلى الله من واحدة منها لم يخطئه ذلك فى كثير غيرها . .

وفى قوله تعالى « وليقولوا درست » إشارة إلى معطوف محذوف يدل عليه سياق النظم ، وتقديره ، « وكذلك نصرّف الآيات » ونعدّد وجوهها لتلقاهم فى كل متجه ، ولتأخذ عليهم كل سبيل « وليقولوا درستَ » أى وليقولوا جهلاً وسفاهة: إن هذا العلم الكثير الذي تحمله تلك الآيات إنما هو مما درسه « محمد » وتلقّاه من علماء أهل الكتاب،وأنه ما كان له وهو الأمىّ ،أن يجىء إليهم بهذا العلم الذى لم يكن لهم هم ولا آباؤهم .. وفى هذا تشنيع على هؤلاء الضالين المشاغبين ،

وتسفيه لعقولهم ، إذ لو عقلوا لكان أقرب إلى العقول أن يُضيفوا هذا العلم إلى الله ، وأن يَرَوْا فى أميّة « محمد » وفى هذا العلم الغزير الذى حمله إليهم؛ شاهداً على أن هذا القرآن هو من عند اللهِ ، لا من تلقّيات محمدٍ عن غيره . . وقد كان فيهم كثيرون اتصلوا بأهل الكتاب ، ولم يكن لهم شىء من هذا العلم الذى جاءهم به هذا الأمىّ الذى لم ينقطع للعلم ، ولم يجلس إلى أهل العلم . .

وقوله تعالى : « ولنبيّنه لقوم يعلمون » تعليل آخر لمجىء آيات الله مفصّلة هذا التفصيل ، ومبيّنةً هذا التبيين . . وذلك ليكون فيها مَزِيدُ بيان ومعرفة وعلم « لقوم يعلمون » أى لقوم من شأنهم أن يتعلموا ويعلموا ... والضمير فى قوله تعالى : « ولنبينه » يعود إلى القرآن الكريم ، الذى هو مجمع هذه الآيات كلها ، والكتاب الذى احتواها ، واشتمل عليها جميعاً ، وفى تفصيل هذه الآيات ، وتعدد وجوهها بيان وتوضيح لقوم يعلمون ، وبلاء وفتنة للضالين .

وقوله سبحانه : « اتبع ما أُوحىَ إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين » التفات من الله سبحانه للنبىّ الكريم ، وتثبيت له على الكتاب الذى تلقّاه من ربّه ، دون أن يلتفت إلى شىء من تخرصات المشركين ، واستهزاء المستهزئين .

وفى إضافة النبى الكريم إلى ربّه ـ سبحانه وتعالى ـ تكريم للنبى الكريم ، واحتفاء به ، واستدعاء له من بين هؤلاء الضالين إلى حيث ينزل هذا المنزل الكريم ، من رحمة الله ورضوانه .

وفى قوله تعالى : « ولو شَآءَ اللهُ ما أشركوا » إخلاء لمشاعر الأسَى والحزن التى يعالجها النبىّ ، وهو يدعو قومه إلى الهدى والخير ، وهم يتفلّتون من بين يديه إلى الضلال والهلاك . . فهذا الضلال الذى هم فيه هم أهلٌ له ، وهو أشكَلُ بطبيعتهم النكدة ، وقلوبهم المريضة . . ولو شاء الله لهم الهداية

لهداهم ، ولَمَا كانوا من المشركين . . فذلك إلى قدرة الله ومشيئته ، وليس لك ـ أيها النبي ـ من الأمر شيء . « وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل » إذ لستَ مرسلاً من عند الله لتقهرهم على الإيمان ، ولتدفع عنهم بالقوة هذا الضلال الذى هم فيه . . وما أنت عليهم بوكيل ، إذ هم راشدون مسئولون عن أنفسهم ، وعن اختيار الطريق الذى يسلكونه . . « إنْ عليك إلا البلاغ » فتنبّه الشارد ، وتهتف بالضال . . فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضلّ فإنما يضل عليها ، وما أنت عليهم بوكيل .

الآيات : (١٠٨ — ١١٠)

« وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » (١١٠)

التفسير : أمر الله سبحانه نبيّه الكريم فى الآيات السابقة أن يقف على حدود ما أُنزل إليه من ربّه ، وأن يَدَع المشركين وشأنهم ، بعد أن بلغهم رسالة ربّه ، وأن ليس للنبيّ أن يكرههم على الإيمان ، إنْ عليه إلا البلاغ . .

وهنا فى قوله تعالى : « ولا تسبُّوا الذين يدعون من دون الله فيسبُّوا الله عَدْوًا بغير علم » يُحذر الله النبيّ والمسلمين معه ، أن يدخلوا فى معارك جدليّة مع المشركين ، تنتهى بهم إلى التراشق بالكلمات الجارحة ، فيشتم بعضهم

بعضاً ، ويسبّ بعضهم بعضا .. وهنا يجدها المشركون فرصة للتعدّى على الله ، والتطاول على ذاته الكريمة ، وكان ذلك أشدّ مايصيبون به المسلمين فى مشاعرهم ، لِمَا لله سبحانه وتعالى فى أنفسهم من تعظيم وتوقير ، ولِما يعلمه المشركون من تعلّق المسلمين بالله ، وحبّهم له ، ورعايتهم لأوامره ونواهيه .. وليس كذلك شأن المشركين مع آلهتهم التى لاينظرون إليها تلك النظرة الخاشعة ، التى ينظر بها المسلمون إلى الله ، ولا يرون فى آلهتهم مايرى المسلمون فى الله ، من قدسية ، وعظمة ، وجلال .

وقد تنبّه العقلاء إلى مثل هذه الحال ، فبعدوا بأنفسهم عن تلك المواطن التى يقفون فيها مع السفهاء موقف الخصومة والتلاحى ، لأن السفيه الساقط المروءة ، يجد فى التطاول على أهل الحكمة وأصحاب الشأن فى الناس فرصته ، فى الاستعلاء بنفسه ، حين يكون هو ومَن فوقه فى منزلة سواء .. وفى هذا يقول الشاعر :

بلاءٌ ليس يَعْدِله بلاءٌ عداوة غير ذى حسبٍ ودينِ
يبيحُك منه عِرضا لم يَصُنْهُ ليرتع منك فى عرض مَصُونِ

فإذا سبّ المشركون الله فى مجلس من مجالسهم مع المسلمين ، شعروا أنهم أصابوا من المسلمين مقتلا ، وإذا سبّ المسلمون آلهتهم لم يكن فى ذلك مايزعجهم أو يقلقهم ، وإن يكن شىء من ذلك فهو شىء قليل لايكاد يُحسّ له أثر ا شأن الخسيس يتطاول على الكريم ، فإذا ناله الكريم بأذى لم يتأثر له .

« ولا تَسُبّوا الذين يَدْعون من دون الله فيسبّوا الله عدواً بغير علمٍ »
والعدو : العدوان والبغى . فى حمق وسفاهة وطيش .

أى ولا تتعرضوا للآلهة الذين يدعوهم المشركون من دون الله ، فيسبّوا الله عدوّا ، أى أنهم يسرعون إلى سبّ الله ، ويجدونها فرصة لهم لينالوا منكم بالتعرض بالسبّ لأقدس المقدسات ، وأكرم الحرمات عندكم . .

وفى قوله تعالى : « عدوًا بغير علمٍ » إشارة إلى أن هؤلاء المشركين لايَقْدُرون الله حق قدره ، ولا يعلمون ماتعلمون أنتم أيها المؤمنون من جلاله وقدسيته وعظمته . فلا يتوقفون عند أية سانحة تسنح لهم للتطاول على الله .

وقوله تعالى : « كذلك زيّنّا لـكلِّ أمة عَمَلَهم » هو عزاء المسلمين لِماَ ينالهم من تطاول المشركين على الله ، واستخفافهم به .. فذلك لأنهم لم يعرفوا الله حق المعرفة ، وأنهم مشغولون عنه بآلهتهم تلك ، وأنها ـ على ماهى عليه ضعف وهوان ـ ذات شأن عند المشركين ، الذين آمنوا بها وعبدوها .. وهكذا الناس ومايحبّون ويُبغضون .. هم فى هذا مذاهب شتّى .. من يحبه قوم ، يبغضه آخرون ، ومن يبغضه أناس، يحبّه أناس غيرهم .. « كذلك زيّنا لـكل أمّةٍ عملهم » .

وقوله تعالى « ثمّ إلى ربّهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون » الضمير فى « ربهم » يعود إلى الناس الذين تضمهم هذه الأمم .. أى أن الناس جميعا على اختلاف معتقداتهم ومذاهبهم وأعمالهم سيردّون إلى الله .. وهنا يعرف كل إنسان حقيقة ما كان عليه .. من حق أو باطل ، وصفة ما كان يعمل .. من خير أو شر . .

قوله سبحانه :

« وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمِنُنَّ بها » .

الآية التى أقسم المشركون على أنهم يؤمنون بها لوجاءتهم ، ووقعت تحت حواسّهم ـ هى التى كانوا يقترحونها على النبىّ ، فيما حكاه القرآن عنهم فى قوله تعالى : « فليأتنا بآية كما أُرْسِلَ الأولون » (٥ : الأنعام) وقوله سبحانه : « لولآ أُنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ، أو يُلْقى إليه كنزٌ أو تـكونُ لَهُ جنّة يأكل منها » (٧ ـ ٨ : الفرقان) .. وقوله تعالى : « وقالوا لن نؤمِن لَكَ حتّى

تَفْجُرَ لَنَا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جَنّةٌ من نخيلٍ وعنب فتفجّر الأنهارَ خلالَها تفجيرا * أو تسقط السمآء كما زعمت علينا كِسَفًا أو تأتىَ بالله والملائكة قبيلا (٩٠ - ٩٢ : الإسراء) .

هذه هى بعض الآيات التى أقسموا بالله جَهدَ أيمانهم - أى قسماً مؤكداً بكل المؤكدات - لوجاءتهم آية منها ليؤمنِنّ بها ، ويتخذونها دليلا على صدق النبىّ !

وقوله تعالى : « قل إنمَا الآيات عند الله » هو ردٌّ من الله تعالى عليهم ، أمَرَ النبىَّ الكريمَ أن يلقاهم به .. فإنه - أى النبىّ - لا يملك من تلك الآيات شيئا ، وإنما هى من الله سبحانه وتعالى ، ينزّلها بقَدَر ، وتدبير وحكمة ، على من يشاء ، متى يشآء .

وقوله سبحانه : « وما يشعركم أنها إذا جآءتْ لايؤمنون » هو التفات للمؤمنين الذين سَمِعوا الجواب الذى أجاب به النبىّ على مايقترحه المشركون عليه من آيات .. وفى هذا الالتفات ردٌّ على تطلّعات بعض المسلمين الذين كانوا يتوقعون أن يجىء النبىّ بمثل هذه الآيات ، ليقطع على المشركين حجتهم ، وليُنهِىَ الخصومة التى بينه وبينهم ، وبهذا تنطفىء نار الشرّ المحتدم بينهم وبين المؤمنين ، حين تُدخلهم تلك الآية فى دين الله ، ويكونون من المؤمنين .

وقد كشف الله سبحانه وتعالى فى هذا الردّ عن طبيعة هؤلاء المشركين ، وأنهم ليسوا طلابَ هدًى يملأ صدورهم طمأنينة وإيمانا ، ولكنهم أصحاب هوى ، وأتباع ضلال ، لايريدون بهذه المقترحات التى يقترحونها إلاّ اللجاج فى العناد ، والضلال .

وفى قوله تعالى : « وما يشعركم » إشارة إلى أن ما بالمسلمين من أمر هؤلاء المشركين في هذا الموقف ، هو مجرد مشاعر وأحاسيس ، وليس إدراكا ،

ولا علما .. إذ أن المسلمين كانوا يعلمون من عناد هؤلاء المشركين أنهم لن يؤمنوا بأية آية ، ولكن ما كان يجده المسلمون منهم من عنت وإرهاق ألقى فى شعورهم شيئا من الأمل ، يتعلّلون به ، فى مجىء تلك الآية المقترحة ، التى إن لم يؤمن بها هؤلاء المشركون ، فلا أقلّ من أن تخفف من عداوتهم للمؤمنين وعدوانهم عليهم .

وقوله تعالى :

« ونقلّبُ أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أولَ مرّةٍ ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » .

هو توكيد لعدم إيمان المشركين بهذه الآيات التى تتنزل عليهم حسب مقترحاتهم ، وأنهم إذا التقوْا بها ، فإنما يلقوْنها بقلوب مريضه ، وأبصار زائغة ، وألسنة تردد كلمات الزور والبهتان ، كما كان ذلك شأنهم مع آيات القرآن الكريم التى التقوْا بها ، وقالوا فيها ما قالوا من زور وبهتان .. ثم ينتهى موقفهم مع الآيات التى اقترحوها كما انتهى مع الآيات التى جاءهم بها النبىّ .. طغيان ، وعناد . وكفر وضلال .. « ولقد صرّفنا فى هذا القرآن ليذّكّروا وما يزيدهم إلا نفورًا » (٤١ : الإسراء)





الآية : (١١١)

* « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ » (١١١)

التفسير : فى هذه الآية يكشف الله سبحانه وتعالى عن هذا المدى البعيد الذى بَلَغه أولئك المشركون من إمعانٍ فى الضلال والطغيان ، وأنهم إن يَرَوْا كلّ آيةٍ لايؤمنوا بها . .

فلو أن الله ــ سبحانه ــ أنزل عليهم الملائكة ، يمشون بينهم ، ويتحدثون إليهم لقالوا فيهم مقالاً ، ولوجدوا للزور والبهتان علّةً يعتلّون بها . .

ولو أن الله سبحانه بعث الموتى من قبورهم يكلمونهم ، كما كانوا يكلمونهم وهم أحياء ، لكان لهم فيهم لَغَط وجَدَل .

ولو أن الله ــ سبحانه ــ بعث إليهم كل شيء يقترحونه ، وجاءهم به عِياناً ومواجهة « قُبُلاً » ، ما كانوا ليؤمنوا ، ولقالوا من الزور والبهتان ماحكاه الله عنهم فى قوله تعالى : « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلّوا فيه يَعرُجون * لقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » (١٤ــ١٥ : الحجر)

وفى قوله تعالى : « إلاّ أن يشاء الله » هو استثناء من جميع الأحوال ، أى أنهم لايؤمنون فى أى حال ؛ إلا فى تلك الحال التى يشاء الله لهم فيها أن يؤمنوا ، وهى حال تتعلق بمشيئة الله ، ولا تتعلق بما يُساقُ إليهم من آيات ومعجزات ، فإيمانهم معلق بمشيئة الله ، لا بتلك الآيات التى يقترحونها .. « ولكن

أكثرهم » أى أكثر الناس ، وهم هؤلاء المشركون جميعاً ، ومعهم كثير من أولئك المؤمنين الذين طمعوا فى إيمانهم ، واستشعروا أنهم قد يؤمنون إذا جاءهم النبي بما يقترحون عليه من آيات — أكثر هؤلاء لايعلمون مشيئة الله المتسلطة على هذا الوجود ، القائمة على تصريفه وتدبيره . . فلا يقع شىء إلا على الوجه الذى شاءه الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقدّره .

مبحث : فى مشيئة الله

وَمَشِيئة الْعِبَاد

وهنا نودّ أن نقف وقفة قصيرة ، مع هذه القضية ، التى شغلت الناس منذ عرفوا الله فآمنوا به . . من علماء ، وفلاسفة ، وفقهاء ، ومتدينين بل وملحدين . .

هل للإنسان إرادة ؟

هذا سؤال لايكاد يتردد أحد فى الإجابة عليه « بنعم »!! فكل إنسان يعلم من نفسه ، ومن تصرفات الناس حوله ، أن للإنسان إرادة . . بها يتحرك ويعمل ، وبها يأخذ ويدَع .

ولكن حين يصبح السؤال هكذا :

هل للإنسان إرادة مع إرادة الله ؟

هنا تأخذ المسألة وضعاً آخر ، وتدخل القضية فى مجال النزاع والخلاف . .

إنها قضية القضايا . . فهى ليست من القضايا ذات الصبغة « المحلّية » كما يقولون . . بين الإنسان والإنسان ، أو بين الإنسان والطبيعة . . ولكنها بين الإنسان وبين الله . . بين العبد والرب . . بين المخلوق والخالق !

وماظنك بقضية يكون العبد فيها خصما لربه ، أو محاجًّا لخالقه ؟ إنها حينئذ تكون قضية شائكة محرجة . . فيها الجاجة وخروج على مقتضى العبودية .. فيها تجديف وضلال ، وفيها مزالق وعثرات !

ونعم . . الطريق شائك ، ملىء بالمزالق والعثرات . . ولكن هيهات أن يمسك الإنسان نفسه عن السير فيه . . فإن استطاع أن يمسك قلمه ، أو لسانه ، فإنه ليس يستطيع أن يمسك زمام خواطره ووساوسه .. محال أبداً . .

أمّا والأمر كذلك ، فخير للمرء أن يواجه المشكلة ، وأن يقتحم عليها موطنها ، قبل أن تفجأه على غِرّة ، وتهجم عليه على حين غفلة ، فتنال منه ، وتفسد عليه رأيه ، أو تدخل الشك والوسوسة على عقيدته .

وأمّا وقد رضينا أن نواجه المشكلة ، ونقتحم عليها حِماها ، فإنه يجب علينا أن نأخذ لها حِذْرنا وأسلحتنا . . شأن من يتهيأ لصراع عنيف ، ويدخل فى معركة حاسمة .. !

وزادُنا فى هذه المعركة ، هو إيمان بالله .. إيمان وثيق ، لاتزعزعه الأعاصير العاتية ، ولاتنال منه الأحداث المزلزلة . . وأمّا سلاحنا فهو عقل يقظ ، وقلب سليم ، ننظر بهما فى كتاب الله ، وفى سنّة رسول الله ، فى حدود ما وهبنا الله من استعداد فطرى ، دون التطويح بالعقل ، والشرود به فى مجال غير مجاله الذى خُلق له . .

ذلك هو زادى ، وهذا هو سلاحى . . فإن أردتَ أن تصحبنى على هذا الطريق ، فخذ من الزاد والسّلاح ما أخذت . . وإلا فأنصح لك أن تكون حيث أنت ، ولا تصاحبنى . . وحسبك أن تعود أدراجك ونحن على أول الطريق ، وأن تطوى هذه الصفحات ، لتستقبل ما بعدها مما نحن بسبيله

من الوقوف بين يدى الله ، وكلماته ، على ماعهدتَ منا ، قبل أن نأخذ فى هذا الحديث . .

فإن كنت قد رضيت صحبتى على ما اشترطت عليك فهيّا بنا إلى غايتنا .. ولـكن مهلا . . هل اختبرتَ إيمانك ؟ وهل أيقظت عقلك ، وأحليت قلبك من كل شك ووسواس ؟ لا بأس من أن تعيد النظر . . فإننا ـ كما قلت لك ـ لانزال على الشاطىء ، وقد يكون العوْد أحمدُ لك .. !

وبعد ، فإن كنت على عزيمة أن تسير معى ، فلى عليك ما اشترط العبد الصالح على موسى ، عليهما السلام : « فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتّى أُحدثَ لك منه ذِكرا » . .

أنتحرك إذن ؟ لِـكن . . وعلى بركة الله .

هل للعبد إرادة مع الله ؟

سنجيب على هذا السؤال بالجوابيْن المحتملين له . . فنقول : « نعم » مرة ، ونقول : « لا » . . مرة أخرى .. وننظر .

القول بأن للعبد إرادة مع الله

وهذا القول قالت به القَدَريّة من المعتزلة ..

ويُبنى على هذا القول أمران :

أولا : أن العبد خالق لأفعاله ، مسئول عنها مسئولية كاملة . .

وثانياً : أن ماينالُه العبد من نعيم أو عذاب فى الآخرة هو بسبب عمله الحسن ، أو السيىء . .

وقد بُنى هذان الأمران عند القَدَرية على مايأتى :

أولا : أن العبد لو لم يكن خالقاً لأفعاله ، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقها ، وأضافها إلى الإنسان ، ثم عذّبه عليها ـ مع أنه لم يفعلها ـ لكان ظالماً له ، والظلم نقصان ، لايليق بالله الموصوف بالكمال المطلق .

وكيف يفعل الله شيئاً ، ثم يلوم الإنسان عليه ، ويقول له : كيف فعلته ؟ ولم فعلته ؟ وهو لم يكن له كيف ، ولا فعل ؟

إن الله عادل ، وعدله يقضى بأن يحاسب العبد على مافعل . .

وإذن ، فأفعال العبد مخلوقة له ، ومحسوبة عليه . .

وثانياً : أوجب القَدَرِيّة على الله أن يثيب الطائعين ، كى لايظلمهم ، فإن الظلم نقصان لايليق بربّ الأرباب !

هذه هى حجة أو حججُ مَن يقولون إن للعبد إرادة خالقة ، مع إرادة الخالق . .

القول بألا إرادة للعبد مع إرادة الرب

وأهل السنة ، هم أصحاب هذا القول .. وقد بَنَوْه على أمرين كذلك :

أولاً : أن كمال الإله هو فى التفرد بكل شىء . . ونفى القدرة عيب ، ونقصان .. والكمال يقتضى أن يكون كل شىء خاضعاً لقدرة الله ، جارياً على ما تقضى به حكمته ومشيئته . .

وثانياً : إثابة المحسن ، ليس لإحسانه وحده ، وإنما ذلك من فضل الله عليه . وتعذيب من يعذبهم الله ، ليس لذنوبهم وحدها ، وإنما ذلك لحكمة يعلمها الله ، وحسْبَ نظام قدَره ، وليس فى هذا ظلم .. لأن الظلم إنما يُنسب لمن يتصرف فى غير مِلكه ، والله سبحانه إنما يتصرف فيما خَلَق ..

وأهل السنّة ـ مع هذا ـ لا ينفون إرادة العبد أصلاً ، كما سنرى بعد ، ولكن يرونها إرادة خاضعة لإرادة الله ، جارية على تقديرها . .

وهناك فريق ثالث ـ وهم الجَبْرية ـ لا يرون للعبد إرادة مطلقاً ، فيقولون

إن أفعال الإنسان اضطرارية ، وأن كل ما يفعله لا إرادة له فيه ، وإنما هو أشبه بآلة تعمل بلا وعى ولا عقل .. وأن المأمورات والمنهيات ليست موصوفة بالحسن والقبح ، وإنما هى أوامر ونواهٍ صادرة من جهة عُليا ، وعلى الإنسان أن يمتثل من غير أن يفكر فى حسن المأمور به أو قبح المنهىّ عنه .. فالإنسان لا يقدر على شىء ، ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور على أفعاله ، لا قدرة له، ولا إرادة، ولا اختيار ، بل يخلق الله تعالى الأفعال فيه ، كما يخلقها فى سائر الكائنات ، وتُنسب إليه الأفعال مجازاً كما ننسبها إلى الجمادات ، كما يقال : أثمرت الشجرة ، وجرى الماء ، وتحرك الحجر ، وطلعت الشمس ..

والثواب والعقاب جبر ، كما أن الأفعال جبر .

هذا هو مجمل القول فى إرادة العبد وإرادة الله ، بين أطراف الخصومة عند جماعات المسلمين .

وأنت ترى بُعد الشُّقة بينهم .. فبينما يقول القدرية : إن العبد خالق لكل أفعاله ، وأن إرادته مطلقة من كل قيد ـ إذ يقول الجبرية : إن العبد لا يفعل شيئا ، وإنما الله سبحانه هو الذى يخلق ما يفعل العبد ، وأن الإنسان والجماد فى هذا سواء ، كلاهما مسيرّ إلى غاية لا يملك من أمره معها شيئا .

أما أهل السنة ، فقد ذهبوا بين الفريقين مذهبا وسطا .. قالوا بإرادة الله العامة الشاملة ، وقالوا بإرادة العبد المحدودة الواقعة فى محيط الإرادة العامة .

وقد دخلت هذه الآراء فى مجال للصراع العنيف ، واجتمع على كل رأى أنصار يدافعون عنه ، ويحتجون له .. وكان الفلاسفة والمتكلمون فرسان الحلبة فى هذا الصراع ، يصولون ويجولون، ويحومون حول الكتاب والسنة ، يأخذون منهما الحجة على خصومهم ، فخلطوا فى هذا بين فطرة الإسلام، وفلسفة اليونان، وما وصل إليهم من معتقدات فارس والهند وغيرهما . وكان من هذا أن

اتسعت شقّة الخلاف بين المتخاصمين ، وانقسمت الفرق المختلفة على نفسها ، فكان لكل فريق مقولات تدور حول الأصل الذى قام عليه الرأى فى المذهب .

تفصيل بعد إجمال

ولكي نتعرف إلى وجه الحق فى هذه القضية ، يجب أن ننظر فى آراء هذه الفِرَق ، وفى الأدلة التى قدموها بين يدى هذه الآراء ، ثم إن لنا بعد هذا رأينا ، الذى نفقهه من ديننا ، بعيداً عن التعصب المذهبى ، أو التحزّب الطائفى ، وخالصاً من كل غرض ، إلا ابتغاء الحق ، وإلا إقامة العقيدة على الحق الذى نزل به الكتاب ، وبيّنه الرسول.. كلّ هذا فى إيجاز شديد ، لأننا نعالج قضية شُغل بها العقل الإنسانى منذ كان ، وإلى أن يخلى مكانه من هذا العالم ، وقد خلّف وراءه محصولاً من الآراء والمقولات لا حصر لها .

آراء القدرية

برز من المعتزلة عدد غير قليل من ذوى اللَّسَن والرأى . . قالوا بالقَدَر ، و سُمّوا بالقدرية ، لأنهم يقولون إن العبد قادر على خلق أفعاله ، مختاراً غير مضطر . .

وقد استطاعوا بما لهم من فصاحة وعقل أن يصوروا آراءهم فى منطق ، وأن يصوغوها فى قوالب من الفصاحة والبلاغة ، بما كان لهم من نظر فى كتب الفلسفة والمنطق ، وبما اطلعوا عليه من المعتقدات الدينية الوافدة مع الداخلين فى الإسلام من كل أمة .. فكانت لهم فلسفة ، وكان لهم أدب . . وحسبك أن يكون من رجال هذه الطائفة . . واصل بن عَطَاء ، والنَّظّام ، وأبو الهُزَيل العلّاف ، والجاحظ ، وجميعهم أئمة فى الأدب ، كما أنهم أئمة فى الرأى . .

وهذه مقولات لبعض رجالهم

رأى واصل بن عَطَاء :

يقول واصل بن عطاء : « إن الله تعالى حكيم عادل ، ولا يجوز أن يضاف إليه شر وظلم ، ولا يجوز أن يريد من العباد خلاف ما يأمر به ، وأن يحكم عليهم شيئاً ثم يجازيهم عليه » !

وهذا الذى يقوله واصل ، حق لا شك فيه .. فالله حكيم عادل ، ولكن مع حكمة الله وعدله ، قدرتُه وإرادتُه ، والقدرة والإرادة يقضيان بألا يقع فى ملكه غير ما يشاء ويريد ..

والسؤال هنا : هل الإنسان من القدرة والاستطاعة بحيث يتحكم فى الأسباب الخارجة ، التى تُصادم القوى التى أودعها الله فيه .. من عقل وإرادة . . ؟

يقول واصل : « فالعبد هو الفاعل للخير والشر ، والإيمان والكفر ، والطاعة والمعصية ، وهو المجازَى على فعله ، والرب أقدره على ذلك كله » .

ونقول : إذا كان الله أقدرَ العبدَ على كل ما يفعل من خير وشر ، وإيمان وكفر ، وطاعة ومعصية ــ فماذا بقى للعبد إذن ؟ وكيف يضاف إليه كل ما يفعل ، وهو إنما يفعل بالقدرة التى أقدره الله بها على فعل ما يفعل ؟ كيف يتفق هذا مع ذلك . ؟

ويقول واصل أيضاً :

« ويستحيل أن يخاطب الله العبد « بافْعلْ » وهو لا يمكنه أن يفعل . . ؟

« وهو ـ أى العبد ـ يحسّ من نفسه الاقتدار والفعل . . ومن أنكره فقد أنكر الضرورة » !

ونقول : إن مفهوم هذا القول يقتضى أن يقوم إزاءه قول آخر .. وهو : إنه يستحيل أن يخاطب الله العبد بألا تفعلْ ثم لا يمكّنه من ألاّ يفعل !

وإذن، فيكون الوضع الصحيح للمسألة على مقتضى هذا الرأى ، هو :

أولا : أن الله يأمر العبد بأن يفعل ، ويمكنه من أن يفعل .. وهذا فى باب الخير والمعروف ، فيفعل كل ماهو خير ومعروف .

وثانياً : أن الله ينهى العبد ألا يفعل المنكر ، ويمكّنه من ألا يفعله .. وهذا يشمل المنهيات جميعاً ، فلا يفعل العبد ماهو شر ومنكر أبداً . . وهذا غير واقع .. فما أكثر ما يأتى الإنسان ما نَهَى اللهُ عنه من فواحش

وعلى هذا ، فالعبد إنما يفعل مايفعل من خير أو شر بما أودع الله فيه من قدرة ، فإذا فعل العبد خيراً فبما أودع الله فيه من قدرة على فعل الخير ، وإذا فعل شرًّا فبما فيه من قوة لا تستطع أن تدفع الشرّ الذى فعل .

ماذنب العبد إذن ؟ أهذا يتفق مع العدل الذى يقوم عليه مذهب المعتزلة ؟ ألا ينتهى هذا الرأى إلى القول بالجبر ؟

«ويكاد واصل » يقول هذا .. ولكنه يردّه عن ذلك مايرى من عدل الله وحكمته ، فهو يريد أن يدفع عن عدل الله تبعة الأعمال السيئة التى يجازَى عليها المسيئون ، كما يدفع عن حكمة الله هذه الشرور التى تقع فى محيط الناس .

أترى أن واصلا كان عادلاً فى هذا الحكم ؟ إنه نظر إلى المسألة من جانب واحد .. جانب الإنسان العاجز الضعيف ، وعلّق فى عنقه كل هذه الشرور والآثام . .

رأى أبى علىّ الجبّائى وابنه أبى هاشم

يقولان : « إن الله تعالى لم يدّخر عن عباده شيئاً يعلم أنه إذا فعل بهم أتوا بالطاعة والتقوى .. من الصلاح والأصلح ، واللطف ، لأنه ـ تعالى ـ قادر ، عالم ، جواد ، حكيم ، لايضرّه الإعطاء ، ولا ينقص من خزائنه المنح ، ولا يزيد فى ملكه الادخار .. ولايقال إن الله تعالى يقدر على شىء هو أصلح مما فعله بعبده ثم لم يفعله .. والتكاليف كلها ألطاف ! ! »

وواضح أن هذا القول يجعل أفعال العبد كلها مرضيّة عند الله ، خيرها وشرها ، لأن الله لم يدخر عن عباده شيئاً من الصلاح والأصلح واللطف ..

وإذن .. فلا خير ولا شر .. فالتكاليف ـ كما يقولان ـ كلها ألطاف ، وما يأتى العبد منها وما يدع ، إنما هو غايةُ ما أعطى الله العبدَ من قوى ، وليس وراء هذا شىء يمكن أن يمنحه الله العبدَ غير الذى منح .

ونقول : هل على هذا يقال : إن العبد حرّ مختار ، يفعل مايشاء ؟

نعم : إنه يفعل مايشاء فى حدود هذه الطاقة التى أمدّه الله بها ، والتى هى كل ماعند الله له .. كما يقولان !

وإذن فلم يحاسب العبد ويعذّب على الشرّ الذى يفعله ، وهو لم يفعل إلا بما مكن الله له منه ، وأقدره عليه . . ؟

رأى النّظام

يرى النظام أن القَدَر خيرَه وشرَّه منّا ، وأن الله تعالى لايوصف بالقدرة على الشرور والمعاصى ، وليست هى مقدورة للبارئ تعالى .. ويرى النظام أن الله لايقدر أن يخلق أكثر مما خلق بالفعل ، وإلا فمن ذا الذى يستطيع أن يحول بينه وبين أن يُظهر كلَّ ماعنده من الجود والجمال ؟ » .

ونقول : كيف يقف شيء أمام قدرة الله ؟ وهل تقع هذه الأمور التي نراها شراً إن لم تكن من تقدير الله ؟ وهل يدخل على نظام هذا الملك شيء لا يريده الله ؟

لقد ردّ أصحاب « النظام » أنفسهم على هذا ، فقالوا : إن الله قادر على الشرور والمعاصي ، ولكنه لا يفعلها لأنها قبيحة .

ونقول : إذا كانت تلك الأمور التي يصفونها بأنها قبيحة ، هي قبيحة فعلا .. فلم يَدَعُها الله سبحانه تدخل في نظام مُلكه الذي أقامه ؟

هذا قول متهافت ، لا يستقيم أوله مع آخره ..

ونستطيع بعد هذا أن نقول : إن أقوال المعتزلة في قدرة الإنسان لم تقم على منطق سليم ، ولم تستقم على طريق واضح .

الله عادل .. ما في ذلك شك .

ومقتضى هذا العدل أن تُجزَى كل نفس بما كسبت .. فالعبد كاسب لأفعاله ، أي أنها جرت على يديه . وبمحض إرادته .. ولكنه مع هذا واقع تحت إرادة الله ، خاضع لمشيئته .

وللنظام رأي في إرادة الله ، وأن معنى الإرادة عنده ليس هو معنى المشيئة ، لأن الإرادة بمعنى المشيئة تستلزم حاجةً من جانب المريد ، ولهذا يقول : « إن الله إذا وُصف بأنه مريد لأفعاله ، فمعنى ذلك أنه خالقها ومنشئها ، وإذا وُصف بأنه مريد لأفعال عباده أو وقوع أمر ، فمعنى ذلك أنه حاكم بذلك ، أو آمر ، أو مخبر » .

وهذا الفهم للإرادة بأنها تستلزم حاجة من جانب المريد ، إنما هو فهم مَقيسٌ على المستوى الإنساني ، حيث إرادتنا محصورة في دائرة حاجاتنا ومطالبنا ..

فلا نريد إلا ما نحن فى حاجة إليه . . ذلك فهم يتفق مع عالم النقص الذى نحن فيه ، فتكون إرادتنا متحركة فى هذا العالم حسب حاجتنا ، ساعية إلى سدّ ما نشعر به من نقص .. إننا نريد كذا ، لأجل كذا ..

أما عالم الكمال ، فما يصدر عنه لا يصدر لحاجة ، وإن صدر بإرادة ومشيئة ، ولن يصدر بغير إرادة ومشيئة .. إنه يجرى مع الحكمة التى يطلبها الكمال ..

مما تقدم يمكن أن نقول :

أولا : إن المعتزلة قد بالغوا فى رفع قيمة الإنسان ، وكادوا يجعلون منه إلها مستقلا بسلطان وجوده ، لا يلتفت إلى ما وراء وجوده فى صراعه مع الحياة ، وفى تقلبه بين خيرها وشرها .

ولاشك أن هذه « الانعزالية » عن العالم العلوى ، تحرم الإنسان كثيراً من أمداد الاستعانة بالخالق جلّ وعلا ، كما أنها تدفع داعية التوكل على الله ، والرضا بقضائه وقدره ، بعد أن ينفذ القضاء ، ويقع المقدور ، فيكون فى هذا عزاء جميلا عما وقع للإنسان مما يكره ويسوء .

ثانياً : أن المعتزلة فى دفعهم للإنسان إلى هذا الحدّ ، قد جاروا على الإنسان نفسه ، وخلّوا بينه وبين ذاته ، وألزموه أموراً وحمّلوه أوزاراً يلقى بها ربه فى غير رجاء ، كما جعلوا صوالح أعماله حقّا ملزِماً لله، يطالبه به العبد فى غير حياء !

وتلك حال يدخل فيها الضيم على الإنسان من كل وجه .. فإن أى إنسان مهما بلغ من التقوى والكمال ، ومهما قدّم من خير وبرّ ، فهو فى حاجة أبداً إلى فضل الله ،وإنّه لن يدخل الجنة بعمله ، لأن أعماله مهما عظمت لن تفى بالقليل من بعض نعم الله وفضله عليه .. وفى هذا يقول الرسول الكريم .. « إنكم لن تدخلوا الجنة بأعمالكم » .. قالوا ولا أنت يارسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلاّ أن يتغمّدنى الله برحمته »

ولهذا وجد كثير من أنصار المعتزلة حَرَجاً فى الأخذ بقولهم هنا ، من إطلاق قدرة الإنسان وإرادته ..

فهذا إمام من أئمتهم ، وهو « الجاحظ » لايرضى أن يقرر مذهب المعتزلة فى هذه المسألة على هذا الوجه .. بل إنه ليصل إرادة العبد بإرادة الله .. يقول الجاحظ : « لافضل للإنسان إلا بالإرادة » .

ومعنى هذا أن للإنسان إرادة ، وأنه بغيرها لايكون أحسنَ من الحيوان حالا ، ولا أكرم منزلة ..

ولكن هذه الإرادة التى يحملها الإنسان فى كيانه لاتعمل وحدها ، هكذا مطلقة من كل قيد ، فهى متصلة أولاً بكيان الإنسان كله ، وهى ثمرة من ثمرات التفاعل الذى يجرى فى هذا الكيان ، الذى هو متصل بهذا الوجود كلّه ، مقيد به ، ومؤثر فيه ، ومتأثر به .. وفى هذا يقول الجاحظ :

« لأن أفعال الإنسان كلها داخلة فى نسيج حوادث الطبيعة من جهة ، ولأن علم الإنسان كلّه اضطرارى يأتيه من أعلى .. من جهة أخرى » .

ومعنى هذا أن الإرادة التى يعمل بها الإنسان ليست كلها له ، لأنها فرع العلم الذى يحصّله اضطراراً ، والذى يأتيه من أعلى ..

ونسأل : وأين إرادة الإنسان إذن ؟

نكاد نقول إن الجاحظ يقول بالجبر والاختيار معاً ..!

ثالثاً : إن المعتزلة وهم يحاولون أن يدافعوا عن « عدل الله » بإضافة أقوال الإنسان كلها ـ خيرها وشرها ـ إلى الإنسان ـ أقول : إنهم بهذا الدفاع قد أنكروا على الله أن يكون قادراً ومريداً ، مطلق القدرة ، ومطلق الإرادة ، أى ذا قدرة وإرادة شاملتين .. والقدرة والإرادة بهذا الوصف ـ من صفات الكمال . فكيف لايتصف الخالق بهما ؟ تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً ..

ثورة على المعتزلة

لهذا لم يرتض كثير من المسلمين آراء المعتزلة ، وإن حمدوا للكثير منهم دفاعهم عن الدين ، وكسرهم من حدة السلبية ، التى استولت على المجتمع الإسلامى ، بعد تلك الفتن الكثيرة ، والجراحات القاتلة ، التى أصابت الصميم من الجسد الاجتماعى الإسلامى ، التى أصابت المسلمين ، بعد مقتل الإمام على - كرم الله وجهه - ومصارع أهل البيت - رضوان الله عليهم - وامتحان كثير من صحابة رسول الله ، والتابعين ، على يد الخلفاء الأمويين والعباسيين على السواء . .

فكان الاستسلام للأحداث ، والتسليم بالهزيمة هو العزاء لكثير من النفوس ، حتى لقد كان لسان حال الناس فى كل أمر هو : هذا ما قضى الله وقدره ! وكان هذا القول - وهو قول حق - يقال فى كل حال داعية إليه ، أو غير داعية ، يتعزى به الناس عند كل مصيبة ، ويستدعونه عند كل نازلة ، دون استحضار هممهم ، وبذل جهدهم .. والقول بأن هذا قضاء الله وقدر الله ، هو قول حق ، ولكن الاستنامة فى ظل هذا القول ، وإلقاء كل أخطائنا على القدر ، هو الذى لا يرضاه ، عقل ، ولا يقره دين[1] .

من أجل هذا قام المعتزلة فى وجه هذه الظاهرة ، وتصدوا لتلك الدعوة المريضة ، ولكن بدلاً من أن يقتصدوا فى تقرير مسئولية الإنسان ، وفى إبراز شخصيته ، وإثبات وجوده مع أحداث الحياة - بالغوا أيما مبالغة فى هذا الأمر ، فبعد أن كان القول الذائع بأن إرادة الله فوق كل شىء ، وإرادة العبد لا شىء - أصبح القول عند المعتزلة هو : إن إرادة العبد هى كل شىء ، وإن إرادة الله لا شىء ! .

---

(١) انظر بحثنا فى القضاء والقدر فى كتابنا « القضاء والقدر بين الفلسفة والدين » .

وهكذا اندفع المعتزلة زمناً وراء هذه الدعوة، وجروْا بها أشواطاً بعيدة، حتى وقع الخلاف بينهم، وقام فيهم من يردّ عليهم، ويوقف انطلاق دعوتهم.. وكان « الأشعرى » فارسَ هذه الحلْبة، ورجل هذا الميدان!.

رأى أهـــل السنة

الأشعرى: هو تلميذ أبى علىّ الجبّائى ـ أحد أئمة المعتزلة. ولـكنّه لم يرتض قول المعتزلة فى إطلاق إرادة الإنسان واختياره، .. فـكان له رأيه الذى أصبح ـ فيما بعد ـ الرأىَ الذى تقول به الجماعة، (أى أهل السنّة).

يقول « دى بور » فى كتابه تاريخ الفلسفة الإسلامية: « وظهر من بين صفوف المعتزلة رجل كانت رسالته أن يتوسط بين مختلف الآراء، ويقيم بناء المذهب الذى عُرِف فى الشرق، ثم فى بلاد العالم الإسلامى، بأنه مذهب السنّة..

« استطاع الأشعرى أن يجعل لله ما يليق به، دون أن يتحيّف حق الإنسان.. فالإنسان عنده يمتاز بأنه يستطيع أن يضيف إلى نفسه مايخلقه الله فيه من الأفعال، وأن يعْتبرَ ذلك من كسبه » ..

وليست مكانة الأشعرى عند جمهور المسلمين فى هذا الرأى الذى قرّره.. كما يقول « دى بور » ـ فإن هذا الرأى فى ذاته غير واضح المعالم، وغير مقنع فى قضية القدر ـ كما سنرى ـ ولـكن قيمة الأشعرى ومكانته، إنما هى فى خروجه على المعتزلة، ووقوفه فى وجههم، وتصدّيه لهم وهم أوْج قوتهم.

يقول « طاش كبرى زاده » فى كتابه: « مفتاح السعادة »: « ودفع ـ أى الأشعرى ـ الـكتب التى ألفها على مذهب أهل السنة، وكانت المعتزلة قبل ذلك قد رفعوا رءوسهم، فجحَرَهم الأشعرى، حتى دخلوا فى أقماع السمسم»!!

ويعلّق المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق على هذا بقوله : « إذا كان مذهب الأشعرى فى محاربة المعتزلة بمثل سلاحهم ، من أساليب النظر العقلى ـ قد أضعف الاعتزال ، وأذلّ سلطانه ، فإن السياسة كان لها كبير الأثر فيما ناله الاعتزال من القوة والسيادة أولا ، وكان لها أثرها فى نزوله عن عرشه أخيراً » .

إن الأشعرى ، قد وقف فى وجه المعتزلة ، فانتزع منهم الإنسان الذى جعلوه فى بعض أحواله خالقاً ، منفرداً بخلق أفعاله وتدبير وجوده ، حتى لكأنه يطاول إله العالمين ، وينازعه سلطانه ـ انتزع الأشعرى هذا الإنسان الإلٰهى ، ونزل به إلى واقع الحياة البشرية ، فجعله « كاسباً » لأفعاله ، لا خالقاً لها ، عاملاً بإرادته ، ولكن فى ظلٍّ مِن إرادة الله ومشيئته . .

[كسب الإنسان]

فتح الأشعرى بنظرية « الكسب » التى أحلها محل « الخلْق » الذى تقول به المعتزلة ـ نقول : فتح باباً دخل منه كثير من الفلاسفة والمتكلمين على هذا الشيء الذى سماه الأشعرى كسباً ، والذى يراه فى الإنسان ، متلبساً بإرادته ، معلقاً بمشيئته . .

وقد عدّ كثير من العلماء والباحثين قولَ الأشعرى لغزاً تندّروا به ، ووضعوه موضع العُقد التى لا يُعرف لها حَلّ ، وذلك أنهم لم يروا فارقاً واضحاً بين « الخلق » الذى تقول به المعتزلة ، وبين « الكسب » الذى يقول به الأشعرى ، ويراه مناقضاً للقول بالخَلْق .

يقول ابن تيمية فى تفنيد نظرية الكسب : « ولا يقول الأشعرى : إن العبد فاعل فى الحقيقة ، بل كاسب ، ولم يذكر بين الكسب والفعل فرقاً معقولا ، بل حقيقة قولهم ـ أى الأشعرية ـ قولُ جَهم : (هو جَهْم بن معبد ، رأس الجبرية) إن العبد لا قدرة له ، ولا فعل ولا كسب .

وقد نظم بعضهم هذا شعراً، وقرَن نظرية القول « بالكسب » إلى نظرية القول « بالطفْرة » عند النظام، والقول « بالحال » عندهم أبى هاشم : فقال :

مما يُقال ولا حقيقة عنده معقولةً تدنو إلى الأفهام

الكسب عند الأشعرى والحال عِنْد البهشمىّ وطفرة النظام[1]

والذى جعل الأشعرى يقول « بالكسب » هو ما رآه فى الإنسان من أرادة وقدرة على الفعل أو الترك، ثم ما يراه من جهة أخرى من قدرة الله المطلقة الشاملة، وعلمه المحيط بكل شىء، فلم يَرْتَضِ أن يقول إن العبد خالق لأفعاله، لأن الخلق لله، ولم يقبل أن يجعل العبد آلة مسخرة، لأنه يراه يعمل بإرادة، ويتحرك بقدرة، ويُقدم أو يحجم عن تقدير وتفكير . . فلا بد ـ والأمر كذلك ـ أن يضيف إلى الإنسان شيئاً مما يعمل، لا كل ما يعمل، وسَمَّى هذا « كسباً » .

يقول الأشعرى : « والعبد قادر على أفعال العباد . . إذ الإنسان يجد من نفسه تفرقة ضرورية، بين حركات الرِّعدة والرعشة، ـ التى هى حركات اضطرارية ـ وحركات الاختيار والإرادة . . إن الحركات الاختيارية حاصلة من اختيار القادر ..والمكتسَب هو المقدور بالقدرة الحادثة » .

وعلى أىٍّ، فإن نظرية « الكسب » هذه، قد أثارت جوًّا من التفكير عند الباحثين فى هذه المشكلة، وكانت معتمَدَ الذين لا يقولون بقول المعتزلة، من أن للإنسان اختياراً مطلقاً فى أفعاله، وإنَّما للإنسان نوع من الاختيار، ودرجة من الإرادة، حيث يضعون الإنسان فى منزلة بين الاختيار والجبر،

---

(١) البهشمى : هو أبو هاشم ووالده أبو على الجبائى من شيوخ المعتزلة . . وقد ركب اسمه « أبوهاشم » تركيباً مزجياً « بهشمى » .

فلا هو مختار مطلق ، ولا هو مجبر ملزَم .. إن له إرادة ، ولكنها إرادة مقيدة بأكثر من قيد .

ولقد صار الأشعرى بقوله هذا زعيما لحركة أطلق عليها لفظ « الأشاعرة » نسبة إليه ، ثم أصبحت هذه الحركة معبرة عن رأى أهل السنة .

وقد ظاهر هذه الحركةَ كثير من علماء السنّة وفقهائها .. منهم إمام الحرمين .. أبو المعالى الجُوينى ، والقاضى أبو بكر الباقلانى ، وفخر الدين الرازى ، والإمام الغزالى ، ولسان الدين بن الخطيب .. وكثير غيرهم .

حركة الأشاعرة

يدور رأى الأشاعرة ـ كما أشرنا من قبل ـ على القول بأن الإنسان فى « منطقة » حرام ، بين الجبر والاختيار ..

فالإنسان مختار فى قالبٍ مُجبر ، وأنه أشبه براكب سفينة تمخر عُباب المحيط ، فهو حرٌّ مختار يسير كيف يشاء ، وأين يشاء ، داخل هذه السفينة ، ولكنه مجبر مسيَّر هو وسفينته بعوامل خارجيـــة تحيط به وبالسفينة .. كالأنواء ، والعواصف وغيرها .. مما يتصل بسلامة السفينة وقوة احتمالها .. كذلك الإنسان فى سفينة الوجود ! هو حرّ مطلق ، ولكنه مقيد بالنظام العام للوجود!

فالأشاعرة هنا قريبون من الفلاسفة الغربيين القائلين بنظرية الاتفاقية ، أو الظروف والمناسبات .. ومعناها أن كل فعل إنما هو فى الحقيقة لله ، ولكنه يظهر على النحو الذى يظهر فيه ، إذا تحققت ظروف خاصة : إنسانية ، أو غير إنسانية ، حتى لكأنما يُخَيل للإنسان أن الظروف هى التى أوجدت هذا الفعل ..

والأشعرى ، يرى ألا تأثير للقدرة الحادثة فى الأحداث ، وإنما جرت سنّة

الله بأن يُلازم بين الفعل المحدَث وبين القدرة المحدِثة له ، ويسمَّى هذا الفعل كسباً ، فيكون خلقاً من الله تعالى ، وكسباً من العبد ، فى متناول قدرته واستطاعته . .

هذا هو المحتوى الإجمالى لمذهب « الأشاعرة » غير أن لكل صاحب قول فى هذا المذهب اتجاهاً خاصاً فى تقرير هذه القضية ، وتحريرها .. كما سنرى فى عرض هذه النماذج من المقولات .

لسان الدين بن الخطيب ورأيه فى الكسب

يرى لسان الدين بن الخطيب ،أن الكسب فعل يخلقه الله فى العبد ، كما يخلق فيه القدرة ، والإرادة ، والعلم . . فيضاف الفعل إلى الله « خلقاً » لأنه خالقه ، وإلى العبد « كسباً » لأنه محلّه الذى قام به . .

يقول ابن الخطيب :

« وإذا كانت العرب تقول : حرّكت القضيب فتحرك ، فتجعل الحركة بين فاعلين ، حركة للمتحرك ، وفعلا للمحرّك ، فذلك ـ أى مايصدر عن الإنسان ـ أقرب ، لوجود القصد، والعلم ، والقدرة . .فى محيط الإنسان .. ثم إن الطاعة والمعصية للعبد من حيث الكسب . ولا طاعة ولا معصية ـ أى للعبد ـ من حيث الخلق !

« والخلق لايصح أن يضاف إلى العبد ، لأنه إيجاد من عدم ، والفعل موجود بالقدرة القديمة ، لعموم تعلق القدرة الحادثة بها .. فالقدرة الحادثة تتعلق ولا تؤثر .. وهذه ـ أى القدرة الحادثة ـ تصلح للتأثير لولا المانع ، وهو وجود القدرة القديمة ، لأنهما إذا تواردا ـ أى اجتمعا : القدرة القديمة والحادثة ـ لم يكن للقدرة الحادثة تأثير !! »

فابن الخطيب ، يرى للإنسان قصداً ، وعلماً ، يلقَى بهما ضروب الأمور

فى الحياة .. فهذا جانب حر ، أو منطقة حرّة فى كيان الإنسان .. ولكنه يرى من جهة أخرى أن الأفعال كلها مخلوقة لله ، بإرادة أزلية سابقة شاملة ، وأن إرادة الإنسان لاتؤثر فى القدرة القديمة ..

فالإنسان محكوم عليه أن ينفّذ ماوقع فى إرادة الله ، وأن إرادة الإنسان ، وقصده ، وعلمه ـ كل هذا ، لايغيّر من المقدّر عليه شيئاً .. فالإنسان حر إلى أن يفرغ من الفعل الذى قُدّر عليه بإرادة سابقة أن يقع على يديه .

ونسأل : ماقيمة هذه الحرّية مع ماسبق من إرادة الله وقدرته ؟ إن الإنسان فى ظاهر الأمر يبدو حرًّا طليقاً ، ولكن قوة غير ظاهرة هى التى تقوده إلى ماسبق به علم الله ، وقضت به إرادته .. ومرة أخرى : ماقيمة هذه الحريّة ؟ أتُراها تدفع شيئاً مما قضى به الله وقدّره ؟

والجواب : كلا .. إنها لاتدفع قضاء ولا تردّ قدَراً .. ولكنها حرية تتيح للإنسان أن يبُرز ذاته ، وأن يُعْمِل قواه كلها ، وأن يفرض وجوده على الحياة ، وأن يبسط سلطانه على الأشياء ، وإن تفلّتت منه وخرجت من يديه !

وذلك شىء ليس بالقليل فى وجود الإنسان الذى لاقيمة له بغير هذه الحرية التى تمنحه الاستعلاء على الأشياء ، وتُريه من نفسه أنه قادر ، مستطيع ، عالم ، مُريد .. وإن لم يكن قادراً ، ولا مستطيعاً ، ولا عالماً ، ولا مريداً .

إمام الحرمين ورأيه فى الكسب

هو أبو المعالى ، عبد الملك بن عبد الله الجوينى ، المعروف بإمام الحرمين (توفى سنة ٤٧٨ هجرية) .

وقد نزع بنظرية الكسب منزعاً آخر .. إنه يطلق حرّية الإنسان من

جانب ، ويربطه بالأسباب الخارجة عن محيطه من جانب آخر .. ثم يجعل أفعال الإنسان ـ تبعاً لهذا ـ قِسْمةً بين إرادته وبين الأسباب اللازمة .

يقول :

« نَفْى القدرة والاستطاعة عن الإنسان ، مما يأباه العقل والحسّ .. فلابدَّ إذن من نسبة فعل العبد إلى قدرته حقيقة ، لا على وجه الإحداث والخلق .. فإن الخلق يُشعر باستقلالٍ فى إيجاد الفعل من العدم ، وذلك من شـأن الله وحـده . .

« والإنسان كما يُحسّ من نفسه الاقتدار ، يحسّ من نفسه أيضا عدم الاستقلال .. فالفعل يستند وجوداً إلى القدرة ـ أى القدرة الإنسانية .

« والقدرة تستند وجوداً إلى سبب آخر يكون نسبة القدرة إلى ذلك السبب كنسبة الفعل إلى القدرة !

« وكذلك يستند سبب إلى سبب ، حتى ينتهى إلى مسبب الأسباب .. فهو ـ أى الله ـ الخالق للأسباب ومسبباتها ، المستغنى على الإطلاق .. على خلاف الأسباب ، فإن كل سبب مستغنٍ من وجه ، محتاج من وجه ، والبارى تعالى ، هو المطلق الذى لاحاجة له ولا افتقار . »

ورأى إمام الحرمين ـ كما ترى ـ غير صريح فى حرّية الإنسـان واضطراره ، إنه يضع الإنسان فى منطقة الذبذبات الاختيارية المقيدة فى مجال الاضطرار ..

انظر :

الفعل يستند وجوداً إلى القدرة ، أى القدرة التى تحمل الإنسان على اختيار فعل دون فعل .. وهذا واضح .

والقدرة تستند وجوداً إلى سبب !

ومعنى هذا أن القدرة التى يواجه بها الإنسان أىّ أمر هى وليدة سبب ، وهذا السبب الذى به أصبح الإنسان ذا قدرة ، يتولد من أسباب كثيرة ، بعضها وراثى ، وبعضها كسبى ، وهى فى الواقع كل كيان الإنسان ، الذى ليس للإنسان — فى الواقع — أثر كبير فى تكيينه .

فهذه الأسباب التى توجِد القدرةَ ، هى موضع النظر فى هذه القضية .. فمن أوجدها وقدّرها ؟ هذا هو أساس المشكلة التى يُطلب علاجها . .

ثم أليس هذا هو رأى « الجاحظ » المعتزلى ، الذى يقول : إن أفعال الإنسان كلها داخلة فى نسيج حوادث الطبيعة ، وإن إرادة الإنسان هى القوة العاملة فيه ، وإن هذه الإرادة هى فرع العلم ، وثمرة من ثمراته ، وإن العلم اضطرارى يأتى من أعلى ؟

فالإنسان بمقتضى هذا القول ، عند إمام الحرمين ، مجبر فى صورة مختار ، أو مختار فى حال مقيد !

رأى الغزالىّ في الكسب

يذهب الغزالى فى قضية القَدَر مذهب التسليم ، فيأخذ بظاهر آيات الكتاب ، ولا يرضى لعقله الفلسفى أن يتناول هذه القضية .

يقول الغزالى : « الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعاً ، وخلق الاختيار والمختار جميعاً . فأما القدرة فوصف للعبد ، وخَلْق للرب ، وأما الحركة، فخلْق للربّ ، ووصف للعبد وكسب له » .

ومعنى هذا — كما يقول الغزالى — أن الله خالق كل شىء . . القدرة والمقدور

جميعاً . . فليس للعبد شيء إذن ، إن له بالعمل نوعاً من الصلة ، وهو الكسب الذى يقول به الأشعرى !

ثم يقول الغزالى : « واعلم أن من ظن أن الله تعالى أنزل الكتب ، وأرسل الرسل ، وأمر ونهى ووعد وتوعّد ، لغير قادر مختار – فهو مختَلّ المزاج ، محتاج إلى علاج » !!

وهذه حجة اعتمد فيها الغزالى على النقل ، أكثر من اعتماده على العقل . .

رأى الفارابى فى الكسب

يقول الفارابى :

« وللنفس بطبيعتها نزوع ، ولمّا كانت تحس وتتخيّل فلها إرادة كسائر الحيوان ، غير أن الاختيار للإنسان فقط . . لأن الاختيار يقوم على الرويّة ، وميدانه ميدان العقل الخالص . . فالاختيار متوقف على أسباب من الفكر . . فكان الاختيار والاضطرار فى وقت واحد . لأنه – أى العقل – بحسب أصله الأول ، مقدّر فى علم الله .

ثم يقول :

« والاختيار الإنسانى ، إذا فُهم على هذا النحو لا يستطيع أن يقهر الشهوة إلا قهراً ناقصاً ، لأن المادة تقف فى سبيله ، وعلى هذا لا تكتمل حرّية النفس الناطقة إلا إذا تحررت من قيود المادة ، أعنى إذا صارت النفس عقلا ! »

وواضح أن رأى الفارابى يتفق مع رأى إمام الحرمين . . لأن الاختيار الذى يقول به ، متوقف على أسباب من الفكر . . والعقل مقدّر فى علم الله ، والإنسان إنما يعمل بما وهبه الله من عقل . .

رأى الفليسوف محمد إقبال

ويقول الفيلسوف الباكستانى محمد إقبال فى هذا الموضوع :

« ولاشكّ أن ظهور ذوات لها القدرة على الفعل التلقائى ، ومن ثَمّ يكون فعلها غير متنبَّأ به ـ يتضمن تحديدًا لحرية الذات المحيطة بكل شىء »
يريد إقبال أن يقول : إن إرادة الإنسان التى تَخْلُقُ من تلقاء نفسها ، فيها تحديد لإرادة الله المطلقة ، إذ كانت هناك إرادات تعمل مستقلَّة عن تلك الإرادة الشاملة . .

ثم يقول إقبال :

« ولـكنّ هذا التحديد لم يُفْرض على الذات الأولى ـ ذات الله ـ من خارج ، بل نشأ عن حريتها الخالقة التى شاءت أن تصطفى بعض الذوات المتناهية ـ أى ذوات البشر ـ لتقاسمه . . فى الحياة ، والقوة ، والاختيار ! » .

ومعنى هذا ـ كما يقول إقبال ـ أنه لاتعارض بين إرادة الله وإرادة الإنسان ، فالله سبحانه بإرادته الشاملة خلق إرادات تعمل فى حدود معينة ، هى حدود الإمكان البشرى .

ثم يقول إقبال : « وربّ سائل يقول : ولـكن كيف يكون فى الإمكان التوفيق بين التحديد ، وبين القدرة المطلقة ؟

ويجيب على هذا بقوله :

« وكل فعل ، سواء أكان متصلاً بالخالق ، أم غير متصل به ، هو نوع من التحديد ، يستحيل بغيره أن نتصوّر الله ذاتاً فعّالة متحققة الوجود فى الخارج . . ولو أننا تصورنا القدرة المطلقة تصوراً مجرداً ، لـكانت مجردَ نوع من قوة عمياء ، متقلبة الأهواء ، ولا حدّ لها . .

« والقرآن يصوّر الطبيعة تصويراً واضحاً محدداً ، بوصفها عالماً يتألف من قوّى يتعلق بعضها ببعض ، وعلى هذا ، فهو — أى القرآن — يعتبر قدرة الله المطلقة وثيقةَ الصلة بحكمته الإلٰهية ، ويرى أن قدرة الله غير المتناهية ، تتجلّى لا فيما هو متعسف صادر عن الهوى ، وإنما فى المتواتر ، المطرد ، المنظم » .

يريد إقبال أن يقول : إن كل الحوادث الواقعة فى الوجود ، هى فى الواقع تحديد لقدرة الله ، لأنها — أى القدرة — تجرى بما اقتضته الحكمة الإلٰهية التى أودعت فى الوجود نظاماً مطرداً ، والنظام فى ذاته قيد من غير شك !

ثم يقول إقبال فى موضع آخر :

« فالمعصية الأولى للإنسان — معصية آدم — كانت أولَ فعل — أى للإنسان - تتمثل فيه حرّية الاختيار ، ولهذا تاب الله على آدم ، وغفر له ..

« وعمل الخير لا يمكن أن يكون قسراً ، بل هو خضوع عن طواعيّة للمَثَل الأخلاقى الأعلى ، خضوعاً ينشأ عن تعاون الذوات الحرة المختارة ، عن رغبة ورضًى .

« والكائن الذى قُدّرت عليه حركاته كلها ، كما قدرت حركات الآلة ، لا يقدر على فعل الخير . . وعلى هذا فإن الحرية شرط فى عمل الخير . .

« ولكن السّماح بظهور ذات متناهية لها القدرة على أن تختار ما تفعل بعد تقدير القيم النسبية للأفعال الممكنة لها — هو فى الحق مغامرة كبرى ، لأن حريّة اختيار الخير ، تتضمن حرية اختيار عكسه . .

« وكون المشيئة الإلٰهية اقتضت ذلك ، دليل على ما لله من ثقـــة فى الإنسان . . » (ولقد بقى على الإنسان أن يبرهن على أنه أهل لهذه الثقة !)

« وربما كانت مغامرة كهذه ، هى وحدها التى تيسّر الابتلاء ، والتنبيه للقوى الممكنة لوجود « خَلْق » « فى أحسن تقويم » ثم رُدَّ إلى « أسفل سافلين » وكما يقول القرآن : « ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة » . .

وهذا ـ فى رأينا ـ أعدل رأى فى هذه القضية ! !

* * *

ويعجبنى فى هذا المقام رأى للفيلسوف الأمريكى « رويس » يصوّر به الصلة بين الله والإنسان ، وهى صلة ـ كما يراها الفيلسوف ، تجعل لله ـ سبحانه ـ القدرة المطلقة ، كما تجعل للإنسان قدرة عاملة داخل قدرة الله . . ويضرب الفيلسوف لهذا مثلاً محكماً من الرياضيات ، التى تُعتبر أكثر المعارف دقة وانضباطاً . .

والمَثَل الذى ضربه « رويس » هو أنه وضع لله سبحانه وتعالى دلالة من الأعداد ، هى سلسلة ـ تبدأ بالواحد ، ولا تنتهى . . هكذا :

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ . . . إلى مالا نهاية . . وهو الله سبحانه

فهذا هو المطلق الذى يشتمل كل شىء . .

أما الموجودات ، فقد صورها « رويس » فى سلاسل عددية على هذا النحو الآتى : —

٢ ـ ٤ ـ ٨ ـ ١٦ . . . إلى ما لا نهاية .

٣ ـ ٩ ـ ٢٧ ـ ٨١ . . . إلى ما لا نهاية .

٥ ـ ٢٥ ـ ١٢٥ ـ ٦٢٥ . . . إلى ما لانهاية .

٧ ـ ٤٩ ـ ٣٤٣ ـ ٢٤٠١ . . . إلى ما لانهاية .

وهكذا تتولى سلاسل الأعداد إلى ما لا نهاية أيضاً . .

وكل عدد من هذه الأعداد يمثل فرداً من أفراد الناس . .

ويلاحظ فى هذه الأعداد الإنسانية :

أولا : أنها داخلة جميعها فى السلسلة الأولى ، إذ جميع ما فيها من أعداد تشتمل عليه السلسلة الأولى « المطلق » .

وثانياً : أنها تتميز بطابع فريد ، يجعلها وحدة قائمة بذاتها ، ليس بينها وبين غيرها اتفاق مطلق .

هذا المثل يعطينا تصوراً واضحاً للصلة التى بين الإنسان وبين الله ، من جهة ، وبين الإنسان وبين غيره من الناس من جهة أخرى .

ففى كل سلسلة إنسانية شىء من السلسلة الأولى « الله » أو المطلق ، وهى واقعة فى مضمونها . .

وهذا يعنى أن للإنسان ذاتية خاصة ، وإن كانت تلك الذاتية ضمن مشتملات الذات الأولى ، ومعنى هذا أيضا أن الإنسان مطلق من جهة ، ومقيد من جهة أخرى . .

ثم إن الاختلاف بين هذه السلاسل يعنى أن الناس لابد أن يكونوا مختلفين فيما بينهم . . كل إنسان كون مستقل بذاته ، داخل هذا الكون العظيم « المطلق » .

والفيلسوف « وليم چيمس » يحقق ذاتية الإنسان ، مع وجود الله . . فلا يلغى إرادة الإنسان مع إرادة الله ، ويرسم لهذا صورة قريبة من الصورة التى رسمها « رويس » . . ولكنها صورة كلامية ، وليست عددية .

يقول « چيمس » :

« الإله الذى هو عقل، يشمل سائر العقول ، وليس منفصلا عن الكون انفصال الخالق عن خلقه ، كما تصورت الديانات التقليدية ، كلا ، ولا هو حالٌّ فى الوجود كله ، كما تصورت فلسفة وحدة الوجود .

« ولكنْ إلهٌ بينه وبين سائر العقول الفردية قسط مشترك ، هو الاشتراك فى إدراكات بعينها ، لكنه فى الوقت نفسه يتميز بفردية مستقلة ، كما يتميز كل فردٍ من الأفراد الصغرى بفرديته المستقلّة ..

فالصورة ، أقرب إلى سُلّم متدرج من عقول .. فعقل أكبر من عقل ، لأنه يدرك إدراكاتَ هذا العقل ثم يزيد عليها ، ثم عقل ثالث أكبر من هذا العقل ، فرابع أكبر .. وهكذا دَوَالَيْك صعوداً ، دون أن يتحتم أن يكون هناك عقل مطلق يسع كل شىء .. فالعقل الأعلى فيه كل ما فى الأدنى مع الاحتمال دائماً بأن يكون هناك ماهو أعلى » .

ومنطق هذا القول يقضى بأن لاتنتهى درجات السلّم العقلى عند نهاية ليس بعدها شىء ، بل هناك احتمال دائما بأن يكون هناك ماهو أعلى .. ومع وجود هذا الاحتمال ، فإن الواقع المحقق هو أن هناك عقلا أعلى يسع العقول جميعاً ، وهو الذى يمكن أن يُطلق عليه العقل المطلق ، مادام ليس هناك ماهو فوقه .

فإذا وقع الاحتمال المتوقع ، وهو ظهور عقل أعلى ، كان هو العقلَ المطلق .. وهكذا .

ولعل ماحدا بوليم جيمس إلى هذه الفكرة التى تجعل العقول متصاعدة ، دون أن تضيع فى ذلك شخصية العقل الأدنى فى العقل الأعلى ـ هو أنه أراد أن يحتفظ لكل فرد بإرادته المستقله ، لتقع عليه مسئوليته الخلقية .. وهذا مايجعل لكفاح الأفراد نحو الخير معنى ، لأنه يجعل فى مستطاع الأفراد تغييرَ ماهو كائن ، إذا كان ذلك الكائن شراً ، ليصبح أفضل مما هو وأكمل ..

الله والإنسان .. مرة أخرى

لايستطيع عاقل أن ينكر إرادة الإنسان المستقرة فى كيانه ، والتى بها

يتعامل مع الحياة ، فيُقبل على الشيء أو يعرض عنه ، حسب تقديره وإرادته .. ولا يستطيع مؤمن بالله أن ينكر قدرة الله الشاملة ، وإرادته النافذة ، وأن كل شيء بيد الله ، وتحت مشيئته ..

هذان الأمران يكاد يتفق عليهما جميع المؤمنين بالله ، وهما : أن لله إرادة وقدرة ، وأن للإنسان إرادة وقدرة . .

ولكن الخلاف يقع ويشتد بين المؤمنين بالله ، حين ينظر الناظرون منهم إلى الإرادتين معاً ، وإلى القدرتين معاً ، فى مجال التصريف والعمل ..

وقد رأينا ألواناً مختلفة من التفكير ، ومذاهب متعددة من الرأى ، فى تقدير إرادة الإنسان وقدرته ، إلى جانب إرادة الله وقدرته ..

فذهب قوم إلى أن إرادة الإنسان وقدرته لا أثر لهما إزاء إرادة الله وقدرته ، بينما ذهب أقوام إلى عكس هذا ، فقالوا : إن إرادة الإنسان لاتلغيها إرادة الله ، ولا تعطّل عملها . . فالإنسان حرٌّ مختار يفعل مايشاء ، كيف يشاء .

وقد كان يمكن أن يمضى القول بهذا الرأى أو ذاك ، أو بالرأيين معا ، دون أن يبدو أثر ظاهر فى واقع الحياة إذا انتقلت من رأى إلى رأى .. فسيّان أن يكون الإنسان فى واقعه يعمل فى أمور مطلقة يخلقها كيف يشاء ، ويدبّرها حيث يريد ، أو فى أمور قُدّرت من قبل ، وأخذت صورتها كاملة قبل أن يلتقى بها ـ مادام الإنسان لم يؤت قدرة على كشف الغيب والتحقق من نتائج الأعمال قبل معالجتها ووقوعها ..

إن الإنسان يعالج أمور الحياة حسب تقديره ، ويُمضيها حسب إرادته ، ثم تجىء نتائجها التى لايعلم علمها إلا بعد أن تقع .. وكون الإنسان يعمل فى أمور قُدّرت ، أو فى أمور لم تقدّر ، فإن ذلك لايؤثر على إرادته العاملة ، ولا يتدخل تدخلا محسوسا فى تدبيره أموره .

أقول : إن القول بأن الإنسان مختار أو مجبر ، والقول بأنه يعمل فى أمور مقدرة أو غير مقدرة ـ إن هذا القول أو ذاك لا يظهر لهما أثر إلا إذا نزلت أعمال الإنسان منزل الحساب والجزاء ، حين يحاسب على عمله ، فيُجزى عن الخير خيراً ، وعن الشر شراً .

هنا يتغير الموقف ، ويصبح للقول باختيار الإنسان أو جبره ، وللقول بالقدر أو بألاَّ قدر ـ نتائج خطيرة ، يتعلق بها مصير الإنسان ، وتتقرر بها سعادته أو شقاؤه فى الدار الآخرة ..

فإذا قيل إن الإنسان حرٌ مختار ، كان معنى هذا أنه مسئول عن عمله الحسن أو السيء ، وأنه سينال ثوابه وعقابه على ما قدم من عمل ، ولا حجة له أمام الله . . . .

وإذا قيل إنه مجبر مكره ، وإنه يعمل بإرادة غالبة ، وبقَدَر سابق ، كان معنى هذا ألاّ تَبِعة عليه ، وبالتالى ألا ثواب على حَسَن ، ولا عقاب على سيء !

ولـكن الذى يقال هو غير هذا . .

فهناك دار الآخرة ، وفيها ثواب وعقاب ، وجنة المؤمنين المتقين ، ونار للعصاة المذنبين .

وهنا تجىء التساؤلات والاعتراضات ..

ما ذنب الإنسان ؟ وكيف يُسأل عن أعمال مقدورة ، محكوم عليه أن يعملها ؟ ..

وهنا تبرز مشكلة القضاء والقدر ، وتصبح هذه المشكلة فى مجال النظر والامتحان .

وهنا تتفتح للـكثير من الناس أبواب المنازعة فى تدبير الله وفى حكمته ،

وفى قضائه وقدره . .

فمن مستسلم لحكمة الله وتدبيره، وقضائه فيه ، مؤمن بأن ما أصابه من خير أو شر فهو بقضاء الله وقدره ، راض بما قسم الله .. ومن متخبط متسخّط ، يضيف إلى نفسه الأعمال الطيبة الناجحة ، ويرمى القدر بما لا يُرضيه وما لا يرضى عنه من الأعمال . .

وقد كان إبليس ـ لعنه الله ـ أولَ من احتج « بالقدر» بعد أن عصى أمر ربه ، فلم يسجد لآدم كما أمره ، فلما حل غضب الله عليه ، لم يرجع على نفسه باللائمة ، ولم يستشعر الندم فيتوب كما تاب آدم ، بل غلبت عليه شِقوته ، فقال :

« ربِّ بما أغويتنى لأزيّنَنّ لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين » .

وقد تلقى كثير ممن غلب عليهم الشقاء من بنى آدم ، هذه الحجة الضالة ، عن إبليس ، فتخلّوا عن كل خير ، وغرقوا فى كل ضلال ، وبين أيديهم هذه الحجة الخادعة ، التى يرددونها عند كل قولةِ ناصح ، ينصح لهم ، ويدعوهم إلى الإيمان والهدى ، فيقولون ما حكاه الله عنهم فى قوله تعالى : « لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرّمنا من دونه من شىء » (٣٥ :النحل) وقوله :« سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا» (١٤٨ : الأنعام) وقوله سبحانه : «وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » (٤٧ يس)

انظر كيف يفترون على الله الكذب ؟ يؤمنون بقضائه وقدره ، ويحتجون بمشيئته ، ثم يكفرون به ؟

فالذين يحتجون بالقدر هذا الاحتجاج ، لا يؤمنون بالله ، ولو آمنوا بالله لآمنوا بقضائه وقدره ، ولامتثلوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه ..

فالقول بأن لو شاء الله ما أشركوا قول حق ، ولكنه لا يصدر عن القائلين به لتقرير عموم إرادة الله وشمول مشيئته ، ولو كان هذا متوجّه قولهم لكان ذلك إيماناً خالصاً . . فالله سبحانه وتعالى يقول : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً » (٩٩ : يونس)

ولكنهم يقولون هذا القول فى سفسطة خبيثة ، تهوِى بهم إلى مهاوى الهالكين . .

ولهذا أنكر الله عليهم قولهم الذى قالوه فى مشيئته ، لأنهم - كما يقول ابن القيم - « لم يذكروا ما ذكروا إثباتاً لقدرة الله وربوبيته ووحدانيته ، وافتقاراً إليه ، وتوكلا عليه ، ولو قالوا ذلك لكانوا مصيبين ، وإنما قالوه معارضين لشرعه ، ودافعين لأمره ، فعارضوا أمره وشرعه ودفعوه بقضائه وقدره . .

أباطيل بعض المتصوفة

ولبعض المتصوفة فلسفة مريضة ، تذهب بهم هذا المذهب الأعوج الأهوج ، الذى يقود إلى الضلال والهلاك . . إنهم ينسبون إلى الله كل شىء من طاعات وسخافات معاً . . إن كل مايفعلونه حسن ، لأنهم - حسب تصورهم المخبول - لايعملون شيئاً ، وإنما هم ينفذون إرادة الله ومشيئته . . فكل أعمالهم طاعات ، وكل سخافاتهم قُرُبات ، حتى ليقول قائلهم مخاطباً ربه فى غير حياء :

أصبحتُ منفعلا لما تختاره منىّ ، ففعلى كله طاعاتُ !

فهذا الغبى الأحمق ، هو منفعل - كما يقول - وليس فاعلا . . وليته انفعل بالطاعات . . وإنما هو منفعل بما يمليه عليه شيطانه الذى يوسوس له حين يفطر رمضان ! وهو منفعل بمشيئة الله ، حين يترك الصلاة عمداً ، أو حين يشرب الخمر ، ويأتى كل فاحشة جهاراً فى غير حياء !

هو فى تلك الأحوال ـ كما زيّن له الشيطان ـ قائم فى محراب العبادة ، لأنه ينفذ إرادة الله ويحقق مشيئته ! « كذلك زُيّن للمسرفين ما كانوا يعملون » (١٢ يونس)

طريق المؤمنين

أما المؤمنون حقاً فمدعوون إلى الإيمان بقضاء الله وقدره .. فالله خالق كل شيء ، وهو على كل شيء قدير ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ..

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه قال : لما نزل قوله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم :

« إنْ هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم » قالوا ـ أى المؤمنون ـ : « الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن لم نشأ لم نستقم » فأنزل الله عز وجل : « وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله رب العالمين » .

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله تعالى : « كما بدأكم تعودون ، فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة » .. قال : « وكذلك خلقهم حين خلقهم: مؤمناً وكافراً ، وسعيداً وشقياً ، وكذلك يعودون يوم القيامة ، مهتدين وضُلاَّلا » .

وقال مالك بن أنس : « ما أضلّ من كذب بالقدر ، لو لم يكن عليهم حجة إلا قوله تعالى : (« هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » لكفى بها حجة) :

وعن أبى حازم ، قال : قال الله عز وجل « فألهمها فجورَها وتقواها » .. أى فالتقىّ ألهمه التقوى ، والفاجر ألهمه الفجور » .

وفوق هذا كله ، وقبل هذا كله ، قول الرسول الكريم : « لا يؤمن

أحدكم حتى يؤمن بالقدر خيره وشرّ ، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه » .

وكان الحسن البصرى ـ رضى الله عنه ـ يقول : « من كذّب بالقدر فقد كذّب بالحق ، إن الله عز وجلّ ، قدّر خَلقاً ، وقدّر أجلاً ، وقدّر بلاء ، وقدّر مصيبة ، وقدّر معافاة . . من كذب بالقدر فقد كذّب بالقرآن » .

فالإيمان بالقدر ، والتسليم بالمقدور والرضا به ، هو الصميم من الإيمان ، وهو دعوة الإسلام ، وهو سبيل المؤمنين ، وبغير هذا لا ينعقد إيمان ، ولا يكمل دين .

يقول ابن تيمية : «وما قُدِّر من المصائب يجب الاستسلام له ، لأنه من تمام الرضا بالله ربًّا . . وأما الذنوب ، فليس للعبد أن يذنب ، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب . . فيتوب من المعايب ، ويصبر على المصائب . .

« فإذا عمل العبد بطاعة الله عزّ وجل علم أنها بتوفيق الله ، فيشكره على ذلك ويحمده ، وإذا عمل بمعصية ندم على ذلك ، وعلم أنها بمقدور جرى عليه ، فذَمّ نفسه ، واستغفر ربه .. وليس لأحد على الله حجة ، بل لله الحجة على خلقه : « قل فلِلّه الحجة البالغة ، فلو شاء لهدا كم أجمعين » . . فالله سبحانه وتعالى خلق الخلق كما شاء ، فجعلهم شقياً وسعيداً ، قبل أن يخرجهم إلى الدنيا : « لَا يُسْأل عمّا يَفْعَل وهم يُسأَلون » (٢٣ : الأنبياء) .

وعلى هذا ، فمطلوب من العبد أن يقول فى كل ما يقع له ، أو يقع منه : هذا بقضاء الله ، ومشيئة الله . . يقول ذلك عن يقين لا شك فيه ، فذلك هو الإيمان الذى يشدّ عزمات الإنسان فى الشدائد ، ويعينه على الحق ، ويجعل منه إنساناً غير ضائع فى الحياة . . إن زلّ فذلك بقَدَر سابق ، ولكن يجب أن يرى نفسه فى هذه الحال فى موقف لا يُرضى الله ، فيبادر بالانسحاب من هذا الموقف بكل ما لديه

من قوة وعزم وإيمان ، مستعيناً بالله ، تائباً إليه ، نادماً على ماوقع منه ، فتلك هى سبيل المؤمنين ، الذين يقول الله فيهم : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذَكَروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يُصرّوا على مافعلوا وهم يعلمون » . (١٣٥ : آل عمران) .

يقول ابن تيمية : « كل من احتجّ بالقدر فإنه متناقض .. فإنه لا يمكن أن يَدَعَ كل آدمىّ يفعل به ما يشاء . . فلابد إذا ظلمه ظالم أن يَدفَعَ هذا القَدَر ، وأن يعاقب الظالم بما يكفّ من عدوانه ، وعدوان أمثاله ، فيقال له — أى المحتج بالقدر — : إن كان القدر حجة ، فدع كل أحد يفعل بك مايشاء ، وإن لم يكن حجّة ، فبطل قولك : إن القدر حجة . . » .

ثم يقول : وأصحاب هذا القول الذين يحتجون بالحقيقة الكونية (أى القدر) لا يطردون هذا القول ولا يلتزمونه ، إنما هم يتبعون آراءهم وأهواءهم ، كما قال فيهم بعض العلماء : « أنت عند الطاعات قَدَرىّ ، وعند المعصية جبرىّ » اهـ

إن الأخذ بالأسباب ، ودفع الأقدار ، هومما يقوم عليه نظام الحياة ، وتبشير به الحكمة ، ويقضى به العقل ، ومن ترك الأسباب فقد ألغى عقله ، وأفسد وجوده ، وأدخل الخلل على حياته . . إن الحيوان الأعجم لا يرضى هذه المنزلة التى صار إليها من يحتج بالقدر . . إن الحيوان يدفع الجوع بالأكل الذى يطلبه ويسعى إليه ، وينال منه ، ويدفع الظمأ بالماء ، يَرِدِ موارده ، ويلتمس مواطنه ، ويمدّ فمه إليه ، ويتقى العدوّ المتربص به ، بكل سلاح يقدر عليه ، فيقاتل بقرونه ، وأنيابه ، ومخالبه ، وأظفاره . . وبكيانه كله . وإن هو رأى من نفسه العجز عن لقاء عدوّه ومدافعته ، طلب النجاة . . فراراً ، وهرباً .

فالإنسان الذى يعطّل جوارحه ، ويميت مشاعره ، ويُلقى بنفسه فى منامة

العجز والتواكل ، محتجاً بأن ماقُدّر له سيقع ، سواء سعى أم لم يسعَ ـ هذا الإنسان ليس أهلا لأن يعيش فى الناس ، أو يحسب فى الأحياء . .

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها   إن السفينة لاتجرى على اليَبَس

سأل بعض الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يارسول الله : أرأيت أدوية نتداوى بها ، ورُقًى نسترقى بها ، وتُقًى نتقى بها . . هل تردّ من قدر الله شيئاً ؟ فقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « هى من قَدَر الله » .

فالأسباب من قدر الله ، كما أن المسببات من قدر الله . . فمن لم يأخذ بالأسباب إلى مسبباتها فقد آمن وكفر ، وذلك نفاق أشد من الكفر .

يقول جعفر الصادق : « إن الله تعالى أراد بنا شيئاً ، وأراد منّا شيئاً ، فما أراده بنا طواه عنّا ، وما أراده منا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا ؟ » وذلك هو مقطع القول فى تلك القضية الشائكة !

الآيات : (١١٢ — ١١٣)

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ » (١١٣)

التفسير : « وكذلك » أى مِمّا قضت به مشيئة الخالق جل وعلا ، أن جعل لكل نبىّ عدواً من شياطين الإنس والجنّ ، أى من فَسَقَةِ الإنس والجنّ ، وأهل الفساد منهم ، فهؤلاء هم الظلام الذى يتصدى لنور النبوّة ، ويزحمها ، ويقيم فى وجه الذين يتجهون إليها ستاراً من دخان الضلال ، يحجب الرؤية

عنهم ، ويعمّى سبل الهداية والإيمان عليهم ، إلا من عصمه الله ، وثبّت قدمه على طريق الحق .

وهكذا الحق دائماً ، لا تخْلُص طريقه من المزالق والعثرات التى يقيمها الضّلال على مسالكه ، وهذا مما يزيد الحق قوة فى تمرّسه مع الضلال وصراعه معه ، ثم صَرْعه له آخر الأمر .

وفى قوله تعالى : « يُوحِي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » إشارة إلى التفاهم والتلاحم القائم بين شياطين الإنس وشياطين الجن ، وإن كانا من عالمَيْن مختلفين .. إلا أنهما يجتمعان على الباطل ، ويغتذيان من الضلال . والإيحاء هو الوسوسة من شياطين الجن ، والقبول لهذه الإيحاءات من شياطين الإنس .

و« زخرف القول » باطله ، وزائفه .. إذ الباطل قبيح المنظر ، شائه الوجه ، كريه الريح ، لا يُقبل أحد عليه إلا إذا مُوّه ببريق خادع ، وطُلى بطلاء لامع زائف ، يخدع به الأغرار ، ويغوى به السّفهاء .

وقوله تعالى : « ولو شاء ربك مافعلوه » الضمير فى قوله تعالى : « مافعلوه » يعود إلى هذا الزخرف من القول الذى يوحى به شياطين الإنس والجن بعضهم إلى بعض ، وهو محض باطل وزور وافتراء ..

وقوله تعالى . « ولتصغَى إليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة وليرضوْه وليقترفوا ماهم مقترفون » إشارة إلى أن هذا الباطل الذى يوحى به شياطين الإنس بعضهم إلى بعض ــ إنما زخرفه هؤلاء الشياطين ، وزينوه ، وألبسوه تلك الصورة المموهة ، لتصغى إليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة ، أى لتميل إليه قلوبهم بما استهواها به بريقه ولمعانه « وليرضوه » ويقبلوا عليه ، ويأنسوا به « وليقترفوا » بهذا الباطل « ماهم مقترفون » من شرك وكفر ، وما يزيّن لهم به الشرك والكفر ..

الآيات : (١١٤ — ١١٧)

« أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) » .

التفسير : قوله تعالى : « أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا » هو مما أمر الله سبحانه وتعالى النبىّ أن يلْقى به الكافرين والمشركين ، منكراً أن يتخذ غير الله حكما يتلقّى منه الهدى والإيمان ، على حين أنهم يتلقون الكفر والضلال مما يوحى به إليهم شياطين الانس والجنّ . . فهؤلاء الشياطين هم الحكم الذى يحتكمون إليه .

ويلاحظ هنا أن هذا القول الذى يقوله النبىّ فى هذا المقام لم يصدّر بأمر الله « قلْ » الذى اعتاد النبىّ أن يُؤمر به فى كلّ قولٍ يقوله من قِبَل الله سبحانه وتعالى .. فما السرّ فى أن جاء مقول القول هنا مجرداً عن القول ؟ .

والجواب ـ والله أعلم ـ أن هذا القول ـ وإن كان من عند الله سبحانه وتعالى ، هو جدير بكل إنسان عاقل أن يقوله ، فهو من الوضوح بحيث لايحتاج إلى أمرٍ سماوىّ به ، يُلفت إليه ، وينبّه له .

قوله تعالى : « والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزّل من ربك بالحق » أى أن أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى، يعلمون أن هذا القرآن هو من عند الله ، وأنه هو حق منزّل من رب العالمين ..

وقوله تعالى : « فلا تكونن من الممترين » استبعادٌ للنبي الكريم أن يكون من هؤلاء الذين يشكّون فى آيات الله فيجادلون فيها ، ولا يَنْزِلون على أحكامها . والمراء ، والامتراء : الجدل العقيم ، القائم على الهوى .

قوله تعالى : « وتمّتْ كلمة ربّك صدقاً وعدلاً » .. كلمة الله هى كلمات الله ، وآياته المنزلة على النبيّ ، وتمت ، أى استوفت غاية الكمال والتمام من الصدق والعدل .. أى أن آيات الله التى تلقاها النبيّ من ربّه ، هى الغاية فيما هو صدق ، وفيما هو عدل.. فكل ماجاءت به كلمات الله هو الصدق المطلق ، الذى لايشوبه كذب أبداً ، ولا يأتيه باطل أبداً ، وكل ماجاءت به كلمات الله هو العدل . . العدل المطلق ، الذى لايخالطه ظلم ، ولا يعلق به جَوْرٌ .. وهى إذ استوفت الحقّ كله ، واستولت على العدل جميعه ، فلن يلحقها تبديل ، ولا يصيبها عارض من عوارض التحريف ، لأن تلك العوارض إنما تجد لها طريقاً إلى ما كان فى أصله نقص أو خلل ، أما ما على الصحة التامة ، والسلامة المطلقة، فلن تسكن إليه آفة ، أو تمسه علّة . . وإذ كانت آيات الله على هذا التمام والكمال ، فهىَ قائمة بسلطانها على الحياة ، لاتنقضها المعارف التى تَجدّ ، ولا تنسخها الكشوف العلمية التى تقع .

قوله تعالى : « وهو السميع العليم » أى الذى يسمع كل مايقول المتقوّلون على كلمات الله ، فى سر أو جهر، ويعلم مايخفون ومايعلنون من المآثم والمنكرات .

وقوله سبحانه :

« وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا

الظن وإن هم إلا يخرصون .. » هو إشارة إلى أن أكثر الناس فى هذه الدنيا تغلب عليهم أهواؤهم ، وتستولى عليهم نزعات الشر والضلال ، وأن أصحاب الهدى وأهل التقوى ، هم قلة فى هذه الدنيا ، وأنهم لو اتبعوا الكثرة لكثرتها لهلكوا مع الهالكين ، وضلوا مع الضالين .. وهكذا الخير قليل فى أهله ، كثير فى مضمونه ، وأن الشر كثير فى أهله ، قليل فى محتواه . . وكذلك كل نفيس أو كريم، هو قليل الكمّ كثير الكيف ،وكل خبيث وتافه ، هو كثير الكمّ قليل القَدْر ، بخس القيمة ، وإلى هذا يشير الله سبحانه وتعالى بقوله : « قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون (١٠٣ : المائدة) .

فهذه الكثرة الغالبة من الضالين ، لا يقوم ضلالهم إلا على أوهام وتُرّهات، ولا يستند إلا على أهواء ونزوات :« إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون» والخرص ، والتخرص : هو الحكم على الشيء بلا علم ،والأخذ به بلا برهان ولا دليل ، ومنه خرص النخلة ، وهو تقدير ما تعطى من ثمر قبل أن ينضج ويكتمل ، وهو ضرب من المقامرة ، قد نهى الشرع عنه ..وفى هذا يقول سبحانه وتعالى : « قُتِلَ الخراصون الذين هم فى غمرة ساهون » . (١٠ : الذاريات)

قوله تعالى : « إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » بيان لما ينكشف عنه حال الناس عند الله ، وأنهم ضالون ومهتدون ، وعند الله علم من يضل ومن يهتدى .. ولكل حسابه وجزاؤه عند الله .

الآيات : (١١٨ — ١٢١)

« فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم

مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ » (١٢١)

التفسير : لما كانت المطاعم هى الأمر المتحكم فى حياة الناس ، وكانت حياتهم لا تقوم أبداً بغير طعام ، وكان سعيهم قائماً فى أساسه على تحصيل الطعام ـ فقد جاءت دعوة الإسلام لتلتقى بالناس على هذا المورد الذى يتزاحمون عليه ، ولتدعوهم إلى الله عن هذا الطريق . .

فالمؤمنون بالله مأمورون بأن يأكلوا مما ذكر اسم الله عليه . . وبغير هذا لايكونون مؤمنين : « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين » . . فهذه أول سِمة من سمات المؤمنين ، وأول تجربة لهم مع الإيمان بالله .

وفيما ذكر اسم الله عليه من مطاعم سَعَة المؤمنين ! وهى كثيرة مغنية ، وفى عزل ماحُرّم من المطاعم الخبيثة عليهم ، حماية للطيب الذى أُحلّ لهم أن يَخْبُث ويفسد . . وهذه المطاعم الخبيثة قد بينها الله وفصلها ، فى قوله سبحانه : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام . . ذلكم فسق » (٣ : المائدة) . . وهى محرمة على المؤمنين ، إلاأن يضطروا إليها . .

فكيف لايتسع هذا الطيب للمؤمنين ؟ وكيف يمدون أبصارهم إلى غيره من تلك الخبائث التى هى طعام أهل الرجس والفسق ..؟ «وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ماحرم عليكم ؟ » وفى هذا الاستفهام إنكار على من كان مؤمناً ألاّ يستغنى بالطيب عن الخبيث .. إلا فى حال الاضطرار ، الذى هو ظرف استثنائى تباح فيه المحظورات ، رحمة بالمؤمنين .

وقوله سبحانه : « وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم » إشارة إلى أهل البدع والضلالات ، وأنهم هم الشياطين الذين يزينون للناس الشر والغواية بحملهم على ذلك ، وأن هوًى فاسدًا ، هو الذى يملى عليهم تلك المفتريات التى يضلون بها الناس ، بعد أن غرقوا هم فى لجج الضلال .

قوله تعالى : « وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون » هو تحذير للمؤمنين من أن ينخدعوا لتلك الأهواء المضلّة التى تأتيهم من أهل الضلال ، بما يزينون لهم منها ، فيتأولون الحرام ويُلبسونه ثوب الحلال ، حتى يجدوا له مساغاً .. وهذا هو الإثم أعظم الإثم أشنعه.. فهو إثم خفىٌّ يتدسس إلى الإنسان ، ويغتال إيمانه دون أن يأخذ حذره منه، ويعمل على تجنبه وتوقيه ..

فظاهر الإثم ، هو الجلىّ الواضح ، الذى لا يخطئه نظر ، أو فهم .. وباطن الإثم ، هو الذى يمكن أن يحجب وجهه بشىء من الخداع ، والتمويه ، وبقايل من غفلة العقل ووازع الإيمان ..

والاقتراف : المداناة والمقاربة .

قوله تعالى : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسقٌ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » هو

نهى عن كل طعام لم يذكر اسم الله عليه ، بعد الأمر بالأكل من كل ماذُكر اسم الله عليه . . وقد وقع الأمر والنهى على كل شىء لايستغنى الإنسان عنه ، من المؤمنين وغير المؤمنين على السواء . . والمؤمنون مطالبون بامتثال أمر الله واجتناب نهيه ، حتى يحققوا صفة الإيمان فيهم .

وبهذا يعزلون عن المشركين ، وإلا كانوا من المشركين ، ولو حُسبوا فى المؤمنين . . لأن الإيمان بالله يقتضى امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وتلك هى حقيقة الإيمان ، وفيصل مابين المؤمنين وغير المؤمنين .

وفى قوله تعالى : « وإنه لفسق » تحريمٌ لما لم يذكر اسم عليه من مطاعم ، وإن استباحة هذا الحرام الذى حرمه الله هو فسق ، أى خروج من الدين ، وانسلاخ من الإيمان بالله .

وفى قوله سبحانه : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم » تحذيرٌ للمؤمنين ، مما يراودهم عليه أهل الضلال ، ويجادلونهم به فى حِلّ هذا وحرمة هذا ، فذلك مما ألقى به إليهم الشياطين . أما الحلال وأما الحرام فهما مابيّنه الله ، وليس لأحد أن يحل أو يحرم غير ماأحل الله وحرّم الله .

الآيات : (١٢٢ ـ ١٢٤)

« أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ

أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ » (١٢٤)

التفسير : الإيمان والكفر ، طريقان مختلفان . .

الإيمان طريق خير ، وهدى ونور . .

والكفر طريق شر ، وضلال ، وظلام . .

ومع هذا فقليل هم أولئك الذين يأخذون طريق الخير والهدى والنور ، وكثير أولئك الذين يركبون طريق الشر والضلال والظلام . .

وشتان بين هؤلاء وهؤلاء .

فالمؤمنون قد بُعثوا بالإيمان ، وخلقوا خلقاً جديداً به ، وعرفوا وجودهم فيه . . فهم أشبه بشموع مضيئة وسط ظلام مطبق . . هم نجوم لامعة فى ظلام ليل بهيم ، لا يحجزهم هذا الظلام المتكاثف حولهم ، عن رؤية الطريق المستقيم ، والسير فيه .

والكافرون جثث وأشباح ، يلفها ظلام ، ويحتويها ضلال ، لا تخرج منه أبداً . . ومع هذا فهم لا يرفعون ، أبصارهم إلى النور ، ولا يحركون أشباحهم إلى الهدى . . « كذلك زُين للكافرين ما كانوا يعملون » .

قوله تعالى :

« وكذلك جَعَلْنا فى كلِّ قرْيَةٍ أكابِرَ مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون » .

الجَعْلُ : التقديرُ ، وإقامة الشىء على الوجه المراد منه وتوجيهه الوجهة المناسبة له . وهذا فى كل أمر يجعله الله . . « وجَعَلَ الظلمات والنور » . .

« جَعَلَ الليلَ سَكنا ».. « خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » ..

ومعنى الآية الكريمة : أن الله سبحانه وتعالى كما هدى المؤمنين إلى الإيمان ، وجعل لهم نوراً يمشون به فى الناس ، جعل فى كل قرية أئمة للضلال والكفر ، يمكرون فيها ، ويفسدون وجوه الخير منها ، ويسدّون منافذ الهدى فيها .. وهم فى واقع الأمر إنما يمكرون بأنفسهم ، ويُوردونها موارد الهلاك ، دون أن يشعروا أنهم على طريق الضلال والضياع . . والله سبحانه وتعالى يقول : « قل هل نُنَبِّئكم بالأخْسَرِين أعمالاً * الذين ضلّ سعيُهم فى الحياة الدُّنيا وهم يحسبُون أنّهم يحسنون صُنْعاً » (١٠٣ ـ ١٠٤: الكهف) .

وفى قوله تعالى : « وإذا جاءتهُمْ آيةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ ما أُوتى رُسُلُ الله » فضحٌ لبعض مايعتمل فى نفوس المشركين من مكر وضلال، وأنّهم إذ كانوا أصحاب سلطان ونفوذٍ فى قومهم ، فقد أبَوْا أن ينقادوا للحق، وأنِفوا أن يقبسوا من النور ليضيئوا به ظلام قلوبهم، وقالوا : « لن نُؤْمِنَ حتى نُؤْتى مِثلَ ما أُوتِى رُسُلُ الله » . . حتى لكأن رسالة الله عندهم شيء من هذا الحطام الدنيوى الذى يتنافسون فيه ، ويستكثرون منه ، وما دَرَوْا أنها سفارة بين الله وبين عباده ، لايصلح لها إلا من هم على شيء غير قليل من صفاء النفس ، وإشراق الروح . . ثم هى قبل هذا كله وبعد هذا كله ، رزق من رزق الله ، ونعمة من نعمه ، يضعها حيث يشاء : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » . .

وقوله سبحانه : « سيُصيب الذين أجْرموا صغارٌ عند الله وعذابٌ شديد بما كانوا يمكرون » ـ هو الجزاء الذى سيقع بهؤلاء المستكبرين ، المتعالين ..صَغار

عند الله ، وذلة ومهانة .. بعد هذا العلو وهذا الشموخ الذى كان لهم فى دنياهم.....

وهؤلاء هم أكابر قريش ، ومن كان على شاكلتهم .. وهم رءوس المجرمين الذين تصدّوا لدعوة الرسول ، وأبوا أن يقبلوا من يديه الهدى الذى جاءهم به ، استكباراً وعلواً .. فكان جزاؤهم الصغار والمهانة عند الله يوم القيامة ، والعذاب الشديد يوم يعرضون على ربّهم ، ويوفون حسابهم .. وهكذا كل من أخذته العزة بالإثم ، فأبى أن ينقاد للحق ، وأن يتقبّل الخير من أى طريق أتاه .

الآيات : (٢٥ — ٢٧)

« فَمَنْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٥) وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (٢٧)

التفسير : هذا هو حكم الله فى عباده ، وتلك مشيئته فيهم : « من يُرِدِ الله أن يهديه يَشْرح صَدْره للإسلام » فيقبل عليه ، ويتقبله .. « ومن يردْ أن يُضلَّه يجعل صدره ضيقاً حَرَجاً كأنما يصعد فى السماء » لايُقْبل على خير ، ولا يتقبل هدًى ، فكل كلمة حق يزوربها هذا الصدر الضيق ، ويكاد يختنق منها .

والضَّيِّق الحرَج : هو الذى كان ضيقه عن علة وداء .

والرجس : الدنس ، والقذَر .

وفى قوله تعالى : « كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون » أى

يلقيه عليهم ، ويجعله بعضاً منهم ، فلا يتطهرون منه بالإيمان أبداً .. لأنهم لن يؤمنوا أبداً .

قوله تعالى :

« وهذا صراط ربك مستقيما قد فصّلنا الآيات لقوم يذّكّرون » ..

والصراط المستقيم هو كتاب الله ، وقد جاءت آياته بيّنة مفصّلة ، ولكن لاينتفع بها إلا من أرادهم الله للإيمان ، وهيأهم له ، وأعانهم عليه . .

فهؤلاء الذين دُعوا إلى الإيمان فأجابوا ، ورأوا الهدى فاهتدوا ، هؤلاء « لهم دار السّلام عند ربّهم » أى دار الأمن والعافية من كل سوء وبلاء يحل بالكافرين « وهوَ وليّهم » أى يجعلهم أهل ولايته ، وكرمه ، وإحسانه « بما كانوا يعملون » أى بما قدموا من أعمال صالحة ، نالوا بها رضا الله ، وفازوا بجنات النعيم .

وانظر إلى عظيم فضل الله ، وإلى واسع رحمته ، بالمؤمنين من عباده .. لقد دعاهم إلى الإيمان ، وأعانهم عليه . . فآمنوا ، ودعاهم إلى العمل ، ووفقهم له . . فعملوا ، ومع هذا فقد أضاف إليهم هذا العمل ، وجزاهم عليه ، ليذوقوا ثمرة عملهم الذى هو من مغارس فضل الله ، وتوفيقه « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

الآيات : (١٢٨ — ١٢٩)

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » (١٢٩)

التفسير : بعد أن يستوفى الناس أعمارهم فى الحياة ، يُنقلون إلى الدار الآخرة بما قدموا من خير أو شر ، وبما كانوا عليه من هدى أو ضلال .. وهناك تكون المساءلة ويكون الحساب والجواب ..

وفى قوله تعالى : « ويوم يحشرهم جميعاً » إخبار بهذا الأمر الذى لابد أن يكون ، وهو الحشر ، بعد الموت .. وإن كان الكافرون ينكرون هذا اليوم فلا يعملون له حساباً ..

وفى الحديث عن الله تعالى : « بضمير الغيبة « يحشرهم » بدلا من « نحشرهم » إشارة إلى أن هذا الحشر معلوم مقرر عند المؤمنين ، وأنهم مستيقنون أن الله سيحشر الخلائق جميعاً ، ولهذا صح أن يكون الحديث عن الحشر بين الله والمؤمنين إذ كان غير خافٍ عليهم ، على حين أنه خفى على المشركين ..

وقوله تعالى : « يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس » ، هو نداء من قِبَل الحق سبحانه وتعالى لطائفة من تلك الطوائف التى حشرت فى هذا اليوم ، وهى طائفة الجن ، ليلقى إليهم بهذا الذى كان منهم ، من جذب الكثير من الناس إليهم ، وتحويلهم من طبائعهم الانسانية إلى طبيعة الجن . « قد استكثرتم من الإنس » أى قد جمعتم أعداداً كثيرة منهم ، واستحوذتم عليهم ..

ولا يجيب الجن ، إذ كان الواقع يغنى عن الجواب ، بل يأخذ المبادرة بالجواب أولئك الذين انضموا إليهم من الناس ، وصاروا حزباً لهم .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجّلْتَ لنا » أى قد انتفع بعضنا ببعض ، فأخذ وأعطى .. فهؤلاء الضالون قد أخذوا من الجن ما سوّلوا لهم به وما عرضوه عليهم من متاع الحياة ، وضلالاتها ..

على حين أعطوا الجن ولاءهم وطاعتهم ، وذلك إلى أن بلغوا الأجل الذى

أجّله الله ، وهو عمرهم المقدور لهم فى الحياة . .

وفى مبادرة المشركين بالجواب دلالة على أنهم هم المتهمون أصلا ، وأنهم هم الذين استجابوا لدعوة الجنّ لهم ، وأنهم لو أبوْا عليهم ذلك ولم يَنْقَادُوا لِمَا دعوهم إليه ، لما كانوا فى هذا الموقف . . فزمام الأمر هو فى يد النّاس ، وما الجنّ أو غيرهم من المغريات إلا داعٍ يدعوهم إليه ، فمن أجاب فعليه وزر عمله . . كالخمر مثلاً ، فإنها فى مواطنها التى تباع فيها أو تشرب ، هى فى ذاتها داعٍ تدعوا الناس إليها ، وتغريهم بها ، والناس وحدهم أن يستجيبوا أو يمتنعوا . . وليست الخمر موضع مؤاخذة أو لوم . . كذلك دعاة السوء من الإنس والجنّ . . لا يحملون شيئاً من إثم من دعوه فاستجاب لهم ، وإن كان عليهم إثمُ هذه الدعوة المنكرة التى دَعَوْا بها . .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ » . (٢٢ : إبراهيم)

وقوله تعالى : « قال النّارُ مثواكم خالدين فيها إلاّ ماشاء الله إن ربك حكيم عليم » هو الحكم الذى يلقّاه المشركون بعد اعتذارهم بما اعتذروا به . . « النار مثواكم » أى داركم ومقرّكم « خالدينَ فيها إلاّ ما شاء الله » أى أن هذا الخلود فى النار مرهون بمشيئة الله ، إن شاء جعلها دارَ خلد لكم ، وإن شاء جعلها عذاباً موقوتاً . . وذلك إلى الله وحده ، لا يملك معه أحد شيئاً فى مصيركم الذى أنتم صائرون إليه .

« إن ربك حكيمٌ عليم » يقوم أمره كلّه على الحكمة والعلم . . الحكمة

التى تحكم كل أمر وتضبطه على موازين العلم ، والعلم الذى يحيط بكل شىء ، ويعلم ماظهر وما بطن منه ..

قوله تعالى : « وكذلك نُولى بعضَ الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون » .. أى نسلّط بعض الظالمين على بعض ،ونجمع بعضهم إلى بعض، كما تسلّط الجنّ على أشباههم من الإنس ، وصاروا جميعا إلى هذا المصير المشئوم .. وهكذا يجتمع الشر إلى الشر ، وينجذب الأشرار إلى الأشرار ، فيكونون جميعا جبهة واحدة .. بعضهم أولياء بعض .

الآيات : (١٣٠ — ١٣٢)

« يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ » (١٣٢)

التفسير : وفى موقف الحساب يقوم القيامة ، يُسأل الخلق من جنٍّ وإنسٍ هذا السؤال التقريرى من ربّ العالمين : «ألم يأتكم رسلٌ منكم؟ » أى من جنسكم ، فللجن رسل من الجن ، وللإنس رسل من الإنس .. « يقصّون عليكم آياتى » أى يسمعونكم آياتى ، ويعرضون عليكم دلائل قدرتى ، ويدعونكم إلى الإيمان بى ؟ « وينذرونكم لقاء يومكم هذا » أى يحذرونكم لقاء هذا اليوم الذى أنتم فيه فى موقف الحساب والجزاء ؟

ويجىء الجواب من الجن والإنس: « شهدنا على أنفسنا » أى أقررنا بأن رسل الله قد جاءوا إلينا بآيات الله ، وأنذرونا لقاء هذا اليوم .. وما كان المسئولين أن ينكروا ، حيث كل شىء ينطق هذا اليوم بالحق .. ثم يجىء التعقيب على هذه الشهادة : « وغرّتهم الحياةُ الدّنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » . . وتلك هى شهادة أهل الموقف عليهم ، بعد أن شهدوا هم على أنفسهم . . إنها تعليقات المؤمنين على موقف هؤلاء الضالين ، وما كانوا عليه من كفر وعناد ، واستخفاف بهذا اليوم الذى هم فيه .

وواضح أن المسئولين هنا من معشر الجن والإنس ، هم الغواة الضالون منهم ، الذين أنكروا رسل الله ، وكفروا بما جاءوهم به من عند الله . .

وقوله تعالى : « ذلك أن لم يكن ربُّك مهلك القُرَى بظلم وأهلها غافلون »

الإشارة هنا إلى ما كان من رحمة بعباده ، من إنس وجنّ ، وذلك بإرسال الرسل إليهم ، ودعوتهم إلى الله ، وكشف معالم الطريق إليه . . فإنه سبحانه وتعالى لا يؤاخذ عباده إلا بعد أن يَعْذِر إليهم بإرسال رسله، مبشرين ومنذرين ، حتى ينتبهوا من غفلتهم ، فلا يكون لهم عذر إذا أخذهم الله بالعقاب الذى يستحقونه على كفرهم وضلالهم . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولاً » (١٥ : الإسراء) وقوله سبحانه : « وما كان ربُك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا (٥٩ : القصص)

وفى قوله تعالى : « بظلم » إشارة إلى أن عدل الله يقضى بألا يعاقب أحداً من خلقه ، حتى ينْذره ويقيم الحجة عليه .

وقوله سبحانه : « ولكلٍّ درجاتٌ مما عملوا » أى لكل إنسان مكانته ودرجته من عمله ، أى تُهيّأ له هذه الدرجة من عمله ، فإن كان عمله سيئاً

كانت مكانته من السوء بحسب عمله . . « وما ربك بغافلٍ عما يعملون » . فلا يختلط عنده عمل المحسن بعمل المسيء ، بل لكل عمله وحسابه ، وجزاؤه .

الآيات : (١٣٣ — ١٣٥)

« وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) قُلْ يَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّالِمُونَ » (١٣٥)

التفسير : الخطاب للنبي الكريم ، وإضافته إلى ربّه الغنيّ ذو الرحمة ، تكريم له ، ورفع لقدره ومنزلته عند ربّه ، لاختصاصه بتلك الإضافة ، وإن كان الله سبحانه وتعالى هو ربّ العالمين جميعاً . فإضافة النبيّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ منفرداً بهذه الإضافة إلى ربّه ، غاية فى التكريم ، واللطف والرعاية . .

وفى وصف الله سبحانه وتعالى بالغنى والرحمة ، مناسبة لما بعد هذين الوصفين الكريمين ، من أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يُذْهب الناس جميعاً ، لأنه فى غِنًى عنهم ولكنه ذو رحمة واسعة ، فلا يعجل بعقوبة هؤلاء المشركين ، ولا يؤاخذ الناس بما كسبوا ، بل يمهلهم ، ويقيم بين أيديهم دلائل الحق والهدى ، لعلهم يرجعون عما هم فيه من ضلال وكفران .

وقوله تعالى : « إن يشأ يذهبكم ويستخلفْ من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرّيّةِ قومٍ آخرين » بيان لقدرة الله ، وأنه سبحانه قادر على أن يذهب

المشركين ، ويقضى عليهم ، ويقيم من بعدهم من يخلفهم على ما فى أيديهم من نعم الله وعطاياه ، وأن إمهاله هو رحمة من رحمته وإحسان من إحسانه ، ليكون فى هذا مظاهرة للحجة عليهم ، وقطع الأعذار دونهم . .

قوله تعالى : « إنما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين » هو خطاب للمشركين وما يتوعدهم الله به ، وهو انتقالهم مما هم فيه ، وقيام من يخلفهم على ما فى أيديهم . فهو أمر كائن ، لابد منه ، إن لم يكن اليوم فغدًا أو بعد غدٍ ، وإنهم مهما استطالوا وبغوْا فلن يُعجزوا الله ، ولن يفلتوا من سلطانه القائم عليهم ، وعلى كل موجود فى هذا الوجود .

وقوله سبحانه : « قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل » أمر للنبى الكريم أن يَلْقى قومه بهذا الموقف الصريح ، وأن يقطع ما بينه وبينهم من أسباب الجدل والشقاق ، وأن يدعهم وما هم فيه . . ليُقبلَ على ما هو فيه من دعوة الناس إلى الله ، وليستقم على الطريق الذى هداه الله إليه . .

وفى قوله تعالى : « يا قوم اعملوا على مكانتكم » تهديد ووعيد لهم ، بتركهم وما هم فيه من ضلال . .

والمكانة : المنزلة التى فيها الإنسان ، أيًا كانت تلك المنزلة .

وفى قوله سبحانه : « إنى عامل » مع حذف متعلق الخبر « عامل » ـ إشارة إلى أن للنبى عملا غير عملهم ، وطريقًا غير طريقهم .

وقوله تعالى : « فسوف تعلمون » تهديد آخر ، ووعيد لهؤلاء المشركين ، وما سينتهى به عملهم إليه ، من البلاء وسوء المصير ، و « من تكون له عاقبة الدار » .. أهم الذين أسلموا لله ، وآمنوا به وبرسوله ، وبالكتاب الذى بين يديه ؟ أم أنتم أيها المكذبون الضالون ؟ فسوف تعلمون لمن عقبى الدار .

والحكم معلوم مقدّماً . . « إنه لا يفلح الظالمون » والمشركون ظالمون من غير جدال ، إذ ردّوا نعمة الله المرسلة إليهم ، وآذوا اليد التى حملتها لهم ، والتى لا تطلب منهم أجراً ، ولا تريد منهم على ذلك جزاء ولا شكوراً . . فأى ظلم أبشع وجهاً ، وأقبح صورة من هذا الظلم ؟ فهم إذن المحكوم عليهم بعدم الفلاح ، ومن لم يفلح فقد خاب وخسر ، وكان من أصحاب الجحيم .

الآيات : (١٣٦ — ١٣٧)

« وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ » (١٣٧)

التفسير : وإذ أنهى النبيُّ صلى الله عليه وسلم موقفه مع المشركين من قومه على هذا الوجه الذى أنذرهم فيه بأنه معتزلهم وما يعبدون من دون الله ، وأنه سيفرغ لنفسه ولدعوته ولمن يستجيبون له ، ولا عليه أن يغرقوا فيما هم فيه من ضلال ، بعد أن بلغهم رسالة ربّه ، وبعد أن بالغ فى هذا الإبلاغ — إذ أنهى النبي موقفه مع المشركين على هذا الوجه ، بحيث لا يلقاهم لقاء مواجهاً بعد هذا الموقف ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه لم يقطع ما بينه وبينهم من لقاء غير مباشر ، أو مواجه ، فما زالت آيات الله تتنزل بفضح المشركين ، والتشنيع عليهم ، وكشف ماهم فيه من جهالة وعمى وضلال . .

وفى هذا التدبير السماوى الحكيم يتحقق أمران :

أولهما: إلفات المشركين إلى أنفسهم، حتى يعيدوا النظر إلى تلك الحال التى تركهم النبىّ عليها.. وذلك فى حالٍ هم فيها فى غير مواجهة صريحة مع النبىّ، الذى يكشف أدواءهم، ويقدّم لهم الدواء، الأمر الذى كثيراً ما تتأباه النفوس المريضة، وتزورّ به العقول السقيمة، على خلاف ما إذا خلا أمثال هؤلاء بأنفسهم، واطمأنوا إلى أن أحداً لن يطلع عليهم، فإنهم عندئذ قد يتعرّون مما ركبهم من ظلام وضلال، وقد يجد أحدهم الجرأة أمام نفسه فيفضحها ويهتك سترها، وينخلع مما هو فيه، ثم ينطلق إلى مطالع النور، ومواقع الهدى..

وثانيهما: أن المسلمين إذ يرون ما تكشف آيات الله من سوء حال المشركين، وما ينتظرهم من مصير مشئوم، يزداد إيمانهم إشراقاً وألقاً، ويبدو لهم أنهم أثقل ميزاناً، وأكرم مقاماً من هؤلاء المشركين الذين يسومونهم العذاب، ويأخذونهم بالبأساء والضراء.. وفى هذا عزاء جميل «المسلمين» وتثبيت لأقدامهم على الطريق المستقيم.

وفى قوله تعالى: «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً» اتهام المشركين بما افتروا على الله، وما شرعوا لأنفسهم من شريعة، استملوها من أهوائهم الباطلة، وتصوراتهم الفاسدة.. ومن هذا أنهم جعلوا لله نصيباً مما «ذرأ» أى خلق «من الحرث» أى الزرع، «والأنعام».. فقالوا «هذا لله بزعمهم» أى بما زعموه هم، لا عن أمر سماوىّ من الله.. «وقالوا: «هذا لشركائنا» أى لآلهتهم التى عبدوها، وجعلوها شركاء لله، يقدمون لها القرابين مما رزقهم الله!

وقوله تعالى: «فما كان لشركائهم فلا يَصِلُ إلى الله وما كان لِلّهِ فهو يَصِلُ إلى شركائهم» أى فما جعلوه لِلّه جحدوه، ولم يحرصوا على الوفاء

به ، ولم يكن له فى أنفسهم حساب أو توقير ، وما جعلوه لأوثانهم وأصنامهم لم يترخّصوا فيه ، بل أدّوْه لهم كاملاً . خوفاً من أن تحبس عنهم هذه المعبودات الباطلة أسبابَ الخير ، أو تدفع إليهم نُذُر البلاء والنقمة .

وقوله سبحانه : « ساء ما يحكمون » تسفيه لهذه الأحكام الخاطئة التى لم يتزموا فيها جانب العدل حتى فيما شرعوه هم بأنفسهم ، فلم يُسوُّوا فى هذه القسمة الجائرة بين الله وبين تلك المعبودات .. من أصنام وأوثان .

وقوله سبحانه : « وكذلك زَيَّن لكثيرٍ من المشركين قتلَ أولادِهم شركاؤهم ليُرْدُوهم وليَلْبسوا عليهم دينَهم » أى مما افتراه المشركون على الله هذا المنكر الذى زيّنه لهم شركاؤهم ، وهو قتل أولادِهم ظلماً وعدواناً ، بل سفهاً وضلالاً . إذ أنهم بهذا العمل المنكر قد نزلوا عن مرتبة الحيوان الذى تأبى عليه طبيعته أن يمدّ يده بأذًى إلى صغاره ، بل إنه ليجعل نفسه دريئة لهم من كل سوء ، ويقدّم حياته دفاعاً عنهم من كل عدوّ . . فكيف طوعت لهؤلاء الحمقى السفهاء من الآدميين أنفُسهم أن يقتلوا أولادهم بأيديهم ؟ إن ذلك لا يكون إلا من إنسان فقد عقله ، فلم يدر ما يفعل ، حتى ولو قتل نفسه بيده ! فليس بعد هذا ضلال ، أو خسران . . والله سبحانه يقول : « قد خَسِرَ الذين قتلوا أولادَهُمْ سَفَهًا بغير علم » (١٤٠ : الأنعام) .

وفى كشف هذه الجريمة الشنعاء ، كشفٌ لما وصل إليه هؤلاء المشركون من سَفهٍ وحمق ، لا فى شركهم بالله ، وعبادتهم الأحجار ، وحسب ، بل فى هذا الأمر الذى صاروا به من عالم الجماد الذى لا يعقل ، ولا يحس . .

وفى إضافة التزيين بقتل الأولاد إلى الشركاء من أصنام وأوثان ، إشارة إلى أن هؤلاء المشركين قد صاروا لعبة فى يد هذه الجمادات ، يتلقّون من صمتها المطبق دلالات وإشارات ، يؤولونها هذا التأويل الفاسد ، الذى ينتهى بهم إلى

عبادتها، وتقديم أبنائهم قرباناً لها .. وفى هذا ما يكشف لهم - إن كان فيهم بقية من عقل - أنهم خُدِعوا وضَلّوا، وأن هذه الأصنام هى التى ضللتهم، وخدعتهم، وقتلت أولادهم وفلذات أكبادهم . . وأنهم إذا كانوا قد فعلوا فَعلتهم فى أولادهم وهم فى سَكْرةٍ من الضلال، فإن هذا الدم الذى لطخت به أيديهم من أبنائهم، جدير به أن يملأ قلوبهم ألماً وحسرة، وأن يوقع العداوة والبغضاء بينهم وبين وَاتِرِيهم فى أبنائهم . . وإن أقلّ ما يثأرون به لقتلاهم هو اعتزال هؤلاء القتلة وإجلاؤهم من عالَمِهم، بل وتحطيمهم، إن كان هذا التحطيم يشفى غليلا، أو يخفف كمدًا وحسرة . .

وقوله تعالى « لِيُرْدُوهم وليَلْبِسوا عليهم دينهم » أى أن ما فعله الشركاء - من أصنام وأوثان - بهؤلاء المشركين، إنما كانت عاقبته إهلاكهم، وإفساد دينهم عليهم . . فإهلاك أبنائهم هو إهلاك لهم، ثم هو إغراق لهم فى الضلال والبعد بهم عن الدين الصحيح .

والسؤال هنا : هل لهؤلاء المشركين دين حتى يعلَق به فساد كما يقول الله تعالى : « وليَلْبِسُوا عليهم دينهم » ؟

والجواب : أنه كان ينبغى أن يكون للمشركين دين صحيح، لو بقيت معهم عقولهم، ولم يفسدها عليهم شركاؤهم، وأن ما زينه لهم الشركاء من قتل أولادهم هو غايةُ ما يمكن أن يصل إليه معتقد الإنسان، من فسادٍ لا يُرجى له صلاح أبدًا . . فهؤلاء الشركاء قد أفسدوا على أتباعهم هؤلاء فطرتهم، وغيّروا معالم إنسانيتهم، ومن كان حاله تلك الحال، فلا صَلَاح يُرجى لشىء فيه أبدًا، من دين أو غيره . . فأى دين يدين به هؤلاء القوم، وهم على تلك الحال من السّفه، هو دين سقيم بسقام عقولهم، وفساد فطرتهم .

وقوله سبحانه : « ولو شاء الله ما فعلوه » إشارة إلى أن الله سبحانه

وتعالى لم يرد أن يدفع عنهم هذا البلاء الذى حلّ بهم ، لأنهم أهل له . . وأن الله سبحانه لو علم فيهم خيرًا لدفع عنهم هذا البلاء ، ولما كان للشيطان أن يصل إليهم . . ويفسد عليهم وجودهم !

وقوله سبحانه : « فذرهم وما يفترون » تهديد لهؤلاء المشركين ، ومبالغة فى إهمالهم ، وتركهم لأهوائهم المضلّة ، تغتالهم وتهلكهم ، دون أن يخفّ أحدٌ لنجدتهم.

الآيات : (١٣٨ — ١٤٠)

« وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » (١٤٠)

التفسير : ومن مفتريات هؤلاء المشركين صنيعهم بما فى أيديهم من أنعام وزروع . . فقد جعلوا فيها نصيباً لله ، ونصيباً لشركائهم . . دون أن يؤدوا لله ما جعلوه فيها ، بل قالوا ذلك قولاً وجحدوه فعلاً . . ثم إنهم من جهة أخرى قد جعلوا لهذه الأنعام وتلك الزروع مراسم معيّنة ، ومعالم خاصة ، اخترعوها لها من عند أنفسهم . . فهناك أنعام وزروع جعلوها « حِجرًا » أى محجورة لا يباح طعامها لكلِّ طاعم ، فمن شاءوا أطعموا منها ، ومن شاءوا حرّموها عليه .

وهناك أنعام حرّموا ظهورها ، وحموْها من أن تُركَب أو يُحمل عليها ، إذا جاءت على صفات خاصة عندهم ، كما أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك فى قوله تعالى : « ما جَعَلَ اللهُ من بَحِيرةٍ ولا سائبةٍ ولا وصيلة ولا حام » . (١٠٦ : المائدة) وقد شرحنا ذلك من قبل عند شرح هذه الآية .

وهناك أنعَام يذبحونها على مذابح أصنامهم . . لا يذكرون اسم الله عليها . . وكلّ هذا افتراء على الله ، والله سبحانه سيجزيهم بهذا الافتراء الذى افتروْه ، نـكالاً وعذاباً أليما . .

ومن مفتريات هؤلاء المفترين ، وضلالات أولئك الضالّين ، هذا الذى أحذوا به أنفسهم ، فيما فى بطون أنعامهم من أجِنّة يجدونها عند ذبحها . . فـكانوا إذا خرج الجنين حيًّا جعلوا لحمه طعاماً للذكور منهم دون زوجاتهم ، وإن خرج الجنين ميتاً أباحوا أكله لذكورهم ونسائهم جميعاً . « وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاء » .

ولا معقول لهذه التفرقة ، ولا منطق لها ، فيما بين الجنين الذى يخرج من بطن أمه حيًّا ، وهذا الذى يخرج ميتاً ، ماداموا قد استباحوا أكلهما جميعًا ، اللّهم إلا أن يكون ذلك عن وهْمٍ تسلط على عقولهم ، فأراهم فى هذا الحىّ غير هذا الذى فى الميت .

وقل فى واردات هذا الوهم ما تشاء .

فقد يكون ذلك عن شعور بأن الجنين الذى خرج حيًّا يحمل معه روحاً تتسلّط على المرأة المتزوجة ، فتُفسد حملها ، أو تختلط به فيجىء الولد منها على صورة غير صورة الإنسان السوىّ . . أو نحو هذا .

وذلك كله ضلال فى ضلال .

وقوله سبحانه : « سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم » أى أنه سبحانه

وتعالى سيحاسبهم على هذا الوصف الباطل الذى يُلحقونه بتلك الأشياء التى يقولون فى حلّها وحرمتها ماتمليه عليهم أهواؤهم ، دون أن يكون ذلك مستنداً إلى دين أو معتمداً على عقل .. والله سبحانه وتعالى « حكيم » لايدخل فى شريعته مثل هذا الضلال « عليم » بما يعمل الظالمون ، المفترون ، الضالون ..

وفى عرض أباطيل هؤلاء الضالين ومفترياتهم بلفظ : « قالوا » .. و« قالوا » مع أنهم فعلوا هذه الأشياء فعلا ، إشارة إلى أن هذه الأفعال هى وليدة أقوال تقال ، وهى أوهام وظنون ، لاتلبث حتى تستولى على عقول سامعيها فتتشكل منها أفعال ، ويقوم عليها سلوك .. وهذا مايشير أيضاً إلى ما للكلمة من أثر فى تقويم سلوك المرء أو اعوجاجه .. فالكلمة ليست مجرد صوت يطرق السمع ، ثم يذهب أدراج الرياح ،وإنما هى ـ فى حقيقتها ـ رسول هدى ، وداعيةُ خير ، أو هى قذيفة مدمرة ، وجرثومة مهلكة .

وقوله سبحانه : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرّموا مارزقهم الله افتراء على الله قد ضلّوا وما كانوا مهتدين » هو تعقيب على تلك الشناعات التى تَلْبَس المشركين ، وتستولى على وجودهم ، وهو حكم بالخسران واقع عليهم من الله سبحانه جزاء لما اقترفوا من سيئات ، وما ارتكبوا من آثام .. ومن أبرز هذه الآثام وأشنعها قتلهم أولادهم « سفهاً بغير علم » أى عن ضلالٍ ، وسفهٍ ، وجهالة ، ولهذا قُدِّم قتلُ الأولاد على كل جناية غيرها ..

وقوله تعالى : « وحرّموا مارزقهم الله افتراء على الله » معطوف على قوله تعالى : « قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم » أى أن هذا الخسران الذى حكم الله به عليهم ، هو لجنايتهم الغليظة فى قتل أبنائهم ، ثم لتحريم ماحرموا مما رزقهم الله من أنعام وحرث ، افتراء على الله ، وادعاء عليه بأن هذا مما شرعه الله

لهم ، وهو مما وكّدته خيالاتهم المريضة ، ومدركاتهم السقيمة .. تماماً كما قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم .

وقوله تعالى : « قد ضلوا وما كانوا مهتدين » هو حكم عليهم بالضلال والسفه بعد الحكم عليهم بالخسران والضياع. فإن كان لهم إلى أنفسهم حاجة، فيبادروا إلى استنقاذها من هذا الضلال ، وإقامتها على طريق الحق والعدل والإحسان ..

الآيات : (١٤١ — ١٤٤)

« وَهُوَ ٱلَّذِى أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢) ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ » (١٤٤)

التفسير : فى هذه الآيات ، يعرض الله سبحانه وتعالى مشاهد من آيات قدرته ، وروائع علمه وحكمته فيما أبدع وصوّر فى هذا الوجود ، من نِعَم سابغة

وعطايا جزيلة ، كان لكثير من الناس مكر فيها ، وكفر بها .. وهى التى كان من شأنها أن تقابَل منهم بالولاء لله ، والتمجيد له ، والتسبيح بحمده . .

فهذه الجنات المعروشات ، أى القائمة على عروش : وهى العنب الذى يفترش سقوفاً تتدلّى منها ثماره المهدّلة ، وهذه الجنّات غير المعروشات التى تظالل الأرض بأغصانها ، وأوراقها وثمارها ، وهذه النخيل السابحة فى أعنان السماء ، تحمل على رءوسها ثمراً مختلف الألوان ، متشاكل الطعوم ، وهذه الزروع التى تفترش الأرض ، وتكسو أديمها ببساط سندسى يحمل على ظهره الحبّ والثمر ، وهذه الأشجار من الزيتون والرّمان ، فى صوره المختلفة ، وأشكاله المتعددة — كل هذا الذى يملأ الأرض من حياةٍ ، وجمالٍ ، ومن خيرٍ عميم ورزق كريم ، هو من صُنْع الخالق العظيم ، ومن فيض كرمه وإحسانه .. وهو مائدة ممدودة لعباده جميعاً .. وربّ المائدة يُضِيفهم إليه ، ويدعوهم إلى مدّ أيديهم إلى هذا الرزق الكريم . . « كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقّهُ يوم حَصَاده ولاتسرفوا إنه لايحب المسرفين » .

وفى قوله تعالى : « كلوا من ثمره إذا أثمر » تذكير للناس بهذه النعم التى أفاضها الله عليهم ، وإلفات للغافلين منهم إلى مالله سبحانه وتعالى عليهم من فضل وإحسان ، وإلا فإن الناس فى غير حاجة إلى دعوة للأخذ من هذا الثمر والأكل منه . . ولكن فى دعوة الله سبحانه وتعالى تذكير لهم بأنهم فى ضيافة صاحب هذا الثمر ، وأنهم لن يأكلوا منه إلا بعد أن يَأذَن لهم ، إذْنَ تكريم وتفضّل وإحسان . .

وفى القيْد الوارد على الأكل من الثمر بقوله تعالى : « إذا أثمر » تقييد للأنظار بهذه الجنات وتلك الزروع ، وملاحظة أطوار الحياة التى تتنقل فيها ، وأنها لم تصل إلى هذا الطور الذى تحمل فيه الثمر الذى يصلح للأكل إلا بعد أن قطعت طريقاً طويلا ، فى نموّها وتطورها ، شأنها شأن الإنسان يكون

بذرة فى بطن أمه ، ثم ينشق عنه الرحم وليداً ، فطفلا ، فغلاما ، فصبيًّا ، فشابًّا ، فكهلا ، فشيخاً . .

وبهذه الملاحظة لتلك الجنات وهذه الزروع تتجلى قدرة الله ، وتتكشف آيات إبداعه وخلقه ، فيكون من ذلك كله عبرة لأولى الألباب ، وتبصرة وذكرى لقوم يؤمنون .

وقوله سبحانه « وآتوا حقّه يوم حصاده » أمر بأداء الحق المفروض على هذه النعم التى يعيش فيها أهلها . . وحق هذه النعم هو شكر الله عليها ، إذ هو المنعم بها ، ومن شكر الله عليها ، مشاركة الفقراء والمحتاجين لهم فيها ، وإعطاؤهم ما أوجب الله على الأغنياء للفقراء فى أموالهم فى قوله تعالى « والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم » (٢٤ — ٢٥ : المعارج)

وفى إضافة الحقّ إلى الله سبحانه وتعالى هكذا : « حقّه » إشعار بأن هذا الحق هو لله ، صاحب هذه النعم ، وأنه سبحانه قد جعل هذا الحقّ الذى له ، لهؤلاء الفقراء من عباده . .

وإذن فليس لأحدٍ من الأغنياء مِنّةٌ على هؤلاء الفقراء ، ولا فضلٌ له عليهم ، إذا هو أعطاهم مما لله عنده . . فذلك من حقّ الله عليه ، والله سبحانه وتعالى يجزيه عما أعطى ، فضلاً منه سبحانه وكرماً . . لأنه تعالى يأخذ مما له ، ويجزى الثواب الجزيل عليه ، أضعافاً مضاعفة . . فسبحانه سبحانه ، ما أعظم فضلَه ، وما أوسع رحمته ، وأكثر مِنَنَه على عباده . .

وفى قوله سبحانه : « ولا تُسْرِفوا إنه لا يحبّ المسرفين » ذهب أكثر المفسِّرين إلى أنّ النهى هنا واردٌ على إتيان حق الله فى هذا الثمر ، وجعلوا الحقّ مضافاً إلى الزرع على معنى : وآتوا حقّ الثمر يوم حصاده بالصدقة

على الفقراء فى قصدٍ دون إسراف .

وهذا ـ فى رأينا ـ مردود من وجوه :

فأولا : إضافة الحق إلى الله سبحانه وتعالى أولى من إضافته إلى الثمر ، لأنه بالنسبة إلى الله حق أصيل ، وهو بالنسبة للثمر حق تَبَعِىّ ، بعد تعلق حق الله به .

وثانياً : أنه ليس من طبيعة الناس الإسراف فى الإحسان ، وإنما الغالب عليهم هو البخل والشحّ فى هذا الباب ، ولهذا كانت دعوة الله إليهم دائماً متجهة إلى التحريض على الإنفاق، والإغراء به ، بما وعد الله المحسنين من الخير العظيم على إحسانهم فى الدنيا ، بنَماء أموالهم ، وفى الآخرة ، بحسن المثوبة وعظيم الجزاء . مثل قوله تعالى« فأمّا من أعطى واتّقى * وصدّق بالحسنى * فسنُيَسّرُه لليسرى * وأما من بخِل واستغنى * وكذّب بالحسْنَى * فَسَنُيَسّرُه للعسرى» (٥ — ١٠ الليل) . .

وقوله سبحانه : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبّةٍ أنبتتْ سبْع سنابِلَ فى كل سُنْبُلَةٍ مائةُ حبّة والله يُضاعِفُ لمن تَشاء والله واسعٌ عليمٌ » (٢٦١ : البقرة) .

فالشحّ هو الغالب على الناس ، وليس السّخَاء ، ولا الإسراف فى هذا المقام ، مقام التصدّق على الفقراء . .

وعلى هذا ، فإنه من غير المتفق مع دعوة القرآن ، أن تَحمِل آياتُه دعوة إلى التحذير من الإسراف فى البذل والعطاء ، للفقراء والمساكين .

وثالثاً : إذا كان فى المؤمنين من يبالغ فى الإحسان ، ويسرف فى البذل ، فإن ذلك زيادةٌ فى الخير ، ومبالغة فى الإحسان ، فلا تجىء دعوة سماوية

بالتحذير للمؤمن أن يعلى مقامه عند الله بالمبالغة فى الإحسان ، وبذل العطاء للفقراء والمحتاجين ..

ورابعاً : إذا فرض أن الإسراف مكروه حتى فى باب الإحسان ، فإن المسرفين هنا قلّة قليلة جداً ، لا يُحمل التحذير لها بهذه الصيغة العامّة المطلقة ، التى تنسحب آثارها على المسرفين ، والمعتدلين ، بل وعلى الأشحّاء جميعاً . . حيث يجد الشحيح مدخلا إلى المبالغة فى شحّه ، حين يسمع دعوةً تقول : « ولا تسرفوا » .

وخامساً : إذا كان من الحكمة التحذير من الإسراف فى جميع الأحوال، فإنه مما يجانب الحكمة فى تلك الحال التى يطعم فيها الطاعمون من هذا الثمر الذى ملأ الله أيديهم منه ـ أن يُدْعوْا إلى ترك الإسراف هنا ـ الذى يحمل فى مضامينه دعوة إلى الإمساك ـ وهم يُطعَمُون ، ويتخيّرون ألواناً مما يطعمون ، وعيونُ الفقراء ترقبهم ، ببطون خاوية ، ولعاب يسيل ! !

وعلى هذا فإن الفهم الذى نستريح إليه لقوله تعالى : « ولا تسرفوا » هو أنه قيد وارد على قوله سبحانه : « كلوا من ثمره إذا أثمر » . . أى كلوا من ثمره فى غير إسرافٍ ، حتى يكون فى أيديكم فضلة تؤدون فيها حق الله فى هذا الثمر الذى تطعمون منه ، وحتى لا تمتلىء البطون ، وتبلغ حدّ التخمة ، فلا يذكر المرء حينئذ شهوةَ جائع إلى هذا الثمر .

أما قوله تعالى : « وآتوا حقه يوم حصاده » فهو معطوف على قوله تعالى : « كلوا من ثمره إذا أثمر » . . معترضا بين صاحب الحال وهو الفاعل فى الفعل « كلوا » وبين جملة الحال وهى قوله تعالى : « ولا تسرفوا » . . ويكون المعنى : كلوا من ثمر هذه الجنات وتلك الزروع عندما ينضج ثمرها ،

وآتوا حق الله فى هذا الثمر الذين تأكلون منه ، غير مسرفين فى الأكل . .

والسرّ فى اقتران الأمر بالأكل من الثمر والأمر بإتيان حق الله منه ، ذلك الاقتران الذى يفصل بين صاحب الحال والحال . . السرّ فى هذا هو — والله أعلم — تذكير بحق الله ، وشَغْل النفس به ، وهى تتذوق بواكير ثمر هذه الجنات وتلك الزروع ، وذلك قبل أن تشبع وتتخم . . وهذا من شأنه أن يقيم فى كيان الإنسان عزيمة صادقة موثّقة على الوفاء به عند حصاد هذا الثمر ، فى حين أن ذلك يدعو أيضاً إلى المبادرة بإعطاء شىء من حق الله فيه قبل الحصاد ، ومشاركة الفقراء ، للآكلين من بواكيره ، حتى لايطول بهم الحرمان والانتظار إلى يوم الحصاد . . « كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده » . .

فإذا جاء الحال بعد ذلك مقيِّدا للأكل ، وناهياً عن الإسراف فيه جاء هذا شاملا لجميع الأحوال التى يؤكل فيها هذا الثمر — فى حال نضجه ، وصلاحيته للأكل وفى حال حصاده وجمعه ، ومابعد حصاده وجمعه . « ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين » فى أى حال من الأحوال .

وقوله تعالى : « ومن الأنعام حَمُولةً وفرشاً » معطوف على قوله سبحانه : « جنّاتٍ معروشات وغيرَ معروشات » أى أنه سبحانه أنشأ كذلك حمولة وفرشاً من الأنعام ، كما أنشأ جنات معروشات وغير معروشات من الزروع .

والمراد بالإنشاء هنا تيسير هذه النعم وتذليلها للإنسان ، وهدايته إلى تسخيرها والانتفاع بها على هذه الوجوه . . فتلك نعم أخرى إلى نعمة إيجادها . . فالله سبحانه وتعالى ، هو الذى أوجدها ، ثم هو سبحانه الذى مكّن للإنسان من أن ينتفع بها ، بما منحه من قوى عاقلة ، تقدّر وتدبر ، وتعرف كيف تسوس هذه النعم ، وتستخرج بعض ماضمت عليه من خير .

والحمولة من الأنعام : مايحمل عليه من إبل ، وخيل ، وحمير ..

والفرش : مايتخذ من هذه الأنعام من جلد وصوف ، ليفترش ..

وقوله تعالى . « كلوا مما رزقكم الله » أى كلوا مما رزقكم الله من هذه الأنعام التى تتخذون منها حمولة وفرشاً ، « ولا تتبعوا خطوات الشيطان » فيما يُملى عليكم من أباطيل تحرّمون بها ما أحلّ الله لكم « إنه لكم عدوٌّ مبين » يحرّم عليكم نعم الله ، ويقيم بينكم وبينها حواجز باطلة ، تفسد عليكم هذه النعم ، فلا ترون فيها كمال النعمة ، وسعة الإحسان ..

وقوله سبحانه : « ثمانية أزواج » بدل من « حَمُولةً وفرشاً » أى « ومن الأنعام حمولة وفرشاً .. ثمانية أزواج » .. أو هو مفعول به لقوله تعالى : « كلوا » أى كلوا من هذا الذى رزقكم الله من الأنعام ثمانية أزواج ، وقوله سبحانه : « من الضأن اثنين ومن المعزِ اثنين قل آلذّكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئونى بعلم إن كنتم صادقين * ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذّكرين حرّم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحامُ الأنثيين أم كنتم شهدَاء إذ وصّاكم الله بهذا إن الله لايهدى القوم الظالمين » هو بيان لهذه الأنعام التى سخّرها الله للناس ، وأباح لهم أكلها ، وما كان للمشركين من ادعاءات وافتراءات على الله فيها .

فهذه الأنعام التي أحلّ الله أكلها ، هى ثمانية أزواج ، أى ثمانية متزاوجة ، أى هى أزواج .. ذكر وأنثى .. من الضأن اثنين : ذكر وأنثى ، ومن المعزِ اثنين : ذكر وأنثى ، ومن الإبل اثنين : ذكر وأنثى ، ومن البقر اثنين : ذكر وأنثى .. فهى أربعة ذكور ، وأربع إناث .. الضأن ، والمعز ، والإبل ، والبقر ، ومايندرج معها من فصائلها .. وهى التى أحل أكلها دون غيرها من الأنعام ..

وفى قوله تعالى : « قل آلذّكرين حرّم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين » إنكار على المشركين هـذا الذى شرعوه من حِلّ بعضها وحرمة بعضها ، كما ذكر الله سبحانه وتعالى عنهم ذلك فى قوله سبحانه : « وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لايطعمها إلا من نشاء بزعمهم » .. وقوله سبحانه : « وقالوا مافى بطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا ومحرّم على أزواجنا » .. فهذا هو حكم الله فيها .. الإباحة المطلقة . فمن أين جاءهم هذا القول الذى يقولونه فيها ؟ « نبئونى بعلمٍ إن كنتم صادقين » .. وإنه لاعلم عندهم ، ولـكنها أوهام وأباطيل ..

وقوله سبحانه : « أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟ » هو إنـكار بعد إنـكار .. فبعد أن أنـكر الله عليهم أنهم ليس معهم علم من كتاب سماوى بهذا الذى يقولونه ، أنكر عليهم أنهم كانوا ممن تلقوْا هذا العلم من الله أوكانوا شهوداً وحضوراً عند تلقّيه ! وإذن فلا حجة معهم على هذه المفتريات التى يفترونها على الله .. وإذن فهم مبطلون فيمايقولون فى هذه الأنعام،وهم بهذاالباطل ظالمون معتدون ، يُضلون أنفسهم ، ويضلون غيرهم .. وإذن فليحملوا أوزارهم وأوزاراً مع أوزارهم . « فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضلّ الناس بغير علم إن الله لايهدى القوم الظالمين » .

الآيات : (١٤٥ — ١٤٧)

« قُلْ لَآ أَجِدُ فِيمَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّآ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥)

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ » (١٤٧)

التفسير : بعد أن أبطل الله سبحانه وتعالى مفتريات المشركين وما يقولونه فى مطاعمهم عن الأنعام ، أمر النبيّ الكريم أن يلقاهم بما بين يديه من شريعة الله فى هذه المطاعم : « قل لا أجدُ فيما أوحىَ إلىَّ محرماً على طاعم يَطْعَمُه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجسٌ أو فسقاً أهل لغير الله به .. » .. فالمطاعم من هذه الأنعام كلها مباحٌ لاحرمة فيه ، إلا ما كان ميتاً غير مُزكّى بالذبح ، وإلا ما كان دماً مسفوحاً أى سائلا مُراقاً ، أو ما كان من لحم الخنزير ، فإنه رجَسٌ ، أى دنسٌ وقذَرٌ ، أو كان مما لم يذكر اسم الله عليه . وأُهلَّ — أى ذُكر — اسم غير اسم الله عند ذبحه ، فإنه فسقٌ وخروج به عن الإيمان بالله ، وتلطيخ له بالشرك .. فهذه كلها محرمات مستثناة من عموم الحِلّ ، لما تلبّس بها من أوضار وأقذار ، ماعدا الخنزير فإنه رجس فى أصله .

وفى قوله سبحانه « مسفوحاً » قيد وارد على حرمة الدم ، وهو أن يكون دماً سائلا ، مما يجرى فى عروق الحيوان .. فذلك هو الدم الحرام ، على خلاف الدم المتجمد أصلا كالكبد والطحال ، فهما حلالان ، كما جاء فى الحديث الشريف : «أحلت لكم ميتتان ودمان : السمك والجراد ، والكبد والطحال .. »

وقوله تعالى: « أو فسقاً أهل لغير الله به » معطوف على قوله تعالى: « إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير » أي أو فسقاً أهلّ لغير الله به » .. وقوله تعالى « فإنه رجس » هو بيان للعلة فى حرمة لحم الخنزير . أى فإن لحم الخنزير رجس ، أى قذر أصلاً ، بخلاف المحرمات السابقة فإنها حلال أصلا ، ولكن دخل عليها ما أفسدها وجعلها فسقاً خارجاً عن دائرة الحلال ..

وقوله تعالى . « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم » هو استثناء من حرمة المحرّمات السابقة التى حرم الله على المسلمين أن يطعموا منها فى حياتهم المألوفة ..

أما إذا وقع المسلم فى حال لايجد فيها ما يأكله وخاف على نفسه التلف ، فإنه قد أبيح له أن يتناول من تلك المحرمات ما يسد جَوْعته ، ويحفظ حياته .. « غير باغ ولا عاد » أى غير متجاوز الحدّ الذى يدفع عنه ضراوة الجوع ، وغير معرض نفسه لمثل هذا الموقف قصداً ، ليستبيح لحم الخنزير مثلا ..

وقوله تعالى: « فإن ربك غفور رحيم » إشارة إلى سعة رحمة الله ومغفرته لعباده ، وما لهما من أثر فى ضبط هذا الموقف الذى يضطر فيه الإنسان إلى الإلمام بهذه المحرمات ..

فمن رحمة الله أنه عمل على صيانة النفس الإنسانية من التلف ، فأباح لها المحظور عند الاضطرار والحاجة ، بعد أن صانها من الدنس فحرم عليها الخبيث .

ومن واسع مغفرته أنه شمل هذه المحظورات فى حال الاضطرار ، بالمغفرة .

وفى تقديم المغفرة على الرحمة كرم ولطف من رب العالمين ، حيث جعل المغفرة إذناً يصحبه معه من يأكل من هذه المحظورات عند الاضطرار فلا يتأثم ولا يتحرّج

قوله تعالى: « وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذى ظفر » ..

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى ما أحل المسلمين من طيبات ، وما حرّم عليهم من خبائث ـ بين سبحانه ما حرم على اليهود من طيبات أحلها للمسلمين، وقد كانت حِلاً لليهود من قبل أن تنزل التوراة ، فحرمها الله عليهم ، عقاباً لهم ونكالاً ، إذ مكروا بآيات الله ، وكفروا نعمه ..

فحرّم الله عليهم كل ذى ظفر من الأنعام ، أى كل ما كان منفرج الأصابع ، كالإبل والنعام والدجاج والبط ، كما حرم عليهم شحوم البقر والغنم، إلا الشحم الذى عَلِق بظهورها ، وما اشتملت عليه من الحوايا الشحم .. وهى الأمعاء ، والكرش أو الشحم الذى اختلط بعظم كشحم الإلية .

وقوله تعالى : « ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون » هو تعليل لهذه العقوبة التى أخذهم الله بها ، وضيق عليهم ما وسّعه على غيرهم من عباده ، وذلك لأنهم بغوا واعتدوا ، ولم يقفوا عند الحدود التى حددها الله لهم ، فكان عقابهم أن أخذهم الله بالضيق ، إذ طلبوا السعة من غير ما شرع الله ..

وفى قوله تعالى : « وإنا لصادقون » إشارة إلى أن ما تلقاه النبىّ من آيات ربه ، وفيما أخبر به عن اليهود هنا ، هو من الصدق الذى لا افتراء فيه ، لأنه تنزيل من رب العالمين . .

ونلمح فى قوله تعالى : « وإنّا » وهى ضمير الجمع ، المراد به الله سبحانه وتعالى فى جلاله وعظمته، نلمح فيه الرسولَ الكريم ، مضافاً إلى الله فى هذا الخطاب الموجه إلى اليهود ، مؤكداً صدق الله وصدق الرسول.. « وإنا لصادقون».. وفى هذا تكريم للرسول أى تكريم ..

وفى قوله سبحانه : « فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » التفات إلى النبىّ الكريم ، وتلقين له بكلمات الله التى يردّ بها على اليهود الذين يكذبون بما أخبر القرآن الكريم من تحريم ما حرّم الله

عليهم من طيبات ، فإنهم سيزعمون مزاعم كثيرة ، ويقولون فيما يقولون من زور وبهتان : إن الله لم يحرّم علينا هذا الذى يذكره محمد عنا فى قرآنه !

وقد علم الله سبحانه منهم أنهم لن يسلّموا بما أخبر به النبيّ عنهم ، ولهذا جاء قوله تعالى مؤكداً هذا الخبر بقوله سبحانه : « وإنا لصادقون » وذلك ليكون لهم من هذا التوكيد رادع يردعهم عن التكذيب بخبرٍ يعلمون صدقه .. فإن أبوا إلا لجاجاً وعناداً ، لقيهم الرسول بقوله تعالى : « ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » وفى هذا وعيد لليهود ، وتجريم لهم ، وأنهم — مع سعة رحمة الله — لا ينالون هذه الرحمة ، ولا يدخلون فيمن يرحمهم الله من عباده ، لأنهم أجرموا فى حق الله ، « ولا يردّ بأسه عن القوم المجرمين » .

هذا ، ويلاحظ أن الآية الكريمة لم تلقهم بالتجريم لقاء مباشراً ، بل جاء الحكم على المجرمين حكما عاماً ، يشملهم ويشمل غيرهم من المجرمين — وذلك أن الآية مكية ، والسورة كلها مكية ، ولم يكن الرسول قد التقى باليهود التقاء مباشراً ، وإنما هذه الإشارات البعيدة هى إرهاص بما سيكون بينهم وبين الرسول من لقاء مباشر ، وأنهم لن يلقوا الرسول ، بالسلام ، والتسليم ، بل سيلقونه — بما عرف عنهم — بالبهت والتكذيب ..

وهذا من شأنه :

أولا : أن يهيىء نفس النبيّ للمعركة المنتظرة بينه وبين اليهود ، وأنها معركة ستكون أسلحة اليهود فيها هى البَهْت والتكذيب ، والافتراء والدس .

وثانياً : أن يُلفت اليهودَ إلى النبيّ ، وإلى ما سيكون له من شأن معهم ، وأنه ليس رسولا إلى العرب وحدهم ، بل هو رسول إلى كل من تبلغه رسالته ، من عرب وغير عرب ، من مشركين وأهل كتاب على السواء .

الآيات : (١٤٨ — ١٥٠)

« سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ » (١٥٠)

التفسير : من مفتريات المشركين أنهم يمكرون بأنفسهم ، ويسوّغون لها الباطل والضلال بمثل هذه الأقوال التى يقولونها عن مشيئة الله ، ويعلقون بها كل آثامهم .. وذلك كقولهم حين يُدعون إلى الإيمان ، وترك ماهم فيه من شرك : « لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء » .. وفى عطف آبائهم عليهم إشارة إلى أنّهم إنما يتبعون دين آبائهم ، وأنهم إذا كانوا هم وآباؤهم على شرك ، فذلك مما أراده الله لهم ، ولو شاء الله لهم ألاّ يشركوا ما أشركوا . . » .. هكذا يمكرون بآيات الله ، وهكذا يتعلّلون بمشيئة الله ، ويسترون شركهم بها ..

وهم فى هذا القول كاذبون حتى مع أنفسهم .. فلو أنّهم كانوا مؤمنين بالله على تلك الصفة التى يؤمنون فيها بمشيئته ، ويرون أنها المشيئة الغالبة التى يُردّ إليها كل شىء ـ لو أنّهم آمنوا بالله على تلك الصفة لما كانوا مشركين ، بل كان إيمانهم بالله إيمانًا خالصًا مبرأ من الشرك ، إذ أضافوا إليـه كلّ شىء ،

وردّوا إلى إرادته ومشيئته كل شيء ، ولو أنهم فعلوا ذلك لما كان لهم إلى هذه المعبودات التى عبدوها من دون الله وسيلة ، ولكانوا هم وهذه المعبودات سواء عند الله ، لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعاً .. ولكنهم إذ يقولون فى مشيئة الله هذا القول الذى يحسبون أنه يُخليهم من مسئولية الشرك ، بل ويعفيهم من كل إثم ـ لا يؤمنون بالله هذا الإيمان ، ولا يرونه الإله المتفرد بكل شيء !

وقد تحدثنا من قبل عن فساد هذا القول فى بحثنا الذى قدمناه ، عن مشيئة الله ، ومشيئة الإنسان ، عند تفسير قوله تعـالى : « ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكة .. (الآية : ١١١) من هذه السورة .

وقوله تعالى : « كذلك كذّبَ الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » إشارة إلى ما بين أصحاب القلوب المريضة ، والنفوس الفاسدة ، من تشابه فى التداعى إلى الشرّ ، والتجاوب مع الضلال .. وأنه كما كذّب هؤلاء المشركون وقالوا « لو شاء الله ما أشركنا نحن ولا آباؤنا » قال كثير ممن سبقوهم إلى الشرك هذا القول ، فكان كفرهم وضلالهم ضرباً من هذا المنطق الفاسد .

وفى قوله تعالى « حتى ذاقوا بأسنا » تهديد ووعيد لهؤلاء المشركين إذا هم ظلّوا على ما هم فيه من شرك وضلال ، وأنهم سَيُلاقون ما لاقى أسلافهم الذين أشركوا ، ولم تنفعهم العبر والمَثلات ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وصَبّ عليهم العذاب فى الدنيا ، وسيلقون العذاب الأليم فى الآخرة ..

وقوله تعالى : « قل هل عندكم من علمٍ فتخرجوه لنا » مواجهة للمشركين بتهمة الشرك الذى تلبّسوا به متذرّعين بتلك الحجة الفاسدة التى يلقون بها كل دعوة تدعوهم إلى ترك الشرك .. « لو شاء الله ما أشركنا نحن ولا آباؤنا » .

وهم مطالبون هنا بأن يقيموا هذا القول على علمٍ من كتابٍ سماوى ، أو من عقل سليم ..

وإنه لاعلم عندهم من هذا أو ذاك .

وإذ خَرِسُوا فلم يردوا على هذا السؤال ، فقد تولىّ الله سبحانه وتعالى ، الجواب المفحم لهم ، الفاضح لسفههم وضلالهم : إن تتبعون إلا الظنّ وإن أنتم إلا تخرصون » وهو جواب يواجههم بالتهمة التى تُدينهم ، وتلقى بهم فى مهاوى الهالكين .

« والخَرص » الأخذ بالشىء من غير علم محقق ، يقال خَرَص النخلة . أي قدَّر ماعليها من تمر قبل أن ينضج ، وهذا لا يكون إلا عن حَدْس وتوهّم ، أشبه بالرجم بالغيب .

قوله تعالى : « قل فلله الحجة البالغة فلوشآء لهداكم أجمعين » هو ردٌّ زاجر على المشركين ، وإدحاضٌ لافترائهم على الله ، والتعلل لشركهم بقولهم : « لوشاء الله ما أشركنا نحن ولا آباؤنا » .. وكأنهم بهذا القول إنما يقيمون لهم حجّة على الله ، فلا يؤاخذهم على مايقع منهم من شرك أو غيره من الآثام ، بحجة أن الله هو الذى أراد لهم الشرك ، كما أراد لهم كل فعل منكرٍ ، إذ بيده كل شيء ، وإليه يردّ كلّ شيء .. أليس هذا هو قول المؤمنين بالله عن الله .؟ فكيف يُراد من المشركين أن يخرجوا من شركهم ؟ ألهم إرادة مع الله ، أو مشيئة مع مشيئته .. هكذا يقولون ! ؟

وهذا من المشركين ضلال فى ضلال ، إذ لو كانوا مؤمنين بالله ــ كما قلنا ــ على تلك الصفة لكان لهم أن يقولوا فى مشيئته هذا القول .. ولكنهم إذ يجعلون لله شركاء يعبدونهم من دونه ، لايجعلون لمشيئته من يشاركه فيها ، بل يجعلونها مطلقة ، فلا مشيئة لأحد مع مشيئته .. وهذا تناقض مفضوح .. فإمّا إلهٓ متفرد بألوهيته ، ومشيئته ، وإذن فلا يشاركه أحد فى ألوهيته ومشيئته ، وإما إلهٓ مع آلهة ، يشاركونه المشيئة ، كما يشاركونه الألوهية ، وإذن

فلا يصح لهؤلاء المشركين أن يُضيفوا إلى مشيئة الله مايقـــع لهم من شر وشرك..

وقد ردّ الله عليهم حجتهم الفاسدة بقوله تعالى : « قل فللّه الحجة البالغة » أى إن حجتكم التى تحتجون بها لشرككم بالله ، وإضافة هذا الشرك إلى مشيئته هى حجة باطلة ، لاتقيم لـكم عند الله عذراً ، ولا تدفع عنكم مغبة هذا الإثم الذى غرقتم فيه ، ولا تزال حجّة الله قائمة عليكم ، آخذة بنواصيكم إلى المصير المشئوم الذى أعدّ لـكم .. « فللّه الحجة البالغة » التى لاتنقض أبداً .. وقد أقام الله عليكم الحجة ، بأن جعل لـكم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ، ثم أرسل إليكم رسله مبشرين ومنذرين .. فلم يُغن عنكم سمعكم ولا أبصاركم ولا أفئدتكم ، ولم تستقبلوا بتلك الجوارح هذا النور المرسل لـكم هدًى ورحمةً .. فحقّ عليكم العذاب ، بما كنتم تـكسبون ..

وقوله تعالى : « فلوشاء لهداكم أجمعين » إشارة إلى أن مشيئة الله عامة شاملة ، فلا يقع فى الوجود شىء إلا بمشيئته ، حتى شرك هؤلاء المشركين ، هو واقع بمشيئة الله ، كما يقول هؤلاء المشركون ، الذين يقولون هذا القول هزوًا وسخرية ، ومكراً وتخابثاً .

ونعم : لو شاء الله ما أشركوا هم ولا آباؤهم .. ولـكن قد طردهم الله من مواقع فضله وإحسانه ، وعزلهم عن مجتمع أحبابه وأوليائه ، لأنهم ليسوا أهلا لإحسانه ، ولا موضعاً لـكرامته .. والله سبحانه وتعالى يقول : « إنّ شرّ الدوابِّ عند الله الصمُّ البُـكْمُ الذين لايعقلون * ولو عَلِم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » (٢٢ ــ ٢٣ : الأنفال) .

قوله تعالى : « قل هلمّ شهداءكم الذين يشهدونَ أن الله حرّم هذا » .

هلمّ : اسم فعل أمر ، بمعنى هاتِ ، أو أحضِرْ .

والخطاب هنا للمشركين ، الذين يقولون : « لو شاء ما أشركنا نحن ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شىء » .. فهم مطالبون بأن يأتوا بمن يشهد لهم على هذا الزّور الذى يقولونه على الله ، ويضيفونه إلى مشيئته .. فهل عندهم مَن يشهد لهم بأن الله حرّم هذه المطاعم ، التى يقولون إنها حرّمت عليهم بمشيئة الله وتقديره ؟

إن الله ـ سبحانه ـ لم يحرّم شيئاً من هذا الذى حرَموه هم .. وإذن فهم الذين شاءوا بمشيئتهم أن يكون لهم موقف مع هذه الأشياء ، وأن يُصدروا حكمهم عليها بالتحريم ، فكيف ينكرون ـ بعد هذا ـ مشيئتهم العاملة معهم فى الحياة ، فتحلُّ لهم الخبائث ، وتحرم عليهم الطيبات ؟ أليس ذلك عن مشيئة وإرادة منهم ؟ إنهم لو كانوا ـ كما يقولون ـ بلا مشيئة متحركة عاملة ، لما كان لهم أن يبدّلوا ويغيروا شيئا وجدوه قائماً على ما أوجده الله ، ولكانوا كالحيوان الأعجم ، الذى يجرى على طبيعته ، ويأخذ الأشياء على مابها ..

فهم ـ والحال كذلك ـ أصحاب مشيئة ، ولكنها مشيئة فاسدة ملتوية ، يعترضون بها سُنَن الله ، ويغيّرون بها شريعة الله ، ومن ثَمَّ فهم معتدون آثمون ، قد حُقَّ عليهم أن يؤخذوا باعتدائهم ، وأن يعذبوا بآثامهم .

وقوله سبحانه : « فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لايؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون » تثبيت للنبى الكريم على طريقه المستقيم ، الذى أقامه الله عليه ، وألا يأخذ بشهادة من يشهدون على هذا الزور ، فإن أهل الضلال الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، لايتحرجون من الكذب والافتراء ، ولا يتورّعون أن يدّعوا على الله الكذبَ والبهتان .

وقوله تعالى : « وهم بربهم يَعْدِلون » أى يشركون بربهم ، ويجعلون

له أنداداً ، وأعدالا يساوونه ، ويتوازنون معه عندهم .

وفى إضافتهم إلى « ربهم » توبيخ لهم ، وتسفيه لعقولهم ، إذ يسوّون ربهم الذى خلقهم ، وسوّاهم ، ورزقهم ، ببعض مخلوقاته ، من حيوان وجماد . وهذا لا يكون إلا ممن سَفِه نفسه ، وزهد فى عقله ، واستسلم لهواه ، واتبع شيطانه . .

الآيات : (١٥١ — ١٥٣)

« قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (١٥٣)

التفسير : بعد أن فضح الله سبحانه وتعالى حجة هؤلاء المشركين التى أجازوا بها هذا الضلال الذى هم فيه ، من شرك بالله ، وتحريم ماحرموا من الطيبات التى أحلّها الله لعباده ـ أمر الرسولَ الكريم أن يؤذّن فى الناس ـ

ومن بينهم هؤلاء المشركين — بما شرع الله لهم من دين ، وما حرّم عليهم من محرّمات ، وما أحلّ لهم من طيبات ، وتلك هى شهادة الرسول عليهم ، بعد أن دُعوا إلى أن يأتوا بمن يشهد لهم على هذه المفتريات التى افتروْها على الله ..

وشهادة الرسول ، هى مما تلقاه وحياً من ربّه ، وليس منها شىء من عنده :

« قل تعالوا أتلُ ماحرّم ربّكم عليكم » .

وسواء جاء هؤلاء المدعوون للاستماع إلى تلك الشهادة السماوية أم لم يجيئوا ، فإن الرسول مأمور بأن يؤذن بشهادته فى الناس ، وأن يبلغ ما أُنزل إليه من ربه .. فمن كانت له أذنان فليسمع . . !

«ألا تشركوا به شيئاً» هذا هو رأس المحرمات التى حرّمها الله على عباده : الشرك به ، إذ هو كفران بمن خلق ورَزَق ، وعدوان على صاحب الحق فى الولاء والخضوع له ، من عباده .

وقد اضطرب المفسرون اضطراباً شديداً ، واختلفت بهم مذاهب الرأى فى توجيه الآية الكريمة وجهاً يستقيم على فهم يوفق بين أمور تبدو فى ظاهر النظم متعارضة ، إن هى جرت على قواعد اللغة والنحو ..

فأولا : الجمع بين التحريم فى قوله سبحانه : « ماحرم ربكم عليكم » ثم وقوع هذا التحريم على النهى عن الشرك فى قوله تعالى : « ألا تشركوا به شيئاً » .. وذلك أنه إذا أُخذ بظاهر النظم كان معناه : « ماحرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً » أى أن الذى حرمه ربكم عليكم هو أن تتركوا الشرك .. وهذا أمر بالشرك ودعوة إليه ، وذلك ماينزه كلام الله عنه ..

وثانياً : مما وقع تحت حكم التحريم أمور واجبة شرعاً ، يرغّب الإسلام فيها ، ويدعو إليها ، وقد جاءت بصيغة الأمر فى قوله تعالى : « وبالوالدين إحساناً » .

وقوله سبحانه : « وأفوا الكيل والميزان بالقسط » .. وقوله جل شأنه : « وإذا حكمتم فاعدلوا » .. « وبعهد الله أوفوا » ..

وهذه الأشياء المأمور بها ، على سبيل الوجوب ، فى آيات كثيرة من كتاب الله - تبدو هنا فى ظاهر النظم كأنها دعوة إلى ترك هذه الواجبات ، وإلباسها لباس المحرمات .. وهذا مالا يستقيم أبداً ..

وقد ذهب المفسرون - كما قلنا - مذاهب كثيرة مختلفة ، من التأويل المتعسف ، ومن افتراض الحذف والإضافة ، والتقديم ، والتأخير ، وغير ذلك ، مما يُدخل على الآية الكريمة أجساما غريبة فيها ، تفسد نظمها ، وتحجب وجوه إعجازها ..

ولا نعرض هنا لتلك المقولات ، فهى مبثوثة فى كتب التفاسير ولا محصل منها لفهم سليم نستريح إليه .. وحسبنا أن ندلى بما عندنا من فهم للآية الكريمة وما فى نظمها الذى جاءت عليه ، من إعجاز ، لا يتحقق إلا بالنظر إليها ، نظراً مباشراً ، من غير أن يدخل عليها مايغير من صورة نظمها ، بحذف أو إضافة ، أو تقديم أو تأخير ..

فنقول - والله أعلم - إن الآية الكريمة والآيتان بعدها تضمنت مجموعة من النواهى والأوامر ..

فمن النواهى : «ألا تشركوا به شيئا» .. « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق» « ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن » .. « ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق » .. « وَلا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن » ..

و من الأوامر : « وبالوالدين إحسانا » .. « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » .. « وإذا قلتم فاعدلوا » .. « وبعهد الله أوْفوا » .

ثانياً : إذا لاحظنا أنّ الأمر والنهى هما الصميم من الشريعة الإسلامية ، وعليهما تدور أحكام الشريعة ووصاياها — إذا لاحظنا ذلك وجدنا أن لهذا الجمع بين النواهى والأوامر التى حملتها تلك الآيات الثلاث ، حكمتَه ، إذ كان الرسول الكريم هنا فى مواجهة الناس جميعاً ، وخاصة المشركين ، وهو فى هذا الموقف مطالب بأن يكشف أصول الشريعة التى جاء بها ، وما أحلّ الله للناس وما حرّم عليهم . . وقد جاءت الآيات الثلاث بالأصول العامة لأحكام الشريعة كلها ، فيما حرّمت وأحلّت.

عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيكم يبايعنى على ثلاث .. » ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: « قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم .. » حتى فرغ من الآيات قال : « فمن وَفَى فأجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله به فى الدنيا كانت عقوبته (أى كانت العقوبة كفارةً له) ومن أخر إلى الآخرة ، فأمره إلى الله، إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن هذه الآيات محكمات ، لم ينسخهن شىء من جميع الكتب ، وأنهن أم الكتاب ، من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار .

ثالثاً : إذا لاحظنا أيضاً أن الرسول الكريم لم يكن فى هذا الموقف يواجه الناس بأحكام جديدة ، يكشف بها عن وجه رسالته ، وإنما كانت تلك الأحكام قد تقررت من قبل ، فيما جاء به القرآن ، وقد كان ذلك معلوماً كلّه لهؤلاء المخاطبين ، من مؤمنين ومشركين . ـ إذا لاحظنا ذلك وجدنا أنه لم يكن عمل الرسول هنا إلا تلاوةً لنصوص أحكام كانت مقررة من قبل ، ولهذا فقد أُمر الرسول الكريم بأن يدعو الناس إليه ، « قل تعالوْا » . . ثم يستحضر الدستورَ

الذى بين يديه من كتاب الله ، ويتلو هذه الأحكام المقررة فيه ، من أوامر ونواهٍ : « قل تعالَوْا .. أتلُ ما حرم ربكم عليكم » ..

خامساً : وإذ كان المشركون قد شرعوا لأنفسهم شريعة مفتراة ، حرّموا بها ما أحلّ الله من طيبات ، فقد كانت المواجهة لهم أولاً بما حرّم الله من منكرات ، وما نهى عنه من خبائث ..

وننظر فى الآيات الكريمة فنرى :

أولا : قوله تعالى : « قل تعالَوْا أتلُ ماحرم ربكم عليكم » يمثِّلُ الرسولَ الكريم وقد جاء، وبين يديه ، وعلى لسانه ، كتاب الله الذى معه ، يتلو منه ماحرّم الله على عباده من منكرات ..

ثم ها هو ذا رسول الله يتلو عليهم ما حرم الله من منكرات ، فيبدأ بقوله تعالى : « ألاّ تشركوا به شيئا » . فهذا أول ما يجده الرسول الكريم من منكر نهى الله عنه فى آيات كثيرة أنزلها الله عليه ، واستودعها قلبه . . مثل قوله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً» . وقوله سبحانه : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعملْ عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً » .

فهذا هو أول مايتلوه الرسول من كتاب ربه : « ألا تشركوا به شيئاً »..
والرسول فى هذه التلاوة غير ملتفتٍ إلى تلك الدعوة التى دعا فيها الناس إلى أن يستمعوا إليه ، وهو يتلو ماحرّم ربهم عليهم .. فتلك دعوة موجهة منه للناس أن يجتمعوا إليه ، فإذا اجتمعوا ، استقبلهم بما أنزل الله عليه من آياته ، من منهيّات ..

وإذن فلا اتصال فى النظم من جهة اللغة والنحو بين قوله تعالى : « قل تعالَوْا أتل ماحرّم ربكم عليكم » وبين قوله سبحانه : «ألا تشركوا به شيئاً».

فالأول عمل من أعمال الرسول لدعوة الناس إليه ، والثانى تلاوة من كتاب الله الذى بين يديه .. ومن هنا نجد أكثر من فاصل يفصل بين المقطعين من الآية: فهناك فاصل زمنىّ — حسىّ ومعنوى — بين الدعوة ، وحضور المدعوّين ، وبين إسماعهم ماحرّم الله عليهم فى كتابه .. وهناك فاصل اعتبارى ، حيث أن المقطع الأول هو — فى ظاهره — من كلام الرسول ، ومن عمله ، على حين أن الثانى من كتاب الله نصًّا ، يتلوه الرسول من مستودعات الله فى قلبه ..

وثانياً : قوله تعالى « وبالوالدين إحساناً » بالعطف على النهى قبله : « ألا تشركوا به شيئاً » هو من لوازم هذا النهى ومن مقتضياته .. فإن النهى فى حقيقته أمر سلبىّ ، يقتضى الوقوفَ من المنهىّ عنه موقفاً مجانباً له ، أو منسحباً منه..ومن تمام الحكمة أن يُعْقِبَ تجنّبُ المنهىّ عنه ، الخروجَ به من هذا الموقف السلبىّ إلى مايقابله من عمل إيجابىّ .. فإذا امتثل الإنسان النهىَ عن الشرك بالله ، وانخلع عن عبادة من عبدهم من دون الله ، كان عليه أن يؤمن بالله ، وأن يتقبل أوامره ويعمل بها ..

ومن إعجاز القرآن الكريم هنا أن يجىء الأمر بالإحسان إلى الوالدين عقب النهى عن الشرك بالله ، ليملأ هـذا الفراغَ الذى وُجد بإجلاء الشرك عن قلوب المشركين ، أو بغروب شخصه من آفاق المؤمنين ..

فالأمر بالإحسان إلى الوالدين هنا ، هو فى المكان الذى كان من المنتظر أن يحلّ فيه الإيمان بالله ، محلّ الشرك ، بعد أخلى مكانَه ، وزال شخصُه .. وفى هذا مافيه من تعظيم حق الوالدين ، وجعل برهما والإحسان إليهما،أشبهَ بالإيمان بالله . . أما الإيمان بالله هنا فهو واقع لاشك فيه بعد أن جلا الشرك ، الذى كان هو الحاجز الذى يحول بين المشركين وبين الإيمان بالله . .

ثالثاً : قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادَكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم »

ولا تقربوا الفواحِشَ ماظهر منها ومابطن ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » هو استكمال لما حرّمه الله من منكرات ، مما يتلوا الرسول الكريم على الناس من كتاب ربه ..

وفى النهى عن قتل الأولاد خشيةَ الفقر ، بعد أمْر الأبناء ببرّ الآباء ـ فى هذا ما يكشف عن تلك المفارقة البعيدة بين ما يكون من الأبناء من برهم بآبائهم ، وبين مايأتيه هؤلاء الآباء من قتل أولئك الأبناء . . وفى هذا مافيه ضلال وسفهٍ ، وخروج على مألوف الطبيعة ، فيما بين الكائن الحىّ ومواليده . . من حيوان ونبات ! !

وفى قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » قُدِّم رزق الآباء على الأبناء ، لأن الآباء هنا فى فقر واقع بهم ، وفى ضيقٍ استولى عليهم ، فَقَتَل فيهم مشاعر الإنسانية ، حتى طوعت لهم أنفسهم قتلَ أولادهم ، شفقةً عليهم ، وإراحة لهم من آلام الجوع ، وقسوة المسغبة ، فجاء قوله تعالى : « نحن نرزقكم وإياهم » ليشعر الآباء بأن الله متكفل برزقهم ورزق أبنائهم معاً ، وأن هذا الضيق الذى هم فيه سوف يعقبه فَرَج ، وأن هذا الرزق الضيّق الذى هم فيه فعلا ، هو قسمة بينهم وبين أبنائهم ، فهم فيه سواء ، وأنه ليس للآباء أن يقتلوا أولادهم وهم شركاؤهم فى هذا الرزق المحدود الذى فى أيديهم ..

وقد جاء قوله تعالى فى سورة الإسراء : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » بتقديم رزق الأبناء على الآباء ، لأن الآباء فى تلك الحال ليسوا فى حال ضيقٍ وفقر ، وإنما هم على شعور الخوف من الفقر مستقبلا ، فهم يقتلون أولادهم فى تلك الحال لالفقرٍ وقع ، وإنما لخشية الفقر المتوقّع ، الذى قد يكون وجود الأبناء سببا فى التعجيل به — فجاء قوله تعالى : « نحن نرزقهم وإياكم » ليدفع هذا الشعور ، وليقيم مكانه شعوراً مضاداً له ، وهو أن

الأبناء لهم رزقهم عند الله ، وأن هذا الرزق مقدم على رزق الآباء ، وأن قتلهم حينئذ يكون عدوانا عليهم ، وحبسا لهذا الرزق الذى سيرزقهم الله إياه ..

وفى قوله تعالى : « ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن » نهىٌ عن الفواحش ، وهى المنكرات ، وعلى رأسها الزنا ، إذ كانت الصفة الملازمة له فى القرآن هى الفحش .. وما ظهر من الفواحش هو المعالَن به منها ، وهو فاحشة إلى فاحشة .. إذ كان الزنا فى أصله فاحشة ، وكان الإعلان به فاحشة أخرى ، لما فى المعالنة من إذاعة الفاحشة ، والتحريض عليها ، والله سبحانه وتعالى يقول: « لا يحبّ الله الجهر بالسوء من القول » فكيف بالجهر بالسوء من الفعل ؟ .. وما بطن من الفواحش ، هو ما كان فى ستر وخفاء ، فهو منكر فى ذاته ، ولا يرفع عنه هذا المنكرَ إتيانُه فى خفاء ، إذ لا تخفى على الله خافية ، وإن خفيت على الناس .

رابعا : قوله تعالى : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده » . هو نهىٌ عن العدوان على مال اليتيم الذى فى يد الأوصياء عليه ، وفى النهى عن قُربانه تحذير من الدنوّ منه بقصد السوء والعدوان ، وفى قوله تعالى : « إلا بالتى هى أحسن » استثناء من النهى العام بالاقتراب من مال اليتيم ، إلا أن يكون ذلك لإصلاحه ، واستثماره ، أو الأخذ منه بالحق والإحسان ، دون جوْر أو عدوان .. وفى قوله تعالى : « حتى يبلغ أشده » هو بيان للغاية التى يمتد إليها النهى عن الاقتراب من مال اليتيم ، لأنه إلى تلك الحال يكون فى يد الوصىّ ، فإذا بلغ اليتيم أشده صار المال إلى يده ، وخرج من يد الوصىّ ، فلا سلطان له حينئذ للتسلط عليه كيتيم .. ويكون العدوان على ماله بعد هذا ، هو عدوان على الإنسان من حيث هو إنسان لا ولاية لأحد عليه ، الأمر الذى نهى الله عنه .

خامسا : قوله تعالى : « وأوْفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلّف نفسا

إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون» .
هو أمر بعد النهى عن العدوان على مال اليتيم ، وفى هذا الأمر تكتمل صورة النهى ، ويتمّ المقصود منه ..

فإذا امتنع الوصىّ عن العدوان على مال اليتيم ، وكفّ يده عن الأخذ منه بغير حق ، كان عليه أن يتبع هذا السلوك فى كل ما بينه وبين الناس من معاملات . . فإذا كان الشيء مكيلا أو موزونا ، أوفى الكيلَ والميزان فيما يكيل أو يزن « بالقسط » أى بالعدل .. فإذا نقص المكيلُ أو الموزون شيئاً ما ، من غير قصد ، فذلك مما عفىَ الله عنه ، ورفع الحرج عن صاحبه .. «لا نكلف نفساً إلا وسعها» إذ ليس مما تتسع له النفس ويقدر عليه الإنسان أن يضبط الكيل والميزان ضبطاً مطلقاً ، بل المطلوب هو تحرّى الحق ، وعدم القصد إلى خيانة أو خسران فى الكيل والميزان ..

وهذا الأمر وإن كان فى مواجهة الأوصياء ، هو أمر عام لكل من يؤمن بالله ، وإن كان الأوصياء أولى الناس بالاستجابة له ، بعد تلك التجربة التى كانوا فيها مع اليتيم ومال اليتيم .

ومما هو من قبيل الأمانة ، وتجنب الخيانة ، الحكمُ بالعدل بين الناس ، وقول كلمة الحق فى أداء الشهادة ، وكذلك الوفاء بالعهود والمواثيق التى بين الإنسان وخالقه ، أو بينه وبين العباد ..

سادساً — قوله تعالى : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » هو تعقيب على تلك النواهى والأوامر التى أمر الله سبحانه النبىَّ الكريم أن يتلوها على الناس . فهذه المأمورات وتلك المنهيّات هى شريعة الله ، وهى الصراط المستقيم الذى دعا الله عباده إلى الاستقامة عليه ، فمن اجتنب المنهيات ، وأتى المأمورات ، فهو على صراط الله ، وعلى شريعة الله ، ومن

انحرف عن هذا الصراط ، فقد ضلّ وغوى ، وكان من الهالكين ..

وفى قوله تعالى : « فاتبعوه » أمر بإتيان الأوامر . . وفى قوله تعالى : « ولا تتبعوا السبل » نهى عن إتيان المنهيات ..

وفى التعبير عن سبيل الله « بالصراط » والتعبير عن الطرق الخارجة عنه بالسبل — إشارة إلى أن طريق الله « صراط » أى طريق معدّ ومهيأ للسالكين ، تقوم عليه منارات هدى ، وإشارات هداية .. أما هذه السبل التى لاتستقيم على هذا الصراط ، فهى طرق لا مَعْلَمَ فيها ، ولا شارة عليها ، يركبها الراكب فيتخبط ، ويتعثر ، ويضلّ .. ولهذا جاء التعبير عن صراط الله بلفظ المفرد ، لأنه واحدٌ لاغير،إذ الحقّ حقّ .. وجهه واحد ، وطريقه واحدة ، وأما الباطل ، فهو أباطيل .. متعدد الوجوه ، مختلف السبل . .

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « خطّ رسول الله خطاً بيده ثم قال : « هذا سبيل الله تعالى مستقيما ، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ، ثم قال :

« وهذه السبل ليس فيها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

الآيات : (١٥٤ — ١٥٧)

« ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ

دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ » (١٥٧)

التفسير : فى العطف بثمّ هنا على الآيات السابقة مايشير إلى أن هذا الخبر الذى تضمنته ، متأخر زمناً عن الأحكام الواردة فى تلك الآيات .. وهذا يخالف الظاهر .. فإن مانزل على النبىّ من آيات تلاها على الناس ، هو متأخر زمناً عن الكتاب الذى نزل على موسى ، وهو التوراة .. فما تأويل هذا ؟

والجواب : أن هذا الذى يتلوه الرسول الكريم من كلمات ربه هو متقدم حكما على كتاب موسى ، وإن جاء متأخراً زمناً .. ذلك أن القرآن الكريم هو أصل الكتب السماوية ، وأنه جمع ما تفرق منها . وقد أشرنا إلى ذلك عند تفسير قوله تعالى : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » (٤٨ : المائدة) .

فإن ما أنزل الله على موسى ، هو مما شرع الله من قبل للأمم السابقة ، فيما جاء على لسان نوح وإبراهيم ، وغيرهما من الأنبياء .. إذ أن شرع الله واحد ، وهذا الذى تلاه النبىّ من كتاب الله هو أصل كل شريعة ، وقوام كل دعوة سماوية ، سبقت شريعةَ موسى ، أو جاءت بعدها .

وقوله تعالى : « تماماً على الذى أحسن وتفصيلا لكل شىء » هو وصف للحال الذى نزل عليها الكتاب الذى جاء به موسى ، وهو أنه جاء تاماً على أحسن مايكون عليه التمام ، كما جاء مفصلا لكل شىء .. ففى التوراة بيان مفصل لكل جزئية جاءت بها الشريعة الموسوية ، فيما يتصل بالعقيدة ، أو بالأمور

الدنيوية ، حيث لم تدع مجالا لتأويل أو تفسير ، ولا مكانا لعقل ينظر ويجتهد .. وذلك :

أولا : ليسدّ على بنى إسرائيل الطريقَ إلى التأويلات الفاسدة ، وإلقاء أهوائهم كلها على كلمات الله ، إذا جاءتهم مجملة ، تحمل أكثر من مَحْمَل .. وذلك لما عُرف عنهم من المكر بآيات الله والاستخفاف بحرماته ..

وثانيا : ليلغى عقولَ هؤلاء القوم ، وليمسك بهم فى دور الطفولة ، جزاء لما استولى عليهم من طبائع خبيثة ، لا تؤمن إلا بما يقع لأيديهم من محسوسات ، فكانت التوراة بهذا التفصيل الذى جاءت به ، أشبه بالمحسوسات فى وضوحها ، وتحديد دلالاتها .. ومع هذا فقد خرجوا على حدودها ، بما أدخلوا عليها من حذف وإضافة ومن تبديل وتحريف .

وقوله تعالى : « لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون » هو تعليل لهذا التفصيل الذى جاءت عليه التوراة ، الأمر الذى لا يدع لهم سبيلا إلى التأويل والتخريج ، والذى من شأنه أن يكشف لهم الطريق إلى الله ، وإلى الإيمان به ، وبالدار الآخرة ، التى هم فى ذهول عنها ، لما يشغلهم من أمور الدنيا ، ويحبس عقولهم وقلوبهم عليها ..

هذا ، وفى خطاب اليهود بضمير الغائب ، دون أن يجرى لهم ذكر يعود إليه هذا الضمير — استخفاف بهم ، وإهمال لشأنهم ، إذ كانوا فى هذا الشرود وذلك الذهول عن الله ، وعن كلماته المفصّلة التى بين أيديهم ..

قوله تعالى :

« وهذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون » هو دعوة للمسلمين ، إلى الله ، وإلفات لهم إلى هذا الكتاب الذى جاءهم به رسول الله

من ربّه ، يحمل البركة والخير والرحمة ، لمن اتّصل به ، وأخذ عنه ..

وقوله سبحانه : « أن تقولوا إنما أُنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنّا عن دراستهم لغافلين » .. بيان للحكمة من إنزال هذا الكتاب على الأمة العربية ، بلسانها العربى ، وعلى يد رسول عربى ، دون إحالة لهم على ماعند غيرهم من أهل الكتاب .. وفى هذا فضل عظيم من الله على هؤلاء القوم، الذين خصهم الله برحمته،ومسهم بفضله ، فجعلهم أهلاً لخطابه ، وموضعاً لمغارس السماء فيهم .. فلا حجّة لهم بعد هذا ، ولا مكان لقول يقولونه إذا هم حوسبوا على هذا الشرك وذلك الضلال الذى هم فيه ، حيث يقولون :إنما أُنزلَ الكتاب على طائفتين من قبلنا ، ولم ندرس ماعندهم ، ولم نتلق عنهم ، لأننا أمة لنا كيان واعتبار ، وتأبى علينا أنفسنا أن نجىء إليهم متطفلين على مافى أيديهم .. فها هو ذا الكتاب الذى كانوا يتطلعون إليه،قد جاءهم .. فما حجتهم إذا لم يتبعوه ويؤمنوا به ؟ .

والطائفتان اللتان سبقتا الأمة العربية بالكتب المنزلة ، هما : اليهود والنصارى . . وقد خُصّا بالذكر لأنهما كانا من المساكنين للأمة العربية ، والمتصلين بها ، زماناً ومكاناً .

وقوله تعالى : « أو تقولوا لو أنّا أُنزل علينا الكتابُ لكنّا أهدى منهم » هو من المقولات التى كان يمكن أن يقولها مشركو العرب ، لو لم ينزل عليهم القرآن الكريم .. وها هو ذا الكتاب المبارك قد نزل عليهم .. فماذا هم فاعلون به ؟ وما حجتهم على الله إذا زهدوا فيه ، أو وقفوا منه موقف العداوة، ونصبوا له الحرب ، كما هم يفعلون الآن والنبى معهم ؟ .

وقوله تعالى : « فمن أظلم ممّن كذّب بآياتِ اللهِ وصَدَفَ عنها » هو وعيد لهؤلاء المشركين الذين استقبلوا آيات الله بالتكذيب بها ، وبالصدّ عنها ، فإنهم

قد ظلموا أنفسهم ، وحرموها هذا الخير المرسل إليهم ، وحجبوها عن تلك الرحمة المهداة لهم ..

وقوله سبحانه : « سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون » هو حكم بالعقوبة الرادعة ، والجزاء الأليم ، لأولئك الذين كذّبوا بآيات الله وصدّوا عنها .. والصُّدُوف عن الشيء : التولى عنه ، والمجانبة له .

الآيات : (١٥٨ — ١٦٠)

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » (١٦٠)

التفسير : بعد أن أعذر الله المشركين من قريش ومَن حولهم ، بما بعث فيهم من رسول منهم ، وبما أنزل إليهم من كتاب كانوا يمدونه من قبل ليكونوا أهلَ كتاب كاليهود والنصارى ، وبعد أن كان منهم هذا الذى استقبلوا به الكتاب والنبيّ الذى حمل إليهم الكتاب ، من مشاقة وعناد ، وتكذيب — بعد هذا كله لم يكن لهم أن ينتظروا إلا أن يصيروا إلى هذا المصير الذى يقودهم إليه كفرهم وضلالهم ، إذ لاهدى لهم بعد هذا الهدى ، ولا كتاب بعد هذا الكتاب .. ولهذا جاء قوله تعالى : « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة

أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك » ليذكر عليهم هذا العناد الذى هم فيه ، وليدخل اليأس عليهم من أن ينتظروا جديداً ، يطلع فى أفقهم بدعوة تدعوهم إلى الله ، إذ ليس هناك دعوة أبلغ ولا أبين من هذه الدعوة التى بين أيديهم .. وأنهم إن كانوا ينتظرون أن تأتيهم الملائكة ، أو يأتيهم الله ، أو تأتيهم بعض آيات الله .. فلينتظروا ..

أما الملائكة فلن يأتوا أبداً .. والله سبحانه وتعالى يقول : « قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء مَلَكا رسولا » (٩٥ : الإسراء) .

وأما الله سبحانه وتعالى ، فهو معهم أينما كانوا ، ولكنهم لن يروه عِياناً ، لأنه سبحانه منزّه عن أن يُحَدّ ، ولو رؤى لكان محدوداً ..

وأما بعض آيات الله ، وهى نُذُر الهلاك المرسل إليهم ، أو علامات الساعة التى تكون بين يديها — فإنها إذا جاءت لم تكن من تلك المعجزات التى تكشف للناس طريق الإيمان إلى الله ، وإنما هى آيات تطلع عليهم بالمهلكات ، حيث لافائدة للإيمان بعدها ، ولا أثر له فى حياة صاحبها ، لأنها تأتى لتُنهى حياة الناس ، لاتجدّد لهم حياة طيبة فى الحياة . . . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل » فالإيمان عند استقبال الموت لاينفع صاحبه ، فهو كإيمان فرعون حين أدركه الغرق .

وقوله تعالى : « أو كسبت فى إيمانها خيراً » .. الضمير فى إيمانها يعود إلى النفس التى آمنت عند مجىء نذر الله ، ثم تراخى الموت قليلا عنها حتى ملكت أمرها ، واستطاعت أن تتصرف فى الحياة — وهى مؤمنة — تصرفاً

يجرى مع الإيمان فى طريق الخير والإحسان .. وهذا من رحمة الله بالناس وفضله عليهم ، إذ لم يحرمهم ثمرة الإيمان الذى دخلوا فيه ، وهم بين إرهاصات الموت ونذره ..

وقوله تعالى : « قل انتظروا إنا منتظرون » هو وعيد للمشركين ، وإبعادٌ لهم من الإيمان الذى دُعوا إليه فصدّوا عنه ، وتركُهم وما هم فيه من ضلال ، ينتظرون ماينجلى عنه كفرهم وعنادهم ، وما ينجلى عنه موقف النبى وأصحابه .. معهم !

قوله تعالى :

« إن الذين فرَّقوا دينَهم وكانوا شِيَعاً لستَ مِنْهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » هو إشارة إلى اليهود والنصارى ، ومالنتهى إليه أمرهم من تفرق واختلاف فى دينهم الذى بين أيديهم ، وقد تفرقوا شيعاً وأحزاباً .. كلها على غير طريق الحق ، لأن الحق طريق واحد ، ومن استقام عليه قليل من كثير ، وفرقة واحدة من جميع هذه الفرق . .

وقد نبّه الله سبحانه وتعالى النبيّ إلى هذا الخلاف الذى بين اليهود واليهود ، وبين النصارى والنصارى، ثم بين اليهود والنصارى ، وأنه ليس للنبى أن يدخل معهم فى جدال ، « إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » أى يفصل بينهم فيما اختلفوا فيه ، ويجزى كلاًّ بما كسب ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى بعد هذا : « من جاء بالحسنة فله عشرُ أمثالها ومن جاء بالسَّيِّئة فلا يُجْزَىٰ إلا مثلها وَهُمْ لاَ يُظْلَمُون » — هكذا رحمة الله ، وكذلك عدله .. يجزى الحسنة بعشر أمثالها . . فضلًا وكرماً ، ويجزى السيئة بمثلها . . عدلاً وصدقاً ..

الآيات : (١٦١ – ١٦٤)

« قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » (١٦٤)

التفسير : بهذه الآيات ، والآية التي بعدها تختم هذه السورة، التي كانت كلها دعوةً إلى الله ، ومعارضَ مختلفة للكشف عن قدرته ، وعلمه ، وحكمته .. فهي – وإن اختلفت مواقف الدعوة فيها إلى الله – تمثل جميعها موقفاً واحداً، ينتهي النظر بعد ترداده فيها ، وتطوافه حولها ؛ إلى التسليم بأن لهذا الوجود ربّاً ، وأن لهذه الموجودات خالقاً مبدعاً ، قائماً على كل كبير وصغير منها ..

هكذا ينتهي النظر في هذه المعارض الكثيرة المختلفة التي عرضتها السورة هذا العرض المعجز المبين — ينتهي النظر وقد امتلأت قلوب المؤمنين إيماناً بالله ، وخشية لجلاله وولاء لعظمته وقدرته .. أما المشركون ، والكافرون ، ومن في قلوبهم مرض ، فلا عَلَى المؤمنين من أمرهم شيء .. فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ..

والرسول الكريم هو إمام المؤمنين ، وقدوة المهتدين ، ولهذا فقد كان من فضل الله عليه ، ورعايته له أن لقيه — سبحانه — بعد هذه المواقف المتزاحمة

بينه وبين المشركين — لقيه ربه بهذا الهدى السماوى، ليثبت به فؤاده، ويشرح به صدره ..

« قل إننى هدانى ربى إلى صراطٍ مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كانْ المشركين » .. فعلى هذا الصراط المستقيم أقام الله نبيه الكريم من أول خَطوِه فى الحياة .

وقوله تعالى : « ديناً قيماً » هو بدل من « صراط مستقيم » على اعتبار أنه منصوب محلاً . . أى هدانى ربى صراطا مستقيما : « دينا قيما . . ملة إبراهيم » وقوله تعالى : « ملة إبراهيم » بدل من قوله : تعالى « دينا قيما » و « حنيفا » حال من إبراهيم ، « وما كان من المشركين » حال أخرى ...

وقوله تعالى : « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له » هو بيان لهذا الصراط المستقيم الذى هو الدين القيم ، والذى هو ملة إبراهيم ، والذى من شأن من يستقيم على هذا الصراط ، ويتبع هذا الدّين أن يكون ولاؤه كله لله ، وعمله كله لله . . فلا يصلى إلاّ له ، ولا يتقرب بالطاعات والقربات إلا إليه وحده ، وأن تكون حياته كلها لله ، مُسْلِما له وجهه ، مفوضا إليه أمره ، حتى إذا مات كان إلى الله مصيره ، وبين يديه موقفه وحسابه .. تلك هى عقيدة من أقامه الله على صراطه المستقيم ، وذلك هو ولاؤه لله رب العالمين .. وهكذا كان النبىّ ، وهكذا ينبغى أن يقتدى به كل مؤمن بالله وبرسوله ..

وقوله تعالى : « وبذلك أُمرت » إشارة إلى أن هذا الذى عليه النبى ، من إيمان بالله ، وولاء له ، ليس من عند ذاته ، وإنما هو مما أمره الله به ، وأمره أن يبلغ الناس إياه ..

وقوله تعالى : « وأنا أول المسلمين » أى أول من استجاب لدعوة الله التى دُعى إليها ، وأمر أن يؤذّن بالناس فيها .. فالنبيّ هو صاحب الدعوة الإسلامية، فكان أولَ من لبس ثوبها ، وتُوِّج بتاجها..

والسؤال هنا : هل كان النبيّ — صلوات الله وسلامه عليه — أولَ المسلمين عامة ، أى أول الإنسانية كلها إسلاماً .. أم هو أول المسلمين من أمة محمد وحدها ؟ .

والجواب على هذا — والله أعلم — أنّه — صلى الله عليه وسلم — أول المسلمين فى أمته ، إذ أن « الإسلام » هو سِمة الرسالة المحمدية وحدها ، من بين الرسالات السماوية كلها ، وأن « الإسلام » وإن كان هو دين الله ، الذى جاءت به رسالاته كلها ، إلا أنه لم يأخذ هذا الوصف إلا فى رسالة محمدٍ ، التى كانت مجتمع الرسالات ، وخاتمتها ، وأن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قد دَعَوَا الله بأن يجعل منهما أمة مُسلمة ، هى أمة محمد عليه الصلاة والسلام . . وفى هذا يقول الله على لسانيهما : « ربنا واجعلنا مسلِمَيْنِ لك ومن ذرّيتنا أمةً مُسْلِمَةً لك » .. (١٢٨ : البقرة) :

ويقول سبحانه « ملّةَ أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل »(٧٨ : الحج)

وقوله تعالى :

«قل أغيرَ الله أبغى ربًا وهو ربّ كلّ شىء » أمرٌ من الله ـ سبحانه ـ للنبىّ أن ينكر على المشركين ماهم فيه من ضلال وشرك بالله ، وأنهم إذا ابتغوا غير الله ربًّا ، فلن يبتغى هو غير الله ربًا ، فالله هو ربّ كل شىء ، واتخاذ غيره إلـهاً ، هو شرود عن الحق الذى استقام عليه الوجود كله . .

وقوله سبحانه :

« ولا تكسب كل نفسٍ إلا عليها ولا تزرُ وازرة وزر أخرى » هو تقرير لهذه الحقيقة التي استقام عليها النبيّ ومن تبعه من المؤمنين ، إذ أن كل إنسان محاسب على ما عمل ، ومجزيّ به ، وما تكسبه كل نفس فهو محسوب عليها : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » أي لا تحمل نفس ذنبَ نفس أخرى . إذ كل نفس بما كسبت رهينة .

والوِزر : الحمل الثقيل ، ومنه قوله تعالى : « ووضعنا عنك وِزرك »

وقوله تعالى : « ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » هو تذكير للناس جميعاً بربهم الذى أنشأهم ، وربّاهم ، وأنهم سيعرضون عليه بأعمالهم ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

الآية : (١٦٥)

« وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَآئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَآ آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » (١٦٥)

التفسير : بهذه الآية الكريمة تختم سورة الأنعام . . وهى سورة كلها نِعم وأفضال ، تحدّث كلماتها وآياتها بما لا يُحصَى من آلاء الله ونعمه المبثوثة فى الوجود ، والتى من شأنها أن تُطْلع ذوى الأبصار والبصائر على ما فى ملكوت الله من آيات القدرة ، وروائع الحكمة ، فيُخبتوا لله ويخشعوا . .

وقوله تعالى : « هو الذى جعلكم خلائف الأرض » بيان لنعمة من نعم الله الكبرى على بنى آدم خاصة ، إذ جعلهم « خلائف الأرض » وفى هذا ما فيه من تكريم لهم ، وإحسان إليهم . .

وفى قوله تعالى : « خلائف » إشارة إلى مكانة الإنسان ، وسموّ قدره ، وأنه ليس مُكَرّماً فى جنسه وحسب ، بل هو مُكرّم فى كل فرد من أفراده .. فكل إنسان هو خليفة الله فى هذه الأرض ، وأنه — وإن كان عضواً فى المجتمع الإنسانى — فليس ذلك بالذى يذهب بشىء من مقومات شخصيته ، أو يجور على هذا الوضع الكريم الذى وضعه الله فيه . . فهو خليفة الله ، أيًّا كان مكانه فى المجتمع . . غنياً أو فقيراً ، عالماً أو جاهلا ، قويا أو ضعيفاً .. إنه خليفة الله فى الأرض ، ومن واجبه أن يعمل بمقتضى هذه الخلافة ، ويجمع إلى يديه أسبابها ومقوّماتها . .

هذا هو الإنسان كما تنظر إليه شريعة الإسلام . . إنسان كريم على الله ، خلع عليه خِلَع الخلافة ، وتوجه بتاجها ، وجعل درة هذا التاج هو عقله الذى يستطيع به أن يبلغ من السموّ مايشاء .

وإنه لَمِنْ ظلم الإنسان لنفسه ، ومن استصغاره لوجوده ، أن يُسفّ وينحدر عن هذا المستوى الكريم الذى رفعه الله إليه ، فيتحول إلى كائن حيوانىّ ذليل ، يُقاد فينقاد ، ويُستَذل فيذلّ ، حتى لينعزل عن العالم الإنسانى ، ويصبح على غير الخَلْق السوىّ الذى خلقه الله عليه .. « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددْناه أسفلَ سافلين .. »

وفى قوله تعالى : « ورفع بعضكم فوق بعض درجاتٍ ليبلوكُمْ فيما آتاكم » إشارة إلى أن هذا المستوى الكريم الذى وضع الله سبحانه الإنسانَ فيه — ليس على درجة واحدة ، وإنما هو درجات ، بعضها فوق بعض ، وإن كان أدنى هذه الدرجات لاينزل بالإنسان عن درجة الخلافة التى أعده الله لها . فإن نزل الإنسان عن هذه الدرجة فقد نزل عن إنسانيته ، وتخلّى عن مكانه بين الناس..

أما هذا التفاوت الذى بين الناس فهو فى مراتب الفضل ، ابتداء من

درجة الخلافة ، إلى جميع الـكمالات التى تمكنّ من أسبابها وتؤكد من سلطانها .

وفى هذا التفاوت الذى بين الناس ، وفى درجات التفاضل المقسومة بينهم، يتحرك الناس ، فيلحق المتأخر بالمتقدم ، ويسعى المتقدم ليلحق بمن تقدم عليه وفَضَله ، أو ينزل عن مكانه الذى هو فيه ليأخذه غيره .. وهكذا يتحرك الناس فى الحياة صعوداً وهبوطاً ، ويتبادلون المواقف ، ويتنازعون منازل الفضل ، وبهذا تظل ريح الحياة فى حركة دائمة مجدّدة . يتنفس فيها الناس أنفاس الأمل ، والقوة ، والحياة ..

وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « ليبلوكم فيما آتاكم » أى ليمتحنكم فيما أودع فى كل منكم من قوّى ، هى رصيد كل منكم فى سوق الحياة ، وفى هذه السوق يكون العمل ، فيربح من يربح ، ويخسر من يخسر ..

وفى قوله تعالى : « إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم » إشارة إلى أن كل عمل يحمل جزاءه معه ، جزاء معجّلاً ، يجده الإنسان فى الدنيا ، قبل أن يلقى الجزاء عليه فى الآخرة .

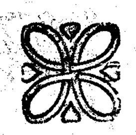
فالأعمال الطيبة تفوح منها ريح طيبة على صاحبها ، فيجد فيها رضى النفس ، وراحة الضمير ، وحسن الأُحدوثة ، وسلامة العاقبة .. والأعمال الخبيثة تهب منها على صاحبها ريح خبيثة تزكم أنفه ، وتخنق صدره ، وتفسد حياته ، وتُضلّ سعيه ..

هذا هو الجزاء السريع العاجل فى الدنيا لـكل عمل .. « إن ربك لسريع العقاب » .

أما فى الآخرة ، فهناك الحساب والجزاء ، لأعمال الإنسان جميعها ، حيث تسوّى أعماله خيرها وشرها ، ويوفى الجزاء العادل عليها .

وهذا الجزاء المعجل والمؤجّل معاً ، تحفه مغفرة الله ، وتمسه رحمته ، ولولا

ذلك لهلك الناس جميعاً ، ولما نجا منهم أحدٌ .. « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها من دابةٍ ، ولكن يؤخرهم إلى أجلٍ مسمى فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون » : (٦١ : النحل) وكون الله بصيراً بعباده ، يقتضي أنه عالم بما فيهم من ضعفٍ إنسانيّ ، إن لم تمسسهم رحمة الله ، وتحفّ بهم مغفرته لم يكن للناس جميعاً سبيل إلى الخلاص والنجاة ، وهذا مايكشف عنه سرّ الجمع بين ماعند الله من عقاب سريع ، وما عنده من مغفرة ورحمة : « إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم » .



« سورة الأعراف »

نزولها : نزلت بمكة إجماعاً ..

عدد آياتها : مائتان وست آيات .

عدد كلماتها : ثلاثة آلاف وثلاث مئة وخمس وعشرون كلمة .

عدد حروفها : أربعة عشر ألف حرف وثلاثمائة وعشرة أحرف ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان (١ ـ ٢)

« الٓمٓصٓ (١) كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ » (٢)

التفسير : « المص » .. ذكرنا فى أول سورة البقرة الأقوال التى قيلت فى تأويل الحروف التى بدئت بها بعض سور القرآن الكريم .. وقلنا رأينا الذى ارتضيناه فيها ، وأنها من المتشابه الذى لايعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم ، الذين آتاهم الله من فضله علماً وحكمة .

« كتابٌ أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرجٌ منه لتنذر به وذكرى المؤمنين » ..

قوله تعالى : « كتاب أنزل إليك » خبر لمحذوف دل عليه النظم ، وتقديره : هذا الكتاب .. أى هذا الكتابُ . كتابٌ أنزل إليك .

ويجوز أن يكون كتاب مبتدأ ، وخبره قوله تعالى : « أنزل إليك » .. وفى تنكير الكتاب مبالغة فى التعريف به ، وبأنه بذاته مستغنٍ عن كل تعريف ، وهذا هو الرأى الذى نميل إليه .

وفى إسناد الفعل للمفعول « أُنزل إليك » بدلا من أنزلناه ، أو أنزله الله

إليك – فى هذا توافق بين المبتدأ والخبر ، من حيث التنكير والتجهيل ، اللذان هما – فى تنكيرهما وتجهيلهما – أعرف وأظهر من كل معروف ومن كل ظاهر ..

« كتاب أنزل إليك » أيها النبىّ ، فلا تتلبث فى شأنه ، ولا تقف لتقول: ما هذا الكتاب ؟ ومن أين جاء؟ .. هو كتاب أنزل إليك وكفى ! إنه واضح الدلالة ، بيّن القصد .. فى كل كلمة من كلماته ، وفى كل آية من آياته، شاهد يشهد له ، ويشير إلى مُنزّله .. « فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » أى إذا كان هذا الكتاب الذى أنزل إليك على ماترى من هذا السلطان الذى له ، ومن هذا الإعجاز الذى بين يديه ، فلا يكن فى صدرك ضيق، أوخشية من لقاء المشركين به ، ودعوتهم إليه ، وكشف ما يكشف من ضلالاتهم ، وسفاهاتهم ، ولوساءهم ذلك فى أنفسهم وفى آلهتهم .. فإنه الحقّ الذى تصدم به الباطل ، وإنه النور الذى تُجْلِى به غياهب الشرك والضلال ..

فيا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك .. ولا يكن فى صدرك حرج مما يسوء قومك من هذا الحق الذى تكشفه لهم .. لتنذر به المشركين منهم ، وتذكرّ به المؤمنين الذين اتبعوك ..

ولقد كان النبىّ الكريم – صلوات الله وسلامه عليه – كريماً مع قومه ، محباً لهم ، حريصاً على أن يلقاهم – كما اعتادوا منه – بالمودة والإحسان .. فلما أكرمه الله بالرسالة ، ليحرر قومه من ضلالاتهم ، ويجلو العمى عن أبصارهم ، بدأ يتلمس طريقه إليهم فى رفق وحذر ، حرصاً على ألا تنقطع بينه وبينهم وشائج القربى ، وصلات المودة .. ولكن سفهاء قومه لم يستقبلوه بالحسنى ، بل علا صراخهم فى وجهه، وتطاولت ألسنتهم بقول السوء فيه ، ثم سعوا إليه بالأذى المادى ، حتى لقد همّوا بقتله.. وهو – مع هذا – حريص على أن يمسك قومه على هذا الخير الذى بين يديه ، وأن يُفيض عليهم منه ، ثم هو من جهة مطالب

بأن يجهر بدعوته ، وأن يملأ بها أسماع الدنيا ، ولو تقطعت بينه وبين أهله الأسباب .

ومن أجل هذا كان صلوات الله وسلامه عليه واقعاً فى هذا الحرج ، أولَ الأمر من دعوته ، يريد أن يجعل من الزمن جزءاً من العلاج ، لحلّ هذه العقد التى بينه وبين قومه .. ولهذا كانت آيات الله تتنزل عليه كلما ألمت به حال من تلك الأحوال ، التى تدعوه إلى أن يتلبث ويستأنى : فتجىء تلك الآيات لتقطع عليه هذا الشعور الذى يطرقه ، ولتدفع به إلى ملاقاة المشركين لقاء مواجها متحدياً :
« فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » (٩٤ : الحجر) . . .
« يٰأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ » (٦٧ : المائدة) .

وقد صدع النبىّ بأمر ربه ، وواجه قومه مواجهة صريحة بكل ما أوحى إليه من ربه ، غير ملتفت إلى ما يصيبه من ضر وأذى ، وغير عابىء بما ينكشف عنه الحال بينه وبين أهله ، ولو كانت الحرب وكان القتال ، والقتل . . وقد كانت الحرب ، وكان القتال والقتل !

ومع هذا فقد ظلّ النبىّ الكريم ــ فيما يتصل بخاصة نفسه ــ على ما عوّد قومه ، وما اعتاد الناس منه .. لا يمس شعور أحدٍ من أصحابه ، ولا يجرح حياء أحدٍ من معاشريه ومخالطيه ، إلا أن يُجار على حق من حقوق الله ، أو تُنْتهك حرمة من حرماته ، فإن حق الله فوق كل شىء ، وحرمته فوق كل حرمة . .

كان بيت الرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ مجمع صحابته وملتقى المسلمين من كل أفق .. يجلسون إليه فيطيلون الجلوس ، فى ظل هذا النور الهادى ، وفى محضر هذا الخير العميم ، ويطرقون بيته فى أيّة ساعة من ساعات

الليلَ أو النهار . . يستخبرون ويخبرون، ويقولون ويقال لهم ، غير مقدّرين حاجة الرسول - كإنسان - إلى أن يسكن إلى بيت ، أو يفىء إلى راحة .. وكان من هذا أن تولى الله سبحانه وتعالى التخفيفَ عن النبيّ من هذا الحمل الذى ينوء به ، ولا يجد من نفسه القدرة على أن يواجه أحداً بكلمة تردّه عن بيته ، أو تنتزعه من مجلسه .. وفى هذا يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبيّ إلاَّ أن يؤذَن لكم إلى طعام غير ناظرين إناهُ ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبىّ فيستحيِى منكم والله لا يستحى من الحق » (٥٣ : الأحزاب) .

ويقول سبحانه فيما أدب به المؤمنين فى حديثهم مع الرسول : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبىّ ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » .. لقد قالتها السماء ، ولم يقلها الرسول الكريم . . هكذا كان الرسول مع الناس - فى خاصة نفسه - يحتمل الجهل والسفه من الجاهلين والسفهاء . . وعلى هذا يفهم الحديث الشريف: « إنا لنَهَشّ فى وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم » ففى هذا الأدب النبوى دعوة إلى مداراة الناس ، وعدم مجابهتهم بما نكره منهم ، فإن فى هذا تأليفاً بين القلوب وتواصلاً بين الناس ، ولو أننا لقينا الناسَ أو لقيَنَا الناسُ بما نكره منهم وما يكرهون منّا ؛ لما التقى إنسان بإنسان إلا على عداوة وبغضاء، ثم مشاحنة وخصام .. وفرق بين هذا الموقف وموقف الملق والريا ، الذى يتخذ منه صاحبه وسيلة للخداع والتمويه ، بتزييف الحقائق ، وطمس معالم الأمور . . أما هذا الموقف فلا يعدو أن يكون صورة كريمة من صور دفع السيئة بالحسنة ، مع ما يصحب ذلك من كظم الغيظ ، ودفن الألم . . وأما اللعنة التى يشير إليها الرسول الكريم فى قوله : « وقلوبنا تلعنهم » فهى كناية عن هذا الغيظ المكظوم ،

أو هذا الألم الدفين ، الذى يحبسه الإنسان فى نفسه ، ويحملها عليه من غير أن يظهر شىء من ذلك على وجهه أو لسانه.. كما يقول سبحانه : « والكاظمين الغيظَ والعافين عن الناس » .

الآيات : (٣ — ٩)

« اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ » (٩)

التفسير : بعد أن بيّن الله سبحانه وتعالى لنبيّه الكريم الموقفَ الذى ينبغى عليه أن يقفه من الناس فى تبليغ دعوته، وأنه موقف لا حساب فيه لمشاعر القُربى ، ولا مدخل فيه لما يسوء المكابرين والمعاندين منه — بعد هذا جاء أمر الله سبحانه إلى الناس أن يتبعوا هذا الذى أنزل إليهم من ربّهم ، والذى يعرضه الرسول عليهم ، ويبلغهم إياه : « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربّكم » فما يبلّغه الرسول إليهم ليس من عند هذا الرسول ، وإنما هو من كلام رب العالمين ..

فها هو ذا الرسول يدعوهم إلى الله بكلمات الله ، وهاهو ذا الشيطان يدعوهم إلى الغواية والضلال ، بالزور من القول ، والزّيف من الأمانى .. « اتبعوا

ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء » .. فهما دعوتان .. دعوة إلى حق وهدًى ، ودعوة إلى باطل وضلال .. وقليل من الناس أولئك الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وكثير أولئك الذين لايسمعون،ولا يعقلون.. «قليلاً ماتذكرون» إذ استولى الفساد على الناس ، وصرفهم عن الحق ، إلاقليلاً ممن هدى الله .

وهذه المَثُلات ؛ وتلك النذر قائمة بين الناس ، تُرِيهم منها ما حلّ بالظالمين من بلاء ، وما وقع بهم من سوء .. « وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون .. » فما أكثر الأقوام الذين أخذهم الله بظلمهم ، وما أكثر القرى العامرة التى دمّرها الله ودمدم على أهلها ، فأصبحوا تراباً فى ترابها ! .

والبأس ، هو البلاء المسلط من قوة قادرة لاتُدفع .

وفى هذه الآية مايسأل عنه ، وهو :

كيف قُدّم الإهلاك على مجىء البأس : « أهلكناها فجاءها بأسنا » مع أن البأس هو عامل الإهلاك وأداته ؟ .

والجواب ، أن الإهلاك حكم واقع مقرر قبل مجىء البأس ، وأن هذه القرى الظالمة كانت تحت حكم الإهلاك قبل أن تهلك بزمن طويل ، لما كان عليه أهلها من ضلال ، وعناد ، وإفساد فى الأرض . وأن الله سبحانه وتعالى أمهلهم ، وبعث فيهم الرسل ، مبشرين ومنذرين ، فلم يلتفتوا إلى هدى الله ، ولمْ يقبلوا على دعوته ، بل صدّوا عنه ، وازدادوا كفراً إلى كفر وضلالاً إلى ضلال .. حتى إذا بلغ الكتاب أجله ، جاءهم بأس الله ، فأخذهم العذاب وهم ظالمون ..

وفى قوله تعالى : « فجاءهم بأسنا بياتاً أو هم قائلون » إشارة إلى أن هذا البلاء قد وقع على تلك القرى الظالمة حين كانت فى غفلة من أمرها ، لاتتوقع

شرًّا ، حيث لفّها الليل فى سكونه ، واشتمل عليها النعاس بسلطانه ، أو حيث هجعت فى قيلولة، وفاءت إلى ظلّ ظليل ..فالضربة هنا ضربة مفاجئة لاتدع لأحدٍ سبيلاً إلى استجماع نفسه ، أو لمّ شمله ، أو إلقاء نظرة إلى ماله و أهله وولده . . « وكذلك أخْذ ربك إذا أخذ القُرى وهى ظالمة إن أخْذَهُ أليم شديدٌ » .

وقوله تعالى : «فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين» إشارة إلى أن الكلمة التى استقبلَ بها القوم هـذا البلاء ، لم تـكن إلا إدانة لأنفسهم ، وحجة يقيمها بعضهم على بعض ، بأن ماحلّ بهم لم يكن إلا بما ساقهم إليه سفهاؤهم من كفر بالله ، وصدٍّ عن سبيله ..

والدعوى هنا بمعنى الدُّعاء ، الذى يدعو به بعضهم بعضاً .. فيقول كل منهم : هذه فَعلة فلان وفلان بنا ! ! وإذا كانت دعوى أهل السلامة والعافية فى الجنة هى الحمد لله رب العالمين ، كما يقول الله تعالى : « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » ـ فإن دعوى أهل العَطَب والضياع . . « ياويلنا إنّا كنا ظالمين » .. ولـكن هيهات .. فلن يقبل منهم عذر ، ولا يُسمع لهم قول : « فاليوم لاينفع الذين ظلموا مَعْذِرَتُهُمْ ولا هم يُسْتَعْتَبون » .

قوله تعالى :

« فلنسألنّ الذين أُرْسِل إليهم ولنسألن المرسلين » .. فهاهوذا يوم القيامة، وهاهم أولاء الناس جميعاً فى موقف الحساب والجزاء .. يُسألون : ماذا كان منهم فى دنياهم التى خلفوها وراءهم ؟ وماذا كان موقفهم من رسل الله ؟. . وهاهم أولاء رسل الله يُسألون : «ماذا أجبتم ؟ » وماذا لقيتم من أقوامكم ؟ ومن الذى آمن بكم وآزركم ؛ ومن صدّ عنـكم وتصدّى لـكم ؟. .وتخشع الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ، وتنشر صحف العباد ، ويرى كل إنسان ماعمل من خير أو شرّ ، « فلنقصّنّ عليهم بعلمٍ وما كنّا غائبين » فما سئل الناس ، وما استُشهد الرسل

عليهم ليقولوا شيئاً غاب عن الله سبحانه وتعالى أمرُه ، ولكن ليستحضروا هم وجودهم كله ، حتى يَشْهَدُوا هذا الذى كان كثير منهم فى شك منه ، من قدرة الله ، وسعة علمه الذى لاتخفى عليه خافية .. « ووُضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مَالِ هذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً .. »

قوله تعالى :

« والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون » .

فى هذا إشارة إلى أن أعمال الناس التى عرضت عليهم، لم تكن لمجرد عرضها ، والعلم بها ، وإنما لتكون موضع حساب ومناقشة ، فتوزن أعمال كل إنسان بميزان الحق والعدل .. فمن ثقلت موازينه ، ورجحت حسناته على سيئاته ، فقد نجا وأفلح ، وكان من الفائزين برضوان الله وجنات النعيم ، ومن خفت موازينه فرجحت سيئاته على حسناته ، فقد خاب وخسر ، وكان العذاب جزاءه والنار مثواه .. والباءان فى قوله تعالى : « بما كانوا بآياتنا يظلمون » : الأولى للسببية ، والثانية للاستصحاب ، بمعنى أنهم خسروا أنفسهم بسبب كونهم كانوا ظالمين مع استصحاب آياتنا ، ووجودها بين أيديهم ، وفى مواجهة حواسّهم ومدركاتهم لها . .

والآيات هنا ، هى آيات الله المنزلة على أنبيائه ، والآيات الكونية التى تبدو فى كل ما أبدع الخالق وصوّر .

الآيات : (١٠ — ١٣)

« وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا

مَّا تَشْكُرُونَ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَآئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ » (١٣)

التفسير: بعد أن عرض الله سبحانه وتعالى الناس على مشاهد القيامة، وما سيكون لهم فيها من مواقف، بين سعداء وأشقياء — بعد هذا العرض استقبلهم سبحانه — بتلك الآيات الكريمة التى تذكرهم بما كانوا فى غفلة عنه من أمرهم، وماالله من فضل عليهم، فيما مكن لهم من أسباب الحياة فى هذه الأرض، وفيما كان قبل ذلك من إيجادهم من عدم، وخلقهم على تلك الصورة الكريمة، التى صار بها الإنسان أهلاً ليكون خليفة الله فى الأرض .. وهذا من شأنه أن يلفت الإنسان إلى هذه النعم، وإلى أداء حق المنعم بها، وذلك بحمده، والولاء له، وخاصة بعد هذه المشاهد المثيرة التى طلعت على الناس من مشاهد يوم الحساب ..

وقوله تعالى: « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلًا ماتشكرون » هو عرض لبعض تلك النعم التى أنعم الله بها على الناس، فقد مكن لهم سبحانه وتعالى فى الأرض، وجعل لهم سلطاناً على كائناتها، من حيوان ونبات وجماد، بما منحهم من عقل، يفكر، ويقدّر، ويسخر قوى الحيوان والطبيعة لخدمتهم، ولتوفير أسباب الحياة الطيبة لهم .. ولكن أكثر الناس لايشكرون لله فضله، ولا يقدرونه حق قدره، بل إن كثيراً منهم ليحارب الله

بهذه النعم ، ويتخذ من دونه شركاء ، يتعبّد لهم ، ويجعل ولاءه إليهم ، دونه خالقه ، ورازقه ، ومالك الملك كله .

وقوله تعالى : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قُلْنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين » .

هو بيان لخلق الإنسان وتقلّبه فى أطوار الخلق .. ومن أين جاء ؟ وكيف نشأ ؟ وإلى أين يصير ؟

كان الخلْق أولا ، ثم التصوير ثانياً ..

والخلق عملية ذات مراحل طويلة ، تنقل فيها الإنسان من طور إلى طور ، ومن خَلْق إلى خلق ، حتى دخل طورَ الإنسان الذى فيه كان التصوير على تلك الصورة الإنسانية الكاملة ..

وفى العطف بثمّ بين الخلق والتصوير ، مايشير إلى هذا الفاصل الزمنىّ الطويل ، الذى قد يبلغ ملايين السنين ، بين بدء بذرة الخلق للكائن الحى ، وبين الثمرة التى أعطتها شجرة الحياة . . فى صورة هذا الإنسان .. !

ثم إن هذا الإنسان حين أطل برأسه إلى هذا العالم ، لم يكن إلا إشارة باهتة إلى هذا الإنسان العاقل المدرك ، الذى يحمل أمانة التكاليف ، ويُناط به عبء خلافة الله على هذه الأرض ..

ولهذا جاء العطف بثم فى قوله تعالى : « ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » .. فهذا الآدم الذى أمر الله سبحانه الملائكة أن يسجدوا له ، هو الإنسان العاقل الرشيد ، لا الإنسان فى طفولة الإنسانية التى لم تنسلخ من جلد الحيوان بعد ..

وهذا مايؤيد الرأى الذى ذهبنا إليه من قبل فى خلق آدم وتطوره[1] .

---

(١) انظر هذا البحث فى الجزء الأول من « التفسير القرآنى » : الآية : ٣٤ : سورة البقرة) ص : ٥٤

وفى قوله تعالى : « ما منعك ألاّ تسجد إذ أمرتك » موضع لسؤال . . هو : كيف يكون الإنكار على إبليس بترك السجود ، بهذا الاستفهام عن السبب الذى منعه من عدم السجود .. وهو على خلاف المراد من الاستفهام الذى يُطلب إليه فيه أن يجيب عن سبب المنع عن السجود ، لا عن سبب المنع من عدم السجود .. كيف يكون هذا ؟

يجيب المفسِّرون على هذا بأجوبة كثيرة . . منها القول بأن « لا » النافية زائدة .. وهو أرجح الآراء عندهم . . !

والقول بزيادة اللام لا معقول له إلا ــ عند القائلين به ــ أنه يسوّى النظمَ القرآنى ، ويمنع اضطراب المعنى ، أو فساده !

ولا يشفع لهذا القول ما جاءوا به من شواهد من الشعر العربى بزيادة حرف النفى « لا » .

فالقرآن حجة على الشعر ، وليس الشعر حجة على القرآن ..

ثم إن القرآن ليس شعراً حتى تباح فيه الضرورات التى تباح فى الشعر . .

ثم إن القرآن ليس من قول بشر حتى تحكمه الضرورة ، وتلتمس لقائله المعاذير . .

ولكنه كلام ربّ العالمين . . « لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » ..

وإذن فحرف النفى « لا » حرف أصيل ، هو من صميم النظم القرآنى فى الآية الكريمة ، له مكانه من الإعجاز الذى تحمله الآية الكريمة ، ولو حذف لحذف معه بعض ما فى الآية من إعجاز .

هذا مايجب أن يتقرر ويتأكد أولاً، قبل أن نجد لهذا الحرف «لا» مفهوماً. إذ لا بد من أن يكون له مفهومه فى الآية الكريمة، حيث هو، وكما هو، سواء اهتدينا إليه أو لم نهتد، فإنه لابد أن يهتدى إليه الباحثون، بالكثير أو القليل من البحث والنظر .. أما القول بزيادة حرف أو كلمة فى القرآن الكريم، فهو ـ على أقل تقدير ـ هروب من مواجهة كلمات الله وآياته.

وننظر، فنجد:

أولا: أن «لا» إذ قيل بزيادتها كان المعنى حسب منطوق النظم بعد الحذف، هكذا:

«ما منعك أن تسجد»؟

وهذا يعنى أن مع إبليس حجة على منعه من السجود!

ولقد أجاب إبليس على هذا، وقدّمَ الحجة التى معه، فقال: «أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين».

ولكن. أية حجة لمخلوق أمام الخالق؟

لقد أمره الله سبحانه وتعالى بالسجود .. وكان عليه أن يمتثل لهذا الأمر وأن يسجد كما سجد الملائكة كلهم أجمعون..

أما التردد فى الامتثال لهذا الأمر، أو النكوص عنه، فهو عصيان صريح لله، وتحدّ وَقاح لأمره، لا تقوم لصاحبه حجة، ولا يقبل منه قول..

وثانياً: إذا بقيت «لا» بمكانها من النظم ـ وهى باقية أبدَ الدهر ـ مؤدية وظيفة النفى ـ وهى مؤدية له إلى ماشاء الله ـ فإن المعنى حينئذ يكون هكذا حسب منطوق النظم: مامنعك من ألا تسجد إذ أمرتك؟ أى ما حملك على ألا تسجد؟ وبهذا يكون النظر إلى كلمة «المنع» لا إلى الحرف «لا» .. وهل هو

منع قائم على حواجز وحوائل، تمنع من امتثال الأمر ، وتحول بين المأمور وبين إتيان ما أمر به ، أم أنه منع قائم على أوهـام وضلالات ، ومستند على محامل وعلل من الوهم والضلال ؟

والجواب ، أنه ليس هناك منع على الحقيقة ، وإنما هى علل فاسدة ، ومحامل باطلة ، اتخذ منها هذا الشقىّ ذريعة يتذرع بها إلى عصيان ربّه ، وعذراً يعتذر به إليه .

ولهذا كان النفى للمنع مطلوباً هنا ، حيث لا سبب للمنع على الحقيقة .

ثالثاً : فى مساءلة الله سبحانه وتعالى لإبليس ، فى غير هذا الوضع ، جاء قوله تعالى :

« قال ياإبليس مالك ألا تـكون مع الساجدين » (٣٢ : الحجر)

فقوله تعالى : « مالك » هو بمعنى « مامنعك » ؟ حيث لامنع ، وإنما هو — كما قلنا — ضلالات وأوهام من قِبَل إبليس ، لاوزن لها ، ولا مُعْتَبَر فى ميزان الحق . .

هذا ، وقد جاء فى موقف آخر قوله تعالى : « قال يا إبليس مامنعك أن تسجدَ لما خَلَقْتُ بيدىَّ أستـكبرتَ أم كنت من العالين » (٧٥ : ص) — جاء من غير حرف النفى « لا » ولـكن جاء بعده ، مايكشف عن تعلاّت إبليس وأوهامه المندسّة فى صدره ، فقال تعالى : « أستـكبرتَ أم كنتَ من العالينَ » ؟ فهو الاستـكبار والتعالى ، وتلك موانع اصطنعها إبليس ، وأقامها من ضلاله وجهله . .

رابعاً : فى النظم القرآنى جاءت مساءلة إبليس فى ثلاث مواضع . . هكذا . .

١ — « مامنَعَك ألاَّ تسجد إذ أمرتك » . . (١١ : الأعراف)

٢ — « يا إبليس مامنعك أن تسجد لِما خلقتُ بيدىّ أستكبرتَ أم كنتَ من العالين » .... (٧٥ : ص)

٣ — « ياإبليس مالك ألا تـكون مع الساجدين » ... (٣ : الحجر)

وهذه المواضع الثلاث ، لم يكن تكرارها لمجرد التكرار ، وإنما لتعطى الصورة الكاملة لموقف الاتهام الذى وقفه إبليس بين يدى الله .. وأنه تلقى هذه الأسئلة جميعاً فى تبلّد ووجوم ، وكان جوابه عليها فى وقاحة فاجرة .. هكذا :

« مالك ألا تـكون مع الساجدين ؟ » ... « لم أكن لأسجد لبشر خَلَقته من صلصالٍ من حمإٍ مسنون » .

« مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ ... أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » ..

« مامنعك أن تسجد لما خلقتُ بيدىّ ؟ .. أستـكبرتَ أم كنتَ من العالين ؟ » ... « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » ..

وتتردد هذه الإجابات فى صدر إبليس ، وتضطرب على لسانه ، وإذا هى كما انتزعها الله سبحانه وتعالى من صدره ، وضبطها على لسانه ..

وقد تـكررت إجابته : « أنا خيرٌ منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » إذ كان هذا الاختلاف فيما بين النار والطين ، هو الذى أضلّ إبليس وأغواه ، حين قدّر أن النار خير من الطين .. وأن الأعلى لايسجد للأدنى ..

من هذا نستطيع أن نَخْلُص إلى القول بأن قوله تعالى : « مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك » هو بمعنى قوله تعالى : « مالك ألا تـكون مع الساجدين » .. وأن فعل المنع هنا بمعنى الدافع الذى دفع إلى ترك الفعل المأمور به ، والتقدير: ماحملك أو مادفعك على أن يكون منك هذا الموقف الفاجر الذى وقفته ، وهو أنك لم تـكن من الساجدين .. ؟

وأما قوله تعالى : « مامنعك أن تسجد لما خلقتُ بيدىّ » فهو مطالبة لإبليس ببيان المانع الذى منعه ، إن كان هناك مانع .. فلما لم يجد المانع طولب بأن يبيّن الدافع الذى تولّد فى نفسه وحمله على ألا يسجد .. ثم لما اضطرب وتلجلج فى الكشف عن هذا الذى ضلّ عنه وهو يحاول الإمساك به ، قيل له : مالك — إذن — ألاّ تكون مع الساجدين ؟ .

وهكذا يؤخذ بمخانقه ، ويُسقط فى يده ، فينهار ويهوى ، ثم يتخبط فى هذا الهذيان المحموم ، وقد عرف ألا نجاة له ، وأنه من الهالكين .. !

قوله تعالى :

« قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبّر فيها فاخرج إنك من الصّاغرين » ..

الضمير فى منها يعود إلى المنزلة التى كان فيها إبليس قبل هذه المعصية ، وكذلك الضمير فى قوله تعالى : « فيها » .. والهبوط هنا هبوط معنوى ..

والمعنى : اخرج أيها الشيطان المريد من هذه النعمة التى خولتك إياها ، ورفعت بها منزلتك حتى اتخذتَ منها حجة على هذا العصيان الوقاح لأمرى ، فتأبى أن تسجد لمن دعوتك إلى السجود له .. فما يكون لك أن تتكبر فى هذه النعمة ، وتختال بها .. وها أنت ذا قد أصبحت من الصاغرين ، قد نُزع عنك ما كنت تدّعيه لنفسك من منزلة تعاليت بها على هذا المخلوق الآدمى ، الذى خُلق من طين .. !

وهكذا كل من ألبسه الله نعمة من نعمه فلم يَرْعَها ، ولم يؤدّ حق شكرها لله ، من الطاعة والولاء — إنها تنزع منه ، ويلبس بدلها ثوب النقمة والبلاء ..

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «ذلك بأن الله لم يك مغيِّراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم» (٥٣ : الأنفال)

الآيات : (١٤ — ١٨)

«قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ» (١٨)

التفسير: وقع الحكم بالإدانة على المجرم. فلم يستسلم، ولم يتقبل الأمر بالهبوط على إطلاقه هكذا! فطلب من الله سبحانه أن يُنظره أى يؤخر هلاكه إلى نهاية الحياة الإنسانية على هذه الأرض، ليكون فى صحبة الإنسان.. يتحدّاه، وينتقم منه، إذ كان سبباً فى هذه اللعنة التى وقعت عليه.

ولقد سوّلت لهذا الرجيم نفسه أن يتحدى الله بهذه التجربة التى بينه وبين الإنسان، والتى قدّر أنه سينتصر فيها على الإنسان، ويقيم من ذلك حجة على الله فى امتناعه عن السجود لآدم، لأنه خير منه، وأن بيده سلطاناً متمكناً عليه، حين يأمره فيطيع، ويدعوه إلى الإثم فيجيب، وبهذا تنكشف التجربة عن كائن بشرى يتمرغ فى الوحل والطين، متمرداً على الله محارباً له!.. لا يستحق من الله هذا التكريم، وسجودَ الملائكة له.

وهذا موقف يدعو الإنسان أن ينتصر فيه لنفسه، وأن يُخزى إبليس، ويتحدّى سفاهته، ويقف منه موقف العدوّ لعدوّه، فى ميدان القتال..

« قال أنظرنى إلى يوم يبعثون ..

« قال إنك من المنظرين ..

« قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ..

إن هذا اللعين يتحدى الله ، ويثأر لنفسه فى شخص هذا الإنسان الذى أراده الله ليكون خليفته فى أرضه ، فيفسد عليه أمره ، ويشوّه وجه خلافته ..

وها هو ذا يقعد على صراط الله المستقيم ، الذى أقام الله الإنسانَ عليه ، ثم يترصد الإنسان ، وينحرف به عن سواء السبيل ..

● « ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » .

● هكذا يتربص الشيطان بالإنسان ، يلقاه فى كل وجه ، ويأتيه من كل طريق ، ويدخل عليه من كل باب ، ليضله عن سبيل الله ، فيشرك بربه ، ويكفر به ، ويتخذ الشيطان ولياً له من دونه .

● « قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً » .

المذءوم : المطرود ، والمذموم ، والمعيب ، يقال : ذَأَمَهَ يذأمه ذأماً ، وذَأماً ، إذا عابه .

والمدحور : المنهزم المغلوب .

● « لَمَن تبعك منهم لأملأنّ جهنم منكم أجمعين » .

اللام هنا فى « لمن تبعك » موطئة للقسم ، و « لأملأن جهنم منكم أجمعين » جواب القسم ..

وفى هذا استخفاف بأمر الشيطان ، وبما معه من كيد وغواية ، كما يقول

الله سبحانه : « إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » بالإضافة إلى ما مع الإنسان من عقل ، وعزم .. فمن أعطى الشيطان زمامه ، واتخذه ولياً ، فهو من حزب الشيطان ، يُضاف إليه ، ويصير إلى المصير الذى هو صائر إليه ، وهو بهذا غير جدير بأن يكون فى ضيافة الله ، ومن حزب الله .

الآيات : (١٩ — ٢٥)

« وَيَآ آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ » (٢٥)

التفسير : وفى مواجهة إبليس ، وفى مقابل تحدّيه لله فى شخص آدم — يدعو الله آدم إلى أن يسكن فى تلك الجنة التى هو فيها ، وهى جنة أرضية (كما

أشرنا إلى ذلك من قبل)[1] .

وفى الجنة رزق موفور وخير كثير . . ولآدم وزوجه أن يأكلا من كل فاكهة فيها ، إلا تلك الشجرة التى أشار الله سبحانه إليها ، ونهاهما عن الأكل منها .

ولم تكن هذه الشجرة إلا واحدة من أشجار الجنة ، ولم يكن النهى عن الأكل منها إلا ابتلاء لآدم وزوجه ، وإلا تحريكا لأشواقه إليها ، وإلا تعجيلا بإظهار إرادته ، وترددها بين امتثال أمر الله وعصيانه . .

وفى هذا الموقف الذى يتأرجح فيه آدم بين الإقدام والإحجام ، تجيئه دفعة مغرية بيد الشيطان ، تدفعه إلى الخروج عن أمر ربه ، فيأكل من الشجرة التى نُهى عن الاقتراب منها ! !

وهنا يبدأ آدم وزوجه يعرفان أن لهما إرادة ، وأنهما قادران بتلك الإرادة على أن يتصرفا كيف يشاءان ، ولو كان فى ذلك عصيان ربهما .

ومن هنا يولد آدم ميلاداً جديداً . . فإذا هو الإنسان العاقل ، المدرك ، المريد . .

وإذ يفتح هذا المولود الجديد عينيه على الوجود ، يرى كل شىء على غير ما كان يراه من قبل . .

وها هو ذا يرى أنه عريان لا يستره شىء كسائر الحيوان ، فيخجل من نفسه ، ويرى سوأته ـ وكأنه يراها لأول مرة ـ فيحاول سترها بما يقع ليده . .

---

(١) انظر الكتاب الأول من : « التفسير القرآنى للقرآن » فى بحثنا : « آدم ، مادة خلقه ، وجنته » ص : ٥٤

وليس بين يديه ، ولا فى ملك قدرته إلا ورق الشجر ، فيتخذ منه ساتراً يستر به سوأته ـ تماماً كما يفعل الإنسان البدائى ، الذى لم يخرج من عالم الغابة أو « الجنة » التى هى كل دنياه !

ونقرأ الآيات : « فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » .. فالملائكة عالم لا يعرف الشر ، بل قُلْ إنه لا يعرف الخير أيضا .. فمن لا يعرف الشر لا يعرف الخير ..

وإلى اللحظة التى لم يأكل فيها آدم من الشجرة كان أشبه بالملائكة ، لا يعرف خيراً ولا شراً .. أما إبليس فقد عرف الشر وواقع المعصية ، وبهذا خرج من عالم الملائكة ، وكان عليه أن يضم آدم إلى عالمه هذا الذى تحول إليه .. ولا يتم هذا إلا إذا كانت لآدم إرادة تعمل فى مواجهة الإرادة الإلهية ..

● « وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين » أى أقسم لهما أنه ناصح ، لا يبغى إلا الخير لهم .. وهكذا كل منافق ، يتكثر من الحلف ، ولو لم يشك فيه أحد .. إنه يشعر بما فى قلبه ، وما على لسانه ، من كذب وزور ، فيحاول جاهداً أن يؤكده ويقويه بالأيمان ..

وفى قوله تعالى : « وقاسمهما » إشارة إلى تنازع الأقسام بينه وبينهما ، وكأنّ فى سكوتهما عنه قسما منهما باتهامه والحذر منه ، ولهذا صح أن تكون المقاسمة شركة بينهما وبينه ..

● « فدلاهما بغرور فلماذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ».

دلاّهما أى أنزلهما من مرتبهما ، التى كانا فيها على السلامة والبراءة ، إلى حيث كانت منهما مواقعة الخطيئة وارتكاب المعصية .. والتدلية : السقوط من علٍ ، يقال : دلّى الدلو وأدلاه إذا ألقى به فى البئر . .

والغرور : الخديعة والاحتيال . . والباء فى قوله تعالى : « بغرور » باء الاستعانة أى أنزلهما مستعيناً بالتغرير والخديعة ..

والسوأة : العورة ، وما يسوء الإنسانَ أن يطلع عليه أحد ..

وفى قوله تعالى : « وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة » إشارة إلى موالاة الخصف من ورق الشجر .. والخصف جمع الشىء إلى الشىء ، وخياطته به .

● « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » ذلك هو جوابهما واعتذارهما ، لما كان منهما .. إنهما ظلما أنفسهما بما فرط منهما بارتكاب المعصية ، والخروج عن أمر ربهما ، فهما فى معرض الهلاك والخسران ، إن لم يغفر لهما ربهما ويرحمهما . .

والخطيئة التى وقع فيها آدم هى التى اكتمل بها وجوده كإنسان ، ولولا هذه الخطيئة لظل ـ كما قلنا ـ فى عالم الحيوان ، الذى هو ليس أهلا للتكاليف وحمل الأمانة ..

ولعل هذا المعنى هو ما يشير إليه قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا » (٧٢ : الأحزاب) .

وهذا الوصف للإنسان بأنه ظلوم جهول ، يلتقى مع قول آدم فيما ذكره الله تعالى عنه : « ربنا ظلمنا أنفسنا » فقد ظلم آدم نفسه ، وظلم ذريته معه بحمل هذه الأمانة التى أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها ..

وأحب أن أفهم قول الرسول الكريم : « كل ابن آدم خَطّاء » فهماً متسقاً مع هذا المعنى الذى أشرنا إليه ، وهو أن الإنسان خلق خلقاً مشوباً بالمعصية والخطيئة .. هكذا أراد الله له ، وهكذا خلقه . .

فالمعصية من آدم لم تُلبسه ثوب اللعنة ، هو وذريته ـ كما تقول بذلك بعض الديانات ـ وإنما ألبسته لباس الإنسان ، الذى أراده الله ، ليكون خليفة له فى الأرض ..

ولقد عرف الملائكة ـ بما أخبرهم الله ـ أن الإنسان سيكون على هذا الخلق الذى يجتمع فيه الخير والشر ، والطاعة والمعصية . . عرفوا هذا قبل أن يُخلق آدم ، وذلك حين قال الله تعالى لهم: « إنى جاعل فى الأرض خليفة .. قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء .... »

قوله تعالى: « قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين »..

● وقد هبط إبليس من قبل ، هذا الهبوط المعنوى ، حين نزل عن رتبته فى العالم العلوى إلى هذا العالم السفلى .. فلما عصى آدم ربه أُلحق بإبليس فى أن عوقب على هذه المعصية بخروجه من عالمه الذى كان فيه .. فخرج من عالم اللاشعور إلى عالم الوعى والشعور ، وهو عالم امتحان وابتلاء . .

ولكن شتان بين هبوط آدم ، وهبوط إبليس ، فهبوط آدم ، فى حقيقته صعود ، ولكنه صعود يحمّله أعباء ثقالا ، تبهظه ، وتنقض ظهره..إنه يحمل بهذا الهبوط ـ أو هذا الصعود ـ أمانة عُرضت على السموات والأرض والجبال « فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا » . أما هبوط إبليس فهو هبوط مطلق إلى عالم الإثم والمعصية ، لا يتحول عنه أبداً . .

والمستقر والمتاع إلى حين : هو الحياة الإنسانية على هذه الأرض إلى أن

ينفخ فى الصور ، ويقوم الناس لرب العالمين . . وقد بيّن هذا قوله تعالى : بعد ذلك :

« قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » . . فعلى هذه الأرض يحيا آدم وأبناؤه ، وفى هذه الأرض يموت ويدفن آدم وذريته ، ومن هذه الأرض يبعث الموتى ، ويعرضون على رب العالمين .. للحساب والجزاء . .

الآيات : (٢٦ — ٣٠)

« يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِى آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ » (٣٠)

التفسير : وإذ هبط الإنسان أو قل صعد ، وأخذ مكانه على هذه لأرض ، فقد كان عليه أن يتعرف على الدستور الذى يسوس به خلافة الله فى الأرض .. وها هو ذا يتلقى من السماء المواد الأولى لهذا الدستور . .

١ — « يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشاً ، ولباس التقوى .. ذلك خير . . ذلك آيات الله ، لعلهم يذكرون » .

فأول ما يَنظر فيه هذا الخليفة ، هو أن ينظر إلى نفسه ، وأن يخرج من عالم الحيوان العارى ، إلى هذا الإنسان الذى ينبغى أن يبدأ بستر عورته أولا ، ثم يتجمل بما يقدر عليه مما بين يديه ، من هذا الخير الكثير الذى بثّه الله فى الأرض . . ثانياً .

وإذن فعلى الإنسان أن ينسج له من خيوط هذه الموجودات المبثوثة فى الأرض ، حياةً غير حياة الحيوان ، وأن يصنع بعقله وبيده وجوداً كريماً ، وبهذا يحق له أن يجلس على كرسى الخلافة ، ويمسك بيده ، زمام الكائنات التى تعيش معه .

والريش هو الزينة ، وكذلك الرياش ، وهو شىء إضافى ، فوق الحاجة الضرورية ، ولهذا جاء بعد اللباس الساتر للعورة . . فهو مأخوذ من الريش الذى يكسو الطائر ويزينه .

ثم بعد أن يأخذ الإنسان لجسده ما يستره ويجمّله ، عليه أن يحصّل لكيانه الداخلى ، من المشاعر والأحاسيس والوجدانات والمدركات — ما يستره ويجمّله ، وذلك هو لباس التقوى ، وهو خير لباس يتزيا به الإنسان ، ويتجمل ..

وفى قوله تعالى : « ولباس التقوى ذلك خير » إشارة إلى أن هذا اللباس إنما هو مما ينسجه الإنسان من ذات نفسه ، إذ لا وجود له فى العالم الخارجى ، ولهذا لم يعطفه الله سبحانه وتعالى على قوله : « أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم » حيث مادة هذا اللباس هى مما يراه الإنسان ويلمسه بحواسه فى النبات أو الحيوان ، على حين أن مادة التقوى شىء مطوى فى ضمير الإنسان ، مدسوس فى كيانه .

وقوله تعالى : « ذلك من آيات الله » لإشارة هنا إلى هذه النعم التي يجمّل بها الإنسان وجوده الخارجي والداخلي ، أي الجسدي والروحي معاً ، وهذه النعم هي من الآيات الدالة على قدرة الله ، الناطقة بجلاله وعظمته .. بها يصبح الإنسان إنساناً كريماً على الله ، عظيما في الناس ..

وقوله تعالى : « لعلهم يذكرون » في العدول عن الخطاب من « لعلكم تذكرون » إلى الغيبة « لعلهم يذكرون » إشارة إلى ما في الناس من غفلة ، وأنهم وهم بمحضر من هذا المعرض الذي تعرض فيه آيات الله ، وتتحدث فيه نعمه ـ هم غافلون ، لا تصغي منهم الأفئدة ، ولا تستيقظ منهم العقول . فلعلّ هؤلاء النائمون يستيقظون ، ولعل هؤلاء الغافلون ينتبهون .. !

٢ ـ والمادة الثانية من مواد هذا الدستور ، هي أن يحذر أبناء آدم هذا العدوّ المبين المتربص بهم ، وأن يكونوا على يقظة دائمة من أباطيله وضلالاته التي يغريهم بها ، ويزينها لهم ، ليفتنهم في دينهم ، وليخرجهم من الإيمان بالله والاستقامة على طاعته ، إلى الشرك به ، والتعدّي على حرماته ، فيعيد معهم سيرته مع أبويهم اللذين أخرجهما من الجنة ، بما زين لهما من ضلال ، وبما أغراهما من غرور . وفي هذا يقول الله تعالى : « يابني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة .. الآية » .

وفي قوله تعالى : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » تحذير بعد تحذير ، من وساوس الشيطان ومغرياته ، وأنه عدوّ خفيّ يرى الإنسان ، ويرصد حركاته وسكناته ، ويطلع منه على مواطن الضعف ، فينفذ إليه منها .. ومن هنا كان خطره داهما ، وشره مستطيراً ، ومن هنا أيضاً كانت حاجة الإنسان إلى اليقظة الدائمة ، والمراقبة المستمرة ، من هذا العدو الخفيّ المتربص ، الذي لا يعرف الإنسان متى يهجم عليه ، ويجعل منه صيداً يقع ليده ..

وقوله تعالى : « إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » إشارة إلى

أن الإيمان بالله هو القلعة التي يتحصن فيها الإنسان من الشيطان ، وليس عليه بعد ذلك إلاّ إغلاق أبوابها وإحكام غلقها ، حتى لا يكون للشيطان سبيل إليه ..

أما من لا يؤمن بالله ، فهو شيطان مع الشيطان . لا يريد الشيطان منه أكثر مما هو فيه من فتنة وضلال ، وهو بهذا قد سبق الشيطان إلى الغاية التي يريدها منه ، ولهذا كان الشيطان وليّه ، وهو تابعه . . وهذا ما يكشف عنه قوله تعالى : « إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » . .

قوله سبحانه : « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون » . . الخطاب هنا للضالين والمشركين ، الذين إذا جاءهم من يدعوهم إلى الهدى أبوا أن يستجيبوا له ، واستمسكوا بما هم فيه من ضلال وشرك ، وليس بين أيديهم من حجة على هذا الذى هم فيه إلا أن ذلك مما كان عليه آباؤهم ، وأنهم على آثارهم مقتدون ، وأن ذلك الذى كان عند آبائهم هو مما أمر الله به ، لأن آباءهم لم يجيئوا بهذا من عند أنفسهم ، بل هو مما شرع الله لهم .. هكذا يقولون ، وهكذا يفترون ..وقد ردّ الله عليهم هذا الافتراء بقوله : « إن الله لا يأمر بالفحشاء . . أتقولون على الله مالا تعلمون » .. وفى هذا لردّ حكم على ما هم فيه بأنه فاحشة ، لا يخفى على عاقل أمرها من السوء والفحش ، ومحال على الله أن يأمر بالفاحشة . وإذن فهذا الضلال الذى هم فيه ليس من الله قطعاً ، بحكم العقل ، ولو كان هؤلاء على شىء من العقل لما قالوا على الله هذا القول المنكر : « والله أمرنا بها » ، ولهذا كان هذا الإنكار عليهم والفضح لجهلهم بقوله تعالى : « أتقولون على الله مالا تعلمون » .. إنهم لا يعلمون ما لله من جلال وكمال ، ولو كانوا يعلمون شيئاً من هذا لما نسبوا إلى الله الأمرَ بهذه المنكرات ، فإن الكامل لا يصدر منه هذا النقص المعيب .

قوله سبحانه : « قل أمر ربِّى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون » ـ هو بيان لما أمر به من طيب وجميل . فقد أمر الله بالقسط ، وهو العدل ، وإقامة موازين الحق ، حتى لا يظلم الناس بعضهم بعضاً ، ولا يعتدى بعضهم على حق بعض . . الأمر الذى لو استقام عليه الناس لا استقام أمرهم جميعاً ، ولجرت سفينة الحياة بهم فى ريح رُخاء . . ومما أمر الله سبحانه به بعد هذا ، إقامةُ الصلاة ، إذ هى أكثر العبادات توثيقاً للصلة بين العبد وربّه . حيث يمكن أن يأتيها كل إنسان . . فقير أو غنى ، كبير أو صغير ، فى أى وقت ، وعلى أى حال . . ومن هنا كان من الإمكان أن يكون العبد على صلة دائمة ، مع الله ، بالصَّلاة ، فى الليل والنهار ، فى السّر والجهر ، خالياً مع نفسه ، أو منتظماً فى جماعة .

وقوله تعالى : « وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد » معطوف على ما قبله : «أمر ربى بالقسط» . . إذ كان معنى : « أمَرَ ربّى بالقسط » أقسطوا . . فصحّ أن يُعطف عليه : « وأقيموا وجوهكم عند كل مسجدٍ» . . أى أقسطوا ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد .

وإقامة الوجوه عند كل مسجد ، إخلاص العبادة لله ، وإقامة الوجوه إليه وحده ، دون التفاتٍ إلى أحدٍ غيره ، وهذا هو الذى يعطى الصلاة ثمرتها المطلوبة منها ، إذا هى أقيمت على هذا الوجه ، من الولاء لله ، واستحضار القلب لجلاله وعظمته .

وقوله تعالى : « وادعوه مخلصين له الدين » معطوف على « وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد » . . والدعاء صلاة ، وعبادة ، بل هو مخّ العبادة ، كما يقول العابدون . . إذ هو التطبيق العملى للإيمان بالله ، والإقرار بالعبودية له ، وتعلق الرجاء فيه ، والتماس الخير منه وحده ، والانقطاع عما

سواه . . وهذا هو التوحيد الخالص ، والإيمان المصفىّ ، ولهذا اقترن الدعاء بالصلاة ، وجاء بعدها ، ليكون التطبيقَ العمليّ ، لما تركت الصلاة فى نفس المصلّى من ولاء لله ، وقرب منه .

وقوله سبحانه : « كما بدأكم تعودون » تذكير بالبعث والجزاء والحساب ، حتى يعمل الإنسان لهذا اليوم حساباً ، وحتى يكون هذا الحساب دافعاً قويّاً يدفعه إلى العمل . . كما أن فى هذا تقريراً للبعث ، وأنه أمر ممكن ، وإذا وقع فى نظر بعض الغافلين أنه مستحيل ، فلينظروا إلى المصدر الذى جاءوا منه ، وليذكروا أنهم كانوا بعد أن لم يكونوا شيئاً ، وأن إعادة الكائن إلى ما كان عليه ، أيسر ـ فى تقديرنا نحن البشر ـ من خلق الكائن من العدم .

وقوله سبحانه : « فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة » هو بيان للحال التى يعود عليها الناس يوم القيامة ، إنهم يعودون فريقين : فريقاً هداه الله ووفقه للإيمان والعمل الصالح ، وفريقاً ضلّوا ، وأغواهم الشيطان . . « إِنَّهُمُ اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مُهْتَدُونَ » . . وهكذا كل ضالّ ، يُزيّن له ضلاله الفتنةَ والغواية ، ويُريه أنه على الصراط المستقيم ، والله سبحانه وتعالى يقول : « أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ؟ » (٨ : فاطر) .

الآيات : (٣١ — ٣٤)

« يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ ما ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ » (٣٤)

التفسير : فى الآيات السابقة جاء قوله تعالى : « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير » ليلفت الناس — وهم فى أول لقائهم بهذه الحياة — إلى ما فى الأرض وما عليها من خير كثير ، بثه الله فيها ، وأن أول ما ينبغى أن يحصّلوه من هذا الخير ، أن يستروا سوآتهم ، ليخرجوا من عالم الحيوان ، وليكونوا الإنسانَ الذى جعله الله خليفة له فى الأرض . ثم ليتجملوا بعد هذا ، ويتزينوا بما شاءوا ، ثم ليستروا كيانهم الداخلى ويُجملوه بالتقوى .

وفى هذه الآيات يدعو الله النّاس — بعد أن استوفوْا حظوظهم من زينة الحياة ، وصار إلى أيديهم الكثير منها — يدعوهم إلى ألاَّ تكون هذه الزينة التى اتخذوها حُلىً يتحلّون بها فى أوقات لهوهم ، أو فى محافلهم وأنديتهم ، وحسب ، وإنما الذى ينبغى أن يتزينوا له ، ويحتفوا بلقائه قبل كل شىء ، هو بيت الله الذى يقفون فيه بين يدى الله ، يناجونه ويوجهون وجوههم إليه .

فهذا الاحتفاء ببيوت الله ، وهذا الإعداد والتجمّل للقاء الله فيها ، هو مما يقيم فى كيان المؤمن مشاعرَ التوقير والإجلال لهذا اللقاء ، ومما يهيء كيان الإنسان الداخلى لمناجاة ربّه ، بعد أن تطهّر وتزيّن لهذا اللقاء العظيم . .

وقوله تعالى : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين »

هو دعوة إلى أن يأخذ الناسُ حظَّهم من طيبات الحياة ، وأنِ يذوقوا من نعم الله التى وضعها بين أيديهم ، ولـكن فى غير إسراف ، بل فى قصدٍ واعتدال ، فإن الإسراف يفسد النعمة ، ويفقدها طعمها الطيِّب ، حين يمتلىء الإنسان منها ، ويُلحّ على جسده بها . . إنها لا تلبث - حينئذ - أن تتحول إلى شىء تزهد فيه النفس ، بل وتعافه . وهذا هو بعض الحـكمة من النهى عن الإسراف .

وقوله تعالى : « قل من حرّم زينةَ الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزقِ ؟ » هو إغراء بالتنعم بنعم الله ، والتجمل بها ، وأخذ حاجة النفس منها . . ثم هو إنـكار على من يأخذون على أنفسهم أو على الناس الطريقَ إلى نعم الله ، ويزهدونهم فيها ، أو يحرمونهم منها . . فلمن إذن هذه النعم ؟ والله سبحانه وتعالى يقول : « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » . . ويقول سبحانه هنا فى هذه الآية : « هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة » أى زينة الله هذه التى أخرج لعباده ، وهذه الطيبات من الرزق ، هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ينعمون بها ، ويرون فضل الله عليهم فيها ، فيزداد حمدهم له ، ويقوى إيمانهم به . . ثم إن هذه النعم سينعمونَ بها يوم القيامة ، تأتيهم من غير أن يبذلوا لها جهداً ، خالصةً من كل شائبة مما كان يشوبها فى الدنيا . . فلا تزهد فيها نفس من شِبَع ، ولا تَمَلُّها عين من نظر . . « كُلَّمَا رزقوا منها من ثمرةٍ رِزْقاً قالوا هذا الذى رُزِقْنَا من قبلُ وأُتوُا به متشابهاً » .

وتخصيص المؤمنين بالذكر هنا : « قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » إشارة إلى أن المؤمنين هم الذين يتعرفون على الطيبات من الرزق وينعمون بها ، أما غير المؤمنين فلا يفرّقون بين طيب وخبيث ،

إذ لادين لهم يحجزهم عن الخبيث ، ويحول بينهم وبينه ، فالطيب والخبيث على سواء عندهم .

قوله تعالى : « قل إنما حرّمَ رَبِّىَ الفواحِشَ ماظهر منها ومابطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينَزِّلْ بِهِ سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون » .

هذه هى المحرمات التى حرّمها الله على عباده ، وكلها خبائث ، تفسد الطيِّب إذا دخلت عليه .

والفواحش هنا ، يراد بها الزّنا خاصّة ، وما اتصل به من شهوة الفرج .

والإثم : المحرّمات التى حرّمها الله ، من مأكولات ، والتى توقع مقترفها فى عداد الآثمين ..

والبغى بغير الحق : العدوان على حدود الله ، والتعدّى على حقوق العباد .. كالقتل ، والسرقة ، والخيانة للأمانة ، وغيرها .

وفى وصف البغى « بغير الحق » على أن البغى لايكون إلا بغير الحقّ أبداً — إشارة إلى هذا الوصف الملازم له ، وتذكير به ، وأنه عمل مجافٍ للحق ، خارج عليه ..

وقوله تعالى : « وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً » هو مما نهى الله عنه ، بل هو أول المنهيات، لأن الشرك بالله رأس الكبائر ، حيث لا يقبل عمل من مشرك ..

وأُخِّر النهى عن الشرك هنا لأن الخطاب فى مواجهة المؤمنين الذين دُعوا إلى أخذ زينتهم عند كل مسجد ، وإلى عدم التحرّج من أن ينالوا من طيبات ما أخرج الله لعباده من رزق ، ثم بيَّن الله سبحانه وتعالى لهم بعد ذلك ماحرّمه عليهم بعد أن رفع الحظر عن جميع المطعومات ، ودعاهم إلى التمتع بها — فكان أول هذه المحرمات الفواحش ، وهى شهوة غالبة من الشهوات المتمكنة فى

الإنسان ، والتي كثيراً ما تفسد عليه دينه ، ثم الإثم والبغى بغير الحق ، وهما آفتان من الآفات المتسلطة على الناس فى الحياة ، حيث تدفع أهواء النفس وشهواتها بالناس إلى مقارفة الآثام ، وإلى عدوان بعضهم على بعض ، لإشباع تلك الشهوات ، واسترضاء هذه الأهواء .. ثم الشرك بالله ، والمراد هنا هو ليس الشركَ الصريح ، القائم على عبادة غير الله ، والإقرار بألوهية إله أو آلهة غيره ، فذلك كفر بالله ، لايعدّ صاحبه فى المؤمنين أبداً ، وإنما المراد بالشرك هنا الشرك الخفىّ الذى يتدسّس إلى الإنسان من غير أن يشعر به ، وذلك كالاستذلال للناس استذلالاً يقرب من العبادة ، والنظر إليهم نظرة من يملكون التصرف فى ملك الله ، بما صار إلى أيديهم من سلطان أو بسطة فى المال وسعة فى الرزق ، وكالاستظلال بظلّ ولىّ أو دعىّ ، يدّعى الولايةَ أو تُدّعَى له الولاية ، حيث يذهل المستظل به ، عن إقامة وجهه خالصاً لله .. فهذا ونحوه هو من قبيل الشرك بالله ، وإن لم يكن شركا صريحاً .. ولهذا وصف الشرك هنا بقوله تعالى :

« مالم ينزل به سلطاناً » أى هو شرك لاحجة عليه ، ولا دليل بين يديه ، وإنما هو وهم وضلال .. وكل شرك لاحجة له ، ولا دليل عليه ، وإنما وصف الشرك هنا هذا الوصف ليلفت المؤمنين إليه ، وليحذروا منه ، لأنه شركٌ خفىّ ، والمؤمن حريص على أن يتجنب الشرك كلّه ، جليّه وخفيّه ، فإذا قيل له احذر الشرك الذى لاحجة ، له جعَل يقلب وجوه الأمور التى بين يديه إذ ربما يكون فيها ما هو من هذا الشرك الخفى ، وحاول أن يزن هؤلاء الأشخاص الذين استذل لهم ، أو استظل بهم ، بميزان الحق والعقل، وهل لهم مع الله ما يملكون به ضراً أو نفعاً ، وهنا ينكشف له الأمر ، ويرى أن كل شىء لله ، وأنه ليس لأى مخلوق — مهما بلغ من جاه أو سلطان — سبيلٌ إلى شىء من ملك الله ..

أما المشركون شركا صريحاً فإنهم يجعلون لمن أشركوا به سلطاناً ، لأنهم

لا يعرفون الله حق معرفته ، ولا يقدرونه حق قدره ..

وقوله تعالى : « وأن تقولوا على الله مالا تعلمون » هو إلفات إلى مالله سبحانه وتعالى من كمال مطلق فى صفاته، وأفعاله ، وأن على المؤمن بالله أن يتعرّف إلى الله سبحانه ، وأن يعرفه حق معرفته ، فإن من شأن هذا التعرف ، وتلك المعرفة أن يصلاه بالله ، وأن يعزلاه عن مظان الشرك الخفى به ، فلا يجعل لمخلوق مكاناً مع الله فى قلبه .. وبهذا الإيمان يستغنى بالله ، ويستعلى بوجوده عن الاستذلال أو الاستظلال بأى مخلوق ، وإن عظُم قدراً ، وعلا فى الناس شأناً ..

والقول على الله بغير علم ، هو من قبيل الفهم الخاطىء لله ، ومن هنا يجىء الالتفات إلى غيره ، والاعتماد على سواه .

الآيات : (٣٥ — ٣٩)

« يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ

أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ » (٣٩)

التفسير: قوله تعالى: « يابنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتّقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

تكرار المناداة بقوله تعالى: « يابنى آدم » لاختلاف المنادَوْن من بنى آدم: من بين مؤمن ، وكافر ، ومشرك ، وبين منتبه وغافل ، وراغب فى الهوى وزاهد فيه .. فهم أنماط شتى ، وطوائف مختلفة ، وكأن كل طائفة منهم تنادى نداءا خاصا ، وإن كان النداء عاماً موجهاً للجميع .. وفى مخاطبة الناس بأبناء آدم تذكير لهم بأصل وجودهم ، وأنهم كانوا فى عالم التراب ، وأن من هذا التراب جاء هذا الإنسان العاقل ، السميع ، البصير ، وفى هذا ذكرى وموعظة لأولى الألباب .

وفى قوله تعالى: « إما يأتينكم » أصل إمَّا: إنْ ، وما ، وهما شرطيتان ، للتوكيد ..

وفى قوله تعالى: « يقصّون عليكم آياتى » قصّ الآيات: حكايتها كما هِيَ ، دون تبديل أو تحريف فيها ، ومنه قصّ الأثر وهو تتبعه . وفى هذا إشارة إلى أن الرسل إنّما يبلغون ما أنزل إليهم من ربهم ، وأنهم لا يأتون بشىء من عند أنفسهم .

والناس فيما يلقاهم به الرسل من آيات الله وكلماته ـ فريقان: مصدّق ومكذب .. مؤمن وكافر ..

فمن صدّق وآمن ، وعمل بمقتضى صدقه وإيمانه ، فاتّقى الله ، واستقام على شريعته ، فأتى ما تأمر به ، وانتهى عما تنهى عنه ، فقد سلم ، ونجا ، وأمن

الخوف والحزن ، يوم يخاف المكذبون ، ويحزنون . . يخافون من عذاب الله الراصد لهم ، ويحزنون على ما فاتهم من استجابة لرسل الله ، واستقامة على شريعة الله .

ومن كذّب وأبى فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . . فقد ظلموا أنفسهم بافترائهم على الله ، وقولهم إذا فعلوا فاحشة : وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فمن أظلم ممن افترى على الله الكذب أو كذّبَ بآياته » .

وقوله تعالى : « أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب » . . المراد بالكتاب هنا الكتاب الذى خُطّت فيه أعمال الناس وأرزاقهم .. والمعنى أن هؤلاء الظالمين لن يحرمهم الله بسبب ظلمهم ما قدّر لهم فى كتابه من أعمار وأرزاق ، فهم سيوفَّوْن ما قُدِّر لهم فى هذه الدنيا . « حتّى إذا جاءتْهم رسُلُنا يتوفّونهم » أى حتى إذا انتهت أعمارهم وجاءتهم رسل الموت من عند الله ليقبضوا أرواحهم : « قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلّوا عنّا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كفرين » . أى أنهم إذا حضرهم الموت ، انكشف لهم ما كانوا فيه من ضلال ، واطلعوا على هذا المصير السيء ، الذى هم صائرون إليه ، وهنا يتلفتون إلى من أشركوا بهم فلم يجدوا لهم وجوداً معهم : « ضلُّوا عنّا » ! . . إنهم يبحثون عنهم فى هذا المزدحم ، فلا يرون لهم ظلّاً . . لقد تركوهم ليلاقوا مصيرهم المشئوم . . !

وقوله تعالى : « وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كفرين » الشهادة هنا هى استيقانهم بواقع أمرهم ، وأنهم كانوا على ضلال وكفر . . وتلك هى الشهادة التى شهدوا بها على أنفسهم ، فكان حكماً عليهم أدانوا أنفسهم به ، قبل أن يُدينهم الديّان .

قوله تعالى : « قال ادخلوا فى أمم قد خلَت من قبلكم من الجنّ والإنس فى النّار كلما دخلت أمةٌ لعنت أختها حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلّونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار » .

إشارة إلى الرحلة الجديدة التى سيأخذ فيها هؤلاء الظالمون طريقَهم إلى جهنم .. فمنذ اللحظة التى تُنْتزع فيها أرواحهم ، يدخلون فى عالم جديد ، ويأخذون مكانهم بين من سبقهم من الظالمين ، من الجنّ والإنس . .

وهذه الأمم من ظَلَمَة الجنّ والإنس ، يعيش بعضها مع بعض فى شقاق واختلاف ، إذ لا تفاهم بينها ، لما اشتملت عليه نفوسهم من أمراض خبيثة ، تزعج أصحابها ، وتزعج من يتصل بها . . « كلّما دخلت أمةٌ لعنت أختها » فهم يتلاعنون ، ويتشاتمون ، كما يفعل المجرمون ، تضمهم جدران السجن . . ثم لا يقف أمر هذه الجماعات عند هذا ، بل إنهم حينما تجتمع جموعهم للحساب والجزاء ، يتراشقون بالتهم ، ويُلقى بعضهم على بعض جريمته التى يحملها بين يديه : « حتّى إذا أدركوا فيها جميعاً » أى إذا أدركَ بعضهم بعضا ، ولحق آخرهم بأولهم فى ساحة الحساب والجزاء : « قالت أخراهم لأولاهم ربّنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار » وإضلال الأولين للآخرين هو بسبب متابعة الآخرين للأولين ، وجَرْيهم على ما كانوا فيه من ضلال ، كما كانوا يقولون فى الدنيا إذا جاءهم الهدى : « إنا وَجَدْنا آباءنا على أمّة وإنا على آثارهم مُقتدون » .

وفى طلب الآخِرين للأولين مضاعفةَ العذاب لهم ، محاولةٌ يائسة لدفع العذاب الواقع بهم هم ، وإلقاء ذنوبهم على آبائهم وأجدادهم الذين اقتفوا آثارهم ، وكانوا بهذا من أصحاب السعير . .

وفى قوله تعالى : « قال لكلٍّ ضعف ولكن لا تعلمون » ردّ على أوهام أولئك الذين تابعوا آباءهم وجرَوْا على آثارهم ، فإن لهم ضعفاً من العذاب

كما لآبائهم وأجدادهم العذابُ المضاعف ، لأن كلاًّ منهم ضلّ وأضَلّ .. فالأبناء الذين ضلوا بمتابعة آبائهم ، قد ضلّوا ، إذ لم يستعملوا عقولهم ، كما أنّهم أضَلّوا أبناءهم من بعدهم . . وهكذا السابق منهم يُضلّ اللاحق ، واللاحق يضلّ من بعده .

وقوله تعالى : « وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضلٍ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » هو دفع لهذا الاتهام الذى اتهم به اللاحقون السابقين . . وأنه إذا كان السابقون قد ضلّوا فإن اللاحقين قد ضلوا أيضاً ، ولم يكن لهم من عقولهم ما يحجزهم عن هذا الضلال ، فهم إذن جميعاً على سواء فى الضلال . . فلِمَ يضاعف العذاب للسابقين ولا يضاعف للاحقين ؟ إنهم — سابقهم ولاحقهم — ضالون مجرمون . . ولكلّ ضِعْفٌ من العذاب .

وفى قوله تعالى : « فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » هو من مقول القول الذى قاله السابقون للاحقين .. وأن هؤلاء اللاحقين إنما يذوقون العذاب بما كسبت أيديهم ، ولن يحمل عنهم وزرَهم أحد .

وهذا الخصام الذى بين أهل النار هو عذاب إلى عذاب ، حيث يتبرأ بعضهم من بعضهم ، ويتمنّى بعضهم لبعض مضاعفة البلاء والعذاب ، وقد كانوا فى دنياهم أصدقاء ، وأحباء ، وأقارب . . وفى هذا يقول الله تعالى : «الأخِلاَّء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتّقين » (٦٧ : الزخرف) .

الآيات : (٤٠ — ٤٣)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » (٤٣)

التفسير : وإذ يساق أهل النار إلى النار ، ويدخل أهل الجنة الجنة ، يكون بين هؤلاء وهؤلاء مابين الأشقياء والسعداء فى الدنيا ، من مشاعر مختلفة ، ونظرات متصادمة !

وفى هذا ما فيه من الكشف عن حال كل منهما ، فيعرف أهل النار مايجد أهل الجنة من نعيم ، فتشتدّ حسرتهم وتتضاعف آلامهم ، على حين يطّلع أهل الجنة على ما يلقى أهل النار من شدة وبلاء ، فيزداد نعيمهم ، ويتضاعف رضوانهم ..

وفى قوله تعالى : « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سمّ الخياط وكذلك نجزى المجرمين » تيئيس لأصحاب النار ، وقطع لكل خيط من خيوط الأمل الواهية التى ينسجونها من الأوهام ليخلصوا من هذا البلاء الذى هم فيه .. وإنهم لن يخلصوا أبداً ، ولن يخرجوا من النار أبداً .. ولقد سُدّت عليهم منافذ السماء ، فلا يُقبل لهم عمل ، ولا يُسمع لهم دعاء : « لا تفتح لهم أبواب السماء » وأنهم لن يدخلوا الجنة التى ينظرون إليها وإلى أهلها ، وما يلقون فيها من نعيم ، وأنه إذا دخل الجمل فى سم الخياط ، دخلوا هم الجنة ، وهذا تعليق بمستحيل ، حسب

طبيعة الأشياء ، فلن يدخل الجمل فى ثقب الإبرة أبداً ، ولن يدخلوا هم الجنة أبداً .. « وكذلك نجزى المجرمين » .

وقد قرىء « الجُمَّل » وهو الحبل المجدول ، الذى جَمَع عدّة حبال، فكان حبلاً واحداً فى جملته . .

والسَمّ : الثقب ، ومنه سمى السُّم لأنه ينفذ إلى جسم الإنسان من ثقب تثقبه حَمَة النحلة أو زُنابَى العقرب فى جسد اللديغ .

وقوله تعالى : « لهم من جهنم مهادٌ ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين » .

المهاد : الفراش ، يمهد ويعدّ للنوم عليه ، ومنه : المهد ، وهو فراش المولود ..

والغواشى : جمع غاشية ، وهى ما يغشى الإنسان ويظلله ، حتى يكسر عنه حدّة الضوء أو يحجبه ، ومنه الغاشية بمعنى الداهية التى تهجم على الإنسان ، وتدهمه .

فهؤلاء الأشقياء الذين ألقوا فى جهنم ، سيكون لهم مهادٌ ، كما لأهل الجنة مهاد ، ولكن هذا المهاد من النار ! وسيكون فوقهم ظلّة تظلهم ، كما لأهل الجنة ظلال تظلهم ، ولكنها ظلة من لهيب جهنم ودخانها .. !

وفى قوله تعالى : « وكذلك نجزى الظالمين » تعليل لهذا التنكيل بهؤلاء المجرمين، لأنهم فوق أنهم مجرمون، قد جاوزوا حدود الإجرام ، وبالغوا فيه ، فبجرمهم دخلوا النار ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى فى الآية السابقة « كذلك نجزى المجرمين » وبظلمهم ومجاوزتهم الحدّ فى الجرم نُكّل بهم فى جهنم ، وضوعف لهم العذاب « وكذلك نجزى الظالمين » أى نبالغ فى عذابهم كما بالغوا هم فى إجرامهم .

ومما يضاعف فى عذاب أهل النار ، هذا النعيم الذى ينعم به أهل الجنة فى مواجهتهم ، فإذا هم أغمضوا أعينهم عن أن ينظروا إلى هذا النعيم ، حسداً لأهله ، امتلأت أسماعهم بكلماتٍ تُناجِى أهلَ الجنة بنعيمهم ، وتدعوهم إلى التمتع به كما يشاءون ، غير مضيق عليهم فى شىء منه ، ولا محظور عليهم منه شىء ، فهو ملك خالص لهم ، وفى هذا يقول الله تعالى :

« والذين آمنو وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون * ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنّا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » .

فهذا هو شأن أهل الجنة ، وما يلقون فيها من تكريم وتنعيم .. إنهم أصحاب الجنة ، وملاكها ، لاينازعهم فيها أحد ، شأن المالك فيما يملك ..

وإذا كان أصحاب النار فى خصام وشقاق ، وفى تراشق بالسب واللعن ، فإن أصحاب الجنة فى مودة وسلام ، وفى أنس وإخاء .. « ونزعنا ما فى صدورهم من غل » فلا أضغان ولا أحقاد ، ولا حسد ، ولا بِغضة .. وفيم يتحاسدون ؟ وعلام يتباغضون ؟ والخير يملأ كل ما حواهم ، ليس لأحد منهم حاجة فى شىء إلا وجدها بين يديه .. فليس فيهم غنى وفقير ، وشقى وسعيد ، إذ كلهم أغنياء من فضل الله ، سعداء برحمته ورضوانه .. لايجرى على ألسنتهم إلا الحمد والشكران ، لله رب العالمين ، الذى هداهم إلى الإيمان ، ووفقهم لمرضاة الله ، والفوز بهذا النعيم الذى هم فيه . « إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون » يشغلهم حمد الله والثناء عليه والتقلب بالنعيم الذى هم فيه ، عن النظر إلى ماخلفوا وراءهم فى الدنيا ، وما أصابهم فيها من خير أو بلاء ...

وفى قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ــ لا نكلف

نفساً إلا وسعها ـ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » ما يكشف عن فضل الله ، ورحمته بعباده ، وأن ما يكلفه المؤمنون من أعمال صالحة ، من طاعات وعبادات ، هو مما تحتمله النفس ، ويطيقه كل إنسان . . فلكل إنسان عمل على قدر طاقته ، وما تسع نفسه ، إذا هو آمن وأخلص الإيمان لله . . فقد رفع الله الحرج عن عباده ، وأخذهم بلطفه فيما فرض عليهم من تكاليف . . فليس العمل الصالح المطلوب من المؤمن عملاً على إطلاقه ، وإنما هو مقدور بقدر كلِّ نفس وما تحتمل . فالمريض . غيرُ المعافَى ، والأعمى . . غير المبصر ، والمقيد . . غير المطلق . . وهكذا . . فقوله تعالى : « لا نكلف نفساً إلا وسعها » ـ اعتراض بين المبتدأ والخبر ، وهو بهذه الصفة قيد وارد على الإطلاق المفهوم من قوله تعالى : « وعملوا الصالحات » . . فما أوسع رحمة الله ، وما أعظم فضله وكرمه ! .

وفي قوله تعالى : « ونُودوا أن تلكم الجنةُ أُورثتموها بما كنتم تعملون » هو نداء من قِبَل الحق سبحانه وتعالى ، يدعو به عباده المؤمنين إلى رحاب جناته ، ثم يخلى بينهم وبينها ، ويجعلها ميراثاً لهم ، يرثونه بسبب ما قدموا من أعمال صالحة ، كما يرث الولد ما خلّف والده ، وما تمّر له من مال . . فهذه أعمالهم التي عملوها في دنياهم قد ثمّرت لهم هذا الميراث ، وإنه لميراث عظيم . . جنات تجرى من تحتها الأنهار . . وذلك فضل من فضل الله ، ورحمة من رحماته ، وما تلك الأعمال التي عملها المؤمنون إلا أسباب موصلة إلى مرضاة الله ، أما هي في ذاتها ، فلا تعدّ شيئاً إلى جانب هذا النعيم المقيم . .

الآيات : (٤٤ — ٥١)

« وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ

أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ » (٥١)

التفسير : تعرض هذه الآيات مشهداً من مشاهد المناظرة والمحاورة ، بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، كما كان ذلك الشأن بين المؤمنين والكافرين في الدنيا . .

وفي هذا المشهد نرى :

أولاً : أصحاب الجنّة ينادون أصحاب النار ، ويذكّرونهم بما كانوا يجادلونهم به في الدنيا . . حيث كان المؤمنون يقولون : إننا نعمل على وعدٍ من ربنا ، بأن من آمن وعمل صالحاً ، فله جزاء الحُسنَى ، وأن من كفر وصدّ عن سبيل الله ، فقد حبط عمله ، وهو في الآخرة من الخاسرين .

وهاهم أولاء جميعاً ـ المؤمنون والـكافرون ـ في يوم الحساب، والجزاء، ولقاء ما وعد الله . .

وهاهم أولاء المؤمنون قد أنجز الله لهم وعده ، وأدخلهم جنته ، وها هم أولاء الـكافرون ، قد أخذهم الله بوعيده ، فألقى بهم فى جهنّم . .

وفى سؤال أهل الجنة أصحابَ النّار هذا السؤال : « قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا ؟ » خِزى لأصحاب النار ، وتقريعٌ لهم ، وعذابٌ فوق العذاب الذى هم فيه . .

وفى قوله تعالى على لسان أهل الجنة : « فهل وجدتم ما وعد ربكم حقّا » بلفظ الوعد مطلقاً من غير ذكر الموعودين ـ إلفات لأهل النار إلى ما وعد الله المؤمنين به ، من رضوان ، وليحققوا ما تم فى هذا الموعد . . وإنه لنعيم عظيم ، يراه أصحاب النار ، ولا يدنون منه . .

وفى جواب أصحاب النار بقولهم : « نعم » ـ يقولونها فى ذلة واستخزاء ـ فى هذا ما يكشف عن مضاعفة آلامهم وإذلالهم .. وإنهم ليقولون هذه الـكلمة فى حشرجة أشبه بحشرجة الموت ، من هول ما يلاقون من عذاب .

ثم ما يكادون ينطقون بهذا الجواب الذى يشهدون به على أنفسهم ويُدينونها بما هم فيه من عذاب ، حتى يقرع آذانهم هذا الصوت الذى يملأ الآفاق من حولهم : « أن لعنة الله على الظالمين » . إنه صوت الوجود كله ، يلعن الظالمين ويخزيهم ، ويفضح ما كان منهم من كفر بالله ، وصدّ عن سبيله : « الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا وهم بالآخرة كافرون » لقد كانوا هكذا فى دنياهم ، يَصدّون أنفسهم ويَصدّون الناس عن طريق الحق المستقيم ، ويريدونها طريقاً معوجّة ، قائمة على الضلال ، والبغى والعدوان . إذ كانوا يكفرون بالآخرة ، ولا يَرْجُونَ لقاء الله .

ثانياً : بين أهل الجنة وأصحاب النّار حجابٌ ، يعزل كل فريق عن

الآخر ، عزلة ، لا ينفذ منها شيء من نعيم الجنة ، إلى أصحاب النار ، كما لا ينفذ منها شيء من لفح جهنم ، إلى أهل الجنة ، ولكنهم ـ مع هذا ـ بمرأى ومسمع من بعض . .

وبين الفريقين سور يشفّ عما وراءه وأمامه . . وعلى هذا السور رجال ، ليسوا من أهل الجنة ، ولا من أصحاب النار . . إنهم لم يتقرر مصيرهم بعد ، إذ لم تكن سيئاتهم بالتي تدفع بهم إلى النار ، ولم تكن حسناتهم بالتي تفتح لهم أبواب الجنة ، فأوقفوا هكذا « على الأعراف » . والأعراف : ما ارتفع من الأمكنة ، ومنه عُرف الديك الذى هو أعلى شيء فيه ، ومنه المعرفة بالشيء ، حيث تكشفه ، وتستولى على حقيقته . .

وهؤلاء « الرجال » أشبه بالنظّارة الذين يشهدون موقفاً بين فريقين متناقضين .. ينظرون إلى هؤلاء نظرة ، وإلى هؤلاء نظرة أخرى ، فيكون لهم فى ذلك حال من العجب والدهش ، ومن المسرّة والغم ، ومن الرجاء والخوف . . إنه نوع من العقاب الذي يمسّه لطف الله ، وتحفّ به رحمته . .

وليس يخفى على هؤلاء « الرجال » مَن هم أهل الجنة ، ومن هم أصحاب النار ، فلكلٍّ من الفريقين سمات ظاهرة تدل عليه ، وتكشف عن حاله . . وشتّان بين وجوه يجرى عليها ماء النعيم ، وتُسفر فيها شموس الأمن والسلامة والرضا ، وبين وجوه عليها غبرة ترهقها قترة . . قد كرَبها الكرب ، واستولى عليها البلاء . .

ومن هؤلاء الرجال ، أو النظارة ، تنطلق كلمات الإعجاب بتلك التحية الطيبة إلى أهل الجنة : « سَلَامٌ عليكم » .. تماماً كما يفعل النظارة على مسارح الحياة . . يحيّون الفائزين ، ويرجمون المنهزمين ! !

وإذ يلتفت أهل الجنة إلى هذه الأصوات التى تجيئهم من بعيد ، وإذ يرون أنها صادرة من أناسٍ ليسوا من أهل النار ، وليسوا كذلك من أهل الجنة ـ

إذ ذاك يتساءلون : ما بال هؤلاء القوم ؟ وما شأنهم فى هذا الوضع ؟ وإذا كانوا قد نجوْا من عذاب جهنم ، فلم لم يدخلوا الجنة مع من دخلوها ؟ .

وعلى هذه الأسئلة وأشباهها يجئ الجواب من قِبَل الحق سبحانه وتعالى : « لم يدخلوها وهم يطمعون » أى لم يدخل هؤلاء الجنة بعد ، ولكنهم على طمع من دخولها ، وعلى رجاء من رحمة الله بأن يصيروا إليها ، ولن يخيّب الله رجاءهم فيه . . ولكن صبراً . .

وثالثاً : مايكاد هؤلاء الرجال « النظارة » يرفعون أبصارهم عن أهل الجنة ، ويُلقون بها إلى أصحاب النّار ، ليروْا كيف يفعل الزمن بهم ، وكيف تستمسك حياتهم وهم فى هذا البلاء ــ ما يكادون يلقون بهذه النظرة حتى تضطرب قلوبهم فزعاً ورعباً ، وحتى تنطلق ألسنتهم بهذا الصوت المكروب : « ربّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين » !

وفى قوله تعالى : « وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار » إشارة إلى أن هذه النظرة التى ألقوا بأبصارهم إليها نحو أصحاب النار ، لم تكن إلا عن قهر وقسر ، بداعى حبّ الاستطلاع ، الكامن فى طبيعة الإنسان .. فهم قد صرفوا أبصارهم صرفاً ، وحوّلوها بقوة عن مكانها الذى كانت فيه ، من النظر إلى أهل الجنة . .

رابعاً : وإذ يفزع رجال الأعراف ــ أو النظارة ــ إلى الله سبحانه ، ألاّ يجعلهم مع هؤلاء القوم الظالمين من أصحاب النار ــ إذ ذاك يذكرون أهل الجنة وما هم فيه من نعيم ، وكيف كان استهزاء هؤلاء الظالمين بهم فى الدنيا ، وأنهم لم يكونوا أهلا لكرامة الله ، إذ لو كانوا أهلا لتلك الكرامة لما وضعهم بهذا الوضع الذليل من الحاجة والفقر والضعف .. هكذا كان المشركون والكافرون يَلقوْن المؤمنين بمثل هذه المقولات ــ وعندئذ يسأل هؤلاء « النظارة » أصحابَ النار فى سخرية واستهزاء ، مشيرين لهم إلى أهل الجنة :

«أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ؟ » انظروا كيف أورثهم الله جنات النعيم ، وكيف ألقى بكم فى أفواه جهنم ؟ « ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون » .

وخامساً : وفى كَلَب البلاء ، وكَظْمة العذاب ، يتلفت أصحاب النار إلى هؤلاء النظارة الذين يرشقونهم بسهام الاستهزاء والسخرية ، ويفتحون عليهم هذه الأبواب المغلقة ، من ذلك الماضى الأسود الذى كانوا فيه على طريق الشرك والضلال ـ وتحدثهم أنفسهم أن ينتقموا من هؤلاء الذين يهزءون بهم ويسخرون ، وأن يجذبوهم إليهم ليكونوا معهم فى هذا البلاء ، وليذوقوا ما يذوقون من عذاب السعير !! وما يكاد هذا الإحساس يجتمع فى كيانهم ، ويتحول إلى رغبة متحركة تسعى إلى الغاية التى يريدونها ، حتى يفجؤهم هذا الصوت السماوى المنطلق إلى هؤلاء النظارة ، يحملهم فى سرعة خاطفة إلى الجنة ، وقد فتحت لهم أبوابها ، ومُدت إليهم يد الرحمة من تلقائها ، وإذا هم وقد أخلوا هذا المكان الذى كانوا فيه ، وإذا هم فى جنات النعيم : « ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون » ..

وإذن فكل الناس فى الجنة ، إلا هؤلاء الظلمة .. حتى هؤلاء النظارة الذين كانوا على مشارف جهنم . . قد نجوا من هذا العذاب ، وصاروا إلى جنات النعيم . .

أما هم فباقون فى هذه الوحشة القاتلة ، ومع هذا اليأس المطبق ، ومع هذا العذاب الأليم . .

وهكذا تتغاير صور العذاب ، وتتنوع وجوهه وأشكاله .. كلما تجرع منه الظالمون كأساً ، وكادوا يستمرئون مرارتها ، سُقوا كأساً أخرى غيرها ، أمرّ مرارة وأشنع طعما . . وهكذا يتقلبون فى العذاب ، على حين كما يتقلب أهل الجنة فى ألوان النعيم . .

وسادساً : إذ يخلو الموقف إلا من أصحاب النار فى النار ، وأهل الجنة فى الجنة ، وإذ يصير أصحاب النار إلى هذا اليأس القاتل، بعد أن يُخلى رجال الأعراف مواقفهم التى كانوا فيها - إذ ذاك لا يجد أصحاب النار إلا أهل الجنة ، يَشخصون إليهم بأبصارهم ويمدّون إليهم أيديهم ، طالبين النجدة والغوث : «ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من المآء أو مما رزقكم الله » ! . .

هكذا تبدلت بهم الحال ، وقد كانوا من قبل فى دنياهم يأنفون أن ينظروا إلى الناس إلا من آفاق عالية ، حتى لكأنهم آلهة ، والناس عبيد أذلاء لهم . . وهاهم أولاء اليوم ، يمدون أيديهم فى ذلة وانكسار إلى هؤلاء الذين كانوا عبيداً أو أشبه بالعبيد لهم ، يطلبون شيئاً من تلك الموائد الحافلة التى بين أيديهم . . «أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ! » ويجيئهم الجواب مفحما مخرساً موئساً . . « إن الله حرّمهما على الكافرين . . »

ولا يكاد هذا الجواب يبلغ أسماعهم ، ويملأُ قلوبهم يأساً ، وهما وكمداً . . حتى يصادَق على هذا الجواب من عند الله ، فتجىء كلمات الله مكملة لهذا الحكم، مصدقة عليه ، شارحة لأسبابه : « الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرّتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون» . .

وهكذا يُسدل الستار على هذا المشهد العظيم من مشاهد القيامة . . لقد انتهى الحساب وفُضّت المحاكمة ، ووقع الجزاء . . وصار أصحاب النار إلى دارهم التى أعدت لهم ، يلقون فيها الوبل والبلاء ، وصار أهل الجنة إلى دارهم ينعمون فيها ، بما أعد الله لهم من نعيم ورضوان مقيم . .

والمُشاهِد لهذه المَشاهد من خارج ، يرى فى كلمات الله التى صورتها ، مالا يراه على مسرح الحياة ، ولو أتيح لهذه المشاهد من أبرع المخرجين من يخرجها ويتخير لها كل ما فى الحياة من إمكانيات . . فى الممثلين وأدوات التمثيل !

الآيات : (٥٢ — ٥٣)

« وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » (٥٣)

التفسير : وفى الانتقال من مشاهد القيامة إلى الحياة الدنيا ، يقوم طريق يصل بين هذين العالَمين .. عالم الحياة ، وعالم ما بعد هذه الحياة . . وعلى امتداد هذا الطريق ، وفى نهايته ، يرى المشركون مصائر الجبابرة والمتجبرين ، وكيف نزلوا منازل الهُون والعذاب .. يستغيثون فلا يغاثون ، ويَستجْدُون فلا يجود عليهم أحد ولو بقطرة ماء . .

لقد سمع المشركون آيات الله تلك التى صورت لهم مشاهد القيامة ، وشهدوا منها تلك المشاهد التى تنخلع لها القلوب ، مما نزل بأمثالهم من المعاندين والمتجبرين ، وأنهم إذا كانوا اليومَ مجرد نظارة ومشاهدين ، فإنهم فى غدٍ على موعد مع هذا المكان الذى أطبق على أمثالهم ، ولن يفلتوا هم منه أبداً . .

وإذ يخرج المشركون من بين يدى آيات الله ، التى صورت تلك المشاهد ، وإذ لاتزال صور هذه المشاهد تملك عليهم مشاعرهم ، وتستولى على أفكارهم — وإذ هم فى تلك الحال يلقاهم قوله تعالى : « ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون » فماذا هم فاعلون بهذا الكتاب ، الذى أنزله الله عليهم مفصلا مبيناً ، على علم — من لدن حكيم عليم؟ فلم يكن بيانه وتفصيله من عمل بشر .. هكذا تنطق آياته ، وتتحدث وتتحدّى كلماته .. فيه هدى ورحمة لقوم يتقبلون

الحقَّ ، وينتفعون بالخير الذى يساق إليهم .. أما من أعرض وتولى ، فقد حُرم حظَّه من الحق والخير ..فما موقف هؤلاء المشركين مع هذا الكتاب المعين ؟

قوله تعالى : « هل ينظرون إلا تأويلَه يوم يأتى تأويله يقول الذين نَسُوه من قَبْلُ قد جاءَتْ رُسل ربّنا بالحق فهل لنا من شفعآء فيشفعوا لنا أو نُردُّ فنعمل غير الذى كُنَّا نعمل » . . الاستفهام هنا إنكارى ، ينكِر على أهل الشرك والضلال توقفهم فى الاستجابة لهذا الكتاب ، والإيمانَ به ، والعملَ بما فيه . . فماذا ينظرون ؟أو ماذا ينتظرون ؟ أينتظرون تأويل هذا الكتاب ، ووقوع ما أخبر به من وعد ووعيد ؟ إن تأويله ـ أى ما تؤول إليه أخباره ـ لا تكون إلا يومَ القيامة . . فهل إذا جاء هذا اليوم ، ووقع بهم الوعيد الذى أوعدهم الله به ، أينفعهم إيمان أو يقبل منهم عمل ؟ وكلاَّ . . فإن الله سبحانه وتعالى يقول : « يوم يأتى بعض آيات ربّك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنتْ مِن قبلُ أو كسبت فى إيمانها خيراً » (١٥٨ : الأنعام) . . إنّهم فى هذا اليوم لا يملكون إلا أن يردّدوا الأمانىّ الباطلة : « فهل لنا من شفعآء فيشفعُوا لنا أو نُرَدُّ فنعمل غير الذى كنَّا نعمل ؟ » . . وكلاَّ .. فلا شفعآء ، ولا رجعة إلى الحياة مَرةً أخرى . لقد رُفعت الأقلام ، وجفت الصحف ، وطوى الكتاب على ما عمل العاملون من خير أو شرّ . . وهؤلاء المشركون لم يسجّل لهم فى كتابهم إلا الشرّ ، وإذن فهم : « قد خسروا أنفسهم وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون » . . لقد ذهبت مفترياتهم أدراج الرّياح ، إذ كانت كلها من واردات الخيال والأوهام . .

الآيات : (٥٤ — ٥٨)

« إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ

ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ (٥٤) ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ » (٥٨)

التفسير : ويُترك المشركون فى موقفهم مع أنفسهم ، من هذا النداء الكريم الذى يدعوهم به الله سبحانه إلى كتابه ، وإلى الإيمان به ،قبل أن تنقضى آجالهم ويُختم على أعمالهم ، ويأتيهم تأويل ما فى الكتاب من وعيد ، وعذاب شديد ـ يتركون هكذا ليتدبروا أمرهم وليأخذوا الطريق الذى يشاءون . . ثم إن لهم بعد هذا أن يستمعوا إلى آيات الله ، وما يتنزل فيها من هدًى ونور ، يهدى إلى الله ، ويكشف الطريق إليه ، بما يتجلّى فيها من سلطان الله ، وقدرته ، وحكمته ، ورحمته . . وفى هذا يقول الله تعالى : « إن ربكم الله الذى خَلَق السمٰوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش » فهذه بعض مظاهر قدرة القدير ، وحكمة الحكيم . . « خلق السموات والأرض فى ستة أيام » . وقد أشرنا من قبل إلى هذه الأيام الستة التى خلق الله فيها السموات والأرض ، وقلنا إنها ليست بياناً للزمن الذى عَملت فيه القدرة هذا الخَلْق للسموات والأرض ـ

كما يذهب إلى ذلك أكثر المفسّرين ـ فذلك فهم خاطىء لقدرة الله ، التى تحكم الزمن ولا يحكمها . . « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » .

فهذه الأيام الستة ، هى المدة التى ينضج فيها خلق السموات والأرض ، وهى الوعاء الحاوى لخلق السموات والأرض ، وتسويتهما على الصورة التى أرادها الله وذلك كما يتخلّق الجنين فى بطن أمه ، ويتم خلقه فى تسعة أشهر . . وهكذا الشأن فى كل مخلوق . . له وعاء زمنى يتخلق فيه ، وأجل محدود ينتهى إليه . .

وقوله تعالى : « ثم استوى على العرش » . . اختلف المفسرون فى العرش وفى صفته ، وفى وظيفته .. كما اختلفوا فى الاستواء . . ما هو ؟ وكيف يتصور ؟

أما العرش ، فقد ذُكر فى القرآن أكثر من مرة . . مثل قوله تعالى : « وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء » (٧ : هود) .

فالعرش هنا موجود قبل خلق السموات والأرض ، فكيف يجىء فى الآية السابقة معطوفاً على خلق السموات والأرض بحرف العطف « ثم » ؟ .

جاء ذكر العرش فى قوله تعالى : « قل من ربّ السموات السبع وربّ العرش العظيم » (٨٦ : المؤمنون) وفى قوله سبحانه : « وترى الملائكة حافّين من حول العرش » (٧٥ : الزمر) وفى قوله تعالى : « وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد » (١٥ : ١٦ ـ البروج) .

فالعرش إذن كون من هذه الأكوان التى خلقها الله سبحانه ، كما خلق السموات والأرض وغيرهما . . إنه مربوب لربّ الأرباب .

ولكن ما صفة هذا العرش ؟ وما وظيفته ؟ .

جاء فى قوله تعالى عن عرش ملكة سبأ : « قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى

بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين » (٣٨ : النمل) وجاء فى قوله سبحانه : « فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو » (٤٢ : النمل) .

فالعرش هنا هو مقصورة الملكة ، أو مجلس المُلك ، حيث تتخذ منه الملكة مجلساً تتولّى فيه إدارة ملكها ، هى وأعوانها . .

فهل العرش الذى خلقه الله هو شىء من هذا القَبيل ، على بُعد بعيدٍ ، فيما هو لله ، وفيما هو لعباد الله ؟

ليس ببعيد أن يكون لهذا الوجود فَلكَ يدور فيه ، وأن يكون لهذا الفلك مركز ، وأن يكون العرش هو مركز هذا الوجود ، وهى جميعها من خلق الله ، وفى يد القدرة القادرة . .

بقى معنى استواء الله على العرش . .

وهذا أمر يتعلق بذات الله ، فكما لا يمكن تصور ذاته ، لا يمكن تصور أفعاله . . وقد سئل الإمام مالك رضى عنه ـ عن معنى الاستواء ، فقال قولته المشهورة : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة » . .

قوله تعالى : « يُغشى الليل النهار » أى يُجلّل الليلَ بالنهار ، أى يجعله جِلالا له ، وساتراً ، وغطاء ، حيث يحجب ظلامه نورَ النهار . . ومنه قوله تعالى : « إذ يغشّيكم النعاسَ أمنة منه » أى يُلبسكم النعاس ، وكذلك قوله سبحانه : « واستغشوْا ثيابهم » أى دخلوا فيها ، وأخفوا أنفسهم .

قوله تعالى : « يطلبه حثيثاً » جملة حالية من الّليل ، أى أن الّليل يتبع النهار ويقتفى أثره ، فينسخ نورَه بظلامه .

وهكذا النهار والليل فى دورة الفلك ، حيث تدور الأرض حول نفسها ،

تحت سلطان الشمس مرة كل يوم ، من الغرب إلى الشرق .. وفى تلك الدورة اليومية يتناسخ كل من الليل والنهار ، أى ينسخ كل منهما الآخر ، وذلك بتحرك الأرض شيئاً فشيئاً ، بحيث يكون دائماً نصفها المقابل للشمس نهاراً ، والنصف الآخر ليلا ، ففى كل لحظة ، ضوء ينسخ ظلاماً ، ويلبسه ، ويغشيه . . فالظلام الذى يخيم على الأرض شىء أصيل ، والضوء الذى يلبسها كائن جديد داخل عليها .. الظلام منسوخ ، والضوء ناسخ له . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » (١٢: الإسراء) .

وهناك حقيقة علمية مقررة ، تتكشف من النظر فى قوله تعالى « يُغشِى الليلَ النهارَ يطلبه حثيثاً » وذلك بعد أن أصبحت كروية الأرض ودورتها حول الشمس من الغرب إلى الشرق من الحقائق المسلّمة ، التى لم تعد موضع بحث أو خلاف .. تلك الحقيقة ، هى أن الليل ، أى الظلام ، كان مستوليا على الأرض كلها ، فلما أخذت الأرض مكانها من الشمس مع المجموعة الشمسية ، انسخ نصف الظلام الذى كان يغطى هذه الأرض ، أو هذه الكرة ، فكان نهاراً ، وبقى النصف الآخر ليلا ..

وفى الحركة التى تتحركها الأرض فى مواجهة الشمس من الغرب إلى الشرق - يتناسخ الليل والنهار ، فما يكون ليلا يتحول إلى نهار ، وما يكون نهاراً يتحول إلى ليل .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون » (٣٧ : يس) .

وسلخ النهار من الليل ، تعريته منه ، كما يتعرى الحيوان من جلده الذى يكسوه . . فالنهار إذ يكسو وجه الأرض بضوئه يكون أشبه بالغشاء الجلدى الذى يكسو الجسد ، فإذا انسلخ النهار ، انكشف الليل بظلامه الكثيف .

وفى الحساب الزمنى يتقدم النهارُ الليلَ أبداً ، حيث كان الشرق هو مطلع

الشمس ، فحيث تشرق الشمس يكون أبداً وراءها ظلام ، أو ليل ، هو متخلف زمناً عن النهار . .

فالنهار فى الشرق هو ناسخ لليل لذى كان فى الغرب ، والليل لذى يستولى على الشرق ، هو فى مقابل النهار الذى انسحب منه .. أو بمعنى جغرافى آخر .. أننا إذا فرضنا أن الوقت الآن نهار فى نصف الكرة الشرقى ، كان معنى هذا أن وراء هذا النهار ليل هو قائم فى النصف الغربىّ من الأرض، وأنه بحكم دورة الأرض حول نفسها من الغرب إلى الشرق ، سيأخذ كل من النهار والليل مكان صاحبه بعد نصف دورة كاملة من دورة الأرض .. فبين الشرق والغرب فرق زمنى هو مدة نهار كامل ، وهذا ما يمكن أن يُفهم عليه قوله تعالى : « لاَالشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابقُ النهار وكل فى فلك يسبحون » (٤٠ : يس) .. فالنهار يسبق الليل أبداً ، والعكس لاينبغى أن يكون ، لأن سلطان الشمس قائم على الأرض مسلط عليها ، أو بمعنى أصح على النصف المواجه للشمس منها دائماً . .

وقوله تعالى : « والشمسَ والقمَرَ والنجوم مسخراتٍ بأمره » معطوف على قوله سبحانه : « خلق السموات والأرض » أى وخلق الشمس والقمر والنجوم ، وهى كائنات مسخرات لأمره ، لا سلطان لها ، ولا فعل لها من ذاتها . . ومن هنا لاتصح عبادتها ، ولا ينبغى أن يتعلق مخلوق بمخلوق مثله ، وينشد الرزق منه . فقوله تعالى : « مسخراتٍ » حال من الشمس والقمر والنجوم .

وقوله سبحانه : « ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين » الخلق : خلق الكائنات جميعها ، العلوىّ منها والسفلىّ .. « والأمر » التدبير والتسخير وإجراء كل مخلوق على التقدير الذى قدّره الله له . .

فالمخلوقات جميعها صنعة الخالق ، وحركاتها وسكناتها كلها بتقدير الله ،

وبأمره .. « تبارك » أى علا وتقدس وتمجد وعظم .. « الله رب العالمين » .. هذا لسان حال الوجود كله ، يسبح بحمد الله ، ويمجده ويقدسه ويعظمه .

قوله سبحانه « ادعوا ربكم تضرعاً وخُفية إنه لايحب المعتدين » أى إذا كان هذا الوجود كله هو صنعة الله ، وكل حركة وسكون فيه هى بتقدير الله وبتدبيره وأمره ، فإنه ينبغى ألا يكون لمخلوق متوجه إلا إلى الله وحده ؛ إليه تتجه لوجوه ، وله ترفع الأكف وتبسط لأيدى .. « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية » أى ادعوه فى تذلل وخضوع ، وفى همس وخفوت ، فهذا أجمع للجوارح ، وأدعى إلى سكن النفس وطمأنينة القلب ، وليس كذلك .. الصراخُ والهتاف ، حيث تتوزع المشاعر ، وتتفرق الجوارح ، ويدخل على الإنسان شعور ببعد الله عنه ، وبأنه يملأ هذا الفراغ الذى بينه وبين الله ، بهذا الهتاف والصراخ .

وقوله تعالى : « إنه لايحب المعتدين » الاعتداء هنا هو الالتفات إلى غير الله ، والتجأ إلى وجه غير وجهه .. فذلك عدوان على الله ، ومالهمن حق على العباد فى الولاء له ، والطلب منه . .

قوله تعالى : « ولاتفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها » .. الإفساد فى الأرض هو اتخاذ الطرق المعوجة فيها ، بعد أن أقامها الله على السلامة والفطرة . . فمن الإفساد العظيم فى الأرض ، الشرك بالله ، أو الكفر به ، أو الانحراف عن شرائعه .. والله سبحانه وتعالى يقول : « ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً » .

قوله سبحانه : « وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين » أى إذا انتهيتم عما نهاكم الله عنه ، وهو الإفساد فى الأرض ، فوجهوا وجوهكم إلى الله ، وادعوه وأنتم على إشفاق وطمع .. إشفاق من عذابه ، وطمع فى مغفرته .. هكذا هو شأن المؤمنين بالله .. حالهم أبداً معه على خوف منه ، ورجاء فيه .. فالخوف

يدفع الإنسان إلى العمل والاجتهاد فى الطاعات .. والرجاء يشدّ عزمه ، ويقوّى يقينه ، ويثبت خطوه ..

يقول بعض الصالحين : « لو أنزل الله كتاباً بأنه معذب رجلاً واحداً لخفت أن أكونه ، أو أنه راحم رجلاً واحدًا لرجوت أن أكونه » .. وهذا أعدل موقف يقفه الإنسان ، بين خوفِه من ربّه وطمعه فى رحمته .

قوله تعالى : « وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كلّ الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » .

فى الآية الكريمة عرض لمظهر من مظاهر قدرة الله ، وما تحمل هذه القدرة إلى الناس من رحمة ..

فهذه الرياح ، يرسلها الله رسلَ رحمة إلى الناس ، حيث تحمل السحابَ مثقلا بالماء ، فتسوقه إلى الأرض الجديب والبلد الميت ، ثم تُنزل ما حملت من ماء ، فتسيل به الوديان ، وتجرى منه العيون ، وإذا هذا الجدب ، وذلك الموات ، حياة تدبّ فى أوصال الكائنات ، من جماد ، ونبات ، وحيوان ..

تلك بعض مظاهر القدرة .. القادرة تُلبس الجمادَ ثوبَ الحياة ، وتخرج من الأرض الجديب زروعاً ناضرة ، وثماراً دانية القطوف ، مختلفة الطعوم ..

فهل تعجز هذه القدرة عن إحياء الموتى ، ونشر الهامدين من القبور ؟ ذلك ما لا يقول به عاقل إذا نظر نظرة هناك ، ثم نظر نظرة هنا : « كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » .. ولكن أين من يعقل ويتذكر ؟ .

قوله تعالى : « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خَبُثَ لا يخرج إلا نَكِداً » .. وهكذا الناس ، يصوبهم الغيث الإلهى من آياته وكلماته بين يدى الرسل ، فيكون منهم ما يكون من الأرض الجديب يصوبها المطر ، فبعضها طيب كريم ، يقبل

الماء ويتفاعل معه ، فيخرج الثمر الطيب ، والعطر الزكىّ ، وبعضها لا يخرج شيئاً ، أو ينبت الحسك والشوك والمرار !.

والنكد : السىء الردىء ، الذى يتأذى الناس منه ، طعماً أو ريحاً ..

الآيات : (٥٩ — ٦٤)

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ » (٦٤)

التفسير : بعد هذا العرض الذى تتجلى فيه قدرة الله وسلطانه المتمكن فى هذا الوجود ، ورحمته المبثوثة فى كل أفق — بعد هذا جاءت آيات الله لتحدّث عن مشاهدَ من الكفر والضلال والمكر، بآيات الله ، ولتقيم منها عبرة وعظة لهؤلاء المشركين الذين كذبوا رسول الله وبهتوه ، وأخذوه ومن آمن معه بالبأساء والضراء .. وفى هذا عزاء للنبىّ وللمؤمنين معه ، ووعيد للمشركين والضالين أن يحلّ بهم ما حلّ بأقوام سالفين ، كذبوا رسل الله ، ومدّوا إليهم ألسنتهم وأيديهم بالضر والأذى ..

فهذا نوحٌ — عليه السلام — يدعو قومه إلى الله ، ويحذرهم من عذاب

يوم عظيم ، إذا هم لم يستجيبوا له ، ويستقيموا على الطريق الذى يدعوهم بآيات الله إليه ..

والقوم فى عمًى وضلال .. يلقَوْن هذا الدّاعى الكريم بالتكذيب والسفه: « إنا لنراك فى ضلالٍ مبين » . أهكذا يُجزَى المحسنون على ما يقدمون من إحسان ؟ ذلك ظلم مبين ، وعدوان آثم على البر والإحسان . . !

والرسول الكريم حريص على سلامة قومه، ضنين بهم أن تغتالهم الضلالة ويفتك بهم الكفر، فيلَاقِى سوءهم بإحسان ، ويدفع الشر بالخير : « يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربىّ وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون . » ولا تبلغ كلمات الرسول منهم أذناً واعية ، ولا تصادف قلباً متفتحاً للخير . إنهم يحسدون نوحاً أن يكون الرجلَ الذى يتولى مكان القيادة والتوجيه ، ولو كانت قيادته لهم ستفتح عليهم كنوز الأرض ، وأبواب السماء .. « أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون » فذلك هو الداء المتمكن فيهم ، والذى يعزلهم عن نوح ،ويقطع بينهم وبينه الطريق إلى اللقاء ، ويسد بينهم وبينه منافذ التفاهم والفهم . « فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمينَ ».. فهذا هو الجزاء العادل ، لمن انقاد لهواه ، وأبى أن يفتح عينيه على هذا النور الذى يملأ الآفاق من حوله .. إن تلك هى جنايته على نفسه ، وذلك هو مصيره الذى اختاره وارتضاه . .

والملأ : الجماعة من الرجال خاصة .

و « عمين » جمع عمٍ ، وهو الأعمى ، يقال : عَمِى عمًى فهو أعمى ، وعَمٍ .. وأصل « عم » عَامٍ ، صيغة مبالغة من اسم الفاعل ، مثل : حاذر وحذِر ، وهذا يعنى أن العمى الذى عليه القوم ، ليس عمى طبيعياً ، وإنما هو تعامٍ عن

الحق ، ومبالغة فى هذا التعامى .. فهو عمى البصيرة ، وليس عمى البصر .

الآيات : (٦٥ — ٧٢)

« وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ » (٧٢)

التفسير : وهذا رسول آخر من رسل الله الكرام ، هو « هودٌ » عليه السلام ، يجىء بعد نوح إلى قومه « عاد » فيدعوهم دعوةَ نوح إلى الله ، ويلقى منهم مالقى نوح من قومه من تكذيب وتسفيه، ولكنه يمضى معهم ـ كما مضى نوح مع قومه ـ ناصحاً ، متلطفاً ، يلقى السيئة بالحسنة ، والشر بالخير ، وهم ـ مع هذا ـ لايزدادون إلا عناداً وإصراراً على ماهم فيه من عمى وضلال .. وتجىء الخاتمة التى لاتختلف أبداً .. نجاة المؤمنين، وهلاك المكذبين المعاندين ..

« سنة الله فى الذين خلَوْا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » (٦٢ : الأحزاب)

والسفاهة . خفة الحلم والطيش .

والبسطة فى الخلْق : الزيادة فى بناء الجسد ، وقوته . ذلك نعمة من نعم الله ، إذا صادفت عقلا راشداً ، وقلباً سليما ..

والآلاء : النعم ، وهى جمع : إلًى ، على وزن مِعًى ، وألًى على وزن قفاً ..

والرجس : القَذَر والنجس ..

ووقع عليهم : أى حلّ بهم ، وأصابهم .

والدابر : ظهر الشىء وخلفه . . ودابر القوم : آخرهم .. والمراد أنهم أُخذوا عن آخرهم ، فلم تبق منهم باقية .

والقطع : الاستئصال من الجذر . .

وفى قوله تعالى : « وما كانوا مؤمنين » إشارة إلى أنهم لن يكونوا أبداً من المؤمنين ، ولو جاءتهم كل آية .. حتى يروا العذاب الأليم .

الآيات : (٧٣ — ٧٩)

« وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ

أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ من رَبِّهِ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا بِالَّذِىٓ آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ » (٧٩)

التفسير : وبعد « هود » جاء « صالح » إلى قومه « ثمود » .

وتتكرر الأحداث ، ويشهد صالح ما شهد النبيان الكريمان من قبله ، نوح ، وهود .. من البهت والتكذيب ، والإصرار على الضلال والكفر .. وتجيء الخاتمة المنتظرة .. غضب الله وعذابه للقوم المجرمين ، ورحمته وإحسانه للرسول ولمن اتبعه من المؤمنين ..

والدعوة التي يحملها الأنبياء إلى أقوامهم دائماً ، هي الإيمان بالله ، والانخلاع عن عبادة الأوثان والأصنام : « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » . تلك هي رأس دعوتهم .

ويجيء صالح إلى قومه بآية محسوسة يضعها بين أيديهم : « هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم » .

والناقة التي جاءهم بها صالح ـ عليه السلام ـ هي البينة ، وهي الآية ، التي تشهد له بأنه رسول الله ، وقد اختلف في أوصاف هذه الناقة ، وفي الوجه الذي جاءت منه ، فقيل إنهم اقترحوا عليه ناقة تخرج من صخرة أشاروا له إليها ، فخرجت منها الناقة . وقيل إنها كانت على شيء عظيم من بسطة الجسم ، حتى لقد كانت تشرب الماء الذي كان يشربه القوم كلهم في يوم .. وقد حملوا هذا

المعنى على قوله تعالى : « هذه ناقة لها شِربٌ ولكم شِربُ يومٍ معلوم » . (١٥٥ : الشعراء) .

وليست العبرة فى خَلْق الناقة ، ولا فى أوصافها التى كانت عليها ، وإنما العبرة فيما ابتُلُوا به منها . . إنها ناقة الله . . وربما لا يكون فيها شىء يختلف عن جنسها من النياق ، ولكن هكذا أضافها الله إليه تكريماً وتشريفاً ، لتكون مَعْلماً من معالم الحق ، له احترامه ، وتوقيره . . والبلوى فيها هو ألا يمسوها بسوء . . فإن هم مسوها بسوء أخذهم العذاب . . وهذا هو وجه التحدى من تلك الآية ، وتلك هى المعجزة المتحدية منها .

ولم يصبر القوم على هذا البلاء ، ولم يَدَعوا الناقة تأكل فى أرض الله كما تأكل جميع النياق ، ولكنهم تحدوْا هذه المعجزة ، واستعجلوا العذاب الذى يأتيهم من جهتها ، فعقروها . وقد أغراهم على ذلك ما أغرى أباهم آدم بالأكل من الشجرة التى نُهى عن أكلها . . وإنه لو لم يُنْه عنها فلربما لم يلتفت إليها ولم يأكل منها . . وكذلك هم ، كان نهيهم عن ترك الناقة تأكل فى أرض الله إلفاتاً لهم إليها ، وابتلاء لهم بعدم الامتثال لما أمروا به فى شأنها . . « فعقروا الناقة وعتوْا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين * فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين » أى مقلوبين على وجوههم ، كما يجثم الطائر على الأرض . والرجفة التى أخذتهم هى الزلزلة . . وقد وصفت بالطاغية فى قوله تعالى : « وأمّا ثمود فأهلكوا بالطاغية » (٥ : الحاقة) ووصفت بالصيحة فى قوله تعالى : « وأخذ الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » (٦٨ : هود)

وفى قوله تعالى : « قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استُضْعِفُوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسلٌ من ربه » إشارة إلى أن صالحا كان ذا جاهٍ فى قومه ، وأن سفهاءهم لم يواجهوه مواجهة بالتجريح والتكذيب ، بل

كان ذلك منهم للذين آمنوا من مستضعفيهم .. وإلى هذا يشير قوله تعالى : « قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجُوّا قبل هذا » (٦٢ : هود) فهو قد كان فى مكانة ظاهرة فى قومه ، وفى منزلة عالية من الاحترام والتقدير .. فلما جاءهم يدعوهم إلى الله ، تغيّرت نظرتهم إليه ، وساءت حاله عندهم .. وذلك لسابق ما أراد الله لهم من فتنة !

وفى قوله تعالى : « فتولّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربّى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » — وذلك بعد أن أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين — فى هذا ما يكشف عما كان فى نفس صالح من أسى وحسرة على هلاك قومه ، وأن عزاءه عند نفسه أنه أبلغهم رسالة ربه ونصح لهم ولكنهم لم ينتصحوا .. فأخذهم الله بذنبهم : « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

وفى التعبير بلفظ التولّى الذى يدل على الإعراض — إشارة إلى أنه أعطاهم ظهره ، غير آسف عليهم ، بعد أن عزّى نفسه هذا العزاء .. ثم مضى فى طريقه مع من آمن به ، وترك هؤلاء جُثوماً هامدين .

الآيات : (٨٠ — ٨٤)

« وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ » (٨٤)

التفسير : وهذا لوط وقومه .. ولكل قوم داؤهم الذى جاء الرسول ليطب لهم منه . . وداء هؤلاء القوم هو أنهم يأتون الرجال شهوة من دون النساء ، وقد كانوا فى هذا الفعل المنكر أولَ أناس فعلوه . . فهم أئمة فى هذا الضلال ، عليهم وزر هذا الإثم ووزر من عمل به إلى يوم القيامة !

والقوم — شأنهم شأن كل معتد أثيم — يستمرئون هذا الضلال ، ويقيمون له منطقا يقع من نفوسهم موقع اليقين والاطمئنان ، وبهذا عدُّوا أنفسهم أصحاب دعوة راشدة ، ودعاة فلسفة حكيمة ، وأن لوطاً ومن معه قوم منحرفون ، متجمدون على القديم ، لا يتحولون عنه . . ومن هنا سوّل لهم منطقهم هذا أن يؤْذنوا لوطاً ورهطه بالخروج من بينهم : « وما كان جوابَ قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنَّهم أناسٌ يتطهرون » .

وتجىء الخاتمة ، كخاتمة كل صراع بين حق وباطل ، وهدًى وضلال .. « فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين » أى كانت من هؤلاء القوم الذين هلكوا ومضوا . . فالغابر ، هو الماضى ، إذ كان من شأنه أن تعلوه الغَبَرة بفعل الزمن .. وقد أصبح هؤلاء القوم فى حكم الغابرين ، إذ قضى الله بإهلاكهم وليس لقضائه من مردّ .

وهذا لوط وأهله إلا امرأته قد نجوْا ، وسلموا من هذا البلاء .

وأما قومه فقد أُمطروا مطر السَّوْء . . مطرًا من نوع لم يعرفه أحد . . ولهذا جاء النظم القرآنى : « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا » . . هكذا مطرًا منكرًا على غير مألوف الحياة . . إنه حجارة من سجيل ، قَلَبت المدينة وما فيها ظهراً لبطن ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى فى سورة هود : « فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُود * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ » فهو ، مطر ولكنه من حجارة ، وهى حجارة ولكنها

من سِجِّيل (أى من صوّان) وهى سجّيل ولكنها منضودة (أى مهيّأة ومعدّة لهم ، فى أحجام منتظمة) وهى منضودة، ولكنها مُسَوَّمَة (أى مُعْلَّمَة ، يعرف كل حجر منها المكان الذى يقع عليه والأثر الذى يحدثه) .

وقوله تعالى : « فانظر كيف كان عاقبة المجرمين » دعوة إلى النظر المتأمل المتفحص ، الذى يأخذ العبرة من الأحداث . . في هذا الذى حدث لقوم لوط عبرة وعظة .

الآيات : (٨٥ — ٨٧)

« وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » (٨٧)

التفسير : وهؤلاء قوم شعيب ، وداؤهم أنهم يختانون فى الكيل والميزان ، فإذا كالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرون .

وقد جاء شعيب يدعو قومه دعوة الحق ، ويقيمهم على طريق العدل فيما بينهم . وها هو ذا يقول لهم : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره »

فمن آمن بالله كان من شأنه ألا يظلم ، ولا يعتدى ، « قد جاءتكم بينةٌ من ربكم » . . والبينة هى الآية والمعجزة المتحدية ، ولم يذكر القرآن الكريم نوع هذه المعجزة ، ولكن الذى ينبغى التصديق به أنه كان بين يديه معجزة ما ، تحدّى بها القوم ، وأراهم قدرة الله منها . . « فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم » والبخس هو الغمط ، والنقص ، والخيانة . . « ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين » أى إن كنتم مؤمنين بالله ، ومؤمنين بالحق والعدل الذى يدعو إليه الإيمان . .

« ولا تقعدوا بكلِّ صراطٍ تُوعِدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به » والقعود بكل صراط : هو التصدى لمن يريدون الحق ، ويطلبون الهدى ، والإيعاد : الوعيد بالشرّ والتهديد به .

« وتبغونها عوجاً » أى تريدون أن تكون هذه السبيل ــ سبيل الله ــ معوجّة ، أى ينحرف الناس عنها إلى سبيل الضلال والغىّ . . فهكذا أهل السوء والضلال ، يحرصون دائماً على أن يكون الناس جميعاً على ما كانتهم ، حتى لا يظهر سوؤهم ، ولا ينكشف ضلالهم . . وهكذا الشرّ دائماً موكّل بالخير ، يريد أن يشوّه معالمه ، ويفسد طبيعته ، ليتوازى معه على كفتى ميزان . ولكن الله بالغ أمره . . فما كان قائماً على الشرّ والفساد ، مستنبتاً فى منابت الضلال ، فلا بقاء له ، وما كان قائماً على الحق والخير ، مغروسًا فى مغارس الهدى والنور ، فهو شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كلّ حين بإذن ربّها . . « كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزّبد فيذهب جُفَاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض . . كذلك يضرب الله الأمثال » .

عبد الكريم الخطيب

التفسير القرآني للقرآن

الكتاب الخامس

الجزءان : التاسع والعاشر

من مباحث هذا الكتاب :

- رسالة الإسلام ، ونسخها للرسالات السابقة .
- الحرب والسلام .. في الإسلام .
- المسلم .. وكم حسابه في ميدان القتال ؟
- الإسلام .. دين المستقبل .
- التكافل الاجتماعي .. في الإسلام .

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

الآيات : (٨٨ — ٩٣)

* «قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَنْ يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ ٱلْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ » (٩٣)

التفسير : بلّغ شعيب قومه رسالة ربّه ، ونصحَ لهم ، واستقبل إساءاتهم بالحسنى ، وسفاهاتهم بالصفح والمغفرة ـ هكذا الأنبياء والمرسلون ، ينظرون إلى مَن أرسلوا إليهم نظرة الطبيب الحكيم إلى مريض ، استبدّ به مرضه ، فأفقده صوابَه أو أفسد تفكيره . . وإن مهمة الرسل لهي أشقُّ من هذا ، وأكثر حاجةً إلى الرفق والملاطفة ، وإلى الحكمة والكياسة فى اتصالهم بأقوامهم ، وفى تألّفهم واستئناسهم ، حتى يسمعوا لهم ، ويَقْبَلوا منهم ، إن كان فيهم بقيّة من خير ، أو إثارة من عقل . . وفى هذا يقول الله تعالى لنبيّه

الكريم : « ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (١٢٥ : النحل) .

وهاهم أولاء سادة القوم ، وأصحاب الكلمة فيهم ، والسلطان عليهم ، يتصدّون لشعيب ، ويقفون لدعوته بالمرصاد ، إذ كانت هذه الدعوة تُنزلهم من النّاس منزلة الآدميين ، لا الآلهة المتسلطين ، وتَغُلّ أيديهم عن هذا الكسب الحرام الذى يغتالون به حقوق الضعفاء ، ويمتصون به دماء الفقراء . .

وإنه لو قُدِّر لشعيب أن يمضى بدعوته إلى غايتها ، لسدّ على هؤلاء السّادة منافذ البغى والعدوان ، ولما بقى لهم فى الناس هذا السلطان المبسوط لهم على رقاب العباد .

ولا يكتفى هؤلاء السادة أن يُعرِضوا عن شعيب وعن دعوته ، بل إنهم يجاوزون هذا إلى تهديده ووعيده بأن يخرجوه من بينهم ، هو ومن آمن معه ، إن لم يرجع عمّا هو فيه ، وإن لم يَعُدْ إلى حاله الأولى قبل أن يَطْلُع عليهم بتلك الدعوة التى يدعوهم إليها . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى :

* « قال الملأُ الذين استكبروا من قومه لنخرجنّك ياشعيبُ والذين آمنوا معك من قَرْيتنا أو لتعودُنَّ فى ملّتِنا » . .

إنها لقريتهم ! هكذا يقولونها صريحةً فى غير مواربة .. « قريتنا » بحالها التى هى عليها ، وبكل ما كان يموج فيها من ظلم وفساد . . أما شعيب والذين آمنوا معه ، فهم شىء غريب، دخل على هذا الكيان الفاسد ، وهم دواء مرٌّ يأبى أن يقبله هذا الجسد العليل . .

وينكر شعيب على هؤلاء السفهاء من قومه أن يَدْعوه إلى تلك الدعوة المنكرة . . إنه يدعوهم إلى الحق والخير ، وهم يدعونه إلى الضلال والهلاك ،

وشتّان بين دعوته ودعوتهم . . وإنه إذا لم تكن منهم استجابة له ، فلا أقلّ من أن يَدَعوه وشأنَه ، وأن يَدَعوا النّاس وما يختارون لأنفسهم من موقف إزاء دعوته ودعوتهم ، وألا يَحُولوا بينه وبين من يستجيب له منهم ، وألا يتسلطوا على الذين آمنوا معه ، ويحملوهم على السير معهم فى هذا الطريق الذى ارتضوه ، وأبوْا أن يتحولوا عنه . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى على لسان شعيب : « أوَلَوْ كنّا كارهين ؟ » أى أيكون هذا موقفكم منّا ، ووعيدكم لنا بالإخراج من القرية ، إن كنا مصرّين على موقفنا ، متمسّكين بعقيدتنا ، كارهين لما تدعوننا إليه من العودة إلى ملّتكم ؟ إنّ الدِّين لا يكون عن إكراه ، وإن العقيدة لاتقوم على التسلط والقهر .. فكيف تُكرهوننا إكراهاً على دين لم نقبله ، وعلى عقيدة لم نرضها ؟ إنّه لا إكراه فى الدين ، وإننا لن نُكرهكم على ما ندعوكم إليه ، فكيف تكرهوننا على ماتدعوننا إليه ؟ ثم تهددوننا بالطرد من قريتنا إن لم نستجب لكم ؟ ذلك ظلم مبين ، وعدوان آثم .

« قد افترينا على الله كذِباً إن عُدْنا فى ملتكم بعد إذ نجّانا الله منها ».. أى إننا وقد عرفنا الحق ، وآمنا به عن فهم واقتناع ، فإن الحيْدة ــ بعد هذا ــ عن طريق الحق ، هى افتراء على الله ، وكذب صُرَاح فى وجْه تلك الحقيقة المشرقة . .

* « وما يكونُ لنا أن نعودَ فيها إلاّ أن يشاء الله ربنا » .

إذ كيف يقبل عاقل أن يَرِدَ موارد الهلاك بعد أن خَلَص منها ، وسلك مسالك النجاة؟

* « وسع ربّنا كل شىء علماً» .

إنّنا لن نعود أبداً إلى ملتكم بعد أن نجانا الله منها ، إلاّ أن يكون ذلك عن مشيئة سابقة لله فينا ، وعن قَدَر قدّره علينا ، فذلك من شأن الله وحده ،

هو الذى يملك من أنفسنا مالا نملك ، فإذا كان الله قد شاء لنا أن نعود القهقرى إليكم ، و نُرَدّ على أعقابنا معكم ، فنحن مستسلمون لأمر الله ، راضون بحكمه ، أما نحن فى ذات أنفسنا ، فعلى عزم صادق ألاّ نعود فى ملتكم أبداً ، إلا أن ينحلّ هذا العزم بيد الله ، لأمرٍ أراده الله ، وقضاء قضى به . . « وسع ربّنا كل شىء علماً » . . فهو ـ سبحانه ـ وحده الذى يعلم مصائر الأمور ، ولا يدرى أحد قَدَره المقدور له ، ولا مصيره الذى هو صائر إليه ، فذلك علمه عند علام الغيوب . . أما نحن فطالبون بأن نستقيم على الحق ، وأن نفوّض الأمر لمالك الأمر . . « على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خيرُ الفاتحين » . . والفتح هو الحكم ، وتلك قضية بين شعيب وقومه ، هو يدعوهم إلى الهدى ، وهم يدْعونه إلى الضلال ، وهو يلقاهم بالحسنى ، وهم يتهدّدونه بالبغى والعدوان ، والله سبحانه وتعالى هو الذى يحكم بين الفريقين ، ويُدين من هو أهل للإدانة ، ويأخذه بما يستحق من عقاب . .

وقول شعيب : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحقّ » ـ مع أن فتح الله أو حكمه لا يكون إلا بالحق ـ هو تقرير للواقع ، وإشعار للخصوم بأنهم لا يؤخذون بغير الحق ، وأنهم وشعيب على سواء بين يدىْ من يفصل بينه وبينهم فيما هم مختلفون فيه .

ومع هذا الموقف العادل الذى يقفه شعيب من قومه ، وفى موقفه معهم فى ساحة القضاء الذى يقول كلمة الحق بينه وبينهم ـ فإنهم لم يقبلوا هذا منه ، ولم ينتظروا ماينجلى عنه هذا الموقف ، بل جعلوا إلى أنفسهم أمر القضاء فى هذا الخلاف ، وأعطوا لأنفسهم كلمة الفصل فيه ، وأنهم هم وحدهم أصحاب الحق . . فأدانوا شعيباً ، وحكموا عليه بالخروج من القرية هو ومن آمن معه ، واستعجلوا إنفاذ هذا الحكم فيه وفيهم . .

* « وقال الملأُ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنّكم إذاً لخاسرون » .

هذا هو محتوى الحكم الذى حكموا به . من اتبع شعيباً فهو من الخاسرين ، لأن شعيباً على باطل ، وهم على حق ، وإذن فلن يخلُص من أيديهم إلا بأن يخرج من القرية ، ويمضى حيث يشاء . . هكذا قدّروا ، وهكذا حكموا .

وما أن همّوا بإنفاذ هذا الحكم ، حتى جاء الحكم الذى لا يردّ ، الحكم الذى حكم به أحكم الحاكمين . .

* « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » .

إنه الحكم الذى أُدِين به مِن قبلُ أشباهٌ لهم ، كذبوا رسول الله ، وعقروا ناقة الله . . إنهم قوم « صالح » ، الذين أخذتهم الرجفة من قبلهم فأصبحوا فى دارهم جاثمين . . والرجفة هى الاضطراب والزلزلة . . فلقد زلزلت بهم الأرض ، ودمدم عليهم ربهم بذنبهم ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، أى جثثا هامدة ، لا حراك بها . .

* « الذين كذّبوا شعيباً كأن لم يَغْنَوْا فيها الذين كذّبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين »

تلك هى عاقبة المكذبين . . لقد أقفرت منهم الديار ، حتى كأنهم لم يكونوا من عُمّارها يوما .

يقال : غَنِى بالمكان ، أى أقام فيه ، وسكن إليه ، بما اجتمع له من وسائل تغنيه عن التحول عنه . .

ويتلفّت شعيب إلى ما حلّ بقومه ، وما صار إليه أمرهم بعد أن أصبحوا جثثا هامدة وأشلاء مبعثرة ، فيأسى عليهم ، ويحزن لهم ، ولكن سرْعان ما يدفع عنه مشاعر الأسى والحزن ، حين يراجع حسابه مع قومه ، وما كان منه ومنهم ، فيجد أنهم ليسوا أهلاً لدمعة رثاء تدمعها عينه عليهم . .

* « ياقوم .. لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين » ؟.

إنه ليس أرحم من الله بهم ، ولقد أرسل الله إليهم غيوث رحمته على يد رسول كريم ، فأبوا أن يقبلوها ، وتهددوا من حملها إليهم ، وآذنوه ومن آمن معه بالطرد من القرية ، فكان ما أخذهم الله به ، هو الجزاء العادل الرحيم . .

الآيات : (٩٤ — ٩٩)

« وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّآءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » (٩٩)

التفسير : بعد أن عرضت الآيات السابقة بعضاً من قصص الأنبياء مع أقوامهم ، وما كان من هؤلاء الأقوام من كفر وضلال ، ومن تطاول على رسول الله ، وتحدٍّ وقَاحٍ لهم ، ثم ما أخذالله به هؤلاء الأقوام من نكال وبلاء فى الدنيا ، وما أعدّ لهم من عذاب شديد فى الآخرة ـ بعد هذا جاءت آيات الكتاب لتقرر هذا الحكم العام ، الذى يُجريه الله على الظالمين ، الذين يقفون

فى وجه الحقّ ويتصدّوْن لدعاة الخير ، وهذا الحكم هو الخذلان للظالمين ، والتنكيل بهم ، حيث لا يردّ عنهم بأسَ الله مالهم من جاه و سلطان ، ومابين أيديهم من بأس وقوة .

* « وما أرسلنا فى قريةٍ من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضرّاء لعلّهم يضّرعون » .

فتلك هى سنة الله فى الأمم الخالية ، قبل بعثة النبى «محمد» خاتم الأنبياء ، عليه وعليهم الصّلاة والسلام .

فما كان يُبعث نبىٌّ إلى قرية من القرى ، أو جماعة من الجماعات إلا كذّبوه ، وبَغوْا عليه ، وأنكروا مقامه فيهم ، وهمّوا بإخراجه من بينهم ، أو قتله ، إن هو ظَلّ على موقفه منهم .. وهنا تجىء الخاتمة ، ويقع بهم ما أنذروا به من قبل إن هم أبوْا إلا كفراً ، وإلا عناداً وإصراراً على الكفر ، وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى يصبح القوم أثراً بعد عيْن ، « فدمدم عليهم ربّهم بذنبهم فسوّاها ولا يخاف عقباها » وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « كذبت قبلَهم قوم نوح والأحزابُ من بعدهم وهمّت كلُّ أمةٍ برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليُدْحِضوا بِهِ الحقّ فأخذتُهم فكيف كان عقابِ » (٥ : غافر)

وقوله تعالى : « لعلّهم يضّرّعون » تعليل لهذا العقاب الذى أخذهم الله به ، من بأساء وضراء .. والبأساء مايقع على الأموال من ضرّ ، والضراء مايصيب النفوس من بلاء .. والتضرّع : الخضوع ، والتذلل والاستسلام .

والسؤال هنا : كيف يتضرّعون ، وقد أصبحوا فى الهالكين ، بهذا الأخذ المستأصل الذى أخذهم الله به ؟

والجواب : أن هؤلاء الذين هلكوا ، هم عبرة ومَثلٌ لمن بعدهم .. والتضرّع

واللَّجأ إلى الله إنما هو ممن يجىء بَعْدَهم ويخلفهم من ذريتهم .. إذ أن هلاك الهالكين وإن كان عامًّا شاملاً ، إلا أن هناك بقية باقية ، من حواشي القوم ، المنتشرين هنا وهناك بعيداً عن المجتمع ، كما أن هناك أعداداً قليلة من المؤمنين ، الذين نجاهم الله من هذا البلاء .. فهؤلاء وهؤلاء هم البقية الباقية من القوم ، وهم الذين ينبت منهم وينمو ، هذا الجيلُ الذى يَخْلُفُهم .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى :

* « ثم بدَّلنا مكان السيئة الحسنةَ حتّى عَفَوْا وقالوا قد مسّ آباءنا الضرّاء والسّراء » .. أى أن الله سبحانه وتعالى قد رفع هذا البلاء الذى نزل بالسّلف ، وجعل مكانه نعمةً وعافية تلبس الخلَف ، ليكون فى نعمْة الله عليهم ، حجة بين يدى الرسول الذى يجيئهم ليدعوهم إلى الله ، وليُلفتهم إلى فضله عليهم كما قال هود لقومه ، وهو يدعوهم إلى الله : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون » وكما قال صالح لقومه : « واذكروا إذ جعلكم خلفآء من بعد عادٍ وبَوَّأَكُمْ فى الأرض تتخذون من سُهولِها قصورًا وتنحتون الجبال بيوتًا فاذكروا آلاء اللهِ ولا تعثَوْا فى الأرض مفسدين » ..

فهذه النعم التى يلبسها الخلف ، بعد النقم التى حلّت بالسلف ، هى حجّة بين يدى الرسول ، يذكّر بها قومَه ، ليذكروا ما كان للهِ عليهم من فضل ، وأنه لم يأخذهم بما جنى آباؤهم . .

وقوله تعالى : « حتّى عَفَوْا وقالوا قدْ مسّ آباءنا الضرّاء والسّراء » إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى قد أمهل هذه البقية الباقية من القوم الهالكين ـ أمهلهم حتى « عَفَوْا » أى نَمَوْا ، وكثروا ، ومستهم العافية .. فالعفو أصله من العافية ، التى يتبعها النماء والزيادة ، كما جاء فى قوله تعالى : « ويسألونك ماذا

ينفقون قل العفوَ » ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « احفُوا الشواربَ واعفُوا اللِّحَى » أى قصّروا الشوارب ، وأطيلوا اللّحَى ، أى اتركوها حتى تنمو أصولُ الشعر ، وتطول .

وفى قوله تعالى : « وقالوا قد مسّ آباءنا الضَّرّاء والسَّراء » إشارة إلى أنهم أدركوا ورَشَدوا ، وعرفوا ماحلّ بآبائهم من شر وخير .. وفى هذا إشارة أيضًا إلى أن الله قد أمهلهم حتى تتابعت أجيالهم ، وكثرت مواليدهم ، ونمت أموالهم ، وكان لهم بعد الآباء آباء .. وهذا هو السرّ فى تقديم الضَّراء على السّراء هنا .. فالضراء هى ما أصيب به القوم المالكون من آبائهم الأولين ، والسرّاء هى النعم التى أفاضها الله على آبائهم الأقربين .. فهم فى نظرتهم إلى الوراء يرون على مسيرة الماضى وجهين من وجوه الحياة ، تغايرا على موطنهم الذى هم فيه . . يرون آباء لهم كانوا فى نعمة من الله ، وعافية من البلاء ، فكفروا بأنعم ، وعصوا رسله ، فأخذهم الله بالبأساء والضرّاء ، وآباء خَلَفوا هؤلاء الآباء فألبسهم الله لباس النعمة والأمن ؛ ولم يبلُهم بعد حتى يعلم ماعندهم من إيمان أو كفر ..

وهؤلاء الآباء ، هم وأبناؤهم هؤلاء ، لم ينتفعوا بهذه المثُلات التى حلّت بآبائهم الأولين ، إذ حين ابتلاهم الله ، وبعث فيهم رسله ، كفروا بنعم الله ، ومكروا بها ، وأخذوا الطريق الذى أخذه أسلافهم مع رسل الله الذين بعثهم الله فيهم .

وهذه هى سنّة الله فيهم ، كما هى فى آبائهم .. الهلاك والدمار للقوم الظالمين .. وفى هذا يقول الله تعالى : « فأخذناهم بغتةً وهم لايشعرون .. »

وفى النظم القرآنى إعجازُ الحذف ، الذى دل عليه ماسبق . . والتقدير : « حتى (إذا) عفوْا وقالوا قد مسّ آباءنا الضَّراء والسراء » (أرسلنا إليهم رسولاً كما أرسلنا إلى آبائهم رسولاً ، فكذبوه ، وسخروا منه ، وتوعدوه) « فأخذناهم بغتةً وهم لايشعرون » .

وفى قوله تعالى : «وقالوا قد مسّ آباءنا الضّراء والسّراء » إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى أمهلهم حتى كانت لهم فُسحة من الوقت ينظرون فيها ، ويتأملون فيما بين أيديهم وما خلفهم ، ويرون ما حل بآبائهم ..

وقد بسطنا القول فى شرح هذه الآية ، إذ لم نر أحداً من المفسرين أقامها على وجه نرضاه ونطمئن إليه .

قوله تعالى :

* «ولو أن أهل القُرى آمنوا واتقوْا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض ولـكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » .

هو تعقيب على ماحل بالظالمين من بلاء ونـكال .. ثم هو وعيد المشركين من أهل مكة وما حولها من القرى . .

فهؤلاء الذين أُخذوا بظلمهم ، لو أنهم آمنوا بالله ، وصدقوا رسله ، واتقوا محارم الله ، وأقاموا شريعته ، لـكانوا فى عافية من أمرهم ، وفى سعة من رزقهم، ولفتح الله عليهم بركاتٍ من السماء التى رمتهم بالصواعق ، وبركات من الأرض التى زُلزلت بهم ، ورَجَفت ، وفغرت أفواهها لابتلاعهم .. أفلا يكون فى هؤلاء القوم عبرة لمعتبر ، وذكرى لمن يتذكر ؟ وماذا تنتظر أمّ القُرى ومن حولها ، وقد استغلظ فيها الشرك ، وعاث فيها المشركون ؟

والسؤال هنا : هل من مقتضى الإيمان والتقوى أن تُفتح على المؤمن التقىّ بركاتٌ من السماء والأرض ؟ أو بمعنى آخر : هل المؤمنون الأتقياء هم أكثر الناس رزقاً وأوفرهم مالا ؟ وكيف ؟ والمشاهد أن الذين يجتمع إلى أيديهم الغنى والجاه والسلطان ، هم الذين لايؤمنون بالله ، أو الذين يؤمنون به ولـكن لا يتقونه ولا يوقرون حرماته ؟

فما تأويل قوله تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض ..؟ »

والجواب : أن المؤمن بالله ، المتقى لحرماته ، هو أكثر الناس غنًى فى قلبه ، وقناعة فى نفسه ، ورضى بقَدَره .. فالقليل فى يد المؤمن التقىّ هو كثير مبارك فيه ، يسدّ حاجته ، ويجلّى عن نفسه هموم الدنيا ، ويقيمه على رضى دائم ، واطمئنان متصل ، وسلام مقيم مع نفسه ، ومع الناس ، ومع الوجود كله . .

وهذا هو السرّ فى وصف الرزق المنزل من السماء ، والنابت من الأرض ـ بالبركة . . فهو رزق محسوس بنفحات البركة التى تجعل القليل كثيراً ، ينمو على الإنفاق ، كما تنمو النبتة المباركة فى الأرض الطيبة .

فالمجتمع المؤمن التقىّ ، مجتمع مثالىّ فى حياته ، وما يرفّ عليها من أرواح السلام ، والأمن ، والاستقرار ، حيث لا ظلم ، ولا بغى ، ولا عدوان، وحيث الناس إخوان على طريق الله ، وعلى التناصح والتواصى بالحق والخير . .

فأى بركة أعظم من تلك البركة ؟ وأى حياة أطيب وأكرم من هذه الحياة ، التى يجتمع فيها الإنسان إلى الإنسان ، بقلب سليم ، ونفس مطمئنة ، لا يحمل لأحدٍ شراً ، ولا يتربص له أحد بسوء ؟

وفى هذا يقول الشاعر العربى :

لعمرك ماضاقت بلاد بأهلها ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

فحيث كان الإيمان والتُقى ، كان الإخاء ، والأمن والسلام ، والعافية ..

* قوله تعالى :

* « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون * أوَ أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الفاسقون » .

إنه نذير للمشركين من أهل مكة ومَن حولهم .. إنهم قد أشركوا بالله ، وبغوْا فى الأرض ، ولم يكن لهم نظر ينظرون به إلى ما حل بالبغاة الظالمين . . وها هو ذا رسول الله يدعوهم إلى الله ، ويمدّ يده إليهم بالهدى . . وهاهم أولاء يكذبونه ، ويسخرون منه ، ويأتمرون به . . فماذا ينتظرون غير سنّة الأولين ؟..

وفى هذا يقول الله تعالى عنهم : « وما ينظر هؤلاء إلا صيحةً واحدة ما لها من فَواقٍ » (١٥ : ص) .

وعلامَ يُعوّل هؤلاء القوم فى تماديهم فى الضلال ، واطمئنانهم إلى ما هم فيه ؟ أهناك من يدفع عنهم عذاب الله ، ويردّ عنهم بأسه ؟ ذلك ضلال إلى ضلال ، وعمًى بعد عمى ، وفتنة مع فتنة . .

وكيف يأمنون مكر الله ، ومعاجلتهم بالعذاب من حيث لم يحتسبوا ؟ « أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » . . وأى خسارة أكثر من أن يرى الإنسان نذر الشر والهلاك مقبلة إليه ، ثم يخدع نفسه ، ويخيّل إليها أن هذه النذر لن تتجه إليه، ولا تنال منه .. ثم يظل هكذا يرتوى من هذا السراب الخادع حتى تقع به الواقعة ، وينزل بساحته البلاء . . فلا يجد له مهربا . . ولو أنه تنبه لهذا الخطر المشير إليه ، وأخذ حِذره منه ، واتخذ له طريقاً غير هذا المؤدى به إلى مواقع الهلاك والتلف ـ لو أنه فعل ذلك فلربما سلم ونجا ، فإن لم يسلم ولم ينج ، كان قد أعذر لنفسه ، وأدّى المطلوب منه نحو ذاته . .

وفى توقيت العذاب الواقع بهؤلاء الظالمين من أهل القرى.. بالبيات ،وهو الليل ، وبالضحى ، وهو ضحوة النهار وشبابه ـ فى التوقيت بهذين الوقتين إشارة إلى أن بلاء الله ينزل فى أى وقت .. فى غفلة من الناس وهم نيام ، قد استولى عليهم النعاس ، ولفّهم الليل بردائه الأسود الكثيف .. أو فى ضحوة

النهار ـ عند الضحى ـ وقد اكتملت أسباب الحياة ، واليقظة للناس ، وللحياة من حولهم ، وعندئذ يشهدون الملاك عِياناً ، وهم فى أحسن أحوالهم من الاتصال بالحياة ، والأخذ بكل قوامٍ ، مما يطلبون ويشتهون منها . .

وكلا الضربتين من ضربات النقمة والبلاء ، تجىء فى وقت يجعل أثرها مضاعفاً ، ووقعها مزعجاً ، بالغ الغاية فى الإزعاج .

إن النائم الذى استغرق فى النعاس ، لتزعجه الهمسة تطوف به ، حتى ليخيل إليه منها أنها صوت رعد قاصف ، أو هدير إعصار ثائر .. فكيف إذا كان ذلك بلاءً نازلاً من السماء يرمى بحجارة من سجيل ، أو عذاباً فائراً من الأرض يرمى باللهب ، ويقذف بالحمم .

وإن الإنسان الذى لبس ثوب النهار ، واستروح أنسام الصباح ، واستحضر كل وجوده ليتصل بالحياة ، وليقيم وجهه على ما يشتهى منها ، ويمسك بكلتا يديه على ما يقدر عليه من لهوها وجِدّها ـ إن مثل هذا الإنسان لَيَكربُ أشدَّ الكرب أن يعرض له فى تلك الحال ما يقطع عليه حبل اتصاله بالحياة ، أو يُلفته عن طريقه الذى أخذه معها ـ فكيف إذا كان ذلك بلاءً مدمراً يهلك الحرث والنسل ، ويطوى السهل والوعر ، ويأتى على كل ما جمع الجامعون ، وملك المالكون ؟

واستمع مرة أخرى إلى قوله تعالى : « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون * أوَ أمِنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحًى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون » .

وانظر إلى أهل القرى ، وهم نائمون .. ثم انظر إليهم وقد جاءتهم الضربة القاضية ، فإذا هم بين يديها قيام ينظرون ، وكأنهم أصحاب القبور ، يوم ينفخ فى الصور فيقولون : ياويلنا.. من بعثنا من مرقدنا ؟

وانظر إلى أهل القرى ، وهم فى ضحوة النهار يلعبون .. ثم انظر إليهم وقد جاءهم أمر ربك على حين غفلة ، فقطع عليهم ماهم فيه من لهو ولعب، وقَلَب بين أيديهم مائدة الحياة وما عليها من أدوات اللعب واللهو !

وصدق الله العظيم : « وكذلك أخْذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد » (١٠٢ : هود) .

الآيات : (١٠٠ — ١٠٢)

« أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَنْ لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ » (١٠٢)

التفسير : هذه الآيات والآيات التى قبلها هى تعقيب على ما حلّ بالقوم الظالمين ، الذين عَصَوْا رسل الله ، واسترهبوهم بصور مختلفة من الوعيد .

وهذه التعقيبات هى مما يمكن أن يَرِدَ على الخواطر ، ويتردد على الألسنة ممن يمرُّ من عقلاء الناس بمصارع القوم الظالمين ، ويجوس خلال الديار التى عَمَروها، أو يُقَصّ عليه خبرها، وتُكشف له أنباؤها، ففيها العبرة ، وفيها العظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . .

وقوله تعالى :

* أو لَم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم

ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » .. إنه يكشف عن وجه من وجوه العظة والاعتبار . . فهؤلاء الذين سكنوا مساكن القوم الظالمين الذين هلكوا ، وورثوا أرضهم وديارهم وأموالهم . . ألم يهد لَهُمْ وينكشف لأبصارهم أو بصائرهم أن الله سبحانه وتعالى لو شاء لأخذهم بذنوبهم كما أخَذَ القوم الظالمين قبلَهم بذنوبهم ؟ ولساق إليهم نُذُر الدّمار والهلاك كما ساقها إلى الهالكين من قبلهم ؟ فما حجتهم على الله حتى يدفع عنهم هذا البلاء الذى هم جديرون بأن يُؤخذوا به ؟ وما وجه فضلهم على من أُهلكوا قبلَهم حتى لا يصيروا إلى مثل مصيرهم ، وقد فعلوا فعلهم ، وأخذوا طريقهم ؟

إنه لا حجةٍ لهم على الله ، ولا لفضل ظاهرٍ فيهم ، أن عافاهم الله من هذا البلاء ، وأن صرف عنهم عذابه ، ولكن لمقام رسول الله بينهم ، ولفضل الله على نبيه الكريم ألا يعذب قومه وهو فيهم ، كما وعده ربّه هذا الوعد الكريم: « وما كا الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان اللهُ معذبهم وهم يستغفرون » (٣٣ : الأنفال) وهذه خصيّصة لمحمد صلوات الله وسلامه عليه ، من بين رسل الله جميعاً ، ألاّ يرى عذاب السّماء ينزل على قومٍ هو منهم ، أو يصيب بلاداً هو فيها . .

وفى قوله تعالى : « ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » إشارة إلى أن العذاب الذى سيقع بهؤلاء الظالمين ليس عذاباً ظاهرا ، ينزل من السماء ، أو يخرج من الأرض ، ولكنه بلاء خفىّ ، يغشى قلوب الظالمين ، فيحجب عنها الهدى ، فلا تهتدى إليه ، ويصرف عنها الخير ، فلا تعرف له وجهاً ..

وفى النظم القرآنى حذف دلّ عليه المقام ، والتقدير : « أو لم يَهدِ للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم »(وأخذناهم بما أخذنا به القوم الظالمين قبلهم من بلاء ونكال ، ولكنا لا نفعل بهم هذا ، تكريماً للنبى الكريم ، « بل نطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » كلام الله ، ولا ينتفعون به)

وهذا عقاب خفىّ ، لايراه الرسول ، حتى لايحزن ولايأسى ..

وفى قوله تعالى : « فهم لايسمعون » إشارة إلى أن المعجزة التى بين يدى هؤلاء القوم ، والتى تكشف لهم الطريق إلى تصديق الرسول والإيمان بما جاء به ـ ليست معجزة منظورة تراها العين ، ولكنها معجزة مقروءة تسمعها الأذن ، ويعيها القلب .. وتلك المعجزة هى القرآن الكريم ، والمستمعون لها هم هؤلاء القوم المشركون ، ولكنهم لايسمعون السمع الذى ينفذ إلى القلب ، ويتصل بالعقل ..

قوله تعالى :

* « تلك القرى نقصّ عليها من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا من قبلُ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » .

القرى المشار إليها للنبىّ ، هى تلك القرى التى قصّ الله سبحانه وتعالى أخبارها من قبل ، وما حلّ بأهلها ، بعد أن كذّبوا الرُّسل ..

وهؤلاء مشركو أمّ القرى ومن حولها ، قد سمعوا ماقصّ الله من أنباء القرى التى أهلكها الله حين كذبوا رسل الله ، ، هاهم أولاء يكذبون النبىّ ويمثّلون معه الموقف نفسه الذى وقفه مَن سبقهم من أهل القرى التى أهلكها الله ـ هؤلاء المشركون وتلك حالهم ، هم بين أمرين :

إما أن ينتظروا البلاء الذى حلّ بمن سبقهم ، وإما أن يؤمنوا بالله ، ويستجيبوا للرسول .

أما البلاء ، فلن يقع بهم والنبىّ فيهم ..

وأما الإيمان ، فلن يؤمنوا ، لأن الله قد طبع على قلوبهم ..

وإذن فليس لهم إلا الخزى فى الدنيا ، وعذاب السعير فى الآخرة ..

والمراد بهؤلاء القوم هو رءوس الكفر ، من مشركى مكة ، الذين علم الله أنهم لن يؤمنوا ، كما يقول سبحانه وتعالى فيهم : « ومن أظلم ممن ذُكِّرَ بآياتِ ربّه فأعرض عَنْهَا ونَسِيَ ما قدّمت يَدَاه إنّا جعلنا عَلَى قلوبهم أَكِنّةً أن يفقهوه وفى آذانهم وقرًا وإن تَدْعُهُمْ إلى الهُدَىٰ فَلَن يهتدوا إذن أبدًا * وربُّك الغفور ذو الرحمَةِ لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجّل لهم العذاب بل لهم موعدٌ لن يجدوا من دونه موئلا . (٥٧ — ٥٨ : الكهف) .

فقوله تعالى : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا من قبلُ » مرادٌ به هؤلاء العُتاة من رءوس المشركين من قريش . . إنهم لا يؤمنون أبداً بهذا الرسول الذى كذّبوا به ، وبما أُنزل إليه من آيات ربّه ، فما ينزل من آيات الله بعد هذا، وما يساق إليهم فيها من عِبر وعظات فى قصص الأولين ـ كل هذا لن يزيدهم إلا نفورًا . . « كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » ذلك الطبع الذى لا ينفذ منه إلى القلب لمعة من نور الحق أبدًا .

وقوله تعالى : «وما وجدنا لأكثرهم من عهدٍ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين » هو وصف كاشف لهؤلاء الرءوس من أهل الشرك فى قريش . وأمّا العهد الذى نقضوه مع الله فهو قولهم الذى حكاه القرآن عنهم : « أن تقولوا إنما أُنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا لو أنّا أُنزِلَ علينا الكتابُ لكنا أهدى منهم » (١٥٦ ـ ١٥٧ : الأنعام) فهم قد عاهدوا أنفسهم أن لو جاءهم كتاب كما جاء أهلَ الكتاب كتابٍ ، لآمنوا بالله، وكانوا أهدى سبيلا من أهل الكتب السابقة .

وقوله تعالى : « وإنْ وجدنا أكثرهم لفاسقين » . . : « إنْ » هنا هى المخففة من إنّ الثقيلة المؤكدة ، واللام فى قوله تعالى : « لفاسقين » هى اللام

المؤكدة ، ، الداخلة على الخبر ، والمعنى ، وإنّا وجدنا أكثرهم لفاسقين ، ينقضون العهد الذى وثقوه مع أنفسهم ، وذلك خيانة منهم لوجودهم .

الآيات : (١٠٣ — ١١٦)

« ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰٓ إِمَّآ أَنْ تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَنْ نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّآ أَلْقَوْا سَحَرُوٓا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ » (١١٦)

التفسير :

فى الآيات التى مضت ، ذُكر فيها قصص الأنبياء : نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب عليهم السلام ، وقد تخللت هذه القصصَ لمحاتٌ وإشارات إلى مشركى

مكة ، تُلفتهم إلى مصارع القوم الظالمين ، الذين كذبوا رسل الله وأعنتوهم ، وأن هؤلاء المشركين من قريش إذا أصروا على ماهم عليه من عنادٍ وشرك ، بعد هذا الهدى الذى جاءهم من عند الله ، على يد رسول الله ـ فلن يكونوا بمأمن من هذا المصير المشئوم الذى صار إليه الظالمون من قبلهم .

ولم تذكر الآيات السابقة قصة موسى ، مع فرعون ، ثم قصته مع قومه بنى إسرائيل . .

وهذا ما عرضت له تلك الآيات التى نحن بين يديها الآن . .

*«ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » . . أى ثم بعث الله سبحانه وتعالى، من بعد هؤلاء الرسل الذين ذكرتهم الآيات السابقة ـ بعث موسى بآيات معجزات إلى فرعون وملائه، أى الوجوه البارزة من قومه ، من وزرائه وقواده ، وأصحاب الرأى والكلمة عنده ، فلم ينتفع هو ولا قومه بهذه الآيات ، ولم يروا فيها طريقاً يصلهم إلى الله ويدعوهم إليه ، بل ظلوا على ما هم عليه من ظلم ومن بغى ، بل لقد كانت تلك الآيات باعثة لهم على المبالغة فى الظلم والبغى ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فظلموا بها » أى اتخذوها أداة من أدوات الظلم ، وذريعة من ذرائعه ، كما سنرى ذلك فى موقف فرعون بعد أن التقى به موسى ، وعرض عليه ما بين يديه من معجزات .

وفى قوله تعالى : « فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » . . فى هذا ما يسأل عنه ؛ وهو : كيف يجىء الأمر بالنظر إلى ما صارت إليه حال القوم المفسدين ، ولم تأت عاقبتهم بعد ؟ وماذا يُنظر الآن من عاقبة هؤلاء المفسدين ؟

والجواب : أن المبادرة إلى هذه الدعوة بالنظر إلى مصير المفسدين ، هى لإثارة التطلعات إلى تلك الخاتمة المثيرة التى ستختم بها هذه القصة ، وما ينتهى

إليه الصراع بين الحق والباطل ، ففى هذه المبادرة إعداد للنفس ، وإثارة لأشواقها ، وإخلاء لها من الشواغل ، حتى تلتقى بتلك الخاتمة وهى على حالٍ تامة من الوعى واليقظة ، فلا تفوتها من مواقع العبرة والعظة فائتة .

ومن جهة أخرى ، فإن فى المبادرة بهذا الحكم ، على هؤلاء القوم بأنهم مفسدون ـ إشعاراً بأن القضية هنا قضية صراع بين حق وباطل ، وبين دعاة إصلاح وأهل فساد ، وفى هذا ما يقيم شعور المستمع لهذه القضية على هذا الموقف منها ، وهو موقف بين المحقين والمبطلين .

* « وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين * حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينةٍ من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل» .

فهذا هو مبدأ القصة . . يلتقى موسى بفرعون لقاءً مباشراً . . ثم يبدؤه بهذا الخبر :

« يا فرعون .. إنى رسول من رب العالمين » ..

ويفعل هذا الخبر فعله فى نفس فرعون ، وَمن حوله .. ثم لا يكاد فرعون يُفيق من صدمة هذا الخبر غير المتوقع ، حتى يسد عليه موسى منافذ القول بالتكذيب أو الاتهام ، فيُتبع الخبر بخبر آخر ، يؤكده ويوثقه : « حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق » فإن من كان رسولا لربِّ العالمين ، لا ينبغى له أن يقول غير الحق ، إذ الرسول وجه كاشف عن وجه من أرسله .. والله سبحانه وتعالى منزه عن كل نقص ، فكذلك ينبغى أن يكون الرسول الذى يرسله ، على حظ موفور من الكمال البشرى ، فلا يكذب ، ولا يخون .. فهو أحق الناس وأجدرهم ألا يقول غير الحق ..

وتثور فى نفس فرعون تساؤلات ، لا يكاد يمسك بواحدة منها حتى يلقاه

موسى بالجواب لما تفرق أو اجتمع فى خاطره من تلك التساؤلات : « قد جئتكم ببيّنة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل » .

فالأسئلة التى تواردت على خاطر فرعون كثيرة ، كان منها وأهمها : ماذا يريد موسى بهذه الدعوى التى يدعيها ؟ وما شأن فرعون به وبرسالته ؟ ليكنْ رسولا من عند الله أو من عند غير الله .. فما لِفرعون وهذا الذى يقتحم عليه مجلسه ، ويلقى إليه بمثل هذه المقولات ؟

وجواب موسى على هذه الأسئلة : « قد جئتكم ببيّنَةٍ من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل » وكان الجواب المنتظر هو : أرسل معى بنى إسرائل .. فهذه هى رسالة ربه ، المطلوب منه أن يبلغها فرعون .. فإن أبى فرعون أن أن يصدّقه ، عرض عليه من آيات ربه ما يقيم الدليل على صدقه ، ويؤكده . .

ولكن جبروت فرعون وتسلطه يحدّثان بأنه لن يقبل من موسى قولا ، ولن يسلّم له بشىء مما يقول ، بل سيجبهه بالزجر ، ويتوعده بالعقاب ، ويرميه بالكذب .. ولهذا كان من الحكمة ـ لكى يطفىء بعضاً من غضب فرعون وثورته عليه ـ أن يلقاه أولا بالدليل الذى يسند دعواه ، ويدل على صدقه ، وأن يُدير تفكيره ـ ولو مؤقتاً ـ إلى تلك المعجزات التى يحملها موسى بين يديه من ربّه ، وأن يثير فيه غريزة حب التطلع إلى هذا المجهول الذى يخفيه موسى عنه . .

ولهذا كان ردّ فرعون :

* « إن كنتَ جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين » .. ولم يعرض فرعون لما طلبه موسى فى شأن بنى إسرائيل ، وإرسالهم معه ، بعد إطلاقهم من يده .. وهو المطلب الأول ، بل هو كل ما طلب من فرعون فى هذا الموقف .. ؛ وإنّما كان همّه كله هو الاطلاع على ماعند موسى من آيات !

ولم يمهل موسى فرعونَ ، بل طلع عليه فجأة بما ملأ عليه وجوده كله ، هولاً ، وفزعاً ودَهَشاً ! !

لقد كان فرعون ينتظر من موسى شيئاً من الحوار والجدل ، والأخذ والرد ، فيما سيعرضه عليه من معجزات . . كأن يستحضرها أولا ، ويتخير لها الزمان والمكان ثانياً .. فما كان مع موسى شيء يتوقع أن تخرج منه معجزة ، وإلا فأين أدوات هذه المعجزة ؟ وأين أجهزتها ومعداتها والأيدى التى تعمل فيها ؟.. ولكن هكذا كان تدبير الحكيم العليم وتقديره !

* « فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين » .. هكذا تقع المعجزة ، وتكون المفاجأة !!

العصا التى يمسكها موسى بيده .. يُلقى بها إلى الأرض فإذا هى ثعبان مبين.. يفغر فاه حتى ليكاد يبتلع فرعون ومن حوله !

ويد موسى التى أدخلها فى جيبه (أى فى فتحة قميصه على صدره) يخرجها ، فإذا هى بيضاء من غير سوء ، لم يتغير شىء من خَلقها ، إلا أنها ترسل ضوءاً مشرقاً كضوء الكوكب الدرىّ فى فَحمة الليل ..

لقد ألقى موسى بكل ما معه دَفعة واحدة ، حتى يضرب فرعونَ الضربةَ القاضية ، التى لا تدع له فرصة يلتقط فيها أنفاسه .. وواحدة من هاتين الضربتين تكفى لكى يستسلم لها كل جبار عنيد .. ولكن فرعون كان أكبرَ من جبار عنيد .. !

ولا يذكر القرآن هنا ما وقع فى نفس فرعون من فزع ، وذعر ، بل يدع ذلك لتصورات الناس ، يأخذ كل إنسان ما يقدر عليه الخيال من الصور المرعبة المفزعة ، لهذا الهول الذى وقع . .

وإذ يُفيق القوم من هذا الهول العظيم ، بعد أن يدعو موسى الثعبانَ إليه

فيكون عصاً فى يده ، ويردّ يده إلى مكانها الذى كانت عليه ـ إذ ذاك يأخذون فى التفكير لمواجهة هذا التحدّى الذى جاءهم به موسى ، ويجدُّون فى التماس السبل للوقوف فى وجهه ، قبل أن يتصل خبره بالناس ، فتكون الفتنة ، ويكون البلاء . . كما وقع فى ظنونهم وأوهامهم .

* « قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم » .. أى ساحرٌ يقوم سحره على علم ومعرفة ، وهو من أجل هذا مصدر خطر عظيم على فرعون وعلى مكانته فى قومه .

* « يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره » ... فمثل هذا الإنسان الذى يملك تلك القوة ، وهذه البراعة ، لا يعجز عن أن يفعل ما هو أكثر مما فعل ، وليس ببعيد أن يُحيل الناس إلى أحجار ودُمَى ، كما أحال العصا ثعباناً مبيناً . . وليس ببعيد أن يطوّح بفرعون ، ويلقى به فى مكان خارج مُلكه ، ويستولى هو على هذا الملك !

ويدور بين القوم حديث طويل متصل ، تتوارد فيه الآراء ، وتكثر وجوه العروض والحلول . . ثم ينتهى فرعون إلى موقفٍ يسأل فيه الملأ : ماذا عندهم من قولٍ فى موسى ، وفى هذا الذى شهدوه منه . . ؟

* « فماذا تأمرون » ؟

إن فرعون يريد منهم موقفاً حاسماً ، ورأياً قاطعاً ، وأمراً نافذاً فى هذا الموقف ، الذى لا يحتمل غير المواجهة الحازمة الحاسمة . .

وفى قول فرعون لقومه : « فماذا تأمرون » خروج على المألوف بينه وبينهم ، فما اعتادوا أن يسمعوا منه غير كلمة واحدة ، هى « الأمر » منه ، والطاعة والتنفيذ منهم . .

أمّا هنا فى هذا الموقف ، فهو متخاذل متهالك ، قد هزّته الصدمة ، وأذلّت

من كبريائه ، فذُهِلَ عن نفسه ، ونسى أنه «فرعون » الذى يأمر .. ولا يؤمر ، ويقول .. ولا يقال له . .

إنه هنا فى معرض الهلاك ، وفى مواجهة البلاء الذى يتهدّده ، ويتهدّد مُلكه . .

وإنه هنا ليواجه الضعف الإنسانىّ الذى يتعرّى فيه من كل مظاهر العظمة الكاذبة ، والاستعلاء المصطنع ، حين يصطدم بواقع الحياة ، ويواجه أهوالها وشدائدها . . إنه هنا ، هو هذا الإنسان الذليل الضعيف المستكين ، الذى يقبل الصدقة من أى يد تمتدّ إليه . . !

ويجىء جواب القوم أمراً حاسماً . . لقد نَسُوا هم كذلك أنهم فى مجلس فرعون ، وبين يدى جبروته وكبريائه ، إنهم لا يرون منه الآن إلاّ إنساناً مثلهم ، قد أدركه الفزع ، واستولى عليه الذعر ، وأنهم وهو على سواء فى هذا الموقف الأليم . . وهل حين تغرق السفين ، ويُلقىَ براكبيها فى لجة البحر ، يكون هناك مَلِك وسوقة ؟ وسيد ومسود ؟ إنهم جميعاً فى يد الهلاك سواء !

* « قالوا أرجِهْ وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل ساحرٍ عليم » .

« أرْجِهْ » أى أنظِرْه وأخّر الأمر فيه إلى أن نجمع ما فى المدن من السحرة ، أصحاب العلم ، والتخصص فى هذا الباب ، وبهذا نلقى سحره بسحر مثله ، يستند إلى علم ومعرفة .

والحاشرون : هم الذين يتولَّوْنَ جمع السحرة وحشدهم ، وحشرهم إلى ساحة فرعون . . والتعبير بالحشر هنا ، يشير إلى أن الأمر عظيم ، وأنه لا بد له من حشر الناس إليه ، وبعثهم سراعاً من كل أفق ، ليلقوا موسى ، ويقفوا فى وجه هذا الخطر الذى دهمهم به .

وحُشِرَ السحرة على عجل ، وأقبلوا من كل أفق ، وغصّت بهم ساحة فرعون . . وما كانوا قد رأوا رأى العين ما كان من فِعل موسى بعصاه ويده ، مع فرعون ، وإن كانوا قد سمعوا به ، وتصوروه على ما رُوِىَ لهم . .

ومن هنا وقع فى أنفسهم أنه ساحرٌ مثلهم ، وأنّه إذا كان على شىء من القوة بالنسبة لهم ، فإن فى جمعهم هذا ما يتغلب على كل قوة . .

ومن هنا أيضاً وقع فى أنفسهم أنهم أصحاب الموقف المنتظر بينهم وبين موسى ، فكانت لهم بذلك دالّة على فرعون ، وقد أطمعهم فيه ، ما وجدوه عليه من ذِلّةٍ وَانكِسَار ، فجاءوا إليه يسألونه الأجر مقدّمًا ، ويسألونه الجزاء الذى لهم عنده ، بعد أن يكون لهم الغلب ! !

* « وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوآ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ » ! .

ولا يملك فرعون فى هذا الموقف إلا أن يستجيب لهم ، ويترضّى مشاعرهم ، حتى يبذلوا كل ما يملكون من حول وحيلة .. إنهم الآن لا يعملون إلا بأجر ، وقد كانوا من قبل هذا الموقف عبيداً مسخّرين !

* « قال نعم وإنكم لمن المقربين » .

فليس الأجر وحده ، ولا المال وحده ، هو الذى سيبذله لهم ، إن هم انتصروا على موسى ، وأبطلوا كيده ، وأفسدوا تدبيره ، ولكن لهم إلى هذا المالِ الوفير الذى سيغدقه عليهم ـ أن يقرّبهم إليه ، ويدنيهم منه ، ويجعلهم أعوانه ، وأصحاب الكلمة والرأى عنده .

ولا يذكر القرآن هنا اجتماع السحرة بموسى ، والاتفاق معه على موقع المعركة وزمانها . . فذلك متروك لتقدير من يتلو هذه القصة ، وتصورِه لملء هذا الفراغ الذى لا يغيب عن فطنته ، فإن لم يسعف الإنسانَ ذكاؤه هنا ،

وجد القرآن الكريم فى معرض آخر من معارض هذه القصة ، يعرض الصورة المثلى التى تملأ هذا الفراغ وتغطيه ! .

ومن أجل هذا جاء اللقاء المواجِه بين السحرة وموسى هكذا .

* « قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ » .

إن المعركة قد بدأت ، وإنها الآن فى أول جولة من جولاتها . .

ولقد خيّر السحرةُ موسى ، بين أن يبدأ هو الجولة ، أو هم الذين يبدءونها . ؟ وأجابهم موسى أن يكونوا هم البادئين . . وهذا أدب من أدب الحرب . . أعطوه الفرصة ، فأعطاهم هو إياها . . ولقد جاءوا بأدوات كأدوات موسى . . عِصيّ وحبال أشبه بالعصيّ ، كما جاء هو بعصاه . . فتلك هى أصول منازلة الخصم لخصمه . . أن يحاربه بمثل سلاحه . .

وقد أعطاهم موسى الفرصة ليُظهروا كل ما عندهم ، وكان ذلك عن حكمة وتدبير وتقدير . . فلو بدأ موسى ـ وقد جعلوا هم الأمر إليه فى اختيار مَن يأخذ المبادرة ـ لكان غيرَ عادلٍ معهم ، إذ بدءوه بالإحسان . . ولهذا فقد ردّ إليهم إحسانهم بإحسان ، وأعطاهم حقّ المبادرة التى كان له أن يأخذها لنفسه .

ثم ـ من جهة أخرى ـ إن موسى كان واثقاً من تأييد الله له ، ومن نصره فى هذا الموقف .. ولو بدأ هو الجولة ، وضرب السحرة ضربته ، وأوقع بهم الهزيمة من قبل أن يُعطوا ما عندهم ، لكان فى نصره هذا الذى أحرزه مقالٌ لقائل أن يقول : إنهم لو أظهروا السّحر الذى فى أيديهم أولاً ، لشلّوا حركة موسى ، وضربوه الضربة القاضية . . ولكنه عاجلهم فكانت الضربة له ، ولم تكن لهم ! ! هذا قول يقال ، فى مثل تلك الحال ، وفيه يجد أصحاب الضلال

وأهل العناد متعلقاً يتعلقون به ، ويتخذون منه مثاراً للشغب على موسى حين ينتصر بالضربة القاضية . .

ويُلْقى السحرة حبالهم وعصيهم ، ويأتون منها بألوان من السِّحر ، وضروب من الشعوذة ، فيها مهارة وبراعة ، أخذت بألباب الناس ، وسحرت عقولهم ، وألقت الرعب فى قلوبهم . .

ويأخذ موسى شىء من هذا الذى يأخذ الناسَ ، من خوف واضطراب ، فى مواجهة الغرائب من الأحداث ، ويكاد يفلت زمام الموقف من يده . .

وهنا تتدخل السماء ، ويجىء وعد الله .. وتبدأ الجولة الثانية ، وفيها تتبدل الأحوال وتنقلب موازين الأمور . !

الآيات : (١١٧ — ١٢٢)

« وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوٓا آمَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ » (١٢٢)

التفسير : ويبدأ موسى الجولة الثانية، بعد أن يتلقى أمرَ ربّه بأن يُلقىَ عصاه!

ويلقى موسى عصاه « فإذا هى تلقف ما يأفكون » أى تبتلع كلَّ هذا الافتراء ، وتبطل كل هذا الباطل ، فإذا هو هباء فى الهباء .

وينجلى غبار المعركة عن حق وقع ، وباطل بطل . .

وفى التعبير عن ظهور الحق بأنه وقع ، إشارة إلى علوّ متنزّله ، وأنه جاء من

السماء ، فوقع على الأرض ، كما يقع ضوء الشمس على معالم الكون الأرضىّ ، فيبدّد الظلام ، وينسخ معالمه .. أو كما تقع الصواعق بالرجوم ، فتهلك القوم الظالمين . .

ورأى السّحرة شيئاً لم يكن من واردات السّحر الذى معهم ، واستيقنوا أن مامع موسى ليس من السحر فى شىء ، وأنه ليس فى مقدور بشر أن يأتى به .. فهو إذن عمل من أعمال السّماء ، وقَدَر من أقدارها ، وَضَعَته إلى يد موسى ، ليكون شاهدَ صدقٍ على أنه رسولٌ من ربّ العالمين . .

تلك هى شهادة أهل الخبرة ، وأصحاب الكلمة فى هذا الأمر . . وليس لأحد قول بعد الذى قالوه . .

* « فغُلِبوا هنا لك » أى فى ميدان المعركة ، وكان غلبهم تسليماً وإذعاناً ، كما يستسلم الأسير لآسره .

* « وانقلبوا صاغرين » أى رجعوا أذلاّء ، يواكبهم الخِزى والصَّغار ، وتصحبهم الذّلة والمهانة .

والضمير هنا يعود إلى فرعون والملأ الذين معه ، إذ كان الأمر أمْرَهم ، والمعركة معركَتَهم .

وفى التعجيل بهذا الحكم ، تلخيص لما وقع فى نفوس الناس ساعتئذ . . لقد خسروا المعركة ما فى ذلك شك . . وإن كان هناك جيوب فى المعركة لم يُصفّ حسابها بعد ، فإنها لا تؤثر أى أثر فى الحكم الواقع على المعركة ، وهو أن الهزيمة قد حلّت بفرعون وملائه « فغُلبوا هنا لك وانقلبوا صاغرين » . . هذا هو شعار الموكب الذى يسبق القوم إلى المدينة ، ليُذيع فى أهلها هذا النبأ المثير المخيف ، وليبعث فى النّاس المشاعر التى يستقبلون بها هذا الموكب المهزوم .

وبين يدى موسى يقع السحرة ساجدين . مؤمنين بالله ، معلنين ولاءهم له ، بعد أن كان ولاؤهم وسجودهم لفرعون الذى كان يقول لهم : « يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى » .

* « وألقىَ السَّحرة ساجدين * قالوا آمنا بربِّ العالمين * ربَّ موسى وهرون » .

وهكذا تنجلى المعركة ، وقد وقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . . وفى التعبير عن استسلام السحرة بالإلقاء ما يكشف عن القوة القاهرة التى استولت عليهم .

ثم يجىء الحساب الختامى للمعركة ، فيمسك فرعون بمخانق السحرة ، متهدداً متوعداً . . كما سنرى فى الآيات التالية .

الآيات : (١٢٣ — ١٢٦)

« قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَآ أَهلهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوآ إِنآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبونَ (١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّآ إِلآ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ » (١٢٦)

التفسير : * « قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم » ؟

يعجب فرعون أشد العجب ، وينكر غاية الإنكار ، أن يتصرف أحدٌ من قومه فى أى شىء من شئونه ، ولو كان فيما يتصل بكيانه الروحىّ ، وبعقيدته التى يعتقدها ، وبالدِّين الذى يرتضيه ـ إلا أن يكون ذلك مما يأذن به فرعون ويرضاه .. وأما وفرعون لم يرضَ عن الدّين الذى جاء به موسى ، ولم يأذن لأحد

به ، فكيف يجرؤ هؤلاء السحرة على أن يُعلنوا إيمانهم بموسى ، ومتابعتهم له ؟ ذلك عدوان على حق فرعون الذى له فى رقاب العباد !

وسَرَعان ما يأخذ فرعونُ السحرة بتهمة الخيانة له وللوطن : « إن هذا لمكرٌ مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون » .. إذن فالسحرة متّهمون بالتواطؤ مع موسى على إخراج الناس من المدينة، ليشهدوا هذا الذى مع موسى من سحر يتحدّى به سحر الساحرين ، ويبطل ما معهم من كيد يكيدون له به ، وذلك بما وقع بين السحرة وبينه من اتفاق ، حتى تكون الفضيحة مدوّية ، يشهدها الناس جميعاً ، ويتحدث بها القوم كلّهم . . هكذا صاغ فرعون التهمة ، ورمى بها فى وجه السحرة . .

ثم هاهو ذا يقضى قضاءه فيهم .. إنه يخلق التهمة ، ، ويحكم بالإدانة فيها ، ويقدر العقوبة المناسبة لها .

* « لأقطّعَنّ أيديَكم وأرجلَكُم من خلاف ثم لأصَلّبنّكم أجمعين » .

إنها قِتلة شنعاء ، يجد فيها فرعون بعض الشفاء ، لما فجعه به هؤلاء السحرة، الذين خذلوه فى موقفه من موسى ، ثم خانوه فى متابعتهم لموسى ، واستسلامهم له .

وتقطيع الأيدى والأرجل من خلاف ، لا يَقضى على الكائن الحىّ فوراً، بل تظل الحياة ممسكة به زمناً يعالج فيه آلام الموت وسكراته ، فقطع اليد اليمنى ، مع الرجل اليمنى ، أو العكس ، من شأنه أن يَقضى على الإنسان فى الحال ، وليس كذلك إذا قطعت اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو اليد اليسرى مع الرجل اليمنى ، فإن الإنسان يظل على الحياة وقتاً أطول ، حيث يحتفظ الإنسان بنصف

نصفه العلوى ، ونصف نصفه السفلى المخالف له ، وبهذا الخلاف تتم الحركة الدموية ، ويظل القلب عاملاً بشريان واحد من شريانَىْ الحياة . . ولهذا أتبعَ فرعونُ هذه العملية الشنيعة بالصَّلب ، حتى يظل المصلوب قائما على خشبة الصلب زمناً يعالج فيه آلام الموت وسكراته . .

ولا يأخذ هذا الوعيد شيئاً من إيمان السحرة ، ومن انعقاد قلوبهم على ما انعقدت عليه من تسليم لموسى ، وإيمان بالإلٰه الذى يدعو إليه ، إذ كان إيمانهم قائما على علم ، وبعد بلاء وتمحيص .

* « قالُوٓا إنّا إلى ربّنَا منقلِبُون . وما تنقِم منّآ إلا أن آمنّا بآيات ربّنَا لمّا جاءتْنا » .

هذا هو عزاء المؤمنين فى ساعة العسرة ، وفى مواجهة البلاء وتحدّيه . . إنهم منقلبون إلى الله ، راجعون إليه ، نازلون فى ضيافته . . فليس يُفزعهم الموت ، ولا تُرهبهم المثُلات التى يأخذهم بها الظالمون . .

إن حياتهم إذا انتهت بتلك النهاية ، فإنها ستبدأ مرحلة جديدة ، فى عالم أرحب ، وفى رحاب ربّ كريم ، عرفوه ، وآمنوا به ، فلا ينكرهم يوم لقائه ، ولا يحجب عنهم فضله ورحمته ، بل يلقاهم برحمة منه ورضوان ، وجنات لهم فيها نعيم مقيم . .

إن هذا الانتقام الذى يأخذهم به فرعون ، لم يكن عن جناية جَنَوْها عليه ، وإنما كل ذنبهم أنهم رأوا النور فاهتدوا به ، وعرفوا الحق فاتبعوه . . إنهم قد اختاروا لأنفسهم الخير ، وليس لأحد سلطان عليهم فى أن ينزع الإيمان من قلوبهم ، وإن كان لسلطانه أن ينزع أرواحهم من أجسادهم ،

فذلك شيء لا يلتفتون إليه ، بعد أن أخذوا خيرَ ما فى هذه الدنيا ، وهو الإيمان . . فليكن الموت ، وليكن التمثيل والتنكيل بهم ، إنهم لصابرون على المحنة ، موطنون النفس على البلاء ، يرجون من الله أن يمدهم بأمداد من الصبر والعزم : « ربنا أفرغْ علينا صبراً وتوَفّنَا مسلمين » .

وإفراغ الصبر : صبّه صبًّا عليهم ، حتى يمتلىء كيانهم به . . فإن المحنة قاسية ، والبلاء شديد ، وذلك أمر يحتاج إلى كثير من أمداد الصبر من ربّ العالمين . .

الآيات : (١٢٧ — ١٢٩)

« وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَٱصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » (١٢٩)

التفسير : وإذ يُخذل فرعون فى معركة المنطق والعقل ، وإذ تُفحمه الآيات التى طلع بها عليه موسى ، فإنه يلجأ إلى منطق القوة ، ويعمد إلى سلاح البغى والعدوان ، فيسلطه على خصمه ، ويضرب به فى غير مبالاة . .

وانظر كيف يُعمى البغى أهلَه عن مواقع الحق ، وكيف يزيّن لهم الضلال فيرونه هدى .

* « قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ ليفسدوا فى الأرض » .

موسى إذن هو الذى يفسد فى الأرض ؟ وهو الذى ماجاء إلا ليخلّص أناساً استذلّهم فرعون ، وساءهم سوء العذاب ؟ إنه ما جاء ليشارك فرعون فى ملكه ، ولا لينازعه سلطانَه . . وإنما جاء ليستنقذ أناساً من العبودية ، ويرفع عنهم يد التسلط والبغى . . فكيف تصح تلك الدعوى التى يدعونها عليه ؟

وفى قول الملأ من قوم فرعون : « وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ » تحريض قوى لفرعون على أن يضرب ضربته ، وأن يعجّل بها قبل أن يتابع الناسُ موسَى ، ويدخلوا فى دعوته ، ويؤمنوا بالله كما آمن السحرة ، فلا يبقى إلا فرعون وتلك المعبودات التى يعبدها . . !

وينظر فرعون فى هذا القول ، وترتسم له الصورة التى يُطِل بها عليه ، لو أنّه ترك موسى وشأنَه . . إن فرعون إذا صبر على تلك الحال ، فسوف يتخلّى عنه كل شىء ، حتى هذا الملأ الذين حوله من أعوان ووزراء . . إنه وحده الذى سيظل على دينه . . هذا إذا لم ترغمه الظروف وتقهره على أن ينقاد لموسى ويصبح من أتباعه ! !

وتَغِيم الدنيا فى وجه فرعون ، ويستبدّ به جنون الكبر والسلطان ، فيُصدر حكمه على موسى وقومه جميعاً :

* « قال سنقتّل أبناءهم ونَسْتَحْيِي نِساءهم وإنا فَوقَهم قاهرون » . .

إنه استئصال لهؤلاء القوم ، وقتل بطىء لهم بقتل أولادهم ، وإذلال شديد

لهم، باستباحة نسائهم ، وبهذا تظل يد فرعون عليهم قاهرة متسلطة . . وفى هذا نذيرٌ لمن تسوّل له نفسه أن يتابع موسى أو يتصل به .

واستحياء المرأة ، هو تعرّضها لما يخدش حياءها أو يجَرْحه . وذلك باستدعاء حيائها ، حين تواجَه بما تنكره الحرّة وتأباه العفيفة .

ويقع البلاء بقوم موسى وتنزل الضربات عليهم من كل وجه ، فى أنفسهم ، وفى أبنائهم ، وفى نسائهم . . ونذكر هنا قول الله سبحانه فى الآيات السابقة : « ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فظلموا بها » أى فظلموا ومعهم هذه الآيات التى جاءهم بها موسى ، فكانت تلك الآيات فى أيديهم أداةً من أدوات الظلم والبغى .

ويدعو موسى قومه إلى الصبر والاحتمال فى مواجهة هذه المحنة :

* « قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » وتكون العاقبة دائما للمتقين . .

ويجزع القوم – قوم موسى – ولا يصبرون على هذا البلاء الذى أخذهم فرعون به ؛ ويلقون موسى لائمين ساخطين

* « قالوا أُوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا » . .

ويجيبهم موسى متلطفاً مترفقاً :

* « عسَى رَبكم أن يهلِك عدوّكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيفَ تعملون » .

أى اصبروا ، فلعل الله يرفع عنكم هذا البلاء ، ويهلك عدوكم ، ويجعلكم أصحاب جاه وسلطان ، ليبلوكم فيما آتاكم ، فينظر كيف تعملون وأنتم فى لباس الجاه والسلطان .. هل ترعوْن حق الله ، وتؤدّون بعضَ ما لفضله عليكم من

حق ؟ أم تكفرون بالله ، وتفسدون فى الأرض كما يفسد كثير من أصحاب الجاه والسلطان ؟ ذلك ما تكشف عنه الأيام منكم . . وإنها لتكشف عن أسوأ عباد الله ، وأكثرهم بغياً وفساداً ، إذا لبستهم نعمة ، ووقع ليدهم سلطان !

الآيات : (١٣٠ — ١٣٣)

« وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ » (١٣٣)

التفسير : ويُقيم بنو إسرائيل على ضربات الذل والاستبداد ، يرميهم بها فرعون . . وموسى يدعوهم إلى الصبر ، حتى يحكم الله بينهم وبين فرعون . .

ويتلقى فرعون وآله ضرباتِ السماء ، ضربةً بعد ضربةً ، وكل واحدة منها تحمل شارة من شارات السماء ، بأنها آية من عند الله ، وعقابٌ واقع بالقوم لهذا الموقف المتحدّى الذى وقفوه من موسى ، بعد أن جاءهم بآيات الله .

وأول ضربة نزلت بالقوم كانت بلاء حلّ بأقواتهم ، فيما تجىء به الزروع من غلات وثمرات .

* « ولقد أخذنا آلَ فرعونَ بالسّنين ونقصٍ من الثمرات لعلهم يذكّرون » .

والمراد بالسنين هنا ، هو الجدب الذى يجىء من نقصان النيل ، وقلة الماء الذى يجىء به ، الأمر الذى يترتب عليه جفاف الزرع ، وقلة الثمر . . يقال أسْنَتَ القوم أى دخلوا فى سنة جدباء .

وهذه ضربةٌ ربما لم ينكشف للقوم فيها وجه العبرة سافراً ، إذ كثيراً ما كان يفعل النيل شيئاً من هذا معهم ، وإن كانت فَعَلاته فى تلك المرّة أمرّ وأقسى .

وقد عرفت مصر سبع سنين عجافاً كما ذكر القرآن الكريم ذلك فى زمن يوسف عليه السلام ، وكان ذلك من قلة ماء النيل فى هذه السنين . فإذا فاض النيل فى سنةٍ قالوا هذا مما هو من حظنا ورزقنا ، وإذا أمسك النيل فى سنة أخرى تشاءموا بموسى ومن معه ، وعدّوا ذلك من شؤم موسى وجماعته .

* « فإذا جاءتهم الحسنةُ قالوا لنا هذه وإن تصبْهم سيئة يطّيروا بموسى ومن معه » .

والحسنة هنا هى السنة المِعطاءةُ للخير ووفرة الثمر ، والسيئة ، هى السنة الجديب التى لا يحيا فيها زرع ، ولا يجىء ثمر . .

والتطير : هو التشاؤم على عادة العرب من زجر الطير ، فكانوا إذا أطلقوا طائراً ، فطار إلى اليمين .. تيامنوا به ، واستبشروا ، وسمّوه « سانحاً » فإذا طار إلى اليسار تشاءموا به وسمّوه « بارحاً » .

وقوله تعالى : « ألا إنما طائرهم عند الله » إشارة إلى أن ما ينزل بهم من خير أو سر ، وما يحل بهم من بلاء أو عافية ، هو من عند الله ، وأن ليس

لموسى ولا لقومه شىء فى هذا الأمر كله .. وأن الطائر الذى تتعلق به الأبصار، وتتعرف على وجه الخير أو الشرّ منه ، ليس هو هذا الطائر السابح فى السماء ، ولكنه طائر من عند الله ، إن شاء أرسله عليهم رزقاً وخيراً ، وإن شاء أرسله نحساً وبلاء . وفى التعبير عنه بالطائر ، إشارة إلى أنه يتنزّل من علٍ .

والصورة كلها قائمة على « المجاز » جرياً على عادة العرب .. وإن كان لكل قوم أسلوبهم فى التفاؤل والتشاؤم .

ويمضى فرعون وقومه فى العناد والتحدى ، على رغم هذه النّذرُ التى تطلع عليهم « لعلّهم يذكرون » ولكنهم لا يتذكرون ، ولا يتعظون !

« وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين » .

وتجىء الضّربات بعد هذا :

* « فأرسلنا عليهم الطوفان والجرادَ والقمّلَ والضفادع والدّم آياتٍ مفصّلاتٍ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين » .

والطوفان هنا هو فيضان النيل ، وتدفق مياهه فى غزارة وجنون ، حتى ليُغرق السّهل والوعر ، ويكاد يقتلع البلاد والعباد ، ويهلك الحرث والنسل ..

ومن هنا يمكن أن ندرك أن « الطوفان » الذى كان فى عهد نوحٍ عليه السلام ، لم يكن طوفاناً عاماً شاملاً العالم كله ، وإنما كان طوفاناً محدوداً فى هذه الرقعة من الأرض ، التى كان يعيش فيها هو وقومه ..

والجراد : آفة مهلكة إذا طلعت أسرابه على الزرع أتت عليه ، فلم تبق منه ثمراً ولا ورقاً ..

والقمّل : حشرة صغيرة ، تسكن الأجساد القذرة ، وتعيش على ماتمتصه

من الدم .. وقيل هى صغار الجراد، وهى أشدّ فتكا وأكثر بلاء من كباره.

والضفادع: جمع ضِفدع، وهى حيوان مائى، برّى .. بشع المنظر، مزعج الصوت.

والدم: سائل يجرى فى عروق الكائن الحىّ، إذا خرج من العروق تجمّد ..

وقد سلّط الله هذه الآفات على فرعون وملائه، واحدة بعد أخرى، فكانوا إذا نزل بهم البلاء طلبوا إلى موسى أن يسأل ربّه رفْعَ هذا البلاء، وأنه إذا استجاب له ربّه فيهم، وعافاهم مما نزل بهم، آمنوا به، وصدقوا رسالته، واستجابوا لدعوته فى إرسال بنى إسرائيل معه .. حتى إذا رُفع عنهم البلاء نكثوا العهد، وساروا سيرتهم فى بنى إسرائيل، فيرسل الله عليهم آفة أخرى. وهكذا .. تأخذهم الشدة، فيفزعون ويؤمنون، فإذا مستهم العافية، تمردوا على الله، وكفروا .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى: «فأرسلنا عليهم الطوفان والجرادَ والقمّل والضفادع والدم .. آيات مفصلات» أى آيات ظاهرة واضحة بينة، كل آية منفصلة عن الأخرى زمناً، ومختلفة أثراً .. حتى يكون فى الانفصال الزمنى فرصة للمراجعة والرجوع إلى الله، وحتى يكون فى اختلاف الأثر، وفى تذوّق تلك الطعوم المرّة المختلفة لهذه المحن، ما يجعل البلاء شاملا لهم جميعاً، على اختلاف معايشهم، وتنوع أحوالهم، وتباين طبائعهم .. فمن لم يصبه الطوفان فى ماله، أو نفسه، أصابه الجراد أو القمّل، أو الضفادع، أو الدم .. وهكذا لايسلم أحد منهم من أن تلبسه المحنة، وتشتمل عليه.

وهذه الآفات .. من طوفان، وجراد، وقمّل، وضفادع، ودم — إنما تكون بلاء حين تجاوز الحدّ، وتخرج على غير المألوف، بحيث تغطى وجه

الحياة على الإنسان، وتسدّ عليه منافذ التحرك إلى أى اتجاه . . إنها حينئذ تكون نقمة من أقسى النقم، ولو كانت فى أصلها مما يطلبه الإنسان ويحرص عليه . . !

وقد قيل عن الضفادع مثلاً ، إنها كانت من الكثرة بحيث لا يجد الإنسان مكاناً يضع عليه قدمه . . فكيف إذا أراد النوم ، أو الطعام ، أو نحو هذا ؟ .

وقالوا فى الدم ، إنه كان مسلطاً على أى طعام أو شراب لهم . . فإذا مدّ الإنسان يده إلى الطعام ، ثم رفعه إلى فمه تحول إلى مادة ملطخة بالدم ، منغمسة فيه . وإذا تناول شربة من ماء ، وأراد شربها استحالت دماً مسفوحاً . . ! فما أعظم هذه البلاء ، وما أشد هذا الكرب . . !

الآيات : (١٣٤ — ١٣٧)

« وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ » (١٣٧)

التفسير : الرجز مايسوء وجهه ، وأثره . . من الأمور ، وهو مقلوب كلمة « زجر » فكأنه رجز ينقلب زَجْراً لمن يحلّ به .

وقوله تعالى : « ولما وقَعَ عليهم الرجزُ » أى لما نزل بهم البلاء ، وحلّ بهم العذاب .

* « قالوا ياموسى ادع لنا ربّك بما عهد عندك » أى لجئوا إلى موسى ، ومدوا أيديهم إلى مصالحة عدوّهم ، يسألونه العون والنّجدة . . ولكن فى كبر وعناد . . « ياموسى ادع لنا ربك ».. فهم مازالوا على كفرهم ، لايؤمنون بالإله الذى آمن به موسى ودعاهم إليه ، فهو رب موسى لاربهم : « ادع لنا ربّك بما عهد عنْدك » أى بما بينك وبينه من صلة ، ومالك عنده من عهد باستجابة ماتدعوه به .

* « لئن كشَفْتَ عنّا الرِّجزّ لنؤمِنَنَّ لك ولنُرْسِلَنّ معك بنى إسرائيل » أى لئن استطعت بما بينك وبين ربك من صلة ، أن تكشف عنا هذا البلاء لنؤمنن لك ولنرسِلَنّ معك بنى إسرائيل ، ونطلقهم من أيدينا ، لينطلقوا إلى حيث تشاء .

والقوم مبيتون النية على الغدر بهذا العهد والنكوص عنه ، وفى كلماتهم مايفضح هذا الغدر الذى ضُمّت عليه صدورهم . .

فهم ــ أولا ــ ينسبون إلى موسى أنه هو الذى يكشف عنهم البلاء ، بحيلة أو بأخرى من حيله ، « فيقولون لئن كشفت عنا الرجز » ولم يقولوا « لئن كشف ربّك عنّا الرجزَ » . . إنهم لا يعترفون ــ فى قرارة أنفسهم ــ بأن هناك ربّا غير الأرباب التى يعبدونها . .

وهم ــ ثانياً ــ لا يؤمنون بالله إذا انكشف عنهم البلاء ، بل يؤمنون

بموسى ، فيقولون : « لَنُؤمِنَنَّ لك » ولم يقولوا : لنؤمِنَنَّ بإلهك ! .

* « فَلَمَّا كَشَفْنَا عنهم الرِّجْزَ إلى أجلٍ هم بالغوه إذا هم ينكثون » . .
فلقد كشف الله عنهم الرجز إلى أجلٍ ، أى كشفاً مؤقَّتاً ، لينكشف ماهم عليه من غدر ومكر . . وقد انكشف غدرهم ومكرهم ، فنكثوا هذا العهد ، ولم يؤمنوا بموسى ، ولم يرسلوا معه بنى إسرآئيل . . بل عادوا معهم سيرتهم الأولى ، فى صورة أشدّ وأنكى .

* « فَانْتَقَمْنَا منهم فأغرقناهم فى اليمِّ بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » وتلك هى عقبى الذين ظلموا . . لقد أغرقهم الله بذنوبهم ، بسبب تكذيبهم بآيات الله ، وغفلتهم عن مواقع العبرة والعظة منها . .

* « وأورثنا القوم الذين كانوا يُسْتَضْعَفُون : مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها » . . القوم الذين كانوا يستضعفون هم قوم موسى ، وقد منّ الله عليهم بالخلاص من يد فرعون بعد أن أهلكه .

وفى قوله تعالى : « وأورثنا القومَ الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها » إشارة إلى أن فرعون هذا الذى كان يحسب أنه من الخالدين ،قد أهلكه الله ، وأن هؤلاء القوم الذين كانوا شيئاً مرذولاً فى الحياة لعين فرعون ولآل فرعون ، قد ورثوا هم الحياة بعده ، وها هم أولاء على الأرض أحياء ، على حين أصبح فرعون وملأه فى الهالكين .

والمراد بمشارق الأرض ومغاربها : سعة هذه الأرض ، وقُدرتهم على التحرك فيها ، والتنقل بين شرقها وغربها ، غير مضيّق عليهم من أحد . . فهى أرض ذات آفاق متعددة ، كل أفق منها مشرق ومغرب ، فهى بهذا الاتساع ، مشارق ومغارب .

والمراد بالأرض التى بارك الله فيها ، هى الأرض المقدّسة التى دعاهم

موسى بعد ذلك إلى دخولها ، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى على لسان موسى: « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » .

* والمراد بالكلمة الحسنى فى قوله تعالى : « وتمت كلمة ربّكَ الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا » هى الكلمة التى وعد الله بها بنى إسرائيل على لسان موسى ، وهو أنهم سيخلصون من هذا البلاء كما قال الله تعالى : « قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » . . فهم إذا استعانوا بالله وصبروا كانت العاقبة لهم .

وتمام الكلمة ، إنجاز ما فيها من وعد كريم . .

وكون الكلمة حُسنى لأنها تحمل إلى بنى إسرائيل الرحمة والنعمة ، لا البلاء والنقمة ، وكلمات الله كلها حُسنى ، ماحمل منها الرحمة ، وما حمل البلاء . . ولكن حين تكون كلمة الله مبشرة هى غيرها حين تكون منذرة . . وذلك فى واقع حياة الناس ، وفى حسابهم . . أما كلمات الله فكلها الحسنُ والكمال .

وقوله تعالى : « ودمّرنا ما كان يصنَعُ فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » إشارة إلى ما حَلّ بدولة فرعون ، وما وقع فيها من اضطراب وفساد بعد أن هلك ، وهلك رءوس القوم معه ، فقد صار أمر الناس إلى فوضى واضطراب ، ففسد كل شىء كان صالحاً ، وخرب كل مكان كان عامراً ، من ديار وزروع . . معروشات وغير معروشات .

الآيات : (١٣٨ — ١٤١)

« وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ

إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ » (١٤١)

التفسير : ما كاد بنو إسرائيل يَخْلُصُون من يد فرعون وتزايلهم مشاعر الخوف والفزع التى كانت مستولية عليهم ـ حتى تنبّهت فيهم غريزة المكر واللؤم ، وحتّى تحرك فيهم داء اللّجاج والعناد . . فإنهم ما إنْ رأوا أناساً يتعبدون لأوثانٍ وأصنامٍ ، حتى سألوا موسى أن يأخذ لهم نصيبَهم من هذا الباطل الذى بين يدى هؤلاء النّاس ! إنهم يحسدون الناس على أى شىء يقع لهم حتى ولو كان بلاءً وشرًّا !

وقوله تعالى : « وجاوزنا ببنى إسرآئيل البحر » أى نقلناهم من شاطئه الغربى إلى الشاطىء الشرقى ، فجاوزوه وخلّفوه وراءهم . .

* « فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم » أى فمروا بقومٍ منهمكين فى عبادة الأصنام التى اتخذوها آلهة لهم .

* « قالوا يا موسى اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة » . . إنهم مع إيمانهم بأن الله واحدٌ لا شريك له ، فإنهم لن يعبدوه ، بل ولن يؤمنوا به حتى يتجسّد لهم ويروه رأى العين . . فهم يطلبون إلى موسى أن يجسّد لهم الله ، وأن يصوره لهم على أية صورة محسوسة مجسّده .

وذلك ضلال مبين ، وجهل جهول . . فكيف تكون لله صورة ؟ وكيف يحْويه شىء ؟ إنه لو تَصوَّر لتحدّد ، ولو تحدّد لاحتواه المكان

والزمان ، وهذا يعنى أنه دون المكان والزمان ، إذ اشتملاه واحتويا عليه ! !
ولهذا كان جواب موسى : « إنكم قوم تجهلون » إذ لا يقول هذا القول فى الله إلا من جهل قَدْر الله ، ولم يعرف ما لله من كمال وجلال . .

* « إن هٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . .
ثم زاد موسى القوم علماً وبياناً ، فكشف لهم عن عَبَدَة الأصنام هؤلاء ، وأن هذا الذى هم فيه من عبادة الأصنام ليس إلا غيًّا وضلالاً ، وإلا عبثاً ولعبًا . .

والمتبّر : الهالك الضائع ، والتبار : الهلاك والفساد . . وهذا هم فيه ضلال وبوار . . لا يثمر إلا ضلالاً وبواراً . .

* « قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ »
أعاد موسى القول هنا لأنه فى مواجهة مباشرة لبنى إسرائيل ، بعد أن كان الخطاب متجهاً إلى عبدة الأصنام . .

وقوله : « أغير الله أبغيكم إلٰهاً » أى أأطلب لكم إلٰهاً غير الله الذى رأيتم آياته فيكم ، وكيف فعل بعدوّكم ؟

وقوله : « وهو فضلكم على العالمين » المراد بالعالمين ، الجماعات التى كانت معروفة لهم يومئذ ، وقد فضلهم الله عليهم لأنهم كانوا أهل كتاب ، وعلى إيمان بالله ، على حين كانت الأمم المتصلة بهم أمماً وثنية ، تدين بعبادة معبودين غير الله . .

* « وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ » أى إذا لم تعرفوا الله فى جلال ذاته ، وفى عظمة ملكه ، فاعرفوه بما أنعم به عليكم ، وبما له من آثار واضحة فيكم . . فقد كنتم فى بلاء يُصَبُّ عليكم صبًّا من آل فرعون . . « يسومونكم سوء العذاب » أى

يكرهونكم إكراهاً على هذا العذاب الأليم ، الذى يسوقونكم سوْقاً إليه ، كما تساق السائمة ، لا تملك من أمرها شيئاً . . « يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » أى فى هذا الذى كنتم فيه ، وفى هذا الذى صرتم إليه ، بلاء من ربكم واختبار لكم . . ففى الحال الأولى اختبار لصبركم على الضرّ ، وفى الحال الثانية اختبار لقيامكم بالشكر .

الآيات : (١٤٢ — ١٤٤)

* « وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ » (١٤٤)

التفسير : الواو فى قوله تعالى : « وواعدنا » ، للاستئناف ، حيث بدأت الآيات تعرض وجهاً آخر من وجوه قصة موسى مع بنى إسرائيل . .

وقوله تعالى : « وواعدنا » المواعدة لا تكون إلا بين طرفين ، والله سبحانه وتعالى هو الذى جعل لموسى هذا الموعد للقائه . ولكن لما كان موسى هو الذى تلقّى هذا الموعد وامتثله دون مراجعة ، فكأنه كان عن اتفاقٍ ورضًى بينه وبين ربه على هذا الموعد ، فصح أن يكون طرفاً فيه .

وفى هذا تكريم لموسى ، واحتفاء به !

وفى قوله تعالى : « ثلاثين ليلةً وأتممناها بعشر فتمّ ميقات ربّه أربعين ليلة » ـ فى هذا ما يسأل عنه ، وهو : ـ لماذا جاء النظم هكذا : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربّه أربعين ليلة» ولو جاء من أول الأمر: « وواعدنا موسى أربعين ليلةً » لكان ذلك مؤدياً المعنى ، مع الإيجاز ، الذى هو أسلوب القرآن الغالب فيه ؟ .

والجواب : أن الله سبحانه وتعالى ذكر ذلك الموعد فى سورة البقرة بقوله تعالى : « وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة » (٥١ : البقرة) وسورة البقرة مدنية ، وسورة الأعراف مكية . . أى أن ما ذكر هنا فى سورة الأعراف هو الذى نزل به القرآن أولاً ، فجاء به مفصلاً . . « ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر » . . ثم لما جاء ذكر هذا الموعد مرة أخرى جاء مجملاً : « وإذ واعدنا موسى أربعين ليلةً » وذلك بإحالة المجمل على المفصّل . .

وإذن فلا بد أن يكون لهذا التفصيل حكمة . . فما هى هذه الحكمة ؟ .

ونقرأ النصّ القرآنى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر » فنجد أن الثلاثين ليلة لم تكتمل لتكون موعداً تاماً حتى أضيفت إليها الليالى العشر ، فتمت حينئذ ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وأتممناها » .

والإتمام فى مقام الفضل والإحسان ، هو زيادة على المطلوب من الفضل والإحسان . . فضلاً وكرماً . . وهذا يعنى أن موسى ـ عليه السلام ـ كان على موعد ليكون فى ضيافة ربّه ثلاثين ليلة . . وهذا ما أُذِن به لموسى فى أول الأمر ، فلمّا أنس بألطاف ربّه ، ووصل نفسه بأنوار السماء ، وأضاف وجوده إلى العالم العلوى ـ عزّ عليه أن تنقطع رحلته بعد هذه المدة ، وأن يعود إلى عالم التراب والظلام ، ولكن لمّا لم يكن بدٌّ من أن يعود إلى قومه ، ويتمم رسالته التى بدأها معهم ، فقد كان من لطف الله به ، ومن تمام نعمته عليه أن مدّ ضيافته عشر ليالٍ أخرى . . ! فكانت ضيافته أربعين ليلة . ! وكان ذلك من تمام النعمة . . حيث أن هناك نعمة ، وتمام نعمة !

والله سبحانه وتعالى قدّر هذا الموعد بأربعين ليلة فى علمه الأزلى ، ولكنه سبحانه أعطى منها موسى أولاً ثلاثين ليلة ، ثم أتمّ عليه وعده ، بما كشف له من سوابغ فَضله ، ومزيد نعمائه ، بهذه الليالى العشر ، التى وقعت من نفس موسى أكثر مما كان للثلاثين ليلة من وقع فى نفسه ، إذ أنها جاءت على شوق ولهفة ، ووقعت على غير انتظار وتوقع . . وهكذا يكشف الله لأوليائه ، وأصفيائه ، من ألطافه التى قدّرها لهم فى علمه ، على هذا الأسلوب الذى يضاعف من آثارها ، حين تجىء فى أنسب الأحوال الداعية لها . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى للنبي الكريم : « إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ماتقدّم من ذنبك وماتأخّر ويُتمّ نعمته عَلَيك ويهديَك صراطاً مستقيما » . . وقولُه سبحانه ليوسف على لسان يعقوب : « وكذلك يجتبيك ربّك ويعلّمك من تأويل الأحاديث ويُتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمّها على أبويك من قبلُ إبراهيم وإسحق (٦ : يوسف) فإتمام النعمة هو البلوغ بها إلى غايتها ، من التمام والكمال . .

فهذه الليالى العشر ، هى إحسان ، ونعمة إلى نعمة . . فإنها وإن بدت أنها نافلة هى أوقع من الأصل ، لأنها ــ كما قلنا ــ جاءت على غير انتظار ، ووقعت أكثر مما كان يؤمّل ويُرجَى . . !

ففى بشارة الله سبحانه وتعالى لامرأة إبراهيم بالولد ، بعد اليأس منه ، جاءت إليها البشرى ، لا بالولد وحده ، بل بالولد ، وولد الولد ، حيث يقول الله تعالى : « فبشّرناها بإسحٰقَ ومن وراء إسحق يعقوب » .. ومع أن مولودها هو « إسحق » وهو غاية ما كانت تتمنىّ على الله .. فإنّ مما يضاعف من فرحتها أن ترى لإسحق ولداً . . وهذا الولد هو ــ فى الواقع ــ الذى وجدت فيه ريح الولد ، الذى تنسى به أنها عاقر ، وأنها قد بلغت من الكبر عتيّاً . . فهى بهذا الولد الذى يولد لإسحق ، يُرَدّ إليها اعتبارها بأنها أنثى كاملة ، وأنها تستقبل أولَ حياتها كأنثى وَلُود ، يكون لها أولاد وحَفَدة !

وهذا الذى كان من الله سبحانه لامرأة إبراهيم كان لإبراهيم ، إذ يقول الله سبحانه : « ووهبنا له إسحٰق ويعقوبَ نافلةً » (٧٢ : الأنبياء) . . أى زيادةً فى الفضل والإحسان . . فكلمة « نافلة » حال من يعقوب

* قوله تعالى : « وقال موسى لأخيه هرون اخلفنى فى قومى وأصلح ولاتتبع سبيلَ المفسدين » هو بيان لما كان عليه الموقف فى بنى إسرائيل بعد أن ذهب موسى لموعده مع ربّه . . فلقد جعل موسى أخاه هرون خليفة عليهم من بعده : إذ يقول له « اخلفنى فى قومى » ووصّاه بما ينبغى أن تكون عليه سيرته فيهم ، فقال « وأصلح » وهرون عليه السلام ، نبىّ كريم ، لا يكون منه إلا ما هو صالح ، ولكنه توكيد لرسالته ، وتحذير له مما يقع من القوم من مفاسد وشرور ، فالقوم ـ كما يعرفهم موسى ـ لا يستقيمون على حقّ ، ولا يصبرون عليه ، ومن هنا كان تحذيره لأخيه بقوله : « ولا تتّبع سبيلَ المفسدين » .

* قوله تعالى : « ولمّا جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربّه قالَ ربّ أرِنى أنظرْ إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف ترانى » .

الميقات : الموعد الذى أُقِّت له وقت ، فهو مكان وزمان معاً . . مكان معلوم ، ووقت محدود . .

وحين سمع موسى كلام ربّه ، كلاماً مباشراً من غير واسطة ، اشتاقت نفسه أن يرى ربّه الذى أسمعه صوته ، وأطمعه ذلك فى أن يطلب مالا يُطلب ، وذلك حين قدّر أن الذى يسمعه بأذنه يمكن أن يراه بعينه ، على أيّة حالٍ تكون هذه الرؤية . . !

ولهذا لم يطلب موسى الرؤية إلا بعد أن سمع الكلام .. فقال : « ربّ أرِنى أنظرْ إليك » وهذا ما يشير إلى أن موسى لم يكن يطلب رؤية كتلك الرؤية التى تقع له من عالم الأشياء.. وإنما هى رؤية من نوع فريد ، كما أن الكلام الذى سمعه

كان على صورة لم يعهدها فيما يسمع من أصوات .. فمعنى قوله « ربّ أرنى » أى بيّن لى طريق النظر إليك ، فإن بينّت لى أنظرْ إليك ، وإلاّ فلا سبيل إلى النظر .. ومثل هذا قول إبراهيم عليه السلام : « ربّ أرِنِى كيف تحيى الموت » .

وقد أجاب الله موسى بقوله : « لن ترانِى » .. هكذا حكماً قاطعاً مؤبداً .. إذ أن ذلك أمر مستحيل ..

ثم كشف الله ـ سبحانه ـ لموسى عن وجه الاستحالة هذه فقال له : « ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانَه فسوفَ ترانى » ..

وينظر موسى إلى الجبل ..

* « فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكًّا وخرّ موسى صَعِقاً » .

وهكذا يرى موسى بعينيه ، الشاهدَ الذى يكشف له وجهَ الاستحالة فى رؤية ربّه .. إن الجبل ، فى ضخامة كونه ، وشدة أسْرِه ، لم يتحمّل لحة من لحات تجلّى الذات الإلٰهية له .. لقد استشعر هذا الحجرُ الأصمّ جلالَ الله وعظمته ، فتهاوى ، وتفتت ، وصار حطاماً .. فكيف بالإنسان وضآلة جسمه ، وما فيه من مشاعر وأحاسيس ؟ أيحتمل شيئاً من هذا الجلال وتلك الخشية التى تصدّع لها الجبل ، وتشقق ، ثم هوَى ؟ لقد صُعِق موسى ممارأى من الجبل ، ومن تصدعه وتشققه وتهاويه .. فكيف لو كان ما نزل بالجبل نزل به ؟ .

وهنا يدرك موسى أن ما طلبه كان أمراً فوق المستحيل .. فيفزع إلى الله تائباً من تلك الجرأة التى دعته إلى هذا الطلب .

* « فلمّا أفاق قال سبحانك تُبتُ إليك وأنا أول المؤمنين » بك ، وبجلالك وعظمتك ..

* قوله تعالى : « قال ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » .

وهكذا يرجع موسى بهذا العطاء الجزيل، وهذا الفضل الكبير.. لقد اصطفاه الله واختاره من بين قومه، وجعله رسولاً إليهم برسالاته، وهى ما ضمت عليه التوارة من أسفار .. وأسمعه كلامه من غير واسطة.. وكلها نعم وأفضال، لا يفى بها شكر الشاكرين، وحمد الحامدين، ومع هذا فإن الله يقبل شكر الشاكرين، ويرضاه لهم.

الآيات: (١٤٥ — ١٤٧)

« وَكَتَبْنَا لَهُ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَاسِقِينَ (١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ ٱلْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (١٤٧)

التفسير: ثم بيّن الله سبحانه وتعالى محتوى ما حمله موسى من رسالات ربّه، فقال تعالى:

* « وكتبنا له فى الألواح من كلّ شىء موعظةً وتفصيلا لكلّ شىء » فهذه الألواح التى أنزلها الله على موسى، هى التوراة، وفيها مواعظ وعبر، بما تقصّ من أنباء السابقين، وبما تحدّث به من قدرة الله، وكيف خلق الخلق وأقام هذا الوجود، على ذلك النظام البديع، بعد أن كان عدماً لا وجود له.. ثم لقد جاءت التوراة فى أحكامها، وتشريعها وآدابها، على صورة مبسوطة

مفصلة تفصيلًا ، يتناول الكلّيات والجزئيات ، وجزئيات الجزئيات ، بحيث يكون كل شيء فيها واضحًا مفهومًا لكل إنسان ، أيًّا كان حظه من الفهم والإدراك .

وهذا التفصيل الذى جاءت عليه التوراة إنما يكشف عن طبيعة بنى إسرائيل ، وأنهم على شىء غير قليل من بلادة الحسّ وجفاء الطبع ، وسوء الفهم ، بحيث يُعامَلُون كما يعامل الأطفال فى كشف معالم الأشياء لهم ، كشفًا لا يحتاجون معه إلى عقل يفكر . . كما أن هذا التفصيل يراد لغاية أخرى ، وهى حصر هؤلاء القوم فى حدود ما تَرْسُم لهم الكلمات من حقائق ، رسمًا محدداً واضحاً ، يتناول أدق التفاصيل ، حتى لا يكون لأهواء القوم ونزعاتهم سبيلًا إلى التأويل الفاسد لمضامين الكلمات ومحتوياتها ، الأمر الذى لا يعين عليه هذا التفصيل المبيّن لكل شىء . . ومن هنا جاء بنو إسرائيل إلى التوراة بالتحريف ، والمسخ فحذفوا وأضافوا ، وغيروا و بدّلوا ، ليبلغوا بذلك ما لم يكن لهم إليه سبيل بالتأويل والتخريج .

* وقوله تعالى : « فَخُذْها بقوة » . . الضمير هنا للألواح ، وهى التى كتبت فيها التوراة . . وأخْذُها بقوة ، هو شدّ العزم على القيام لها ، والعمل بها ، والوفاء بما فيها من أمر ونهى . . فليست الشرائع والأحكام فى نصوصها وعباراتها ، وإنما هى بالعمل بما تحمل هذه النصوص وتلك العبارات ، من شرائع وأحكام ، وبتحويل هذه الشرائع وتلك الأحكام إلى واقع الحياة ، فتكون سلوكا تظهر فى الناس آثاره وشواهده .

* وقوله تعالى : « وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذوا بِأَحْسَنِها » أى بأحسن ما فى هذه الألواح ، والمراد بأحسن ما فى الألواح المُثل الطيبة للناس ، وهى التى تعرضها التوراة لأهل الإيمان ، والاستقامة والتقوى . . فهؤلاء هم الذين ينبغى

أن يُقتَدَى بهم ، كما يقول الله تعالى : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ » . . وفى التوراة غير هذه المثل الطيّبة من الناس ، مثل القوم الظالمين ، الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، وتلك المثل هى التى ينبغى للعاقل أن يحذرها ، ويتجنب الأخذ بها ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى بعد ذلك : « سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ » ففى تلك الديار التى ضمّت الفاسقين مُثُلٌ ظاهرة ، تحدّث بما حلّ بأهلها من بلاء ونكال . . فليحذر بنو إسرائيل أن يحلّ بهم ما حلّ بمن فسق عن أمر ربّه ، واعتدى على حدوده ، واستباح حرماته .

* وقوله تعالى : « سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ » .

فى هذا تحذير لبنى إسرائيل وتهديد لهم ، إن هم سلكوا سبيل الظالمين ، واستكبروا فى الأرض بغير الحق ، ومكروا بآيات الله ، وعصوْا رسله ، وتنكبوا طريق الخير ، وركبوا طرق الغىّ والضلال .

فهؤلاء الذين يتخذون هذا الموقف اللئيم مع آيات الله ، سيصرفها الله عنهم ، كما انصرفوا هم عنها ، فلا ينالون منها خيراً ، ولا يجدون فيها هدًى ، كما يقول الله تعالى : « وإذا ما أُنزِلَتْ سورة نظر بعضهم إلى بعضٍ هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون » (١٢٧ : التوبة)

لقد حجبهم الله عن مواقع رحمته ، بعد أن أخذوا من آياته هذا الموقف ، فأغمضوا أعينهم عنها ، وجعلوا أصابعهم فى آذانهم فلم يستمعوا لها . .

إذ كذبوا بها قبل أن ينظروا فيها ويعرفوا وجهها .. « ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » .

وقوله تعالى : « والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » تهديد بعد تهديد ، لمن كذّب بآيات الله ، ولم يَرْجُ لقاء اللهِ .. فمن كان هذا شأنه ، فقد حبط عمله ، وساء مصيره ، وذلك جزاء الظالمين : « هل يُجْزَوْن إلا ما كانوا يعملون » ؟ وإنهم لم يعملوا إلا شرًّا ، ولم يقدموا إلاّ سوءاً ، فلم يكن جزاؤهم إلا مايسوؤهم ويفسد عليهم وجودهم .

الآيات : (١٤٨ — ١٥٠)

« وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ » (١٥٠)

التفسير : لم يكد بنو إسرائيل يُفلتون من يد فرعون ، بتلك المعجزة القاهرة التي رأوها وعاشوها ، حتى غلبت عليهم طبيعتهم .. من كُفرِ النعم ، ومحاربة

المنعِم ، وإذا هم يأتمرون فيما بينهم ، فيما كانوا قد طلبوه من موسى من قبل فردّه عنه ، ونصح لهم . . فقد سألوا موسى حين رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم ، أن يجعل لهم إلهاً كما لهؤلاء القوم آلهة . . فأجابهم موسى : « إن هؤلاء متبّر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . » ثم قال لهم : « أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ؟ » .

فلما ذهب موسى لميقات ربّه ، انتهزوها فرصة،فأخرجوا هذه الضلالات التى كانت تدور فى رءوسهم ، إلى واقع الحياة .. فصنعُوا عجلاً من ذهب على يد رجل منهم ، قد أعدّ نفسه لهذه الفَعْلة ، وأخذ لها وسائلها ، وقد ذكر القرآن الكريم اسمه فى موقف آخر فى قوله تعالى : « قال فإنا قد فَتَنَّا قَوْمَكَ من بَعْدِكَ وأَضَلَّهُمُ السَّامِرِىُّ * فَرَجَعَ مُوسَى إلى قومه غَضْبَانَ أَسِفاً » (٨٥ — ٨٦ : طه) . .فهذا الرجل هو «السامرى » ، وقد فعل ماسنرى بعد .

* وقوله تعالى : « واتخذ قوم موسى من بعده من حُلِيِّهم عجلاً جَسَداً له خُوار » هو خبر عن تلك الفَعلة النكراء التى كانت من هؤلاء القوم . .

وقد أضافهم الله إلى موسى هكذا : « قوم موسى » تذكيراً لهم بتلك الآيات التى أجراها الله على يديه ، تلك الآيات التى لم يكن لهم منها عبرة أو عظة .. وفى هذا توبيخ لهم ، واسترذال لعقولهم ، وأنه ما كان لقوم ينتسبون إلى موسى الذى جاءهم بهذا الخير الكثير ، وبتلك الآيات المشرقة ، أن يفعلوا هذا الفعل المنكر الذى فعلوه . .

وفى قوله تعالى : « من حليِّهم » إشارة إلى المادة التى صُنع منها العجل ، وهى مما يتحلى به القوم ويتزينون ، وهو الذهب ، والفضة ونحوها .

وكان بنو إسرائيل عند خروجهم من مصر قد عملوا على أن يُخفوا أمرهم على المصريين ، فتخيّروا يوم عيد من أعيادهم كانوا قد رصدوه لخروجهم من

مصر خفية . . ثم إنهم لكى يضللوا المصريين عنهم ، طلبوا إلى نسائهم أن يستعيروا من جاراتهن المصريات ما يقدرن على استعارته من الحلىّ ، على ماجرت به العادة من التزين فى الأعياد . .

ثم حين خرج بهم موسى ، وجاوز بهم البحر ، ونجاهم من فرعون ، ذكر لهم ما كان منهم من سلب ما سلبوا من حلىّ ، وأراهم أن ذلك خيانة للأمانة ، وعدوان على غيرهم ، وأنه لايجوز لهم وقد خلصهم الله من البغى ، أن يكونوا من الباغين . .

وقد تحرّج كثير منهم من هذا الحلىّ المسلوب ، ولكنهم ظلّوا ممسكين به ، لاتطاوعهم أنفسهم على أن يفلت من أيديهم . . إنه الذهب والفضة ، يبيع اليهودىّ عمره من أجل قبضة منهما !

ثم إنه لمّا أخلى موسى مكانه فيهم إلى مناجاة ربّه ، تناجوْا هم مع شياطينهم ، وانتهى الرأى بينهم إلى أن يقيموا لهم معبوداً ، وجعلوا هذا المعبود عجلا مصنوعاً من ذهب ، وهان فى أعينهم هذا الذهب الذى سلبوه وأمسكوه ، حين جعلوه مادة لهذا الإله الذى تصوروه . . فصوروه وجسّدوه !

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى فى سورة طه : « قال ياقوم ألَمْ يَعدكم ربكم وعداً حسناً أفطَالَ عليكم العهد أم أردتُمْ أن يحلّ عليكم غضب من ربكم فاخلَفْتمْ موعدى * قالوا ما أخْلَفْنا مَوْعِدَك بِمَلْكِنا وَلكنا حملنا أوزاراً من من زينةِ القَومِ فقذفناها فكذلك ألقى السامرى * فأخرج لهم عجلاً جسداً له خُوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى » (٨٦ — ٨٨ :) . .

ففى قولهم « حُمّلنا أوزاراً من زينة القوم » إشارة إلى أن هذا الذى كانوا يحملونه من زينة المصريين هو أوزار تثقلهم ، وأنهم انتهزوا هذه الفرصة

فتخلصوا منها على هذا الوجه الغبي . . إنها ـ كما علموا ـ أوزارٌ ، وسيئات ، ومع هذا فقد صاغوا منها إلها يعبدونه ! ! فما أغبى غباءهم ، وما أضلّ ضلالهم . يسرقون ، ويتصدقون . . كالزانية تزنى وتتصدق !!

ولكن التوراة تحكى قصة هذا الحلىّ الذى أخذه بنو إسرائيل من المصريين ليلةَ خروجهم من مصر ـ تحكى هذه القصة على وجه غريب ، فتنسب هذا الفعل إلى الله ، وتجعله أمراً من عنده إلى بنى إسرائيل ، لينتقموا من المصريين بهذا الفعل الدنىء ، الذى تأباه النفس الكريمة ، فكيف يجوز أن يكون هذا أمراً من أمر الله ، وَوَصاة من وصاياه ؟

تقول التوراة على لسان الرب :

« وأعطِى نعمةً لهذا الشعب فى عيون المصريين ، فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعةَ فضةٍ وأمتعة ذهب وثياباً تضعونها على بنيكم وبناتكم ، فتسلبون المصريين !! » (٣ : خروج) .

وهكذا تبلغ الجرأة بالقوم على الله ، فيحرفوا كلِمه عن مواضعه ، ويغيرُوا ويبدلوا فى كلماته ، حتى تستقيم مع أهوائهم المريضة ، وتجرى مع نزعاتهم الفاسدة ، وحتى ليضيفوا إلى الله كل إثم لهم ، ويجعلوا شريعته مغرساً لكل فسقٍ منهم . . فهم إذا سرقوا غيرهم أو نهبوه كان ذلك عن أمر الله ، إذ أباح لهم دماء الناس وأموالهم .. حسب ما أدخلوه على التوراة من تحريف .

وفى قوله تعالى : « له خوار » أى صوت كصوت البقر . . وذلك أن « السامرى » . . كان قبض قبضة من أثر الملَك الذى كان يخاطب موسى ، ثم قذف بهذه القبضة على هذا العجل الذى صوره من الحلىّ الذى قذفه القوم فى النّار ، فإذا هو عجل له حياة ، وله خوار ! !

وسنعرض لهذه القصة فى موضعها من سورة « طه » إن شاء الله . .

وقوله تعالى : « ألم يَرَوْا أنه لايكلمهم ولايهديهم سبيلاً » إشارة إلى غفلة القوم ، وإلى إغراقهم فى الجهل والضلال . . ذلك أنه إذا كان قد أخذ « السامرى » على عقولهم بهذا الذى فعله ، فإنه لم يزد على أن جاء بعجل كسائر العجول التى تملأ السّهل والوعر . . فكيف يصح أن يكون هذا العجل بالذات إلها لهم يعبدونه من دون الله ؟ إنه لأكثرمن حيوان ، فكيف يعبد الإنسان ما هو أقل منه شأنا ؟ « ألم يَرَوْا أنه لا يكلمهم ولايهديهم سبيلا ؟ » .

وقوله تعالى : « اتخذوه وكانوا ظالمين » هو جواب لسؤال مقدر هو : « وهل اتخذ القوم هذا العجل إلٰها مع أنه لم يكلمهم ، ولم يكشف لهم طريقاً إلى الحق ؟ » فكان الجواب : نعم ، اتخذوه ، وهم فى اتخاذهم إياه ظالمون ، معتدون على الله ، مُلقون بأنفسهم فى البوار والهلاك . .

* قوله تعالى : « ولما سُقِطَ فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضَلُّوا قالوا لئن لم يَرْحَمْنا ربُّنا ويغفرْ لنا لنكونن من الخاسرين » أى حين وقعت الواقعة ، وظهر العجل بينهم ، ووقفوا منه موقف العابدين ، بَانَ لهم ضلالهم ، وانكشف لهم سوء فَعلتهم ، ولكنهم لم يدروا ماذا يصنعون بهذا الإله القائم بينهم . . !

* وقوله تعالى : « ولما رَجَع موسى إلى قومِه غَضْبانَ أَسِفاً قال بئسما خلَفْتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه » .

كان موسى قد علم ـ وهو فى مناجاة ربّه ـ أن قومه قد فُتِنوا من بعده ، وضلوا ، وذلك كما أعلمه الله تعالى بقوله : « وما أعجلك عن قومكِ ياموسى *

قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك ربى لترضى * قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرىّ » (٨٣ — ٨٥ : طه) .

وقوله تعالى : « بئسما خلفتمونى من بعدى » زجرٌ لهم ، وتشنيع لفعلهم ، وما أحدثوه من بعده ، وقد كانوا خلفاءه على شريعة الله التى تركها فى أيديهم .

وقوله : « وعجلتم أمر ربكم » إشارة إلى أنهم لم ينتظروا حتى يجيئهم موسى من الميقات ، حاملاً لهم شريعة الله إليهم ، كما وعدهم من قبل .

وقوله : « وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه » إشارة لمظاهر الغضب والأسف التى نفّس بها موسى عن نفسه ، لما رأى ماعليه قومه من كفر وضلال .. فلم يجد إلا هرون ، الذى أقامه على القوم ، وقال له : « اخلفنى فى قومى وأصلح » فأمسك به من رأسه يجره إليه فى عنف ، ويؤنبه فى غضب .

وقوله : « قال ابن أمّ إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تُشْمِتْ بِىَ الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين » هو استعطاف من هرون لأخيه الذى ثار عليه ثورته تلك ، وأخذه من ناصيته يجره إليه ..

وفى نسبته إليه بأمه زيادة فى الاستعطاف ، إذ يذكر موسى بهذا النسب ، فترة الطفولة التى كانت تضمه هو وهرون تحت جناح أمهما ، فيرقّ له وتأخذه الشفقة به .

ومن عجب أن التوراة تنسب إلى هرون عليه السلام ، أنه هو الذى صنع العجل لبنى إسرائيل ودعاهم إلى عبادته ! !

ولا تعجب لهذا ، فإن فى التوراة أموراً منكرة ، أدخلها اليهود عليها لحاجات فى أنفسهم .. ولا أدعك لتذهب بك الظنون كل مذهب .. وها ذا هو بين يديك ماتقول التوراة هنا :

« ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل اجتمع الشعب على هرون ، وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا ، لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه .. فقال لهم هرون : انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وآتونى بها ، فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم وأتوا بها إلى هرون ، فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وجعله عجلا مسبوكا » (٣٢ : سفر الخروج) .. فيالله من هذا الافتراء على رسول كريم من رسل الله !

الآيات : (١٥١ — ١٥٢)

« قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ » (١٥٣)

التفسير : وتقع كلمات هرون موقعها من نفس موسى ، فيرقّ له ، ويأسف لما أخذه به ، فيدعو الله له ولأخيه بالمغفرة : « ربّ اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين » ولم يُدْخِلْ أحداً من بنى إسرائيل معهما فى هذا الخير الذى طلبه من ربّه ، لأنهم على حالٍ ليسوا هم فيها أهلا لرحمة أو مغفرة ، لهذا الإثم العظيم الذى أغرقوا أنفسهم فيه ، والذى استحقوا به أن يتوعدهم الله تعالى بقوله : « إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضبٌ من ربّهم وذلّة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين » .. فهكذا يُجزى البغاة الظالمون ،

الذين يتخذون العجل إلٰهاً معبوداً .. وهكذا يقع هؤلاء الذين عبدوا العجل تحت غضب الله ، ولعنته ، فتُضرب عليهم الذلّة والمسكنة في هذه الدنيا ، فهذا حكم واقع عليهم لايُرفع عنهم أبداً بتوبة أو استغفار ، وقد كان من غضب الله عليهم أن أمرهم بأن يقتل بعضهم بعضاً ، كما قال تعالى : « وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجلَ فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بَارِئِكُمْ » (٥٤ : البقرة) فليس غير القتل سبيلا إلى إصلاح ما أفسدوا . . إنهم بهذا الإثم الذى تلبسوا به قد أصبحوا كياناً فاسداً ، لايصلح للحياة ، ومن الخير للإنسانية القضاء على هذا الداء الخبيث الذى نجم فيها!

أما فى الآخرة فأمرهم إلى الله ، فإن تابوا ورجعوا إلى الله ـ وليست توبتهم إلا بأن يقتلوا أنفسهم ـ كانوا فى معرض رحمته ومغفرته ، وإن ظلوا على ماهم عليه من ضلال وكفر ، فإن الله أعدّ للكافرين عذاباً مهيناً .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربّك من بعدها لغفور رحيم » .

والضمير فى « من بعدها » يعود إلى السيئات ، أى تابوا وآمنوا من بعد فعل هذه السيئات ، وقد جعل الله توبتهم بأن يقتلوا أنفسهم ، بعد أن يؤمنوا بالله ، ويَبرءوا من عبادة العجل الذى عبدوه !

الآيات : (١٥٤ — ١٥٥)

« وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ

إلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَآءُ وَتَهْدِى مَنْ تَشَآءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ » (١٥٥)

التفسير : فى التعبير عن ذهاب الغضب عن موسى بالسكوت هكذا : « ولما سكت عن موسى الغضب » إشارة إلى أنه كان غضباً عارماً ، مُجَسَّدَا ، حتى لكأنه كائن حىّ ، له صوت مسموع ، يهتف بموسى : أن اغضبْ !

وفى قوله تعالى : « للذين هم لربهم يرهبون » توكيد الرهبة وإضافتها إلى الله ، ، وقصرها عليه وحده .. والرهبة : الخوف من الله ، والخشية له ..

وقوله تعالى : «واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا » أى تخيّر موسى من قومه سبعين رجلا ليكونوا معه فى ميقاته مع الله ، وليروا معه الله الذى طلبوا إليه أن يريهم إياه ، فلما تجلى الله سبحانه وتعالى للجبل وجعله دكّا ، وخرّ موسى صعقا ـ صُعق معه هؤلاء السبعون الذين اختارهم من رءوس بنى إسرائيل.. وحين أفاق موسى ، ورأى القومَ صَرْعى حوله ، هالَهُ الأمر ، وخشىَ أن يلقى قومه وبين يديه هذا الخبر بمصرع رؤسائهم .. وهنا يناجى موسى ربه : « ربّ لوشئتَ أهلكتهم من قبلُ وإيایَ » إنه يتمنى لوأن الله كان أهلكهم وأهلكه معهم ، وهم بين القوم ، حتى لاينظر إليه القوم نظرة الجانى على هؤلاء الصرعى .

وقوله : « أتهلكنا بما فعل السُّفهاء منّا » هو استفهام استعطاف ، يفيد الدعاء ، أى ربِّ لاتهلكنا بما فعل السفهاء منّا .

وقوله : « إنْ هى إلا فتنتك تضلُّ بها من تشاء وتهدى من تشاء » .. الفتنة : الابتلاء والاختبار ، أى مايُبتلى الناس به من خير أوشر ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » .. فما يبتلى به الناس من نعم

ونقم ، ومن عافية وبلاء ، هو امتحان لإيمانهم ، وابتلاء لحمدهم للخير أو كفرهم به ، ولصبرهم على الضرّ أو جزعهم منه ..

فالذى ابتُلى به بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر هو نعمة وعافية ، ولكنهم كفروا بهذه النعمة ، وتمرّدوا على الله بتلك العافية ، فابتلوا بالبلاء والنقمة .

وقوله : « أنت وليّنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين » هو تضرع من موسى إلى الله أن يغفر لهم ويرحمهم ، « ومن يغفر الذنوب إلا الله » ؟.. إنه هو ولىّ من يتوب إليه ، ويلجأ إلى حماه . .

وفى النظم القرآنى تقديم وتأخير . . فاختيار موسى لمن اختارهم من بنى إسرائيل لميقاته مع ربه ، كان قبل أن تقع هذه الأحداث التى وقعت فى بنى إسرائيل ، من عبادة العجل ، وما كان بين موسى وهرون ، من لومٍ ، ومؤاخذة ، وفى هذا إلفات إلى ماينبغى الإلتفات إليه من أمر القوم ، على حسب مايقع للناظر إليهم ، وما يطلع عليه من منكراتهم وآثامهم . . !

الآيات : (١٥٦ — ١٥٩)

* « وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٧٥)

«قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون (١٥٨) وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ » (١٥٩)

التفسير : هنا يدعو موسى ربّه أن يكتب له ولقومه فى هذه الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، أى يجعل لهم حظًّا من رحمته فى الدنيا والآخرة ، بعد أن تابوا إليه وقالوا : « إنّا هُدْنا إليك » أى رجعنا إليك بعد أن فارقناك بعبادة غيرك . . والمراد بالحسنة فى الدنيا : النعم ، وسعة الرزق ، وعُبّر عنها بالحسنة ، لأنها مما يحسن وقعه وأثره فى النفوس .

وقوله تعالى : « قال عذابى أُصيبُ به من أشاء ورَحْمتِي وَسِعَتْ كُلَّ شيء » . . هو بيان لحكم الله تعالى فى عباده . . فعذابه واقع على من يشاء من عباده ، وليس على كل عباده ، وإنما هو نازل بأهل الكفر والضلال . . وأما رحمته فهى عامة شاملة ، تسع الوجود كلَّه ، وهى على سعتها ، وعمومها وشمولها ، لا ينالها إلا أهل طاعته الذين آمنوا واتقوا . .

وقوله تعالى : « فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » هو ردٌّ على طلب موسى فى قوله مخاطبا ربه : « واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة » . . المراد بالكتابة التقدير والوقوع ، والجعل ، والشمول ، وعبّر عن ذلك بالكتابة لأنها أوثق وأثبت .

والمعنى : إن رحمة الله مع أنها عامة شاملة ، تسع الوجود كلّه ـ لا تنال إلاّ الذين آمنوا بالله ، وأخلصوا دينهم لله .

والذى ينبغى الالتفات إليه هنا ، هو أن الله سبحانه وتعالى لم يستجبْ

لموسى ما سأل فى قومه أن يكتب لهم فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، إذ كان قول الله لموسى : « عذابى أصيب به من أشآء ورحمتى وسعت كلّ شىء » حكماً عاماً يقع على الناس جميعاً ، ولا يتعلق بهذا الدعاء الذى دعا به موسى ربّه .

وفى هذا ما يدلّ على أن الله سبحانه لم يشمل بنى إسرائيل بتحقيق هذا الدعاء فيهم ، بل وضعهم جميعاً تحت الحكم العام الذى يأخذ الله به عباده ، وهذا يعنى أن الله سبحانه وتعالى يعلم من هؤلاء القوم أنهم لن يستأهلوا هذه النعمة التى لو استجاب الله لموسى فيها ، لكانت بركةً تحفّ بهم إلى يوم القيامة . . ذلك أن القوم قد مسّتهم لعنة الله قبل ذلك ، ونزل بهم غضبه ، فكان ذلك هو الثوب الذى يلبسونه ، وتلبسه أجيالهم المتتابعة أبدَ الدهر . .

وانظر . . إن الله سبحانه وتعالى استجاب لجميع أنبيائه فيما سألوه لأقوامهم من خير أو شر .

، فهذا نوح عليه السلام يدعو ربه بهلاك قومه : « رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا » (٢٦ — ٢٦ : نوح) .فيهلكهم الله بالطوفان.

وإبراهيم ـ عليه السلام ـ يقول : « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِين » فيكون جواب الله له : « فبشرناه بغلام حليم » (١٠٠ ـ ١٠١ : الصافات)

ويقول : « رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ . . » فيجىء حكم الله : « قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضطرُّهُ إلى عذابِ النَّارِ وبِئْسَ المصير » (١٣٦ : البقرة)

وموسى عليه السلام ، يدعو ربّه ليأخذ فرعون وملأه ، وهرون ـ عليه السلام ـ يردد معه الدعاء : « ربَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ

عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » فيلقاهما الله سبحانه بقوله : « قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا » (٨٨ — ٨٩ : يونس) .

أما هنا ، إذ يدعو موسى ربه له ولأخيه ولقومه ، فلا يقبل الله هذا الدعاء على إطلاقه ، بل يقبله فى المؤمنين ، الذين يستقيمون على طريق الإيمان والخير : « عذابى أُصيبُ به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء » وفى تقديم العذاب إشارة إلى أن العذاب هو الجزاء المرصود لبنى إسرائيل ، وأن الرحمة التى تنالهم ، هى الرحمة العامة التى تسع الوجود كله ، حتى أهل النار فى النار !

والسؤال هنا : ما معنى « ورحمتى وسعت كل شىء » إذا كانت لا تنال العصاة والضالين والكافرين ؟ ، أليس هؤلاء العصاة الضالون الكافرون من أشياء هذا الوجود ؟ . فكيف لا تسعهم رحمة الله التى وسعت كل شىء ؟ .

والجواب على هذا : أن كتابة الرحمة شىء ، وسعتها للناس شىء آخر .

فالكتابة لمن كُتبت لهم الرحمة تعنى — كما قلنا — تقريرها ووقوعها ، وشمولها ، فمن كُتبت لهم الرحمة — جعلنا الله منهم — فهم السعداء ، الذين تُفتح لهم أبواب الجنة ، ويُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . وأما سعة الرحمة فإن الوجود جميعه — علوه وسفله — والناس جميعًا — برّهم وفاجرهم — داخلون فى رحمة الله ، التى وسعت كل شىء . . وقد قلنا من قبل إن الوجود فى ذاته — على أسوأ وجه يراه الإنسان — هو فى ذاته نعمة ، ورحمة ، لأنه خير من العدم . . ثم إن العصاة — فى الدنيا — لم يحجب الله عنهم نِعمه ، ولم يحرمهم رزقه ، ولم يصبهم فى جوارحهم التى يعيشون بها مثل سائر الناس .

وأصحاب النار وهم فى النار ، هم ممن وسعتهم رحمة الله ، إذ هناك عذاب فوق هذا العذاب ، وبلاء أكبر من هذا البلاء ، وقد وقف الله بهم عند هذا

الحدّ من العذاب الذى هم فيه ، وذلك رحمة من رحمته ، ولولا ذلك لضاعف لهم هذا العذاب الذى هم أهلٌ له بما ارتكبوا من آثام .

وقوله تعالى : « الذين يتبعون الرّسول النبيّ الأمىّ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهُمْ عن المنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ويَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ » .

فى هذه الآية أمور . . منها :

أولا : أنها بيان لمن يستجيب الله لموسى فيهم من قومه ، ويكتب لهم فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، وأنهم هم الذين يتقون الله ويؤتون الزكاة ، ويؤمنون بآياته ، ويعملون بها ويستقيمون عليها . . وذلك فى عهد موسى ، وإلى أن يأتى النبىّ الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل .

وثانياً : إذ جاء هذا النبىّ الأمىّ الذى يجدون صفته عندهم فى التوراة والإنجيل . فإن الله لا يكتب لهم الرحمة ولا يدخلهم مداخل المؤمنين ، حتى يتبعوا هذا النبىّ ويؤمنوا به . . « الذين يتبعون الرسول النبىّ الأمىّ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل » فهؤلاء هم اليهود والنصارى ، وقد عرَف الفريقان صفة هذا النبىّ فى كتبهم التى بين أيديهم ، وأُمروا بالإيمان به عند ظهوره . .

وثالثاً : من صفات هذا النبىّ . . أنه رسول ، ونبىّ ، وأمىّ ، وأنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرَهم ، أى العهود التى أخذها الله عليهم ، وهى الأحكام التأديبية التى أدّبهم بها ، وفرض عليهم التزامها ، كتحريم كل ظفر ، وكتحريم شحوم الغنم والبقر إلا ماحملت ظهورها ، أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ، وكتحريم

العمل فى يوم السبت .. وهذه كلها قيودٌ وأغلال قيدهم الله بها ، وغلّ أهواءهم الجامحة عن الحركة .. وهذا فى شأن اليهود ، أما النصارى ـ وهم يهود أصلا ـ فقد كان فى شرع المسيح لهم ماهو أقسى من هذا قسوة وأشدّ تنكيلا ، ويكفى ما جاء فى وَصاة المسيح لهم فى قوله : « من لطمك على خدّك الأيمن ، فحوّل له خدّك الآخر أيضاً ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً » (٥ : إنجيل متى) !

رسالة الإسلام ونسخها للرسالات السابقة

فالنبي الأمىّ هو الذى جاء رحمة عامة شاملة للناس جميعاً ، قد جعل الله مَحامِلَ دعوته عامة إلى جميع الأمم والشعوب .. ومن هنا كان مبعثه إيذاناً برفع هذه القيود التى قيّد الله بها أُولئك الذين جعل سبحانه من شريعته لهم ، هذا التأديبَ الشرعىّ ، الذى لا يُرفع عنهم ثِقْلُه أبداً ، إلا إذا ظهر النبى الأمىّ ، وإلا إذا اتبعوا هذا النبىّ الأمى ، وعندئذ فقط يسقط عنهم هذا الحمل الذى وضعه الله على ظهورهم ، ويُرفع هذا العهد الذى أخذه الله عليهم ، وتوعّدهم بالعذاب الأليم إن هم نقضوه ، قبل ظهور هذا النبىّ الأمى ، والإيمان بهذا النبىّ الأمّىّ ، والأخذ بشريعته .. « فالذين آمنوا به وعَزَّرُوهُ ونَصَرُوهُ واتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .. ومعنى عزّرُوهُ : منعوه من أعدائه ، وكانوا سنداً له ووقاية ، والمراد بالنور الذى أُنزِلَ معه ، القرآن الكريم .. وهو نور وهدًى لمن طلبه ، وفتح عينه وقلبه له .

وهذه الآية تقرر فى صراحة صريحة أن رسالة الإسلام رسالة عامة شاملة ، وأن اليهود والنّصارى لن تكتب لهم رحمةُ الله ، ولن يكونوا من المؤمنين ، إلا إذا تابعوا النبىّ الأمىّ ، واستجابوا لدعوته ، ودخلوا فى دين الله ، وهو الإسلام .

ويتقرر هذا الحكم من وجهين :

أولهما : ما نَصّ عليه القرآن فى هذه الآية ، وما أسمعه الله تعالى موسى ، وهو يطلب إلى الله أن يكتب له ولقومه فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة . . فإن الله سبحانه وتعالى ما استجاب هذه الدعوة على إطلاقها ، بل استجابها للمتقين الذين يؤمنون بآيات الله التى نزلت على موسى ، وعلى من جاء إلى بنى إسرائيل بَعْدَه من أنبياء ، وخاصة عيسى عليه السلام ، حتى إذا جاء النبى الأمىّ ــ محمد صلوات الله وسلامه عليه ــ لم يكتب لأتباع التوراة والإنجيل حسنة فى الدنيا ولا فى الآخرة حتى يؤمنوا به . . وهذا هو بعض السرّ فى وصْل قوله تعالى : « فسأ كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » بقوله سبحانه بعد هذا : « الذين يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الأمىَّ الَّذِى يجدونه مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِى التَّورَاةِ وَالإنْجِيلِ .. » فالذين يتبعون الرسول النبى الأمى ، بدل من قوله تعالى : « فسأ كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » . . ومعنى هذا أن حكم كتابة الحسنة مشروط بشرطين : يتحقق أحدهما فى عهد موسى ، ومَن جاء بَعده من أنبياء بنى إسرائيل، إلى عيسى . والشرط هو تقوى الله والإيمان بآياته التى يحملها رسله . : وهذا الشرط وحده يكفى لتقرير الحكم إلى أن يُبعث النبى الأمى ، فإذا بُعث هذا النبىّ ، أضيف إلى هذا الشرط الشرط الآخر ، وهو الإيمان بهذا النبى الأمى، الذى لا يتحقق الشرط الأول ، وهو التقوى والإيمان بآيات الله إلا بالإيمان به ، وبالكتاب الذى معه !

وثانيهما . أن هذين الشرطين قد حملتهما التوراة ، التى هى شريعة أتباع موسى وأتباع عيسى معاً ، وأن الإيمان بعد ظهور محمد لا يتم إلا إذا تحقق الشرطان معاً ، وإلا إذا آمن اليهود والنصارى بما فى كتابيهما اللذين

دَعَواهم إلى الإيمان بهذا النبي ، فإذا لم يؤمنوا به ، فقد كفروا بالكتاب الذى فى أيديهم ، وبهذا لم يكونوا من المؤمنين . .

وفى قوله تعالى : « قل يآ أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لآ إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » توكيد لعموم رسالة النبيّ الأميّ ، وأنه مبعوث للناس جميعاً ، ولهذا أمر الله نبيه الكريم أن يؤذّن فى الناس ، بما أمره الله أن يؤذن به فيهم : « يآ أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً » .

وهذا القول ليس من قول النبيّ الذى حكاه القرآن عنه ، وإنما هو مما أمره الله به ، فقال تعالى : « قُلْ يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً . . » ثم أتبعَ هذه الدعوة بعرض بعض ما لله الذى يدعو إلى الإيمان به ، من صفات : « الذى له ملك السموات والأرض لآ إله إلا هو يحيي ويميت » . . فالله سبحانه له ملك السموات والأرض ، لاشريك له فى ملكه ، ولا إله معه — بيده الحياة والموت ، « فآمنوا بالله » الذى هذا ملكه ، وذلك سلطانه ، « ورسولِهِ » الذى يحمل رسالته إلى الناس جميعاً . . « النبيّ الأميّ الذى يؤمن بالله وكلماته » فهذا الرسول ، من صفاته أنه نبيّ أميّ ، لايقرأ ولا يكتب ، وأنه يؤمن بالله ، ويؤمن بكلمات الله التى نزلت عليه ، وعلى رسل الله من قبله . . « واتبعوه لعلكم تهتدون » فإن فى الإيمان بالله ورسوله ، وفى اتباع هذا النبيّ والاستجابة له ـ الهدايةَ والرشاد ، ولن يكون لمخالفه والمتأبّى عليه ، والمُحادِّ له ، رجاء فى هدًى أو مطمع فى نجاة .

وقوله تعالى : « ومن قوم موسى أمّةٌ يهدون بالحق وبه يعدلون » هو تحريض لليهود على متابعة النبي والاستجابة له ، والانتصار لدعوته ، وذلك أن

هؤلاء القوم ، وإن كانوا كما عرفتهم الحياة ، وكما سيكشف القرآن الذى سينزل فيهم بعد هذا ، كثيراً من وجوه بغيهم وضلالهم — فإن فيهم قلة قليلة تحتفظ فى كيانها بمعالم الإنسانية السليمة ، قد عرفت الحق واستقامت عليه ، وحكمت به حكماً عادلا بعيداً عن الهوى . .

والمراد بهؤلاء ، هم بعض علماء اليهود والنصارى وأحبارهم ورهبانهم ، وقد دخل كثير منهم فى الإسلام وأصبحوا فى عِداد المسلمين . .

وإذا عرفنا أن هذه السورة مكية ، وأن النبى صلوات الله وسلامه عليه ، لم يكن قد واجه اليهود بعد ، ولم يكن بينه وبينهم لقاء مباشر بدعوته — إذا عرفنا هذا أدركنا سرّ هذه الإشارات البعيدة التى كان يشير بها القرآن إلى اليهود ، حيث كانت هذه الإشارات إرصاصاً بالمواجهة الصريحة التى ستكون بين النبى واليهود ، بعد أن يهاجر النبى إلى المدينة ، ويلتقى باليهود ، ويقع بينه وبينهم هذا الصراع العنيف الذى عرضه القرآن الكريم ، والذى انتهى بإجلاء اليهود من المدينة ، فى عهد النبى ، ثم بإجلائهم من الجزيرة العربية كلها فى خلافة عمر بن الخطاب . . رضى الله عنه ، وأرضاه .

الآيات : (١٦٠ — ١٦٢)

« وَقَطَّعْنَاهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ

وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ » (١٦٢)

التفسير: الأسباط: جمع سِبْط، وهو الحفيد، والمراد بالأسباط هنا هم الذرية التي وُلدت لأبناء يعقوب الاثنى عشر، الذين دخلوا مصر فى عهد أخيهم يوسف، والذين كان منهم بنو إسرائيل الذين أخرجهم موسى من مصر..

ويظهر من هذا أن القوم لم ينزعوا عنهم عصبية البداوة، التى دخلوا بها مصر، بل ظلت متحكمة فيهم طوال تلك الأجيال التى عاشوها بين المصريين، فاحتفظ كلّ ولد من أبناء يعقوب الاثنى عشر بنسب ذريته إليه من بعده، فكما كانوا اثنى عشر ولداً، صاروا فيما بعد اثنتى عشرة قبيلة !

وفى قوله تعالى: « وقطّعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً » إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى ابتلاهم بهذا التمزق فى عواطف المودة والإخاء بينهم، فقطّع أوصال هذه الأخوة، التى كان من شأنها أن تجمع بعضهم إلى بعض، وأن تجعل منهم كياناً واحداً، خاصة وهم فى دار غُربة، وليس هذا فحسب، بل هم فى وجه محنة قاسية بما رماهم به فرعون من بلاء..

وفى قوله تعالى: « أسباطاً أمماً » إشارتان:

الأولى: أن أعدادهم المقطعة إلى اثنتى عشرة قطعة، كانت أعداداً كثيرة، وأن كل قطعة منها هى أمة، فى كثرة عددها.. أولا، وفى تمايزها عن غيرها..

ثانيا . ولهذا كان الملاحظ فى العدد هو الأمة لا الأسباط، لذلك أنث العدد بجزئيه ، كأنه قال : « وقطعناهم اثنتى عشرة أمة » . . فأمة هى التميز لهذا العدد لا الأسباطا ، وقد جاء التميز جمعاً ولم يجىء مفرداً كما هو الشأن فى تميز الأعداد المركبة ، للدلالة على أن الأمة الواحدة من هؤلاء القوم هى أمم ، فى مختلف مشارب أفرادها ، وتنازع أهوائهم . . فكل جماعة فى داخل هذه الأمة هى أمة ، فى اتجاه أهوائها ، واختلاف مشاربها .

ثانياً : أن ذكر الأسباط ، يشير إلى أن هذا التقطيع لتلك الجماعة قام على أسلوب خاص ، وهو أن كل قطعة ترجع فى أصلها إلى أبيها الأول من أبناء يعقوب . .

* وقوله تعالى : « وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناسٍ مشربهم » .

استسقاه قومه : طلبوا السُّقيا منه ، حيث كانوا فى الصحراء ، ولا ماء هناك . . وقد ثارت ثائرتهم فى وجه موسى ، وكادوا يكونون عليه لِبَداً ، فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه الحجر ، فيخرج منه الماء الذى يشربون منه . .

وقد ضرب موسى بعصاه الحجر ، فانبجست منه اثنتا عشرة عينا ، بعدد أسباطهم ، أو أممهم .

والانبجاس : تدفق الماء من محبسه فى رفق ولين . . ثم كان التدفق الهادر بعد أن أخذ الماء مجراه ، وقد جاء قوله تعالى : « فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً » (٦٠ : البقرة) ـ جاء بالوصف الذى يضبط هذه الصورة كلها . .

وقوله تعالى : « قد عَلِم كل أُناس مَشْربهم » إشارة إلى أن كل جماعة من تلك الجماعات الاثنتى عشرة قد علمت المشرب الذى لها من تلك العيون التى

انبجست ، فلا تشرب جماعة إلا من المشرب الذى هُوَ لها . . وهكذا يظل القوم فى عزلة مادية ، إلى جانب تلك العزلة النفسية التى اشتملت عليهم .

وفى قوله : تعالى« وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المنّ والسلوى .. كُلُوا من طيبات مارزقناكم » . . عرضٌ لنعم الله عليهم ، وإلفات لهم إليها ، حتى يوجّهوا وجوههم إلى الله وحده ، ويستقيموا على صراط مستقيم ..

* وقوله تعالى : « وما ظلمونا ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون » كشفٌ لمساوىء هؤلاء القوم ، وما فيهم من ضلال وعناد ومكر بآيات الله .. فإنهم لم يَرْعَوْا هذه النعم المرسَلة عليهم من السماء ، ولم يلتفتوا إلى تلك الألطاف التى تحفّهم من كل جانب ، وتطلع عليهم من كل أفق ، بل كفروا بالله ، وعاثوا فى الأرض فساداً .. وهم بهذا إنما يظلمون أنفسهم ، ويُوردونها مورد الهلاك والضياع ، حين يعرضونها لسَخَط الله ونقمته ، ولن يَضُرّ الله شيء من هذه المآثم التى يقترفون فيها ، ويُغرقون فيها أنفسهم ، بل إن فى هذا البلاء العظيم الذى يشتمل عليهم .

وقوله تعالى : « وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حِطّةٌ وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتِكمْ سنزيد المحسنين * فبدل الذين ظلموا منهم قولا غيرِ الذى قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون » هو بيان لوجه من وجوه بنى إسرائيل المنكرة ، التى كانوا يتعاملون بها مع الله ، حيث يُلْبِسهم النعمة ، فتزيدهم بالله كفراً وضلالا ..

ولقد دعاهم الله سبحانه أن يدخلوا القرية ، وأن يسكنوها ، حتى ينتقلوا من الصحراء الجديب ، إلى حياة الاستقرار والسّكن ، وأن ينعموا بما تُخرج أرضُها من جنات وزروع .. وأوصاهم الله حين يدخلون هذه القرية أن يكونوا على حالٍ خاصة ، هى أن يدخلوا بابها ساجدين لله ، قائلين « حِطّةٌ » أى مغفرةٌ

لذنوبنا ، وتكفير لسيئاتنا .. ولكنهم حين دخلوا القرية أبوْا إلا أن يغيّروا ويبدلوا فى هذا الأمر الذى أمرهم الله به ، ولم يدخلوها على تلك الصورة التى رسمها الله لهم ، ولم يكن ذلك بالذى يُعنتهم أو يثقل عليهم ، ولكن هكذا الطباع اللئيمة ، والنفوس المريضة ، لاتقبل الخير ولوكان الهواء الذى تتنفسه وتعيش عليه .. إنها طباع أطفال ، تأبى إلاَّ الخلاف والشرود .

وفى قوله تعالى : « فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم » وصف فاضحٌ مُخزٍ لهؤلاء القوم ، فقد دمغهم الله بالظلم ، وأدخلهم مداخل الظالمين ، ولهذا جاء النظم القرآنى مصرحاً بهم هكذا : «فبدل الذين ظلموا منهم» ولم يقل : « فبدلوا » .. وقد أخذهم الله بظلمهم ، وعجّل لهم العذاب ، بأن أنزل عليهم رجزًا من السماء ، أى لعنة ومقتاً ، « فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون » بدلا ــ مما كان ينزل عليهم من المنّ والسلوى ، وما كان يظللهم من غمام .

فالسماء التى كانت تتنزل منها الرحمة عليهم ، هى السماء التى تصبّ عليهم البلاء والنقم .. والمراد بالسماء هنا الإشارة إلى متنزل الأقدار التى تَنْزِل بالناس ، من خير وشر ، وأنها من مصدر عالٍ متمكن ، يشرف على الوجود كله ، ويمسك به .

و « القرية » التى أُمِر بنو إسرائيل بالسكن فيها لم يذكر القرآن اسمها ، ولم يبيّن صفتها ، ومع هذا ، فقد كانت معروفة لبنى إسرائيل ، مشاراً لهم إليها هكذا : « هذه القرية » .. وقد تكلف المفسرون البحث عنها ، واختلفوا فيها .. ونحن نحترم سكوت القرآن عنها ، وحسبها أنها قرية يسكن الناس فيها ، ويجدون مطالب الحياة ميسرة فى أرضها ، إذ لامتعلّق لاسم هذه القرية ، ولا لصفتها فيما أُمر به بنو إسرائيل عند دخولها .. وغاية ما يمكن أن يقال فى

تحديد مكان القرية ـ لا اسمها ـ هو أنها فى الأرض المقدسة من فلسطين ، حيث أشار الله سبحانه إلى هذا بقوله تعالى فى سورة المائدة على لسان موسى : « ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » (الآية : ٢١) .

الآيات : (١٦٣ — ١٦٧)

« وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » (١٦٧)

التفسير : لم تكن قصة موسى وبنى إسرائيل هنا حديثاً مباشراً لليهود الذين عاصروا البعثة النبوية ، إذ كانت الدعوة لا تزال فى مواجهة قريش ، لم تحدد مكانها من اليهود بعد ، ولم تنتقل إلى مطلعها الجديد فى المدينة التى سيهاجر إليها الرسول ، ويواجه فيها اليهود مواجهة مباشرة .

ومع هذا ، فإن الدّعوة الإسلامية ـ وهى فى مكة ـ كانت تشير إلى أهل الكتاب ، وإلى اليهود خاصة ، إشارات تنبىء عن أن للرسالة الإسلامية شأناً

معهم ، وأن عليهم أن يهيئوا أنفسهم لها منذ اليوم ، وأن ينظروا فيها ، ويحدّدوا موقفهم منها .. وهذا من أنباء الغيب التى حملها القرآن ، وأخبر بها قبل أن تقع .

وإذ انتهت قصة موسى وقومه ، وإذ تكشف الآيات القرآنية عن القوم وعما فى قلوبهم من مرض ، وما فى طباعهم من لؤم ومكر ـ فقد ناسب ذلك أن تأتى آيات أخرى تكشف عن طبيعة القوم ، وتعرض صوراً من كفرهم بنعم الله ، ومكرهم بآياته ، وفى هذا نذير لمشركى مكة إن هم جرَوْا على سُنّة هؤلاء القوم مع رسل الله ، وإن هم أخذوا عنهم مايُلقون به إليهم من زيف القول ، يكيدون به للرسول الكريم .

* وقوله تعالى : « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر » .. هو سؤال إلى اليهود لم يلْقهم به النبى لقاء مباشراً ، وإنما نُقل إليهم من كفار قريش الذين كانوا يتعاملون مع اليهود فى التصدّى للنبىّ ، وفى نصب المزالق والعثرات له .. إذ كان اليهود يلتقطون أخبار النبىّ ومايتزل عليه من قرآن ، أولاً بأول ، فيجدون القرآن يحدّث عنهم ، ويفضح تاريخهم الأسود مع أنبيائهم دون أن يلتفت إليهم النبىّ الكريم ، وأن يلقاهم بوجهه .. وهذا مما يثير القلق والاضطراب فى نفوسهم ، ويجعلهم والقرآنَ وجهاً لوجه ، من غير أن يكون للرسول موقف معهم ، يمكنهم من أن ينالوا منه منالاً .. ! !

والقرية التى كانت حاضرة البحر ، هى إحـــدى القرى التى كانت لبنى إسرائيل ، على شاطىء بحيرة طبرية ، أو شاطىء البحر المتوسط .. وكونها حاضرة البحر ، أى قائمة عليه ، وبمحضر منه ، أى ليست بعيدة عنه ، بل هى مشرفة عليه .

* « إذ تأتيهم حيتانهم يوم سَبْتهم شُرّعًا ويومَ لايسبِتون لاتأتيهم » ..

وذلك أنهم كانوا قد ابتُلوا بيوم السبت ، فلا يعملون فيه عملا ، وإلا وقعوا تحت لعنة الله ..

وفى هذا تقول التوراة : « اذكر يوم السبت لتقدّسه ، ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك ، وأما اليوم السابع ففيه سبت للربّ إلهك ، لاتصنع عملا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتَك وبهيمتك ونزيلك الذى داخل أبوابك * لأن فى ستة أيام صَنَع الربّ السماء والأرض والبحر وكل مافيها * واستراح فى اليوم السابع * لذلك بارك الربّ يوم السبت وقدّسه » [سفر الخروج.. الإصحاح العشرون] .

وقد مكر أصحاب هذه القرية بهذا اليوم ،فكانوا يحتالون على العمل فيه ، وخاصة فيما يتصل بصيد السمك الذى كان العملَ الغالبَ عليهم ..

ولهذا فقد ابتلاهم الله فى هذا اليوم بابتلاء آخر ، وهو أن الحيتان كانت لاتظهر فى شاطىء البحر طَوال أيام الأسبوع إلا يوم يسبتون ، أى يوم السبت . فإذا كان يوم السبت جاءت الحيتان من كل صوب ، تتراقص أمام أعينهم ، حتى لتكاد تلقى بنفسها إلى اليابسة .. وفى ذلك ابتلاء لهم أىّ ابتلاء .. فإما أن يصبروا على حكم الله فيهم ، فلا يمدّوا أيديهم إليها ، وإما أن يأخذوا منها مايشاءون ، وفى هذا هلاكهم ، فلا تبقى منهم باقية . .

وقد وقف القوم موقفاً وسطاً ، خُيّل إليهم فيه أنهم يخدعون الله ، وأن الله سينخدع لهم ، فجعلوا ينصبون شباكهم يوم الجمعة بالليل ليقع فيها السمك نهار السبت، حتى إذا كان آخرُ النهار ، ومضى يوم السبت ، أخرجوا شباكهم وقد امتلأت صيداً !

ولهذا فقدصيّر الله ـ سبحانه ـ السبتَ لعنة عليهم ، فحرّم عليهم فيه أى عمل ،

ومن خرج منهم عن هذا الأمر فقد حلّ قتله ، كما تقول التوراة ، فى الإصحاح الخامس والثلاثين من سفر الخروج .

« ستة أيام يُعمل عمل ، وأما اليوم السابع ففيه يكون لكم سبت عطلة مقدس للربّ ، كل من يعمل فيه عملاً يُقتل ، لا تشعلوا ناراً فى جميع مساكنكم يوم السبت » .

وهكذا كان الأمر إليهم أولاً أن يقدسوا يوم السبت ، وألا يباشروا فيه عملاً من أعمال الدنيا . فلما خرجوا عن هذا الأمر أوجب الله عليهم القتل إذا عملوا أى عمل فى هذا اليوم . . وهكذا انقلبت تلك النعمة شرًّا ووبالاً عليهم . فوقعوا منها تحت هذا الإصر الذى لا يحتمل ! !

وقوله تعالى : « يومَ سبتهم » أى يوم يدخلون فى السبت ، وقوله : ويوم لا يسبتون » أى يوم لا يكون السبت ، وذلك بقية أيام الأسبوع .

وأصل « السبت » السكون ، وعدم الحركة .

وقوله تعالى : « شُرَّعًا » أى شارعة ظاهرة ، ومنه شراع السفينة . . سُمّى بذلك لظهوره ، ومنه الشّرع ، والشريعة ، لظهورها ، ووضوح أمرها . .

وقوله تعالى : « كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » الإشارة هنا إلى ما ابتلاهم الله به من يوم السبت ، ثم ما ابتلاهم به فى يوم السبت نفسه ، بما يتعرض لهم فيه من حيتان ، لا تظهر لهم إلا فى هذا اليوم . . وذلك الابتلاء إنما هو بسبب فسقهم ، وخروجهم على أحكام الله ، واحتيالهم على التفلّت منها .

* قوله تعالى : « وإذ قالت أمّة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربّكمْ ولعلهم يتقون » .

لم يكن أهل القرية كلّهم على سواء فى الخروج على يوم السبت ،

والاحتيال على التخلص من هذه البلوى التى ابتلاهم الله بها . . فهناك أُمّةٌ منهم ، أى جماعة أرادت أن تنصح القوم وتدعوهم إلى الصبر على حكم الله فيهم ، فقامت جماعة أخرى تحاجّ تلك الجماعة ، وتدعوها إلى أن تترك القوم وشأنهم ، ليلقوا المصير الذى أعدّه الله لهم ، وقالوا : « لِمَ تعظون قومًا الله مهلكهم » فى الدنيا « أو معذبهم عذابًا شديدًا » فى الآخرة ؟ وقد ردّت عليهم الجماعة التى أرادت أن تنصح وترشد بقولها : « معذرةً إلى ربكم ولعلهم يتقون » أى إنما ننصح لهم لئلا يكون لهم على الله حجة ، ولعلّ فى هذا النصح ما يذكرهم بالله ، وبانتقامه من المعتدين ، فيفيئوا إلى الرشد والهدى . .

وانظر كيف يمكر القوم بعضهم ببعض ؟ وكيف يضنّ بعضهم على بعض حتى بالكلمة التى تنبّه إلى الخطر ، وتوجّه إلى السلامة ؟

إن هذا الجدل الذى ذكره القرآن هنا ، إنما هو بين أهل العلم والرأى فيهم ، فقد انقسم هؤلاء إلى فريقين : فريق يريد أن ينصح ويرشد ، وفريق يعترض هذا العمل ، ويقول بعدم جدواه ، وأن يترك القوم لمصيرهم المشئوم !

* « فلمّا نسوا ما ذُكِّرُوا به أنجينا الذين ينهَوْنَ عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذابٍ بَئِيسٍ بما كانوا يفسُقُون » .

وقد مضى الناصحون فى طريقهم ينصحون ويدعون إلى التزام أمر الله فى حرمة السبت ، ولكن القوم ظلّوا على ماهم فيه من بغى وعدوان .

أما الذين نصحوا ، وكانوا ينهوْن عن السوء فقد نجاهم الله ، وأما الذين ظلموا واعتدوا فأخذهم الله بعذاب بَئِيسٍ ، أى قاهر مُذِلٍّ .. بما كانوا يفسقون ..

* « فَلَمّا عَتَوْا عمّا نُهُوا عَنْهُ قلنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » .

العتوّ : مجاوزة الحدّ فى البغى والعدوان ، والخروج عن حدود الله فى غير تحرّج .

فقد بغى القوم أولاً ، فاعتدوا على حرمات الله ، فى خوف وحذر . . فأخذهم

الله بالعذاب البئيس ، أى المذلّ ، المهين . . فى الدنيا ، ورصد لهم هذا العذاب ليوم القيامة . .

ثم لما استمرأ القوم هذا البغى ، وصاروا يأتونه فى غير تحرّج أو تأثم ـ أخذهم الله بعذاب عاجل فى هذه الدنيا ، مع هذا العذاب الذى أعدّه لهم فى الآخرة : « قلنا لهم كونوا قردة خاسئين » . . فقد ردهم الله إلى عالم الحيوان ، ومسخهم فى طبائع القردة ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « خاسئين » أى مطرودين إلى الوراء ، مزجورين من هذا الموقف الإنسانى الذى كانوا فيه ، إلى حيث ينزلون إلى عالم القردة . . تقول : خسأت الكلب ، أى زجرته ، فرجع إلى الوراء . .

وفى قوله تعالى : « قلنا لهم كُونُوا قِرَدَةً » أمْرٌ بِخَلْقٍ جديد لهؤلاء القوم ، « إنمّا أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » .

فالقوم لم يلبسوا خِلقة القِرَدَة ، وإنما لبسوا أخلاقها وطباعها . .

وفى رِدّة القوم إلى طبائع القردة إشارة إلى النسب الذى بين الإنسان وبين القردة فى سلسلة التطور ، وأن القردة درجة نازله فى الخلق المتطور للإنسان . .

وهكذا يعود القوم إلى الوراء ملايين السنين ، ويكون بينهم وبين عالم الناس هذا الحاجز الزمنى الطويل . . فهم خَلْق فى طبائع القردة ، وفى أجسام الآدميين . . وهكذا يعيشون فى الناس ، يمثلون حركات القردة وإشاراتها ، حتى ليخيّل لمن يراهم أنهم كائنات مدركة عاقلة ، وما هم فى الواقع إلا قرود تمثل أفعال الآدميين .

* قوله تعالى : « وإذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ » .

« تَأَذَّنَ رَبُّكَ » أى قضى وحكم .. والواو واو القسم ، تأكيداً لهذا الحكم الذى أوقعه الله عليهم ..

« ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » جواب القسم ، أى أن الله حكم حكماً قاطعاً بأن يبعث عليهم من عباده ، ويسلط عليهم من خَلْقه ، من يأخذهم بالعذاب الأليم ، والهوان والذلة ، وذلك فى أجيالهم المتعاقبة .. إلى يوم القيامة !!

وهنا سؤال :

هذا عقاب استحقه القوم بأفعالهم .. فما بال أبنائهم من بعدهم ، جيلاً بعد جيلٍ إلى يوم القيامة ؟ .

والجواب : أن الله سبحانه قد ردّ هؤلاء القوم إلى عالم القردة ، ونكسهم فى الخَلْق ، فهم ـ بهذا ـ خَلْق آخر غير خَلْق الإنسان السَّوِىّ ـ فما تناسل منهم لا يكون إلا على هذا الخلق إلى يوم القيامة ..

فإذا ذهبتَ تسأل : ما ذنب هذه الذّرية التى نتجت من هؤلاء القوم ؟ فاسأل : ما ذنب القردة أن تكون قردة ؟ وما ذنب ذريتها أن تجىء على صورتها ؟ .

إن هذا من ذاك .. سواء بسواء .. !!

فالله ـ سبحانه ـ يخلق ما يشاء : « أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » .

وانظر إلى « اليهود » فى مسرح الحياة .. إنهم لم يُنزع عنهم أبداً هذ الثوب الذى ألبسهم الله إياه ، ثوب القردة .. إنهم بين الناس عالم آخر ، فى طباعه ، وفى تدبير شئون حياته .. إنهم لُعبة فى يد الناس ، يحركونهم

لكل مأرب يبغونه .. التسلية حيناً، والعضّ أحياناً، والسّرقة والخطف في أكثر الأحيان.. !

* « إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم »

فهو - سبحانه - سريع العقاب لمن حادّه، وحاربه، ونقض عهوده، واستباح حرماته، وهو - سبحانه - غفور رحيم لمن أذنب، ثم تاب، ولمن عصى، ثم أناب.

الآيات : (١٦٨ — ١٧١)

« وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ ٱلصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَٱلسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا ٱلْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ ٱلْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَابِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ (١٧٠) * وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (١٧١)

التفسير : من عقاب الله - سبحانه - لليهود الذين مسخهم قردة، إذ قال لهم : « كونوا قردةً خاسئين » فكانوا - أن قطّعهم في الأرض أمماً، حيث لا يحتويهم مكان واحد، ولا يشتمل عليهم وطن واحد، كبقية الأمم والشعوب، وإنما هم مبعثرون في الأرض، شأن القرود التي يجدها الناس حيث كانوا، في شرق الأرض وغربها.. !

وهذا التقطيع هو حكم من أحكام الله فيهم.

* « منهم الصالحون » أى منهم من كان فى هذا الخَلْق الجديد ـ خَلْق القردة ـ مستقيماً مع خِلْقَته تلك، أو منحرفاً عنها، كما هو الشأن فى كل صنف من أصناف الخَلْق .. فيه السليم، وفيه المنحرف الشرس ..

* «ومنهم دون ذلك» أى ومنهم من ليس صالحاً حتى فى مِسلاخه الجديد، الذى لبسه .. مِسلاخ القردة!

* « وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلّهم يرجعون ».

أى أن الله سبحانه وتعالى قد ابتلاهم بالخير والشرّ، وأذاقهم الحلو والمرّ، ليروا العافية بعد البلاء، والبلاء بعد العافية، لعلّهم يذكرون الله، ويرجعون إليه.

* « فخلف من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتابَ ».

خَلَفَ: أى جاء من بعد السّلف خَلْف.

و « الخَلْف » السيء من الخَلَف، والرذل الردىء من الذريّة.

والكتاب الذى ورثه هؤلاء الخلف، هو التوراة، ومعنى ميراثهم له أخذهم به، وجعله شريعة لهم، كما هو شريعة لآبائهم ..

* « يأخذون عَرَضَ هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ».

أى أنهم يأخذون الخبيث الحرام من متاع هذه الحياة الدنيا، متأوّلين ذلك بأن الله سيغفر لهم ما وقعوا فيه من حرام، وقد زيّن لهم الشيطان أعمالهم، فجعلوا لهم إلى الله نسباً، إذ قالوا ما قال القرآن على لسانهم: «نحن أبناء الله وأحبّاؤه» (٢٠: المائدة).

وبهذا النسب الذى ادّعوه ـ كذباً وبهتاناً ـ استباحوا كل حرام، وركبوا كل منكر، والله سبحانه وتعالى يقول فيهم: « ذلك بأنّهم قالوا

لن تمسّنا النار إلا أياماً معدوداتٍ وغرّهم فى دينهم ما كانوا يفترون »
(٢٤ : آل عمران) .

والعَرَض: المتاع الزائل . . و « الأدنى » الخسيس من المتاع . .والإشارة
إلى هذا المتاع الذى أخذوه . .

* «وإن يأتِهِمْ عَرَضٌ مثلُهُ يأخذوه » أى أنهم يستمرئون الخبيث ، ويجعلونه
الطعام الدائم لهم ، والحياة التى يحيوْن عليها . .

فهم يدخلون إلى الحرام أولاً بهذا الشعور الخبيث ، وهو أنهم لا يتناولون
منه إلا هذا القليل ، وفى تلك المرّة . . ثم إذا هم ـ مع الزمن ـ قد جعلوا هذا
الخبيث أصلاً ، لا يستسيغون غيره . .

* « ألم يؤخذْ عليهم ميثاق الكتابِ ألا يقولوا على الله إلا الحقّ » . .

فالميثاق الذى أخذه الله على أتباع شريعته هو ألا يحفظوها ، وألا يبدّلوا
وجهها ، ويحرفوا كلماتها . .

وقد حرّف هؤلاء القوم كلمات الله ، وبدلوا شريعته ، فاستحلّوا ما حرّم
الله ، وقالوا : « سيُغفَرُ لنا » .

* « ودرسوا ما فيه » أى درسوا ما فى هذا الكتاب ، وعرفوا ما جاء فيه
من حرام وحلال .

* « والدار الآخرة خير للذين يتقون » حرمات الله . . ولكن القوم
لا يتقون الله ، ولا يعملون للدار الآخرة حساباً . .

* « أفلا تعقلون » انتقال من الغيبة إلى الخطاب والمواجهة ، ليلتفت
هؤلاء الغافلون إلى ما هم فيه من ضلال وعمًى .

* « والذين يمسّكون بالكتابِ وأقاموا الصّلاة إنا لا نضيعُ
أجْرَ المحسنين » .

فهذا حكم الله فيمن يَرْعَوْن عهده ، ويحفظون شريعته ، ويتمسكون بكتابه . . إنهم محسنون ، والله لا يضيع أجْرَ المحسنين ، فقد عملوا وأحسنوا ، وعند الله حُسْنُ الجزاء لمن عمل وأحسن . .

وقد سمّىَ الله سبحانه الجزاء أجراً ، فضلا منه وكرماً ، حتى لكأن العامل فى مجال الخير ، وهو يعمل لنفسه ، إنما يعمل لله ، وعن هذا العمل يستحق الأجر من ربّه . . فسبحانه من ربّ كريم .

« وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنهُ ظُلّةٌ وظنّوا أنه واقع بهم » .

وهذا من نعم الله التى يبتلى بها عباده ، وقد ابتلى الله هؤلاء القوم بأن جعل لهم من الجبل وقايةً من الشمس ، والمطر ، والعواصف ، وغيرها ، فهو سَكَنٌ لم يعملوا له ، ولم يُجهِدوا أنفسهم فيه ، بل أقامه الله لهم . . لقد نَتَقَه الله فوقهم ، أى شقّه ، ورفعه .

ومن قدرة الله أن رفع هذا الجبل فوقهم كأنه سقف ، ولكن بغير عُمُد ، حتى لقد ظنّوا أنه واقع بهم . .

وفى قوله تعالى : « واقع بهم » إشارة إلى شعور الخوف الذى كان مستولياً عليهم أول الأمر من هذا الجبل الذى قام فوقهم ، وأنه إذا وقع لم يقع عليهم وحسب ، بل إنه سيحملهم معه ، ويهوى بهم إلى الأرض . .

* « خُذُوا ما أتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » . .

وهذه دعوة من الله إلى هؤلاء القوم ، حين نتق الله بهم الجبل ، ووضعهم أمام هذه الآية المتحدية . . فليؤمنوا بالله ، وليأخذوا هذا الكتاب الذى فى أيديهم بقوة ، أى يمسكوا به ، ويشدّوا أيديهم عليه ، وألا يخرجوا عنه ، ويترخّصوا فى أحكامه ، ففى هذا داعية لهم إلى أن يكونوا من المتقين . .

وإلى هنا تنتهي الآيات التى عرضت قصةَ موسى ، وقومه . . وهى ــ فيما

نقدّر ـ أول ما ذكر القرآنُ عن بنى إسرائيل ، فى سُورِه المكية ..
ثم جاءت بعد ذلك موارد أخرى لهذه القصة فى كثير من السّور المدنية ،
تُحدّث عن موسى ، وفرعون ، وعن السحرة وإيمانهم ، وعن فرعون وغرقه ،
وعن نجاة بنى إسرائيل من يد فرعون ، وما كان منهم من مكرٍ بآيات الله ،
وكفر به . . وهذا ما دعا كثيراً من الذين يَشنئون الإسلام ، أولا يعرفون
اللغة العربية وأسرارها ، إلى الطعن فى كتاب اللهِ ، وإلى اعتبار هذا
التكرار قصوراً فى الأداء ، وعجزاً فى البيان .

ومن أجل هذا ، كان علينا أن نقف وقفة ، مع التكرار فى القصص
القرآنى عامة ، ومع قصة موسى خاصة . . وسنرى وجهاً مشرقاً من وجوه
المعجزة الكبرى لآيات الله ، التى سجد أهل الفصاحة والبيان بين يدى
إعجازها المبين .

ونرجو أن نحقق هذا فى موضع آخر . . إن شاء الله .

الآيات : (١٧٢ — ١٧٤)

« وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ
عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ
إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ
قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)
وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » (١٧٤)

التفسير : فى الناس فطرة تدعوهم إلى الإيمان بالله ، حيث يتهدّون بهذه
الفطرة إلى التعرّف على الله ، وإفراده بالألوهية ، ولكن هذه الفطرة تتعرض

لآفات كثيرة، فيصيبها الفساد والعطب، فتتعطل منها القوى المدركة لآلاء الله، القادرة على الاتصال به، فيكون الضلال والتيه فى عوالم الشرك والكفر ..

وفى الحديث: «مامن مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه، وينصرانه، ويمجّسانه» فقد خلق الله عباده حنفاء، ولكن شياطين الإنس والجنّ دخلوا عليهم بالغواية والضلال، فأغووهم وأضلوهم .. وهذا ما أحبّ أن أفهم عليه قول الله تعالى عن إبليس لعنه الله «.. وإن يَدْعونَ إلا شيطاناً مَّرِيدا * لعَنه الله وقال لأتخذَنَّ من عِبَادك نصيباً مفروضاً * ولأُضِلَّنَّهم وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ ولآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الأنعامِ ولَآمُرَنَّهُمْ فليغيِّرُنَّ خَلْقَ الله..» (١١٧ ــ ١١٩: النساء) .. فى قول إبليس ــ لعنه الله ــ «وَلَآمُرَنَّهُمْ فليغيرن خلق الله» إشارة إلى أن مِنْ دعوته إلى من يستمعون إليه، ويستجيبون له ــ أن يغيّروا فطرتهم التى فطرهم الله عليها، وأن يدخلوا عليها من الأباطيل والضلالات ما يفسدها ..

وفى قوله تعالى: «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألَسْتُ بربكم قالوا بلى شهدنا» ــ فى هذا إشارة إلى أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ قد أخذ أى أخرج من أبناء آدم، أى من ظهورهم ذريتهم، وأنه ــ سبحانه ــ أشهدهم على أنفسهم، وهم فى عالم الأرواح ــ حيث تشعر كل روح بذاتها ووجودها ــ أليس الله سبحانه وتعالى هو ربكم وخالقكم؟ فشهدوا جميعاً وقالوا: بلى أنت ربنا وخالقنا.

والله سبحانه وتعالى، يخاطب عَالَمَ الخَلْق جميعاً، من حىّ وغير حىّ .. «ثم استوى إلى السّماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين» (١١ : فصلت).

فليس بعجيب أن يكون بيننا وبين الله ـ سبحانه ـ هذا الموقف الذى شهدته أرواحنا ، ولم تشهده أجسادنا . . كما شهدته المخلوقات جميعاً ، من حىّ وغير حىّ .

وهذه الشهادة إقرار سابقٌ بولائنا جميعاً لله ، وإيماننا بوحدانيته .

وإن من شأن هذا الإقرار أن يقيم وجوهنا إلى الله ، بعد أن نلبس هذه الأجساد التى نعيش فيها . . فهذا الإقرار رصيد من الإيمان نستقبل به الحياة ، ونتلاقى به على طريق الإيمان مع دعوة العقل الذى أوجده الله فينا ، ومع دعوة الرسل الذين أرسلهم الله إلينا . .

ولهذا جاء قوله تعالى : «أن تقولوا يوم القيامة إنا كنّا عن هذا غافلين » أى ليقطع عليكم العذرَ أن تقولوا يوم القيامة إنا كنّا عن الإيمان بالله والتعرف عليه غافلين ، فذلك عذر غير مقبول . . إذ كيف تغفلون وفيكم داع يدعوكم إلى الإيمان بالله ، وهى تلك الفطرة التى أشهدها الله عليكم . .

* « أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبلُ وكنّا ذرّيّةً من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون » .

وهذا العذر أيضاً غير مقبول منكم ، فلا يحمل عنكم تبعةَ شرككم بالله شركُ آبائكم من قبلكم ، إذ كنتم ومعكم فطرتكم ، وكنتم ومعكم عقولكم ، ثم كنتم ومعكم دعوة الرسل الذين يدعونكم إلى الله ! فإذا أهلككم الله فإنما يهلككم بأفعالكم لا بأفعال آبائكم . .

* « وكذلك نفصّل الآيات ولعلّهم يرجعون » .

أى بمثل هذا التفصيل ، وذلك البيان المبين ، يفصّل الله الآيات ، ويبينها للناس ، ويكشف لهم عن ذخائر الإيمان المطموسة فى كيانهم ، والتى أهملوها ،

وغفلوا عنها ، وذلك لعلّهم يرجعون إلى أنفسهم ، ويحسنون الانتفاع بتلك القوى التى أودعها الله فيهم ، فيكون لهم إلى الله عودة من قريب ، إذا هم خرجوا عن جادّة الطريق ، وحادوا عن الصراط المستقيم .

الآيات : (١٧٥ — ١٧٩)

« وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ » (١٧٩)

التفسير : فى هذه الآيات : أمور يسأل عنها :

فأولا : من هو هذا الذى آتاه الله آياته ؟ وما هى تلك الآيات ؟ وكيف كان انسلاخه منها ؟

وثانياً : ماذا يتلو الرسول من أخبار هذا الإنسان ؟

وثالثاً : على من يتلو الرسول هذه الأخبار ؟

والجواب - والله أعلم - : أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان يعرف هذا الإنسان ، ويعرف إشارة القرآن إليه ، كما كانت قريش تعرفه ، وكما كان هو يعرف نفسه ، وأنه المقصود بهذا الحديث . . ومعنى هذا أنه من كفار قريش ومن رءوسهم البارزة ، التى كانت تقف فى وجه الدعوة الإسلامية ، وتكيد للنبىّ ، وتؤذيه فى نفسه ، وفى أصحابه .

وأقرب رجل يُدْعَى هنا ليكون بهذا المكان الذى يَطْلُع منه على الناس ، فيرون فيه ما يقصّه الرسول عليهم من حاله تلك التى رسمها القرآن الكريم له - أقرب رجل يدعى هنا ، هو « الوليد بن المغيرة » الذى انتدبته قريش ليلقى محمداً ، وليكون سفيرها عنده ، وليقول له كلتها إليه ، وليبلغه وعدها له بالملك والمال ، وما أحبّ مما يطلب من جاه ، ومال وسلطان . . فإن لم يستجب « محمد » لهذا ، فليسمع وعيدها ، ونَصْبها الحربَ له ، ولأهله الأدنين ، ولكل من اتصل به .

وقد جاء « الوليد » إلى النبىّ ، وعرض عليه ما عرض من وعود ، فرفضها ، لأنه - صلوات الله وسلامه عليه - ما بعثه الله ملكا على الناس ، وإنما بعثه هدًى ورحمة للعالمين ، لا يسألهم أجراً عمّا يقدم إليهم من هدًى ونور . . ثم عرض على النبىّ وعيدَه ، وما تتهدّده به قريش من ضُرّ وبلاء ، فما وجد عند النبىّ إلا ثباتاً على موقفه ، وإلا رضًى وصبراً على ما يلقى فى سبيل رسالة ربّه . . حتى يحكم الله بينه وبين قومه ، وهو خير الحاكمين . .

ثم دعاه النبى صلوات الله وسلامه عليه أن يسمع منه ، كما سمع هو منه . . ثم تلا عليه الآيات الأولى من سورة « فصلت » .

فلما سمع « الوليد » ما سمع من كلمات الله استخزى ، ثم خَنَع ، ثم خَشَع وضَرَع . . وركبته حال لا يدرى معها ماذا يقول فى هذا الكلام الذى

لم يقع لأذنه كلام مثله ، فى جلاله ، وبهائه ، وامتلاكه زمام المشاعر ، واستيلائه على مجامع القلوب .

وقام الوليد متخاذلاً ، منكسراً .. لم يقل شيئاً . .

ومضى يجرّ شخصه جرًّا إلى القوم ، الذين كانوا ينظرون إليه من بعيد ، ويرقبون ما يقع بينه وبين « محمد » . .

وما كادوا يلحونه ، وقد اقترب منهم ، حتى رأوا منه إنساناً غير هذا الذى خرج من بينهم آنفاً . . لقد خرج متعالياً شامخاً . . ثم ها هو ذا يعود إليهم حُطامَ رجل ، أو شَبَحَ إنسان . . وهنا يقول قائلهم : « لقد جاءكم الوليد بوجه غير الوجه الذى ذهب به ! » .

وأقبل الوليد على القوم ، وكلهم أُذُنٌ له ، وعين على شفتيه ، انتظاراً لما يقول ! .

وجلس « الوليد » فى مكانه الذى أفسحه له القوم ، وهو شارد ، مذهول ، لا يدرى من هو ؟ ولا أين هو ؟ ولا مع من هو ؟ حتى دعاه داعيهم أن يأتيهم بما عنده من خبر محمد ، وما ذا وقع بينهما من حديث . .

وهَمْهَمَ « الوليد » ولم ينطق ، والأصوات من حوله تهتف به : ما شأنك ؟ وما ذا عندك ؟ . .

وصحا « الوليد » ودار بعينيه يتفرس وجوه القوم ، وكأنه يراهم لأول مرة ، وإذا وجوهٌ منكرة ، تطل من شخوص أعماها الجهل ، واستولى عليها الضلال ، وركبها الشيطان . . وود « الوليد » لو أن به قوّة . . إذن لَلَطَم هذه الوجوه المنكرة ، وحطّم تلكِ الرءوس الفارغة . . ولكن أنّى له القوّة ، وقد تهدّم بناؤه المشمَخِرّ ، وهربت عزيمته المتوثبة ؟ .

ولم يكن بد أن يتكلم « الوليد » ليزيح عن نفسه هذا الهمّ الذى يعالجه ،

ولينفث عن صدره هذه المشاعر المضطربة ، فقال : « وماذا أقول ؟ والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منّى ، لا برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجنّ ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا . . ووالله إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإن عليه لطِلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، ومغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يُعلَى » .

وصُعِق القوم لِمَا سمعوا . . وهالهم أن ينفرط عِقدهم ، وينبدّد جمعهم ، إذا خرج الوليد من بينهم ، ولم يأخذ مكانه فى المعركة التى نَصَبوها لمحمدٍ ودعوته . .

وقد رأوا أن يلاينوا « الوليد » ويلاطفوه ، حتى لا يمضى فى طريق غير طريقهم ، بعد أن سحره محمد بقرآنه ، كما يقولون ! فمن قائل لقد سحرك محمد ! ومن قائل : لقد أخطأنا إذ جعلناه ينفرد بك ، وينفث سمومه فيك ! ومن قائل . . . ومن قائل . . . والوليد صامت واجم لا ينطق بكلمة . .

وخشى القوم أن ينفضّ مجلسهم على تلك الحال ، وأن يسمع الناس ما حدث ، وأن تتناقل القبائل ما قال الوليد فى محمد . . وفى ذلك بلاء لا تحتمله قريش ، ولا تصبر عليه . . فأبوْا أن ينحلّ مجلس القوم حتى يقول الوليد فى محمد قولاً ترضاه قريش ، وَيشيع أمره فى الناس ، إذ يكون قوله الذى يقوله هنا فى محمد ، قد جاء عن احتكاك به ، واختبار له !

فقال الوليد : تزعمون أن محمداً « مجنون » فهل رأيتموه يَخْنَق ؟ وتقولون إنه كاهن . . فهل رأيتموه قط يتكهّن ؟ وتزعمون أنه شاعر . . فهل رأيتموه يتعاطى الشعر ؟ وتزعمون أنه كذاب . . فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ فقالوا فى كل ذلك : اللهم لا ، ثم قالوا : فما هو ؟ ففكر فقال : ما هو إلا ساحر ؟ أمَا رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله ، ومواليه ، وما الذى يقوله إلا سحر يأثره عن سحرة بابل ! ! .

ورضيت قريش بما أخذت من الوليد ، ومضى الوليد محموماً إلى بيته ، محمولاً على رجلين لا تـكاد ان تمسكان به . . ويغلق عليه بابه ، ويخلو بنفسه ليلًا طويلًا مسهّدًا ، لا تغمض له عين . .

وما تـكاد تطلع الشمس ، وتأخذ مسيرتها إلى الضحى ، حتى يجيء إلى الوليد من يطرق على بابه فى طرقات صارخة ، كأنها النذير العُريان . .

ويدخل الطارق ، ويلقاه الوليد مستنبئاً . . فيقول له : إجلس أُسمِعُك : ويجلس الوليد ، فيسمع : « ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلاَّ . . إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَـكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَـكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَآ إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَآ إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لاَ تُبْقِى وَلاَ تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ *

(١١ — ٣٠ : سورة المدثّر)

— ما هذا ؟ يا هذا ؟

يقولها الوليد مبهورَ الأنفاس ، مختنق الصوت ، ينتفض انتفاض الغصن تحت وابلٍ منهمر !

— إنه الذى يتحدث به محمد ، ويتصايح به أصحابه ، ويتغنّى به الصبيان فى طرقات مكة وشعابها . . من قرآن محمد !

— أوَ قد فعلها محمد ؟ أوَ أنا الذى من بين قريش كلّها الذى يجعلنى محمد هُزُأَةً وسخرية على الملأ ؟ والله لأفعلنّ به ولأفعلنّ ! ! ويظل هكذا يهذى

هذيان المحموم ، ترتعد فرائصه ، وتختلج قدماه ، ثم ينعقد لسانه ، وتسكن حركته ، فلا يلقى قريشاً ولا قريشاً تلقاه فى مجلس بعدها أبداً .. !

وقد ذكرنا هذه القصة ، لنقول : إنّ الوليد بن المغيرة هو المشار إليه فى قوله تعالى : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنّه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحملْ عليه يلهثْ أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساءَ مثلاً القومُ الذين كذّبوا بآياتنا وأنفُسَهُمْ كانوا يظلمون » .

وهذا القول لم نجد أحداً من المفسّرين قال به ، أو أشار إليه .. بل لقد تضاربت بهم مذاهب القول ، فمن قائل : إنه « بلعم بن باعوراء » من الكنعانيين ، وقيل إنه من بنى إسرائيل ، ومن قائل إنه : « أمية بن الصلت » ، ومن قائل : إنه « النعمان بن صيفى الراهب » .. ولا نرى قولا من هذه الأقوال يعطى مفهوماً للآية من قريب أو بعيد ..

ولولا أننا استشعرنا أن القرآن لا يقول مخاطباً النبى : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا » إلا إذا كانت هناك قصة يتلوها النبىّ عليهم فى شأن هذا الرجل ، فإن لم تكن هناك قصة يذكرها القرآن عن هذا الرجل فى هذا الموقف فلابد أن تكون هناك قصة مذكورة مشهورة فى موضع آخر ، يعلمها القوم عن يقين ، ولا يحتاج الأمر إلى ذكرها مرة أخرى ــ لولا أننا استشعرنا هذا لما كان لنا قول نقوله فى رجُل هذه القصة .

ثم إذا نظرنا فى قوله تعالى : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها » وفى قوله تعالى عن الوليد بن المغيرة : « إنّه كان لآياتنا عنيداً » ثم ذكرنا مع هذا ما كان الآيات التى تلاها الرسول الكريم عليه ، وأثرها فيه ، واستيلاءها على كيانه ، ثم نكوصه عنها بعد ذلك ، وانسلاخه منها بعد أن لبسها ــ

ـ إذا نحن ذكرنا ذلك ، رأينا أن هذا الرجل هو ذلك الإنسان عينه ، بلحمه ودمه ، وبكل مشخصاته ، فى جميع أحواله ..

* ومعنى قوله تعالى : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها » أى اتل عليهم ماتقص عليك من خبر هذا الإنسان الذى أسمعناه آياتنا ، فعرف وجه الحق فيها ، واطلع على علو متنزلها ، وأنها من الله ربّ العالمين .. فآمن بها ، وسجد بين يديها ، ولكن التوفيق لم يكن رفيقَه ، إذ سرعان ماانكص على عقبيه ، وأسلم نفسه لشياطين قومه ، فاستجاب لما دَعَوْه إليه ، وانسلخ من آيات الله بعد أن كانت مستولية عليه .. « فأتبعه الشيطان » أى جَرَى وراءه ، يوسوس له بالضلال ، ويزيّن له الباطل ، ويُغويه بالكفر .. « فكان من الغاوين » .

* « ولو شئنا لرفعناه بها » أى ما أراد الله له الخير ، وما شاء سبحانه أنه يتمّ نعمته عليه ، لأن طبعه نَكِد ، وقلبه سقيم .. « ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه » .. أى لصق بالأرض ، ونزل منزل الحشرات والهوام فيها ، ولم يُرِدْ أن يسمو بنفسه ، ويرتفع بوجوده ويعلو بإنسانيته .. ولو أنه فعل لأعانه الله على ذلك ، وسدّد خطاه ، وأمسك به على الطريق المستقيم ، الذى وضع قدمه عليه .

فمطلوب من الإنسان أن تكون له إرادة عاملة ، تلتقى مع إرادة الله .. فإن أراد خيراً ، وعمل له ، وتمسك به ، أراد له الخير ، وأعانه عليه ، ووفقه له .. « إنّ الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم .. وإذا أراد الله بقوم سُوءًا فلا مَرَدّ له وما لهم من دونه من وال » (١١ : الرعد) .

* « فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » .. ذلك هو مثل أهل الزيغ والضلال .. لايجىء منهم إلا ماهو شر وضلال .. إنهم على تلك الحال دائماً .. لولم يدْعُهمْ أحدٌ إلى الضلال لدعوْا هم أنفسهم إليه .. فحالهم

كحال الكلب :. يلهث دائماً ، ويَدْلق لسانه فى كل حال . . سواء أتُرِك لشأنه فلم يعرض له أحد بسوء ، أو طارده أحد وأجهده .. إنه كهذا .. يلهث دائماً .. فى سكونه واستقراره ، أو فى جريه وجَهْده ..

والتشبيه للإنسان الضالّ بالكلب ، تشبيه يصيب كبد الحقيقة منه .. ظاهراً وباطناً . . فهو كلب فى خَسَار سَعْيه ، وضياع جَهْدِه ، حيث يُرى فى صورة الكلب يلهث دائماً كأنه موكَّل بعملٍ مثمر .. ولكنه يلهث ، ولا عمل ، ويعمل ولا ثمرة لعمل . . !

* « ذلك مَثَلُ القوم الذين كذبوا بآياتنا » أى ذلك المثل ، هو مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، حيث كل مايعملون إلى تَبابٍ وضياع ..

والقوم هنا ، هم قريش ، وخاصة أصحاب الكلمة فيها ، كالوليد بن المغيرة ، ومن على شاكلته منهم . . ثم من كان على طريق هؤلاء القوم المكذبين بآيات الله ..

« فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » ففى هذا القصص عبرة لمن تفكر واعتبر .

وإذ تَقْرعُ آذانَ قريش هذه الآياتُ ، وإذ يشوقهم نبأ هذا الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ـ وإذ هم على تلك الحال ، تتنزل آيات القرآن الكريم بنبأ هذا الإنسان ، وإذا هو الوليد بن المغيرة ، فيُسمعهم الرسول الكريم قول الله تعالى فيه : « ذَرْنِى ومن خلقتُ وحيداً * وجعلت له مالا ممدوداً .. الآيات » .

والفاصل الزمنى بين قوله تعالى : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها » وبين قوله سبحانه : « ذرنِى ومن خَلَقْتُ وحيداً .. الآيات » ـ

هذا الفاصل ـ طال أو قصر ـ هو إثارة لأشواق القوم إلى هذه القصة التى لم تقصّ بعد ، وتعليق لنفوسهم بها ، حتى تطلع عليهم بهذا الإنسان العجيب الذى مثله كمثل الكلب .. إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ..

فمَن هو هذا الإنسان ياترى ؟ إنه لاشك واحد من زعماء قريش ، الذين نَصَبُوا لرسول الله ، وكادوا له .. قديكون أبا لهب ، أو أبا جهل ، أو أبا سفيان أو الوليد بن عتبة ، أو الوليد بن المغيرة .. وهكذا إلى من تضم هذه الجماعة من رءوس ورؤساء . . !

فإذا كانت حادثة الوليد بن المغيرة ، وإذا كان القرآن الذى نزل فيه . . عرفت قريش مَن رَجُلها الذى عَلِقت به حِبالة محمد ، وربطته مربط الكلب على رءوس الأشهاد.. فتهدأ نفوس ، وتثور نفوس. . على أن الجميع يجدون شيئاً من الرضا إذلم يصبهم هذا الذى أصاب الوليد بن المغيرة ، وجعله حديثاً مخزياً يجرى على كل لسان .. وهكذا تأكل قريش بعضها بعضاً ، كما تأكل الذئاب ذئبها الجريح !

* « سآء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون » .

ذلك تعقيب على هذه القصة ، وربطٌ لرءوس القوم كلّهم إلى هذا الكلب المربوط .. فكلهم مكذِّب بآيات الله ، وكلهم هذا الرجل العنيد المكابر المشئوم !

« وساء » فعل ذم ، عكس نعم ، والقوم : هو اللفظ المخصوص بالذم .

* « من يَهْدِ الله فَهُوَ المهتَدِى ومن يُضلل فأولئك هم الخاسرون » .

وفى نسبة الهداية إلى الله تشنيع على القوم الضالين ، وكبت لهم ، بطردهم من هذا المقام الكريم ، وأنهم ليسوا أهلا لأن يهديهم الله ، بل هم أهل لهذا الضلال الذى أغرقهم الله فيه .

* « ولقد ذَرَأنا لجهنم كثيراً من الجنّ والإنس » .

الذّرء : الخلق ، والزرع .

والمعنى أن الله سبحانه وتعالى قد خلق لجهنم خلقاً كثيراً من الجنّ والإنس ، جعلهم أهلاً لها ، ووقوداً لجحيمها . . هكذا اقتضت إرادته ، وشاءت مشيئته . . يخلق ما يشاء لما يشاء . .

وفى الحديث عن عائشة رضى الله عنها قالت : أدرك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جنازةَ صبيّ من صبيان الأنصار ، فقلتُ : يا رسول الله : طوبَى له ، عصفور من عصافير الجنة ! ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك ؟ إن الله تعالى خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم فى أصلاب آبائهم » !

وهؤلاء الذين خلقهم الله للنار :

* « لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ، ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها » . .

فهم فى صورة الناس ، ولكنهم ليسوا مثل الناس . . إذ جعل الله لهم قلوباً لا تعقل ، وأعيناً لا تبصر ، وآذاناً لا تسمع . . فإن عقلت منهم القلوب عَقَلت الشرّ والضلال ، وإن أبصرت منهم الأعين فإنها لا تبصر مواقع النور والهدى ، وإن سمعت الآذان فإنها لا تسمع كلمات الحق والهدى « أُولٰئِكَ كَالأَنْعَامِ » . . لها قلوب ، ولها أعين ، ولها آذان . . ولكنها لا تكون بهذه الأدوات كائناً بشرياً ، سوىّ الخلق ، سليم الفطرة . . « بَلْ هُمْ أَضَل » من هذه الأنعام ، إذ الأنعام تستعمل هذه الأدوات فيما يُصلح أمرها ، ويحقق ذاتها ، ويحفظ وجودها ، وهؤلاء لا يستعملون هذه الأجهزة إلا فيما يضرهم ،

ويفسد وجودهم « أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » الذين يسوقهم ضلالهم إلى الهلاك ، وهم غير ملتفتين إلى هذا البلاء الذى هم صائرون إليه . .

الآيات : (١٨٠ — ١٨٥)

« وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ » (١٨٥)

التفسير : يلحدون فى أسمائه : أى يحرفونها ، ويميلون بها عن الوجه الذى يليق بجلال الله وكماله ، ومنه الملحد ، وهو الزائغ عن طريق الحق والهدى . . والله سبحانه وتعالى متصف بكل كمال ، منزّهٌ عن كل نقص ، ولعباد الله أن يَدْعُوا الله و يتعبّدوا له بكل اسم يُفرِد الله سبحانه وتعالى بالكمال ، والعبودية . . فهو الله لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، الملك القدوس السلام المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور . . إلى غير ذلك من الأسماء التى ينفرد بها سبحانه عن المخلوقين . . فكل ما يدعو به العبدُ ربّه من أسمائه الحسنى ، هو ولاء ، وعبادة وتسبيح . . والله سبحانه وتعالى يقول : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّا ما تدعوا فله الأسماء الْحُسْنَى » (١١٠ : الإسراء) .

وقد وقف بعض العلماء بأسماء الله عند ما ذكره القرآن الكريم منها ، وهذا لا شك أولى من الخروج عن هذه الأسماء ، فهى كثيرة . أحصاها المحصون تسعة وتسعين اسماً . . فلا ضرورة للعدول عنها إلى غيرها لمن يعرف اللغة العربية ، أما من لم يحسن العربية ، فما يكون فى لغته مقابلًا لهذه الأسماء محققاً لمعانيها ، فهو من الأسماء التى يصحّ أن يُدْعَى الله بها ، ويتعبّد بذكرها .

* « وذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ » . . أى دعوهم وما سوّلت لهم أنفسهم من الزيغ والانحراف حتى فى أسماء الله الذى يؤمنون به . . « سيجزون ما كانوا يعملون » وسمّى قولهم عملًا ، لأنه ليس مجرد قول ، بل هو فى حقيقته عبادة ، ولكنه فى عمل هؤلاء المنحرفين عبادة غير مقبولة ، لا يعود منها على صاحبها إلا الإثم والخسران . .

* « ومِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ » .

فى هذه الآية إشارة إلى أن أهل الحق والعدل ، لايخلو منهم زمان .. وأنهم شهادة قائمة على أهل الزيغ والضلال .. وهم وإن كانوا قلّة فى الناس إلى جانب الكثرة الكثيرة من أهل الضلال ، فإنهم مجتمع الله فى هذه الأرض ، وورثة أنبيائه على رسالة الإيمان ، والحق ، والعدل .

وقوله تعالى : « وبه يعدلون » أى وبالحق يحكمون بين الناس ، ويقيمون موازين العدل فيهم ، كما أنهم يهدونهم بأنوار الحق ، ويخرجونهم من الظلمات إلى النور .. بل إنهم قبل هذا يعدلون بالحقّ ، ويحكمون به فى نظرتهم إلى الوجود ، وفى تعرفهم على الخالق وإيمانهم به .

* « والَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ »

الاستُدراج إلى الشىء : هو الإغراء به ، وتيسير السبل إليه ، حتى يقع فيه من استُدرج إليه . . واستدراج الله سبحانه وتعالى لهؤلاء الذين كذبوا

بآيات الله هو تزيين هذا المنكر لهم ، وتيسير سبلهم إليه ، كما يقول سبحانه وتعالى : « وأما من بخل واستغنى وكذَّبَ بالحسنى فسنيسّره لليسرى » . .

وهم فى هذا الطريق الذى ركبوه لا يدرون أنهم على شفا جرف هار ، فقد أعماهم الضلال عن أن يروْا وجه الحق أبداً ، كما يقول سبحانه : « أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا » (٨ : سورة فاطر) . . إنهم بما زيّن لهم الشيطان ، يرون الخير شرًّا ، والشَّرَّ خيراً ، والحق باطلاً ، والباطل حقاً .

قوله تعالى :

* « وأملى لهم إن كيدى متين » .

الإملاء : إرخاء الزمن ، وامتداده . . والمراد به إمهالهم ، وعدم تعجيل العقاب لهم ، والمِلاوة : الفترة من الزمن .

أى أن الله سبحانه وتعالى ، إنما يملى لهؤلاء الضّالين ، ويمدّ لهم فى أسباب الكفر والضلال ، ليزدادوا كفراً وضلالاً . . « إن كيدى متين » أى تدبيرى ، وتقديرى للأمور ، محكم ، لا ينقض أبداً . . وفى هـذا تهديد للمشركين ، الذين ركبوا رءوسهم ، ووقفوا هذا الموقف العنادىّ اللئيم من آيات الله ، ورسول الله .

قوله تعالى :

* « أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جِنّةٍ »

الخطاب لمشركى قريش ، وفى الآية التى قبل هذه الآية نذير لهم ووعيد . .

أما فى هذه الآية فهو تسفيه لأحلام القوم ، وفضح لمنطقهم السقيم . . فهم إذ يعجزون عن مواجهة الحق الذى فى يد « محمد » لا يجدون غير الكلمات الحمقَ يرمونه بها ، فيقولون فيما يقولون عنه : « إنه شاعر . . وإنه لمجنون » !

فهل عقلوا هذا القول الذى يقولونه ؟ وهل رأوا فى محمد ، وفى تصرفاته

فى الحياة ، أثراً من آثار الجنون الذى يرمونه به ..؟ « إن هو إلا نذيرٌ مبينٌ » بعثه الله بالحق بشيراً ونذيراً ..

ولو أنهم فاءوا إلى عقولهم ، وتصفحوا صحف هـذا الوجود ، لرأوا أن ما يدعوهم إليه « محمد » من الإيمان بالله ، والانخلاع عن عبادة الأوثان، هو الذى يلتقى مع العقول السليمة ، ويتجاوب مع معطياتها التى تقع لها من النظر فى ملـكوت السموات والأرض .

قوله تعالى :

* « أو لم ينظُرُوا فى ملـكوتِ السَّموات والأرض وما خَلَقَ اللهُ من شىء » أىّ شىء ، ولو كان نواة ، أو ورقة أو شجرة .. ففى كل ذرة من ذرات هذا الوجود ، كونٌ عظيم ، يشهد لقدرة الخالق ، وعلمه وحكمته .

* «وأن عَسَى أن يكونَ قد اقترب أجلهم» هو معطوف على قوله تعالى : « أو لم ينظروا » والمعنى ، أو لم ينظر فى ملـكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، فيروا وجه الحق ويبادروا إلى الإيمان بالله قبل فوات الأوان ، فما يدريهم أية ساعة تنقضى فيها آجالهم ؟ ومن يدرى فلعل أحدهم لا يبيت ليلته ؟ فـكيف يلقى اللهَ وهو على تلك الحال المنـكرة التى ليس وراءها إلا جهنم وبئس المصير ؟

وماذا ينتظر هؤلاء الضالون من مطالع الهدى ، وشواهد الإيمان وآياته ؟ أحديث أبلغ من حديث الله إليهم ، أو بيان أوضح من هذا البيان الذى تحمله آياته وكلماته ؟ « فبأىِّ حديث بعده يؤمنون ؟ »

الآيات : (١٨٦ — ١٨٨)

« مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِىَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى لاَ يُجَلِّيهَا

لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ ٱللهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ ٱللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (١٨٨)

التفسير : * « مَن يُضلِلِ اللهُ فلا هادى له » . .

فمن يهدى من أضلّ اللهُ وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ؟ .

تلك مشيئة نافذة لله ، لامعقّب عليها ، وقضاء مبرَم لا مردّ له .

* « ويذرهم فى طغيانهم يعمهون » أى يُخلى بينهم وبين أنفسهم ، يتخبطون فى ظلمات الشرك والضلال . .

والعَمَه : التحيّر ، والضرب فى الأرض على غير هدى .

* « يسألونك عن الساعة أيانَ مُرْساها » ؟ أى يسألونك عن الساعة . . متى تجىء ؟ والتعبير عن مجيئها بمرساها ، إشارة إلى أنها غائب ينتظر مجيئه ، حيث لايدرى أحدٌ متى تطلع ، وتبلغ الغاية التى تصل إليها ، وتلقى مراسيها عندها .

ومن سفاهة السائلين أن يسألوا عن الساعة ، ولم يعملوا لها ، ولم يستعدوا للقائها . . فما سؤالهم عنها ــ والأمر كذلك ــ إلا من قبيل الجدل السفيه ! فما عندهم للساعة حتى يسألوا عن ميقاتها ، ويستعجلوا يومها ؟

* « قل إنما علمُها عند ربّى لايجلّيها لوقتها إلا هو » . . إن أمرها عند الله ، لايكشفها ، ولايظهرها لوقتها الذى تظهر فيه ، إلا ربّ العالمين . . فهى عند الله ، سبحانه ، فى مستودعات الغيب الذى لا يملك مفاتحه إلا هو وحده .

* « ثَقُلَتْ فى السموات والأرض » أى عظم وقعها على السموات والأرض . أى أنها يوم تجىء تثقل على السموات والأرض ، فكيف تحتملون أنتم مجيئها يوم تجىء ؟ فلم تستعجلونها يومها ؟ ولم تلحّون فى البحث عن ميقاتها ؟

وثقل الساعة على السموات والأرض يشير إليه قوله تعالى : « يوم تُبدَّل الأرض غير الأرض والسموات » وقوله سبحانه : « إذا السماء انفطرت * وإذا الكواكب انتثرت * وإذا البحار فُجِّرت * وإذا القبور بُعثرت » .

فى هذا اليوم تتغيّر معالم الوجود السماوى والأرضى ، لِما يقع فيه من أهوال ، فكيف يستعجلون هذا الهول ، ويُنادون به أن يطلع عليهم ؟ . . ألاَ ما أشد جهلهم وغباءهم . . أما المؤمنون ، فإنهم ـ مع إيمانهم بالله واستعدادهم للقائه ـ مشفقون من لقاء هذا اليوم العظيم ، كما يقول سبحانه وتعالى : « يستعجل بها الذين لايؤمنون بها . والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق » (١٨ : الشورى) .

* « لاتأتيكم إلا بغتة » .

البغتة : الفجاءة ، أى على غفلة . . أى أن الساعة لاتجىء على حسب موعد معلوم للناس ، وإنما تقع فجأة وعلى حين غفلة .. إنها هول عظيم ، يطلع على غير انتظار من هؤلاء المشركين ، الذين يسألون عنها سؤال تهكم واستخفاف .. وفى هذا ما يضاعف بلاءها عليهم .

* « يسألونك كأنك حفىّ عنها » .

كأنك حفى عنها : أى كثير الطلب لها ، والسؤال عن وقتها .

وهذا يعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن من شأنه أن يتطلع إلى معرفة وقتها المعلوم ، وإن كان من دأبه أبداً ذكرُها ، والإعدادُ لها . . وفى هذا إنكار على هؤلاء الذين يسألون عن الساعة ، ومتى يجىء يومها . . وكان الأولى لهم أن يعملوا لهذا اليوم ، ويستعدوا للقاء الله فيه . .

« قل إنما علمُها عند الله ولكن أكثر الناس لايعلمون » وهذا توكيد لما تقرر من قبل بأن علم الساعة مما استأثر الله به وحده ، ولكن أكثر الناس لايعلمون هذه الحقيقة ، ولايرضون بالتسليم بها ، بل يسألون ويلحفون فى السؤال عنها ، ولو أنهم عقلوا ما سألوا .

وفى التعبير هنا بقوله تعالى : « قل إنما علمها عند الله » على حين كان النظم القرآنى فى هذه الآية نفسها : « قل إنما علمها عند ربّى » . . مراعاة لاختلاف المقامين . . حيث كان التعبير بلفظ : « علمها عند ربى » ردًّا مباشراً على سؤال السائلين للنبىّ عن ميقات الساعة ، وحيث كانوا يحسبون أن ذلك مما يعلمه النبىّ ، فجاء الرد عليهم بإضافة العلم إلى ربّ محمد ، لا إلى محمد .

أما الرد عليهم بقوله تعالى : « علمها عند الله » فذلك بعد أن جاءهم العلم بأن علم الساعة ليس مما يطلع عليه « محمد » بل هو مما استأثر به ربّ محمد ، وإذن فليعلموا بعد هذا أن الله ربّ العالمين ، هو ربّ محمد ، وربّ كل مخلوق . .

* « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضرًّا إلاّ ماشاء الله ولو كنتُ أعلَمُ الغيبَ لاستكثرتُ من الخير وما مسّنِىَ السوء » .

ومن الجهل الذى يستولى على العقول، فيضلها عن سواء السبيل، أن يرى بعض الناس أن النبىّ إذ كان على صلة بالسماء، قادر على أن يشارك الله فى سلطانه، وأن يكون بيده مابيد الله أو بعض ما فى يد الله من قدرة وعلم وسلطان..

ولهذا كان من مقترحات مشركى قريش على النبىّ، أنهم لن يؤمنوا له حتى يأتيهم بما اقترحوا عليه، مما ذكره الله سبحانه وتعالى على لسانهم فى قوله: «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجُر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنّةٌ من نخيل وعنبٍ فتفجّر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تُسقط السّماء كما زعمت عَلَيْنَا كِسَفاً أو تأتىَ بالله والملائكةِ قبيلا * أو يكون لك بيتٌ من زُخرفٍ أو ترْقَى فى السماءِ ولن نؤمِنَ لرقيِّك حتّى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبْحانَ ربى هل كنتُ إلا بشراً رسولاً» (٩٠ — ٩٣: الإسراء).

ومن واردات هذا الجهل ذلك السؤال الذى يلحّ به السائلون على النبىّ عن يوم القيامة، ظنًّا منهم أن النبىّ غيرُ بشر، وأنه يملك من قوى الغيب مايجعله عالماً بكل شىء، قادراً على كل شىء..

ولو كان النبىّ ممن يعمل لحسابه وممن يطلب المجد والسلطان لنفسه فى الناس ـ لحمد لهؤلاء الظانين به هذه الظنون؛ رأيَهم فيه، ونظرتَهم إليه، بل لعمل على الترويج لهذه الظنون، وإذاعتها فى الناس، ليكبر فى أعينهم، ويعظم مقامه فيهم..!

ولكنّ النبىّ لا يعمل إلا للحق، ولا يتعامل مع الناس إلا بالحق، ولهذا جاء قوله تعالى: «قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله» ليؤذّن به النبى فى الناس، وليريهم أنه بشر مثلهم، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فالنفع والضرّ بيد الله وحده.

وهذا لا يكون إلا من إنسان قام أمره على الصدق كله ، فلا يقول إلا ما يوحَى إليه من ربه ، ولو كان ذلك مما يشق عليه ، ويزيد فيما بينه وبين قومه من شقاق .

وفى عطف الضر على النفع إشارة إلى أن النبى لا يملك لنفسه أى شىء ، ولو كان من السلبيات .. بمعنى أنه لو صح منه العزم على أن يضر نفسه ما استطاع أن يصل إلى شىء من ذلك ، إلا ماشاء الله له . .

وهذا أبلغ فى وصف الإنسان ـ ولو كان نبيا ـ بالعجز ، وقصور يده عن أن يَبْلُغ أى شىء إلا ماقدر الله له ، ولو كان ذلك الشىء مما يحسب الإنسان أنه ملك خاص له ، لاينازعه فيه أحد ، مما لاتنزع إليه النفوس ولا ترغب فيه ، كطلب مايضر من الأمور ، وهو شىء مقدور عليه بأيسر جهد ، بل بلا جهد أصلا .. وحسب من يريد إتلاف نفسه أو إلحاق ضرر بها ألا يتحرك أية حركة ، فيجد الشر يهجم عليه من كل جهة ! !

* « ولو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسَّنى السوء » .

وهذا مثل واضح ، شاهد لايُدفع ، على أن النبى لا يعلم الغيب ، إذ لو كان عنده من علم الغيب شىء لعرف عواقب الأمور قبل أن تجىء ، ولما اتجه إلى أمرٍ تسوء عاقبته ، ولكان كل متجهه دائماً إلى ماتُحمد عاقبته ، وتعظم ثمرته .

فمثلا ، لو كان يعلم النبى من أمر الغيب شيئاً لمَا عرض نفسه على ثقيف قبل الهجرة ، ولما تعرض لهذه المواجهة المنكرة التى واجهوه بها ، ولجنّب نفسه هذا الأذى الذى أصابه فى جسده وفى مشاعره جميعاً ! ولو كان يعلم الغيب لَمَا أذن المنافقين الذين جاءوا إليه بأعذار كاذبة للتخلف عن غزوة تبوك .

* « إنْ أنا إلاَّ نذير وبشيرٌ لقوم يؤمنون » . . فتلك هى مهمة الرسول ، أن يبلّغ ما أنزل إليه من ربه ، منذراً ومبشراً .

وفى قوله تعالى : « لقوم يؤمنون » إشارة إلى أن رسالة الرسول إنما تؤثّر أثرها ، وتعطى ثمرتها لمن كان على استعداد للتعامل معها والإيمان بها ، والانتفاع بالخير الذى تحمله بين يديها .. فكأنّ الرسول ـ والأمر كذلك ـ رسول إلى هذا الصنف من الناس ، الذين يسمعون ، فيعقلون ، فيؤمنون . . أما من سواهم من أهل السفاهة والضلال ، فليس هو منهم فى شىء ، إذ كانت بضاعته كاسدة عندهم ، لا يأخذون منها شيئا .. كالأعمى .. ضوء الشمس عنده كظلمة الليل .. فآية الشمس عنده آية غير عاملة . . !

الآيات : (١٨٩ — ١٩٨)

* « هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونَ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّالِحِينَ (١٩٦) وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ

لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » (١٩٨)

التفسير : هذا قضية ، تعرضها تلك الآيات ، وتقيم الحجة لها وتدحض مفتريات المفترين عليها ، وتخرس ألسنة المتمارين فيها ..

وهذه القضية ، هى قضية الألوهية ، وتفرّد الله سبحانه وتعـــالى بها ، أمّا ماسواه ، فهو من باطل المبطلين ، ومفتريات المفترين .

فالله ــ سبحانه وتعالى ــ هو الخالق المصور لـكلّ مخلوق فى السموات أو فى الأرض .. والإنسان هو من بعض ماخلق الله .. « هو الذى خَلَقَكم من نفسٍ واحدةٍ وجعل منها زوجها ليسكن إليها » ..

فلينظر الإنسان مم خُلق ؟ ولينظر كيف كان خَلْقه ، وعلى أية صورة صُوّر ؟

فهذا العالم البشرى كله ، مخلوق من نفسٍ واحدة !

والمراد بالنفس الواحدة ، الجرثومة أو السلالة التى تكاثر منها هذا النسل ، وتوالد ، كما تتكاثر وتتوالد حبّات السنبلة من حبّة واحدة ، ثم تـكون من تلك الحبّات سنابل ، ومن تلك السنابلة حبـات ، ومن الحبات سنابل . . وهكذا ..

وفى قوله تعالى : « وخَلَقَ منها زوجها » إشارة إلى أنّ التزاوج الذى تمّ بين الجرثومة الأولى وأنثاها كان عن توافق بينهما ، وتجانس فى الصفات ، حتى يكون ذلك داعية إلى اجتماعهما وتآلفهما : « وخلق منها زوجها ليسكن إليها » أى ليجتمع إليها ، وليطمئن لها ، ويستقر معها ..

وقد أشرنا من قبل فى قصة آدم وخلقه[1] أن حواء التى قيل إنها خلقت

(١) انظر الـكتاب الأول من هذا التفسير (سورة البقرة) .

من ضلعه ، ولم تكن إلاّ مرحلة من مراحل التطور فى خلق آدم ، وأن عملية التكاثر فى تلك المرحلة كانت بانقسام الكائن الحىّ على نفسه ، كما هو الشأن فى بعض المخلوقات الدنيا من الديدان .

* « فلمّا تغشّاها حملت حَمْلاً خفيفاً فمرت به » .

أى فلما اتصل بها زوجها ، اتصال الرجل بالمرأة عَلِقت منه بالجنين الذى ولدته بعد أن تم حمله فى بطنها ..

وفى التعبير عن اتصال الرجل بالمرأة بقوله تعالى : « فلما تغشَّاها » أدب من أدب القرآن ، وإشارة لطيفة إلى ما يكون بين الزوجين ، إذ يغشى الرجل المرأة ، أى يكون لها غشاء ساتراً ، رقيقاً ، أشبه بالثوب يلبسه الإنسان ، أو أشبه بالليل إذ يغشى النهار ، ويدخل عليه ، فيستر مافيه من كائنات ، ويحجب الأعين عنها .

وفى قوله تعالى : حملت « حملا خفيفاً فمرّت به » إشارة إلى أول مراحل الحمل ، وأنه يمرّ خفيفا لاتكاد تشعر به .

* « فلمّا أثقلتْ دَعَوَا الله ربَّهُما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين »

أى أنه كلما مرّ الزمن بالجنين فى بطن أمه ، نما وكبر ، وصار ذا أثر واضح فى حياتها ، يتغير به تركيبها الجسدى ، فتكبر بطنها ، ويثقل خطوها ، وهنا يذكر كل من المرأة والرجل أن لها ولداً محجباً فى ستر الغيب ، ستتمخض عنه الأيام ، فيضرعان إلى الله أن يكون هذا الولد نبتة صالحة لها فى هذه الحياة ، يجدان فيه قرة العين ، وثَلَج الفؤاد .. وقد قطعا على أنفسهما عهداً أن يحمدا الله ويشكرا له على تلك النعمة .

* « فلمّا آتاهما صالحا جَعَلاَ له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون » .

وفى هذا إشارة إلى ما يقع بين المشركين بالله ، الذين لا يقدرون الله حق قدره ، فيضيفون أولادهم إلى غير الله ، ويستمدون لهم أمداد الصحة ، والسلامة من غير الله ، بما يقدمون من قرابين وصلوات إلى من يتمسحون بهم من أصنام وأشباه أصنام !

* « فتعالى الله عما يشركون » أى تنزه الله وعلا وتمجد عن أن يكون له شركاء ، يعملون معه ، ويشاركون فى تدبير ملكه .

* « أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يُخلقون ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون » ؟ .

فى هذا إنكار على المشركين أن يسوّوا بين الله سبحانه وتعالى وبين هذه المخلوقات ، أو المصنوعات ، و يتخذونها أرباباً لهم .

وكيف تسوغ لهم عقولهم أن يشركوا مع الله مخلوقاً يُخلَق ولا يَخلُق ؟ وكيف يرجون نصراً ممن لا يملك أن يدفع عن نفسه ضرًّا ، أو يجلب لها خيراً ؟ ذلك هو الضلال البعيد !

وكيف يتعبدون لمن لا يهتدى بنفسه إلى الهدى ، ولا يستمع لداع يدعوه إليه .. وسواء إذا دُعى إلى الهدى أم لم يدع ، فإنه حجر صلد لا يسمع ، ولا يجيب : « وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواءٌ عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون » ؟.

وفى قوله تعالى : « وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم » تشنيع على هؤلاء المشركين ، وتسفيه لعقولهم ، إذ يجعلون ولاءهم لهذه الدُّمى ، التى إذا دعاها عابدوها إلى الهدى لا تتبعهم .. وهذا يعنى أن تلك الآلهة قائمة على ضلال ، وأنها إذا دعيت إلى الهدى لا تستجيب ، لأنها لا تستطيع أن تتحول عن وضعها الذى هى فيه ، إلا إذا امتدت إليها يدمَن يحولها عن مكانها .

وانظر إلى آلهة ضالة يتعبد لها قوم ضالون ، ثم يراد لهؤلاء الضالين أن يكونوا دعاة هدى لآلهتهم التي يعبدون ؟.

إنها أوضاع مقلوبة .. يصبح فيها العابدون قادة وهداة للعابدين .. فبئس العابد والمعبود !.

* « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » .

فهؤلاء الذين يعبدهم المشركون من دون الله ـ جماداً كانوا أم شياطين أم ملائكة ـ هم خلق مثلهم ، مخلوقون لله ، لايملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فكيف يكون منهم لغيرهم نفع أو ضرّ ؟.

وها هو ذا الواقع يكشف عن هذه الحقيقة ويقررها .. فليدع المشركون آلهتهم التي يعبدونها من دون الله ، ثم لينظروا ماذا يبلغ هذا الدعاء منهم ؟ هل يسمعون ؟ وإذا سمعوا..هل يعقلون ؟ وإذا عقلوا .. هل يقدرون على تحقيق المطلوب منهم ؟ وكيف وهم لا يستطيعون لأنفسهم جلب خير ، أو دفع ضر ؟ .

وفى قوله تعالى : « فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » هو تسفيه لعقول هؤلاء المشركين ، الذين ركبهم الضلال ، واستولى عليهم العمى ، فاتخذوا هذه الدّمى آلهة لهم من دون الله .. إنهم يفترون الكذب،علىأنفسهم ، وعلى الله.. فهم المتهمون بهذا الضلال لا آلهتهم التى عبدوها .. ولهذا جاء قوله تعالى : « إن كنتم صادقين » مخاطباً المشركين ولم يجىء مخاطباً آلهتهم التى أشركوا بها .. ولو كان ذلك لجاء النظم القرآنى .. هكذا : « إن كانوا صادقين » .

* « ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها ؟.

ومن عجب أن هذه الآلهة المعبودة من دون الله ، أهون الكائنات شأناً ، وأقلها غناءً ، وأضعفها أثراً . .

إنها جماد صامت ، ليس فيها حياة ، ولا تملك فى وجودها جارحة تعمل ، كما تعمل جوارح الكائنات الحية .. فليس لهم أيد يدفعون بها الأذى ، ولا أرجل ينتقلون بها من حَرور إلى ظل ، أو من ظل إلى حرور .. وليس لهم أعين يرون بها مايرى الكائن الحىّ من الوجود الذى يعيش فيه ، ولا آذان يسمعون بها من يدعوهم ، أو يلقى إليهم ثناء أو سباباً ! فكيف يُلقى الإنسان بوجوده بين يدى هذه الجمادات ؟ وكيف يعطيها ولاءه وطاعته ، وخضوعه ؟ أليس ذلك غاية ما يمكن من بلادة الطبع ، وسخافة العقل وصَغَار النفس ؟

وقد يجد الإنسان فى مجال الوهم والجهل ما يبرر به عبوديته لكائن أقوى منه وأكثر قوة وسلطاناً ، ولكن عبوديته لجماد صامت ، لا يتسع له عذر أبداً ، فى أى باب من أبواب الوهم والجهل ! .

* وقوله تعالى : « قل ادعوا شركاءكم ثم كيدونِ فلا تنظرون » هو تحد من الرسول صلوات الله وسلامه عليه ـ لهذه الآلهة ، وما يدّعى لها عابدوها من آثار عاملة فى الحياة .. فليدع هؤلاء المشركون آلهتهم تلك ، وليوجهوها إلى النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ لترمى بكل كيدها إليه ، ولتدفع بكل ما لديها من ألوان الضرّ نحوه ، وذلك فى غير انتظار ، أو مهل . .

ولسوف تكشف هذه التجربة عما يُخزى هؤلاء المشركين ويفضح آلهتهم التى يعبدون .

* « إن وليِّيَ اللهُ الذى نَزّل الكتابَ وهو يتولّى الصّالحين » .

فإذا كان هؤلاء المشركون لا يزالون مصرين على ولائهم لهذه الأحجار وتلك الدمى ، بعد أن افتضح أمرها ، وظهر عجزها ـ فإن رسول الله يجعل

ولاءه كله لله الذى نزل عليه هذا الكتاب الكريم الذى بين يديه ، والله سبحانه وتعالى يتولى من يتولاه ، وينصر من يستنصر به ويلوذ بحماه ، « وهو يتولى الصالحين » أى ينصرهم ويوفقهم للهدى ، ويقويهم على مقاومة الشيطان ودفع كيده ا.

* « وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ » .

فهذه هى آلهتكم التى تدعون من دون الله ، لايستطيعون لكم نصراً ، لأنهم أعجز من أن ينصروا أنفسهم ، فكيف يكون منهم نصر لغيرهم ؟

وشتان بين من يدعو الله ، ويطلب نصره وعونه ، وبين من يدعو هذه الأحجار وتلك الدمى .

* « وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا » .

فهذه الآلهة التى يعبدونها من دون الله لاتعقل شيئاً ، ولا تفرق بين خير وشر . فإذا دعاها داع إلى ما فيه خير لم تسمع ، ولم تعقل ، ولم تعرف ما هو هذا الخير الذى تُدعى إليه . .

إنها صورة مطابقة لهؤلاء الذين يعبدونهم ، فكما لا تعقل هذه المعبودات خيراً ، كذلك هؤلاء الذين يعبدونها ، لايعقلون شيئاً ، فإن دعوا إلى الهدى لا يسمعوه ، ولا يستجيبون له ، فهم والأصنام سواء بسواء . .

* « وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » .

قد يكون المشار إليهم بضمير الجمع هنا هم أولئك المشركون ، أو تلك الأصنام التى يعبدونها ، أو هم هؤلاء وأولئك جميعاً . . فالمشركون وما يشركون بهم سواء فى أنهم لا يسمعون ، ولا يبصرون ، ولا يعقلون . .

أما الأصنام فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئاً أبداً .. إذ كانت جماداً لا حياة فيه، ولا شعور له ..

وأما المشركون ، وإن كانت لهم آذان تسمع ، وعيون تبصر ، وعقول تعقل ، فإنهم لا يسمعون إلا أصواتاً ، ولا يبصرون إلا صوراً ، ولا يعقلون إلا أوهاماً ، ومن هنا كانت حواسهم تلك ، معطلة ، أو شبه معطلة ، لا يفيد أصحابها منها شيئا ..

الآيات : (١٩٩ — ٢٠٦)

« خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْآنُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ » (٢٠٦)

التفسير : بهذه الآيات تختم سورة الأعراف، كما بدأت ، فتلتقى بالنبىّ الكريم لقاء مباشراً ، بعد أن كان مفتتحها ذلك الخطاب الموجه إلى النبىّ بأن يلقى قومه ، ويواجههم بآيات ربّه ، وبالكتاب الذى نزّله عليه ، وإن كان فى ذلك

القطيعة بينه وبين أهله ، إذ لامُهادَنة فى الحقّ ، ولا حساب لصِلات القرابة والصداقة فيه . . « كتابٌ أُنزِل إليك ، فلا يكن فى صدرك حَرَجٌ منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » . . هكذا بدأت السورة . . وبهذا تختتم . .

وفيما بين هذين اللقاءين ، فى مفتتح السورة ومختتمها ، عرضت السورة الإنسانَ فى معارض الحياة كلها . . كيف خُلق الإنسان ، وكيف كان تحدّى الشيطان فيه لله ، واعتراضه على هذا التكريم الذى كرّم الله الإنسان به ، ثم كيف كان عصيان آدم لربّه ، وخروجه عن طاعته ، ثم ما كان من آدم من ندم وتوبة ، وكيف عاد الله بفضله عليه ، وقبل توبته ، ثم حذّره من الشيطان ، وتربصه به ، لإغوائه هو وذريته ، ودفعهما إلى عصيان الله ، والخروج عن طاعته .. ثم جاءت الآيات بعد ذلك لتعرض على أنظار أبناء آدم مشاهد القيامة ، وما يلقى الطائعون من نعيم ، وما يؤخذ به العاصون من نكال وعذاب ، وكيف يستجدى أهل النار أصحاب الجنة ، ويمدّون إليهم أيديهم فى لهفة وذلة أن يُفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله .. ثم تجىء الآيات بعد هذا فتعرض صوراً من مواقف الإنسان مع دعوات الهدى التى يحملها رسُل الله إليه ، فيلقاها معرضاً مستكبراً ، ثم كيف كان أخذ الله للظالمين الضالين ، الذين عصوا رسل الله وأعنتوهم ، ومدّوا ألسنتهم وأيديهم إليهم بالضر والأذى .. ثم تجىء الآيات بعد فَضح هذا الشرك الذى هم فيه ، وتريهم رأى العين ماعليه آلهتهم التى يعبدونها من ضعف ظاهر ، لاتملك معه ، أن تتحول من حال إلى حال ، ولا أن تنجو بنفسها من أى أذًى تُرمى به .. وفى هذا العرض ينكشف ضلال المشركين وسفاهة أحلامهم ، إذ يعطون وجودهم وولاءهم لهذه الدُّمى الصماء ..

بعد هذا كله ، تجىء خاتمة السورة داعية النبىّ إلى النهج الذى يأخذه فى دعوته إلى الله ، بعد أن كان متجــه الدعوة إليه فى مفتتح السورة أن ينهض

للدعوة ، وليَلقىَ الناسَ بما أُنزل إليه من ربّه ـ فجاءت الخاتمة هنا لترسم له الطريق الذى يلتزمه فى دعوته ..

وهذا الفاصل الممتدّ بين مفتتح السورة وخاتمتها ، والذى كان بطبيعة الحال فاصلا بين مادّة الدعوة ، وبين المنهج الذى تقوم عليه ـ هذا الفاصل لم يكن جملة اعتراضية بين مادة الدعوة ومنهجها ، وإنما هو ـ فى الواقع ـ منهج تطبيق للدعوة ، رأى فيه النبىّ ، كما رأى فيه قوم النبىّ ، صوراً متعددة من الصدام بين الحق والباطل ، وكيف كانت مصارع المبطلين ، وعاقبة الظالمين . وهذا مما يُعين النبىّ على الأخذ بهذا المنهج الذى رسمه الله للدعوة التى أقامه عليها .

وقوله تعالى : * « خذ العفوَ وأْمُرْ بالعرفِ وأعرِض عن الجاهلين » .

هو المنهج الذى يسلكه النبىّ مع الناس فى أداء رسالته إليهم ، مَن تبعه منهم ومن عصاه على السواء ، وهذا المنهج ذو أصول ثلاثة ، يقوم عليها :

أولها : المياسرة والرفق ، فى أخذ المؤمنين ، بأحكام الشريعة ، فلا إعنات ، ولا إرهاق فى شريعة الله ، التى جاءت رحمة لعباده ، واستنقاذاً لهم من الهلاك ..وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « خذ العفو » أى تقبل من الناس ما تسمح به أنفسهم ، ويتسع له جهدهم ، مما لا يشق عليهم من أمر أو نهى ..

وهذا من شأنه أن يوثق العلاقة بين المؤمنين وبين دين الله الذى دخلوا فيه ، حيث يجدون منه وجهاً سمحاً مشرقاً ، يلقاهم بالصفح الجميل إذا هم أذنبوا ، ويفتح لهم باب الرضا والقبول ، إذا هم شردوا وضلوا ، ثم تابوا ، وأنابوا إلى الله من قريب ..

وهكذا جاءت شريعة الإسلام ، رفيقة بالناس ، رحيمة بهم .. ليس فيها ما يُعنتهم ، أو ينكّل بهم ، لأنها لم تجىء إليهم نكالا وانتقاماً ، وإنما جاءت

إليهم رحمة وإحسانا .. وفى هذا يقول الله تعالى : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » (١ : إبرهيم)

ويقول سبحانه : « وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين » (١٠٧ : الأنبياء)

ويقول جلّ شأنُه : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبلُ لفى ضلال مبين » (٢ : الجمعة) .. فالرسالة التى بين يدى رسول الله ، هى رسالة خير ورحمة ، فلا يكون منها للناس جميعاً إلا الخير والرحمة ، حتى لأولئك المشركين الذين تصدوْا للرسالة وأعنتوا صاحبها ، حيث لم يأخذهم الله بما أخذ به الأمم السابقة الذين تحدّوْا رسلَ الله ، وكفروا بهم ، وبما يدعونهم إليه .

وثانيهما : ألا يخرج بالناس عن مألوف الحياة ، وطبيعة البشر ، وهذا يعنى أن أحكام الشريعة ليست غريبة على الناس ، وإنما هى من صميم البناء السليم للحياة الإنسانية ، وأنه لو ترك الناس وما تدعوهم إليه فطرتهم السليمة لكان ما تعارفوا عليه ، وأخذوا أنفسهم به ، هو والشريعة على سواء ..

فالشريعة السماوية ـ فى حقيقتها ـ ليست شيئاً زائداً على الحياة الإنسانية السليمة ، وإنما هى تنظيم لها ، وضبط لحدودها ، وجمع لأصولها التى عرفها الناس فى الحياة .. عن تجربة ، وممارسة واختبار ..

إن الناس بفطرتهم ، يعرفون مايضرّهم وما ينفعهم ، ويفرقون بين ما هو شر وما هو خير .. وهذا مايشير إليه الحديث الشريف : « الحلال بيّن والحرام بيّن » .. ولكن ليس كل من عرف الشرّ توقّاه ، وحرس نفسه منه ، وليس كل من عرف الخير أقبل عليه ، وأخذ نفسه به ، إذ ما أكثَرَ تلك الأهواء التى تتحكم فى الناس ، وتغلبهم على مايدعوهم إليه العقل ، وتناديهم به الحكمة .

ولقد جاءت الشرائع - كما جاءت القوانين الوضعية - لترسم للناس الحدود ، وتوضح المعالم ، بين الخير والشر ، والحق والباطل ، ولترصد العقاب الرادع لمن استخفّ بهذه الحدود وعبث بتلك المعالم .

فقوله تعالى : « وأمر بالعُرف » هو كشف عن وجه من وجوه تلك الشريعة السمحاء ، وأنها شريعة إنسانية فى صميمها ، تحترم الوجود الإنسانى ، وتلتقى بالناس وتتعاطف معهم ، فيكون حسابهم عندها قائماً على طبيعتهم ، وما ركّب فيهم من غرائز ، وما استقرّ فيهم من عواطف ومشاعر .

فالمعروف ، هو ما تتعرف إليه النفوس الطيبة ، وتتفتح له الفِطر السليمة ، فيقع منها موقع الرضا والقبول ، ويصبح من المعروف لها ، والمألوف عندها . .

وفرق كبير بين مايتعارف عليه الناس من أهواء ، وبدع ، ومنكرات ، وبين ما يتعارفون عليه من حق ، وبر ، وخير . .

فما كان من واردات الأهواء والبدع والضلال ، فإنه وإن فشا فى الناس ، وغلب على عامّتهم ، هو قَلِقٌ فى مكانه ، غريب فى موضعه ، حتى عند أهله المتعاملين به ، والمتعاطفين معه . . ذلك أن من يركب الشرّ يعلم أنه على غير الطريق السوىّ ، وأنه قائم على منكر ، يتطلع إلى اليوم الذى يقهر فيه أهواء نفسه ، ودواعى نزواته ، ليأخذ طريقه مع الحق والخير ، والإحسان . .

ومن هنا ، كان « الإجماع » فى الشريعة الإسلامية أصلاً من أصول الشريعة ، ومادة من مواد التشريع لهذه الأمة التى اصطفاها الله سبحانه ، لتكون مُحْمَل الرسالة الخاتمة لرسالات السماء ، إذ كانت كما أرادها الله ، « خيرَ أمةٍ أخرجتْ للناس » . . وهذا مايشير إليه قول الرسول الكريم : « لاتجتمع أمتى على ضلالة » .

وليس الإجماع فى صميمه إلا مارضيه أهل الحلّ والعقد من عقلاء الأمة ، وأهل الرأى والنظر فيها ، وذلك فيما جدّ من أمور لم يكن للشريعة رأى فيه .

وهذا من الإسلام ، اعتراف بالجماعة الإنسانية ، وبحقّها فى المشاركة فى وضع دستور حياتها ، الذى رسمت لها الشريعة حدوده . .

وفرق كبير بين اعتراف الشريعة الإسلامية بالإجماع ، وبين ماتعترف به الديانات الأخرى من سيادة الرئيس الدينى لها وحقه فى التشريع . . حيث يقوم الإجماع فى الشريعة الإسلامية على الشورى ، التى تعطى كل إنسان حقّه فى إبداء رأيه ، وفى قبول ما يقبل ، ورفض ما يرفض ، على حين تقوم سيادة الرئيس الدينى على الاستبداد بالرأى وحده ، دون أن يكون لأحد معه حق المراجعة أو المعارضة ! !

وثالثهما : قوله تعالى : « وأعرض عن الجاهلين » .

وهو من تمام هذا الأدب الربّانى ، الذى أدّب الله سبحانه به نبيه صلى الله عليه وسلم ، وجعله مِلاَكَ أمره فى سياسة الناس ، وفى وصل المجتمع الإنسانىّ برسالة الإسلام . .

فالإعراض عن السفهاء والجاهلين ، تأديب حكيم لهم ، وقطع لحبال الملاحاة واللَّجاج معهم ، وفلٌّ لأسلحتهم التى لا تحسن العمل إلا فى ميدان السفاهة والجهل . . إذ أنه ليس أرضى لنفوس السفهاء ، ولا أهنأ لقلوبهم من أن يجدوا من يُمدّ لهم فى حبال السفاهة والجهل ، حين يَلقى سفاهتهم بسفاهة وجهلهم بجهل . . إنها حينئذ فرصتهم التى تظهر فيها ملكاتهم ، وتُشحذ بها أسلحتهم ، فى هذا الميدان ، الذى يصولون فيه ويجولون .

ثم إن فى إعراض النبىّ عن السفهاء والجاهلين ـ فوق أنه حماية له ، وحراسة لمقامه الكريم من أن يصيبه رذاذ من هذا الشر المتطاير ـ إطلاقاً للنبى بكل قوته للعمل فى آفاقٍ أكرم وأولى بهذا الخير الذى فى يديه ، حيث

يكون لقاؤه كاملاً مع أولئك الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . .

ولهذا عاتب الله ـ سبحانه ـ نبيّه الكريم ،هذا العتاب الرقيق الجميل ، حين أعطى وجهه لهؤلاء الجاهلين المتطاولين من رءوس القوم ، طمعاً فى هداهم ، على حين صَرَف وجهه عن ابن أم مكتوم ـ الأعمى ـ وقد جاء يسأل النبى ، ويستزيد من العلم بأحكام دينه ، فقال تعالى معاتباً النبىّ هذا العتاب الموصول باللطف والرحمة والإحسان : « عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزّكى * أو يذّكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تصدّى * وماعليك ألا يزّكّى * وأما من جاءك يَسْعَى * وهو يخشى * فأنت عنه تَلَهَّى * كلا . . إنها تذكرة * فمن شاء ذكره . » .

قوله تعالى : « وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » النزغ : أدنى المسّ ، والإلمام بالشىء دون الوصول إلى صميمه . .

والمراد بالنزغ الذى يكون من الشيطان للنبىّ ، هو أن يدخل على النبىّ فى صفائه وإشراقه ، بشىء من ضَبابه ودخانه ، وهنا يتنبه النبىّ لما وقع فى سمائه الصافية المشرقة ، فيعلم أن ذلك من كيد الشيطان ، فيستعيذ بالله منه ، وإذا الله سبحانه وتعالى مُعيذٌ له ، صارف عنه كيد الشيطان : « إنه سميع عليم » .

قوله تعالى : * « إِنَّ ٱلَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » .

والمؤمنون هم الذين أخذوا بهذه السبيل التى أخذها النبىّ عند لَمّة الشيطان به . .

فهم « إذا مسّهم طائف من الشيطان » وكاد يستولى على حالهم التى هم فيها مع الله ، تذكّروا العداوة التى بينهم وبين هذا الشيطان ، وذكروا مابينهم وبين الله ، وعندئذ تنجلى هذه الغُمّة عنهم ، وينصرف هذا السحاب المتراكم الذى

لقهم الشيطان به ، وإذا نور الهدى يطل عليهم من بين هذا السحاب ، وإذا حرارة الإيمان تتحرك فى صدورهم ، فتبدّد غواشى هذه السحب ، وإذا سماؤهم مشرقة بنور الله .. وإذا هم مبصرون طريقهم إلى الحق والخير . .

وفى التعبير بالنزغ فى مقام النبىّ ، وبالمسّ وبالطائف فى جانب المتقين ، إشارة إلى أن ما يكيد به الشيطان للنبىّ هو شىء عارض ، لا يكاد يجاوز اللحظة العابرة ، واللمسة المذعورة .. أما ما يكيد به الشيطان للمؤمنين فهو مس يكاد يحتويهم ، ويطوف بهم ، ويشتمل عليهم .. وذلك لأن النبى الكريم فى مقامه العالى، من التقوى، ومن اليقظة، هو فى حصن حصين، بحيث لا يكاد يجد الشيطان منفذاً ، وإن وجده فهو أضيق من سَمّ الخياط.. وهكذا المؤمنون وما فى قلوبهم من تقوى ، فكلما كان رصيد المؤمن من التقوى عظيما ، كلما أثر الشيطان فيه ضعيفاً ، لأن التقوى هى الحصن الذى يحتمى فيه المؤمن من أن يطوف الشيطان به ، وكلما كان هذا الحصن متين الأركان ، متماسك البنيان كلما ضاقت منافذ الشيطان وسُدّت دون كيده الأبواب !

* قوله تعالى : وإخوانهم يَمُدّونهم فِى الَغىِّ ثم لا يُقْصِرونَ » .

فَهِمَ أكثر المفسرين هذه الآية على أن الإخوان هنا هم إخوان الشياطين ، من المشركين وأهل الضلال، وأن الشياطين يمدونهم بالغىّ والضلال، فلا يُقْصِرون، ولا يرجعون عن غيهم وضلالهم ، بل يزدادون ضلالا إلى ضلال ، وغياً إلى غىّ .

والفهم الذى أطمئن إليه فى هذه الآية ، هو أن المراد بإخوانهم ، هم إخوان المؤمنين ، من المنحرفين ، وأصحاب الأهواء والبدع ، ومن المشركين والضالين.. وأن هؤلاء جميعاً هم شياطين مسلطون على المؤمنين ، يحاولون جاهدين أن يمدوهم بالغى والضلال ، والمؤمنون ـ مع هذا ـ فى إعراض عنهم ، ولكنهم ـ مع

هذا ـ دائبون على هذا الكيد للمؤمنين .. لا يُقْصرون، ولا ينتهون ..

وتسمية هؤلاء الغواة من المشركين والضالين إخوانا للمؤمنين، هو لما بينهم من صلات القرابة والنسب ..

ومن جهة أخرى فإن هؤلاء المشركين الضالين، كان من شأنهم ـ لو عقلوا ـ أن يكونوا إخوانا لهؤلاء المؤمنين، أخوّة إيمان وتقوى، بعد أن كانوا إخوانا لهم، نسبا وقرابة، ولكن فرّق بينهم هذا الضلال الذى هم فيه ..

* وقوله تعالى: « وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ».

هو عطف على قوله تعالى: « وإخوانهم يمدونهم فى الغى » ..

أى أن هؤلاء المشركين إذا لم تأتهم بآية مما يقترحون عليك من آيات، قالوا لك: هلا اجتبيتها، أى اخترتها أنت بنفسك من بين تلك الآيات التى كانت تتنزل على الرسل السابقين، كناقة صالح، وعصا موسى، ويده، ومعجزات عيسى فى إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص؟ فهذه الآيات وأمثالها هى التى نطلب إليك أن تأتينا بواحدة منها أو مثلها، ونحن لانشق عليك بأن نطلب إليك آية بعينها، بل نترك ذلك لك، لتتخير الآية التى تقدر عليها!!

وليس ذلك منهم عن صدق وجِدّ، وإنما هو استهزاء، وسخرية، وتحدّ وقاح للنبىّ، وإظهاره بمظهر المغلوب على أمره فى تحديهم له ..

وقد أمر الله نبيّه الكريم أن يلقاهم بقوله تعالى: « قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ » أى أننى لست إلا رسولا من الله إليكم، أبلغكم ما أرسلت به، وأنه ليس مما لى أنْ آتى لكم بما لم ينزّله علىّ ربّى، ويأذن لى به . . « إنما الآيات عند الله » . . فلو أنكم أيها المشركون قدرتم الله حقّ قدره

لَمَا حَمّلتم إلى عبدٍ من عباد الله ـ ولو كان رسولاً من رسله ـ أن يكون له شأن مع الله ، وأن يأتى بآيات ومعجزات لم يضعها الله سبحانه فى يده ، ولم يأذن له بها . .

ثم ما لكم ـ أيها المشركون الضّالون ـ تطلبون الآيات ، وتقترحون منها ما تمليه عليكم أهواؤكم ؟ وهذا كتاب الله ، وتلك آياته بين أيديكم ؛ لو أنها وجدت منكم آذاناً صاغية ، وقلوباً واعية ، لاستغنيتم بها عما تطلبون من آياتٍ ماديّة تلمسونها بأيديكم ، فتبهر عقولكم بأفعالها القاهرة المعجزة ؟

وفى كل آية من آيات الكتاب الكريم معجزة قاهرة متحدية ، تخشع لجلالها القلوب ، وتعنو لروعتها الوجوه ، ولكن لا ينكشف منها هذا الجلال ، ولا تتبيّن منها تلك الروعة إلا لأصحاب البصائر السليمة ، التى تتهدّى إلى الحق ، وتتّبع آثاره ، وتستجيب لدعوته . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « هذا بصائرُ من ربكم وهدًى ورحمةٌ لقوم يؤمنون » فالبصائر : جمع بصيرة ، والبصيرة بمعنى باصرة ، أى أنها عيون مبصرة لمن ينظر بها إلى هذا الوجود ، ويتخذها دليلَه وهاديَه فى الحياة . . إنه لن يَضِلّ معها ، ولن يجد فى صحبتها غير الهدى والرحمة . . هذا لِمَنْ يؤمنون بها ، ويصحبونها على وِفاق ، لا لمن يمكرون بآيات الله ، ويتخذونها لهواً ولعباً

* وقوله تعالى : « وإذا قُرِئ القرآنُ فاستمعوا له وأنصتوا لعلّكم تُرْحَمُون » هو إشارة إلى ما ينبغى أن تكون عليه صحبةُ آيات الله ، لمن يبغى الخير منها ، ويطلب الهُدَى عندها . . إنها لا تعطيه من خيرها ، ولا تُمِدّه من أضوائها ، إلا إذا أعطاها حقّها من الاحترام والتوقير ، فإذا استمع إليها ، وهو يتلوها على نفسه ، أو يتلوها عليه غيرُه ، وأنصت لها ، وأخلى حواسّه وجوارحه وكيانه كلّه من أى شاغل يشغله عنها ـ عندئذ يؤذَن له

أن يُفيد منها ، وينتفع من الخير المخبوء فى كيانها ، وفى هذا ما يُدنيه من ربّه ، ويقرّبه من رحمته .

* وقوله سبحانه : « واذكر ربّكَ فى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ودون الجهر من القول بالغدوّ والآصال ولا تكن من الغافلين » . . هو خطاب للنبىّ الكريم ، ينضوى تحته المؤمنون جميعاً . .

ومطلوبُ هذا الخطاب ، هو ذكر الله ، وشَغْل القلب به ، فى صمت وخشوع ، وفى ضَرَاعة لكبرياء الله ، وخوفٍ وَرَهَبٍ لسطوته وجبروته .

وهذا هو ذِكْر القلب ، حيث تسكن كل جارحة ، وحيث يكون الإنسان كله مشاعر خاشعة ، تلين بها الجلود ، وتفيض منها العيون ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ » (٢٣ : الزمر) .

وهناك ذِكر باللسان ، هو فى درجة بعد هذه الدرجة ، ومنزلة دون تلك المنزلة ، التى هى من شأن القلب وحده . .

وليس الذكر باللسان مجرد أصوات تُردّد بكلمات الله وآياته ، فإن مثل هذا الذكر لا محصّل له ، ولا ثمرة وراءه . . وإنما يكون ذكر اللسان مورداً من موارد الخير ، وطريقاً قاصداً إلى الحق والهدى ، حين يستملى من قلبٍ خاشع ، ويتلقّى من مشاعر مجتمعة ساكنة ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ودونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ » . . فهو معطوف على قوله تعالى : « فى نَفْسِكَ » أى اذكر ربّك فى نفسك تضرّعاً وخيفة ودون الجهر من القول » . . بمعنى : واذكر ربّكَ بلسانك كما ذكرته بقلبك ، ولكن بصوت خفيض ضارع تناجى فيه ربّك ، فى غير ضوضاء أو جَلَبة ، وفى هذا استجماع للقلب ،

واستحضار لما عربَ من سوانحه وخواطره ، فكما فى ذكر الله بالقلب دون اللسان إتاحة الفرصة للقلب أن يصغى إلى نداءاته المنبعثة من داخله ، كذلك فى ذكر الله باللسان هو إيقاظ للقلب بتلك الكلمات الرقيقة الهامسة التى تربت عليه فى رفق وتناديه فى عطف ولين .

والغدوّ : جمع غُدوة ، وهى أول النهار ، والآصال : جمع أصائل ، والأصائل : جمع أصيل ، وهو الساعة الأخيرة من النهار .

والمراد بالغدو والآصال ، ليس هو قَصر ذكر الله فى هذين الوقتين ، وإنما المراد هو شغل القلب واللسان بذكر الله ، ذكراً دائماً متجدداً ، بحيث يُخلى الإنسانُ نفسه من الشواغل ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ليكون بينه وبين الله تلك اللقاءات المسعدة ، التى يجدّد فيها إيمانه ، ويقوّى بها صلته بخالقه . . ولهذا جاءت خاتمة الآية بهذا الأمر الكريم : « ولا تكن من الغافلين » .

وأما السر فى اختيار هذين الوقتين ، فلأنهما أصلح الأوقات وأنسبها لذكر الله ، واستحضار جلاله وعظمته .

فنى أول النهار يتزود الإنسان بهذا الزاد الطيب ، الذى يغذّى به مشاعره وأحاسيسه ، ويشحن به عواطفه ونوازعه .. ثم يخرج إلى الحياة ، ومعه هذا الرصيد العظيم من أمداد الله ، وَرحَماته ، فيواجه الحياة بقلب سليم ، وعزم موثق ، ولسانٍ عفّ ، ويدٍ نقيةٍ . . فيكون من هذا كله فى حراسةٍ أمينة يقظة ، فلا يزلّ ولا ينحرف ! .

فإذا كان آخر النهار ، كان له إلى نفسه عودة ومراجعة ، فيعرضها على الله ، ويصلح ما وقع لها من خلل أثناء رحلتها مع الحياة طوال اليوم .. وبهذا يظل للمؤمن المتصل بالله هذا الاتصال ــ يظل على الصحة والسلامة أبداً ، فيقطع العمر ،

معافىً فى دينه ، سعيداً فى دنياه ، طامعاً فى رضى الله ورضوانه ، يوم يقوم الناس لرب العالمين..

وقوله تعالى : « إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون » .

هو بيان للصورة المُثلى لعبادة الله ، والتى ينبغى أن ينشدها المؤمن ، ويعمل لها ، ويستعين الله على بلوغها ..

والصورة هنا هى للملائكة الرحمن الذين هم أقرب خلق الله إلى الله .. فهم مع هذا القرب ، وفى تلك المنزلة التى هم فيها ، لايفتُرون عن عبادة الله ، بل هم على عبادة دائمة ، وذكر متصل ، بين تسبيح ، وسجود .

وفى قوله تعالى : « لا يستكبرون عن عبادته » إشارة إلى أن هذه المنزلة التى لهم عند الله ، لم تَدْخل عليهم بشىء من الكِبر والإدلال على الله ، حيث لا متطلع لهم إلى منزلة غير تلك المنزلة ، بل إن ذلك كان داعية لهم إلى دوام العبادة ، ومواصلة التسبيح ، حمداً لله على ما هم فيه ، وشكراً له على ما أنعم به عليهم ، واستدامةً لتلك النعمة .

وإذا كان هذا هو شأن هؤلاء العباد المكرمين ، فأولى بمن هم دونهم درجة ، أو درجات ؛ أن يجتهدوا فى العبادة ، وأن يسعوا السعى الحثيث إلى الله ، بالذكر والتسبيح ، حيث لايزال أمامهم مدى فسيح يسعون فيه إلى الله ، لينالوا عنده درجاتٍ فوق درجات ..

هذا ، ويصح أن يكون المراد بالذين عند ربك ، هم الذين اصطفاهم واختارهم من بين الناس ، وهم المؤمنون الذين عرفوا الله حق معرفته ، فأخلصوا له دينهم ،

وأسلموا له وجودهم ، فعبدوه فى ولاء وخشوع، لايسبحون غيره ولا يسجدون سواه ..

ومعنى أنهم عند الله ، أى من أهل وُدّه ، ورضاه .. كما يقول سبحانه : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدًّا .. » .

وهذا المعنى الذى ذهبنا إليه ــ مخالفين فى ذلك ما أجمع عليه المفسرون ــ هو المناسب لسياق النظم القرآنى ، حيث كانت الآية السابقة على هذه الآية دعوةً إلى ذكر الله ، على تلك الصورة التى تؤهل الذاكر لأن يكون من أهل الله، ومن عباده المكرمين .. وهى قوله تعالى :

« واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدوّ والآصال ولا تكن من الغافلين » .. فهذا الذكر هو الذى يقرب الإنسان من ربه ، ويرفعه إلى هذا المقام الكريم ، وإنه لن يرتفع إلى هذا المقام إلا من ذكر الله هذا الذكر ، فلا يستكبر عن عبادة الله ، ولا يولىّ وجهه إلى غيره فى تسبيح أو سجود ..

ثم إن هذا المعنى يناسب مطلع السورة التى جاءت تالية لسورة الأعراف وقد جاء فى هذا المطلع قوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم وإذا تُلِيَتْ عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » . (٢ ــ ٤ : الأنفال)

سورة الأنفال

نزولها : نزلت بالمدينة فى أعقاب غزوة بدر فى السنة الثانية من الهجرة ، وتسمى سورة « بدر » .

عددآياتها : سبع وسبعون آية .

عدد كلماتها : ألف ومائة وخمس وتسعون كلمة .

عدد حروفها : خمسة آلاف ومئتان وثمانون حرفاً .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٤)

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » (٤)

التفسير : كانت غزوة بدر أول موقف وقفه المسلمون إزاء الغنائم التى وقعت لأيديهم من يد أعدائهم فى ميدان القتال .. ولهذا اضطربت مشاعر المسلمين فيها ، واختلفت أنظارهم عليها .. فمن قائل إنها لمن جمع الغنائم وحازها ليده ، ومن قائل إنها لمن قاتل والتحم بالعدو .. ومن قائل إنها لمن شهد القتال ، قاتل أو لم يقاتل ، حاز غنيمة أو لم يحزها . ومن قائل إنها للجماعة الإسلامية التى

كانت تضمها المدينة.. وهكذا توزعت مشاعر المسلمين وعواطفهم ، فى مواجهة هذا الطارق الغريب ، الذى أطلّ عليهم بوجهه ، لأول مرة . .

ولو تُرِك هذا الموقف للمسلمين يَقضون فيه برأيهم ، ويلتقون فيه على رأى، لما كان فى هذا ما يحسم الموقف ، ويجمع هذه العواطف المشتتة ، وتلك النوازع المختلفة .. فإن أى رأى يلتقى عنده المسلمون ، لم يرض نفراً منهم أيًّا كان عدده . .

وتلك لاشك ثُلْمة فى بناء الجماعة التى لاتزال على أول الطريق ، فى استكمال كيانها ، ودعم بنائها ، بل هو صدع فى هذا البناء ، تزيده الأيام عمقاً واتساعاً ، إن لم يكن فى الحساب توقّيه قبل أن يقع . . حتى يحفظ هذا الجسد سليما معافىً من أية آفة ، تندس إليه ، وتنفث سمومها فيه .

ولهذا جاءت كلمة الفصل من السماء ، حتى لا يكون لقائل قول ، ولو كان الرسولَ الكريمَ نفسَه ،والذى لو قال كلمة هنا لتلقاها المسلمون بالقبول والرضا ، ولسكن عندها كل خاطر ، ولماتت بعدها كل نازعة أو وسواس ، لما للرسول فى نفوس المسلمين من حب وطاعة ، وولاء . . إذ كانوا على يقين ، بأنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لايقضى إلا بالحق ، ولا يقول إلا بما أراه الله : « وما ينطق عن الهوى » .

ومع هذا ، فإن حكمة الحكيم العليم اقتضت أن تكون كلمةُ الله هى القضاء الفصل فيما اختلف فيه المسلمون ، حتى يعودوا من هذه المعركة ، وقد خلت نفوسهم من أى همّ من هموم الدنيا ، وحتى يكونوا جنداً خالصاً لدين الله ، لا يجاهدون إلا فى سبيل الله ، وفى إعلاء كلمة الله ، دون التفات إلى شىء من هذه الدنيا ، وما يقع لأيديهم من مغانم الحرب .. فتلك المغانم ـ وإن كثرت ـ لاحساب لها فى هذا الوجه الكريم الذى يتجه إليه المجاهدون فى سبيل الله ..

ومن أجل هذا ، كان حكم الله قاضياً على المجاهدين بألاّ شأن لهم بهذه الغنائم ،

وأن أمرها إلى الله ، ثم إلى رسول الله يضعها حيث يشاء ، ويتصرف فيها كما يرى ..

تلك هى كلمة الله ، وهذا هو قضاؤه ..

* « يسألونك عن الأنفال .. قل الأنفال لله والرسول » .

وانظر كيف كانت الحكمة فى هذا الحكم ، وهذا التدبير الحكيم ..

لقد كان ذلك أولَ الإسلام ، ومع أول تجربة يقع المسلمين فيها خير مادىّ ، بعد أن احتملوا ما احتملوا من أذى وضر فى أموالهم وأنفسهم ..

ولو كان الذى حدث فى بدر جارياً مع موقع النظر الإنسانى ، لكان أول ما يتبادر إلى العقل هو التمكين للمسلمين الذين قاتلوا ، أن يحوزوا هذه الغنائم ، ليكون منها بعض العزاء لما ذهب منهم ، سواء أكانوا مهاجرين أو أنصاراً .. حيث هاجر المهاجرون تاركين وراءهم الديار والأموال ، وحيث شاطرهم الأنصار ديارهم وأموالهم .. !

ولكن تدبير الله يعلو هذا التدبير ، وحكمته تقضى بغير مايقضى به هذا النظر البشرى المحدود ..

فلو أن المسلمين شَغَلوا أنفسهم من أول خطوهم بهذه الغنائم ، لكان فى ذلك جَوْرٌ على الدعوة التى دعاهم الله إليها ، وَنَدبهم لها ، ولكان حسابهم معها قائماً على الربح والخسارة فى جانب الدنيا ، أكثر منه فى جانب الدين .. !

ولهذا ، جاء أمر الله قاطعا على المسلمين هذا الطريق ، آخذاً على أيديهم أن تمتدّ إلى تلك الغنائم ، التى جعلها الله سبحانه له ، ثم وضعها بين يدى رسوله .. إنهم مجاهدون فى سبيل الله وحسب ، باعوا أنفسهم لله ، ورصدوها للجهاد فى سبيله ..

أما الغنائم فأمرها خارج عن هذا العهد الذى عاهدوا الله عليه . .

فإذا جاء بعد هذا قضاء من عند الله فى شأن مايقع للمجاهدين من غنائم . وإذا جعل الله للمقاتلين نصيباً مفروضاً فيها ، فذلك فضلٌ من الله ، ومِنّة منه على عباده ، وبهذا يظل المجاهدون على هذا الشعور الأول الذى أقامهم الله عليه ، وهو أن تلك الغنائم هى لله ولرسوله ، وأن ما فرض لهم بعد ذلك هو استثناء من الحكم الأصلىّ ، جاء بِرًّا بهم ، ورحمة لهم . .

ومن أجل هذا ، فإنه بعد أن انتهت معركة بدر ، ومغانمها ، وعاش المسلمون مع تلك التجربة زمناً كافياً ، اطمأنوا فيه إلى ما تقرر من ألاّ شىء لهم فيما يغنمون ــ جاء حكم الله بعد هذا مقرراً لهم نصيباً مفروضاً فيما يغنمون ، وفى هذا يقول الله تعالى فى هذه السورة : « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خُمُسَه وللرّسولِ ولذى القُرْبى واليتامى والمساكين وابن السّبيل » .

وقوله تعالى : « قل الأنفال للهِ والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذاتَ بينكم وأطيعوا اللهَ ورسولَه إن كنتم مؤمنين » .

فقوله تعالى : « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » هو تعقيب على هذا الحكم الذى تلقاه المسلمون من الله فى شأن غنائم بدر . . وفى دعوتهم إلى تقوى الله تذكير لهم بالله الذى استجابوا لدينه ، ودخلوا فيه ، وقاتلوا فى سبيله ، فإذا ذكروا هذا ، فاءوا إلى السّلامة والعافية ، وأقاموا وجوههم على الوجه الذى استقبلوا به الإسلام من أول يوم . . موطنين الأنفس على احتمال الضرّ ، والصبر على المكاره ، ولم يقع فى نفوسهم

شىء من هذه المشاعر ، التى وقعت لهم بين يدى تلك الغنائم ، قبل أن يتلقوْا حكمَ الله فيها . .

ومن هنا جاء أمر الله إليهم بعد ذلك بقوله : « وأصلحوا ذات بينِكم » أى حيث أخليتم أنفسكم من هذا المتاع الذى كان سببا فى التنازع والاختلاف بينكم ، فعودوا إلى ما كنتم عليه ، إخوانا مجاهدين فى سبيل الله ، لاتبتغون بذلك إلا رضا الله ورضوانه . . ثم جاء قوله تعالى بعد هذا : « وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » أمراً بالطاعة المطلقة ، والتسليم الخالص للهِ ، ولرسوله . . فذلك هو شأن المؤمنين ، إذ لا إيمان بغير طاعة وتسليم . . !

قوله تعالى : * « إنما المؤمنون الذّين إذا ذُكر اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهم ، وإذا تُلِيَتْ عليهم آياتُه زادتهم إيمانًا وعلى ربّهم يتوكلون » .

هو كشف للصورة الكريمة للمؤمنين ، يعرضها الله سبحانه ، لأولئك الذين دعاهم الله إلى طاعته وطاعة رسوله ، فى شأن هذه الغنائم ليدخلوا فى عداد المؤمنين ، بما استقبلوا به أمر الله سبحانه من طاعة ورضًى .

فالمؤمن حقا ، هو الذى يخشى الله ويتّقيه ، فإذا ذُكر الله ، أو ذُكِّر به امتلأ قلبه خشيةً ووجلاً — أى خوفاً — من جلاله وسطوته ، وإذا تَلَى آياتِ الله أو تُليت عليه ، خَشَع لها ، وأشرق قلبه بنورها ، فازداد بذلك إيمانا على إيمان ، ثم انتهى به ذلك إلى أن يكون عبداً ربّانياً ، يسلم أمره كله لمن بيده الأمر كلّه . .

* وقوله تعالى : « الذّين يُقيمون الصلاةَ ومِمّا رزقْنَاهم يُنفقون » . . هو

استكمال لتلك الصورة الكريمة للمؤمن .. فلا يكتمل إيمان المؤمن حتى يقيم الصلاة على وجهها، ويؤديها فى خشوعها وخضوعها، ولا يكمل إيمانه حتى يكون — مع إقامة الصلاة — من المنفقين مما رزقه الله، فى وجوه البرّ والإحسان ..

فإذا فعل المؤمن ذلك، فأطاع الله ورسوله، وذكر الله خاشعاً متضرعاً، وتلا آياته وَجِلاً خائفاً، وأقام الصلاة، وأنفق مما رزقه الله فى سبيل الله — إذا فعل ذلك كان من المؤمنين حقًّا .. أى كان مؤمناً ظاهراً وباطناً .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى :

* « أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » .

فالمؤمن إيماناً كاملا، ظاهراً وباطنا، هو فى مقام كريم عند ربه، يحفه بمغفرته ورحمته، ويفيض عليه من إحسانه وفضله ..

ويلاحظ هنا أن هذا العرض للمؤمنين، وماينبغى أن يكون عليه إيمانهم بالله، هو ـ وإن كان مطلوبا لكل مؤمن بالله، فى جميع الأحوال والأزمان ـ هو من المطلوبات التى استدعتها تلك الحال التى كان عليها المؤمنون بعد معركة بدر، فى مواجهة الغنائم التى وقعت لأيديهم فى هذه المعركة .

فلقد أثارت تلك الغنائم غباراً كثيراً فى آفاق المسلمين، فكان من تدبير الله لهم، وصَنيعه بهم، أن أجلى هذا الغبار من سمائهم، وعرض عليهم تلك الصورة الكريمة للمؤمنين، وأراهم — سبحانه — أنه يدعوهم إليه، ويرسم لهم الصورة التى ينبغى أن يكونوا عليها، وهم يستجيبون له، ويقبلون عليه ..

الآيات : (٥ — ٨)

«كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ» (٨)

التفسير : قوله تعالى : «كما أخرجك ربُّك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون» — هو طرف من طرفى تشبيه ، وقد تقدم المشبّه ، والكاف هنا داخلة على المشبه به ..

والصورة التى قام عليها التشبيه هنا ، هى تشبيه حال بحال . .

فالحال التى كان عليها المؤمنون ، من اضطراب واختلاف ، عندما وقعت لأيديهم غنائم بدر ، هى كالحال التى كانوا عليها حين خرجوا مع النبىّ لملاقاة قريش ، وقد وعدهم الله إحدى الطائفتين : إما العِيرَ التى كان يقودها أبو سفيان وفيها أموال قريش وتجارتها المقبلة من الشام ، وإما النفيرَ ، وهو الجيش الذى قاده أبو جهل لينقذ به العِيرَ من يد النبىّ وأصحابه ، وليثأر لكرامة قريش ، حيث كان التصدّي لقوافل تجارتها ، امتهاناً لها ، وتحدياً لمكانتها فى العرب . . كما كانت تفكر وتقدّر !

وقد خرج المؤمنون — من مهاجرين وأنصار — مع النبى على نية

للعِير ، وقطع الطريق على قريش فى تجارتها مع الشام ، انتقاماً لما فعلته مع المهاجرين ، حين أخرجتهم من ديارهم وأموالهم .

وكان خروج المسلمين على وجه المبادرة والاستعجال ، حتى لايفوتهم أبو سفيان والعير التى معه، ولهذا كان الذين خرجوا لهذا الوجه نحو ثلاث مئة ، ليس فيهم إلا فارس واحد ، وقيل فارسان ، أما الباقون فكانوا رَجّالة ، لايحمل أحدهم معه غير سيف أو رمح .

وقد استطاع أبو سفيان أن ينجو بالعير ، ويفلت من يد المسلمين ، حين أخذ طريقاً غير الطريق الذى اعتادت القوافل أن تسلكه بين مكة والشام ..

وتلقّت المسلمون فإذا هم وجه لوجه مع قريش التى جاءت لتستنقذ عِيرها ، ولتنتقم لكرامتها ممن تصدّوْا لها ..

وكانت قريش فى أكثر من ألف مقاتل ، بينهم أكثر من مائة فارس ، والمسلمون ـ كما علمتَ ـ نحو ثلاث مئة ليس فيهم إلا فارس ، أو فارسان ! .

ونظر المسلمون فإذا هم بين أمرين : إما الحرب ، وهى تعنى بالنسبة لهم الفناء ، والاستئصال .. وإما الفرار ، وما معه من خزى وعار .. ولكن إلى أين يفرون ؟ إلى المدينة ؟ وهل يبعد على قريش أن تدخلها عليهم ، وتهلك الحرث والنسل ؟ وفى المدينة عدو يتربص بهم هم اليهود الذين يفتحون لقريش حصونهم ، ويمدونهم بالعتاد والسلاح !. ؟

وإذ كان الموقف على هذين الاحتمالين ، اللذين لابد من أحدهما ، فقد رأى النبىّ أن يستشير أصحابه ، ويسألهم الرأى فيما يأخذون من أى هذين الأمرين ..

فجمع ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أصحابَه إليه ، وقال :

« أيها الناس أشيروا علىّ ! » .

وصمت الجميع .. لايدرون ما يقولون .. وإن كان مع كل واحد منهم قولا يقوله ..

إنهم خرجوا على غير أهبة واستعداد ، ولم يكن الوقت الذى خرجوا فيه مسعفاً للكثير منهم أن يخرج معهم ..

لقد كان الموقف حرجاً ، اضطربت فيه القلوب ، واختلطت معه المشاعر ، وغامت فيه الرؤية الكاشفة حتى لم يعُدْ أحد يدرى أين موقفه ، وأين مجتمع رأيه ! .. تماماً كما كان ذلك بعد أن وقعت غنائم بدر لأيديهم ..!

وعاد النبىّ الكريم يسأل أصحابه : « أيها الناس أشيروا علىّ » ... وكانت عين الرسول صلوات الله وسلامه عليه تتطلع إلى الأنصار .. إذ كانوا هم كثرةَ الناس ، وأصحابَ البلد الذى يواجه الخطر ، ويتلقى الضربة القاضية ، كما أنهم حين بايعوا النبى قبل الهجرة ، كانت بيعتهم أن يمنعوه فى بلادهم مما يمنعون منه أنفسهم وأبناءهم ونساءهم .ولم يكن فى البيعة أن يقاتلوا معه مهاجمين .

وجاءت كلمة الأنصار ، فقال سعد بن معاذ :

« لكأنك تَعنينا يارسول الله؟ قال: «أجل»،فقال : قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، على السمع الطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر ، لخضته ، لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ... »

فاستبشر رسول الله بهذا القول الذى جاء على لسان الأنصار ، ونطق به رجلها ..

وبهذا كان الحسم لهذا الموقف المائج المضطرب .. تماماً كما كان حكم الله فيما حكم به فى شأن الغنائم التى وقعت للمسلمين بعد هذه المعركة .. حيث سكنت النفوس ، واجتمع الرأى الشتيت .

ومن هنا صح أن يقع التشبيه بين الحالين : حال المسلمين فى مواجهة العدو بعد أن دارت رءوسهم ، واضطربت قلوبهم . . وحالهم فى الغنائم ، بعد أن اختلفت آراؤهم فيها ، واضطربت مشاعرهم حيالها ..

وانظر كيف أمسكت كلمات الله ، بكل خالجة كانت تختلج فى نفوس القوم هنا ، وهناك . . فى مواجهة العدو ، ثم فى مواجهة الغنائم . .

ففى مواجهة العدو ..

لم يكن المسلمون يتوقعون أن تقع حرب ، أو يدور قتال بينهم وبين المشركين .. لقد خرجوا يطلبون العِير ، ويأخذون ما يقع لأيديهم مما تحمل من أموال ومتاع .. فكان أن جاء الأمر على غير ما قدّروا ، فأفلتت من أيديهم العِير ، وفاتهم ما منّوْا أنفسهم به منها . . فواجهوا المعركة ، والتحموا فى القتال ..

وفى مواجهة الغنائم والأنفال :

كان المقاتلون يقدّرون أن ما وقع لأيديهم منها ، هو خالص لهم ، وأنه لن يخرج شىء منها إلى غيرهم .. فكان أن جاء الأمر على غير هذا التقدير الذى قدّروا ، وخرجت الغنائم كلها من أيديهم ، حيث وضعها الله سبحانه ، فى يد الرسول صلوات الله وسلامه عليه . .

وهكذا يصنع الله للإسلام ، فيقيم وجه أنصاره على أمره وحده، لايلتفتون معه إلى شيء آخر غيره .. فمن كان على نيّة الإيمان بالله والجهاد فى سبيله ، فهذه هى سبيله : أن يصرف وجهه عن الدنيا ، وأن يوطّن نفسه على الجهاد خالصاً لله، لايبغى به إلاّ وجه الله ، ولا يطلب إلا مثوبته ورضوانه ..

ففى قوله تعالى : « كما أخرجك ربّك من بيتك بالحقّ » إلفاتٌ للمسلمين الذين كسبوا المعركة ، وحازوا ما كان مع قريش من سلاح ، ومتاع ثم صرفهم الله عن هذا السلاح والمتاع ــ إلفات لهم إلى تلك الحال التى كانوا عليها ، بعد أن صرف الله عنهم العير ، وجعلهم وجهاً لوجه مع العدوّ فى ميدان القتال .. فهذه من تلك ، سواء بسواء ..

والبيت الذى خرج منه النبىّ هنا ، هو المدينة .. فهى بيته ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ الذى يأوى إليه ، وَيقَرّ فيه .

وخروجه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ بالحق ، أى للحقّ ، ومن أجل الدفاع عن قضيّة الحق .. وليست قضية الحق هى هذا المتاع الذى كانت تحمله العير ، ولا هذه الأنفال التى خَلَصَتْ لأيدى المسلمين ، وإنما قضية الحق هى إعلاء كلمة الله ، وإزاحة العقبات التى تقف فى وجه الدعوة إلى الله ، بمحاربة أولئك الذين يحاربون الله ، ويَصُدّون الناس عن سبيله .

والحقّ دائماً ثقيل الوطأة على الناس ، إلاّ من رزقهم الله الإيمان الوثيق ، والعزم القوىّ ، وأمدّهم بأمداد لاتنفد من الصبر على المكاره ، والقدرة على احتمال الشدائد .. إذ الحق ــ فى حقيقته ــ مغالبة لأهواء النفس ، وتصدّ لنزعاتها ، وإيثار للآخرة على الدنيا ، وذلك من شأنه أن يجعل الإنسان فى حرب متصلة مع نفسه ، حتى إذا أقامها على الحق ، وأسلم زمامها له ، كان عليه

أن يواجه النّاس ، وأن يجاهد فى سبيل الحقّ الذى عرفه ، وآمن به ، فيكون حرباً على المنكر ، بقلبه ، ولسانه ، ويده ..

ومن هنا كان الصبر قرينَ الحقّ فى كل دعوة يدعو إليها الإسلام ، فى مجال الخير ، والإحسان ، وفى كل ما من شأنه أن يقيم الإنسان ، والإنسانية ، على صراط مستقيم . .

ففى الدعوة إلى الصفح والمغفرة ودفع السيئة بالحسنة ، يكون الصبر هو عُدّة من يمتثلون هذه الدعوة ، ويقدِرون على الوفاء بها ، إذ يقول الله تعالى : « ادفَعْ بالتى هى أحْسَنُ فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم » ثم يقْرِن ـ سبحانه ـ تلك الدعوة بقوله تعالى : « وما يُلَقَّاهَا إلاَّ الذينَ صَبَرُوا وما يلقاها إلا ذوحظٍّ عظيم » (٢٤ ـ ٢٥ : السجدة) .

وفى تنبيه الإنسان إلى الخطر الذى يتهدّده من تسلّط أهوائه ، ووسوسة شيطانه ، حيث يقول سبحانه : « والعصر إن الإنسان لفى خسْرٍ » لايستثنى ـ سبحانه وتعالى ـ أحداً من الصيرورة إلى هذا المصير « إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوْا بالحقّ وتواصَوْا بالصبر » (سورة العصر) .

وفى قوله تعالى : « كما أخْرَجَك ربّك من بيتك بالحقّ وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون * يجادلونك فى الحقّ بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون » ـ فى هذا إشارة إلى ماوقع فى نفوس فريق من المؤمنين ـ لا كل المؤمنين ـ من مشاعر الكراهية ، حين عُدل بهم عن وجهتهم التى اتجهوا إليها لاقتناص العير ، والاستيلاء على ماتحمل من مال ومتاع ، إلى حيث يَلْقَوْن قريشاً وجيشها الجرار فى ميدان القتال .. ولهذا كان منهم هذا الجدَال الذى تعللوا به للنكوص عن لقاء العدوّ ، فقال قائلهم : ماخرجنا للقتال ، ولا أخذنا أهبتنا له ، ولا صحبنا إخوانُنا الذين خلفناهم وراءنا إليه !

والسؤال هنا : كيف يجادلون فى الحق بعد ماتبين لهم ؟ وكيف يكونون مؤمنين مع هذا ؟ وهل من شأن المؤمن أن يجادل فى الحق إذا عرف وجهه ، واستبان له طريقه ؟

والجواب :

أن الحقّ ـ وهو قتال المشركين ـ كان أمره ظاهراً لهم ، بعد أن أفلتت منهم العير ، إذ كان الله ـ سبحانه ـ قد وعدهم على لسان نبيّه الكريم بأنّهم سيظفرون بإحدى الطائفتين، إما العير ، وإما النفير .. فلما أفلتت منهم العير ، لم يبق إلا النفير والحرب .. فهذا حق مستيقن لهم ، لاخفاء فيه .

ولكن يقوم إلى هذا الحق ، تلك الرغبة القوية التى كانت مستولية على المؤمنين من قبل ، وهى الاستيلاء على العير ، وذلك شأن النفس دائماً حين يكون خيارها بين أمرين ، أحدهما محبوب ، والآخر مكروه .. فإنها حينئذ لاتلتفت إلى غير المحبوب ، حتى ليصبح المكروه عندها كأنه غير مُفْتَرضٍ أصلا ، فتنساه ، أو تتناساه .. فإذا فاجأها هذا المكروه الذى أخرجته من حسابها وتقديرها ، كان وقعه شديداً عليها ، حتى لكأنه حَدَثٌ طارىء لم تكن تتوقعه .. ومن هنا يكون إنكارها أو تنكرها له .

ولهذا جاء قوله تعالى : « كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون » ـ جاء كاشفاً عن تلك الحال التى استولت على بعض المؤمنين ، الذين وجدوا أمر القتال ثقيلا باهظاً ، حيث تمثلت لهم مصارعهم ، وشهدوا الموت عِيَاناً .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى بعد هذه الآية :

* « وإذ يَعِدُكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتَوَدّون أن غير ذات الشوْكة تكون لكم ويريدُ الله أن يحقّ الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين * ليحقّ الحقّ ويُبطلَ الباطلَ ولو كَرِهَ المجرمون » .

فالطائفتان : هما .. العير والنفير ..

وقوله تعالى : « أنها لـكم » هو وعد للمؤمنين بأنه ستقع ليدهم إحدى هاتين الطائفتين : العير أو النفير ..

وذات الشوكة : أى صاحبة الشدّة والبلاء ، وهى « النفير » ووصف النفير بأنه ذو شوكة ، لما يلقاه المسلمون فى لقاء النفير من أذى وضر .. إنه القتال والقتل ! !

وفى قوله تعالى : « ويريد الله أن يحقّ الحقّ بكلماته » ـ مايُسأل عنه .. وهو : ماهى كلماتُ الله التى يحقُّ بها الحق ، ويقطع بها دابر الـكافرين ؟

والجواب ـ والله أعلم ـ أن المراد بكلمات الله هى أحكامه التى يقضى بها فى خلقه ، وأن تلك الأحكام تصدر بقوله ـ سبحانه ـ للشىء : كن فيكون ، وكل قولٍ لله تعالى ،هو حقّ ، يحق به حقًّا ، أى يقيمه ، ويظهره .. فإذا قام الحقُّ بطل الباطل ..

ومعنًى آخر لـكلمات الله هنا ، أحبّ أن أشير إليه ، وهو أن المؤمنين الذين يعملون على إحقاق الحق ، ويقاتلون فى سبيله ، هم أنفسهم كلمات الله ، قد جعل الله إليهم الانتصار للحق ، وإعلاء كلمته ، وإبطال الباطل ، وإزهاق أنفاسه ..

وفى هذا تـكريم للمؤمنين ، وإعلاء لقدرهم ، ورفع لمنزلتهم ، بحيث كانوا كلمات الله ، وجند الله .. بهم يُحقُّ الحقَّ ويُبطل الباطل ، ولو كره المجرمون .. وإرادة الله لاشك غالبة قاهرة .

ومن هنا كان النصر دائماً للحق ، وكان الغَلَب دائماً للمحقين ، وفى هذا يقول الله تعالى : « كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلى إن الله لقوىّ عزيز » .

ودابر الـكافرين : دابر الشىء آخره ، والمراد به قطع آخرهم واستئصالهم جميعاً ، إذ كان أولهم هو الذى يتلقى الضربة ، فإذا بلغت تلك الضربة آخرهم كان معنى ذلك القضاء عليهم جميعا .

الآيات : (٩ — ١١)

« إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَآئِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ » (١١)

التفسير : يتعلق الظرف « إذ » بقوله تعالى : « ويريد الله أن يحق الحق بكلماته » أى إنّ إرادة الله بإحقاق الحق بكلماته ، وقطع دابر الكافرين ــ قد رأيتم تحقيقها فى هذا الوقت الذى كنتم تستغيثون فيه ربكم ، وقد التقيتم بالمشركين فى كثرتهم ، وقلتكم ..

* وقوله تعالى : « فاستجابَ لكم أنّى ممدُّكُمْ بألفٍ من الملائكة مُردِفين » أى حين واجهتم العدو ، وأفزعتكم كثرته ، وفزعتم إلى الله أن يمدكم بنصره ــ استجاب لكم ربكم، وأمدكم بألفٍ من الملائكة مردفين ، أى يَرْدُف بعضهم بعضاً ، ويجىء بعضهم إثر بعض .

* وقوله سبحانه : « وماجعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم » الضمير فى « جعله » يعود إلى هذا المدد السماوى .. أى ماجعل الله هذا المدد السماوى الذى أمدكم به إلا بشرى للنصر الذى وعدكم به ، ولتطمئن به قلوبكم ، فلا يَهُولنكم العدو وكثرة عدده ، بعد

أن علمتم أن الله معكم، وأن إشارات النصر وبشرياته قد جاءت إليكم، تحملها ملائكة الرحمن التي بعثها الله لتقاتل معكم .. فهل يغلب من كان الله معه ؟ وهل يُهزم من كانت جنود الرحمن تقاتل فى صفوفه، ولو كان فرداً يقاتل الناسَ جميعاً ؟

وهذه الجند المرسلة من السماء، ليست إلا ألطافاً من ألطاف الله بكم فى هذا الموقف الحرج، ترون منها بشائر النصر، وتجدون فيها ريح السكينة والطمأنينة — أما النصر فهو بيد الله وحده، فهو الذى كتب لكم النصر، وليست الملائكة التى قاتلت معكم .. « إن الله عزيز حكيم » له سبحانه، العزة، يعزّ بها من يشاء، ويذل من يشاء، وينصر بها من يشاء، ويخذل من يشاء، حسب ما اقتضت حكمته ..

هذا، وقد جاء المفسرون بكثير من الأخبار المروية عن الملائكة وقتالهم فى بدر، حتى لقد ذُكر فى بعض الروايات، الصورةُ التى كان عليها الملائكة، وهم يقاتلون، والعمائم البيضاء التى يلبسونها، والخيل البُلْق التى يمتطونها، كما ذَكرتْ روايات أخرى بعض أفعال الملائكة بالمشركين، وكيف كان بعض المقاتلين من المسلمين يَهمّ بأن يضرب بسيفه رأساً من رءوس المشركين، فإذا به يجد هذا الرأس قد سقط عن جسده قبل أن يناله سيفُه .. إلى كثير من تلك الأخبار التى يكثر فيها الخيال، حيث وجد القصاص مادة خصبة فى هذا الميدان الذى لم تشهد الحياة مثالا له .. فما أن أمسك القصاص بهذا الخبر السماوى الذى يحدث عن المدد الملائكى للمسلمين، حتى أطلقوا لخيالهم العنان، فنسجوا حول هذه الحقيقة العجيبة ما شاء لهم الخيال أن ينسجوه من عجائب وغرائب !.

وفى قوله تعالى : « وما جعله الله إلا بشرى لكم » ما يقطع بأن هذا المدد

الملائكى لم يكن — كما قلنا — إلا قوّى من قوى الحق ، تُظاهر الذين آمنوا وتثبّت أقدامهم ، وتربط على قلوبهم ، وبهذا يصبح الواحد من المؤمنين يَرْجُح عشرة من المشركين ، كما يقول الله تعالى : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون » (٦٥ : الأنفال) .

فوجود الملائكة بين المؤمنين هو مما يشد أَزْرهم ، ويريهم فى أنفسهم أنهم أكثر من المشركين عدداً ، وأقوى قوة .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى « وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا » (٤٣ : الأنفال) فالمسلمون بهذا المدد الروحى يرون المشركين فى كثرتهم قلة ، وبهذا يطمعون فيهم ، وَيثْبتون لهم ، على حين يراهم المشركون قلة كما هم فى قلتهم ، فلا يفرون من بين أيديهم ، حتى تقع الواقعة بهم ، ويقتل منهم من يقتل ويؤسر منهم من يؤسر : « ليقضى الله أمراً كان مفعولا » .

فلو أن الملائكة كانوا هم الذين قاتلوا دون المؤمنين ـ لما كان للمؤمنين فضل فى هذه المعركة ، ولما كان لهم شرفُ هذا البلاء الذى أبلوْه فى هذا اليوم، بل ولما كان من النبيّ هذا الحال الذى استولى عليه ساعة بدء القتال ، وهو الذى تلقّى وحى السماء بهذا المدد الملائكى .. فإنه عليه الصلاة والسلام ـ يعلم أن هذا المدد لا يُخلى المؤمنين من مسئولية حمل العبء فى لقاء المشركين ، وإن كان من ورائهم تلك القوة السماوية التى تظاهرهم .. والله سبحانه وتعالى يقول : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » .

وقد جاءت هذه الآية فى غزوة أحد هكذا :

« وما جعله الله إلا بُشْرَى لـكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلاَّ من عند الله العزيز الحـكيم » . (١٢٦ : آل عمران)

وبين الآيتين اختلاف فى النظم اقتضته الحال هنا وهناك .

ففى آية بدر ، جاء قوله تعالى : « وما جعله الله إلا بشرى » على حين جاء هذا المقطع فى آية أحد : « وما جعله الله إلا بشرى لـكم » ، مقيداً هذه البشرى بأنها للمؤمنين ، وقد جاءت مطلقة فى آية بدر ! .

وحكمة هذا ـ والله أعلم ـ أن إطلاق البشرى فى « بدر » كان حيث لا حساب لأحد غير المسلمين فى هذه البشرى ، إذ هى خالصة لهم ، إذ كانوا جميعاً فى وجه العدوّ صفًّا واحداً ، ويداً واحدة .

أما فى « أحد » فقد انقسم المسلمون على أنفسهم ، وهمّت طائفتان منهم أن تفشلا ، وانحاز عبد الله بن أُبى بن سلول بشطر كبير من المسلمين ، وكانت قولته هو وأصحابه : « لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم » . . فجاءت البشرى هنا على غير إطلاقها للمسلمين جميعاً ، وإنما هى للذين واجهوا العدوّ فى أُحد ، والتحموا معه فى القتال . . فـكان قوله تعالى : « وما جعله الله إلا بشرى لـكم » إشارة إلى هؤلاء المؤمنين الذين وجّهوا وجوههم إلى لقاء العدوّ ، دون هؤلاء الذين نـكصوا على أعقابهم .

وفى آية بدر جاء قوله تعالى : « ولتطمئن به قلوبكم » وفى آية أحد : « ولتطمئن قلوبكم به » وذلك لأن حاجتهم فى بدر إلى مجرد الاطمئنان كانت هى مطلبهم الذى يطلبونه فى تلك الحال ، وينتظرونه من الأفق الذى سيطلع منه .. فالمطلوب أولاً هو هذا الذى يبعث فيهم الطمأنينة ، وقد جاءهم فى هذا المدد السماوى من ملائـكة الرحمن . .

وفى آية أحد كانوا قد عرفوا هذا الذى يطمئنهم ، وعرفوا الأفق الذى

يجىء منه ، فلم يكن ثمّة داعٍ يدعو إلى تقديمه فى النظم ، ليفصل بين الفعل وفاعله ، فجاء النظم على الأسلوب المألوف .

وفى آية بدر جاء قوله تعالى : « وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم » وجاءت آية أحد : «وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » حيث جاء الخبر مؤكداً ، فى آية بدر ، على حين جاء مطلقا من غير توكيد فى آية أحد . . وذلك أن المسلمين فى بدر كانوا يواجهون أولَ وعدٍ لله سبحانه لهم بالنصر ، فحسُنَ أن يؤكد لهم هذا الوعد . . أما فى أُحد فقد كانوا على يقين ثابتٍ بوعد الله ، الذى رأوْا عزّته ، وحكمته ، رأىَ العين ، فيما تحقق لهم من نصر يوم بدر . .

وقوله تعالى : * « إذ يغشّيكم النّعاسَ أمَنَةً منه » .

الظرف « إذ » هنا متعلق بقوله تعالى : « إن الله عزيز حكيم » أى من مظاهر عزّة الله وحكمته فى هذا اليوم أن أرسل عليكم النّعاس ، فغشيكم ، وطرق عيونكم ، ولبس أجسادكم ، فكان ذلك من بواعث الأمن والطمأنينة لكم . . إذ لا يطوف النوم إلا حيث تكون السكينة ، ويكون الاطمئنان .

والأَمَنَةَ : بمعنى الأمن ، ولكنها قطعة من الأمن ، وليست كلّ الأمن والضمير فى « منه » يعود إلى الله سبحانه وتعالى .

وفى الحديث عن النعاس الذى غَشّى المؤمنين يومئذ بأنه كان نعاساً ، ولم يكن نوماً ، أو استغراقاً فى النوم ـ إشارة إلى واقع الحال الذى كان يشتمل جوّ المعركة ، من اضطراب النفوس ، وجزع القلوب ، وحيْرة العقول ، وأن من نعم الله الجليلة فى هذه الحال أن يطوف بالإنسان طائف من الأمن ، بحيث يطرقه

النعاس ، الذى يذهب بكثير من خواطر الجزع والقلق ، ويسكب على كيان الإنسان الجسدى ، والنفسى راحةً وروْحاً ، يستقبل بهما العدوّ ، وهو أكثر نشاطا ، وأثبت قدماً ، مما لو كان قد بات ليلة الحرب يعالج الهموم ، ويحارب فى غير حرب ، حتى يبدّد قواه ، ويستهلك نشاطه ، فيلقى العدوّ مهدّماً محطّما . .

وهذا النعاس — الذى غشى المسلمين — إنما كان ليلة الحرب ، لا فى ميدان القتال ، كما يرى ذلك بعض المفسّرين . . فإن النعاس مطلوب قبل الالتحام فى القتال ، لاساعة الالتحام ، لأنه إعداد « للمعركة » وزاد من الاستجمام والنشاط يتزود به المقاتل .. أما وقوعه والمعركة دائرة والقتال محتدم ، فهو عامل من عوامل الخذلان ، لاعدّة من عدد النّصر . .

والذى يؤيد أن هذا النعاس كان ليلة الحرب ، وأنه كان نعمة من النعم التى ساقها الله للمؤمنين فيما ساق إليهم من نعم ـ الذى يؤيد هذا ، أنه وُصِل بنعمة أخرى ، صحبته ، أو جاءت بعده ، وهو نزول المطر فى تلك الليلة ، كما يقول الله تعالى : « إذ يغشيكم النعاسَ أمنَةً منه وينزّل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » .

وقوله تعالى : وينزّل عليكم من السّماء ماء ليطهركم به ويذهبَ عنكم رجْزَ الشيطانِ وليرْبِطَ على قلوبكم ويثبّت به الأقدام » .

هو بيان لما ساق الله إلى المسلمين يوم بدر من أمداد نصره وتأييده . . فإلى جانب الملائكة المرسلة إليهم ، كان النعاس الذى غشّاهم الله به ، فطَرقَهم جميعاً . . ثم كان هذا المطر الذى نزل عليهم ، فتطهروا به من الحَدَث الأكبر والأصغر ، فكانوا على طهارة ظاهرة ، تلتقى مع طهارة نفوسهم ، وصفاء

نياتهم لله ، والموت فى سبيل الله . . وبهذا ذهب عنهم رجز الشيطان ووسواسه ، الذى كان يلقى فى رُوعهم أنهم لو قتلوا لماتوا على غير طهارة ، وهذا الشعور من شأنه أن يبعث فيهم شيئاً من التخاذل والفتور ، عند لقاء العدوّ . .

ولهذا جاء قوله تعالى : « ويثبت به الأقدام » فيكشف عن أثر هذا الماء الذى أنزل الله عليهم فطهرهم به ، وأذهب عنهم رجز الشيطان وثبت به أقدامهم ، حيث اطمأنت قلوبهم بعد أن طهروا ، فثبتت أقدامهم فى موطن القتال ، وسعوْا إلى لقاء الله طاهرين !

ومن جهة أخرى ، فإن هذا الماء الذى أنزله الله عليهم ليلة القتال قد كان له أثره فى تماسك الأرض من تحت أقدامهم ، حيث اختلط الرمل بذرات التراب ، فلما أمسك المطر ، وجفت الأرض صار وجهها طبقة صلبة أشبه بالطين اللازب ، فثبتت عليه أقدامهم ، بعد أن طهرت أجسامهم ، واطمأنت قلوبهم . .

الآيات : (١٢ — ١٩)

« إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ

ٱلْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ (١٨) إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » (١٩) .

التفسير: قوله تعالى : « إذ يُوحِي ربّك إلى الملائكة أنى معكم فثبّتوا الذين آمنوا » هو عطف بيان على قوله تعالى : « إذ يُغشيكم النعاسَ أمَنَةً منه » ولم يعطف على ماقبله عطف نسق ، إذ كان الأمران كأنهما أمر واحدٌ ، إذ وقعا جميعاً مرة واحدة ، فلم يكن هناك فاصل زمنىٌ بينهما . وذلك دليل على قدرة الله ، الذى لايشغله حَدَث عن حَدَث ، والذى لايغيّرمن قدرته امتلاء الزمان أو المكان بالأحداث .

وقوله تعالى للملائكة : « أنى معكم » إشارة إلى أن الملائكة ، وإن كانوا على قوة لاحدود لها بالنسبة لقوة البشر ، إلا أنهم مع ذلك يستمدّون القوة والعون من الله سبحانه وتعالى ، شأنهم فى ذلك أضعف مخلوقات الله ، وأقلها حولاً وحيلةً .

وقوله سبحانه : « فثبّتوا الذين آمنوا » بيان لما كان من الملائكة يوم بدر ، وأنهم كانوا قوة معنوية ، تبعث الطمأنينة فى القلوب ، أشبه بالدرع الواقى الذى يلبسه المحارب ، وإن لم يكن له شأن معه فى المعركة .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « وماجعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم » .

* وقوله تعالى : « سألقى فى قلوب الذين كفروا الرُّعْبَ » إشارة إلى ما وقع فى قلوب المشركين يومئذ من رعبٍ ، اضطربت له صفوفهم ، وزاغت به أبصارهم . . وبهذا وذاك تمكّن المسلمون من رقابهم ، وأوقعوا الهزيمة بهم .

* وقوله سبحانه : « فاضربوا فوقَ الأعناق واضربوا منهم كلّ بنان » هو دعوة للمسلمين أن يحصدوا هذا الزرع الذى أصبحت قطوفه دانيةً لأيديهم، وبهذا يُضاف هذا المحصول كله لهم ، ويُحسب من عمل أيديهم . . وهذا فضل من الله عليهم ، ورحمة واسعة من رحمته بهم .

ولو شاء الله سبحانه أن يهلك المشركين من غير أن يبتلى بهم المؤمنين لفعل .. ولكن أين بلاء المؤمنين ؟ وأين العمل الذى يضاف إليهم ، ويؤجرون عليه ؟

إنه من تدبير الله تعالى وحكمته ، أن يبتلى الناس بعضَهم ببعض ، وذلك ليظهر فى كلّ إنسان ماعنده من خير أو شر ، وبهذا تنكشف للناس وجوههم، وتتحدد مواقفهم .

* وفى قوله تعالى : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » إشارة إلى ماينبغى أن يتجه إليه ضرب المؤمنين فى جَبْهة المشركين ، وهو أن يكون فى المواطن التى تَخْمد بها أنفاسهم ، أو تُشَل حركاتهم ، وذلك بضرب الرءوس التى عشّش فيها الشرك ، وأفرخ فيها الضلال ، وضرب تلك الأيدى التى كانت تمتد بالأذى إلى المسلمين ، وهاهى ذى تريد القضاء عليهم .

* وقوله تعالى : « ذلك بأنهم شاقّوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب » هو بيان للسبب الذى من أجله أمر الله المسلمين بضرب هؤلاء المشركين هذا الضرب الذى مكنهم الله به من رءوس أعدائهم .. فهم قد شاقّوا الله ورسوله ، أى خالفوهما ، وعصوْا أمرهما .. وليس جزاء من يشاقق

الله ورسوله إلاّ أن يلقى جزاءه عند الله ، والله شديد العقاب .

قوله تعالى : « ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار » هو خطاب للمشركين ، والإشارة هنا إلى هذا العذاب الذى صبّه الله عليهم ، وجرّعهم كئوسه على أيدى المؤمنين .. وذلك هو جزاؤهم فى الدنيا .. أما فى الآخرة فلهم أنكى وأمرّ .. إنه عذاب النار .

* وقوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زَحْفاً فلا تولوهم الأدبار » هو درس للمؤمنين ، يتلقونه فى هذا الموقف ، الذى شهدوا فيه آيات الله ، ورأوا بأعينهم أمداد نصره وتأييده ، فليكن ذلك درسًا لهم يتلقوْن منه العظة والعبرة ، وليصحبهم هذا الدرس فى كل موقف بعد هذا ، يكون فيه بينهم وبين المشركين والكافرين قتال .. فهو نداء عام للمؤمنين ، المجاهدين فى سبيل الله ، بأن يثبتوا للعدو ، وأن يلقوه لقاء جادًّا مصمماً على النصر ، أو الاستشهاد فى المعركة ، دون أن يدخل على أحدٍ منهم شعور بالفرار من وجه العدوّ ، أيًّا كان الموقف ، وأيًّا كانت قوة المشركين وشوكتهم ..

وقوله تعالى : « ومن يولِّهم يومئذٍ دُبُرَه إلا مُتَحرفاً لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئةٍ فقد باء بغضَب من الله ومأواه جهنمُ وبئس المصير » .. هو وعيد شديدٌ لمن يدخل على نفسه من المؤمنين شعور بالهزيمة ، فينكص على عقبه ، ويعطى العدوّ دبُره ، فى أى موقف من مواقف القتال بين المؤمنين والمشركين .. وقوله تعالى : « يومئذ » هو أىُّ كان ، لايراد به يوم بعينه ، كما يذهب إلى ذلك بعض المفسِّرين بجعل هذا اليوم خاصًّا بيوم بدر .. وهذا فوق أنه غير متفق مع الدعوة العامة التى حملها القرآن الكريم إلى المؤمنين فى آيات كثيرة بالثبات فى الجهاد ــ غير متفق كذلك مع ترتيب الأحداث إذ أن سورة الأنفال ، نزلت بعد بدرٍ وأحداثها ، وذلك باتفاق .

وحالٌ واحدة هى التى يحقّ للمؤمن فيها أن يعطى العدو ظهره ، وهو أن يتحرّف لقتال ، أى يرى تغيير موقفه الذى هو فيه ، ويتخيّر موقفاً آخر ، أمكن له ، وأصلح لموقفه فى القتال ، أو أن يتحيز إلى فئةٍ من المؤمنين ، فينتقل من جماعة إلى جماعة ، حيث يرى فى ذلك مصلحةً فى النكاية بالعدوّ .. فهذا التولىّ بالوجه عن مواجهة العدوّ هنا ، هو لحساب المعركة ، لا لحسابه، ولا للضنّ بنفسه عن أن يواجه العدوّ ، ولو كان فيه الموت .

وفى التعبير عن الصدّ عن العدوّ ، والفرار منه بتولية الدّبر ، تشنيع على من يأتى هذا الفعل ، وفضح له ، إذ كان كأنما يكشف سوأته لعدوّه أو يعطيه دُبره !

* وقوله تعالى : « فَلَمْ تقتلوهم ولـكنّ اللهَ قَتَلَهُمْ وما رمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولـكنّ الله رَمَى » هو إشارة إلى أنّ الله سبحانه وتعالى هو الذى مكنّ للمسلمين يومئذ من عدوّهم ، وأن يد الله هى التى ضربتهم تلك الضربة القاضية ، وأن المسلمين لم يكونوا إلا أسباباً ظاهرة ، أجرى الله على أيديهم ما أخذ به عدوهم من بلاء فى هذه المعركة .. وكذلك ما فعله النبيّ يومئذ حين قبض قبضة من تراب فرمى بها فى وجه الـكافرين ، داعياً الله سبحانه أن يُعمى أبصارهم ، ويطمس على قلوبهم ، ويأخذ على أيديهم .. فإن ذلك الذى كان من النبيّ لم يكن ليحدث أثره ، إلا لأن الله سبحانه هو الذى جعل لهذه الرمية تأثيرها وأثرها ..

وإذن فإن فوق يد المسلمين كانت يد الله .. وفوق يد النبى كانت يد الله .. وإذن فلا يحسب المسلمون أنهم بغير هذا المدد السماوى قد غلبوا عدوهم وقهروه ، ولا يحسب النبيّ أنه برميته تلك التى رمى بها فى وجوه المشركين قد فتح للمسلمين طريق النصر ، لولا أن يد الله تقبلت رميته وباركتها .. وفى هذا وذلك ما يشعر بأن الله سبحانه مع نبيه ومع المجاهدين معه .

وإذا كان الله سبحانه هو الذى مكّن للمسلمين من عدوهم ، ومنحهم هذا النصر ، فما ذلك إلا « لِيُبْلِيَ المؤمنين مِنْه بلاء حسناً » حيث أعطاهم أجرَ هذا العمل العظيم ، الذى هو فى حقيقة الأمر لم يكن لهم يد فيه ، فلوجرت الأمور على ظاهرها لكانت الدائرة عليهم ، ولكان القتل والبلاء فيهم . . فليذكروا هذا ، وليتزودوا منه بزاد الإيمان بالله ، وعقد العزم على الجهاد فى سبيله . . « ولينصرنَّ اللهُ من ينصره إن الله لقوى عزيز » (٤٠ : الحج) .

وفى وصف البلاء بأنه حسن إشارة إلى الوجه الآخر من وجوه الابتلاء وأنه قد يكون غير حسن كما يقول الله : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » (٣٥ : الأنبياء) .

فقد عافى الله المؤمنين من أن يُبْلَوْا بالقتل ، وأن يمتحنوا بالأسر ، فذلك مما يبتلى الله به المؤمنين ، ويجزيهم عليه .. ولكن رحمة الله بالمؤمنين فى هذا الموقف الذى يلقوْن فيه الشرك لأول مرة ، وينتصرون فيه لأنفسهم ـ جعلت الابتلاء بالخير دون الشر ، وبالعافية دون البلاء .. فظفروا وانتصروا ، وسلموا ، وغنموا..ورجعوا بالحسنيين جميعاً .. المغانم فى الدنيا ، والجنة ونعيمها فى الآخرة .

* وقوله تعالى : « ذلكم وأن الله مُوهِنُ كيد الكافرين » .

الإشارة هنا إلى ماالله سبحانه وتعالى من رعايةٍ لأوليائه ، وتمكين لهم من أعدائهم .. فأولياؤه ، المجاهدون فى سبيله ، هم أبداً محفوفون بنصره وتأييده ، وأن مايكيده الكافرون لهم لايصل إليهم ، إلا واهياً ، ضعيفاً ، متخاذلا ..

* وقوله سبحانه :

« إن تستفتحوا فقد جآءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خيرٌ لكم وإن تعودوا نَعُدْ ولن تُغْنِيَ عنكم فئتكم شيئاً ولو كثُرَتْ وأن الله مع المؤمنين » .

هو تهديد ووعيد للكافرين، الذين يُدلّون بقوتهم، ويعتزّون بكثرتهم.. فهاهم أولاء يشهدون بأعينهم كيف كان فعلُ الله بهم، وكيف أخذهم الله بيد أوليائه، ورماهم بالبلاء والذلة والهوان..؟

والاستفتاح: طلب الفتح، وهو النصر والغلب.

والخطاب فى قوله تعالى: «إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح» هو للمشركين، وهو بلاء فوق البلاء الذى أصيبوا به فى يوم بدر.. فقد جاءوا مستفتحين، أى طالبين النصر والغلب.. فهذا هو النصر الذى طلبوه، وذلك هو شأنهم أبدًا مع المؤمنين.. إنهم لن يرجعوا إلا بنصر هكذا النصر الذى انقلبوا به، يحملون الخزى والعار، ويتركون فى ميدان المعركة سادتهم وأشرافهم، أشلاء ممرغة فى التراب!

وفى قوله تعالى: «وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نَعُدْ ولن تغنى عنكم فئتكم شيئًا ولو كثرت» فى هذا مايكشف عن المستقبل المظلم الذى ينتظر المشركين، إذا هم أصرّوا على موقفهم من المسلمين، ولم ينتهوا عماهم عليه من بغى وعدوان، فإن كثرة عددهم، وشوكة قوتهم، لن تغنى عنهم شيئًا، ولن تدفع قضاء الله فيهم..

وفى قوله تعالى: «وأن الله مع المؤمنين» تيئيس للمشركين من أنهم لن ينالوا من المسلمين منالاً، وأن العاقبة للمؤمنين، لأن الله معهم.. فلينظروا.. هل ينتصرون على جبهة يكون الله معها؟ فليجربوا!! وقد جربوا فعلا، فكان هذا الذى سجله التاريخ للدعوة الإسلامية، وما كتب الله لأهلها من النصر والفتح المبين.. وكان هذا الوعد من القرآن الكريم فى مطلع الدعوة الإسلامية معجزة من معجزاته، فيما كشف به عن حجب الغيب، وأنباء المستقبل..

الآيات : (٢٠ — ٢٦)

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (٢٦)

التفسير : قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولّوا عنه وأنتم تسمعون » ..

هو إلفات منه سبحانه إلى المؤمنين ، ودعوة لهم إلى طاعته وطاعة رسوله ، بعد أن أراهم نصره وتأييده ، وأطلعهم على ما لقى المشركون وما سيلقون من خزى وخزلان ..

وقوله تعالى : « ولا تولّوا عنه وأنتم تسمعون » تحذير للمؤمنين من أن يخرجوا عن طاعة الله ، وأن يخالفوا الرسول فيما يسمعون من آيات الله ، التى يتلوها عليهم .. وأن يكونوا كالمشركين أو المنافقين الذين يقولون سمعنا «وهم لا يسمعون»

أى لا يستجيبون للرسول ، ولا يمتثلون لما يسمعون منه ، من أمر أو نهى ..

وفى قرن الإيمان بالطاعة « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله » .. إشارة إلى أن الإيمان لا تقوم حقيقته إلا على الطاعة لما تحمل دعوة الإيمان من أوامرَ ونواهٍ .. فالإيمان ليس مجرد إقرار باللسان ، فإن الإقرار باللسان إذا لم يصدّقه العمل ، كان نفاقاً .. والله سبحانه وتعالى يقول فى ذم المنافقين : « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » (١٦٧ آل عمران) ويقول سبحانه محذراً المؤمنين من هذا الموقف : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون .. كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (٣ : الصف) والرسول صلوات الله وسلامه عليه ، يكشف عن حقيقة الإيمان فيقول : ليس الإيمان بالتمنّى ، ولكن ما وَقَرَ فى القلب وصَدّقه العمل .. وإن قوماً خدعتهم الأمانى وغرهم بالله الغرور .. يقولون : إنا نؤمن بالله !! وكذبُوا .. لو صَدَقوا القول لصَدَقوا العمل » ..

وقوله سبحانه : « إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ » هو عرض لتلك الصورة المنكرة التى عليها هؤلاء المشركون ، الذين يسمعون كلمات الله تُتْلَى عليهم ثم لا يزيدهم ذلك إلاّ ظلماً وبغياً وفساداً .. فهم شرُّ ما يدبُّ على هذه الأرض من أحياء .. إذ كان شأن كلّ دابةٍ أن تسمع لصوت داعيها ، وتستجيب لنداء من يهتف بها ، داعياً أو زاجراً .. أما هؤلاء فهم شرٌّ من الدواب .. إذ هم صمٌّ : لا يسمعون ، بُكمٌ : لا ينطقون ، بهائمُ لا يعقلون .. وفى هذا يقول الله تعالى : « وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » (٧ — ٨ : الجاثية) ..

ويقول سبحانه : «وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ» (٢٦ : الأحقاف)

* وقوله تعالى : «وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ» .. أى أن هؤلاء المشركين ممن ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة .. هكذا خلقهم الله ، لا يقبلون خيراً ، ولا يهتدون إلى خير .. «ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم» أى لو علم سبحانه أنهم يتقبلون الخير وينتفعون به ، ويستقيمون عليه ، لفتح أسماعهم إلى كلمات الله ، ولأمسك آذانهم الشاردة على مورد هذه الكلمات .. ولكنهم لا ينتفعون بشىء مما يسمعون من كلمات الله التى تتلى عليهم ، إذ كانت تلك الكلمات لا تعرف طريقها إلى مواطن الوعى والإدراك من قلوبهم وعقولهم ، بل ترتدّ عنها كما يرتد مسيل الماء يصطدم بسد منيع .. «ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون» أى لو سمعوا كلمات الله، ونفذت إلى آذانهم ، لما استقبلوها إلا بالجد فى مجانبتها ، والتولى عنها والفرار من بين يديها .. فهم لا يلتقون بها إلا وهم معرضون عنها، فإذا صافحت آذانهم نفروا وتولوا معرضين .. وفى هذا يقول الله تعالى : «فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ»[1] (٤٩ — ٥١ : المدثر).

* وقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكُمْ لما يُحْيِيكُمْ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون» — هو نداء بعد نداء للمؤمنين ، أن يُقبلوا على الله ، ويستجيبوا لله ولرسوله ، وقد رأوا

---

(١) الحمر المستنفرة : المذعورة ، الفزعة . والقسورة ، الأسد ..

إعراض المشركين عن الله ، ونفورهم من دعوته ، فكانوا عند الله شر الدواب وأنكدها حظًّا .

فالمطلوب من المؤمنين أن يستجيبوا لأمر الله وأمر رسوله ، فيما يدعوهم إليه الرسول من أمر ربه . وهذا يعنى التسليم للرسول بالطاعة والولاء ، فى كل ما يجيئهم به ، ويدعوهم إليه .

وفى قوله تعالى : « إذا دعاكم لما يحييكم » إشارة إلى أن ما يدعو به الرسول هو حياة للناس ، واستنقاذ لهم من الهلاك والضياع ..

والسؤال هنا هو :

ما معنى « إذا » وهل هى شرطية ، بمعنى أن المؤمنين لا يستجيبون للنبى إلا على هذا الشرط ، وهو أن يدعوهم للذى فيه حياة لهم ؟ وهل يدعو الرسول بغير ما يحمل الحياة إلى الناس من أمر الله ؟ وهل للمؤمن أن يتوقّف عند أى أمر يدعوه الرسول إليه حتى يختبره ويصدر حكمه عليه ، بعد أن يرى : إن كان فيه حياة له ، أو لم يكن ؟ وكيف والله سبحانه وتعالى يقول : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم ؟ » (٣٦ : الأحزاب) .. فما تأويل هذا ؟ .

والجواب ـ والله أعلم ـ : أن هذا القيد الوارد على دعوة الرسول ، والأمر بالاستجابة لتلك الدعوة على هذا الوصف ، وهى أن تكون دعوة فيها حياة وخير ، يصيب الإنسان فى جانبيه الروحى والمادى معاً ـ نقول إن هذا القيد يحقق أمرين :

أولهما : الدعوة إلى إيقاظ العقل ، وحمله على النظر فى كل أمرٍ يواجهه ، أو

يُدْعى إليه ، ليزنه بميزان الحق والخير ، حتى ولو كان هذا الأمر وارداً من جهة لا يرِدُ منها إلا الحق المشرق ، والخير الخالص .

فذلك لا يحول بين العقل وبين أن يتفحص الأمر ، ويقلّبه على وجوهه ، ليعرف مدى الخير الذى يحصله ، إذا هو أخذ بهذا الأمر ، وجعله معتقداً ، له ، يعمل فى ظله ، ويسير على هواه.. فهذا من شأنه أن يجعل لهذا الأمر سلطاناً متمكناً فى كيان الإنسان إذ أقامه بيده ، ومكّن له بإرادته ، ونزل على حكمه طائعاً مختاراً ، يرجو منه الخير ، ويتوقع السلامة والعافية .

ومن أجل هذا كان الإيمان الذى آمن عليه المسلمون الأولون ، إيماناً راسخاً متمكناً ، جعل منهم أوتادَ هذا الدين ، وعُمُدَه ، التى قام عليها صرحُه ، وامتدّت عليها ظلال دوحته .

وهذا يعنى احترامَ العقل الإنسانى ، وإعطاءه الحق فى البحث والنظر حتى فيما يصدر إليه من أحكم الحاكمين ، رب العالمين . . وليس بعد هذا عذر لإنسان يمتهن إنسانيته ، ويبيع عقله ، ويسلم مِقوده لـكل داع يدعوه ، من غير أن يُعمل فيه نظره ، ويوجه إليه عقله ، كما هو حال أولئك المشركين الذين لا يبصرون إلى ما يدعوهم إليه شياطينهم ، أو تمليه عليهم أهواؤهم ، وإن كان فيه هلاكهم .

وثانى هذين الأمرين : أن ما تحمله أوامر الشريعة وأحكامها هو الخير المطلق الذى لا يزداد على البحث والنظر إلا وضوحاً وألقاً .

فمن المطلوب إذن أن تتعلق الأنظار بهذه الأوامر وتلك الأحكام ، وأن تتحكك بها العقول ، وتتردد عليها الأفهام ، حتى تتعرف إلى أسرارها ، وتنشَق العبير الطيب من أريجها ، وبهذا تعرف قدرَها ، فيشتدّ حرصُها عليها ، وتمسكها

بها .. وهكذا كل شيء طيب كريم ، تتغذّى الأنظار من ترداد النظر فيه ، وتنتعش النفوس من كثرة لقاء العقل له ..

يَزيدُك وجهه عجبًا إذا ما زدتَه نظرا

وفى قوله تعالى : « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » .. إشارة إلى ما لله سبحانه وتعالى من قدرة وعلم ، وأنه بقدرته قادر على كل شيء ، وبعلمه محيط بكل شيء ..

فالإنسان لا يملك من أمر نفسه شيئاً مع ما لله عليه من سلطان ، حتى إن قلبه الذى هو بين جنبيه ، والذى هو الجهاز الممسك بزمام الحياة فيه ، واقع تحت سلطان الله ، يصرفه كيف يشاء ، ويحوّله إلى حيث يريد .. وإذا الإنسان فى واد ، وقلبه فى واد آخر ..

وإذ كان ذلك كذلك ، فإن من السَّفَه أن يتحدى الإنسان أمر الله ، ولا يستجيب له إذا دعاه إليه ، ولا يطيع رسول الله إذا بلغه رسالة ربه ، فإنه بهذا يهلك نفسه ، إذ يحول بينها وبين الخير الذى يدعوها الله ورسوله إليه ، ويقطع عنها شريان الحياة ، كما يقطع الله سبحانه وتعالى عنه أسباب الحياة ، حين يمسك قلبه فلا يخفق أبداً ..

وقوله تعالى : « واتقوا فِتْنةً لاتصيبنَّ الّذين ظَلَموا مِنكم خاصّةً واعلموا أن الله مع المتقين » .

هو دعوة إلى التناصح بين المؤمنين ، وإلى التناهى فيما بينهم عن المنكر ، وإلا فإن سكوت الساكتين منهم ، عن ظلم الظالمين وبغى الباغين ، هو اعتراف ضمنى بهذا الظلم ، وذلك البغى ، وإجازة لهما ، ومن هنا لم يكن ما يحل بالظالمين من بلاء الله ونقمته واقعاً بهم وحدهم ، بل يصيبهم ويصيب من رآهم ولم ينكر

عليهم تلك المنكرات ، ولهذا عمّ الله بنى إسرائيل جميعاً باللعنة ، لأنهم لم ينصحوا الظلمة فيهم ، ولم ينكروا ظلمهم ، وفى هذا يقول الله تعالى : « لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » (٧٨ — ٧٩ : المائدة) .

وهنا سؤال :

كيف يؤخذ المحسنون بظلم الظالمين ، والله سبحانه وتعالى يقول : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ؟ » (١٨ : فاطر) ويقول سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ؟ » (١٠٥ : المائدة) . . ويقول فى هذه الآية : « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » . . فكيف يكون مع المتقين ثم يأخذهم بما أخذ به الظالمين ؟ .

والجواب — والله أعلم — :

أولاً : أن سكوت غير الظالمين عن الظالمين هو وِزر ، له عقابه ، فهم وإن لم يظلموا أحداً ، فقد ظلموا أنفسهم بحجزها عن هذا المنطلق الذى تنطلق منه إلى رضوان الله ، وإلى حماية أنفسهم وحماية المجتمع الذى هم فيه مما يشيعه الظالمون من فسادٍ وضلال ، وشر مستطير .

وثانياً : أن قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عليكم أنفسَكم لا يضرُّكم مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » هو حماية للمؤمنين من أن يجرفهم تيار المفسدين ، وأن يُسلموا زمامَهم لهم ، ويَسلكوا معهم الطريق الذين سلكوه حين يستشرى الفساد ويغلب المفسدون . . فهنا يكون واجب المؤمن حيالَ نفسه أن يحميها أولاً من هذا الوباء ، وأن يمسك عليه دينه حتى لا يُفلت منه فى زحمة هذا الفساد الزاحف بخيله ورَجِلِهِ . .

ومع هذا ، فإنه لن يُعْفَى المؤمنين استشراء الشرّ من أن يقوموا بما يجب عليهم فى تلك الحال ، من النصح ، والتوجيه ، والدعوة إلى الله ، فهم أُساة المجتمع لهذا الوباء الذى نزل به..

فإذا قصّروا فى أداء هذا الواجب كانوا بعرض المؤاخذة والجزاء . .

وثالثاً : قوله تعالى : « واعلموا أن الله مع المتقين » هو توكيد لما يجب على المؤمنين من التناصح ، والتناهى عن المنكر فيما بينهم ، وإلا لم يكونوا من المتقين ، ولم يُحسبوا فيهم . . إذ كيف يكون المؤمن ممن اتقى الله ، وهو يرى المنكر ولاينكره ، ويرى الظلم ولايقف فى وجهه ؟

ورابعاً : إن المجتمع الإنسانى جسدٌ واحد ، وما يصيب بعضَه من فسادٍ وانحلال ، لابد أن يتأثر به المجتمع كله ، كما يتأثر الجسد بفساد عضو من أعضائه وإنه كما يعمل المجتمع على حماية نفسه من الأمراض المعدية والآفات الجائحة ، فيحشد كل قواه لدفع هذا الوباء ، بتطبيب المرضى أو عزلهم ـ كذلك ينبغى أن يعمل على إخماد نار الفتن المشبوبة فيه ، والضرب على أيدى مثيريها . وإلا امتد إليهم لهيبها ، والتهمتهم نارها ..

فحيث كان شر ، فإنه لايصيب من تلبّس به وحده ، بل لابد أن ينضح منه شىء على من حوله . .فكان من الحكمة دفع الشر ومحاربته فى أى مكان يطل بوجهه منه .

* قوله تعالى : « وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

هو تذكير المؤمنين بنعم الله ، وأفضاله عليهم ، إذ ألبسهم لباسَ الأمن والعافية ، بعد أن كانوا قِلةً مستضعفين ، تنالهم يد أعدائهم بالضرّ

والأذى ، فآواهم ، وأيدهم بنصره ، ومكّن لهم من عدوهم ، وملأ أيديهم من المغانم . .

وفى هذا مايدعو المسلمين إلى الدعوة إلى الله ، وإلى إصلاح الفاسدين ، وإقامة المنحرفين ، وهداية الضالين ، حتى يكثر جمعهم ، ويصبحوا أصحاب الكلمة فى مجتمعهم ، فقد عرفوا القِلّة ، وما فيها من ذلة وهوان . .

وهذا هو السرّ — والله أعلم — فى عطف هذه الآية على قبلها ، إذ كانت الآية السابقة تدعو إلى التناصح والتواصى بالخير فيما بين المؤمنين ، وكانت هذه الآية تذكيراً بما كان فيه المسلمون وهم قلة ، وكيف صار بهم الحال بعد أن كثروا ، وتضاعفت أعدادهم . . وهكذا كلّما ازدادوا كثرة ، وازدادوا صلاحاً وتقوى ، كلّما مكّن الله لهم فى الأرض ، وملأ أيديهم من طيباتها . .

الآيات : (٢٧ — ٣١)

« يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٢٩) وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ » (٣١)

التفسير : نبّه الله المؤمنين فى الآية السابقة ، ولَفَتهم إلى ما كانوا فيه من قلّة وذِلّة ، وما أصبحوا فيه من كثرة ومَنَعَة وعِزّة . . وذلك ليذكروا فضل الله عليهم ، وليجعلوا ولاءهم خالصاً له . .

وفى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسولَ وتخونوا أماناتِكُمْ وأنتم تعلمون » دعوة للمؤمنين إلى القيام بأمر الله ، والتزام طاعته وطاعة رسوله ، والوقوف عندالحدود التى بينها الله تعالى ، فيما أنزل على رسوله من آياته وكلماته . .

فالخروج على أمر الله ، والخلاف لرسوله ، هو خيانة لله ولرسوله ، بعد أن علموا ، وتثبتوا مما أمرهم الله به ، أو نهاهم عنه . . ثم هو خيانة للمرء نفسه ، إذ نقض العهد ، وخان الأمانة التى ائتمنه الله عليها . .

وهذا مقابل لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولّوْا عنه وأنتم تسمعون » . .

ففى هذه الآية دعوة إلى طاعة الله ورسوله ، والاستجابة لما يدعوهم الرسول إليه ، ويندبهم له ، متى بلغت أسماعَهم دعوتُه . . فالموقف هنا هو فيما بين المؤمنين والنبىّ ، حالَ حياته منهم . .

أما ما فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » فهو امتثالٌ لأوامر الله ، وما بيّنه الرسول الكريم للمؤمنين فى أقواله وأفعاله من أمورهم ، وذلك فيما بينهم وبين أنفسهم ، حيث لايكون الرسول معهم ، أو يكون الرسول قد أخلى مكانه من هذه الدنيا . . وحينئذ تكونُ أوامر الشريعة ، وأحكامها أمانةً أؤتمن الإنسان عليها ، فإذا ضيع تلك الأمانة بخروجه على أحكام الشريعة ، والعدوان على حدودها ، فقد

خان الأمانة ، وخان الله ورسوله ، وخان نفسه ، التي هي أمانة عنده ، والتي يكون قد ضيّعها ، حين عرضها في معرض التهلكة ، إذ عصى الله ورسوله . .

* قوله تعالى : « وَاعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ » هو تنبيه للمؤمنين إلى مكمن الخطر ، الذي تهبّ منه عليهم ريح السّموم ، التي تعصف بإيمانهم ، وتنحرف بهم عن الصراط المستقيم . .

وفي الأموال والأولاد يكمن هذا الداء ، الذي يجور على إيمان المؤمن ، ويحمله على مركب الفتنة والضلال ، إن لم يأخذ حذره ، ويحرس نفسه من هذا العدو المتربص به .

فالمال سلطان على النفوس ، وشهوة غالبة على القلوب . . حيث لاحدّ للمال الذي يبلغ عنده الإنسان مبلغ الرضا والشبع ، بل إنه كلّما ازداد الإنسان جمعاً للمال كلما ازداد نَهَمُهُ وجوعه ، بل ازداد سُعَارهُ وكَلَبُه ، بحيث يصبح جمعُ المال همَّه وغايته ، فلا يبغى المال لتحقيق رغبة ، أو إشباع شهوة . . وإنما رغبته هو المال نفسه ، وشهوته هو المال ، لاشيء سواه . . ومن كان هذا شأنه فلن يملأ عينه مال الدنيا كلها ، لو اجتمع ليده . .

كالحوت لايكفيه شيء يَلْقَمُه ... يصبح ظمآن وفي الماء فمه

وهذا هو موطن الفتنة ، ومهبّ الشر من جانب المال . . فإذا لم يأخذ الإنسان . . حِذره ، ويصحب المال على خوف ومحاذرة ، جرفته شهوة المال إلى لجج الفتنة والضلال ، فلا يعرف شاطىء الأمن والسلامة بعد هذا أبداً . .

وللأولاد مثل ما للمال، من سلطان على الوالد، ومن تمكّنٍ فى قلبه، واستيلاء على مشاعره، بحيث يحمله ذلك على أن يؤثرهما على نفسه، وأن يسوق إليهما كل ماوسعه جهده وحيلته، من ألوان البرّ والخير..

وتلك غريزة طبيعية فى الإنسان، بل وفى الحيوان.. وليس مما يُحمد فى الإنسان أن تَخمد هذه الغريزة أو تضعف، ولكن الذى لا يُحمد، هو أن تجنح هذه الغريزة إلى جانب المغالاة، وتَعْدِل بالإنسان عن الطريق السَّوىّ، فيحمله ذلك على أن يقتطع من حقوق الناس، ليملأ يد أبنائه مما يشاءون، أو يشاء هو لهم..

ومن هنا كانت لفتة القرآن الكريم إلى هاتين الشهوتين: شهوة المال، وشهوة البنين، وإلفات الناس إلى الحذر منهما، ومن الوقوع تحت سلطانهما..

وفى سبيل هذا الجهاد الذى يجاهد به المرء نفسه، فى مغالبة هاتين الشهوتين، يلقى المثوبة والرضوان من الله فى الآخرة، عوضاً عما فاته من إشباع شهواته، فى الدنيا «وأن الله عنده أجرٌ عظيم».

* قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يَجْعل لكم فُرْقاناً ويكفّرْ عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم».

الفرقان: مايفرّق به بين الشيئين، والمراد به هنا، القوة التى يفرق بها بين الحق والباطل.. وهذه الفرقان، أو تلك القوة إنما يُمَدّ بها الله أولئك الذين يتقونه، ويحرسون أنفسهم ويراقبونها من أن تتعدى حدوده..

ومن تقوى الله، حراسة النّفس من الشهوات المسلطة عليها، كشهوة المال والبنين، التى نبّهت إليها الآية السابقة..

وفى تقوى الله قوّة يجد منها الإنسان العونَ على مغالبة الأهواء ، ودفع الشهوات أو كسر حدّتها . .

وفى تقوى الله نورٌ يهتدى به الإنسان ، إلى مواطن الحق والخير ، حيثُ يبدو له وجه الحق واضحاً وضيئاً ، يدعوه إليه ، ويُغريه بالإقبال عليه ، على حين يرى وجهَ الباطل كاسفاً كئيباً ، فيعرض عنه ، ويفرّ منه .

ومن هنا كان مع تقوى الله دائماً ، الهدى والنور ، والمغفرة والرحمة ، والفضل العظيم من رب العالمين . . حيث يكون الإنسان فى صحبة التقوى ، على نور من ربّه ، يميز به الحق من الباطل ، فلا تتفرق به السبل ، ولا يضل الطريق إلى الله أبداً . .

* قوله تعالى : « وإذ يمكر بِكَ الذين كفروا ليُثْبِتوك أو يَقْتُلوك أو يُخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

الواو ، هنا للاستئناف . . والخبر الذى بعدها مستأنف . .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن تقوى الله تعين الإنسان على اجتياز الصعاب ، ومغالبة النزعاتِ ، واحتمال الأرزاء . . وقد كان هذا هو موضوع الآية السابقة .

وفى هذه الآية ، المثلُ الكامل فى التزام طريق الحق ، حيث يتصدّى النبىّ ــ وهو سيد المتقين ــ لما يسوق إليه المشركون من ألوان البلاء ، وما يرمونه به من صنوف الإعنات والكيد ، فيلقى ذلك صامدًا صابراً ، لا يَدْنيه الإغراء ، ولا يُنَهْنِهه الوعيد ، حتى ليلقى قومه بتلك الكلمة الحاسمة الفاصلة ، حين عرضوا عليه ما عرضوا من مال وسلطان : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، أو أهلك دونه » ! ! فقد صمد

النبيّ الكريم أمام تلك الفتن العاصفة ، التى كانت تهب من آفاق المشركين ، ولم ينحرف عن طريقه القويم قِيدَ شعرة .

ومن مكر الذين كفروا بالنبيّ ما كشفه الله تعالى فى تلك الآية ، وهو أنهم أرادوا به أكثر من شر ، فإمّا أن يُثبتوه ، أى يفسدوا عليه أمره ، ويُعجزوه عن القيام بدعوته . أو يقتلوه إنْ هو أبى إلا أن يمضى فى طريقه ، ويستمر فى دعوته ، وأعجزتهم الوسائل المتاحة لهم عن الإمساك به دون أن يتحرك .. وإما أن يحملوه على أن يخرج من بينهم ، ويترك موطنه الذى نشأ فيه . .

هذا كان مكرهم ، وذلك كان كيدهم .

وقد أبطل الله هذا المكر ، وأفسد هذا الكيد . . فجاء أمر النبيّ على خلاف ما أرادوا وقدّروا . .

لقد حملوه على أن يهاجر من بينهم ، ففاتهم بذلك حظُّهم من نور الله ، الذى جعله الله إلى قوم هم أَوْلَى به وأحق منهم . . ثم إن من دخل منهم فى الإسلام من بعد هذا ، لم يكن فى المنزلة التى أخذها الذين سبقوا إلى الإسلام وهاجروا ، أو أولئك الأنصار ، الذين آووا ونصروا . .

وفى قوله تعالى : « ويمكرون ويمكر الله » إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى إنما أخذهم بمثل فعلهم ، وقتلهم بالسلاح الذى حاربوا الله ورسوله به . .

والمكر : التدبير للأمر ، وأخذ الوسائل المحققة له . . وقد يكون المكر شرًّا ، حيث يراد للشر والضلال ، وقد يكون حسناً ، إذا أريد به إحقاق حق ، أو إبطال باطل . . وفى هذا يقول الله تعالى : « وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّء إلاَّ بِأَهْلِهِ » .

فالمكر الذى مكره المشركون بالنبىّ ، هو من المكر السيىء ، ولا حاجة إلى وصفه بالسوء ، لأنه مما أبطله الله ، وقلب على أهله تدبيرهم الذى دبروه . . وكفى بهذا شناعة وسوءا له .

* وقوله تعالى : « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَآ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » .

ى إن هؤلاء الكافرين الذين يمكرون بالنبىّ هذا المكر ، ويدبّرون له هذا التدبير ، لا يستمعون لكلمات الله ولا يعقلونها ، ولو أنهم سمعوها وعقلوها لما كان منهم هذا الضلال الذى هم فيه ، ولرأوا أن النبىّ لا يحمل إليهم إلا الهدى ، ولا يدعوهم إلا للخير . .

فهؤلاء الكافرون ، إذا تتلى عليهم آيات الله لم يُعطوها آذانا صاغيةً ، بل تقع الكلمات على آذانهم كأنها أصوات لا مفهوم لها ، ولهذا إذا قيل لهم استمعوا إلى كلمات الله ، قالوا : قد سمعنا ما يكفى ، ولسنا فى حاجة إلى أن نسمع جديداً ، فما هذا الذى نسمعه إلا كلام من كلامنا ، ولو أردنا أن نقول مثله لقلنا ، وما يقصّه علينا من قصص : إن هو إلا أساطير الأولين ، وخرافات السابقين ، وإن عندنا من هذا شيئاً كثيراً . . فليس يعجزنا ــ والأمر كذلك ــ أن نقول مثل هذا الذى يُسمعنا إياه محمدٌ من هذا الكلام الذى يقول إنه من عند الله ، أو إنه من كلام الله ! .

والأساطير : جمع أسطور ، وأسطورة ، وهو ما كان من واردات شتّى ، للخيالات والخرافات ، وأصلها مما سطّره الأولون ، وخلّفوه وراءهم مكتوباً فى ألواح مَسْطورة . . ولأن الأولين كانت لهم نظرة إلى الحياة وإلى الوجود

غير نظرة من جاءوا بعدهم ، والذين رأوا فيما كان للأولين من علوم ومعارف ، أنها أوهام وخيالات ، لا تثبت لتجربة ، ولا تستقيم على منطق .

وقد وقع فى تقديرهم الخاطىء أن الله سبحانه إذا خاطبهم بكلماته ، جاءت هذه الكلمات على غير الكلام الذى ألفوه ، حتى يكون كلام الله شيئاً يخالف منطق البشر !

ولو فكروا قليلاً فى هذا المنطق السقيم ، لعرفوا أن أبلغ الخطاب ما جاء مطابقاً لمقتضى الحال ، وأن من أولى مقتضيات الحال فى مخاطبة الإنسان ، أن يجىء الكلام على مستوى فهمه ومدركاته ، وعلى حدود تصوراته وتخيلاته ، وقبل هذا كله أن يكون باللسان الذى يُحسن الفهمَ والإفهام به .

ولو أنهم فكروا قليلاً فى هذا الكلام الذى خاطبهم الله به ، لوجدوا أنه وإن صِيغَ من لغتهم ، ونُظِم من كلماتهم ، فإنه ينفرد وحده من بين كل ما نطقوا به من كلام ، وما تحدثوا به من لغة ، وأنه ـ وهو كلام ، وكلام معروف لهم وجهه ، وجارٍ على ألسنتهم التعاملُ به — هو معجزٌ مفحم ، يتحدّى على الزمن كلِّه ، أربابَ البلاغة ، وسادةَ البيان أن يأتوا بسورة من مثله . .

وقد نازلهم القرآن فى هذا الميدان ، ودعاهم مرة بعد مرة ، أن يلقوه على هذا الطريق ، وأن يجيئوا بسورة أو بعض سورة من تلك الأساطير التى يقولون إنها مادة هذا الكلام ، ونِظَام عِقده ، وقد ردّ الله تعالى عليهم بقوله :

« أم يقولون تَقوّله بل لايؤمنون * فليأتوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إن كانوا صادقين » (٣٣ — ٣٤ : الطور) .

وقد خرِسوا ، وَخرِس معهم كل بليغٍ منطيقٍ إلى يوم القيامة ! .

الآيات : (٣٢ — ٣٥)

« وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » (٣٥)

التفسير : « الواو » فى قوله تعالى : « وإذ قالوا » للاستئناف .

ومناسبة الآية لما قبلها أنها تعرض حالاً من أحوال المشركين ، وتكشف عن وجهٍ كريهٍ من وجوه ضلالهم وسفههم.. فإنهم بعد أن رموا النبىّ بالكذب على الله ، وأن ما جاءهم به ليس إلاّ من أساطير الأولين ،استملاها من علماء أهل الكتاب ، وأنهم لو شاءوا أن يجيئوا بمثل ما جاءهم به لما كان عليهم إلا أن يرجعوا إلى علماء أهل الكتاب ، ويردوا المورد الذى ورده ، فيجيئون بمثل هذا الذى معه ـ إنهم بعد هذا ، لم يقفوا عند هذا الحدّ ، بل أمعنوا فى الاتهام والتكذيب ، بأن طلبوا إلى الله أن يمطر عليهم حجارة من السماء أو يأتيهم بعذاب أليم ، إن كان هذا الذى جاء به محمد حقاً من عند الله ! ؟

وليس أبعَدَ فى الضلال ، ولا أسفّ فى السفه ، من أن يحملوا أنفسهم على هذا المركب المشحون بالبلاء ، المحمول على صدر بحر متلاطم الأمواج ، عاصف

الريح ، وقد كان بين أيديهم أن يستقلّوا السفين القاصد إلى شاطىء الأمن والعافية ، السابح فوق صفحة ماء رقراق ، المسيَّر بيد ريح رخاء ! .

فماذا يدعوهم إلى هذا اللَّجاج فى العناد ، وإلى هذا التحدى لمنازلة البلاء ؟ إنه لا شىء إلا الجهل الذى يُعمى البصائر ، وإلا الضلال الذى يطمس على القلوب !

وماذا عليهم لو جعلوا دعاءهم إلى الله أن يهديهم سواء السبيل ، وأن يقيمهم على طريق الحق ، إن كان هذا الذى جاءهم به « محمد » هو الحق ؟

إنهم لن يخسروا شيئاً ، لو كان الذى جاءهم به « محمد » هو قول تقوّله ، أو أساطير اكتتبها .. فلو استجاب الله لهم لعافاهم من البلاء ، ولصرف عنهم السوء . .

وإنهم ليربحون الربح أعظم الربح ، لو كان الذى جاءهم به « محمد » على غير ما ظنوا وتوهموا . . فكان الحقَّ من عند الله ، والهدى المحمولَ فى كلماته ، والرحمةَ المرسلة مع آياته . . !!

ولكن القوم عَتَوْا عُتوًّا كبيراً ، وضلوا ضلالا بعيداً ، فسألوا الله أن يمطر عليهم حجارة من السماء ، أو يسوق عليهم البلاء المبين والعذاب الأليم !

« وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم » .

هكذا يقولونها بملء أفواههم .. وهكذا يفعل الجهل بأهله ، ويلجّ الضلال بأرباب الضلال ! .

ولو أنهم كانوا على شيء من الحكمة والروية ، لأخذوا موقفاً غير هذا الموقف المشرف بهم على مهاوى الهلاك ، ولأخذوا بهذا الأسلوب الحكيم الذى رسمه ذلك الرجل المؤمن من آل فرعون ، فى نصحه للضالين المعاندين من قومه ، إذ يقول لهم هذا القول الذى حكاه القرآن عنه :

« وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ » . (٢٨ : غافر)

وقد استحق القوم أن يُدانوا بما دانوا به أنفسهم ، وأن يأخذوا بما شاء الله أن يأخذهم به ، وهو أن يمطر عليهم حجارة من السماء ، أو يأتيهم بعذاب أليم ، إذا كان هذا الذى جاءهم به « محمد » هو الحق من عند الله .. فكيف يكون حكم الله فيهم بعد هذا ؟

لقد كان الله سبحانه وتعالى حَفِيًّا بنبيه ، الذى أرسله هدى ورحمة للعالمين ، فلم يشأ — سبحانه — أن يأخذهم بالعذاب ، وأن يعجل لهم العقوبة ، والنبى الكريم بين أظهرهم ، حتى لا يسوءه الله فيهم ، ولا يحزنه بمصرعهم على يديه .. وفى هذا يقول سبحانه :

* « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون »

وهكذا يفلت القوم من هذا البلاء الذى عرّضوا أنفسهم عليه ، وألقوا بأيديهم بين يديه ، فلم يعجل الله لهم العذاب ، إكراماً لرسوله الكريم ، وحماية لحمى موطن تعطّره أنفاسه ، ولأرض وطئتها قدماه !

وأكثر من هذا ، فإن هذا الفضل العظيم من الله سبحانه لا يرفع عن هذه

الأمة ، بعد أن رُفع نبيها إلى الرفيق الأعلى ، بل إنه قائم فيها إلى يوم القيامة ، ما دامت كلمة الاستغفار تجرى على شفاههم ، كلما بَعُدَ بهم الطريق عن الله ، وتغشاهم الجهل والضلال .. فإن طريقهم إلى الله مفتوح أبداً ، ووجهتهم إليه مستقيمة دائماً ، إذا هم ذكروه ، واستغفروا لذنوبهم ، وعرضوا أنفسهم عليه ، تائبين نادمين .

اقرأ قوله تعالى : « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » ـ فإنك ستجد فيها أنسام الرحمة والرضوان تهب على هذه الأمة ، فتدفع عنها كل بلاء ، وتصرف عنها كل جائحة .

وهذا هو السر فى تخالف النظم بين قوله تعالى : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » وبين قوله سبحانه : « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » .

فإن الفعل « يعذب » مقيد بزمن معين ، وهو حال حياة النبىّ فيهم .

أما اسم الفاعل « معذِّب » فهو غير محدود بزمن ، والقيد الوارد عليه هو قيد الاستغفار ، وهو عتيد حاضر مع هذه الأمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

* وقوله تعالى : « وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا أَوْلِيَآءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ » .

الاستفهام هنا تهديدى ، فيه نذير لهؤلاء المشركين الضالين ، الذين يُمسكون بما هم فيه من شرك وضلال ، لا يستجيبون لله ، ولا يدعون المؤمنين

يُلمّون بالمسجد الحرام ، ويوجهون وجوههم إلى ربهم ، بل يصدونهم عنه ، ويحولون بينهم وبينه .

ثم إنهم من جهة أخرى ، ليسوا أولياء الله ، حتى يتجاوز لهم عن آثامهم تلك ، شأن الولىّ مع من يتولاه ، ويغفر له زلاته ، ويلقاه بفضله وإحسانه ..

فالله سبحانه وتعالى ، لا يتولى إلا المتقين ، الذين جعلوا لله ولاءهم،فآمنوا به وتعبدوا له ، واستقاموا على شريعته : « إنْ أولياؤه إلا المتقون » ..و«إن» هنا نافية ، بمعنى « ما » أى ما أولياؤه إلا المتقون ، كما يقول سبحانه : « الله ولىّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » .

هذا ، ويرى أكثر المفسرين أن الضمير فى قوله تعالى : « أولياءه » يعود إلى المسجد الحرام ، أى وما كان المشركون أولياء المسجد الحرام ، وأهل القَوَامة عليه .. ذلك أنه بيت الله ، بل أول بيت وضع للناس ، ومن هنا فإنه لا يستحق أن يكون قائماً على خدمته ، وحراسته ، إلا أهلُ الإيمان والتقوى .. فكيف يدّعى هؤلاء المشركون القَوَامة على أمر هذا المسجد الحرام ، وهم حرب عليه ، وعلى الطائفين به ، والمصلّين فيه من عباد الله المؤمنين .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله» (١٧ــ١٨ : التوبة) .

فهل يعمر مسجد الله هؤلاء المشركون الذين يأتون المنكرات ، ويصدون الناس عن سبيل الله ، ويجعلون صلاتهم عند البيت مُكاء وتَصْدِية ، كما يقول الله سبحانه وتعالى بعد هذه الآية ؟ وهذا الرأى الذى يقول به أكثر المفسّرين يتسع له النظم الذى جاءت عليه الآية الكريمة ، كما يتسع المعنى الذى

ذهبنا إليه . فالمشركون ليسوا أولياء الله ، ولا أولياء بيت الله .

* قوله تعالى : « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » .

المكاء : الصفير ، ومنه قول عنترة :

وَحليلِ غانية تركتُ مُجدّلاً تَمْكُو فريصتُه كشدق الأعلمِ

أى تضطرب فريصته بالدم المتفجر ، ويحدث من اضطرابها صوت كهذا الصوت الذى ينبعث من شدق البعير حين يرغو ، وذلك من أثر الضربة النافذة ، التى تشبه شدق البعير فى سعتها وعمقها .

والتصدية : التصفيق ، الذى ينبعث له صدى .

والمعنى أن صلاة هؤلاء المشركين التى يؤدونها لأصنامهم عند البيت الحرام ـ هذه الصلاة ليست إلا ضرباً من اللهو والعبث ، حيث لا يجدون ما يقولونه لهذه الأحجار المرصوصة ، وتلك الخشب المسندة ! وإذ يعوزهم القول فى هذا المقام ، وتنهزم فى كيانهم مشاعر الجدّ والوقار لهذه المعبودات التى يتعبدون لها ـ فإنه لكى يكون لصلاتهم تلك ، صوت يُسمع ، وأثر يحسّ ، وواقع يُرى ـ فقد استجلبوا لها هذه الأصوات المنكرة ، وتلك الجلبة العمياء ، حتى حتى يداروا بها عُوار هذه المظاهر الكاذبة ، التى تفضح المستور مما يدور فى خواطرهم من هزء وسخرية ، بتلك الآلهة التى يؤدون لها هذا الولاء الزائف ، والذى لو انكشف مستوره لكان صفعاً ورَكلا ، ولكنه جاء صفيراً وتصفيقاً ، أقرب شىء إلى الصفع والركل .. (الصفع بالأيدى ، والركل بالأرجل) .

وفى قوله تعالى : « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » إشارة إلى أن

هذا الذى يأتونه ، هو كفر بالله ، وصدود عن سبيله ، بتولية وجوههم إلى هذه السخافات ،وقطع عمرهم فى هذا العبث ، الذى يحسبونه عبادة ، ويعدونه صلاة، يُجزوْن عليها جزاء العابدين المصلين ..!!

والعذاب الذى قدم إليهم هنا ليذوقوه ، وليَطعَموا منه ، هو ما نزل بهم من هزيمة منكرة يوم بدر ، وما أريق فيه من دماء ساداتهم وكبرائهم .. وتلك جرعات عاجلة ، فى هذه الدنيا ، ولعذاب الآخرة أقسى قسوة ، وأمرّ مرارة ..

الآيات : (٣٦ — ٤٠)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِى جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ (٣٧) قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ » (٤٠)

التفسير : ومن ضلالات هؤلاء المشركين أنهم ينفقون أموالهم فيما يكيدون به لأنفسهم ، ويصرفونها به عن الخير ، ويُوردونها به موارد الهلكة والبوار .

ومن عادة العقلاء ألا ينفقوا أموالهم ألا فيما يعود عليهم منه خير ، يجدونه

فى أنفسهم ، أو فى أهليهم ، أو فى المجتمع الإنسانىّ ، خاصة أو عامة .

أما أن يشترى الإنسان بماله ما يفسد حياته ، ويغتال إنسانيته ، ويدمّر وجوده ، فذلك هو الذى لا يُرى إلا فى عالم المجانين والحمقى .

وهؤلاء المشركون قد بذلوا أموالهم فى سخاء ، وقدموها فى رضى وغبطة ، ليطفئوا بها نور الله الذى أرسله إليهم ، وليخفتوا بها صوت الحق الذى بعثه الله ليؤذّن فيهم بآياته ، فاشتروا بهذا المال الرجال والعتاد ، وجعلوا من هذا جيشاً جراراً ساروا به إلى النبىّ الكريم يوم بدر، يريدون القضاء عليه ، وعلى الجماعة التى استجابت له ، وآمنت بالله وبرسوله ..

* « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله » .. هكذا فعل المشركون ، وهكذا وجهوا المال الذى جعله الله فى أيديهم ..

* « فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة » . . وفى التعبير بفعل المستقبل عما فعلوه فى الماضى ، تهديد ووعيد لهم ، بأن الأموال التى سينفقونها فيما بعد على هذا الوجه الذى أنفقوه فيها فى موقعة بدر ـ ستكون عليهم حسرة ، وستجرّ عليهم الخزى والبلاء كما جرته عليهم أموالهم التى أنفقوها فى تلك الموقعة . . حيث تذهب هذه الأموال من أيديهم ، ثم تعود إليهم على هيئة رزايا ونكبات..

* « ثم يغلبون » هو نذير لهم بما يلقاهم من مصير مشئوم ، من هذا المال الذى أنفقوه ، وانتظروا الثمر الجنىّ الطيب منه ، بالنصر على المسلمين ، واستئصالهم ، وهذا مالا يكون أبداً ، ولن يكون إلا الهزيمة ، وسوء المنقلب للمشركين .

* « والذين كفروا إلى جهنم يحشرون » . . وليست الهزيمة وحدها هى التى تنتظر هؤلاء المشركين ، بل سيكون العذاب الأليم فى الآخرة هو مصير

أولئك الذين يمضون فى طريقهم هذا إلى النهاية ، فلا يرجعون إلى الله ، ولا ويؤمنون به وبرسوله ..

وفى العطف « بثم » التى تفيد التراخى فى قوله تعالى : « فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة » وفى قوله سبحانه : « ثم يغلبون » إشارة إلى أن الحسرة والهزيمة قد لا يكونان بعد كل مالٍ ينفقونه ، فقد يقع للمشركين فى بعض مواقفهم من المسلمين ما يحسبونه نصراً ، ويرونه وجهاً نافعاً مثمراً لهذا المال الذى أنفقوه ، كما كان فى موقعة « أحد » .. ولكن العبرة فى هذا بالموقعة الفاصلة ، التى تنكس فيها راية الشرك إلى الأبد ، ويخفت صوت المشركين إلى يوم الدين .. وذلك ما انتهى إليه الأمر بين المسلمين والمشركين ، فقد دخل رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يقود جيش الإسلام ـ دخل على الشرك فى حصنه فاتحاً مظفراً ، فأجلى عن البيت الحرام ما احتشد فيه من أصنام وأبداد ، وألقى بها فى مسالك مكة ودروبها ، تدوسها الأقدام ، وتحيلها أشلاء ممزقة ، يمر بها الناس كما يمرون بالجثث المتعفنة ، يتساقط عليها الذباب ، وترعى فيها الهوام والحشرات ..

* قوله تعالى : « ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضَه على بعض فيَرْكُمَهُ جميعاً فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون » .

أى أن هذا الصراع الذى يقع بين الحق والباطل ، ويدور بين المحقين والمبطلين ، هو ابتلاء واختبار ، تتبين به مواقف الناس، وتُعرف به وجوههم ، حيث يجتمع المؤمنون إلى المؤمنين ، وينحاز المشركون إلى المشركين والضالين، ويوفى كلٌّ حسابَه وجزاءه ..

وفى قوله تعالى : « ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله

فى جهنم » إشارة إلى أن مجتمع الكفر والضلال ، مجتمع فاسد ليس لإنسان فيه ذاتية ، يتميز فيها إنسان عن إنسان ، بعقله ، ومدركاته ، ومشاعره ، كما يتميز عقلاء الناس ، كلٌّ بإدراكه وإحساسه وشعوره .. فهم أشبه بقطيع من الحيوان ، ليس لأحدها فى حقيقته ما يميزه عن غيره ، إلا باللون أو الحجم ، أما ما وراء ذلك فهى جميعها سواء فيه .. ومن هنا كان التعبير القرآنى : « ويجعلَ الخبيثَ بعضَه على بعض » أى يخلط بعضه ببعض خلطاً لا حساب فيه لشىء ، ولا تقديمَ لشىء على شىء ، وإنما حكمها جميعاً حكمُ حُزْمَة الحطب يحتويها حبل واحد .. ثم كان التعبير القرآنى « فيجعلَه فى جهنم » أى أن غاية هذا الجمع لتلك الجماعات الضالة هو إعدادها للوقود ، وإلقاؤها فى جهنم . هكذا يُفعل بالحطب حين يجمع ، وحين يقدّم للوقود ! وهكذا الخبيث من الأشياء ، والنفاية من كل شىء ، يلقى به .. بلا حساب ولا تقدير ! .

* وقوله تعالى : « قل للذين كفروا إن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لهم ما قَدْ سَلَفَ وَإنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ » هو تهديد ، ووعيد لهؤلاء المشركين الذين أخزاهم الله يوم بدر .. فإن يكن فيما حدث لهم يومَ بدر موعظة وعبرة ، فيؤمنوا بالله ، ويصدّقوا برسوله ، ويصحبوا مؤمنين مع المؤمنين - إن يفعلوا ذلك قَبِلهم الله ، وغفر لهم ما كان منهم من منكرات وآثام ، وإن يعودوا إلى ماهم فيه من كفر وعناد ، ومحادّة لله ورسوله ، فقد عرفوا ما سيحل بهم من عذاب الله لهم .. فتلك هى سنة الله فى خلقه ، وذلك هو حكمه على الظالمين الآثمين : الخزى والخذلان فى الدنيا ، والعذاب والنكال فى الآخرة .. ولقد فتح الله باب التوبة والقبول لمن كان له مع نفسه مراجعة ، وله إلى الله عودة .. فماذا ينتظر هؤلاء المشركون الذين ركبوا رؤوسهم ، وأوشكوا أن يصبحوا فى الهالكين ؟ .

* وقوله تعالى : « وقَاتِلوهم حتّى لا تـكونَ فتنة ويكون الدين كلُّه لله فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

هو أمر للمسلمين ، وبيان لموقفهم الذى يقفونه من المشركين ، وهو الجِدُّ فى قتالهم ، وأخذهم بالبأساء والضراء حتى تنكسر شوكتهم ، وتضعف قوتهم ، فلا تـكون لهم يَدٌ على المؤمنين ، ولا قوة على الوقوف فى سبيل الله ، وصدّ الناس عنه ، وفتنتهم فى دينهم ، وحتى يكون الدين كله لله ، لا شريك له مما يشرك به المشركون . .

وهذا الأمر الموجه للمسلمين هو احتراس من أن يهادنوا المشركين ، ويدَعُوا أمرهم إلى الله ، ليقضى فيهم قضاءه الذى قضاه فى الظالمين من قبلهم .

فهذا القضاء وإن كان واقعاً لا محالة من قِبَل الله بأهل المنكر والضلال ، إلا أنه مطلوب من أولياء الله أن يعملوا له ، وأن يأخذوا بالأسباب المنفّذة لقضاء الله النافذ ، ولحكمه الذى لا يُرَدّ .. فذلك هو البلاء الذى ابتُلى به المؤمنون ، ليكون لإيمانهم أثره وثمرته التى يحصّلونها منه ، وينالون الجزاء الحسن عليه ..

* وقوله تعالى : « فإن انتهوْا فإن الله بما تعملون بصير » تأكيد لهذا الأمر الذى أمر الله به المسلمين ، من الجدّ فى جهاد المشركين ، وأن الله مطلع على ما يكون منهم من بلاء فى الاستجابة لهذا الأمر ، وصدق فى الوفاء به ، حتى يكون من المشركين انتهاءٌ عن محاربة الله ، بعد أن يضربهم المسلمون الضربةَ القاضية . .

* وقوله سبحانه : « وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير » . .

هو تطمين للمؤمنين ، وتقوية لعزائمهم على مواجهة الكافرين ، ولقائهم تحت راية القتال ، إذا هم أصروا على ما هم فيه من كفر ، ومن محادّةٍ لله ولرسوله وللمؤمنين .. فليثبُتْ المؤمنون فى موقفهم هذا من الكافرين ،ولْيقاتلوهم قتالاً لا هوادة فيه ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدّين كله لله ، والله سبحانه وتعالى يتولى المؤمنين ، ويُمدّهم بنصره وتأييده ، ومن كان الله مولاه وناصره فلن يَهِنَ أبداً ، ولن يُخذل أبداً .

وقوله تعالى : « نعم المولى ونعم النصير » إما أن يكون صفة لله سبحانه ، وصف بها ذاته ، وإما أن يكون مقولةَ للمؤمنين ، يَلقَوْن بها هذا الفضل العظيم الذى فَضَل الله عليهم به ، فيما آذنهم به فى قوله : « فاعلموا أن مولاكم » ويكون هذا تلقيناً من الله لهم ، ولسانَ شكر يؤدون به لله بعض ما وجب عليهم لله ، إزاء هذا العطاء الكريم الجزيل ..

وإما أن يكون ذلك مقولة للوجود كله ، نطق بها كل موجودٍ ، إذ سمع قولَ الله تعالى للمؤمنين : « فاعلموا أن الله مولاكم » فسبح الوجود كله بحمد الله ، ليكون له نصيبُه من تلك الولاية ، التى تولى بها الله المؤمنين من عباده .. « أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » .. فانضم الوجود كله إلى المؤمنين وشاركهم الاستماع إلى هذا الخطاب الكريم من رب كريم : « فاعلموا أن الله مولاكم » فقال الوجود كله : « نعم المولى ونعم النصير » ..



الآيات : (٤١ — ٤٤)

* « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » (٤٤)

التفسير : فى أول هذه السورة جاء قوله تعالى : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ».. جاءهذا القول حكما فى شأن الأنفال التى وقعت لأيدى المسلمين فى غزوة بدر .، وقد بينا فى شرح هذه الآية أن المسلمين قد اختلفوا فى شأن هذه الأنفال ، فكان أن انتزعها الله من أيديهم ووضعها فى يد الرسول ، ليضعها حيث يرى .

وقد سمّى القرآن الكريم هذه « الغنائم » أنفالاً ، لأنها جاءت للمسلمين على غير تقدير منهم ،حيث كانوا قلة فى وجه العدّو ، الذى جاء بجيش جرار ، يريد استئصالهم بضربة قاضية .

ولكن الله ـ سبحانه ـ صنع للمسلمين فى هذه المعركة ، وأراهم نصرَه وتأييدَه لأوليائه . . فكانت يد الله هى التى ردّت عنهم هذا العدوّ ، وهى التى أظفرتهم بقريش ، وما خلّفت وراءها فى المعركة من عتاد ومتاع ، وكان المنتظر أن يكون المسلمون غنيمة ليد للشركين يومئذ ، لا أن يكون المشركون غنيمة لهم .

إذن فهذه المغانم التى وقعت لأيدى المسلمين هى « أنفال » . . والأنفال : جمع نَفَل ، وهو ما جاء زائداً عن المطلوب . . ومنه النوافل فى الطاعات والعبادات ، وهو ما جاء زائداً عن المطلوب . . ومن هـذا قوله تعالى للنبىّ الكريم : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا » (٧٩ : الإسراء) فتهجد النبي بالقرآن الكريم فى الليل هو تكليف خاص بالنبي ، ليرفعه الله بهذه العبادة الواجبة عليه مقاماً فوق مقامه . . أما المسلمون فلهم فى النبى الكريم الأسوة والقدوة .. وعلى هذا فالتهجد بالقرآن أمر مطلوب من المسلمين على سبيل الاستحباب لا الوجوب ، وليس الشأن هكذا بالنسبة للنبي الذى اختصه الله بهذا التكليف ، فجعل التهجد بالقرآن فرضاً عليه .

ومن ذلك قوله تعالى عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ : « ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ » (٧٢ : الأنبياء) .

فإسحٰق هو ابن إبراهيم ، وقد جاءه على كِبَرٍ ، بعد أن بلغ هو وامرأته سِنّ اليأس . . فهو أشبه بالنافلة ، لأنه جاء على غير انتظار . . وكذلك « يعقوب » وهو ابن إسحٰق ، وقد بُشّر به إبراهيم كما بشر بإسحٰق . . فهو نافلة النافلة ، إذ لم يكن إبراهيم يرجو أكثر من أن يكون له ولد . . أما ولد الولد فهو أبعد ما يكون عن توقعه والتطلع إليه ، بعد أن بلغ من الكبر عِتِيًّا .

نقول هذا لنتبيّن الفرق بين « الأنفال » و « المغانم » . . إذ كانت « الأنفال » قد وقعت لأيدى المسلمين يوم بدر على غير ما يتوقعون . . أما المغانم التى سيغنمها المسلمون فيما بعد ، فهى عن بلاء وعمل ظاهريْن منهم ، حيث يستقلّ المسلمون بأمرهم ـ بعد بدر ـ فى لقاء العدوّ ، دون أن يلتفتوا إلى أمداد من الملائكة تقاتل معهم ، كما رأوا ذلك فى « بدر » ، وإن كان تأييد الله وعونُه لهم غير منقطع عنهم أبداً . . فهذه المغانم التى غنمها المسلمون يوم بدر أقرب إلى الأنفال منها إلى المغانم ، ولهذا سمّاها الله سبحانه وتعالى « أنفالًا » ليذكر المسلمون بهذه التسمية ما كان لله من فضل عليهم فيها .

وإذن فقوله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شىء فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكينِ وابن السبيل » . . ليس ناسخاً لما جاء فى أول السورة فى قوله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ » . . كما يقول بذلك أكثر المفسّرين . . فهذه الآية تقرر حكما فى شأن الغنائم ، أما آية أول الأنفال ، فهى خاصة بحكم الأنفال .. وفرق بين الغنائم والأنفال . . وإذن فلا تناسخ بين الآيتين .

والأنفال — كما قلنا — هى التى تقع ليد المسلمين من غير قتالٍ ، أو بقتال لم يكونوا فيه إلا مظهراً تختفى وراءه يد الله التى تكتب لهم النصر ، وتمنحهم الغَلَب .

ولهذا ، فقد ظلّ حكم الأنفال قائماً ، إلى جوار الحكم الخاص بالغنائم . . فكان ما يقع للمسلمين من غير بلاء هو « أنفال » يكون أمرها لله ولرسول الله . . وما يقع لهم من غنائم فهو على الحكم الذى بينته الآية الكريمة : « واعلموا أنما غنمتم من شىء . . الآية » والتى سنعرض لشرحها بعد قليل .

ففى غزوة خيبر سلّم اليهود للنبىّ والمسلمين من غير قتال ، وذلك بعد

أن سار إليهم النبىّ والمسلمون بعد صلح الحديبية ، فلما استشعروا الهزيمة والهلاك أعطوا يدهم واستسلموا صاغرين . . وفى هذا نزل قوله تعالى : « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا » . . وقد اعتُبرتِ مغانم خيبر أنفالًا ، كلها ليد الرسول ، ينفقها فيما أمره الله به أن ينفقها فيه . . وفى هذا يقول الله تعالى : « وَمَآ أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ(١) عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَآءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » . . ثم يقول سبحانه بعد هذا : « مَآ أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَآءِ مِنْكُمْ وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » (٦ — ٧ : الحشر) .

فقد جعل الله سبحانه الفىء هنا كلّه لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين ، ولم يجعل فيه نصيباً مفروضاً للمجاهدين ، حيث لم تقع حرب ، ولم يكن قتال .. نعود بعد هذا إلى شرح الآيات :

* فقوله تعالى : « وَاعْلَمُوٓا أنما غنمتم من شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وللرَّسُولِ ولذى القربى واليتامى والمساكينِ وابن السبيل » هو بيان لحكم الله فى الغنائم التى يغنمها المجاهدون بسيوفهم فى القتال . . فهى ثمرة عاجلة من ثمرات جهادهم . . ولو كان القتال لحسابهم لكانت هذه المغانم كلها لأيديهم ، وأمّا وهم إنما يقاتلون لحساب الإسلام ، ولإعلاء كلمة الله ، فقد وجب أن يكون لِلّهِ حقٌّ فى هذه المغانم ، بل وجب أن تكون هذه المغانم كلّها

(١) قوله تعالى : « فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب » أى فما هجمتم عليه بخيل ولا ركاب ، أى إبل . . وأصل الوجيف الاضطراب ، ومنه قوله تعالى : « قلوب يومئذ واجفة » . وهذا هو شأن الخيل والإبل وخفقها فى السير .

حقًّا لله . . ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عاد بفضله على المجاهدين ، فعجّل لهم هذه الثمرة من جهادهم ، وجعلها حظًّا مشاعاً بينهم ، بعد أن يخرج منها الخمسُ الذى هو لله ولرسوله ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

فالمغانم التى يغنمها المجاهدون فى القتال تقسمّ هكذا :

الخمس : لله وللرسول . . ولذى القُربى . . واليتامى . . والمساكين .. وابن السبيل . .

فهذا الخمس من الغنائم موزع على خمسة أقسام :

قسم لله . . وما كان لله فهو لرسول الله . . وقسم لذوى القربى من رسول الله . . من بنى عبد المطلب وبنى هاشم . . وثلاثة أقسام للفقراء والمساكين وابن السبيل . .

أما أربعة الأخماس الباقية من المغانم بعد مخرج هذا الخمس منها ، فهى للمجاهدين الذين قاتلوا على تلك الغنائم . . تقسم بالسويّة بينهم . . لكل مقاتل سهم . .

وفى التسوية بين المجاهدين ، مع اختلافهم فى القوة والضعف ، حيث يكون فيهم من يرجُح بعشرات الأبطال ، على حين يكون فيهم من هو دون ذلك بكثير ـ فى هذه التسوية احتفاء بالجهاد من حيث هو جهاد ، وتكريم للمجاهدين من حيث هم على نية الجهاد ، وفى ميدان القتال ، ومعرض الاستشهاد . . فهذا هو الذى يَحكم النّاس فى هذا المجال . . أما فضل بعض المجاهدين على بعض فى البأس والقوة ، والنكاية بالعدوّ ، فذلك ـ وإن كان له حسابه وجزاؤه ـ إلا أنه لا يصحّ أن يكون بالمكان الذى يجعل من المجاهدين درجات ، ومنازل . . فهم جميعاً على درجة واحدة ، مع تلك النيّات التى انعقدت منهم على الجهاد ، ومع هذا الموقف الذى واجهوا فيه الاستشهاد فى سبيل الله . .

وقد وقع فى نفس بعض المسلمين شىء من هذا ، بل ربّما كان ذلك من أقويائهم وضعفائهم على السواء . . حين نظر بعض الأقوياء فرأوا أن فى التسوية بينهم وبين الضعفاء فى الغنائم غبناً لهم من الجانب المادىّ ، الذى ربّما ينسحب على الأجر الأخروى . . على حين نظر الضعفاء إلى حظّهم المادىّ الذى تساوَوْا فيه مع الأقوياء ، فوقع فى أنفسهم أن ذلك ربّما لا ينسحب على حظهم الأخروى، فلا يكون لهم من الجزاء الأخروى ما لإخوانهم الأقوياء . . !

رَوَى أحمد فى مسنده عن سعد بن أبى وقاص ، قال : قلت : يارسول الله .. الرجلُ يكون حاميةَ القوم . . سهمه وسهمُ غيره سواء . . ؟ فقال : « ثَـكِلَتْكَ أُمُّكَ ابنَ أمّ سعد ! وهل تُرزَقون وتُنصرون إلا بضعفائكم ؟ » .

ثم كان من عمل الرسول بعد أن اتصل التحام المسلمين بالمشركين أن جعل للفارس سهمين : له سهم ، ولفرسه سهم . . أما الراجل فله سهم واحد . . وذلك ليستحثّ المسلمين على اقتناء الخيل ، وإعدادها للقتال ، لتكون سلاحاً عاملاً منهم فى الجهاد ، ولهذا جاء قوله تعالى ، « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ » ـ جاء قوله تعالى هنا منبهاً إلى قيمة الخيل ، وملفتاً النظر إلى آثارها فى ميدان الحرب ، وأنها ـ وعليها فرسانها ـ مصدر رهبة ، ومثار فزع ورعب للعدوّ ، الأمر الذى إن تحقق للمسلمين فى عدوّهم كان أولَ ضربة ، يصيبون بها العدوّ فى مقاتله . .

هذا ، وقد اختُلف فى الخمس الذى كان للرسول ، مع الخمس الذى كان لقرابته ، مما جعله الله لهما فى خمس الغنائم الذى توزع إلى خمسة أخماس . . وذلك بعد وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

أما خُمس الرسول ، فهو خمس الله الذى أضافه الله سبحانه إلى رسوله . . وعلى هذا يضاف هذا الخمس إلى ثلاثة الأخماس التى لليتامى والمساكين وابن السبيل . .

وأما خمس ذوى القربَى فقد أباه أبو بكر رضى الله عنه عليهم بعد وفاة النبيّ، واعتبره ميراثاً . . فقد كان النبيّ ينفق منه على ذوى قرابته، فلما تُوفىٍّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يكن لذوى قرابته حق فيه، عملا بقول الرسول الكريم : « نحن معاشرَ الأنبياء لانورث . . ماتركناه صدقة » .

وقد أخذ عمر بهذا بعد أبى بكر، كما أخذ به عثمان، ثم علىّ . . رضى الله عنهم، وأبَى علىّ كرم الله وجهه أن يَخرج على ما سار عليه الخلفاء الراشدون قبلَه . . وإن كان من رأيه ـ كاجتهاد له ـ أن خمس ذوى القربى حقٌ لهم بعد الرسول، كما هو حق لهم فى حياته . وبهذا الرأى أخذ الإمام الشافعى، وبعض الأئمة، كما أنه هو الرأى المعتمد عند الشيعة .

وقوله تعالى : «إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير » . . هو توكيد لتلك الدعوة التى دُعى إليها المجاهدون من الله سبحانه، بأن يجعلوا مما يغنمون . . خمسَ هذه الغنائم، لله وللرسول، ولذى القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل . .

فهذا الحكم الذى قضى به الله سبحانه، هو دعوة منه سبحانه إلى من آمن به . . فإن من شأن من آمن بالله أن يتقبل أحكامه راضياً مطمئنا، لايطوف بنفسه طائف من الضيق أو الحرج . .

والإسلام حريص أشدّ الحرص على سلامة نفوس المجاهدين، وتصفيتها من أية شائبة تعلَق بها فى هذا الموطن، الذى ينبغى أن يكون المسلم فيه، على ولاء مطلق للقضية التى يقاتل فى سبيلها، ويستشهد راضياً قرير العين من أجلها، الأمر الذى لايتحقق إذا تسرب إلى النفوس شىء من دخان الضيق أو الشك .

ولهذا، فإن من تدبير الحكيم العليم فى هذا، أنه بعد أن شدّ المؤمنين إلى الإيمان الذى وصلهم بالله، وأقامهم على الجهاد فى سبيله ـ ذكّرهم بما يُمدّهم به من

أمداد عونه ونصره، وهم فى مواجهة العدوّ، وفى ملتحم القتال معه، وأنّهم إنما ينتصرون على أعدائهم بتلك الأمداد التى يمدّهم الله بها. فإن نَسُوا هذا فليذكروا ماأنزل الله على عبده «يَوْمَ الفرقان» أى يوم بدر، حيث كان يوماً فارقاً بين الحق والباطل.. بين الإيمان والكفر.. «يومَ التقى الجمعان» جمعُ المسلمين، وجمع الكافرين.. فقد شهد المسلمون فى هذا اليوم كيف كانت أمداد السّماء تتنزل عليهم، وكيف كانت آثار هذه الأمداد فى عدوّهم، وفى دَحره وهزيمته.. «والله على كل شىء قدير» لايعجزه شىء، فإن بيده ـ سبحانه وتعالى ـ مقاليد كل شىء: يعزّ من يشاء ويذل من يشاء، وينصر من يشاء، ويهزم من يشاء: «والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون».. فالذى أنزله الله على عبده يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان، هو هذا المدد السماوى من الملائكة.. وإيمان المسلمين بهذا المدد: هو التصديق بنزول الملائكة ومظاهرتهم لهم فى هذا اليوم.، فهذا خبر جاء به القرآن يجب على كل مؤمن أن يؤمن به!

وقوله تعالى: «إذ أنتم بالعُدوة الدُّنيا وهم بالعدوة القصوى والركْبُ أسْفَلَ منكم ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً * ليهلِكَ من هَلَكَ عن بيِّنَةٍ ويحيا من حَىَّ عن بَيِّنَةٍ وإن الله لسميع عليم».

«إذ» ظرف متعلق بقوله تعالى: «وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان».. أى أن هذه الأمداد التى أمدَّ الى بها «عبدَه» محمّداً صلوات الله وسلامه عليه، كانت فى ذلك الوقت الذى واجهتكم فيه قريش بقوتها العارمة، تريد أن تضربكم الضربة القاضية.. وقد كنتم «بالعدوة الدنيا» أى على الجانب الأدنى من الوادى، وهو الجانب الذى يلى المدينة، على حين كان المشركون «بالعدوة القصوى» أى بالجانب الآخر من الوادى، وهو الذى يلى مكة.. «والركبُ أسفلَ منكم» أى العير التى كانت مع أبى سفيان، وقد أفلت بها من يد المسلمين

ـ كانت لاتزال وراء الوادى تحمى ظهر العدوّ ، وتشدّ عزمه على الدّفاع عنها ، والموت دونها . .

هكذا كان الموقف يومئذ : المسلمون وظهرهم إلى المدينة ، والمشركون وظهرهم إلى العير التى يقاتلون من أجلها ، وإلى مكة التى تنتظرهم عائدين إليها بالعير وبالنصر معاً ..

* قوله تعالى : « ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولـكن ليقضى الله أمراً كان مفعولا » أى لو كان هذا الموقف عن مواعدة بينكم وبين قريش ، لمّا وقع على تلك الصورة التى جاء عليها كما وقعت ، ولَمّا حدثتكم أنفسكم بالخروج للقاء العدوّ وأنتم فى هذا العدد القليل وتلك العُدة الهزيلة ، ولوقع بينكم الخلاف والتخاذل عن هذا الموقف .. وهكذا دفع الله بكم إلى لقاء العدوّ عن غير اختيار منكم ، وذلك « ليقضى الله أمرًا كان مفعُولاً » أى لينفُذ قضاؤه فيما أراد كما راد ، وتقع هذه المعركة ، ويمدّكم الله فيها بأمداد النصر ، وأنتم أبعد ماتكونون عنه .

* قوله تعالى : « ليهلك من هَلَكَ عن بيّنةٍ ويحيا من حىّ عن بيّنة » أى فى الصدام بين الحق والباطل ، وبين الإيمان والكفر ، تتحدّد مواقف النّاس ، وينزِل كلٌّ منزلته التى يستحقها ، وهو على بيّنةٍ من أمره ، سواء أكان فى موكب الحق ، أو فى مربط الباطل والضلال .. «وإن الله لسميع عليم» يسمع ما تتحرك به الألسنة ، ويعلم ما تنطوى عليه الصدور .

قوله سبحانه : « إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » .

ومن تدبير الله فى إنجاز هذا اللقاء الذى بينكم وبين المشركين أنه سبحانه أرى النبىّ فى منامه جيشَ قريش فى أعداد قليلة ، وبهذه الرؤيا أخبركم النبىُّ ،

وأطمعكم فى العدوّ ، فسرتم إلى لقائه،ولولا هذا لانحلّت عزائمـكم، وفترت هممكم و «لفشلتم »أى خِفتم وجَبُنْـتُم ، « ولتنازعتم فى الأمر » فقال بعضكم بقتالهم ، وقال آخرون بألاّ قِبَل لـكم بقتالهم .. « ولـكن الله سَلّم » إذ أطمعكم فى القوم بعد هذه الرؤيا التى أخبركم النبىّ بها ، فلم يقع منكم ضعف عن لقاء العدوّ ، ولا تنازع فى الالتحام معه فى ميدان القتال . . « إنه عليم بذات الصّدور » أى يعلم ما انطوت عليه الصدور ، وما تلبسّت به المشاعر .

والسؤال هنـا :

هل كانت رؤيا النبى لجيش المشركين فى المنام على هذا الوجه الذى رآه عليها ، من القلّة فى الرجال والعتاد ـ هل كانت هذه الرؤيا تمثل الواقع ؟ وإذا لم تـكن ممثلة له ـ كما هو الواضح ـ فـكيف يرى الرسول الأمر على خلاف الواقع ؟ ثم كيف يكون شأنه مع ذلك الذى رآه على خلاف واقعه إذا هو رآه رأىَ العين على ما هو عليه ؟ ألاَ يُحدِث ذلك انفصالاً عنده بين هذا الذى رآه فى منامه ، وذلك رآه فى يقظته ؟ .

والجواب على هذا : أن الرؤيا التى تُرى فى المنـام ليست هى الواقعَ فى ظاهره ، وإنما هى ـ إذا كانت صادقة ، كما هو الشأن فى رؤياء الأنبياء ـ هى الواقع فى مضمونه ومحتواه . . وإن كان بين الظاهر والمضمون ما بينهما من بُعد بعيد فيما تراه العين منهما . .

فالرؤيا الصادقة تمسك من الواقع بأعماقه وصميمه ، دون أن تمسك بشىء من ظاهر هذا الواقع ! .

فقد رأى إبراهيم عليه السلام فى المنام أنه يذبح ابنه «إسماعيل» ، ومع هذا ، فإنه لم يذبحه ، بل الذى ذبحه فعلاً هو ذِبْح عظيم ، أى كبش ، جعله الله فداء لذَبْح إسماعيل ، ومع هذا ، فقد صدّق إبراهيم الرؤيا وحقق مضمونها . . وذلك

لأنه قدّم ابنه للذبح فعلا ، وأضجعه على وجهه ، كما تُضجع الشاه للذبح افماذا بقى بعد هذا من دواعى الاستجابة لأمر الله ، وإنفاذ ما كلّفه به ؟ إنه لا شىء إلا صورة ظاهرية ، يرى منها إبراهيم دمَ ابنه وقد أُريق ، وروحه وقد أزهق . وإن كان إبراهيم قد رأى ذلك الدم يراق ، وهذا الروح يُزهق ، رأى ذلك بمشاعره وأحاسيسه ، وبما وقع على هذه المشاعر وتلك الأحاسيس من ألم وحزن ، تلقاها إبراهيم بالصبر على المكروه ، والرضا المطمئن بقضاء الله وقدره . .

فهذه الرؤيا كما رآها إبراهيم مناماً ، هى الواقع كما وقع مضموناً ، وإن لم يكن كما وقع ظاهراً وحسًّا .

كذلك رأى النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أكثرَ من رؤيا منامية ، يختلف واقعها الظاهر عن مضمونها الذى تقع عليه ، وإن التقى الظاهر والمضمون آخر الأمر فى الدلالات والآثار . .

فقد رأى النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ رؤيا منامية ليلة غزوة أحد ، رأى ما رُوى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنى قد رأيت والله خيراً . . رأيت بَقَراً لى تُذبح ، ورأيت فى ذُباب[1] سيفى ثَلْما ، ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة . . فأما البقر فهى ناس من أصحابى يُقتلون ، وأما الثلم الذى رأيت فى ذباب سيفى ، فهو رجل من أهل بيتى يُقتل . . وأما الدرع الحصينة فهى المدينة » .

ورأى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ما رواه أبو سعيد الخُدرى ، قال : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب الناس على منبره ، وهو يقول: « أيها الناس قد رأيت ليلةَ القدر ثم أُنسيتُها ، ورأيت فى ذراعى سوارين ،

(١) ذباب السيف : حده الذى يضرب به . والثلم : العطب الذى يلحق حد السيف ، والخلل يحدث لأى شىء .

فكرهتهما ، فنفختهما فطارتا ، فأوّلتهما هذين الكذابين » . . وهما مسيلمة الكذاب ، والأسود العنسى .. اللذان ادعيا النبوّة . .

وهنا . . هذه الرؤيا التى رآها النبىّ ، من قلّة جيش المشركين فى غزوة بدر ، هى فى الواقع صورة صادقة لهذا الجيش ، ودلالة ناطقة تحدث بجميع الدلالات التى يدل عليها . .

فهو جيش كثير كثيف فى ظاهره ، ولكنه قليل ضئيل فى مضمونه وصميمه..

هكذا كان تأويل هذه الرؤيا ، وقد جاء الواقع ناطقاً بأبلغ بيان وأروع وأسلوب بِصِدْق هذا التأويل ! .

فلقد انهزم هذا الجيش الكثير الكثيف بيد تلك القلّة القليلة ، ومُنِيَ منها بالخزى والخسران ــ بما لم يُمْنَ به جيش أقل منه عدداً وعدّة ! فهو جيش كثير كثيف فى كتلته ، ولكنه هزيل ضئيل قليل فى محتواه ومضمونه . .

وهكذا تصدق الرؤيا صِدْقاً مطلقاً ، ويجىء تأويلها صبحاً مشرقاً ، لا خفاء فيه .. وغاية ما فى الأمر أن تأويل الرؤيا يحتاج إلى بصر نافذ ، وبصيرة مضيئة مشرقة بنور الله، حتى ترى ما وراء الرؤيا ، وتكشف عن مضمونها الذى انطوت عليه ، وهذا ما كان عليه النبىّ صلوات الله وسلامه عليه الذى كان يرى واقع رؤياه على الصورة التى سيقع عليها . . وبهذا تكون رؤياه دليلا هادياً له ، لا يقع له منها فى تصوره ، ما يفسد تدبيره ، أو يمزّق وحدة رأيه . .

* قوله تعالى : « وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » .

هذه الرؤية الحسّيّة هى أشبه بالرؤيا المنامية ، إذ كانت بحيث لا يرى

منها الرائى ، الواقعَ كما هو ، بل يراه كدلالة من دلالات الواقع ، أو إشارة من إشاراته .

وانظر كيف كان تدبير الله ، لِما أراد من إنفاذ ما أراده ، وإيقاع ما قضى بوقوعه . .

فلقد أراد — سبحانه — أن يلتحم الفريقان فى القتال ، وأن يُغرَى كلٌّ من الفريقين بصاحبه ، وأن يحمله الطمع فى الظفر به على خوض المعركة معه ، وإبلاء بلائه فيها . .

فالمسلمون يرون عدوّهم فى قلّة ظاهرة . . قلّة فى العدد ، وقلّة فى البلاء والقدرة على احتمال صدمة المسلمين لهم . . وهذا ما يُثبّت أقدامَ المسلمين فى القتال ، ويربط على قلوبهم فى المواجهة ، ويُطمعهم فى عدوّهم ويغريهم به . . ولو أنهم رأوا المشركين على ما هم عليه فى ظاهرهم لزُلزلت أقدامهم ، واضطربت قلوبهم ، ولربّما فرّوا من وجه عدوّهم ، واستسلموا له من غير قتال . . « ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر وَلٰـكِنَّ اللهَ سَلَّم » . .

وأما المشركون فقد أراهم الله المسلمين على ماهم عليه من قلّة ، وربّما رأوهم فى أعينهم أقلّ من هذه القلّة التى كانوا عليها . .

وهذا من شأنه أن يبعث فى نفوس المشركين ، أو فى كثير منهم ، مشاعرَ الاستخفاف بالمسلمين ، وعدم المبالاة بهم ، وأخذ الحذر منهم . . وبهذا يفوتهم كثير من إحكام التدبير ، كما تتخلّى عنهم كثير من مشاعر الخوف التى تحمل الإنسان على استجماع قواه ، واستخراج كلّ رصيدٍ فى كيانه لدفع الخطر الذى يتهدده !

وهكذا يصنع الله لأوليائه ، فيمكّن لهم من أسبابِ النّصر ، ثم يضيف هذا النّصر إليهم ، ويدخله فى حسابهم . . « إن ربّى لطيف لما يشآء إنه هو العليم الحكيم »

فالمسلمون يعلمون عن يقين كثرةَ عدوّهم ، وعن هذا اليقين وطّدوا العزم على لقائه ، وأعطوا المعركة كل ما يملكون من قوة وتدبير . . ثم يدخل عليهم بعد هذا شعور ـ مجرد شعور ـ بأن عدوّهم ليس على ما استقرّ فى يقينهم من أنه بهذه الكثرة التى تؤيسهم من الوقوف له ، والظفر به . . فإذا التقى هذا الشعور بذلك اليقين ، كان منهما كائن جديد من المشاعر التى تجمع بين الخوف والرجاء ، والإشفاق والطمع ، وتلك أحسن حال ، وأحسن موقف يقفه الإنسان فى الحياة ، وفى معالجة ما يلقاه من ميسور أمورها ومعسورها على السواء . . هذا على حين رأى المشركون عدوهم فى قلّة ظاهرة ، كما وقع ذلك فى حسابهم لهم من أول الأمر ، فداخلهم من ذلك شعور بالاستخفاف بهم والتهوين من شأنهم ، والقدرة على تناولهم من قريب . . فكان ذلك أسوأ حال يلقى عليه مقاتل عدوّه !

الآيات : (٤٥ — ٤٨)

« يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ » (٤٨)

التفسير : شهد المسلمون فى موقعة بدر أمداد السّماء تتنزل عليهم ، وتضع بين أيديهم هذا النصر المبين ، الذى كان مفتتح انتصاراتهم التى ستجىء بعد هذا ، فيما يدور بينهم وبين المشركين والكافرين من قتال . .

ولئلا يَغْلِبَ على المسلمين هذا الشعورُ الذى استولى عليهم يومَ بدر ، من عون الله لهم ، وإمدادهم بالملائكة تقاتل معهم ـ لئلا يغلب هذا الشعور عليهم ، ويُسْلمهم إلى التواكل والثقة بضمان النصر من غير إعداد وجهاد وبلاء ، فقد أراهم الله فى قوله تعالى : « يٰأَيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » ـ أراهم الطريق الذى يأخذونه لتحقيق النصر الذى ينشدونه ، ورسم لهم الدستور الذى يستقيمون عليه ليكون لهم الغَلَب الذى يرجونه . .

فالثباتُ للعدوّ ، والتصْميم على لقائه فى عزمٍ وإصرار ، دون أن يقع فى النفس أى هاجسٍ يهجس بها للفرار ، أو التراجع ، أو أخذ الجانب اللّين من مواقف القتال ـ هو السلاح العامل بمالا تعمله كثرة العَدد والعُدد ، لكسب المعركة ، وتحقيق النصر . .

ولن يكون ذلك الموقف مُتاحاً للإنسان وهو يواجه وجوه الموت ، إلا إذا شدّ عزمه بالإيمان بالله ، وملأ قلبه يقينا بالجزاء الذى أعدّه الله له ، ومن هنا كان ذِكر الله ، والإكثارُ من ذِكره فى هذا الموطن، هو الزاد الذى يتزوّد به المجاهد ، للصبر على الشدائد ، والثبات فى وجه الموت الذى يراه رأى العين ، فيما يقع بين يديه من جثث وأشلاء . .

فذِكر الله سبحانه وتعالى ، فى هذا الموطن الذى تصرخ فيه فى كيان الإنسان دواعى الحرص على الحياة ، وطلب السلامة ، وحب البقاء ـ هو الذى يمسك الإنسان على البلاء ، ويسوّغ له طعم الموت ، والاستشهاد فى سبيل الله ، ابتغاء

الفوز برضاه ، ولقائه ـ جلّ شأنه ـ على الوعد الذى وعد به المجاهدين فى سبيله !

ومن أجل هذا كان الفرسان والأبطال ، يصحبون معهم مَن يؤثرون بالحبّ ، من زوجات وخليلات ، ليكون فى صحبتهم لهم تذكير حىّ بالموقف الذى يجب أن يأخذوه فى ميدان القتال، حتى يكونوا موضع إعجاب وتقدير، عند من يحبونهم ويفعلون الشىء الكثير الذى يرضيهم ، وينزلهم من قلوبهم منزل الإعزاز والإكبار .. فإذا لم يكن فى صحبة البطل زوجُه أو خليلته ، استحضر صورتها فى خياله ، وتمثل شخصَها حاضراً معه ، يشهد بلاءه واستبساله .. يقول عنترة لمحبوبته .. عبلة :

ولقد ذكرتك والرِّماح كأنها أشطانُ بئر فى لَبَات الأدهم

مازلت أرميهم بثُغرةِ نحره ولبانهِ حتى تَسَرْبَلَ بالدّمِ

ويقول أيضاً :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منّى، وبيض الهند تقطر من دمِ

فودِدت تقبيلَ السيوف لأنّها لَمعَت كبارق ثغرك المتبسّمِ

ويقول الحارث بن حِلِّزة أحد أصحاب المعلقات :

على آثارنا بيضٌ كرامٌ نحاذر أن تفارق أو تهونا

يَقُتْنَ جيادنا ويَقُلْنَ لستم بعولتَنَا إذا لم تمنعونا

فكيف إذ ذكر المؤمن ربّه ، واستحضر جلاله ، وعظمته ، فى هذا الموقف الذى ينتصر فيه لله ، ويجاهد فى سبيله ، ويعمل على مرضاته ، ويطلب المثوبة من جزيل عطاياه ؟ إن الذى يذكر الله فى هذا الموطن ، ذِكراً ينبعث من قلبه ، ويتحرك من وجدانه ـ يستخفّ بالموت ، ويَلَذّ له طعمه ، ويجد أن حياته التى يقدمها لله ليست شيئاً إلى جانب الحياة الأخرى التى هو صائر إليها ، وواجد

ماقدّم لها .. وهذا هو الذى أمسك بالمجاهدين فى سبيل الله على حياض الموت ، فكتبوا بدمائهم تلك الوثائق الخالدة على الزمن ، فى التضحية والفداء .

هذا عن المجاهد مع خاصة نفسه ..

ولكن المسلم لايقاتل وحده ، وإنما هو واحد فى جماعة المجاهدين الذين يقاتل معهم ، ويستند إليهم ، ويستندون إليه ..

ومن هنا كان من تمام البناء لتلك القوة التى يَلْقَى بها المسلمون عدوّهم أن يكونوا صفًّا واحداً ، تمسك به مشاعر واحدة ، فلا يتوزعهم الخلاف ، ولايمزق وَحدة مشاعرهم النزاع ، فذلك أمر إن وقع فى جماعة أذهبَ ريحها ، وحلّ عزيمتها، وأفسد تدبيرها ، ومكّن للعدو منها ، مهما كانت القوة التى عليها أفرادها ، والبلاء الذى يعطيه كل فرد منها فى ميدان المعركة . .

ولهذا جاء قوله تعالى : « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحكم واصْبِرُوا إن الله مع الصابرين » ـ جاء ليشدّ تلك الجماعة بعضَها إلى بعض ، بعد أن شدّ كلّ فرد فيها إلى موطن العزم والصبر ، من نفسه .

ثم إنه لكى يقوم للمسلمين شاهد حسّىّ ، يشهد لهم بمفعول هذه الوَصاة الكريمة التى وصاهم الله بها ، أفراداً وجماعة ـ فقد أراهم الله ماحلّ بالمشركين من بلاء ، وما أصيبوا به من خذلان ، وأن ذلك كان لِمَا وقع بينهم من تنازع فى الرأى واختلاف فى الحساب والتقدير ..

وقد صحب المشركين هذا التنازعُ وذلك الخلافُ منذ خرجوا من مكةَ إلى أن التقوْا بالمسلمين فى بدر ، فكانوا شيعاً وأحزاباً ، لكل شيعة رأيها فى الموقف ، وتقديرها له ، ولكل حزب حسابه وتقديره . . فكثر فيهم القائلون ، بألاّ حاجةَ لهم فى القتال بعد أن سَلِمَت العير ، ومن قائل : لابد من القتال . . ثأراً لكرامة قريش وهيبتها ، كما يُرْوى عن أبى جهل حين تنادى بعض المشركين

بالرجوع عن الحرب وقد سلمت لهم العير ، فقال : «والله لا نرجع حتى نَرِد بدراً فنقيم ثلاثاً ، فننحر الجُزُر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبداً !! » . .

ومن بين هذين الرأيين طارت شرارات الشقاق والخصام ، وتناثرت كلمات التلاحى والتنابز ، فتحركت فى الصدور عداوات قديمة ، وانبعثت من مرقدها فتن كانت نائمة .. وهكذا دخل القوم المعركة ، وهم على تلك الحال ، من تفرق الكلمة ، وتمزق الوحدة ، فى الرأى والمشاعر ..وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى محذّراً للمسلمين من أن يكون منهم مثل هذا الموقف، فى لقاء يكون بينهم وبين عدوهم . .

يقول الله سبحانه : « ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناسِ ويصدّون عن سبيل الله » .

فما خرج هؤلاء القوم دِفاعاً من حق ، أو انتصاراً لمبدأ ، وإنما الذى أخرجهم هو البطر ، أى الكِبْر ، والكفر بنعمة الله ، ثم ما يحدّث به الناس عنهم من أنهم أولو قوة وأولو بأس شديد ، حين يرى الناس منهم ماجمعوا من مقاتلين ،وما حملوا من سلاح وعتاد ، ثم مايقع لهم من هذا التدبير الذى دبروه ، وهو الوقوف فى وجه تلك الدعوة التى كانت شجًى فى حلوقهم ، وقذًى فى أعينهم !

هذا ما أخرج القومَ للقتال ، وهذا ماخرجوا له .. ومن أجل هذا كان الخلاف بينهم ، والتفرق فى وحدتهم ، والتمزق فى مشاعرهم .. كلٌّ يأخذ الموقف الذى يشبع غروره وكبره ، ويَشْهدُ الناسُ منه منزلته فى قومه ، وكلمته المسموعة فى رهطه .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « بطَراً ورِئاء الناس » فهذا هو الشعور الذى غلب على رؤساء القوم وأصحاب الكلمة فيهم .. أما عامتهم

فكانوا تبعاً لأهواء سادتهم ، لايقوم فى كيان أحدهم شعور بمبدأ يقاتل عليه ، وينتصر له . .

* أما قوله تعالى : « وَيَصُدّون عن سبيل الله » فذلك هو الجرم الذى اشترك فيه القوم جميعاً ، رؤساء ومرءوسين . . فكانوا جميعاً جيشاً مقاتلاً للدعوة الإسلامية ، وحصرها فى أضيق الحدود . . أما البطر ، ومراءاة الناس فكان لونا اصطبغ به بعضهم دون بعض ، وغايةً عمل لها أناس دون آخرين .. ولهذا اختلاف النظم ، لأن البطر والرياء شأنهم دائما فعبّر عنهما القرآن بالمصدر ، الذى يفيد الثبوت والاستمرار ، وأما الصدّ عن سبيل الله ، فهو أمر جدّ عليهم بعد ظهور النبىّ فعبّر عنه بالفعل ، الذى يفيد الحدوث والتجدد : « ويصدّون عن سبيل الله » .

وقوله تعالى : « وإذ زَيّن لهم الشيطان أعمالهم وقال لاغالب لكم الْيَوْمَ من الناسِ وإنى جارٌ لكم » .

الآية معطوفة على قوله تعالى : « ولا تكونوا كالذين خرجوا من دَيارهم بطراً ورئاء الناس » أى لا تكونوا كهؤلاء القوم الذين خرجوا على تلك الصفة ، ولهذا الوجه ، ولا تكونوا كهؤلاء على تلك الحال التى خرجوا فيها وقد زين لهم الشيطان أعمالهم . . فهؤلاء إنما خرجوا متّبعين أهواءهم ، منقادين للشيطان الذى دعاهم ، فاستجابوا له ، وأعطوه زمامهم ، بعد أن ملأ صدورَهم أملاً كاذباً ، بأنهم قوة لاتُغلب ، بما هم عليه من عدد وعدة ! فكيف إذا كان هو جاراً لهم ، وسنداً وظهيراً فى ميدانَ القتال معهم ؟

* « فَلَمَّا تَرَآءَتْ الْفِئَتَانِ » أى التقت الفئتان ، ورأى بعضهم بعضاً ، والفئتان هما : المسلمون ، والمشركون . . « نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ » أى رجع

الشيطان إلى الوراء ، يمشى القهقرى ، وهو ينظر إليهم كما ينظر الغريم إلى غريمه وقد أوقعه فى حفرة ، وتركه لمصيره الذى ينتظره .

* « وَقَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكُمْ إِنِّى أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّى أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ » إنها أحجار يقذف بها الشيطان فى وجه القوم بعد أن ألقى بهم فى هذه الحفرة . .

إنه برىء مما حلّ بهم ، أو سيحلّ من بلاء ، يراه قبل أن يروْه . . فلقد رأى الملائكةَ تأخذ مكانها فى ميدان المعركة مع المسلمين ، وإن ذلك ليَعْنِي عنده أن القوم قد أصبحوا فى الهالكين . . !

وهكذا يتبرأ الشيطان منهم ، كما يتبرأ من فَعْلته التى فعلها بهم . . إنه يخاف الله ، ويخاف ما يحلّ به من عقاب الله ، وإنه لعقاب شديد !

والسؤال هنا :

كيف يُعلن الشيطان أنه يخاف الله ، ويخشى عقابه الشديد ، وهو قائم على عصيان اللهَ ومحادّته ، بفتنة الناس ، وإغوائهم بالضّلال ، وصدهم عن سبيل الله ؟ أهذا يكون ممن يعترف بالله ، ويخشى عقابه ؟

والجواب : أن الشيطان معترف بوجود الله ، مؤمن بسلطانه وسطوته ، ولكنه مبتلًى بعصيان الله فى بنى آدم وإغوائهم ، وإفساد ما بينهم وبين الله . . هكذا كان قضاء الله ، فيما بينه وبين آدم ، وذرية آدم . .

لقد عَصى اللهَ إذ أمره بالسجود لآدم . .

فكان أن لعنه الله ، وطرده من مواقع رحمته ، ومواطن رضوانه . .

ومن هنا بدأ إبليس ينتقم لنفسه من آدم وذريته ، إذ كان بسببه ، هذا الذى أنزله الله به من عقاب .

وقد طلب إبليس من الله أن يُنظره إلى يوم يُبعثون ، ليُفسد هذا الإنسان الذى فضّله الله عليه ، وطرد إبليس من رحمته بسببه . .

وكان هذا من إبليس تحدِّيا لله ، وإمعانا فى الضلال : « ومن يُرِدِ الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً » .

وتزْيين الشيطانَ للمشركين ، وقوله لهم : « لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جارٌ لكم » هو مما وسوس لهم به فى صدورهم من ضلال ، وما ألقى إلى سفهائهم من غرور ، حتى لقد تمثلت تلك الوسوسة خواطرَ تتحركُ فى مشاعر القوم ، وحتى لقد تخلّقت هذه الخواطر فكانت قولاً، يجرى على ألسنة القوم ، ويتنادَون به . . وأنهم لن يغلبوا . .

فموقف الشيطان وأعوانهِ فى صفوف المشركين ، هو مقابل لموقف الملائكة فى صفوف المؤمنين . . ولكن شتان بين موقف وموقف . . فالشيطان يُغرِى بالباطل ، ويُمدّ بالضلال ، ويُعِين بالأكاذيب . . أما الملائكة ، فقد طلعت على المسلمين بريح القوة ، وهبّت بأنسام النصر ، فملأت قلوب المسلمين أمْنا وطمأنينة ، فثبتت من أقدامهم ، وقوت من عزائمهم ، وأطمعتهم فى عدوّهم . . فكان لهم الظفر بعدوّهم .

وفى هذا يقول الله تعالى : « قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ * » (٧٧ : ٨٥ ص)

وهكذا يقضى الله سبحانه وتعالى بين إبليس وبين أبناء آدم . يغريه بهم، ويسلطه عليهم ، ليُخزيَه آخر الأمر ، وليريَه من أبناء آدم مايزيده حسرةً وحزناً ، فيما يرى مما لِله فى أبناء آدم من أصفياء وأولياء ، أنزلهم منازل رضوانه ، وفتح لهم أبواب جنّاته ، يَلْقون فيها ما أعدّ لهم من نعيم مقيم . . وفى هذا يقول الله تعالى : « إن عبادِى ليس لك عليهم سلطان إلاّ مَن اتبعك من الغاوين (٤٢ : الحجر) . .

فإذا كان لإبليس أولياء من بنى آدم ، يؤدّى فيهم رسالته الضالّة المفسدة، فإن فى أبناء آدم من يقف له بالمرصاد ، ويُلبسه لباس الذلة والخزى !

وعلى هذا ، فإن الشيطان إذ يُغوى الغاوين من أبناء آدم ، وإذ يدفع بهم إلى مواطن الضلال ـ إنما يؤدى رسالته التى تخيّرها لنفسه فيهم ، وهو يعلم أنه على عصيانٍ لله ، فيما يأتيه مع أبناء آدم من إغواء وإضلال .. ولـكنه ـ مع هذا ـ لا يملك من نفسه أن يردّها عن هذا الاتجاه الذى اتخذته ، بحكم سابق ، وقضاء نافذ . . فهو ـ والحال كذلك ـ يؤدّى رسالة الشرّ فى أبناء آدم ، كما يؤدّى الأنبياء رسالةَ الخير فيهم ، وللشيطان أولياؤه وأتباعه ، كما للأنبياء أولياؤهم وأتباعهم . .

ومن جهة أخرى ، فإن الشيطان ـ لحـكمة أرادها الله ـ مُغَطًّى على بصره، لايرى الشرّ الذى يزرعه فى أبناء آدم ، حتى ينبت ، ويُزهر ، ويُثمر . . وهنا يدرك أنه اقترف الإثم ، ووقع فى المعصية . . وهنا أيضاً يرى عقابَ الله الراصدَ له ، جزاء ما اقترف من آثام . . وفى هذا بلاء عظيمٌ، وعذابٌ أليم ، وتلك هى لعنة الله التى حلّت بإبليس . . يَعمى عن الشرّ فيقع فيه ، حتى إذا وقع فيه أبصره وتحقق منه ، وجَنَى الحسرة والندامة مما غرس بيديه !

الآيات : (٤٩ — ٥٤)

« إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٥٠) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٥٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ » (٥٤)

التفسير : الظرف « إذ » متعلق بالفعل « خرجوا » فى قوله تعالى : « ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس » .

فالظرف هنا حال من تلك الأحوال التى تلبّس بها خروجُ المشركين لقتال المسلمين فى بدر . .

ففى الحال التى خرج فيها المشركون بطراً ورئاء الناس . . كان هناك المنافقون والذين فى قلوبهم مرض يستصغرون شأن المسلمين ، ويَسْلقونهم بألسنةٍ حدادٍ ، ويرمونهم بالغرور . . إذ كيف ـ وهم فى هذا العدد القليل ـ

يتصدّون لقريش ، ويتعرضون لِعيرها ، ثم لايقفون عند هذا ، بل يَخِفّون للقائها في ميدان القتال !

وقد ردّ الله سبحانه وتعالى على هؤلاء المنافقين والذين في قلوبهم مرض ، بما يُسكبتهم ويُخرس ألسنتهم ، ويملأ قلوبهم حسرة وكمداً . . فقال تعالى : « ومن يتوكَّلْ على الله فإن الله عزيز حكيم » فهؤلاء المسلمون ــ وإن كانوا قلة ــ قد كان لهم من التوكل على الله ، والثقة فيه ، مايجعل من قلتهم كثرة ، ومن ضعفهم قوة . فهم أعزّاء أقوياء ، بعزّة العزيز الحكيم ، وقوته . .

والمنافقون والذين في قلوبهم مرض : هم من كان في المدينة من منافقي اليهود ، وغيرهم .

* وقوله تعالى : « وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمَلَآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ » .

إشارة إلى ما حلّ بالمشركين الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ، من بلاء ونكالٍ في يوم بدر الذي خرجوا له ، وهم على تلك الحال التي كانت تستولى عليهم من الزّهو والخيلاء . . فهاهم أولاء يتلقّوْن الصفعات على وجوههم ، والضربات على أدبارهم ، كما يُفْعَلُ بعبيدهم وإمائهم . . !

فأين العزّة والمَنَعة ؟ وأين السطوة والجاه ؟ لقد تعرّوْا من هذا كلّه ، ولبسوا ثوب الخزى والمهانة ، ونزلوا إلى أسوأ مما كان عليه الأرقاء . . من عبيد وإماء !

وإذا كانت تلك الأيدى التي تناولتهم بالصفع على وجوههم ، وتلك الأرجل التي أخذتهم بالرّكل على أدبارهم ، أيدياً خفيّةً لاتُرى ، لأنها يد القُوَى السماوية التي سلطها الله عليهم يومئذ ــ فإنّ هناك أيدياً شوّهت هذه الوجوه

بضربات السيوف ، وركَلَت هذه الأدبار بأزجّة الرِّماح ، وهى أيدٍ رآها الناس رأى العين ، وشهدوا آثارها وأفعالها فى هؤلاء السادة المتكبرين .. إنها أيدى أولئك المسلمين الذين استرهبهم المشركون بزهوم وخيلائهم ، وغمزهم المنافقون والذين فى قلوبهم مرض بقوارص الكَلِم ، وسيىء القول .

وقوله تعالى : « وذوقوا عذاب الحريق » هو بيان للمصير الذى صار إليه أولئك المشركون الذين أذَلّ الله كبرياءهم فى هذا اليوم ، يوم بدر ، وهو مصير مشئوم ، يُلقى بهم فى سواء الجحيم ، حطباً لجهنم ، ووقوداً لسعيرها ..

وذلك الذى حلّ بالمشركين من هوانٍ فى الدنيا ، وعذابٍ فى الآخرة ، هو جزاء لما كان منهم ، وما قدّمت أيديهم من سوء .. « ذلك بما قدّمت أيديكم وأن الله ليس بظلاَّم للعبيد » !

وقد اختُلف فى المراد بالخطاب فى قوله تعالى : « ولو ترَى » أهو خطاب خاص للنبى ؟ أم هو لكل من شهد المعركة ؟ أم هو خطاب عام غير مقيد بشخص أو بوقت ، بل هو لكل من يستمع إلى هذا الخطاب ؟

والرأى ، أنه خطاب عام لكل من استمع أو يستمع إليه .

وفى قوله تعالى : « وأن الله ليس بظلاَّم للعبيد » ـ مايسأل عنه ؟

لماذا جاء التعبير بنفى الظلم عن الله بصيغة المبالغة « ظلاَّم » ؟ وهل إذا انتفت المبالغة فى الظلم أينتفى معها الظلم نفسه ؟

والجواب ـ والله أعلم ـ أن صيغة المبالغة هنا إنما تكشف عن وجه البلاء الذى وقع بالمشركين ، وأنه بلاء عظيم ، وعذابٌ أعظم ، وأن الذى ينظر إليه يجد ألا جريمة توازى هذا العقاب وتتوازن معه ، فى شدّته ، وشناعته ، حتى ليخيّل للناظر أن القوم قد ظُلموا ، وأنه قد بولغ فى ظلمهم إلى أبعد حد ، فجاء قوله تعالى : « وأن الله ليس بظلاَّم للعبيد » ليدفع هذا الوهم الذى يقع فى نفس

من يرى هذا البلاء الذى حلّ بهؤلاء القوم الضّالين ، وهو بلاء فوق بلاء ، فوق بلاء !!

* قوله تعالى : « كَدَأْبِ آلِ فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوىّ شديد العقاب » .

الدّأب : الحال والشأن ..

أى أن مافعله الله بهؤلاء المشركين ، الذين عَلَوْا فى الأرض ، وبَغَوْا ، قد فَعَله ـ سبحانه ـ بأمثالهم ممن عَلَوْا وبَغَوا .. ومن هؤلاء آلُ فِرعون ، ومن كان قبلهم من الطّغاة والظالمين ـ قد أخذهم الله بذنوبهم ، ولم يعصمهم من عقاب الله، ما كانوا عليه من جبروت وقوة ، فإن قوة الله لاتدفعها قوة ، وبأسه لايردّه بأس : « إن الله قوىّ شديد العقاب » .

هذا ، ويرى بعض المفسرين أن قوله تعالى : « كفروا بآيات الله » هو عائد إلى المشركين ، لاإلى آل فرعون .. أى أن شأن المشركين كشأن آل فرعون .. قد كفروا مثل كفرهم .. والرأى عندنا أن هذا الوصف عائد على آل فرعون ، حيث يبرز من هذا الوصف حال المشبَّه به ـ وهم آل فرعون ـ على صورة كاملة ، يُستغنى بها عن وصف المشركين بأية صفة بعد أن ألحقوا بآل فرعون فى كل مالهم من صفات ، كَانَ الكفرُ أظهرَ ألوانها ..

والسؤال هنا : لم كان حكم الله هذا واقعاً على آل فرعون ومن كان قبلهم ، مع أنه حكم واقع على كل جبارٍ مفسدٍ متكبر ، سواء أكان قبل آل فرعون أو بعدهم ؟

والجواب ـ والله أعلم ـ أنّ مَن كان قبل آل فرعون ، قد وقعوا تحت هذا الحكم فعلا .. أما مَن بعدهم ، فمنهم من أخذه الله بهذا العقاب ، ومنهم من ينتظر دوره مع حركة الحياة ، وسير الزّمن ..

وهذا يعنى أن مَن بَعدَ آل فرعون من الظَّلَمَة والآثمين ، وإن أُخذ بعضهم بهذا العقاب ، فإن آخرين ـ ومنهم المشركون والمنافقون الذين عاصروا النبوة ـ ينتظرون وقوعَ هذا الحكم بهم ، وأن الباب قد فُتح لهم ليدخلوا فيما دخل فيه الظالمون قبلهم .. وفى هذا تهديد ، ووعيد لمن كان على هذا الطريق ، أو سيكون عليه ، لينجو بنفسه ، ويأخذ سبيلا غير هذه السبيل التى هو عليها .

* وقوله سبحانه : « ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

ــ هو دعوةٌ عامة للناس جميعاً ، مؤمنهم وكافرهم ، طائعهم وعاصيهم ؛ أن يوجهوا وجوههم إلى الله ، وأن يستقيموا على طريق الحقّ والخير ، فإنهم إن فعلوا هذا أُمِنُوا تلك النوازل التى تنزل بأعداء الله ، وتدمّر مابنوْا ، وتخرّب ماعمروا .. فالله سبحانه لايَسلُب عباده نعمةً من نعمه التى فَضَل بها عليهم ، إلا إذا أحدثوا من الأمور مايعرضهم لانتقام الله منهم ، بسلب مامنحهم من فضله: « ذلك بأن الله لم يك مُغيراً نعمةً أنعمها على قومٍ حتى يغيروا مابأنفسهم » وتغيير مابأنفسهم ، هو تحولهم من حالٍ سيئةٍ إلى حال أكثرَ سوءا .. « وأن اللهَ سميع عليم » يسمع ماتنطق به الألسنة ، من خير أو شر ، ويعلم ماتنطوى عليه القلوب ، من إيمان أو كفر ..

وهذه الآية إنما تعنى أولاً وبالذات أهلَ الزيغ والضلال ، وتحذّرهم من أن يقيموا على ماهم عليه من زيغ وضلال ، فإن ذلك مؤذِنٌ بأن يبدِّل الله نعمهم نقماً ، وأن يغير حالهم من سوء إلى أسوأ ..

والسؤال هنا هو :

كيف تقع غِيَرُ الله بالظالمين والطغاة ، وهم على ماعهدتْهم الحياة من ظلم وطغيان .. لم يغيروا مابأنفسهم من بغى ، وظلم وعدوان ؟ إن ماينزل بهم من نِقم

الله ، هو فيما يبدو لم يكن عن تغيير لما فى أنفسهم من خيرٍ إلى شرٍ ، ومن إيمان إلى كفر .. فهم أبداً على الشر ، وهم أبداً مع الكفر ؟ فكيف هذا ؟

والجواب : أن الظالمين ، والطغاة ، والمنحرفين عن طريق الحق ، والخير ، لايظلّون على حالٍ واحدةٍ مماهم فيه ، بل إنهم مع الشرّ الذى صحبوه ، لايزدادون به مع الأيام إلا شرًّا . . ذلك أن الشرّ ينمو فى كيان صاحبه ، كما تنمو الحبّة فى الطين . . إلا أن يقتلع نبتة الشر من جذورها ، ويغرس فى نفسه نبتة الخير والإحسان ..

وعلى هذا ، فإن أهل السوء والضلال ، إذا أمسكوا بماهم عليه من سوء وضلال ازدادوا مع الأيام سوءا وضلالاً ، وكانوا فى يومهم شراً من أمسهم ، وهم فى غدهم أكثر شرًّا من يومهم .. !

وإذن ، فالمُتوقّع ــ غالباً ــ من أهل البغى والضلال أن يقع منهم تغيير لما فى نفوسهم ، وهو تغيير إلى أسوأ ، إذا هم لم يراجعوا أنفسهم ، ويرجعوا عما هم فيه ، من بغى وضلال .

هذا ، وليس تغيير مافى النفوس يكون دائمًا من خير إلى شر ، أو من شر إلى ماهو شرٌ منه . . بل ما أكثر ما يكون التغيير على عكس هذا ، وهو التغيير من شر إلى خير ، ومن سيىء إلى حسن .. فكلا هذين التغييرين واقع فى الحياة ، حيث يَصْلح الفاسد ، وَيفسد الصالح .. وهكذا تتغير مواقف الناس وتتبدل أحوالهم ..

والمطلوب من الإنسان أن ينشد التغيير الذى يُبعده من الظلام ويُدْنيه من النور .. ففى ذلك رُشده وصلاحه ، وسعادته .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» (١١ : الرعد) فهذا قضاء الله فى عباده .. لايغير مابهم ، ولايخرجهم عماهم فيه من نعمة وعافية ،

أو من شدة وبلاء ، حتى يُحدثوا هم تغييراً فى أنفسهم ، وتحوّلاً فى منازعهم وسلوكهم ، وهنا يغير الله أحوالهم حسْبَ ما كان منهم من تغيير .. من اتجاه إلى الحق والخير ، أو انحدار إلى الشر والضلال ..

* قوله تعالى : « كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ » .

الجار والمجرور « كدأب آل فرعون » متعلق بقوله تعالى : « حتّى يغيّروا مابأنفسهم » أى أن الله سبحانه وتعالى لايغيرّ مابقوم ، ولا يحوّلهم عماهم فيه من عافية ونعمة ، حتى يُحدثوا هم تغييراً فى أنفسهم ، من سيء إلى أسوأ ، ومن شر إلى ماهو أكثر شراً منه ، كما فعل آل فرعون ، الذين زادهم الهدى الذى جاءهم به موسى ، ضلالا وكفراً وعتوًّا ، فكان هذا التغييرّ الذى حدث فى أنفسهم مؤذناً بما سيحلّ بهم من سوء وبلاء ، إذ غيرّوا مابأنفسهم ، حين ازدادوا ضلالاً إلى ضلال فغير الله ماهم فيه من نعمة وعافية ..

وفى قوله تعالى : « كذبوا بآيات ربّهم » المعدول به عن القول الذى يقتضيه النظم : « كذبوا بآياتنا » فى هذا إشارة إلى مدى ما كان عليه القوم من عتو وعناد ، مع ماالله عليهم من ألطاف ونعم ، إذ ساق إليهم آياته ، تحمل الهدى والخير ، وقد أضافهم سبحانه وتعالى إليه هكذا : « ربّهم » ليذكروا ربوبية الخالق لهم ، الذى أخرجهم من عالم العدم إلى عالم الحياة ، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ، وأخرج لهم من الأرض أقواتهم ، وجعل لهم فيها فجاجاً سبلا ، وأنهاراً جارية ، وعيوناً سائلة .. ومع هذا وكثيرغيره ، فإن القوم لم تنفعهم هذه الذكرى ، بل ازدادوا بها عتواً وضلالاً .

وفى قوله تعالى : « فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكلٌّ كانوا

ظالمين » ـ إشارة إلى ماحلّ بهؤلاء الظالمين من آل فرعون ، ومَن كان على شاكلتهم فى البغى والعدوان .. لقد أهلكهم الله جميعاً بذنوبهم ، وجعل لكلّ جماعة من هؤلاء الظالمين مَهلِكهم الذى يهلكون به ، كما يقول سبحانه : « فَكُلًّا أَخَذْنَا بذنبه فمنهم أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفْنا به الأرضَ ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٤٠ : العنكبوت) .

وقد كان مما أخذ الله به فرعونَ وآلَه ، هو الغرق ، وكان ذلك جزاء وفاقاً لكفرهم وعنادهم ، وتغيير مابأنفسهم ..

وانظر .. لقد كان الذى فيه فرعونُ وقومُه من نعمة وقوة وسلطان ، هو من فيض النيل ونفحاته ، إذ كان « النيل » هو مصدر الحياة لهذا الوادى ومَن فيه ، وفى هذا يقول فرعون معتزاً بما بين يديه من قُوّة : « أليس لى مُلْكُ مِصْرَ وهذه الأنهارُ تجرى من تحتى ؟ أفلا تُبصِرون ؟ » .

وقد كفر فرعون بهذه النعم ، وجعل منها سياطَ عذابٍ يأخذ بها الناس ، ويُوردهم موارد الذلة والهوان ، فكان أن قتله الله وآلَه ، بتلك النعمة ، وجعلها تجرى فى حَلْقه مِلحاً أُجاجاً ، بعد أن كان يجرى ماء النيل فى هذا الحلق عذباً زلالا . . وهكذا يهلك بالماء ، وقد كان يحيا على الماء وبالماء !

وفى هذا الذى كان من فرعون وملائه نذير لهؤلاء المشركين ، الذين كفروا بآيات ربهم ، وكذبوا رسوله الذى حمل إليهم الهدى والنور . . وكما أُخذ آل فرعون بعذاب الله ، فإن هؤلاء المشركين ، هم فى مواجهة عذاب الله ، وفى معرِض النقمة والبلاء ..

غير أن آل فرعون قد فوّتوا على أنفسهم فرصةَ النجاة ، فلم يرجعوا إلى

الله ، ولم ينتهوا عن غيِّهم .. أما هؤلاء المشركون ، فما زالت الفرصة سانحة لهم ، وما زال طريق النجاة مفتوحاً بين أيديهم .. فماذا هم فاعلون ؟

الآيات : (٥٥ — ٦٠)

« إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) ٱلَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ » (٦٠)

التفسير : قوله تعالى « إن شر الدّوابّ عند الله الذين كفروا فهم لايؤمنون » .. هو التعقيب المناسب لما أُخذ به الظالمون من بلاء ونكال .. إنّ هذا الحكم هو الذى تشيّعهم به الحياة ، وهم يعالجون سكرات الموت ، إذ كانوا فى حرب مع الله ، ومع أولياء الله .. فكيف يرحمهم قلب ، أو تدمع عليهم عين ؟

وفى قوله تعالى : « فهم لايؤمنون » بعد قوله سبحانه : « الذين كفروا » ـ فى هذا ما يسأل عنه : إذ كيف يكون نفى الإيمان عنهم مُسبّباً لكفرهم ،

مع أن عدم الإيمان هو عين الكفر .. والسبب لا يكون عَيْنَ المسبَّب ، وإن كان نتيجة لازمة من لوازمه ؟ . .

والجواب ـ والله أعلم ـ : أن كفر هؤلاء الكافرين الذين وُصفوا بأنّهم شرُّ الدّوابِّ عند الله.. إنما يتلبس بنفوس خاصّةٍ ، من جماعة من الكافرين ، لا بكلّ الكافرين . . وتلك الجماعة هى التى من شأنها ألا تخلع هذا الكفر أبداً ، بل تشدّ قلوبها عليه ، حتى تموت به ! ومن هذا استحقت تلك الجماعة هذا الوصفَ الذى وصفها الله سبحانه وتعالى به ، وهى أنها شرُّ مادبَّ على الأرض من كائنات ، وذلك لأنها لاتعقل كما يعقل الناس ، ولاتسمع كما يسمع الناس ، ولا تبصر كما يبصر الناس . . ثم هى ليست من دوابّ الحيوانات ، تعيش ، فى حدود الطبيعة المتاحة لتلك الدواب ، وإنما هى خَلْقٌ آخر . . مزيج من الإنسان والحيوان . . وذلك مسخ للإنسان ، وللحيوان معاً ، وبهذا المسخ يكون هؤلاء الآدميّون الحيوانيّون شرّ الدواب، طبيعة وخلقاً .

فقوله تعالى : « فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ » حكم قاطع ، قاض على هذا الصنف من الكافرين بأنه لن يدخل الإيمانُ قلبه أبداً . . وهذا الصنف هو الذى ذكره الله سبحانه وتعالى فى قوله : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ . وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » (٦ ـ ٧ : البقرة) .

* وقوله تعالى : « الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ » .

هو بدل من الذين كفروا ، وهذا البدل يكشف عن صفة من صفات هؤلاء

الـكافرين . وهى أنهم لايحفظون عهداً ، ولا يَرْعونْ ذِمة ، إذ لا وازع عندهم ، من دين أو خُلق . .

وفى قوله تعالى : « عاهدت منهم » إشارة إلى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يَدْعهم إلى أن يعاهدهم بما عاهدوه عليه ، بل إنهم هم الذين جاءوا إلى النبى يعرضون عليه عهدهم بالأمان والموادعة بينهم وبينه ، وأن النبىّ صلوات الله وسلامه عليه أجابهم إلى ذلك ، وقَبِل منهم العهد الذى أعطوْه . .

وفى نقضهم لهذا العهد الذى جاءوا هم به من تلقاء أنفسهم ، وأعطوْه عن رِضًى واختيار ـ فى نقضهم لهذا العهد ، الذى هو فى الواقع عهدهم ، خيانة لأنفسهم ، فوق أنه خيانة للعهد من حيث هو عهد ، يجب الوفاء به على أى حال .

وفى قوله تعالى : « وهم لايتّقون » بعد وصفهم بقوله سبحانه : « ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة » فى هذا إشارة إلى أنّهم متحللون من كل قيد يمسك بهم على خلق فاضل ، ويقيمهم على مبدأ كريم . . إنهم لايتقون أى محظور تحظره الشرائع السماوية ، أو تجرّمه القوانين الوضيعة والمواضعات الخلقية .

والمراد بهؤلاء الذين ينقضون العهد الذى عاهدوا عليه الرسول ، هم جماعات اليهود الذين كانوا بالمدينة ، يُثيرون الفتن ، ويذيعون المنكر ، ويُحيكون الدسائس ، وينتهزون الفرصة المواتية لينالوا من النبى والمؤمنين ما يريدون من شر .

ثم إن هذا الحـكم هو حكم عام ، يقيمه المسلمون دائماً فيما بينهم وبين الـكافرين . .

* وقوله تعالى: « فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ».

هو الجزاء الذى أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه الكريم أن يلقى به هؤلاء الكافرين، الذين لايؤمنون بالله أبداً، والذين ينقضون عهدهم مع النبىّ، ويلقَونه فى الجبهة المحاربة له كلما سنحت الفرصة لهم، سواء أكان ذلك بأشخاصهم، أم بأموالهم وأسلحتهم، يُمدّون بها أعداء المسلمين . .

فهؤلاء الذين يقفون من النبىّ ودعوتهِ، هذا الموقفَ اللئيم المخادع، لاعهد لهم، ولا ذمة لهم عند النبىّ والمسلمين، ماداموا قد غدروا ونكثوا .. فليس لهم عند النبىّ والمسلمين إذا ظفروا بهم فى حرب، أو أمكنتهم أيديهم منهم فى أى موقفٍ ـ ليس لهم إلا الضربة القاصمة القاضية، وإلا البلاء ينصب عليهم انصباباً، ينالهم فى أنفسهم، وأموالهم وأهليهم، وذلك ليكونوا عبرةً لغيرهم، ومثلا سائراً فى الناس، لكل من ينقض العهد مع النبىّ والمسلمين . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: « فإمّا تثقفنهم فى الحربِ فشرِّدْ بهم مَن خَلفهم لعلّهم يذّكرون ».

والتعبير بالظفر بهم، ووقوعهم ليد النبى بقوله تعالى « تثقفَنّهم » إشارة إلى أن الحرب ليست كلّها انتقاماً، واستئصالا للمغلوب، وإنما هى ـ فى صميمها ـ إصلاح له، وحَيْدة به عن طريق الضلال والغَواية الذى يركبه، إلى طريق الحق والهدى، المدعوّ إليه . . إذ كثيراً ما تنتهى الحرب بين المسلمين وأعدائهم، وإذا أعداد وفيرة من هؤلاء الأعداء، قد تحوّلوا إلى أولياء، ودخلوا فى دين الله، وكانوا من عباده المؤمنين .

وهذا هو السرّ فى التعبير بكلمة « تثقفنّهم » بدلا من كلة تظفر بهم . .

إذ الثِّقاف هو من يتولّي إصلاح الرماح ، وتقويمها ، بما يقتطع من أجزائها ، وأطرافها ، وبما يسوّى من نتوئها . .

فالحرب فى الإسلام أشبه بالثِّقاف للرماح ، غايتُها الإصلاح ، والتقويم ، ولكن الحرب هنا مع هذا الصنف من الناس ، الذين يغدِرون بالنبىّ ، وينصبون المكايد له بالخديعة والختل ، إذ يجيئون إليه موادعين مسالمين ، ثم ينقلبون ذئاباً محاربين ـ هؤلاء ، لا يُرْجَى لهم إصلاح ، ولا يتوقع منهم خير « فهم لا يؤمنون » أبداً . . وإذن فليس لهم إلا الضربة القاضية ، التى لا تبقى منهم على دار ولا ديّار ، حتى يكونوا فى ذلك عبرة لغيرهم . . « فشرِّدْ بهم من خَلْفَهم » أى فرِّق بهذا الذى تأخذهم به من بلاء ونكال ، كلّ مجتمع للضلال وتبييت السوء للمسلمين ، ممن ينتظرون ماوراء كيد هؤلاء الكافرين بالمؤمنين .

فكلّ من تحدثه نفسه بخيانة عهد المسلمين من بعد تلك الضربة التى نزلت بهؤلاء الخائنين ـ سيجد أمام ناظريْه مثلاً حيًّا لما ينتظره من بلاء ونكال فى هذا الذى أُخذ به هؤلاء القوم ، وبهذا تنحلّ عزائم الذين يدبرون الشرّ للمسلمين ، ويتشتت جمعهم . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « لعلّهم يذكّرون » . . إذ الضمير فى كلّ من « لعلهم » و « يذكرون » راجع إلى هؤلاء الذين يأتون بعد هؤلاء الذى نكّل بهم النبىُّ وضربهم الضربة القاضية . . ففى الضربة التى حلت بهؤلاء موعظة وذكرى لهؤلاء الذين لم يظهروا بعد على طريق الغدر والخيانة !

* قوله تعالى : « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ » هذه الآية تكشف عن وجه مشرق وضىء من وجوه الإسلام ـ ووجوه الإسلام كلها مشرقة مضيئة ـ فى رعاية العهد وحفظه والوفاء به.

لقد أشارت الآية السابقة إلى مايدبر أعداء الإسلام للمسلمين من كيد ،

ومكر ، ونكث بالعهد ، ونفاق فيما عاهدوهم عليه . . وأنهم ينقضون العهد الذى أعطوه من أنفسهم للنبىّ . . فى كل مرة يجيئون إليه فيها معاهدين . .

وحتى لا يعامِل المسلمون أعداءهم بمثل عملهم هذا ، وحتى لا يدخل على نفوسهم شىء من هذا الداء الخبيث الذى استولى على نفوس أعدائهم ، من نقض العهد ، وخيانة الكلمة — حتى لا يكون شىء من هذا فى مجتمع المسلمين ، جاءهم أمرُ الله ، فيما أمر به نبيه ، ورسم له فيه أسلوب العمل ، الذى يعامل به هؤلاء الناكثين للعهد . . فقال سبحانه : « وإما تخافَنَّ من قومٍ خيانةً فانبذْ إليهم على سواء » .. أى إن استشعرت خيانةً من قومٍ بينك وبينهم عهدٌ ، وتوقعت أن ينكثوا هذا العهد على غِرَّةٍ ، دون أن يُؤذنوك بنكثه ، والتحلل منه ، فلا تفعل فِعلَهم ، ولا تنقض العهد منهم فى خفاء بينك وبين نفسك ، كما يفعلون ، بل أنذرهم بذلك ، وأعلمهم إياه ، « على سواء » أى على وضوح كاملٍ ، بصريح اللفظ ، دون التلويح به . . وذلك ليكونوا على بيِّنة من أمرهم ، فلا يدخل فى حسابهم بعد هذا ، العهدُ الذى بينك وبينهم ، وبهذا يسقط العهد من هذا الحساب ، ويُعِدّون أنفسهم للحرب ، كما أعدَّ النبى والمسلمون أنفسهم لها .

* قوله تعالى . « ولا يَحْسَبَنَّ الذين كفروا سبقوا . . إنهم لا يعجزون » هو تطمين لقلوب المسلمين ، ودفع لوساوس الخوف ، التى تطرقهم وهم يعطون من أنفسهم الوفاء لعدوهم بالعهد الذى بينهم وبينه ، على حين أنه يغدر بهم ، ويباغتهم بهذا الغدر ، فكيف يحاربهم العدو بسلاح ثم يُحَرِّم عليهم محاربته بهذا السلاح ؟ فليطمئن المسلمون ، وليعلموا أن هؤلاء الذين خانوا العهدَ ، لم يسبقوا بتلك الخيانة إلى أخذ فرصة فى المسلمين ، لأنهم ـ وقد فعلوا ما فعلوا من خيانة ـ قد تعرضوا لبغض الله وغضبه . « والله لا يحب الخائنين » وحسبهم هذا خُسرانًا وبلاء !

* قوله تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ » .

لقد سلط الله النبيّ والمسلمين على هذا العدوّ المتربّص بهم ، الكائد لهم ، وأمرهم بأن يضربوهم الضربة القاضية التى تأتى عليهم ، وتكون مثلاً وعبرة لغيرهم .

ولكن . . ما الذى يمكّن للنبى والمسلمين من أن يبسطوا يدهم على عدوّهم وينزلوه على حكمهم فيه ؟ إنه لاشىء إلا القوة التى يكون عليها المسلمون فى الرجال والعتاد . .

ومن هنا أتبعَ القرآنُ الكريم الأمرَ بتأديب العدوّ وبسط اليد عليه ـ أتبع ذلك بالأمر باتخاذ الوسائل المحققة لهذا الأمر ، وذلك بالأخذ بكل أسباب القوة ، التى ترجُح بها كِفة المسلمين فى ميادين القتال ، ومصادمة العدوّ .

وفى قوله تعالى : « وَأَعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوّةٍ ومن رباط الخيل تُرْهبون به عدوّ الله وعدوّكم » ، أمرٌ باتخاذ القوة ، والعمل على بنائها ، والتوسل إليها بوسائلها ، ومن أهم تلك الوسائل « الخيلُ » .. إذ كانت فى هذا الوقت أقوى مظهر من مظاهر القوة والفروسية . . فحيث كانت الخيل ، وكان فرسانها ، كانت القوة والمنعَة . .

وفى التعبير عن « الخيل » بقوله تعالى : « ومن رباط الخيل » إشارة إلى الإكثار من الخيل ، وإعدادها للحرب ، وتدريبها على القتال ، وحبسها على هذا المجال ، فلا تُتخذ لغرض آخر ، بل تكون دائماً مرصودة للقاء العدوّ ، مهيأة للاشتباك معه فى أية لحظة .. إنها مرابطة كما يرابط المجاهدون على الثغور لحماية المسلمين ، وسد الثغور التى ينفذ منها العدو إليهم .!

وفى قوله تعالى : « تُرهبون به عدوّ الله وعدوكم » الضمير فى « به » يعود إلى رباط الخيل، وأنه مصدر رهبة للعدوّ . إذا كان هـذا الرباط من الكثرة والإعداد على صورة يهابها العدوّ ويعمل حسابها .. وهذا يعنى استعراضَ تلك القوة المعدّة من الخيل وفرسان الخيل ، وإظهارها بحيث يراها العدوّ ، ويرى فيها ما يُرهبه ، ويقتل فى نفسه كل داعية من دواعى الطمع فى المسلمين ، وفى لقائهم على ميدان القتال . . وهذا يعنى أيضاً أن يكون هذا الرباط على صورة محقّقة لإلقاء الرعب والفزع فى نفس العدوّ، وإلا كان ستر هذا الرباط وإخفائه أولى وأحكم من إظهاره .

وهذا يعنى كذلك أن الإعداد للحرب ليس لإشباع شهوة الحرب ، وإنما هو لإرهاب العدوّ أولاً ، حتى ينزجر ، ولا تحدّثه نفسه بالحرب حين يرى القوّة الراصدة له . ومن هنا يُرى أن الإسلام دينُ سلام ، يُعدُّ للحرب ، حتى تجتمع له القوة الممكنة له من النصر والغلب ، ولكنه لا يبدأ الحرب ، ولا يسعى إليها ، وإنما يجىء إليها مكرهاً ، ويدخل فيها مدافعاً ، لا مهاجماً !!

وفى قوله تعالى : « وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » إشارة وتنبيه للمسلمين إلى ألاّ يكون حسابهم فى إعداد القوة مقصوراً على هذا العدوّ الظاهر لهم ، ومقدوراً بقَدْره ، بل يجب أن يعملوا فى تقديرهم حسابا لأعـداء آخرين ، لم يظهروا لهم ، ولم يواجهوهم بعداوة أو قتال . .

وهذا يعنى أن يبذل المسلمون كثيراً لإعداد هذه القوة التى يحاربون بها أعداءهم الذين يرونهم ، والتى يرصدونها للعدوّ الخفىّ الذى لم يظهر لهم بعد . .

ولهذا جاء قوله تعالى بعـد ذلك : « وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون » — جاء داعياً إلى البذل والإنفاق فى سبيل

الله ، فإنّ الله سبحانه وتعالى سيؤتى المنفقين أجرهم ، ويجزل لهم العطاء ، فلا يضيع شيء مما بذلوا وأنفقوا ، لأن فى ضياعه ظلماً لهم .. « ولا يظلم ربّك أحدًا » .

الآيات : (٦١ — ٦٣)

* « وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (٦٣)

التفسير : قوله تعالى : « وإن جنحوا للسّلم فاجنح لها » أى إن مال الأعداء إلى السّلام والموادعة ، ورغبوا فيهما فارغب فيهما أنت أيها النبى أيضاً ، فتلك دعوة إلى خير وأمن وعافية ، لاينبغى ـ حقًّا وعدلا ومصلحة ـ رفضها والتأبّى عليها .

وأصل « الجنح » و « الجنوح » من « الجناح » إذ كان هو الذى يميل بالطائر إلى الجهة التى يريدها ، فهو أشبه بقلع المركب ، إذا فرده ، وضمّ الجناح الآخر امتلأ ذلك الجناح المفرود بالهواء ، ودفع بالطائر إلى الاتجاه الذى يقصده ..

فهما إذن جناحان ، على جانبى الطائر ، يُعملهما حيث يشاء ، فيتجه يميناً أو يساراً ، أو إلى أى اتجاه يقصد ..

وكذلك الإنسان فى دوافعه ونزعاته ، له جانبان ، أو جناحان يخفقان فى كيانه ، مهيآن لدفعه إلى أى اتجاه يشاء .. إلى السلم ، أو الحرب ، مثلا .. فإن

هو أراد السلم ، فردّ جناح السّلم ، فدفع به إلى جانب السلام والموادعة ، وإن هو أراد الحرب ، فرد جناح الحرب فألقى به فى ميدان القتال وساحة الدماء ..

فهذا هو بعض سرّ التعبير القرآنى عن دعوة السلام ، بالجنوح « وإن جنحوا للسّلْم » .. ذلك أنهم كانوا بين داعيين ، داع يدعو إلى الحرب ، وداع آخر يدعو إلى السلم ، ثم رجح فيهم الداعى الذى يدعو إلى السلام ، وفى هذا إغراء وتحريض على قبول تلك الدعوة التى تدعو إلى السّلم ، فهى وجه جميل طيب ، فى مقابل الوجه الكريه الذميم ، وجه الحرب ..

قوله تعالى : « وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ » تحريض آخر للنبى بقبول الدعوة إلى السّلم ، إذ كان فى حراسة ، من توكله على الله واعتماده عليه .

* قوله تعالى : « وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللهُ هُوَ ٱلَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ »

هو تحريض ثالث للنبىّ على الاستجابة إلى دعوة السّلم التى يعرضها عليه الأعداء ، وألا يردّه عن قبول تلك الدعوة ما يكون عند القوم من نيّة للغدر ، فالله سبحانه وتعالى سيكفى النبىّ والمسلمين سوء مايفعلون .. ذلك أن هؤلاء الأعداء قد خانوا وغدروا ، فتعرضوا لسخط الله وغضبه ، فوق ما أخذهم الله به من سخط وغضب لكفرهم وشركهم بالله .

أما النبىّ والمؤمنون ، فقد اتقوا الله ، ووفوْا بالعهد الذى دعاهم الله إلى الوفاء به ، فكان سبحانه وتعالى معهم ، يؤيدهم ، وينصرهم على عدوهم .. « فإن حسبك الله » أى يكفى أن يكون الله معك ، يؤيدك ، وينصرك .. « هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين » .. فلقد نصرك الله من قبل ، وردّ عنك بأسَ القوم الظالمين ، فلم تُغْنهم كثرتهم من الله شيئاً .. وقد نصرك الله كذلك

بالمؤمنين، الذين لم تُرهبهم كثرةُ العدوّ وقوتُه ، بل لقد ألقوْا بأنفسهم فى حومة القتال ، وهم على نية الاستشهاد فى سبيل الله .. فكانوا جنداً من جنود الله معك .

وفى عطف « المؤمنين » على قوله تعالى « بنصره » تكريم لهؤلاء المؤمنين الذين اجتمعوا إلى النبىّ ، وقاتلوا تحت رايته .. وأنهم قوة من قوى الحق ، وجند من جنود الله ، ينصر بهم من يشاء من عباده ..

* وقوله تعالى : « وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ » . . معطوف على قوله سبحانه : « أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ » أى إن من فضل الله عليك ، ومن القوى التى أمدّك بها ، أنه سبحانه أمدك بأسباب النصر والظفر على العدوّ ، بما جمع لك من جند آمنوا بالله ، وأخلصوا النية للجهاد فى سبيل الله .. وأن الله سبحانه قد نظر إليك وإليهم ، فألف بين قلوب جندك هؤلاء ، وجمعهم على الإيمان بالله ، والإخاء فى الله ، فكانوا كياناً واحداً ، وجسداً واحداً ، ومشاعر واحدة .. وذلك مالا يكون إلا عن فضل من الله ، وبهذا الفضل توحدت قلوب المؤمنين ، واجتمعت على الولاء لله ، ولدين الله ، ولرسول الله . . الأمر الذى لاتستطيع قوة بشرية أن تحققه فى أى مجتمع إنسانى ، على تلك الصورة ، ولو أنفقت فى سبيل ذلك كل مافى هذه الدنيا من مال ومتاع .

[الحرب والسلام . . فى الإسلام]

الإسلام دين رحمة وسلام ، وليس كمايفترى عليه المفترون أنه دين سيف ودماء . . وكيف وظاهر الإسلام وباطنه جميعاً ، سلم ، وسلام ؟ فاسمه « الإسلام » مشتق من السلام ، والسلامة ، والسلم ، وشارات التحية بين

أتباعه ، ومن أتباعه ، السلام ، والرحمة ، والبركة . . أما شريعته وأحكامه ، فكلها قائمة على اليسر والرحمة ، والسلام ، بين الإنسان ونفسه ، وبينه وبين الناس جميعاً .

وحقًّا إن الإسلام قد دعا أتباعه إلى الحذر من العدوّ ، والإعداد للحرب ، والأخذ بأسباب القوة .. وذلك لأن الإسلام دين واقعىّ ، يعايش الحياة فى أعدل أحوالها،ويستقى من أعذب عيونها، وأصفى مواردها ، وليس مجرّدَ أحكام ومقررات نظرية ، يتمثلها الناس ولا يحققونها ، ويتصورونها ولا يتعاملون بها ، أشبه بما يقع فى تصورات الفلاسفة وخيالات الشعراء ، إن سَعِدَ بها أصحابُها فى أحلام يقظتهم ، فإنهم لم يمسكوا منها بشىء إذ هم فتحوا أعينهم على الحياة وواقعها .

والإسلام يريد لأتباعه يكونوا قوة عاملة فى الحياة ، وأن يَعْمُروا الأرض ، ويبسطوا سلطانهم على القوى الكامنة فى الطبيعة ، ليحققوا قول الله تعالى لهم : « هو الذى جَعَلَ لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه .. » ولن يكون ذلك إلا إذا أخذ المسلمون الحياة كما هى ، بواقعها ، وما يزْخَر فيها من خير وشر !

فليست الحياة إلا مزيجاً من الخير والشر ، وليس الناس إلا عالماً من الأخيار والأشرار . . ولن يَسْلم لإنسان وجودُه ، ولن ينتظم لجماعة شأنُها إلا بصحبة الحياة والناس على هذا المفهوم ، الذى يجمع الخير والشر ، ويقابل بين الأخيار والأشرار ..

فمن الحكمة ومن الواجب إذن ، أن يقيم الإسلام أتباعه فى الحياة على طريق بين الخير والشر .. وهم فى هذا الطريق مدعوون إلى التعامل مع الخير ، ثم هم فى الوقت نفسه مطالبون بتجنب الشر والأشرار ، وأخذ حذرهم منه ومنهم جميعاً ..

والسّوء والأشرار دائماً مسلّطون على الأخيار .. إن سالموهم فلن يسلموا منهم ، وإن كفّوا أيديهم عنهم بسطوا هم أيديَهم إليهم بالبغى والعدوان .. هكذا تجرى الحياة فيما بين الشر والخير ، وفيما بين الأشرار والأخيار !

كانت دعوة المسيح ـ عليه السلام ـ دعوةً كلها سلام خالص ، بل هى استسلام مطلق لكل ظلم وبغى وعدوان .. هكذا كانت دعوة المسيح ، وهكذا كانت سيرته وسيرة حوارييه وأتباعه ، تحكمهم جميعاً دعوة المسيح المشهورة ، والتى تكاد تكون عنوان الرسالة المسيحية : « سمعتم أنه قيل عين بعين ، وسنٌّ بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لاتقاوموا الشرّ ، بل مَن لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً » (٥ : إنجيل متى) .

فماذا كان نِتاج هذه الدعوة ؟ هل سلم أتباعها من الأشرار ؟ وهل كان موقفهم السلبى من المعتدين الآثمين شفيعاً يشفع لهم عند هؤلاء المعتدين ، أو يخفف ممّا يرمونهم به من ضر وأذى ؟ وهل سلم المسيح نفسه إذ سالم الناس ، واستسلم لهم ؟

الحق أنّ ذلك كان إغراء لأهل السوء بأهل الصلاح والتقوى . . إذ أنهم ما إن علموا بأن المسيح وأتباعه لايقابلون الشرّ بالشرّ والعدوان بالعدوان، حتى تسابقوا إلى مدّ يديهم إلى هذه المائدة الممدودة ، لكل من يريد إشباع شهوته إلى البغى والعدوان ، أو إرواء ظمئه إلى التسلط والقهر وإذلال الناس . . فما أكثر الجياع فى الناس إلى البغى والعدوان ، وما أكثر الظمآى فيهم إلى التسلط على الناس وقهرهم وإذلالهم . . !

فكم لقى المسيح ولقى أتباعه من ضرّ وأذًى ؟ وكم احتملوا من بلاء

وعذاب ؟ لقد كانت خطوات المسيح وخطوات أتباعه معه ، على طريق ملطخ بالدماء . . دمائه ودماء أتباعه وحدهم .. وليس قطرة دم مراقة من هؤلاء الذين أراقوا دماءهم . .

ولحكمة ما أراد الله سبحانه للمسيح أن يأخذ هذا الطريق ، وأن يحمل تلك الدعوة ، ويُجرى تلك التجربة فى الحياة ..

إنها دعوة قاسية ، تسير فى اتجاه مضاد لسير الحياة . . وقد أرادها الله سبحانه هكذا ، لعنةً من اللعنات التى صبّها على اليهود وأخَذهم بها فى كل مرحلة من مراحل تاريخهم مع الأنبياء والرسل ..

فالمسيح ــ عليه السلام ــ هو نبىّ إلى اليهود خاصة ، ودعوته مقصورة عليهم لاتتعداهم إلى غيرهم[1] . . وقد جاءهم المسيح بتلك الدعوة التى إن استقاموا عليها ، كان فيها إذلالُهم ، وجعلهم موطئا لأقدام الناس . . وإن هم أبوْا أن يقبلوها ، ويأخذوا أنفسهم بها كانوا كافرين باللهِ ، مأخوذين بما أعدّ الله للكافرين من خزى فى الدنيا عذاب مهين فى الآخرة . .

وقد أشرنا من قبل[2] إلى أن الله قد أخذ اليهود بأحكام دينية ، غايتها تأديبهم وإعناتهم وإذلالهم ، لا إصلاحهم ، وتقويمهم . . فقد حرم عليهم العمل فى يوم السبت ، كما حرم عليهم ما أحل لغيرهم من طيبات الطعام . . وذلك مما لاتحتمله النفس ، أو تصبر عليه . . واليهودىّ من هذا بين أمرين : إما أن يمتثل أمر الله فيه فيهلك ، أو لا يمتثله فيكفر . !

---

(١) انظر فى هذا كتابنا « المسيح فى القرآن والتوراة والإنجيل » .

(٢) انظر تفسير الآية : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر . . » (١٤٦ : الأنعام) .

نقول : إن تجربة السّلم أو الاستسلام تلك التى دعا إليها المسيح ، وعاش فيها قد كشفت عن حقيقة لاشك فيها ، وهى أن الحياة ترفض هذه التجربة ، ولا تقبلها كمبدأ من المبادىء العاملة فيها . .

والمسيح نفسه قد أنهى هذه التجربة فى الأيام الأخيرة من حياته ، وردّ إلى أتباعه وحوارييّه حقهم فى الحياة في الدفاع عن أنفسهم . .

يقول المسيح فى آخر موقف له مع تلاميذه : « حين أرسلتكم بلا كِيس ولا مِزْود ولا أحذية . . هل أعوزكم شىء ؟ فقالوا : لا ، فقال لهم : « ممكن الآن من له كيس فليأخذه . ومزود كذلك ، ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفاً . » (٢٢ : لوقا) ! !

إن السيف أمر لابد منه لدفع العدوان ، ولردع المعتدين . . والله سبحانه وتعالى يقول : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » . . تلك هى سنّة الله فى خلقه ، وذلك هو واقع الناس فيما أخذهم الله به من سنن .

فالقول بأن الإسلام دين قام على السيف ، دعوى كاذبة مضلّة ، يراد بها النيل من المسلمين ودوْلتهم ، كما يراد بها النيل من الإسلام وشريعته . . إنها دعوة خبيثة مسمومة ، يُراد بها أن تنهزم فى نفس المسلم معانى العزة والقوة ، لأنه إن أراد أن يسقط تلك الدعوى الباطلة ، ويدفع هذه التهمة الظالمة ، كان أقربَ سبيل إليه هو أن يتجرد من كل سلاح ، وأن يتعرّى من كل قوة .. وماحاجته إلى السلاح إن كان السِّلاح سُبّة تدين دينَه ، وتُريه منه أنه دين بداوة وهمجية ، وشريعة غابٍ ، يحكم مجتمعَها التناطحُ بالقرون ، والتقاتل بالمخالب والأنياب ؟

هذه هى الحركة النفسية التى تحدثها تلك الدعوى الماكرة فى نفوس المسلمين ، حين يُلقون آذانهم إلى هذه التخرصات الفاسدة ، التى تجعل القوة التى يبعثها الإسلام فى مجتمعه ، شارةً دالّة على بدائية هذا الدين وتخلّفه . .

وتلك الحركة النفسية من شأنها أن تفعل فعلها فى تفكير المسلمين ، وفى سلوكهم ، فتصرفهم صرفاً حاداً عن كل سبب من أسباب القوة ، وبذلك يخلو الطريق للعدوّ المتربص بالإسلام والمسلمين ، فتمكنه الفرصة من التسلط عليهم ، والاستبداد بأوطانهم وأرزاقهم .. الأمر الذى وقع على أبشع صورة وأشنعها ، إذ وقعت أوطان المسلمين جميعها فريسة للاستعمار ، الذى سلط عليها سيف القوة ، فسلبها كل مقومات حياتها المادية والخلقية ، وكاد يسلبها حياتها الروحية ، لولا وَثاقة هذا الدين ، الذى يجرى فى مشاعر أهله ، جريان الدم فى العروق .

والحق أن هذه الدعاوَى الباطلة التى يدعيها المدّعون على الإسلام ، وأنه دين بداوة وشريعة غاب ، يتعامل مع الناس بالظفر والناب ـ هذه الدعاوَى لا يقف أمرها وخطرها عند حدّ تشكيك المسلمين فى الإسلام وانحلال الرابطة التى تربطهم به أو توهينها ، أو فى صرف غير المسلمين عن الالتفات إلى الإسلام ، بإثارة هذا الجوّ المريب حوله ، حتى لا ينظر فيه أولئك الذين خلت نفوسهم من الدِّين ، من أهل أوربا وأمريكا ، الذين اصطدمت معارفهم العلمية بقضايا الدّين الذى ورثوه ميراثاً عن آبائهم وأجدادهم ، والذى استبان لهم منه بعد أن عرضوه على أضواء العلم الحديث أنه لا يلتقى مع عقل ، ولا يستقيم على منطق ، فهجروه ، وزهدوا فيه ، وأصبحوا على غير دين ، الأمر الذى لا يصبرون طويلاً عليه ، إذ لا بد أن يطلبوا ديناً ، تعيش فيه مشاعرهم ، وتتغذى منه أرواحهم ، حيث لا يمكن أن يعيش إنسان ـ أى إنسان ـ من غير دين . .

وليست موجات الإلحاد التى تغزو أوربا وأمريكا الآن إلا عَرَضاً طارئاً ، جاء نتيجة لازمة لما كشف عنه العقل الحديث ، من مفارقات بعيدة ، بين الدّين الذى كان فى أيديهم ، وبين منطق العقل ، وواقع الحياة . .

إن أهل أوربا وأمريكا ينشدون اليوم ديناً ، يملأ هذا الفراغ الروحى

الذى يعيشون فيه ، ولو أنهم التقوْا بالإسلام على حقيقته ، وتعرفوا على موارده الصافية ، لما مدّوا أبصارهم إلى دين غيره ، ولكانوا من المؤمنين بالله ، إيمانا قائما على دعائم ثابتة ، تملك عقولهم وقلوبهم على السواء . .

وتلك حقيقة يعرفها عن الإسلام أولئك الذين يحاربون الإسلام ، ويخشون منه هذا الغزو السلمى المكتسح ، الذى من شأنه ـ لو قدِّر له أن يتصل بالنّاس اتصالاً مباشراً من غير أن يثار فى وجهه غبار الضلال ودخان الإفك ـ أن يقوض سلطان المتسلطين على الناس هناك باسم الدين ، وأن يسلبهم هذا الجاه المريض الذى يعيشون فيه . . تماماً كما فعل مشركو قريش حين جاءهم الإسلام فأنكره سادتهم وحاربوه ، وهم يعلمون أنه الحق من ربّهم ، ولكنه الحق الذى يسلبهم منزلتهم فى الناس ، ويسوّى بينهم وبين عامة الناس ، فآثروا السلطان الذى فى أيديهم ، مع العمى والضلال ، على الحق الذى عرفوه وأنكروه ! .

ومن أجل هذا كانت تلك الحرب المسعورة التى يشُنها أصحاب الرياسات الدينية ومن فى حكمهم ، على الإسلام ، حتى يسلم لهم ما فى أيديهم من جاه وسلطان ، ولو هلك الناس ، وغرقوا فى الضّلال ، ودانوا بالكفر والإلحاد ! .

ومع هذا كله ، فإن المستقبل للإسلام ، وستكشف الأيام وجهه المشرق الوضيء للناس يوماً ، إن عاجلاً أو آجلاً ، وسيصبح هذا العنوان الذى اتخذه «الإسلام» عنوانا له ، وسِمة دالة عليه ـ هو دين الإنسانية كلها ، وبهذا يتحقق قول الحق جلّ وعلاَ : « إن الدين عند الله الإسلام » ، وقوله سبحانه : « هو الذى أرسل رسوله بالهُدى ودين الحق ليُظهرَه على الدين كلّه ولو كره المشركون » .

هذه حقيقة نؤمن بها إيماننا بالله ، وبدين الله ، وبكتاب الله . . وإن هذه

الرّميات العمياء التى يُرمَى بها الإسلام لن تنال منه ، ولن تقف فى طريق أنواره أن تملأ الآفاق ، وأن تبسط على الأرض سلطانها ، لأنها نور من نور الله: « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

ونعود إلى قضية السيف التى يدّعيها المدّعون على الإسلام ، وأنه قام عليه ، وفتح طريقه إلى القلوب به ـ فنقول :

إنه لو كان أمر الإسلام أمرَ قوة ، لما كان فى الحياة اليومَ إنسان يدين بالإسلام ، ولما كانت دعوة الإسلام أكثرَ من حَدَث من أحداث التاريخ ، عاش فى الحياة زمناً ، ثم طواه الزمن فيما طوى من وقائع وأحداث .

فهل هذا هو واقع الإسلام ؟ وهل هذا هو شأنه فى وقائع الحياة وأحداثها ؟ إن الأمر لعلى عكس هذا تماماً . .

وإن شهادة الواقع لاتحتاج إلى بيان . . فهى ناطقة بأفصح لسان ، بأن دولة الإسلام تزداد على الأيام امتداداً واتساعاً ، وأن زحفه السلمىّ المكتسح لم يتوقف لحظة واحدة ، حتى فى أقسى الظروف وأحلكها ، التى مرّت بالإسلام وألقت بكل ثقلها عليه . .

لقد قطع الإسلام من حياته المباركة أربعة عشر قرناً . . وأنه إذا سلّمنا بالقول بأن الإسلام قام على السيف والقوة ، فى أول حياته ، فإنه محالٌ أن يُسَلّم بالقول بأن ذلك السيف وتلك القوة قد صحبا الإسلام ، وكانا مستنداً له على امتداد هذا الزمن كلّه . .

فما عرف الناس فى الحياة قوةً تظل حارسة ساهرة لمبدأ من المبادىء أو نزعة من النزعات ، أكثر من سنوات معدودات . . لجيل أو جيلين . . أما أن تظل هذه القوّة قرونا متطاولة من الزمن ، قائمة على حراسة مذهب من المذاهب ، أو نزعة

من النزعات ، فذلك مالم يكن ولن يكون أبداً . . فإن القوة إنما تخدم غرضاً ذاتياً يعيش فى كيان إنسان من الناس ، أو جماعة من الجماعات ، ولن تتجاوز حياتُها بحال حياةَ هذا الإنسان أو تلك الجماعة . . ثم يموت المبدأ أو المنزع ، بموت القوة التى أقامته ، وحرسته !

ونفترض جدلاً أن تقوم قوة ما لخدمة غاية من الغايات أجيالاً متعاقبة ، ونفترض جدلا كذلك ، أن هذه الأجيال قد تواصت فيما بينها على اتخاذ هذه القوة حارسة على هذه الغاية التى تنشدها وتعيش فيها . .

فهل حدث هذا فى المجتمع الإسلامى ؟ وهل كانت القوة دائماً إلى جانب الإسلام ، تحرسه ، وتدافع عنه ؟

التاريخ يشهد شهادة لا شك فيها ـ وواقع المسلمين اليوم ينطق بها ـ بأن دولة المسلمين التى قامت فى صدر الإسلام ، والتى كان لها ما كان من قوة وسطوة ـ هذه الدولة ، قد تفككت وانحلت بعد ثلاثة قرون ، وعراها الوهن والضعف ، وأصبحت دولة الإسلام إماراتٍ ودُوَيلات متنابذة متخاصمة، وخضع كل صُقْع من أصقاع هذه الدولة، لقوًى غاشمة طاغية ، تضمر للمسلمين كل عداوة ، وترصد للإسلام كل شر . .

لقد وقع الإسلام والمسلمون فى وجه عواصف عاتية جائحة ، للغزو البربرى، الذى كان من شأنه أن يدمر كل شىء ، ويأتى على كل شىء ، لولا قوة هذا الدين ، وما غَرَس فى أتباعه من معالم الحق والخير . . وحسبك أن تذكر هنا الغزو التترى ، أو الغزو المغولى .. فما مرّ أحدهما بموطن من المواطن إلا أحاله خراباً يباباً . . ثم حسبك أن تذكر الحروب الصليبية ، ثم الاستعمار الغربى الذى تسلط على قارتى أفريقيا وآسيا ، حتى لقد كانت مواطن الإسلام كلها

تحت يده . . فما حلّ الاستعمار بأرض إلا أجدبت من كل خير ، وأصبحت مرعًى خصبًا لآفات الجهل والفقر والضعف . . ومع هذا كله ، ومع ما أصاب المسلمين من بلاء ، فقد بقى الإسلام فى قلوب أهله متمكنًا قويًّا ، لايتحولون عنه أبدًا ، ولو أُخذوا بكل ألوان الضر والأذى ، فى أموالهم وأنفسهم ، أو جىء إليهم بكل مغريات الحياة من مال ونساء على يد المستعمرين والمبشرين . .

فتاريخ الاستعمار للدول الإسلامية ، يؤلف كتابًا ضخمًا ، أسودَ الصفحات ، لما كان يأخذ به المستعمرون الأممَ الإسلامية بصفة خاصة ، والعربية بصفة أخص ، من بغى وعدوان ، وتسلط قاهر ، على مقومات الحياة فى تلك الأمم ، وخاصة مايتصل بالعقيدة الدينية ، وما تلقّاه عنها أهلها من لغة وعادات وتقاليد ، وذلك ليُضعفوا الصِّلات التى تصل المسلمين بدينهم ، وليوهنوا من الأسباب التى تربط بين جماعاتهم . . ومع هذا كله فقد بقى الإسلام متمكنًا فى القلوب ، راسخًا فى الضمائر ، مختلطا بالمشاعر ، لم يَسْلَم للمسلمين شىء غيرُه ، مما كان لهم فى هذه الدنيا ، التى سلبهم الاستعمار إياها ، أو قتلها ، حيث لم يكن له حاجة فيها . . وكان الإسلام دائمًا هو القوة التى يستند إليها المسلمون ، كلّما خذلتهم قوى الحياة جميعًا ، من علم ، ومال ، ورجال . .

وتاريخ التبشير فى المحيط الإسلامى يحدِّث عن أكبر هزيمة ، وأعظم خيبة مُنِى بها عمل من الأعمال ، أو أصيب بها حركة من الحركات ، أو انتهت إليها دعوة من الدّعوات .

فما استطاعت تلك الحملات التبشيرية التى رصدت لها دول أوربا وأمريكا الأموالَ الضخمة ، وجنّدت لها العقول الجبارة ـ ما استطاعت هذه الحملات أن

تنال من الإسلام منالاً ، أو أن تحوّل مسلماً واحداً عن دينه ، أو تفتنه فيه ، بل كان المسلم الأمّىّ الساذج ، يُفحِم بفطرته السليمة ، وبعقيدته السمحة الواضحة كلّ منطق ، ويخرس كل ذى لسان ، حتى يرفع بصره إلى السماء قائلا : « لا إله إلا الله » . !

فإذا ادّعت حملة من حملات التبشير أنها استطاعت بحوْلها وحيلتها أن تخرج مسلماً عن إسلامه ، فقد كذبت وافترت ، لتخدع أولئك الذين يمدّونها بالمال ، كى يدوم لها هذا المدد . . فإنها ـ وقد فاتها الكسب الدينى ـ حريصةٌ على ألا يفوتها الكسبُ المادىّ من هذا المال الذى يتدفق إليها فى سخاء من كل جهة ، وإنه لمال كثير ، أثْرَى به عدد وفير من أدعياء الدين ، الذين يتخذون التبشير تجارة لهم ، ودعاية للاستعمار ، وتمكيناً للمستعمرين . .

نريد من هذا أن نقول : إن الإسلام بقوته الذاتية ، هو الذى حمى المسلمين فى ساعات العسرة ، وأمسك بهم على ضربات الزمن القاتلة ، وأمدهم بأمداد لاتنفد من القوى الروحية ، التى لم تنل منها يد التسلط والبغى ، ولم تنفذ إليها ضربات المتسلطين والباغين . . وإنه لولا الإسلام لما بقى لمواطن المسلمين مَعْلم من معالم الحياة ، يَعرفون به مكانهم فى هذا التيه الذى رماهم الزمن به .

فالمسلمون ليسوا هم الذين وسعوا رقعة الإسلام ، ومكّنوا له فى الأرض ، ودفعوا به إلى كل أفق من آفاقها ، بل الإسلام نفسه هو الذى جعل للمسلمين دولة . . والإسلام نفسه هو الذى غذّى هذه الدولة بأسباب الحياة والنّماء . . والإسلام نفسه هو الذى كان الدرعَ الواقية والحصن الحصين لأهله ، يلوذون به ، ويستظلون بجناحه ، كلما لفحهم هجير الحياة ، وتعاوت حولهم الذئاب . .

إن الذى كان يمكن أن يكون موضعَ طعنٍ فى الإسلام لمن تسوّل له نفسُه الطعنَ فيه ، هو أن يتجه بذلك إلى مبادئه وأحكامه . أهى حقٌّ أم باطل ؟ أهى خير ورحمة للإنسانية أم هى شر ووبال عليها ؟ وهل سعدت الإنسانية فى ظل الإسلام أم شقيت ؟ وهل هذه الملايين التى تدين بالإسلام اليوم مكرهة عليه ، وواقعة تحت قوة قاهرة ، تحملها عليه ، وتلجئها إلى التمسك به ؟ .

هذا ما كان ينبغى أن يكون مدار هذه الدعوى ، إن كان لابد من دعوى يدعيها أعداء الإسلام على الإسلام ..

أما تلك الدعوى الخبيثة التى تتجه اتجاهاً مباشراً إلى تجريد المسلمين من القوّة ، وخَلْق عقدة نفسية بينهم وبينها ، فذلك هو الغرض الذى تحاول تلك الدعوى أن تحققه فى المجتمع الإسلامى ، ليتعرّى من القوة وأسبابها ، وليظل أعزلَ من كل سلاح ، على حين يعمل أعداء الإسلام والمسلمين جاهدين على الإعداد للقوة ، والأخذ بكل أسبابها .

ثم ما الإسلام ؟ أهو مجرّد مبادىء وأحكام ملقاة فى العراء ، لايلتفت إليها أحد ، ولا يتأثر بها إنسان ، أم هو مبادىء وأحكام ، يؤمن بها النـاس ، ويعيشون فى ظلها ، ويعملون بوحيها ؟

وقد يصح أن يكون الإسلام مجردَ مبادىء وأحكام ، وذلك فى معرض الدراسات النظرية التى تعنى بدراسة الأفكار وتمحيصها ، دراسةً فلسفية نظرية ، بعيدة عن مجال التطبيق العملى لها .

أما حين تصبح هذه المبادىء وتلك الأحكام فى مواطن العقول ، وفى قرارة القلوب ، وفى خلجات الضمائر ، ومسرى المشاعر ، فإنها إذ ذاك لا يمكن

أن تكون شيئاً منفصلا ، له حقيقة مستقلة ، تقع عليها أحكام خاصة بها .

فدعوى أن الإسلام قام على السيف ، لايمكن أن توجه إلى الإسلام فى مبادئه وأحكامه ، وقد رأينا كيف عاش وسيعيش الإسلام بلا سيف ولا قوة ، قروناً متطاولة ، لاتنتهى إلا بانتهاء الحياة . .

وإنما تتجه هذه الدعوىَ ــ قبل كل شىء ــ إلى المجتمع الذى يدين بالإسلام ، ويعيش فى ظلّ أحكامه وتعاليمه . .

ومع هذا نستطيع أن نقول إن وجه الدعوى يجب أن يكون على هذا الوضع : « المجتمع الإسلامى مجتمع قام على السيف . . » وحينئذ يمكن أن تُسمع هذه الدعوى ، وتكون موضع نظر وبحث . .

فالدعوة الإسلامية ــ فى ذاتها ــ لم تقم على السيف ، وإنما الذى قام على السيف وكان لابد أن يقوم عليه دائماً ، هو المجتمع البشرى الذى انضوى تحت لواء هذه الدعوة ، ثم امتدّ وامتدّ حتى صار دولة عريضة طويلة ، تنتظم شطر العالم أو أقلّ من شطره قليلا .

وطبيعى أن مجتمعاً كهذا المجتمع فى الامتداد والسّعة ، لا يمكن أن يكون أعزلَ من السلاح ، مجرّدًا من القوة . . فإن طبيعة الحياة تأبى أن يعيش الضأن مع الذئاب . . بل لابد أن يكون هناك توازن فى القوى ، وإلاّ ، فالويل للضعيف !

إن المجتمع الإسلامى ــ كأى مجتمع فى الحياة ــ له ذاتيته المتميزة ، وله وِجهته وفلسفته فى الحياة . . وطبيعى أن تقوم فى ظلّ هذه المعانى عصبية ، هى التى تجتمع عليها الأمم والشعوب ، وتقيم منها وحدة مميزة فى مشاعرها ، ومنازع أفكارها ، ومتجه سلوكها . . كما كان لابد أيضاً أن يتعصب على هذه الأمم وتلك الشعوب أعداء يخافون قوتها ، أو يطمعون فى ضعفها ، ومن هنا يكون الصراع الذى

لابد منه فى الحياة ، والذى لابد له من قوة ، ولابد لهذه القوة من سيف ، بل ومن سيوف !

ونعود فنذكّر من نسى ، فنقول : إن اليوم الذى تخلّى فيه المسلمون عن القوة ، كان هو اليوم الذى فيه حَيْنهم ومصرعهم ، بأيدى من يملكون القوة .. ثم لم يكن للمسلمين من قوة يستندون إليها إلا الإسلام ، الذى منحهم الإيمان ، والصبر ، والعزم ، وعَمَر قلوبهم باليقين بأن شاطىء النجاة قريب منهم ، إن هم تمسّكوا بدينهم ، وقاموا على شريعته ، وأخذوا بهديه ، والتمسوا أسباب القوة المادية التى أمرهم الله بها فى قوله تعالى : « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباطِ الخيل ترهبون به عدوَّ الله وعدوكم » إلى جانب القوة الروحية التى عَمَر الإسلام قلوبهم بها .. ومن خلال هذه المشاعر كانت تنقدح فى صدور المسلمين شرارات الأمل والرجاء ، فيشتدّ عزمهم ، ويقوَى إيمانهم ، وتذهب وحشتهم ، وهم فى صحبة دينهم ، وفى ظلٍّ مما يفىء عليهم من خيره الكثير .

فلنحذر إذن هذه الدعوى الخبيثة ، التى تجعل من تُهمِ الإسلام عندها ، أنه قام على السيف ، ولنعدِّل موقفنا تُجاه هذه الدعوى ، فإننا ــ عن حسن نية ــ قد عملنا جاهدين على دفعها ، وتبرئة ساحة الإسلام منها ، كما أننا حمدنا لبعض المستشرقين ــ ونواياهم معروفة ــ ما كان منهم من دفاع فى تبرئة ساحة الإسلام من هذه التهمة ! !

فليكن الإسلام قام على السيف أو لم يكن ، وإنما الحقيقة التى لاجدال فيها هو أننا الآن ــ أممَ المسلمين ــ ندين بالإسلام .. ديناً فى قلوبنا ، ينير طريقنا فى الحياة ، ويسدّد ويثبت خُطانا على مواقع الحقّ ، كما أننا ندِين أو يجب أن ندين بالقوة ، سلاحاً فى أيدينا نحمى به مجتمعنا ، ونصون بها مقدّساتنا ، وندفع بها يد المعتدين على أوطاننا ..

الآيات : (٦٤ — ٦٦)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » (٦٦)

التفسير :

المسلم .. وكم حسابه فى ميدان القتال ؟

السلاح ليس هو كل شىء فى القتال ، وتحقيق النصر .. وأعداد المقاتلين وكثرتُهم ، ليست هى الميزان الذى يرجُح به جيش على جيش .. وإنما الذى يجعل للسلاح أثرَه وفاعليته ، ويقيم للكثرة وزناً وقدراً ، هو درجة الإيمان التى يكون عليها الطرفان المتقاتلان ..

فالإيمان حين يعمُر قلبَ المؤمن ، ويملك عليه مشاعره ـ يجعل العصا التى فى يد المؤمن أكثر مضاء ، وأقوى أثراً من السيف فى يد غير المؤمن ، أو مَن هو أضعفُ إيماناً منه .

ومن هنا كان من مِنن الله سبحانه وتعالى على نبيّه أن جعل أولياءه الذين يَدْفعون العدوَّ عن دعوته ، جنداً مسلحين بالإيمان والتقوى ، بعد أن تسلحوا بالسلاح ، وأعدوا للعدو مايُرهبونه به ، من القوة ومن رباط الخيل ..

وفى قوله تعالى : « يا أيها النبىُّ حَسْبُكَ اللهُ ومن اتبعَك من المؤمنين »

إشارة إلى هؤلاء الجند الذين أقامهم الله سبحانه جنوداً لنصرة النبىّ ، ودفع يد الباغين عليه ، المتسلطين على دعوته . .

وإنه ليكفى النبىّ كفاية مطلقة أن يكون اللهُ سبحانه وتعالى حَسْبَه وكافيه ، فهو فى ضمان وثيق من الحماية التى لاتَغْفُل أبداً ، ولا تقف لقوتها قوة أيًّا كان بأسها ، وكانت سطوتها ..

وإذن فما تأويل قوله تعالى : « يا أيها النبىّ حَسْبُكَ الله ومن اتبعك من المؤمنين » ؟ وما داعية عطف المؤمنين على لفظ الجلالة ؟ وهل قوة الله سبحانه وتعالى تحتاج إلى قوة تَسْنِد وتعين ؟ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ..

والجواب ـ والله أعلم ـ أن فى هذا العطف تشريفاً وتكريماً للمؤمنين ، إذ أن في هذا العطف وصلا لهم بالله سبحانه وتعالى ، وجعلهم نفحة من نفحات رحمته ، وجنداً من جنوده التى يدافع بها عن الحق ، ويدفع بها فى وجه الباطل : « أولئك حِزبُ الله ألا إن حِزْبَ اللهِ هم المفلحون » .

وقد ذهب كثير من المفسرين إلى إضافة المؤمنين إلى النبىّ ، بمعنى : يأيها النبىّ حسبك الله ، وحسبُ المؤمنين ، أى يكفى أن يكون الله ناصراً لك وللمؤمنين . . وهذا معنى لانرضاه ، إذ يدفع عن المؤمنين هذا التكريم الذى اختصهم الله به ، بل ويذهب بما جاء فى قوله تعالى : « هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين » !

وقوله تعالى : « ياأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مئةٌ يغلِبُوا ألفاً من الّذِين كفروا بأنهم قومٌ لايفقهون » هو تشريف للمؤمنين ، ودفع لقدرهم ، وأنهم ـ بما فى قلوبهم من إيمان ـ فى منزلة لايبالها الكافرون والمشركون ، وأن الواحد منهم يرجُح عشرةً من هؤلاء الذين لايؤمنون بالله .

والأمر بتحريض النبيّ للمؤمنين على القتال ، إنما جاء بعد أن أُمروا بأن يُعِدّوا لقتال العدوّ ما استطاعوا من عدد الحرب ووسائل القتال ، من سلاح ، وعتاد ، وخيل .. وذلك بعد أن أَعَدّوا الرِّجَالَ الذين راضوا أنفسهم على الجهاد فى سبيل الله ، ووطنوها على الاستشهاد ابتغاء مرضاة الله . .

فإذا جاء النبيّ بعد هذا يحرّض المؤمنين على القتال ، ويستحثهم له ، ويغريهم به ، وجَدَ قلوباً صاغية إليه ، ونفوساً مستجيبة لِمَا يَنْدُبهم له ، إذ كان إنما يدعو مؤمنين استجابوا للحرب ، ويستحث جنوداً أعدوا أنفسهم للحرب ، ورصدوها للدفاع عَن دين الله ، وملئوا أيديهم بالسلاح ، كما ملئوا قلوبهم بالإيمان .

وفى قوله تعالى : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله » ـ أمور .. منها :

أولا : هل هذا الشرط خبر فى لفظه ومعناه .. بمعنى أن المراد به الكشفُ عن قَدْر المؤمنين ، وما بينهم وبين الكافرين من بُعْد بعيد فى القوة . . أم أنه خبر أريد به الأمرُ والإلزام ، بمعنى أنه مطلوب من المؤمنين ديانةً وشرْعًا ، أن يَثْبُت فى ميدان القتال لعشرة من الكافرين . . فإن فرّ ، أو نكل كان آثما . . ؟

أجمَعَ المفسّرون على أن هذا الشرط خبرٌ مُرادٌ به الأمرُ ، وأن واجباً على المسلم أن يثبُت للعشرة من العدوّ فى ميدان القتال ، وأن يغلبهم ، فإن فرّ أو نكث كان آثماً ، بل ذهب بعضهم إلى أكثر من هذا ، فقال : إن المسلم إذا لم يقتل العشرة ، بل قُتل هو ، كان آثماً ، لأنه لم يحقق ما أمره الله به ، وهو أن يغلب العشرة ، لا أن يثبت لقتالهم وحسب !

وهذا الرأى الذى أجمع عليه المفسِّرون قائم على أن هذه الآية منسوخة بالآية التي بعدها ، وهى قوله تعالى : « الآنَ خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً .. » .

وسنعرض لقضية القول بالنسخ ، بعد هذا . .

والذى نراه ـ والله أعلم ـ أن هذا الشرط هو خبر فى مبناه ، ومعناه ، ومُفَاده . . وأن هذا الخبر قد جاء تعقيبا على أمر الله سبحانه وتعالى النبىّ ، بتحريض المؤمنين على القتال ، وإغرائهم به ، ليهوّن على المسلمين أمر القتال ، وليخفف عنهم بعض مايقع فى نفوسهم من تكره له ، حين يرون قلّتهم وكثرة العدوّ المتربص بهم . . فإذا علموا أنّهم بإيمانهم بالله ، وبتأييد الله لهم ، أن الواحد منهم يغلب عشرة من الكافرين ، طمعوا فى أعدائهم ، واستقبلوا الدعوة إلى لقائهم ، على رجاء وأمل فى الظفر بهم .

وثانياً : لِمَ كان وزن المؤمنين فى هذه الآية بحيث يغلب الواحد منهم عشرة من الكافرين .. ثم كان وزنهم فى الآية التى بعدها ، بحيث يغلب الواحد منهم اثنين من عدوّهم ؟

يقول أكثر المفسِّرين : إن ذلك كان والمسلمون قليلون ، وذلك فى أول الإسلام ، فكان فرضاً عليهم أن يحملوا هذا العبء الثقيل ، وأن يقف الواحد منهم لعشرة من العدو ، ويتغلب عليهم . . فلما كثُرُ المسلمون بعد هذا ، خفف الله عن المسلمين الأولين ما فرضه عليهم أولَ الاسلام ، فبدلاً من أن يلقى الواحد منهم عشرة ويغلبهم ، أصبح المطلوب منه أن يصمد لاثنين فقط ويتغلب عليهم . !!

وهذا يَعنِي أن الآية الثانية جاءت ناسخة للحكم الذى تضمنته الآية الأولى . .

والذى نقول به — والله أعلم — أن الآيتين محكمتين ، لانسخ فيهما ، ولا تناسخ بينهما . . وذلك أن الحكم الذى تضمنه الشرط فى الآيتين وارد فى صيغة الخبر ، والمعروف عند الذين يقولون بالنسخ ، أنه لاتناسخ بين الأخبار ولا يَرِدّ هذا قولهم : إن الخبر يُراد به الأمر هنا ، فهذا القول منهم لاحجة لهم عليه ، إلا القولَ بأن الآيتين متناسختين ، وذلك يقضى بأن يكون الحكم فيهما وارداً فى غير خبر . . فلزم لذلك أن يخرج الخبر عن معناه إلى معنى الطلب . . فالحجة على النسخ ، هى القول بالنسخ . . وإذن فلا حجة !

ومن جهة أخرى . . فإن القول بالنسخ يقضى بأن يكون بين الآيتين — الناسخة والمنسوخة — مسافة زمنية ، بحيث يكون لتغيّر الحكم ونسخه بحكم آخر مقتضٍ اقتضاه تغيّر الحال بامتداد الزمن . . وليس هناك دليل يدل على أن فارقاً زمنياً وقع بين نزول الآيتين . . بل ظاهر الآيتين ينبىء عن أنهما نزلتا معاً فى وقت واحد . . وقد قيل إنهما نزلتا فى غزوة بدر ، وقيل قبل بدء القتال . . وهذا قول يقول به القائلون بالتناسخ بين الآيتين ويقررونه !

فالآية الأولى : « يٰأَيُّها النبىُّ حَرِّضِ المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين . . » هذه الآية هى إخبار عن حال المؤمنين فى الوقت الذى خوطبوا فيه بها ، وأنهم يحملون من طاقات القوى الروحية والنفسية بما فى قلوبهم من إيمان وتقوى ، بحيث يغلب الواحد منهم عشرة من الكافرين . . إذا حقّق معنى « الصبر » الذى هو قيد للشرط .

هذا ماسمعه المسلمون يومئذ من خطاب الله سبحانه وتعالى لهم ، فانكشف لهم منه ما أَوْدَعَ الله فيهم — بسبب إيمانهم — من تلك القوى العظيمة التى

يجدونها معهم ، وفى هذا ما يريهم فضلَ الله عليهم ، وتكريمه لهم ، وأنهم موضع لرحمة الله ، ومغرس كريم لآلائه ونَعمائه . .

وتلك نعمة جليلة من نعم الله ، وبُشْرى مسعدة مما يبشر الله به عباده المؤمنين .. ومن تمام هذه النعمة ، وكمال هذه البشرى أن تُتبَع النعمة بنعمة ، وأن تُرفَد البشرى ببشرى ، وهذا ما جاءت به الآية الكريمة بعد هذا :

« الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ »

وهذا الخبر الذى تَلقّاه المسلمون من هذه الآية هو خبر على حقيقته ، لم يقصد به الأمر ، بأن يكلّف المسلم التغلبَ على اثنين من الكافرين بدلاً من عشرة . . بل إن هذا الخبر يثير فى نفس المسلم شعورين :

أولهما : الإحساس بأنه وإن كان فى كيانه من القوّة ما يقوم لعشرة من الكافرين ، فقد عرضت له عوارض من خارج نفسه ، قد أخذت من تلك القوة لحسابها ، حتى تتوازن ، وتحتفظ بأدنى مستوى من القوة يكون عليها المؤمن فى قتاله للكافرين . .

ذلك أن هذا الضعف الذى ورد على المسلمين لم يكن مؤثِّراً على تلك الجماعة التى التقى بها الإسلام على أول الطريق ، والتى آمنت به إيماناً اشتمل على وجودها كلّه . . فهذه ، الجماعة لم تزدها صحبتُها للإسلام إلاّ قوةً إلى قوة ، ويقينا إلى يقين . . وإنما جاء الضعف إليها مع أولئك الذين دخلوا فى دين الله أفواجاً ، فآمنوا كما آمن الناس ، متابعة لرؤسائهم وأصحاب الكلمة فيهم ، دون أن يتعرفوا إلى الإسلام ، وأن يَخلِطوا أنفسهم به ، ويُضيفوا وجودهم إليه ..

وهؤلاء كانوا معظمَ الأعراب الذين يقول الله سبحانه فيهم : « قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا . ولمّا يدخل الإيمان فى قلوبكم » (١٤ : الحجرات) .

ولهذا فقد ارتدّ كثير منهم عن الإسلام ، بعد وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، إذ لم يك الإيمان قد دخل قلوبهم وسَكَن إليها .

فهؤلاء مسلمون قد دخلوا فى صفوف المسلمين ، وحاربوا مع المؤمنين ، فلم يكن فيهم من القوى الروحية ما يرفعهم كثيراً عن المشركين ، ويجعل قوة الواحد منهم تعدل قوة رجلين من العدوّ ، فضلاً عن عشرة . . ولهذا أُضيف حسابُهم إلى حساب الصفوة المختارة من المسلمين ، من صحابة رسول الله من المهاجرين والأنصار ، الذين كانت ولا تزال قوة الواحد منهم تعدل عشرةً من الكافرين .. وبهذا صار حساب المسلمين فى مجموعهم قائماً على هذا التقدير : الواحد منهم باثنين من عدوّهم . . على حين أن أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما زال الواحد منهم يرجح فى نفسه عشرة من الكافرين . .

بل وأكثر من هذا . . فإن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونوا على درجة واحدة فى هذه القوة . . بل كان فيهم من يَرجُح العشرين ، والثلاثين بل والمائة من العدوّ ، على حين كان فيهم من يرجُح الاثنين أو الثلاثة أو الأربعة ، أو العشرة .. فإذا أضيف حساب بعضهم إلى بعض كانوا فى مجموعهم على هذا التقدير الذى أخبر القرآن الكريم به ، وهو أن الواحد منهم يرجُح عشرة من عدوهم . .

وهذا هو السرّ فى أن المؤمنين قد لبسوا صفةً واحدة ، وحُسبوا كياناً واحداً فى قوله تعالى : «إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » . ، ولم يجىء الخبر القرآنى عنهم بلفظ المفرد..هكذا : الواحد منكم يغلب عشرة ..!

وهذا هو السرّ أيضاً فى أن حساب المؤمنين كان فى أول الأمر محصوراً فى أعداد قليلة . . عشرين ومائة ، على حين كان بعد ذلك مدلولاً عليه بالمئة والألف . . إذ كانوا فى الأول أعداداً قليلة فى مجموعهم ، ثم تضاعفت هذه الأعداد ، فكانت ألوفاً ألوفاً . .

وثانى الشعورين اللذين يجدهما المسلم من قوله تعالى : « الآن خفّفَ الله عنكم ... » ـ أنّه على أية حال يكون عليها المسلمون ـ فى مجموعهم ـ من الضعف ، فإنهم أرجح كِفّةً من عدوّهم فى مجموعه ، وأن جماعتهم المقاتلة تغلب الجماعة المقاتلة لها ولو كانت مثليها فى العدد . . وهذا ميزان المسلمين المقاتلين دائماً ، فى أى حال ، بل وفى أسوأ حالٍ . . لأنهم إنما يقاتلون فى جبهة الحق ، ومن أجل قضية الحقّ . . وهذا من شأنه أن يقيم فى كيانهم شعوراً بأنهم إنما يقاتلون لله ، وفى سبيل الله ، لا لأنفسهم ، ولا لدنيا يريدونها . . فهم ـ والحال كذلك ـ جند من جند الله . . يمدّهم الله بعونه ، وتأييده ، ونصره . . وهذا ما يشير إليه تعالى ، فيما كان عليه المؤمنون والمشركون فى غزوة بدر ، إذ يقول سبحانه : « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئةٌ تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرةٌ يرونَهم مِثْلَيهْم رأىَ العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرةً لأولى الأبصار » (١٣ : آل عمرآن) .

وعلى هذا ، فإن قوله تعالى : « الآن خفّف الله عنكم » ليس مُراداً به رفعُ حكم كان واقعاً على المؤمنين ، ملزماً لهم ، حيث كان الواحد منهم مطالباً بقتال وقتل عشرة من العدو ، ثم أصبح مطالباً بقتال وقتل اثنين ـ بل إنه إلفاتٌ للمسلمين إلى ما أمدهم الله سبحانه وتعالى به من أنصار وأعوان ، حين كثّر أعدادهم ، وأنهم الآن ليسوا هم وحدهم الذين يحملون عبء الدفاع عن الدعوة الإسلامية ، فى وجه عدو يملأُ وجه الأرض حولهم ، فقد كثرت

أعداد المسلمين معهم ، وإن كانوا أضعف منهم إيماناً ، وصبراً على مكاره الحرب ، واستبسالاً فى لقاء العدوّ .

فالآية الأولى خبر ، يكشف عن حال ، والآية الثانية ، خبر آخر يكشف عن حال أخرى .

وعلى هذا تظل الآيتين تحدثان عن حالين من أحوال المسلمين ، حالهم حين يكون إيمانهم على هذا المستوى الذى كان عليه المسلمون الأولون السابقون من المهاجرين والأنصار . . وحالهم حين يضعف إيمانهم فتعرض لهم عوارض الضعف والوهن فى لقاء عدوّهم .

وهذا من شأنه ألا يقطع الأمل فى نفوس المسلمين بأن ينشدوا القوة دائماً ، وأن يلتمسوها فى الإيمان والصبر ، وأنه كلما قوى إيمانهم وصبرهم قويت شوكتهم ، واشتدت على العدوّ وطأتهم ، وكان حساب الواحد منهم راجحاً بعشرة من العدو المقاتل لهم . .

فإذا كانت جماعة من جماعات المسلمين فى صقع من أصقاع الأرض ، تقاتل فى سبيل الله ، وكانت فى قلة ظاهرة أمام عدوّ كثيف العدد ، فإنّ لها أن تنشد المدد من الإيمان بالله ، وأن تنظر إلى نفسها على ضوء قول الله تعالى : « إِنْ يَكُنْ منكم عشرون صابرون يغلبوا مِئَتَيْنِ وإن يكن مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » فإن هم فعلوا ذلك ، وأخلصوا النية والعمل لله ، حققوا هذا الوصف الذى وصف الله سبحانه وتعالى به المؤمنين ، الذين خلت نفوسهم من الضعف ، والوهن . .

وقد فعل المسلمون هذا فعلًا ، فى سيرتهم مع الإسلام ، وفى انتصارهم على أعدادٍ تكثرهم أكثر من عشرة أضعاف .

فإن كنت فى شك من هذا فاسأل التاريخ . . بكم من المسلمين فتح

خالد بن الوليد مملكة فارس ؟ وبكم من المسلمين فتح أبو عبيدة بن الجراح بلاد الروم ؟

وكم كانت أعداد المسلمين الذين فتح بهم عمرو بن العاص مصر ؟ وبكم من المسلمين اقتحم طارق بن زياد بلاد الأندلس ، واستولى على زمام الأمر فيها ؟

وجواب التاريخ هنا شهادة قاطعة بأن المسلم إذا استنجد بإيمانه بالله ، كان وحده كتيبة تغلب العشرات ، لا العشرة من جند العدو . .

ونسأل :

تُرى لو فهم المسلمون هاتين الآيتين — الناسخة والمنسوخة — على أنهما حكمين ،مُلزِمين لهما . . أ كان هذا الذى كان منهم ، فيما يحدّث به التاريخ عنهم فى ميدان القتال ؟ وفيما حققوه من نصر مبين على أعدائهم الذين التقوا بهم فى أكثر من ميدان ، وهم قلة قليلة فى وجه أعداد كثيرة ، إذا أحصيت كان المسلم محسوباً فيها بحساب عشرات وعشرات ؟ .

وفى قوله تعالى فى وصف العدو المقاتل للمؤمنين : « ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » ما يكشف عن الفارق الذى فرق بينهم وبين المؤمنين ، حتى كان المؤمن يغلب عشرة منهم ، وقد يكون فى هؤلاء العشرة من هو أقوى قوة ، وأمتنَ بناء ، وأشدّ ساعداً . .

ذلك أن المشركين ، والكافرين من أعداء المؤمنين « قوم لا يفقهون » أى لا يسكن إلى كيانهم إيمان بالله ، وباليوم الآخر ،فهم حين يقاتلون إنما يقاتلون على مخاطرة بحياتهم التى يحيونها فى الدنيا ، ولا تخطر ببالهم خاطرة أن وراء هذه الحياة حياةً أخرى أخلد وأبقى ، وأطيب وأهنأ لمن آمن واتقى . . ومن هنا كان حرصهم على ما فى أيديهم من حياة حرصَ الشحيح على شَربة ماء تقع ليده

على ظمأ ، فى صحراء . . ومن هنا أيضا كان جبنهم فى مواقف القتال ، وانحلال عزائمهم ، وزيغان أبصارهم ، وتطاير قلوبهم هلعاً وفزعاً .

هذا ، على حين أن المؤمن يقاتل وهو على « فقه » بالموقف الذى يقفه ، وأنه صائر به إلى إحدى الحسنيين ، إما النصر الذى يكتب به للإسلام عِزًّا ، وينال به عند الله أجراً ، وإما الاستشهاد الذى ينتقل به إلى دار خير من داره ، وإلى عالم أكرم وأطيب من عالمه ، حيث ينطلق فى رحاب الله ، ينعم بما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

الآيات : (٦٧ — ٧١)

« مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (٧١)

التفسير : قوله تعالى : مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فى الأَرْضِ » .

نَزَلت هذه الآية فى غزوة بدرٍ ، وفى شأن الأسرىَ الذين وقعوا فى يد المسلمين من مشركى قريش ، وكانت عِدّتهم سبعين أسيراً . .

وقد استشار النبيّ أصحابه فى شأنهم ، إذ لم يكن قد جاءه أمرٌ سماوىٌ فيهم ، فاختلف الصحابة فى المعاملة التى يعاملونهم بها .. فقال بعضهم بقتلهم ، وذلك ليكونوا عبرةً لغيرهم ، وتوهيناً لشوكة المشركين ، بالقضاء على القوة العاملة فيهم ، إذ كان هؤلاء الأسرى وجوهَ القوم وسادَتهم .. وينسب هذا الرأى إلى عمر ابن الخطاب ، وعبد الله بن رواحة ـ رضى الله عنهما . . وقال بعض الصحابة باستبقائهم وأخذ الفدية منهم ، إبقاء على أواصر القربى ، وإعانةً المسلمين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم ، بما يُؤخذ منهم فدية . . وينسب هذا الرأى إلى أبى بكر الصديق . . رضى الله عنه .

وقد أخذ النبى صلى الله عليه وسلم بالرأى القائل باستبقاء الأسرى وقبول الفدية منهم . .

ثم أخذ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الفديةَ من بعض الأسرى ، ثم كان لا يزال ينتظر مافرض على بعضهم منها ، حين نزل قوله تعالى : « ما كان لنبىٍّ أن يكون له أسرى حتى يُثخن فى الأرض » . .

والإثخان فى الأرض : التسلط عليها والتمكن منها بالقوة . . يقال أُثخن فلان أى جُرِح فى القتال جَرْحًا شَلَّ حركته ، وأبطل عمله فى الحرب ، ومنه قوله تعالى : « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » (٤ : محمد)

وفى توجيه الخطاب إلى النبىّ توجيهاً غير مباشر فى قوله تعالى « ما كان لنبىٍّ » تكريم ربانىّ للنبىّ الكريم ، إذ لم يوجّه إليه سبحانه الخطابَ فى صيغة محدّدةٍ مباشرة هكذا . . « ما كان لك أيها النبى » مثلاً . .

وفى توجيه اللوم إلى المؤمنين بقبول الفدية فى قوله تعالى : « تريدونَ عَرضَ الدنيا » تكريم بعد تكريم لمقام النبىّ ، وعدم مواجهته بما يسوؤه . .

والعَرَض : خلاف الجوهر ، وعرَض الدنيا ، متاعها الزّائل . . والدنيا كلّها عرض زائل بالنسبة للآخرة .

وفى قوله تعالى : « لولا كتابٌ من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم » عتابٌ للنبىّ والمؤمنين ، على ما كان منهم من قبول الفدية ، وأنهم ما كان لهم أن يقبلوا فديةً من هؤلاء الأسرى ، بل كان ينبغى أن يكون حكمهم فيهم هو القتل . . لأنهم كانوا فى أول صدامٍ لهم مع المشركين ، وكان مكانهم فى الأرض لايزال قلقاً مهدداً بقوى البغى المسلطة عليهم . .

فكان من التدبير أن يُضعِفوا عدوّهم بقتلهم ، ما أمكنتهم الفرصة فيهم ، حتى تتراخى يد العدوّ عنهم ، وتثبت أقدامهم على الأرض . . وعندئذ يجوز لهم أن يُبقوا على الأسرى ، وأن يقبلوا الفدية منهم . .

ومن جهة أخرى ، فإن المسلمين كانوا مع أول تجربة ذاقوا فيها طعم النصر على العدوّ ، فلا ينبغى أن يكون أولَ مايَطْعَموه من هذا النصر هذا العرَضُ الزائل ، فذلك من شأنه أن يجعل للمغانم سلطاناً على نفوسهم فى حربهم للعدوّ ، الأمر الذى كان من تدبير الحكيم العليم معهم ، أن يحرمهم مِنه أولَ الأمر ، إذ جعل أنفال معركة بدر كلّها ليد النبىّ ، يضعها حيث يشاء .

والسؤال هنا : هل من إنسانية الإسلام أن يَقْتل الأسرى ، ويُعمل فيهم السيف ، وقد صاروا ذمّة فى يد المسلمين ؟

والجواب على هذا : أن ذلك كان فى أول معركة من معارك الإسلام ،

وأن هؤلاء الأسرى كانوا ـ فى جملتهم ـ معروفين للنبىّ والمسلمين ، بكيدهم للإسلام ، وعدوانهم على المسلمين ، وتنكيلهم بهم حتى أخرجوا من ديارهم وأموالهم . . فهم ـ والحال كذلك ـ واقعون تحت حكم المفسدين فى الأرض، المحاربين لله ورسوله ، وفيهم يقول الله تعالى :

« إِنَّمَا جَزَآءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » * (٣٣ — ٣٤ : المائدة)

وقد أهدر النبىّ دمَ بعض المشركين الذين كانوا على تلك الصفة ، فقتل اثنين من الأسرى ، صَبْراً ، وهما عقبة بن أبى مُعَيط ، والنضر بن الحارث .

والكتاب المشار إليه فى قوله تعالى : « لولا كتابٌ من الله سَبَق لمسّكم فيما أخذتم عذابٌ عظيم » ـ هو ماقضى الله به سبحانه وتعالى فى سابق علمه ، وهو العفو عن الذنب إذا لم يكن قد جاء حكم إلهى بتحريمه ، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى : « وما كان اللهُ ليضِلّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبيّن لهم مايتقون » (١١٥ : التوبة) .

ولهذا جاء قوله تعالى بعد هذا العتاب ، حاملاً الصفح الجميل ، مزكّيا ما فعله النبىّ والمؤمنون ، فقال سبحانه : « فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً » فهو الحلال الذى لا حرمة فيه،الطيّب الذى لاخُبث معه .. وكان هذا إيذاناً للنبىّ صلى الله عليه وسلم بأن يَمضى فيما قضى به فى شأن الأسرى ، وأن يقبل فِداء من لم يأخذ منه فدية بعد ، وهذا ما يفهم من قوله تعالى : « يأيها النبىّ قل لمن فى أيديكم

من الأسرى إن يعلم اللهُ فى قلوبكم خيراً . . » الآية . . فهذا يعنى أنه إلى حين نزول هذه الآيات كان بعضُ الأسرى فى يد المسلمين لم يُطلق سَرَاحهم بعْدُ . .

وفى قوله تعالى : « إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتـكم خيراً مما أُخِذ منكم ويغفر لـكم والله غفور رحيم » ـ فى هذا عزاء ومواساة من الله سبحانه وتعالى لهؤلاء الأسرى ، الذى أصيبوا فى أهليهم ، بمن قتل منهم فى بدر ، وهاهم أولاء يُصابون فى أموالهم بما يؤخذ منهم من فدية .. وفى هذا العزاء مايذهب بكثير مما فى نفوسهم من أسًى ومرارة ، ومافى قلوبهم من ضغينة وحقد على الإسلام والمسلمين ، إذ يرون فى هذا العزاء الإلـهى دعوة إلى التصالح والتفاهم والالتقاء بالإسلام ، والمواخاة للمسلمين ، وأن الله سبحانه وتعالى ليس ربَّ المسلمين وحدهم ، بل هو ربهم ، وربّ العباد جميعاً ، وربّ كل شىء ، وخالق كل شىء ، وأن الإسلام ليس من حظ هؤلاء المسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله ، وكان لهم من الله هذا النصر الذى رأوه بأعينهم رأي العين فى بدر ـ بل إنه حظ مشاع بين الناس جميعاً ، مَن سبق منهم ومن لم يسبق ، وأن الناس جميعاً مدعوون إليه فى كل وقت إلى يوم القيامة !

وعلى هذا التقدير ، وبهذا الحساب ـ تـكون معركة بدر ليست نصراً للمسلمين الذين قاتلوا فيها ، وإنما هى نصر للإسلام ، ونصرٌ لـكل مسلم دخل أو يدخل فى الإسلام ، لأنها ليست لحساب شخص أو قبيلة ، وإنما هى لحساب هذا الدّين الذى يرتفع بمبادئه فوق الأشخاص والقبائل ، ويتخطّى بشريعته حدود المكان والزمان . .

وفى قوله تعالى : « إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتـكم خيراً مما أخذ منـكم . . . ».

فى هذا يُسأل عنه وهو : كيف يعلّق علم الله تعالى بما فى قلوبهم، على شرط ؟ وهو سبحانه وتعالى يعلم مافى القلوب قبل أن توجد القلوب وأصحاب القلوب ؟

والجواب ـ كما قلنا فى أكثر من مرة ـ أن تعليق علم الله بأفعال العباد لا يعنى بحالٍ ما ماهو واقع فى علم الله مما سيفعله العباد ، ولكن المراد بهذا التعليق هو العلم الواقع على الأفعال حالَ وقوع هذه الأفعال من المكلّفين . . فعلم الله سبحانه بهذه الأفعال علم متصل بها فى جميع أحوالها وأزمانها ، فهو عالم بها قبل أن تحدث وتقع من أصحابها ، وعالم بها بعد أن تقع وتحدث ، وتعليق علم الله سبحانه بحدوثها ووقوعها ، هو إلفات لأصحابها ، وإلى علم الله بهم وبأفعالهم وهم متلبسون بها ، ومحاسبون عليها .

وفى قوله تعالى : « يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيمٌ » هو وعدٌ كريم لمن ينظر لنفسه من هؤلاء الأسرى ، ويَخْلُص بها إلى الله ، ويدخل فى دين الله ، وعندئذ سيشارك المسلمين فيما سيفتح الله به عليهم ، وما يقع لأيديهم من غنائم . . وأكثر من هذا ، فإن الله سبحانه وتعالى سيقبلهم فى المقبولين من عباده ، ويغفر لهم ما كان منهم من عداوة للإسلام ، وأذى المسلمين .

قوله تعالى : « وإن يُريدوا خيانتك فقَدْ خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليمٌ حكيم » هو وعيد لأولئك الذين لم يستجيبوا لهذا النداء الكريم ، وهذا الصفح الجميل من رب العالمين ، فأمسكوا على مافى قلوبهم من عداوة وضغينة وطووْا صدورهم على الثأر والانتقام ـ فهؤلاء إن يخونوا الرسول، فإنهم قد خانوا الله من قبلُ ، بأن كفروا به ، وهو ربهم ، وخالقهم ، ورازقهم ، فإذا خانوا الرسول بعد هذا ، فليس ذلك بالشىء الغريب عليهم ، فكفرهم بنعم المنعم

عليهم طبيعة فيهم.. وهم بهذه الخيانة لله قد جنوا على أنفسهم ، فأمكن الله منهم ، أى انتقم الله منهم ، وساقهم إلى ما هم فيه من أسر . ولو أنهم لم يخونوا الله ، واستجابوا لدعوة الإيمان لعافاهم الله من هذا البلاء . . فإن ظلوا على ما هم عليه من خيانة لله ، وخيانة للرسول ، فسيرون من البلاء والنكال أكثر مما رأوا « والله عليم » بما فى قلوبهم « حكيم » فيما يقضى فيهم ، وما يأخذهم به من عقاب .

الآيات : (٧٢ — ٧٥)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوٓا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ ٱسْتَنْصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (٧٥)

التفسير : مناسبة هذه الآيات للآيات التى قبلها ، هى أن المؤمنين والمشركين كانوا بعد تلك المواجهة التى شهدوها فى بدر ـ كانوا قد تحددت معالمهم ،

واستعلنت مواقفهم ، وإذا هم جبهتان متقاتلتان ، وفريقان متخاصمان ، كل منهما يطلب الآخر ، ويقتضيه ما يقتضى الغريم من غريمه . .

وقد ذكرت الآيات السابقة مراحل هذا الصراع الذى كان قائماً بين الفريقين ، وعرضت أحداثَ بدر وما وقع فيها ، وما أحرز المسلمون من نصر ، وما مُنى به المشركون من هزيمة ، ثم عرضت المغانم والأسرى وما قضى الله فيهما .

فكان من المناسب أن تُختم السورة بهذه الآيات التى تخطط الحدود ، وترسم المواقع والمواقف التى يأخذها المؤمنون من الكافرين حتى يكونوا على بيّنة من أمرهم ، فيما يأخذون أو يدعون من الجبهة المقاتلة لهم .

وقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » . هو بيان لحكم الجماعة الإسلامية فيما بينها ، فهم — المهاجرون والأنصار — جبهة واحدة ، وكيان واحد ، يجمعهم هذا النسب الكريم الذى انتسبوا له ، وهو الإسلام ، الذى يعلو كل نسب ، ويفضُلُ كل قرابة .

فمن أجل الإسلام هاجر المهاجرون ، ومن أجل الإسلام جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . وفى سبيل الله آوى الأنصار المهاجرين وشاركوهم أموالهم وديارهم ، وفى سبيل الإسلام انتصروا لهم ونصروهم . .

فهؤلاء جميعاً — من مهاجرين وأنصار — بعضهم أولياء بعض ، ينصر بعضهم بعضاً ، ويُحامى بعضهم عن بعض ، ولو حملهم ذلك على لقاء آبائهم وأبنائهم وقتالهم وقتلهم فى سبيل الله .

وهناك مؤمنون ، ولكنهم لم يهاجروا ، قد حبستهم قريش ، أو منعهم

مرض أو شيخوخة ، أو حرصٌ على الديار والأموال ، أو إيثار للعافية والسلامة .

فما حكم هؤلاء المؤمنون ؟ وما وضعهم فى المؤمنين من المهاجرين والأنصار ؟ إنهم لاشكّ أعضاء فى هذا الجسد الإسلامى الجديد ، الذى تبرز سماته فى المهاجرين والأنصار . ولكن كان الإسلام فى دوْر البناء للمجتمع الإسلامى ، وكان من أجل هذا فى مسيس الحاجة إلى كل يد عاملة لدعم هذا البناء ، ورفع بنيانه — الأمر الذى جعل الهجرة إلى المدينة التى آوى إليها الرسول ، واتخذ منها مركزاً لدعوته ، أمراً له قَدرُه وأثره فى رفع درجة المؤمن ، وتشريفه بهذا المقام الكريم الذى أفرد الله سبحانه وتعالى به المهاجرين ،وجعل لهم وللأنصار ذكراً طيباً ، جاء به القرآن الكريم أكثر من موضع . .

من أجل هذا ، فإن الذين آمنوا ولم يهاجروا - لِعلّة أو لأكثر - لم يكن حسابهم قائماً على هذا التقدير الذى يسوّى بينهم وبين المهاجرين ، أو الأنصار . . إذ كان المهاجرون ، مؤمنين ، ومعهم مع إيمانهم هجرة ، وكان الأنصار مؤمنين ، ومعهم مع إيمانهم أنهم آووا ونصروا . . أما المؤمنون الذى حبستهم أعذارهم عن الهجرة ، فإنهم لم يضيفوا إلى إيمانهم شيئاً مما فعله المهاجرون أو الأنصار . . فهم والحال كذلك ليسوا بالذين يدخلون فى ذمّةِ المؤمنين فى هذه المرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية ، بحيث يمنعونهم من عدوّهم ، ويدفعون عنهم ما يعرض لهم من ظلم وبغى ، وهم فى ديار الظالمين . . وحسب المهاجرين والأنصار فى هذه المرحلة من مسيرة الدعوة الإسلامية — حسبهم أن ينظروا لأنفسهم ، وأن يدفعوا البغى المتسلط عليهم .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا » . . وفى هذا تخفيف عن الجماعة الإسلامية ، وإعفاء لها من حمل عبء فوق أعبائها ، وهو الدفاع عن الأفراد

أو الجماعات الذين آمنوا ولم يهاجروا ، بل ظلّوا بين أهليهم وأقوامهم الذين ينظرون إليهم نظرات مغيظة حانقة ، ترمى بالضر والأذى .

ولو دخل هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا ـ لو دخلوا فى ذمة المؤمنين وفى ولائهم ، لكان على المؤمنين الانتصار لهم من كل ظلم ، والحماية لهم من كلّ عدوان،وهذا يجعل الجماعة الإسلامية ـ مع ماهى عليه من قلة عدد يومئذ ـ فى وجه حرب متصلة ، مع قبائل العرب جميعاً ، حيث كان فى كل قبيلة فرد أو أفراد من الذين آمنوا ، واستجابوا لله وللرسول . . وكان وضع هؤلاء الأفراد فى أقوامهم محفوفاً بالمكاره ، متصلاً بالضرّ والأذى ، فلو دخلوا فى ذمة المسلمين لكان على المهاجرين والأنصار ، نصرهم ودفع الضر عنهم .

وفى قوله تعالى : « وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ » . . هو بيان للحال التى يجب على جماعة المسلمين أن ينتصروا فيها لمن يستنصر بهم من المؤمنين الذين لم يهاجروا ، وتلك الحال هى أن يكون استنصار المستنصرين بهم من أجل الدّين ، ولحساب الدّين ، لا لعصبية نسب أو قرابة أو حِلف .

ومعنى الاستنصار فى الدين أن يجد هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا ، فرصةً سانحة لنصرة الدين ، فى مواطنهم التى هم فيها ، كأن تجد تلك الجماعة التى لم تهاجر ، قدرة على دفع عدوان المعتدين عليها ولكنها تحتاج إلى مساندة عدد من المسلمين ـ عندئذ يجب على الجماعة الإسلامية أن تناصرها وتشدّ ظهرها بالرجال والسلاح . . ففى هذا انتصار لدعوة الإسلام ، وتمكين لها فى هذا الموطن الجديد . .

هذا ، وقد ذهب أكثر المفسّرين أن الولاية هنا هى التوارث بينهم ، وقالوا : إن المهاجرين والأنصار كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة ، جاعلين

نَسَبَ الإسلام بينهم ، أولى من نسب القرابة . . ثم نُسخ ذلك بقوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض » . . وقد كان رأينا على غير هـذا ، وهو أن المراد بالولاية : التناصر ، والتعاطف ، وتلاحم المشاعر ، فى ظل الأخوة الإسلامية . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إنما المؤمنون أخوة » (١٠ : الحجرات) وفى هذا يقول الرسول الكريم كما رواه مسلم : « مثل فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منهُ عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمى » .

وفى قوله تعالى : « فعليكم النصرُ » إلزامٌ للجماعة الإسلامية بأن تقوم بالانتصار لمن استنصر بها من أجل الدّين . .

وفى قوله تعالى : « إلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ » استثناء من الحكم الموجب على الجماعة الإسلامية الانتصارَ لمن يستنصر بهم من المؤمنين دفاعاً عن الإسلام ، ودعوة الإسلام . . وذلك أنه إذا كان هناك ميثاق وموادعة بين المسلمين وَبين من دعاهم المؤمنون إلى حربهم ، حينئذ يجب على المسلمين أن يحترموا هذا الميثاق ، وأن يلتزموا حدوده ، وأن يقوموا على الوفاء به ، ولا يدخلوا فى حربٍ مع من دُعوا إلى حربه ، وهو موادع لهم بميثاق واثقهم عليه .

* قوله تعالى : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِى الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ » : هو تقرير لحكم واقع بين الكافرين وهو أنهم على ولاء فيما بينهم . وأنهم حزبٌ واحدٌ ، مجتمع على عداوة المؤمنين ، ناصبٌ لحربهم ، راصِدٌ للفرصة الممكنة له منهم . .

وليس فى هذا الذى يقرره القرآن الكريم دعوة لجماعات الكافرين أن

يكونوا على هذا الولاء الذى بينهم ، وإنمــا هو ـ كما قلنا ـ تقرير لأمر واقع ، يرى منه المؤمنون كيف يجتمع أهل الضلال على الضلال ، وكيف يقوم بينهم الولاء والتناصر . فالمؤمنين ثم أولى لهم ، أن يجتمعوا على الإيمان ، وأن يتناصروا على الحق والخير .

وفى قوله تعــالى : « إلا تفعلوه تــكن فتنة فى الأرض وفسادٌ كبير » إشارة إلى ما ينبغى أن يكون بين جماعة المؤمنين من تلاحم وتناصر . وأنهم إن لم يفعلوا هذا ، فسَدَ أمرهم ، وتمــكَّن العدوّ منهم ، وسقطت راية الحق التى يقاتلون عليها ، وخلا وجه الأرض للفساد والمفسدين .

والضمير فى« تفعلوه » يعود إلى الولاء الذى ينبغى أن يكون بين المؤمنين ، بعد أن دعاهم الله إليه فى قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووْا ونصروا أولئك بعضهم أوليــاء بعض » . وبعد أن لفتهم سبحانه إلى مابين أهل الــكفر والضلال من ولاء والتقاء على البغى والعدوان .

* وقوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » .

هو عرض للمهاجرين والأنصار ، وإفراد لهم بتلك المنزلة الرفيعة من الإيمان الذى حقّقوا صفته فيهم على أكمل وجهٍ وأروعه . . « أُولٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا » أى المؤمنون إيمانا كاملاً ، لم تَشُبْهُ شائبة من ضَعْفٍ ، ولم تَعلَق به خاطرة من شك أو ريب . . فهو الإيمان الخالص ، وهو الحقّ حقًّا . « لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » أى مغفرة عامة شاملة ، تنال كلّ ذنوبهم ، ولهم « رزق كريم » طيب ،من كل شىء ، فى الدنيا وفى الآخرة .وهذا من

بعض الأسرار التى جاء عليها النظم القرآنى فى تنكير المغفرة والرزق الكريم ، حيث يراد بهما العموم والشمول . .

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ » .

هذا إغراء لمن تحدّثه نفسه ، وتنزع به همته أن يكون فى هذا الموكب الكريم الذى انتظم أولئك الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى هذا الوصف الكريم ، وحلاّهم بحلية الإيمان الكامل ، وأنزلهم منازل مغفرته ورضوانه . . إغراء لكل من يطلب هذا المقام الكريم أن يستحثّ خُطاه إليه ، وأن يتخفف من كل ما يمسكه عن الهجرة ، فيهاجر إلى من سبقوه إلى دار الهجرة ، وهناك سيأخذ مكانه بينهم ، وينزل حيث أنزلهم الله فى منازل فضله وإحسانه . . فإن الطريق إلى الله مفتوح دائماً ، ورحمة الله تسع كل شىء ، وعطاؤه موصول لا ينقطع ، ولا ينفد .

* وفى قوله تعالى بعد هذا : « وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ » إشارة إلى ما بين المؤمنين — مَن سَبَق منهم ومن لحق — مِن نسب قريب ، ورحِمٍ ماسّة . . فيهم جميعاً أبناء أب واحدٍ ، هو الإسلام ، الذى يولدون فيه حالاً بعد حال ، وجيلاً بعد جيل .

وقوله سبحانه : « فِي كِتَابِ اللهِ » يحتمل وجهين : إما أن يكون متعلقاً بقوله تعالى : « أَوْلَى » ويكون المعنى : وأولوا الأرحام ـ أى المؤمنون ـ بعضهم أولى ببعض فيما جاء فى كتاب الله ، أى دين الله ، الذى حمله كتاب الله وهو القرآن . . بمعنى أن ولاء المؤمنين بعضهم لبعضٍ ، إنما هو فيما هو حق وخير وإحسان ، وهذا الخير والإحسان مما هو فى كتاب الله ، الذى آمنوا به ، ودانوا بشريعته .

وإما أن يكون استئنافاً ، هو جواب لسؤال مقدر ، وتقديره : « من أين جاء هذا الحكم الذى قرّرته الآية فى قوله تعالى : « وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ » ؟ فكان الجواب : « فِي كِتَابِ اللهِ » أى فى علم الله ، وفيما أقام العباد عليه ، حيث جعل بين أولى الأرحام مودة ، ورحمة ، وولاء . . ومثل هذا ما جاء فى قوله : « إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ » أى فى علمه وتقديره ، وتدبيره . . « إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

هذا ، وقد ذهب أكثر المفسّرين إلى أن قوله تعالى . . « وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بعضهم أولى ببعض » هو مراد به الولاية فى التوارث ، بحكم القرابة بينهم ، على ما جاء فى كتاب الله سبحانه ، فى أحكام الميراث .. وعلى هذا تكون هذه الآية ناسخة لما قررته الآيات السابقة فى قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض . . إلى قوله تعالى : « وَأُولُوا الأرحام بعضهم أولى ببعض » .

وقد روى عن ابن عباس قال : « آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ، وورّث بعضهم من بعض ، حتى نزلت هذه الآية ، فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب .

ويروى عن ابن عباس أيضاً ، أنه استدل بقوله تعالى : « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض » على توريث ذوى الأرحام الذين ذكرهم الفرضيون ، وذلك لأنها نُسخ بها التوارث بالهجرة ولم يُفرّق بين العصبيات وغيرهم ، فيدخل من لا تسمية[1] لهم ، ولا تعصب ، وهم . . م (أى ذوو الأرحام) . .

(١) أى من لم يذكروا فى آية المواريث .

والقول بنسخ هذه الآية لما قررته الآيات التى قبلها ، من ولاء المسلمين بعضهم لبعض ، وتناصرهم وتعاطفهم . . هذا القول مردود من وجوه :

فأولاً : أن الأحكام التى قررتها الآيات السابقة من وجوب قيام تلك الوحدة الشعورية بين المسلمين ، بحيث تجعل منهم كياناً واحداً — هذه الأحكام ، هى من صميم الدعوة الإسلامية ، ومن الدعائم القوية التى قام عليها بناء المجتمع الإسلامى ، بحيث يؤثر المؤمن إخوانه فى الإيمان ، على أهله وذوى قرابته . . كما يقول تعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُو لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » (٢٣ : التوبة) — ويقول سبحانه : « لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » (٢٢ : المجادلة) .

فهذه العزلة الشعورية التى تعزل المؤمن عن الذين يحادُّون الله ورسوله ، من أهله وأقرب المقربين إليه ، يقابلها تلاحم فى المشاعر ، وتزاوج فى العواطف ، بين المؤمن وجماعة المؤمنين .

فالإيمان عند المؤمن هو نسبه الذى ينتسب إليه ، وعلى هذا النسب يصل الناس أو يقطعهم ، ويوادّهم أو يجافيهم ، ويسالمهم أو يحاربهم ! .

فكيف تجىء آية قرآنية تنسخ هذا المبدأ ، الذى هو أقوى دِعامة فى بناء المجتمع الإسلامى !

وثانياً : آيات المواريث التى ذكرها الله سبحانه وتعالى فى سورة النساء، تقرر فى صراحة واضحة أحكامَ الميراث بين ذوى القربى ، بحيث لا تدع مجالاً لغيرهم أن يشاركهم فى هذا الميراث ، الذى فُرض لهم فيها .

فقوله تعالى : « وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ » لا يضيف جديداً إلى ما قررته آيات المواريث : . ولو كان لها مكان فى أحكام الميراث ، لكان مكانها بين آيات الميراث ، لا فى هذا الموضع الذى يقرر أسساً ومبادىء للعلاقات التى تقوم بين المؤمنين ، ثم بينهم وبين غير المؤمنين . .

وثالثاً : ما يقال من أن هذه الآية نسخت التوارث الذى قام بين المهاجرين والأنصار بحكم التآخى الذى أقامه الرسول بينهم ــ متوجَّه له ، لأن آيات المواريث تغنى فى تطبيقها عن الاحتياج إلى نص صريح بتحريم التوارث على هذا النسب الذى أقامه النبىّ الكريم بين المهاجرين والأنصار . . بل إن آيات المواريث نفسها قد تقدمها النصّ القرآنى : « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضًا » . هذا إذا كانت الأحكام الواردة فى آيات المواريث تحتاج إلى بيان لعلة التوارث بين الأقارب .

هذا ، وقد جاء فى سورة الأحزاب قوله تعالى : « النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّآ أَنْ تَفْعَلُوٓا إِلَىٰ أَوْلِيَآئِكُمْ مَعْرُوفًا » ــ جاء هذا مقرراً الولاية بالقرابة والنسب ، بعد أن أبطل التبنّى ! وذلك مراعاة لمقتضى الحال .

سُـــورة التَّوْبة

أسمـاؤها :

حملت « التوبة » أكثر من اسم دال عليها ، فمن ذلك :

« براءة » لافتتاحها بتلك الكلمة . .

و « التوبة » لكثرة ذكر التوبة فيها . .

و « الفاضحة » لأنها فضحت المنافقين ، وكشفت وجوههم للنبيّ والمؤمنين . . قال ابن عباس : التوبة : هي الفاضحة . . ما زالت تنزل : « ومنهم » ، « ومنهم » ، حتى ظننا أنه لا يبقى أحد منا إلا ذُكر فيها .

و « المبعثرة » لأنها تبعثر أسرار المنافقين ، وتكشفها

و « المُقَشقشة » لأنها تبرىء المؤمن ، فتخلى قلبه من النفاق

و « البَحُوث » لأنها تبحث عن نفاق المنافقين .

نزولها :

نزلت بالمدينة باتفاق . . وهى آخر سورة نزلت من القرآن الكريم ، على أرجح الأقوال .

عدد آياتها : مائة وتسع وعشرون آية

عدد كلماتها : ألفان وأربعمائة وسبع وتسعون كلمة .

عدد حروفها : عشرة آلاف وسبعمائه وسبعة وثمانون حرفاً .

الآيات : (١ — ٥)

« بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » (٥)

التفسير : المناسبة قريبة بين سورة التوبة ، وسورة الأنفال قبلها . . بل إن بينهما لأكثر من وجه من الوجوه الجامعة بينهما على سبيل الوفاق ، أو المقابلة .

فأولاً : خُتمت سورة الأنفال بالكشف عن الحدود الفاصلة بين المؤمنين وغير المؤمنين ، بحيث وضح موقف كل منهما من الآخر . . فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض ، والكافرون بعضهم أولياء بعض . .

وثانياً : بدئت سورة التوبة بهذا الإعلان العام الذى كان تطبيقاً للأحكام التى تضمنتها الآيات الواردة فى آخر الأنفال ، من عزل المؤمنين عن الكافرين ،

حيث قضى هـذا الإعلان ببراءة الله ورسوله من المشركين ، ومن العهود المعقودة معهم .

وثالثاً : كانت سورة « الأنفال » أول مانزل من القرآن بالمدينة ، على حين كانت « التوبة » آخر سورة نزلت من سورة القرآن بالمدينة أيضاً !

لهذا وغيره من المناسبات الجامعة بين السورتين ، كان جمعهما على هـذا النسق ، فجاءت الأنفال ، ثم جاءت بعدها التوبة ، حتى لـكأنهما سورة واحدة، الأمر الذى اقتضى عدم تصدير سورة التوبة بالبسملة ، كما صدرت جميع سور القرآن . . هذا ما ذهب إليه كثير من العلماء فى التعليل لعدم تصدير «التوبة» بالبسملة .. وذهب آخرون فى تعليل ذلك إلى أن سورة التوبة خطاب للـكافرين والمشركين ، وأنها إعلانُ حربٍ عليهم ، ولا يناسب ذلك أن يصدّر الحديث إليهم باسم الله الرحمن الرحيم . وقد اعترض على هذا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بدأ كتبه إلى من دعاهم إلى الإسلام من المشركين والـكافرين بالبسملة. ورُدّ على هذا الاعتراض بأن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان فى كتبه إلى من كتب إليهم يدعو إلى الإسلام ، والسـلام ، وإلى الخير والرحمة ، فناسب أن يُصدّر ذلك باسم الله الرحمٰن الرحيم . . وليس كذلك ما حملت « براءة » إلى الـكافرين والمشركين ، من نذر التهديد والوعيد .

وقيل : إن التوبة مكملة لسورة الأنفال ، فهما سورة واحدة ، كلتاهما نزلت فى القتال ، وتعدّان معاً السابعة من الطّوَل (أى السبع الطوال) ، والطّوَل سبع سور ، هى البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمـائدة ، والأنعام ، والأعراف ـ ثم الأنفال والتوبة ، وما بعدها المثون . . (أى ما اشتملت السورة منها على مئة آية أو نحوها .

وقوله تعـالى : « بَرَآءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ » .

هو إعلان بقطع العلائق التى كانت تصل المؤمنين بالمشركين ، من عهود ومواثيق . . وذلك لِمَا أحدث المشركون من عبث بهذه العهود ، واستخفاف بها ، إذ أنهم كانوا لا يمسكون بها إلا إذا وجدوا فى ذلك مصلحة محققة لهم ، فإذا أمكنتهم الفرصة فى المسلمين أنكروا هذه العهود ، وألقَوْا بها كما تُلقى نفايات الطعام بعد الشبع ! وإذا كان أحد الطرفين المتعاقدين لا يوقّر ما تعاقد عليه ، ولا يُنزله من نفسه منزلة الاحترام والرعاية ، ولا يستقيم عليه إلا إذا لم يكن له من ذلك مصلحة خاصة ـ كان ذلك العقد غبناً فاحشاً على الطرف الآخر ، الملتزم له ، الحريص على الوفاء به ، حيث تمكنه الفرصة فى عدوّه فلا يهتبلها ، على حين لو أمكنت الفرصة خصمه لم يلتزم العقدَ الذى بينهما . .

فكان نقض هذه العهود القائمة بين المسلمين والمشركين وضعاً للأمر فى موضعه الصحيح ، إذ هو إقرار لحقيقة واقعة ، ونقض لعهود منقوضة من قبل أن يجف المداد الذى كُتبت ، ولا ينتظر المشركون لنقضها إلا الوقت المناسب ، والفرصة السانحة . .

وقد تولّى الله سبحانه وتعالى عن المسلمين نقضَ هذه العهود ، وجعل سبحانه وتعالى ذلك إليه وإلى رسوله الكريم : « بَرَآءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » وذلك ليدفع عن المسلمين الحرَج الذى ربما وجدوه فى صدورهم لو أُمروا بنقض هذه العهود . . وفى هذه ما فيه من لطف اللهِ وإحسانه إلى المسلمين ، ورعايته لهم ، وبرّه بهم .

والبراءة من الشىء ، والتبرؤ منه ، هو مجافاته ، وقطع الصلة به ، والله سبحانه وتعالى ، إنما يبرأُ من المشركين ، لأنهم برئوا منه . . ومعنى براءته سبحانه وتعالى منهم ، طردهم من رحمته ، وتركهم للأهواء والضلالات المتسلطة عليهم . . أما براءة رسول الله منهم ، فهى قطع العلاقة التى كانت قائمة بينه

وبينهم ، بحكم العهود التى كانت معقودة بين النبىّ وبين المشركين . . فإذ قد برىء الله منهم ، وطردهم من مواقع رحمته ، فقد وجب على النبىّ أن يقطع كل صلة بهم . . إذ كانوا حرباً على الله ، وعلى دين الله ، وعلى رسول الله ، وعلى المؤمنين .

* قوله تعالى : « فَسِيحُوا فِى الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ »

هو إطلاق من الله سبحانه وتعالى للمشركين من تلك العهود التى عقدوها مع المؤمنين ، وإرسال لهم فى وجوه الأرض مدةَ أربعة أشهر ، يتنقلون فيها حيث يشاءون ، دون أن يعترضهم المسلمون ، أو يلقَوْهم بأذًى ، إلا إذا بدءوا هم ببغى أو عدوان . . وهذا هو السرّ فى قوله تعالى : « فَسِيحُوا فِى الْأَرْضِ » . : إذ لا تكون السياحة فى الأرض إلا حيث الأمن . . والمشركون فى هذه المدة التى أعطيت لهم ، آمنون من كل عدوان .

وفى هذه الأشهر الأربعة فسحة للمشركين ، يُعِدّون فيها أنفسهم للوضع الذى يتخيرونه ، بعد انقضاء هذه المدة ، فإما أن يدخلوا فى الإسلام ، وإما أن يدخلوا مع المسلمين فى حرب وقتال . . وهى مدة كافية كلّ الكفاية لكى يقلّب فيها المشركون وجوهَ النظر ، وليتخيّروا لأنفسهم أعدل المواقف التى ينتهى إليها تفكيرهم وتقديرهم . .

وهذا وجه من وجوه الإسلام السمحة ، وآية من آياته المشرقة فى العدل والإحسان ، حتى فى مواقف المواجهة للعدو . . وفى ميدان الخصومة معه ! وما كان لشريعة الله أن تكون على غير هذا الوجه الذى يقيم موازين العدل بين عباد الله جميعاً . . مؤمنهم وكافرهم على السواء . . فالمشركون خلالَ

هذه الأشهر الأربعة ، فى عافية من أمرهم ، وفى حراسة من كل قهر أدبى أو مادّىّ ، يحملهم على الوجه الذى يأخذونه من الإسلام والمسلمين . .

وقوله تعالى : « وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ »

هو تحذير للمشركين ، وتنبيه لهم أن يأخذوا حِذْرهم ، وأن يقدّروا موقفهم فى الرأى الذى يرونه لأنفسهم ، بعد هذه الأشهر الأربعة . . وليضعوا فى حسابهم هاتين الحقيقتين :

أولاهما : أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يَطْلُبهم ، وأن يد الله لا تَقْصُر عنهم فى أى متجه اتجهوا إليه . . « واعلموا أنكم غير معجزى الله » . .

وثانيتهما : أنهم إذا انتهى بهم رأيهم إلى اختيار الشرك الذى هم عليه ، فإنهم قد اختاروا الخزى والهوان ، لأنهم حينئذ يكونون حرباً على الله . . « وأن الله مخزى الكافرين » .

* قوله تعالى : « وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »

الأذان : الإعلام ، والإظهار للأمر بصورة كلّيّة كاشفة .. ويوم الحج الأكبر ، هو يوم عرفة ، وقيل يوم النحر ، وفى كلا اليومين تتم معظم أعمال الحج . . ووُصِفَ الحجُّ بأنه الحج الأكبر ، تعظيما له وإلفاتاً إلى تلك الظاهرة الإنسانية التى تتجلى فيه ، باجتماع هذه الحشود الحاشدة ، التى تجمع الناس من كل أمة وقبيل . . يأتون من كل فج عميق . . فإذا احتوتهم دائرة الحرم كانوا

على هيئة واحدة فى ملابس الإحرام . . الأمر الذى لا تشهد العين مثله إلا فى هذا الموطن !

وقد أعلن هذا الأذان على الحجيج فى موسم الحج ، سنة تسع من الهجرة ، فى يوم عرفة أو يوم النحر . .

وكان أبو بكر رضى الله عنه هو الذى نَدَبه الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، أميراً على الناس يومئذ ليقيم لهم حجّهم . .

وكان موسم الحج هذا العام ، مجتَمعاً للمسلمين والمشركين ، حيث يقيم المؤمنون حَجّهم على الوجه الذى بيّنه الإسلام لهم ، على حين يقيم المشركون حجّهم على ما كانوا عليه فى الجاهلية ، وكان من عادتهم أن يطوفوا بالبيت عراة . . وقد آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يشهد هذا المشهد الكريه من المشركين ، فأقام أبا بكر مقامه فى هذا الموسم ، وكان ذلك فى السنة التاسعة من الهجرة . . فلما كانت السنة العاشرة وطهّر الله المسجد الحرام من الشرك والمشركين ، حجّ النبىّ حجة الوداع .

وما كاد أبو بكر ينفصل عن المدينة ، فى طريقه إلى البلد الحرام ، حتى تلقّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من ربّه هـذه الآيات الأولى من سورة براءة... فجعل إلى علىّ بن أبى طالب أن يؤدى عنه هذا الأمر ، وأن يؤذّن به فى الناس يوم الحجّ الأكبر . . فركب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم « العَضْباء » ولحق بأبى بكر فى بعض الطريق قبل أن يدخل مكة ، فقال له أبو بكر : أأمير أم مأمور ؟ فقال : بل مأمور . . !

فأقام أبو بكر للمسلمين حجّتهم . .

وأذّن علىّ فى الناس بهذا الإعلان القرآنى من سورة براءة .

والسؤال هنا :

لماذا لم يَعْهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه، إلى أبى بكر وهو أمير الحج، أن يؤدى هذه المهمة؟

والجواب على هذا: أن ما كان بين المسلمين والمشركين من عهود، إنما كانت معقودة باسم الرسول صلوات الله وسلامه عليه، باعتباره ممثلا للمسلمين، وهو بهذا الاعتبار لم يكن عند المشركين أكثر من رئيس قبيلة، وليس لصفة النبوة حساب عندهم فى هذا الأمر، إذ لم يكونوا معترفين بنبوته، وإلاّ لآمنوا به ..

ومن هنا لم يكن ـ من وجهة نظر المشركين ـ من المقبول أن يتولّي نقضَ هذه العهود ونبذها إلى أصحابها إلا المتعاقد معهم عليها، أو من يمثله من عَصَبَته، وذوى قرابته الأدنين، وذلك أن أهل البيت، أو القبيلة يحملون معاً تبعات الالتزامات التى بينهم وبين غيرهم، وأنه إذا جَنَى أحدهم جناية كانت تبعتها على الجماعة كلّها ..

ومن أجل هذا، فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم حين تلقى من ربّه الأمرَ بنبذ العهود إلى المشركين، قال: «لا يبلّغ عنى إلاّ أنا أو رجل من بيتى» .. فجعل ذلك إلى ابن عمّه علىّ بن أبى طالب .. وإن كان المسلمون جميعاً ـ على اختلاف بيوتهم وقبائلهم ـ أهلا لأن يؤدوا هذه المهمة، ولكن عند من يعترف بنبوة النبىّ، ويعترف بالمسلمين كوحدة تدين بدين، وتجتمع على شريعة .. ولكن المشركين كانوا يتعاملون مع النبىّ كواحد من بنى هاشم، ولا ينظرون كثيراً إلى من استجاب له وتبعه من المسلمين .. ولهذا، فإنه حين يئست قريش من أن تمسك النبىّ عن القيام برسالته، عمدت إلى مقاطعة بنى هاشم، وفرض الحصار الاقتصادى والاجتماعى عليهم، فلا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم، ولا يتعاملون معهم، أخذاً أو إعطاء، وقد وقع بنو هاشم جميعاً ـ مؤمنهم ومشركهم ـ تحت

هذا الحكم الظالم ، ووقفوا له جميعاً جبهةً واحدة فى وجه قريش .

وفى قوله تعالى : « أن الله برىء من المشركين ورسولُه » ـ الواو فى « ورسوله » للعطف على المصدر المؤول من الجملة السابقة : « أن الله برىء من المشركين » أى ورسوله برىء منهم .. فهو عطف جملة على جملة .. وذلك لتكون براءة الله من المشركين هى الأصل ، ثم تجىء براءة رسول الله منهم تبعاً لتلك البراءة ، ثم تجىء براءة المؤمنين منهم تبعاً لبراءة الله ورسوله .

وفى قوله تعالى : « فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » دعوة مجدّدة من الله ـ سبحانه ـ إلى المشركين ، أن يستجيبوا لله وللرسول ، فذلك هو الذى يحقق لهم الفوز والفلاح ، ثم هو تهديد لهم بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، إذاهم لم يتوبوا إلى الله ، ويُخلّصوا أنفسهم من الشرك الذى استولى عليهم ..

* وقوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ »

هو استثناء من الحكم العام الذى أنذر به المشركون ، وهو أن العهود التى كانت بينهم وبين المسلمين لن يكون لها مفعول بعد الأربعة الأشهر التالية ليوم النحر ، الذى أعلنوا فيه بنبذ العهود التى عقدوها مع المسلمين ..

والمستَثْنَوْن من هذا الحكم العام من المشركين ، هم أولئك الذين عرَف منهم المسلمون صِدْق نواياهم فى الوفاء بالعهود التى عقدوها معهم ، حيث لم تظهر منهم بادرة تدلّ على خيانة ، أو ممالأة عدوّ ، أو تحريضه على المؤمنين ـ فهؤلاء

قد وفوْا بالعهود ، فينبغى أن يفى معهم المسلمون بعهودهم ، إذ المسلمون أولى بهذا منهم ، وما نقض المسلمون العهود التى آذنهم الله بنقضها مع المشركين إلاّ لِما هو ظاهر من حالهم الذى يكشف عن نيـاتٍ سيئة ، تدبّر الشر ، وتبيت العدوان ، وتتربص بالمسلمين الدوائر ..

فهؤلاء المستثنوْن ، يجب على المسلمين الوفاء لهم بالعهود التى عقدوها معهم ، إلى الآجال المضروبة لها . . فهؤلاء لهم حساب . . ولعـــامة المشركين حساب آخر ..

وقوله سبحانه : « فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

هو بيان لموقف المسلمين من المشركين ، بعد انقضاء الأربعة الأشهر التى حُرّم على المسلمين فيها قتالُ المشركين ، وتبدأ من العاشر من ذى الحجة إلى العشرين من ربيع الآخر..حيث أُعطى المشركون فيها أماناً مطلقاً ، حتى تتاح لهم الفرصة لاختيار الموقف الذى يقفونه من المسلمين بعد انقضاء هذه المدة ، التى وقتتها الآية بأربعة أشهر فى قوله تعالى : « فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر » .

والأشهر الحرم هنا ، هى غير الأشهر الحرم المعروفة ، وهى ذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرم ، ورجب .. والتى أشار إليها الله سبحانه وتعالى بقوله « إن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتابِ الله يوم خَلَق السموات والأرضَ منها أربعة حرم » .. فهذه الأشهر الحرم يحرم فيها القتال بدءاً به ، ولا يَحْرُم فيها لدفع العدوان .. وهذا الحـكم هو لهـا فى جميع الأزمان .. أما الأشهر الحرم التى ذُكرت هنا فإن حرمة ماحرّم منها هو خاص بهذا العام ، أى السنة التاسعة ، وأول العاشرة من الهجرة ..

والمشركون الذين أمر المسلمون بقتالهم بعد انسلاخ هذه الأشهر الأربعة هم مطلق المشركين ، ماعدا الذين أمهلوا إلى أن تتم المدة المتعاهد معهم عليها .

وقوله تعالى : « فَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ » دعوة للمسلمين بالجد فى طلب المشركين ، وأخذهم بكل قوة ، وملاحقتهم فى كل مكان ، حتى لايكون لهم مهرب .. وفى هذا إرهاص بما سيحلّ بالمشركين من بلاء واقع ، لاوجه لهم من الإفلات منه .. بعد أن ينتهى الأجل المضروب لهم ، وذلك من شأنه أن يلقى الرّعب فى قلوب المشركين ، وأن يفتح للكثير منهم طريقاً إلى الإسلام ، حيث يجد العافية ، والأمن والسلام ..

وفى قوله تعالى : « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » هو تحريض للمشركين على المبادرة بالتوبة ، وخلع نيرِ الشرك من رقابهم ، وذلك قبل أن يقعوا ليد المسلمين ، وتصل إليهم سيوفهم ، فإنهم إن وصلوا إلى تلك الحال ، فلن تكون لهم نجاة ، ولن تقبل منهم توبة ، شأنهم فى هذا شأن الذين يحاربون الله ورسوله وَيَسْعَوْنَ فى الأرض فساداً ، وفيهم يقول الله سبحانه وتعالى : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * » (٣٣ — ٣٤ : المائدة)

وفى قوله تعالى : « إن الله غفور رحيم » دعوة للمسلمين إلى التسامح والرفق ، وأن يقبلوا هؤلاء الذين جاءوهم مسلمين ، وأن يُفسحوا لهم فى قلوبهم

مكاناً مع إخوانهم المسلمين ، وأن يغفروا لهم ما كان منهم من إساءات ، فيما أصابوهم بهم فى أموالهم وأنفسهم ، فإن الله غفور رحيم ، ينال المؤمنين برحمته ، ومغفرته ، فليأخذوا هم المسيئين إليهم برحمتهم ومغفرتهم . . ثم هو إغراء للمشركين أن يدخلوا فى دين الله ، فهذه رحمة الله ومغفرته مبسوطة لهم ، وهؤلاء هم المؤمنون يلقونهم بالرحمة والمغفرة لما كان منهم ، فى عدوانهم عليهم ، وكيدهم لهم . . إنها فرصة مسعدة ، والسعيد من أخذ بحظه منها .

الآيات : (٦ — ١٥)

« وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ (٨) ٱشْتَرَوْا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِن نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣)

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (١٥)

التفسير: تمضى الآيات بعد هذا فى تقرير الأحكام التى تنتظم الصّلات التى بين المؤمنين وأعدائهم من المشركين والكافرين . .

فبعد أن قضى الله بنقض العهود التى بين المشركين والمسلمين ، وإمهالهم أربعة أشهر يتدبّرون فيها أمرهم ، استثنى الله سبحانه وتعالى من هؤلاء المشركين مَن عَرَف المسلمون منهم الوفاء بالعهد ، فأبقى على عهودهم إلى انتهاء أجلها المضروب لها ، ثم أمر الله المسلمين بأن يأخذوا المشركين حيث وجدوهم ، وأن يقتلوهم حيث ظفروا بهم ، وذلك مع استثناء من بقى لهم مع المسلمين عهد .

وهنا فى هذه الآيات استكمال لهذه الأحكام . . .

* ففى قوله تعالى : « وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ » بيان لحكم من جاء من المشركين مستجيراً بالنبىّ ، طالباً الأمان منه .

ففى غير ميدان القتال ، وفى حال السّلم ، قد يرى بعض المشركين أن يلتقى بالنبىّ ، ليعرف الدعوة الإسلامية ، وليعرض على عقله وقلبه ما يدعو إليه الإسلام ، وذلك حقٌّ له ، يجب ألاّ يُحرم منه . . ليكون إيمانه على علم ، وفى غير إكراه . .

ولهذا أمر الله سبحانه النبىّ الكريم أن يستجيب لدعوة من يدعوه إلى طلب الأمان فى جواره ، وذلك حتى يسمع كلام الله ، أى حتى يسمع ما نزل على النبى من قرآن يقرر أصول الإسلام ، وأحكام شريعته ، ثم إن لهذا

المستأمن أن يطلب النّظرة إلى الوقت الذى يسمح له بالنظر والتدبر فيما سمع من كلام الله ، وأن يُجاب إلى هذا ، حتى ينقطع عذره ، وتقوم عليه الحجة . .

فإن وجد فيما سمع ووعى من كلام الله ما يدعوه إلى الإيمان ، ثم آمن . . فهو فى المؤمنين ، له مالهم وعليه ما عليهم . .

وإن أصمّ الله سمعه ، وأعمى بصره ، وحجب بصيرته ، فلم تنفذ شعاعات الهدى إلى قلبه ، وآثر الضلال على الإيمان ، واستحبّ العمى على الهدى ، فإن له ما اختار . . لا سلطان لأحدٍ عليه ، ولا سبيل لأحد أن يناله بضرّ أو أذى ، فهو الآن فى ذمة النبىّ ، وذمة المؤمنين جميعاً . . وعلى النبىّ — صلوات الله وسلامه عليه — أن يضمن سلامته ، وأن يكفل له الأمن والطمأنينة ما دام فى رحاب المسلمين . . ثم إن أراد النبىّ ، أو رغب هو فى أن يلحق بأهله ، أُجيب إلى هذا ، ووكلَ به النبىّ من المسلمين من يقوم على حراسته ، وسلامته ، حتى يبلغ مأمَنه ، أى المكان الذى يجد فيه الأمن بين أهله وعشيرته . .

ألاَ فَلْتَخْرَسْ ألسنةُ الذين يقولون إن الإسلام دين قام على السيف وإراقة الدماء ! !

فهذا صنيع الإسلام مع أعدائه حين لا يكون منهم حربٌ معه ، أو عدوان عليه . . إنه سلم خالص ، وإنسانيّة فى أرفع منازلها . . فلا إكراه فى الدين ، ولا عدوان على من يختلفون مع المسلمين اختلافاً قائماً على البحث والنظر .

وليس فى الدعواتِ دعوة تحترم العقل ، وتمنحه حقه المطلق فى النظر والاختيار — كدعوة الإسلام ، التى لا تفرض سلطان الحق الذى بين يديها ، على أى ذى عقل ، ولو كان عقلا جَهُولاً محمّقاً !

ذلك أن الإسلام ليس من همّه امتدادُ ظلّه على مساحات ممتدة من

الأرض ، ولا التسلط على أعدادٍ كثيرة من الناس ، شأن الغُزاة والفاتحين ، فمثل هذا لا يقيم فى القلوب ديناً ، ولا يثبت فى الأرض عقيدة . . وإنما الذى يهمّ الإسلام أولا وأخيرًا ، هو أن يجد العقول التى تتقبّل دعوته ، والنفوس التى تستجيب لها ، والقلوب التى تعمرُ بها . . ولا عليه بعد هذا أن يقلّ أتباعه أو يكثروا ، وأن تتسع دولته أو تضيق . . إذ ليست دعوة الإسلام لحساب فرد أو جماعة ، وإنما هى خيرٌ ممدود للناس ، فمن طَعِمَ منه ، واستطابه ، فذلك له ، ومن أعرض عنه وتحاشى الأخذَ منه فليس لأحد عليه سلطان : « وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ » . .

* وفى قوله تعالى : « ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ » إشارة داعية إلى الرفق بهؤلاء المشركين الذين جاءوا ليعرضوا الإسلام على عقولهم ، فهم على جهلٍ وجفاء ، وفى ظلامٍ جاهلية طال عليهم الأمَدُ فيها .. وإذ كان هذا شأنهم ، فإن من شأن من يتولّى الاستشفاء لهم من دائهم ، أن يترفق بهم ، حين يراهم يعشَوْن عن النور ، ويعمَوْن على الهدى ..

* وفى قوله تعالى : « كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » .

هو عرض للوجه العام للمشركين ، بعد هذا العرض لأفراد منهم ، استجابوا للرسول ، واستأمنوه ، ليروْا مابين يديه من الدين الذى يدعوا إليه .

وفى هذا العرض ينكشف ماعليه المشركون عامة ، من غدر وخيانة ، وتربّص بالمسلمين .. فهؤلاء لاعهد لهم ولا ذمةَ ، عند المسلمين .. باستثناء أولئك الذين أمضى المسلمون عهودهم معهم إلى المدة المتفق عليها فيما بينهم وبين هؤلاء الجماعات من المشركين ، وهم الذين استثناهم الله سبحانه وتعالى فى قوله سبحانه :

« إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم يَنقُصُوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم .. »

فهؤلاء المشركون سيظل المسلمون على عهدهم معهم ، ماداموا هم على الوفاء بعهدهم ، فإن بدا منهم مايستشعر منه المسلمون غدراً أو خيانة ، نقضوا هذا العهد ، وقطعوا تلك المدة التي تضمنها العهد .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحبّ المتقين » .

* وفي قوله تعالى : « كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُم إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ »

تحذير للمؤمنين من أن يأمنوا جانب المشركين أيّاً كانوا ، حتى هؤلاء الذين لم يظهر للمسلمين منهم غدر أو خيانة . . فذلك إن يكن وجه مقبول من وجوههم ، فإن وراء هذا الوجه وجوهاً كثيرة منكرة ، وإنه ليس بالمستبعد منهم أن يغدروا وأن يخونوا في أية فرصة تسنح لهم .. وإنه لو أمكنتهم الفرصة في المسلمين لم يرقبوا فيهم إلاًّ ولا ذمة . .

و« الإلّ » القرابة . . كأنها مشتقة من الآل التي بمعنى الأهل والأقارب ..

« والذمة » : العهد الذي يصير به كل من المتعاهدين في ذمة الآخر ، أي في ذمامه وحوطه ، بحيث لايجيء إليه منه أذًى .

والاستفهام في قوله تعالى : « كيف وإن يظهروا عليكم » استبعاد من أن يُبقِيَ المشركون على عهد بينهم وبين المسلمين .. وإن كانت بينهم وبين المشركين قرابة نسب أو عهود موثقة ، والمستفهم عنه هنا محذوف ، لدلالة الحال عليه ، وهو : كيف يحفظون لكم عهداً ، وهم عداوة تمتلىء بها صدورهم بغضة وشنآنا لكم ، حيث لايجدون شفاءا لما في صدورهم من هذا الداء إلا أن

يأخذوكم بالبأساء والضرّاء ؟ . . فهم ـ والحال كذلك ـ لا يمسكون معكم بعهد إلا ريثما تمكنهم الفرصة فيكم ، وإذن فاحذروهم ، وكونوا منهم دائماً على توقع الغدر بالعهد ، والتحفز للوثوب عليكم .

وفى قوله تعالى : « يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ » . هو كشف للمؤمنين عمّا فى نفوس المشركين من عداوة وبغضاء لهم ، وأنهم إذا ألانوا الكلام مع المؤمنين ، وأسمعوهم طيّب الكلام ومعسول القول ، فإن مافى صدورهم على خلاف هذا . . « وأكثرهم فاسقون » أى خارجون عن الطبيعة السليمة للإنسان السليم . ومع هذا فإن قليلاً منهم فيه بقيّة من خير ، يمكن أن تكون طريقاً هادياً له إلى الحقّ ، والإيمان ، إذا هو عرف كيف ينتفع بها ، ولم يذهب بها ، مذهب الضياع والفساد . .

* وقوله تعالى : « اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » :

إشارة إلى أن هؤلاء الكافرين رغبوا عن آيات الله ، وأعرضوا عن الهدى الذى تحمله إلى من يتصل بها ، ورضوا بما هم فيه من حياة لاهية هازلة . . « يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوًى لهم » . . لقد صدّوا عن سبيل الله ، فساء عملهم ، وضل سعيهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعاً .

وليس فى الأمر بيع ولا شراء . . ولكن لما كانت آيات الله فى معرض النظر لكل إنسان ، وكان من شأن هؤلاء المشركين أن يؤمنوا بها ، وأن يجعلوها بضاعتهم التى يتعاملون بها ، وزادهم الذى يتزودون منه ، فهم ـ والأمر كذلك ـ فى حكم من أخذوا آيات الله ، وإذ لم ينتفعوا بها ، ولم يأخذوا بحظهم منها ، فكأنهم باعوها واشتروا بها هذه الحياة التى يحيونها ، وهذا المتاع القليل

الذى يعيشون فيه ! « أولئك الذين اشتروُا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

* قوله تعالى : « لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ » . .

هو توكيد لبيان ما يحمل المشركون للمسلمين من عداوة ، وما يرصدون لهم من كيد ، وما يدبّرون من بغى وعدوان .. وذلك أمرٌ يجب أن يعلمه المسلمون ، وأن يستيقنوه ، وأن يأخذوا حِذْرهم منه ، وإلاّ استحوذ عليهم المشركون ، وفتنوهم فى دينهم ، وأوقعوهم فى بلاء عظيم .

قوله تعالى : « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »

فى هذا ما يكشف عن سماحة الإسلام ، وإنسانيته ، وأنه ليس لحساب فرد ، أو جماعة ، أو أمة ، وإنما هو حظ مُتاحٌ للناس جميعاً . . وأن هذه الحرب التى تدور بين أتباعه وأعدائه ، والتي يحتمل فيها هؤلاء الأتباع ما يحتملون من ابتلاء فى أموالهم وأنفسهم — هذه الحرب ليست لحساب أحد ، وإنما هى من أجل هذا الدين ، ولحساب هذا الدين .. ومن هنا كان مطلب المسلمين المجاهدين أولاً وقبل كل شىء ، هو هداية الناس ، وابتغاء الخير لهم . . فإذا اهتدى الضال ، وآمن المشرك ، ونزع الكافر عن كفره ـ كان ذلك هو الجزاء الحسن الذى يسعد به المسلم ، والغنيمة العظيمة التى يجد فيها العزاء لكل ما أصيب به ، فى نفسه ، أو ماله .

ولهذا ، فإن هؤلاءِ المحاربين للمسلمين ، والمعتدين على الإسلام ، هم على تلك الصفة ، والمسلمون على موقفهم العدائى معهم ، ماداموا على حالهم تلك ، فإذا هم تحولوا عن موقفهم هذا ، ودخلوا فى دين الله ـ انقلبوا فى الحال أولياء

للمؤمنين ، وإخوانا لهم ، قد ذهب إيمانهم بالله بكل ما كان لهم فى نفوس المؤمنين من بِغضة وعداوة . .

* وفى قوله تعالى : « وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » دعوة للمشركين أن يتدبروا أمرهم فيما بينهم وبين هـذا الدين الذى يُدعَوْن إليه ، وإنهم لو نظروا بقلوب سليمة ، وعقول تنشد الحق ، وَتطلب الهدى ، لعلموا أن دعوة الإسلام لا تقوم على عصبية قَبَلِيّة ، أو طائفية ، أو من أجل جاه أو سلطان ، وأنه لو كان هذا شأنها لما كان دخولهم الإيمان شفيعاً يشفع لهم عند المسلمين ، ويُعَفِّى على ما اقترفوه فى حقهم من آثام ، ولما قَبِلَ منهم المسلمون إلا الاستسلام لهم ، واستباحة دمائهم وأموالهم ، شأن الحروب التى تقع بين الناس والناس ، من أجل أمور الدنيا المتنازع عليها بينهم أبداً .

* قوله تعالى : « وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ »

هذا هو الوجه الآخر الذى يَلْقى به المؤمنون ، المتمردين من المشركين ، الناكثين للعهد ، وهو أنه إذا لم يستقم المشركون على الوفاء بالعهد ، ونكثوه ، أوهمّوا بنكثه ، وأطلقوا ألسنتهم بقالة السوء فى الإسلام والمسلمين ، أو مدّوا أيديَهم إلى المسلمين بأذى ـ فعندئذ ينبغى على المسلمين أن يُحِلّوا أنفسهم من أى عقد عقدوه مع هؤلاء المشركين ، وأن يضربوهم بيد باطشة قاهرة ، لعلّ فى هذا ما يقطع ألسنتهم وأيديهم المتطاولة على الدين ، ويُقصّر من خطوهم إلى التمادى فى الشرك والضلال .

وفى العدول عن الضمير إلى الظاهر فى قوله تعالى : « فقاتلوا أئمة الكفر » بدلاً من أن يجىء النظم «فقاتلوهم» ـ فى هذا ما يكشف عن وجه هؤلاء المشركين ،

ذلك الوجه ، الذى لا يستحق غيرَ الخزى والهوان . . إنه وجه يُطلّ منه الكفر فى أنكر صوره وأبشعها . . وإنه ، وجهٌ تنعقد على جبينه أمارة الزعامة ، والإمامة ، لدولة الكفر والضلال .

* قوله تعالى : « أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »

هو تحريض للمؤمنين على الجِدّ فى قتال المشركين ، وفى قتل كل المشاعر التى تدعو إلى مهادنتهم ، والتراخى فى تأديبهم والانتقام منهم . . فإذا وقع فى نفس مسلم شىء من هذا المشاعر ، فليذكر ماصنع هؤلاء المشركون به وبالنبىّ الكريم ، وبجماعة المسلمين عامة ، وما كان منهم من كيدٍ وبغى وعدوان ، على دين الله ، وعلى المؤمنين بالله . .

فهؤلاء المشركون ، الذين نكثوا أيمانهم ، ونقضوا عهودهم ـ لم يكونوا فى يوم ما على حالٍ مستقيمة مع المسلمين . . وحسبهم أن كان منهم تلك المواجهة المنكرة التى واجهوا بها الرسول فى أول دعوته ، وكيف آذوه وآذوا كل من استجاب له ، حتى همّوا بإخراجه ، وتآمروا على اغتياله ، لولا أن ردّ الله كيدهم ، وأخرج النبىّ سليماً معافىً من بينهم .

ثم هاهم أولاء قد نكثوا أيمانهم ، وتحللوا من كل عقد عقدوه مع المسلمين . . فكيف يرعى المسلم لهم عهداً . . ؟ وكيف تعطفه عليهم عاطفة ؟

وفى التعبير بلفظ «همّوا بإخراج الرسول» إشارة إلى واقع أمرهم مع الرسول فعلاً ، فهم لم يخرجوه ، بل كانوا يعملون على أن يمسكوه بينهم ، ويحولوا بينه وبين أن يلقى الناس ، وأن تلتقى دعوتُه بالناس ـ ولكن لما كان هذا الموقف المتعنت الذى وقفوه منه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ سبباً فى أن يخرج من بلده

مهاجراً ، فقد حَسُن أن يضاف إليهم إخراجه ، نيّة لا عملاً . . وفى التعبير بكلمة « همّوا » التى تفيد معنى النيّة المنعقدة على هذا الأمر ـ فى هذا ما يكشف عن مكنون ضمائرهم ، من كراهية للنبىّ ، واستثقالٍ لمقامه فيهم ، وأنهم يهمّون بإخراجه ، ولـكن يروْن أن إخراجه أشدُّ بلاء عليهم من إمساكه معهم . . فهم يمسكون بالنبىّ على مضضٍ وتـكرّه . .

ومن فَعَلات المشركين بالمؤمنين أنهم هم الذين بدءوا بالعدوان ، وجاءوا إلى بدر بجيوشهم ، يُمنُّون أنفسهم بالقضاء عليهم ، والتنـكيل بهم .

فهذه كلها أمور إذا ذكرها المسلمون أثارت حفيظتهم على المشركين ، وأوقدت عزائمهم لجهادهم ، وأخذهم بالبأساء والضراء ، حتى يستجيبوا لله وللرسول . .

وفى تنـكير المشركين فى قوله تعالى : «ألا تقاتلون قوماً » تحقير لهؤلاء القوم ، وتعرية لهم من كل صفة ، إلا تلك الصفات التى دمغهم الله سبحانه وتعالى بها ، وهى ماأشار إليه قوله تعالى : « نـكثوا أيمانهم . . وهمّوا بإخراج الرسول . .

وقوله تعالى : « قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصرْكم عليهم ويشْفِ صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظَ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء الله عليم حكيم » .

هو إغراء للمسلمين بلقاء المشركين وقتالهم ، حتى يفيئوا إلى أمر الله . . فبعد أن أثار الله حميّةَ المسلمين ، وملأ قلوبَهم موجِدَةً وسُخطاً على الكافرين ـ جاء وعده سبحانه وتعالى المسلمين بالنصر على عدوّهم ، وأنه سبحانه سيعذب هؤلاء المشركين بأيدى المؤمنين ، بما يصيبهم فى أنفسهم من قتل وأسر ، وما يصيبهم فى أموالهم ، التى تقع غنيمة لأيدى المؤمنين فى ميدان القتال ، أو فى فِداء الأسرى منهم . . وليس هذا فحسب ، فإن الذى لهم فى العرب من مكان

الرياسة والسيادة ستذهب به تلك الهزيمة المنكرة التى سيلقونها ، ويلقون معها الخزى والعار . .

وفى قوله تعالى : « وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ » انتقال من الخطاب إلى الغيبة ، وفى ذلك تنويه بشأن المؤمنين ، ورفع لقدرهم ، بالنأى بهم عن هذا الموطن الذى ينزل فيه العذاب على المشركين ، ويقع عليهم الخزى والهوان . .

وفى العدول عن تعريف القوم إلى تنكيرهم ، تفخيم لهؤلاء القوم ، وأنهم ليسوا قوماً بأعيانهم ، وإنما هم المؤمنون حيث كانوا ، سواء مَن قاتل هؤلاء المشركين أو من لم يقاتل ، وسواء من شهد هذه الأحداث وعاصرها أو من جاء بعدها ، حيث يرى المؤمن فى حديث التاريخ عنها ما تقرّ به عينه ، وينشرح به صدره ، حين يحدّثه التاريخ عن هزيمة الباطل وانتصار الحق ، وامتداد ظلّ الإسلام ، وانكماش دولة الكفر والضلال . .

وفى قوله تعالى : « ويتوب الله على من يشاء » وفى عطف هذا الفعل على الأفعال قبله فى قوله تعالى : « يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ » . . إشارة إلى أن من تقدّر له التوبة من هؤلاء المشركين ويدخل فى دين الله يجد نفسه مشاركاً للمؤمنين فيما آتاهم الله من فضله ، بنصرهم وإعزازهم ، وشفاء ما بصدورهم . . وبهذا يتحول فى لحظة واحدة من تلك الحال التى يلبس فيها لباس الهزيمة والخزى والعار ، إلى الجبهة الأخرى ، فيشاركها أفراحها ومسرّاتها ، ويقاسمها ما بين أيديها من نصر ، وما فى قلوبها من رضًى وحبور ، وفى هذا تحريض قوىّ للمشركين على ان يستجيبوا لله وللرسول ، وأن يدخلوا فى دين الله ، ويُسلموا له مع المسلمين . . « وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » يُمضِى حُكمَه

بعلم العليم ، وحكمة الحكيم ، فما وقع شىء فى ملكه إلا على هذا التقدير الذى يقدّره العلم ، وتحكمه الحكمة . .

الآيات : (١٦ — ١٨)

« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ » (١٨)

التفسير : قوله تعالى : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ »

هو تنبيه للمؤمنين إلى أن الإيمان ليس مجردَ عقيدةٍ يعتقدها المؤمن ، فى الله وكتبه ورسله ، ثم يعيش بهذه المعانى مَضْمَرةً فى كيانه ، كما تضمر الحبة فى باطن الأرض ، لا يصيبها وابل أو طلّ ، ولا يحركها شوق إلى كشف وجهها ، ومصافحة أضواء الوجود . . وإنما الإيمان هو وصل هذه الحقائق بالحياة ، وصوغها فى صورة سلوك وأعمال ، من عبادات ومعاملات ، ومن جهادٍ فى سبيل الله ، وحماية لراية الإيمان أن تُسقطها يد البُغاة المعتدين ، من أهل الشرك والضلال . .

فللإيمان أعباؤه وتكاليفه ، وفى الوفاء بهذه الأعباء وتلك التكاليف ، تتحدد مواقف المؤمنين ، وتكون منازلهم ودرجاتهم .

وقوله تعالى : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا » استبعادٌ لهذا الشعور الذى يداخل بعضَ المؤمنين من أن يكون حسبهم من إيمانهم ما تنطوى عليه صدورهم من حقائقه . . وكلاَّ فإنهم مُبْتَلَوْنَ بما يكشف عن معدن هذا الإيمان الذى فى قلوبهم . . وفى هذا يقول الله تعالى : « الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوآ أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ » (١ ـ ٣ : العنكبوت) . .

ففى الإيمان شريعة ، وفى الشريعة أوامرُ ونواهٍ ، والمؤمن مطالب بأن يمتثل الأوامر ويأتيها ، ويتجنب النواهى ويحذَر التلبس بها .. إن الإيمان عقيدة وعمل .. وإنه لامعتبر لعقيدة إذا لم يزكّها العمل ، ويحقق المعانى المضمرة فيها .

وفى وقوله سبحانه : « ولَمّا يعلمِ اللهُ الذين جاهدوا منكم » ما يكشف عن تبعات المؤمنين . أى أحسبتم أيها المؤمنون أن تتركوا هكذا من غير ابتلاء واختبار ، حتى يكون ذلك موضع علم واقع منكم ، من جهادٍ فى سبيل الله وابتلاء فى أموالكم وأنفسكم .. بمعنى أنه لم يظهر منهم بعدُ هذا العمل ، ولم يدخلوا فى تلك التجربة ، ويصبروا على مايصيبهم منها .. أما علم الله سبحانه وتعالى فهو علم شامل لكل ماوقع ومالم يقع .. فالمراد بعلم الله هنا ، هو علمه الواقع على حال المؤمنين فى هذا الوقت الذى يخاطبون فيه بهذا الخطاب .

* وفى قوله تعالى : « وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ » . . إشارة إلى أن علم الله وإن كان محيطاً بكل شىء ، قبل أن يقع .. من المكلفين ، إلا أن المكلفين لايحاسبون على مايقع منهم إلا بعد أن يقع .. وبهذا يحاسب

المكلف على ماوقع منه فعلاً ، وصار علماً واقعاً له ، بعد أن كان فى علم الله ..

وقوله تعالى : « وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً » معطوف على قوله تعالى : « وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنكُمْ » ..

والوليجة : الملجأ ، والمعتمد ، الذى يلجأ إليه الإنسان ، ويتخذ منه جُنّة ووقايةً له .. والمعنى ، أن المطلوب من المؤمن هو الجهادُ فى سبيل الله ، وموالاة الله ورسوله والمؤمنين ، والاعتماد على كفاية الله ورسوله والمؤمنين له ، دون أن يقوم بينه وبين المشركين ولاء ، فلا يدخلْ معهم فى خلف ، ولا يَلِجْ لهم أمراً يلتمس منه خيراً لنفسه ، أو سلامةً مما يتوقع من بلاء .. فإذا لم يقع منه هذا ، لم يكن أهلاً لأن يدخل الجنّة التى وعدها الله المتقين من عباده ..

وقوله تعالى : « والله خبيرٌ بما تعملون » تحذير للمؤمنين الذين فى صدورهم شىء من هذه المشاعر ، التى تقيم بينهم وبين المشركين صلةً على حساب دينهم ، أو على حساب الجماعة الإسلامية ، وأمنها وسلامتها ..

* قوله تعالى : « مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِى النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ »

هو بيان لبعض الحكمة فيما أمر الله به المسلمين فى شأن المشركين ، وقتالهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم .. كما جاء ذلك فى أول السورة .. ثم هو إيذان لما سيأتى بعد ذلك من أمرٍ فى ألا يقربَ المشركون المسجد الحرام بعد عامهم الذى أنذروا فيه ، ببراءة الله ورسوله منهم ، وفى هذا يقول الله تعالى : « إنما

المشركون نجسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » وهو العام التاسع من الهجرة ، الذى شاء الله سبحانه لرسوله الكريم ألا يحج هذا العام الذى حج فيه المشركون ، ثم حج حَجّةَ الوداع فى العام الثانى ، وقد طَهُرَ البيت من هذا الرجس .

فالمشركون بما فى قلوبهم من كفرٍ ، ليسوا أهلا لأن يدخلوا بيوت الله ويَعْمُروها .. إذ كيف يكفرون بالله ، ثم يعْمرون مساجده ؟

وقوله تعالى : « شاهدين على أنفسهم بالكفر » هو حال من أحوالهم التى يدخلون بها المساجد ، وهى أنهم يدخلونها وهم كافرون بالله ..

وشهادتهم على أنفسهم ينطق بها حالهم وأفعالهم ، وإن لم تنطق بها ألسنتهم ، فهم يدخلون بيت الله ، ثم يسجدون فيه لغير الله ، مما يعبدون من أوثان وأصنام .. وهذا العمل منهم أبلغ شهادة عليهم بالكفر والضلال . . « أولئك حبطت أعمالهم » أى بطل كل عمل لهم ، وانقلب شرًّا ووبالا عليهم « وفى النار هم خالدون » فتلك هى ثمرة ما كانوا يعملون .. النار ، والخلود فى النار ..

* قوله تعالى : « إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ »

تلك هى حقيقة الذين يعمرون مساجد الله ، وهذه هى صفاتهم التى تؤهلهم لأن يكونوا من أهلها وعُمّارها .. أن يكونوا مؤمنين بالله واليوم الآخر ، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وألا يكون فى قلوبهم خوف إلا من الله ، ولا رجاء إلا فيه ، ولا متعلّق إلاّ به .. فهؤلاء فى معرض الهداية والتوفيق ، وعلى طريق الاستقامة والتقوى . بهم تعمر بيوت الله ، بذِكر الله فيها ، ذكراً خالصاً من الزيغ ، مبرأ من الشرك ..

الآيات : (١٩ — ٢٢)

* «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ (١٩) ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ» (٢٢)

التفسير : كان بعض مشركى مكة يقومون على خَدَمات فى المسجد الحرام ، كالسقاية للحجيج ، وإطعام الوافدين للحجّ ، وتأمينهم ، وعمارة المسجد ، وفرشه ، وغير هذا مما كانت تتقاسمه قريش بين بيوتها من أعمال البيت الحرام .

فلما جاء الإسلام ، وحُرِّم على المشركين الاتصال بالمسجد الحرام ، والقيام بأى عمل فيه ، أوله ـ وقع فى نفس هؤلاء الذين كانوا يقومون على تلك الأعمال ، أنهم بعد أن دخلوا الإسلام ، لازالوا فى حاجة إلى ما يملأ هذا الفراغ ، ويذهب بذلك القَلَق النفسى الذى استشعروه ، حين زال سلطانهم الدينى على المسجد الحرام ، وقاصديه ..

وفى قوله تعالى : «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ» .. موازنة بين تلك الأعمال التى كان يعدّها المشركون من القربات ، وبين الإيمان الذى عمَرَ قلوبَ المسلمين ، ووصلهم بالله ربّ العالمين .

وفى هذه الموازنة ، تبدو تلك الأعمال التى كانوا يعملونها وهم متلبسون بالشرك ـ تبدو ضئيلة تافهة ، لاوزن لها إلى جانب الإيمان بالله وما يملأ كيان المؤمن من الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد فى سبيل الله .. « لايستوون عند الله » .

وفى الموازنة بين سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، وبين من آمن بالله واليوم الآخر ـ فى هذه الموازنة مايُسأل عنه .. وهو :

لماذا جاءت الموازنة بين أعمال ، هى السقاية وعمارة المسجد الحرام ، وبين أشخاص هم المؤمنون بالله واليوم الآخر ؟ وكيف تقوم موازنة بين أعمال وأشخاص ،؟ إن المتصور هو أن تقوم الموازنة بين أعمال وأعمال ، أو بين أشخاص وأشخاص .. حتى يمكن أن يُعرف الفاضل والمفضول ، والطيب والخبيث ، بالنظر فى المتجانسين والموازنة بينهما . .

فكيف هذا ؟

والجواب ـ والله أعلم ـ أن هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يؤدّون تلك الأعمال ، ويحسبون أنها قربات عند الله ، وأنها تجعل لهم شأناً وذكراً عنده ، هى أشياء لاحساب لها فى ميزان الأعمال ، إذ كانت غير مستندة إلى إيمان ، ولم يكن الذين يأتونها بالمؤمنين بالله . .

والحديث عن هذه الأعمال ، دون الحديث عن أصحابها ، يشير إلى أن أصحابها لامعتبر لهم فى موازين الناس ، ماداموا على غير الإيمان .. وعلى هذا التقدير جاء النظم القرآنى بأعمالهم ، ولم يجىء بهم ، إذ كانت الأعمال فى ظاهرها حسنة طيبة ، ولكنها لاتعود بثمرة عليهم ، ولا تضاف لحسابهم ..

أما المؤمنون بالله ، واليوم الآخر والمجاهدون فى سبيل الله ، فإنهم بإيمانهم بالله وباليوم الآخر وبالجهاد فى سبيله ، أصبحوا هم الصورة الكاملة للإنسان الكامل

الذى يُنظر إليه وإلى أعماله، كأصل أصيل فى تقويم الناس وأعمال الناس.

وقوله تعالى: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» إشارة إلى أن أصحاب هذه الأعمال الطيبة قد ظلموا هذه الأعمال، إذ لم يزكوها بالإيمان، كما أنهم قد ظلموا أنفسهم، إذ لم يطهروها من الرجس والشرك.

* قوله تعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ *»

فى هذه الآيات عرض لمنازل المؤمنين فيما بينهم، بعد أن ميّز الإيمان بينهم وبين المشركين، وجعلهم جميعاً فى مقام كريم عند الله، يتقبل أعمالهم الطيبة، ويتجاوز عن سيئاتهم، على حين لا يقبل من غير المؤمنين عملاً، ولو كان مما يدخل فى باب الطيبات الصالحات من الأعمال.

والمؤمنون الذين هاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، أعظم درجةً عند الله، من الذين آمنوا وجاهدوا ولم يهاجروا.. والذين آمنوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، أعظم درجةً عند الله من الذين آمنوا ولم يهاجروا ولم يجاهدوا.. وهكذا يتفاوت المؤمنون فى منازلهم ودرجاتهم عند الله.

وأعلى درجة عند الله للمؤمنين، هى درجة المهاجرين الذين جاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم بعد أن اجتمع لهم الإيمان والهجرة — وقد وعدهم الله سبحانه وتعالى بالفوز برضوانه وجناته، ينعمون فيها بنعيم مقيم، لا ينفد ولا ينقطع أبداً.. (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ»

الآيتان : (٢٣ — ٢٤)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » (٢٤)

التفسير : فرّق الإيمان بالله ، بين المؤمنين والمشركين ، وجعل ولاء المؤمن للمؤمنين عامّة ، أيًّا كان لونهم وجنسهم ، وأيًّا كانت درجة القرابة فى النسب بينهم وبينه ، على حين قطع ولاءه لأهله ، وأقرب المقربين إليه إذا لم يكونوا من المؤمنين بالله وبرسول الله .

وقبل فتح مكة كان المهاجرون بعضاً من أهليهم المشركين فى مكة . . فمنهم من آمن وهاجر ، وترك وراءه أباً ، أو أمًّا ، أو إخوةً ، مازالوا على شركهم ، وما زالت علائق القرابة تشدّه إليهم ، وتذكره بهم ، وتبعث أشواقه وحنينه نحوهم . . ثم بعد فتح مكة ، دخل النّاس فى دين الله أفواجاً ، وأسلم أهل مكة ومَن حولهم ، ولكن لم يكن كثير منهم مؤمنا بقلبه ، مطمئنا إلى الدين الجديد الذى دخل فيه ، بل لقد ظل بعضهم يحمل الحقد والعداوة للإسلام ، الأمر الذى دعا الرسولَ الكريم إلى أن يتألّفهم . . ولهذا جاء قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا

الْـكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ » ـ جاء منبهاً للسلمين إلى ما قد يدخل عليهم من مشاعر القرابة نحو أهليهم الذين خلّفوهم وراءهم من المشركين . . تلك المشاعر التى قد تبلغ حدّ الجور على حقّ المسلمين على المسلم ، من إخاء وموالاة .

وفى الآية الـكريمة أمران ، نحبّ أن نقف عندهما :

أولهما : أن النهى ورد مقصوراً على الآباء والإخوان ، ولم يذكر غيرهم من ذوى القربى ، وخاصة الأبناء ، الذين هم أقرب قرابةً من كل قريب.. فلم هذا ؟ وما حكمته ؟

والجواب على هذا — والله أعلم — أن المخاطبين بهذه الآية هم المهاجرون والأنصار ، الذين سبقوا إلى الإسلام ، وخلّفوا وراءهم أهلاً وعشيراً . .

وهؤلاء الذين سبقوا إلى الإسلام ـ من المهاجرين والأنصار ـ لم يتخلّف وراءهم غالباً إلا آباؤهم وإخوانهم.. إذ أبى الآباء أن يتابعوا أبناءهم ، أنفاً وكبراً، كما أبى الإخوة أن ينقادوا للسابقين من إخوانهم ، حميةً وحسداً . . أما الأبناء فقلّ منهم من أسلم آباؤهم ثم لم يتابعونهم ويقفوا أثرهم . . فلما دخل هؤلاء المتخلفون فى الإسلام ، دخله كثير منهم بقلب مريض ، ونفس متـكرهة .

وعلى هذا ، فإن الصورة التى كان عليها المؤمنون يومئذ ، هى : أن كثيراً منهم دخل فى الإسلام تاركا وراءه أبويه وإخوته ، أو أحد أبويه وبعض إخوته ، وقليل منهم من دخل فى الإسلام ، ولم يدخل معه أبناؤه . . ومن أجل هذا كان النهى عن موالاة هؤلاء الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم — كان النهى متجها إلى هؤلاء الآباء والإخوة ، دون الأبناء ، الذين كانوا ـ بصفة عامة ـ مع آبائهم . .

وثانى الأمرين : أن النهى لم يتناول المشاعر ، والأحاسيس التى يجدها المسلمون نحو آبائهم وإخوانهم من المشركين ، وإنما جاء واقعاً على الولاء والإيثار ، وتغليب مصلحتهم على مصالح المؤمنين ، فهذا هو الذى نهى عنه

الإسلام ، وذلك أن النهى عن المشاعر والأحاسيس أمر لا تحتمله النفوس ، وإن كانت تحتمله بعض النفوس ، فإن ذلك لم يكن إلا عن مشقة ومعاناة وحرج . . الأمر الذى برئت منه الشريعة الإسلامية السمحاء .

هذا ، وفى الآية إشارة على أن الشبان أقرب من الشيوخ استجابة للدعوات الجديدة ، والتجاوب معها ، حيث كان السابقون إلى الإسلام من الشبان غالباً .

* قوله تعالى : « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ »

فى هذه الآية وضعٌ للمسلمين فى مواجهة التجربة والاختبار لإيمانهم ، واختيار مايحبون وما يؤثرون . .

فالإيمان فى جانب . . والآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والديار . . فى جانب آخر . .

وعلى المؤمن أن يختار بين الإيمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيله ، وبين أهله ، وماله ودياره .

والاختيار هنا يمكن أن يُجرِّبه الإنسان بينه وبين نفسه ، حين يورد على مشاعره هذين الطرفين المتنازعين فى كيانه ، وأن يستعرضهما واحداً بعد الآخر ، وأن يفترض أنه إذا لم يكن من الممكن الجمع بينهما ، فأيهما يؤثر أن يمسك به ، ويعيش معه ؟

فإذا آثر الإيمان على الولد والأهل والمال والموطن ، كان على الصفة التى يتحقق بها الإيمان الذى يقبله الله منه ، ويرضاه له . . وإن كان العكس ، وآثر

الولد والأهل والمال والموطن ، على الإيمان بالله ورسوله والولاء للمؤمنين ، والجهاد فى سبيل الله ، فهو أقرب إلى الجبهة المعادية للإسلام ، منه إلى الجبهة للموالية له .. « والمرء مع من أحبّ » .

وفى وصف الأموال ، بأنها أموال مقترفة إشارة إلى أن المال غاد ورائح .. وأنه أشبه بالمنكر ، إذ كان أكثر مايجىء المال من حصيلة الصراع بين الناس والناس .

* وفى قوله تعالى : « وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا » إشارة إلى ماقد يصيب السّوق التجارية من كساد ، حين تقوم القطيعة بين المؤمنين والمشركين .

وفى قوله تعالى : « فتربصوا » تهديد ووعيد لأولئك الذين يؤثرون علاقاتهم الدنيوية ، على الإيمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيل الله .. والتربص : الانتظار .. ووراء هذا الانتظار مايسوء أولئك الذين آثروا الآجلة على العاجلة حين يرون نَصْرَ الله للمؤمنين ، وما فتح الله عليهم به من مغانم فى الدنيا ، ورضوان فى الآخرة ، وجنّات لهم فيها نعيم مقيم .

ويلاحظ أن قوله تعالى : « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ .. الآية » قد انتظم كل ما تتعلق به النفوس ، وتحرص عليه .. وليس وراءه من أمور الدنيا مايطلبه الإنسان ، ويَعلَق به . .

كما يلاحظ أيضاً أن هذه الأمور قد جاءت فى النظم القرآنى مرتبة الدرجات .. الأهمّ ، فالمهم ، فما هو دونه .. وهذا مايجعل المؤمن أمام تجربة ذات شُعَب ، وأنه قد يؤثر إيمانه على بعضها دون بعض ، أو يؤثرها جميعاً عليه ، أو يؤثر إيمانَه عليها جميعاً .. كما أن هذه التجربة تنتظم المسلمين جميعاً ، لايكاد أحد منهم يفلت من الدخول فيها ، فمن لم يكن له أب كان له ولد .. ومن لم يكن له ولد ، ولا والد ، كان له زوج .. ومن لم يكن له واحد من هؤلاء كان له مال ،

ومن لم يكن له مال ، ولا تجارة يخشى كسادها ، كان له موطن يحِنّ إليه ، ودار يرنو ببصره إليها ..

وهكذا ، فى كلماتٍ معدودة ، تتحرك مشاعر المجتمع الإسلامى ، وتتقلب القلوب ، ويدور الصراع فى كيان كل مسلم ، ثم تنجلى المعركة بعدصراعٍ طويل أو قصير ، عن سلام وعافية ، أو شكّ وتردّد .. ثم يجىء قوله تعالى : « والله لايهدى القوم الفاسقين » تعقيباً على هذا الصّراع ، ممسكاً بهؤلاء الشاكّين المترددين ، لينتزعوا أنفسهم مما هم فيه من شك وتردد ، فإمّا إلى اليمين ، وإما إلى اليسار .. ولله سبحانه وتعالى فى هؤلاء المترددين الشاكّين، الذين ظلموا أنفسهم بهذا الموقف الذى وقفوه ـ لله فيهم أعداء لم يُردِ الله أن يهديهم ، وأن يُمضى لهم طريقهم إلى آخره مع الإيمان .. فَلْيحذرْ كلٌّ من هؤلاء أن يكون فيمن خذلهم الله وجعلهم من أعدائه .. « والله لايهدى القوم الفاسقين » الذين دخلوا فى دين الله ، ثم مال بهم الطريق إلى مالا يُرضى الله!

الآيات : (٢٥ — ٢٧)

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » (٢٧)

التفسير : التجربة التى وضع الله سبحانه وتعالى المسلمين إزاءها فى الآية

السابقة ، هى تجربة قاسية ، تعالج منها النفسُ الشىء الكثير ، من الضيق والألم ، إلاّ من عَصَم اللهُ من عباده المؤمنين.. ولهذا جاء قوله تعالى :

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ » — جاء قوله سبحانه وتعالى فى هاتين الآيتين ، مذكّرا المسلمين بعظمة الله وقدرته ، وفضله على المؤمنين من عباده . . وفى هذا ما يخفّ به ميزان كل شىء يتعلّق به الإنسان ، من أهل ومال وموطن . . وبذلك يشتدّ عَزم المؤمن ، وَيقْوَى يقينه ، فيجد القدرة من نفسه على أن يُجْلى عنها كل ما يَطُوفُ حولَ إيمانه بالله ورسوله والجهاد فى سبيل الله ، من دواعى الوهن والضعف ، حين تطلع عليه الذكريات لأهله وماله ووطنه .

فلقد أيد الله المؤمنين ، وأمدّهم بنصره فى مواطن كثيرة .. فى بدر ، وفى الخندق ، وفى فتح مكة .. وفى حرب اليهود ، فى خيبر ، وفى المدينة ..

ثم فى يوم حنين .. وقد كان المسلمون في عدد عديد ، وعدّة ظاهرة ، حتى لقد قال قائلهم : « إننا لن نُغلب اليوم من قلّة » فقد كانوا فى إثنى عشر ألفا ، بين راجل وفارس . .

ومع هذا ، فإنه ما كاد المسلمون يلتقون بهوازن فى وادى حُنين قرب مكة ، حتى ولّوا مدبرين ، وانكشف رسول الله للعدو ، ولم يثبت معه إلاعدة من ذوى قرابته ، منهم علىّ بن أبى طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، ونفرٌ قليل من المؤمنين ..

والذى كان يَرْصد المعركة في تلك اللحظة ما كان يشك أبداً فى أن الدائرة على المسلمين، وأن الهزيمة واقعة بهم ، لامحالة ..

لقد تبدّد جيش المسلمين ، وتناثرت جموعهم ، وذهبت ريحهم ، وما كان لقوة فى الأرض أن تجمع هذا الكيان الممزق ، وأن تبعث فيه الحياة والقوة من جديد ..

ولكن أمداد السماء ، ونفحات الحق ، جاءت فى وقتها ، فأحالت الهزيمة نصراً حاسماً . . « ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ »

وفى هذا يرى المسلمون أن القوة لله ، وأن النصر والعزّة للمؤمنين ، وأن البلاء والخزى على الكافرين ..

فمن أراد النصر والعزّة .. فلا مُبتغَى لهما ، ولا سبيل إليهما ، إلا بالإيمان ، ومع المؤمنين .

ومن رغب عن الإيمان ، وآثر عليه الأهل والمال ، فلن يلْقَ إلا الذلة والهوان . .

وفى قوله تعالى : « ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنَ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » استدعاء لمن خذلتهم عزائمهم ، وتخلى عنهم السداد والتوفيق ، فمالوا إلى جانب الضالين والمشركين .. فهؤلاء لايزال الطريق إلى الله مفتوحاً لهم ، ولا زالت رحمة الله ومغفرته تنتظرهم على أول الطريق ، إنْ هم راجعوا أنفسهم ، ونزعوا عما هم فيه من تردد وارتياب !

وهنا وقفة لابد منها مع « ثُمَّ » وهو حرف عطف للترتيب والتراخى ..

وقد جاء مكرراً ثلاث مرات فى الحديث عن يوم حنين .. هكذا ..

* « وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ .. ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ »

* ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ . . . »

* « ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ . . »

والعطف بثم هنا فى هذه المواضع الثلاثة ، أفاد أمرين :

أولهما : الترتيب الزمنى فى وقوع هذه الأحداث .. فقد وقع المسلمون أولا فى اضطراب وذعر ، والتمسوا الخلاص مما هم فيه من بلاء ، ولم يكن ذلك بالميسور لهم .. ثم كان الفرار وتولية الأدبار هما طريق النجاة .. ثم كان من الله توبة ومغفرة لمن فرّ منهم وولّى المشركين دبره فى القتال .

وثانيهما : التغاير بين وجوه هذه الأحداث المتعاطفة ، بحيث يبدو أن عنصر الزمن لابد أن يكون عاملا هنا فى تحريك الأحداث ، حتى تتغير وتبلغ الصورةَ التى جاءت عليها ..

والذى ينظر إلى الموقعة ـ موقعة حنين ـ من الظاهر ، يجد أنها حدثاً واحداً ، متلاحم النسج ، وأن ليس هناك أى فاصل زمنى يفصل بين مجرياته الأمور فى هذا الحدث .. فهى معركة واحدة ، احتواها زمن واحد ، لم يجاوز غُدْوةَ يومٍ . . ولكن الذى ينظر إلى المعركة نظراً أعمق وأرحب ، يجد أنها لم تكن معركة واحدة ، وإنما هى معارك متصلة ، بدأت بمعركة هزم فيها المسلمون ، ثم انتهت بمعركة كتب الله لهم فيها النصر . .

فالمعركة الأولى ، لها حسابها وتقديرها ، وحكمها ، وهى الهزيمة المطلقة للمسلمين . . فقد أحاط بهم العدوّ ، وأوقع فى صفوفهم الفوضى والاضطراب .. الأمر الذى يُسلم إلى الهزيمة التى لامفرّ منها ..

وسع هذا ، فإنه ما كان للمسلمين أن يفرّوا بأىّ حال كانوا عليه ، وعلى أى تقدير يُقدّرونه لنتائج المعركة .. فلتكن الهزيمة واقعة بهم ، ولكن الذى كان يجب ألا يكون منهم ، هو الفرار .. فهذا أمر لا يصحّ أن يقع من المسلمين فى ميدان القتال ، والله سبحانه وتعالى يقول : « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تُوَلّوهم الأدبار * ومن يولّهم يومئذٍ دُبُرَه إلا متحرّفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد بآء بغضبٍ من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .. فأى مسلم هذا الذى تحدّثه نفسه بالفرار من المعركة ، وهو يعلم حكم الله فيمن يفرّ ويولىّ العدوّ دُبُرَه ؟

ولكن الذى حدث ، هو أن المسلمين فرّوا ، وَوَلّوا الأدبار .. !

ومن هنا كان هذا الأمر منهم حَدَثاً غريباً ، ما كان ينبغى أن يكون فى ميدان القتال .. !

وهذا هو بعض السرّ فى عطفه « ثم » على الحدث الذى قبله ، وهو الضيق والكرب الذى ركب المسلمين فى أول القتال .. وفى هذا مايشعر بأن هذا الحَدَث ـ حَدَث الفرار ـ وإن كان قد وقع فى ميدان القتال ، هو حدث مستقلّ بنفسه ، منقطع الصلة بما قبله ، غير مترتب عليه .. وعطفه على ماقبله هو من عطف حدث على حدث ، أو قصة على قصة ، أو حال على حال !

أما عطف قوله تعالى : « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » فهو كذلك عطف حال على حال ، أو قصة على قصة .. وهذا مايشعر بأن الحدث الأول ، وهو الفرار والهزيمة ، أمر قد وقع ، وسُوِّى حسابه .. ثم بدأ أمر آخر ، له حسابه الخاص به ، وهو الممثل فى تلك المعركة الجديدة التى دخل فيها المسلمون القتال مع العدوّ ، بنفوس جديدة ومشاعر جديدة ، بل قل وبأشخاص غير الأشخاص ومقاتلين غير المقاتلين .. إذ أنزل الله سكينته عليهم ، ونزع

ا كان قد استولى على قلوبهم من خوف وهلع ، وأمدّهم بجنودٍ من عنده ، كانوا ردْءًا لهم ، ويداً قوية ضاربة معهم ، فكان لهم النصر والظفر ..

وأمّا عطف قوله تعالى : « ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشآء » فكان من عطف حالٍ على حالٍ ، وقصّة على قصّة ، وشأن على شأن ، وأن الصّلة التي بينه وبين ماقبله ليست صلة سبب ومسبّب ، أو علة ومعلول ..

ذلك أن ما كان يتوقعه المسلمون بعد فرارهم وتولّيتهم الأدبار ، هو وقوع غضب الله عليهم فى الدنيا ، والعذاب الأليم فى الآخرة .. ولكن الذى حدث كان غير هذا ، فقد عاد الله سبحانه وتعالى بفضله وإحسانه عليهم ، وجاءهم برحمته ومغفرته ، وتقبّل توبة التائبين منهم .

وقد جاءت رحمة الله ومغفرته إلى الذين فروا وولوا الأدبار فى هذه الصورة المتراخية ـ وفى هذا مايشعر بأن مغفرة الله ورحمته ما كانت لتنال هؤلاء الفارّين أبداً ، وأنها إذ نالتهم فى تلك المرّة ، فإنها قد لاتنالهم بعدها .. لأن الحكم المسلّط على الفارّين الذين يولّون الأدبار فى ميدان القتال هو الحكم المحكم الذى لايُردّ ، وأن هذا الذى أصاب المسلمين الفارين من مغفرة ورحمة فى هذا اليوم هو استثناء من أصلٍ ، ليس من الحتم أن يقع فى كل حال تشبهه !

الآيتان : (٢٨ — ٢٩)

« يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ

دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ » (٢٩)

التفسير : النَّجَس : القَذَر ، الذى تنفر منه النفوس السليمة ، وتتحاشاه ..

والعَيْلة : الفقر والحاجة ، وأصله من العوْل ، وهو الزّيادة فى النفقة على الأصل الذى يُنفَق منه .. وفى المأثور : « لاعال من اقتصد » .

والجزية : مايفرض على أهل الذمة فى الإسلام ، وهو قدْر من المال يؤدونه فى مقابل الإبقاء على حياتهم ، وقد أصبحوا ليد المسلمين بعد الغلب عليهم .

وفى قوله تعالى : « إنما المشركون نجسٌ » حكم على المشركين بفساد كيانهم الداخلى ، وأنهم بشركهم بالله قد أفسدوا طبيعتهم ، كما يقع ذلك فى الأمور المادية ، حيث يختلط الخبيث بالطيب ، فيفسده !.

والمشرك نَجَسٌ كلُّه ، باطناً وظاهراً .. ولهذا نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن نكاحِ المشركات ، وإنكاح المشركين ، كما نهى عن تناول المسلمين من طعامهم ..

والمسجد الحرام ، مَعْلَمٌ من معالم الهدى ، ومنارة من منارات الحق .. فهو بهذا كائن طيّب .. ظاهره وباطنه ، ومورد عذبٌ يستقى منه المؤمنون ، ويَرْوون ظمأهم الروحى من جوّه الطهور .. ومن هنا كان على المسلمين حراستَه من أن يُلِمّ به خَبَثٌ ، فيفسده عليهم ، ويعكر موارده ..

والمشركون نَجسٌ ، وإلمامهم ، بالمسجد الحرام تقذير له ، وإفساد لطبيعته .. ولهذا أمر الله المسلمين بأن يحولوا بين المشركين وبينه : « إنما المشركون نَجَس فلا يقربوا المَسْجِدَ الحرام بعد عامهم هذا » وهو العام التاسع من الهجرة ،

الذى أعلن الله ـ سبحانه ـ المشركين فيه ، بأنه برىء منهم ، وأن رسوله برىء منهم . . وأن المسلمين ـ موالاةً لله ولرسوله ـ بريئون منهم . .

وقوله تعالى : « وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ » هو تطمين لقلوب المؤمنين ، وإغراء لهم بدفع المشركين عن البيت ، ولو كان فى هذا ما قد يسبب لهم كساداً فى تجارتهم ، وتبادلِ المنافع بينهم وبين المشركين فى موسم الحجّ . . فالأرزاق بيد الله ، ويده سبحانه مبسوطة بالعطاء ، وفضله واسع عميم . . فليستقمْ المسلمون على أمر الله ، وليبتغوا بذلك مرضاتَه ، وهو سبحانه الذى يتكفّل بأرزاقهم ، وبإعطائهم الجزيل من فضله . .

وقوله تعالى : « إِنْ شَاءَ » ليس قيداً وارداً على الحكم الذى حُكم به فى قوله سبحانه : « وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ » . . وإنما هو إشارة إلى أن مشيئة الله هى المسلطة على كل شىء ، وأنها لا تتوقف فى نفاذها على أفعال العباد ، إذ أن أفعال العباد كلها داخلة فى مشيئة الله ، واقعة تحت سلطانها . .

وقوله تعالى : « إن الله عليم حكيم » هو وصف كاشف لهذه المشيئة ، وأنها مشيئة « عليم » لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء . . « حكيم » فلا تقع مشيئته إلا على ما يقضى به علمه وحكمته ، فتقع إذ تقع على أكمل الكمال ، وأحكم الحكمة . .

* قوله تعالى : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ »

الجزية : هى ما يُفرض على أهل الذمّة من مال يؤدونه للمسلمين ، وسمّيت

جزية لأنها إمّا من الجزاء ، فى مقابل الذنب الذى ارتكبوه بإفساد عقيدتهم ، وإمّا من المجازاة ، فى مقابل حفظ نفوسهم ، وصيانتهم من القتل .

ويجىء الأمر هنا بقتال الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، بعد أن انكشف للمسلمين موقفهم من أعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر ، وبعد أن نهاهم الله سبحانه وتعالى عن موالاة غير المؤمنين ، حتى ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم . . ثم بعد أن ذَكَر الله سبحانه نصرَه لهم فى مواطن كثيرة ، لم يكن بين أيديهم فيها من وسائل الغلب والنصر شىء . .

وإذ يجىء الأمر بقتال الذين لا يؤمنون بالله ، بعد هذا الموقف الذى أثار مشاعر المسلمين ، وقوّى عزائمهم ، ووثق إيمانهم — فإنه يقع موقعه من نفوسهم ، ويُثمر ثمرته الطيبة فيهم ، إذ يقبلون على القتال ، وقد خلت نفوسهم من مشاعر المودة بينهم وبين الذين لا يؤمنون بالله ، ولو كانوا أقربَ الناس . . فلا يلتفت المجاهد إلى أهل أو مال ، ولا ينظر إلى نفسه أكثر مما ينظر إلى دينه ، والانتصار له ، ودفع يد العدوّ عنه . .

وقد جاء الأمر بقتال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فى صيغة العموم هكذا : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . . . الآية » .

وهذه الآية من سورة التوبة كما ترى ، وقد نزلت بعد أن فتح النبىّ مكة ، وبعد أن هزمت هوازن فى حنين ، وبعد أن بسط الإسلام سلطانه على الجزيرة العربية كلّها . .

والسؤال هنا هو : إلى من يتجّه الأمر إلى المسلمين بقتالهم ، بعد أن دخل العرب فى الإسلام ؟ .

والجواب على هذا ، هو ما تضمنه قوله تعالى : «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحرمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ

من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عَنْ يَدٍ وَهُم صاغرون » . . وقد أشارت الآية الكريمة إلى ثلاثة أصناف :

فالذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر . . هم الكافرون كفراً صُراحاً ، وهم الملحدون .

والذين لا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله . . هم المشركون ، الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ؛ إيماناً تلبّست به الضلالات ، واختلطت به البِدَع . . وذلك إيمان المشركين من العرب.. الذين كانوا على دين إبراهيم ، فأفسدوه بما أدخلوا عليه من تلقّيات أهوائهم ، ووساوس شياطينهم ، حتى لقد عبدوا الأصنام وقالوا : « ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زُلْفَىَ » .

والذين لا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، هم اليهود النصارى ، الذين أفسدوا دينهم بما حرّفوا من كتاب الله الذى فى أيديهم ، وبما تأوّلوا من كلمات الله التى بقيت معهم . .

فهؤلاء هم الذين أمر المسلمون بقتالهم . . بعد الإعذار إليهم ، ودعوتهم إلى الإسلام ، دعوةً قائمة إلى العدل والإحسان ، داعيةً إلى الإخوة الإنسانية فى ظلّ الإيمان بالله .

أما الكافرون فهم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، وليس معهم كتاب سماوى .

وأما المشركون ، فهم الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ، إيماناً مشوباً بالضلال . . والمَثَل الواضح للشرك ما كان عليه مشركو العرب قبل الإسلام . .

وأما أهل الكتاب ، فإن فى كفرهم شبهة، إذ معهم كتاب موسوم بأنه من عند الله، وهو وإن حرّف ، وبدّل ، وتأوله المتأولون على غير وجهه ، لا يزال يحتفظ بأصول صالحة ، لأن تكون معتقداً سليماً ، لو أعيد النظر فيه ، على ضوء القرآن

الكريم ، الذى هو مصدق لهذا الكتاب الذى فى أيديهم ، ومهيمن عليه . .

ولشبهة الكفر ، أو شبهة الإيمان عند أهل الكتاب ، فقد أخذهم الله بحكم غير حكم الكافرين والمشركين . . فهم ليسوا مؤمنين ، وإن لم يكن الإيمان بعيداً منهم .

ومن هنا كان أمر الله فيهم أن يُدْعَوْا إلى الإيمان الحقّ ، فإن استجابوا وآمنوا ، كان لهم ما للمؤمنين ، وعليهم ما عليهم .. وإن أَبَوْا كان على المسلمين قتالهم ، حتى يستسلمُوا ، ويصبحوا فى يد المسلمين ، يَجرى عليهم حكمُهم ، وتُبسَط عليهم يدهم . . ثم إنه ليس للمسلمين قتْلُهم ، كما يُقتل الكافرون والمشركون .. ولكن إذا سَلِمت لهم أنفسهم ، فلن تسلم لهم أموالهم ، بل عليهم أن يؤدوا منها جِزيةً للمسلمين ، وأن يؤدوها صاغرين ، أى مقهورين مغلوبين .

وقد ألحقت السُّنَّة المجوسَ باليهود والنصارى فى أخذ الجزية منهم بدلاً من القتل المضروب على المشركين والكافرين ، وغيرِهم ، ممن لا كتاب لهم .

يقول الإمام الشافعى — رضى الله عنه — « إنها (الجزية) تؤخذ من أهل الكتاب ، عرباً كانوا أو عجما ، ولا تؤخذ من أهل الأوثان مطلقاً ، لثبوتها فى أهل الكتاب ، بالكتاب ، وفى المجوس ، بالخبر » .

وعند أبى حنيفة أنها تؤخذ من أهل الكتاب مطلقاً ، ومن مشركى العجم والمجوس لا من مشركى العرب » .

وهذا الذى يراه أبو حنيفة هو الأوْلى بأن يؤخذ به ، لأنه يجرى مع الحكمة فى أخذ الجزية من أهل الكتاب ، وعدم أخذها من مشركى العرب . . وذلك لأن العرب قد شهدوا دلائل النبوة كاملة ، واستمعوا إلى آيات الله ، وعرفوا مواقع الإعجاز منها ، وأن القرآن عندهم ليس بالذى يخفى عليهم علوّ منزله ، وأنه

من كلام رب العالمين . . فلم يكن كفرهم بالله وتكذيبهم لرسول الله إلا عن عناد واستكبار ، وإلا عن حمية جاهلية . . فكان أن أخذهم الإسلام بهذا الحكم إذا هم وقعوا ليد المسلمين : إما الإسلام ، وإما القتل ، ولا ثالث . . ! فمثل هؤلاء الذين يشهدون الحقّ ، ويرون آياته رأىَ العين ، ثم لا يتبعونه ، ولا يفتحون عقولهم وقلوبهم له ـ مثل هؤلاء ، ينبغى أن تُهدر آدميتهم ، وأن تقام عليهم هذه الوصاية ، التى تأخذهم بهذا الحكم الملزم .

أما مشركو العجم والمجوس ، ممن لا كتاب معهم ، فإنه لم يَستبِنْ لهم على وجه القطع من دلائل النبوة ، وصدق الرسول ما استبان لمشركى العرب ، فكانوا لهذا أقربَ إلى أن يُلحقوا بأهل الكتاب ، وأن يدخلوا فى تلك التجربة التى يدخلها أهل الكتاب — من أن يُلحقوا بمشركى العرب . .

أما من يؤدون الجزية ممن يدخلون فى حكمها ، فقد اختلف الأئمة فيهم . . فبينما يرى مالك والأوزاعى أنها تؤخذ من جميع الواقعين تحت حكمها فرداً فرداً ، إذ يرى أبو حنيفة أنها لا تؤخذ من امرأة ، ولا صبىّ ، ولا زَمِن ، ولا أعْمَى . .

ورأى أبى حنيفة أقرب إلى سماحة الإسلام ، وإلى مرامى أهدافه البعيدة . فى تأليف القلوب ، ودعوتها إليه بالتى هى أحسن .

وأخْذ الجزية من أهل الكتاب ، وأداؤهم لها على هذا الوجه الذى يؤدونها عليه فى ذلةٍ وصغار ؛ هو فى الواقع ليس عن دافع من التعالى والكِبر من المسلمين ، وإنما هو إثارةٌ لدوافع الإنسانية عند هؤلاء الذين يؤدون الجزية ، ولتحريك الرغبة فيهم إلى الخلاص من هذا الوضع المشين ، وذلك بمراجعة معتقدهم.. من جهة ، والنظر فى وجه الدعوة التى يدعوهم الإسلام إليها .. من جهة أخرى .. وهذا إنْ فعلوه فإنه لابدأن يصحح عقيدتهم ، ويفتح عقولهم وقلوبهم

للدين الحق ، دين الله ، دين الإسلام .

وهذا هو السرّ فى الإبقاء على أهل الكتاب حين يقعون ليد المسلمين ، وصيانة دمهم من القتل ، وقبول الدّية منهم . . فإن هذا التدبير إنما غايته هو وضع أهل الكتاب فى هذا الامتحان ، وتلك التجربة .. ولقد أثمر هذا الامتحان ونجحت تلك التجربة ، فإنه مامن أحدٍ من أهل الكتاب ، دخل فى هذا الامتحان وعاش تلك التجربة ، وأخذ مكانه مع المسلمين على هذا الوضع ، حتى وجد الفرصة سانحة ، والوقت متسعاً ، للبحث والنظر فى معتقده ، والمعتقد الذى يُدْعى إليه..وكان من هذا أن دخل فى الإسلام ، وآمن به عن اختيار واقتناع .. ومن بقى على دينه من أهل الكتاب ــ وهم قلة شاذة ــ فقد كانت آفة ذلك إلى تعصب أعمى ، وانقياد لهوى جامحٍ ، لايمسكه عقل ، ولا يردّه رأى !

فلم تكن الجزية التى فرضها الإسلام على أهل الكتاب ضَرْباً من التحكم ، ولا نَزْعة من نزعات القهر والتسلط ، وإنما هى ــ كما رأينا ــ دعوةٌ حكيمة من دعوات الإسلام إلى الإيمان بالله ، وأسلوبٌ من أساليبه المحكمة ، فى فتح الأبصار المغلقة ، إلى النور ، ولَفْت العقول الشاردة ، إلى الهدى ، وإيقاظ القلوب الغافية ، لاستقبال آيات الله وكلماته . .

ولو كان من شأن الإسلام التسلط والقهر ، والعدوان والبغى ، لأخذ أهلَ الكتاب الذين وقعوا ليده ، ونزلوا على حكمه ، بما أخذ به الكافرين والمشركين ، ولمَا قبل منهم إلاّ الإيمان أو القتل ، ولما استبقاهم ابتغاء إصلاحهم ، وشفائهم مما ألمّ بهم ، من زيغٍ فى العقيدة ، وضلالٍ فى الدين ..

فالجزية التى فرضها الإسلام على أهل الكتاب ، هى دواء لداء ، واستطباب لِعلّة ، وعملية جراحيّة لاستئصال مرضٍ قاتلٍ .. وإنه لابأس من أن يكون الدواء مرّاً ، إذا أثمر ثمرته فى شفاء الداء .

وفى قوله تعالى : « حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ » إشارة إلى علوّ يد المسلمين ، وتمكنهم من عدوّهم ، بمالهم من بأس ، وقوة .. وهذا يعنى أن يحتفظ المسلمون دائماً بتلك القوة التى مكّنت لهم ، وإلا كان عليهم أن ينزلوا عن هذه المنزلة التى هم فيها ، فإنهم إن لم ينزلوا عنها طائعين ، نزلوا عنها مكرهين .. بل وربما تحولت الحال ، فكانوا تحت يد من كانوا تحت يدهم ! فالمراد باليد هنا ، القوة والقدرة ، التى يعلو بها المسلمون على غيرهم .

والقوة التى يعتمد عليها المسلمون ، تقوم دعائمها أولا وقبل كل شىء ، على الإيمان بالله ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .. فإذا حقق المسلمون حقيقة الإيمان فى قلوبهم ، مكّن الله لهم من كل أسباب العزة ، والقوّة ، وملأ أيديهم من خير الدنيا والآخرة جميعاً ، وأقامهم فى هذه الدنيا مقاماً كريماً ، وجعل كلمتهم العليا ، وكلمةَ الذين كفروا هى السفلى !

فليس المراد بقوله تعالى : « وهم صاغرون » تحريضاً للمسلمين على امتهان أهل الذمة وإذلالهم ، بقدر ماهو تحريض للمسلمين على اكتساب القوة والاحتفاظ بها حتى لايكونوا يوماً فى هذا المنزل الذليل المهين ، الذى ينزله المغلوبُ على أمره بها ، النازلُ على حكم غالبه . . فهذا هو واقع الحياة ، وتلك هى سنة الله فى خلقه . . الغالب متحكم متسلط ، والمغلوب مقهور مهين .. وإذا كان هناك من المبادىء الخلقية ، أو المواضعات السياسية ، مايخفف من هذا المبدأ العامل فى الحياة ، فإن سماحة الإسلام ، وإنسانية شريعته ، قد كان لها فى هذا الباب مالا يمكن أن يلحق بغُباره القوانين الدولية ، أو المنظمات الإنسانية .. ذلك أن دعوة الإسلام إلى التسامح ، والرفق ، والإخاء ، دعوة مشدودة إلى ضمير الإنسان ، موصوله بإيمانه بالله ، بحيث لايكمل إيمانه إلا بها .. أما ما تحمله القوانين الدولية ، وما تنادى به المنظمات الإنسانية ، فلا يعدو أن يكون مجردَ نصائح ووصايا ،

تخاطب أذن الإنسان ، دون أن تبلغ مواطن الإدراك ، أو الوجدان منه .

فالقوة التى يملك بها المسلمون مصائر الأمور فى الناس ، قوة رحيمة ، عادلة .. ومن الخير للناس جميعاً ، أن تنمو هذه القوة ، وأن يمتد سلطانها .. فحيث كانت فهى بِر ورحمة ، فإذا صارت تلك القوة إلى يد غير مؤمنة بالله ، آخذة بشريعته ، كانت قوةً ظالمة غشوماً ، تطلع على الناس كما تطلع العواصف العاتية ، لاتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم .

هذا وكثير من الفقهاء والمفسّرين على أن قوله تعالى : « قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر .. الآية » هو أمرٌ ملزم للمسلمين بقتال غير المسلمين ، قتالا عاماً ، فى أى حال يجد فيها المسلمون قدرة على القتال . بمعنى أنهم يكونون فى حرب دائمة مع غير المسلمين ، حتى يدخلوا فى الإسلام ، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .. على الوجه الذى أشرنا إليه . .

وسنعرض لهذا الرأى الذى يجعل المسلمين فى حرب دائمة مع غير المسلمين عند شرح الآية (٣٦) من هذه السورة .. وذلك إلى ما أشرنا إليه فى مبحث : « الحرب والسلام فى الإسلام »[١] .

الآيات : (٣٠ — ٣٣)

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ

(١) انظر ص ٦٥٢ من هذا الكتاب .

سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » (٣٣)

(الإسلام . . دين المستقبل)

التفسير : فى هذه الآيات يكشف الله سبحانه وتعالى عن الشبه التى وَرَدت على أهل الكتاب ، فأفسدت عليهم دينهم ، وأدخلتهم فى مداخل المشركين ، أو الكافرين . . فوُصفوا بقوله تعالى : « ولا يدينون دين الحق ».

فاليهود يقولون ــ فيما يقولون من مفتريات على الله ــ « عُزَيرٌ ابنُ الله » .

وشبهتهم فى هذا ، هى أن الله سبحانه وتعالى قد بعثه من بين الموتى ، بعد أن أماته مئة عام .. وإلى هذا ــ والله أعلم ــ يشير الله سبحانه وتعالى بقوله : « أو كالذى مرّ على قرية وهي خَاويةٌ على عُرُوشِها قالَ أنَّى يحيي هذه الله بَعْدَ موتِها .. فأماته الله مئةَ عام ثمَّ بعَثَه » (٢٥٩ : البقرة) .

وقيل إن التوراة قد ضاعت أيام الأسْر البابلىّ ، وأن الألواح التى كانت كتبت فيها قد حملها بختنصر معه إلى بابل ، وقيل أحرقها .. فلما عاد اليهود من الأسْر ، كانت الكلمات التى حفظوها من التوراة قد ذهب أكثرها من صدورهم . .

وقد وقعوا فى حيرة وقلق ، بعد أن أعادوا بناء الهيكل ، ولم يعيدوا التوراة التى فُقدت .. فكان الهيكل فى نظرهم أشبه بجسد لاروح فيه ..

وفيما هم فى هذا الهمّ والحيرة ، طلع عليهم « عَزْرا » أو « عُزير » وقال لهم :

إن الله قد ملأ صدره نوراً ، فإذا التوراة محفوظة فى قلبه ، تجرى كلماتها على لسانه !

ثم جَمع أحبارَهم ، وأملى عليهم التوراة ، من حفظه . . !

وحدث بعد هذا أن عثروا على التوراة الضائعة ، فقارنوا بها ما أملاه عليهم « عزرا » فإذا هى هى ، لم ينخرم منها حرف ، ولم تسقط منها كلمة .. ! فـكان عندهم « عزرا » كائناً علوياً سماوياً ، لهذا العمل العظيم الذى جاءهم به .. فرفعوا نَسَبه إلى الله ، وجعلوه ابناً له ! !

والنصارَى ، قالوا فى المسيح عيسى بن مريم كما قالت اليهود فى « عزير » .. قالوا : « المسيحُ ابنُ الله » .

وشبهتهم فى هذا ، هى أن المسيح قد وُلِدَ من رَحِم امرأة ، دون أن تتصل برجل .. وجهلوا أن هذا الميلاد وإن كان عجيباً ، خارجاً على مألوف الحياة ، وغير مطّرد مع السنن المألوفة لنا ، فإنه ليس خارجاً عن قدرة الله ، التى لا يعجزها شىء ، ولا يقيّدها قيـد من عادةٍ أو مألوف ، بل هى قادرة قدرةً مطلقة ، بلا حدود ولا قيود : « اللهُ يخلق مايشاء » .

وفى قوله تعالى : « ذلك قولهم بأفواههم » توكيد لِمَا يقولونه ، من نسبة الابن إلى الله سبحانه وتعالى ، وأنه قول لم يَحـكِه أحدٌ عنهم ، أو ينطق به شاهد الحال عليهم ، وإنما هو قول قالوه بأفواههم ، لا يستطيعون دفعه ، أو إنكاره ، إذ كان ذلك مما نطقت به ألسنتهم ، وسمعته آذانهم ، فـكيف السبيل إلى التنصّل منه ؟ وكيف السبيل إلى جَحده ، وهم لا يزالون يرددونه بأفواههم ؟

ويمكن أن يُحمل قوله تعالى : « ذلك قولهم بأفواههم » على معنى آخر ، وهو أن قولهم هذا مجرد كلام ، يُلقى على عواهنه ، من غير أن يُحتكم فيه إلى عقل أو منطق .. إنه كلام .. لا أكثر ! ليس بينه وبين الحق نسب !

قوله تعالى : « يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ »

أى يُشبهون فى قولهم هذا قولَ الذين كفروا من قبلهم ، والمضاهاة المشابهة والمماثلة ، والمحاكاة . . أى أنهم فيما يقولون من نسبة الولد إلى الله ، لم يكونوا إلا مقلّدين ومحاكين ، لمن قال هذا القول من الذين كفروا من قبلهم . .

والذين كفروا من قبلُ . . مَن هم ؟

يمكن أن يكون هؤلاء الذين كفروا من قبلُ ، مُرَادًا بهم آباؤهم الأولون ، الذين غيّروا فى دين الله ، وتأولوا آياته وكلماته هذا التأويل الذى صار بهم إلى الكفر . . فهؤلاء الكافرون من اليهود والنصارى الذى يخاطبهم القرآن هذا الخطاب ، هم متابعون لآبائهم الأولين ، محاكين لهم . .

ويمكن أن يكون الذين كفروا من قبل ، كلّ من سبق اليهودَ والنصارى ، من الذين كانوا يدينون بهذا المعتقد الذى يجعل لله ابناً ، يُعبد من دون الله ، أو يُعبد مع الله ، مثل تلك المعتقدات التى كان يعتقدها اليونان فى توليد الآلهة، بعضهم من بعض ، وكما كان يعتقد الفراعنة فى آلهتهم ، وإضافة ملوكهم إلى آلهة سماوية علوية ، وكما يعتقد المعتقدون فى « بوذا » وأنه مولود إلـهى . .

وقوله تعالى : « قاتلهم الله » هو طرد من رحمة الله ورضوانه ، لهؤلاء الذين يقولون هذا القول المنكر فى الله . . فإن « قاتلهم الله » يعنى أنهم نصبوا حرباً لِله ، فحاربهم الله ، وقاتلهم .. !

وانظر ماذا يكون من أمر من يحاربه اللهُ ويقاتله ؟ أتُراه ينجو من البلاء والهلاك ؟ أو يجد قدرة على احتمال مايحلّ به من بلاء ونقمة ؟ هيهات .. هيهات!

وفى قوله سبحانه : « أنّى يؤفكون » إنكار عليهم هذا الإفك الذى هم فيه ، وهذا الافتراء الذى يفترونه على الله .

« وأنّى » استفهام بمعنى كيف . . أى كيف يكون منهم هذا الإفك ؟ وكيف يجدون له مساغًا فى عقولهم ؟

* قوله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ »

هو اتهام جديد لأهل الكتاب ، وكشف عن وجه من وجوه الضلال الذى ركبوه ، وهو أنهم انقادوا لأحبارهم ورهبانهم ، وجعلوا لهم الكلمة فيهم ، والعقلَ المدبّر لهم ، فكلمة الأحبار والرهبان لهم ، هى الكلمة التى لا معقّب عليها عندهم ، حتى لكأنها كلمات الله عند المؤمنين بالله . .

وقد تأول الأحبار والرهبان كلماتِ الله ، وأخرجوها عن مفهومها الذى لها ، إلى المفهوم الذى يرونَه . . ومن هنا كان للأحبار والرهبان هذا السلطان المبسوط على أتباعهم ، بحيث جعلوا إلى أيديهم أمرَ هؤلاء الأتباع ، فيما هو من صميم العقيدة . . فيغفرون لمن شاءوا من المذنبين ، ويحرمون من شاءوا من هذا الغفران . . وقد أدّى ذلك إلى أن أصبح الأحبار والرهبان آلهة يُطلب رضاها ، ويُتقرب إليها بالقُربات ، حتى تُنال منهم المغفرة والرضوان . . وهذا وضع أشبه بالوضع الذى يقوم بين المؤمن وربّه .. ومن هنا كان قوله تعالى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله » مصوراً لهذه الحال القائمة بين عامة اليهود والنصارى وبين أحبارهم ورهبانهم ، أدقّ تصوير وأتمه . .

والأحبار : جمع حَبْر ، وهو عالم اليهود ، ورجل الدين فيهم .. والرهبان : جمع راهب ، وهو عالمِ المسيحيين ، وصاحب الكلمة فى معتقدتهم وشريعتهم .

وأما قوله سبحانه : « والمسيحَ ابْنَ مَرْيَمَ » فهو معطوف على قوله سبحانه : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله » أى واتخذوا المسيح ربًّا من دون الله . .

وفى عطف المسيح بعد الفصل بقوله تعالى « أربابا من دون الله » إشارة إلى أن المسيح فى ربوبيته عند أتباعه، يأخذ وضعاً خاصاً، غير الوضع الذى للأحبار عند اليهود، وللرهبان عند النصارى.. فهؤلاء الأحبار والرهبان ليسوا أرباباً عند أتباعهم بصورة قاطعة، وإنما هم أشبه بالأرباب.. أما المسيح فهو عند أتباعه ـ النصارى ـ ربٌّ بكل معنى الكلمة للفظة ربٌّ..

* وقوله تعالى: « وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ »..

الضمير فى « أمروا » يعود إلى هؤلاء المخاطبين من أهل الكتاب ـ من يهودٍ ونصارى ـ كما أنه يشمل الأرباب الذين اتخذوهم، من الأحبار والرهبان، والمسيح ابن مريم.. فهؤلاء وأولئك جميعاً مطالبون بأن يعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هُوَ.. فهذا هو الإيمان الذى لا يدخل إنسان فى عِداد المؤمنين إلا به، وهو الإيمان الذى أمر الله سبحانه وتعالى به رسله، وجاءت به كتبُه التى أنزلها عليهم.. وقد تنزه الله تعالى عن الشرك الذى يدين به المشركون.. « سبحانه عما يشركون ».

* وقوله تعالى: « يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ »

فى هذه الآية الكريمة إشارة مضيئة إلى مستقبل الإسلام، وأنه «نور الله» الذى يريد المشركون، والكافرون، والمنافقون، أن يطفئوه بأفواههم..

وإضافة الإطفاء الذى يريده هؤلاء الضالون بنور الله ـ إضافته إلى أفواههم، لأن أفواههم هى التى تنطق بهذا الزور والبهتان، والافتراء على الله، ونسبة الولد إليه.. كما يقول سبحانه: «وقالت اليهود عُزَيْرٌ ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولُهم بأفواههم».. فهذه الأفواه التى تنطق بهذا الضلال،

وما أشبهه ، هى مما يُضلُّ الناسَ ، ويفتنهم فى دينهم ، إذا كانوا مؤمنين ، أو يُمسك بهم على الكفر والضلال إذا كانوا كافرين ضالين . . وهذا من شأنه ـ لو مضى إلى غايته ـ أن يَذهب بنور الحق ، ويمحو معالم الهدى ، ويقيم الناسَ فى ضلال وعمًى وظلام .. ثم إن هذه الأفواه، هى التى تكيد للإسلام ، وتدسّ له ، وتسعى بقالة السوء فيه . .

ولكن الله سبحانه وتعالى بالغٌ أمرَه ، ومنجزٌ وعدَه الذى وعده نبيَّه فى قوله سبحانه : « هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » (٩ : الصف)

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى هنا : « وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » . . فهذا وعدٌ مؤكَّدٌ من الله سبحانه ، بأن يُتِمَّ نُورَهُ ، أى دينه . . وأن يبلغ به غاية الكمال والتمام . . وذلك يكون ـ وهو كائن لاشك فيه ـ حين يصبح الإسلام دينَ الإنسانية كلّها ، يطلع عليها طلوع الشمس ، فيغمر نورُه كل صُقع ، ويتسرب شعاعه إلى كل قلب . . !

وانظر إلى قوله سبحانه . « ويأبى الله » ، وإلى قوة الحقّ سبحانه وتعالى القائمة على نُصرة دين الله ، والتى تأبى أن يقف فى وجه هذا الدين ما يحجب ضوءه ، أو يُضلّ الناس عنه . . « ويأبى الله إلاّ أن يُتمّ نوره » وتمام النور وكماله ، هو فى أن يبسط سلطانَه على الوجود الإنسانى كله . . « ولو كره الكافرون » وذلك مما يسوء المشركين وأهلَ الضلال ، وإنه لا حساب لهم ، ولا لما يحلّ بهم من سوء . . فلترغَمْ أنوفُهم ، ولتملأ كل الحسرة قلوبَهم !

وهذا المعنى الذى أخذناه من الآية الكريمة ، من إطلاق نور الله على الإسلام ، يشهد له قوله سبحانه فى سورة الصف : « وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ * » (٦ — ٩ : الصف)

فهذه الآيات تكشف فى وضوح صريح ، عن أن نور الله هو الإسلام ، الذى أرسل الله به رسوله محمداً : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » . . وإن هذا الدين سَيَظْهر على كل دين ، وينسخ كل معتقد ! إنه نور الله ، وإنه لدين الله .. «والله متمُّ نورِه ولو كره الكافرون» .

ويلاحظ أن قوله تعالى : « ولو كره الكافرون » قد جاء فى سورة التوبة . . والكافرون هم مَن لم يكونوا على دين أصلاً ، أو كانوا على دين ولكنهم لا يؤمنون بالله إيماناً صحيحاً ، وهو ما عليه أهل الكتاب ، الذين وصفهم الله سبحانه بقوله : « ولا يدينون دين الحقّ من الذين أوتوا الكتاب » . . والمشركون هم الذين يدينون بدين يجمع بين الإيمان بالله ، والإيمان بشركاء مع الله . .

والكافرون والمشركون هم فى مجموعهم لايؤمنون بالله ، ولايدينون دين الحق ، وهو الدين الذى جاء به الإسلام على تمامه وكماله . .

فإذا تحقق وعد الله بإتمام دينه ـ وهو متحقق حتماً ـ وذلك على كُرهٍ من غير المؤمنين جميعاً ، كان معنى هذا أن الإسلام سيصبح يوماً ما دينَ الإنسانية كلها .. ولو كره الكافرون والمشركون .

وهنا شبهتان قد تندفعان فى صدور أولئك الذين يأخذون الأمور بما يلوح على ظاهرها، دون أن ينفذ نظرهم إلى ماوراء هذا الظاهر من حق وصدق..

والشبهة الأولى: هى ما يبدو على ظاهر الحياة اليوم من انكماش ظِلّ الدين عموماً فى النفوس، واستيلاء الإلحاد على مواقع الإيمان عند كثير من الشعوب والأفراد..

وهذا يعنى بظاهرِ واقعه، أن عصر الإيمان قد ولّى، وأن الناس فى طريقهم إلى إيمان آخر غير هذا الإيمان المستند إلى ما وراء المادة.. إيمانٍ بالطبيعة وبالحياة فى صورها المادية المختلفة وما تولده منها العلومُ والفنون.. وهذا يعنى أيضاً أنه لا الإسلام ولا غير الإسلام من الأديان الأخرى، سيبقى على ما هو عليه الآن، فضلا عن أن يمتد ظله، ويقوى سلطانه!

ونقول: إن هذه الظاهرة، هى مقدمة طبيعية لإقامة الإنسانية على دين صحيح، يتجاوب مع العقل ومنطقه، ويدخل إلى عقول الناس كما تدخل الحقائق العلمية.

فالعقل الحديث الذى بَعُدَ عن الدّين، إنما بعد عن تلك المعتقدات التى لا تثبت لأدنى نظر يُنظر به إليها، ثم يُفرض عليه — مع هذا — أن يقبلها، وأن يتعامل معها، لأنه لا بد له من دين يعيش به، ويحيا معه..

فإذا وقف العقل من تلك المعتقدات، هذا الموقف، وإذا أبى أن يخضع خضوعاً أعمى لسلطانها — فذلك حق مشروع له، وإلاّ فما كان لهذا العقل الذى ميّز الله الإنسانَ به عن عالم الحيوان، وظيفةٌ يؤديها للإنسان، أو عملٌ يعمله فى هدايته، وكشف معالم الطريق له، وخاصة فى أهم شأن حيوى من شئونه، وهو ما يَمسّ الحياة الروحية منه.

فليس إذن هذا الموقف المنحرف الذى يقفه العقل العصرى من الدين — ليس هذا الموقف عن آفة فى هذا العقل، أو عن استغناء منه عن الدين..

وإنما ذلك ، لهذا الخلاف البعيد الذى بينه وبين الدّين الذى ينظر فيه ، ويُدْعى إلى الإيمان به .

ولا تحسبَنّ أن هذا العقل « العصرىّ » الذى بَعُد عن الدين هذا البعد ـ قد اطمأنّ إلى تلك الحياة التى يحياها بلا دين . .

وكلاّ ، فالإنسان متديّن بطبعه ، والدين مطلبٌ من مطالب الإنسان ، على أى مستوى من مستويات الإنسانية ، كان عقله ، وكان علمه . . !

فالإنسان البدائى ، وسقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، والفارابى ، وابن سيناء ، وابن رشد ، هم سواء فى الحاجة إلى الدين ، وإلى تصور المعتقد الدينى ، الذى يرضيهم ، ويغذّى عاطفتهم ، ويَرْوِى الجدب الروحى الذى يجده الإنسان ـ أى إنسان ـ إذا هو بات ليلة أو بعض ليلة على غير دين !

وللملحدون الذين تعجّ بهم الدنيا فى الغرب والشرق ، هم أكثر الناس ظمأً إلى الدين ، وتطلعاً إليه ، وبحثاً عنه ، ووسواساً به .

وليست هذه المذاهب التى يعيش فيها الماديون ، من طبيعية ، ووجودية ، وغيرها ، إلا سعياً وراء الدين ، وإلا مَلْأً لهذا الفراغ الدينى الذى يجدونه فى كيانهم ، ولا يجدون الدين الحقّ الذى يملؤه !

وهم فى هذا معذورون . . وإلا فماذا يمنع الجائع الذى لا يجد الطعام الطيب الذى يسد جوعه ، إذا هو مد يده إلى الخبيث الذى تعافه النفوس من الطعام وتستقذره ؟ إن هذا من ذاك سواء بسواء !

والشبهة الثانية ، هى : هل الدين الإسلامى دين يحمل فى كيانه من الحقائق ما يتقبله العقل « العصرى » ، ويجد فيه شيئاً يمسك به ، ويقيمه على منطقه ؟

وكيف تُدّعَى للإسلام هذه الدعوى ، وهذه ثمراته ظاهرة فى أهله الذين

يَدينون به ، وهى ثمرات معطوبة ، لا تشتهيها نفس ، ولا يستريح إليها نظر ! !
فحال المسلمين ـ فى أفرادهم وجماعاتهم وأممهم ـ فى المستوى الذى لا يرضَى أحدٌ
من الشعوب المتقدمة أن يكون عليه ، من الفقر والضعف ، فى ماديات الحياة
ومعنوياتها جميعاً . . فـكيف يكون للإسلام وجه يطلع به على الحياة العصرية ،
ويدعو أهلها إليه ؟

والحق أن الذى ينظر إلى الإسلام من خلال أهله ، ويأخذه بحسابهم ،
يفرّ من الإسلام ، ويصرف وجهه عنه ، إن لم يكن هناك طريق آخر
يصله بالإسلام ، وبمبادئه اتصالاً مباشراً ، لا يمرّ به على طريق يطلع منه على
العالم الإسلامى وأحوال المسلمين . . اليوم ! .

إن الدين بأهله . .

ولقد صَغُرت نفوسنا ـ نحن المسلمين ـ وضَمَرت ذاتيتنا، فصغُر فيها كل معنى
كريم ، وضمر فيها كل مَثَل فاضل .

إن النفوس المريضة تتغير فيها حقائق الأشياء ، كما تتغير حقائق المرئيات
وصورها فى العين المريضة ، وكما تنحرف مذاقات الطعوم فى الفم السقيم . .

والواقع أننا قد أصبنا فى القرون الأخيرة بعلل وأوجاع ، أفسدت حياتنا ،
وأنزلتنا منازل الهُون فى دنيا الناس . . فاستُعمرت أوطاننا بالدخلاء ، وصار إلى
غيرنا تدبير شئوننا ، وتوجيه حياتنا . . وكان من خِداع المستعمر ومكره بنا ،
وكيده لنا ، أن جعل من همّه الأول ، إفسادَ عقيدتنا ، وعزلنا عن ديننا ، وخلق
جفوة بيننا وبينه . . إذ كان يعلم إن الدين هو الذى يقف عقبةً فى سبيل إماتة
مشاعر الحياة الإنسانية الـكريمة فى الشعوب التى يحتلّها ، وأنه ما دام للدين
الإسلامى سلطان على النفوس ، وتمكك بها ، فإن الاستعمار لن يبلغ الغاية التى
يريدها من استسلام الناس استسلاماً مطلقاً له ، يتمكن به من تضييع معالمهم ،

ومسخ إنسانيتهم ، وتحويلهم إلى دُمًى تتحرك حسب مشيئته ، وتبع إشارته ..

ومن هنا كانت حرب الاستعمار للدين الإسلامى فى نفوس أهله ، وفى تصويره لنا بصورة الداء الذى أصابنا فى الصميم من حياتنا ، فصار بنا إلى ما نحن فيه ، من ضعفٍ وفقر وتخلّف ، وإنه لولا تمسكنا به ، لما كانت تلك حالنا ، ولما قامت علينا تلك الوصاية القاهرة الظالمة من الأمم التى استولت على مواطن الإسلام .. هكذا ألقى الاستعمار إلينا بهذا الضلال المسموم ، فتلقّاه كثير منّا وكأنه نصيحة ناصح أمين ، وتذكرة طبيب حاذق لمريض يشفق عليه ، ويلتمس الدواء لعلته القاتلة ! .

ولقد عمل الاستعمار جاهداً على أن يمكّن لهذا الضلال من نفوسنا ، وأن يُغرِىَ به الشباب ، خاصة ، بما أذاع بأساليبه وصنائعه من مفتريات على الإسلام ، وتهجم عليه ، وازدراء لأهله ، واستخفاف بمكانهم فى الحياة ، وحرمانهم من كل مكان كريم فيها ..

بل ، وأكثر من هذا .. فلقد أرانا الاستعمار صورة عملية تعيش بيننا ، وتشهد لما يحدّثنا به عن الإسلام ، وعن جنايته على المسلمين .. !

فالاستعمار ، إذ وضع يده على أوطان الإسلام كلّها ، ترك فى وسط العالم الإسلامى ، بلادًا غير مُسلمة ـ كالحبشة مثلاً ـ دون أن يمدّ إليها يداً ، ليُرىَ المسلمين من ذلك أن دينهم هو الذى جعل أوطانهم ـ دون سائر الأوطان ـ على هذه الحالة من الضعف ، الذى أغرى المستعمرين بهم ، ومكّن له منهم ، وأقامه قيّما عليهم ، حتى يرشدوا ويبلغوا مبلغ الرجال .. ولن يكون لهم ذلك إلا إذا تحللوا من هذا الدين ، وتركوه وراءهم ظِهرِيًّا .

* * *

ولكن الإسلام شيء . . وأهله شيء آخر ، فى هذا العصر الأقل . .

وأنه إذا كانت قد عَرَضَتْ للمسلمين عوارضُ الضعف والوهن فى فترة من فترات تاريخهم الطويل ، فليس من الإنصاف للإسلام أن يقام ميزانه على حساب تلك الفترة العارضة . .

وإن على الذى ينشد الحق للحق ،أن ينظر إلى الإسلام أولاً وقبل كل شىء.. فى مبادئه ، وأحكامه ، وفى تصوره للألوهية ، وللحياة الآخرة ، وفى دعوته الأخلاقية لبناء الكيان الإنسانى ، وصلته بالمجتمع الإنسانىّ وبالحياة .. فإن وجد نظاماً وضعياً أو دينياً عرفته الحياة ، قديما أو حديثاً ، فى سياسة الأمم والشعوب ، وفى إقامة موازين العدل بين الناس ، وفى تنظيم العلاقات بينهم فى الحرب والسلم ـ إن وجد نظاماً وضعياً أو دينياً يقارب نظام الإسلام ، فى اعتداله وتوازنه ، وتوافقه مع متطلبات الناس وواقع الحياة ، فليقُلْ فى الإسلام ما يقول ، وليرْمِه بالتهم القاتل ، وهو أنه ليس من عند الله ، إذ لا يكون من عند الله شىء يكون فيه خلل أو اضطراب . . !

ثم إن من ينشد الحقّ للحق ، وينظر إلى الإسلام نظراً مباشراً ، ينبغى ألّا يَغفُل عن تلك الفترة المشرقة من تاريخ المسلمين، يوم كانَ الإسلام قائدَ حياتهم ، وراية دولتهم ، ودستورَهم العامل فى حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فذلك من شأنه أن يعطى الإسلام فرصته ، ليقيم بين عينى الناظر إليه ، مجتمعاً بشرياً لم تعرف الحياة مثيلاً له ، فى ماضيها وحاضرها . . مجتمعاً ملأ يديه من طيبات الحياة فى أصفى مواردها ، وأكرم منازلها ، دون أن ينسى نصيبه من معطيات الروح . . فكانت قدمه على الأرض ، ورأسه فى السماء !

والسؤال الذى نسأله هنا . . هو :

إذا كانت بعض الأديان ـ بما دخل عليها من تبديل وتحريف ـ قد فضحها

العلم الحديث ، وانكشف للمتدينين بها ما تلبس بها من أوهام وخرافات . .
فهل وقع الإسلام تحت هذا الحكم الذى أصدره العلم الحديث على هذه الأديان ؟
وهل امتُحن الإسلام ومُحِّصت حقائقه على ضوء العلم ، وفى مخابير الحياة ،
ثم ظهر منه ما لا يرضاه العلم وما لا تقبله الحياة ؟

إن الإسلام ـ وثوقاً منه بما ضُمَّ عليه من حق وخير ـ ليفتح ذراعيه للعلم الحديث ، ويرحّب به كل الترحيب ، ويسعد السعادة كلها بلقاء العقول الناضجة المستنيرة له ، بكل ما وضعه العلم بين يديها من سائل التمييز بين الحق والباطل ، والنافع والضار ، والسليم والسقيم . .

فتلك هى فرصة الإسلام التى يظهر فيها كَرَمُ معدنه ، وتتجلّى فيها عظمة حقائقه ، ويُسفر بها وجه المشرق الكريم . .

إن هذا العصر ـ عصرَ العلم والشك . . عصرَ الامتحان لكل شىء . . عصرَ الإلحاد وغربلة الأديان ـ هو عصر الإسلام ، وهو اللسان المجدّد لدعوته ، حيث يجلى حقائق هذا الدين ، ويكشف عن الخير الكثير المخبوء للناس فيه . .

ولا يريد الإسلام ، ولا نريد له أن يتلقى الناس دعوتَه قضية مسلّمة ، بل إن ذلك لتأباه طبيعته ، التى تدعو العقل دائماً ، وتأنس بصحبته ، وتسعد بالحديث إليه ، والاستماع له . .

فالذى يريده الإسلام ، ونريده له ، هو أن يضع العلماء والفلاسفةُ والمفكرون هذه العقيدة موضع الشك أو الإنكار ـ إن شاءوا ـ ثم ليعاملوها معاملة القضايا التى ينكرونها أو يتشككون فيها ، وليسلطوا عليها نظراتهم باحثةً فاحصة ، ثم ليقلّبوها فى أيديهم ظهراً لبطن ، وبطناً لظهر ، وليمتحنوها بكل ما فتح به عليهم العلم ، من أساليب الامتحان . . ثم ليحكموا بعد هذا على الإسلام ، بما يظهر لهم على محكّ الفحص والاختبار . .

وإن الإسلام ليتقبّل هذا الحكم فى غبطة ورضى ، لأنه لن يكون إلا شهادةً بيّنةَ الحجة ، ساطعة البرهان ، على أن هذا الدين هو دين الحق ، دين الله ، الذى أراده لخير الإنسانية وإسعادها .

إن العلم الحديث هو فرصة الإسلام ، التى تتجلّى فيها معجزته ، من جوانبها العلمية ، والسياسية ، والاجتماعية والاقتصادية ، فيرى العقلُ الحديث منها أنه أمام معجزة قاهرة متحدّية ، لايملك إلا التسليم لها ، والسجود بين يديها .. تماماً كما تجلّت معجزته البيانية للأمة العربية ، يومَ كان سلطان البيان هو الذى يحكم هذه الأمة ، ويستولى على مواطن الإدراك والشعور منها . . فآمنت به ، وسجدت بين يديه . .

وهذا هو كتاب الإسلام ، وتلك هى حجته القائمة ، ودستوره المسطور فى القرآن الكريم :

إنه يقدّم نفسه لكل من يريد النظر فيه ، والتعرف إليه .. غير مستندٍ إلى تأويل أو تفسير .. فلسانه أفصح من كل لسان ، وبيانه أوضح من كل بيان .

فالذين يعرفون العربية ، يعرفون طريقَهم إليه فى غير عَنَاء ، ويضعون أيديهم على حقائقه من غير معاناة ..

والذين لايعرفون العربية ، يمكن أن تُترجم لهم حقائقه ، كما تترجم الدساتير القانونية ، والحقائق العلمية .. ولا عليهم إن فاتهم إعجاز الكلمة ، ومعجزة البيان .. فإن الحقائق التى تصل إليهم من خلال الترجمة ، كافية فى الكشف عن وجوه أخرى من الإعجاز ، ممثلة فى محكم أحكامه ، وروعة حقائقه ، وخلود مقرراته ..

والإسلام ـ فى يُسره ، وسماحته ، ومُواءمته للفطرة الإنسانية ـ قريب من كل نفس ، واضح لكل ذى نظر ، واقعٌ فى فهم كل ذى فهمٍ .. تلتقى عنده عقول

المتعلمين والعلماء ، وتجتمع عليه أنظار العامة والفلاسفة ، بحيث يجد فيه كل عقل مايغنيه ويرضيه ، ويأخذ منه كل نظر مايرشده ويسعده .. هكذا دائماً آيات الله المبثوثة فى هذا الوجود ، ممّا يمسك على الناس حياتهم ، ويحفظ وجودهم ، لاتقصُر عنها يدٌ ؛ ولا يستأثر بها إنسان دون إنسانٍ ، أو تختص بها جماعة دون جماعة ، أو أمة دون أمة .. إنها من الله ، ولعباد الله .. كالماء والهواء ، والشمس ، والقمر ، والنجوم .. وإن كان لأحدٍ أو لجماعة أو أمة نصيب أوفر ، أو حظ أعظم ، فهو مما زاد الحاجة التى لاتتطلبها ضرورات الحياة ، وإن كان فيها متعة فوق متعة ، ورضًى فوق رضى .. فصاحب النظر الحديد يرى من جمال الوجود وروائع آياته مالا يراه صاحب النظر الكليل ، وصاحب الشمّ السليم ، يجد من طيب الزهر وعبيره ، مالا يجده المزكوم ..

ومثل هذا تماماً ، موقف الناس جميعاً أمام القرآن الكريم ، وماتحمل سُوَره من آيات الله البينات .. الناس كلهم بين يديه ـ على اختلاف حظوظهم من العلم والمعرفة ـ على مائدة طيبة ، طعامها هنىء لكل عقل ، وشرابها مرىء سائغ لكل قلب .. من طَعِم منها لايجد الجوع العقلى أبداً ، ومن رَوِى منها لايعرف الظمأ الروحى أبداً ..

وتلك هى معجزة القرآن القائمة على الناس أبدَ الدهر ، وتلك هى حجة الله على من أخلَى عقلَه وقلبَه من الدين ، أو دان بغير دين الحق ، دين الله ، الذى ارتضاه لعباده .. كما يقول الحق جلّ وعلا : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » وكما يقول سبحانه : « اليومَ أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورَضيت لكم الإسلام ديناً » .

إن الأيام ستثبت صدق هذه الدعوى التى ندعيها لعالميّة الإسلام ، لأننا لانقيم هذه الدعوى على عاطفة دينية نحو الدّين الذى ندين به ، وإنما نقيمها على

مانستشفه من كلمات الله ، بل على ماتكاد تصرح به كلمات الله ، لمن أصغى إليها بأذن واعية ، والتفت نحوها بقلب سليم ، ونظر فيها بعقل متحرر من التعصب والهوى .

وإنى لأدعوك دعوة مجدّدة إلى أن تتلو قوله تعالى :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون * يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون * هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » ثم صِلْ هذا بقوله سبحانه : « ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدى القوم الظالمين * يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون * » (٧ ـ ٩ : الصف)

اتلُ هذه الآيات ، ولا تنظر فيما حدثتك به عن بعض مفاهيمها ، وأقِمْ لنفسك فهماً خاصًّا ، معتمداً فيه على النظر المباشر فى قسمات وجهها السماوى الوضىء ، فإنك ستجد ملء مشاعرك يقيناً بأنك أمام معجزة من معجزات الكتاب الكريم ، تكشف لك عن مستقبل الإسلام ، وتشير إلى يوم قريب فى دورة الزمن ، تصبح فيه الإنسانية كلها وقد دانت بهذا الدين ، ورضيت ما ارتضاه الله لها فى قوله سبحانه : « ورضيت لكم الإسلام دينا » .

هذا ، وقد استظهر بعض العلماء المشتغلين بالدراسات الإسلامية[1] ـ

---

(١) هو المغفور له الأستاذ محمد فريد وجدى .

استظهر من مسيرة الإسلام فى فلك النبوة ، والذى كانت دورته فيها ثلاثاً وعشرين سنة - أن للإسلام دورة فى فلك خارج فلك النبوّة ، أشبه بهذه الدورة ، مدتها ثلاثة وعشرون قرناً ، أى أن كل سنة من عصر النبوّة ، تمثل قرناً كاملا فى تلك الدورة الجديدة .

كما استظهر أيضاً ، أن الثلاثة عشر عاماً الأولى التى عاشتها الدعوة الإسلامية فى دائرتها الضيقة ، وفى مواجهة الكيد لها ، والمكر بها ، والتضييق على أتباعها ، قبل الهجرة النبوية - هذه المدة تمثل الثلاثة عشر قرناً التى انسلخت بعد عصر النبوة .. والتى تحرك فيها الإسلام تحركات محدودة خلالَ هذه الدورة ، أشبه بما كان له من تحركات فى تلك الفترة ، بالهجرة إلى الحبشة ، وإلى المدينة قبل الهجرة النبوية .. وأن الإسلام بعد هذه القرون الثلاثة عشر ، التى مضت ، سينطلق من محبسه ، كما انطلقت دعوته بعد الهجرة ، وستكون له فتوحات فى آفاق الأرض كلها ، كما كانت له فتوحاته فى الجزيرة العربية ، التى دانت كلها بدين الإسلام ، قبل أن يلحق النبىّ بالرفيق الأعلى ، وقد تحقق له ماوعده الله سبحانه وتعالى به ، فى قوله جلّ شأنه : « إذا جآء نصر الله والفتح ورأيتَ الناسَ يدخلون دين الله أفواجاً * فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا .. »

فالقرون العشرة المقبلة - كما استظهر هذا العالم العليم - هى انطلاقة جديدة للإسلام ، أشبه بانطلاقته التى كانت له بعد الهجرة فى سنواتها العشر .. وستكون هذه القرون العشرة ، كما كانت تلك السنوات العشر ، تمكيناً للإسلام ، وتثبيتاً لقواعده ، وامتداداً لدولته ، حتى تدين به الجزيرة الأرضية جميعها ، كما دانت له الجزيرة العربية كلها من قبل .!. « لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ *

وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * »

أما بعد هذه القرون العشرة ، فقد تبدأ دورة جديدة ، للحياة الإنسانية كلها ، أو قد ينتهى عمر الإنسان على هذه الأرض . . وعلم ذلك عند علام الغيوب .

الآيات : (٣٤ — ٣٥)

* « يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ » (٣٥)

التفسير : جاء فى الآية (٣١) قوله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ . . » وهو يكشف عن الدور الذى يقوم به كثير من أحبار اليهود ورهبان النصارى ، فى إفساد المعتقد الدينى لأتباعهم ، وخاصة ما يتصل بتصورهم للالوهية ، ونسبة الولد إلى الله ، كما قال الله سبحانه وتعالى عنهم : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ » (٣٠) .

وفى قوله تعالى : « يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » . . فى هذا فضحٌ لأولئك الأحبار والرهبان الذين أفسدوا على الناس معتقدهم فى الله ، فإنهم إنما فعلوا ذلك ليقوم لهم فى الناس سلطان دينىٌّ ، يقوم فى ظله سلطان دنيوى لهم على أتباعهم .

ذلك أنهم إذ جعلوا لله سبحانه أن يتخذ ابنـــا ، وإذ أقاموا فى معتقد أتباعهم هذا التصور ، فإن ذلك يُفسح لهم مجـالَ القول بأنهم من الله بمنزلة الأبناء أو الأحفاد ، ومن ثَمّ ساغ لهم أن يفرضوا على الناس هذا السلطان الدينىّ بحكم صلتهم بالله ، وأن لهم الـكلمة عند الله فى قبول من يقبلونه ، وفى ردّ من يردونه ، وبهذا السلطان الذى جعلوه لهم عند الله كان فرضاً لازماً على أتباعهم أن يحكموهم فى كل شىء لهم ، من مال ومتاع ، بعد أن حكموهم فى دينهم ومعتقدهم . . ومن هنا تسلّط كثير من الأحبار والرهبان على أكل أموال الناس بهذا الباطل ، الذى زينوه لهم ، ودخلوا عليهم منه . .

وانظر إلى تلك الدعوة ـ دعوة الإسلام ـ التى تقوم على الإيمان بالله وحده إيماناً خالصاً من الشرك ، مبرأ من الوساطات ، التى تقوم بين الإنسان وربّه ـ أتجد لإنسانٍ ـ مهما يكن فى النـاس ـ أن يتسلط على إنسان فى معتقده ، أو يعترض طريقه إلى الله ، أو أن يضع بين يديه صكاً يأذن له فيه بلقاء الله ؛ وطلب مغفرته ورضوانه ؟ ذلك مالا يكون فى دعوة تضع الناس جميعاً أمام إله متفرد بالألوهية ، لاشريك له ، من صاحبة أو ولد ، أو حبر أو راهب.. إن الحريّة الشخصية التى هى دين الإنسان المصرى اليوم ، تنقضها تمـاماً تلك الوصاية الدينية التى يفرضها عليه رجال الدين ، ويحولون بينه وبين أن ينظر فى أمور عقيدته ، وأن يعرضها على عقله . . والإسلام وحده ، هو الذى يمنح الإنسان هذه الحرية المطلقة فى النظر فيه ، وعرض كل حقائقه على عقله .. بل إن الإسلام لا يرضى ممن يؤمن به أن يأخذه عن طريق غير طريق عقله وإدراكه ، وأن يتلقاه متابعاً مقلّدا .

* وقوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَـكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » . . هو وعيد لهؤلاء الأحبار والرهبان ،

الذين يجمعون ما يجمعون من مال ، أخذوه بالباطل من أتباعهم ، وجعلوه لأيديهم ، لا ينفقون منه فى وجه من وجوه الخير العام ، بل يجمعون هذا المال ويكدسونه ، لا لغاية إلا حُبّ التملك والاقتناء . .

وفى قصر الاكتناز على الذهب والفضة ، إشارة إلى أنهما النّقدان اللذان ترجع إليهما جميع المعاملات ، وتوزن بهما كلّ قيم الأشياء . .

* وقوله تعالى : « يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ » هو بيان لهذا المصير المشئوم الذى سيصير إليه هذا المال الكثير بمن اكتنزوه . . وأنهم إذ خلّفوه وراءهم ، فلم ينفقوه فى سبيل الله ، فإنه قد تبعهم إلى آخرتهم ، ليلقاهم هناك فى يوم القيامة ، حيث لا بَيْعَ ولا شراء . . ولكن لابد أن يكون لهذا المال عمل ، وقد صار إلى يد أصحابه . . وليس هناك إلا النار التى يعيشون فيها ، ويتعاملون معها . . وَحين يتصل هذا المال ـ من ذهب أو فضة ـ بالنار ، سيتحول إلى كتل من الجمر ، تُكوى بها أجسامهم فى المواضع التى تُشوّه معالمهم ، وتزيد فى آلامهم . . جباههم ، وجنوبهم ، وظهورهم . . فإذا أنكروا هذا الذى يُكْوَوْنَ به دون أهل النار جميعاً ، قيل لهم : « هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

وهكذا يكون الجزاء من جنس العمل.. فقد أخذوا هذا المال ظلماً وعدواناً، ثم اكتنزوه شحاً وبخلاً ، فكان جزاؤهم أن كان هو سوطَ العذاب الذى يعذبون به ، من حيث كان يُرجى أن يكون مصدر نفع وخير لهم .

وسواء أكان عذاب الآخرة مادياً أو معنوياً ، فإن هذه الصور التى يعرضها القرآن من صور العذاب، لابدّ أن تقع على الصورة التى صوّرت بها . . فإن كان العذاب مادياً جاءت تلك الصور مادية على صورتها التى صورها القرآن ، وإن كانت معنوية جاءت معنوية على تلك الصورة أيضاً ، فالعالم

المحسوس؛ إن هو إلا صورة مجسّدة ممثلة للعالم المعنوى المقابل له.. كالكلمة التى تصور المعنى، وكالجسد الذى يلبس الرّوح الذى له.

الآيات: (٣٦ — ٣٧)

« إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَابِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَالِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ » (٣٧)

التفسير: مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما هى أنهما تكشفان عن وجه من وجوه التأويلات الفاسدة، لشريعة الله، فتغير وتبدّل من صورتها التى أقامها الله عليها، وذلك أشبه بما عليه الأحبار والرهبان، من العبث بدين الله، وجعله وراء أهوائهم وما يشتهون.. فناسب أن تجتمع هاتان الصورتان فى هذا المقام.

* « إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ » أى فى تقديره « ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَابِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ » أى هكذا عدّة شهور العام فى كتاب الله، الذى أودع فيه مقررات علمه، وذلك يوم خلق السموات والأرض، وربط بينهما بهذا النظام الفلكى، فكانت دورة الأرض حول الشمس التى تتم بها الفصول الأربعة — مقدرةً باثنى عشر شهراً.. لا تزيد ولا تنقص..

« منها أربعة حرم » أى جعل الله سبحانه من هذه الشهور الاثنى عشر، أربعةَ أشهر حرم ، أى يَحْرُم فيها القتال بين الناس . . فمن بدأ فيها بقتال كان معتديا على حدود الله ، وكان الدم الذى يُراق فى هذا القتال واقعاً إثمه على من بدأ القتال .. « ذلك الدّين القيمّ » . . أى هذا هو الشَّرْع القويم الذى شرعه الله .. أو ذلك هو الحساب السليم الذى وضعه الله لعدة الشهور ، ولبيان الأشهر الحرم منها . . لأن الدين يأتى بمعنى الشريعة ، كما يأتى بمعنى « الحساب » ومنه قول الرسول الكريم : « الكيّس من دان نفسه » أى حاسبها .. « فلا تظلموا فيهن أنفسكم » باستباحة حرمتها وإراقة الدماء فيها ، ففى هـذا ظلم لأنفسكم بالدخول فى هذه التجربة القاسية ، وفى تعرضكم لهذا الامتحان الذى عافاكم الله منه ، فجعل لكم هذه الأشهر الحُرُم سكناً آمناً ، تفيئون فيها إلى العافية والسلام ، وتستظلون فيها بظلّ الطمأنينة والأمن ، فإنه ليس بكثير عليكم أيها الناس أن تعيشوا فى سلامٍ مطلق، أربعةَ أشهر من كلّ عام ، إذ كانت حياتكم قائمة على الشرّ والعدوان . .

والأشهر الحرم ، دعوة إلى السلام الذى ينبغى أن يقوم بين الناس ،حتى تطيب لهم الحياة ، وحتى يكون سعيهم كلّه متجهاً إلى العمل المثمر ، الذى يعود عليهم جميعاً بالخير والبركة ، والنّماء لما فى أيديهم من عمل ، فى غير مجال الحرب والقتـال . .

والأشهر الحرم كذلك ، هُدْنة تَقْطع حبلَ القتال إذا كان واقعاً بين جماعة وجماعة ، وهذه الهدنة من شأنها أن تدعو المتقاتلين إلى مراجعة أنفسهم ، وإلى العمل على الخلاص من هـذا البلاء الذى حلّ بهم ، فيطرقون باب السّلم ، أو يفتحونه لمن يدعوهم إليه . .

والأشهر الحرم هى : ذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرم ، ورجب ، وقد بينها الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى خطبته فى حجة الوداع بقوله : « ألاَ وإن

الزمانَ قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . . السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات ، ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر ، الذى بين جمادى وشعبان » .. « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » أى أن هذه الدعوة التى تدعو إلى السلام وَ تجنّب القتال فى الأشهر الحرم ، وإن كان حتماً على المسلمين أن يمتثلوها ، ويحققوها من جانبهم ، إلا أنها لا تحمل المسلمين على التهاون فى قتال المشركين ، وترك الإعداد لحربهم . . لأن المشركين لا يحترمون هذه الدعوة ، ولا يستقيمون عليها ، ولا يَدَعون المسلمين فى أمن وسلام ، إذا هم قَدَروا على قتالهم ، ووجدوا الفرصة السانحة لهم فيهم . .

وهذا هو السرّ فى عطف هذا الأمر : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » على النهى السابق فى قوله سبحانه : « فلا تظلموا فيهن أنفسكم » . .

إذ أن هذا النهى يقتضى الكفّ عن القتال فى هذه الأشهر الحرم ، خاصة ، وفى غيرها ، عامة ، إذا لم يكن من المشركين عدوان على المؤمنين . . وهذا من شأنه ــ لو أطلق ــ أن يحمل المسلمين على طلب المسالمة والموادعة ، وترك الاستعداد للحرب ، والانخلاع عن مشاعر القتال ، فى حين أن المشركين على غير هذا الموقف ، لأنهم أبداً على عداوة مضمرة أو ظاهرة للمؤمنين ، وأنهم إذا وجدوا فرصة للتنكيل منهم فلن يمسكهم عن ذلك عهد أو قرابة : « لا يرقبون فى مؤمن إلاًّ ولا ذمّة » .. فكان إتباعُ هذا النهى بذلك الأمر : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » . كان وضعاً للنهى بموضعه الصحيح ، فيكون دعوة للسِّلم ، مع الحذر من خطر الحرب ، ومع مراقبة العدوّ ، والإعداد لدفع عدوانه إن حدثته نفسه بعدوان . .

وقوله تعالى « كافّةً » أى جميعاً : . وأصله من الكفّ عن الشىء . . بمعنى كفّ نفسه عن الأمر أى دفعها عنه ، وكف العدوّ ، أى دفعه وردّه . .

وهذا لا يكون من الإنسان ، إلا بنفسٍ مجتمعة، وعزيمة غير موزعة، كما لا يكون من الجماعة المقاتلة إلا باجتماعهما جميعاً ، واستحضار كل ما لديها من قوى مادية ومعنوية .

هذا ، وقد عدّ كثير من الفقهاء والمفسّرين قوله تعالى : « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً » ـ عدّوا ذلك أمراً يوجب على المسلمين ، قتالَ المشركين قتالاً دائماً متّصلا ، على أية حال يكون عليها المشركون إزاء المسلمين ، سواء أكانوا محاربين أم مسالمين .. واعتبروا هذه الآية ناسخة لكل ما جاء فى القرآن من آيات تدعو إلى مهادنة غير المسلمين ومسالمتهم ، إذاهم هادنوا المسلمين وسالموهم . . وسمّوا هذه الآية آية السيف ، التى نَسَخَتْ قولَه تعالى :« فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » (١٩٤ : البقرة) وقولَه سبحانه : « فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ » (١٩٣: البقرة) وقوله تعالى : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » (١٩٠ : البقرة) إلى غير ذلك من الآيات التى تدعو المسلمين إلى القتال حين تقوم دواعيه ، وهى ردّ عدوان المعتدين ، أو الذين يقفون فى وجه الدعوة الإسلامية ، ويصدون الناس عنها ، أو يفتنونهم فيها . . أما فى غير هذا ، فلا قتال ولا عدوان .

وآية السيف هذه — كما يقول عنها القائلون ـ إنما هى دعوة للمؤمنين إلى جمع جماعتهم على أمرٍ واحد فى المشركين ، وهو أن يعدّوهم جميعاً جبهة معادية، لافرق بين مشرك ومشرك ، فكما أن كل مشرك هو حرب على الإسلام والمؤمنين به ، سواء كان ذلك بقلبه ، أو لسانه ، أو يده ، وسواء أكان فى جماعة أو منفرداً ، فكذلك ينبغى أن يكون المؤمنون على تلك المشاعر ، وهذه المواقف إزاء المشركين . . إن الذى ينبغى أن يكون من المؤمنين هو أن

يكونوا قلباً واحداً ، ولساناً واحداً ، ويداً واحدة . . لأنهم مهما كثر عددهم ، هم قلة فى هـذه الدنيا ، بالنسبة لأهل الشرك والضلال والـكفر ، كما يقول سبحانه وتعالى : « وما أكثرُ الناس ولو حرصْتَ بمؤمنين » .

فهذا من شأنه أن يدعو المسلمين إلى جمع كلمتهم ، ووحدة صفّهم ، فوق أن ذلك هو واجب المسلمين فى السّلم ، فـكيف وهم فى مواجهة العدوّ المتربّص بهم ؟

« وَاعْلَمُوٓا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » هو دعوة إلى التقوى ، وجعلها الميزانَ الذى يضبط عليه المسلمون موقفهم من المشركين .. فلا بَغْىَ ولا عدوان ولا ظلم . . لأن ذلك يُخرج المسلمين عن صفة التقوى ، ويقيمهم هم والمشركون على مقام واحدٍ . . الأمر الذى من شأنه أن يُفَوِّت عليهم أن يكون الله سبحانه معهم ، يؤيدهم وينصرهم على عدوّهم . . لأنه سبحانه لا يكون إلاّ مع المتقين . .

وعن هذا الفهم لخاتمة هذه الآية كانت وَصَاة عمر بن الخطاب ، رضِيَ الله عنه ، حين كتب إلى قائده سعد بن أبى وقاص يقول له : «أما بعد ، فإنى آمرك ومن معك من الأجناد ، بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العُدَّة على العدوّ ، وأقوى المـكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تـكونوا أشدّ احتراساً من المعاصى منكم ، من عدوّكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوّهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تـكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عُدّتنا كعدتهم ، فإذا استوينا فى المعصية ، كان لهم الفضل علينا فى القوة ، وإلا نُنصرْ عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا » . .

أما موقف المسلمين مع غير المسلمين ، فهو سلم مع من سالمهم ، حرب مع من اعتدى عليهم ، وحاربهم .

وتاريخ الدعوة الإسلامية ، وأسلوبها الذى قامت عليه منذ اليوم الأول على

يد صاحب الرسالة - صلوات الله وسلامه عليه - لم يخرج عن هذا الخط الذى حدّد مسيرتها قوله تعالى لنبيّه الكريم : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (١٢٥ : النحل) وقوله سبحانه : « ولاتجادلوا أهلَ الكتاب إلا بالتى هى أحْسَنُ » (٤٦ : العنكبوت). وقوله تعالى :« خذ العفوَ وأمر بالعُرف وأعرض عن الجاهلين » (١٩٨ : الأعراف) .

وهذه الآيات ، وأمثالها من الآيات المحكمات ، التى قامت على أساسها صِلات المسلمين فيما بينهم وبين المجتمعات الإنسانية التى لم تدخل فى الإسلام ، سواء ما كان منها فى ذمة المسلمين ، أو كان فى دار الحرب ، أو خارج هذه الدار.

وكيف يكون من مفاهيم الإسلام أن يكون حَرْباً على الناس من غير أن يبدءوا أتباعه بحرب ؟ ألا يكون هذا عدواناً مما نهى الله عنه ، فى أكثر من آية من آيات الكتاب الكريم ؟ وبأى تأويل يتأول القائلون بالحرب العامة على المجتمع الإنسانى ، قولَه تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحبّ المعتدين » ؟ (١٩٠ : البقرة) .

إنه لا تأويل ، ولكن القول بالنسخ ، وإبطال حكم هذه الآية وغيرها ، هو الحجة القاطعة عند القائلين بالحرب العامة الشاملة على كل من لايدخل فى الإسلام !! ومع هذا فإن القول بنسخ الآيات التى تعارض آية السيف ، أو آيات السيف - كما يسميها أصحاب هذا الرأى - ينقضه قوله تعالى . « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . . فإن قبول الجزية ممن تُقبل منهم الجزية بعد أن ينزلوا على حكم السيف - لايجعل منهم مسلمين ، بل هم مشركون أو كافرون ، ولا تزال آيات السيف مسلطة عليهم . . . فهل من أجل هذه الجزية ، التى يحتفظ معها غير المسلم بدينه - تُنسخ عشرات الآيات الداعية إلى السلام والموادعة ، لتفسح المجال للسيف وآية السيف أو آيات السيف ؟ ذلك لا معقول له !

ثمّ ، أى دين هذا الدّين الذى يَدخل فيه الناسُ قهراً وقسراً ، تحت حكم السيف ؟ وهل مثل هذا الدّين يعمُر قلباً أو يمسّ وجداناً ؟ وإذا ساغ أن يُقبل مثل هذا فى دعوة سياسية أو اجتماعية ، فلن يقبل فى دين تدعو إليه السماء ، وإذا قُبل فى دين سماوىّ لمجتمع من المجتمعات لفترة محدودة ، ولمجتمع محدود ، فلن يقبل فى الإسلام ، دين الحياة الإنسانية كلها ، فى امتداد أزمانها ، وفى اختلاف أممها وشعوبها . . وذلك مايكشف عنه قوله تعالى لنبيّه الكريم : « لا إكراه فى الدين قد تبينَ الرشد من الغىّ » (٢٥٦ : البقرة) .

ثم أين هى التقوى التى يدعو إليها الله سبحانه وتعالى فى قوله : « واعلموا أن الله مع المتقين » إذا كان المسلمون حَرْباً على الناس من غير أن يؤذِنهم أحد بحرب ؟ .

* قوله سبحانه : « إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ »

تكشف هذه الآية عن عبث المشركين بحرمات الله ، والاستخفاف بها ، والاحتيال على خِداع أنفسهم بتزيين الباطل ، وإلباسه لباس الحق . . وهذا إنما كان منهم لتصورهم الفاسد للألوهية ، وفهمهم السقيم لجلال الله وعظمته وعلمه ، والنزول به — سبحانه وتعالى — إلى مستوى آلهتهم التى يعبدونها ، ويتعاملون معها بالمكر والخداع !

فقد كان المشركون فى الجاهلية يحرمون هذه الأشهر الحرم ، التى هى بعض البقية الباقية لهم من شريعة إبراهيم ، التى كانوا يدينون بها ، ثم أدخلوا عليها من

أهوائهم ما أفسدها ، حتى هذه الأشهر .. فقد استثقلوها ، وضاقوا بأن تظلّهم ثلاثةُ أشهر متوالية دون قتال ، هى ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم . . فكانوا يعمدون إلى شهر المحرّم فينسئونه ، أى يؤخرونه إلى صفر ، ويقيمون صفر مقامه ، وبهذا يخلعون على المحرم اسم صفر ، ويبيحون فيه القتال ، ويسمّون صفر محرّماً ، ويحرمون فيه القتال .. وكأنهم بهذا قد أقاموا الشريعة التى يدينون بها !! أليسوا قد حرّموا أربعة أشهر ؟ وماذا فى استبدال شهر بشهر ؟

هكذا ، يبدّلون فى شرع الله ، ليُرضوا أهواءهم ، وليقيموا لهم شرعاً يحلّونه عاماً ، ويحرمونه عاماً ! .

والنسىء ، والنَّسْأ : التأخير ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « من سرّه أن يُبسَط له فى رزقه ، ويُنْسأَ له فى أثره فَليصِلْ رَحِمَه » .

والضمير فى قوله سبحانه : « يحلّونه عاماً ويحرمونه عاماً » يعود إلى هذا الشهر ـ شهر المحرم ـ الذى كانوا إذا اقتضت دواعيهم للحرب أنسئوه ، وإذا لم تَدْعُ للقتال داعية عندهم ، تركوه على حاله . .

ويجوز أن يكون الضمير عائداً إلى « النسىء » بمعنى أنهم يعملون بالنسىء عاماً ، ولا يعملون به عاماً ، حسب ماتقتضى دواعى الحال عندهم . . وهنا يمكن أن يكون النسىء مراداً لكل شهر من الأشهر الحرم ، فيقدمون ويؤخرون فيها حسب مايشاءون . .

وليس المراد بقوله تعالى : « يحلّونه عاماً ويحرمونه عاماً » أنهم يلتزمون ذلك عاماً بعد عام . . وإنما المراد به عدم ثباتهم على وضع واحد مع هذه الأشهر ، بل يتلاعبون بها حسب دواعى أحوالهم .

وقوله سبحانه : « ليواطئوا عدة ماحرّم الله » أى ليوافقوا فى عملهم هذا

بإحلال الشهر الحرام ، وتحريم شهر مكانه ـ تحقيقَ أربعة أشهر فى العام ، دون التقيّد بالأشهر الأربعة المحرمة . . أى أنهم يتقيدون بها عدداً ، ولا يتقيدون بها ذاتاً ، على ما جاء به حكم الله فى بيانها بأعيانها . . والمواطأة : الموافقة ، يقال واطأه على هذا الأمر ، فتواطأ : أى اتفق معه فيه .

« زُيّن لهم سوء أعمالهم » أى أنهم اطمأنوا إلى هذا الزّيف الذى صنعوه ، وساغ لهم هذا الباطل الذى جاءوا به . . والله سبحانه وتعالى يقول : « أفمن زُيّن له سُوء عمله فرآه حسناً » (٨ : فاطر) .

« والله لايهدِى القوم الكافرين » أى أنه سبحانه وتعالى يُخلى الكافرين وكفرَهم ، فلا يمنحهم هدايته ، ولا يَعدِل بهم عن طريق الضلال الذي ركبوه ، لأنهم استحبّوا العَمَى على الهدى ، والبلاء على العافية ، والكفر على الإيمان . !

الآيات : (٣٨ — ٤١)

« يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) ٱنفِرُوا خِفَافًا

وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » (٤١)

التفسير : بعد أن بينت الآيات السابقة حكم الله فى الأشهر الحرم ، وموقف المشركين من حرمات الله عامة ، ومن حُرْمة هذه الأشهر الحرم خاصة ، وما ينبغى أن يكون عليه موقف المسلمين من رعاية حرمة هذه الأشهر ، مع اليقظة والحذر من خيانة المشركين وغدرهم بحرمات الله ، وحرمة العقود التى بينهم وبين المسلمين . .

بعد هذا ، جاءت هذه الآيات تستحثّ المسلمين على الجهاد فى سبيل الله ، وتنكر على المترددين والمتلبّثين ترددهم وتلبثهم فى الاستجابة لدعوة الله ، والنّفر إلى الجهاد فى سبيله ، فى غير تراخٍ أو فتور ، كما يقول الله سبحانه : « انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » .

وقوله تعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ »

الاستفهام هنا إنكارى ، إذ ينكر على من آمن بالله ، ولبس لباس المؤمنين به ، ألاّ يكون فى المجاهدين فى سبيل الله . .

والنّفر إلى الحرب : السّعى إليها فى جدّ وعزم ومضاء . .

وأصل المادّة من النفور ، وهو الصدّ عن الشىء ، ومنه قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا » (٦٠ : الفرقان)

وعلى هذا يكون المراد بقوله تعالى : « انفروا خفافاً وثقالا » ، أى فرّوا خفافاً وثقالا . . ولـكن الفرارُ من أين ؟ وإلى أين ؟

الفرار من حبّ الحياة ، والتعلق بما للإنسان فيها من هوًى إلى المال والأهل والولد . . ثم اللّجأُ إلى الله ، وإلى الجهادفى سبيل الله ! !

وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « ففرّوا إلى الله إنى لـكم منه نذير مبين » (٥٠ : الذاريات) .

فالدعوة إلى الجهاد فى سبيل الله ، الذى تحمُله كلمة « الفرار » هى دعوة إلى أمرين معاً :

الأول : الانخلاع من سلطان الدنيا ، المستولى على النفوس ، وذلك لا يكون إلا بمغالبة أهواء النفس ، والوقوف منها موقف العدوّ الذى يتربص للإنسان على طريق الخير ، ليحول بينه وبين الوصول إليه ، فيفرّ المؤمن من دواعى الحياة الدنيا ، فِرارَه من العدوّ ، الذى إن تلبّث أو فتر فى الفرار منه ، هَلَك ! !

والثانى : التماس السّبل التى تخلّص الإنسان من الوقوع ليد هذا العدوّ ، الذى يحول بينه وبين الخير المدعوّ إليه من قبل ربّه ، وهو الجهاد فى سبيل الله .. وذلك لا يكون إلا بالفرار من وجه هذا العدوّ ، واتخاذ وجهة أخرى غير الوجهة القائمة على سَمْته .. وتلك هى وجهة الجهاد فى سبيل الله .

وفى قوله تعالى : « اثّاقلتم إلى الأرض » كناية عمّا يستولى على الإنسان من مشاعر التحير والانهزام ، حين يواجه امتحاناً عسيراً ، لم يكن مهيأً له من قبل ولم يكن على نية صادقةٍ ، وعزيمة مجتمعة لخوض غماره . .

وأصل « اثّاقلتـكم » تثاقلتم ، فأدغمت التاء فى الثاء ، لتقارب مخرجيهما ، ثم جىء بهمزة الوصل ، حتى لايُبدأ بحرف ساكن ، الأمر الذى لاتستسيغه العربية ..

و « التثاقل » : التباطؤ ، والتحرك فى ثِقل .. لأن شأن كل ثقيل أن يكون بطىء الحركة ..

وفى التعبير بلفظ « التثاقل » الذى يدلّ على التصنع والادعاء ، مثل « تَباكَى » أى ادعى البكاء ، وتغافل أى ادّعى الغفلة ـ فى هذا مايشير إلى أن هذا التثاقل من المتثاقلين ، لايستند إلى أسباب حقيقية تقوم فى نفس المؤمن بالله ، وإنما هى تعلاّت تقع فى بعض النفوس التى دخل على إيمانها شىء من الضعف والوهن .. فتتلمس المعاذير ، وتصطاد الذرائع التى تُثقل خطوها عن اللحاق بركب المجاهدين. وفى تعدية الفعل «اثّاقلتم» بحرف الجر «إلى» بدلا من حرف الجرّ « على » أو « فى » إذ يقال تثاقل على الأرض ، أو تثاقل فى الأرض ـ فى هذه التعدية بإلى كما جاء عليه النظم القرآنى ، مايحقق أمرين :

أولهما : إشارة إلى أن هؤلاء المتثاقلين إنما ينحدرون انحداراً إلى الأرض ، ويَهْوُون هُوِيًّا من علٍ إليها .. وذلك لأنهم وهم المؤمنون بالله ، هم بهذا الإيمان فى مستوًى عالٍ فى هذه الحياة التى يحياها الناس .. وأنهم وهذا شأنهم ، ينبغى أن تكون وجهتهم دائمًا إلى السماء ، وأن يكون متعلّقهم بها ، وآمالهم فيها .. وأن تلفّتهم إلى الأرض ، وانحدارهم إليها ، هو رجعة إلى الوراء ، ونكوص على الأعقاب ..

وثانى الأمرين : أن التثاقل إلى الأرض يفيد الاختلاط بها ، والامتزاج بترابها .. وأن هذا الإنسان المؤمن الذى كان يحلّق بإيمانه فوق هذا العالم الترابى ، قد أصبح بهذا التثاقل فى عداد هذه الكائنات التى تدبّ على الأرض ، من هوامّ وحشرات !

ومن هذه الصورة التى ترتسم المؤمن من كلمة « اثاقلتم إلى الأرض » مايريه المصير الذى هو صائر إليه ، إن هو أمسك بنفسه مع هؤلاء المتثاقلين على

الأرض ، حين يدعو داعى الحق : أنْ حَىَّ على الجهاد فى سبيل الله ..

وفى قوله تعالى : « أَرَضِيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » إنكار على هؤلاء الذين يفاضلون بين الحياة الدنيا والآخرة ، بل ويفضّلون الحياة الدنيا على الآخرة، بعد أن رأوا بأعينهم ما انكشف لهم من قوله تعالى : « اثاقلتم إلى الأرض .. » فذلك غَبْن فاحش لايرضاه عاقل لنفسه ،ولا يصبر عليه لحظة ، إن هو وقع فيه .

ثم يجىء قوله تعالى : « فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليلٌ » حقيقةً كاشفةً مقررّة ، يجدها بين يديه من لم ينكشف لبصره أو لبصيرته ماحملت من كلمات الله إليه من عَرْض هذا الوضع السىء الذى هو فيه من تثاقل إلى الأرض ، ومن إيثار الحياة الدنيا على الآخرة ، وما على هذه الأرض على مافى السماء !

يجىء بعد هذا قوله تعالى : « إلاّ تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدلْ قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير » ـ يجىء حاملا مقارع من حديد ، يُوقظ بها هؤلاء النيام الذين لا توقظهم العبرة ولا الموعظة الحسنة .. إنهم إن لم ينتزعوا أنفسهم من هذه الأرض التى لصِقوا بها ، وإن لم يخفّوا إلى القتال مسرعين ، أخذهم الله بعذابه ، وأنزلهم منازل الهوان والنقمة ، وأقام مقامهم قوما آخرين ، يجاهدون فى سبيل الله ، ويأخذون هذا المقام الكريم الذى كان مهيأ لهم من قبل ، فتخلّوْا عنهم مختارين ، حين تثاقلوا عن الجهاد ، واستحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة .. وإنهم بهذا قد أوقعوا الضرر بأنفسهم ، وأخذوا الطريق المؤدّى بهم إلى الهلاك ، ولن يضروا الله شيئا .. فإن الله ـ سبحانه ـ غنىّ عن العالمين .. وإن له ـ سبحانه ـ أولياء كثيرين ، ينصرون دينه ، ويجاهدون فى سبيله : « وإن تتولّوْا يستبْدلْ قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » (٣٨ : محمد) .

فتلك هى سنّة الله فى عباده « لايغيرّ مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

فهناك منحرفون ضالون يتحولون إلى طريق الحق والإيمان .. وهناك مستقيمون مؤمنون ينحرفون إلى طريق الغواية والضلال .. وذلك ليظل الناس فى حركة، وعمل .. فمن كان على طريق الحق والتقوى ، كان عليه ـ لكى يحتفظ بمكانه على هذا الطريق ـ أن يحرس نفسه من أهوائها ونزعاتها ووساوس الشيطان لها .. ومن كان على شِعَاب الظلام والضلال ، كان له ـ إذا شاء ـ أن يتحول إلى طريق النور والهدى.. « والله على كل شىء قدير » ..ومن مظاهر قدرته ، هذه الغِيَرَ التى تقع بالناس ، فتنقلهم من حال إلى حالٍ ، ومن أسفل إلى أعلا ، ومن أعلا إلى أسفل .. فليحذر الإنسان ـ وخاصة إذا كان على الإيمان ـ أن يأخذ اتجاهاً منحرفاً عما يدعوه إليه الإيمان .. فإن ذلك من شأنه أن يعرضه للخروج من الإيمان آخر الأمر ، وليذكر دائماً قوله تعالى : « إن الله لايغير مابقوم حتى يغيّروا مابأنفسهم » .

قوله تعالى : « إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخْرَجَهُ الذين كَفَروا ثانِىَ اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله مَعَنا فأنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنودٍ لم تَرَوْها وجَعَل كلمة الذين كفروا السُّفْلى وكلمةُ الله هى العليا والله عزيز حكيم » .

فى هذه الآية الكريمة أمور :

أولا : صلتها بالآيات التى قبلها .. حيث تبدو الصلة غير واضحة فى ظاهر الأمر بين هذه الآية ، وماجاءت به الآيات قبلها من مقررات وأحكام ..

والذى يُمعن النظر فى الآية الكريمة يرى أنها تطبيق مؤسس على مقررات الآيات السابقة ، حيث جاء فى قوله تعالى : « إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدلْ قوماً غيركم ولا تضرّوه شيئاً والله على كل شىء قديرٌ » .. فقد قررت هذه الآية فيما قررت ، أن الله إذا أراد نفاذ أمر فلن تقف دونه قوة فى هذا

الوجود ، وأنه ـ سبحانه ـ قد أراد إعزاز دينه ، وإظهاره على الدين كلّه ، وأن المجاهدين الذين يجاهدون فى سبيل الله ماهم إلا أدوات عاملة فى مجال تلك الإرادة التى أرادها الله ، ليكتتب لهم عند الله الأجر العظيم ، والمثوبة والرضوان ، وأن إرادة نافذة على أى حالٍ ..

وفى قوله تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين » شاهد قائم ، رآه المسلمون رأى العيْن .. وهو أن الله قد نَصرَ النبىّ الكريم ، وخلّصه من يد المشركين الذين كانوا له بمرصد ، على كل ثنيّةٍ ، وعلى كل طريق .. ولم يكن مع النبىّ الكريم قوة ظاهرة ، لم يكن إلا هو وصاحبه أبو بكر .. وكانا أعزَلَيْن من كل سلاح ، إلا سلاح الإيمان الذى يملأ قلبيهما ، مجرّدين من كل قوة ، إلا قوة الحقّ الذى فى يديهما ، محرومين من كل نصير ، إلا عوْن الله لهما ، وحراسته القائمة عليهما .

ثانياً : لم يُذْكر النبىّ الكريم ذكراً صريحاً ، وإنما جاءت الإشارة إليه مضمرة فى ضمير الغائب . . هكذا « إلا تنصروه » . .

وفى هذا إشارة مضيئة تشير إلى النبى الكريم ، وتحيطه بهالة من نور ربانىّ ، بحيث تشخص الأبصار كلّها إلى هذا النور العلوىّ الذى يُفاض على النبىّ ، ويحفّ به . . فليس هناك من تخلّى عنه الأنصار والأعوان — فى هذا الموقف بالذات ـ غير النبىّ ، وليس هناك أيضاً من أحاطت به العناية الربانية ، وحفّت به أمداد العون والنصر الالٰهى ـ فى هذا الموطن بالذات أيضاً ـ غيرَ النبىّ .. فكانت الإشارة إليه ـ فى هذا الموقف بالذات ـ مُغنيةً عن كل ذكر ، وكانت الإماءة إليه أبلغ من كل تصريح . .

ثالثاً : لم يُذْكر اسم الصاحب الذى صحب النبىّ فى هذه الحال ، بل جاء

على النسق الذى جاء عليه ذِكر النبىّ . . « إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » . .

وفى هذا تشريف لمقام أبى بكر ــ رضوان الله عليه ــ وتمجيد لتلك الصحبة المباركة ، التى جعلت منه صاحبَ نبىّ ، ورفيق رسول ، يأخذ بنصيب طيّب من رعاية الله لنبيّه ، ويستظل بما استظل به النبىّ من نصر الله وتأييده .

وأبو بكر فى هذا المقام هو القوة المادية الظاهرة ، من الإنسانية كلها ، التى كانت تسند النبىّ ، وتشدّ أزره ، وتؤنس وحدته ، وتقتسم الضَّراء ــ بل قل السّرّاء ــ معه !

فقد كان النبىّ صلى الله عليه وسلم ــ فى هذا الموقف ــ جبهة يحاربها الشرك كلّه ، ويكيدلها المشركون كلّهم . . وكان أبو بكر رضوان الله عليه ، هو وحده كلمة الحقّ ، والإيمان ، التى أراد الله سبحانه وتعالى لها هذا المقام الكريم ، إلى جانب النبىّ الكريم . .

وإنه بحسْب أبى بكر ــ رضوان الله عليه ــ من التكريم والتشريف أن يكون اليدَ الأخرى المباركة التى تحمل مع النبى الكريم رسالة السماء ، ودعوة الحق ، إلى حيث أراد الله لها أن تطلع بنورها ، وتمنح الناس ما فيها من هدًى ورحمة ، وأمن وسلام . .

ثالثاً : فى قوله تعالى : « فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السّفلى وكلمةُ الله هى العليا والله عزيز حكيم » .

عاد الحديث عن النبي وحده ، بضمير المفرد « فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروْها » . . كما بدأ الحديث عنه وحده : « إلا تنصروه فقد نصره الله » .

وعدم ذكر أبى بكر فى هذين المقامين ـ البدء والختام ـ لا يُنقص من قَدْر أبى بكر ، ولا يزحزحه عن مقامه الكريم ، الذى رفعه الله سبحانه وتعالى إليه بقوله: « إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا ».. إذ لا شك أن الموقف هو موقف الرسول ، وأن الرسالة هو صاحبها ، والمدعوّ إليها من ربه .. وإنه ليكفى أبا بكر شرفاً أن ينفرد بهذا المقام الكريم ، فيكون للنبىّ ردءاً وعضداً ، فى وقت كان النبىّ الكريم يواجه فيه وحده المشركين جميعاً . .

والسكينة ، هى الطمأنينة التى تحلّ بالقلب ، فيجد الإنسان المكروب ريحَ الأمن ، وبَرْد السلامة والعافية . . وهى مأخوذة من السكون ، أو السكن ، بمعنى القرار . . « وأيده بجنود لم تروها » . . هى قوّى من قوى الحق ، أمدّه الله بها ، فكانت عيناً تحرسه ، ويداً تردّ من يريد السّوء به . .

وفى التعبير عن حلول السكينة قلبَ النبىّ بإنزالها عليه ، إشارة إلى أنها منزلة من السماء ، وأنها من قوى الحقّ التى أمدّ الله نبيّه بها ، وليست من القوى التى يملكها الناس ، ويستندون إليها . .

« وجعل كلمة الذين كفروا السفلى » أى أن الله أبطل كيدهم ، وأفسد تدبيرهم . . والمراد بالكلمة هنا ، الحالُ والشأن والأمر . . بمعنى أن المشركين وقد فوّت الله عليهم ما أرادوا بالنبىّ من سوء ، وأبطل مادبروا من كيد ، ومابيّتوا له من عدوان . . فإن ذلك يحدّث عنَ ضعفهم وهوانهم ، أمام تلك القوة القادرة القاهرة . . وإذا كانت الكلمة تعبيراً عن إرادة المتكلم بها ، وتصويراً لمشيئته التى يريد إمضاءها ، فإن إنفاذ هذه الإرادة ، وإمضاء تلك المشيئة ، إنما يكون بحسب ما عند المتكلم من رصيدٍ من القوى التى يحشدها وراء كلمته ، ليقيم لها مكاناً فى عالم الواقع المحقق .. وإنه حينَ تبطل الكلمة ، ولاتجد لها مكاناً فى الواقع المحقق ، يكون ذلك دليلا قائماً على ضعف صاحبها ،

وسقوط همته .. وأن كلماته التى ينطق بها ليست إلا أصواتاً ضائعة فى الهواء !.

وفى التعبير عن كلمة الله بالعلوّ، إشارة إلى أن كلمات الله سبحانه، هى فى المكان المتمكن، الذى تستولى به على كل شىء، بحيث لاتقف لها قوة، ولا يحول دونها حائل..

وفى وضع ضمير الفصل «هى» بين المبتدأ والخبر فى قوله سبحانه: «وكلمة الله هى العليا» إشارة أخرى إلى كلمة الله، وإلى تحقيقها، وإفرادها بهذه المنزلة دون غيرها من الكلام البشرى على أى مستوى.. فهى وحدها هى العليا، المتفردة بهذا المقام المتمكن من العلوّ..

ولهذا جاء بعدها الوصف المناسب لله سبحانه وتعالى، صاحب هذه الكلمة: «والله عزيز حكيم».. فهو العزيز الذى لاعزة لأحدٍ مع عزّته، وهو الحكيم الذى ـ مع ماله من عزّة مطلقة، ومن سلطان لاينازع ـ يضع الأمور مواضعها القائمة على ميزان الحكمة والعدل والإحسان..

أما هؤلاء المشركون، الذين يستشعرون العزّة والقوة من أنفسهم على غيرهم من الضعفاء، فإن عزّتهم عزة غاشمة جَهولة، وقوتهم قوة عمياء حمقاء، تضرب بغير حساب، ولا تقدير!

والغار الذى تشير إليه الآية الكريمة، هو غار ثور، فى أعلى جبل يقال له جبل ثور، على مسيرة ساعة من مكة، على يمين المتجه إلى المدينة.

قوله تعالى: «انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون».

هو دعوة عامة للمسلمين جميعاً إلى الجهاد فى سبيل الله ، حين تدعو دواعيه وتقوم أسبابه .

والخفاف : جمع خفيف ، وهو الذى لايعوّقه عن النّفر إلى الجهاد معوّق، مادىّ ، أو نفسىّ ، كالاشتغال بالحياة ، وتثمير المال ، ومعالجة التجارة ، أو الزراعة ونحوها ، أو كالحرص على الحياة ، والخوف من الموت ، أو الاستثقال لأعباء السّفر ، ومشقّة الانتقال ، والتعرض لمتاعب الطريق ، وما يتعرض له المسافر من حر أو برد ، أو جوع أو ظمأ . .

والثقال : جمع ثقيل ، وهو الذى تَعرِض له تلك العوارض التى تثقله ، وتُوهِن عزمه على الجهاد ، وتُثقل خطوه فى السعى إليه . .

والأمر بالنَفْر إلى الجهاد موجّه إلى الخفاف والثقال جميعاً ، من القادرين على حمل السلاح . . وليست هذه العوارض المادية أو المعنوية التى تعرض للمسلم بالتى تُعفيه من أن يكون فى جبهة القتال مع إخوانه المجاهدين فى سبيل الله . . فهو آثم ، خارج على أمر الله ، إن هو لم يأخذ مكانه ، ويؤدى الواجب المدعوّ إليه . .

وفى قوله تعالى : « وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » توكيد لهذا الأمر بالنفرة إلى الجهاد . . لا بالنفس وحسب ، بل وبالمال أيضاً لمن يملك المال . .

وقدّم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس ، لأن المال عند من يحرص على المال ، أحبُّ إليه من نفسه ، وهو القوة الغالبة التى تُثقل الإنسان وتبطّئه عن الجهاد. فإذا سَخَا بالمال ، وبذله فى سبيل الله ، خَفّت نفسه إلى الجهاد ، وانطلق من القيد الذى كان يمسك به عن أن يكون فى المجاهدين . .

أمّا من لا يقدر على القتال ، لمرض ، أو شيخوخة ، أو نحو هذا ، فإنه وإن رفع الله عنه الحرج إذا لم يجاهد بنفسه ، فإن الحرج قائم عليه إذا هو لم يجاهد بماله ، إن كان له مال . . فإذا بذل المال ، وأمدّ به المجاهدين ، كان مجاهداً ، وحُسِب فى المجاهدين . .

وفى الحديث الشريف : « من جهّز غازياً فقد غزا » .

فليس لمسلم ـ أيّاً كان حاله ووضعه فى المجتمع ـ أن يتخلّف عن الجهاد فى سبيل الله ، فلكل إنسان مكانه فى المعركة . . إذ ليست المعركة معركة سيف وحسب ، بل هى معركة ، سلاح ، وعتاد ، ومئونة . . بل هى قبل ذلك كله معركة مشاعر وأحاسيس ، بمعنى أن الأمة كلها ينبغى أن تكون فى مواجهة المعركة على شعور واحد ، ينتظم جميع أفرادها ، هو شعور مواجهة العدوّ ، والتصدّى له ، وطلب الغَلَب عليه . . فهذا الشعور هو الذى يجعل الأمة الإسلامية كلها جيشاً واحداً يحمل السلاح ، ويضرب فى وجه العدو . .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنها أشبه بالتطبيق العملى لما تكشف عنه الآيات السابقة من نصر الله سبحانه وتعالى لنبيّه الكريم ، وأن من كان من حزب الله فلن يُغلب أبداً ، ولو كان وحده . . فليأخذ المسلمون مكانهم فى الجهاد فى سبيل الله ، فيكونوا من حزب الله .

هذا ، ويلاحظ أن هذه الدعوة المشدّدة إلى القتال ، واستنفار المسلمين جميعاً للجهاد فى سبيل الله ، إنما كانت إرهاصاً بدعوة المسلمين إلى ابتلاء جديد ، بلقاء عدو جديد ، فى وطن جديد . . وذلك فى غزوة تبوك التى كانت آخر غزوة غزاها النبىّ . . كما سنعرض لها فيما بعد . . إن شاء الله . .

الآيات : (٤٢— ٤٥)

«لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ» (٤٥)

التفسير : العَرَض : المتاع ، وما يحصّله الإنسان فى سعيه لطلب الرزق . . والمراد بالعرض القريب : المتاع الذى يُنال من قريب ، بلا كبير عناء ، ولا عظيم مجهود . .

والسفر القاصد : هو السفر القريب ، السّهل ، المستقيم على وجه واحد لقرب غايته . .

والشّقة : المسافة المكانية .مثل الأمد فى المسافة الزمانية .

وقوله تعالى : «لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ» هو تعريض بأولئك الذين إذا دُعوا إلى القتال ، لم يخفّوا له ، بل تلبّثوا ، وأخذوا يُديرون أعينهم هنا وهناك ، ليتعرفوا إلى وجوه الربح والخسارة فى الدعوة التي دعوا إليها .. فإن كان المغنم فيها دانياً، والسفر إليها قريباً ، استجابوا ، وخرجوا مع المجاهدين . . وإن كان المغنم عسير

الوقوع ، بعيدَ المسافة تثاقلوا ، وتباطئوا،وانتحلوا شتى العلل ومختلف المعاذير .

ثم إنهم لايكتفون بهذا ، بلْ يزكّون هذه العلل ، ويؤكدون تلك المعاذير بالحَلِف المؤكد أنهم لو استطاعوا الخروج لخرجوا . . وهذا الحلف نفسه هو دليل فاضح لكذبهم ، إذ لم يَطْلب أحد إليهم أن يحلفوا . . ولكن هكذا الكاذبُ دائماً . . يجد الكذبَ الذى يعرضه على أعين الناس ، لايقف على قدميه لضعفه وهزاله ، فيعمد إلى تقويته بالحَلِف ، ودعمه بتوكيد هذا الحلف .

وقوله تعالى : « يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ واللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » إشارة إلى أن هذا الموقف الذى يقفه أولئك المتثاقلون على الجهاد ، المتعللون لذلك بالعلل الكاذبة ، إنما قد جَنَوْا على أنفسهم ، وأوردوها موارد الهلاك ، بتخلفهم عن الجهاد ، وعصيانهم لأمر الله ، وهم قادرون على القتال . . فإنهم إن خفى أمرهم على الناس ، فلن يخفى على الله « والله يعلم إنهم لكاذبون » .

* وقوله سبحانه : « عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ »

فى هذه الآية عتاب رقيق للنبى الكريم من ربٍّ كريم . . وهو عتاب يحمل فى أطوائه نفحات الرضا والرضوان ، بحيث يبدو هذا العتاب ، وكأنه جزَاء حسن عن عمل حسنٍ !

فقد قُدِّمَ العَفوُ عن الأمر الذى يُطلب العفو له ، وجاء العفو من أجله . . وهذا على غير المألوف . . حيث يُذكر الذنب . . أولاً ، ثم يكون اللوم ، أو العفو . . ثانياً .

ولكنّ لطف الله سبحانه بنبيّه الكريم ، وتكريمَه له قد جاءه بالعفو

مُقدِّماً، حتى لايقع تحت مشاعر الألم لحظة واحدة، إذا هو تَلَقّى اللَّوم، ثم جاءه العفو: على هذا النحو: «لم أذنت لهم حتى يتبيّن لك الذين صدقوا وتعلمَ الـكاذبين؟.. عفا الله عنك!!».

وفى قوله تعالى: «حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْـكَاذِبِينَ» إشارة إلى أن أمر الـكذب مفضوح، وأن الزّمن لابد أن يكشف عن وجهه يوماً ما.. فلو انتظر النبىّ بهؤلاء الذين جاءوا بأعذارهم إليه، ولم يقبل هذه الأعذار فى حينها، لانـكشف له أمر ذوى الأعذار الـكاذبة منهم، إمّا بما يظهر من حالهم، أو بما يكشف له أصحابه من أمرهم، أو بما ينزل عليه من قرآن يفضحهم.

وقوله تعالى: «لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ • إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ باللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ» ـ هو بيان يفرّقُ به بين الصّادقين والـكاذبين من ذوى الأعذار..

فالذين يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً صادقاً لايطلبون الإذن لأنفسهم بالتخلف عن القتال.. ذلك أنهم ـ مع الأعذار القائمة معهم ـ لايجعلون من تلك الأعذار حاجزاً يحجزهم عن أخذ حظّهم من الجهاد فى سبيل الله، فإذا دعَا الداعى إلى الجهاد كانوا فى مقدمة المستجيبين له. حتى إذا نطقت حالهم عن أنّهم ـ بهذه الأعذار التى معهم، من مرض، أو صغر، أو شيخوخة، أو نحو هذا ـ لن يمكّنوا من الانتظام فى صفوف المجاهدين، رحمةً بهم، وتخفيفاً من مئونتهم على المسلمين، كان ذلك مما يُحزنهم، ويبعث الحسرة والأسى فى نفوسهم. وهذا

مايشير إليه قوله تعالى : « وَلاَ عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ » . .

أما الذين فى قلوبهم مَرَض ونفاق ، فإنهم لايعجزهم العثور على العلل والمعاذير التى يقدّمونها للنبىّ والمسلمين ، لتكون مبرراً لتخلفهم عن الجهاد . . فهؤلاء هم الذين يجيئون إلى النبىّ بأعذارهم الكاذبة ، ويستأذنونه فى التخلف ، كما يقول سبحانه « إنما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون » . . والريب ، هو الشك والارتياب ، ورابه الأمر ، فارتاب فيه ، أى شك ، ووقع فى حيرة وتردد بين الإقدام والإحجام .

الآيات : (٤٦ — ٥٢)

* « وَلَوْ أَرَادُوا ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ٱبْتَغَوُا ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَافِرِينَ (٤٩) إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ

أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ » (٥٢)

التفسير : فى هذه الآيات يفضح الله أولئك المنافقين ومن فى حُكمهم ، ممن تخلّفوا عن الجهاد فى غزوة « تبوك » التى جاءت الدعوة إليها عامة شاملة فى قوله تعالى : « انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » .. لأنها كانت غزوة ذات طابع خاص على ماسنرى :

فبعد أن فتح النبىّ مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، نظر إلى خارج الجزيرة العربية ، فرأى على حدودها من جهة الشام قبائلَ عربية قد أقامت علاقات بينها وبين دولة الروم ، كالعلاقة التى بين التابع والمتبوع .. ذلك أنه لكى يأمن الروم تسلل العرب إليهم ، أومفاجأتهم بالغارات على قُراهم وزروعهم ، أقاموا بعض القبائل العربية حُرّاساً على تلك الحدود ، وضمّنوهم سلامة هذه الحدود من كل مغير ..

وكانت دولة الروم تنظر إلى الدعوة الإسلامية نظرة سياسية إلى جانب النظرة الدينية التى كانت تنظر بها إليها ، وترى فيها أنها دعوة تهدد المسيحية التى تدين بها .

وفى مجال النظرة السياسية ، رأى الروم أن الأمة العربية قد أصبحت بهذه الدعوة أمة واحدة ، بعد أن كانت قبائل متنازعة متقاتلة .. وهذا مايجعل من العرب قوة يمكن أن تهدد الروم ، وتفتح طريق الحدود الذي أقامت من العرب حرّاساً عليه .

وقد تنبّه الروم إلى ذلك ، وأخذوا يُعدّون العدّة له ، وجاءت الأنباء إلى النبىّ بذلك ، وأن الروم يريدون أن يستميلوا القبائل العربية المتاخمة لهم إلى

دينهم ، وأن يعقدوا معهم حِلفاً ضدّ دولة العرب الناشئة ..

ولهذا بادر النبيّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى مبادأة القوم ، وأخْذ السبيل عليهم إلى الغاية التي أرادوها .. فدعا المسلمين إلى الجهاد ، وأراهم الوجه الذي يقصده ، والغاية التي يريدها ، وقد كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إذا أراد الغزو لم يكشف عن الجهة التي يقصدها ، ولا القوم الذين يقاتلهم .. أما في هذه الغزوة ، فقد كشف للمسلمين عنها ، وأعلمهم أنه يريد حرب الروم .. وذلك حتى يأخذ المجاهدون الأمر عُدّته ، ويعملوا له حسابه ، إذ كانت الشقّة بعيدة ، والعدوّ كثير العدد والعدّة .

وكانت دعوة النبيّ إلى لقاء الروم في أعقاب سنة شديدة الجدْب ، تخلّف فيها المطر ، فأضرّ بالناس ، والزروع والأنعام ، وقد حضر بين يدى الناس مانضج من ثمار النخيل والأعناب ، على قلّته ، وشدة الحاجة إليه .. فكان ذلك ابتلاء .. لأنهم يُدْعون إلى القتال بعد سنةٍ قاسية مجدبة ، وفي موجات حامية من حرور وسموم .. على حين قد حضرهم شيء من نضيج الثمار ، وفىْ الظلال .. فليس بعد هذا الابتلاء ابتلاء ، ولا وراء هذا الامتحان ، امتحان ..

وتعالت حكمة الله ، الذى أراد أن يمحّص مافى صدور المؤمنين من إيمان ، وليبتلى مافى قلوبهم من ولاء لله ولرسوله .. فإن قسوة هذا الامتحان ، هى التى تكشف عن معدن الإيمان ، حتى يرى المؤمنون حظوظهم منه ، وذلك بعد أن تمت الرسالة ، وبلغت الدعوة غايتها .

وقد كشف هذا الامتحان فعلا عن أكثر من حقيقة :

فهناك مؤمنون لايعرفون غير السمع والطاعة لله ولرسوله .. ولا يؤثرون على ولائهم لله ولرسوله ، نفساً أو مالا أو ولداً ..

* فهؤلاء السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار .. ما إن سمعوا دعوة

الرسول ، حتى كانوا جميعاً الجوابَ الحاضر لها .. لم يتخلّف منهم متخلّف ، ولم يبطّىء منهم مبطّىء .. وقد أنفقوا فى سبيل الله كل مايملكون .. وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه أكثر الناس إنفاقاً فى تجهيز جيش العسرة ، حتى لقد رُوى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى مارأى من عثمان قال : «اللهم ارض عن عثمانَ فإنىّ عنه راضٍ» .

* وهؤلاء مُعْسِرون يريدون الغزو والجهاد فى سبيل الله .. ولكن ليس هناك ما يُحملون عليه إلى ميدان القتال .. فجاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه مايُحملون عليه ، فلما أجابهم الرسول بقوله : «لا أجد ما أحملكم عليه» .. «تَوَلَّوْا وأعينُهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ماينفقون» .. وهؤلاء هم البكّاءون ، كما سماهم المسلمون يومئذ ..

* ثم هناك أصحابُ تَعِلاّتٍ كاذبة ، ومعاذير واهية ، جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بها ليستأذنوا فى التخلّف ، فأذن لهم النبىّ ، أخْذاً بظاهر أمرهم ولكنّ الله سبحانه أخذهم بما أخفوْا ، فلم يقبل لهم عذراً .. فقال تعالى : «وجاء المعذِّرون من الأعراب ليؤْذَنَ لهم وقَعَدَ الذين كَذَبُوا الله ورسوله سيُصيب الذين كفروا منهم عذابٌ أليم» ..

وقد عاتب الله سبحانه وتعالى النبىّ فى قبول عذرهم والإذن لهم ، فقال تعالى : «عَفَا الله عنك .. لم أذنت لهم حتى يتبيّن لك الذين صَدقوا وتعلم الكاذبين» .

* وهناك منافقون .. وأشباه منافقين .. اجتمعوا على الكيد للإسلام ، وتوهين عزائم المسلمين الذين خَفّوا للجهاد .. ومنهم عبد الله بن أبىّ بن سلول .. كان على رأس فريق من أصحابه ، فى جانب من معسكر المسلمين الذين اجتمعوا ظاهر المدينة استعداداً للسير .. فلما تحرك النبىّ بركب المسلمين تخلّف عبد الله ابن أبىّ فيمن معه من المنافقين ..

وهكذا .. تكشفت معادن المؤمنين ، فكانوا فى منازلهم من الإيمان ظاهراً وباطناً ، بعد أن كانوا على باطن لايدرى إلا الله ماينطوى عليه ..

ثم سار النبى صلوات الله وسلامه عليه ، بما اجتمع له من المسلمين ، وكانت عدتهم ثلاثين ألفاً ، منهم عشرة آلاف فارس ، كما يقول الرواة ..

وقد وقعت فى الطريق أحداث . . منها :

أن بعض الذين تخلّفوا عن الركب ، قد راجعوا أنفسهم ، فرجعوا إلى الله ، وآثروا ماعنده ، فلحقوا بركب النبىّ ، وهو فى الطريق ، قبل أن يبلغ تبوك . .

* ومن الأمثلة الرائعة للنفس المؤمنة اللوّامة ، التى تلفظ الغريب الوارد عليها من وساوس الشيطان ـ ما كان من أبى خَيْثمةَ من بنى سالم بن عوف .. فإنه كان ممن اعتذر لرسول الله ، وقَبِل الرسول الكريم عذْرَه . . فتخلف مع المتخلفين . . ولكن كان معه فى هذا التخلف ضمير ينخسه ، وقلب موزّع بين داعية نفسه إلى الدعة والظل ، وبين داعى إيمانه إلى اللحاق برسول الله ، ومشاركته مرارة السفر وقسوة الهجير . .

قالوا إنه بعد أن سار النبى أياماً ، دخل أبو خيثمة فى يوم حار إلى حائط (أى حديقة له) فوجد امرأتين له فى عريشْين لهما ، قد رشّت كل واحدة منهما عريشها ، وبرّدت له فيه ماء ، وهيأت له فيه طعاماً . . فلما دخل قام على باب العريش ، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له ، فقال : رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى الضِّحِّ[1] والريح والحر ، وأبو خيثمة فى ظل بارد ، وطعام مهيأ ، وامرأة

---

(١) الضح : بالكسر : الشمس وضوؤها ، والمكشوف البارز من الأرض . والمراد به هنا : التعرض للشمس فى العراء .

حسناء . . فى ماله مقيم ؟ ماهذا بالنَّصَف[1] ! ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم .. ثم خرج فى طلب رسول الله ، حتى أدركه حين نزل تبوك ! !

قالوا : وكان يرافق أبا خيثمة فى الطريق عُمير بن وهب الجمحى ، يطلب اللحاق برسول الله .. حتى إذا دَنَوَا من تبوك ، قال أبو خيثمة لرفيقه : إن لى ذنباً ! فلا عليك أن تتخلَّف عنى حتى آتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، ففعل ، حتى إذا دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو نازل تبوك ، قال الناس ، هذا راكب على الطريق مقبل ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كن أبا خيثمة » فقالوا يارسول الله .. هو والله أبو خيثمة .. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوْلَى لك يا أبا خيثمة[2] » ثم أخبر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الخبر ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ، ودعا له بخير .

* هذا الموقف الرائع يقابله موقف منافق متخاذل كان من رجل يُظهر الإيمان ، ويضمر ما الله عالم به .. ذلكم هو الجدّ بن قيس من بنى سلمة .. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعاه إلى التجهز للغزو ، وقال له : « ياجَدّ .. « هل لك العامَ فى جلاد بنى الأصفر ؟ » (يعنى الروم) فقال : يارسول الله : « أوْ تأذن لى ولا تفتنّى ! ! فو الله لقد عرف قومى أنه ما مِن رجل بأشدّ عُجْباً بالنّساء منى ، وإنى أخشى إن رأيتَ نساء بنى الأصفر ألا أصبر ! ! » فأعرضَ عنه رسول الله ، وقال « قد أذنت لك .. » . . وفى الجدّ بن قيس

(١) النَّصَفُ : بفتح الصاد : الانصاف ، والعدل .

(٢) قوله صلى الله عليه وسلم : أولى لك يا أبا خيثمة . . هو مدح لأبى خيثمة ، وأن ما فعله هو الخير الذى هو أهل له ، وجدير به .

نزل قوله تعالى : « ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنِّى ألا فى الفتنةِ سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالـكافرين . . »

* وحين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجيش ، أقام على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى ، وخلّف رسولُ الله على أهله علىَّ بن أبى طالب - كرم الله وجهه - فأرجف به المنافقون ، وقالوا : ما خلّفه إلا استثقالاً له ، وتخففًا من صحبته ! ! فلما بلغ علياً مقالةُ المنافقين فيه ، أخذ سلاحه ، ثم خرج حتى أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله . . زعم المنافقون أنك إنما خلفتنى استثقالاً وتخففا من صحبتى ، فقال : « كَذَبُوا ، ولـكنى خلّفتك لِمَا تركتُ ورائى ، فارجع واخلُفنى فى أهلى وأهلك . . أفلا ترضى يا علىّ أن تـكون منى بمنزلة هرون من موسى . . إلاّ أنه لا نبىّ بعدى ؟ فرجع علىّ بهذه الخِلْعة التى خلعها الله ورسوله عليه ، وكبت الله المنافقين ، وملأ قلوبهم حسرة . .

* وفى الطريق إلى تبوك مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحِجْر من ديار ثمود ، فأمر أصحابه ألا يشربوا من مائها ، وألا يتوضئوا منه للصلاة . . ثم سجّى - صلى الله عليه وسلم - ثوبه على وجهه ، وحثّ راحلته ، ثم قال : « لاتدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون ، خوفاً من أن يُصيبكم مثلُ ما أصابهم » .

* وكان أبو ذَر - رضى الله عنه - ممن تخلف عن ركب رسول الله ، إذ لم يكن قد أتمّ جهازه ، وأبطأ به بعيره عن اللحاق بالركب . .

وكان الناس يذكرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ناساً تخلفوا فى الطريق . . فيقولون فلان تخلف . . فيقول الرسول : « دعوه .. فإن يكن فيه خير فسيُلحقه الله بكم ، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه . » .

وكان من أمر أبي ذرٍّ أن بعيره قد كلّ عن السير ، فأخذ متاعه وحمله على ظهره ، وسار يتبع الرسول . . ونزل الرسول فى بعض منازله ، فنظر ناظر من المسلمين ، فقال يارسول الله إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كن أبا ذرٍّ » فلما تأمله القوم ، قالوا يارسول الله : « هو والله أبو ذرّ » فقال صلى الله عليه وسلم : « رحم الله أبا ذر.. يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويُبعث وحده » .

* وفى تبوك أقام النبى صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة ، انْجَحَرَ فيها الروم إلى مسالحهم وقراهم . . وفتح الرسول ، دُومَة الجندل ، فتحها له خالد بن الوليد ، وجاء بصاحبها مستسلما لرسول الله ، فحقن له دمه ، وصالحه على الجزية . .

وسنعرض بعض أحداث هذه الغزوة عند تفسير بعض الآيات التى نزلت فيها . .

* قوله تعالى : « ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عُدّة ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين » .

هذه الآية تكشف عن وجه من وجوه الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك ، وقدّموا بين يدى رسول الله أعذارهم الكاذبة . .

فهؤلاء الذين تخلّفوا لم يكونوا على نيّة الجهاد فى سبيل الله ، وأنهم لو كانوا على تلك النية لأعدّوا للجهاد عدّته ، ولأخذوا له أهبته ، حتى إذا دعا الداعى إليه ، كانوا وكان بين أيديهم أدوات الجهاد وعدّته . . ولكنهم لم يكونوا أبداً على نية الجهاد ، بل كانوا على كره قائم فى نفوسهم له ، فكَرِه الله انبعاثهم ، وانطلاقهم مع المجاهدين ، ولهذا ثبّطهم عنه ، وحلّ

عزائمهم دون الجهاد ، وإذا هم دعوة مستجابة لكل ناطق وصامت ، يدعوهم بلسان المقال أو لسان الحال ، ساخراً مستهزئاً : « اقعدوا مع القاعدين » .

والانبعاث : الانطلاق فى خِفّة ونشاط ، وفى التعبير عن كراهية الله سبحانه وتعالى لخروج هؤلاء المنافقين ، للجهاد ـ فى التعبير عن ذلك بالانبعاث ، وهو الانطلاق ، إشارة إلى أن ذلك هو الذى ينبغى أن يكون من المجاهدين فى وجهتهم نحو العدوّ ، وهؤلاء المنافقون لم يكن منهم مجرد الحركة ، فضلا عن الانبعاث ، ولو كان منهم ذلك لما رضيه الله منهم ، ولا جعلهم فى المجاهدين ، لفساد نياتهم ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « لو خرجوا فيكم مازادوكم إلاّ خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الْفِتْنَة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين » .

ففى هذه الآية ما يكشف عن الحكمة فيما كان لله من تدبير ، فى تثبيط هؤلاء المتخلفين ، وعزلهم عن جماعة المجاهدين . . فلو أنهم خرجوا مع المسلمين، وهم يحملون هذا الداء الخبيث المتمكن فيهم ، لأفسدوا على المسلمين أمرهم ، ولأدخلوا عليهم الوهن والضعف فى لقاء عدوهم : « لوخرجوا فيكم ما زادوكم إلاّ خبالا » أى اضطرابا وفسادا ، « ولأوضعوا خلالكم » أى لسعوْا سعياً حثيثاً بينكم بالفتنة .. والإيضاع : ضرب من السير السريع للإبل ، وخلال الشى : الفجوات التى فى كيانه .

وفى قوله تعالى : « ما زادوكم إلا خبالاً » إشارة إلى أن الجماعة الإسلامية التى ضُم عليها ركب المجاهدين إلى تبوك ، لم تكن كلها على السلامة والعافية فى إيمانها ، وعزمها على الجهاد ، بل كان فيها عدد غير قليل من المنافقين وأشباه المنافقين ، ومن فى قلوبهم مرض . . خرجوا مع المجاهدين على كرهٍ . .

فكانوا عبئاً على المسلمين ، وموطنَ ضعف فيهم .. فلو انضم إلى هؤلاء أعداد أخرى من المتخلفين الذين ثبّطهم الله عن الجهاد ـ لِما فى قلوبهم من نفاق ـ لزادوا المؤمنين خبالاً واضطراباً . . إلى ما كان ينبض به جيشهم من نبضات الخبال والاضطراب . . ويشهد لهذا قوله تعالى بعد ذلك : « ولأوضعوا خلالكم » إذ يشير هذا إلى ما فى صفوف المسلمين من خلخلة ومن فروج وفجوات ، يمكن أن يتحرك فيها المنافقون كيف يشاءون ، يُلقون فى أسماع المسلمين بكلمات السوء، للوقيعة بينهم ، وتثبيط عزائمهم عن لقاء العدو . .

وفى قوله تعالى : « وفيكم سمّاعون لهم » إشارة إلى ما كان فى جيش المسلمين من أصحاب النفوس المريضة ، والقلوب الفاسدة ، حيث يعطون أسماعهم لمقالة السوء ، ويمنحونهم الثقة والاطمئنان ، وحيث يُصادف نفاقهم هوًى عندهم .

وفى قوله سبحانه : « والله عليم بالظالمين » تهديد ووعيد لمن كان على نفاق ومكر بآيات الله . . حيث لا يخفى على الله ما تكنّ صدورهم من نفاق ، وما تنعقد عليه نياتهم من سوء ، وإنهم بهذا قد ظلموا أنفسهم ، وأوردوها موارد الهالكين .

قوله تعالى : « لقد ابتغَوُا الفتنةَ من قبلُ وقلّبُوا لكَ الأمورَ حتّى جاء الحقُّ وظهر أمر الله وهم كارهون ».

إشارة إلى ماضى هؤلاء المنافقين ، وأنهم لم يستقيموا على طريق الإسلام أبداً . . وأنهم فى كل موقف يتعرض فيه الإسلام لامتحان ، كانوا حرباً خفية عليه ، إلى جانب الحرب الظاهرة التى يلقاه بها أعداؤه لقاء مباشراً . . فكانوا يضربون فى جبهة المسلمين بالفتنة ، وتقليب الأحداث ، وإثارة الدفين من الثارات القديمة فى الجاهلية . .

وفى كل مرة كانوا يرجعون بالخيبة والخسران ، حيث يضلّ سعيهم ، وتسوء عاقبة من يعملون لهم ، ويكتب الله للنبى وللمسلمين النصر والغَلَب .

وقوله سبحانه : « ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنّى ألاَ فى الفتنةِ سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » . . يكشف عن وجه من وجوه المنافقين ، الذين دُعوا إلى الجهاد فى سبيل الله ، فقال قائلهم معتذراً بهذا العذر الصبيانى الكذوب : « لاتفتنّى » بالغزو فى بلاد الروم ، وبما يقع تحت نظرى من نساء الروم . . « ألا فى الفتنة سقطوا » حين خرجوا بهذه القولة الكاذبة عن أمر الله ، لحق عليهم غضب الله . . وتلك هى الفتنة ، وذلك هو البلاء ، الذى ليس لصاحبه من نجاة . . « وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » . . وهؤلاء المنافقون هم كافرون ، بل أشد كفراً من الكافرين . . والله سبحانه وتعالى يقول : « إن الله جامع الكافرين والمنافقين فى جهنم جميعاً » .

قوله تعالى : «إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبلُ ويتولّوا وهم فرحون » .

وهذه حال من أحوال المنافقين مع المؤمنين . . إنهم يتربصون بالمؤمنين وهم على طريق الجهاد ، فإذا عاد المسلمون بالنصر والغنيمة اغتمّوا ، وحزنوا ، وعلاهم الخزى والهوان . . وإن وقع بالمسلمين سوء فرحوا فرحتين : فرحةً لأن المسلمين قد أصيبوا ، وفرحةً لأنهم هم لم يكونوا فى هذا الوجه الذى وقع المسلمين فيه ماوقع من بلاء . . ثم يدعوهم هذا إلى أن يحمدوا لأنفسهم بُعد نظرهم ، وتقديرهم للأمور . . حيث سَلِمُوا وكان من شأنهم أن يعطبوا لوأنهم استجابوا لِما دُعُوا إليه . . « وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبلُ ويتولّوا وهم فرحون » . . أى أخذنا حِذْرنا ، ونظرنا إلى عواقب الأمور ، ورأينا بحسن تقديرنا ألا نشارك فى هذه الحرب التى يتجه إليها

المسلمون ، والتى لا يلقوْن فيها إلا الهزيمة . . وهنا قد صحّ تقديرنا . . هكذا تقديرهم ، وذلك هو حسابهم مع الإسلام والمسلمين . . !

وقد ردّ الله عليهم هذا الردّ الذى أمر المسلمين أن يلقَوا المشركين به . . فقال تعالى : « قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ » أى إن الذى تنتظرونه فينا لا يخرج عن أمرين ، كلاهما نعمة عندنا ، ورحمة من الله ورضوان . . إما أن نظفر ونغنم ، وإما أن نستشهد فى سبيل الله ، وننال رضوانه ، وننزل منازل الشهداء عنده . .

وفى الحديث : « تكفل الله تعالى لمن جاهد فى سبيله ، لا يُخرجه من بيته إلا الجهادُ فى سبيله ، وتصديقُ كلمته ، أن يدخله الجنة . . أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه ، مع ما ناله من أجرٍ وغنيمة » .

أما المسلمون فإنهم ينتظرون فى المنافقين العذاب الذى لا بدّ أنه واقع بهم ، إما على أيدى المسلمين فى هذه الدنيا بأن يقتلوهم ، ويستولوا على أموالهم وديارهم ، وإما أن يموتوا على ماهم عليه من نفاق ، فيلقاهم الله بالعذاب الأليم الذى أعدّه لهم . . « ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا . . فتربصوا إنّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُون » .

الآيات : (٥٣ — ٥٧)

« قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ

لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ » (٥٧)

التفسير : بعد أن دعا الله سبحانه وتعالى المسلمين إلى الجهاد بالنفس والمال فى قوله سبحانه : « انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » .. ردّ المنافقين ، الذين أرادوا أن يدخلوا فى صفوف المسلمين ، بما يقدمون من مال ومتاع ـ ولم يقبل سبحانه من أولئك المنافقين الذين فى قلوبهم مرض ماقدموا من مال أو متاع .. لأنهم لم ينفقوه فى سبيل الله وابتغاء مرضاته ، وإنما أنفقوا ما أنفقوا مداراة لنفاقهم ، وستراً لما فى قلوبهم من ضغينة وحقد على الإسلام ، فهم بهذا المال الذى أنفقوه، يجدون وجهاً يعيشون به بين المسلمين ، فيأخذون فرصتهم فى بث سمومهم بينهم .. وقد فضحهم الله ، وردّ كيدهم ، ورجمهم بالمال الذى قدموه !!

وفى قوله تعالى : « قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم » تيئيس لهؤلاء المنافقين من أن يتقبل الله أعمالهم ، وأن يجزيهم جزاء العاملين المحسنين .. لأنهم لايؤمنون بالله إلا على حرفٍ ، ولا ينفقون ماينفقون فى سبيل الله إلاّ على خوفٍ وتكره .. وحتى لو أنفقوا عن تطوع ورضى ـ وهذا غير واقع منهم ـ فلن يتقبل الله ما أنفقوا ، « إنما يتقبل الله من المتقين » فكيف إذا كان إنفاقهم عن نفاق ، لايريدون به وجه الله ؟ إنهم لن يكونوا من المقبولين أبدا .. إنهم كانوا قوماً فاسقين .

وقوله سبحانه : « وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنّهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلاّ وهم كارهون » ـ هو

بيان لِما من أجْله لم يتقبل الله من هؤلاء المنافقين أعمالهم ، ولو كانت مما يُعدُّ في الصالحات من الأعمال .. إنهم كفروا بالله وبرسوله .. فإيمانهم هذا الذى يراه الناس منهم هو إيمان يضمر وراءه كُفراً وإلحاداً .. وكلّ عمل لايزكّيه الإيمان بالله وبرسوله ، هو ردٌّ على أهله ، والله سبحانه وتعالى يقول : « مثل الذين كفروا بربّهم أعمالهم كَرمادٍ اشتدت به الريح فى يوم عاصفٍ لايقدرون ممّا كسَبُوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد » (١٨ : إبراهيم) .

وإذا كان المنافقون على هذا الكفر بالله وبرسوله ، فإن مايأتون من أعمال المؤمنين فى ظل هذا النفاق المتمكن من قلوبهم ، إنما يأتونه رياء ، ونفاقاً ، حتى لايفتضح نفاقهم ، وينكشف المستور من كفرهم ..

فهم إذا اقتضاهم الحال أن يُصلّوا لم تكن صلاتهم ولاء لله ، واستجابة لأمره ،وإنما هو ثوب من أثواب النفاق يلبسونه إلى حين .. ومن هنا كانت صلاتهم باردة فاترة ، لاتتصل بها نبضة قلب ، أو هِزّة وجدان ! « ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى » .

وكذلك الشأن فيما ينفقون فى سبيل الله .. إنهم لاينفقون عن إيمان بالله ، وبرسوله ، وبالجهادفى سبيله.. ولكنهم ينفقون حين لا يكون بدٌّ من الإنفاق .. حتى لاينفضح أمرهم ، وينكشف نفاقهم .. « ولاينفقون إلاّ وهم كارهون » .

وفى قوله تعالى : « وما منعهم أن تُقبل منهم نفقاتهم » تحريض لهؤلاء المنافقين على التخلص من هذا النفاق الذى يقف لهم بالمرصاد على طريق الوصول إلى الله بما يقدّمون من أعمال : « وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلاّ أنهم كفروا بالله وبرسوله .. »

فالمفروض فى كل من يعمل عملاً أن يجنى ثمرته .. وهؤلاء المنافقون يعملون أعمالا كان من شأنها أن تثمر ثمراً طيباً .. ولكن هناك آفة خطيرة تتسلط على

هذه الأعمال ، فتأتى عليها ، قبل أن تزهر أو تثمر .. وهذه الآفة هى النفاق .. فإذا كان بالمنافقين حاجة إلى أعمالهم تلك ، وإلى الثمرة المرجوّة منها ، فعليهم أن يحاربوا هذا النفاق ، الذى يمنعهم أن ينالوا ثمراً مما يعملون ..

قوله سبحانه : « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يُرِيدُ الله ليعذّبَهم بِها فى الحياة الدُّنيا وتَزْهَق أنفُسُهم وهم كافرون » .

تبين هذه الآية الكريمة أن جناية النفاق على أهله ليست واقفة عند حدّ .. فهو إذ يفسد على المنافقين كل مايبدو أنه متصل بما يقرّب إلى الله ، من عبادات وقربات ، كذلك هو مفسد لكل ماهو متصل بحياتهم الدنيوية ، مما يجمعون من أموال ، ومايستكثرون من أولاد .. فهذه الأموال التى يجمعونها ، ويشقون فى جمعها ، وهؤلاء الأولاد الذين يعملون لهم ، ويكدحون فى الحياة من أجلهم — إنما هى مصادر شقاء لهم ، وبلاء عليهم ، حيث تبدو جميعها فى ظل الكفر بالله أنها ظل زائل ، سرعان ماينفضون أيديهم منه ، إذاهم فارقوا هذه الدنيا ، وصاروا تراباً فى التراب .. إنهم لايؤمنون بحياة أخرى وراء هذه الحياة ، تتصل بها حياتهم ، ويجدون فيها شيئاً من ثمرة أعمالهم .. ومن هنا تتضاعف حسرتهم على هذا المال الذى جمعوه ، وعلى هؤلاء الأولاد الذين لن يلتقوا بهم بعد الموت أبدا .. وعلى خلاف هذا شعور المؤمنين بالله واليوم الآخر .. إنهم لايحزنون على فائت فى هذه الدنيا ، لأن أنظارهم ممتدة على طريق أفسح من طريق هذه الحياة ، وقلوبهم معلقة بحياة أكرم وأطيب وأخلد من تلك الحياة .. فإذا فاتهم شىء من هذه الدنيا كان لهم فيما يرجون من الله مايغنى عن كل فائت ..

ومن أجل هذا لم يكن الموت عند المؤمنين بالله واليوم الآخر ، شيئاً

يفزعون له . ويبيتون مؤرقين للقائه .. فما هو عندهم إلا انُقلةٌ إلى عالَم خيرٍ من هذا العالم ، وإلى حياة طيبة ، وجناتٍ لهم فيها نعيم مقيم . .

أما الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر .. فإن للموت عندهم رهبة رهيبة ، مسلطة عليهم مع كل نَفَسٍ يتنفسونه فى هذه الدنيا .. فما الموت عندهم إلا الفناء الأبدى ، والضياع فى تيه العدم ، والغَرَق فى بحر الظلام الأبدى « .. ولتجدنّهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يوَدّ أحدهم لو يعمر ألف سنةٍ وماهو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر » . .

فهذا هو العذاب الدنيوى ، الذى يعذّب به الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر . . وإنما يعذّبون بأيديهم ، وبما يجمعون من مال ، وما يستكثرون من أولاد ، وأنهم كلما كثر مالهم ، وكثر أولادهم ، كلما اشتد عذابهم ، وتضاعف بلاؤهم .. « إنما يريدُ الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا » .. فهم لهذا أحقّ بالرثاء ، منهم بأن يكون موضع قدوة وإعجاب !

وقوله تعالى : « وتزهقَ أنفُسُهم وهم كارهون » ــ هو عطف على قوله سبحانه : « ليعذّبهم بها فى الحياة الدنيا » .. بمعنى أن هذا الذى فى أيديهم من كثرة الأموال والأولاد، إنما جعله الله ليكون مصدر عذاب وبلاء لهم فى الدنيا ، ولتزهق أنفسهم وتخرج من هذه الدنيا على كرهٍ ، وهم فى لجاج فى الكفر ، وإغراقٍ فى الضلال .. إذ لم يَدَعْ لهم تعلقهم بالأموال والأولاد فرصة يفكرون فيها فى الله ، وفى الإيمان به ، واليوم الآخر .. فكل همهم هو هذه الأموال ، وأولئك الأولاد ، فإذا نزل بهم الموت اشتد كربهم وأمسكوا بالحياة فى ذعر وجنون ..

قوله تعالى : « ويحلفون باللهِ إنهم لمنكم وماهم منكم ولكنهم قوم يفْرَقُون » من نفاق المنافقين مع أنفسهم ، أنهم يحلفون للمؤمنين أنهم منهم ، لأنهم

يحسبون الإيمانَ كلمةً يقولونها ، ولباساً يلبسونه أولَ النهار ، ثم يخلعونه آخره .

وما أكثر الأيمان التي تجرى على ألسنة المنافقين .. إنها هى الطلاء الذى يُطلَى به كذبهم ، ويزيّف به نفاقهم ، حتى يَروج ، عند من تغرّه ظواهر الأمور ، ولا يستشف ماوراءها ..

وقد ردّ الله عليهم بأنهم ليسوا من المؤمنين .. لأن المؤمنين لايخافون أبداً ، لما فى قلوبهم من إيمان بالله ، وثقة بما عنده ، واطمئنان لما يقضى به فيهم .. فإن أصابهم خيرٌ لم يطيروا به فرحاً ، وإن أصابهم بلاء لم يجزعوا له فرقاً وخوفاً .. الموت والحياة عندهم سواء ، والغنى والفقر لديهم أشباه ، والسّراء والضرّاء عِدْلان .. كل من عند الله ..

أما أهل الكفر والنفاق ، والزيغ والضلال ، فهم على خوفٍ دائم ، وهمٍّ مقيم .. وفى هذا يقول الله تعالى : « إنَّ الإنسان خُلِقَ هلوعاً * إذا مسَّهُ الشر جَزُوعاً * وإذا مسه الخيرُ منوعاً * إلا المُصلّين * الذين هُمْ على صلاتِهم دائمون * والذين فى أموالهم حقٌّ معلوم * للسائل والمحروم * والّذين يُصدقون بيوم الدين * والذين هم من عذابِ ربِّهم مُشْفِقون * (١٩ ــ ٢٧ : المعارج)

فالفرَق ، وهو الخوف والجزع الذى يعيش فى كيان الكافرين والمنافقين ، المكذبين بيوم الدين ، هو داء عافى الله المؤمنين منه .. إذ كان إيمانهم بالله سَكناً لقلوبهم ، وأنساً لأنفسهم ، وزاداً طيباً يتزودون منه لكل نازلة تنزل بهم ، وكلّ حدث يقع لهم ..

فانظر كيف فرق الإيمان بين الناس ، فى مدركاتهم ومشاعرهم وتصوراتهم ، وإن جمعتهم لحمة القرابة والنسب .. فهؤلاء غير أولئك .. فمن كان على الإيمان لايدخل قلبَه همٌّ أو جزع ، ومن كان على غير الإيمان فهو فى همٍّ وكرب وجزع ..

وقوله سبحانه: «لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إليه وهم يجمحون» هو تصوير لحجم الفزع الذى يعيش فى كيان الكافرين والمنافقين ..

إن هذه الدنيا على سَعَتها، هى أضيق من سَمِّ الخياط، فى أعين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر .. إذ لا حياة لهم بعدها، ولا رجاء لهم فيما يرجوه المؤمنون بعد الموت .. ومن هنا كانت الدنيا على ما فى أيديهم منها من مال وبنين ـ هى سجن مطبق عليهم، يقضون فيه أيام حياتهم المعدودة ..

كأن فجاج الأرض وهى فسيحة ... على الخائف المكروب كِفَّةُ حابلِ

يُؤَتّى إليه أن كل ثنية ... تيممها ترمى إليه بقاتل

هكذا حال الذى لا يؤمن بالله، ولا باليوم الآخر .. هو دائما فى خوف متوقع يطلع عليه من كل جانب .. فلا يبيت على جناح أمن أبداً ..

والملجأ: ما يلجأ إليه الإنسان، ويلوذ به، ليكون مأمنه مما يخاف ..

والمغارات: جمع مغارة، وهى النقرة فى الجبل، تلجأ إليه الهوام والحشرات، فراراً من الخطر الذى يتربص بها فى ضوء النهار ..

والمدّخل: النفق فى الأرض ..

ويجمحون: أى يفرون ركضاً مسرعين ..

وهذه المخابىء التى يلجأ إليها هؤلاء الفارّون من وجه الحياة، هى كل ما يمكن أن يُتصور الفرار إليه، فى عالم الإنسان، أو الحيوان، أو الهوامّ .. وفى هذا ما يدل على أن المنافقين يلتمسون أى مفرّ يفرّون إليه، ويدفنون وجودهم فيه .. بل وأكثر من هذا .. إنهم فى سبيل الاحتفاظ بالحياة، وفى طلب الفرار من الموت ـ لا يأنفون أن يكونوا على أية صورة من صور الأحياء، من

حشرات ، وهوامّ ، ودواب ، ونحوها .. المهمّ عندهم هو أن يعيشوا ، وليس من المهم عندهم فى شىء ، الصورةُ التى يكون عليها العيش !

الآيات : (٥٨ — ٦٠)

« وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَآ آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّآ إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (٦٠)

التفسير : النفاق ضروب كثيرة ، والمنافقون وجوه متعددة .. وعلى طريق النفاق أنماط مختلفة من المنافقين ، كل له لون ، بل ألوان ، يعيش بها فى الناس، ويلقاهم باللون الذى يناسب الحال الداعية إليه .. فالمنافق هو أمة وحده ، بكثرة ما يلبث من وجوه ، وما يتخذ من صور وأشكال .

ولهذا نجد القرآن الكريم ، يقلّب هؤلاء المنافقين على وجوههم المختلفة ، ويعرضهم فى ألوانهم وأزيائهم المتعددة .. فيقول جل شأنه فى أكثر من موضع .. « ومنهم » مشيراً بذلك إلى طائفة من طوائف المنافقين ، وفاضحاً لفعلة من فَعَلاتهم .. فهم أكوان وليسوا كوناً واحداً ، وهم أبعاض من هذا الجسد المتضخم من الفساد والعفن ، الذى يضمهم ، ويشتمل عليهم .

وفى قوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا

رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَاهُمْ يَسْخَطُونَ » بيان لضرب من نفاق المنافقين ، وكشفٌ لوجه من وجوههم المنكرة ..

فهذا واحد منهم يرى النبيّ صلى الله عليه وسلم يقسم غنائم «هوازن» بعد غزوة حنين ، ويتألف بها من يتألف من الذين دخلوا فى الإسلام بألسنتهم ، ولمّا يدخل الإيمان فى قلوبهم .. يرى ذلك فلا يستطيع أن يغالب نفاقه ، ولاأن يمسك ما انطوت عليه نفسه من اتهام لرسول الله ، فيقول ـ والرسول بين صحابته ، وعلى رأس الجيش الظافر الغانم ـ يقول له: «يا رسول الله اعدل »!.. وهل يتفق قوله : يا رسول الله ، ثم قوله لرسول الله : اعدل ؟ وهل يكون من رسول الله غير العدل ؟ ولكنه جهل الجاهلين ، وضلال الضالين !

وقائل هذه القولة الفاجرة الآثمة ـ كما يقول الرواة ـ هو ذو الخويصرة ، واسمه حرقوص بن زهير التميمى ..

ولا يجد الرسول ما يقوله لهذا السفيه ، إلا تلك الكلمة الوادعة المشرقة : « ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ » .. فأى عدل يبقى فى هذه الدنيا إذا لم يكن إلى يد الرسول ميزان العدل كله ؟ وإذا لم يعدل الرسول فمن يعدل بعده ؟ .

ويَهمّ بعض أصحاب رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بتأديب هذا السفيه الأحمق الجهول . .

فيقول لهم الرسول الكريم : « دعوه ، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم . . يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمّية » ! .

وليس ذو الخويصرة هذا ـ الذى يقال إنه صاحب هذه الكلمة المهلكة ـ ليس وحده هو الذى كان على هذا الضلال الذى أنطقه بما نطق به ، وإنما كان

هناك غيره كثير من الذين يرون مايرى، ولكنهم لم يُظهروا ما بأنفسهم، وطووا صدورهم على ما فيها من زيغ وضلال ..

وإنما نُظم ذو الخويصرة وأمثاله فى سلك المنافقين، مع أنه صرّح بما كان يضمر من كفر وضلال ـ على حين أن النفاق إنما يكون نفاقاً إذا كان صاحبه على ظاهر هو خلاف الباطن ـ نقول إنه عدّ فى المنافقين هو وأمثاله، لأن النفاق فى الواقع هو كفر مضمر، وكون المنافق يفضحه نفاقه بين الحين والحين، فينكشف منه بعض ما أضمره، لا يرفع ذلك عنه صفة النفاق، فإنه إذا أظهر بعضاً من كفره، فإن ما أخفى من هذا الكفر أكثر وأعظم .. وفى مثل هؤلاء المنافقين يقول الله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دُونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » (١١٨ : آل عمران) .. فالمنافق منافق وكافر معاً.

واللمز: الغمز الخفيف، وذلك يكون بالإساءة باللسان، بالكلمة الجارحة، تجىء فى خبث ومورابة .. والمنافق لا يأتى البيوت من أبوابها، وإنما يدخل متلصصاً ..

وفى الذى صنعه النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بغنائم هوازن ما خفى على كثير من المسلمين حكمته، فكان لذلك وَسواس فى كثير من الصدور، وهمس على الشفاه، وتغامز بالعيون ..حتى لقد عُرف ذلك فى الأنصار، الذين هم ما هم فى حساب الإسلام، وفى مجتمع المسلمين .. ولقد قال قائلهم حين أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطى المؤلفة قلوبهم، كأبى سفيان، ومعاوية بن أبى سفيان، وعتيبة بن حصن الفزارى، وغيرهم ـ قال قائلهم: لقى والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه !!.

ولم تكن هذه القولة من بعض الأنصار شكّا فى دين الله، ولا اتهاماً

لرسول الله ، ولكنها كانت إشفاقاً من أن يكون ذلك تحولا بمركز الدعوة الإسلامية من المدينة إلى مكة ، وعودة برسول الله إلى بلده الذى أُخرج منه ! حيث كان المؤلفة قلوبهم جميعاً من مكة وما حولها . .

هذا هو الشعور الذى كان مستولياً على الأنصار فى مجموعهم ، وإن كان قد حُمل عند بعضهم ممن نافقوا فى الإسلام ، كعبد الله بن أبىّ بن سلول ـ على غير هذا المحمل ، فكان اتهاماً صريحاً للرسول ، بتعصبه لقومه ، وميله إليهم ، وإيثارهم على الأنصار ، بعد أن دخلوا فى دين الله ، وآمنوا برسول الله ، وبعد أن دخل الناس فى دين الله أفواجاً ، ولم يعد الأنصار وحدهم هم حماةَ هذا الدين وأنصاره ، كما يبدو ذلك فى ظاهر الحال .

ولهذا ، فقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار إليه ، وجمعهم حوله ، واستخلصهم من بين المسلمين جميعاً . . ثم خطبهم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قائلا :

« يا معشر الأنصار !

ما قالةٌ بلغتنى عنكم ، وموجدةٌ وجدتموها علىّ . . حتى لقد قلتم لقى رسول الله قومه !

« أوَجِدتم يا معشر الأنصار فى لَعَاعة من الدنيا [1] تألفت بها قوماً ليُسلموا ، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام .

« أفلا ترضون أن يرجع الناس بالشاة والبعير إلى رحالهم ، وترجعون أنتم برسول الله إلى رحالكم . . ؟

(١) اللعاعة : الشىء القليل التافه .

« فوالذى نفسى بيده ، لو أن النّاس سلكوا شعْباً ، وسلك الأنصار شِعْباً لسلكت شعب الأنصار ، ولولا الهجرة لكنتُ امرأ من الأنصار . .

اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار » .

فبكى القوم حتى أخْضَلوا لحاهم ، وقالوا رضينا برسول الله قَسماً وحظاً.ا»

وهكذا قرت عيون الأنصار ، وامتلأت قلوبهم سكينة وأمناً ، إذ عرفوا أن رسول الله لن يخلِيَ مكانه من بينهم ، ولن يحرمهم هذا الخير الذى ساقه الله إليهم ، وأنهم هم أهل الرسول وأنصاره ، وأن بلدهم هى بلده وموطنه ! وحسبهم هذا . . ولَساعة من رسول الله بينهم خير لهم من الدنيا وما فيها .

وهكذا ، كان بيان الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، شفاء لما فى الصدور ، وجلاء للبصائر ، فسكنت الوساوس ، وقرّت العيون ، ولهجت الألسن بالحمد لله رب العالمين . . وهذا البيان الذى كشف به الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ماخفى على الناس أمره ، هو مصداق لقوله تعالى : « وما كان الله ليُضِلّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون » . . فإن من رحمة الله بعباده المؤمنين إذا طاف بهم طائف من الريب ـ جاءهم بما يكشف الطريق لهم إليه ، ويرفع عن بصائرهم ما تغشاها من شكوك ورِيَب .

* قوله تعالى : « ولو أنهم رَضوا ما آتاهم اللهَ ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسولهُ إنا إلى الله راغبونَ » .

هو بيان لما ينبغى أن يكون عليه المسلمون جميعـــاً ، إزاء كلّ ما يقول الرسول أو يعمل . . وهو الرضا المطلق ، والتسليم المطلق ، بكل ما يقضى به ، فهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الأمين الذي ائتمنه الله على دين الله ، والقيّم الذى أقامه الله على عباد الله ، وأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا ينطق عن

الهوى ، ولا يحكم إلا بما أراه الله . . فمن آمن بالله ، فلن يكون مؤمنـاً حتى يؤمن بما يقضى به رسول الله !

وفى ذِكر الرسول الكريم مرّتين فى هذا الموضع ، مع ذكر الله سبحانه وتعالى ـ ما يكشف عن مقام الرسول الكريم عند ربّه ، ويؤكد منزلته الرفيعة عنده . . «ما آتاهم الله ورسوله .. وقالوا حسبنا الله . . . سيؤتينا الله من فضله ورسولهُ . ..

فما أعظم هذا الفضل العظيم ، وما أسمى هذا المقام الكريم . . لهذا النبى الذى يحفّه ربّه بهذا الفضل ، ويرفعه إلى هذا المقام ، الذى يُشرف منه مع ربّه على الناس ، ويعطيهم من فضل الله مايرضيهم ويغنيهم .

وما أشقى أولئك الذين يحادّون هذا الرسول ، أو يخالفون عن أمره ، أو يقع فى نفوسهم ريب فى قول يقوله أو فعل يفعله . .

« ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله . . إنا إلى الله راغبون » .

وجواب لو هنا محذوف ، لدلالة الحال والمقام عليه ، وهو أنه لو فعلوا ذلك لكان لهم فى هذا ، الخيرُ كله ، والفلاحُ كله .

الزكاة والتكافل الاجتماعى

قوله سبحانه : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقات والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضةً من الله والله عليمٌ حكيم »

هو بيانٌ مصاحب لما وقع فى نفوس المسلمين من قسمة غنائم هوازن ،

والتى كان النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد تألف بها بعضَ النفوس التى كانت تعادى الإسلام ، وتحقد على رسول الله أن كان هو المبعوث المتخيَّر لدين الله . . !

وقد اشتمل ـ هذا البيان فيما اشتمل عليه ممن لهم نصيب فى الصدقات — المؤلفةَ قلوبهم ، الذين كان منهم من تألفه رسول الله صلى الله عليه وسلم من غنائم هوازن . .

وفى هذا ما يكشف عن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ كان فيما فعله فى غنائم هوازن ، وفى اقتطاع قدر منها لمن أراد أن يتألف قلوبهم ـ كان منفذاً لأمر الله ، ولم يكن فيما قضى به فى ذلك منقاداً لهوى أو مؤثراً لقرابة أو صداقة.. وحاشاه ، صلوات الله وسلامه عليه .

والآية الكريمة وإن كانت فى بيان مصارف « الصدقات » التى خصصها الفقهاء هنا « بالزكاة » حيث استبان لهم من قوله تعالى ، « والعاملين عليها » أن ذلك يشير إشارة صريحة إلى أن المراد بالصدقات هو الزكاة ، التى لها وحدها من دون الصدقات ، عاملون يعملون لتقديرها وأخذها ممن وجبت عليهم هذه الفريضة . .

نقول : إن الآية الكريمة وإن كانت فى بيان مصارف الزكاة ، فإن ذلك لايمنع من أن تكون الصدقات كلها ، سواء ما كان منها فريضة كالزكاة، أو تطوعاً كالإنفاق فى سبيل الله ، والإحسان إلى الفقراء والمساكين ، وفى كل وجه من وجوه البر ـ لايمنع ذلك من أن تكون جميعها محكومة بهذا البيان ، موجهةً فى هذه الوجوه التى أشارت إليها الآية الكريمة ،ودلّت بها على وجوه المصارف التى يصرف إليها المحسنون إحسانهم ، وما تجود به أنفسهم ،وتقدمه أيديهم من برّ وصدقة .

فالفقراء .. هم أحق جماعة فى المجتمع الإنسانى ، بالرّعاية والحماية ، من آفة الفقر التى تفتك بهم ، وتغتال المعانى الإنسانية فيهم ..

ومحاربة هذه الآفة ـ فوق أنه واجب إنسانىّ تفرضه الأخوة الإنسانية ، وتقتضيه لَحْمة النسب بين الإنسان والإنسان ـ هى حماية للأغنياء أنفسهم ، وضمانة لأمنهم وسلامتهم هم ، فى أموالهم وأنفسهم ، من عادية الفقراء عليهم ، والتذرع بكل وسيلة ممكنة ، يجد فيها الفقراء منفذاً ينفذون منه إلى ما عند الأغنياء ، ليشبعوا جَوْعتهم ، وليدفعوا عن أنفسهم خطر الموت جوعاً . .

فالسّرقة ، والنهب ، والاغتصاب ، والقتل الفردى أو الجماعى . . كل هذا وكثير غيره مما يتولّد عنه ـ هو مما يراه الجياع المحرومون ـ إن كان للجائع المحروم أن يرى ـ حقًّا مشروعاً لهم ، فى الدفاع عن النفس ، واتقاء خطر الموت الذى يتهددهم . . إذ ليس عند الفقير المحروم المشرف على الموت جوعاً ـ ما يحرص عليه ، غير نفسه تلك ، التى يكاد يفقدها ، إن هو لم يعمل على إنقاذها ، ولو كان ذلك ما يحمله على ركوب كل مهلكة .. فإنه هالك لا محالة ، إن هو لم يعمل عملاً فى وجه هذا الخطر الذى يتهدده . . وإنه لا بد له أن يعمل بدافع غريزة حبّ البقاء . ولن يكفّ عن العمل ما دام فى صدره نفس يتردد . . إن الغريق الذى ابتلعه اليمّ لا يكفّ عن الضرب بكيانه كلّه فى وجه الماء ، ضربات محمومة ، مجنونة ، يائسة ، وكأنه بهذا ينتقم لنفسه من اليمّ الذى أوقعه فى شباكه ! يقول الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ : « لا تشاورْ من ليس فى بيته دقيق ، فإنه مُوَلَّه العقل » . أى شارد العقل ، مضطرب التفكير .

فالفقراء خطر يهدد المجتمع من أكثر من وجه . .

يهددونه بالخروج على شرائعه السماوية والوضعية ، وبالتحلل من كل

نظام يحكم الجماعة ، ويدفع عدوان بعضها على بعض . . وذلك بمدّ أيديهم إلى ما ليس لهم . . وفى هذا إزعاج للمجتمع ، وإثارة للفتن والاضطرابات فى كيانه . .

ويهددونه بإشاعة البطالة ، وسوء استغلال الموارد المتاحة له . . حيث لايجد الفقير القدرة على العمل ، وهو تحت وطأة الجوع والحرمان . . وإذا وجد القدرة فلن يجد بين يديه الوسائل التى تمكنه من العمل . . وفى هذا خسارة يعود ضررها على المجتمع كله ، وبخاصة أغنياء المجتمع ، الذين يفقدون اليد العاملة القوية التى تعمل لهم ، كما يفقدون اليد القادرة على تبادل المنافع معهم . .

ومن هنا كان من تدبير الإسلام لمحاربة الفقر ، وحماية الفقراء من قسوة هذه الآفة المهلكة ـ أن فرض على المسلمين الزكاة ، وجعلها رُكناً من أركان الدين ، لمن ملك نصاباً معيّناً من المال ، وكان من تدبير الإسلام أيضاً أن بدأ بالفقراء ، وجعل داءهم هو الداء الأول ، الذى يتهدد المجتمع ، بالضّياع ، ويؤذنه بالهلاك . . إن لم تعمل الجماعة جاهدة على محاربة هذه الآفة ، ورصد كل قواها للقضاء عليها ، وشفاء المجتمع منها . .

ثم كان من تدبير الإسلام أيضاً فى هذه السبيل ، أن دعا إلى البرّ والإحسان، وحض عليه ، ووعد المنفقين بالجزاء الجزل ، والثواب العظيم . . « مَثَلُ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبّةٍ أنبتت سبعَ سنابلَ فى كل سنبلة مائة حبّة والله يُضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » .

والتكافل بين المسلمين هو مِلاَك الشريعة الإسلامية . . إذ المسلمون فى حقيقتهم كيان واحد . . كل فرد منهم هو عضو فى الجسد الاجتماعى الكبير . .

ولن تقوم سلامة هذا الجسد، إلا بسلامة جميع أعضائه . .

(والمساكين) هم الصنف الثانى من الأصناف الثمانية التى جعل الإسلام لكل صنف منها نصيبه فى الزكاة . .

وقد اختلف المفسرون فى التفرقة بين الفقير والمسكين ، فقال بعضهم إنهم صنف واحد ، والعطف الواقع بينهما هو من عطف البيان .. وقال آخرون: الفقير من يجد قوت يومه ، والمسكين من لايجده ، وقال غيرهم عكس هذا . . وقال الأكثرون : الفقير الذى مع فقره لايسأل ، والمسكين هو من يسأل . . إلى كثير من الآراء التى لم تفرق تفرقة واضحة محددة ، بين الفقير والمسكين .

والرأى الذى نراه ونستريح إليه ، هو أن المساكين ، هم صنف قائم بذاته ، معروف بصفة مميزة له عن الفقراء . . وهم ـ أى المساكين ـ الفقراءُ من أهل الذمة الذين فُرضت عليهم الجزية . . فهم ـ والحال كذلك ـ أشبه بالأرقاء ، المكاتبين ، الذين فرض لهم فى الزكاة نصيب . . حيث يقول تعالى : « وفى الرقاب » .

وفى يقيننا أنه ليس فى المسلمين مسكين ، وإن كان فيهم الفقير . . لأن المسكين: من المسكنة والذلة والضراعة ، ولايلبس المسلم — مع الإسلام — ثوبَ المسكنة والذلة والضراعة أبداً ، وإن عضّه الفقر ، وأضرّ به الضرّ .

وقد ذكر الله تعالى فقراء المسلمين ، فقال سبحانه : « لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا » (٢٧٣ : البقرة)

كما ذكر القرآنُ الكريم المسكينَ فى مَعرِض الذّلة والمهانة : « ويطعمون الطعامَ على حبّهِ مسكيناً ويتيما وأسيراً » فهذه الأصناف الثلاثة يحتويها الضعف وتشتمل عليها الذلّةُ .

ويقول سبحانه وتعالى : « وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ » . . فقد جمعت الآية بين العبد الرقيق ، واليتيم الفقير ، والمسكين المترِب .

وفقير المسلمين ــ كما قلنا ــ لا يكون أبداً على هذا المستوى الإنسانى من الاستكانة ، والذلة ، والضعف . . بل هو من إيمانه بالله فى عزّة ، وقوةٍ وإن صَفِرت يداه من الأصفرين[1] !

والذمّيون ــ وهم الذين فى يد المسلمين وذمتهم ــ من أهل الكتاب ، فيهم ــ كما فى كل جماعة ــ من هم فى حاجة إلى الصّدقة التى تسدّ مفاقرهم ، وتدفع غائلة الحاجة عنهم . . والله سبحانه وتعالى يقول : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من ديارهم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحبّ المقسطين » . . فإذا جعل الإسلام نصيباً مفروضاً فى الزكاة لفقراء أهل الكتاب ، فذلك من البر الذى دعانا الله إليه نحوهم . . ثم هو من جهة أخرى حماية للمجتمع الإسلامى الذى يعيشون فيه ، من آثار هذا الداء ــ داء الحاجة والعوز ــ الذى إن سرى فى جماعة أفسدها ، وأشاع الفوضى والقلق والوهن فى كيانها .

« والعاملين عليها » وهم الذين يُوكل إليهم تحصيل الزكاة من أهل الزكاة . . فهم ــ والحال كذلك ــ مشتغلون بجمعها ، عاملون فى تحصيلها ، ومن ثمّ وجب أن ينالوا نصيباً منها ، يكفل لهم الحياة المناسبة لهم . . حياةً تأخذ مكاناً وسطا

(١) الأصفران : الذهب والفضة .

بين الفقراء والأغنياء . . إنهم عاملون ، ولابُدّ لـكل عامل من أجرٍ فى مقابل مايعمل . .

« والمؤلفة قلوبهم » وهم الذين دخلوا فى الإسلام من زعماء العرب ، ولم تَخلُص نياتهم له ، ولم تَطِبْ نفوسهم به ، إذ نزع الإسلام عنهم ما كان لهم من سلطان فى قومهم ، وسَوّى بينهم وبين عامة الناس . . فهم ـ والحال كذلك ـ فى حاجة إلى علاجٍ نفسىّ يُزيل مابينهم وبين الدين الجديد من جفوة . . وفيما كان من تدبير الإسلام فى تألفهم إليه بالمال الذى يخصّهم به دون الناس ـ فى هذا مايرضى نوازع السلطان والرياسة عندهم ، وذلك من شأنه أن يقيم نظرهم على الدين الجديد ، وأن يتيح لهم الفرصة لمراجعة حسابهم معه ، فإذا كان ذلك استبانت لهم حقيقة الإسلام ، وعرفوا أى دعوة يدعوهم النبىّ إليها ، وأى خيرٍ يقدمه إليهم فى ثنايا الدعوة ، التى تحمل إليهم سعادة الدنيا والآخرة جميعاً . .

فهذا المال الذى يتألّف به الإسلام تلك الجماعة التى أعماها حبّها للجاه والسلطان عن أن تنظر فى الدعوة الإسلامية ، وأن تستمع إلى كلمة الحق التى يؤذّن بها الرسول الـكريم فى الناس ـ هذا المال ليس رشوة يقدّمها الإسلام لتلك الجماعة المتأبية عليه ، المزورّة عنه ، حتى تسكت عنه ، ولا تقف فى سبيله ـ وإنما الذى قصد إليه الإسلام من هذا ، هو أن يروض جماح هذه الجماعة ، ويهدىء من ثائرتها ، ويطفىء من نار حَنقها ، وضغنها على الإسلام ، حتى تستطيع أن تنظر إليه ، وتعرض دعوته على العقل ، بعيداً عن دخان الحقد وضبابه . . وبهذا يكون حكم هذه الجماعة على الدين الذى يُدْعَوْن إليه ، حكما صحيحاً ، قائماً على النظر ، والتعقل ، والتدبر . .

والإسلام لايريد من الذين يدعوهم إليه أكثرَ من هذا . . إنهم يريدهم

على أن ينظروا إليه ، ويتعقلوه ، ويتدبروا آياته . . « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوْا وإن توَلّوْا فإنما هم فى شقاق » (١٣٧ : البقرة) . . ذلك أنه ليس من الخير للإنسان فى نفسه أن يَدين بدين لا يعرضه على عقله ، وينظر فيه بنفسه ، ويجد فيه داعياً مُسمعاً يدعوه إليه ، وعاطفة قوية تعطفه عليه . . فإنّ ديناً يدخل على الإنسان من غير هذا الطريق ـ طريق النظر والاقتناع ـ ، لا يكون له سلطان مؤثّر فى سلوك الإنسان ، وفى انتفاعه بما يحمل هذا الدين من عقيدة أو شريعة . .

هذا ، ويرى كثير من الفقهاء أن نظرة الإسلام إلى هذا الصنف من ضعاف الإيمان الذين تألفهم الإسلام بالعطاء ـ إنما كان ذلك فى أول الإسلام ، حيث حاجة المسلمين إلى من يكثّر جَمْعهم ، ويسند ظهرهم من الرجال . . ولكن لمّا قويت شوكة الإسلام ، وكثرت أعداد المسلمين لم يكن ثمة داع يدعو إلى عملية التأليف هذه ، فقد تبيّن الرشد من الغى .. فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، وإن الله لغنىّ عن العالمين ..

وعلى هذا ، فقد أسقط القائلون بهذا الرأى فريضةَ المؤلّفة قلوبهم ، من الزكاة ، بعد أن قوى الإسلام ، كما أسقطوا فريضةَ مَن فى الرقاب ، وهم الأرقاء المكاتبون ، بعد أن انتهى الرقّ .

والذى نراه ، أن تأليف القلوب ، وشدها إلى الإسلام ، والعمل على تعاطفها معه ، أمر لازم للدعوة الإسلامية فى حال ضعف المسلمين وقوتهم على السواء .

فتأليف القلوب على الإسلام ، وقتل ضِغْنها عليه ، وشنآنها له ـ هو تدبير حكيم ، وسياسة رشيدة ، لا تستغنى عنها دعوة جاءت لهداية الناس ، وخيرهم ، وإسعادهم . .

فهذا التدبير الحكيم من شأنه « أولا » أن يشفى هؤلاء المرضى ـ مرضى القلوب ـ من دائهم الذى عزلهم عن الإسلام ، وحَجَزهم عن الانتفاع به ، والاهتداء بهديه ..

وهو « ثانياً » إذ يجلب للمسلمين قوةً جديدة بإضافة هؤلاء المؤلفة قلوبهم إليه ، يدفع عن الإسلام والمسلمين شرًّا كان يتربص به ، وعداوة كانت تتحين الفرص للنيل منهم .

وإذن ، فتأليف القلوب على الإسلام ، وسلّ السخائم والأضغان عليه منها ، أمرٌ ينبغى أن يكون من سياسة الإسلام دائماً ، ومن عمل المسلمين ، فى كل حال ممكنة لهم ، سواء أكان ذلك بالمال أم بغيره مما يتألف الناس ، ويسلك بهم مسالك الخير ، ويقيمهم على طريق الهدى .. وإن دعوة الإسلام فى صميمها لتقوم على هذا الأساس المتين .. وقوله تعالى لنبيه الكريم : « ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » هو المفتاح الذى وضعته السماء فى يد النبىّ ليفتح به مغالق القلوب ، وليتألفها به ، ويستولى على مواطن الاطمئنان منها .

وبهذا المفتاح نفسه يستطيع دعاةُ المسلمين أن ينَفُذُوا بدعوة الإسلام إلى الصميم من القلوب ، وإنه لا بأس من أن يَرْفدوا ذلك بما يرَوْن من بر وإحسان لمن يدخلون فى الإسلام ، ليطعموا من ثمر الأخوة الإسلامية ، وليفيئوا منها إلى ظل ظليل .

« وفى الرقاب » .

وهم الأرقاء الّذين كاتبهم مالكو رقابهم على قدر من المال ، فى مقابل تخليصهم من الرّق .

فهؤلاء الأرقاء أعضاء ضعيفة ، فى جسم المجتمع .. وإنه لكى لا يَشيع

الضعف فى هذا الجسم ، ولكى يكون على أحسن مايمكن من الصحة والسلامة، يجب أن يعمل على تخليصه من دواعى الضعف التى ألمت به ، لا باستئصال هذه الأعضاء الضعيفة ، كما تدعو إلى ذلك بعض المذاهب المادية ، ولكن بالطب لها من دائها ، وتصحيح آدميتها ، ونظمها فى سلك الآدميين .

وسنعرض بعد شرح هذه الآية لموقف الإسلام من الرق ، وسياسته فى تخليص الأرقاء .. إن شاء الله . .

« والغارمين » وهم المدينون ، الذى رهقهم الدين ، ولم تكن لهم موارد يؤدون منها الدين .. فهذه الجماعة التى ركبها الدين ، هى فى معرض الضّياع ، أو الانحلال ، أو الفساد ، إن لم تجد يداً رحيمة تمسك بها ، وترفع عن كاهلها هذا العبء الثقيل .. الذى هو همّ بالليل ومذلة بالنّهار .

وفى تسمية المدينين بالغارمين ، إشارة إلى أن الدّين أيًّا كان هو غُرْمٌ واقع على صاحبه .. لأنه يحمّل المدين عبئاً إلى العبء الذى كان يحمله ، من ضيق ذات اليد قبل أن يستدين ، فهو حين استدان ، قد وضع فى يده غُلاً جديداً ، وأضاف على كاهله حملا فوق حمل . وأن هذا اليسر الذى وجده بعد أن استدان لم يكن إلا أمراً عارضاً لايلبث أن يزول ، ويعود الحال به إلى ما كان عليه ، بل وأسوأ مما كان عليه .

فالدّين غُرمٌ .. هكذا يجب أن تكون نظرة المدين إليه ، فلا يُقدِم عليه إلا عند الاضطرار ، وإن أقدم عليه فلا يستدين إلا بقدر مايدفع الحاجة الملحّة التى تبرّر له مدّ يده للاستدانة !

ومن جهة أخرى ..فإن الإسلام إذ وصف الدينْ بتلك الصفة ، وجعله غُرْماً على المدين لاغُنما له ــ فإنه من جهة أخرى حبّب إلى أصحاب الغِنى واليَسَار أن يُقرضوا المعسرين من إخوانهم ، حتى يحموهم من التعامل بالرّبا .. كما دعا

للمدينين إلى قضاء دينهم عند أول فرصة تمكنهم من قضائه .. وفى هذا يقول الرسول الكريم : « مَطْلُ الغنىّ ظلم » ..

وقد عرضنا لذلك عند تفسير آية الدّين فى سورة البقرة « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمًّى فاكتبوه .. الآية » .

وفى نظرة الإسلام إلى « الغارمين » وفرض نصيب لهم فى الصدَقات ، سياسة حكيمة ، وتدبير محكم ، يريد به الإسلام أن يصحح أوضاع المجتمع الإسلامى ، ويقضى على العلل التى تنجم فيه ، قبل أن تعظم وتستشرى ..

فالمدين الغارم ـ وهو أشبه بالمفلس ـ إذا تُرك وشأنه ، وتلك حاله ـ لم يستطع الوفاء بقضاء دينه .. وينشأ عن هذا أمور :

منها ضياع مال الدائن ، الذى خفّ متطوِّعاً لإنقاذ المدين ، والأخذ بيده فى ساعة العسرة ..

والدائن إنما عمل خيراً ، ومن حقّه أن ينتظر خيراً لِما فعل .. فإذا جاءت عاقبة أمره مع المَدِين على تلك الصورة ، ضاقت نفسه بفعل الخير بعد هذا ، وكره أن يدخلَ فى تجربة جديدة كتلك التجربة ..

والإسلام حريص على إشاعة المعروف بين النّاس ، وتبادل الإحسان بين أفرادهم وجماعاتهم .. وموقف كهذا الموقف يَقْبِض يدَ الناس عن الإحسان ، ويزهدهم فيه .

ومنها : أن المدين نفسَه ، إذا ما وصلت به الحال إلى اليأس من قضاء دينه ، صَغُرت نفسه بين الناس ، وخفّ ميزانه فيهم .. ثم لايلبث حتى ينعكس ذلك على نظرته هو إلى نفسه .. ثم يصبح وإذا هو إنسان ساقط المروءة ، متعثر الُخطا ، مضطرب الحياة ، ضائع الوجود .

وإذ فرض الإسلام نصيباً من الزكاة ، أو بمعنى آخر من بيت المال ، ورصده لقضاء دَين المدينين المُفلسين ، فإنه حَمَى بذلك الدائن والمدين جميعاً .. وأبقى على مشاعر البِرّ والإحسان بين النّاس ، وقطع دواعى الشحناء والعداوة بينهم .

هذا ، وقد رأى بعض الفقهاء أن يُقيّد الدَّيْن هنا بحيث لايكون قد استُدِين للإنفاق منه فى حرام ، أو فى سَرَف وتبذير ..

ولا نرى حكمة لهذا القيد الذى يَرِدِ على الآية فى إطلاقها ، فيضيق دائرة نفعها ، ويحجز خيرها المطلق ، ورحمتها الواسعة عن أن تنال كل غارم مشرف على الهلاك والضياع ..

إن الحكم القرآنى ــ هنا ــ يواجه حالاً واقعة،ويداوى علّة قائمة ، ويستنقذ غريقاً مشرفاً على الغرق ..

وإذ كان الأمر على تلك الصفة ، فإنه ليس من الحكمة ، ولا من المنطق أن يقلّب الإسلام صفحات هذا الإنسان ، ويستعرض تاريخه .. ثم ليحكم أهو أهل لأن يمدّ إليه يده فينقذه ، أم يدعه حيث هو ليلقى مصيره المحتوم ..

وكلا .. فإن المطلوب ، أولا ، هو إنقاذ هذا الإنسان ، دون نظر إلى أى اعتبار آخر ..

فإذا أُنقذ ، كان من الممكن أن يُنصح له ، وكان من المرجوّ له أيضاً أن ينتصح ، وأن يتقبل هذا الإحسان الذى يجىء إليه فى صورة هداية وتبصرة له ، بعد أن تلقّ هذا الإحسان الذى أمسك عليه حياته ، وأنقذه من وطأة الدين الذى أنقض ظهره !

وأكثر من هذا ، فإن الإسلام ، تكفّل ــ من بيت المال ــ بقضاء دَيْن المدينين ، ممن يُتوفّوْن ، وليس فى تركتهم مايقضى دينهم ..

يقول الرسول الكريم : « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم .. من مات وعليه دَين فأنا وليّه .. ومن مات وله مال فماله لورثته ! »

هذا شيء رائع معجز .. لا يمكن أن يقع في حساب تشريع وضعيّ ، مهما بلغ من المثالية والإحكام .. وإنما هو مما تجيء به السّماء من رحماتها وبركاتها .

وإنه بِحَسْب الإسلام أن يقدّم للإنسانية هذه اللفتة الرائعة من لَفَتَاته في بناء المجتمع ، وحياطة بنيانه من دواعي التصدّع والتشقق .. فتلك نظرة من نظراته النافذة إلى الصميم من حياة المجتمع ، لا تستطيع الشرائع الوضعية في أعمق نظراتها أن تحوم حولها .

* « وفي سبيل الله » .

المراد بسبيل الله هنا ، ما يُنفق من مال الصدقات في تجهيز المجاهدين في سبيل الله ، وفي إمدادهم بالعتاد والسلاح والمؤن وغيرها ، مما يعين المجاهدين على الجهاد ، لتأمين المجتمع ، وحمايته من عدوان المعتدين ..

* « وابن السبيل » ..

وهو المسافر ، المنقطع عن أهله .. ولا زاد معه ..

والمسافر الذي على تلك الصفة ، هو إنسانٌ في معرض الضياع والهلاك ، إن لم يجد اليد الرحيمة التي تمتد إليه بالبر والإحسان ، فتدفع عنه عادية الجوع التي تهجم عليه ، وتريد اغتياله ..

وفي جَعْل بيت المال هو الذي يقوم بهذا الأمر ، ويتولّى رعايةَ أبناء السبيل — في هذا ضمان موثّق لحماية هذه الطائفة ، إذ كان بيت المال بموارده الكثيرة ، أقدرَ على كَفالة هذه الجماعة ، وتوفير أسباب الحماية لها ... ثم هو — من جهة أخرى — صيانة لكرامة الإنسان ، من أن يمدّ يده إلى غيره من الناس ، أو أن يستشعر

أنه عالةٌ على أحدٍ .. الأمر الذى عافاه الله منه ، إذ جعل إلى « بيت المال » كَفالة هذا الإنسان ، والبرّ به ، والإحسان إليه . .

ومن جهة أخرى . . فإن الإسلام قد نظر نظرة أوسع من هذا ، فلم يجعل إلى بيت المال وحده ، القيامَ بهذا الواجب حِيالَ أبناء السبيل . . فقد يكون ابن السبيل فى مكان لاتصل إليه يد « بيت المال » .. وقد يكون « بيت المال » ولا مالَ فيه يتّسع للوفاء بحاجة المحتاجين من أبناء السبيل .

ومن أجل هذا ، فقد فرض الإسلام على المسلمين جميعاً ، القيامَ بهذا الواجب إذا عرض لهم ، وطلع عليهم ابنُ سبيل أو أبناء سبيل !

رَوى البخارى ومسلم ، عن عقبة بن عامر قال : قلنا يارسول الله ، تبعثنا[1] فننزل بقوم فلا يَقْرُوننا[2] ، فما ترى فى ذلك ؟ فقال — صلى الله عليه وسلم : « إذا نزلتم بقوم فأمروا لكم ما ينبغى للضيف فاقبلوا منهم ، وإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذى ينبغى لهم[3] » .

وعنه صلى الله عليه وسلم قال : « أيُّما مسلم ضاف قوماً فأصبح الضيف محروماً ، فإن حقًّا على كل مسلم نَصْرُه ، حتى يأخذ بِقِرَى ليلته . . من زرعه أو ماله . »

وعن أبى كَريمة ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليلةُ الضيف واجبة على كل مسلم ، فإن أصبح بِفِنائه محروماً كان دينًا عليه ، فإن شاء اقتضاه[4] ، وإن شاء تركه ! » .

فإلى هذا الحدّ تبلغ عناية الشريعة الإسلامية ورعايتُها للفقراء ، والضعفاء ،

---

(١) أى فى سبيل الله . (٢) أى فلا يقدمون لنا ما يقدم للضيف .
(٣) أى الذى ينبغى للضيوف . (٤) اقتضاه : أى أخذه الضيف منه .

فى المجتمع الإسلامى ، حتى لتجعلَ فرضاً على كل مسلم نزل به ابنُ سبيل ، أن يجعله ضيفاً عليه ، وأن يقدّم إليه من البشاشة والرعاية والإكرام ما يقـدّم للضيف العزيز ، دون مَنٍّ أو أذى ، ودون ضيق أو تـكره . . وفى تسمية ابن السبيل ضيفاً ، رعايةٌ لهذا الواجب الذى ينبغى للضيف أن يؤديه له ، وصيانةٌ لابن السبيل من أن يُنظر إليه ، أو ينظر هو إلى نفسه ؛ نظرةَ المتطفل . . وكلاّ إنه صاحب حق ، وهو إذ ينزل بأحد المسلمين ، فإنما ليستقضى حقّه عنده !

فأين فى دنيا الناس ، هذا المجتمع الذى ينزل فيه الفقير والمسكين منزلةَ الضيف العزيز المكرم ؟ إن ذلك لن يكون إلا فى المجتمع الإسلامى ، الذى يحفظ شريعة الإسلام ، ويقيم سلوكه عليها ! !

« فريضةً من الله » .

أى هذا التشريع الذى شرعه الله فى أموال الأغنياء ، ثم ردّ هذه الأموال على تلك الجهات ، التى بينها الله سبحانه وتعالى فى الآية الكريمة ـ هذا التشريع ، هو فرضٌ محكَم فرضه الله على المسلمين ، وأوجب عليهم أداءه ، على هـذا الوجه الذى شرعه .

* « والله عليم حكيم » .

أى أن هذا التشريع الذى شرعه الله سبحانه وتعالى ، هو مما قضى به علمهُ وحكمته . . علمه الذى يحيط بكل شىء ، وينفذ إلى كل شىء ، ويستولى على كل شىء . . وحكمته المقدّرة لـكل أمرٍ ، المحكمة لـكل تدبير . .

فليس بعد قضاء الله قضاء ، ولا بعد تدبيره تدبير ، ولا وراء حكمه حكم . . من أخذ به اهتدى وأمِن ، وسَعِدَ ، ومن عدل عنه ، ضلّ وخاب وشقى !

الآيات : (٦١ — ٦٣)

« وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ

لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ » (٦٣)

التفسير: وهذا صنف آخر من أصناف المنافقين ، ووجه من وجوههم المنكرة . . صنف يتخذ من الاستهزاء بالنبىّ والسخرية منه ، مادةً يطعم منها فى شراهة ونَهَم ، ليشبع بذلك جوعاً مسعوراً من الحقد على الإسلام ، والشنآن له ، وللرسول الذى حمل رسالته .

وقد ضَبَط القرآن الكريم هذه الجماعة الآثمة ، وهى قائمة على هذا الإثم ، تلوكه فى أفواهها المنكرة ، كما تلوك الكلاب قطعاً من العظم الرميم . . فكان ذلك فضحاً لهم على الملأ ، وخزياً متنقلاً معهم فى كل مكان ، ينادى عليهم بالذلة والمهانة والصغار !

يقولون ـ خرست ألسنتهم ـ عن النبى الكريم : هو « أُذُن » أى يعطى أذنَه لكل قائل يُلقى فيها ما يقول له !

فكلمات النفاق الكاذبة التى يُلقونها بين يدى النبىّ ، ويحلفون عليها كذباً وزوراً ـ هذه الكلمات يُخيّل إليهم أن النبىّ الكريم ـ إذ يقبلها منهم ، أو يسكت عليها فلا يَتّهمهم بها ـ أنه يحمل كلماتهم الكاذبة المنافقة تلك ، محملَ الصدق ، ولهذا فهم يقولون فى النبىّ هذا القول المنكر : « هو أذن »

فحين آذنَ النبىُّ الكريم المسلمين بغزوة تبوك ، وندبَهم جميعاً إلى الجهاد

فى سبيل الله ـ جاء إليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كثير من المنافقين يعتذرون إليه بأعذار كاذبة ، وقد قَبِلها النبىّ منهم ، وتركهم وما اختاروا لأنفسهم ، من القعود عن الجهاد ، وإيثار العافية والسلامة لأنفسهم ، على ما عند الله للمجاهدين ، من رضًى ورضوان .

وماذا يكون من النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حيالَ هؤلاء المعتذرين عن الجهاد ، غيرَ الذى فعله معهم ؟ إذ تركهم لشأنهم ، وأعفاهم من مئونة الجهاد مع المجاهدين ؟ .

وماذا كان غَنَاء أمثال هؤلاء المتكرهين للجهاد ، إذاهم حُملوا عليه حملاً ، وأُخذوا به قَسْراً ؟ أمِثل هؤلاء يكون للمسلمين منهم قوة يُنتفع بها فى هذا المجال ؟ .

إن الجهاد فى سبيل الله قُرْبة من أعظم القربات إلى الله . . والقُرباتُ إنما لِكى تقع موقعها من القبول عند الله سبحانه وتعالى ـ ينبغى أن تكون عن تطوع واختيار ، وعن استعدادٍ للتضحية والفداء ، بل وعن اشتهاء للتضحية والفداء !

إن هؤلاء المتكرهين للحرب ، اۤثرين السلامة والعافية فى أنفسهم ، على الجهاد فى سبيل الله ، والاستشهاد فى سبيل الله ـ هؤلاء هم أشدّ على المجاهدين بلاء من العدو الذى يَلْقونه فى ميدان القتال . . إن هؤلاء المنافقين هم صوت الهزيمة الذى يندسّ بين المجاهدين ، وإنّهم لهم السلاح الخفىّ للعدوّ يضرب به فى جبهة المجاهدين . . ولهذا ، فقد كان ما فعله النبىّ،من عزل هذه الجماعة المثبطة، عن الجيش المجاهد ـ كان ذلك هو الحكمة فى صميمها ، ولهذا جاء قوله تعالى : « لو خرجوا فيكم مازادوكم إلاّ خبالاً ولأوْضَعُوا خلالَكم يبغونكم الفتنة وفيكمْ سمّاعون لهم » ـ جاء مؤيداً لما رآه الرسول فى هؤلاء المعتذرين ، حيث

قَبِل منهم ما اعتذروا به ، ولم يراجعهم فيه ، ولم يدخل معهم فى جدلٍ لا جدوى معه .

ولا يَنقض هذا التأييد السماوى لرأى النبىّ فى هؤلاء المعتذرين ، ما جاء من عتابٍ للنبىّ من الله سبحانه وتعالى فى قوله جلّ شأنه : « عَفَا الله عنك لم أذِنتَ لهم حتى يتبين لك الذين صَدَقوا وتعلم الكاذبين » .

فهذا العتاب ، هو — فى الواقع — مدحٌ للنبىّ ، ورضىً كريم عنه ، على حين أنه فضيحة لهؤلاء المعتذرين ، وكشف لنفاقهم . .

وقد رَدّ الله سبحانه وتعالى على هؤلاء المنافقين بما يكبتهم ، ويملأُ قلوبهم حسرةً وكمداً . . فقال جلّ شأنه : « قل هو أذُنُ خيرٍ لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمةٌ للذين آمنوا منكم » .

ففى قوله تعالى : « قُلْ هو أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ » أمور :

منها : أن النبىّ صلوات الله وسلامه عليه ، هو المأمور بتبليغ هذا الرد السماوى ، بقوله تعالى : « قل » . . وفى هذا تكريم للنبىّ ، بوضع هذا السلاح السماوىّ فى يده ، ليضرب به فى وجه هؤلاء الذين آذوْه بهذا المنكر من القول الذى قالوه عنه . .

ومنها : الإشارة إلى النبىّ الكريم بضمير الغيبة « هو » وظاهر النظم يقضى بأن يكون النبىّ هو المتحدّث عن نفسه . . هكذا : قل إننى أذن خير لكم » — وفى هذا إشارة إلى أن الذى يتولى الدفاع عن النبىّ ، هو الله سبحانه وتعالى ، وأنه إذا كان النبىّ فى غير محضرٍ من هؤلاء الذين يقولون فيه هذا القول المنكر ، فإن الله سبحانه وتعالى ، هو وليّه ، وهو الذي يدافع عنه،ويفضح المتآمرين عليه . .

ومنها: ما تضمن هذا الردّ من أن النبيّ هو أُذنُ خير لهؤلاء المنافقين: « قل أُذُن خير لكم » .. فكيف هذا، وهم فى معرِض العقاب والتقريع ؟.

والجواب على هذا - والله أعلم - أنه عليه الصلاة والسلام مبعوث بالهدى والرحمة، وأنّ أذُنَه التى يعيبها أولئك المنافقون بتصديق ما يُلقى إليها من أخبار، هى أذن خير، ووعاء رحمة، تتلقى ما ينزل إليها من كلمات الله وآياته، فتنقله إلى الناس، وتؤدّيه لهم كما سمعته ..

فأُذن الرسول، هى وعاء خيرٍ خالص للناس جميعاً، مؤمنِهم وكافرهم، بَرّهم وفاجرهم، ذلك أن الرسول يؤذّن بكلمات ربّه التى سمعها من الرّوح الأمين - يؤذّن بها فى الناس جميعاً .. فمن سمع وعَقَل ووعى، فقد أخذ لنفسه بحظها من هذا الخير العام وتلك الرحمة الشاملة، ومن أصمّ أذنيه، وأعرض عن آيات ربّه، فقد حَرمَ نفسه الخير كلّه، وأوردها الضلال والهلاك ..

فلو أن هؤلاء المنافقين استمعوا لكلمات الله، ولم يمكروا بها، لكان لهم من ذلك الخيرُ كلُّ الخير .. ولكنهم نافقوا، ومكروا، فمكر الله بهم، وحرمهم أن ينالوا من تلك النعمة شيئاً ..

* وقولهُ سبحانه: « يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ »

بيانٌ لقوله تعالى: « هو أذُن خير لكم » يكشف عن صفات هذا الرسول الكريم، الذى يقول فيه المنافقون هذا القول المنكر .. أى أنه عليه الصلاة والسلام، أذن خيرٍ للناس جميعاً .. يسمع كلمات الله فيصدّقها ويؤمن بها، ويسمع ما يحدّثه به المؤمنون فيصدّقهم، لأن من شأن المؤمنَ ألّا يَكْذِبَ .. ثم هو عليه الصلاة والسلام، رحمة للمؤمنين، الذى صدّقوا الرسول وآمنوا بما جاءهم به من عند الله سبحانه وتعالى ..

وفى هذا تعريض بالمنافقين ، بأنهم آذان سوء . . لا تستمع آذانهم خيراً ، وإن سمعته مجّته ، وتغيّرت معالمه فيها . . فلا تعرف للحق وجهاً ، ولا تنال من الخير المحمول إليها فيه شيئاً . .

* قوله سبحانه : « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

هو تهديد ووعيد لأولئك المنافقين ، الذين يؤذون رسول الله بتلك الكلمات المنكرة ، التى يصفون بها الرسول هذا الوصف الشنيع ، ويتطالون بها على مقامه الكريم ، فى غير حياء من دين أو خلق .

فهؤلاء قد أعدّ الله لهم عذاباً أليماً ، انتقاماً منهم لرسول الله ، وجزاء وِفاقاً لهذا العدوان الآثم على مقامه الكريم . .

* قوله تعالى : « يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ »

هو تسفيه لموقف هؤلاء المنافقين الذى يتخذونه من المؤمنين ، حين يجيئون إليهم معتذرين ، عما شاع عنهم من قولهم المنكر فى رسول الله . . فهم يدفعون عن أنفسهم هذا الاتهام الذى يتهمهم به المؤمنون ، بالحلف كذباً أنّهم ما قالوا شيئاً يمسّ رسولَ الله . . وهم فى هذا كاذبون منافقون .. لأنهم لو كانوا مؤمنين حقًّا لكان أولَ ما يعنيهم من أمرهم ، هو براءة ساحتهم عند الله ، وذلك بإخلاص إيمانهم ، وسلامة قلوبهم ، وإخلاء ضمائرهم من النفاق الذى يَمُوج فيها . . فلو أنهم فعلوا هذا لكانوا مؤمنين حقًّا ، ولرضى الله عنهم ورسوله ، ولَمَا كان بهم من حاجة إلى استرضاء المؤمنين والحلِف لهم ، لأن المرء إذا لم يكن متّهماً عند نفسه ، لا يجد داعيةً إلى دفع اتهام هو منه برىء ، كما لا يجد داعية إلى الحلف ، إن هو أراد دفع هذا الاتهام . .

وفى مخالفة النظم فى قوله تعالى : « والله ورسولُه أحقّ أن يُرْضوه »

لما يقتضيه السياق، وهو أن يعود الضمير على الله والرسول هكذا : « يرضوهما » ـ في هذه المخالفة ما يشعر بأن في رضى الله رضى الرسول ، وأن في رضى الرسول رضَى الله سبحانه وتعالى . . إذ ليس فيما يُرضى اللهَ ما لا يُرْضِي الرسول ، ولا فيما يُرْضِي الرسول ما لا يُرْضِي الله . .

ولو جاء النظم على ما يقتضيه ظاهر السياق ، لجاء هكذا : « والله ورسوله أحقّ أن يُرْضوهما . . » ـ لكان من معنى هذا ، أن لله سبحانه وتعالى ما يرضيه من عباده ، وأن للرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ما يُرضِيه مِنْهم ، وأن هذا الذى يُرضِي الله ، وذلك الذى يرضى الرسول ، قد يتفقان ، وقد يختلفان . .

أما الذى جاء عليه النظم القرآنى ، فإنه لا يدع مجالاً لهذا الاحتمال ، بل يحمل التوافق تامًّا مطلقاً ، بين ما يرضي الله ، ويرضى رسول الله . . وفى هذا ـ فوق أنه تكريم للرسول ، وتنويه بقدره ، وتشريف للرسالة الكريمة التى يحملها ـ هو إعجاز من القرآن ، فى إحكام نظمه ، وصدق أدائه ، ووزن كلماته وحروفه ، بميار لا تستطيع قوة بشرية أن تمسك به ، لدقته ، وعلوّه عن مستوى الحواس والمدركات .

ومن جهة أخرى ، فإنه لو عاد الضمير على الله والرسول معاً ، لكان فيه إخلال بمقام الألوهية ، وتسوية الخالق بمخلوق من مخلوقاته ، والله سبحانه وتعالى منزّه عن أن يشاركه فى جلاله بشر ، ولو كان أكرمَ الخلق عليه ! . فاقتضى هذا المقام أن يجىء الضمير مفرداً ، يعود إلى الله سبحانه ، وكفى الرسولَ الكريم شرفاً أن يجىء تابعاً لله سبحانه فيما يرضيه . . وعلى هذا جاء قوله تعالى : « وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسولُه » ولم يجىء النظم هكذا : « أن اللهَ ورسولَه بريئان من المشركين . . » فهذا وذاك على سواء .

* قوله تعالى : « أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ »

هو تهديد بعد تهديد ، ووعيد بعد وعيد ، لهؤلاء المنافقين الذين يحادّون الله ورسوله ، ويعلنون هذه الحرب السفيهة بألسنتهم على الله ورسوله ، بما يذيعون من كلمات السوء فى رسول الله . .

وليس لمن يحارب الله ورسوله ، إلّا أن يَصْلَى عذابَ الله ، ويأخذ مكانه فى جهنّم خالداً فيها . . وذلك هو الخزى العظيم للمنافقين ، حين يساقون إلى جهنّم ، وَيُدَعُّونَ فيها دعًّا ، على حين تُفتح أبواب الجنات للمؤمنين ، الذين أسلموا وجوههم لله ، وأخلصوا دينهم له ، فلم تحمل قلوبهم نفاقاً ، ولم تجر على ألسنتهم كلمة منافقة .

الآيات : (٦٤ — ٧٠)

« يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ

مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (٧٠)

التفسير :

قوله تعالى : « يحذر المنافقون أن تنزّل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم » .

هو نذير للمنافقين بفضح نفاقهم على الملأ ، وكشف مايبّتوا من نفاقٍ ..

بل إن الأمر لأكثر من هذا ، فقد فضح الله كثيراً من المنافقين ، ونزلت آيات الله تحدّث بمـا كان يُسرُّ به بعضهم إلى بعضٍ ، بل ، وبما كان لايزال مضمَراً من السوء فى صدورهم ، لم يطلع عليه أحد ، بعدُ !

ومن هنا كان بلاء المنافقين ، وكان الخوف الذى يُطلّ عليهم من حيث لايحتسبون .. فالله سبحانه وتعـالى مطلع على مايدور بينهم ، عالم بما يجرى فى خواطرهم .. ومحالٌ أن يفلتوا من الفضيحة . .

وأمرٌ واحد هو الذى يضمن لصاحبه الأمن والسلامة ، من هذا البلاء المبين ، وهو أن يتخلّص من النفاق جُمْلةً ، وأن يخلّص إيمانه من كل شائبة نفاق ، وعندها يجد الإنسانُ أن سِرّه وعلانيته على سواء ، وأنه لايسوؤه بحالٍ أبداً أن ينكشف للناس باطنه ، كما انـكشف لهم ظاهره !

وفى قوله سبحانه : « قل استهزئوا إن الله مخرجٌ ما تحذرون » ـ تهديد

ووعيد لمن أمسكوا قلوبهم على نفاقٍ ، وعقدوا نياتهم عليه .. فالله ـ سبحانه ـ مخرجٌ ما أمسكته قلوبهم ، وما انطوت عليه نياتهم !

وليس من الممكن أن يتصور أحدٌ ماالذى كان يعيش فيه المنافقون يومئذ ، من كربٍ وفزع ، وهم يرون كل يومٍ صَرْعاهم ، وقد رمتهم كلمات الله بسهام نافذة لم تخطىء صميم الداء منهم !

ولقد كان ماصنعه الله بالمنافقين فى عهد الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وفى فضح من فَضَح منهم ـ حمايةً للمجتمع الإسلامى الأول من هذا الداء الخبيث ، ووقايةً للمؤمنين من أن يطوف بهم طائف منه .. حتى لقد كان صحابة رسول الله ـ وهم مَن هم ـ يضعون أنفسهم تحت مراقبة دقيقة منهم ، لكل خاطرة تخطر لهم ، ولكل وَسواس يطوف بهم . .

ومن هنا ندرك السرّ فى هذا الصفاء الروحىّ ، الذى كان عليه صحابة رسول الله ، وتلك العظمة الإنسانية التى اشتملت عليها نفوسهم ، والذى كان من آثاره ماشهدته الحياة ـ وربّما لأول مرة ولآخر مرة أيضاً ـ من مجتمع مثالىّ ، يحكمه وازع الضمير ، ويقوم فيه مقام السلطان القاهر ، الذى يتسلط على كل نفس ، ويأخذ على كل جارحة !

وفى قصتىْ « ماعز » والمرأة الغامدية شاهد مبين ، يحدّث بأن المجتمع الإسلامى فى عهد الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان تحت مراقبة سماوية تتكشف للناس منها سرائرهم ، كما تتكشف لهم صور المرئيات على المرايا العاكسة ، فإن عَمِىَ الإنسان عن أن يرى نفسه فيها ، رآه الناس مِن حوله ، من قريب وبعيد !

وتتلخص قصة ماعز بن مالك ، فى أنه قد غالب شهوته فغلبته ، فأتى

الفاحشة .. فلما استيقظ من سكرة تلك الشهوة الغالبة أنكر نفسه ، ولم يُطق صبراً على الحياة مع تلك النفس الأمارة بالسوء ..

ففزع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، يطلب النجاة عنده .. فقال :

يارسول الله . طهرنى .. فعرف الرسول أنه جاء ليقام عليه حدّ الزّنا ، وهو الرجم ، إذ كان « ماعز » محصناً .

فقال الرسول الرحيم : « ويحك .. ارجع ، فاستغفر الله ، وتبْ إليه ! »

فرجع غيرَ بعيد .. ثم جاء فقال : يارسول الله .. طهرنى ..

فقال صلوات الله وسلامه عليه : « ارجع ، واستغفر الله ، وتب إليه .. »

فرجع ، ثم عاد فقال : يارسول الله طهِّرنى .. !

فقال الرسول الكريم : « ارجع واستغفر الله وتب إليه » .

فرجع ، فقال : يارسول الله طهرنى ..

فقال صلوات الله وسلامه عليه: فيم أطهرك ؟

فقال : من الزّنا ..

فقال صلى الله عليه وسلم . « أبه جنون ؟ » .. فأُخبر أنه ليس بمجنون ..

فقال : « أشربَ خمراً ؟ » فقام رجل فشمه ، فلم يجد ريح خمر !

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أزنيتَ ؟ قال : نعم :

فَأَمر به . . فرُجم !

أما المرأة ، فهى من « غامد » وغامد هذه بطن من بطون الأزد ، والأزد قبيلة عربية معروفة ..

جاءت هذه المرأة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقد فعلت الفاحشة ، ولم

يكن أحد من الناس قد كشف أمرها ، فقالت : يارسول الله : إنى زنيت .. فطهرنى !

فردّها رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

فلما كان الغد جاءت ، فقالت يارسول الله : لم تردّنى ؟ لعلك أن تردّدنى كما رددت ماعزا ؟

« فو الله إنى لحبلى !

فقال النبي الكريم : « أما الآن فاذهبي حتى تلدى » فلما ولدت أتته بالصبي فى خرقة .. ثم قالت : هذا قد ولدته ! فقال : « اذهبى فأرضعيه حتى تفطميه » فلما فطمته ، أتت بالصبي فى يده كسرة خبز ، ثم قالت : « هذا يانبى الله قد فطمته ، وقد أكل الطعام .. فدفع النبىّ بالصبىّ إلى رجل من المسلمين .. ثم أمر بها فرجمت ..

ووراء هذه القصة أكثر من آية معجزة من آيات السموّ الإنسانى ، وعظمة الإنسان ، حين يسكن الايمان قلبه ، ويملأ كيانه ، فلا يخاف غير الله ، ولا يطمئن إلا باللّجأ إليه والاستسلام له ..

ونحسب أننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن ماعزاً والغامدية ، لم يكن منهما هذا الإصرار العنيف على فضح أمرها ، بعد أن ستر الله عليهما ـ إلاّ خوفاً من فضيحة مهلكة ، يتنزل بها القرآن فى شأنهما ، فتكون لعنتهما على لسان كل قارىء للقرآن إلى يوم الدين .. فهما إذ يطلبان الموت ، وإذ يجدان هذه الحرارة فى الإقدام عليه ، واستساغة طعمه ـ إنما ليهربا من تلك السياط الملتهبة التى تتساقط عليهما بنُذُر الفضيحة ، التى يشهدها الوجود كله ، على امتداد الزمن ، إلى يوم النشور !

وطبيعى أن ذلك الشعور الذى تسلط على ماعز والغامدية ، والذى أراها

مدى الهوّة التي سيهويان فيها إذا هما وقعا تحت لعنة الله ، وأنزل الله سبحانه فى شأنهما قرآنا يفضحهما ـ طبيعى أن هذا الشعور إنّما بلغ به هذه الدرجة من اليقظة والحساسية ، هو وثاقة الإيمان بالله ، وحسن الإدراك لكماله سبحانه وتعالى ، وأنه القادر الذى لا يعجزه شىء .. العالم الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .. فإذا جاءت بعد ذلك شواهد عملية تكشف عن تلك القدرة وهذا العلم ، فيما كشف القرآن الكريم من خبايا المنافقين ، وخفايا صدورهم ـ لم يكن ثَمّةَ مهربٌ من الله إلا إليه ، ولم يكن ثمة سبيل للنجاة إلاّ فى طلب التطهير من الإثم ، وإقامة حدّ اللهِ على من اعتدى على حرمات الله !

هذا ، ولمّا لحق الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بالرفيق الأعلى ، وانقطع وحى السماء ـ تنفّس المنافقون الصعداء ، وزايلهم هذا الشعور من الحذر والخوف أن يُمْسُوا أو يُصبحوا على أعين الناس فضيحةً مفضوحة للعالمين ـ فاستعلن نفاقهم ، وتحركت ألسنتهم ، بما كانت تكنّه صدورهم من منكر القول ، وآثم التدبير .

ولكن ـ مع هذا ـ لم يكن للنفاق ولا للمنافقين أثر فى حياة المجتمع الإسلامى ، الذى تركه الرسول ، بعد أن أزاح تلك العلل التى كانت مستولية عليه ، وسلك به مسالك الهدى والتقوى .. فما يكاد يظهر فى المجتمع انحراف ، أو يُطلّ عليه وجه منحرف ، حتى تتنكره الحياة كلها من حوله ، وحتى ليأخذ المجتمع عليه كل سبيل للإقامة على هذا الانحراف ، أو الإفلات من العقاب الراصد له ..

ولقد تركت هذه التجربة أثرَها فى نفوس المؤمنين ، الذين عاشوا فى عهد النبىّ ، ثم امتدّت بهم الحياة بعد النبىّ .. إذ أحسوا بهذا الفراغ الذى خلّفه فراق النبىّ الكريم لهم ، كما استشعروا تلك الوحشة ، من انقطاع الوحى

السماوى ، الذى كان يؤنس حياتهم ، وينير لهم طريقهم فيها ، ويرصد الانحرافات التى تَحدُث فيهم ..

لقد كان المسلمون فى عهد الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تحت مراقبة دائمة ، يؤمدون معها مِن أن يدخل عليهم خلل ، دون أن يشعروا به ، ويعرفوا مكانه فيهم ، فيما ينزل من آيات القرآن الكريم ، مما يتلبس به الأفراد . .

وأمّا وقد ماتِ الرسول ، وانقطع الوحى ، فإنه لم يَعدْ للمؤمن ما يعرف به حقيقة إيمانه ، إلا بأن يعرض نفسه على كتاب الله ، وسنة رسوله ، وإنه على قدْر قربه أو بعده منهما ، يكون حظه من الإيمان ، ومكانه من المؤمنين ..

وبهذا صار إلى المؤمن أمرُ دينه ، كما صارت إليه حراسته من كل آفة تعرض له ، دون أن ينتبه إلى ذلك ، أو يُلفت إليه . .

روى أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، كان يمضى إلى بيت حذيفة بن اليمان ، ويقول له : يا حذيفة .. أنت صاحب سِرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم.. فانظر ما فىّ من النفاق ، فعرفنى به !! فيقول حذيفة : والله يا أمير المؤمنين ما أعلم فيك نفاقاً . . فيقول : انظر وحقق النظر ! فيبكى حذيفة ، ويبكى عمر رضى الله عنهما ، فلا يزالان يبكيان حتى يُغشى عليهما ..

ومن هنا ندرك السرّ فيما كان من التفات الدعوة الإسلامية إلى هذا المرض الخبيث ـ مرض النفاق ـ ورصد تحركاته فى المجتمع الإسلامى ، وفضح أهله . وكشف وجوههم للملأ ، حتى يأخذ المؤمنون حذرهم منهم ، وحتى لاتصيبهم عدواه ، الأمر الذى إن فشا فى الناس ، أفسد عليهم حياتهم ، وأرام

الأمور فى أوضاع مقلوبة ، لا يلتقون معها إلا إذا قلبوا هم أوضاعهم ، ومشوْا على رءوسهم ، بدلا من أرجلهم !

* قوله تعالى : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ »

هو كشف عن وجه آخر ، من وجوه النفاق التى يظهر بها المنافقون فى الناس .. وهو أنهم إذا ضبطهم القرآن متلبسين بجريمة من جرائمهم المنكرة ، أو لامهم لائم على ما انكشف من مستور تدبيرهم السيء ، وما جرى على ألسنتهم من هزؤ وسخرية برسول الله وبالمؤمنين بالله ، قالوا معتذرين :

« إنما كنا نخوض ونلعب » أى لم نكن جادّين فيما كنا فيه ، وإنما هو لعب وعبث ، ومفاكهة !

وهكذا المنافق .. لايجد ما يستر به نفاقه إلا الكذب .. فهو كذب يستر كذباً ، ونفاق يدارى نفاقاً ..

وقد أمر الله سبحانه نبيه الكريم أن يردّ عليهم زعمهم هذا ، وأن يسفّه باطلهم الذى هم فيه ، وأن يفضح عذرهم المفضوح الذى اعتذروا به .. « قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ » .. أفهذا مقام يخوض فيه الخائضون ويلعب اللاعبون ؟ إنه لعذر أقبح من ذنب !

قيل إن جماعة من المنافقين الذين كانوا فى غزوة تبوك مع المسلمين ، وقد كانوا يذيعون فى الناس أحاديثَ يسخرون فيها من النبيّ وأصحابه ، ويقولون فيما يقولون : إن محمداً وأصحابه لن يثبتوا للروم ، وما هم إلا غنيمة باردة ليد الروم إذا التقوا بهم.. وقد كشفهم الله سبحانه وتعالى للنبىّ، وأراه وجوههم ،

وأطلعه منهم على ما كانوا يقولون .. فلما أنبأهم النبيّ بهذا الذى كان منهم — قالوا إنما كنا نخوض ونلعب » !

وقيل إنه ضلّت للنبيّ صلى الله عليه وسلم ناقة فى هذه الغزوة ، فجعل أصحابه يبحثون عنها .. فقال المنافقون : لو كان محمداً متصلا بربّه — كما يقول — لأخبره بالمكان الذى فيه ناقته ! فكيف يدّعى — مع هذا — أنه يوحَى إليه من ربه !؟ » وقد أطلع الله سبحانه النبىّ على ما دار بين هؤلاء المنافقين ، فلما أنبأهم النبىّ بهذا الإثم الذى تعاطوه ، قالوا : « إنما كنا نخوض ونلعب !! وقد أخزاهم الله سبحانه وتعالى بقوله : « أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون » .. ثم أخزاهم خزياً بعد خزى ، إذ أطلع النبىّ على المكان الذى شردت إليه الناقة ، فأشار إلى أصحابه إليه ، فوجدوها حيث أشار !

* قوله تعالى : « لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ »

فى هذه الآية يأخذ الله المنافقين بنفاقهم .. فلا يقبل لهم عذرهم الذى اعتذروا به ، لأنه كذب إلى كذب ، ونفاق إلى نفاق .. ثم يحكم — سبحانه وتعالى — عليهم بالكفر ، بسبب هذا النفاق الذى لبسوه ، بعد أن نزعوا ثوب الإيمان الذى كانوا يخفون به ما انطوت عليه قلوبهم من نفاق .. وبهذا — وبعد أن افتضح أمرهم — صاروا كافرين ظاهراً وباطناً . بعد أن كانوا كافرين باطناً ، مؤمنين ظاهراً .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « لا تعتذروا .. قد كفرتم بعد إيمانكم » ..

وفى قوله سبحانه : « إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ » . .

فى هذا إشارة إلى أن باب التوبة والقبول لا يُقفل أبداً فى وجه أى إنسان، يتجه إلى الله، وينزع عما كان فيه من غىّ وضلال .. وأن هؤلاء المنافقين الذين كفروا بعد إيمانهم ليسوا على حالٍ واحدة، ففيهم من سيثوب إلى رشده، وينزع عن غيه، ويرجع إلى الله تائباً نادماً، وفيهم من يلجّ به الضلال، ويستبد به العمى، فيمضى إلى مساقه الذى يسوقه شيطانُه إليه ..

فالذين يتوبون إلى الله، ويرجعون إليه من قريب من هؤلاء المنافقين، سليقوْن من الله سبحانه، عفواً، ومغفرة . . والذين يُصرّون على هذا النفاق الذى هم فيه، سيلقون من الله ما أعد للكافرين والمنافقين من عذاب ونكال .. « بأنهم كانوا مجرمين » .. أى بسبب ما كانوا عليه من ضلال، ومحادّة لله ورسوله، الأمر الذى اقترفوا به ما اقترفوا من جرائم وآثام .

* قوله تعالى : « الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ »

هكذا هم المنافقون، وذلك هو مجتمعهم، لاينضح بغير الإثم والمنكر، ولا يلد إلا البغى والفجور .. « بعضهم من بعض » أى على طبيعة سواء ؛ يجمعهم النفاق، ويؤلف بينهم، من رجال ونساء، حتى لكأنهم أفراد أسرة واحدة، تجمعها لحمة النسب والقرابة، وتؤلف بينها مشاعر الحب والولاء .. وذلك أن المنافق لايجد المرعى الخصيب الذى يغذّى فيه نفاقه، ويحقق به وجوده، ويرضى فيه مشاعره — إلا فى بيئة منافقة، تتجاوب معه، وتروّج لهذه البضاعة التى يتعامل بها ..

ذلك أن بضاعة المنافقين، بضاعة خبيثة، وطعام فاسد عَفن، لاتقبله إلا

النفوس المريضة ، ولا تستطعمه إلا الطبائع الخبيثة .. إنه عملة زائفة ، لاتروج إلا فى الظلام ، ولا يتعامل المتعاملون بها إلا فى أوكار اللصوص ، وفى حانات الخمر ، حيث تدور الرءوس ، وتذهب العقول !

* « يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ »

هذه هى بضاعة القوم ، وتلك هى رسالتهم فى الحياة ، وشأنهم فى الناس ..

« يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ » !

فلا يكفيهم أنهم يَطْعَمُون من هذا الطعام الخبيث ، ولا يرضيهم أن يعرضوه على الناس ـ بل يأمرونهم به ، ويحرضونهم عليه ، ويزينون لهم تعاطيه ..

إنهم لا يَهْنَؤُهم هذا الطعام الخبيث العفن ، حتى يستكثروا له من الأيدى التى تشاركهم فيه ، ومن الأفواه التى تمضغه معهم . .

« وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ » !

فمن دعا إلى منكر وأمر به، وحرض عليه،فهو ناهٍ ـ ضمناً ـ عن معروف ، صادٌّ عن خير .. ولكن القوم ، لا يقفون عند هذا ، بل إنهم حين يَدْعون إلى المنكر ، يقومون بدعوة أخرى ، هى تبغيض الحلال إلى الناس ، وتزهيدهم فى الخير ، وذلك إذا تأبّوا عليهم ، ولم يستجيبوا لدعوتهم إلى المنكر .. وحسبهم فى هذا أن يصرفوا وجوه المؤمنين عن الإيمان ، ويكفّوا أيديهم عن التعامل بالخير ، فذلك إن تمّ لهم كان كسباً للمعركة التى يخوضونها مع المؤمنين ، وهو عزل أكبر عدد يمكن عزله منهم عن المعركة ، بحيث لايكونون مع المؤمنين ولا على المنافقين !

« وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ »

أى أن هؤلاء المنافقين الذين يسعون فى الناس هذا السعى الخبيث فى مجال الإفساد ، والإهلاك للناس ـ هم فى الوقت نفسه أشحة على الناس بأى خير يمكن أن تحمله أيديهم إلى الناس ، إن كان فى يدهم أى خير . .

إنهم أسخياء كرام ، يبذلون ـ فى تبذير شديد ـ كلّ منكر ، ويجودون بلا حساب ، بكل مفسدة وكل ضلال .. أما فى مجال الخير والإحسان ، فهم بخلاء أشحّاء ، لاتندَ أيديهم بذرة خير ، ولا تسخو أنفسهم بعارفة من إحسان !

* « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ »

إنهم لايذكرون الله أبداً ، إذ لو ذكروه ، لما كان لهم فى عباد الله هذا البلاء الذى يرمونهم به ، فى غير حرج أو تأثم . .

إنّهم نَسُوا الله ، فنسيَهم الله ، وتركهم وما هم فيه من ضلال . . فلو أنهم ذكروا الله لوجدوا فى قلوبهم خشيةً له ، ولكان لهم فى خشيتهم لله مايمسك بهم عن هذا الضلال الذى يُهلكون به أنفسهم ، ويهلكون به كثيراً من الناس معهم . .

ونسيان الله لهم ، هو تركهم لأنفسهم ، وحرمانهم من توفيق الله .

« إن المنافقين هم الفاسقون » . . أي هم الذين فسقوا عن أمر ربّهم ، وخرجوا عن الطريق المستقيم ، وركبوا طرق الضلال والهلاك .

* قوله تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ »

هذا هو الجزاء الذى أعدّه الله لأهل النفاق والكفر . . نار جهنم خالدين فيها ، لا يتحولون عنها أبداً . . هى حَسْبهم ، أى هى كلّ ما لهم عند الله . .

لا شيء لهم غيرها .. ثم من وراء جهنّم وعذابها، لعنةُ الله القائمة عليهم، وعذاب مقيمٌ لا يُفتّر عنهم وهم فيه مبلسون ..

* قوله تعالى: «كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوٓا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوٓا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ»

هو عرض لصورة أخرى من صور الضالّين والمفسدين، تطلع على هؤلاء المنافقين من ثنايا الزمن الغابر، وترتفع لأبصارهم، ممن كان قبلهم من الأمم السالفة .. إنّهم لن يخلدُوا فى هذه الدنيا، كما لم يخلد من كان قبلهم من الماضين، ممن كانوا أكثر منهم أموالاً وأولاداً، وأشدّ قوةً، وأمكن سلطاناً ..

فليست هذه الدنيا دارَ بقاء وخلود، وليسَ ما فيها من متاع، إلا ظل زائل، وعرَض ذاهب .. ثم يجيء من بعد هذا الحساب، والقضاء والجزاء ..

لقد استمتع هؤلاء الذين ذهبوا، بما كان بين أيديهم من مال وبنين، وبما كان لهم من جاهٍ وسلطان .. ثم ذهبوا وذهب كل ما كان لهم، وما كان معهم .. استمتع كلٌّ «بخلاقه» أى بنصيبه المقسوم له، وبحظه المُتاح له، إنْ كثيراً، وإنْ قليلاً .. ثم انتهى كلٌّ إلى نهايته، وصار كلٌّ إلى ما قدّم من خيرٍ أو شر .. وقد كانوا أكثر من هؤلاء المنافقين مالاً، وأقوى قوةً، وأعزّ نفراً ..

وهؤلاء المنافقون .. الذين يكيدون للنبىّ، ويحادّون الله ورسوله ..

إنّهم ليسوا بِدْعاً فى النّاس، ولن يخرجوا على سنة الله التى خلت فى عباده .. فلن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً .. وإنهم ليأخذون حظّهم المقدور لهم مما فى أيديهم من مال وولد، ثم يَلْحقون بمن سبقهم إلى

عالم الموت ، وينتظمون فى ركب الضالّين والمكذّبين ، ليقفوا بين يدى الله ، ولينالوا الجزاء الذى هم أهله ، من عذابٍ أليم ..

فلقد حبطت أعمالهم كلّها ، فلم يسلم لهم منها شىء ، حتى تلك الأعمال التى كان يمكن أن تُحسب لهم فى جانب الإحسان .. لأنّهم إذ فعلوها لم يريدوا بها وجه الله ، ولم يطلبوا بها ماعند الله .. لأنهم لايؤمنون بالله ، ولا يتعاملون مع الله . . .

« حبطتِ أعمالهم فى الدنيا » فلم يُحمَدوا بِها .. وحبطت فى « الآخرة » فلم تدفَع عنهم عذابَ الله الذى أعده لهم ، وأنزله بهم .. « وأولئك هم الخاسرون » .. إذ لاخسران بعد هذا الخسران ، ولاضياع بعد هذا الضياع .

قوله تعالى : « أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »

وإذا تصفحّ هؤلاء المنافقون تاريخ القرون الماضية ، فلم ينكشف لهم منها ـ لماهم فيه من غفلة وعمًى ـ ما أخذ الله به الظالمين من نكال وبلاء ـ فهاهى ذى المَثُلاتُ ، يضعها الله بين أيديهم ، ويكشف لهم ماخفى منها . .

قوم نوح . . وعاد . . وثمود . . وقوم إبراهيم . . وأصحاب مدين . . والمؤتفكات ..

هؤلاء جميعاً ، قد جاءتهم رسل الله ، تحمل إليهم الهدى والخير .. فكفروا بآيات الله ، وكذّبوا رسل الله ..

فماذا كانت عاقبة أمرهم ؟

لقد أخذهم الله بذنوبهم ، وأوقع بهم نقمته ، وصبّ عليهم عذابَه ، ألواناً

متعددة من البلاء ، وصوراً متباينة ، من المهلـكات ..

قوم نوح .. أغرقهم الله بالطوفان ..

وعاد ، قوم هود . . أهلـكهم اللهُ « بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * !

وثمودَ .. قومُ صالح .. أخذتهم الصيحة .. فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ..

وقوم إبراهيم .. ألقوْه فى النار ، فجعلها الله برداً وسلاماً عليه ، وجعل فى ذريته الـكتابَ والحـكم والنبوّة ..

وأصحاب مدين .. قوم شعيب .. أخذهم الله بالصيحة ، كما أخذ قوم صالح .. فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . . « ألاَ بُعداً لمدينَ كما بَعِدَتْ ثمودُ »(٩٤ : هود)

والمؤتفـكات . . أى المنقلبات على أهلها ، وهى الدُّور التى كان يسكنها قوم لوط .

إذ أمطرهم الله بحجارة من سجيل منضود ، فطحنتهم طحناً ،وقلبت عليهم قريتهم ، فأصبح عاليها سافلها . . ومنه الإفك ، وهو الحديث المفترى ، الذى تُقْلَبُ فيه وجوه الأمور ، وتغير معالمها . .

هؤلاء جميعاً . . كذبوا رسل الله ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وجزاهم جزاء الظالمين . . « وما ظلمهم الله » بهذا العذاب الذى أنزله بهم ، « ولـكن كانوا أنفسَهم يظلمون » . . فلقد ظلموا أنفسهم ، بأن صرفوها عن الخير الذى جاءهم على يد رسل الله . . فماذا بعد الحقّ إلا الضلال ؟ وماذا بعد الضلال إلا البلاء والعـذاب ؟ .

الآيتان : (٧١ — ٧٢)

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » (٧٢)

التفسير : مما يضاعف حسرة المنافقين ، ويزيد فى بلائهم ، أن يطلع عليهم المؤمنون فى هذا الموكب العظيم ، الذى يحفّه الجلال والإكرام ، ويتغشاه النعيم والرضوان ، بعد أن انكشف للمنافقين سوء أمرهم ، وعاقبة سعيهم، وما أخذهم الله به من نكال وبلاء . .

وفى هذا الموكب الذى ينتظم المؤمنين ، يَرى الرائى لهم أن بعضهم أولياء بعض ، تجمعهم الأخوّة ، وتؤلف بينهم المودّة ، يلتقون على الإيمان بالله ، والولاء له ، والاستجابة لرسوله ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر . . « ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله . . » . . فتلك هى سبيل المؤمنين ، وذلك هو حبل الله الذى يعتصمون به ، ويشدّون أيديهم عليه . . « أولئك سيرحمهم الله » لأنهم لجئوا إليه والتمسوا مرضاته ، وأخلصوا القول والعمل له . . « إن الله عزيز » لا يُضام من لجأ إليه ، واعتصم به . . « حكيم » فى قضائه بين عباده ، وحكمه فيهم ، فيجزى المحسنين بإحسانهم ،

ويتجاوز عن سيئاتهم ، ويأخذ المسيئين بما عملوا إن شاء ، أو يتوب عليهم . . كل ذلك عن قدرة متمكنة ، وعزة غالبة ، وحكمة بالغة .. سبحانه ، عز فحكم ، لا معقب لحكمه ، ولا منازع لسلطانه . .

هذا ، وليس دخول حرف الاستقبال فى قوله تعالى : « سيرحمهم » . . بالذى يجعل وعد الله غير محقق فى الحال كما هو محقق فى الاستقبال ، بل هو وعد منجز فى جميع الأحوال ، والأزمان . . فالمؤمن محفوف برحمة الله دائما ، ولولا هذه الرحمة لما كان من المؤمنين ، الذين دعاهم الله إلى الإيمان ، وهداهم إليه ، وأمسك بهم على طريقه .

وفى قوله تعالى : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » ما يشير إلى ما فى المؤمنين من معانى الإنسانية ، التى تعطى المؤمن وجودًا مشخصًا ، وذاتية مستقلة . . ثم هو ـ مع هـذا الوجود الذاتى المستقل ـ يحكمه عقل رشيد ، ويوجهه قلب سليم ، فيلتقى مع أصحاب العقول الرشيدة ، ويتجاوب مع أولى القلوب السليمة ، على جبهة الحق ، وتحت راية الخير ، فإذا هو قوة عاملة فى هذا الميدان ، يعمل للحق مع العاملين ، وينتصر للخير مع أهل الخير . . يبادلهم ولاء بولاء ، وحبًّا بحب ، وإخاء بإخاء !

وليس كذلك المنافقون والمنافقات . . « بعضهم من بعض » . . إنهم كتلة متضخمة من الخبث . أشبه بالديدان التى تتخلق من الرمم ، ليس بينها تجاوب فى المشاعر ، أو تلاق فى التفكير ، وإنما هى كائنات تسبح فوق هذه الرمم ، وتغتذى منها !

* قوله تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »

هو بيان لما أعدّ الله للمؤمنين والمؤمنات من جزاءٍ حسنٍ ، ومقام كريم فى الآخرة . . إنّ لهم عند الله جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ومساكنَ طيبةً فى جنّاتِ عدن . . أى جنّات إقامة واستقرار . . يقال عدَنَ بالمكان ، أى أقام واستقر . . فهى جنات لا يتحول عنها ساكنوها إلى مكان آخر ، حيث تطيب لساكنيها الإقامة ، لما يجدون فيها من نعيم لا ينفد ، ولا يملّ مهما طالت صحبته ، وامتدّ الزمن فى الحياة معه .

وقوله سبحانه : « ورضوان من الله أكبر » . . هو نعيم فوق هذا النعيم الذى يناله أصحاب الجنة . . بما يُفيض الله سبحانه وتعالى عليهم من رضوانه ، وما يُضْفيه عليهم من رضاه . . فكل نعيم — وإن عظم — هو قليل إلى رضوان الله ، الذى يناله من رضى الله عنهم ، ثم إن كل نعيم هو تبع لهذا الرضا ، ونسمة من أنسامه الطيبة المباركة .. ولهذا جاء قوله تعالى : « ورضوانٌ من الله أكبر» مستأنفاً ، غير معطوف على ما قبله ، حتى لكأنه إضرابٌ عما سبقه ، بمعنى « بل » . . وعلى هذا يكون التقدير : « بل . . ورضوان من الله أكبر » . .

وقوله تعالى : « ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »

الإشارة هنا إلى رضوان الله ، الذى هو الفوز كل الفوز ، والنعيم كل النعيم .

الآيتان : (٧٣ — ٧٤)

« يٰأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ

أَغْنَاهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » (٧٤)

التفسير: لم تنته الآيات القرآنية بعدُ، من عَرْض الوجوه التي يظهر بها المنافقون في الناس، فما زالت هناك وجوه كثيرة لهم، سيكشف عنها القرآن في آيات تالية ـ ومع هذا، فقد جاء قوله تعالى: « يٰأيها النبيّ جاهد الكفار والمنافقين واغلُظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير » ـ جاء معترضاً سلسلةَ هذا العرض الكاشف عن مخازى المنافقين، ليذكّر النبيّ بما ينبغى أن يأخذ به المنافقين، الذين هم أشد أعداء الإسلام خطراً على الإسلام.

والكفار والمنافقون، هم على سواء فى كفرهم بالله، ومحاربتهم لدين الله، وكيدهم لرسول الله.. وإن على النبيّ أن يجاهد هؤلاء وأولئك جميعاً، وأن يلقاهم بكل قوة وبأس.. فالمنافقون، كافرون، وأكثر من كافرين.. لأنهم يسترون كفرهم بالنفاق، ويدارونه بإظهار الإسلام.. فهم بهذا عدوٌّ خفىّ، يأمن المسلمون جانبه، ولا يأخذون حِذرهم منه، فيطّلعَ منهم على مالا يطّلع عليه العدوّ الظاهر، من مواطن الضعف منهم، وانتهاز الفرصة فيهم..

فإذا جاهد النبيّ الكفار، فليجاهد المنافقين كذلك، وليشتدّ فى جهادهم، وليغلظ عليهم، فلا يُرْخى يده عنهم إذا أمكنته الفرصة فيهم..

وقوله: « ومأواهم جهنم وبئس المصير » هو بيان للحكم الواقع تحته الكافرون والمنافقون، وهو أن جهنم مأواهم الذى يؤوون إليه، والمصير الذى يصيرون له.. وأنهم إذا أفلتوا فى هذه الدنيا من القتل أو الأسر، فلن يفلتوا فى الآخرة من عذاب جهنم، وبئس المصير..

وقد جاء فى سورة التحريم نص هذه الآية هكذا : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » (٩ : سورة التحريم)

وفى هذا تأكيد للأمر بجهاد النبىّ للكفار والمنافقين ، وأخذهم بالبأساء والضرّاء ، حتى يزول الخطر الذى يتهدد الإسلام والمسلمين منهم . .

* قوله تعالى : « يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا »

هذا عرضٌ لحال من أحوال المنافقين ، وكشفٌ لوجه من وجوههم المنكرة . . وهو أن من دأبهم أن يحلفوا كذباً وزوراً أنهم ماقالوا هذا القول المنكر ، الذى كان سراً بينهم ، ففضحهم الله به ، وأطلع النبىّ والمسلمين عليه . .

وقد كذّبهم الله ، وردّ أيمانهم الكاذبة بقوله سبحانه : « ولقد قالوا كلمة الكفر » .

والمراد بكلمة الكفر ، هو الكلام الذى تحدثوا به فيما بينهم ، وتناولوا فيه النبىّ بالهزء والسخرية ، وقالوا حين سئلوا : « إنما كنا نخوض ونلعب » . . وذلك منهم هو الكفر الصّراح . . فلو كان فى قلوبهم شىء من الإيمان ، لما حدّثتهم أنفسهم بهذا السوء ، ولما طاوعتهم ألسنتهم على النطق بهذا المنكر من القول . .

وفى التعبير عن كلمات السوء بكلمة الكفر ، إشارة إلى أن حصيلة هذا الكلام الكثير الذى دار على ألسنتهم ، هو كلمة واحدة ، هى الكفر ، الذى دُمغوا به ظاهراً ، بعد أن كان يعيش فى كيانهم متخفياً ، مستبطناً . .

فكلامهم كله ، هو الكفر ، إذ لا ثمرة له إلا الكفر . .

وقوله تعالى : « وكفروا بعد إسلامهم » . . هو تأكيد لكفرهم الذى استعلن بكلماتهم المنافقة التى فضحهم الله بها . . وفيه إشارة إلى أنهم لم يكونوا مؤمنين أبداً ، وأن الإيمان لم يدخل قلوبهم ، وإنما جرَت كلمة الإسلام على ألسنتهم ، فحُسبوا بهذا من المسلمين لا المؤمنين . .

فكل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلمٍ مؤمناً . . وإلى هذا يشير قوله تعالى: « قالت الأعرابُ آمنَّا قلْ لم تُؤمنوا ، ولكن قولوا أسْلمْنا . . ولمَّا يَدْخُلِ الإيمانُ فى قلوبكم » (١٤ : الحجرات).

وقوله تعالى : « وَهمّوا بِما لم ينالوا » هو فَضْحٌ لخفيّة من خفايا المنافقين ، وكشف لمكيدة من مكايدهم ، وأنّهم قد بيتوا عدوانا ، ودبروا كيداً ، ولكنّ الله ـ سبحانه ـ أبطل كيدهم ، وأفسد تدبيرهم . . فقد أرادوا بالنبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ شراً ، وائتمروا فيما بينهم على أن يرصدوا له ، وهم معه على طريق العودة من تبوك ، فأطلع الله سبحانه النبىّ عليهم ، وأراه ما دبروا له . . فدعاهم النبىّ إليه ، وكشف لهم عن تدبيرهم السىء . . فلم يجدوا غير الحلف كذباً وبهتاناً ، بأنّهم ما قالوا شيئاً ، ولا بيّتوا شرًّا . .

وقوله سبحانه : « وَمَا نَقَمُوا إلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ » . . هو تسفيه لهم ، واستنكارٌ لهذا المنكر الذى هم فيه . . وأنهم لم يتخذوا هذا الموقف المنحرف الآثم من الله ورسوله ، إلاّ لِمَا أفاء الله ورسوله به عليهم من فضله . . وهكذا أصحاب الطباع السيئة ، والنفوس المريضة ، تنقلب حقائق الأشياء عندهم ، فإذا النور ظلام ، والحق باطل ، والنعمة نقمة . .

والله سبحانه وتعالى يقول فى مثل هؤلاء الحمقى والسفهاء من الناس :

« ألم تَرَ إلى الذين بدّلوا نعمةَ الله كفراً وأحلّوا قومَهم دارَ البوار » .

وانظر كيف جاء النظم القرآنى بقوله تعالى « وما نقموا » ليكشف بذلك عما بلغه القوم من سفه وضلال ، حتى إنهم ليجدون فى النعم التى يَفْضل الله سبحانه وتعالى عليهم بها ، ما يحرك فى نفوسهم داعية الانتقام ممن أنعم عليهم ، حتى لكأن هذه النعم شرٌّ قد سيق إليهم ، وبلاء وقع بهم . . وهذا هو فى الواقع ما لِنِعَم الله عندهم . . إنها لاتلبث حتى تتحول فى أيديهم إلى أسلحة مهلكة . .

* قوله تعالى : « فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » . . هو تنبيه لهؤلاء الضالّين ، وإشارة مضيئة تطالع فى ليلهم المطبق عليهم ، رجاء أن يتوبوا إلى الله ، ويستقيموا على طريق الحقّ ، فإن فعلوا رَشدُوا وأمِنُوا ، وإن أبوْا ، ضلوا وهلكوا ، وأخذهم الله بالعذاب الأليم فى الدنيا ، بما يصيبهم على يد المؤمنين من خزى وبلاء ، وبعذاب السعير فى الآخرة ، حيث لا ولىّ لهم ، ولا نصير ، يردّ عنهم بأسَ الله الواقع بهم .

الآيات : (٧٥ — ٨٠)

* « وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ

وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » (٨٠)

التفسير : هذا صنف آخر من أصناف المنافقين ، ووجه كريه من وجوه النفاق . . يكشف عنه ـ ا

* قوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ » .

إن هذا الصنف من المنافقين ، يلقى الله فى حال العسر والضيق ، مستكيناً مستسلماً ، ويبسط إليه يده، ضارعاً طامعاً ، يتمنى على الله أن يبسط له فى الرزق، وأن يملأ يديه من المال ، وأنه إذا استجاب الله له فيما طلب ، بسط يده بالعطاء والإنفاق فى وجوه الخير ، وشغل قلبه ولسانه بالحمد والشكران لله رب العالمين . .

هذا موقف من مواقف المنافقين مع الله ، . حين يمسهم الضر ، وينزل بهم العوز ، ويصيبهم الفقر . .

فماذا يكون منهم إذا كشف الله مابهم من ضر ، وصرف عنهم العوز والفقر ، ووسع لهم فى الرزق ، وأفاء عليهم من فضله ؟ .

هنا يغلب عليهم طبعهم اللئيم ، فإذا هم على طريق النفاق ، ينقضون العهد الذى عقدوه مع الله ، ويتحللون من الوفاء به ! « فلمّا آتاهم من فضله بخلوا به » أى ضنّوا بهذا الفضل الذى هو من عند الله ، على الإنفاق منه فى سبيل الله . « وتَوَلَّوْا وهم معرضون » أى نـكصوا على أعقابهم ، وأعرضوا عن الحق الذى لزمهم . .

* « فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم » أى تبعهم النفاق ، وركب منهم الطريق الذى ركبوه ، مُبْعَدين عن الله ، مطرودين من رحمته « إلى يوم يلقونه » أى سيصحبهم هذا النفاق إلى يوم القيامة ، حيث يطلع عليهم هذا النفاق بوجهه الـكريه ، ليقف معهم بين يدى الله ، وليـكون شاهدَ إدانتهم ، ورفيقَ طريقهم إلى عذاب السعير « بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » أى هذا النفاق الذى لبسهم ، واشتمل عليهم ، وأصبح بعضاً منهم ، هو الثمرة الخبيثة التى أثمرها إخلافهم وعدَهم لله ، وقولهم بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، وهم يحسبون أن الله ـ سبحانه ـ محدود القدرة، محدود العلم ، وأنه إذا لم يشهد شهودَ عَيانٍ هذا العهد الذى عاهدوه عليه ، لم تقم عليهم حجة ، وكان لهم أن ينـكروا به ، وينـكروا العهد الذى أعطوه من أنفسهم له ؟ .

وهذا عدوان على الله ، أوقعهم فيه سوء فهمهم وتقديرهم لجلال الله ، وعظمته ، وقدرته وعلمه . . ولهذا أنـكر الله عليهم سوء ظنهم به ، وخطأ تصورهم لـكمال صفاته ، فقال سبحانه : « ألم يَعْلموا أن الله يعلم سرَّهم ونجواهم وأن الله علاّم الغيوب » . . ولو أنهم علموا هذا واستيقنوه ، لما كان منهم هذا الظنّ السيء ، الذي زيّن لهم التحلّل ممّا عاهدوا الله عليه ، فيما حكاه القرآن عنهم من قولهم : « لئن آتانا من فضله لنصدّقنّ ولنـكوننّ من الصّالحين » . .

والسرّ : ما أسرّه الإنسان فى نفسه ولم يطلع عليه غيره ، والنجوى : ما ناجى به غيرَه من حديث ، وأفضى به إليه فى سر . وأصل النجوى ، والنجوة : المكان المرتفع الظاهر للعيان .

ويذكر المفسّرون فى سبب نزول هذه الآيات ، أن أحد أصحاب رسول الله ، واسمه ثعلبة بن حاطب ، كان من فقراء المسلمين ، وممن يلزمون الجماعة والجمعة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد حدثته نفسه أنه لو كان من الموسرين لأرضى الله ورسوله بما ينفق فى سبيل الله ، ولما فاته هذا الفضل الذى سبقه إليه أولئك الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . . فقال يارسول الله : ادع الله أن يرزقنى مالاً ! . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « ياثعلبة . . قليلٌ تؤدّى شكرَه . خير من كثير لاتطيقه . أمالَكَ فى رسول الله أسوة ؟ » ثم عاد إلى النبى يسأله أن يدعو الله له أن يرزقه مالا ، وأن لو استجاب الله له ورزقه المال الذى يطلب ، لأعطى كل ذى حق حقه من هذا المال . . فقال الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — : « اللهم ارزق ثعلبة مالاً . . »

قالوا : وقد رُزق ثعلبةُ مالاً كثيراً . . وكان مالُه من الغنم ، فتكاثر ونما حتى ضاقت به المدينة ، فخرج إلى البادية ، وشغله ذلك عن حضور الجماعة والجمعة فى مسجد رسول الله ، وتفقّده رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجده فى أصحاب الجماعة والجمعة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ياويحَ ثعلبة ! » ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمّال الصدقة ليأخذوها من أهلها ، فلما جاء عامل الصدقة إلى ثعلبة ، وعرف القدر المطلوب منه للصدقة استكثره ، وأنكره وقال : ماهذه الصدقة ، بل هى الجزية اوردّ العاملَ ، قائلا له : أنظِرْنى لأرى ! ! وحين بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان من ثعلبة ، قال :

« يا ويح ثعلبه . . يا ويح ثعلبة » . . ثم نزلت هذه الآيات .

قيل ، وجاء ثعلبة بعد ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصدقة ، فقال له رسول الله : « إن الله منعنى أن أقبل منك » فجعل يحثوا التراب على رأسه ، فقال رسول الله : « هذا عملك ! قد أمرتك فلم تطعنى » . . ثم لما توفى رسول الله ، جاء بالصدقة إلى بكر ، فلم يقبلها منه ، ثم جاء بها إلى عمر فى خلافته فردّها . . ثم هلك فى خلافة عثمان !.

وليس ثعلبة وحده ـ إن صح ما رُوى فيه ـ هو الواقع تحت حكم هذه الآيات ، بل هو حكم واقع على كل من نكث مع الله عهداً . . وما أكثر الناكثين عهودَ الله . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وَإِذَآ أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِى آيَاتِنَا قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ * هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّآ أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ » (٢١ ـ ٢٣ : يونس)

قوله تعالى : « الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِى الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

اللّمز : القرص ، والغمز ، بالكلمة الجارحة ، يُرْمى بها فى مواربة . . تلويحاً لا تصريحاً .

والمطوّعين : جمع متطوع ، وهو الذى يأتى بعمل الخير من تلقاء نفسه ، تطوعاً ، غيرَ مطالب به . . وهو يُثاب عليه إذا فعله ، ولا يعاقب إذا تركه . . وأصل المطّوع ـ لغة ـ المتطوع . . قلبت التاء طاء وأدغمت فى الطاء .

والجَهد : هو غاية ما فى وسع الإنسان ، وطاقته ، واحتماله . .

والآية هنا ، تكشف عن وجه آخر من وجوه المنافقين ، وعن سلاح من أسلحتهم الخفية ، التى يضربون بها فى كيان المجتمع الإسلامى . .

فهذه الجماعة من المنافقين ، لم يكفها أنها كفّت يَدها عن الجهاد فى سبيل الله ، وغلّتها عن الإنفاق فى وجوه الخير ، بل جعلت تترصّد المنفقين فى سبيل الله ، وتتخذ منهم مادة للهُزء والسخرية ، سواء المكثرون منهم والمقلّون . .

فالذين بسط الله لهم فى الرزق من المؤمنين ، فبسطوا أيديهم بالبذل فى سبيل الله ، وجاءوا بالكثير من أموالهم إلى رسول الله ، يضعها حيث يشاء ـ هؤلاء هم عند الجماعة المنافقة مراءون ، لا يطلبون بما أنفقوا إلا أن يظهروا فى الناس ، وإلا أن يكونوا حديث المتحدّثين !

وأمّا الذين قَصُرت أيديهم عن العطاء الكثير من المؤمنين ، فأعطوا ما وسعهم الجهد ، وجاءوا بما ملكت أيديهم ـ فإنهم لم يسلموا من تلك الألسنة المنافقة ، إذ جعلوا منهم مادّة سخرية واستهزاء وتندر ، فيقولون فيما قالوا : ماذا تغنى الحفنة من التمر التى جاء بها فلان ؟ وما جدوَى هذه الكِسْرات من الخبز التى قدمها فلان ؟ وماهذا الثوب الخَلِق الذى بذله فلان ؟ .. إن هؤلاء لم يفعلوا ما فعلوا من هذا العبث إلا ليُذْكروا مع المتصدّقين ، وإلا ليذَكّروا بأنفسهم إذا وقعت للمسلمين غنيمة ، وأصابهم خير ! .

وهكذا ، يكيد المنافقون الإسلام ، ويحاولون جاهدين أن يفسدوا كل صالحة فيه .

وفى قوله تعالى : « سخر الله منهم ولهم عذاب أليم » هو دفاع من الله سبحانه وتعالى عن المؤمنين ، الذين سخر منهم المنافقون . . وفى هذا تكريم المؤمنين المنفقين ، وإيذان منه ـ سبحانه ـ بأنّه تقبل صدقات المتصدقين ، قليلها وكثيرَها ، وأنه ـ سبحانه ـ هو الذى يتولىّ حماية هذه الصدقات وحماية أصحابها من كل سوء . فإذا سخر ساخر من الصدقات ، واستهزأ بأهلها ، سخر الله منه ، واستهزأ به . . إنه عدوّ لله . محاربٌ له ، وحسبُ من يعادى اللهَ ويحاربه ، ضياعاً ، وهلاكاً ، وسوء مصيرا .

* قوله تعالى : « اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ »

هو تيئيس لهؤلاء المنافقين من رحمة الله ، وقطع لطريق النجاة من العذاب الذى أعدّه الله لهم . .

إنّه لن ينقذهم من الله منقذ ، ولن يشفع لهم شفيع . . حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو مَن هو عند الله ـ لن تقبَل شفاعته فيهم ، ولن يُستجاب استغفاره لهم ، ولو حرص النبىّ على هذا الاستغفار وبالغ فيه . وذلك لأنّهم كفروا بالله ورسوله ، وحادّوا الله ورسوله ، ومن كان هذا موقفه مع الله ومع رسول الله ، فلن يقبل الله فيه شفاعة ، ولن يصرف عنه العذاب الذى رصده له . .

وليس حصر الاستغفار بسبعين مرة ، مراداً به أن النبى صلى الله عليه وسلم لو جاوز هذا العدد ، وخرج به عن قيد الشرط ـ جاز أن يغفر الله لهم . . وكلاّ ، فإن المراد بهذا العدد هو الدلالة على أن استغفار النبىّ لهم ، لن يُقبل من الله فيهم على أية حال ، كثُر العدد أو قلّ . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى :

« استغفر لهم أولا تستغفر لهم » فإن هذا معناه أنه لن يُغفر لهم على أية حال . . سواء استغفر لهم النبي أو لم يستغفر لهم . قلّ استغفاره لهم أو كثر !

والخبر الذى يُروى من أن النبيّ صلّى الله عليه وسلم قال حين نزلت هذه الآية : « والله لأزيدَنّ عن السبعين » هو خبر آحادٍ ، لا يُعوّل عليه هنا عند معارضته لصريح المفهوم من الآية الكريمة .. لأن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يعلم ما فى هذه الآية من القطع بأن الله سبحانه لن يغفر لهم ، ولن يقبل شفاعة شافع فيهم . فلا يعقل ـ مع هذا ـ أن يقول النبي هذا القول ، بعد أن تلقى هذه الآية . وكذلك الشأن فى الخبر الذى يُروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو علمتُ أنه لو زدت على السبعين مرّة غفر الله لهم لفعلتُ » . . فإنه خبر لا يصحّ عن رسول الله . . لأنه فيه ما يشبه التحدّى لحكم الله !! .

الآيات : (٨١ ـ ٨٥)

« فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ » (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَالِفِينَ (٨٣) وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ » (٨٥)

التفسير : تكشف هذه الآيات عن وجه أولئك المنافقين ، الذين تخلّفوا عن رسول الله فى غزوة تبوك ، وتفضح الأعذار الكاذبة التى كانوا يعتذرون بها ، وترسُم للنبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الأسلوب الذى يعاملهم به ، والموقف الذى يقفه منهم . .

وفى قوله تعالى : « فرح المخلّفون بمقعدهم خلافَ رسول الله » تنديدٌ ووعيد من الله سبحانه وتعالى لهؤلاء الذين تخلفوا عن رسول الله فى تلك الغزوة ، وأن هذه الفرحة التى شاعت فى نفوسهم حين بدا لهم أنهم أفلتوا من هذا البلاء الذى ابتُلى به المؤمنون فى هذه الغزوة.. من قِلّة الزاد ، وبُعد الشُّقة ، ووقدة الحرّ ـ هذه الفرحة لن يهنئوا طويلاً بها ، بل ستعقبها حسرة وندامة ، وعذاب شديد .

والمخلّفون : جمع مخلّف ، وهو الذى بقى خلف القوم ، وتُرك وراءهم . . وكأنه بهذا هو المتروك لا التارك ، والمخلَّفُ لا المخالِف . . وفى هذا إشارة إلى أن هؤلاء الذى تخلّفوا هم مخَلَّفون ! قد تركهم المجاهدون ، وسبقوهم إلى حظهم من الخير الذى أراده الله لهم . .

والمَقْعد : مصدر ميمى للفعل « قعد » أى فرح المخلفون بقعودهم .

و « خلافَ رسول الله » : الخلاف ظرف بمعنى خَلْف ، ووراء . . ويجوز أن يكون مفعولا له ، بمعنى : لأجل خلافِهم لرسول الله .

وقوله سبحانه : « وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله » معطوف على قوله تعالى : « فرح المخلفون بمقعدهم خلافَ رسول الله » بمعنى فرحوا بقعودهم بعد رسول الله ، وكرهوا ، أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . .

وقوله تعالى : « وقالوا لاتنفروا فى الحرّ » معطوف على ماقبله ، من فَعلات هؤلاء المخلّفين .. بمعنى أنهم فرحوا بتخلفهم ، وكرهوا أن يجاهدوا ، وقالوا لاتنفروا فى الحرّ . .

وقولهم : « لاتنفروا فى الحرّ » قد يكون من حديث بعضهم إلى بعض ، وتحريض بعضهم لبعض على ترك الجهاد فى الحرب ، وذلك ليكثر عددهم ، وتقوى جبهتهم ، وليكون للمتخلف منهم وجه من العذر، بكثرة المتخلفين غيره .

وقد يكون هذا القول منهم على إطلاقه ، يقولونه لكل من يلقاهم من المؤمنين ، ليفتّروا به الهمم ، ويكسروا العزائم ، حتى لايجتمع على دعوة النبىّ للجهاد ، الجيشُ الذى يخرج به فى هذه الغزوة .. وبهذا لاينكشف أمر المنافقين الذين عقدوا العزم على التخلّف عن الغزو ، حيث لايخفّ أحد للجهاد ، إذا صحّ ماقدّروه ، وعَمِلوا له ، من إشاعة الدعوة فى الناس ، بألاّ ينفروا فى الحرّ .

وقوله سبحانه : « قل نارُ جهنم أشدُّ حَرًّا لو كانوا يفقهون » هو ردٌّ مفحم على هذه القولة التى تَنادَى بها المنافقون بقولهم : « لاتنفروا فى الحرّ » .. فإن تركهم النفير فى الحرّ يوقعهم فى حرّ أشد هولا من هذا الحرّ ، الذى يعتبر برداً وسلاماً إذا قيس بحر جهنم .. فلو أنهم عقلوا هذا ، وفقهوه ، لما اشتروا عذاب الآخرة بلفحات الهجير هذه ، التى يخشون لقاءها فى طريقهم إلى الجهاد .. ولكنهم قوم لايفقهون . .

* وقوله تعالى : « فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون» هو وعيد لهؤلاء المنافقين ، الذين فرحوا بمقعدهم خلافَ رسول الله ، وقالوا لاتنفروا فى الحرّ . . إنهم لن يَهنَوُّهم هذا الفرح ، ولن يطول مقامهم فى ظل هذه العافية التى هم فيها .. فما هى إلا أيامهم الباقية لهم فى هذه الدنيا ، ثم إذا هم فى العذاب الأليم الدائم ، لايفتّر عنهم وهم فيه مُبلسُون . .

* وقوله تعالى : « فإن رَجَعَكَ اللهُ إلى طائفة منهمُ فاستأذنوك للخروج فقُلْ لن تخرجوا معىَ أبداً ولن تقاتلوا معىَ عدوًّا إنّكم رضيتم بالقعودِ أولَ مرّةٍ فاقعدوا مع الخالفين » .

هو بيان من الله سبحانه للنبىّ ، فى موقفه من المنافقين، إذا هو رجع من غزوته تلك .. فإن من هؤلاء المتخلّفين من تخلّف لاعن شك فى دينه ، أو ارتياب فى عقيدته ، ولكن قعد به فتورُ همته أن يلحق بالركب ، وأن يُجمع عزمه المشتت ، ليقطع حبال التردد العالقة به ، فلمّا أن فاتته الفرصة ، ولم يُعد فى استطاعته أن يلحق بالجيش المجاهد ، استبدّ به الندم ، واستولت عليه الحسرة ، وضاقت عليه الأرض بما رَحُبت .. ومن هؤلاء المتخلفين من تخلّفوا عن نيةٍ فاسدة ، وعقيدة منافقة ، ودين مريض .. فهؤلاء هم المنافقون حقًّا ، وهم الطائفة التى أشار إليها قوله تعالى : « فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدًا ولن تقاتلوا معى عدوًّا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين » .. إنّهم يريدون أن يحتفظوا بمكانهم فى المسلمين ، وأن يأخذوا موقفهم مع المجاهدين ، وذلك بأن يتخيّروا الزمان والمكان اللذين يخرجون فيهما مع المجاهدين .. فإذا كانت الشقة بعيدة ، والحرّ شديداً أو البرد قارصاً ، تبطّئوا ، وجاءوا بالمعاذير والعلل ، وإن كانت الشقة قريبة ، والمغانم دانية ، أخذوا مكانهم فى صفوف المسلمين .

وفيهم يقول الله تعالى : « لو كان عَرَضاً قريباً وسفرًا قاصداً لاتبعوك ولكن بَعدتْ عليهم الشّقة وسيحلفون بالله لواستطعنا لخرجنا معكم يُهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون » (٤٢ : التوبة) .. وليست هذه سبيلَ المؤمنين المجاهدين ، وإنما سبيلهم قائمة على نيةٍ منعقدة أبدا على الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله ، ومن كانت تلك سبيله ، وهذه غايته ، فإنه لاينظر إلى نفسه ، ولايعمل حساباً لمغنم أو مغرم ، وإنما حسابه كلّه مضاف إلى الانتصار لدين الله ، والإعزاز لكلمة الله .

ولهذا ردّ الله سبحانه هؤلاء المنافقين ، ومحا اسمهم من ديوان المجاهدين ، وأمر نبيّه الكريم أن يبعدهم عنه ، وأن يعزلهم عن مجتمع المسلمين المجاهدين ،

وأن يكون ردّه عليهم إذا استأذنوه لقتالٍ معه : « لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدوًّا » .. هكذا يلقاهم النبىّ بهذا الحكم القاطع ، الذى لا استثناء فيه ، ولا رجوع عنه.. « إنكم رضيتم بالقعود أول مرة » .أى أول مرّة دُعيتم فيها للجهاد دعوةً ملزمةً لا تحلل منها ، وذلك فى غزوة تبوك التى ندب النبىّ لها المسلمين جميعاً ، كما أمره الله سبحانه وتعالى بذلك فى قوله : « انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله .. » (٤١ : التوبة) . فهذه أول مرّة يُدْعى فيها المسلمون دعوةً عامة للجهاد بكل مايملكون من أنفس وأموال ..

وفى قوله تعالى : « ولا تُصلِّ على أحدٍ منهم ماتَ أبدًا وَلاَ تَقُمْ على قبرِه إنّهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهُم فاسقون » ـ مايكشف عن شناعة جُرم هؤلاء المنافقين ، وفظاعة الجناية التى جَنَوْها على أنفسهم .. ولهذا ، فإن الصلة التى بينهم وبين المؤمنين قد انقطعت انقطاعاً تاماً فى الحياة ، وفيما بعد الحياة ، حتى لومات ميّتهم لم يلتفت المسلمون إليه ، ولم تعطفهم عليه عاطفة رَحِمٍ أو رحمة .. وقد نَهى الله النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يصلى على أحد من موتاهم أو يقوم على قبره ، داعياً له مستغفراً .. وهو نَهىٌ للمسلمين جميعاً ، فى جميع الأحوال والأزمان أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قُرْبى .. أحياء أو أمواتاً . « إنّهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » أى إنهم كانوا على كفرٍ بالله وبرسوله، وقد ماتوا على هذا الكفر .. فلا ينالهم الله برحمته ، ولا يرحمُهم الراحمون ..

وقوله سبحانه : « ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذّبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون » ـ هو تحقير لهؤلاء المنافقين، واستخفاف بما كان لهم فى الدنيا من مال وأولاد .. فإن كثرة هذه الأموال ، وهؤلاء

الأولاد ، لم تكن مبعث سعادة ورضى لهم فى دنياهم ، كما يبدو ذلك من ظاهر الحال ، ولكنها كانت مثارَ قلق دائم ، وإزعاج متصل لهم ، لأن عدم إيمانهم بالله واليوم الآخر أراهم كلّ الذى بين أيديهم ، هو فى معرض الهلاك والزوال ، لا يلتقون به بعد هذه الحياة ، بل ولا يلتقون بأنفسهم بعد أن تحتويهم القبور ، ويشتمل عليهم التراب .. فهم فى هذه الحيـاة ، يختطفون اللذات اختطافاً ، ويختلسونها اختلاساً ، بلا أملٍ فى غد ، ولا رجاء فيما بعد غدٍ .. وأنهم كلّما كثرت أموالهم وأولادهم كلّما ازدادت همومهم ، وثقلت عليهم مئونة حراستها ، ودفع غائلة العدوّ الراصد لها ولهم ، وهو الفناء الأبدى ، والقطيعة القاطعة بينها وبينهم .

وقوله تعالى : « وتزهق أنفسهم وهم كافرون » هو من البلاء المسلط عليهم من أموالهم وأولادهم ، إذ كانت هذه الأموال والأولاد من الأسباب التى مدّها الله لهم ، لتحجبهم عن الإيمان ، وتقيمهم على طريق الكفر ، فيعيشون به ، ويموتون عليه . إذ كان شغلهم بأموالهم وأولادهم مما أعمى بصيرتهم عن النظر إلى ما وراء الأموال والأولاد . .

وفى قوله سبحانه ، فى هذه الآية : « وتزهق أنفسهم وهم كافرون » وقوله فى الآية التى قبلها : « وماتوا وهم فاسقون » ـ إشارة إلى أن الكفر والفسق من وادٍ واحد ، وأن الكافر فاسق ، والفاسق كافر . . إذ الفسق هو الخروج عن طريق الحقّ ، والمشاقة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وذلك هو الكفر كله .

الآيات : (٨٦ — ٨٩)

« وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنِ

ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ » (٨٩)

التفسير : قوله تعالى : « وإذا أُنزِلت سُورةٌ أن آمِنُوا بالله وجاهِدُوا مع رَسولِه استأذَنكَ أولو الطوْل منهم وقالوا ذرْنا نكن مع القاعدين » .

أولو الطول : الطوْل : مِن طال الشيء يطوله ، أى قدَرَ عليه وتمكن منه . . وأولو الطول : هم أصحاب القدرة التى تمكن لهم من بلوغ مالا يستطيع غيرهم بلوغه ، بجاههم ، وسلطانهم ، وأموالهم . .

والآية الكريمة ، تكشف عن وجه آخر من وجوه المنافقين ، وتفضح طائفة أخرى من طوائفهم ، وهم أصحاب الرياسة ، والسيادة ، والقدرة فيهم . .

هؤلاء المنافقون « إذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله » أى إذا أنزل قرآن يحمل إلى المؤمنين أمراً من الله سبحانه وتعالى ، يذكرهم بالإيمان بالله ، ويدعوهم إلى الجهاد مع رسول الله . . « استأذنك أولو الطّول منهم وقالوا ذرنا نكن من القاعدين » أى بادر أصحاب الطول هؤلاء ، إلى التحلل من هذا الأمر ، بالاعتذار إلى رسول الله ، واستئذانه فى أن يُعفيَهم من إجابة هذه الدعوة ، والجهاد فى سبيل الله .

وفى قولهم « درنا نكن مع القاعدين » ما يكشف عن استخفافهم بأمر الله ، واسترواحهم للتحلل منه ، حتى ليهنؤهم المقام ، وتطيب لهم الحياة ، فيقعدون مع القاعدين ، ويسمُرون مع السامرين .. وهذا ما يكشف عنه قوله تعالى : « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون »

أى قد سولت لهم أنفسهم أن يكونوا مع الخوالف ، ممن لا طول لهم ولا حول، من المرضى ، والزَّمْنَى ، وأصحاب العاهات والعلل ، والأطفال ، والنساء ، والإماء ، والعبيد ـ رضوا أن يكونوا مع هـذه الطوائف من الناس ، وهم أصحاب طوْل وحوْل ، لم يكن يرضيهم أبداً أن يكون بينهم وبين هـذه الطوائف أمر جامعٌ ، أو صفة مشتركة . . فكيف وهم أصحاب الحول الطول ينزلون إلى هذا المستوى الذى يُضيفهم إلى مجتمع الصبيان والعبيد ؟ ولـكن هكذا أرادوا أن يكونوا ، وهكذا صنعوا بأيديهم هذا الثوب الذى لبسوه . . ثوب الصَّغار والامتهان .

وفى قوله سبحانه : « وطُبِع على قلوبهم فهم لا يفقهون » إشارة إلى أنهم وقد لبسوا ثياب المهانة والخزى بهذا الموقف الذى وقفوه ـ لا يدركون ما وقع عليهم من ذلة وهوان ، إذ كانت أعينهم فى عمى ، وقلوبهم فى غفلة ، وعقولهم فى ضلال .

وقوله تعالى : « لـكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون » هو عرض للوجه الآخر المشرق الوضىء من وجهى هذا الموقف .. من أمر الله بالإيمان ، ودعوته إلى الجهاد . .

فإذا كان المنافقون ، وأصحاب الطول فيهم ، قد نـكصوا على أعقابهم ، ورضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، فإن النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ والذين آمنوا معه ، جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . . فما أن دعاهم الله ورسوله إلى الجهاد حتى طاروا إليه سِراعاً ، ونفروا خفافاً وثقالاً .

وإذا كان المتخلفون قد ألبسهم الله بتخلفهم ثوبَ الخزى والذلة ، فإن رسول الله والمجاهدين معه ، قد تلقاهم الله حفيًّا بهم ، مُوسِعاً لهم فى رحاب فضله ورضوانه ، فملأ أيديهم من المغانم ، وكتب لهم النصر على عدوهم ، ومكن لهم فى الأرض ،

وأعدّ لهم فى الآخرة جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار.. ورضوانٌ من الله أكبر.. ذلك هو الفوز العظيم..

وفى قوله تعالى: «وأولئك لهم الخيرات».. العطف هنا بالواو، إشارة إلى ما للرسول والمؤمنين المجاهدين معه، عند الله، من أوصاف كريمة، غير تلك الأوصاف التى وصفها الله بهم، وأن ما وصفوا به هنا ليس إلا من قبيل التنويه والإشارة إلى تلك الأوصاف التى لا تحصر، وإن كان ذِكر قليلها يغنى عن كثيرها، لأنها كلها من باب واحد، هو باب الخير والإحسان.. ويكون من مفهوم الآية الكريمة.. لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم.. أولئك رضى الله عنهم، وأنزلهم منازل رحمته وإحسانه «وأولئك لهم الخيرات، وأولئك هم المفلحون».

وفى تكرار الإشارة إلى الرسول والمؤمنين المجاهدين فى قوله تعالى: «وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون» تأكيد للتنويه بهم، وتقرير لدرجتهم العالية، ومنزلتهم الكريمة التى أنزلهم الله إياها.. كما أن فى ذلك إشارة إلى أن مقامهم هذا الرفيع الذى هم فيه، لا تبلغه الإشارة التى يقصر عنها النظر، وأنه لكى يمكن أن يرتفع النظر إلى هذا المستوى، ينبغى أن يكون ذلك على مراحل يقطعها صُعُدًا فى الوصول إليهم.

«أولئك لهم الخيرات».. فانظر إليهم.. إنهم هنا! لا.. إنهم هناك.. ولا.. إنهم فوق هذا.. «أولئك هم المفلحون» فارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير!

الآيات: (٩٠ — ٩٢)

«وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) لَيْسَ عَلَى

ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ » (٩٢)

التفسير : قوله تعالى « وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ »

« الواو » فى قوله تعالى « وجاء » تصل ما انقطع من حديث القرآن عن المنافقين ، وما كشف من وجوههم المنكرة ، وما فضح من أساليبهم المخادعة المضللة . .

والفعل « جاءَ » فى امتداد مقطعه هكذا « جَاء » وفى تذبذب أنغامه بين همس « الواو » وجهر الجيم ، وخطف الهمزة ـ يرسم صورة مكتملة الألوان والظلال للمنافقين ، وهم فى طريقهم إلى النبىّ ، متحاملين متثاقلين ، تدور أعينهم هنا وهناك ، حذراً من أن تفضحهم أعذارهم التى بين أيديهم ، يسوقونها إلى النبىّ ، ويدفعون بها فى خوف وخطف واضطراب . .

ثم هم فى موكبهم الطويل إلى رسول الله أنماط مختلفة . .

منهم . . السفيه الوقح ، الذى لا يعرف الحياءُ وجْهَه . . فيجىء خفيفاً مسرعاً ، يبادر القوم قبل أن يسبقوه ، فيأخذوا عليه الطريقَ إلى ما يعتذر به ، إذ كانوا قد استنفذوا الأعذار بين يدى رسول الله . .

ومنهم من لا يعرف له عذراً . . ولكنه لا بدّ أن يعتذر ، لأنه لا يريد أن يكون فى المجاهدين . . فيمشى إلى النبيّ متثاقلاً متحاملاً . . حتى تنكشف له وجوه الأعذار التى يعتذر بها المعتذرون : لعله يقع على واحد منها ! !

ومنهم من يقطع الطريق إلى النبىّ ولا يبلغه ، بل يقف بعيداً يتسمّع الأنباء عن المعتذرين وما يعتذرون به وما يقوله النبىّ لهم !

ومنهم . . ومنهم . .

إنهم أشكال متعددة ، وأنماط مختلفة . . ولـكنهم جميعاً على طريق النفاق سائرون ، وعلى نية التخلف عن الجهاد قائمون . .

« وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم » . .

والمعذِّرون هم أصحاب الأعذار ومختلقوها . . فخلق الأعذار واصطناعها هو عملهم ، والصفة الغالبة عليهم . . كما يقال : المهندسون ، والمعلمون . . فهم صناع الأعذار ، لاصنعة لهم غير هذا . .

والأعراب : جمع أعرابى ، وهم سكان البادية .

وانظر فى وجه النظم القرآنى ، يُشهدك على هؤلاء الأعراب ، وقد جاءوا من شتى الجهات ، بعد أن سمعوا دعوة الرسول إليهم بقوله . « انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالـكم وأنفسكم فى سبيل الله » ــ جاءوا لا لينتظموا فى صفوف المجاهدين ، ولا ليقاتلوا فى سبيل الله ، وإنما جاءوا ليعتذروا عن الجهـاد ، وليقدموا من المعاذير مافى جهدهم ، كما يقدم المجاهدون فى سبيل الله أموالهم وأنفسهم ! ! فما أتعس هذا المجىء ، وما أشأم ذلك السعى !

قوله تعالى : « وقعد الذين كَذَبوا الله وَرَسولَه » هو الوصف الذى وُصف به أولئك المعذِّرون ، والسِّمة التى وُسموا بها .. فهم الذين قعدوا متخلفين عن الجهاد ، وهم الذين افتروا الـكذب على الله ورسوله ، بهذه الأعذار التى اختلقوها وجاءوا إلى النبىّ بها .

وفى هذا الخبر تهديد ووعيد لهم .. إذ ليس مرادًا به الإخبار عنهم ، وأنهم قعدوا ، وإنما هو خبر يكشف عن جريمة غليظة ، ويحدّث عن منكر عظيم ..

وفى قوله تعالى : « وقعد الذين كَذَبوا الله ورسوله » حكم عليهم بالإدانة ، وبأن هذه الأعذار التى اعتذروا بها إنما هى محض كذب وافتراء . . إذ هم الذين كذبوا الله ورسوله .. وقد عُدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر ، ليُعرَضوا هذا العرض الـكاشف عن كذبهم ، ويسمعوا حكم الله عليهم ..

وقوله سبحانه : « سيصيب الذين كفروا منهم عذابٌ أليم » هو بيان للجزاء الذى أخذ به هؤلاء المعذِّرون الذين كذبوا الله ورسوله ، وأنهم جميعاً من أهل الكفر ، ولا مثوى للكافرين غير النار وعذاب السعير .

وحرف الجرّ فى قوله تعالى : « سيصيب الذين كفروا منهم » للبيان ، لا للتبعيض .

فكل هؤلاء المعذِّرين من الكافرين . فليس فيهم كافر وغير كافر ، بل كلهم كافرون .

أما أصحاب الأعذار الحقيقية فقد أغناهم الله سبحانه وتعالى عن أن يقفوا هذا الموقف ، فعذَرهم الله قبل أن يعتذروا ، ورفع عنهم الحرج ، فى قوله تعالى :

« لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ »

فهؤلاء أصحاب أعذار ظاهرة ، ينطق بها لسان الحال ، قبل أن ينطق بها لسان المقال .. فالشريعة الإسلامية قائمة على اليسر ، ورفع الحرج عن المؤمنين ، فلا إعناتَ فيها ، ولا مشقّة أو عُسْرٍ فى تكاليفها .. « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .

فالضعفاء . . من شيوخ ، وأطفال ، ونساء ، وعبيد وإماء ، والمرضى وأصحاب العاهات المانعة من السفر والقتال ـ هؤلاء جميعاً ومن فى حكمهم لا حرج عليهم فى أن يتخلفوا عن ركب المجاهدين ، « إذا نصحوا لله ورسوله » أى إذا كانت

قلوبهم سليمةً عامرة بالإيمان ، ترتبط مشاعرهم بمشاعر المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله .. فهم مع المجاهدين بمشاعرهم كلها . يدعون لهم بالنصر ، ويتمنون لهم الغَلَب والسَّلامة ، ويَخْلُفُونهم فى أهليهم ، ويقومون على رعاية أبنائهم وأزواجهم ، وقضاء حوائجهم ، ورفع الضرّ عنهم ، ومواساة من أصيب منهم فى أب ، أو أخ ، أو زوج . إلى غير ذلك مما يبعث فى نفس المجاهد الطمأنينة ، ويطلق يديه كلتيهما ، ووجودَه كلّه ، للعمل فى ميدان المعركة ، ومواجهة العدوّ ..

وبهذا يكون المؤمنون جميعاً فى ميدان المعركة . سواء منهم من شهدها وحارب فيها ، أو من تخلف بما معه من عذر ، ونَصَحَ لله ورسوله ، فى سلوكه الطيب ، مع من يخلفهم المحاربون وراءهم من أهل وولد ، وفى مشاعره المتجهة إلى المجاهدين فى ميدان القتال ، والدعاء لهم بالنصر وتمنّيه لهم ..

وقوله تعالى : « ما على المحسنين من سبيل » إشارة إلى أن هذا الذى يبذله المتخلفون من ذوى الأعذار ، من نصح لله ورسوله ، ووراء جبهة القتال ، هو غاية ما فى مستطاع هؤلاء المتخلفين ، وهو ميدانهم الذى يكون لهم فيه عمل وإحسان . « لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها » . فإذا أعطى المؤمن — فى باب الإحسان — ما وسعته نفسه ، فهو فى المحسنين ..

وقوله سبحانه : « والله غفورٌ رحيمٌ » إشارة أيضاً إلى أن الذى يوجّه نفسه للإحسان ، ويعمل له ، هو محسنٌ ، وإن قصّر فيما عمل ، ولم يبلغ غاية الإحسان . فرحمة الله واسعة ، ومغفرته شاملة ، يتقبل من المحسنين أحسن ما عملوا ، ويتجاوز عن سيئاتهم ، كما يقول سبحانه : « أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم » (١٦ : الأحقاف) .

وقوله تعالى : « وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا

مَا يُنْفِقُونَ » ـ هو معطوف على قوله تعالى : « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَىٰ .. » أى ليس حرج على هؤلاء الذين أتوك لتحملهم ، أى تهيىء لهم مركباً ينقلهم إلى ميدان الجهاد .. والخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، وقد جاءه جماعة من فقراء المسلمين ، صحت نيتهم على الغزو والجهاد ، ولكنهم عجزوا عن أن يجدوا مركباً يركبونه ، فجاءوا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم يسألونه أن يَحْملهم معه فى جيش المجاهدين ، ولم يكن بين يدى النبىّ ، ولا فى جيش المسلمين مايحملهم عليه ، فقال لهم ـ صلوات الله وسلامه عليه : « لا أجد ما أحملكم عليه » .. فامتلأت نفوسهم أسًى وحسرة ، وفاضت دموعهم ألمًا وحزْنًا ؛ أن فاتهم حظهم من الجهاد ، وإن لم يكن فى أيديهم ماينفقونه فى سبيل الله ، وفى إعداد المركب الذى يحملهم مع المجاهدين : « تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزَنًا أن لايجدوا ماينفقون» .. وهؤلاء هم الذين عُرفوا فى المسلمين بالبكائين .

وإذا كان بُكاء الرجال مَذْموماً فى كل موطن ، إلاّ أنه هنا فى هذا المقام ـ مقام التعامل مع الله ـ محمود غايةَ الحمد ، بل ومطلوب من المؤمن أن يكون هنا حاضرَ الدمعة غزيرَها . . وفى الحديث : « إن لم تبكوا فتباكَوْا » . . فالدمعة هنا دمعة عزيزة على الله ، لاتقع على الأرض ، كما تقع دموع الباكين ، فتضيع بدداً . . وإنما تتلقاها ملائكة الرحمن ، فإذا هى نهر جار من نور ، يُغمر فيه صاحبها ، فإذا هو خلق من نور ، أصفى من الجوهر ، وأضوأ من شمس الضحى ، يقول الرسول الكريم : « عينان لا تمسّهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله .. » .

* * *

تم الجزء العاشر ، ويليه الجزء الحادى عشر . . إن شاء الله

المؤلف

عبد الكريم الخطيب

التفسير القرآني للقرآن

الكتاب السادس

الجزءان : الحادى عشر والثانى عشر

من مباحث هذا الكتاب

- الجزاء الدنيوى .. وجزاءُ الآخرة.
- الإنسان .. وما ينزل من السماء.
- السمع والبصر .. ومكانهما فى الإنسان
- العلم .. وأسلوب تحصيله.
- الناس .. وهذا الاختلاف فى حظوظ الحياة
- يوسف .. والفتنة المتحدّية

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى

الآيات : (٩٣ — ٩٩)

* « إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ (٩٦) ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَاتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » (٩٩)

التفسير : فى الآية السابقة على هذه الآيات ، رفع الله الحرجَ عن الضعفاء والمرضى ، وعن الذين لا يجدون ما ينفقون ، إذا هم لم يكونوا فى موكب المجاهدين الذين يلقون العدوّ فى ميدان القتال ، إذ كانوا ومعهم أعذارهم التى تحول

بينهم وبين القيام بهذا الأمر الذى نَدَبَ الله سبحانه وتعالى المؤمنين له . . « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لايجدون ماينفقون حَرَجٌ إذا نصحوا لله ورسوله . . ما على المحسنين من سبيل » . . (الآية ٩١) .

* وفى هذه الآية : « إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء » اتهام ومؤاخذة لمن تخلفوا عن الجهاد ، ولا عُذْرَ لهم . . لأنهم قادرون ـ بأشخاصهم على أداء هذا الواجب المفروض عليهم ، فهم ليسوا ضعفاء ، أو مرضى ، وهم قادرون بأموالهم على أن يجدوا الزاد الذى يتزودون به للسفر .. من طعام ، وحمولة ، وسلاح .. !

وعلّة واحدة لاغير ، هى التى قعدت بهم عن أن يكونوا فى المجاهدين ، هى أنهم « رَضُوا بأن يكونوا مع الخوالف » . . إنه لاشىء يقعدهم عن هذا الأمر إلا إيثارهم العافية والسلامة لأنفسهم ، وإلاَّ ضنّهم بالمال وبالجهدِ عن البذل فى سبيل الله . . وذلك خِذْلان منهم لِله ، فكان أن خذلهم الله ، « وطبع الله على قلوبهم » فلم يروْا بِها سُوءَ ماهم عليه . . « فهم لايعلمون » ماوقع عليهم من غَبْن فى هذا الموقف الذى وقفوه من أمر الله ، والجهاد فى سبيل الله . .

وفى مخالفة النظم لمقتضى السياق ، فى قوله تعالى : « إنما السبيل » إذ كان من مقتضى السياق أن يكون : « إنما الحَرَج » ـ فى هذا مايشير إلى مابين الحالين من اختلاف ..

فالضعفاء والمرضى والذين لايجدون ماينفقون ـ هؤلاء ومن على شاكلتهم ، واقعون تحت عفو الله ، غير مطالبين بما هو مطلوب من أهل القوة والصحة والغِنى . . فلا حرج عليهم ، ولا جناح ، إذا هم كانوا من المتخلفين . .

أما هؤلاء الأغنياء الذين تخلّفوا عن قدرة ، فهم فى مقام المؤاخذة ، وفى معرض الجزاء والعقاب ، ومن هنا كان السبيل مفتوحاً ، والطريق مكشوفاً

للجزاء الذى هم أهل له ، وللعقاب الذى لابُدّ هو واقع بهم ، إن عاجلاً وإن آجلاً . .

ويشهد لهذا المعنى ، قوله تعالى : « إنما السبيل على الذين يظلمون النّاس ويبغون فى الأرض بغير الحق » (٤٢ : الشورى) . . فهؤلاء الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق ، قد عرّضوا أنفسهم للنقمة والبلاء ، وإنّه لاعاصم لهم يدفع عنهم هذا البلاء الذى سيحل بهم . . وقوله سبحانه : « فإن اعتزلوكم فلم يُقاتلوكم وألقَوْا إليكم السَّلَمَ فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً » (٩٠ : النساء) أى أن هؤلاء الكافرين الذين اعتزلوا القتال الذى بين المسلمين وبين الكافرين ، وفاءوا إلى السِّلم ، ولم يبسطوا أيديهم أو ألسنتهم بأذًى للمسلمين ـ فليس للمسلمين سبيل إلى قتالهم . .

فانظر فى وجه هذا الكلام المشرق ، تجد أنه كلام ـ وإن أُخِذ من أفواه الناس ـ قد نظمته يد القدرة ، وجاءت به على هذا الإعجاز المبين . . فسبحان سبحانَ من هذا كلامه .

* وقوله تعالى : « يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ . قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

هو إخبارٌ للنبىّ والمؤمنين ، وإنذارٌ للمنافقين وذوى الأعذار الكاذبة ، إخبار بما سيكون من هؤلاء المنافقين والمعذّرين حين يَلقون النبىّ والمؤمنين بعد عودتهم من غزوة تبوك ـ بما لفّقوا من أعذار ، وما نسجوا من أكاذيب ، يبرّرون بها تخلفهم عن الجهاد مع المجاهدين .

وقد أمر الله النبيّ والمؤمنين أن يَبْهتُوا هؤلاء المعذّرين ، وأن يفضحوهم على رءوس الأشهاد .. «لاتعتذروا .. لن نؤمِنَ لكم » .. أى لن نصدّق ماتعتذرون به ، ولن نقبله . . وليس هذا مما يشهد به حالكم ، وتفضحه ألسنتكم وحسب ، وإنما هو مما علمه الله منكم ، وأطلع نبيّه عليه : « قد نبأنا الله من أخباركم » .

* — وقوله تعالى : « وسيرى الله عملكم ورسوله » أى سيرَى الله ورسوله مايكون منكم بعد هذا من مواقف حيالَ الإسلام والمسلمين ، من بغى وعدوان ، ومخادعة ونفاق ، أو مسالمة وسلام . .

ومعنى الرؤية هنا ، العلم القائم على واقع الحال . .

وهذا ما جعل الرؤية معلقة على المستقبل : « وسيرى الله عملكم ورسوله » أى فى حال تلبّسهم بما يعملون . أما رؤية الله سبحانه فهى مطلقة تشمل الزمان والمكان جميعاً . .

— وقوله سبحانه : « ثم تُردّون إلى عالم الغيب والشهادة فَيُنَبِّئُكُمْ بما كنتم تعملون » تهديد لهؤلاء المعذّرين ، بوضعهم تحت المراقبة التى لاتغفل ، والتى تعلم سرّهم وجهرهم ، وتأخذهم جميعا بما عملوا ، فلا يفلت منهم أحد .

* قوله تعالى : « سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .

يكشف عمّا فى وجوه المنافقين من صفاقة ، وأنهم لا يكترثون كثيراً بما يجبههم به النبيّ والمؤمنون من ردّ وردع ، ومن تكذيب وبهت . .

والمنافق لا يلبس أثواب النفاق إلاّ إذا كان صفيقاً ، لا يعرف الحياءُ سبيلاً إليه ، ولو كان فى وجه المنافق شىء من الحياء ، لما رضى لنفسه أن يلقى الناس بشخص غير شخصه ، وبوجود غير وجوده !

وليس هكذا شأن المؤمن بالله . . إنه بإيمانه بالله ، واستناده إلى أقوى الأقوياء ، لا يرى فى هذا الوجود قوةً يخشى بأسها ، أو يرهب سلطانها ، مادام مستمسكا بالحق ، مستقيما على طريق العدل والإحسان . . ورحم الله البوصيرى إذ يقول :

ومن تكن برسول الله نُصْرَتُه إن تَلْقَهُ الأُسْد فى آجامها تَجِمِ

فالاستنصار برسول الله ، هو التمسك بالشريعة التى جاء بها صلوات الله وسلامه عليه ، فذلك هو الإيمان بالله ، والله سبحانه وتعالى يقول : « من يطع الرسول فقد أطاع الله . . »

وهكذا ، كل من استقام على طريق الحق ، يجد من نفسه القوة التى تنأى به عن سفساف الأمور ، وترفعه عن الدنايا ، فلا يأتى ما يخلّ بالمروءة ، أو يشين الشرف . . !

وليس هذا فى الإنسان وحده ، بل إنه فى عالم الحيوان . . فالحيوان الضعيف ، يُقوّى ضعفه بالاحتيال والمخادعة . . على حين أن الحيوان القوى يأخذ فى حياته خطاً مستقيما واضحاً . . وشتان بين الثعلب ، والأسد . . فذاك من ضعفه مخادع مخاتل ، وهذا من قوته ظاهر واضح . ذاك يأكل الجيف ولا يعافها ، وهذا يعفّ عن أن يلوّث فمه بالميتة وإن هلك جوعاً . . !

وأكثر من هذا ، فإن عالم النبات يجرى على هذا الأسلوب من الحياة . . الشجرة القوية ، الطيبة ، لاتأوى إليها الهوام ، ولاتندس فيها الحشرات . . على حين

أن الأشجار الواهية الضعيفة تكون مباءة للآفات ، ومرتعاً للحشرات والهوامّ ..

وأكثر من هذا أيضا .. عالم الجماد تجد فيه هذه الظاهرة واضحة على أتمها .. فالأرض الصلبة لا تشوّه وجهها الأخاديد والحفَر .. ! والمرتفع من الأرض لا يكون مستودعاً للمياه الراكدة ، والمستنقعات .. وقمة الجبل لا تكون محطاً لخسيس الطير أبداً ..

القوّة أبداً .. هى موطن السلامة والعافية ، وهى مستودع الخير والحسن .. فإذا كانت القوة قوةً منبعثة من إيمان يعمر القلب ، ويغذّى الوجدان ، كانت قوة كلّها خير ، ورحمة ، وإحسان .

والإيمان هو الزاد الذى يغذّى القوة الروحية فى الإنسان ، ذلك الزاد الذى تتجمع عناصره من الأعمال الصالحة التى نَمَتْ فى ظل الإيمان ، والتى تجمعها التقوى التى يقول الله سبحانه وتعالى فيها : « وتزوّدُوا فإن خيرَ الزاد التقوى »

فهؤلاء المنافقون الذين ردّهم النبىّ والمؤمنون ، وفضحوا ما جاءوا إليهم به من أعذار ــ هاهم أولاء يجيئون إلى النبىّ والمؤمنين بوجه آخر من وجوه نفاقهم ، يجيئون بأعذارهم تلك التى كذّبها الله ، وفضحها النبىّ والمؤمنون ، فيزَكُّونها بالحلِف كما يذكّى الذابح البهيمة بالذبح ، بعد أن تموت وتتعفّن ! !

وماذا يريدون بهذا الحلف الكاذب ؟

يريدون أن يقبل النبىّ والمؤمنون أعذارهم ، وأن يصدقوا منهم هذا الكذب المفضوح ، وبهذا يتحقق لهم أمران :

الأمر الأول : عدم فقدان الثقة فى أنفسهم ، وفى تلك البضاعة التى يتعاملون بها ، لأنه لا وجود لهم إذا أفلت من بين أيديهم هذا الزاد الذى يعيشون فيه ، وبارت تلك البضاعة التى هى رأس مالهم فى الحياة ..

وثانى الأمرين ـ وهو تبع للأمر الأول ـ أن يُعرض النبىّ والمؤمنون عنهم ، فلا يأخذونهم باللوم ، ولا يضعونهم موضع الاتهام ..

وقد دعا الله النبىّ والمؤمنين أن يعرضوا عنهم ، ولكن لا إعراض المصدّق أو المتسامح ، بل إعراض المشمئز المتقزز النافر من شىء كريه ، تؤذيه رائحته : « إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون » .. فإنهم لو سلموا من أذى النبىّ والمسلمين ، فلن يسلموا من عقاب الله ، ومن عذاب السعير المعدّ لهم ..

* قوله تعالى : « يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » .

هو بيان لحلف يحلف به المنافقون ، يريدون به أكثر مما يريده الذين حلفوا منهم ، وكانوا يريدون به أن يعرض عنهم النبى والمؤمنون ، فلا ينالوهم بأذى ..

أما هؤلاء ، فإنهم يبغون بحلفهم أن يرضى النبىّ والمؤمنون عنهم ، وأن يخلطوهم بهم ..!

وقد أيأس الله المنافقين من أن ينالوا بحلفهم هذا الرضا الذى طلبوه ، وأنه حتى لو رضى النبى والمؤمنون عنهم ـ وهذا ما لا يكون أبداً ـ فلن يرضى الله عنهم : « فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » ..

* قوله تعالى : « الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »

تشير الآية الكريمة هنا إلى ما للبيئة من أثر فى طبيعة الإنسان ، وفى رسم معالم شخصيته ، وتحديد مواقفه من الحياة .

والبادية ، وما فيها من جفاف ، وجدب وقسوة ، قد طبعت الكائنات فيها ـ وبخاصة الإنسان ـ بطابعها الجاف الجديب القاسي .. وفى المثل : « من بَدَا جَفَا » .

ومن هنا كانت الطبيعة الحادّة فى نفس البدوىّ ، ذاهبةً به مذهب الغلوّ والتطرف ..

فالمنافقون من أهل البادية على نفاق أشد وأسوأ من نفاق سكان الحضر ..

وكذلك كفرهم .. هو كفرٌ غليظ كثيف مُغْلَق ، لا تطلع عليه ضوءة من الحق أبداً ، وإنهم لبعدهم عن مواقع الهُدَى من رسول الله ، ومن المؤمنين ، قد فاتهم خير كثير ، إذ لم يعلموا ما بين يدى الله ؛ من دين الله ، ومن شريعة الله . . ومن عَلِم منهم شيئاً من هذا ، لم يعلمه علم تحقق ويقين . .

وفى قوله تعالى : « والله عليمٌ حكيمٌ » دعوةٌ لهؤلاء الأعراب أن ينزعوا لباس البداوة ، وأن يخرجوا من حياتهم تلك ، إلى حياة الحضر ، وأن يقتربوا من مواطن العلم والمعرفة ، حيث يلقوْن رسول الله ، ويأخذون عنه ، ويخالطون المؤمنين ، ويحذون حذوهم . . فالله سبحانه « عليم حكيمٌ » ولا يعرف الطريق إلى الله ، ويحسن التعامل معه ، إلا أهل العلم والحكمة . .

فالإسلام إذ يشنع على البداوة ، وإذ يَصِمُ أهلها بالنفاقِ الكريه ، والكفر الغليظ ، والجهل الفاضح ـ الإسلام بهذا يدعو إلى العمران ، ويحرض على المدنية ، ويبغض إلى الناس العُزلة والوحشة وقبول الحياة ، كما هى ، من غير معالجة لأشيائها ، ووضع بصمة الإنسان العالم الحكيم عليها . .

* قوله تعالى : « وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ

بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »

الأعراب الذين دخلوا فى الإسلام على غير علم أو نظر ، لم يكن لهذا الدين أثر فى نفوسهم ، ولا لشريعته حساب فى ضمائرهم .. إنهم مسلمون ، وليسوا مؤمنين ، كما وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان فى قلوبكم » .. (١٤ : الحجرات)

هؤلاء الأعراب إذا دُعوا إلى الإنفاق فى سبيل الله ، بحكم أنهم مسلمون ، تجب عليهم الزكاة ، كما يجب عليهم الجهاد بالمال والنفس فى سبيل الله - إذا دُعوا إلى الإنفاق لم ينفقوا إلا تحت هذا الحكم الملزم لهم ، لا عن طواعية واختيار ، ولهذا يَعدّون ما ينفقون فى هذا الوجه مَغرماً ، لأنهم أنفقوه فى غير ما يشتهون ، فهم لهذا ينظرون إلى الوجه الذى أنفقوه فيه نظر حقد وكراهية ، ويتربصون بالمسلمين وبالمجاهدين الدوائر ، أى يتمنون لهم الهزيمة والضياع ، حتى لا يكون للإسلام يدٌ عليهم تأخذ من أموالهم ما تأخذ من صدقات ..

والدوائر جمع دائرة ، وهى خط أشبه بالحلقة ، يدور حول نقطة ارتكاز فى وسطه .. وقد استعيرت للشر يقع بالإنسان أو الجماعة ، فى مجال الصراع مع قوة أخرى معادية ، فيقال دارت عليهم الدائرة ، أى هُزموا ، وذلك يعنى أنهم قد أطبق عليهم العَدوّ وأحكم عليهم إغلاق طريق الإفلات أو الفرار ، فكانوا وكأنّ العدوّ دائرة عليهم .

وقد ردّ الله على المنافقين الذين يتربصون بالمؤمنين الدائرة بقوله : « عليهم دائرة السّوء » .. فقضى الله عليهم هذا القضاء ، وتوعدهم به ، وهو أن الدائرة التى ينتظرونها فى المسلمين ، لن تقع فى المسلمين ، الذين سيكتب الله

لهم العزة والغلَب ، وإنما ستحلّ الدائرة بهؤلاء المنافقين ، وسينزل بهم الخزى والسوء .

وفى قوله تعالى : « والله سميع عليم » تهديد لهؤلاء المنافقين بمراقبة الله سبحانه وتعالى لهم ، واطّلاعه على ما يسرّون ومايعلنون ، وأنه سبحانه مؤاخذهم بما كانوا يكسبون . .

* قوله تعالى : « ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قُرُباتٍ عند الله وصلواتِ الرسول .. ألآ إنّها قُربةٌ لهم سيُدْخِلُهم الله فى رحمته .. إن الله غفور رحيمٌ » .

ليس الأعراب جميعاً على حالٍ سواء ، فإذا كانت الصحراء تنبت الشوك والحسك ، وتُؤوِى الوحوش والحيّات ، فإنها تخرج العَرَار[1] والريحان ، وتتحلّى بالظّباء والنّعام . .

وإذا كان فى أعراب البادية ، الجُفاةُ ، وأهل الوحشة والجهالة ، فإن فيهم ذوى النفوس الرقيقة ، والقلوب المتفتحة ، والوجدانات الشفيفة . . التى تذوب رقة وعذوبة . . إن هؤلاء أشبه بالأنسام العليلة الرطبة ، التى تهمس بها أنفاس الصحراء بين الحين والحين فى آذان الأصائل والأشجار ، فتبعث الرَّوْح والعافية فى كيان الأحياء ، التى كادت تهلك من لفحات الهجير ، ووقدات السّموم ! . .

ففى أعراب البادية الشعراء ، والحكماء ، وأصحاب الفِرَاسة والألمعية التى تلمح بذكائها الفطرى ما لا تلمحه العين المبصرة وراء الجهر ، وتكشف بصدق حَدْسها وظنّها من خفايا النفوس ، ما لا يكشفه عالم النفس بأدوات علمه ، ومقاييس فنّه .

والذين دخلوا الإسلام من هؤلاء الأعراب ، من ذوى النظر ، والحكمة ، قد عرفوا هذا الدِّين معرفة كاشفة ، فازدادت به بصائرهم استضاءة وتألقاً ،

(١) العرار : نبت طيب الريح .

واستروحت منه قلوبهم روح الطمأنينة واليقين . . فصحبوا هذا الدين صحبة المؤاخاة والمخالطة ، وعايشوه معايشة الأمن والعافية ، وأمسكوا به إمساك الأرض الطيبة هواطلَ الغيث السَّخىّ . . فاهتزت وربَتْ وأنبتت من كل زوجٍ بهيج . فإذا أنفق هؤلاء المؤمنون من الأعراب نفقةً فى سبيل الله احتسبوها قُرُباتٍ يتقربون بها إلى الله ، ويبتغون بها مرضاته ، ويلتمسون منها صلواتِ الله وبركات دعائه . .

وفى قوله تعالى : « وصلواتِ الرسول » بالعطف على قوله سبحانه : « قرباتٍ عند الله » إشارة إلى أن صلوات الرسول ، أى دعاءه لمن يُقدّم له الصدقات ، هى مما يتقرب به المتقربون إلى الله . . فهى صدقاتٌ إلى صدقاتهم ، يضيفها الرسول إليهم لتزيد فى قربهم إلى الله . .

فلقد ، كان الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يصلّى على المتصدق ، أى يدعو له ، بالخير ، والبركة ، وذلك امتثالاً لقوله تعالى : « خذ من أموالهم صَدَقةً تطهرّهم وتُزَكيّهم بها وصلِّ عليهم إن صلاتك سَكَنٌ لهم » . .

وقوله تعالى : « ألا إنّها قُرْبةٌ لهم » هو توكيد للمفهوم الضمنى الذى أفاده عطف صلوات الرسول على قوله تعالى : « قرباتٍ عند الله » . . فهذه الصلوات والدعوات من الرسول هى قربةٌ لهم عند الله ، بمعنى أن دعاء الرسول للمؤمن ، يعنى رضًا الرسول عنه ، وهذا الرضا هو فى ذاته قربة عند الله للمؤمن ، ينال به رضا الله ومغفرته ، سواء أكان دعاء الرسول ورضاه عن نفقة أنفقها المؤمن ، أو عن كلة طيبة قالها ، أو مسعى حميد سعى به بين المسلمين، أو موقف كريم وقفه ، أو مشهد حسن شهده . . وقد دعا الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لعثمان رضى الله عنه ، حين أنفق ما أنفق فى تجهيز جيش العسرة فقال : « اللّهم ارضَ عن عثمان فإنى أصبحت عنه راضياً » ! فكان عثمان بذلك أحد العشرة المبشرين بالجنّة .

وقوله تعالى : « سيدخلهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم » ـ هو الجزاء الذى سيجزيه الله هؤلاء الذين أنفقوا فى سبيل الله ، فنالوا رضا الله عنهم ، ورضا رسوله ، وصلواته عليهم . .

الآيات : (١٠٠ — ١٠٦)

* « وَٱلسَّابِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَاتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (١٠٦)

التفسير : « والسابقونَ الأولونَ من المهاجِرينَ والأنصار والذين اتّبعوهم بإحسانٍ رضى الله عنهم ورضُوا عنه وأعدّ لهم جنّاتٍ تجرى تحتَها الأنهارُ

خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم » مناسبة هذه الآية لما قبلها أنها تعرض صورة مشرقة للمؤمنين ، الذين يتجلّى عليهم الله سبحانه وتعالى برضوانه ، وينزلهم منازل فضله وإحسانه ، وذلك بعد أن عرض فى الآية السابقة عليها صورة مضيئة ، انبثقت من بين ظلام البداوة ، وطلعت من مهابّ سمومها وهجيرها . .

فالسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ـ هم الإنسانية الكريمة الوضيئة ، يتمثل فيهم كل ما يمكن أن تعطيه الإنسانية من ثمر طيّب مبارك . . فهم من الإنسانية بمنزلة هذه القِلّة من أعراب البادية ، الذين خَلَصُوا من كَدَر البادية ، وسلموا من أدرانها وأوضارها . .

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . . هم الذين سبقوا إلى الإسلام ، فكانوا الكوكبة الأولى التى تقدمت ركبه الميمون ، وكانوا الكواكب الدّرّية التى بين يد فجره الوليد . . أولئك هم الذين حملوا أعباء الدعوة الإسلامية ، واحتملوا ـ فى صبر ورضا ـ مواجهةَ العاصفة التى هبّت عليهم عاتيةً مزمجرة ، تحمل فى كيانها جهالة الجاهلية ، وحماقاتها ، وسفاهاتها ، وعتوّها وضلالها . . فكان لهم عند الله هذا المكان الكريم ، وتلك المنزلة التى اختصهم بها ، وأفردهم فيها . .

فمن أراد أن يلحق بهم ويضاف إليهم ، فسبيله إلى ذلك أن يقفُوَ أثرهم ، ويتّبع سبيلهم ، ويحسن كما أحسنوا ، ويُبلِيَ كما أبْلَوْا . . فذلك هو الثمن لمن يطلب رضا الله ، ويطمع فى أن يكون مع أحبابه وأصفيائه . . فيكون بهذا مضافاً إليهم مع الذين اتبعوهم بإحسان .

وفى قوله تعالى : « بإحسان » هو قيد مؤكّد ، يكشف عن الإحسان الذى يكون من متابعة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، والتأسّى بهم . .

فمتابعتهم هى إحسانٌ ، وقوله تعالى : « بإحسانٍ » هو توكيد لهذا الإحسان الذى تنطوى عليه المتابعة .. وهذا يعنى أن ما كان من السابقين من المهاجرين والأنصار ، هو إحسان كلّه ، فمن تابعهم ، وتأسّى بهم على ما كانوا عليه ، فهو مُحسن .. كل الإحسان !.

وقوله تعالى : « رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعدّ لهم جنّاتٍ تجرى تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبدًا ذلك الفوز العظيم » هو عرض كاشف لمنزلة هؤلاء الصفوة من عباد الله ، وأنّ الله رضى عنهم ، بما كان منهم من إحسان ، وأنّهم رضُوا ، بما أرضاهم الله به ، ونَعِمُوا فيه ..

وفى قوله تعالى : « ورضوا عنه » رضوان فوق رضوان من عند الله ، يحفّهم به ، ويزيدهم نعيماً إلى نعيم .. إذ جعل الله سبحانه وتعالى رضاهم عنه بما أعطاهم معادلاً لرضاه عنهم ، حتى لكأنه سبحانه وتعالى ، يتبادل الرضا معهم ، فيرضى عنهم ، ويرضَوْن عنه .. فسبحانه ، ماأعظم لطفَه ، وما أوسع فضله ، وما أكرم عطاءه ، وأسبغ إحسانه !

قرئ : « والأنصارُ » بالرفع . على الاستئناف ..

وفى هذه القراءة يكون قوله تعالى « والسابقون الأولون » مقصورًا على المهاجرين وحدهم.. وهذه القراءة ينقضها التفسير العملىّ للآية الكريمة التى احتج بها أبو بكر رضى الله عنه على الأنصار ، وجعلها مستنده فى تقديم المهاجرين على الأنصار ، فقال فى خطبة « يوم السقيفة » مخاطبا الأنصار : « أسلمنا قبلكم ، وقُدّمنا فى الكتاب عليكم ، فقال تعالى « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » فنحن الأمراء ، وأنتم الوزراء..

وهذا يعنى أن الأنصار شركاء للمهاجرين فى هذا الفضل ، الذى تُطلب الخلافة به ، وأن المهاجرين إذا كانوا أولاً ، فالأنصار ثانياً ، كما جاء ذكرهم فى

القرآن الكريم : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » فذُكِرَ المهاجرون أولا ، ثم الأنصار ثانيا . .

وإذا كانت واو العطف النحوية لاتفيد ترتيباً ، ولا تعقيباً ، فإن واو العطف القرآنية ، تفيد ترتيباً وتعقيباً . . هكذا دائماً . فى كل مقام وقع فيه العطف بين متعاطفين أو أكثر . .

وأما قوله تعالى : « والذين اتبعوهم بإحسان » . . فهو معطوف كذلك على ماقبله عطف نسق ، بمعنى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوا السابقين من المهاجرين والأنصار ، هم جميعاً ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعدّ لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً . . وإن كان ثمة تفاضل فهو فى الدرجة ، وليس فى الرتبة .

والأنصار أعنى السابقين الأولين منهم ، وهم الذين بايعوا النبىّ بيعتى العقبة . الأولى والثانية قبل الهجرة ، والذين استجابوا له ،وأقاموا المجتمع الإسلامى الأول بالمدينة ، وكانوا حصن الإسلام والمسلمين ـ هؤلاء جديرون بأن يشاركوا المهاجرين الأولين منزلتهم ، وأن يزاحموهم بالمناكب عليها ، وإن كان فضل الله أوسع وأرحب من أن يقع فى رحابه زحام أو صدام . .

وكذلك الذين جاءوا من بعد المهاجرين الأولين والأنصار ، وسلكوا طريقهم ، وساروا سيرتهم ، هم جديرون بأن يلحقوا بهذا الركب الميمون ، وأن يكونوا منه غير بعيد . .

فإذا كانت مع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار آيات النبوّة ، ونفحات النبىّ ، فسبقوا إلى الإيمان ، ودانوا له ، وأعطوه ولاءهم كاملاً ، حتى اشتمل عليهم ظاهراً وباطناً ، وكان حَرِيًّا بهم أن يبلغوا من الصفاء والشفافية واليقين ما بلغوا ، مما تنقطع دونه الأعناق ـ إذا كان ذلك كذلك ، فإن الذين

يجيئون من بعدهم فى أجيال الإسلام المتعاقبة إلى يوم القيامة ، ويؤمنون إيمانًا أقربَ إلى إيمانهم ، ويأخذون سمتًا مُدَانيًا لسمتهم ـ هم أهل لأن يلحقوا بهم ، وأن ينزلوا منزلتهم ، إذ أنهم آمنوا وأحسنوا ، ولا نبوةَ بين أيديهم ، ولا نبىَّ يملأ حياتهم هُدًى ونورًا . .

يقول ابن مسعود رضى الله عنه : « إنَّ أمرَ محمدٍ كان بيّنًا لمن رآه . . والذى لآ إلٰهَ غيْره ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب ، ثم تلا قوله تعالىٰ : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »

هذا وقد جاء ذكر هؤلاء الصفوة من المؤمنين ، من السابقين الأولين ، من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان — جاء ذكرهم على هـذا الترتيب فى قوله تعالى : « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ » (٨ — ١٠ : الحشر) .

وهكذا الإسلام ، طريقه مفتوح دائمًا لأصحاب النفوس الطيبة ، والقلوب السليمة ، والعزائم الصادقة ، يرتادون فيه منازل الرضوان ، وينزلون منها حيث

يبلغ جهدهم ، وتحتمل عزماتهم . . وهكذا يدخل المسلمون جميعاً ، بل الناس جميعاً ، تحت قوله تعالى: « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . . ففى ذلك فليتنافس المتنافسون ، ولمثل هذا فليعمل العاملون . . قوله تعالى : « وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مَرَدُوا على النفاقِ لاتعلمهم نحن نَعْلَمهم سنعذّبهم مرّتين ثمّ يُرَدّون إلى عذابٍ عظيم »

بعد هذه الصورة المشرقة التى عرضتها الآية السابقة لأهل السبق والإحسان وما أعدّ لهم من نعيم ، وما أسبغ عليهم من رضا ـ جاءت هذه الآية لتعرض صورة معتمة طامسة ، لأهل الزيغ والضلال ، وتكشف عن وجوهٍ منكرةٍ للإنسانية حين تفسد فطرتها ، وتشوه معالم إنسانيتها .. وذلك ليكون لهؤلاء المنافقين الضالين نظر فى أنفسهم ، ورجعة إلى ربهم ، إن كانت قد بقيت فيهم بقية صالحة لنظر واعتبار .

ففى الأعراب الذين حول المدينة منافقون ، وفى المدينة ذاتها منافقون . . وهؤلاء وأولئك جميعاً قد مردوا على النفاق ، أى شبوا عليه ، ورضعوا أخلاقه وهم شباب مُردٌ ، فمرنوا عليه ، وخف عليهم محمله ، إذ شب معهم وصار بعضاً منهم ، أشبه بالجارحة من جوارحهم . .

وفى قوله تعالى « لا تعلمهم نحن نعلمهم » تهديد ووعيد لأولئك المنافقين الذين برعوا فى النفاق ، وصاروا أساتذة فيه ، حتى لا يكاد يطلع عليهم أحد ، وهم يتعاملون به ، ويتعاطون كئوسه مترعة ! ولكن الله يعلمهم ، وهو ـ سبحانه ـ الذى يتولى حسابهم ويأخذهم بذنوبهم ، بل ويفضحهم فى هذه الدنيا ، بما ينزل من آيات فيهم . .

* وقوله تعالى : « سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم » . .

اختلف المفسرون فى عذاب المنافقين مرتين . . ولم نجد عندهم ما نرضاه ونستريح إليه . .

ونقول ـ والله أعلم ـ : إن عذاب المنافقين مرتين هو فى النصر الذى يتحقق للإسلام ، وفى المغانم التى تمتلىء بها أيدى المسلمين ، هذا عذاب من أحد العذابين ، الذى تتقطع به قلوب المنافقين كمداً وحسرة . . أما العذاب الآخر ، فهو ما يصيبهم فى أنفسهم من بلاء على أيدى المؤمنين ، حيث يجرفهم تيار الإسلام ، ويزعج أمنهم وسلامتهم ، ويخرجهم من ديارهم وأموالهم كما حدث مع اليهود . .

أما العذاب العظيم الذى يُردّون إليه بعد هذين العذابين ، فهو عذاب الآخرة، «يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون » . (٥٥ : العنكبوت)

* قوله تعالى : « وآخرون اعترفُوا بذنوبِهم خَلَطوا عملاً صالحًا وآخَر سيئًا عَسَى الله أن يتوبَ عليهم إن اللهَ غفورٌ رحيمٌ » .

هو إشارة إلى صنف آخر من الذين نافقوا فى غزوة تبوك ، فتخلفوا عنها بأعذار ملفّقة ، وتعللوا بتعللات كاذبة ، وقد وقع فى أنفسهم النّدم على ما كان منهم ، وجاءوا إلى النبى معترفين بذنوبهم ، ومنهم الثلاثة الذين خُلّفوا ، والذين ذكرهم الله بعد ذلك فى قوله سبحانه : « وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا » .

فهؤلاء المخلّفون ، قد خلطوا عملاً صالحًا كان منهم قبل هذا التخلف ، بآخر سيّىء ، هو هذا التخلف عن رسول الله وعن المؤمنين فى غزوة تبوك . .

ــ وفى قوله تعالى : « عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفورٌ رحيمٌ » دعوة لهم إلى المبادرة بالتوبة ، والانخلاع مما تلبّسوا به من خلافٍ لله ولرسوله . . فإنهم إن أخلصوا نيّاتهم ، وأخلوا قلوبهم من وساوس النفاق ، ورجعوا إلى الله تائبين ـ كانوا بمعرض الصفح والمغفرة ، فإنهم يطلبون الصفح والمغفرة من رب غفور رحيم .

* قوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقةً تطهرهم وتُزَكّيهم بها وصلِّ عليهم إن صَلاَتَكَ سَكَنٌ لهم والله سميعٌ عليم » - هو تحريض للمؤمنين عامة ، ولهؤلاء المذنبين خاصة على البذل والإحسان فى سبيل الله ، فإن إنفاق المال فى سبيل الله هو عِدْل الجهاد بالنفس ، وهو تطهير للمتصدق ، وتزكية له من الأوضار والآثام التى تعلق به .

- وفى قوله سبحانه : « من أموالهم » إشارة إلى أن المطلوب بذله فى وجوه الإحسان من المال ، هو بعضه لا كلّه ، وفى ذلك رحمة بالناس .

- وفى قوله تعالى : « وصلِّ عليهم إن صلاتك سَكَنٌ لهم » - أكثر من إشارة :

فأولا : أن فى صلاة النبىّ علىّ المتصدّق ، ودعائه له ، مجازاةً عاجلة بالإحسان ، يجد المتصدّق أثرها فى نفسه ، وبَرْدَها على قلبه ، فيَشيع فى كيانه الرضا ، وتملأ قلبه السكينة .

وهذا أدبٌ ينبغى أن يتأدب المسلمون به ، فيلقوْن إحسان المحسن بالحمد والشكران ، فإن ذلك أقلّ ما يُجزى به ، والله سبحانه وتعالى يقول : « هل جَزاء الإحسان إلا الإحسان » . . وبهذا تتفتح النفوس للخير ، وتسخو الأيدى بالإحسان . .

وثانيا : أن الإحسان فى ذاته جديرٌ بأن يُحمَد المحسن فى كلِّ إنسان ، سواء أصابه شىء من هذا الإحسان أم لم يُصِبْه ، فهو عمل طيب ، وصنيع مبرور ، وكما ينبغى على المؤمن أن ينكر المنكر لذاته ، كذلك يجب عليه أن يحمد المعروف لذاته . . وبهذا يَشيع فى الناس الخير ، وتتكاثر أعداد المتعاملين به .

والرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إنما يدعو للمتصدقين ، ويصلّى عليهم ، لا لأنه يحتجز صدقاتهم لنفسه ، ويضمها لذات يده ، وإنما لأنها خير مبذول فى وجوه الخير ، وبِرٌّ مُرْسل فى سبيل الله ..

وهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قائم على رسالة الخير والبرّ .

هذا ، وقد قيل فى سبب نزول هذه الآية : إن الثلاثة الذين خُلّفوا ، حين اعترفوا بذنوبهم ، ونزل فى قبول توبتهم قوله تعالى : « وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا » ، جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأموالهم ، فقالوا : هذه أموالنا التى خلّفَتْنا عنك ، فخذها وتصدّق بها عنا ، فقال النبيّ : « ما أُمرت » فنزلت الآية : « خذ من أموالهم صدقَةً » .

وهذا سبب غير واضح ، وغير مناسب لهذا الموقف ، فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد كرّم هؤلاء الثلاثة الذين خلّفوا ، وقبِل توبتهم ، وأنزل فى ذلك قرآنا ، فكيف لايقبل الرسول صلوات الله وسلامه عليه مايقدّمون من صدقات ؟ أليسوا مؤمنين ؟ أليسوا ممن تجب عليهم الزكاة ؟ أليسوا ممن يُطالب إليهم الإحسان ويُقبل منهم . ؟

والذى نستريح إليه ، هو أن الآية أمرٌ مطلق ببذل الصدقات ، وأن مناسبة ذلك هو ماعرض من آثام المنافقين وجرائمهم ، فناسب ذلك أن يجىء الأمر بالدعوة إلى الزكاة ، التى من شأنها تطهير الآثمين .. وفى توجيه الأمر للنبى صلوات الله وسلامه عليه بقبولها ، تحريض للمسلمين على أدائها ، وإشارة دالّة على اليد الكريمة التى تتناولها منهم ، والجزاء الحسن الذى تجزيهم به .. وليس هذا فحسب ، بل إن الله سبحانه وتعالى هو الذى يتقبل منهم صدقاتهم ، كما تشير إلى ذلك الآية التالية ..

* قوله تعالى : « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم » . . فى الآية وعد كريم من الله سبحانه وتعالى بأنه يقبل التوبة عن عباده . فيلقى التائب منهم بالقبول والمغفرة ، ويتقبل مايقدّم من صدقة . . وهذا ينقض ماقيل فى سبب نزول الآية : « خذ من أموالهم صدقة » . كما أشرنا إلى ذلك من قبل . . فإن من قبل الله توبته ، لم يردّ صدقته . .

والاستفهام هنا تقريرى ، وضمير الفصل هو توكيد لاختصاص الله سبحانه وتعالى وحده بقبول التوبة ، ومنح العفو والغفران . . وليس ذلك لغير الله . .

— وفى قوله تعالى « يقبل التوبة عن عباده » ما يسأل عنه ، وهو :

لِمَ عُدِّى الفعل « يقبل » بحرف الجرّ « عن » مع أن الاستعمال اللغوى لهذا الفعل لم يجىء متعديا إلاّ بحرف الجرّ « من » . . كما جاء ذلك فى الاستعمال القرآنى لهذا الفعل فى قوله تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعدَ من البيت وإسماعيلُ ربّنا تقبّل منّا إنك أنت السميع العليم » وفى قوله سبحانه : « إذ قالت امرأة عمران ربِّ إنى نذرتُ لك ما فى بطنى محررا فتقبل منّى إنك أنت السميع العليم » . .فلم عدّى الفعل هنا بحرف الجر « عن » ؟

الجواب ـ والله أعلم ـ أن التوبة التى يقبلها الله من عباده تضع عنهم ما حُمّلوا به من أوزار ، وما أثقل كاهلهم من ذنوب ، فكان فى قبول التوبة منهم رفعٌ لهذه الآثام عنهم ، ولهذا ضُمن الفعل « يقبل » معنى الفعل يضع ، أو يُسقط . . ونحو هذا ، كما نظر إلى التوبة على أنها شىء محمّل بالذنوب والآثام لأن التوبة لا تكون إلا عن ذنب وقع ، أو إثم اقترف .. فكان قوله تعالى :

« ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده » يعنى ألم يعلموا أن الله يضع الذنوب والآثام عن عباده . ويرفعها عن كواهلهم ؟ . وقوله تعالى : « ويأخذ الصّدقات » إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يأخذ صدقات المتصدقين ويجزيهم عليها ، وأن النبىّ إذ يأخذها منهم ، فإنما يأخذها بأمر الله ، وينفقها فى سبيل الله ، وكذلك كل صدقة يأخذها متصدّق عليه من متصدّق . . إنها لله ، لا للمتصدّق عليه ، وهو سبحانه الذى يجزى عليها كما يقول الله سبحانه وتعالى : « قالوا يـأيها العزيز مسّنا وأهْلنَا الضرُّ وجئنا ببضاعة مُزجاةٍ فأوْفِ لنا الكيل وتصدّق علينا إن الله يجزى المتصدقين » (٨٨ : يوسف) . وفى هذا يقول النبىّ صلوات الله وسلامه عليه : « إن الصدقة تقع فى يد الله قبل أن تصل إلى يد السائل » .

* قوله تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردُّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

هو دعوة عامة للمبادرة إلى العمل فى مجال الخير والإحسان . . وفى العمل فى هذا المجال يُعرفُ العاملون بأعمالهم . . فما كان فى السرّ أو الجهر يعلمه الله ، وما كان فى الجهر يعلمه الرسول ويعلمه المؤمنون ، وعلى حسب هذه الأعمال يجزى الله ، ويضع المحسنين ، والمقصرين ، والمسيئين ، كل منهم فى منزلة ، ويجزيه الجزاء الذى هو أهل له . . وعلى ما يظهر من هذه الأعمال للرسول وللمؤمنين ، يكون قرب العاملين أو بعدهم من رسول الله ومن المؤمنين ، ويكون حسابهم معهم ، من موالاة أو معاداة . .

هذا فى الدنيا ، فإذا كانت الآخرة كُشف الغطاء عن أعمال العاملين ، خيرِها وشرها ، وجُوزوا عليها بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً .

* قوله تعالى : « وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

الإرجاء : التأخير والانتظار ، . . يقال : أرجأت الأمر وأرجيته ، أى أخرته . . ومُرجوْن لأمر الله ، أى مؤخرون ومنظرون لما يقضى به الله فيهم .

قيل نزلت هذه الآية فى الثلاثة الذين خلفوا ، وهم كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وهم من الأنصار ، وكانوا قد تخلفوا فى غزوة تبوك ، ولم يكن لهم عذر ، ولم يكن هذا التخلف عن نفاق . ولكن عن توانٍ وفتور ، وتردد . . فلما رجع النبى صلى الله عليه وسلم من تبوك تلقاه المنافقون بأعذارهم ، فقبلها منهم ،وتركهم لحسابهم مع الله . . وأما هؤلاء الثلاثة فإنهم صَدَقوا الرسولَ فيما قالوا إذ قالوا : « والله يارسول الله مالنا من عذر نعتذر به »وكانوا حين تخلّفوا عن رسول الله قد استشعروا الندم . فأوثقوا أنفسهم بسوارى[1] المسجد ، وأقسموا ألا يطلقوا أنفسهم منها ، حتى يكون رسول الله هو الذى يطلقهم ، فلما رجع الرسول ، وأخبر خبرَهم ، قال : « وأنا أقسم لا أكون أول من حلّهم إلاّ أن أُومر فيهم بأمر » . فلما نزل قوله تعالى : « وآخرون مُرْجَوْنَ لأمرِ الله إما يعذّبُهم وإما يتوب عَلَيهم » عمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لحَلّهم . . ونهى رسول الله المسلمين عن مكالمتهم ، وأمَرَ نساءهم باعتزالهم . . حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وأقاموا على ذلك خمسين ليلة ، ثم نزل قوله تعالى : « وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا » فكان ذلك إيذانا بقبول توبتهم .

هذا مما أجمع عليه المفسّرون . .

غير أن لنا فى الآية رأيا آخر ، وهو أنها تكشف عن جانب من رحمة

---

(١) السوارى : جمع سارية . وهى عمود المسجد .

الله بعباده ، وتفضله على المذنبين العصاة منهم ، وهم الذين لم يتوبوا إلى الله ، ولم ينزعوا عما اقترفوا من إثم .. فهؤلاء مذنبون عصاة ، ينتظرون حكم الله فيهم ، إن شاء أخذهم بذنوبهم فعذّبهم ، وإن شاء عاد بفضله عليهم ، فعفا عنهم ، هكذا كرماً منه وفضلاً .. وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة : « نُصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين » (٥٦ : يوسف)

ولا يُرَدُّ على هذا ، بأنّ ذلك مما يُبطل عمل العاملين ، ويسوّى بين المحسنين والمسيئين ، كما أنه يناقض قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلاّ ما سَعَى » وقوله سبحانه : « فمن يعمل مثقال ذرّةٍ خيراً يَرَه ومن يَعمل مثقال ذرّةٍ شراً يره » .

ونقول : إن الله سبحانه وتعالى بإحسانه إلى المسيئين ، وتجاوزه عن سيئاتهم لايجور على عمل المحسنين ، ولا ينقص من إحسانهم شيئاً ، بل إنه سبحانه يوفّيهم أجرهم غير منقوص ، كما يقول سبحانه : « ولا نضيع أجر المحسنين » .

أما التسوية بين المحسنين والمسيئين : فليست واقعة على إطلاقها .. وذلك :

أولا : أن المحسن مجزىٌّ بإحسانه ، بلا شك ، كما يقول سبحانه : « ولا نضيع أجر المحسنين » .. أما المسىء فهو فى منزلة بين منزلتين : إما أن يأخذه الله بذنبه ، وهذا هو الوجه الذى يطلّ عليه من سوء عمله ، وإما أن يتجاوز الله عنه ، ويعود بفضله عليه ، وهذا هو الوجه الذى يطلع عليه من رحمة ربّه !

وثانياً : أنه ليس إحسان المحسن وحده هو الذى يدخله الجنة ، وإنما قبل ذلك كلّه ، هو شموله برحمة الله ، كما فى الحديث الشريف : « لايدخل أحدكم الجنة بعمله ، قيل ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته ».. رحمة الله التى وسعت كلّ شىء .. تنال البر والفاجر .

وثالثاً: ليس المحسنون والمسيئون على سواء من رحمة الله .. فالمحسنون أقرب إليها، وأكثر تعرضاً لها، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: «إن رحمة الله قريب من المحسنين». والمسيئون وإن بعدوا عن رحمة الله، فليس ذلك بالذى يحجبهم عنها، ويحرم بعض المسيئين منهم حظهم منها، وذلك لمشيئة الله فيهم، وإرادته بهم .. كما يقول سبحانه: «نصيب برحمتنا من نشآء».

وأما قوله تعالى: «وأن ليس للإنسان إلا ماسعى» وقوله سبحانه: «فمن يعمل مثقال ذرّةٍ خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره» .. فهو الميزان الذى يوزن به عمل كل عامل، وسعى كل ساع .. ومع هذا، فإن الله يضاعف للمحسنين إحسانهم، وأنه سبحانه إذ يُرِى المحسنَ عمَلَه لايقف به عند هذا العمل، بل يفَضِّل عليه بأضعاف ماعمل ..

وكذلك المسىء، إذا كان لا يَقْدُم على الله إلا بما سعى، وماحصّل من سيئات، فإنه ليس من حرج على فضل الله أن يتجاوز عنه .. ليرى آثار رحمة الله فيه .. وذلك رهنٌ بمشيئة الله وتقديره .. «والله عليمٌ حكيم» .. يقضى بعلم، ويحكم بحكمة .. والله سبحانه وتعالى يقول على لسان المسيح عليه السلام: «إن تعذِّبْهم فإنّهم عِبَادك وإن تغفرْ لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ..».

الآيات: (١٠٧ — ١١٠)

«وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ

وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (١١٠)

التفسير : الضِّرار : المضارّة ، وطلب إلحاق الضرر بالغير ، والإرصاد : الترقب والتربص ، والانتظار .. وشَفَا جُرُف : أى حافة الجرف وشفيره .. والجرف : رأس الهاوية المطلّ على منحدرها .. والهارى : المنهار ..

* قوله تعالى : « والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حاربَ اللهَ ورسولَهُ من قبلُ وليَحلِفنَّ إن أردْنا إلا الحُسْنى والله يشهد إنهم لكاذبون » .

قرأ أهل المدينة « الذين اتخذوا » بغير واو العطف ، وذلك على الاستئناف وابتداء عرض وجه آخر من وجوه المنافقين ..

وقرىء بالعطف ، وهو القراءة المشهورة وعليها تنتظم وجوه المنافقين فى سلك واحدٍ ، على تقدير : ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً ..

— وقوله تعالى : « ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل » .. المنصوبات المتعاطفة هنا هى مفعول لأجله ، تكشف عن السبب الذى لأجله بنى هذا المسجد ، وهو للمضارة ، لا للنفع ، وللكفر لا للإيمان ، ولإيواء من حارب الله ورسوله ، لا لدعوة من آمن بالله ورسوله ..

قيل إن هذا المسجد بناه جماعة من المنافقين ، من بنى غنم بن عوف ، حسداً لبنى عمهم عمرو بن عوف ، الذين كانوا قد بنوْا مسجد قباء ، ودعَوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلّى فيه ، فأجابهم ، وصلى المسلمون معه .. فكان أولَ مسجد بنى فى الإسلام ..

وحين أتم بنو غنم بناء هذا المسجد إلى جوار مسجد قباء، جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، يدعونه أن يصلى فى مسجدهم هذا، وكان النبىّ يتهيأ لغزوة تبوك، فقال لهم: «إنى على جناح سفر، فلو قدمنا أتيناكم، إن شاء الله، فصلينا لكم فيه» .. فلما انصرف الرسول من تبوك، نزلت عليه هذه الآية وهو فى طريق العودة إلى المدينة ..

وقد فضح الله فى هذه الآية نفاق هؤلاء المنافقين، وكشف عن تدبيرهم السيء .. فإنهم مابنوا هذا المسجد ليكون بيتاً من بيوت الله، وإنما بنوه مضارّةً بمسجد قباء، حتى لايعمر بالمصلين، وليكون مأوى يأوى إليه المنافقون، ويدارون نفاقهم بالاجتماع فيه، والاستظلال بظلّه، ثم ليفرقوا بين المؤمنين، حيث لاتجتمع جماعتهم فى مكان واحد، بل يتوزعهم المسجدان المتجاوران، فيقلّ بذلك جمعهم، وتصغُر فى الأعين جماعتهم، الأمر الذى يخالف مايدعو إليه الإسلام من جمع المسلمين فى صلاة الجماعة والجمعة والعيدين، لتتوحد مشاعرهم، وتمتلىء العيون مهابةً وإجلالاً لهم .. ثم إنهم بنوا هذا المسجد ليكون راية منصوبة لأهل النفاق والضلال، حيث لايخطئهم أن يجدوا فيه ـ فى أى وقت ـ من هم على شاكلتهم فى نفاقهم وضلالهم ..

ــ قوله تعالى: «وليحلفنّ إن أردْنا إلا الحسْنَى والله يشهد إنهم لكاذبون» .. المنافقون هكذا دائماً يتخذون أيمانَهم جُنّة يحتمون بها من نظرات الاتهام التى يُرمَوْن بها، أو يقدّرون أنهم يرمون بها من كل عيْن تنظر إليهم .. وهؤلاء الذين فضحهم الله وأخزاهم بما كشف من سوء تدبيرهم، يحلفون للرسول والمؤمنين أنهم لايريدون بهذا المسجد لذى بنوه إلا مايراد من بناء المساجد وعبادة الله فيها .. وقد كذبهم الله سبحانه بقوله: «والله يشهد إنهم لكاذبون» .. وصدق الله العظيم، وكذبَ المنافقون، ولُعنوا ..

هذا وقد أمر الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بعضَ أصحابه بهدم هذا البنيان ، فهدموه . .

* قوله تعالى : « لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ » .

هذا نَهْىٌ للنبىّ الكريم أن يُلمّ بهذا المسجد ، أو أن يتلبّث عنده ، فإنه وإن أخذ سَمْت المساجد ، وسُمّى اسمَها ، فلن يشفع له ذلك فى أن يكون على طهر المساجد وقدسيتها ، لِما وسمه به المنافقون من دنس ورجس . . فكما يظهر المنافقون فى سمت الآدميين ، ويأخذون مظاهر الناس . . ثم لم يكن لهم من الإنسانية نصيب إلا هذا السّمت الظاهر ، أما حقيقتهم فإنهم دَنَس ورجس ـ كذلك كان شأن البنيّة التى بنوها ، وأطلقوا عليها اسم المسجد . . إنها لا تمثل من المسجد إلا وجهه الظاهر ، أما باطنها فكفر ونفاق وضلال !

ـــ وفى قوله تعالى : « لَمَسْجدٌ أُسِّس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه . . فيه رجال يحبّون أن يتطهروا والله يحبّ المطّهّرين » تنويه بمسجد قِباء ، وتكريم له ، ورفع لقدره ، وقدر الذين بنوْه ، والذين يَلقوْن الله فيه ـ بقدر ماهو إزراء بأصحاب مسجد الضرار ، وتشنيع عليهم ، وعلى هذا البناء الذى رفعوه فهدمه الله عليهم . .

والمراد بالرجال الذين يحبّون أن يتطهروا ، هم الذين يلقون الله فى الصلاة فى هذا المسجد . . فهى صلاة مقبولة ، فى مكان طاهر تؤدى فيه عبادةٌ خالصة لله ، من شأنها أن تطهّر أهلها ، الذين يداومون عليها ، ويقيمونها بقلوب مؤمنة ، خالية من الرياء والنفاق . .

* قوله تعالى : « أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ »

قرىء أفمن أسس بنيانه « ببناء الفعل للمجهول » ، كما قرئ « أُسُسُ » فى الموضعين ، جمع أسّ ، بمعنى الأصل والأساس . .

والآية تعرض المسجدين ، مسجد قباء ، ومسجد الضرار ، فى وضع يواجه فيه أحدهما الآخر .. فيكشف ذلك عن مدى ما بينهما من تفاوت . . هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج .. هذا طيب ، أطيب الطيب ، وهذا خبيث ، أخبث الخبث . .

والضدُّ إذا قُرن بضده ، زاد كل منهما فى الصفة الغالبة عليه زيادة لا تُرى إلا حيث يتقابل مع ضده .. فيزداد الحسن حسناً وروعة ، ويزداد القبيح شناعة وقبحاً .. وبضدها تتميز الأشياء — كما يقولون !

— وفى قوله تعالى : « فانهار به فى نار جهنم » تصوير للعاقبة التى ينتهى إليها هذا المسجد — مسجد الضرار — بأهله الذين بنوه ، وأنه إذ بنوه على ضلال ونفاق وزيف ، فهو بناء على خَواء .. على شفا جرفٍ هارٍ ، وأنه إذ ينهار فسينهار بهم فى نار جهنم ، فهم بهذا قد ظلموا أنفسهم : « والله لا يهدى القوم الظالمين » .

* وقوله تعالى : « لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

نفى القرآن فى هذه الآية عن مسجد الضرار ، كلّ ما تتسم به المساجد ، حتى اسمه ، فلم يَعُدْ مسجداً بعد أن فضحه الإسلام ، وفضح أهله ، وكشف عن

الوجه الذى قام عليه، والغاية التى بنى من أجلها .. فهو الآن «بنيان» مجرد بناء من حجر وطين .. لا يناله حتى شرف هذا الاسم الزائف الذى أعطوه إياه .

وسيظل هذا البناء ريبةً فى قلوب الذين بنوه ، أى مبعث شك ، وارتياب ونفاق ، قد عَلِقَ ذلك كله بقلوبهم ، وتمكن منها ، لايستطيعون فكاكا منه، إلا بعد أن تتقطع قلوبهم .. وهذا لا يكون إلا إذا ماتوا ، وماتت الريبة معهم ! ..

— وفى قوله تعالى : « فى قلوبهم » إشارة إلى أن الريبة قد استقرت فى قلوبهم ، فاحتوتها هذه القلوب ، وصارت ظرفا حاويا لها .

الآيتان : (١١١ — ١١٢)

* « إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١١١) ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ » (١١٢)

التفسير : ليس الإيمان مجرد نطق باللسان ، وتصديق بالقلب ، وإنما هو — مع هذا — عمل بالجوارح ، وابتلاء فى الأموال والأنفس .. فمن صدّق قلبه ما نطق به ، ومن صدق عملُه ما صدّق به قلبُه ، فذلك هو المؤمن ، الذى يقبله الله فى المؤمنين . .

وبين الله والمؤمنين بالله ، عَقْدٌ عقده معهم ، وعهد عاهدهم عليه .. وهو أنه ـ سبحانه ـ اشترى منهم أنفسهم وأموالهم ولهم عنده فى مقابل ذلك الجنة !

وما تلك الأنفس ، وهذه الأموال التى اشتراها الله من المؤمنين ؟ إنها من الله ، وإلى الله .. !

ولكن شاء فضل الله أن يجعل العباده ملكية هذه الأنفس ، وتلك الأموال ، وأن يشتريها منهم ، وأن يعوضهم عليها !

وقُدِّمت الأنفس على الأموال هُنا على خلاف المواضع كلها التى جاء فيها ذكر الأموال والأنفس مجتمعين فى القرآن . . ففى جميع المواضع ما عدا هذا الموضع قدمت الأموال على الأنفس !

فما سرُّ هذا ؟ أو قل ما أسرار هذا ؟

ونقول ـ والله أعلم ـ إن بعض السر فى هذا هو أن الله سبحانه وتعالى ، هو الذى يطلب الأنفس والأموال فى هذا المقـــام ، على حين أنه فى جميع المواضع التى ذكرت فيها الأنفس والأموال فى القرآن الكريم ـ كانت مبذولة من المسلمين ، أو مطلوباً منهم بذلها .. ! ولاختلاف المقام اختلف النظم .. ففى شراء الله سبحانه وتعالى ما يشترى من المؤمنين يقدم الأنفس على الأموال لأنها عند الله أكرم وأعز من المال ، على حين أن المال عند الناس أعز من الأنفس ، إذ يتقاتلون من أجله ، مخاطرين بأنفسهم ؛ ويقتلون أنفسهم فى سبيله ! وفى اختلاف النظم هنا إلفات للناس إلى ما ذُهلوا عنه من أمر أنفسهم ، إذ استرخصوها إلى جانب المال ، على حين أنها شىء كريم عزيز عند الله .

ـــ وفى قوله تعالى : « يقاتلون فى سبيل الله فَيَقْتُلُون ويُقْتَلَون » إشارة إلى أن من شأن المؤمن أن يكون له يدٌ ظاهرة على عدوه ، وبلاء مؤثِّر فيه ، وأنه

قبل أن يُقتل لابد أن يَقتل من عدوه واحداً أو أكثر ، حتى لايذهب دمه هدراً، وحتى يُوهن العدو ويُضعف من شوكته ، ويكتب بدمه حرفاً من كلمة النصر التى كتبها الله للمؤمنين . .

— وقوله تعالى : « وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْآنِ . . وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ ؟ » هو توكيد لما وعد الله المؤمنين الذين باعوه أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة ، فهذا الوعد حق لا مرية فيه — كما جاء به القرآن والتوراة والإنجيل .

فذلك هو وعد الله للمؤمنين المجاهدين ، فيما جاءت به الكتب السماوية المنزلة من رب العالمين . . « ومن أوفى بعهده من الله ؟ » وهل يُخلف الله وعده ، أو ينقض عهده ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . .

هذا وليس بيع الأنفس والأموال لله مُراداً به بذلها فى القتال فى سبيل الله ثم الوقوف بهما عند تلك الغاية وحدها .. فإذا لم يكن بين يدى المؤمن قتال ومجاهدة للعدو ، فهناك ميدان فسيح للجهاد فى سبيل الله فى غير ميدان القتال ، فمجاهدة النفس والوقوف بها عند حدود الله ، هو جهاد مبرور فى سبيل الله .. والعبادات بأنواعها ، وأداؤها على وجهها جهاد فى سبيل الله ، والسعى فى تحصيل الرزق من وجوهه المشروعة ، جهاد فى سبيل الله .. والبر بالفقراء ، والإحسان إلى اليتامى .. هو جهاد فى سبيل الله .

وإذا كانت الآية الكريمة قد خَصَّت القتالَ فى سبيل الله بالذكر هنا ، فليس ذلك إلا تنويها بفضل الجهاد فى ميدان القتال ، إذ يمثل الصورة الكاملة التى يبذل فيها المرء كل ما يملك ، ويقدم لله فيها كل ما معه من نفس ومال .. على خلاف أبواب الجهاد كلها ، فإنه يبذل بعضاً من كلٍّ ، ويقـدم لله بعضاً ويستبقى بعضاً .

* وقوله تعالى : « فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »

هو مباركة من الله سبحانه وتعالى لأولئك المؤمنين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم له ـ مباركة بهذه الصفقة التى عقدوها مع الله ، وتبشير لهم بالربح العظيم ، والمغنم الجزيل الذى وراءها . . إنها الجنة التى وعدهم الله بها وإنها الرضوان من رب العالمين . . وذلك هو الفوز العظيم . .

* قوله تعالى : « التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ »

تلك هى صفات المؤمنين الذين يؤهلهم إيمانهم لأن يبايعوا الله ، وأن يعقدوا معه هذه الصفقة الرابحة ، وأن يظفروا بهذا المغنم العظيم . .

فقوله تعالى : « التائبون » صفة المؤمنين فى قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » والتقدير « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » الذين هم التائبون العابدون . . . الآية » .

والتائبون : هم الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، وتابوا إلى الله من قريب . . والعابدون : هم الذين يُقرّون بالعبودية لله ، ويعبدونه مخلصين العبادة له وحده . . والحامدون : هم الذين يحمدون الله على الضراء حمدَهم إياه على السّراء . . يقولون كلٌّ من عند ربنا ، وكل ما هو من عنده فهو ـ سبحانه ـ المحمود ، الذى يستأهل وحده الحمد ، ويستوجب الرضا فى

السراء والضراء.. والسائحون: هم الصائمون.. وفى الحديث «سياحة أمتى الصيام».

والراكعون الساجدون: هم الذين يقيمون الصلاة، ويؤدون ما افترض الله عليهم منها..

والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر: هم الذين يدعون إلى الخير، وينهون عن الشر.. وقد جاء العطف بينهما لأنهما وجهان لأمرٍ واحد، فمن أمر بمعروف فهو ناهٍ عن منكر، ومن نهى عن منكر فهو آمر بمعروف.

والحافظون لحدود الله: أى القائمون على ما أمر الله به، والمجتنبون مانهى الله عنه..

فتلك هى صفات المؤمن فى أعلى منازله، وأشرف مراتبه، وأكمل أحواله. وكل صفة من هذه الصفات لاتتحقق فى المؤمن على كمالها إلا إذا وفّاها حقها، وأداها على الوجه المطلوب أداؤه عليها، وعندئذ يحقّ له أن يوصف بها، ويدخل فى أهلها.

وفى الجمع بين هذه الصفات، دون أن يقوم بينها حرف عطف.. ما يشير إلى أنها جميعاً بمنزلة صفة واحدة.. وأنه لاتتحقق أية صفة منها إلا إذا تحققت جميعا.. أو بمعنى آخر أن تحقيق أية صفة منها داعية لتحقيق الصفات كلها..

فالتائب، إذا صحّت توبته، وحقق مضمونها، كان عابداً، حامداً، سائحاً، راكعاً، ساجداً، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، حافظا لحدود الله.

والعابد، إذا عَبَد الله كما ينبغى أن يُعْبَد، كان تائباً، حامداً، سائحاً،

راكعاً ساجداً ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، حافظاً لحدود الله

وهكذا فى كل صفة من تلك الصفات ، إذا تحلّى المؤمن بواحدة منها ، كانت الصفات الأخرى من حليته ا .

وواضح أن هذه الصفات إنما تعطى ثمرتها فى ظل الإيمان بالله ، فإذا لم يكن الإيمان قائماً عليها ، فلا ثمرة لأىٍّ منها . . ولهذا جاءت هذه الصفات خاصةً بالمؤمنين ، مقصورةً عليهم .

قوله تعالى : « وبشّر المؤمنين » أى وبشّر أصحاب هذه الصفات ، الذين هم المؤمنون بالله ، الذين حققوا صفة الإيمان ، واستحقوا أن يُجزَوْا جزاء المؤمنين الذين باعوا اللهَ أنفسَهم وأموالهم ، فى مقابل ما وعدهم الله به ، بأن لهم الجنة ، وهنأهم بهذا البيع الربيح بقوله : « فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » .

فالذين يتصفون بتلك الصفات ، هم مِن الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم ، ولهم ما للمجاهدين الذين يقاتلون فى سبيل الله ، وما وعدهم الله من رضوان وجنة وفوز عظيم . . ذلك أن المؤمن الذى يحقق تلك الصفات فى نفسه إنما حققها لأنه رصدَ نفسه وماله فى سبيل الله ، وفى ابتغاء مرضاته .

الآيات : (١١٣ — ١١٦)

* « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ اللَّهُ

لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » (١١٦)

التفسير : الأوّاه : كثير التأوه والتوجّع . .

* وقوله تعالى : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » .

هو استبعاد أن يكون من النبى والمؤمنين استغفار وترحّم المشركين ، ولو كانوا من أهليهم وذوى قرابتهم ، إذا تبيّن لهم أنهم من أهل الكفر والضلال . .

فالمشركون أعداء لِلّهِ ، حرب على الله ، والمؤمنون أولياء لله . . ولن تجتمع الولاية لله . . والولاية لأعداء الله . . والله سبحانه وتعالى يقول : « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ » (٢٢ : المجادلة)

والاستغفار للمشركين والترحم عليهم ـ ولو كانوا أمواتا ـ يتدسس منه على شعور المؤمن شىء من الرضا عن حالهم التى كانوا عليها من الشرك والضلال ، لأن الاستغفار لهم إنما ينبعث عن عاطفة الرحمة بهم والإشفاق عليهم ، فى ذوات أنفسهم ، وما تلبست به تلك الذوات من كفر وضلال . . وهذا من شأنه أن يُدخل الغ على مشاعر المؤمن فى إيمانه ، ويبعده عن الاحتفاظ به نقيًّا خالصا من كل شائبة . .

وقد نهى الله سبحانه ، النبيَّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أن يُصلي على من مات من المشركين أو أن يقوم على قبره . . فقال تعالى : « ولاتصلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً ولا تقمْ على قبره . . إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » (٨٤ : التوبة) .

ـــ وفى قوله تعالى : « من بعدِ ماتبيّن لهم أنهم أصحاب الجحيم » بيان إلى أن النهى عن الاستغفار للمشركين إنما هو من بعد أن يتحقق أنهم ماتوا على الشرك ، وأنهم أصبحوا فى أصحاب النار . . وهؤلاء هم الذين بلغتهم الدعوة الإسلامية من مشركى العرب ، ثم لم يستجيبوا لها ، وماتوا على شركهم الذين كانوا عليه ا .

* قوله تعالى : « وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ » .

هو إجابة عن سؤال وقع ، أو هو متوقَّع أن يقع ، بعد الاستماع إلى قوله تعالى : « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين » والسؤال الذى يقع بعد الاستماع إلى هذه الآية : وكيف استغفر إبراهيم لأبيه ، وقد كان أبوه من المشركين ؟

وفى القرآن الكريم يقول الله تعالى على لسان إبراهيم : « رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ » (٨٣ — ٨٦ : الشعراء)

فكيف يستغفر إبراهيم - خليل الرحمن وأبو الأنبياء - لأبيه وهو من المشركين ؟

والجواب ، قد جاءت به هذه الآية : « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاّ عن موعدة وعدها إيّاه فلما تبيّن له أنه عدوٌّ لله تبرأ منه » ..

فإبراهيم لم يستغفر لأبيه إلا وهو يطمع فى أن يهديَه الله إلى الإيمان .. يشير إلى هذا ، ذلك الحوار الذى سجله القرآن الكريم بين إبراهيم وأبيه .. يقول الله تعالى :

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ .. يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ .. إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ .. لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ .. إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ : أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ .. سَلَامٌ عَلَيْكَ .. سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا » (٤١ - ٤٧ : مريم)

فإبراهيم لم يستغفر لأبيه إلا وهو يطمع فى أن يستجيب له ، وأن يسلك معه الطريق إلى مواقع الهدى والإيمان ..

- « فلما تبيّن له أنه عَدُوّ لِلّه تبرأ منه » .. وهذا البيان إنما انكشف لإبراهيم بعد أن مات أبوه ، وهو على ما هو عليه من شرك ..

وهنا انقطع رجاء إبراهيم فى هداية أبيه .. فأمسك لسانه وقلبه عن الولاء له .

— وفى قوله تعالى : « إن إبراهيم لأوّاه حليمٌ » – إشارة إلى أن إبراهيم مع مافى قلبه من حنان ورقة ، وما تفيض به نفسه من مشاعرَ حسّاسة مرهفة ، تتأثر تأثرا قويًا بما يلقاها من وقائع الحياة – فإنه مع هذا – قهر فى نفسه كل عاطفة نحو أبيه ، وتبرأ منه ، إيثاراً لولائه لله ، ولدين الله . .

فإبراهيم هنا هو القدوة والأسوة فى أعلى مستوياتها ، للولاء لله ، والإخلاص لدين الله . . فلا حساب عنده لعاطفة قرابةٍ تُدخل شيئاً من الضيم على ولائه لربّه ، وإخلاصه لدينه . .

* قوله تعالى : « وما كان اللهُ ليُضِلَّ قَوْماً بَعْد إذ هداهم حتّى يُبيّن لهم مايتقون إن الله بكل شىء عليم » .

فى هذا مايكشف عن لطف الله ورحمته بعباده ، وأنه – سبحانه – لايأخذهم بالعقاب ، ولا يُنزلهم منازل الضّالين ، إلا بعد أن يبيّن لهم الطريق الذى يسيرون عليه ، وما يأخذون أو يدَعون من الأمور . .

أما مايقع من العبادِ مما لم يكن قد جاءهم أمر الله فيه ، فهو معفوٌّ عنه عند الله ، ولو كان مما نهى الله عنه بعد أن وقع منهم . .

والآية تدفع عن صدور المسلمين ماوقع فيها من حسرة وندم على ما وقع منهم من استغفار لمن مات من أهليهم وأصدقائهم على الشرك ، قبل أن يجىء النهى عن الاستغفار لهم . . فلا شىء عليهم فى هذا ، لأنهم لم يفعلوا أمراً كان واقعاً تحت الحظر ، ولم يأتوا منكراً نهاهم الله عنه . .

— وفى قوله تعالى : « إن الله بكل شىء عليم » إشارة إلى أن العلم هو الأساس الذى ينبغى أن تقوم عليه تصرفات العباد ، وأن تنضبط عليه أعمالهم ، وأن كل عمل لايستند إلى علم ومعرفة هو لغوٌ لاحساب له ، ولا اعتداد به . .

وفى هذا دعوة إلى العلم الذى يسبق كل عمل يعالجه الإنسان ، فمن عمل بلا علم ضلّ سعيه ، وبطل عمله .

* قوله تعالى : « إن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت ومالكم من دون الله من ولىّ ولا نصير » .

وجه ارتباط هذه الآية بما قبلها . إذ قد دعت الآيات السابقة إلى قطع علائق للودة والموالاة بين المؤمنين وبين من لهم بهم صلة من المشركين . . وهذه الآية تشدّ المؤمنين بالله إليه ، وتقيم وجوههم له ، دون التفاتٍ إلى غيره ، إذ أن له وحده ـ سبحانه ـ ملك السموات والأرض ، وإليه أمر الحياة والموت . . لايملك أحدٌ معه شيئاً من نفع أو ضر ، ومن موت أو حياة . . فمن جعل ولاءه لغير الله فقد ضلّ وخسر ، وليس له من دون الله ناصرٌ ينصره ، أو ولىّ يُعينه ويَشدّ أزره .

الآيات : (١١٧ ـ ١١٩)

* « لَقَدْ تَابَ ٱللهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا إِنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١١٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ » (١١٩)

التفسير: قوله تعالى: « لَقَدْ تَابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ والمهاجرينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ »

اللام فى « لقد » هى اللام الواقعة، فى جواب قسم مقدر.. وهذا القسم لتوكيد التوبة، ووقوعها وقوعاً تاماً كاملاً، لم يبْقَ معها ذنبٌ، أو معصية.. فهى توبةٌ يخرج بعدها من وقعت عليه مُعافًى من كل سوء، مبرأ من كل مأخذ..

والزيغ: الانحراف عن طريق الحق، والميل إلى الباطل..

وذِكر النبىّ هنا فى التوبة ـ وهو صلوات الله وسلامه عليه لم يقع منه ـ وحاشاه ـ شىء، فى هذا تكريم للمهاجرين والأنصار وتشريف لهم، بنظامهم مع هذا الكوكب الدرِّىّ الوضىء.. فى ساحة رضوان الله ومغفرته.. وقد قرأ الرِّضا علىّ بن موسى: « لقد تاب الله بالنبى على المهاجرين والأنصار.. الذين اتبعوه فى ساعة العسرة.. »

ويجوز أن يكون المعنى: « لقد تاب الله على النبىّ » أى لقد غفَرَ له كل هنَةٍ تَمَسّ مقام النبوّة، ليظلّ النبىّ هكذا فى مقامه العظيم من ربّه.. وقد أمر الله سبحانه النبىّ بالاستغفار من ذنوبه بقوله تعالى: « واستغفر لذنبك ».. وغَفَر للنبى الكريم ما تقدم من ذنبه وما تأخر فى قوله: « ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تَأخَّر ».

فليست ذنوب النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذنوباً بالمعنى الذى يُفهم من كلمة ذنب بالنسبة لغير النبىّ من الناس.. وقد قيل: « سيئآت المقربين حسنات الأبرار ».. فكيف بالنبىّ الكريم؟

وقد عدّ الله سبحانه وتعالى إذنَ النبىّ المنافقين الذين جاءوه معتذرين ـ

عدّ ذلك ذنباً ، عفا الله عنه . . وهو أمر لو وقع من غير النبىّ لما كان موضعاً لمؤاخذة أو لوم . . وفى هذا يقول الله تعالى : « عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ » . (٤٣ : التوبة)

وفى قوله تعالى : « مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ » إشارة إلى ما كان من لطفِ الله بالمؤمنين فى غزوة تبوك ، وأن شِدّة هذه الغزوة ، والظروف التى دُعِىَ فيها المسلمون إلى الجهاد قد عَرضت بعض المؤمنين لامتحان عَسِر ، ضاقت به صدورهم ، وتلجلجت معه نياتهم ، واضطربت عزائمهم ، ولكنّ الله سبحانه ربط على قلوبهم ، وأمسك بهم على طريق الحقّ ، فمضوا على طريق الجهاد .

رُوى عن الحسن البصرى : « أن العشرة من المسلمين فى تلك الغزوة كانوا يخرجون على بعير واحدٍ يعتقبونه بينهم ، يركب الرجل ساعة ، ثم ينزل فيركب غيره . . وكان الشعير المسوّس والتمر المدوّد ، والإهالة السَّنِخة (أى الزيت المتغير طعمه وريحه) طعامَهم . . وكان النفر منهم يخرجون ما معهم من التميرات بينهم ، فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها (أى أدارها فى فمه) حتى يجد طعمها ، ثم يعطيها صاحبَه ، فيمصّها ، ثم يشرب عليها جَرعة ماء ، حتى تأتى على آخرهم ، فلا يبقى من التمرة إلا النّواة ! ! . »

وفى قوله تعالى : « إنه بهم رءوف رحيم » ما يكشف عن فضل الله على النبىّ ومن تبعه من المهاجرين والأنصار . . وأنه سبحانه ، لرأفته بهم ، ورحمته لهم ، قد أخذ بيد من كاد يسقط منهم ، ويَنزل عن هذا المنزل الكريم الذى أحلّ الله فيه المهاجرين والأنصار ، واختصّهم به ، فهم أبداً فى ظلال رأفته ورحمته . . وحسبهم بهذا سلاماً وأمناً ، وحسبهم به شرفاً وفضلاً .

* قوله تعالى : « وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ

الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »

قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ »

عُطفت هذه الآية على ما قبلها ، فشملت بهذا توبة الله التي تابها على النبيّ والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة — شملت هذه التوبة الثلاثةَ الذين خُلِّفُوا ، وقد أشرنا إلى قصتهم من قبل .

وفى عطف الثلاثة الذين خُلِّفُوا على النبيّ والمهاجرين والأنصار تكريمٌ لهم ، وتنويه بتوبتهم ، وأنها توبة مقبولة ، مُحيت بها كل الآثار التى عَلِقت بهم من تخلّفهم عن النبيّ . . وبهذا حُقّ لهم أن يكونوا فيمن تاب الله عليهم : النبيّ والمهاجرين والأنصار . . وهم درجات عند الله . .

وفى قوله تعالى : « حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أنْ لاَّ ملجأ من الله إلاَّ إليه » إشارة إلى ما وقع فى نفوس هؤلاء الثلاثة الذين خُلِّفُوا من ندمٍ وحسرة .

لقد ضاقت عليهم الأرض على سعتها ، بل وضاقت عليهم أنفسهم ، فلمْ تحتملهم ، ولم تجد القرار والسَّكن إليهم ، وهذا يعنى ثِقلَ ما كانوا يعانونه من ندم وألم ، ولهذا كانت توبتهم نصوحاً صادقة ، لا تنتكس بهم على أعقابهم أبداً . .

وقد حُذف جواب الشرط هنا ، إذ دلّ عليه قوله تعالى : « وَظَنُّوا أَنْ لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إلاَّ إِلَيْهِ » .. أى أنهم حين ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه — لجئوا إلى الله ، وفرّوا إليه تائبين مستغفرين . .

والظن هنا بمعنى اليقين ، أى أنهم أيقنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه . . ولو كان ظنهم غير واقع موقع اليقين ، لما كان منهم هذا الندم القاتل ، وتلك الحسرة المميتة !

— وفى قوله تعالى : « ثم تاب عليهم ليتوبوا » . . نلحظ من العطف بالحرف « ثم » الذى يفيد التراخى . . أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يمتحنهم بهذا البلاء الذى هم فيه ، وأن يدعهم مع هذا الهمّ الذى ركبهم ، حتى يكون فى هذا تصفيةٌ لنفوسهم وتمكين لتوبتهم ـ فلم ينزل القرآن بالعفو عنهم وقبول توبتهم إلا بعد مدة قيل إنها بلغت خمسين يوماً . . فهذه الخمسون يوماً التى قضاها الثلاثة الذين خُلِّفوا كانت أشبه ببوتقة صُهرت فيها نفوسهم ، وصفّيت مما كان قد علق بها من خَبَث ووضر .

ولو جاءت التوبة عليهم قبل أن يدخلوا فى هذه التجربة ويعيشوا فيها تلك الأيام والليالى ، لَمَا وجدوا أنفسهم على تلك الحال التى استقبلوها بها بعد هذا الزمن المتراخى ، وبعد تلك التجربة القاسية ، التى كشفت عن هذا المعدن الكريم لتلك النفوس الكريمة ، ولولا ذلك لحطمتها المحنة وأكلتها نار التجربة .

— وفى قوله تعالى : « ثم تاب عليهم ليتوبوا » إشارة إلى أن التوبة النصوح لا تكون إلا بتوفيق من الله سبحانه وتعالى إليها . . وأنه إن لم يوفقهم الله سبحانه إلى هذا الموقف ، ويربط على قلوبهم فيه ، لم يكن منهم هذا الصبر على البلاء ، ولا احتمال هذا المكروه الذى وقعوا فيه . . وهذا هو معنى « ثم تاب عليهم ليتوبوا » أى قبلهم الله وتاب عليهم ، فكانوا من التائبين .

والتوبة : أصلها من التّوب ، والرجوع ، يقال تاب إلى الله يتوب : أى رجع عن معصيته إليه .

* قوله تعالى : « يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ »

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه قد جاء فى الآية السابقة ذكر الثلاثة الذين خُلّفوا ، وأن الله قد تاب عليهم ، وعفا عنهم ، وأنزلهم منازل رضوانه ، وجعلهم مَعْلَماً من معالم الثبات مع الحق والولاء له . .

فأجرى لهم فى القرآن الكريم ذكراً ، وجعل لهم فى العالمين قدراً . . وذلك كله بسبب أنهم أقاموا أنفسهم على كلمة الصدق ، فلم يكذبوا على رسول الله ، ولم يجيئوا إليه بأعذار ملفقة ، بل جاءوا إليه يقولون قولة الحق على أنفسهم ! .

فقالوا : يارسول الله .. إننا لاعذر لنا فى تخلفنا عن الجهاد معك ، فخذ لله ولك من أنفسنا وأموالنا ماتشاء ! فكانت ثمرة صدقهم ، هو هذا الذى انتهى إليه أمرهم ..

فالدعوة إلى الصدق هنا وإلى التمسك به ، دعوة تجد بين يديها المثل الواقع للخير العظيم الذى يناله الصادقون بصدقهم . . وإن احتمل الصادقون فى سبيل كلمة الحق شيئاً من الأذى والضرّ ، فى أول الأمر ، فإن العاقبة دائماً لهم ، وهى عاقبة طيبة ، مُسْعدة . . تهيىء لصاحبها الفوز والفلاح فى الدنيا والآخرة . .

الآيات : (١٢٠ - ١٢٢)

« مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » (١٢٢)

التفسير: قوله تعالى: « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه .. »

هو إنكار من الله سبحانه وتعالى على من يتخلفون عن رسول الله، وهو فى طريقه إلى الجهاد ولقاء العدو ـ ينكر الله عليهم تخلفهم هذا، وقعودهم عن اللحاق برسوله، والانتظام فى ركب المجاهدين .. وفى الإنكار أمر ملزم لهم أن يكونوا مع رسول الله حيث يكون، ومن لم يستجب لهذا الأمر فهو على خلاف لله ورسوله، ومشاقة لله ورسوله، يلقى جزاء المخالفين، وينزل منازل الظالمين، ويصلى فى الآخرة ما يصلاه الكفار والمنافقون من عذاب السعير . .

وقد خص أهل المدينة ومن حولهم بالذكر هنا لأنهم مع رسول الله، وبين يديه، وبمحضر ومشهد منه، فكيف يسوغ لهم أن يروا النبى قائماً على أمر يعالج منه حملاً ثقيلاً، ثم يقفون موقف المتفرج، لا يشاركونه فيما يعمل، ولا يحملون عنه بعض ما يحمل؟ إن ذلك وإن لم يقض به الدين قضت به المروءة وأوجبته حقوق الجار على الجار! فكيف وهو أمر أمرهم الله به، ووعدهم الجزاء العظيم عليه، وتوعدهم بالعقاب الأليم على النكوص عنه؟

وكيف يهنأ لمسلم طعام أو يسوغ له شراب ، وهو يرى النبى يخوض غمرات القتال ، ثم يضنّ بنفسه عن أن تأخذ مكانها فى المجاهدين ، والمستشهدين، أهناك عند المؤمن بالله شىء أعزّ عليه من النبىّ ، ونفس أكرم عليه من نفسه ؟ والله سبحانه وتعالى يقول : « النبىّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم » .

— وفى قوله تعالى : « ذلك بأنّهم لا يُصيبُهم ظمأ ولا نَصَبٌ ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون موطئاً ، يغيظُ الكفّارَ ولا ينالون من عدوّ نيلاً إلا كُتبَ لهم بِهِ عَمَلٌ صالحٌ إن الله لاَ يُضِيعُ أجْرَ المحسنين » .

الإشارة هنا بقوله تعالى « ذلك » مشار بها إلى ماتقدم فى صدر الآية من الإنكار على أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله، وأن يؤثروا أنفسهم على نفسه ، ويضنّوا بها على معاناة الجهاد ، وحمل أعباء القتال ، فهذا الإنكار عليهم إنما هو بسبب أنهم سيَغبنون أنفسهم ، ويحرمونها ما أعدّ الله للمجاهدين من أجر عظيم ، لكل عمل يعملونه فى سبيل الله ، ولكل ضُرّ أو أذى يصيبهم وهم على طريق الجهاد . . فلا يصيبهم ظمأ ، ولا يمسّهم تَعبٌ ، ولا تنالهم مخمصة (أى جوع) . . إلا كتبه الله لهم وأجزل لهم المثوبة عليه . . كذلك لا ينالون من عدوّ نيلاً ، ولا يصيبونه بوهْن أو ضعف ، إلا كُتبَ لهم به عَملٌ صالح ، وعُدّ لهم قربةً عند الله ، يَدخلون بها مداخل المحسنين . . و « إن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

* قوله تعالى : « وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

هو عطف على ماسبق من الأعمال الصالحة التى تكتب للمجاهدين ، وتسجّل فى سجلّ أعمالهم . . فأية نفقة ــ ولو كانت صغيرة ــ تكتب لهم ،

وأى خطوة يخطونها ، ويقطعون بها واديا أو يجتازون مفازة ، يكتبها الله لهم ، ويضيفها إلى حسابهم .. وذلك « ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » .

وفى قوله تعالى : « ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » مايشير إلى أن الله سبحانه وتعالى يُنزل المجاهد منازل رضوانه ، ويستضيفه فى ساحة كرمه ، منذ أن يبدأ فى التهيؤ للجهاد إلى أن يعود إلى منزله الذى خرج منه ، أو يستشهد فى سبيل الله .. وأن كل خطوة من خطواته وهو على طريق الجهاد ، وكل حركة ، أو لفتة ، أو إشارة منه ، هى مما يُعدّ عند الله فى باب الإحسان ، وذلك للمجاهد خاصة من دون الناس جميعاً ، حتى إذا آب المجاهد من جهاده كان سجل أعماله كلّه حسنات .. « ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » أما السيئات ، فلا سيئات ، إذ قد تجاوز الله عنها .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « أولئك الذين نتقبّل عنهم أحسن ماعملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصِّدْقِ الذى كانُوا يوعدون » (١٦ : الأحقاف) .

* قوله تعالى : « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ »

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هو أن الآيتين السابقتين قدجاء فيهما إنكار على المتخلفين عن رسول الله ، وأمر ملزم لهم بالجهاد معه ، كما جاء فيهما عرض كاشف لِما اختصّ الله سبحانه وتعالى به المجاهدين من أجر كريم ، وثواب عظيم ، لاينالُه غيرهم ، ولايبلغه سواهم ـ وقد كان ذلك داعياً إلى تحريك أشواق المسلمين إلى بلوغ هذه الغاية ، واللحاق بأهلها ، وذلك لايكون

إلا بالانتظام فى ركب المجاهدين ، وهذا من شأنه أن يجعل المسلمين جميعاً على طريق الجهاد ، وفى ميدان القتال ، الأمر الذى لو وقع بصفة دائمة لأخلّ بنظام المجتمع ، وعطّل كثيراً من جوانب الحياة ، وأخلى ميادينها من العاملين فيها . .

ولهذا جاء قوله تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » أى جميعاً. فذلك أمر — كما عرفنا — يدخل الخلل على نظام الحياة فى المجتمع ، وعلى المجاهدين أنفسهم ، إذا لم يكن من ورائهم من يعمل فيما يهيىء لهم حاجاتهم، من مؤن ، وسلاح ، وعتاد .

ولكن كيف السبيل إلى صرف بعض المسلمين عن وجهتهم إلى القتال ، وكلهم يؤثر أن يكون فى هذا الميدان ، ابتغاء مرضاة الله ؟

لقد كان من تدبير الله سبحانه وتعالى أن فتح لهم جبهة جديدة من جبهات الجهاد .. إذ يقول الله تعالى : « فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفةٌ ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » ..

فهناك نَفَرٌ كالنفر إلى الجهاد ، وهو النفْر إلى التفقه فى الدّين ، والتعرف على أحكام الشريعة .. ففى النفْر إلى الجهاد يقول الله تعالى . « انفروا خفافاً وثقالا » وفى النفْر إلى العلم يقول لله تعالى : « فلولا نَفَرَ من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين » .

فطلب العلم فريضة على كل مسلم كفريضة الجهاد ، سواء بسواء . . فإذا كان الجهاد بالسيف فكذلك يكون الجهاد فى ميدان العلم ، والتفقه فى الدين .. إنه يدفع عن القلوب غشاوات الجهل والضلال ، ويمكّن لدعوة الإسلام أن تأخذ مكانها من العقول والقلوب ، فتمكن لها فى أهلها ، وتقيمهم منها على مودة وإخاء ، فيزكو نبتها الطيب فيهم ، وتؤتى مبادئها أكلَها المبارك لأيديهم .

فالتفقُّه فى الشريعة ، ومطالعة آياتها المعجزة ، والوقوف على مافيها من روائع الحكمة ، وأسرار الوجود ـ هو الذى يقيم فى نفس المسلم إيماناً صحيحاً ، ومعتقداً سليما متمكناً ، يهيء للمجتمع الإسلامى ، الإنسانَ المؤمنَ الذى يجاهد فى سبيله ، ويستشهد من أجل حمايته ، ودفع يد المعتدين عليه ..

وليس معنى النفْر هنا شدّ الرحال ، وقطع الفيافى والقفار ، بل إن معناه شدّ العزائم ، وتوقّد الهمم ، واستجماع النفوس ، وإخلاص النيّات ، والتجرد لتلقّى العلم ، والصبر على معاناة الدرس والنظر . .

ذلك أن تحصيل العلم ، وقطف ثمراته ، ليس بالأمر الهيّن ، الذى يقع لأى يد تمتد إليه ، ويستجيب لأى عين تطامح إليه ، وتطمع فيه ـ وإنما هو كالجهاد فى ميدان القتال ، حيث لايكتب النصر للمجاهدين إلا بركوب الأخطار ، وملاقاة الأهوال ، ومصادمة الموت . .

ومن هنا تعادلت كِفّة العلماء مع كفة المجاهدين .. كما ورد فى الحديث : « يوزن مداد العلماء بدم الشهداء » . . !

وليس النفْر محدوداً بالنّفْر إلى الجهاد فى سبيل الله ، ولا بالنفر لطلب العلم ، وإنما هو أيضاً ينسحب إلى كل ميدان من ميادين العمل والكفاح .. فحيثما كانت مشقةٌ ومعاناة يحملها الإنسان فى صبر وعزم ، فى مجال العمل الصالح النافع له ولغيره ، فهو نَفْر إلى الجهاد ، وصاحبه فى حساب المجاهدين !

وعلى هذا نفهم الآية الكريمة على أنها دعوة للمجتمع الإسلامى أن يملأ كل ميادين العمل فى الحياة ، وأن يأخذ كلُّ مسلم المكانَ المناسب له ، وأن يعمل فى الميدان الذى يمكن أن يعطى فيه أفضل ماتجود به ملكاته وقُدُراته ، العقلية ، أو الجسدية .. وشرط واحد هو الذى ينبغى أن يكون عليه العامل ليكون مجاهداً ، هو أن يخلص لعمله ، وأن يعطيه كل جهده ، وأن يبذل له

كل حوله وحيلته ، في غير فتور ، أو تهاون أو تقصير .. وإلا كان ذلك نفاقاً ، وكان خيانةً ، سواء بسواء ، كالنفاق مع الله ، والخيانة لرسول الله ، والمؤمنين . .

ونلمح هذا المعنى الذى ألمعنا إليه هنا فى قوله تعالى : « ليتفقهوا » .. فالتفقّه ليس مجرّد العلم السطحى ، بل هو العلم المتفحص المتمكن ، الذى ينفذ إلى أعماق الأشياء ، ويقع على الصميم منها ..

فهذا هو العلم ، أو الفقه ، الذى يرفع صاحبه إلى مقام المجاهدين ..

وكذلك العمل ، إن لم يبلغ به العامل درجة تبلغ حدّ الكمال ، للقدرة المتاحة له ، وللوسائل التى بين يديه ، لم يكن ليتوازن أبداً مع درجة الجهاد فى سبيل الله ، ولا مع منزلة التفقه فى دين الله ، ولم يكن للعامل أن ينتظم فى سلك المجاهدين ، والمتفقهين .. إن العامل الذى يستأهل أن يكون مجاهداً فى سبيل الله حقًّا ، هو من فقُه فى عمله ، وعرف أسرار صنعته .. وبغير هذا لن يجىء منه الإحسان فى عمله ، والإتقان لصنعته .. والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « إن الله يحبّ إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » .. وقد أشرنا إلى ما للعلم من أثر فى الإيمان بالله ، عند تفسير قوله تعالى « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدرُ ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم » (لآية : ٩٧) من هذه السورة .

الآيات : (١٢٣ ـ ١٢٧)

* « يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (١٢٣) وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هٰذِهِۦٓ إِيمَانًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ

إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ » (١٢٧)

التفسير : مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة ، أنكرت على أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ، وقد حَمَلَ إليهم هذا الإنكارُ أمراً ملزماً بالجهاد مع رسول الله ، وهذا لا يكون إلاّ فى مجتمع يدين كلّه بالإسلام ، حتى يقع الأمر بالجهاد موقعه ، ويصادف أهله ..

لهذا جاءت تلك الآية داعية إلى قتال الكفار الذين يحيطون بالمسلمين ، ويكونون أجساماً غريبة فى هذا الجسد الكبير ..

وتنقية هذا الجسد الإسلامى من الأجسام الغريبة التى تعيش فيه ، وحمايته من الآفات الخبيثة التى تقف على حدوده ـ أمر ضرورى لسلامة هذا الجسد ، ووقايته من عوارض التصدّع والتشقق .

* وفى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين » ـ لفتٌ لأنظار المسلمين إلى حماية أنفسهم من خطر العدوّ المساكن لهم ، أو الملاصق لمجتمعهم ، وذلك لايكون إلا بأن يدخل هذا العدو فى الإسلام ، ويصبح بعضاً منه ، أو أن يقاتله المسلمون حتى يقتلعوا شوكته ، أو يوهنوا قوته ، فلا يكون يوماً من الأيام

قادراً على مواجهتهم بالضرّ ، أو مبادأتهم بالعدوان ، وذلك من شأنه أن يعطى المجتمع الإسلامى أمناً وسلاماً واستقراراً فى مواطنه ، الأمر الذى يتيح لكل فرد فيه أن يعمل ، وأن يحسن العمل فيما هو مهيأ له ، وراغب فيه ..

— وفى قوله تعالى : « واعلموا أن الله مع المتقين » .. تنبيه إلى ماينبغى أن يكون عليه المسلمون فيما بينهم وبين الكافرين ، فلا بغىَ ولا عدوانَ ، ولا مجاوزةً للحدّ المطلوب لحماية الدعوة الإسلامية ، ودفع كيد الكائدين لها .. فإذا تحقق ذلك ، فليس وراءه شىء يطلبه المسلمون لذات أنفسهم ، أو لانتقام شخصى . بل يجب أن تكون تقوى الله هى الدستور الذى يأخذ به المسلمون أنفسهم فى حربهم لعدوهم .. فلا يعرضوا لامرأة ، ولا لطفل ، ولا لشيخ ، بأذى ولا يتبعوا هارباً ، ولا يَقْضوا على جريح ، ولا يمثّلوا بقتيل ، ولا يقطعوا شجراً ولا زرعاً ، ولا يحرقوا دوراً ، ولا يقتلوا حيواناً .. فليس فى هذا كله عدوٌّ لهم ، وإنما عدوهم هو الذى حمل السلاح ، وقاتلهم به ، فإذا ألقى السلاح ، أو عجز عن حمله والقتال به ، فشأنه شأن الصبيان والنساء ، لاسبيل إلى العدوان عليه .

* وقوله تعالى : « وإذا ما أنزلت سورةٌ فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً .. فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين فى قلوبهم مرضٌ فزادتْهم رجساً إلى رجْسِهمْ وماتوا وهم كافرون » .

فى هذا إشارة إلى تلك الأجسام الغريبة الفاسدة التى تعيش فى كيان المجتمع الإسلامى ، وأنه إذا كان للمسلمين عدو ظاهر يعرفون وجهه ، ويأخذون حِذرهم منه ، ويعملون على قهره وخضد شوكته .. فإن ذلك ينبغى ألا يشغلهم عن عدوٍّ خفىّ يندسّ فيهم ، بل إن عليهم أن ينتبهوا إلى هذا العدوّ ، وأن يرصدوا تحركاته ، وأن يضربوه الضربة القاضية ، كلما أطلّ برأسه من جحره .

وهذه الأجسام الغريبة الفاسدة التى تعيش فى كيان المجتمع الإسلامى ، هى جماعة من المنافقين ..

* وقوله تعالى : « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا » هو علامة مميزة من علامات النفاق ، وعَرَض ظاهر من أعراضه .. فالشّك فى آيات الله ، والتشكيك فيما تحمل من هدًى ، ومن خيرٍ ، ومن نور — هو كفر يستره نفاق ، وهو نفاق يصرّح عن كفرٍ ! فإذا قال قائل هذه الكلمة الضالّة : « أيّكم زادته هذه إيمانا » — إذا قالها فيما بينه وبين نفسه ، فإلى الله حسابه ، وعليه عقابه ، أما إذا قالها فبلغت أسماع المسلمين ، فذلك كيد يكيد به للإسلام ، وحربٌ خفيّة بالكلمة المضلّة يطعن بها فى صدورهم .. فهو بهذا محاربٌ يلقاه المسلمون بما يلقوْن به المحاربين من أعدائهم .

وفى قوله تعالى : « فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون » ردٌّ مفحِم للمنافقين ، وتكذيب فاضح لنفاقهم ، وكفرهم بآيات الله ، وضلال أبصارهم وبصائرهم عن الهدى والنور الذى تحمله آيات الله بين يديها . . فالذين آمنوا ، تزيدهم آيات الله إيمانا مع إيمانهم ، بما يطالعون فيها من وجوه جديدة تتجلّى فيها آيات الله ، وتشعّ منها ألوان مضيئة كاشفة عن عظمة الخالق ، وجلاله ، وعلمه ، وقدرته ، وحكمته ، ورحمته .. فكل آية جديدة يلقاها المسلمون ، وكل سورة جديدة تطلع عليهم من عند الله ، هى خير جديد يضاف إلى ما بين أيديهم من خير ، وهو نور جديد يُمَدُّ به ماعندهم من نور .. ولهذا فهم يستبشرون بكل آية تنزل عليهم ، لأنها تزودهم بزاد جديد من الإيمان والتقوى ، وتسير بهم خطواتٍ واسعة إلى الله ، تُدنيهم من رحمته ، وتقربهم من رضوانه ..

* وفى قوله تعالى : « وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون » .

بيان لما يحصّله المنافقون والذين فى قلوبهم مرض، من آيات الله التى تنزل من السماء هدى ورحمة للعالمين ، فهى إنما تزيدهم عمًى إلى عمى ، وضلالاً إلى ضلال، وفساداً إلى فساد .. إنهم أشبه بالهوامّ والحشرات التى يجرفها الغيث الهاطل ، ويغرقها السيل المندفع ، على حين يحيا به كل كائن حىّ ، ويهشّ له ويهنأ به كل ذى حياة .. وإنهم لأشبه بالخفافيش يأخذ ضوء الشمس على أبصارها ، فتكتحل منه بالعمى ، على حين تكتحل الأشياء كلها بهذه الآية المبصرة من آيات الله بالهدى والنور !

* قوله تعالى : « أَوَ لاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ »

هو تقريع وتوبيخ لهؤلاء المنافقين الذين يقفون مواقف الخزى والفضيحة بين يدى آيات الله ، مرة أو مرتين كل عام ، حيث يفضح القرآن منهم فى كل مرة ، مخزية من مخزياتهم، ويكشف المسلمون موقفاً لئيما من مواقفهم .. ثم لا يأخذون من هذا عبرة أو عظة ، ولا يجدون فيما فضح الله من أسرارهم ، وما أخرج مما فى صدورهم ـ آية على علم الله ، وعلى وجود الله ، فيؤمنوا به ، ويتوبوا إليه .. بل إنهم على ماهم عليه ، من كفر وضلال : « لايتوبون ولا هم يذكرون » .

* وقوله تعالى : « وَإِذَا مَآ أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ »

وهذه حال أخرى من أحوال المنافقين مع آيات الله ، حين يستمعون إليها مع من يستمع إلى آيات الله من المؤمنين ..

° إنهم يلقونها بالشكّ والارتياب ، حتى لتكاد تفضحهم ألسنتهم بما يدور

فى رءوسهم ، فينظر بعضهم إلى بعض ، نظراتٍ متلصصة ، تبحث عن مهرب تهرب منه من بين يدى آيات الله ، حتى لا ينفضح أمرهم بين يديها .. فإذا وجدوا فرصة مواتية للهرب انسلّوا ، وفروا مسرعين : « كأنهم حُمُرٌ مستنفِرة * فرت من قَسْوَرَة » ..

وفى قوله تعالى : « صَرَفَ الله قلوبهم » حكم عليهم من الله سبحانه وتعالى بأنه قد صرف قلوبهم عن الحقّ ، وختم عليها أن ترى الهدى ، وأن تطمئن إليه ، لأنهم قوم لا يفقهون شيئاً ، ولا يفرقون بين نور وظلام ، وهدى وضلال.. « إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً .. »

الآيتان : (١٢٨ ـ ١٢٩)

* « لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » (١٢٩)

التفسير : بهاتين الآيتين تُختم سورة التوبة ـ وهو ختامٌ يلخص فى إيجاز وإعجاز مضمونها كلّه ..

فقد كانت هذه السورة معركة متصلة، بين الإسلام ، وبين النفاق ، والشرك ، والكفر .. وذلك فى محيط المجتمع العربىّ ، بَدْوِه وحَضَره . إذ كان هو ميدانَ الرسالة الإسلامية الأولى ، ومنطلق رحلتها فى المجتمع الإنسانى كله ، حيث كانت الأمة العربية ، هى الأمة التى أرادها الله لحمل هذه الرسالة ، وجعل منها الوجه الذى تظهر فيه أمارات هذا الدّين ، وتتجلّى آثاره ، وَوَكَل إليها دعوة

الناس جميعاً إلى هذا الخير الذى بين يديها ، ليطْعَمُوا منه كما طَعِموا ، وليهتدوا إلى الله كما اهتدوْا ..

* وفى قوله تعالى : « لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم » ـ إلفاتٌ للعرب إلى هذه النعمة الكبرى التى أنعم الله بها عليهم ، وهو أنه ـ سبحانه ـ قد تخير رسوله إليهم منهم ، وجعل مطلع الخير الذى يحمله ، فيهم أولا .. وهذا من شأنه أن يجعل منهم القوة التى تُظاهر هذا الرسول ، وتقف إلى جواره ، وتستظل برايته لا أن يكونوا حرباً عليه ، وعداوة متربصة به .. إنه منهم ، وليس غريباً عليهم .. إنه يعرفهم وهم يعرفونه ، ويعرفون مولده فيهم ، ونسبه القريب منهم.. فكيف يلقونه بالعداوة ؟ ثم كيف يحاربونه ويكيدون له ، وهو الذى يحمل إليهم الخير الخالص ، ويسوق إليهم الهدى والنور ؟ إنهم بهذا يظلمون أنفسهم ، إذ يحرمونها هذه النعمة ، التى ساقها الله إليهم، على تلك اليد الكريمة التى تخيرها الله منهم ، وإنهم ليخرجون على سَنَن العروبة وأخلاق العرب ، فى الانتصار لمن كان منهم ، والتعصب له ، والاستجابة لدعوة الداعى حين يدعوهم .. حتى لقد كان شعارهم ، بل دينهم الذى يدينون به : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ، وحتى ليقول شاعرهم عنهم :

لا يَسألون أخاهم حين يندبهم ... فى النائبات على ما قال برهانا

فكيف لا يستجيبون للرسول الكريم ، وهو منهم ، وقد جاءهم بالبرهان المبين والحجة الساطعة الدامغة ؟

* وفى قوله تعالى : «عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم .. حريص عليكم » إلفات للعرب أيضاً إلى ما يحمل الرسول الكريم من مشاعر الحب لقومه ، والحَدَب عليهم ، بما لم يعرف إلا فى الآباء للأبناء ، وحدبهم عليهم ، حتى لقد حمل ذلك الحبُّ وهذا الحدب النبىَّ الكريم ، على أن يبيت مؤرَّقاً مسهداً موجعاً ، لخلاف قومه

عليه ، وتفلّتهم من بين يديه ، وهو يدعوهم إلى النجاة،وهم يلقون بأنفسهم فى مهاوى المهالكين ، وحتى لقد نبه الله سبحانه النبيّ الكريم إلى أن ينظر لنفسه ، وأن يتخفف من هذه الحسرات التى تملأ قلبه ، وتملك مشاعره ، فيقول له سبحانه : « لعلك باخع[1] نفسك ألاّ يكونوا مؤمنين » (٣ : الشعراء) ثم يقول له : « فلا تَذْهَبْ نفسُك عليهم حسرات » (٨ : فاطر) .

ومعنى قوله تعالى : « عزيز عليه ما عنتم » أى شاقّ عليه ، ومؤلم له إعناتكم له ، وخلافكم عليه . .

ومنه قوله تعالى : « وعزّنى فى الخطاب » أى غلبنى وقهرنى .. فالعزة ـ فى أصلها ـ الشدة والصلابة ، وفى المثل : « من عزّ بزّ » أى من غلب وقهر كان له أن يبزّ الناس ، ويستولى على ما فى أيديهم . .

فالنبى صلى الله عليه وسلم قد اشتد عليه وآلمه ، إعنات قومه له ، وخلافهم عليه .. والإعنات والعنت : البلاء ، والمشقة ، التى تضيق بها النفس ، ولا تحتملها . . ومنه قوله تعالى : « ذلك لمن خَشِيَ العَنَتَ منكم »(٢٥: النساء) .

وفى قوله تعالى : « بالمؤمنين رءوف رحيم » إشارة إلى أن عطف النبى ورحمته بالناس وحَدَبه عليهم، ليس لقومه وحدهم ، وإنما هو نفس رحيمة كريمة تتّسع للناس للمؤمنين جميعاً ، من كل جنس ، ومن كل لون .. فهو رءوف رحيمٌ بكل مؤمن ، حريص على هداية كل نفس واستنقاذها من الضلال ، والضياع !

وفى وصف النبى الكريم بهاتين الصفتين الكريمتين من صفات الله سبحانه:

---

(١) باخع نفسك : أى مهلكها ومفسدها .

« رءوف رحيم » تكريم للرسول الكريم ، ورفع لقدره عند ربه .

* قوله تعالى : « فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » ـ هو عزاء للنبى الكريم فيما اتى ويلقى من قومه ، من كيد ، وما يكابد من شقاقهم وخلافهم . وهو فيصل الأمر فيما بينه وبينهم.. إنه يدعوهم إلى الله ، ويبسط إليهم يده بالخير .. وهذا هو المطلوب منه « ما على الرسول إلا البلاغ » فإن أجابوا ، فقد أخذوا بحظهم من هذا الخير المسوق إليهم ، وإن تولوا وأبوْا ، فالله غنى عنهم ، ورسوله لائذٌ بجناب لا يضام ، ومستند إلى حِمًى لا يُنال .. إنه جناب الله، وحمى الله.. وذلك حسبه ، وكفايته .. « حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » .



(١٠) سورة يونس

نزولها : مكية . . باتفاق .

عدد آياتها : مائة آية ، وتسع آيات .

عدد كلماتها : ألف وأربعمائة وتسع وتسعون كلمة .

عدد حروفها : سبعة آلاف وخمسة وستون حرفا .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٤)

* « الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » (٤)

التفسير : مناسبة هذه السورة لما قبلها ، هى أن سورة التوبة التى سبقتها قد خُتمت بقوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتم . . »

وفى هذا إلفاتٌ للعرب عامة ، ولقريش خاصة إلى الحقوق الإنسانية الواجبة عليهم نحو هذا الرسول . المبعوث إليهم من بينهم ، ومن ذوى قَرابتهم . .

وهذه السورة ، جاء ابتداؤها منكرًا على قريش وعلى العرب تنكّرهم لهذا الرسول ، ووقوفَهم منه موقف المشاقة والعناد ، مع ما بين يديه من آيات ربه ، التى تشهد بأنه رسول رب العالمين .

فناسب لذلك أن تجىء سورة يونس ، بعد سورة التوبة ، إذ كانت خاتمة التوبة أشبه بسؤال ، وكان بدء يونس أشبه بجواب لهذا السؤال . . . أو كانت خاتمة التوبة تقريراً لحكم ، وكان بدء يونس تعقيباً على هذا الحكم .

* قوله تعالى : « الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ »

وتبدو واضحةً هنا دلالة الحروف : « الر » حيث أشير إليها بأنها آيات الكتاب الحكيم . . بمعنى أن هذا الكتاب الحكيم ، وهو القرآن الكريم ، قد نُظم من مثل هذه الأحرف ، فجاء على تلك الصورة من الإحكام والإعجاز . .

وعلى هذا ، تكون « الر » مبتدأ وجملة « تلك آيات الكتاب الحكيم » خبر هذا المبتدأ .

وهنا كلام محذوف يدل عليه سياق النظم الذى سبق هذه الآية فى آخر سورة التوبة ، والذى جاء بعدها فى هذه السورة . . وتقدير هذا المحذوف هو : الر تلك هى آيات الكتاب الحكيم ، الذى جاء به هذا النبى العربى . . فماذا ينكر الناس من هذا الكتاب الحكيم ؟ أو يكون التقدير هكذا : الر هى تلك آيات الكتاب الحكيم ، الذى جاء به النبى العربى إلى قومه فردّوه وأنكروه !

ووصف الكتاب بالحكمة ، هو الوصف اللائق به من أوصاف الكمال والجلال .. إذ الحكمة هى مجمع كل صفات الكمال .. وكل صفة من صفات الكمال لا تكون كاملة إلا إذا ازدانت بالحكمة ، ووُزنت بميزانها .. فلا تستغنى صفة من صفات الكمال عن الحكمة ، على حين أن الحكمة مستغنية بنفسها عن كل صفة ! ولهذا كان الوصف الملازم للقرآن ، أو الغالب عليه هو الوصف بالحكمة .

وفى هذا يقول الله تعالى فى صفته : « يس والقرآن الحكيم » . ويقول جل شأنه : « وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلىّ حكيم » (٤٤ : الزخرف) .. ويقول سبحانه : « كتاب أحْكمتْ آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (١ : هود) .

* قوله تعالى : « أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ »

فى هذه الآية إنكار على مشركى العرب خاصة موقفهم من الرسالة الإسلامية ، وَشَغَبُهم على رسولها ، وعجبهم ودهشهم من أن يكون المبعوث إليهم ـ رسولاً ـ من الله ، رجلاً منهم .. إنهم لا يتصورون أن يكون إنسان يأكل كما يأكلون ، ويشرب كما يشربون ، ويولَد كما يُولَدون ، ويَلِدُ كما يَلِدُون ـ لا يتصورون أن يكون مثلُ هذا الإنسان رسولاً يُوحَى إليه من الله ، ويتلقّى كلماتِه .. إنهم ــ لكى يقع فى تصورهم قيام رسول بين الله والناس ــ لا يقبلون هذا الرسول ولا يصدقونه ، إلا إذا كان فى غير جلد البشر .. كأن يكون مَلَكاً مثلاً ! وقد حكى القرآن تصوراتِهم وأوهامَهم تلك فى قوله

تعالى : « وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا » (٧ : الفرقان)

ولو عقلوا لعرفوا أن الملائكة لا تستقيم لهم مع الناس حياة ، بل يكون ظهورهم فى الناس موضع فتنة لهم ، تأخذ على ألبابهم ، وتستولى على عقولهم ، وتقيمهم فى الحياة مقاماً مزعجاً مضطرباً .

ولو أنهم كانوا على شىء من النظر والروية ، لنظروا أولاً فى وجه تلك الدعوة التى يدعوهم الرسول إليها ، ويريدهم على أن يأخذوا منها لدنياهم وأخراهم جميعاً . . إذن لعرفوا أنها دعوة إلى خير خالص ، ومسيرة إلى منهل عذب مصفّى . . وإنه ليس أخسر صفقةً ولا أضلَّ سبيلاً من إنسان يُدْعى إلى خير فيتأبّى عليه ، وينبه إلى نارٍ تمتد بلهيبها إليه ، فيلقى بنفسه بين ضرامها . .

وهذه هى دعوة الرسول إليهم ، وتلك هى رسالته فيهم : « أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قَدَم صِدْق عند ربهم » . . إنه ينذرهم داء يسكن فيهم ، ويغتال وجودهم . وهو هذا الشرك الذى هم عليه . . ويبشرهم برضوان الله ، ونعيم جناته إذا هم تخلصوا من هذا الداء ، وآمنوا بالله ، واستقاموا على شريعة الله ! . . فماذا ينكر العقلاء من أمر دعوةٍ هذه أوجهها ، وتلك وجهتها ؟ ثم ما شأنهم وشأن هذا الذى يدعوهم إلى هذا الخير ؟ وماذا يعنيهم منه إن كان بشراً أو غير بشر ؟ إنهم لو عقلوا لكان همهم الأول هو الأخذ بحظهم من هذا الخير المحمول إليهم .. ولكن أنّى للعُمْى أن يبصروا ، وأنى للصمّ أن يسمعوا ؟

— وفى قوله تعالى : « قَدَم صدق » مجاز مرسل ، يراد به مكان صدق ومنزلة صدق . . إذ كانت القدم هى العاملة الساعية إلى كل غاية يريد الإنسان بلوغها . .

وإضافة القدم إلى الصدق ، إشارة إلى الطريق الذى تسلكه هذه القدم ، حتى تصل بصاحبها إلى جناب الله ، وتنزل بساح رضوانه ، ونعيمه ، وهى طريق الحق ، والصدق ، وإلا كان مسعاها على الضلال ، وإلى الضلال والبلاء. والله سبحانه وتعالى يقول : « فماذا بعد الحقّ إلا الضلال » ؟

وقوله تعالى : « قال الكافرون إنّ هذا لساحر مبين » هو جواب عن سؤال يقتضيه هذا المقام ، وينطق به لسان الحال ، وهو : ماذا كان موقف الناس من تلك الدعوة التى جاءهم الرسول بها ؟

والجواب الذى ينطق به الواقع هنا فى هذا الوقت هو : لقد استجاب له قليلون ، وبَهِتَه وكذّبه كثيرون .

ولكن القرآن الكريم جاء بالجواب الذى يكشف عن المجرمين ، ويمسك بهم وهم متلبسون بجريمتهم : « قال الكافرون إنّ هذا لساحر مبين » . .

لقد ضلّوا ، وعَمُوْا . .

فما أبعدَ مابين دعوة الرسول ومعطياتها ، وبين السِّحر وشعوذته ! ! وفى وصف السحر بأنه سحر مبين شهادة عليهم بأن القرآن على مستوى فوق مستوى مايعرفون من كلام ، وأنه من واردات السحر المبين العظيم ، الذى لايحسنونه ! ! وماذا عليهم لو قالوا إن هذا القرآن من عند الله ، ومن واردات السماء ، إذ كان عندهم فوق مستوى البشر ؟

* وقوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » . .

هو ردّ مفحم مُخْرس على قولهم: « إنّ هذا لساحرٌ مبينٌ ».

إن الصميم من الدعوة التي يدعوهم الرسول إليها، هو الإيمان بالله واتخاذه ربًّا متفردًا بالربوبية وحده، لاشريك له.. إنه خالقهم، وخالق كل شيء. خلق السموات والأرض في ستة أيام، وقام بجلاله وسلطانه على هذا الوجود الذي انفرد بخلقه، وانفرد بسلطانه عليه! فهكذا شأن كل مالك فيما ملك.. وهكذا شأن كل سلطان فيما تحت يده، أنه متسلط عليه، متصرف فيه كيف يشاء، وإلا فما استحق هذا الوصف. والله سبحانه، هو الذي يدبّر أمرَ الملك الذي تحت سلطانه، ويقدّر أقواته وأرزاقه، ويمسك وجودَه، ويحفظ نظامه..

وليس لأحدٍ شفاعة عنده في أحدٍ إلا بإذنه، فضلا وكرمًا منه، لمن أراد له الفضل والكرامة من عباده..

وأيًّا ما كان لهذا المخلوق الذي أُذن له بالشفاعة ـ من منزلة عند الله، فهو عبدٌ من عباده، خاضع لمشيئته، مُقرّ بعبوديته، خاشع لجلاله وعظمته!.

فما أضلّ هؤلاء الذين يتخذون من خلقه آلهة يعبدونها من دونه.. إنّهم يسقطون من عَل، إذ يتخذون من المخلوقات آلهةً لهم، ويَدَعُون الخالق الذي خلقهم، وخلق مايعبدون..

« وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * »
(٢٦ — ٢٩ : الأنبياء)

— وقوله تعالى : « ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » إشارة إلى الإله الحق ، الذى ينبغى أن توجّه إليه الوجوه ، وتسجد له الجباه .

— وفى قوله تعالى : « أفلا تذكرون » تسفيه لهؤلاء الضالين ، وتسخيف لأحلامهم ، التى تركب الضلال ، وتتنكب طريق الحق ، وبين يديها صبح مشرق مبين .

* قوله تعالى : « إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ »

هو استعراض لبعض قدرة الله ، وفيه وعيدٌ للكافرين ، وأنهم ليسوا كما ظنّوا وقالوا : « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ » (٣٧ : المؤمنون) لقد كذبتهم أنفسهم ، وغرّهم بالله الغرور . . « أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » (٤ - ٦ : المطففين) « ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ » (٥١ — ٥٦ : الواقعة) .

فالبعث أمر حكم الله به ، حكماً لا مردّ له . . « إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً » . .

— وفى قوله تعالى : « إنه يبدأ الخلق ثم يعيده » إشارة إلى إمكانية إعادة الخلق بعد موتهم ، فإن ذلك لا يعجز من خلق الخلق ابتداء ، وجاء بهم على

غير مثال سابق . . فإعادة الشىء إلى أصله بعد فساده ، وانحلاله أهون – فى تقديرنا نحن البشر – من إنشائه ابتداء على غير مثال سبق . . والله سبحانه وتعالى يقول : « كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » (١٠٤ : الأنبياء) . . ويقول سبحانه : « وَهُو الذى يبدأ الخَلْقَ ثم يُعيده وهو أهون عليه وله المَثَلُ الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » (٢٧ : الروم) . .

وفى قوله تعالى « ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شرابٌ من حميمٍ وعذابٌ أليمٌ بما كانوا يكفرون » بيان للحكمة التى من أجلها كان بعْثُ النّاس ، ورجعتهم إلى الله بعد موتهم . . وهى أن يوفّى النّاسُ أجورهم ، وينالوا جزاء أعمالهم . . إذ الحياة الدنيا دار ابتلاء وعمل، والحياة الآخرة دار حساب وجزاء . . الدنيا مزرعة الزارعين ، والآخرة حصاد الحاصدين . .

ومن هنا كان من مقتضى حكمة الخالق أن يعيدَ النّاس بعد موتهم ، ليوفّيهم جزاء أعمالهم فى الدنيا . . « ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط » أى بالحق والعدل ، « والذين كفروا لهم شراب من حميم » أى من سائل حارٍّ كما يقول الله تعالى « إن شجرة الزقوم * طعامُ الأثيم * كالمهل يغلى فى البطون * كغلى الحميم » (٤٣ – ٤٦ : الدخان) .

« وعذاب أليمٌ » أى ومع هذا الشراب من الحميم عذاب أليمٌ ، وبهذا يحتويهم العذاب من الداخل والخارج ، فى بطونهم ، وفى أجسادهم . .

« بما كانوا يكفرون » وذلك بسبب كفرهم بالله ، وصدّهم عن سبيله . .

والسؤال هنا :

لم جاء قوله تعالى « ليجزىَ الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط » مقيِّداً الجزاء بأنه جزاء بالقسط ، ولم يَرِدْ هذا القيد فى جزاء الكافرين ؟ وهل يُجازَى أحد إلا بالقسط والعدل ؟ والله سبحانه وتعالى يقول : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامةِ فلا تُظلَمَ نفسٌ شيئاً وإن كان مثقالَ حبَّةٍ من خَرْدلٍ أتينا بها وكَفَى بنا حاسبين » (٤٧ : الأنبياء) .

فما جواب هذا ؟

نقول ـ والله أعلم ـ : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، قد كان لهم من أعمالهم الصالحة مايقيم ميزانهم ، ويجعل لهم حساباً على كفّتى الميزان ، كِفّة الحسنات ، وكِفّة السيئاتِ . . فما كان لهم من حسناتٍ رأوه فى كفّة الحسنات، وما كان لهم منهم سيئاتٍ ، رأوه فى كفّة السيئات . . لم تَضِعْ مثقالُ ذرةٍ من أعمالهم ، هنا ، أو هناك . . فحسابهم قائم على القسط ، والحق ، والعدل . .

وكذلك جزاؤهم .. إنه قائم على القسط ، والحق ، والعدل . .

وليس ذلك الجزاء القائم على القسط بالذى يَحْجز فضلَ الله عنهم ، أو يحول بين رحمته وبينهم . . فإن من تمام العدل أنه أخذَ المسيء بإساءته ، أن يُزادَ المحسن فى إحسانه ، لشرف الإحسان فى ذاته ، ولقدر العمل الصالح فى نفسه . فَيشرف ـ لذلك ـ بالإحسانِ أهلُه ، ويُكْرَم بالعمل الصالح ذووه . . وفى هذا يقول الحقّ جلّ وعَلاَ : « للذين أحسنوا الحُسْنَى وزيادة » (٢٦ : يونس) .

أما الكافرون فَلاَ شىء لهم فى الآخرة يقَامُ لهم ميزانٌ به ، إذ كانت كلُّ أعمالهم ضلالاً فى ضلال ، لأن أى عمل ـ مع الكفر ـ وإن كان فى باب الصالحات ، هو باطلٌ لا وزن له ، إذْ لم يُزَكِّهِ الإيمان . . فهو أشبه بالحيوان الطيب لحمُه ، الحلالِ أكله ، يموت حتفَ أنفه ، أو خنقاً ، أو غرقاً . .

فيصبح خبيثاً حراماً ! والله سبحانه وتعالى يقول : « مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ » (١٨ : إبراهيم) . . ويقول سبحانه : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَآءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا » (٣٩ : النور) . . فأى ميزان يقام لهؤلاءِ الضالِّين الكافرين ، وليس لهم فى كِفّة الصالحات شىء يوزن ؟ وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً * » (١٠٣ — ١٠٦ : الكهف)

[الجزاء الدنيوىّ : . وجزاء الآخرة]

وسؤال آخر يعرض هنا ، وهو :

لِمَ كان الموت ثم البعث حتى يقع الجزاء ؟ وهلاّ كان الجزاء معجّلاً فى هذه الدنيا حتى يكون أثرُه ظاهراً فى هذه الحياة ، تتمثل فيه العبرة والعظة ، ويقع به النفع لمن اعتبر واتعظ ؟ ثُمّ ما وقع هذا الجزاء المؤجّل ، على هذا الإنسان الذى مات وصار رميما وتراباً . . ثم يُبعث بعد هذا الزمن الطويل الذى لايعلم مداه إلا الله ؟

والجواب على هذا السؤال أو تلك الأسئلة ، نوجزه فيما يلى :

فأولاً : لاشكّ أن هناك جَزاء معجلاً لكل عمل يعمله الإنسان ، من

حسَنٍ أو سيء ، فكل عمل يحمل فى كيانه الجزاء الذى يستحقه صاحبه ، على أية صورة من الصور . . وليس من الحتم اللازم ، بل ولا من المطلوب المستحب أن يكون الجزاء من جنس العمل ، كمًّا ونوعاً وكيفاً . . فقد يكون العمل ماديًّا وجزاؤه روحيًّا نفسيًّا . . وقد يكون من نوعٍ مَّا ، ويكون جزاؤه مماثلاً له ولكن من نوعٍ آخر ، ثم قد يكون كمًّا من نوع معيّن ، فيقع جزاؤه موزعاً فى أنواعٍ متعددة من الجزاء . .

وفى الحياة الدنيا شواهد كثيرة لهذا . . فى جانب الأعمال الصالحة ، وفى جانب الأعمال السيئة ، على السواء . .

ونضرب لهذا مثلاً لكل جانب من هذين الجانبين :

رجل من عباد الله الصالحين ، أقام نفسه على طريق الحق ، والخير . . يؤدى حقوق الله ، وحقوق العباد . . فيصلى ، ويصوم ، ويزكى ، ويقول كلمة الحق ولو أصابه منها ضُرٌّ وأذى ، ولا يطفف الكيل ، ولا يخسر الميزان . . هكذا سيرته وشأنه فى الحياة ، وتلك سيرته مع الناس . . ثم يُرى مع ذلك فى حالٍ من ضنك العيش ، وضيق الرزق ، ثم قد يكون إلى ذلك مبتلى بآفة فى جسمه ، أو علّةٍ فى ولده . . !

لا شك أن ظاهر الحال ينبىء هنا عن أن هذا الإنسان شقى ، وأنه لم يَجْنِ من صلاحه وتقواه إلاّ هذا البلاء الذى هو فيه !

فأين هو الجزاء الحسن للعمل الحسن ؟ وأين هى ثمرة الإحسان التى يجنيها من زرع الإحسان ؟

والجواب ، الذى ينطق به لسان الحال ، أنه لم يجن من إحسانه غير الشوك والحَسَك ، الذى أدمى يديه ، ونزف دمه !

ولـكن الحقيقة كامنة وراء هذا الظاهر ؛ الذى تقف على حدوده الأبصار الـكليلة ، والبصائر المغلقة ..

فلو ذهب ذاهب يفتش عن هذا الإنسان ، لوجد باطن أمره على خلاف ظاهره .. وأنه وإن بدا فى مرأى العين فقيراً ، فهو فى واقعه غنىّ ، وأنه إن حُسِب فى عداد الناس شقيًّا فهو عند نفسه سعيد ، وأنه إن عُدّ فى منازل الرجال قَزْماً قميئاً ، فهو طُوَال عملاق ، لا يقـاس به أطول الرجال ، وأنه إن بدا ضعيفاً هزيلاً ، فهو قوى جبّار ، يضـع قدميه فوق رءوس الأقوياء والجبارين ..

فهذا الإنسان الذى لا تأخذه العيون ، ولا تقف عنده الأنظار ــ هو قلب ينبض بالرضا ، ونفس تتنفس السعادة ، وروح تستروح الغبطة .. يجد برد العافية يمس كل مشاعره ووجداناته ، وأنسامَ النعيم تمطر الحياة من حوله ، فيخطر فيها متراقصاً كما يتراقص الفراش على أزهار الرُّبا !

وإن هذا الإنسان الذى لا تشبع بطنه من لقمة العيش .. هو قائم على مائدة حافلة بالطيبات من المُثل الـكريمة الفاضلة ، يتخير منها ما يطيب له ، لغذاء عواطفه ومشاعره ..

وهذا الإنسان الضعيف الهزيل ، الذى لا يكاد تحمله قدماه .. هو نَسر يضرب بجناحيه فوق هذا العالم الترابى ، محلقاً فى سماوات لا حدود لها ، حتى ليكاد يطاول النجوم فى أفلاكها ..

أتريد لهذا شاهداً يشهد لما نقول ؟

اقرأ سير الأبطال ــ أبطال الإنسانية الحقيقيين ــ الذين كانت دنياهم جنة من جنات الله على هذه الأرض .. فعرفوا طعم السعادة ، ورَضَعُوا أخلاف النعيم ،

لا فى هذه القصور الشامخة ، وما تـكتظّ به من أثاث ورياش ، وما يموج فيها من جَوَار وغلمان ، وما تحفل به من موائد ومطاعم ، وما يساق إليها من ذهب وفضة .. ولـكن فى بيوت متواضعة ، تسكنها نفوس عمرتها السكينة ، وتعمرها قلوب عَمَرها الحق والعدل والخير ..

أعرفت شيئاً من سيرة عمر بن الخطاب ؟ وأعرفت كيف كان طعامه لقيمات جافة من خبز الشعير وإدامه قطرات من الزيت أو الخل ، لا يجتمعان معاً .. وهو خليفة المسلمين ، ووارث ملك القياصرة ، وعرش الأكاسرة ؟ وأرأيت كيف كان لباسه من المرقع الخشن ، وبين يديه ما شاء من دمقس وحرير ، مما جُلب من صنعة الشام ، والعراق ، ومصر ، واليمن ؟ ثم أشهدت خليفة المسلمين وهو قائم فى الشمس يَهْنأ إبل الصدقة ، ويعالج جَرْباها ؟

لا تنظر فى هذا إلى عظمة عمر ، ولا إلى زهده ، وعفته ، ولا إلى خوفه من ربه وخشيته ليوم لقائه ، وانظر إلى عمر ، وإلى السعادة الغامرة التى تملأ جوانحه ، وتفيض على الناس من حوله ..

إن عمر وهو يردّ شربة المـــاء البارد فى يوم صائف ، ويرفعها عن شفتيه حين وجد نفسه تهشّ لها ، وترقص طرباً لاستقبالها ـ إنه ليجد السعادة مضاعفة حين غَلَب هواه ، وحطّم شهوته ، وقهر سلطانها .. إنه الآن ملك غير مملوك ، وسيد غير مَسُود ، وقادر غير عاجز ، ومتسلط غير متسلط عليه ، وحاكم غير محكوم ..

وشتان بين عمر لو شرب هذا الماء ، وبين عمر هذا الذى أبى على نفسه أن تشربه !

هذه لغة لا يعرف مدلول ألفاظها إلاّ من عانى مثل هذه التجربة وعاشها ،

ووقف من نفسه ولو مرةً واحدة ، إزاء شهوة غالبة ، أو هوى قاهر ، فاستعلى على شهوته ، وأمسك بزمام هواه .. ذلك هو الذى يدرك معنى السعادة التى كان يعيش فيها عمر ومَن أخذ مأخذ عمر ، وسار على طريقه .. فى القناعة ، والتعفف ، والاستقامة ..

من كلمة حكيمة لسقراط يقولها لأحد معاصريه :

« يبدو أنك تظنُّ أن السعادة فى الترف والإسراف .. أما أنا فأرى أنك إذا لم تكن فى حاجة إلى شىء لكنتَ شبيهاً بالآلهة ، وأنك كلما أقللت من حاجتك قدر استطاعتك كنت أقرب ما تكون إلى الآلهة » .

هذه هى السعادة الحقيقية الكاملة فعلاً . السعادة التى يحصل عليها المرء بالاستعلاء على شهواته ، والاستغناء عن الكثير من الضرورات التى تقيّد خطوه ، وتُثقل كاهله ..

والناس على منازلهم من القدرة على امتلاك ناصية شهواتهم ، والتحكّم فى زمام أهوائهم ، فهم بين قادر متمكن ، وواقف بين القدرة والعجز ، وعاجز مستسلم .. وكلما كان الإنسان أقدر على قهر شهواته وردع أهوائه كلما علا وارتفع ، وحلّق فوق هذا المستوى الذى يتقلب فيه الناس . .

ولهذا نجد التفسير الصحيح لتلك المواقف الرائعة المذهلة ، التى كان يقفها أناس لا حول لهم ولا طول ، فى وجوه الجبابرة والمتسلطين من أصحاب الجاه والسلطان . فإذا هذا الجبار المتسلط ، يسقط بجاهه وسلطانه ، ويهوِى بجبروته وسطوته بين يدى هذا الإنسان الذى ليس بين يديه شىء من جاه أو سلطان ، وإنما سلطانه وقوته فيما انطوت عليه جوانحه من استقامة وصلاح ..

وليس لهذه القوة الروحية ، و تلك العظمة النفسية ، طبقة معينة من الناس ،

ولا صفة خاصة مميزة لهم ، وإنما هى لمن يطلبها ، ويؤدّى من ذات نفسه الثمنَ المطلوب لها . .

فهى تلبس الصعلوك ، كما تلبس الأمير ، وتـكون فى الحاكم كما تـكون فى المحـكوم .

فهذا أعرابىّ من أجلاف البادية ، يقف للحجاج طاغية زمانه ، فيُخرسه ، ويذلّ كبرياءه ، ويحطّم جبروته .

سأله الحجـــاج عن أخيه محمد بن يوسف الثقفى ، قائلا : كيف تركته ؟ .

قال الأعرابى : تركتُه بضًّا سميناً ؟

قال الحجاج : لستُ عن هذا أسألك !

قال الأعرابى : تركتُه ظَلوماً غشوماً !

قال الحجاج : أو ما علمتَ أنه أخى ؟

قال الأعرابى : أتُراه بك أعزّ منى بالله ؟

هذه هى القوة التى لا تتخلّى عن صاحبها أبداً ، ولا تَخذُله فى موقف من المواقف . إنها تختلط بدمه ، وتَسرى فى مشاعره وتسكن فى وجدانه .. وهى مصدر سعادة ورضا ، يغتذى منها صاحبها أكثر وأهنأ مما يغتذى صاحب السلطان من سلطانه .

والمُشاهد فى الحيـــــاة دائماً هو أن أصحاب الجاه والسلطان ، وأهل الجبروت والقهر ، إذا استبان لهم وجهُ إنسان تعلوه ملامح الصلاح والتقوى ، تخاضعوا بين يديه ، وتخاشعوا له ، وسعوْا إلى مرضاته ، ولم يستنـكفوا أن يكونوا من ورائه ، خدماً يخدمونه ، ويتبعون إشارته !!

وقد استشف بعض الصالحين هذه الظاهرة ، ووقع على السرّ الكامن فيها .. حين نظر فوجد أن الأطفال يتحكمون فى الكبار ، حيث ينزل الكبار إلى مستواهم ، يلاعبونهم ، ويلاطفونهم ، ويجدون السعادة والرضا فى خدمتهم والسهر على راحتهم ..

وقد علّل ذلك بأن الطفولة أقربُ عهداً بالله ، وأطهر نفساً ، وأصفى روحاً . فهى فى صفائها وطهارتها أقرب ماتكون إلى الملائكة ، ومن هنا سخّر الله سبحانه وتعالى الكبار لخدمة الصغار .. والأخيار الصالحون أقرب ما يكونون إلى الأطفال ، فى براءتهم وطهرهم .. ومن هنا كان سلطانهم على الناس ، ومكانتهم فيهم أشبه بسلطان الطفولة القاهر على الآباء وغير الآباء .. إنهم أقرب إلى الله من كل عباد الله .. ومن كان من الله أقرب ، سُخّر له من كان من الله أبعد ، ومن كان فى طاعة الله ، كان الناس فى طاعته !

كان أبو عبد الله التونسى فى مدينة تلمسان ، مشهوراً بين الناس بالصلاح والتقوى ، فمرّ به يحيى بن يَقّان حاكم تلمسان فى خَدَمه وحشمه ، فقيل له : هذا أبو عبد الله التونسىّ ، فمَسَك لجام فرسه ، وسلم على الشيخ ، فردّ عليه السلام ، وكان على الملك ثياب من فاخر الحرير ، فقال ياشيخ : هذه الثياب التى أنا لابسها أتجوز لى الصلاة فيها ؟

فضحك الشيخ ، فقال الحاكم : ممّ تضحك ؟ قال : من سُخْف عقلك ، وجهلك بنفسك وحالك ، مالكَ تشبيهٌ عندى إلا بالكلب ، يتمرغ فى دم الجيفة وأكلِها وقذارتها ، فإذا جاء يبول يرفع رجليه ، حتى لايصيبه البول !

« وأنت وعاء مُلىء حراماً ، وتسأل عن الثياب ، ومظالم العباد فى عنقك ؟ قالوا : فبكى الحاكم ، ونزل عن فرسه ، وخرج عن سلطانه من حينه ، ولزم

الشيخَ ، فمسكه الشيخ ثلاثة أيام ، ثم جاء بحبل ، فقال له : قد فرغت أيام الضيافة فقم ، فاحتطب . . فكان يأتى بالحطب على رأسه ، ويدخل به السوق ، والناس ينظرون إليه ويبكون . . » .

أفليس هذا جزاء الخير والإحسان فى الدنيا ؟ أوليس هذا السلطان المتمكن الذى يُعطاه أهلُ الصلاح والتقوى فى هذه الدنيا ، جزاءً طيّباً مسعداً لهم ؟ ثم أليس هذا دليلاً على أن كل عمل طيّب صالح يعطى ثمرته ، عاجلةً طيبة ، بقدر مافيه من طيب وصلاح ؟

وعلى عكس هذا الأعمال الرديئة الخبيثة .. إنها تحمل فى كيانها الجزاء الردىء الخبيث لأهلها ، على قدر مافيها من رداءة وخبث ، مكيالاً بمكيال !!

ولانسوق لهذا الأمثال والشواهد ، فشاهد الأعمال الصالحة ، وما يعود منها على أهلها من خير ، يعكس الصورة المقابلة للأعمال الرديئة الخبيثة ، ويعطى الحكم الواقع عليها ، وهى أنها شرٌّ وبلاء ونقمة على أصحابها فى الدنيا . على قدر ما فيها من رداءة وخبث ، سواءً بسواء ، وصاعاً بصاع !

* * *

أما لماذا الجزاء الأخروى ، إذا كان الناس ـ أخياراً وأشراراً ـ قد وُفّوا جزاء أعمالهم فى الدنيا ، وجُوزوا عليها بالخير خيراً ، وبالشرّ شراً ؟

ونقول : إن الإنسان ـ وهكذا شاء الله له ـ ليس مخلوقاً لهذه الدنيا وحدها ، وليست حياته كحياة الحيوان تنتهى على هذه الأرض بنهاية عمره فيها . وإنما الإنسان فى منزلة هى عند الله أكرم وأشرف مما على هذه الأرض من كائنات . . إنه خليفة الله على هذه الأرض ، فإذا أدّى مدة خلافته فيها ، انتقل إلى عالم آخر غير هذا العالم ، ونزل داراً أخرى غير تلك الدار . . هى أخلد وأبقى . .

وليس الموت الذى ينزل بالناس إلا وقفةً على طريق الحياة الأبدية ، واستعداداً لدخول عالم جديد ، غير العالم الذى كانوا فيه . إنه أشبه شيء بالمسافر ينتقل من منطقة جبلية ثلجية إلى منطقة حارة قائظة . . إنه لابد أن يقف على مشارف على هذه المنطقة الجديدة ، فيتخفّف من ملابسه الثقيلة ، وما كان معه من أدوات التدفئة . . !

وبمعنى آخر . . ليس هناك بالنسبة للإنسان موت بالمعنى الذى يقع على النفوس من كلمة « موت » ، كما تموت الدواب والطيور والحشرات . . وإنما هى حياة على أتم ما تكون الحياة ، وإن اختلف لونها وطعمها ، كما تختلف طعوم الحياة وألوانها عند الإنسان ، حين ينتقل نُقلة بعيدة من قارة إلى قارة مثلاً ، على بعد فى التشبيه ، واختلاف فى التمثيل ..

واستمع إلى قول الرسول الكريم ، وتلخيصه فى هذه الكلمات الرائعة المعجزة لقصة الحياة ، والموت ، أو قل ـ بمعنى أصح ـ قصة الحياة ، وما بعد الحياة . . يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

« النّاسُ نيام . . فإذا ماتوا انتبهوا » !

فليست هذه الحياة التى يحياها الإنسان فى هذه الدنيا إلا أحلاماً وأضغاثَ أحلام بالقياس إلى الموت،وما بعد الموت .. هناك يجد الناس وجودَهم ، وتلبسهم الحياة الحقيقية الكاملة ..

وهذا مايشير إليه القرآن الكريم فى كثير من آياته ، فى معرض عرضه للدنيا والآخرة.

فيقول سبحانه وتعالى : « وَمَا هٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » (٦٤ : العنكبوت)

ويقول جلّ وعلاَ : « وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ » (٢٠ : الحديد)

ويقول سبحانه : « وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى » (١٧ : الأعلى)

ويقول تبارك وتعالى : « وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ » (٣٠ : النحل)

ويقول سبحانه : « وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ » (٢٦ : الرعد)

وإذن ، فهناك حياة آخرة !

وإذا كانت هناك حياة آخرة ، فمن الطبيعى أن ينتقل إليها الإنسان بما حصّل فى حياته الأولى ، وما جمع من خير أو شر ، وما عمل من حَسَن أو قبيح . . فانتقال الإنسان من هذه الدنيا ، لايقطعه عما كان له فيها من عمل . . بل إن عمله كلّه سيصحبه إلى عالمه الجديد ، كمن ينتقل من بيت إلى بيت ، ومن بلد إلى بلد ، نُقلة إقامة واستقرار . . إنه يحمل كل مافى داره الأولى إلى داره الثانية . . غاية ما هناك من فرق ، هو أنه لايتكلف لذلك جهداً ولامشقةً ، بل سيجد كل ما عمل قد سبقه إلى هناك ! إلى داره الجديدة ، وإلى عالمه الجديد !

وأرانا بهذا قد أجبنا على سؤال سألناه آنفاً ، وهو :

ما وقْع هذا الجزاء المؤجل ، على الإنسان الذى مات وصار رميما وترابا ثم يبعث بعد هذا الزمن الطويل الذى لايعلم إلا الله مداه ؟

لقد عرفنا أن ليس هناك فترة انقطاع بالموت فى حياة الإنسان الممتدة من

الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة . . بل إن الموت فى واقعه هو حياة للإنسان ، هو صحوة من نومٍ ، وانتباه من غفلة ، وانتقال من دار إلى دار ، ومن عالَم إلى عالم . !

وقد أنكر كثير من الناس هذا الموت المسلّط على الإنسان ، وعدّه عقوبة صارمة تنزل بالناس ، فتسوّى بين الأخيار والأشرار .

فيقول أحد شعراء هذا المذهب :

إن يك الموتُ قِصاصاً
أى ذنب للطّهارَة
وإذا كان ثواباً . . . .
أىُّ فضلٍ للدّعارَة
وإذا كانَ وما فيهِ جزاءٌ أو خسارة
فلم الأسماء : إثم وصلاح ؟
لست أدرى !

ونقول : ليس الموت فى ذاته قصاصاً أو ثواباً . . وإنما هو موقف تتحول به أحوال الناس ، على حسب مالهم عند الله من ثواب أو عقاب ، بما كان لهم فى الحياة الأولى من أعمال ، تلائم العالم الجديد الذى نقلوا إليه ، أو لا تلائمه . . فإن كانت مما يتلاءم مع العالم العلوى الذى نقلوا إليه نعموا بها ، وسعدوا ، وإن كانت مما لاتتفق وطبيعةَ هذا العالم شقوا بها ، وابتلوا بالحياة معها . . فلكل عالَم جوّه الذى تطيب فيه مغارسه ، وتروجُ فيه عُملته . . وهذا العالم العلوّى لاتقُبل فيه إلا الأعمال الطيبة الصالحة ، ولا ينعم فيه إلا الطيبون الصالحون . .

أما الخبيث المرذل ، فهو مردود على أهله ، يَطْعَمون من خَبَثه ، ويتقلبون على شوكه !

فالأعمال التى يعملها الناس فى حياتهم الدنيا ، هى زادهم الذى يطعمون منه فى الآخرة ، فإذا كان ما عملوه صالحاً ، وجدوا الحياة الطيّبة معه ، حيث يتلاءم مع الدار الجديدة التى نُقلوا إليها ، والتى لا يُقبل فيها إلا ما كان طيباً . . أما الردىء الخبيث فهو رِدٌّ على أهله ، وبلاء على أصحابه . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتم تكنزون » (٣٤ — ٣٥ : التوبة) . . فهذا الذهب الذى اكتنزه المكتنزون ، وبخلوا به ، فلم ينفقوا منه فى سبيل الله ـ هذا الذهب ، قد تحوّل إلى أداةٍ من أدوات العذاب لأهله . . إنّه عملهم السيء ، قد انتظرهم هناك !

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يأكلون أموال الْيَتَامَىٰ ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا » (١٠ : النساء) . . فهو نفس الشىء . . عمل سيء حصّلوه فى الدنيا . . فانتظرهم هناك . . فى الآخرة . .

* * *

إن العاقل ـ وبصرف النظر عن الدِّين ـ يغرس فى مغارس كثيرة قد لا تعطيه أى ثمرٍ فى حياته ، وإنما يجنيه أبناؤه من بعده . . وهو مع هذا لا يضنّ على هذا الغرس بمال أو جهد . .

وإن العاقل الرشيد ليرى أن دنياه هذه لا يمكن أن تتسع لمغارسه ، وأنه لابد من حياة وراء هذه الحياة يغرس لها ليجنى هناك بيديه ثمر ما غرس .

وقد جعلت شريعة الإسلام للناس أن يَحْيَوْا حياتين معاً . . الحياة الدنيا ، والحياة الآخرة ، وأن يعملوا لهما جميعاً ، بلا إفراط ولا تفريط ، فلا تطغى الدنيا على الآخرة ، ولا تجور الآخرة على الدنيا ، فكان مطلبهم من الله قولهم : « ربَّنَا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » (٢٠١ : البقرة) . . فهذا هو عنوان الشريعة الإسلامية ، وهذا هو منهج المؤمنين بها . . يعملون للدنيا ، ويعملون للآخرة : « فعند الله ثواب الدنيا والآخرة » (١٣٤ : النساء) .

يقول الراغب الأصفهانى :

« لم ينكر أمر المعاد والنشأة الأخرى إلاّ جماعة من الطبيعيين ، أهملوا أفكارهم ، وجهلوا أقدارهم ، وشغلهم عن التفكير فى مبدئهم ومنشئهم شَغَفُهم بما زُيِّن لهم من حبّ الشهوات .

« وأما من كان سويًّا ولم يمش مكبًّا على وجهه ، وتأمل أجزاء العالم ؛ علم أن أفضلها ذوات الأرواح ، وأفضلَ ذوات الأرواح ذوات الإرادة والاختيار ، وأفضلَ ذوى الإرادة والاختيار الناظرُ فى العواقب ، وهو الإنسان . . فيُعلم أن النظر فى العواقب من خاصية الإنسان ، وأن لم يجعل الله تعالى هذه الخاصية له ، إلا لأمر جعله له فى العُقبى ، وإلا كان وجود هذه القوة فيه باطلا » .

ثم يقول الراغب :

« فلو لم يكن للإنسان غاية ينتهى إليها غير هذه الحياة الخسيسة المملوءة نصباً وهمًّا وحزَناً ، ولا يكون بعدها حال مغبوطة ـ لكان أخسّ البهائم أحسنَ حالاً من الإنسان ! »

* * *

وربما سأل بعض الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ، فقالوا : ماذا لو وقع الجزاء بين الناس فى الدنيا ؟ فالله سبحانه وتعالى قادر على أن يسوّى حساب الناس فى هذه الحياة ، ويوفّى كل عامل جزاء عمله . . المحسن بالإحسان ، والمسىء بالإساءة ؟

ونحن نسأل : على أىّ وجه يُسوَّى هذا الحساب ؟ . . أهكذا مثلاً ؟ :

الفقير ينال نصيبَه من الغنى ؟

والمريض يلبس ثوب العافية ؟

والمقتول يعود إلى الحياة ويَقتل قاتله ؟

والمظلوم ينتقم ممن ظلمه ؟

وهكذا . .

أليس كذلك تكون تسوية الحساب ؟ وأليس على هذا الوجه أو قريب منه يقع الجزاء ويكون القصاص ؟

فأى حياةٍ إذن تكون هذه الحياة ؟ إنها ليست الحياة التى يصلح فيها شأن الناس ، ويتحرك فيها وجودهم !

إن الناس فى حياة كهذه الحياة يَبدون وكأنهم لُعب . . بلا إرادة ، ولا تفكير . . كلهم على سمت واحد . لا فرق بين إنسان وإنسان . . فلا غنىّ ولا فقير ، ولا صحيحَ ولا مريض ، ولا جميل ولا دميم ، ولا قوى ولا ضعيف !

إنه لكى يكون الحساب هنا عادلًا ، يجب أن يكونوا كائنًا واحداً . . أشبه برقم عددىّ يتكرر . . أمّا وهم أكوان . . كل منهم عالَم قائم بذاته ، له وجوده ، وله مشاعره ، وله سعيه — فإن التسوية بينهم فى الحياة ، هى

اليدُ المخرّبة ، التى تفسد هذا الجهاز الذى يُدفع بعجلة الحياة الإنسانية ، ويحركها فى كل اتجاه !.

وانظر ماذا يكون الحال ، لو وَجد المحسن جزاء إحسانه حاضراً « فوريًّا » ؟

إنه ـ والحال كذلك ـ يتحول من محسن ، يَقْدُر الإحسان ، ويحترم الخلُق الفاضل ، ويعشق الْخير ـ يتحول إلى تاجر ، يبيع الإحسان بالدراهم والدنانير !!

إنه ـ والأمر كذلك ـ لا يرى الخير خيراً ، ولا الفضيلة فضيلة ، وإنما يراها سلعاً تُباع وتشترى .. وبهذا يتحول الإنسان من إنسان إلى حيوان لا وجدان له ، ولا ضمير معه !

وكذلك المسيء ، الذى يرتكب المنكرات .. من قتل ، وسرقة ، واعتداء على الناس ، واستباحة دمائهم وأموالهم . . إنه لو وجد عقابه عاجلاً « فوريًّا » لما أقدم على شىء من هذا ، لأنه يعلم أن عين السماء تراه ، وأن يدها لا تقصر عنه ، وأنه لو كان عقابها معجلا ، لبادره العقاب بمجرد أن يفرغ من جُرمه ، وقبل أن يبرح مسرح جريمته !

أفترى إنساناً يُقدم على قتل إنسان وعين رجل الشرطة إليه ، والبندقية مصوبة نحوه ؟ أترى إنساناً يسرق إنساناً وهو يرى الشرطىّ يمد يده ليقبض عليه ؟ إن ذلك لا يكون أبداً . .

وهذا معناه ألا تقع أية جريمة فى الحياة .. فلا بغى ولا عدوان ، ولا إثم ولا منكر ! وإذن . . فلا قِصاص !

ثم ما الحياة الإنسانية ، وما طعمها ، إذا هى خَلَتْ من الشرور ؟ إنها لن

تكون حينئذ حياة الناس، ولا دنيا البشر .. بل هى حياة الملائكة، أو عالم الجماد .. وليس الناس ملائكة ولا جماداً .. وإنما هم بشر .. فيهم المحسن والمسىء، ومنهمْ الطيب وفيهم الخبيث .. والإنسان ذاته يحسن ويسىء، ويَطِيبُ ويخبث .. وليس فى الناس الطيب الخالص، ولا الخبيث المحض، وإنما الناس هذا وذاك، والإنسان من هذا ومن ذاك!

وقد يبدو لسائل أن يسأل: إنك تقول: إن مجازاة المحسن على إحسانه بالأسلوب «الفورىّ» فى الدنيا يجعل منه تاجراً يتجر بالفضائل، ويجعل من تلك الفضائل سلعاً .. وفى ذلك إزراء بالفضائل وإنزال من قدرها ..

أفلا يكون هذا المعنى قائماً مع الجزاء المؤجل ذاته؟ وما الفرق بين أن يلْقى المحسن جزاء إحسانه اليوم، أو غداً، أو بعد غد؟

أليس الذى يلقاه فى الدنيا، أو الذى يلقاه فى الآخرة من جزاء على إحسانه، هو ثمن لهذا الإحسان؟

إنه هنا فى الدنيا، يلقى الحسنة بالحسنة والخير بالخير .. ولكنه هناك فى الآخرة، يلقى الحسنة بعشر أمثالها، وبأكثر من عشر أمثالها، ويلقى الخير مضاعفاً أضعافاً كثيرة..فأى الجزاءين يكون فيه الإنسان تاجراً يتجر فى الفضائل ويتعامل بها فى جشع ونهم؟ أذلك الذى يُباع فيه الشىء بمثله، أو ذاك الذى يباع فيه بعشرات أمثاله؟

ونقول: إن هذا التقدير قائم على حساب غير دقيق .. ذلك أن الجزاء الفورىّ، هو مناولةٌ يدٍ بيد، ليس فيه مخاطرة كالتى تكون فى بيع العاجل بالآجل .. وكون الآجل أضعافاً مضاعفة للعاجل لا يرفع عنه خطر المخاطرة، وخاصة ذلك الأجل الطويل، الذى يمتدّ أزماناً لا يعرف المرء مداها، والذى

تقع للمرء فيه أحداث مذهلة لا يمكن التنبؤ بعواقبها .. وخاصة أنه حساب يقتضى المرء عنه حسابه بعد الموت ، وبعد البعث من الموت !!

إن الإيمان وحده الذى يكفل للجزاء الآجل قيمته ، ويجعل له وجوداً يتعامل الإنسان على حسابه .. وبغير هذا الإيمان لا يمكن أن يقبل عاقل بيعَ درهم عاجل بقناطير مقنطرة آجلة ، لأنه لا محصَّل لها بعد هذا الأجل الطويل وبعد هذه الأحداث العجيبة ، إلا إذا كان هناك إيمان وثيق بالبعث وبالجزاء !!

وانظر فى المعاملات المالية ، أيام اضطرابات السلام ، وتوقعات الحرب .. إن عمليات البيوع المؤجلة كلها تتوقف ، وليس هناك من تعامل بين الناس إلا بالسلعة الحاضرة والثمن المقبوض ، يداً بيد ، حيث يفقد الناس الثقة فيما ستلده الأيام ، إذا وقعت الحرب !

وقليل جداً هم أولئك الذين يتعاملون فى هذه الحال بالبيع المؤجل ، وإن بلغت الأرباح فى هذه البيوع عشرات الأضعاف .. إن هؤلاء قلة مغامرون بمعنى الكلمة .. لكنهم على أية حال لا يتعاملون إلا فى أضيق الحدود ، وبأقل جزء من أموالهم ..

وليس كذلك المؤمنون الذين يعملون ليوم الجزاء .. إنهم يتعاملون وهم على ثقة بأنهم يعقدون مع الله صفقة رابحة ، مؤكدة النتائج ، محققة الوقوع .. « فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به .. وذلك هو الفوز العظيم » .. وهم لا يتعاملون فى أضيق الحدود ، ولا بالقليل مما فى أيديهم ، بل يتعاملون بلا حد ولا قيد ، حتى لقد يخرج الواحد منهم عن ماله كله ، وحتى لقد يبيع نفسه ، ويقدمها قرباناً لله ، وبالاستشهاد فى سبيل الله !

والجزاء المؤجل ـ ثواباً أو عقاباً ـ إنما يتعامل به العقلاء الذين يحكمهم عقلهم ، أكثر مما تتحكم فيهم شهواتهم ..

فالطفل يعطيك كل ما معه حتى ملابسه ، فى سبيل قطعة من الحلوى ، لأن قطعة الحلوى هذه ، صالحة لأن تؤكل فى الحال .. !

والصبى .. غير الطفل .. إنه لا تستبد به شهوة الحلوى الحاضرة كل هذا الاستبداد .. فهو يساوم وينازع فيما يأخذ ويعطى !

وهكذا ، كلما درج الإنسان فى مدارج الرشد ، رجع إلى عقله ، وأطال النظر والتقدير فيما يعود عليه من ربح أوفر ، فى العاجل أو فى الآجل !

فإذا جاء الناس إلى مجال العمل لما بعد الموت .. كثر المترددون ، وقل العاملون ..

وإنك لو أتيح لك أن تتفحص أمر هؤلاء وهؤلاء ، لوجدت أن أولئك الذين آثروا العاجل على الآجل ، هم دون من آثروا الآجل على العاجل ـ ووجدتهم دونهم عقلا وتقديراً للأمور .. إنهم مازالوا فى دور الطفولة ، وإن كانوا فى صورة الرجال !

إن عقول الماديين لم تستسغ تأجيلَ الحساب والجزاء إلى حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، بل جعلته حساباً موصـــولا بهذه الحياة الدنيا .. فكان مذهب التناسخ « تناسخ الأرواح » الذى يؤمن فيه أصحابه بأن الروح تنتقل من جسد إلى جسد ، فتنال جزاءها فيه .. فإن كانت خيّرة حلّت فى جسد تجد فيه راحة ونعيما ، وإن كانت آثمة حلت فى جسد تلقى فيه بلاء ونـكالا ..

والقائلون بالتناسخ ، ينـكرون أن تـكون هناك حياة آخرة ، يلقى فيها الإنسان جزاء .. ولـكن لابد من جزاء حتى يعتدل ميزان العدل ، ويطمئن

المحسنون إلى إحسانهم ، ويخشى المسيئون جرائر سيئاتهم - وإذن فليكن هذا الجزاء على تلك الصورة التى صورها القائلون بالتناسخ ، فجعلوا الجزاء واقعاً فى هذه الدنيا ، وعلى المسرح الأرضى بمشهد ومرأى من الناس !

والقائلون بالتناسخ يقولون : إن النفس باقية خالدة . . وإن الأبدان التى تحلّ فيها النّفس ، واحداً بعد واحد ، شبيهة بالأعوام أو الأيام فى حياة الفرد الواحد !

وهم يقولون : إن الحياة لا يمكن فهمها إلا على افتراض أن كل مرحلة من مراحل وجود النفس ، تعانى العذاب وتتمتع بالثواب ، جزاء وِفاقاً لما وقع منها فى حياة ماضية . . من رذيلة أو فضيلة . . إذ يستحيل على فاعل فعلٍ صغير أو كبير . . خيِّراً أو شرِّيراً . . أن يمضى بغير أثر . . إن كل شىء لا بد أن يظهر له أثر ذات يوم !

وأنت ترى أن القول بالتناسخ لثواب المحسن وعقاب المسىء هو تصور خاطىء لملء هذا الفراغ الذى يجده الناس حين يقفون على حدود هذه الدنيا ، ولا يلتفتون إلى حياة آخرة بعدها . . إنهم فى مجال هذه النظرة المحدودة ، يرون أن أعمالاً صالحة كثيرة ذهبت ، ولم يُجزَ عليها أصحابها الجزاء المناسب ، وأن أعمالاً سيئة منكرة قد وقعت ، ولم يلق مرتكبوها ما يستحقون من عقاب - فكان القول بالتناسخ هو مما ترضَّى به عقولَهم ، أولئك الذين لا يؤمنون بالبعث والجزاء . فهو ضرب من ضروب الخداع للنفس . . إذ لا أثر له فى محيط الواقع ، ولا دليل عليه بين أيدى الناس ، وهذا أوضح من أن يحتاج إلى بيان ! فالروح التى تلبس هذا الذى يقول بالتناسخ . . هل يجد فى كيانه إحساساً ما بأنها كانت يوماً فى كائن آخر غيره ؟ فكيف يصحّ عنده أن تنتقل بعد موته إلى كائن آخر من إنسان أو حيوان ؟ ذلك ما لا يقع فى

إحساس أى إنسان . . فكيف يتم إذن هذا التناسخ ؟ وعلى أى أساس يقوم علم به ، وتستند عقيدة إليه ؟

* * *

هذا وقد استعجل بعض المؤمنين بيوم الآخرة ، وبالجزاء فى هذا اليوم استعجلوا هذا العذاب ، فلم يصبروا على هذا الموعد الذى هم على رجاء لقائه بعد الموت ، وخاصة فيما يصيبهم من ظلم ، وما يقع عليهم من بغى . . ولهذا قالوا برجعة بعض من ماتوا إلى هذه الدنيا مرة أخرى ، قبل البعث العام ، وذلك ليلقوْا على أيدى من أساءوا إليهم الجزاء الذى يستحقونه . .

والشيعة الإمامية متمسكون بهذا الرأى ، بل إنه دعامة من دعائم عقيدتهم ، لأنهم على توقع هذه « الرجعة » ينتظرون إمامهم الغائب : « أبو القاسم محمد بن الحسن » وهو « المهدى » عندهم ، كما أنه الإمام الثانى عشر من أئمتهم .

على أن طائفة من الإمامية — وهى تدين بالرجعة — تتأول الرجعة ، بأنها رجوع الدولة والأمر والنهى إلى آل البيت ، وليست رجوعَ أعيان الأشخاص ، وبعث الموتى من قبورهم قبل يوم البعث !

* * *

وعلى أىٍّ ، فإن القول بالتناسخ ، أو القول بالرجعة ، هو توكيد لضرورة البعث ، وأن البعث أمر لابد منه ، ليسوّى فيه حساب المحسنين والمسيئين بعد هذه الدنيا . . وقد فرض العقل الإنسانىّ التناسخ فرضاً ، واعتسفه اعتسافاً ، وتقبّله ، وآمن به ، وليس بين يديه شاهد يشهد له ، أو دليل يدلّ عليه . . وما ذلك إلا لأنه رأى الحياة الدنيا ، لا تضع موازين العدل بين الناس ، ولا تأخذ للمظلوم حقّه من ظالمه . .

فإذا جاءت كتب الله ، ورسل الله ، تحدّث عن البعث ، وتؤكد وقوعه ، لتجزى كل نفس بما كسبت — كان ذلك أمراً لا ينبغى لعاقل أن يشك فيه ، إذ كان مما يطلبه العقل ، ويقيم له من تصوراته وخيالاته مفهوماً يستريح له ، ويرضى به !

(الآيات : (٥ — ١٠)

* « هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِى ٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا بِٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ » (١٠)

التفسير : قوله تعالى : « هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »

هو عَرْض لبعض مظاهر قدرة الله سبحانه ، والتى ذكرت الآيات السابقة بعضاً منها . .

فالشمس والقمر آيتان من آيات الله الدالّة على قدرته ، وعلمه ، وحكمته . . وآثارهما فى عالمنا الأرضى واضحة مشهودة . . عليهما تقوم حياة كل كائن فى هذا الكوكب الأرضى ، وينتظم نظامُه . . ولو أنهما أخذا من الأرض موضعاً غير موضعهما ، لاختلّ نظام هذا الكوكب ، وفسد أمره ، وتحول إلى صورة أخرى غير صورته تلك . . لا يدرى أحد ماهيتها التى تكون عليها . .

— وفى قوله تعالى : « جعل الشمس ضياء والقمر نوراً » إشارتان :

أولاهما : أن الجعل غير الخلق . . إذ هو تدبير بعد تدبير الخلق . . فالخلق إيجاد لِمَا هو غير موجود ، والجعل تقدير وتنظيم لهذا المخلوق الذى خُلق ، وإقامتُه على الوجه الذى يحقق الحكمة من خَلْقه . .

والخلْق بالإضافة إلى الله ـ سبحانه ـ خلق متلبس بالحكمة ، قائم على التقدير .. فليس هناك انفصال بين خلق الله ، وبين الحكمة والتقدير لما خلق . . ولكن التعبير « بالجعل » الذى يكشف عن حكمة الخالق المودعة فى المخلوق ، هو إلفاتٌ لأنظارنا إلى ما فى هذا المخلوق من آثار رحمة الله وحكمته . . ومن جهة أخرى ، فإن التعبير بالجَعْل لا يكشف عن الحكمة من خلق المخلوق إلا من الجانب الذى يتّصل بنا ، ويؤثر فى وجودنا . . ففيما كشف عنه قوله تعالى : « هو الذى جعل الشمسَ ضِياء والقمر نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » . . عرض مقصور على ما يتصل بنا من خلْق الشمس والقمر ، أمّا مالهما من شأن أو شئون تتصل بالعوالم الأخرى ، وبالكون ونظامه ، فذلك ما ليس لنا علم به ، وإن وقع لنا به علم ، فهو علم يزيد فى معارفنا ، ولا يتصل اتصالاً مباشرًا بمقومات حياتنا القائمة على ما تعطينا الشمس من ضوئها ، والقمر من نوره .

وثانية هاتين الإشارتين : ما فى اختلاف التعبير عن ضوء الشمس « بالضياء » ونور القمر « بالنور » هكذا : « هو الذى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً وَالْقَمَرَ نُورًا » .

وذلك أن الضوء نور ذاتىٌّ ، ينبعث من جسمٍ مشعٍّ له ، بفعل الحرارة النّارية المتوقّدة فى هذا الجسد . . ومن هنا كان الضوء مشتملًا على حرارةٍ ، دائمًا . . فلا ضوء إلاّ عن حرارة متوقدة ، ولا حرارة إلا ومعها ضَوْء . . وهذا هو السرّ فى ندائه صلى الله عليه وسلم لجماعة كانت توقد نارًا بقوله لهم : « يا أهل الضوء » . . ولم يقل لهم : « يا أَهْلَ النّارِ » تحاشيًا لهذه الكلمة التى ربما انصرفت إلى نار جهنم فتسمهم منها وعيد ، أو وقع لهم منها تطيّر وتشاؤم . .

فعليك صلوات الله وسلامه يا رسول الله . . ما أعظم خُلقك ، وما أروع أدبك . . وكيف لا يعظم خلقك وقد سوّاك ربّك فى أحسن تقويم ، وحلاّك بكل كمال وجمال ، فقال سبحانه فيك : « وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » وقلتَ أنت فى مقام التحدُّث بنعمة الله وقد رأيتَ ما خلع الله عليك من كمال وجمال : « أَدَّبَنِي رَبِّى فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي » ذاكرًا فضل ربك ، شاكرًا نعماءه ؟ .

* * *

والضوء والنار . . بمعنى واحدٍ . .

وضوء الشمس . . ضوء ذاتى ، صادر من جسم نارى ملتهب . .

أما نور القمر فهو غير ذاتىّ ، لأنه صادر من جسم بارد معتم ، وقع عليه ضوء الشمس ، فانعكس منه على الأرض ، هذا النور ، الذى لا يحمل شيئًا من حرارة الضوء . .

والضوء يحمل مع النّور حرارة .. والنور ، نور خالص ، لا حرارة فيه . .

الضوء متوهّج ، متّقد ، متماوج ، مضطرب . . والنور لطيف ، هادىء ،

رقيق وديع . . وهذا هو بعض السرّ فى التعبير بالنور عن لطف الله ، وسريان حكمته ، فى هذا الوجود ، وإلباس رحمة الله إياه ، فى قوله تعالى : « اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ والأرض » . . فهو لطفٌ ورحمة وحكمة ، لا يخالطه شىء – مما يصحب الضوء ، من حرارة ، وتوقّد ، واضطراب ! !

— وفى قوله تعالى : « وقدّره منازل » إشارة إلى القمر ، واختلاف منازله ومطالعه ، على مدى أيام الشهر القمرى . .

— وفى قوله تعالى : « لتعلموا عدد السنين والحساب » إلفات إلى بعض ما لهذا النظام الشمسىّ والقمرى من أثر ، فى ضبط الزمن ، وحسابه ، وتقدير أيامه ، ولياليه ، وشهوره ، وسِنيه . .

وليس يَبْطُل هذا الأثر أبداً بما وقع لأيدينا من مقاييس وموازين للزمن ، إذ كل هذه الموازين وتلك المقاييس مرتبط بالشمس – خاصة – ومتصل بتعاقب الليل والنهار بين يديها ، وبتقلب الفصول على مدار السنة حولها . . ولو تغيّر هذا النظام لاختلّ كل ميزان ، وكل مقياس للزمن . .

وفى قوله سبحانه : « مَا خَلَقَ اللهُ ذٰلِكَ إلاَّ بِالْحَقِّ » . . إشارة إلى أن هذا الخلق الذى خلقه الله ، لم يُخْلَقْ عبثاً ، وإنما هو خَلْق قائم على حكمة وتقدير . . وفى هذا يقول سبحانه وتعالى : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ » (١٦ : الأنبياء) ويقول سبحانه : « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ » (١١٥ : المؤمنون)

فهذا الوجود الذى أبدعه الله سبحانه وتعالى على غير مثال سبق ، هو – من غير شك – المرآةُ التى تتجلّى فيها قدرة الله ، وعلمه وحكمته . .

وهو – من غير شكّ أيضاً – منزّل عند الله تعالى فى مقام الحبّ

والإعزاز ، إذ كان من آثار قدرته ، وعلمه ، وحكمته . . فإن ما تبدع يد الحكمة والعلم والقدرة لا يكون هَمَلاً ، ولا يذهبُ مذهبَ الضّياع . .

هكذا شأن كل ذى صنعة مع ما صنع . . هو ضنين به ، حريص عليه . .

فكيف بالصّانع الأعظم ، وكيف بأحكم الحاكمين ، وأعلم العالمين . . الله رب العالمين . . ؟

فهذا الحقّ الذى خُلقت به السموات والأرض ، هو الذى يمسك بهذا الوجود ، ويسرى فى عوالمه ، ويشتمل على كل ذرّة من ذرّاته . .

فبالحق خُلِق كل مخلوق ، وبالحق قام كل موجود . .

— وفى قوله تعالى : « يفصّل الآيات لقوم يعلمون » إشارة إلى أن العلم هو المفتاح الذى يفتح مغالق هذا الكون ، ويكشف معالم الوجود ، وأسراره . . وأن من لم يحصّل العلم والمعرفة ، فلن يكونَ له حظٌّ من النظر إلى هذا الكون ، ولن يمسك بسرٍّ من أسراره ، ولن يتعرف على آية من آياته . .

* وقوله تعالى : « إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ »

يشير إلى أن التقوى لا تقوم فى كيان إنسان إلا ومعها العلم .

ذلك أنه إذا نظر الناظر إلى هذا الوجود بعين العالِم ، وبأجهزة العلم ، رأى فى اختلاف الليل والنّهار ، وفى تعاقبهما لمحةً مشرقة من لمحات حكمة الله ، وقدرته وعلمه . . ففى هذا الاختلاف بين اللّيل والنهار ضمان وثيق لكفالة الحياة للكائنات على هذا الكوكب الأرضى . . فما كانت لتطيب الحياة أبداً ، بل ولا تقوم الحياة بحال ، للمخلوقات ــ وخاصة الإنسان ــ لو أن الزمن كان نهاراً دائماً ، أو ليلًا مستمرًّا . . وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى :

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * »

(٧١ — ٧٣ : القصص)

وليست هذه هى معطيات النظر فى اختلاف الليل والنهار ، بل هى معطياته فى كل نظرة يُنظر بها إلى كل ما خلق الله فى السموات والأرض . . من الهباءة والذّرة ، إلى الشموس والكواكب .. ففى كل ما خلق الله ، لمسات من حكمته ، وأقباس من علمه ، ونفحات من رحمته ، وآثار من قدرته . .

والنّظر المتفحّص الذكىّ ، هو الذى يكشف عن وجود الله ، ويحدّث عن جلاله ، وعظمته ، وتفرّده بالخلق والأمر . . ومن هنا ينبعث الإيمان بالله ، ويقوم الولاء له ، وتتحقق التقوى للمتقين من عباده . . إن فى ذلك « لآيات لقوم يتقون » . . فلا تقوى لمن لا يعرف الله ، ولا يعرف الله ، من لا علم له بما أبدع الخالق وصوّر ، وبما فى هذا الإبداع والتصوير من علم العليم وحكمة الحكيم ، وقدرة القدير . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » . . فعلى قدر ما يعلم الإنسان من صفات الخالق بقدر ما يكون إيمانه به ، وخشيته له ، واتقاؤه لمحارمه !

* قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »

هو وعيدٌ لأولئك الّذين لا يتدبّرون فى ملكوت الله ، ولا يتفكرون فى خلق السموات والأرض ـ فلقد أهملوا استعمال مَلَكاتهم التى أودعها الله

سبحانه وتعالى فيهم ، وشُغلوا بأنفسهم ، وألهتهم الحياة الدنيا عن أن يرفعوا أبصارهم إلى أبعَد مما تصل إليه أيديهم ، من مطلوب شهواتهم البهيمية ، ولذاتهم الجسدية ، فغفلوا عن آيات الله ، وعَمُوْا عن النظر إلى ملكوت الله ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنُّوا بها . . وإنه ليس لهؤلاء اللاهين الغافلين إلا النار ، لأنهم لم يكسبوا فى حياتهم الدنيا إلاَّ ماهو من النّار وإلى النار . .

— وفى قوله تعالى : « والذين هم عن آياتنا غافلون » بالعطف على قوله سبحانه : « إن الذين لا يرجون لقاءنا » إشارة إلى أن هذا الذى أوقع هؤلاء الضالين فيما هم فيه ، من عدم توقعهم لقاء الله ، والحياة الآخرة ، حتى رضوا بالحياة الدنيا ، وأعطوها كل وجودهم ، واطمأنوا إلى السكن إليها — إنما كان ذلك لأنهم غفلوا عن النظر فى آيات الله ، والتفكر فى ملكوت السّموات والأرض . . ولو أنهم نظروا وتدبروا لكانوا على غير ماهم عليه ، ولآمنوا بالله ، ولأيقنوا بلقائه ، ولعملوا لهذا اللقاء ، واستعدّوا له ، فذلك هو شأن « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » (١٩١ : آل عمران)

* وقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »

هو عرض للوجه المقابل للذين عَمُوا عن النظر فى ملكوت السموات ، والأرض ، فلم يؤمنوا بالله ، ولم يرجوا لقاءه .. وهو وجه الذين آمنوا بالله ،

إذ أكرمهم الله سبحانه وتعالى . . ، فهداهم بالإيمان إلى الأعمال الصالحة وإلى تقوى الله ، والإعداد ليوم لقائه . فكان أن جزاهم ربّهم بما عملوا ، جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار ، ينعمون فيها بما بفضل الله عليهم به ، من رزقٍ كريم .. فيسبّحون بجلال الله وعظمته ، وما شهدوا من روعة ملكه ، ويحمدون له أن وفقهم إلى الإيمان ، وهداهم إلى العمل الصالح الذى أرضاه ، فرضى عنهم وأدخلهم جناته ، وأذاقهم هذا النعيم الذى يتقلبون فيه ..

هكذا يعيشون ألسنةً تسبح الله ، وتحمد له ، ويتبادلون السّلام والمودة والمسرّة فيما بينهم : « إخوانًا على سُررٍ متقابلين » .. وكما استفتحوا مجالسهم بحمد الله وتنزيهه ، يختمونها بالتنزيه والحمد لله ربّ العالمين . .

الآيات : (١١ — ١٤)

* « وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُمْ بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنْسَانَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » (١٤)

التفسير : قوله تعالى : « وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُمْ بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ »

الطغيان : مجاوزة الحدّ فى الشر ، وبلوغ الغاية فى العدوان والبغى .. ومنه الطاغية ، والطاغوت . .

ويعمهون : من العَمَهِ ، والعمه : مايصيب البصيرة من عمًى فلا تهتدى إلى طريق الحق والخير أبداً ..

والآية الكريمة تشير إلى موقف المشركين من النبىّ الكريم ، وأنهم فى إمعانهم فى تكذيبه وتحدّيه ، كانوا يسألون الله أن ينزلَ عليهم مُهلكاتٍ من السماء ، إن لم يكن ماجاءهم به محمدٌ هو الحق من عند الله ، وذلك ليكون مقطعَ الفصل فيما بينهم وبينه .. فإن يكن مايقوله الحقّ أهلكهم الله ، وأخذهم بدعائهم ، وإن لم يكن حقًّا لم يصبهم شيء ، وافتضح أمره فيهم .. هكذا سوّلت للمشركين أنفسهم ، وهكذا أعماهم ضلالهم ، حتى طلبوا لأنفسهم البلاء ، وتمنّوا العذاب .. ولو كانوا على شيء من العقل والحكمة لكان لهم فى مجال التمنيات ماهو أسلم وأحسنُ ، ولقالوا مثلاً : اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فاهدنا إليه .. ولكنها الجهالة والعمى والضلال .. « ومن يضلل الله فلا هادىَ له » .

قوله تعالى :

* « وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ » .. المراد بالناس هنا مشركو قريش ، الذين طلبوا إلى الله أن يعجل لهم العذاب ، كما يقول الله سبحانه وتعالى عنهم فى آية أخرى : « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » (٥٣ — ٥٤ : العنكبوت)

والله سبحانه وتعالى لايأخذهم بالعذاب ، والنبىّ صلى الله عليه وسلم فيهم ،

إكراماً له ، وشفاعةً له فيهم .. وفى هذا يقول سبحانه وتعالى : « « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » (٣٣ : الأنفال) .

— وفى قوله تعالى : « استعجالَهم بالخير » إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى يعجّل لهم الخير ، ولا يعجّل لهم العذابَ ، بل يؤخره عنهم لتتاح لهم الفرصة لمراجعة أنفسهم ، والاستقامة على طريق الإيمان .. فمن آمن منهم فقد أمن من العذاب فى الدنيا والآخرة ، ومن استمسك بكفره وضلاله ، فله خزى فى الدنيا وله فى الآخرة عذاب عظيم .. والتقدير . ولو يعجّل الله للناس الشرّ كما يعجل لهم مايعجّل من خير ، لهلكوا ، ولأخذهم البلاء ، دون أن تتاح لهم فرصة لمراجعة أنفسهم ، وتصحيح لوضعهم المقلوب ، الذى اتخذوه من دعوة الحق التى يُدْعوْن إليها .

— وفى قوله تعالى : « لقضى إليهم أجَلُهم » إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى لو عجّل لهم الشرّ الذى يتمنونه لأهلكهم جميعاً فى لحظة خاطفة .. ولكنه سبحانه يؤخرهم لأجل معدود ، ولا يأخذهم بعاجل مايستحقون من عقاب ، إكراماً للنبىّ الكريم ، ولمقامه فيهم .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ، بل لهم مَوعِدٌ لن يجدوا من دونه مَوْئِلاً » (٥٨ : الكهف) .

— وفى قوله سبحانه : « فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون .. » إشارة إلى المحذوف ، الذى دل عليه العطف بالفاء .. والتقدير . . ولو يعجّل الله للناس الشرّ استعجالهم بالخير ، لقضى إليهم أجلهم .. ولكنا نمدّ لهم ، فنذر الذين لا يرجون لقاءنا منهم فى طغيانهم يتخبطون ، فى بحر متلاطم الأمواج .

وهذه الآية غير مقيدة بأسباب نزولها ، بل هى مطلقة ، حيث يقع تحت حكمها الناسُ جميعاً .. فقد كان من رحمة الله بالنّاس أن أمهلهم ، فلم يعجّل لهم

العقاب الذى يستحقونه بما فعلت أيديهم .. وذلك أنه ـ سبحانه ـ لو آخذ كل إنسان بذنبه عاجلاً لقضى إليه أجله بعد كلّ ذنب يقع منه ، ولكان الناس جميعاً فى معرض الهلاك ، إذ لا يسلم إنسان من أن يواقع معصية ، أو يرتكب ذنباً .. وهذا من شأنه ألاّ يدع لإنسان فرصة ليكفّر عن خطيئته ، ويستغفر لذنبه ، ويرجع إلى ربّه .. وفى هذا يقول الله تعالى : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة .. ولكن يؤخرهم إلى أجلٍ مسمًّى .. فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً » (٤٥ : فاطر) .

وإذن فهذه نعمة من نعم الله على الناس ، ورحمة من الله بهم أن لم يعجّل لهم الشرّ ، وهو أخذهم بذنوبهم من غير إمهال .. وهذا من شأنه أن يكون داعية لأن يعيد الإنسان النظر إلى نفسه ، وأن يصلح ما أفسد ، وأن يتصالح مع ربّه فيما ارتكب من إثم ، فتلك فرصة ينبغى ألا يفوته انتهازها ، وهو فى عافية من أمره ، وفى فسحة من أجله .

والتعبير عن التعجيل بالعقوبة ، وتنفيذ حكم الله فى المذنب بإهلاكه ـ فى التعبير عن هذا بالشرّ ، إنما هو بالإضافة إلى الإنسان الذى يقع عليه هذا الحكم ، فهو شر بالنسبة له ، إذ يحول بينه وبين أن يجد الفرصة التى يصحح فيها موقفه ، ويرجع إلى ربه .

* قوله تعالى : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

فى هذه الآية يكشف الله سبحانه وتعالى عن ضلال الإنسان ، وكفره بنعم الله ، وجحوده لأفضاله عليه ، وإحسانه إليه .

فالإنسان ـ مطلق الإنسان ـ هو كما وصفه الله سبحانه ، فى قوله عزّ من قائل : « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ » (١٩ — ٢٣ : المعارج) وقوله سبحانه : « كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ * » (٦ — ٧ : العلق)

فالإنسان فى كيانه ، هو واهٍ ضعيف . . لأنه خُلق من ضَعْف ، كما يقول سبحانه : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً » (٥٤ : الروم) . . وكما يقول جَلّ شأنه : « وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا » (٢٨ : النساء) . . ولكنه حين تلبسه القوة ، ينسى ضعفه ، ويستولى عليه الغرور ، ويستبدّ به العُجْب وَالْخُيَلَاء ، فإذا هو مارد جبارٌ ، وسفيه أحمق ، وطائش نَزِقٌ . . يحاربُ ربّه ، ويكفر بخالقه ، ويستعبِد الناس ، أو يتعبّد هو الناس ، ولا يتعبد لربّ العالمين !

— وفى قوله تعالى : « وإذا مسّ الإنسانَ الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً » .. نجد التعبير بالمسّ هنا مُفْصِحاً عن مَدَى ضعف هذا الإنسان وخَوَره .. وأن مجرّد مسّ الشرّ له ، يكرُبه ويزعجه ، ويفسد عليه حياته .. وإذا هو صارخ إلى الله ، ضارع بين يديه .. يدعو فى كل حال يكون عليه : لجنبه ، أو قاعداً ، أو قائماً .. فهو من لهفته وانحلال عزيمته ، يدعو بكل لسان ، ويستصرخ بكل جارحة ..

— وفى قوله تعالى : « فلما كشفنا عنه ضُرّه مرّ كأن لم يدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسّه » .. نجد أن هذا الإنسان الصارخ الضارع المستسلم المستكين ، حين يرفع الله عنه البلوى ، ويكشف مابه من ضر ، يمكر بفضل الله عليه ، وينسى رحمته به ..

ويمضى فيما كان فيه من كفر وضلال .. كأن ضراً لم يكن قد مسّه ، وكأن حالا من الذلّة والاستكانة لم تـكن قد لبسته ، وكأن رحمة السماء لم تمدّ يدها إليه وتستنقذه من الهلاك المطبق عليه ! ! هكذا الإنسان ، كما وصفه خالقه فى قوله تعالى: « وَإِذَآ أَنعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا » (٨٣ : الإسراء) وفى قوله سبحانه : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ » (٣٤ : إبراهيم)

— وفى قوله تعالى: « كذلك زُين للمسرفين ما كانوا يعملون » .. تهديد ووعيد لأهل الـكفر والضلال ، الذين لا يَرْعَوُون عن كفرهم ، ولا ينزعون عن ضلالهم ، ولا يستمعون لدعوة خير ، ولا يستجيبون لرائد هدى ، ورسول رحمة ، لا يتعظون بنا يحلّ بهم من غيَرِ ، وما يلبسهم من نعم ! لقد استمرءوا هذا الضلال الذى هم فيه واستحبوا العمى على الهدى :«ومَن يُرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً » .

* وقوله تعالى : « وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ »

هو تهديد أيضاً ووعيد للكافرين والضالين ، الذين وقفوا من الدعوة النبوية هذا الموقف المتصدّى لها ، أو الحائد عنها ..

فلقد أخذ الله المكذبين الضالين من الأمم قبلهم بالبأساء والضرّاء حين عَتَوْا عن رسل ربّهم ، وكذّبوا بهم .. وذلك هو الجزاء الذى يُجزَى به الظالمون ..لاجزاء لهم غير أن يُؤخذوا بنِقَم الله ويُلقَوا فى جهنّم خالدين فيها ..

وها أنتم أولاء ، أيها المشركون ، قد خَلَفتم هؤلاء الأقوامَ ، وورثتم ديارهم ،

وسكنتم فى مساكنهم . . وقد جاءكم رسول كريم من عند الله ، وقد عرفتم عاقبة الظالمين المكذبين برسل الله . . فماذا يكون منكم مع رسولكم هذا ؟ إن الله سبحانه لا تخفى عليه خافية . . إنه يرى ما تعملون ، وسيجازيكم على أعمالكم ويأخذكم بها .. وقوله تعالى : « وجاءتهم رسلهم بالبينات » جملة حالية تكشف عن واقع القوم الذين ظلموا ، وأنهم قد ظلموا وكفروا فى حالٍ كان رسل الله فيها بينهم ، يدعونهم إلى الإيمان ، ويَدُلّونهم على الهدى .

وقوله تعالى : « وما كانوا ليؤمنوا » جملة حالية كذلك ، وصاحب الحال هو ضمير الذين ظلموا فى قوله تعالى : « وجاءتهم رسلهم بالبينات » .. وهذه الحال تكشف عما فى قلوب الضالين من زيغ وضلال ، وأنهم ما كانوا ليؤمنوا قبل مجىء الرسل إليهم بالبينات أو بعد مجيئهم . . ولكن الله سبحانه أرسل رسله إليهم ، ليقيم الحجة عليهم ، وليقع بهم عذابه ، بعد أن تأتيهم آياته على يد رسله ، كما يقول سبحانه : « وَمَا كُنَّا معذِّبين حَتَّى نَبْعَثَ رسولاً » (١٥ : الإسراء) .

الآيات : (١٥ — ١٩)

* « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ٱئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ (١٧) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ ٱللَّهِ

قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩)

التفسير :

* قوله تعالى : « وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ »

مناسبة هذه الآية لما قبلها ،هى أن الآية التى قبلها لفتت المشركين إلى وضعهم الذى هم فيه ، وأنهم خلائف قومٍ قد ظلموا ، فأخذهم الله بظلمهم ، وأهلكهم بذنوبهم، وأن هؤلاء المشركين ، هم الآن فى وجه امتحان امتُحنت به الأمم قبلهم، وهو أنه قد جاءهم رسول بآيات الله ، كما جاءت الرسل من قبله إلى الأمم السابقة بآيات الله إلى أقوامهم .. فماذا سيكون من هؤلاء المشركين مع رسول الله المبعوث إليهم، ومع آيات الله التى بين يديه ؟ أيكفرون به كما كفر مَن كان قبلهم، ويتعرضون لنقمة الله كما تعرض السابقون ؟ أم يؤمنون بالله، ويتبعون الرسول، فتسلمَ لهم دنياهم وأُخراهم جميعاً ..؟

هذا ما ستكشف عنه الأيام منهم .. إنهم فى مواجهة تجربة وامتحان ، فليأخذ العاقل منهم حِذْره ، وليطلب النجاة والخلاص لنفسه .

وفى هذه الآية ينكشف وجه المشركين ، ويظهر موقفهم من رسول الله ، وهم يأخذون الطريق المعاند له ، المتأبّى عليه . .

فناسب أن تجىء هذه الآية بعد الآية التى سبقتها .. لما بينهما من التلاحم والاتصال . .

* وفى قوله تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائْتِ بقرآن غير هذا أو بدله » ..

أولا : وصف الآيات بأنها بينات ، يدلّ على أن مَن عنده أدنى نظر يستطيع أن يُبصر وجه الحق فى هذه الآيات البينة المشرقة ، وأن يهتدى بها ، ولا يجادل فيها ، أو يقف موقف الشك والعناد منها . .

وثانياً : أن هذا القول المنكر الذى قيل للنبىّ فيه : « ائت بقرآن غير هذا أو بدله » لم يقله إلا الذين لا يرجون لقاء الله ، ولا يؤمنون بالبعث .. فهم بهذا لا يبالون بأى حديث يحدثهم به عن الآخرة ، ويخرج بهم عما هم فيه من استمتاع بحياتهم الدنيا ، واستفراغٌ كل جهدهم فيها . .

وثالثاً : قولهم : « ائت بقرآن غير هذا أو بدله » يكشف عن ضيقهم بالقرآن ، وما يحدّث به عن آلهتهم ، وبما يسفّه فيه من أحلامهم ، ويفضح من ضلالاتهم .. فهم يريدون قرآناً يُبقى على معتقداتهم ، ويزكىّ عاداتهم ، ويحتفظ للسادة منهم بأوضاعهم .. فإن لم يكن من الممكن أن يأتى الرسول بقرآن غير هذا القرآن ، فليبدلْ من أوضاعه ، وليغير من وجهه ، وليُقِمْه على الوجه الذى يرضيهم ، ويلتقى مع أهوائهم .. وهنا يلتقون مع النبى ، يستجيبون له !

* وفى قوله تعالى : « قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى .. إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ .. إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم » .

أولا : أن مسألة إتيان النبىّ بقرآن غير هذا القرآن ، أمرٌ غير ممكن ، بل مستحيلٌ عليه استحالة مطلقة .. لأنّ القرآن كلام الله ، منزل عليه وحياً من ربه .. فليس له ــ والأمر كذلك ــ سلطان يملك به عند الله أن ينزل عليه قرآنا غير هذا القرآن . .

وفى هذا ردٌّ ضمنى على المشركين بأن القرآن من عند الله ، وليس من عند

محمد ، إذ لو كان من عند محمد ، لـكان إلى يده تغييره أو تبديله .

وثانياً : مسألة التبديل ، والتغيير فى القرآن ، وإن كانت أمراً ممكناً فى ذاته ، إذ لا يتأبّى القرآن على من يجرؤ على التبديل والتحريف فيه ـ وإن كان الله سبحانه وتعالى : قد حرسه من التبديل ، وحفظه من التحريف ، كما يقول تبارك وتعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ـ نقول : إن مسألة التبديل فى القرآن ، وإن كانت ممكنة فى ذاتها ، فإن « محمداً » لن يفعل ذلك من تلقاء نفسه ، فذلك خيانة لله فى الأمانة التى ائتمنه عليها ، وعصيان له فيما أمره به فى قوله سبحانه : « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » .. وليس وراء العصيان لله ، والخيانة لأمانته إلا العذاب الأليم والعذاب العظيم .. كما يقول سبحانه : « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين » (٤٤ ـ ٤٧ الحاقة) .

وثالثاً : أن الرسول ، وهو مَن هو عند ربه ، حبًّا وقرباً ، يخاف عذاب الله ، ويخشى عقابه إن هو عصاه ، وخرج عن أمره ، وغيّر وبدل فى كلماته .. فما لهؤلاء المشركين لا يخشون الله ، ولا يخافونه ، وقد عصوه هذا العصيان الحادّ بالشرك به ، وبتكذيب رسوله ، والآيات التى أنزلها على رسوله؟ ألا يخافون بأس الله ؟ ألا يخشون عقابه ؟ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » (٩٩ : الأعراف).

* قوله تعالى : « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عُمُرًا من قبله .. أفلا تعقلون » .

فى هذه الآية تنبيه للمشركين ، وإلفات لهم ، إلى ماهم فيه من عمًى وضلال . فلو أنهم عقلوا شيئاً ، لعرفوا أن « محمداً » قد عاش فيهم أربعين سنة غير قارىء

ولا كاتب ، ولا متحدث إليهم بأى حديث مما يحدثهم به الآن من كلام الله الذى أوحى به إليه ، بعد هذا العمر الطويل ، الذى عاش فيه مع نفسه ، منقطعاً إلى ربه !

ولكن هكذا شاء الله لمحمد أن يكون مستقبِل وحيه ، ومتلقّىَ كلماته ، ومبلّغ آياته ..

ولو شاء الله غير هذا لكان ، فلم يكن محمداً رسولا ، ولا مبلغَ رسالة ، ولا مُسمِعاً الناس هذا الذى سمعوه منه من آيات الله .

فمن نظر فى حال محمد قبل الرسالة وبعدها ، ومن طالع وجوه هذه الآيات السماوية التى نزلت عليه ، لم يقُمْ عنده أدنى شك فى أن محمداً هو رسول الله ، وأن ما يحدّث به عن الله هو من عند الله ، ومن كلمات الله.. ذلك مع صرف النظر جانباً عما فى آيات الله نفسها من دلائل الإعجاز ، التى تشهد بأنها ليست من قول بشر ، وأنها من كلام رب العالمين .

* قوله تعالى : « فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون » .

افتراء الكذب على الله ، هو اختلاق القول عليه ، وتقوّل الأحاديث عنه ، بإيرادها ابتداء ، أو بالتبديل والتحريف فيها . .

فأظلم الظالمين من يجرؤ على ركوب هذا المركب المهلك فيتقول على الله ، ويفترى الأحاديث عليه ..

وأظلم الظالمين من يرى آيات الله ، ويستمع إليها .. ثم يكذب بها ، ويصم أذنيه عنها ، ويُغلق عقْله وقلبه دونها . .

فهذه وتلك من الجرائم التى تورد مرتكبيها موارد الهلاك والبوار : « إنه لا يفلح المجرمون » .

* قوله تعالى : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لايعلم فى السموات ولا فى الأرض .. سبحانه وتعالى عما يشركون » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، أنها تكشف عن افتراء المشركين على الله وتكذيبهم بآياته . الأمر الذى عدّه الله سبحانه وتعالى جريمة عظمى ، توعد مجرميها بالخزى والخسران ..

فقد عبد هؤلاء المشركون آلهة اتخذوها لهم من دون الله ، وقالوا عنها : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » وقالوا .. « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . وهذا افتراء على الله .. وقد كذبهم الله وفضحهم بقوله :« قل أتنبئونه بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ؟ » أى أتتحدثون إلى الله بما لا يعلم الله له هذا الشأنَ الذى تتحدثون به عنه ، لا فى السموات ، ولا فى الأرض ؟ إنه شىء لا وجود له . . وإذا كان لا وجود له فى علم الله ، فهو غير موجود أصلاً ، ولا يوجد أبداً .. إنها أوهام وضلالات ، لا توجد إلا فى عقولكم ، وهى محض افتراء واختلاق . . تنزّه الله سبحانه وتعالى عن أن يكون له شريك ، أو شفيع من خلقه ، فضلاً عن أن يكون هذا الشريك أو الشفيع من واردات الوهم والاختلاق ! .

وفى قوله تعالى : « مالا يضرّهم ولا ينفعهم » إزراء بهؤلاء المشركين ، وتسخيف لأحلامهم ، إذ أعطوا ولاءهم وعبوديتهم مالا يملك لهم ضرًّا ولا نفعاً . . وليس أخسرَ صفقةً ولا أضلّ سعياً ، ولا أحمق عقلاً ، ممن يتعامل مع مالا يدفع عنه ضرًّا ، ولا يجلب له نفعاً ، فإن العاقل لا يأخذ وجهة إلى عمل ،

ولا يبذل له جهداً ، إلا وهو على رجاء من ان يدفع من وراء ذلك شراً ، أو يحصّل خيراً . وإلا فهو عابث لاهٍ ، يضيّع عمره ويستهلك جهده ، ويُهلك نفسه !

وتقديم دفع الضرّ على جلب النفع أمر طبيعى ، مركوز فى الفطرة الإنسانية ، حيث يعمل الإنسان أولا على تأمين نفسه ، وحراستها مما يعرّضها الهلاك ، فإذا ضمن الإنسان الإبقاء على وجوده كان له أن يطلب ما يحفظ عليه هذا الوجود . . وهو جلب المنافع . . وفى مقررات الشريعة : « دفع المضارّ مقدم على جلب المصالح » .

* قوله تعالى : « وما كان النّاس إلّآ أمّةً واحدةً ولولا كلمةٌ سبقت من ربّك لقُضى بينهم فيما فيه يختلفون » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، وعطفها عليها ، أنها تكشف عن جناية هؤلاء المشركين على الإنسانية ، وأنهم هم الدّاء الذى تسلط على الإنسانية قديماً وحديثاً ، فأدخل على كيانها هذا الفساد ، الذى يتمثل من وجودهم فى الجسد الإنسانى . .

فالناس ـ فى أصلهم ـ فطرة سليمة ، مستعدة للتهدّى إلى الإيمان بالله ، والاستقامة على الخير والحق . . كما يقول الرسول الكريم : « ما من مولود إلا يُولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه وينصرانه ويمجّسانه » .

وكما تَعرِض العلَل للجسم السليم كذلك تعرض الآفات والعلل للمجتمع الإنسانى ، فيظهر فيه المنحرفون الذى يخرجون عن سواء الفطرة ، وسرْعان ما يَسرى هذا الداء ، وتنتشر عدواه فى المجتمع . .

ومن هنا يكون الناسُ على أشكال مختلفة ، وأنماطاً شتّى . . كل يركب طريقاً ، ويأخذ اتجاهاً . .

ومن هنا أيضاً يختلف الناس، وتختلف بهم الموارد والمشارب .. وإذا كلّ جماعة على مورد، وكل أمة على مشرب . . « ولو شاء ربّك لجعل الناسَ أمةً واحدةً ولا يزالون مختلفين . . إلا من رحم ربك . . ولذلك خلقهم » (١١٨ — ١١٩ : هود) .

وقد كان جديراً بهؤلاء الضالين أن ينظروا إلى أنفسهم، وإلى موقفهم المنحرف الذى خرجوا به على الفطرة الإنسانية، فركبوا طريق الكفر والضلال، وكان من شأنهم أن يكونوا مع الناس أمةً واحدة مؤمنة بالله . .

وفى قوله تعالى : « ولولا كلمة سَبقت من ربّك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون » إشارة إلى ما سبق أن قَضَى به الله سبحانه وتعالى من إمهال الظالمين، والعاصين، وأهل الكفر والضلال، وإنظارهم إلى يوم البعث، والجزاء — وأنه لولا ذلك القضاء الذى قضى به الله سبحانه وتعالى، لأخذ على يد كل ضالّ ومنحرفٍ، فى هذه الحياة الدنيا، ولأوقع الجزاء عاجلاً منجزاً، فلا يبقى فى الناس ضال أو مفسد . .

فالمراد بالكلمة التى سبقت من الله سبحانه، هى حكمُه وقضاؤه، بأن يؤخّر الناس ليوم الدِّين، وأن يوفّى الناس جزاء أعمالهم، فيكون منهم أهل النار، كما يقول سبحانه : « وتَمّتْ كلمة ربِّك لأملأن جهنّم من الجنّة والنّاس أجمعين » (١١٩ : هود) .

الآيات : (٢٠ — ٢٣)

* « وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِى آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا

إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » (٢٣)

التفسير :

* قوله تعالى : « وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ »

هو عطف على الآية قبل السابقة ، وهى قوله تعالى : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرّهم ولا ينفعهم » (آية : ١٨) .. أما الآية (١٩) وهى قوله تعالى : « وما كان الناسُ إلا أمةً واحدة فاختلفوا » فهى معترضة بين الآيتين ، لتكشف عن واقع هؤلاء المشركين ، ولتبيّن لهم أنهم أخذوا طريقاً منحرفاً عن الطريق العام الذى كان من شأنهم أن يستقيموا عليه ، لأنه فى الأصل ، هو طريق الإنسانية كلّها .. ومن ضلالات هؤلاء المشركين أنهم يَعْمَوْن عن آيات الله ، ويَمْشَوْن فى ضوء صبحها المشرق الوضىء ، فلا يرَوْن فيها مقنعاً لهم بأنها من عند الله ، وأن الرسول الذى يتلوها عليهم هو رسول الله .. فيقولون للرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه : « ائت بقرآنٍ غير هذا أو بدله . . » ! وإذ يُؤيسهم الرسول من إجابة مقترحهم هذا بقوله الذى أمره الله سبحانه أن يلقاهم به : « قل ما يكون لى أن أبدِّله من تلقاء نفسى إن أتبع إلّا مايُوحى إلىّ إنى أخافُ إن عصيتُ ربّى عذابَ يوم عظيم » ـ تجرى الأحاديث فيما بينهم

فى تساؤل جهول عقيم : « لَوْلا أُنزل عليه آية من ربّه » ؟ . . وهم يريدون بتلك الآية آية حسيّة كتلك الآيات التى جاء بها موسى وعيسى عليهما السلام .. كما ذكر القرآن ذلك عنهم فى قوله تعالى : « فلْيَأْتِنَا بآيةٍ كما أُرْسِلَ الأوّلون » (٢٥ : الأنبياء) . . ولو أنهم عقلوا لعرفوا أن الله سبحانه قد رفع قَدْرَهم ، وأعلى فى الناس منزلتهم ، إذ جاءهم بمعجزة تخاطب عقولهم ، وتتعامل مع مدركاتهم ، ولم يأتهم بمعجزة تَجْبَهُ حواسَّهم ، وتستولى على عقولهم ، وتشلّ حركة تفكيرهم . . إن الله سبحانه قد ندبهم للتعامل مع هذه المعجزة العقلية ، يدركون إعجازها ببصائرهم لا بأبصارهم ، ويتناولون قطافها بمدركاتهم لا بأيديهم ، ولكنهم أبوْا إلا أن يكونوا أطفالا لا رجالاً . . وقد أنكر الله عليهم هذا الموقف ، الذى وقفوه من القرآن الكريم ، ورأوا أنه غير مقنعٍ لهم ، كدليلٍ سماوى . . فقال سبحانه وتعالى : « وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّنْ رَّبِّهِ قُلْ إنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (٥٠ — ٥١ : العنكبوت) .

والقوم لم يكونوا على غير علمٍ بما فى آيات القرآن الكريم ، وما فيها من إعجازٍ متحدٍّ لقدرة الإنس والجن . . فهم أقدر النّاس على نقد الكلام ، والتعرّف تعرفاً دقيقاً على الفرق بين حُرّ جواهره وزيفها ، وجيّدها ورديئها . . ولقد بهرهم القرآن الكريم ، فأُخذوا به ، وسجدوا ـ على كفرهم ـ لجلاله ، وسطوته ، وقالوا فيه : « إن هذا إلا سحرٌ يؤثر » . . ولكنهم كانوا على عنادٍ وكِبْرٍ واستعلاء . . يأبون أن ينقادوا لبشرٍ منهم ، وأن يعطوا ولاءهم له . . ! كما يقول الله تعالى على لسانهم . « أبشراً مِنّا واحداً نتّبعه إنا إذاً لفى ضلالٍ وسُعُر * أؤُلقِيَ الذّكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشِر » (٢٤ ـ ٢٥ : القمر).

فهذه المقترحات التى يقترحونها على النبىّ إنْ هى إلا تعِلاّت يتعلّلون بها لأنفسهم، ويرضّونها بهذه العلل، حتى لا تَنْزع بهم إلى الاستسلام لهذه القوة القاهرة التى تُطلّ عليهم من علٍ، فى كلمات الله، وآيات الله.. وقد كشف الله سبحانه وتعالى عن هذا الشعور المتسلط عليهم، والذى يسوقهم إلى ركوب هذه الشّاقّة، والتعلل بهذه العلل، فقال تعالى: «ولو فتحنا عليهم باباً من السّماء فظلّوا فيه يعْرجُون * لقالوا إنّما سُكّرَتْ أبصارُنا بل نحن قومٌ مسحورون» (١٤ — ١٥: الحجر).

* وفى قوله تعالى: «فقل إنّما الغيبُ لله» ردٌّ، وجَبْهٌ لهؤلاء المشركين فيما يقترحونه على النبىّ من آياتٍ مادية محسوسة، كأن يطلعهم على ما يأكلون، وما يدّخرون، وما يُقدّرون لهم فى تجاراتهم وأعمالهم، من ربح أو خسارة، ونحو هذا.. فذلك ليس لبشَرٍ أن يعلمه، وإنما هو مما استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه.. لا يشاركه فيه أحد من خلقه.. وقد أمر الله سبحانه النبىَّ أن يعلن فى الناس أنه لا يعلم من الغيب شيئاً، فقال كما أمره الله سبحانه أن يقول: «ولو كنتُ أعلمُ الغيب لاستكثرت من الخير وما مسّنى السّوء إنْ أنا إلا نذيرٌ وبشير لقوم يؤمنون» (١٨٨: الأعراف).

* وفى قوله تعالى: «فانتظروا إنّى معكمْ من المنتظرين» تهديد ووعيد لهؤلاء المشركين، الذين أمسكوا بأنفسهم، على هذا المرعى الوبيل من الضلال والشرك، عناداً، وجماحاً.. فلينتظروا، والنبىّ منتظر معهم، وسيروْن وسيرى من تكون له عاقبة الدار.. «قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عاملٌ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظّالمون» (١٣٥: الأنعام).

* قوله تعالى: «وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِى آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ»

الذّوق ، والتذوّق : الإحساس بطعم الشىء ومذاقه ، حلواً ، كان أو مُرّا..

والرحمة : النعمة ، والخير . .

والضرّاء : الضّرّ ، والسوء ، والشرّ . .

والمسّ : لمس الشىء لمسّا رقيقاً . .

والآية الكريمة تحدّث عن كفر « النّاس » بنعم الله ، وجحودهم لأفضاله .. وأنهم إذا مسّهم الضرّ جزعوا ، واستكانوا ، وضعفوا ..وإن أصابهم الخير ، وجرى عليهم النعيم . . طغَوْا ، وبغَوْا ولبسوا جُلودَ الأفاعى والنمور .

وفى الآية تعريض بالمشركين ، وبمكرهم بآيات الله التى جاءهم بها رسول الله ، هدًى ورحمةً ، ليستنقذهم بها من ضلالهم ، وليخرجهم بها من عَمَى الجاهلية ، وسفهها ، وليُضفى عليهم الأمن والسلام بعد أن مزّقتهم الحروب ، وعصفت بهم ريح البغى والعدوان . . وفى هذا يقول الله تعالى مذكّرًا إياهم بما ساق إليهم من رحماته ونِعَمه ، بهذه الرسالة الكريمة المباركة ، وبهذا الرسول الكريم المبارك . . يقول تبارك وتعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فَأَلَّفَ بَيْنَ قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها » (١٠٣ : آل عمران) .

— وفى قوله تعالى : « إذا لهم مكرٌ فى آياتنا » إشارة إلى موقف المشركين من آيات الله ، والمكر بها ، والتعلل بالعلل الصبيانية عليها ..

— وفى قوله تعالى : « قل الله أسْرَعُ مَكْرًا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون » نذير شديد للمشركين ، وأنهم إذا مكروا بآيات الله ، فلن يُفلتوا من عقاب الله . . إنهم يعلنون على الله حربًا هم فيها المخذولون الخاسرون . . إنهم يبيّتون الشر ، ويدبرون له ، والله سبحانه بعلمه وقدرته مطلع على ما يبيّتون ، مفسد ما يدبرون .

* قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

فى هاتين الآيتين ، مظهر من مظاهر مكر الماكرين بآيات الله ، وكفرهم بنعمه السابغة عليهم . .

فما أكثر ما يركب الناسُ البحرَ فى ريحٍ رُخاء ، تصحبهم فيه السكينة والبهجة ، ثم على حين غرّة يموج بهم البحر ويضطرب ، وتزمجر حولهم العواصف ، وتصرخ بهم الريح فى جنون مخيف . . وإذا الهلع والفزع ، وإذا الكرب الكارب ، والهَذَيان المحموم ، يشتمل على مَن فى جوف السفين ، الذى يبدو وكأنه دودة على ظهر هذا الكون العظيم ! .

ولا ملجأ من هذا الموت الفاغر فاه ، ولا عاصم من هذا الهلاك المطلّ من كل مكان ، إلا اللّجأ إلى الله ، والاستصراخ له ، والاستنجاد به . . فتتعالى صيحات الصائحين ، واستغاثات المستغيثين ، وضَراعات المتضرعين . . فى غير اقتصاد أو انقطاع . .

وتجىء رحمة الله فى إبّانها . فتهدأ العاصفة ، ويَخفت صوت الريح . . وإذا البحر قد عاد ساكناً هادئاً ، وإذا السفين على ظهرٍ حنون وَدود ، يُهدهِدُه كما تُهدهد الأم رضيعها ، حتى يبلغ السفين بأصحابه شاطىء الأمن

والسّلامة ، ويأخذ كل واحد من الركب وجهته ، ثم لا يعود يذكر لله شيئاً مما صنع به . . وإذا هو فى ضلاله القديم . . مشرك بالله ، كافر بنعمائه !

— وفى قوله تعالى : « هو الذى يُسَيِّرُكم فى البرِّ والبحر » إشارة إلى تلك النّعم التى سخّرها الله للناس ، فى انتقالهم من بلد إلى بلد ، ومن قطر إلى قطر ، على مراكب البر والبحر . . فى اختلاف أشكالها وأنواعها .

— وفى قوله تعالى : « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريحٍ طيبةٍ وفرحوا بها جاءتها ريحٌ عاصِفٌ وجاءهم الموج من كلِّ مكانٍ وظنُّوا أنهم أُحِيطَ بهم » عرضٌ لحالة من أحوال السفر التى تعرض أحياناً لراكب البحر . . وقد ذكرها القرآن الكريم هنا ، ليكشف بها عن حالٍ من أحوال الذين يكفرون بآيات الله ، ويجحدون ما يسوق إليهم من نعم . .

وقد جاء النظم القرآنى فى قوله تعالى : « وَجَرَيْنَ بِهِم » بنون النسوة التى هى للعقلاء ، مستعملًا إياها للفُلك ، وهى غير عاقلة ، وكان المتوقع أن يجىء التعبير هكذا : « وجرت بهم » . . وفى هذا ما يشير إلى أن الفلك ، وهى تجرى فى ريحٍ طيبةٍ ، وعلى ظهر بحرٍ ساكن ساجٍ ، قد كان لها سلطان على هذا البحر ، تغدو وتروح عليه كيف تشاء ، وتتصرف كما تريد . . حتى لكأنها ذات عقل مدبّر ، وإرادة نافذة .

وفى النظم القرآنى أيضاً : « وجرين بهم بريحٍ طيبةٍ » ولم يجىء النظم هكذا : « وجرين بهم فى ريحٍ طيبةٍ » . . وذلك ليدل على أن الريح هى التى تحرك الفلك وتدفعها ، فالباء هنا باء الاستعانة ، التى تدخل على الأداة التى يستعان بها على العمل ، كما يقال : كتبت بالقلم ، وانتقلت بالقطار . . وهذا ما لا يفيده حرف الجرّ « فى » . . الذى يجعل الريح ظرفاً يحتوى السفينة من جميع جهاتها ، ولا يدفع بها إلى جهة ما . .

— وفى قوله تعالى : « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة » . .
اختلاف النظم ، فى قوله سبحانه : « وجرينَ بهم » فجاء على غير ما يقتضيه السياق . . وجىء بضمير الغائب ، بدلاً من ضمير الحضور . . هكذا : « وجرين بكم » . .

فما سرّ هذا ؟

تتحدث الآية الكريمة عن نعمة عامة شاملة من نعم الله ، وهى تسيير الفلك فى البحر ، كما يقول تعالى : « والفلكَ تجْرِى فى البحر بأمره » (٦٥ : الحج) وكما يقول جل شأنه : « وجَعَلَ لَكُمْ من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سَخَّرَ لَنَا هـذا وما كُنَّا له مُقْرِنين » (١٢ ـ ١٣ : الزخرف) .

وهذه النعمة ، لا يكفر بها الناس جميعاً ، وإنما يجحدها ويكفر بها من لا يؤمن بالله . . وهم الذين ذكرهم القرآن الكريم بضمير الغائب ، بعد أن جاء التّذكير بالنعمة موجّهاً إلى الناس جميعاً ـ ومنهم هؤلاء الكافرون ـ فى مواجهةٍ وحضور . . وبهذا عُزِل الكافرون عن المجتمع الإنسانى ، وأبعدوا من مقام الحضور ، وحسبوا غائبين ، لا وجود لم .

— وفى قوله تعالى : « إذاهم يبغون فى الأرض بغير الحق » .

أولًا : « إذا » الفجائية هنا ، تنبىء عن أن هؤلاء الكافرين ، لم يمسكوا بتلك المشاعر المتجهة إلى الله ، والضارعة إليه ، حين مَسَّهم الضر فى البحر ، إلا ريثما تلقى بهم الفلك إلى البرّ ، حتى إذا مسّتْ أقدامُهم اليابسةَ انفصلوا عن تلك المشاعر ، وتخفّفوا منها ، ورجعوا مسرعين إلى ما كانوا فيه من كفر وضلال وعناد .

وثانياً : وصف البغى بأنه بغىٌ بغير الحق ، مع أن البغى لا يكون إلا عدواناً على الحق ، وخروجاً عليه . . فكيف يلحقه هذا الوصف ، الذى يُفهم منه أن هناك بغياً بحق ، وبغياً بغير حق ؟

ذكرنا جواباً عن مثل هذا ، عند تفسير قوله تعالى : « وقتلهم الأنْبِياءَ بغير حق » (١٨١ : آل عمران) .

والجواب هنا ، هو أن وصف بغيهم بأنه بغى بغير الحق ، فيه تغليظ لهذا البغى ، وإلقاء مزيدٍ من القبح على وجهه القبيح . .

فالبغى فى ذاته جريمة منكرة شنعاء . .

ولكنّه من أهل البغى ، شىء لا يكاد يُنكر عليهم ، ولا يستغرب منهم .

وإذن فهو محتاج إلى أن يكون أكثر من بَغْيٍ حتى ينكر عليهم ، ويُذمّ منهم . .

فهذا البغى منهم هنا . . هو بغى على وصف خاصٍّ . . بغى بغير حقّ حتى عند أهل البغى أنفسهم ، وهذا يعنى أنه بغى شنيع غليظ ، بين صور البغى كلها .

وفى قوله تعالى : « يٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ » نداء للناس جميعاً ، وإعلان لهم كلهم — بَرّهم وفاجرهم — بأن البغى والعدوان ، والخروج على حدود الله ، هو بغى وعدوان واقع عليهم ، وآخذ بنواصيهم . . كما يقول سبحانه وتعالى : « من كَفَرَ فعليه كفره » (٤٤ : الروم)

وفى قوله تعالى : « مَتَاعَ الحياة الدنيا » . . قرئ « متاعُ » بالنصب والرفع . . وعلى النصب — وهى القراءة المشهورة — يكون مفعولاً مطلقاً لفعل محذوف ، تقديره ، تتمتعون متاع الحياة الدنيا ، وتكون الجملة حالاً من ضمير المخاطبين فى قوله تعالى : « إنما بغيكم على أنفسكم » . . وعلى قراءة الرفع يكون خبراً لقوله تعالى : « بغيكم » و « على أنفسكم » متعلق بالمبتدأ . .

— وفى قوله تعالى : « ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون » . . تهديد ووعيد لهؤلاء الباغين ، ومايلقون من عذاب أليم ، يوم يُرجعون إلى الله ، ويوفّوْن جزاء ما كانوا يعملون من منكرات .

الآيات : (٢٤ ـ ٣٠)

* « إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَامُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَٱللَّهُ يَدْعُوٓ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَامِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥) لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا ٱلسَّيِّئَاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰٓئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَاهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » (٣٠)

« الإنسان .. وما ينزل من السماء »

التفسير :

* قوله تعالى : « إنما مَثَلُ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء .. »

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، أنها تكشف عن وجه هذه الحياة الدنيا ، التى ذَكَرت الآية السابقة تعلقَ الناسِ بمتاعها ، وركوبهم مراكب البغى والطغيان فى سبيل المتاع بها .

وقد صورت الآية الكريمة هنا الحياةَ الدنيا فى ألوانها ، وزخارفها ، التى تغرى الناس بها ، وتفتنهم فيها ـ بما نزل من السماء ، فخالط نباتَ الأرض ، فأخرج حبًّا وعنبًا وقضبًا وزيتونًا ونخلا وحدائق غُلْبًا وفاكهةَ وأبًّا ، ولبست الأرض من ذلك كله حلةً زاهية مختلفة الأصباغ والألوان ، وبَدَت كأنها العروسُ فى ليل عُرسِها .. ثم إذا إعصار مجنون ملتهب ، يمس هذه الجنّات المعجبة ، وتلك الزروع المونقة ، ويضربها بجناحيه ، فإذا هى حصيد تذروه الرياح ، ويباب قفر يضِلُّ به القَطَا .

ـ وفى قوله تعالى : « وظَنَّ أهلها أنهم قادرون عليها » إشارة إلى تمكّنَ أصحابها من جَنى ثمارها ، وتناول قطوفها .. إذ أصبحت ناضجة الثمار ، دانية القطوف ، آمنة من تعرضها للآفات التى تفسد الزهر ، وتغتال الثمر .. فإذا اجتاحتها آفة وهى على تلك الحال من الجمال والنضارة ، كان ذلك أوجعَ وأفجع لأهلها .. كما يقول الشاعر :

إن الفجيعة فى الرياض نواضراً لأجلُّ منها فى الرياض ذوابلا

ـ وفى قوله تعالى : « أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس » .. « الحصيد » ماحصد من الزروع بعد نُضجه .. و « تَغْنَ »

بمعنى تكون ، أو توجد ، على حالٍ من الاستقرار والثبات .. يقال غَنِى بالمكان ، أى أقام فيه واستقرّ .

وفى إسناد الاستقرار إلى الأرض ، مع أن الاستقرار إنما هو لأهلها ، إشارة إلى أنها بما لبسها من حياة ، وما نبض فى عروقها وشرايينها من دماء هذه الحياة ، وما تزينت به من حُلل وحِلىّ . قد أصبحت كائنا حيًّا ، مستغنيا بما اجتمع له من هذا المتاع والزخرف ..

وفى تشبيه الحياة الدنيا ، وما يلْبسُ الناس فيها من ألوان الحياة والسلطان ، وما يقع لأيديهم منها من مال ومتاع ـ فى تشبيه هذه الحياة بالماء الذى ينزل من السماء ، فيختلط بنبات الأرض ، ويلبس هذه المظاهر التى يشكلها من هذا النبات ، ويُصيرها جنّاتٍ وزروعاً ، وزهراً ، وفاكهة وحبًّا . .

— فى هذا التشبيه إعجاز من إعجاز القرآن ، وآية من الآيات الدالة على علوّ متنزّله . .

فالإنسان عنصر من عناصر هذه الحياة ، ومادة من موادها .. إنه ماء من هذا الماء .. هكذا هو فى أصله ومادة تكوينه .. يقول تبارك وتعالى : « ألم نخلقكم من ماء مهين » (٢٠ : المرسلات) .

ويقول سبحانه : « خَلَق من الماء بَشَراً » (٥٤ : الفرقان) .. ويقول جل شأنه : «فلينظر الإنسانُ ممّ خُلق *خلق من ماء دافق » (٥ ـ ٦ : الطارق) .

هذا الإنسان الذى هو ابن الماء .. يخالط الحياةَ ، ويتحرك فى أحشاء الوجود ، وسرعان ما يصبح هذا الكائنُ ، أو هذا الكون الذى يمشى على الأرض ، وكأنه جنّة قد أخذت زخرفها وازينت .. يملأ الأرض تيهاً وعجباً ، ويمشى عليها مختالا فخوراً ، يكاد يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولا ..

وهذا الماء الذى ينزل من السماء ، ويختلط به نبات الأرض ، وقد عرفتَ

شأنه ، ومايصنع من هذا النبات .. أليس هو هو الإنسان ابن الماء والطين ؟ ثم أليس هذا الإنسان الذى هو محصول هذا الماء ، ومنبت ذلك الطين ، يصير حصيداً هشيما ، كما يصير النبات ابن الماء والطين حصيداً هشيما ؟

إن التطابق بين الصورتين على هذا التصوير المعجز ، هو آية من آيات الله .. ليس فى مقدور بشر أن يمسك بخيط من خيوط نسجه المحكم الرائع !

وهل هذا كل ماهنالك من هذا الإعجاز فى هذه الصورة ؟ ومعاذ الله أن ينفد إعجاز كلامه ، أو ينقطع جَنَى ثمره ، على مدى الأزمان ، وعلى كثرة الواردين والطاعمين .

انظر فى قوله تعالى : « فاختلط به نبات الأرض » ..

وأكاد أدعُك لتكشف عن سرّ هذا النظم ، الذى جعل اختلاط نبات الأرض بالماء ، ولم يجعل اختلاط الماء بالنبات .. هكذا : « فاختلط بنبات الأرض » ، على مايقتضيه مفهوم النظر الإنسانىّ لهذه الظاهرة ..

فالماء هو الذى يختلط بنبات الأرض ، ويسرى فى كيانه ، فيبعث فيه الحياة ، ويخرجه من عالم الموات .. هكذا نرى ، وهكذا نقدِّر !

ولكنّ عين القدرة ترى مالا نرى ، وتعلم مالا نعلم !

فإن كنتَ تنكر هذه القدرة ، أو تشك فى هذا العلم ، فهاتِ قدرتك ، واستحضر علمك ، وقل لى ماذا ترى هناك ؟ وماذا تعلم مما بين الماء والنبات ؟.. أيهما المختلط وأيهما المختَلط به ؟ وأيهما الفاعل وأيهما المفعول به ؟

ودع عنك ما أنت فيه من نظر ، وعلم ..

وانظر فى كلمات الله تلك ، وخذ العلم الحق منها .

ولن أدعَكَ كما قلتُ لك .. بل سأنظر معَك ، وأتلقى العلم فى صحبتك !

الماء ، والنبات .. حين يلتقيان .. ماذا يحدث عند التقائهما ؟ وماذا يكون من هذا اللقاء ؟

وليكن فى تقديرك ـ قبل الإجابة على هذا التساؤل ـ أن المراد بالنبات هنا ، هو نبات الأرض ، أى بذرة النبات التى تُغرس فى الأرض ، لا النبات حين يكون نباتاً .. فإنه فى تلك الحال ، لا يكون مجرد نبات ، بل هو الماء والنبات معاً .. وأن لقاء قد كان بين الماء وبذرة النبات حتى أصبح نباتاً ، وإلا فهو بذرة ، أو حبة ، وليس نباتاً

وإذا تقرر هذا .. فلنجب على هذا السؤال : ماذا يحدث من التقاء الماء بالبذرة أو الحبة ؟

البذرة أو الحبة التى تقلّبها بين يديك ، ليست شيئاً ميّتاً ـ كما يبدو لنا ـ بل هى كائن حىّ ، يحتفظ فى كيانه بكل عناصر الحياة ، التى تنتظر من يثيرها ، ويدفع بها إلى الظهور .. وذلك لايكون إلا بأمرين :

(أولاً) : غرسها فى الأرض .. (وثانياً) وصول الماء إليها ، وتحول تراب الأرض إلى طين بهذا الماء ..

هنا تبدأ الحياة الكامنة فى البذرة ، أو الحبّة تتحرك ، وتأخذ طريقها إلى الماء المختلط بالتراب ، أعنى الطين ، فتجذبه إليها ، وتفتح له الطريق إلى الحياة الكامنة فيها ، وتأخذ منه مايُروى ظمأها إلى الحياة ، وإلى الإعلان عن وجودها ، وإظهار آيات الخالق التى ائتمنها عليها ..

فالبذرة أو النبتة إذن هى الطالبة للحياة ، والمهيأة لها ، والمتشوقة إليها .. وما الماء ، وما التراب ، وما الطين إلا عناصر مساعدة .. فالحبة إذن هى الداعية لتلك العناصر ، الطالبة للاختلاط بها .. ومن هنا جاء النظم القرآنى .. « إنما مثل الحياة الدنيا .. كماء أنزلناه من السماء .. فاختلط به نبات الأرض » ! !

أرأيت إذن سر هذا النظم ، الذى أسند الاختلاط بالماء إلى البذرة أو الحبة .. والذى لو جاء على عكس هذا ، فأسند الاختلاط بالحبة إلى الماء ، لكان خطأ علميا ، يناقض ما كشف عنه علم الأحياء اليوم . .

وهذا الذى حدثتك عنه لا يمثل إلا وجها واحداً من الصورة ، هو وجه الماء والنبات . .

أما الوجه الآخر ، وهو الإنسان المقابل لهذا الوجه .. فهذا ما نقص عليك من أمره :

هذا الإنسان وإن كان نبتة من نبات الأرض ، فإنه هو الماء الذى يبعث الحياة فى موجوداتها ، ويكشف عن القوى الكامنة .. فهو ـ بهذا ـ قائم على ذلك الوصف الذى أنبأ عنه التشبيه فى قوله تعالى : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء » .. ويكون من هذا أن الحياة الدنيا هى هذا « الإنسان » .. وأنه لولا هذا الإنسان لما كانت تلك الحياة الدنيا ، وما تنبض به عروقها من حياة دافقة ، فى كل وجه من وجوهها .. !

فالإنسان هو الحياة الدنيا .. وهو الماء الذى يثير الحياة ، بل ويخلق الحياة فى كل ما على هذه الدنيا .. كما يبعث الماء الحياةَ فى الأحياء ، بل وكما تتخلق منه الحياة ، كما يقول الله تعالى : « وجعلنا من الماء كل شىء حىٍّ » (٣٠ : الأنبياء) .

وانظر مرة أخرى فى قوله تعالى : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس » ..

وضع « الإنسان » أو « الناس » مكان الحياة الدنيا تجد :

أولا : الإنسان ـ الذى هو من الماء ـ والوجودُ الذى أقامه هذا الإنسان من عالم الموات فكان تلك الحياة الدنيا ـ كالماء المنزل من السماء ، وما أثار فى الأرض من انطلاق الحياة الكامنة فيها . .

وثانياً : الإنسان ودنياه التى صنعها بيده ، ونسج خيوطها بعقله ويده ـ هو زرع ، يبزغ ، ويخضر ، ويمتد ، ويُزهر ، ويثمر ، ثم يكون حصيداً هشيما ، كهذا النبات الذى يملأ وجه الأرض حياة وجمالا ، ثم يصير هشيما تذروه الرياح ..!

وثالثاً : هذا الإنسان الذى هو ابن ماء السماء .. فيه نفخة من الله ونفحة من روحه .. قد جاء إلى هذه الأرض من علٍ ، فغيّر معالمها ، وزين وجوهها .. تماماً كما ينزل ماء الغيث من السماء إلى الأرض فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج . .

ورابعاً : الإنسان ـ ابن ماء السماء هذا ـ وإن كان عُلْوىّ المتنزل ، فإن منبته من الأرض ، جاء منها ، وارتفع فوق سمائها ، ثم استوى عليها . . تماماً كماء الغيث .. كان على الأرض ، ثم كان سماء فوقها ، ثم عاد إليها واختلط بها ..

هذا ، ولك أن تذهب إلى ما لا ينتهى ، فى عد ما يؤديه إليك النظر ، من مطالعة وجه الآية الكريمة ، على امتداد هذه النظرة .. ثم لك أيضاً بعد هذا أن تدير نظرك إلى أكثر من اتجاه غير هذا الاتجاه .. وستجد معطيات كثيرة لاتنتهى .. !

* * *

* قوله تعالى : « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » ..

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، أن الآية السابقة تحدثت عن الحياة الدنيا ، وكشفت عن أنها دار فناء ، لا بقاء لشيء فيها ، وإن زها وازدهر . . لا تُبيت أحداً على جناح أمن أبداً ، وإن أمكنته من كل أسباب السلطان والقوة والعزة.. فهو على طريق ينتهى به دائماً إلى نهاية ، هى الموت .. !!

هذه هى الدار التى كشفت عنها الآية السابقة ، وهى دار متاعها غرور ، وظلها زائل .. لا يغتربها ، ولا يثق فيها إلا من استجاب لداعى هواه ، ووساوس شيطانه ..

أما الدار التى تشير إليها هذه الآية : « والله يدعو إلى دار السلام . . » فهى الدار الآخرة ، وهى دار أمن وسلام ، وخلود ، يدعو إليها الله سبحانه وتعالى عباده ، ويبعث فيهم رسله ليدلوهم عليها ، وليكشفوا لهم معالم الطريق إليها .. فمن استجاب لدعوة الله ، وصدّق برسله ، واستقام على دعوتهم ، كان من أهل هذه الدار ، ومن أهل السلامة والأمن والنجاة ، والفوز بنعيم الجنات، وبرضوان الله ..!

وفى قوله تعالى : « ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » إشارة إلى أنه ليس كل مدعوٍّ إلى هذه الدار بمستجيب للدعوة ، إلا من وفقه الله ، وشرح صدره لقبول هذه الدعوة ، والاستجابة لها . .

فالدعوة عامة .. موجهة من الله تعالى ، إلى عباد الله جميعاً . . ولكن مَن كان ممن رضى الله عنهم ، وأحب أن يكون ضيفاً على مائدة فضله وكرمه ـ جعلنا الله منهم ـ هشّ للدعوة وسعى حثيثاً إلى جنات ربه ، وأما من غلبت عليهم شقوتهم ، واستبدت بهم شياطينهم ـ وعافانا الله من هذا البلاء ـ فإنهم فى صمم عن دعوة الله ، لا يسمعونها ولا يستجيبون لها إذا سمعوها . .

* قوله تعالى : « لِلذين أحسنوا الْحُسْنَى وزيادةٌ ولا يَرْهَقُ وجوهَهُم قترٌ ولا ذِلَّةٌ أُولئِكَ أصْحابُ الجنَّةِ هم فيها خالدون » .

الرّهق : علوّ الشيء للشيء ، وغَلَبَتُهُ له ، وتمكنه منه ، بعد أن ينهكه ويرهقه . . كالمتسابقيْن فى الجرى مثلًا . . يرهق أحدهما الآخر ، ويسبقه ، بعد أن يجهده ويكدُّه ! والقتَر : الغُبَارُ . . وهو هنا كناية عن الشدّة التى تصيب الإنسان ، فتظهر آثارها على وجهه ، فينطفىء بريقه ، ويجفّ ماء الحياة منه . .

وتعرض الآية الكريمة ، صورة كريمةً مشرقة لمن دُعُوا إلى دار السَّلَام ، وأجابوا دعوة الله ، وآمنوا به وبرسله ، فكانوا من المحسنين ، وكان جزاؤهم إحسانًا بإحسانٍ ، وزيادة مضاعفة على هذا الإحسان . .

وفى التعبير بالحُسنى عن الإحسان : « للذين أَحْسَنُوا الحسنى » . . إشارة إلى العاقبة ، وأنها العاقبة الحسنى . . فهى تدلّ على الإحسان ، وعلى زمن الإحسان معًا ، وأنها فى الدار الآخرة ، التى هى دار الجزاء الحق . . كما يقول سبحانه وتعالى : « تِلْكَ الدّارُ الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلُوًّا فى الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين » (٨٣ : القصص) .

وكما يقول سبحانه : « أولئِكَ لهم عقبى الدار * جَنَّاتُ عَدْنٍ يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم » (٢٢ ـ ٢٣ : الرعد) .

— وفى قوله تعالى : « ولا يرهق وجوهَهُمْ قتر ولا ذلّةٌ » تعريض بالكافرين الذين سينزل بهم هذا البلاء يوم القيامة ، فيركبُ وجوههم القتر ، وتعلوها الذلة والهوان .

وعدم وقوع هذا بالمؤمنين المحسنين ليس جزاء لهم ، وإنما هو لازم من لوازم الجزاء الحسن الذى جُوزوا به ، فحيث كان جزاؤهم الحسنى وزيادة ،

وكانت دارهم النعيمَ والرضوان ، فإن القتر لا يطوف بهم ، وإن الذّلة أبعد ما تكون عنهم . .

فذكر هذا فى جانب المحسنين ، هو تعريض بالكافرين ، الذين سيرهق وجوههم القتر وتركبهم الذلة . . ثم هو ـ مع هذا ـ تذكير للمحسنين بالنعيم الذى هم فيه ؛ والرضوانِ المحفوفين به ، وأنهم فى عافية مما يحلّ بالكافرين من عذاب ونكال .

* قوله تعالى : « والذينَ كسبوا السَّيِّئَاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وتَرهقهم ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ عاصمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا من الليل مظلماً أولئِكَ أصحاب النار هم فيها خالدون » .

ذلك هو حساب الكافرين والمشركين وأصحاب الضلالات فى الآخرة ، وذلك هو نُزُلهم يوم الدين . . وتلك هى دارهم يوم القيامة !

— « جَزَآءُ سيئةٍ بمثلها » . . كيلًا بكيلٍ ، ومثقالاً بمثقال . .

— « وترهقهم ذِلّةٌ . . ما لهم من الله من عاصم » . . أى أنهم ينزلون منازل الهوان ، والبلاء . .

ثم هم مع هذا فى يأس قاتل ، من أن تمتدّ إليهم يدٌ تخفف عنهم ماهم فيه من عذاب ونكال . . « مالهم من الله من عاصم » يعصمهم من هذا البلاء ، ويحول بينهم وبينه .

— « كأنما أُغشِيَتْ وُجُوهُهُم قطعاً من الليل مظلماً » . . قد كُسِفت وجوههم ، وعلتهَا غبرة ، ترهقها قترة ، حتى لكأنما غُمِست هذه الوجوه فى قطعة من الليل ـ فى ليلة حالكة السواد ، لا يطلع فيها قمر ، ولا يلمع فيها نجم ، فكانت ـ لِما علاها من غبَرَة ـ كأنما قُدّت من هذا الليل البهيم .

* قوله تعالى : « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم

أنتم وشركاؤكم فزيّلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيّانا تعبدون * فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إنْ كنا عن عبادتكم لغافلين ».

فى هاتين الآيتين عرض لبعض مشاهد يوم القيامة . . يوم يُحشر الناسُ إلى ربّهم للحساب والجزاء.

وفى هـذا المشهد ، ينادى منادِى الحقّ على المشركين : « مكانَكُمْ أنتم وشركاؤكم » . . أى الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم ، لا تتحركوا حتى تحاسبوا على ما ارتكبتم من آثام . .

وفى هذه الدعوة الزاجرة الصادعة ما يكشف عن وجه هؤلاء القوم ، وأنهم مجرمون ، قد ضُبطوا متلبسين بجرمهم . . وهذه يد القصاص تمسك بهم ، وتقيّدهم حيث هم ، إلى أن يلقوا الجزاء الذى هم أهل له . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون * من دون الله فاهدوهم إلى صراطِ الجحيم * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ » (٢٢ ـ ٢٤ : الصافّات).

وفى موقف المساءلة والحساب ، فُرِّق بين الفريقين : العابدين والمعبودين . . فأخذ كل فريق جانباً مواجهاً للآخر . . « فَزَيَّلْنَا بينهم » أى فرقنا بينهم ، وأصله من الزوال ، وهو ذهاب الشىء واختفاؤه ، ومنه وقت الزوال ، وهو توسط الشمس فى كبد السماء ، حيث يختفى ظل الأشياء فى هذا الوقت . .

وقد جاء اللفظ القرآنى « زَيَّلْنَا » بدلًا من اللفظ « فرقنا » . . لأن مع التفريق بقية أمل فى الاجتماع ، أما التزييل ، فهو غروبٌ إلى الأبد ، واختفاء لا ظهور بعده . .

وفى هـذا ما يزيد فى وحشة المشركين ، الذين كانوا يستندون إلى مَن

عبدوهم وأشركوا بهم ، وكانوا يتأسَّوْن بمشاركتهم فيما سيقع لهم ، ففى هذه المشاركة عزاء لهم أى عزاء . . كما تقول الخنساء :

ولولا كثرة البـاكين حولى على إخوانهم لقتلتُ نفسِى

وقبل أن يزايل المعبودون موقفَ المشركين ، ينكرون ما كان بينهم من صِلاتٍ عقدها المشركون معهم ، على غير علمٍ منهم . . قائلين لهم : « ما كنتم إيَّانَا تَعْبُدُونَ » . . ثم يُشهدون الله سبحانه وتعالى على ذلك : « فَـكَفَى بِاللهِ شَهِيداً بينَنَا وبينكم إنْ كُنَّا عن عبادتـكم لغافلين » أى إننا لا ندرى من أمركم شيئاً . .

و « إنْ » هنا هى « إنّ » المؤكدة ، خففت . . أى إننا كنا عن عبادتـكم لغافلين .

وإنـكار المعبودية على المشركين أنّهم عبَدوهم ، مع أن الله سبحانه وتعالى أعلمَهم بهذا ، إذ جمعهم بعابديهم ـ هذا الإنـكار يُراد به أن هذه العبادة لم تـكن عن علمٍ من المعبودين ، أو عن دعوة منهم لعابديهم . . فهو تقرير لواقع الأمر ، حين وقعت هذه العبادة ، وذلك أنهم إنما كانوا يعبدون أصناماً جامدة ، وأحجاراً صمّـاء ، لا تدرى من أمر عابديها شيئاً . . أو بشراً اتخذوهم آلهة لهم بعد موتهم ، كما قالت اليهود عن عزير ، وكما قالت النصارى عن المسيح . . وهذا ما يشير إليه قولهم بعد هذا « فـكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إنْ كُنَّا عن عبادتـكم لغافلين » .

* قوله تعالى : « هنالك تبلو كلُّ نفسٍ ما أسلفت وَرُدُّوا إلى اللهِ مولاهمُ الحقِّ وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون »

« تبلو » : من الابتلاء ، وهو الاختبار للشىء ، والتعرف على حقيقته . .

و « أسلفت » أى ما سلف لها من عمل ، وما كان لها من سعى . .

والمعنى : أنه فى هذا الموقف ، موقف الحساب والجزاء يوم القيامة ، تَعْرِف كلّ نفسٍ ما قدمت من عمل فى دنياها لآخرتها . .

فهنالك يرى الناس أعمالهم على حقيقتها ، حيث يُكشف الغطاء عن وجوهها ، فيُعرف الحق من الباطل ، والخير من الشرّ ، والهدى من الضلال . . « يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ » (٦ : الزلزلة)

— وفى قوله تعالى : « وضلّ عنهم ما كانوا يفترون » إشارة إلى ما كان يتعامل به المشركون والكافرون من ضلالات ومنكرات ، وهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنْعاً : « أولئكَ الذين كفروا بآيات ربّهم ولقائه فحبطت أعمالهم . . فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » (١٠٥ : الكهف)

الآيات : (٣١ — ٣٦)

* « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ » (٣٦)

السمع والبصر . . ومكانهما فى الإنسان

التفسير : عرضت الآيات السابقة بعض مشاهد القيامة ، ليرى الناسُ منها صورة مصغرة لما يقع فيها ، من مساءلة ، وحساب ، وجزاء ، وليكون لهم منها عبرة وعظة . .

وهنا فى هذه الآيات . . يُعادُ الناسُ إلى حيث هم فى هذه الحياة الدنيا ، وقد صحبتهم من مشاهد القيامة مشاعر ، من شأنها أن تفتح عقولهم وقلوبهم لآيات الله التى تُتلى عليهم ، والتى تحدّثهم عن قدرة الله ، وتكشف لهم آياته فيهم ، وآثار أفضاله ونعمه عليهم . .

* وقوله تعالى : « قل من يرزقكم من السّماء والأرضِ أم من يملكُ السّمْع والأبصارَ ومن يخرجُ الحىّ من الميت ويخرجُ الميّت من الحىّ ومن يدبر الأمرْ فسيقولون الله فقلْ أفلا تتقون » .

هو عرض لبعض آيات الله ، وما تحمل من دلائل قدرته ، ورحمته . .

فهذه أسئلة ، كان ينبغى أن يُوردها الإنسان على نفسه ، وأن يتلقّى الجواب عليها من النظر فى نفسه ، وفيما يَطُوله إدراكه ، من النظر فى ملكوت السموات والأرض .

وإذ كان الناس فى غفلة عن أن يقفوا هذه الوقفة مع أنفسهم ، وأن يصلوا إلى الحقيقة بجهودهم الشخصى . . فقد كان من رحمة الله بهم أن بعث فيهم رُسله ، يحملون إليهم كلماته ، ويحدّثونهم بما كان ينبغى أن يحدّثوا هم أنفسهم به .

— « من يرزقكم من السّماء والأرض ؟ »

— « أم من يملك السّمع والأبصار ؟ »

— « ومن يخرج الحىّ من الميت ويخرج الميت من الحىّ ؟ »

— « ومن يدبر الأمر ؟ »

ما جواب هذه الأسئلة ؟

جواب واحد ، لا غير . . هو الله رب العالمين . . !

* * *

وهنا أمور نحبّ أن نقف عندها :

فأولاً : إسناد ملكية السمع والأبصار لله . .

لِمَ أُسندت إليه سبحانه وتعالى ملكية هاتين الحاستين وحدهما . . مع أنه ـ سبحانه ـ يملك كلّ شيء ؟ ولم كانت إضافتهما إلى الله بالمِلك ، ولم تكن بالخلْق ، كما هو أظهر . . فقد يملك الشيء من لا يُوجده ويخلقه ؟

والجواب : أن السمع والبصر هما أظهر حاستين عاملتين فى الإنسان ، لا يكون الإنسان إنساناً إلا بهما ، فإذا فقدهما ، كان كَوْمَةً متحركة من لحم ، لا تعقل ولا تَعى شيئاً !

فَمَنْ طريق السمع والبصر ، جاءت المعرفة إلى الإنسان ، وتكونت مداركه ، وأخيلته ، وتصوراته . . وعن طريق السمع والبصر ، تتحول هذه المعرفة إلى قوّى دافعة ، تُحرّك الإنسانَ ، وتوجهه إلى غاياته فى الحياة . .

وأما عن التعبير بمِلكية السمع والأبصار ، لا بخلقهما ، فلأن الملكية تُطلِق يَدَ المالك فى التصرف فيما ملك . . ولا ينفى هذا أن يكون المالكُ هو الخالق ، فهو يخلق ويملك ما يخلق . . وقد يخلق وَيَهب ما يخلق ، أو يملّك ما يخلق ، فيكون للمالك وحده ـ حينئذ ـ التصرف فيما ملكه !

فالتعبير بملكية السمع والأبصار ، يعنى أن الله سبحانه وتعالى ـ وإن فَضَل بهما على الإنسان ، فهما لم يخرجا عن سلطانه ، وأنهما ـ وهما يعملان فى الإنسان ـ يعملان بقدرة الخالق ، وبتصريفه لهما . . وأنه ـ سبحانه ـ هو الذى يُمدُّهما بالقُوى التى يعملان بها ، ولولا هذا لبطل عملهما . . فهو ـ سبحانه ـ الذى أعطى السمع والأبصار ، ما لهما من قوّى عاملة ، وهو القادر

على أن يأخذ هذه القوَى ، ويُبطل عَمَل السمع والبصر ، كما يقول سبحانه : « قل أرأيتم إن أَخَذَ الله سمعَكم وأبصارَكم وختم على قلوبكم مَنْ إلهٌ غيرُ الله يأتيكم به » (٤٦ : الأنعام).

وثانياً : إفراد السّمع وجمع الأبصار .. ما دلالة هذا ؟ وما السرّ الذى ينطوى عليه ؟

والمتتبع لآيات الله ، التى تتحدث عن السمع والبصر ، يجد أن القرآن الكريم قد فرّق بين السمع والبصر ، فى الصورة التى عبّر بها عن كل منهما .

فأما عن السّمع . . فقد التزم فيه القرآن الكريم الإفراد مطلقاً ، سواء اقترن به البصر أم لم يقترن .. وسواء أجاء منكرّا ، أو معرفاً بأل أو بالإضافة . . ولم يقع فى القرآن مجىء السّمع جمعاً فى أى حال من أحواله . . ولم يرد فى القرآن لفظ « الأسماع » أبداً . .

يقول الله تعالى : « الذين كانت أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِى وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً » (١٠١ : الكهف) . . ويقول سبحانه : « وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة » (٢٦ : الأحقاف) ويقول تعالى : « وختم على سمعه وقلبه » (٢٣ : الجاثية) ويقول جلّ وعلا : « فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم » (٢٦ : الأحقاف) ويقول تبارك وتعالى : « قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم » (٤٦ : الأنعام) .

ويلاحظ فى الآيات القرآنية التى ورد فيها « السمع » أنه يقترن دائماً بالبصر ، أو الأبصار ، فإن لم يقترن بهما اقترن بحال من أحوال الإنسان التى يكون فيها فى ذهول وغفلةٍ وشرود . . كما فى قوله تعالى : « هل أنبِّئُكُم عَلَى من تنزّلُ الشياطين * تَنَزَّلُ عَلَى كلِّ أفَّاكٍ أَثِيم * يُلْقُونَ السمعَ وأكثرهم كاذبون » (٢٢١ — ٢٢٣ : الشعراء) وقوله سبحانه :

« إنَّ فى ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شهيد » (٣٧ : ق) . . فالقلب هنا يقوم مقام البصر ، فى كشف معالم الطريق إلى الهدى والنور . . وقوله سبحانه : « الذين كانت أعينُهم فى غطآء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً » (١٠١ : الكهف) فالعيون التى فى غطاء عن ذكر الله ، هى العيون التى لا تتصل معطياتها بعقل أو قلب ، وهى الأبصار المعطلة التى لا تعمل !

وأما عن البصر . . فقد عبّر عنه القرآن بصيغة الإفراد ، وبصيغة الجمع . . وذلك فى حال إفراد البصر بالذكر دون أن يقترن به السمع .

فقد جاء البصر مفرداً مثل قوله تعالى : « ما زاغ البصر وما طغى » (١٧ : النجم) وقوله سبحانه : « وَمَآ أَمْرُنَا إلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » (٥٠ : القمر) وقوله جلّ شأنه : « ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصرَ كَرَّتَيْنِ » (٤ : الملك)

وجاء البصر جمعاً ، غير مقترن بالسمع ، كقوله تعالى : « وإذْ زاغت الأبصارُ وبلغت القلوب الحناجرَ » (١٠ : الأحزاب) وقوله سبحانه : « فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَـٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ » (٤٦ : الحج) . . وقوله : « فاعتبروا يا أُولِى الأبصار » (٢ : الحشر) . كذلك جاء البصر جمعاً مقترناً بالسّمع ، مثل قوله تعالى : « وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأبصَارَ والأفئدة » (٢٣ : الملك) وقوله جل شأنه : « وهو الذى أنْشأَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأفئدة » (٧٨ : المؤمنون) وقوله سبحانه : « قل أرأيتمْ إن أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وأبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ » (٤٦ : الأنعام) .

وهكذا جاء وضع السمع فى كلام الله ، مخالفاً بينه وبين البصر . حيث يجىء السّمع مفرداً دائماً ، ويجىء البصر مفرداً وجمعاً . . وأكثر ما يجىء البصر

جمعاً إذا اقترنَ بالسّمع — وقد جاء السّمع مفرداً مقترناً بالبصر فى قوله تعالى : « إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا » (٣٦ : الإسراء)

والسرّ فى هذا ـ والله أعلم ـ هو أن بين السمع والبصر اختلافاً من وجوه :

فأولاً : السمع طريق إلى شىء واحد ، هو الصوت . . والصوت ، وإن اختلف قوةً وضعفاً ، ورقةً وخشونة . . فهو ـ على أى حال ـ شىء واحد ، فى النوع ، وإن اختلف فى الدرجة .

أما البصر فهو طريق إلى هذا الكوْن كلّه ، وما فيه من عوالم وأكوان ، وما فى كل عالم وكوْن ، من ناطق وصامت ، ومتحرك وثابت ، وجامد وسائل . . إلى غير ذلك مما فى العالم الأرضى من كائنات ، وما فى السماء من شمس ، وقمر ، ونجوم ، وكواكب . . . وكلها مختلفة متغايرة .

فالبصر ، بالقياس إلى السّمع ، هو أبْصار . . يتعامل مع ما لا يُحصى من الأشياء ، حتى إنه فى النظرة الواحدة يفتح عشرات القوى المبصِرة ، فتجىء إليه بأكثر من منظور !

وثانياً : السمع ، لا يستطيع أن يضبط أكثر من صوت واحد ، فى حالٍ واحدة . . وإلا اختلطت عليه الأصوات ، وذاب بعضها فى بعض ، وعَسُر على الإدراك ، عَزْلُها ، وتمييزها .

والبصر . . ينقل كثيراً من المرئيات فى حالٍ واحدة ، ويحتفظ لكل مرئى بصورته ، دون أن تختلط بغيرها . . وينقلها إلى الإدراك منفصلة ، كما ينقلها إليه متصلة .

فهو ـ من هذه الجهة ـ أكثر من حاسّةٍ . . إنه أبصار ، وليس بصراً واحداً . .

وثالثاً : السّمع مقيّد بوجود الصوت ، الذى يتعامل معه . . فإذا لم يكن هناك صوت ، تعطّل السّمع ، وخيم عليه صمت رهيب ! .

أما البصر ، فهو عامل دائماً ، فحينما فتح الإنسان بصره وجد ما ينقله إليه بصرُه من أشياء لا تكاد تحصى . . فى أى مكان ، وفى أى زمان .

فالبصر بالقياس إلى السمع هنا ، هو أبصارٌ كثيرة . . لا عدّ لها ولا حصر .

ورابعاً : وأكثر من هذا كلّه ـ وهو فى النظم القرآنى بالمحلّ الأول ـ هو أن البَصَرَ يستطيع أن يمسك بالأشياء ، ويقف ما شاء له الوقوفُ إزاءها ، ويعاود النظر إليها ، مرة ومرةً ومرات . . ويتفحصها من جميع وجوهها . . والسمع بمعزل عن هذا ، إذ لا يستطيع أن يمسك بالصوت أكثر من اللمسة العابرة التى تمرّ به . . وفى هذا يقول الله : « فارجع البَصَرَ هل ترى من فُطور * ثم ارجع البصرَ كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير » (٣ — ٤ : الملك) .

ومن هنا ، كان البصر ، أبصاراً ، فى معاودته النظر إلى الأشياء ، وفى تفحصها ، والنظر إليها من جميع جهاتها ، من قرب ومن بعد . .

ومن هنا أيضاً كان التفات القرآن الكريم إلى النظر ، وتوجيهه إلى ملكوت السموات والأرض ، وعقد صلة وثيقة بينه وبين القلب . .

يقول تبارك وتعالى : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » (١٠١ يونس) ويقول سبحانه : « انظروا إلى ثمره إذا أثمر ويَنْعِهِ » (٩٩ : الأنعام) . . ويقول جل شأنه : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلقَ ثم اللهُ يُنْشِىءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ » (٢٠ : العنكبوت) . . ويقول سبحانه : « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها » (٥٠ : الروم) .

وكما دعا القرآن إلى النظر فى المحسوسات ، وأخذ العبرة والعظة منها ، دعا إلى النظر فى المعنويات ، وتدبّرها ، ووصل العقل والقلب بها . .

يقول سبحانه وتعالى : « انظر كيف نُبيِّنُ لهمُ الآياتِ ثم انظر أنَّى يُؤْفَكون » (٧٥ : المائدة) ويقول جلّ شأنه : « انظر كيف يفترون على الله الكذبَ وكفَى به إثماً مبيناً » (٥٠ : النساء) ويقول سبحانه : « انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلُّوا فلا يستطيعون سبيلًا » (٤٨ : الإسراء)

ومن إعجاز القرآن فى هذا أيضاً ، أنه تحدّث عن حاسّة السّمع باعتبارين : باعتبار أنها جارحة من الجوارح ، وجهاز من الأجهزة ، وظيفتها نقلُ الصوت ، شأنها فى ذلك عند الإنسان شأنها عند الحيوان . . فهى « أُذُن » وهى بتعدد أصحابها « آذان » . .

وهذا ما نراه فى قوله تعالى ، فى تسفيه أحلام المشركين ، وإنزالهم منازل الحيوان : « ألهم أرجل يمشون بها ؟ أم لهم أيدٍ يبطشون بها ؟ . أم لهم أعين يبصرون بها ؟ أم لهم آذان يسمعون بها ؟ » (١٩٥ : الأعراف) . . فهذه كلها جوارح حيوانية ، رُكّبت فى كائنات حيوانية ، لم ترتفع بعد إلى مستوى الإنسانية . . فالأذن عندهم أُذُن ، وليست سمعاً !

أما إذا تحدث القرآن عن الآذان باعتبار أنها جهاز متصل بالقلب والإدراك . . فهى « سمع » وهى بتعدد أصحابها « سمع » أيضاً . .

أما البصر ، فقد تحدّث القرآن عنه بالاعتبارين اللذين تحدث بهما عن السّمع . فهو كعضو من أعضاء الجسم « عين ، وعيون » . . وهو كجهاز متصل بالقلب ، والعقل . . « بصر » و « أبصار » .

ثم تحدث القرآن عن البصر باعتبار ثالث ، وهو أنه « بصيرة » . . أى مَلَكة تتخلّق من النظر المتأمّل ، المتفحص . . « فالبصيرة » بنت « البصر » . .

وفى هذا يقول سبحانه وتعالى : « فاعتبرُوا يَآ أولى الأبصار » (٢ : الحشر) ويقول سبحانه : « إن فى ذلك لعبرةً لِأُولى الأبصار » (١٣ : آل عمران)

ولهذا اشتقّ القرآن مِن البصر : البصيرةَ .. والبصائر . . والتبصرة ، فقال تعالى : « بل الإنسانُ على نفسه بصيرة » (١٤ : القيامة) وقال سبحانه : « قد جَآءكم بصائر من ربّكم فمن أبْصَرَ فلنفسه ومن عَمِىَ فعليها » (١٠٤ : الأنعام) . . ويقول جل شأنه : « والأرضَ مددناها وَأَلْقَيْنَا فيها رواسِىَ وأنبتنا فيها من كل زوجٍ بهيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكلّ عبدٍ منيب » (٧ ـ ٨ ق) .

* * *

وبعد ، فما أرانا بعد هذا الوقوف الطويل على ساحل هاتين الكلمتين . . « السمع والأبصار » ـ ما نُرانا إلاّ قد حَسَوْنَا حَسْوةً من هذا المورد المتدفق العذب ، تنقع الصدى ، ولا تشفى الغليل . . وذلك هو جُهد من قَصُر باعه ، فمن كان ذا باعٍ فَلْيرِدْ ، وليرْتوِ ، وليروِ الظِّماء ! فهذا مورد لا يغيض ! .

* قوله تعالى : « فذلكم الله ربكم الحق .. فماذا بعد الحق إلا الضلالُ .. فأنى تُصْرَفون » .

الإشارة هنا : « فذلكم الله ربكم » إلى الناس جميعاً ، مؤمنهم ، وكافرهم ، ومشركهم . . تُلفتهم إلى الإله الحق . الذى خلق فسوّى . . ثم تَخلُص الإشارة بعد هذا إلى الكافرين والمشركين الذين ضلّ سعيهم ، وتنكبوا عن طريق الحق،وركبوا طرق الضلال..فتَنْخَسُهم نخسةموجعة بهذا الاستفهام الإنكارى: فماذا بعد الانصراف عن الإيمان بالله ، والتعبد له ـ ماذا بعد هذا إلا ركوب الضلال ، والضرب فى المتاهات ، والتعبُّد لكل باطل وبهتان : « فأنى

تصرفون » .. أى فإلى أين تذهبون ؟ وإلى أى مهلكة أنتم واردون أيها الضالون ؟

* قوله تعالى « كذلك حقت كلمةُ ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون » .

حقت : أى وجبت ، وقضت ، ولَزِمَتْ !

فهؤلاء الذين فسقوا ، وخرجوا عن طريق الحق ، وكفروا بالله ، هم ممن حكم الله عليهم بألا يكونوا فى المؤمنين . . وذلك دون أن يَقْسرهم الله على الكفر ، أو يَسْلبهم إرادتهم ، أو يعطل عمل عقولهم ..

وقد عرضنا لهذه القضية فى مبحث خاص ، تحت عنوان « مشيئة الله ومشيئة الإنسان » . .(1)

* قوله تعالى : « قل هل من شُركائكم من يبدأُ الخلقَ ثم يُعيدُهُ قُلِ الله يبدأ الخلقَ ثم يعيده فأنّى تؤفكون » .

الإفك : الافتراء ، واختلاق الأباطيل . . وأنّى : بمعنى كيف .

وفى الآية محاجّة للمشركين ، بعرض آلهتهم التى يعبدونها موضعَ الامتحان إزاء قدرَة الله سبحانه وتعالى . .

فالله سبحانه وتعالى يبدأ الخَلْق ثم يعيده . . فهو سبحانه خالق هذا الوجود ، ومبدع هذه الأكوان . . وهو الذى أوجد الناس من عدم ، وهو الذى يميتهم . . ثم هو الذى يبعثهم . .

فهل فى هؤلاء المعبودين من يفعل هذا ، أو بعض هذا ؟

---

(1) انظر التفسير القرآنى للقرآن ـ الكتاب الخامس ـ الجزء الثامن ص ٢٦٣ .

لقد قالها « النمرود » لإبراهيم ، وهو يحاجّه فى ربّه ، فألقمه إبراهيم حجراً . . نخرِس إلى الأبد . .

« ألم ترَ إلى الذى حاجّ إبراهيم فى ربّه . .

« قال إبراهيم : ربى الذى يحيى ويُميت . .

« قال : أنا أحْيِى وأُميت ! . .

« قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأْت بها من المغرب ؟

« فبُهتَ الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين » (٢٥٨ : البقرة) .

وفى الآية جاء النظم على غير ما جاء عليه فى الآيات السابقة من سورة البقرة ، حيث دُعى المشركون هنا إلى أن يَدْعوا آلهتهم أولاً ، ليؤدّوا هذا الامتحان ، وليأتوا بما عندهم . . فإذا ظهر عجزهم ، لم يكن إلا التسليم بأن قوةً غير قوتهم هى التى أوجدت هذا الخَلق الذى يملأ الوجود حولهم ، فإذا لم يعرفوا هذه القوة ، ولم يدركوا نِسبتها إلى من بيده تلك القدرة . . فليسمعوا الجواب ، وليصححوا عليه أفكارهم الخاطئة ، ونظراتهم الزائفة : « الله يبدأ الخلق ثم يعيده » ! ولكن الضالين ما زالوا على ضلالهم القديم ، لم يغيرّ هذا الدرس من تفكيرهم شيئاً . بل ما زالت أبصارهم متعلقة بآلهتهم ، وما زالت عقولهم تنسج لهم الأباطيل والضلالات.. وهنا يُسمعهم الوجود كله ، إنكارَه عليهم هذا الضلال ، وتسفيهه هذا البهتان : « فأنى تؤفكون » . . أى كيف تطوع لكم أحلامكم افتراء هذه المفتريات ، أمام هذه الحجة الدامغة ، والبرهان المبين ؟ . .

* وقوله تعالى : « قل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق . . أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يُتّبع أم من لا يَهِدّىَ إلا أن يُهْدَى ؟

فما لكم كيف تحكمون ؟ ».. فهذا امتحان آخر .. يُدعَى فيه المشركون إلى امتحان شركائهم به ..

« هل من شركائكم من يهدى إلى الحق » ؟

— هذا امتحان أيسر وأهون من الامتحان السابق الذى كانت مادته النظر فى بدء الخلق وإعادته ..

أما هذا الامتحان فلا يعدو أن يَسأل المشركون آلهتَهم عن أمرٍ ما ، ثم يطلبون إليهم النظر فيه ، وكشف وجه الحق لهم عنه : « هل مِنْ شركائكم من يهدى إلى الحق » ؟

وهؤلاء الآلهة ، صم بكم .. لا يسمعون ، ولا يجيبون .. فلا هداية منهم إلى حق ، ولا دعوةَ الى غير حق !

فإذا خرست هذه الآلهة عن أن تنطق .. فكيف يتخذها العاقلون الناطقون آلهةً لهم يعبدونها من دون الله ؟

وإذن فقد وجب على هؤلاء العاقلين الناطقين أن يطلبوا الهداية من رب الأرباب : « الذى أعطى كل شىء خَلْقَه ثم هَدَى » وأن يتبعوا هديه ، ويأخذوا بما جاءهم منه على يد رسله .. « قل الله يهدى للحقّ » ..

وأمّا وقد كشف الامتحان عن هذه الحقيقة ، فإن الحكم الذى يوجبه العقل هنا ، هو واضح لايحتاج الى تَرداد نظر :

— « أفمن يَهْدى إلى الحقّ أحق أن يُتَّبع أم من لا يَهِدِّىَ إلآ أن يُهْدَى » ؟

جواب واحد لا سبيل إلى غيره ، إلا أن يركب المرء رأسه ، ويمشى عليه،

بدلاً من رجليه ..

وفى الناس كثيرون يمشون هذا المشى المقلوب ، ويأخذون هذا الوضع المنكوس ..

وليس يصرفهم عن هذا صيحاتُ الإنكار التى تَصِيح بهم من كل ناظر إليهم :

« فما لكم ؟ » .. « كيف تحكمون ؟ » هذا الحكم على أنفسكم ، وتريدونها على هذا الوضع الذى أنتم فيه ؟

وفى التعبير عن الاهتداء بلفظ « يَهِدِّى » - إشارة إلى أن هذا الذى يعبده المشركون من دون الله ، لا يستطيع أن يهتدى من تلقاء نفسه إلى خير أو حق أبداً ، فهو فى حاجة إلى من يقوده ويهديه ، وحتى مع هذا ، هو بطىء الخُطا ، لا يستجيب استجابة كاملة لمن يهديه .. وهذا ما يدل عليه لفظ « يَهِدِّى » الذى هو بمعنى يهتدى ، ولكن فيه ثقل واضطراب !

* قوله تعالى : « وما يتّبع أكثرهم إلا ظنًّا .. إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً .. إن الله عليم بما يفعلون »

الظن هنا : ضدّ اليقين ، وهو ما قام على أوهام باطلة ، وتصورات مريضة ، وذلك هو الذى يقوم عليه تفكير المشركين ، وأصحاب الضلالات ، والانحرافات لا تمسك عقولهم إلا بالأوهام ، ولا تتعامل إلا بالظنون !

فهذا البناء الشامخ الذى يقيمونه من أوهامهم وظنونهم ، لآلهتهم ، وما يملقون عليها من آمال ، هى سراب خادع ، وهى أضغاث أحلام ، إذا جدّ الجد ، ووقعت الواقعة ، لم يجد أصحابها فى أيديهم شيئاً .. « إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً »

— وفى قوله تعالى : « إن الله عليم بما يفعلون » تهديد ووعيد لهؤلاء الضالين ، الذين غرسوا فى مغارس الضلال ، وأقاموا بنيانهم على شفا جرف هارٍ . . فحبطت أعمالهم ، وساء مصيرهم . .

الآيات : (٣٧ — ٤١)

* « وَمَا كَانَ هَذَا ٱلْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْـكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَٱنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلظَّالِمِينَ (٣٩) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِى عَمَلِى وَلَـكُمْ عَمَلُـكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » (٤١)

التفسير :

* قوله تعالى : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله » . .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الأحاديث السابقة كانت عرضاً لبعض مظاهر قدرة الله . . وآثار رحمته ، وذلك لتفتحَ العقولَ والقلوبَ إلى الله سبحانه وتعالى ، وإلى الإيمان به ، والانخلاع عن عبادة الأوثان والأشخاص ، واتخاذهم آلهة من دون الله . . وإنه لـكيلا يضلّ الناسُ الطريقَ إلى الله ، بعث فيهم رسله ، وأنزل معهم كتبه بالهدى والنور .

ومحمد صلى الله عليه وسلم هو الرحمة المهداة إلى عباد الله ، والقرآن الكريم هو الينبوع الذى تَفِيضُ منه الرحمة ، وتنبعث من آياته وكلماته الأضواء والأنوار . . ومع هذا ، فقد وقف المشركون من هذا النبى الكريم ، ومن الكتاب الذى أوحى إليه من ربه ـ وقفوا موقفَ العناد ، والعداء له ، والتكذيب به ، والافتنان فى سَوْق الضرّ والمساءة إليه .

وهذه الآية ، تدفع عن القرآن الكريم ، تلك الرّميات الطائشة ، التى يَرْمى بها المشركون بين يديه ، ويقولون عنه إنّه من مفتريات « محمد » ومن منقولاته عن الأحبار والكهّان ، كما ذُكر ذلك عنهم فى كثير من الآيات ، كقوله تعالى : « ولَقَدْ نَعْلَمُ أنهم يقولون إنما يعلّمُهُ بشرٌ » (١٠٣ : النحل) وقوله سبحانه : « وقالوا أساطيرُ الأوّلينَ اكتتبها فهى تُمْلَى عليه بُكرةً وأصيلاً » (٥ : الفرقان)

ـ وفى قوله تعالى : « وما كان هذا القرآن أن يُفتَرَى من دون الله » إنكار واستبعاد أن يكون هذا القرآن من مفتريات مفترٍ ، واختلاق مختلق . . إذ أن الافتراء والاختلاق هو تزييف للحقيقة ، وتمويه للحق . . والشىء المفترى المُختَلق ـ أيًّا كانت براعة المفترِى ، وذكاء المختلق ـ هو ضعيف هزيل ، لا يثبت للنظر ، ولا يصمد للزمن ، بل سَرْعان ما يتعرّى ويفتضح . .

وفى الإشارة إلى القرآن بقوله تعالى : « هذا القرآن » تنويه به ، وتمجيد له ، وإلفات إلى علوّ منزلته ، وتفرّده بهذه المنزلة التى لا يشاركه فيها مشارك .

ـ وفى قوله سبحانه : « من دون الله » إشارة إلى استبعاد أن يكون هذا القرآن من صنعة إنسان ، ومن وحى خاطره ، وتلقّياتِ مدركاته أو أوهامه . . وأنه حتّى لو كان مُفتَرًى ـ كما يتخرّص المبطلون ـ فإنه مع

هذا ـ فوق مستوى البشر ، وأنه ليس فى مستطاع القوى البشرية كلها ـ متفرقة أو مجتمعة ـ أن تفترى مثله . . وأن من قَدرَ أن يفترى مثله فلا بد أن يكون على صلةٍ بقوة إلٰهية ، تمدّه ، وتعينه ، على ما يفترى به ، حتى يكون افتراؤه على هذا المستوى الذى يتخاضع بين يديه صدق الصادقين ، وتصغُر فى حضرته حقائق المحقّين !

فكيف وهو الحقّ من ربّ العالمين . . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . تنزيل من حكيم حميد ؟

ـــ وقوله تعالى : « ولٰكنْ تصديقَ الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من ربّ العالمين » ـ هو معطوف على المصدر الواقع خبراً لكان فى ـــ قوله تعالى : « وما كان هذا القرآن أن يُفتَرَى من دون الله » أى وما كان هذا القرآن مُفْتَرًى من دون الله ولكن تصديقَ الذى بين يديه .

والعطف بالحرف « لكن » يجعل حكم ما بعدها مغايراً ومضادًّا لما قبلها .

والذى بين يدى القرآن الكريم ، هى الكتب السّماوية التى تقدمته فى الزمن ، وهى التوراة والإنجيل .

وتصديق القرآن الكريم للكتب السماوية السابقة ، هو أنه يشهد لها بأنها من عند الله ، ويؤيد الحق الذى جاءت به ، من الدعوة إلى الله ، والإيمان به ، وبما تدعو إليه من فضائل . . فهى جميعها من مصدر واحدٍ . . قد جَمعَ القرآنُ الكريم ما تفرّق منها . . كما يقول الله سبحانه : « وأنزلنا إليك الكتابَ بالحقّ مصدّقاً لما بين يديه من الكتابِ ومهيمناً عليه » (٤٨ : المائدة)

والكتاب الذى جاء القرآن الكريم مفصِّلًا له ، هو الكتاب « الأُمّ » فى اللوح المحفوظ . . الذى صدرت عنه الكتب السّماوية جميعها ، فهو من تفصيل هذا الكتاب ، ومن مُحْكَمِهِ . . كما يقول سبحانه وتعالى : « وَإِنَّهُ

جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى ورحمةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »
(٥٢ : الأعراف)

وكما يقول سبحانه : « وإِنَّهُ فى أُمِّ الكِتَابِ لدَيْنَا لَعَلِيٌّ حكيم »
(٤ : الزخرف)

فالقرآن الكريم موصوف هنا بخمس صفات : —

* أنه غيرُ مُفترًى . . ولو كان مفترًى ـ كما يقولون ـ فإنه مع هذا ، فوق مستوى البشر !

* وأنه مصدِّق للكتب السابقة ، وشاهدٌ بصدقها .

* وأنه من تفصيل الكتاب « الأمِّ » ومن ينابيعه الوضيئة الصافية .

* وأنه لا ريب فيه ، فلا يجد الناظر فيه ، والمعايش له ، ما يَريبه منه ، أو يقع موقع الشك واللبس عنده .

* وأنه ـ قبل هذا كله ـ تنزيلٌ من ربِّ العالمين . . وكفاه بهذا كمالا وعلوًّا ، وإحكامًا .

* قوله تعالى : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورةٍ مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » . . هو تحدٍّ للمعاندين ، المكابرين من المشركين ، الذين يقولون فى القرآن الكريم : إنه من مفتريات محمدٍ . . صلوات الله وسلامه عليه . .

وقد تحدّاهم القرآن هنا أن يأتوا بسورة من واردات الافتراء التى جاء « محمدٌ » بهذا القرآن منها . . فميدان الافتراء والاختلاق فسيحٌ لا حدود له ، ولا حِجازَ دونه . .

فَلْيَجْهَدوا جُهْدهم ، وليستعينوا بمن يستطيعون الاستعانة به ، من أحبار

ورهبان وكهّان ، ومن سحرة وشعراء وخطباء ، ومن إنس وجنّ .. ثم ليأتوا ـ بعد هذا ـ لا بمثل هذا القرآن كله،ولكن بمثل سورة منه .. ولينظروا فى وجه هذا الذى جاءوا به ، وليضعوه ،فى مواجهة آيات القرآن الكريم ، ثم ليحكموا هم على ما جاءوا به ، وهم أهلٌ لهذه الحكومة ، وصيارفة معادن الكلام . .
فماذا يكون الذى يحكمون به؟ إنه لا شك إدانة لهذا المولود اللقيط الذى جاءوا به، واتّهام له أنه جاء من غير رِشدة . . وأنه لن يجرؤ أحد منهم أن ينسبه إليه أو يحمله بين يديه ، لو صَدَقَ نفسَه ، واحترم عقله ، واحتفظ بماء الحياء فى وجهه !

● قوله تعالى : « بل كذّبوا بمالم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويلُه كذلِكَ كذَّب الذينَ من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » . .

تفضح هذه الآية الكريمة طيش هؤلاء المشركين ، وما استولى عليهم من حماقة وجهلٍ . . ذلك أنَّهم على غير ما عليه العقلاء ، من تثبتهم فى الأمور ، وتعقلهم لها ، وتفرسهم فى وجوهها قبل أن يحكموا عليها ، وقبل أن يأخذوا بها أو يَدَعوها ..

فهؤلاء المشركون ، قد استقبلوا القرآن الكريم بالبَهْت والتكذيب ، قبل أن يَرَوْه رؤية كاشفة ، وقبل أن يستمعوا إليه استماعاً واعياً .. « بل كذّبوا بمالم يحيطوا بعلمه » .. وهذا ضلال مبين ، وخسران عظيم ، واعتداء على حق العقل فى النظر والتثبت ، قبل الرأى والحكم .

وليس المراد بالعلم هنا ، هو العلم بالقرآن ، والإحاطة بهذا العلم الذى ضُمّ عليه ، بل هو العلم مطلقاً ، بأى شىء ، ولأى شىء .

وفى هذا مبالغة فى تسفيه القوم ، واستسخافِ عقولهم .. حيث تغلب

عليهم أهواؤهم ونَزَعاتهم ، فــلا يَلقَوْن الأمور بعقولهم ، ولا يَزِنُونها بأحلامهم ، وإنما يلقونها بأهوائهم المسلطة عليهم ، ويزنونها بمـا يقع لأيديهم منها ، من نفع ذاتى عاجل .. فإذا لم يستقم الأمر على ميزانهم هذا ، تنكروا له ، وأنـكروه ، من قبل أن يعلموا ما هو ؟ وما الصفة التى يقوم عليها ؟

— وفى قوله تعالى : « ولمّا يأتهم تأويله » — إشارة خاصة إلى القرآن الـكريم ، وأنه ليس من عوارض الأمور ، التى يَفرَغ المرء من حسابه معها فى نظرة عابرة ، أو لمسة طائرة .. وإنما هو آيات الله ، قد أُودعت فى حروفه وكلماته وآياته ، أسرارُ هذا الوجود ، ونظام هذا العالم ، ومِلاك أمر هذا المجتمع الإنسانى ، ومناهج سعيه المستقيمة .

وإذا كان هذا هو شأن القرآن الـكريم ، فإنه ـ لـكى يتعرف الإنسان عليه ، ويقع على بعض ما فيه من أسرار ـ يجب أن يقف المرء طويلًا معه ، وأن يعطيه مَلَكاته كلها ، وبهذا يعرف ما هو هذا القرآن الذى يسمعه ، ويدرك طعم هذا الثمر الذى يتدلىّ عليه من أغصانه وأشجاره . .

أما النظرة الحمقاء الشاردة العجول ، أو النظرة الجامدة الباردة العمياء . فلن تنال شيئاً ، ولن تبلغ غاية ، تحصّل بها شيئاً من هذا الخير الـكثير . .

وهذا هو السر أو بعض السر ـ فى « لمّا » التى تفيــد امتداد الزمن وتراخيه حتى يقع الحديث الذى يجىء من الفعل الوارد عليه هـذه الأداة « لمّا » التى تفيد التراخى والامتداد فى الزمن المستقبل .

والصورة هنا هكذا :

إن هؤلاء المشركين من شأنهم أن يواجهوا الأمور بعواطفهم ونوازع أهوائهم ، فيدفعوا كل أمر لا يلتقى مع أهوائهم ، ولا يستجيب لمنازعهم ...

هكذا شأنهم مع صغير الأمور وكبيرها ، ومع قريبها وبعيدها .. فإذا جاءهم أمر تلقوْه سَلَفاً بما تموج به صدورهم من نزعات وأهواء ، فإذا جاء الأمر على وَفق أهوائهم ، وجرى على طريق نزعاتهم ، قَبِلوه ، واطمأنوا إليه ، وإلا أنكروه ، وتنكروا له !

وهم مع القرآن ، بادءوه بالإعراض والتكذيب قبل أن ينظروا فيه .. ومن نظر منهم إليه ، نظر نظراً منحرفاً ، بارداً .. فكذبوا بالبدهيات ، كما كذبوا بما يحتاج إلى بحث ونظر ، وإمعان .. « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله » أى كذبوا بما لم يقع لهم منه علم أصلا ، لأنهم لم ينظروا فيه، ولو نظروا لعلموا ، ثم كذبوا بما لم يأتهم تأويله ولم يدركوا أسراره ، لأنهم لم يطيلوا البحث ويعمنوا النظر، ولو فعلوا ، لجاءهم تأويله ، وانكشفت لهم بعض أسراره .. فهم على تكذيب بالقرآن أبداً .. يكذبون به قبل أن ينظروا فيه ، ويكذبون به بعد أن ينظروا فيه ، لأنهم يسبقون هذا النظر بمشاعر الاتهام ، فإذا نظروا لم ينفعهم النظر ، لأنه ـ كما قلنا ـ نظر شارد ، مستخفّ بما ينظر إليه ..

* وقوله تعالى : « ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين » هو بيان لموقف المشركين من القرآن الكريم ، وتعاملهم معه ..

فهم فريقان .. فريق نظر فى القرآن ، وعرف وجه الحق فيه ، ولكن يأبى عليه كِبرُه وعناده أن يخرج عن مألوف عادته ، وأن يتقبل الدّين الجديد ويترك مخلفات الآباء والأجداد .. وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم فيما حكاه عن هؤلاء المشركين فى قوله سبحانه : « قد نعلم إنه ليحزُنُك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » (٣٣ : الأنعام)

وفريق يبادىء القرآن بالتكذيب من قبل أن يسمع أو ينظر .. « وقالوا قلوبنا فى أكنّةٍ مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقرٌ ومن بيننا وبينك حجاب .. فاعمل إننا عاملون » (٥ : فصلت) ..

هكذا أهل الزيغ والضلال .. يَعْمَوْن عن الحق ، ويزيغون عن الهدى ، سواء منهم من عرف الحق ومن لم يعرفه .. فليس كل الذى يعرف وجه الحق يقبله أو يُقبل عليه .. فما أكثر الذين يعرفون الباطل ويتعاملون معه ! ، وما أكثر الذين يعلمون الشرّ ويُلقون بأنفسهم فيه ! . وما أكثر الذين يرون الهوى ويتعامون عنه ! ، وما أكثر الذين يبصرون وجه الحق ويتنكرون له ! .. والله سبحانه وتعالى يقول: « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم . . ظلماً وعُلُوًّا » (١٤ : النمل)

* قوله تعالى : « فإن كذّبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بَرِيئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون » ..

هذا هو الموقف الذى كان على النبى أن يأخذه إزاء المشركين المعاندين المكذبين .. إنه ليس له سلطان عليهم يأخذهم به قهراً وقسراً ، إلى ما يدعوهم إليه من الهدى والحق والخير الذى ساقه الله سبحانه وتعالى على يديه إليهم .. إنه ما عليه إلا أن يبلغ رسالة ربه .. وقد بلّغها .. « فمن أبصر فلنفسه ومن عمِىَ فعليها » (١٠٤ : الأنعام) . . « من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يَمْهَدُون » (٤٤ : الروم) . . فلكل إنسان عمله ، الذى سيجزى به يوم القيامة . . من خير أو شر . . « ولا تكسب كلُّ نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى » (١٦٤ : الأنعام)

الآيات : (٤٢ — ٤٤)

* « وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (٤٤)

التفسير : * قوله تعالى : « ومنهم من يستمعون إليك ، أفأنت تُسمع الصُّمّ ولو كانوا لا يعقلون » ..

الضمير : فى « منهم » يعود على المشركين الذين جاء ذكرهم فى الآيات السابقة ، وكَشَف القرآن عن بعض أحوالهم ومواقفهم من الرسول الكريم ، والقرآن الكريم

وفى هذه الآية بيان لحال من أحوال هؤلاء المشركين .. وأن منهم من يستمعون إلى القرآن الكريم ، والنبىُّ يتلوه على الناس .. ولكنهم لا يفتحون لما يسمعون آذاناً ، ولا قلوباً ، فلا يقع لهم مما يستمعون شيئاً من الاستضاءة والهدى .

وقد ربط القرآن الكريم هنا بين الأذن والعقل .. للدلالة على أن ما تسمعه الأذن ، مجرد سماع ، دون أن يعيه الإنسان ويعقله ، ليس إلا أصواتاً لا مفهوم لها ، وليست حاسة السمع حينئذ إلا أداةً معطلة لا عمل لها .. إذ أن من عملها أن تصل الإنسان بهذا الوجود ، بما يقع فيها من حكمة وموعظة حسنة .. فالأذن إذا لم يكن بينها وبين العقل والقلب اتصال وثيق لما يقع فيها من كلمات —

لم يكن لِمـا تسمعه من طيّب الـكلام ، وحكيم القول ، أثرٌ فى مدركات الإنسان وفى سلوكه .. إذ لا يخرج هذا الكلام عن أن يكون مجرد أصوات لا مفهوم لها ..

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : «لنجعلها لـكم تذكرة وتَعِيَها أُذُنٌ واعية» (١٢ : الحاقة) .

● قوله تعالى : « ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العُمْىَ ولو كانوا لا يُبصرون » ..

وتلك جماعة أخرى ، لها موقف آخر مع النبى ، وقد سمعت القرآن ، ثم جعلت تنظر فيه بقلوب مريضة ، وعقول سقيمة ، فلم تهتد إلى خير ، ولم تتعرف إلى حق ..

ويلاحظ هنا أن القرآن لم يصل بين النظر والعقل ، أو القلب ، كما فعل ذلك مع السمع ، بل جعل مجرد تعطيل أداة النظر عن أداء وظيفتها ، حَجْزاً عن عن الخير ، وعزلاً عن الهدى ..

وذلك أن النظر ـ كما قلنا فيما سبق ـ جهاز يعد الإنسان بأكثر ما يقوم عليه بناء المَلَـكات والمشاعر والوجدانات ، فى كيانه ، فهو باب المعرفة الذى يُطلّ منه الإنسان على هذا الوجود ، ويَصيد بشباكه ، ما يشاء من محسوسات ومعنويات .. ومن هنا كان فى ذكر النظر ، ذِكرٌ واستحضار لملـكات الإنسان ومشاعره ، ووجداناته ..فإذا عمى النظر أو زاغ ، عَمِيت تلك الملكات وزاغت المشاعر ، واضطربت الوجدانات ..

ومن جهة أخرى ، فقد اختلف النظم القرآنى فى الآيتين .. هكذا .

ـــ « ومنهم من يستمعون إليك » .

— « ومنهم من ينظر إليك » .

فجاء الاستماع مسنداً إلى الجمع ، على حين جاء النظر مسنداً إلى المفرد ..

وفى هذا إشارة إلى أن الذى يستخدم حاسة السمع لا بد أن يدانى الذى يتحدث إليه ، وأن يقترب منه بحيث يسمع ما يقول ..

أما الذى يستخدم حاسة النظر ، فقد ينظر من بعيد ، بحيث لا يظهر لمن ينظر إليه ..

وإذا كان النبي هو الذى يتلو القرآن على الناس ، ليبلّغهم ما أنزل إليه من ربه ، فإن ذلك من شأنه عادةً أن يكون بمحضر من أعداد كثيرة من المستمعين ، ولهذا جاء النظم القرآنى : « ومنهم من يستمعون إليك » .. محدِّثاً عن هذا العدد الكثير ، أو القليل ، الذى يستمع إلى النبيّ ..

وليس كذلك الحال فى مجال النظر إلى ما مع النبي من آيات ربه .. أو النظر إلى النبيّ ذاته ، فى أحواله ومسلكه فى الحياة ..

فإن النظر فى آيات الله ، هو نظر يستقل به المرء وحده ، ويُورِد عقلَه وقلبه على ما سمعه أو قرأه منها .. حتى يرى لنفسه الطريقَ الذى يأخذه مع تلك الآيات .. مصدقاً ، ومستجيباً ، أو مكذباً ، ومنابذاً .. وكذلك النظر فى أحوال النبيّ ، ودراسة شخصيته .. ولهذا جاء النظم القرآنى : « ومنهم من ينظر إليك » .. مشيراً إلى ما كان من بعض المشركين من نظر وتفكير ، فى آيات القرآن التى استمعوا إليها .. ولكنه نظر بعيون كليلة ، وتفكير بقلوب مريضة ، فلم تهتد إلى حق ، ولم تمسك بخير ..

— وفى قوله تعالى : مخاطباً النبيّ الكريم : « أفأنت تُسمع الصمّ ؟ » .. « أفأنت تهدى العمى ؟ » ـ فى هذا إشارة إلى أن المعتقد الدينيّ لا يقوم فى

النفس مقاماً ثابتاً ، ولا يقع فى القلب موقعاً مطمئناً ، إلا إذا تناوله الإنسان بنفسه ، ونظر فيه بعينه وقلبه ، ووزنه بعقله وإدراكه ، .. وهنا يكون الإيمان ويكون اليقين ، حيث اهتدى إليه الإنسان بمدركاته ، وجاء إليه بمحض إرادته فى غير قهر أو قسر..أما يَدُ القهر والقسر ، فإنها لن تثبّت ديناً ولن تقيم يقيناً .. إن ذلك أشبه بيد تدفع إلى معدة الإنسان مباشرة طعاماً من غير مضغ ولا بلع ! إنه طعام لا يفيد منه الجسمُ أبداً ، ولو كان جائعاً يطلبه ويشتهيه ، بل ربما قتل صاحبه ، أو أفسد نظام جسده ، ورماه بأكثر من داء . .

ولهذا ، فقد كان الإسلام صريحاً واضحاً ، بل صارماً ، فى هذا الموقف .. إنه يحرّم القهر والقسر فى كل شىء ، لأنه بغى وعدوان .. فإذا كان فى مجال العقيدة ، فهو أكثر من بغى وعدوان إنه عدوان وبغى يصيبان الإنسان فى مَقَاتِله !

وفى هذا يقول الله تعالى : « لا إكراه فى الدين » (٢٥٦ : البقرة) ويقول جل شأنه للنبى الكريم : « أفأنتَ تُكره الناسَ حتى يكونوا مؤمنين » (٩٩ : يونس) ..

وهذا هو بعينه ما جاء فى قوله تعالى : « أفأنت تُسمع الصمّ ولو كانوا لا يعقلون ؟ » . . . « أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون ؟ » .

* قوله تعالى : « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناسَ أنفسَهم يظلمون » ..

تشير الآية الكريمة إلى ما يَركب الناسَ من عناد وضلال ، وما يسوقهم إليه هذا الضلال والعناد ، من الكفر بالله ، والشرود عن الحق الذى جاءهم به رسله .. فإذا أخذهم الله بذنوبهم ، فذلك عدل منه سبحانه وتعالى ، فهو ــ سبحانه ــ إنما أذاقهم طعم ما غرسوا .. فإذا كان هذا الغرس الذى غرسوه

مّما لا تُسوغه أفواههم فتلك جنايتهم على أنفسهم .. « وما ظلمهم الله » ولكنّ الناسَ أنفسَهم يظلمون » أى وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين لأنفسهم ، إذ حادوا بها عن طريق الهدى ، وعدلوا بها عن شاطىء الأمن والسلام ، فأوردوها تلك الموارد المهلكة . .

الآيات : (٤٥ ـ ٥٢)

* « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُلْ لَآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ » (٥٢)

التفسير : غرور المشركين ، وأهل الضلال ، بهذه الحياة الدنيا ، وانخداعهم لها ، وطول أملهم فيها ، هو الذى أخلى قلوبهم وعقولهم من التفكير فيما وراء هذه الحياة ، فأذهبوا طيّباتهم فى هذه الحياة الدنيا وأفنوا أعمارهم فى الجرى اللاهث وراء متاعها وزخرفها ..

— وفى قوله تعالى : « ويوم يحشرهم كأن لم يَلْبَثوا إلاَّ ساعةً من النهار » إشارة إلى انكشاف أمر هذه الدنيا لأهلها ، حين ينفضّ جمعهم فيها ، وتنقضى آجالهم ، ثم يبعثون من قبورهم ، ويُحشرون إلى ربّهم .. هنالك يبدو أن ماقطعوه فى دنياهم من عمر ، وما ملكوه من سلطان ، وماجمعوه من مال ومتاع، لم يكن ذلك كله إلا كأحلام نائم ، « كأن لم يلبثوا إلا ساعةً من النهار .. يتعارفون بينَهم » يلتقى فيها بعضهم ببعض ، ويتحدث بعضهم إلى بعض .. ثم يتفرق جمعهم ، وينفضّ مجلسهم . .

كأن لم يكن بين الحَجون إلى الصَّفا أنيسٌ ولم يَسْمُر بمكّة سـامِرُ

هنالك ينكشف للضالين والبطلين ما كانوا فيه من باطل وضلال ، ومايَلْقون فى يوم جزائهم هذا من بلاء ونكال ..

ولو أنهم كانوا مؤمنين بالله ، وبلقاء الله لعملوا ليومهم هذا ، ولجعلوا سَعْيَهم قِسمةً بين دنياهم وآخرتهم .. ولكنهم أعطوْا دنياهم كلّ شىء ، ولم يجعلوا لآخرتهم أى شىء ، فلما جاء اليوم الذى تجد فيه كل نفس ماعملت من خير محضرًا ، وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ــ لما جاء هذا اليوم ، لم يجدوا غير الحسرة والندامة ، وغير البلاء والعذاب .

* قوله تعالى : « وإما نُرِيَنّك بَعْضَ الذى نَعدُهم أو نتوفينّكَ فإلينا مرجِعهم ثم الله شهيدٌ على مايفعلون » .

هذه الآية ــ إنباء بالغيب ، وإرهاص بالبلاء الذى سيحيط بأهل الشرك والضلال ، إنه ليس واقعاً بهم فى الآخرة وحسب ، بل إنه واقع بهم كذلك فى هذه الدنيا ، بما يلقوْن فيها من ذُلّ وخزى على يد المؤمنين ، يوم يجىء نصر الله وتغرب دولة الشرك ، ويقع المشركون ليد المؤمنين صَرْعى ، أو أسرى .. كما حدث ذلك يوم بدر ، وكما حدث يوم الفتح ، ويوم حنين ..

وهذا الذى سيراه النبى فى حياته مما يقع للمشركين من ذِلّة وهوان ، أو الذى سيقع لهم من ذلك بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ـ هو قليل إلى كثير مما أُعدّ لهم فى الآخرة من عذاب وهوان ، وأنه إن أفلت بعضهم فى هذه الدنيا ، ولم يعجّل له شىء من العقاب فيها ، فلن يُفلت من العقاب الراصد له يوم القيامة .. « فإلينا مرجعهم ثمّ الله شهيد على مايفعلون » .. لا يعزبُ عنه ـ سبحانه ـ ممّا عملوا شيئاً .. « ووجدوا ماعملوا حاضراً ولا يظلم ربّك أحدا » . (٤٩ : الكهف)

* قوله تعالى : « ولكلّ أمةٍ رسول فإذا جآء رَسُولُهم قضى بينهم بالقسط وهمْ لايُظْلمون » أى أن لكل أمة رسولاً منهم ، يبعثه الله فيهم ، لينذرهم ويبشرهم ، ويدلّهم على الطريق إلى الله ، وليقيمهم فى حياتهم على صراطٍ مستقيم .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « وإنْ من أمّةٍ إلاّ خَلاَ فيها نذير » (٢٤ : فاطر) . .

ــ وفى قوله تعالى : « فإذا جآء رسولهُم قُضى بينَهم بالقسط وهم لا يظلمون » إشارة إلى أن من رحمة الله بعباده ، أنْ أرسل إليهم الرسل ، مبشرين ومنذرين، حتى يقيم على النّاس الحجّة ويأخذ الظالمين منهم بما كسبوا ، فإذا بُعث فى أمةٍ رسول من الرّسل وَبلّغ رسالة ربّه إليهم ، فقد وجب عليهم الحساب ، وحُقّ عليهم الثواب والعقاب .. أما إذا لم يكن هناك رسول ولا رسالة ، فلاحسابَ ، ولا عقاب .. وهذا مايشير إليه قوله تبارك وتعالى : « وما كنّا معذّبين حتى نبعث رسولاً »(١٥ : الإسراء)

وهؤلاء المشركون ، قد جاءهم رسول من عند الله ، وبلّغهم رسالته المُرسَلُ بها إليهم من ربّهم . . فهم إذن مُحاسبون ـ منذ بلغتهم الرسالة ـ بما يعملون .. « وهم لايُظلمون » بل يُجزَوْن الجزاء المناسب لِما عملوا .. جزاء وِفاقاً . . كيلا بكيلٍ ، ومثقالاً بمثقال . .

* وقوله تعالى : « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » .. تلك هى قولة الكافرين والمشركين ، التى يلقون بها كل رسول يُرسَل إليهم من ربّهم ، وينذرهم لقاء يوم القيامة .. لاقولةَ لهم إلا تلك القولة المتهكمة المستهزئة : « متى هذا الوعد ؟ » أخبرونا به أيها المؤمنون بهذا اليوم « إن كنتم صادقين ! » .

وهكذا يُسَوّغ الضلالُ لأهله هذا المنطق السقيم .. فهل يستقيم لعقل عاقل أن يكون فى الإمكان علم هذا اليوم ، وكشف وقته الموقوت له ؟ وهل لوقيل لهؤلاء الضالين المكذبين إنه بعد كذا وكذا من السنين ، مئاتٍ أو ألوفاً ، أ كانوا من المصدقين به ؟ ألاَ يطالبون بدليل مادىٍّ محسوس عن هذا اليوم ، يرونه رأى العين ؟ وإن ذلك لن يكون إلا إذا وقع وكان . . فعلا ! . .

وهل ينفعهم إيمان أو عمل بعد أن يقع ويجىء ؟ « يوم يأتى بعضُ آياتِ ربِّك لاينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبلُ أو كسبت فى إيمانها خيراً » (١٥٨ : الأنعام) .

* قوله تعالى : « قل لآ أملكُ لنفسى ضرًّا ولانفعاً إلاَّ ماشآء الله لكلِّ أمةٍ أجلٌ إذا جآء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

إن أمرَ هذا اليوم لايعلمه إلا الله .. وهو سبحانه وحده الذى يملك الكشف عنه ، وليس للنبىّ ولا لغيره سلطان إلى جانب سلطان الله ، ولا تقدير مع تقديره ..

فالنبىّ ، لايملك لخاصّة نفسه شيئاً .. إنه لايستطيع أن يدفع عن نفسه ضرًّا ، أو يجلب لها خيراً إلا ماشاءالله وأراد له ، من دفع الضرّ عنه ، وجلب الخيرله .. فكيف يكون له سلطان فى مصائر النّاس ، ومقادير العباد ؟ « لكلِّ أمةٍ أجل » عند الله « إذا جآء أجلهم » التقوْا بهذا اليوم الموعود الذى يَسألون عنه الآن سؤالَ المنكِر : « متى هو ؟ » .. « فلايستأخرون ساعةً ولا يستقدمون »

بل يمضى فيهم قَدَرُ الله ، وتنفذ فيهم مشيئته فى الوقت المقدور ، إذ لامبدّل لكلماته ، ولا معوّق ولا معطلّ لمشيئته .. تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيراً .

— وفى قوله تعالى : « قل لا أملك لنفسى ضَرًّا ولا نفعاً » — فى هذا مايسأل عنه ، وهو : إذا كان الإنسان يملك النفع لنفسه ، بما يعمل فى سبيل مايعود بالنفع عليه والخير له .. فكيف يملك الضرّ لنفسه ، ويسوقه إليها ؟ وهل هذا مما يكون من إنسان ، فضلا عن النبى الكريم ؟

والجواب — والله أعلم — أن ذلك للدلالة على سلطان الله سبحانه وتعالى فى عباده ، وأنه ليس لأحد منهم شىء مع سلطان الله القائم عليه ، فى ذات نفسه ، حتى لو أراد — متعمداً — أن يسوق إلى نفسه شراً ، أو يُوردها مورد الهلاك ، فإن ذلك ليس إلى يده ، وإنّما هو لله سبحانه وتعالى ..

والضرّ لايتكلّف له الإنسان جَهْداً ، ولا يبذل له مالا ، وحسبه أن يقف موقفاً سلبيًّا من الحياة ، وعند ذلك يجد الضُّرّ يزحف عليه من كل جهة .. على خلاف النفع ، فإنه لايُحصّل إلا بجُهد ، ولا يُنال إلا ببذل وعمل .. ومن هنا كان عجز الإنسان عن أن يملك لنفسه ضُرًّا — أبلغَ وأظهر فى الدلالة على ضعف الإنسان وعجزه ، وأنه إذا عجز عن أن يملك لنفسه ضرًّا ، فإنه أعجز من أن يملك لها نفعاً ..

* قوله تعالى : قل أرأيتم إن أتاكم عذابُه بياتاً أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون » .

الضمير فى قوله تعالى : « عذابُه » يعود إلى « الوعد » فى قوله تعالى : « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » وهو يوم القيامة . الذى يَسأل عنه المجرمون هذا السؤال الإنكارى : متى هو ؟ . حتى لكأنهم قد عملوا له ، واستعدّوا للقائه ، فاستعجلوا الجزاء الحسن الذى ينتظرهم فيه ! !

— وفى قوله تعالى : « بياتاً أو نهاراً » إشارة إلى أن هذا اليوم لا يأتى على موعد معلوم للناس ، بل إنه سيأتيهم فجأةً ، وعلى حين غفلة .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « يسألونك عن الساعة أيّانَ مُرساها . . قل إنما علمها عند ربّى . . لا يُجلّيها لوقتهــا إلا هو ثَقُلت فى السموات والأرض . . لا تأتيــكم إلا بغتةً » (١٨٧ : الأعراف) .

— وفى قوله سبحانه : « ماذا يستعجلُ منه المجرمون » إشارة إلى أن هذا اليوم هو بلاء وويل للمشركين والضالين . . وكل ما فيه هو شرٌّ واقع بهم . . فماذا يستعجلون من هذا الشرّ ، وذلك العذاب ؟ إن المجرم لا يستعجل قطف ثمار ما زرع من شرٍّ ، ولــكن هؤلاء المجرمين .. حمقى جهلاء ، لا يدرون ماهو واقع بهم فى هذا اليوم العصيب ، فهم لذلك يستعجلونه استعجالَ الجزاء الحسن المحبوب.

* قوله تعالى : «أَثُمَّ إذا ما وقع آمنتم به ؟ آلآن وقد كنتم به تستعجلون ؟» .

« أثمّ » الهمزة للاستفهام ، وثمّ حرف عطف ، عَطَف ما بعده على كلام سابق محذوفٍ ، تقديره : أتستعجلون هذا اليوم ، ثم إذا ما وقع آمنتم به ؟ إن ذلك الإيمان لا ينفعكم شيئاً ، ولا يدفع عنكم عذاب الله الواقع بكم . . فهلاّ آمنتم به الآن فى هذا الوقت، وأنتم فى سعةٍ من أمركم ، قبل أن يلقاكم هذا اليوم ، وينزل بكم فيه البلاء ، ويحلّ عليــكم العذاب ؟

— وفى قوله تعالى : « آلآن وقد كنتم به تستعجلون » استفهام إنــكارىّ لإيمانهم بهذا اليوم ، يوم يقع بهم . وقد كانوا فى دنياهم ينكرونه ، ويبالغون فى إنــكاره ، ويستعجلون مجيئه ، إمعاناً فى الإنــكار والاستهزاء ، بقولهم : « متى هو ؟ » .

و « آلْآن » أصله « الآن » أى الحالَ والوقتَ ، ثم دخلت عليه همزة الاستفهام .فصار «أألْآن » ثم صارت الهمزتان همزة مدّ ، أى: آلْآن تؤمنون به بعد أن وقع ؟.

* قوله تعالى : « ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد . . هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون » .

العطف بثُمّ هنا . يدلّ على محذوف ، تحدّث به الحال .. وهو أن المجرمين ، بعد أن التقوْا بهذا اليوم الذى كانوا يكذبون به ، قدِّموا للحساب ، وقدّمت لهم آثامهم التى اقترفوها فى دنياهم ، فعرفوا ما كانوا فيه من ضلال ، ورأوا المصير الذى هم صائرون إليه .. فسِيقوا إلى جهنم ، ثم قيل لهم « ذوقوا عذاب الخلد » . .

— وفى قوله تعالى : « هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون » .. وجهان :

الوجه الأول : أن يكون استفهاما مراداً به التقرير كما فى قوله تعالى : « هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا » ، وتكون « إلاّ » بمعنى غير .. أى : هل تجزون غير ما كان لكم من عمل ؟.

لقد عملتم السوء فكان جزاؤكم سوءًا ..

والوجه الثانى : أن يكون استفهاماً مراداً به الخبر ، وتكون « هل » بمعنى « ما » النافية .. والتقدير :

ما تجزون إلاّ بما كنتم تكسبون.

وعلى كلا الوجهين ، فهو تَخْسٌ لهؤلاء المجرمين ، وعذاب يضاف إلى عذابهم ، حيث يُسقوْن كؤوس البؤس والعذاب ، محولة إليهم بهذا التقريع والتسفيه . .

الآيات : (٥٣ — ٥٦)

* « وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (٥٦)

التفسير : الاستنباء : طلب النبأ ، وهو الإخبار بأمر غائب . .

إى : أداة جواب بمعنى : نعم . .

يطلب المشركون من النبىّ أخباراً عن هذا اليوم ، يوم القيامة ، وما يلقَى الناس فيه ، وما أعدّ الله للأخيار منهم من ثواب ، وما رصد للأشرار من عقاب .. فإذا تحدث النبىّ إليهم بشىء من هذا ، عقّبوا على ذلك مستهزئين ساخرين ـ بقولهم : « أحقٌّ هوَ » ؟ أى أهذا الذى تحدّث به هو حق وجِدّ ؟ أم أنك تكذب وتهزل ؟ إنهم لا يصدقون بهذا اليوم ، ومع هذا فهم يستنبئون عن أخباره . متى هو ؟ وأين هو ؟ وكيف هو ؟ وذلك كله على سبيل الاستهزاء والسخرية .

ـ وفى قوله تعالى : « قل إى وربىّ إنه لحق .. وما أنتم بمعجزين » ردّ على هؤلاء المشركين المكذبين ، وقد أمر الله سبحانه النبىّ الكريم أن يلقى المكذبين بهذا الردّ المؤكد بالقسم ، وبحرف التوكيد « إنّ » وبلام الابتداء « لحق » ، وذلك فى مقابل إنكارهم ، وغفلتهم عن هذا اليوم ..

ثم جاء بعد هذا قوله تعالى : « وما أنتم بمعجزين » ليؤكد هذا الأمر ويقرره ، وهو أن هذا اليوم واقع لا شك فيه ، وأن المشركين لن يفلتوا من العقاب الراصد لهم فيه .. لأنهم لن يُعجِزوا الله ، ولن يجدوا لهم مهرباً .

* قوله تعالى : « ولو أن لكل نفسٍ ظلمت ما فى الأرض لافتدت به .. وأسرُّوا الندامة لمّا رأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » ..

هو عرض لما يلقى الظالمون يوم القيامة من بلاء ، وما يُساق إليهم فيه من ألوان العذاب والنكال .. وأنه لو كان للظالم كل ما فى الأرض من متاع ، وكل ما يملك الناس فيها من مال وسلطان ، لقدّمه فِديةً يفتدى به نفسه من عذاب هذا اليوم ، ويَخلُصُ من أهواله ، ولهان عليه أن يتجرد من كل شىء ، وأن يخرج عُرياناً من كل هذا السلطان العريض الذى ملك به الأرض كلها ، والذى كان يبيع نفسه فى الدنيا لِقاء كومة من فضة ، أو حفنة من ذهب .. !

ـ وفى قوله تعالى : « وأسروا الندامة لما رأوا العذاب » إشارة إلى هَوْل هذا العذاب ، الذى عند رؤيته تنخلع القلوب ، وتجمد المشاعر ، وتسكن الجوارح ، وتخرس الألسنة .. فلا يجد أحدٌ فى مواجهة هذا العذاب قدرة على أن يفتح فما ، أو يحرك لساناً ، وإنما هو الكمد والحسرة يملآن كيان الإنسان ، ويأخذان السبيل على كل خالجة وجارحة فيه ! .. فكيف إذا ألقى فيه المجرمون ، وصاروا وقودَ اله ..

وهذا العذاب الذى ينزل بالظالمين ، ليس إلاَّ مما قدمته أيديهم لهم ، وإن الناظر إليهم وهم يقلّبون فى النار ، ليخيل إليه من شدة ما هم فيه من بلاء أنهم مظلومون ، وأنه ليست هناك جريمة مهما عظمت ، يستحق عليها مرتكبها هذا العذاب ، الذى لم تره عين ، ولم يتصوره خاطر .. ومع هذا ، فإن ما وقع

بهم من بلاء ، إنما هو الجزاء العادل لما اجترحوا من سيئات ، وَما اقترفوا من آثام ..

ـ وفى قوله تعالى : « وَقُضِى بينهم بالقسط وَهم لا يُظلمون » دفعٌ لهذا الوهم ، وَتقرير لتلك الحقيقة ، وَهى أن ما يلقاه هؤلاء الظالمون ، هو الجزاء العدل لجريمتهم ، وأن الحكم الذى حُكم عليهم به ، هو حكم قائم على ميزان القسط والحق .. إنهم لم يُظلَموُا فيما نزل بهم ، ولا يُظلمون فيما سينزل بهم من صور العذاب ، بعد هذا العذاب الذى هم فيه . .

* قوله تعالى : « ألا إن لله مافى السموات والأرض ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون » . .

هو توكيد لقدرة الله ، وتقرير لحقيقة البعث والحساب والجزاء .. وَأن الذى له ملك السموات والأرض ، لا يُعجزه أن يتصرف فيهما كيف يشاء ، وأن يَبْعث الناس بعد موتهم .. فهو ـ سبحانه ـ الذى خلقهم،وهو ـ سبحانه ـ الذى أماتهم ، وهو ـ سبحانه ـ الذى يبعثهم بعد موتهم . « ألَا له الخلق والأمر . تبارك الله ربّ العالمين » (٥٤ : الأعراف) .

ولكن أكثر النّاس لا يعلمون هذه الحقيقة عن الله سبحانه وتعالى ، ولا عن قدرته ، وحكمته ، فتتفرق بهم السبل ، ويَعمَوْن عن الطريق إلى الله ، فلا يتعرفون إليه ، ولا يؤمنون به .

* قوله تعالى : « هو يحيى ويميت وإليه ترجعون » . ذلك هو من بعض ما لِله فى مُلكه . . هو الذى يحيى ، وهو الذى يميت ، وهو الذى يبعث الموتى من قبورهم ، فيرجعون إلى ربهم ، ويُجزَوْن على ما كان لهم من عمل فى الدنيا . .

الآيات : (٥٧ — ٦٠)

* « يَٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ » (٦٠)

التفسير :

* قوله تعالى : « يٰأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » .

من تدبير القرآن الكريم في عرض الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، أنه لا يأخذ في دعوته تلك بالأسلوب التقريري الإلزامي ، بل يقيم بين يدى ذلك الأسلوب ، ومن خلفه ـ مشاهدَ من قدرة الله ، وعلمه ، وحكمته ، هي مناط هذا الأسلوب التقريري ، ووجه البرهان عليه ، وهي قوة الإلزام فيه . . وبهذا لا يجد العاقل إلا التسليمَ له والأخذ به . . وكذلك الشأن في كل قضية من قضايا الدعوة الإسلامية ، ومنها قضية البعث والقيامة ، والحساب والجزاء . . فهو إذ يقرر حقيقة البعث والجزاء ، يُرِى الناس وهم أحياء ، شواهد منها ، ويقيم بين أيديهم أدلة عليها ، حتى لكأنها واقعة فعلا ، ، ثم من خلال هذا الشعور . ينقلهم ـ في حلم كأحلام اليقظة ـ إلى يوم القيامة ، ويقيم لهم موازين الحساب والجزاء ، ويفتح للمؤمنين منهم أبواب الجنة ، وما يلقون فيها من نعيم ، ويفتح

للعصاة الظالمين أبواب الجحيم ، يتقلبون على جمرها ، ويشربون من حميمها وغَسّاقها . . ثم لا يلبث أن يوقظهم من أحلامهم تلك ـ المسعدة أو المزعجة ـ ليلقاهم بالدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر . . لتجد تلك الدعوة جواباً حاضراً لمن انتفع بهذه التجربة ، وأخذ منها موعظة وذكرى . . وهكذا ، يسير القرآن على هذا الأسلوب ، التقريرى التجريبى ، مع تنويع العرض ، وتجديد المشاهد ، واختلاف الألوان وَالظلال . . حتى لا يجد المرء سبيلا للفِرار من قبول هذا الحكم ، أو حجة لدفعه وإنكاره . .

وفى هذه الآية ، مواجهة للناس جميعاً ، بعد تلك الرحلة التى أشرفوا فيها على مشارف القيامة ، ورأوا ماراوه من أهوالها ، وما يلقى الظالمون فيها من بلاء وهوان . .

وهاهم أولاء يُدعَوْن إلى ماينجيهم من هذا البلاء ، ويدفع عنهم شر ذلك اليوم وويلاته . .فيقول سبحانه :

« يٰأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » .

والموعظة والشفاء والرحمة ، هى فى هذا القرآن الكريم ، وعلى يد هذا الرسول الكريم ، الذى يحمل إليهم هذا القرآن ، ويبشرهم وينذرهم به . .

وفى القرآن العبرة والموعظة ، بما يعرض من دلائل قدرة الله ، وما يكشف من آثار رحمته . .

وفى القرآن الشفاء لما فى الصدور من عمًى وضلال ، وذلك لِما فى آياته من أضواء المعرفة التى تهدى الضالين ، وترشد الحائرين ، وتكشف للناس جميعاً الطريق إلى الله وتدلهم عليه . .

وفى القرآن الهدى والرحمة ، لمن عرف الله وآمن به ، حيث ينزل منازل المكرَمين عند الله ، وينال ما ينالون من فواضل رحمته ، وسوابغ إحسانه ورضوانه .

* قوله تعالى: «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ».

ذلك أنه إذا عرف الإنسان كيف يفيد من هذه الموعظة ، ويتعرف إلى الله ، ويبتغى مرضاته ، فقد جمع الخير كله إلى يديه ، وحُق له أن يغتبط ويهنأ . . ولا عليه إذا فاته كل شيء ، إذا هو ظفر بهذا الذى ظفر به ! وهو مانا له من فضل الله ورحمته ، إذ هداه إلى الإيمان به ، والعمل لطاعته .

* قوله تعالى : « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون » . .

هو حديث إلى هؤلاء الذين لم يأخذوا حظهم من تلك النعمة ، ولم ينالوا نصيبهم من هذا الرزق الطيب الكريم ، فكفروا بآيات الله ، ونظروا إليها نظراً زائغاً منحرفاً . . وليس هذا شأنهم مع القرآن الكريم ، وما تحمل آياته إليهم من هدى ورحمة ، بل ذلك هو شأنهم مع كل نعمة من نعم الله ، حيث يغيّرون وجهها ، ويحرمون أنفسهم خيرَها . .

فهذه الأنعام ، مثلا ، قد جعلها الله رزقاً حلالا خالصاً لهم ، ولكنهم ـ عن سفاهة وجهل ـ قد حرّموا بعضها وأحلّوا بعضها ، لا لعلة واضحة ، ولا لحكمة ظاهرة ، وإنما هى ضلالات وحماقات ، أرتهم فيها تلك الآراء الفاسدة . . وفى هذا يقول الله تبارك وتعالى فيهم :

« وقالوا هذه أنعام وحرث حِجْر لا يَطْعَمُها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما

كانوا يفترون . وقالوا ما فى بطون هـذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا ومحرَّم على أزواجنا وإن يكن ميتةً فهم فيـه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حـكيم عليم » (١٣٨ — ١٣٩ : الأنعام) .

وهكذا يفعل الضلال بأهله ، حتى فى الخير المـادىّ الذى بين أيديهم ، وعلى أفواههم . . فـكيف بهؤلاء الضالين مع هذا الخير الموعود الذى يدعوهم القرآن الـكريم إليه ، ويبشرهم به ؟ إنهم فى هذا لأكثر ضلالاً معه ، وأبعد بُعداً عن الانتفاع به ! وإنهم إذا كانوا قد افتروْا على هـذه الأنعام تلك المفتريات التى تحرمهم الخير المتاح لهم منها ، فلا يُستغرب منهم أن يفتروا على الله هذه الآلهة التى يعبدونها من دونه ، ويَحرموا أنفسهم رحمتَه ورضوانه ! والله سبحانه وتعالى يقول: «ألم تَرَ إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البَوَار * جهنّمَ يَصْلونها وبئس القرار » (٢٨ — ٢٩ : إبراهيم) .

* قوله تعالى : « وما ظَنُّ الذينَ يفترون عَلَى اللهِ الـكذبَ يوم القيامة ؟ إن الله لذو فضلٍ على النّاسِ ولـكنّ أكثرَهُم لا يشـكرون » . .

فهؤلاء الذين افتروا على الله الـكذب ، وبدّلوا نعمته كفراً ـ ما ظنّهم بيوم القيامة وما يلقوْن فيه ؟ ألاَ يكون لمـا افتروْه عقابٌ ؟ ثم ألا يكون هذا العقابُ عذاباً ونـكالاً ، كما كان افتراؤهم جُرْماً غليظاً ، وضلالاً بعيداً ؟ .

ونَعمْ ، إن الله لذو فضل على الناس . . ومن فضله عليهم أن أسبغ عليهم نِعمه ظاهرة وباطنة ، وبعث فيهم رُسله ، بالهدى والرحمة . . ولـكنّ كثيراً منهم كفر بتلك النعم ، وأبى أن يستجيب لرسل الله ، وأن يأخذ بحظه من هدى الله ورحمته . . فهل ينتظر هؤلاء الـكافرون بنعم الله ، الجاحدون لفضله ، غيرَ ما هم أهل له ، من سوء الجزاء ، وأليم العذاب ؟ .

الآيات : (٦١ — ٦٤)

* « وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١) أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » (٦٤)

التفسير : * « وما تكونُ فى شأنٍ وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عملٍ إلا كنّا عليكم شهوداً إذ تُفيضون فيه وما يَعْزُبُ عن ربِّك من مثقالِ ذرّةٍ فى الأرضِ ولا فى السّماءِ ولا أصغَرَ من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » .

الشأن : الحال المتلبسة بالإنسان ، وهو يعالج أمراً من الأمور .

تفيضون فيه : أى تتداولونه بينكم ، ويأخذ كلٌّ منكم بطرَفٍ منه ، فيكثر الحديث ويفيض .

يعزب : يغيب ، ويبعد .

فى هذه الآية : عرض لبعض سلطان الله ، ونفاذ قدرته وعلمه . . وأنه — سبحانه — محيط بكل شىء علماً . . وأن ما يقع من الضالين والمكذبين ، هو فى علم الله ، يحصيه عليهم ، ويجزيهم بما هم أهل له من بلاء ونكال .

وقد بدأت الآية بخطاب النبىّ صلوات الله وسلامه عليه : « وما تكون فى شأنٍ وما تتلو منه من قرآن » . . أى أنه صلوات الله وسلامه عليه ، وما يعمل

من عمل ، مُراقب من الله ، ومسجل عليه كلّ ما يعمل ، سواء أكان هذا العمل فى شأن من شئونه الخاصة ، أو فى مجال الرسالة المبعوث بها ، كتلاوة القرآن على الناس ، وإسماعهم كلمات الله المنزلة عليه . .

وذلك ، حتى لا يظن المشركون والكافرون أنهم وحدهم هم الذين تُحصَى عليهم أعمالهم . . بل الله سبحانه وتعالى مطلع على الناس جميعاً ، وعالم بكل ما يعملون من خير أو شر .

وفى ذكر القرآن وتلاوة النبي له ، إشارة إلى أنه الشأن الغالب على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن القرآن وتلاوة القرآن هو شغله وعمله ، أما المشركون والضالون ، فلهم شغل ولهم عمل ، ولكنه شُغُلٌ فى ضلال ، وعمل فى باطل .

ـ وفى قوله تعالى : « ولا تعملون من عمل إلا كنّا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه » هو تعميم بعد تخصيص . . إذ ليس النبيّ وحده هو الذى يَرْقب الله تعالى أعمالَه ، بل الناس جميعاً مراقبون ، لا يغيب من عملهم شىء عن علم الله . .

ـ وفى قوله تعالى . « وما يعزُب عن ربّك من مثقال ذرَّةٍ فى الأرض ولا فى السّماءِ ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » ـ هو إشارة إلى أن علم الله محيط بكل شىء ، فليست هناك « مثقال ذرة » أى قدر ذرة ووزنها وثقلها ـ وهى ما هى فى الصغر ـ سواء أكانت فى الأرض أو فى السماء ، وسواء أكان ما هو أصغر من الذرة أو أكبر منها ـ إلا وهى فى كتاب مبين عند الله .. قد علمها وأحصاها . .

وفى تسلّط النفى فى قوله تعالى : « وما يعزُب عن ربّك » على « إلّا » فى قوله سبحانه : « إلا فى كتاب مبين » فى هذا ما يفيد أن معنى يَعزُب،

هو يغيب أو يبعد ، وبهذا يمكن الجمع بين « ما النافية ، و « إلا » ويكون المعنى هكذا : ـ وما يغيب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ إلا فى كتاب مبين ـ .

والسؤال هنا : كيف يغيب أو يبعد عن الله شىء ؟

والجواب : أن هذا الغائب البعيد ، هو بالإضافة إلينا ، بمعنى أن مايقع فى وهْم الواهمين ، وتصور المتصورين، أنه بعيد فى أغوار الأرض ، أو فى أعماق أنفسنا ، هو بعيد عن الله ـ فذلك تصور خاطىء ، وفهم فاسد ، لأنه فى كتاب مبين عند الله ، وهذا يعنى أنه وقع فى علم الله أولا ، ثم أُودع فى هذا الكتاب المبين عند الله ، ثانياً .. فهو واقع فى علم الله ، ومسجَّل فى كتاب عند الله .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين » (٧٥ : النمل) .

* قوله تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم » .

أولياء الله : هم الذين يجعلون ولاءهم لله وحده ، فهم أولياء الله ، والله سبحانه وتعالى وليّهم .. وقد بينهم الله سبحانه فى قوله : «الذين آمنوا وكانوا يتقون» .. فلا وَلاية بغير الإيمان بالله .. إذ الولاء حب ، وطاعة ، وعبادة .. ولا حب إلا بعد معرفة ، ثم إيمان .. ثم طاعة وعبادة .

ولا تتحقق الوَلاية لله إلا بمراقبته ، واتقاء محارمه ، والتوكل عليه ، والرجاء فيه ، وقطع كل رغبة فيما سواه .. وذلك هو الذى يحقق التقوى ، التى هى ثمرة

الأعمال الصالحة .. فهؤلاء الأولياء هم الذين تعلقوا بالله ، فجذبهم الله إليه ، وأنزلهم منازل رحمته ورضوانه .. فأمِنوا فى جنابه من كل خوف على متوقع ، أو حزن على فائت « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .. فمن اتخذ اللهَ ولياً له ، اتخذه اللهُ ولياً ، ومن أحب الله أحبه الله ، كما فى قوله تعالى : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » (٥٤ : المائدة) .. ومن أحبه الله فلا تسأل عما هو فيه من غبطة وسرور ، مما يتنزل عليه من ربه من سكينة ، وما يفاض عليه من نفحات وبركات ..

يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه البخارى : « ما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يُبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ، وإن استعاذنى لأُعيذنّه » .

فالطاعات ، والمداومة عليها ، هى التى تقرب العبد من ربه ، فإذا قرب منه كان فى جناب حماه ، وعلى بساط رحمته ، لا يخاف إذا خاف الناس ، ولا يجزع إذا جزع الناس . ولا يبيت على همّ إذا بات الناس على هموم: « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم و لا هم يحزنون » .

وفى تعدية الخوف بحرف الجر (على) ، إشارة إلى أن الخوف إنما يكون من توقعات المستقبل ، فهو مقبل لا مدبر .. ويكون المعنى لا خوف مقبل عليهم ..

وفى التعبير عن الإيمان بالماضى « الذين آمنوا » وعن التقوى بالمستقبل « وكانوا يتقون » ــ إشارة إلى أن الإيمان يسبق التقوى ، التى تقوم على اتقاء محارم الله ، لأن هذا الاتقاء هو من معطيات الإيمان بالله ..

وقد دخل فعل التقوى فى حيز الفعل الماضى « كان » .. « وكانوا يتقون » فكانت التقوى أيضاً مما حدث من هؤلاء المتقين ، كما حدث منهم الإيمان من قبل ، وإلا ما استحقوا صفة الأولياء ، أولياء الله .. فالإيمان ، ثم التقوى ، ثم الولاية ، يجىء بعضها إثرَ بعض ، على هذا الترتيب .. فلا وَلاية بغير التقوى ، ولا تقوى إلا بعد الإيمان — وفى قوله تعالى : « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم » .. بيان لتلك المنن العظيمة التى امتن الله بها على أوليائه — جعلنا الله منهم — فجعل البشريات المسعدة برضا الله ورضوانه ، تتنزل عليهم ، بما يكشف لهم منازلهم عند الله ، وما سيلقون فى نعيم جناته ، من كرامة وتكريم .

والبشريات التى يُبشَّر بها أولياء الله فى الدنيا ، كثيرة ، منها ذِكرهم فى الناس ، بالكلمة الطيبة تقال فيهم ، لحسن سيرتهم ، واستقامة طريقهم ، وحفظ جوارحهم من المحارم والمظالم .. إذ لا شك أن رضا الناس عن إنسان ، وحسن ظنهم به ، هو دليل على أنه من أهل الخير والتوفيق ، وأنه على طريق الاستقامة والتقوى .. ومنها ما يملأ الله به قلوبهم من رضا وسكينة ، فى السراء والضراء على السواء .. بل إن كثيراً منهم ليجد فيما يبتليه الله به من ضر ، هو أمانة عنده لله ، وأن أداء هذه الأمانة لله هو الصبر عليها ، والرضا بها ، وأن الضجر بالبلاء ، والجزع منه ، هو خيانة لتلك الأمانة .

روى أن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه .. كُفّ بصره فى آخر حياته ، وكان مستجاب الدعوة ، فقيل له : ادع الله وأنت مستجاب الدعوة عنده أن يرد عليك بصرك ؟ فأبى أن يدعو الله بردّ بصره إليه .. ولو دعا لاستجاب الله

له ، ولكنه وجد فى هذا العمى مشيئة الله فيه ، وفى الدعاء بدفع هذا العمى عدم استسلام لهذه المشيئة ، وعدم رضًا بها ! ! وهكذا أولياء الله . . « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

ومن البشريات التى يُبشَّر بها أولياء الله فى الدنيا ، أنهم حين يشرفون على الموت ، لا يجدون له ما يجد غيرهم من كرب وجزع . بل يستقبلونه فى غبطة ورضا ، وذلك لما يرون فى ساعة الاحتضار مما لهم عند الله من فضل وإحسان . . وهذا ما يشهد له قوله سبحانه وتعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون » (٣٠ — ٣١) فصلت .

وأما بُشْرَيات أولياء الله فى الآخرة ، فكثيرة ، تبدأ من مغادرتهم هذه الدنيا ، إلى يوم القيامة ، وما بعد يوم القيامة ، وهم فى روضات الجنات يُحبرون . . ففى كل مرحلة من مراحل هذه الرحلة المسعدة ، تطلع عليهم البشريات التى تزفّهم إلى الجنة ، كما تُزَف العروس فى موكب من الفرح والبهجة . . وفى هذا يقول الله تبارك وتعالى : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورُهم بين أيديهم وبأيْمانهم بشراكم اليوم جناتٌ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم » (١٢ : الحديد) .

الآيات : (٦٥ — ٧٠)

« وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ * إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦٥) أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦)

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » (٧٠)

التفسير :

مناسبة هذه الآيات لماقبلها ، أن الآيات السابقة عليها قد ذكرت أولياء الله ، وما أعدّ لهم ربهم من ثواب كريم ، وأجر عظيم .

وهذه الآيات تعرض أعداء الله ، والمطرودين من رحمته ، وهم الذين أشركوا بالله ، واتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم من دونه .

* وقوله تعالى : « ولا يحزنك قولهم » هو عزاء للنبي الكريم ، مما يلقى من قومه من ضُرّ وأذى . . وإن أشد ما كان يؤذى النبيّ ويسوؤه ، هو خلافُ قومه عليه ، وتنكّبهم عن طريق الحق الذى يدعوهم إليه ، وتخبطهم فى ظلمات الضلال والشرك . . فهو رءوف بهم ، رحيم عليهم ، حريص على هدايتهم ، كما يقول الله سبحانه وتعالى فيه : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعَنِتّم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » . (١٢٨ : التوبة)

ولهذا ، فقد كانت آيات القرآن الكريم تتنزل عليه من ربه ، تواسيه وتخفف ما به من حزن وألم . . كقوله تعالى : « فلا تَذهَبْ نفسُك عليهم

حسرات » (٨ : فاطر). وقوله سبحانه : « إنك لا تهدى من أحببتَ ولـكن الله يهدى من يشاء » (٥٦ : القصص) . . وقوله : « لعلك باخع نفسك ألاّ يكونوا مؤمنين » (٣ : الشعراء) .

— فقوله تعالى : « ولا يحزنك قولهم » هو مما كان ينزل على النبى من آيات ربه ، من عزاء ومواساة ، لمـا كان يلقى من قومه من عَنَت وعناد ، ولما كان يقع فى نفسه من حزن عليهم أن يُحرموا هذا الخير الذى ساقه الله سبحانه وتعالى على يديه إليهم .

والقول الذى كان يُحزن النبى ، هو شركهم بالله . . وقولهم : « اتخذ الله ولداً » كما سيجىء فى الآية الـكريمة بعد هذا .

— وقوله تعالى : « إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم » هو تثبيت للنبى ، وطمأنينة لقلبه ، وأن خلاف قومه عليه لا يضره ، لأنه مؤيد من ربه ، رب العزة التى تَذِلّ لها الجبابرة ، فالعزة كلها لله ، وما سواه ذليل مَهين .

وهو سبحانه « سميع » لما يقول هؤلاء المشركون فى الله من زور وبهتان . « عليم » بما تموج به صدورهم من شرك وضلال . وسيجزيهم بما كسبوا .

* وقوله تعالى : « ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » .

الخرص : خرص الشىء تقديره جُزافاً ، بالظن والتخمين ، كمن ينظر إلى شىء فيقدر كيله أو وزنه بالنظر إليه دون معيار .

والآية الـكريمة تعرض بعض مظاهر سلطان الله وقدرته ، وأنه ـ سبحانه ـ له ملك السموات والأرض ومن فيهن . فهو وحده الجدير بأن يمجَّد ويُعبد .

وأما الذين يتبعهم المشركون ويدعونهم آلهة من دون الله ويجعلونهم شركاء له ـ فإنما هم من واردات باطلهم وضلالهم ، ومن مواليد ظنونهم وأوهامهم . « إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » . فهذا المعتقد الذى يعتقدونه فى معبوداتهم ، وتلك المشاعر التى تشدّهم إليها إنما هى مما يولّده الجهل ويصوره الضلال .

* قوله تعالى : « هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » .

وذلك أيضاً هو بعض مظاهر قدرة الله ، وآثار رحمته فى عباده ، وليس لِما يعبد المشركون من آلهة صورتها لهم الظنون والأوهام ـ شىء من هذا الذى خلق الله ، وما أفاض على عباده من نِعم .

فهو ـ سبحانه ـ الذى جعل الليل سكناً ، يلبس الكائنات الحية ، ويهيىء لها فرصة للراحة من سعيها فى النهار ، حتى تجدد نشاطها ، وتستعيد قوتها ، لتستقبل السعى والعمل فى يوم جديد ، بنشاط متجدد .

ـــ وفى قوله تعالى « والنهار مبصراً » إشارة إلى أن ضوء النهار ، هو الذى يعطى العيون قدرتها على الإبصار .. ولولا هذا الضوء لما كانت العيون مبصرة ، فهو إذن المبصر ، لا العيون ، لأنه هو سبب أول ، وهى سبب ثان . . ولهذا فهو أولى بالذكر منها فى هذا المقام .

ومن جهة أخرى فإن الضوء هو الذى ينتقل إلى حدقة العين ، ويقع عليها ، حاملا معه صورة المرئيات إليها .. تماماً كما تقع المرئيات على المرايا .

وإذن فالنهار ـ أى الضوء ـ هو المبصر ، لأنه هو الذى يبصر المرئيات

قبل العين ، ثم ينقلها إليها . . فهو العين التى تكشف هذا الوجود للعيون أولا ، ثم تنقله إليها ثانياً . وفى هذا ما يكشف عن بعض قدرة الله كما ينطق بإعجاز كلماته .

— وفى قوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » إلفات إلى تلك الظواهر المتجلّية من قدرة الله سبحانه . . وأنها آيات دالّة على قدرة الله ، وعلى تفرده بالوجود . . وأنه لن يرى هذه الآيات ، ولن يتعرف على ما فيها من دلائل على قدرة الله ، إلا من ألقى سمعه إلى كلمات الله ، ووعَى ما تلفته إليه من آيات الله المبثوثة فى هذا الكون الرحيب . . وهذا بعض السرّ فى أن جاءت فاصلة الآية : « لقوم يسمعون » بدلا مما يقتضيه ظاهر النظم ، وهو أن تكون الفاصلة هكذا : « لقوم يبصرون » وذلك أن كلمات الله ، إنما يتلقاها المتلقون عن طريق السّمع ، وأن هذه الآيات هى : التى إذا صادفت أذناً واعية ، كشفت الطريق إلى الله .

* قوله تعالى : « قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغَنِىُّ له ما فى السموات وما فى الأرض إنْ عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون » .

هذا هو ما يقوله المشركون عن الله : « اتخذ الله ولداً » . . وهو الذى أشار إليه قوله تعالى : « ولا يحزنْك قولُهمْ » . . وكأنه بهذا إجابة عن سؤال أو تساؤل هو : ما هذا القول الذى يقوله المشركون فيَحْزُن النبىّ ؟ فكان الجواب : « قالوا اتخذ الله ولداً »

وقد تأخر الجواب عن هذا السؤال ، فجاء بعد تلك الآيات التى عرضت بعض مظاهر قدرة الله ، وأنه سبحانه له العزة جميعاً ، وأنه جل شأنه ، له ملك السموات والأرض ومن فيهن ، وأنه سبحانه هو الذى أقام هذا الوجود على ذلك النظام المحكم البديع ، فجعل الليل سكناً ، وجعل النهار مبصراً . .

وكان هذا العرضُ هو الرد الذى سبق هذه الدعوى الباطلة ليدحضها قبل أن تتلفظ بها الأفواه ، وليقتلها فى مهدها قبل أن ترى وجه الحياة .

وهكذا الباطل . . إنه شىء منكر ، يجب أن يموت بين يدى أهله ، حتى لا يقع المكروه منه على أحد غيرهم . . وإن من الحكمة أن يدفع الشر قبل وقوعه ، فذلك أهون وأيسر ، فى الخلاص من بلواه . . فإذا وقع كان منكرا ، يجب على المؤمنين دفعه بكل قوة ممكنة لديهم . .

— وفى قوله تعالى : « سبحانه » تنزيه لله ، وتمجيد له ، واستبعاد لأن يكون له صاحبة أو ولد . . إذ لا يطلب المرء الصاحبَ أو الولد إلا ليكمل نقصاً فيه ، والله سبحانه وتعالى ، هو الكمال المطلق . . فكيف يكون له ولد ، أو تكون له صاحبه ؟ « هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض » . . « إنْ كل من فى السموات والأرض إلاّ آتِى الرحْمٰنِ عبدا » .

وفى قوله تعالى : « إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون » ؟

يجوز أن يكون ذلك على سبيل الاستفهام الإنكارى ، والتقدير : أأن عندكم من سلطان بهذا ؟ أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟

ويجوز أن يكون أسلوباً خبريا وتكون « إن » نافية ، والتقدير : ما عندكم من سلطان بهذا ، أتقولون على الله ما لا تعلمون .

والمراد بالسلطان هنا : الحجة والبرهان . .

وليس للمشركين على تلك القولة المنكرة من حجة ولا برهان ، وإنما حجتهم أوهام وخيالات وظنون .

* قوله تعالى . « قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاعٌ

فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون » .

هو حكم على تلك القولة المنكرة التى قالها المشركون إذ قالوا : « اتخذ الله ولداً » فهذا القول افتراء وكذب على الله . . وهؤلاء الذين يفترون على الله الكذب ، قد ضلّ سعيهم ، فهم الخاسرون ، فى أى متّجه يتجهون إليه ، ولن يفلحوا أبدا . . وما يقع لهم فى هذه الدنيا من زخرفها ومتاعها ، هو متاع قليل ، وظِلّ زائل . . ثم يرجعون إلى الله . . وهناك يلقون جزاء ما كانوا فيه من ضلال ، وما افتروه من مفتريات « نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون » فكفرهم بالله ، وافتراؤهم على الله ، هو الذى أوردهم هذا المورد الوبيل ، وألقى بهم فى أفواه الجحيم . . « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »

الآيات : (٧١ — ٧٤)

* « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ » (٧٤)

التفسير :

مناسبة هذه الآيات لما قبلها ، هى أن ما ذُكر فى الآيات السابقة عليها ، كان عرضاً لمقولات المشركين ، المنكرة ، فى الله ، وافترائهم الكذب على الله بنسبة الولد إليه . . فهم آثمون ظالمون ، واقعون فى معرض عذاب الله ونقمته . . فناسب أن يُذكّر هؤلاء الآثمون المشركون بما أخذ الله به الظالمين قبلهم من نكال وبلاء . ليكون لهم فى ذلك عبرة ، إن كانت فيهم بقية من عقل وإدراك . .

* قوله تعالى : « واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كَبُر عليكم مَقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلىّ ولا تنظِرونِ » . .

كبر عليكم مقامى : أى شق عليكم احتماله ، وأصبح أكبر مما تطيقون . . فضقتم بى ذرعاً ، وثقل عليكم وجودى بينكم .

أجمعوا أمركم : أى اجتمعوا على رأى واحد ، فى الموقف الذى تقفونه منّى . . يقال أجمع أمره على كذا ، أى قرّ رأيه فيه على قرار ، بعد أن كان الرأى فيه مشتتاً متفرقاً . . يقول الشاعر :

أجمعوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من منادٍ ومن مجيب ومن تَصْـــهال خيل خلال ذاك رغاء

أى أنهم باتوا على نية السفر فى الصباح ، وأجمعوا أمرهم عليه .

« اقضوا إلىّ ولا تنظرون » : أى وجهوا حكمكم إلىّ ، ولا تنظرون ، أى لا تؤخروا أخذى بهذا القضاء الذى قضيتموه فى . . ومنه قوله تعالى : «وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين (٦٦ : الحجر) أى وجهنا إليه ذلك الأمر ، وأعلمناه به . . وقرئ « افضوا إلى » بالفاء . .

أى أقبلوا إلى بما حكمتم به ، وأجمعتم أمركم عليه . .

— « ثم لا يكن أمركم عليكم غُمة » الغمة، ماغَمّ من الأمر وخفى ، ولا يعرف وجهه.. ومنه الغَمّة ، لمايغتم له الإنسان مما يسوؤه ، ومنه الغمام وهوالسحاب الذى يكسو وجه السماء ، ويظلل الأرض ، ويحجب عنها ضوء الشمس .

والمعنى : أن نوحا عليه السلام ، بعد أن استيأس من قومه ، ولم يجد سبيلا إلى إصلاح أمرهم وتقويم زيغهم ، بعد أن لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، جاءهم — وقد أجمع أمره على أن يدَعهم وماهم فيه ، ليلقوا المصير الذى أنذرهم من الله به — جاءهم ليطلب إليهم أن يقولوا كلمتهم الأخيرة الفاصلة فى هـذا الموقف ، الذى بينهم وبينه . . فقال لهم :

« يا قوم.. إن كان كبُرعليـكم مَقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت» أى إن كنتم قد استثقلتم طول حياتى معكم ، وكثرة تذكيرى لـكم بآيات الله ، ودعوتـكم إلى الإيمان به،فأنا منصرف عنـكم ، متوكلا على الله ، معتمداً عليه.. « فأجمعوا أمركم وشركاءكم » أى هاتوا رأيـكم الذى تلتقون عنـده ، أنتم وشركاؤكم الذين تعبدونهم من دون الله . . « ثم اقضوا إلىّ ولا تنظرون » ، ثم أعلمونى بما أجمعتم عليه من أمر . وإن بدا لـكم أن ترجمونى . . كما يتهامس بذلك بعضكم ، ويتنادى به سفهاؤكم . وهذا ما حكاه القرآن الـكريم عنهم فى قوله تعالى : « قالوا لئن لم تنته يا نوح لتـكونن من المرجومين » (١١٦ : الشعراء) — إن بدالـكم ذلك فاجعلوه رأياً واحداً لـكم ، بعد أن تأخـذوا رأى شركائـكم ، وليـكن هذا الرأى واضحاً صريحاً ، لا خفاء فيه ، ولا تخافت ولا تهامس . . ثم افعلوا بى بعد هذا ما بدا لـكم . . فإنى متوكل على الله ، معتصم به . .

وقد قدم التوكل على الله قبل أن يدعوهم إلى لقائه ، ومواجهته بما يجتمع

عليه رأيهم فيه ، وذلك ليتحصّن بهذه الدرع الحصينة ، التى لا تنال منها قوى البشر — قبل أن يلقاهم بهذا التحدى .. « فعلى الله توكلت .. فأجمعوا أمركم وشركاءكم » ، فهو يلقاهم وقد توكل على الله ، وأسلم أمره إليه ، وفى هذا مايقوى عزمه ، ويثبّت قدمه عند اللقاء ، فلا يجزع ، ولا يرهب ، إذا هم أخذوه بكل ما عندهم من قوة وكيد !

* قوله تعالى : « فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين » ..

هو الكلمة الأخيرة من نوح إلى قومه .. وأنهم إن تولّوا عنه ، وأبوا أن يأخذوا منه ما يمد به إليهم يده ، فإنه لن يضارّ بهذا ، لأنه لم يطلب على مايقدم لهم أجراً ، حتى إذا لم يأخذوه منه ، فإنه لاينال ذلك الأجر .. إنه لا يطلب منهم أجراً ، وإنما يأخذ أجره من الله،وهو أجر عظيم ، يرجح بكل ما يملكون ومالا يملكون من هذه الدنيا .. إنه ثواب الله ، ورحمته ورضوانه : « ورحمة ربك خير مما يجمعون » (٣٢ : الزخرف) .. فإن توليتم فهذا شأنكم ، ولا سلطان لى عليكم ، ولا خير يفوتنى من إعراضكم عنى .. أما أنا فعلى ما أمرنى الله به ، وهو أن أكون أول المسلمين ، الذين أسلموا وجههم لله ، وآمنوا به ، وأخلصوا العبادة له وحده .

وأوّلية نوح للمسلمين .. هى أولية بالإضافة إلى مجتمعه الذى كان فيه ، فهو أولهم إسلاماً لله .. إذ كان هو الرسول الذى حمل رسالة الإسلام إليهم ، وأول من آمن بها منهم ..

* قوله تعالى : « فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا . فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين » .

تلك هى خاتمةُ ما بين نوح وقومه .. لقد كذبوه ، وتولوا عنه ، فوقع

بهم ما أنذرهم به من قبل ، وأغرقهم الله بالطوفان ، ونجّى نوحا ومن معه ، وجعل هؤلاء الذين نجوْا ، خلائفَ فى الأرض من بعدهم . . إذ كانوا هم البقية الباقية من هؤلاء القوم الهالكين .

وقدم هنا نجاة نوح ومن معه ، ووراثتهم الأرض من بعد قومهم الهالكين ـ قَدّم ذلك على هلاك القوم ، خلافا للظاهر الذى يقضى به قوله تعالى «فكذبوه» إذ المتوقع هنا هو الإجابة على هذا السؤال : ماذا كان جزاؤهم إذ كذبوه ؟ وهذا سؤال يسأله المؤمنون الذين ينتظرون ما يحل بالمكذبين ، فكان الجواب المنتظر هو « فأغرقناهم » ولكن الإجابة جاءت على سؤال يسأله الذين يكذبون بآيات الله ، ويحادّون رسل الله .. فيقولون : وماذا جرى لنوح والمؤمنين بعد أن كذّبه قومه ، وأبعدوه من بينهم ؟ فجاء الجواب : لقد نصره الله ومن معه ، ونجاهم ، وأورثهم أرض القوم المكذبين وديارهم . . فموتوا بغيظكم أيها المكذبون ، فإن رسل الله وأولياءهم المنصورون ، وهم الفائزون المفلحون . . أما المكذبون فلهم الويل والخزى فى الدنيا والآخرة . .

ـــ وفى قوله تعالى : « فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين » إلفات للمؤمنين والمكذبين جميعاً ، إلى ما حل بهؤلاء المنذرين الذين أنذرهم نوح ، وخوفهم عذابَ الله ونقمته ، فأبوا أن يسمعوا له ، وأن يطلبوا النجاة لأنفسهم ، وأن يمسكوا بحبل الإيمان بالله ، وأن يركبوا فلك النجاة بالاعتصام به .. فهلكوا . وتلك هى عاقبة كل مكذب برسل الله ، مجانب لهم ، مخالف لدعوتهم التى يدعونهم إليها . . فليسمع مشركو قريش هذا ، ولينتظروا ما سيحل بهم إذا هم لم يستجيبوا لرسول الله ، ولم يأخذوا معه السبيل إلى الله . .

* قوله تعالى : « ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين » . .

وليس نوح وحده هو الذى دعا دعوة الحقّ ، وحمل رسالة السماء بالهدى والإيمان إلى عباد الله ، بل هناك رسل كثيرون ، جاءوا إلى أقوامهم بما جاء به نوح .. يحملون آيات بينات من عند الله ، ولكن الناس هم الناس ، والقوم هم القوم ، « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » .. فلم يستجيبوا للرسل ، ولم يأخذوا بالهدى الذى معهم ، ولم يُخْلوا قلوبهم من الضلال الذى انعقد عليها وسكن فيها .. « كذلك نطبع على قلوب المعتدين » أى نختم عليها ، فلا يدخل إليها شعاع من نور الحق ، ولا يطلع عليها صبح اليقين .. إنها فى ظلام دامس دائم أبداً .. وفى هذا تهديد لمشركى قريش ، إذ هم فى معرضٍ أن يُؤْخذوا بما أُخذ به قوم نوح ، فقد طبع الله على قلوبهم مثل ما طبع على قلوب قوم نوح من قبلهم .

— وفى قوله تعالى : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » .. إشارتان :

الإشارة الأولى : أن هؤلاء المكذبين الضالين لم يكونوا ليؤمنوا أبداً ، ولو جاءتهم كل آية .. وهذا هو السر فى اختلاف النظم باستعمال فعل المستقبل، ليؤمنوا ، وكان ظاهر النظم يقضى بأن يجىء الفعل ماضياً ، هكذا : فما آمنوا ، ليتّسق مع قوله تعالى « ثم بعثنا من بعدهم رسلا إلى قومهم » فما آمنوا أو فلم يؤمنوا .. ولكن جاء النظم القرآنى : « فما كانوا ليؤمنوا » ليدل على عدم توقع الإيمان منهم مستقبلا ، ثم ليتسع الفعل المضارع لقبول لام الجحود « ليؤمنوا » .. ليؤكد عدم توقع الإمكان منهم بحال أبداً ..

والإشارة الثانية : هى فى قوله تعالى : « بما كذبوا به من قبل » .. فالذى كذبوا به من قبل ، هو الإيمان بالله ، إذ كانوا قبل أن تأتيهم الرسل منكرين لله ، مكذبين بوجوده .. وقد انعقدت قلوبهم على هذا ، فلم يكن لدعوة

الرسل لهم بالإيمان مجال للعمل فى هذه القلوب المغلقة ، التى جمدت على ما انطبع فيها من ضلال وكفر . .

وفى هذا تسفيه لأولئك الذين تجمّدوا على أوضاعهم التى هم فيهـا ، ولا يتحولون عنها ، ولو كانت ممسكة بهم على مراتع الجهل والضلال ، وفى منازل الذلة والهوان . . وليس ذلك شأن الإنسان الذى يحمل فى كيانه عينـاً تنظر ، وأذنا تسمع ، وعقلا يدرك ، وقلباً يشعر .. إن شأنه دائماً يجب أن يكون مستقبلا للحياة لا مدبراً عنها ، متعاملا معها ، لا مستسلماً لها . . فإذا جاءت دعوة جديدة ـ أيا كانت ـ لم يكن من الإنصاف لإنسانيته أن يُغمض عينيه عنها ، ويصُم أذنيه دونها ، ويحول بين عقله وقلبه أن يتصلا بها ، ويتعرفا عليها . . بل إن عليه أن يستمع إلى تلك الدعوة وأن ينظر فى وجهها ، فإن كانت دعوة خير استجاب لها ، وانتفع بها ، وجنى الثمر الطيب منها ، وإلاّ توقّاها ، وأخذ حِذره منها . . وبهذا يكون الإنسان دائماً فى ميدان الحياة ، مشاركا فى معاركها ، آخذاً بحظه من مغانمها .. أما إن أغلق كيانه على ماهو فيه ، فلم يقبل خيراً ، أو يدفع شراً ، ظل على حال من الطفولة ، لا يتحول عنه ، وظلت الإنسانية ـ إن أخذت مأخذه ـ واقفة حيث هى ، لا تتحرك خطوة إلى الإمام .

الآيات : (٧٥ — ٨٢)

* « ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ

لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّآ أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ » (٨٢)

التفسير : فى هذه الآيات ، وما بعدها ، قصة موسى ، عليه السلام ، وما كان بينه وبين فرعون ، الذى يمثّل وجهاً من وجوه الطغيان والكفر . . وقد جاءه موسى يدعوه إلى الله ، ويوجهه إلى ما يزكّيه ويطهره ، ويقيمه على طريق الحق والإحسان ، بما يقيمه الإيمان فى قلوب المؤمنين من فضائل إنسانية كريمة مشرقة ، كما يقول الله تعالى لموسى بما يدعو فرعون إليه : « هل لك إلى أن تزكّى * وأهديك إلى ربك فتخشى » . .

ولكن فرعون يأبى إلا عناداً وكفراً ، وإلا ضلالاً وجهلاً . .

* « ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون إلى فرعون وملائه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين » . .

هذا هو مجمل القضية ، وخاتمة المطاف فيها . .

بعث الله موسى وهرون إلى فرعون وملائه ، وبين أيديهما آيات . بينات من عند الله ، فأخذت فرعونَ العزةُ بالإثم ، واستكبر أن يذعن لتلك الآيات وأن يجعلها داعيةَ الإيمان له ولقومه . . « فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين » . .

ثم تجىء الآيات بعد هذا مفصّلة هذا الإجمال . . تفصيلا مجملا أيضاً . .

حيث كان لهذه القصة أكثر من ذكرٍ فى القـــرآن الـكريم .. فيه بسط وتفصيل لها ..

* « فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إنّ هذا لسحر مبين » ..

هذا هو القول الذى استقبل به فرعونُ وحاشيته آياتِ الله حين طلعت عليهم :

— « إنّ هذا لسحر مبين » .. قالوا ذلك فى تأكيد قاطع ، حتى لـكأنهم قد اختبروا هذه الآيات اختباراً علمياً محققاً ، ثم كشف لهم العلم عن تلك الحقيقة وملئوا أيديهم بها ، ونزلت من عقولهم منزل اليقين ، الذى لاشك فيه : « إن هذا لسحر مبين » .. وهكذا شأن من يكابر فى الحق ، ويعانده.. إنه ـ وقد زُلزلت الأرض به ، من قوة الحق وصدمته ـ يحاول جاهداً أن يقوى نفسه ، ويمسك وجوده بهذه الكلمات الـكاذبة المفضوحة المموهة ، بهذا التوكيد القاطع ، وهو فى دخيلة نفسه يرجُف خوفاً ، ويضطرب فزعاً ..

* قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون» ..

يقول موسى لفرعون منـكراً عليه أن يقول فى آيات الله التى طلع بهـا عليه : « إن هذا لسـحر مبين » ـ يقول له موسى : « أتقولون للحق لما جاءكم ؟ ..

وهنا مقولُ القول محذوف .. تقديره أتقولون لهذا الحق الذى جاءكم : « إن هذا لسحر مبين » .. أو أتقولون هذا القول المنـكر .. لآيات الله لما جاءتـكم ..؟

وقد حذف مقول القول ، لأنه قول منـكر ، يعفّ لسان العاقل عن أن

يتلفظ به ، ولو كان على سبيل الحكاية .. وإذا كان ناقل الكفر ليس بكافر ، فإن حسبه من الشناعة أن يحمل هذا الإثم ، ويُجريه على لسانه . . كساقى الخمر فإنه ، وإن لم يشربها ، هو أداة من أدواتها ، وإناء من آنيتها ..

وقد نزه الله موسى عليه السلام ، أن ينطق بما نطق به فرعون ، من زور وبهتان ! ..

وفى تعدية القول إلى المقول « باللام » : « أتقولون للحق » معدولا به عن التعدية بحرف الجر « عن » ، إذ أنهم لم يقولوا للحق بل قالوا عنه هذا القول ـ نقول : فى هذه التعدية سرٌّ من أسرار النظم القرآنى ، وإعجاز من إعجازه . .

فإذا كان الحق الذى جاء به موسى ، حقاً واضحاً مشرقاً ، لا لبس فيه ، حتى لكأنه كائن عاقل ، رشيد ، يستغنى عن أن يدل عليه أحد أو يكشف عن وجهه كاشف ـ إذا كان ذلك كذلك ، فقد صح أن ينزل هذا الحق منزلة العقلاء ، وأن يوجه إليه الخطاب ، وأن يُنكر على من يعتدى عليه هذا العدوان . . « أتقولون للحق لما جاءكم » هذا القول المنكر ؟ ..

فالحق فى إشراقه ، وجلاله ، وسلطانه ، مستغن بنفسه عمن يسنده ، ويشدّ أزره ، فهو إذ يطلع على الناس ، يطلع عليهم كائناً سوياً ، يتحدث إلى الناس ويتحدثون إليه . . وهذا مايشير إليه توجيه القول من المكذبين بالحق ، إلى الحق : « أتقولون للحق » كما يشير إليه مجىء الحق إليهم من غير أن يستند فى مجيئه إلى أحد إذ يقول لهم موسى « لما جاءكم » .. ولم يقل : « لما جئتكم به » ..

ـــ وفى قوله تعالى : « أسحر هذا ولا يفلح الساحرون » تعقيب يؤكد به موسى ما أنكره على فرعون من قوله عن آيات الله : « إن هذا لسحر

مبين » وذلك بعد أن أنكر عليه هذا القول بقوله : « أتقولون للحق لمّا جاءكم ؟ .. »

وقدم إنكار السحر على الإشارة إليه ، لأن المطلوب أولا هو إنكار أن يكون هذا الذى جاء به موسى سحراً .. فهو ينفى السحر أصلا ، أن يكون قد وقع فى هذا الموقف الذى كان بين موسى وفرعون ، حين طلع عليه بآيات الله .. ثم يحدد بالإشارة هذا الشيء الذى ينفى عنه السحر ، وهو آيات الله تلك .. فيقول له : « أسحر هذا ؟ » ، ولا يقول : أهذا سحر ؟ لأن موسى ليس ساحراً ، ولا يأتى بسحر أبداً ، سواء أكان هذا الذى يشهده منه فرعون الآن أو غير الآن ..

ـ وفى قوله تعالى : « ولا يفلح الساحرون » هو حال من اسم الإشارة المشار به إلى آيات الله .. والمعنى أتقولون عن آيات الله هذه ، إنها سحر ، وأهل السحر لا يفلحون أبداً ..

وفى هذا إشارة إلى أن موسى من المفلحين بما فى يديه من آيات الله ، وأنه يُنذر فرعون بأنه سيُغلب ويهزم ، إن هو تصدى لآيات الله تلك .

* « قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين » .

ولا يجيب فرعون على تساؤل موسى وإنكاره لقوله الذى قاله فى آيات الله .. بل يَشْغَبُ هو والملأ حوله على موسى ، ويَصيحون فى وجهه : « أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ؟ » .. وتلك هى علة الجاهلين ، وداء السفهاء والحمقى .. التمسك بالقديم ، وعَقْد القلوب عليه ، وإن كان بلاء وشراً .. لأنهم أعفَوْا عقولهم من النظر والتفكير ، ورضُوا بما استقر فيها من كل غث وزيف ..

— وفى قوله تعالى : « وتكون لكما الكبرياء فى الأرض » ما يكشف عن علة أخرى من علل الضالين ، وعن داء من أدوائهم ، وهو الحرص على ما فى أيديهم من سلطان ، ولو باعوا لذلك عقولهم ، وأهلكوا فيه أنفسهم . . إنه دفاع عن جاه ، ودفع عن سلطان . . لا أكثر ولا أقل . . وفى سبيل هذا يهون عندهم كل شىء ، ويصغر كل شىء !

— وقوله تعالى : « وما نحن لكما بمؤمنين » هو كلمة القوم التى يختمون بها من وجه هذا الوافد الجديد ، والذى جاء لينازعهم سلطانهم ، أو ليستبد به دونهم .. «ومانحن لكما بمؤمنين » .. هى قولة واحدة قاطعة ، لارجوع عنها ، ولا بديل منها ، ولو جاءهم موسى وهرون بآيات وآيات . . إنهم لن يؤمنوا لموسى وهرون أبداً . .

* « وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم * فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقُوا ما أنتم ملقون * فلما ألقوْا قال موسى ما جئتم به السحر . . إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون» .

فى هذه الآيات ، ينكشف ما كان يعتمل فى نفس فرعون ، من خوف على سلطانه الذى بين يديه ، والذى جاء موسى ينازعه إياه ، ويُنزله عنه . .

ذلك أنه قد رأى أن الأمر لن ينحسم بينه وبين موسى بهذه الكلمات التى صرخ بها فى وجهه ، هو ومن حوله من حاشيته .. فما هذا إلا كلام ، لايكافئ الفعل الذى كان من موسى ، حين ألقى عصاه ، فكانت ثعباناً مبيناً ، فزِعت له النفوس ، واضطربت منه القلوب !

وإن الذى ينبغى أن يواجَه به هذا الموقف هو أن يحارِب موسى بالسلاح الذى جاء يحاربه به ، وأن يهزمه فى هذا الميدان الذى التقى معه فيه ، وإلا فما زالت

الجولة لموسى . . الأمر الذى تأبى كبرياء فرعون أن تقبله ، وأن تَبيت عليه . .

* « وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم » . . فهو مازال مصراً على أن ماجاء به موسى هو سحر . . وإذن فليلْقَهُ بسحر مثله ، وليجمع لذلك مافى دولته من أساتذة السحر وأربابه . .

* « فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقُوا ماأنتم ملقون » .. وهكذا يتحدد الموقف . . وتبدأ المعركة . . ويأخذ السحرة موقف المبادرة . . إذ يفُسح موسى لهم المجال ، ويدعوهم إلى أن يبدءوا ، ويُلْقُوا مامعهم من سحر .

* « فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر .. إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين » .. ولقد ألقى السحرة ما معهم ، فلما رأى موسى ما كشفوا من أسلحتهم ، قال : « ماجئتم به السحر » . . فذلك هو السحر ، لا ما جئتكم به ، كما قال فرعون من قبل : « إن هذا لسحر مبين » . !

وهنا ينكشف الباطل ويتعرّى ، ويَبين الزيف وينفضح الضلال . . فلو كان الذى مع موسى هو السحر كما قال فرعون ، فإنه لن يكسب المعركة ، لأنه يحارب سحراً بسحر . . أما إن كان الذى بين يديه هو الحق فإنه غالب لامحالة . . فما يثبت الباطل للحق أبداً « إنه لا يفلح الظالمون » الذين يتخذون الباطل مركباً يخوضون به فى بحار الحق . . « إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين . . » . . « ويُحق الله الحقّ بكلماته ولو كره المجرمون » . . فتلك هى نهاية الصراع بين الحق والباطل.. إن الحق هو كلمة الله ، وكلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى . . وإحقاق الله للحق ، هو فى انتصار الحق ، وتمكّنه ، وإجلاء الباطل من مواقعه . . « فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون » .

— وفى قوله تعالى : « ويُحق الله الحق بكلماته » — إشارة إلى أن الحق

مستند إلى قوة غالبة ، لا تُهزم أبداً هى قوة الله سبحانه. وأنه مؤيد بتلك القوة ، مستند إليها.. فقوله تعالى : « بكلماته » متعلق بقوله سبحانه : « يُحقّ ».. أى أنه سبحانه ينصر الحق بكلماته ، وكلماته هى القُوى العاملة فى هذا الوجود. المتصرفة فيه ، كما يقول سبحانه : « إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم » (١٧١ : النساء).. وكما يقول جل شأنه : « إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » (٤٠ : النحل).

الآيات : (٨٣ — ٨٦)

* « فَمَآ آمَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ » (٨٦)

التفسير :

* قوله تعالى : « فما آمن لموسى إلا ذريةٌ من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم وإن فرعون لعالٍ فى الأرض وإنه لمن المسرفين ».

اختُلف فى العائد عليه الضمير فى قوله تعالى « من قومه ».، وهل يعود على قوم موسى ، أو قوم فرعون ؟ كما اختُلف فى العائد عليه الضمير فى « ملائهم » أهم الملأ من قوم موسى ، أو الملأ من قوم فرعون ؟

وينبنى على هذا الاختلاف ، اختلاف فى الذرية الذين آمنوا لموسى ، واستجابوا لدعوته .. أهم من ذرية بنى إسرائيل أم هم من ذرية المصريين ؟

والذى نراه ـ والله أعلم ـ أن هؤلاء الذرية هم من أبناء المصريين ، ويرجّح هذا عندنا أمور ، منها :

أولا : أن بنى إسرائيل كانوا قبل موسى مؤمنين بالله ، على دين آبائهم إبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب ، ويوسف .. فهم ذرية أبناء يعقوب «الأسباط» الاثنى عشر، وكانت رسالة موسى هى أن يخلصهم من يد فرعون ، ومما كانوا يلقون من هوان وذلّ . كما يقول الله تعالى لموسى وهرون : « فأْتياه فقولا إنّا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم » (٤٧ : طه) .

ثانياً : أن بنى إسرائيل كانوا مع موسى جميعاً ، فاستجابوا له ، وخرجوا من مصر معه . . فلم يكن بينه وبينهم خلاف ، حتى خرج بهم من مصر .

ـــ وقوله تعالى: « فما آمن لموسى إلا ذريّة من قومه » يعنى أن الذين آمنوا له كانوا بعضاً من القوم ، بل ومن ذرية القوم . . وهذا يعنى أن قلة قليلة تلك التى آمنت لموسى ، من هؤلاء القوم . . وهذا لا يمكن أن يُحمل على قوم موسى الذين كانوا جميعاً معه . .

ثالثاً : يذكر القرآن الكريم أن أناساً من المصريين قد استجابوا لموسى ، وآمنوا بالله ، ومنهم السحرة ، الذين يقول القرآن عنهم : « قالوا آمنّا برب العالمين * رب موسى وهرون * قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطعنّ أيديَكم وأرجلَكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين * قالوا إنّا إلى ربنا منقلبون * وما تَنقِم منّا إلاّ أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربّنا أفرغ علينا صبراً وتوفّنا مسلمين » (١٢١ ـــ ١٢٦ : الأعراف) .

رابعاً : يذكر القرآن أنه قام من بين المصريين ممن آمن بالله على يد موسى ـ قام مَن يبشّر بالدعوة إلى الله ، ويدعو إلى الإيمان به . . وقد سمّيت فى القرآن

سورة باسمه هى سورة « المؤمن » وتُسمَّى « غافر » كذلك . . وفيها يقول الله تعالى : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربىَ الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم » (الآية : ٢٨) . . وفى هذه السورة أيضاً جاء قوله تعالى على لسان هذا الرجل المؤمن من آل فرعون : « ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جآءنا » (الآية:٢٩) وفى هذه السورة كذلك جاء قوله تعالى على لسان هذا الرجل المؤمن من آل فرعون : « ولقد جاءكم يوسف من قبلُ بالبينات فما زلتم فى شك ممَّا جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا » (الآية : ٣٤) وقوله سبحانه أيضاً : « وقال الذى آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيلَ الرشاد » (الآية : ٣٨) .

إذن فقد كان من المصريين مؤمنون ، وكان منهم دُعاة من هؤلاء المؤمنين يدعون إلى الإيمان بالله . . ولكن فى حَذر ، وخِفية . . خوفاً من فرعون أن يبطش بهم . .

وعلى هذا فالضمير فى « ملإيهم » يعود إلى ملأ المصريين الذين آمنوا ، وأنهم كانوا يخافون من فرعون ، ومن قومهم أيضاً .

وملاحظة هنا نحب أن نشير إليها ، وهو أن الذين آمنوا لموسى ، واستجابوا له كانوا « ذرية » أى من الذرية ، وهم الأبناء ، لا الآباء ، وهذا يعنى أن الشبان هم أقرب من غيرهم إلى تقبّل الجديد ، والأخذ به ، سواء كان من ماديات الحياة أو معنوياتها . . وهذا يعنى أيضاً أن تحركات الأمم نحو التجديد تكون إلى يد الشبان .. أما الشيوخ فقلّ أن يستجيبوا الجديد يُدْعون إليه .. إذ أن طول إلفهم لما هم فيه من عادات ، وتقاليد ، ومعتقدات ، قد شدّهم إلى ما هم فيه ، وربطهم به ، فكان فكاكهم منه عسيراً شاقاً . .

ونجد هذا فى الدعوة الإسلامية . . فقد كان المستجيبون لها ، والسابقون إلى الإيمان بالله ، هم مَنْ كانوا فى مرحلة الشباب ، لم يخرجوا منها بعد إلى مرحلة الشيخوخة . . كأبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلىّ ، وطلحة ، والزبير ، وأبى عبيدة ، فهؤلاء كانوا أسبقَ الناس إلى الإسلام ، وقد خَلَفُوا النبى ، وعاشوا سنين بعده !

— ومعنى قوله تعالى : « على خوفٍ من فرعون وملائهم أن يفتنهم » أىَ يضطهدهم ، ويعذبهم ، ويعرضهم بهذا العذاب لأن يُفتنوا فى دينهم .

— وفى قوله تعالى : « وإن فرعون لعالٍ فى الأرض وإنه لمن المسرفين » إشارة إلى علوّ سلطانه ، وأنه سلطان قائم على تراب هذه الأرض . . فهو سلطان — وإن علا — لن يبلغ أن يكون جبلا من جبال هذه الأرض ، أو تَلًّا من تلالها : إنه بناء من تراب ، على تراب !

— وفى قوله سبحانه : « وإنه لمن المسرفين » إشارة أخرى إلى إسرافه على نفسه ، ومجاوزة الحدّ بها فى الظلم والجبروت .

* « وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين » بهذه الدعوة ، وأمثالها ، كان يثبت موسى قومه ، ويصبرهم على ما هم فيه من بلاء ، وأن يجعلوا لله أمرهم ، ويُسْلِموا له قيادهم ، وألا يأبهوا لما يأخذهم به فرعون من أذى وضرّ . .

وهنا سؤال : كيف يقول لهم موسى : « إن كنتم مسلمين » ولم يقل إن كنتم مؤمنين ، مع أن الإيمان درجة فوق درجة الإسلام . . فالإسلام باللسان ، والإيمان بالقلب . . ولهذا ردّ الله إيمانَ الأعراب ، الذين قالوا آمنا . . فقال تعالى « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان فى قلوبكم » (١٤ : الحجرات) . . فكيف هذا ؟ . . ثم إن النظم كان يقضى

بأن يُذكر الإيمان بدل الإسلام . إذ كان الشرط مبنيًا على الإيمان ، كما يقول سبحانه على لسان موسى : « يا قوم إن كنتم آمنتم بالله » فكان مقتضى النظم أن يكون الجواب : فعليه توكلوا إن كنتم مؤمنين . .

كيف هذا أيضاً ؟

والجواب : أن القوم كانوا على درجات فى الإيمان ، فنهم المسلم المؤمن ، ومنهم المسلم ، غير المؤمن . .

وحين أراد موسى أن يأخذ اعترافهم فى صِلتهم بالله ، جعل هذا الاعتراف قائماً على « الإيمان » : « إن كنتم آمنتم بالله » . . حتى ينظر كل منهم إلى نفسه ، ويتعرف إلى حقيقة إيمانه ، لأن المطلوب منه هو أن يكون مؤمنـاً . .

وهنا يدعوهم موسى جميعاً إلى التوكل على الله ، إن كانوا مسلمين ، فمن كان منهم مسلماً إسلاماً خالصاً ، فهو مؤمن . . وإذن فهم مسلمون ، قبل أن يكونوا مؤمنين ، وبالإسلام الخالص ، يكونون مؤمنين . .

فقول موسى عليه السلام : « إن كنتم مسلمين » دعوة منه إلى أن يبرأ إسلامهم لله من النفـاق والمداهنة . . فهو يريدهم مسلمين أوّلا ، يقوم إسلامهم على اقتناعِ عقل ، واطمئنانِ قلب ، وإخلاص نية . . وهذا هو الإيمـان . .

* « فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين * ونجّنا برحمتك من القوم الـكافرين » . .

بهذا الجواب أجاب القوم موسى إلى ما طلبه منهم ، من التوكل على الله . .

« فقالوا : على الله توكلنا » فلا متوجّه لنا إلى غير الله .

– وفى قولهم : « ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين » دعاءٌ منهم إلى الله ألا يُعرّضهم للبلاء والضرّ على يد الطغاة الظالمين ، حتى لا يكون فى ذلك ما يَفتنهم عن دينهم ، ويفتن الظالمين بهم أيضا ، فيؤخذوا بجنايتهم على هؤلاء المظلومين .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وجعلنا بعضَكم لبعض فتنة » (٢٠ : الفرقان) ..

الآيات : (٨٧ — ٨٩)

* « وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » (٨٩)

التفسير :

* « وأوحينا إلى موسى وأخيه ، أن تبوّءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشّر المؤمنين »

البيوت هنا : هى بيوت العبادة ، لا بيوت السُّكنى ..

والتّبوُّء : يقال تبوأ المكان أى اتخذه مباءة له وسكناً ، وهو من البَوْء ، بمعنى الرجوع .. يقال : باء يبوء ، أى رجع ، وسمى المنزل مباءة ، لأنه المرجع الذى يرجع إليه الإنسان آخر مطافه .. فقد أوحى الله سبحانه وتعالى ، إلى موسى وهرون ، أن يدعوا قومهما إلى اتخاذ بيوت لعبادة الله .. يجعلونها خاصة لعبادته ،

فلا يدخل فيها ما يدخل فى بيوت السكنى من لهو وعبث .. ذلك أن للمكان أثره فى إثارة المشاعر الطيبة والخبيثة .. فإن كان المكان طيباً أشاع فى النفس السكينة والرضا ، وملأ القلب جلالا وخشوعاً ، وعلى عكس هذا ما يكون من المكان الخبيث .

روى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، نام وهو فى غزوة تبوك حتى طلعت عليه الشمس ، ولم يدرك صلاة الصبح حتى طلعت الشمس . . فلما استيقظ قال لبلال : « ألم أقل يابلال . . اكلأ لنا الفجر ؟ فقال يا رسول الله ذهب بى من النوم مثلُ الذى ذهب بك ! ! فانتقل النبى من ذلك المكان غير بعيد . . ثم صلّى » فقد كره صلى الله عليه وسلم أن يصلى فى مكان أجلب عليه النوم ، وفوّت عليه الصلاة فى وقتها ، فاعتزله كما يعتزل الإنسان إخوان السوء . .

— وفى قوله تعالى : « واجعلوا بيوتكم قبلة » إشارة إلى أن يكون متوجه الصلاة فى هذه البيوت إلى القِبلة ، وهى الكعبة كما يقول بذلك كثير من المفسرين . .

ولكنا نخالف هذا الرأى ، ولنا على مخالفتنا إياه أكثرُ من دليل :

فأولا : القِبلة فى اللغة ليس معناها الكعبة .. وإنما هى بمعنى الوجهة ، أو الاتجاه ، الذى يتجه إليه الإنسان .. وهى مشتقة من الاستقبال ، لأن الإنسان فى توجهه إلى الله يستقبل الرحمة والمغفرة والرضوان ..

وثانياً : فى قوله تعالى للرسول الكريم : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة تَرْضاها » فتنكير القبلة هنا دليل على أنها واحدة من كثير غيرها .. ولهذا أيضاً وصفها الله سبحانه وتعالى بقوله : « ترضاها » وقد كان متَّجهُ النبى صلى الله عليه وسلم قبل ، ذلك ، وقبلتُه ، هو بيت المقدس .

والمراد بجعل بيوتهم قبلةً ، هو أن يجعلوا متوجَّههم إليها حين يريدون الصلاة فيها ، فتكون مقصداً لكل من يريد الصلاة منهم ..

* قوله تعالى : « وقال موسى ربَّنا إنك آتيت فرعون وملأه زينةً وأموالا فى الحياة الدنيا .. ربنا ليضلوا عن سبيلك .. ربنا اطمس على أموالهم واشدُد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » ..

العطف هنا « وقال موسى » هو عطف على قوله تعالى : « وأوحينا إلى موسى وأخيه » إذ كان معنى الوحى « القول » .. أى قال الله لموسى وأخيه هرون تبوّءا لقومكما بمصر بيوتاً .. وقال موسى ربنا .. فهو عطف قول على قول ..

- وفى قوله تعالى : « ربّنا ليضلوا عن سبيلك » ..

يرى أكثر المفسرين أن هذا دعاءٌ من موسى على فرعون .. وقد تكلّفوا لهذا التخريج والتأويل ، حتى يَخْرُجوا بلام التعليل عن معناها إلى المعنى الذى أرادوه لها ..

واللام هنا لام تعليل - كما هو ظاهر - وأن قول موسى : « ربنا ليضلوا عن سبيلك » هو علة لما طلبه موسى بعد هذا من ربه ، وهو قوله : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم » ..

والطمس على أموالهم ، هو ذَهابها من أيديهم ، وغروبها عن أعينهم ، والشدّ على قلوبهم ، هو الختم عليها وربطها ربطاً محكما ، على ما انعقد فيها من كفر وضلال ، فلا تقبل خيراً أبداً ..

ويكون معنى الآية هكذا : ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدّنيا فكفروا بنعمتك ، وحاربوك بها ، وكانت تلك

الأموال سبباً فى عتوّهم وضلالهم « ربنا اطمس على أموالهم واشدُد على قلوبهم » ..

فيكون سَلْبُ هذه النعم ، وذَهاب هذه الأموال من أيديهم ، ضربا من العقاب المعجل لهم ، يأخذ الله به الظالمين والضالين ، الذين يكفرون بالله ورسله ، فيمطرهم حجارة ، أو يرسل عليهم صاعقة من السماء ، أو يغرقهم .. وبهذا الذي ينزل بفرعون وملائه ، من سلب النعم ، وذَهاب الأموال ، يكون العقاب الذى يُذلّ كبرياءه ، وَيَذهب بسلطانه ، ويريه سوء عمله فى الدنيا ، ثم لا يكون له منه عبرة وعظة ، تفتح قلبه إلى الله ، وإلى الإيمان به بعد أن ختم الله على قلبه ، بل إنه سيمضى على طريق الضلال والكفر هو ومن معه ، حتى يروا العذاب الأليم ، عذاب يوم القيامة « فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم .. » .

وهذه الصورة التى يصورها القرآن الكريم لمن يطغيهم الغنى ، ويفتنهم الجاه والسلطان ، ويُفسد عليهم تفكيرهم ، ويطمس على أبصارهم وبصائرهم — هذه الصورة تقابلها صورة أخرى للمال ، حين يقع فى يدِ من يؤمن بالله ، ويلتزم حدوده ، إذ المال هنا ، قوة تعين على قضاء حقوق الله ، وأداء ما افترض على عباده من عبادات وطاعات ..

يقول الله سبحانه وتعالى على لسان إبراهيم عليه السلام :

« ربنآ إنىّ أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدةً من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » (٣٧ : إبراهيم) ..

هذا ، ويلاحظ ما بين النظم القرآنى فى الصورتين من اتفاق فى الأسلوب الذى جاء عليه النظم هنا وهناك .. وذلك واضح لا يحتاج إلى بيان ..

* «قال قد أجيبت دعوتُكما فاستقيما ولا تتبعانِّ سبيل الذين لا يعلمون».

هذا إعلام من الله سبحانه وتعالى لموسى وهرون، بأن الله ـ سبحانه ـ قد استجاب لهما ما دعواه به، فى أمر فرعون وملائه.. وقد ذكر القرآن الكريم فى أكثر من موضع منه، ما أخذ الله به فرعون وآله من بأساء وضراء.. فقال تعالى: «ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقصٍ من الثمرات لعلهم يذّكرون» (١٣٠: الأعراف)..

وقال سبحانه: «فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم آياتٍ مُفَصّلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين» (١٣٣. الأعراف).

— وفى قوله تعالى: «فاستقيما ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون» إشارة إلى ما ينبغى أن يكون لهما من عبرة وعظة، فيما وقع لفرعون وملائه، وأن عليهما أن يستقيما على طريقهما المستقيم، وأن يحتملا فى سبيل الله كل ما يعرض لهما من ضر وأذى، فقد رأيا بأعينهما كيف كان عاقبة المنحرفين، الذين لا يقفون عند عبرة، ولا ينتفعون بموعظة..إذ غطّى الجهل على أبصارهم، وران الضلال على قلوبهم، فهم لا يعلمون، ولا ينتفعون بعلم العالمين..

الآيات: (٩٠ — ٩٢)

* «وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ آمَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَآئِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٩١) فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ» (٩٢)

التفسير :

* جاز الوادى ، والنهر : أى قطعه ، وبلغ جانبه الآخر .. وجاوزه : أى بَعُدَ عنه بعد أن جازه . . وتجاوز عن فَعلة فلان : أى غفرها له ، وتخطاها ، ولم يحاسبه عليها . .

* العَدْو : العُدوان والتعدّى والظلم .

* « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعَدْواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » .

العطف هنا فى قوله تعالى « وجاوزنا » يدل على معطوف عليه ، محذوف ، إذ جاء ذكره فى مواضع أخرى من القرآن الكريم ، عند عرض جوانب من تلك القصة . . وهو خروج موسى ببنى إسرائيل من مصر ليلا ، وخروج فرعون بجنوده وراءهم ومداناته لهم وهم فى مواجهة البحر ، ثم اضطرابهم وحيرتهم وهم بين فرعون وبين البحر ، ثم ضَرْبُ موسى بعصاه البحر ، وانفلاق البحر ، وكشفه عن طريق يَبَسٍ لهم ، وركوبهم هذا الطريق حتى بلغوا العُدوة الأخرى منه .. ثم مجىء فرعون ، وركوب هذا الطريق ..

ومع هذا الإيجاز الذى أجملت فيه الآية الكريمة كل هذه الأحداث وطوتها ، فإن الذى أمسكت به الآية من عناصر القصة ، هو الوجه البارز منها ، والملامح المميزة لها . .

فهؤلاء هم بنو إسرائيل يجاوزون البحر . . وهذا هو فرعون وجنوده يلاحقونهم ، ويريدون أن يمسكوا بهم قبل أن يُفلتوا . . ثم إذ يرى فرعون طريقاً يَبَسًا فى البحر لايتوقف ، ولا يسأل نفسه : كيف كان هذا الطريق ؟

وهل هنــاك قوة بشرية قادرة على أن تشقه هكذا بين الأمواج المتــلاطمة ؟ إنه لو توقف قليلا وتدبّر الأمر لعلم أنه أمام معجزة قاهرة ، وأن عليه أن يراجع نفسه ، وأن يؤمن بالله الذى يدعوه موسى إلى الإيمــان به . . ولــكنه يمضى فيركب هــذا الطريق ، غيرَ ملتفت إلى شيء ، إلا النقمة من بنى إسرائيل ، الذين هربوا بليل ، وخرجوا عن سلطانه ، وأفلتوا من يده . . ثم هاهو ذا البحر يُطبق عليه ، ويدركه الغرق ، ويطل عليه شبح الموت ، فيصرخ من أعماقه طالبــاً الغوث والنجاة . . ثم تخطر له خاطرة يرى فى التعلق بها نجاته من هــذا الموت المحقق . . إن بنى إسرائيل قد ركبوا هذا الطريق ، فوصل بهم إلى شاطىء النجاة ، وإن الذى فعل بهم هذا هو إلٰهم الذى آمنوا به ، وأنه لو آمن بهذا الإلٰه لنجّاه كما نجاهم . . هكذا فــكّر وقدّر وهو فى هــذا البلاء : «حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لآ إلٰه إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » لقد تخلّى عن آلهته التى كان يعبدها ، إذ تخلت هى عنه فى هذه الشدة ، وإنه ليؤمن بالإلٰه الذى آمنت به بنو إسرائيل . . إنه الإلٰه الحق ، وكل آلهة غيره باطل وضلال . . ! هكذا يقول . . وهكذا يلقى الجواب :

* « آلآن وقد عصيتَ قبــل وكنت من المفسدين » ؟ . الاستفهام هنــا إنــكارى ، ينــكر على فرعون هذه الدعوى ، وأن إيمانه بالله غيرُ مقبول منه ، إذ جاء وقد بلغت الروح الحلقوم ، وأشرفت به على العالم الآخر ، فرأى الحق عيــانا . .

والله سبحانه وتعالى يقول : « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتّى إذا حضر أحدَهم الموتُ قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليما » (١٨ : النساء) .

لقد آمن فرعون ، ولــكنه إيمان المضطر المــكره ، وإنه « لا إكراه فى

الدّين » ، ولا حساب لمثل هذا الإيمان .. وقد كان هذا الإيمان الباطل ، هو الذى طلبه موسى لفرعون من ربه فى قوله : « فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .
وقد آمن فرعون ، وآمن معه كثيرون من الغرقى من قومه ، وذلك بعد أن رأوا العذاب الأليم الذى ينتظرهم يوم الحساب ! فكان إيمانهم هذا لغواً باطلا .

* « فاليوم نُنَجِّيك بِبَدَنك لتكون لمن خَلْفَك آيَةً وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون » .

الخطاب هنا لفرعون ، وهو يعالج سكرات الموت ، أو وهو ميت ، إذ هو حىٌّ يسمع ويبصر كل شىء يجرى فى هذه الدنيا . . وقد تحدث الرسول صلوات الله وسلامه عليه . . إلى قتلى المشركين فى بدر ، وهم فى القَلِيب ، فسأله أصحابه : أيسمع الموتى ؟ فقال صلوات الله وسلامه عليه : « ما أنتم بأسمع منهم فى قبورهم » !

ونجاة فرعون ببدنه ، وإلقاء البحر له جثّةً هامدة متعفنة على الشاطىء ، فيه عبرة لمعتبر .. فهذا الإنسان الذى كان يملأُ الأرض بغياً وعدواناً ، ويقول فى الناس : « يٰأَيها الملأُ ما علمت لكم من إله غيرى » (٣٨ : القصص) ويقول : « أنا ربكم الأعلى » (٢٤ : النازعات) . هذا الإنسان قد صار فى لحظات جثة هامدة ، وكوماً من لحم بارد ! فأين ملكه ؟ وأين سلطانه ؟ وأين بطشه وجبروته ؟ لقد ذهب كل ذلك عنه ، وتعرّى من كل شىء كان بين يديه ! « وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون » .

« ولله العزة ولرسوله والمؤمنين » .

فهذه يد القدرة القادرة ، تحفظ موسى وليداً ، وتحمله على اليمّ رضيعاً ، ثم تضعه على الشاطئ ، كما تضع الأم وليدَها ، وهو يشق طريقه إلى الحياة . . فتتلقفه القابلة ، وتُصلح من شأنه ، وتهيىءُ له أسباب الحياة فى عالمه الجديد ..

ثم هذه يد القدرة القادرة ، تدفع بفرعون إلى اليم ، وتميته فيه غرقاً ، وتدفنه فى أعماقه ، ثم تلقى به إلى الشاطىء ، جثة باردة متاً كلة متعفنة .. !

وهكذا يلتقى ميلاد موسى بهلاك فرعون ، كما يلتقى الحق بالباطل ، والنور بالظلام !

الآيات : (٩٣ — ٩٥)

* « وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) فَإِنْ كُنْتَ فِى شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ » (٩٥)

التفسير :

المُبوّأ : المنزل ، الذى يبوء إليه الإنسان ، أى يرجع إليه بعد مطافه للسعى وراء رزقه ..

والآية تتحدث عن نعمة الله على بنى إسرائيل ، بعد أن نجّاهم من فرعون ، وأطلقهم من يده ، وأخرجهم من منزل الهوان والذلة ، إلى دار أمن ، وسلام ، واطمئنان . فملكوا أمر أنفسهم ، وعرفوا طعم الحرية ، وتنسموا ريحها الطيب ..

العلم وأسلوب تحصيله

— وفى قوله تعالى : « فما اختلفوا حتى جاءهم العلم » .

اختلف المفسرون فى هذا المقطع من الآية الكريمة . . فى العلم الذى جاء إلى بنى إسرائيل ، وفى الاختلاف الذى وقع بينهم . .

فذهب بعضهم إلى أن العلم الذى جاءهم ، وأوقع الاختلاف بينهم ، هو التوراة . . ويعلّلون لهذا بأنهم كانوا قبل ذلك على حالٍ واحدة من الضلال ، فلما جاءتهم التوراة ، اختلفوا ، فمنهم من آمن ، ومنهم من كفر . .

وذهب آخرون إلى أن « العلم » هو النبى صلى الله عليه وسلم ، وما عرفوا من صفته فى التوراة ، وأنهم كانوا على اتفاق بأن نبياً قد يظهر من العرب ، وأن زمانه قد أظلّهم ، فلما جاءهم ما عرفوا ، تفرق رأيهم فيه واختلفوا : فكفر به أكثرهم ، وآمن به قليل منهم . .

والرأى عندنا . . أن يكون المراد بالعلم ، هو العلم على إطلاقه . .

ذلك أن العلم ، وهو نعمة من نعم الله ، وهدًى من هداه ، من شأنه أن يكون مصدرَ خير وهدى للناس ، ولكنه — شأنه شأن كل نعمة — كثيراً ما يكون سبباً فى الخلاف والتفرق . . الخلاف فى الرأى ، والتفرق شيعاً وأحزاباً ، تبعاً للاختلاف فى الرأى . .

وتلك حقيقة واقعة فى ماديات الحياة ومعنوياتها . .

المجتمعات الفقيرة ، التى تعيش على فطرتها وطبيعتها ، مجتمعات متوحدة المشاعر والعواطف ، متماسكة البناء . . ليس فيها طبقات ولا شيع ولا أحزاب . . كلها لون واحد ، وصبغة واحدة . .

فإذا كثُر رزقها ، وفاض الخير فيها ، وقع التمزق ، وانحلّت الروابط ، وتمايز الناس طبقات ، بعضها فوق بعض ، وأصبح الجسد الاجتماعى أشلاء ممزقة . . كل عضو فيه منفصل عن بقية الجسد . . فهنا عيون الناس ، وهناك رءوسهم . . وهنالك أيديهم . . وأرجلهم !

والعلم ، شأنه كهذا الشأن . . العلماء والحكماء والفلاسفة فى وادٍ ، والجهلة والعامّة فى وادٍ . . هؤلاء فى عالم ؛ وأولئك فى عالم آخر . .

ثم العلماء والحكماء والفلاسفة . . كل له رأيه ، وعلمه وحكمته ، وفلسفته . . كل له متجه فى تفكيره ، وفى نظره إلى الوجود ، وقربه ، وبعده من الحقيقة . . « كلُّ حزبٍ بما لديهم فَرِحون » .

وبنو إسرائيل ليسوا وحدهم هم الذين يثير « العلم » خلافاً بينهم ، ويجعلهم أحزاباً وشيعاً . . بل هذا هو شأن الناس جميعاً ـ كما قلنا ـ وإذن فالسؤال الوارد هنا هو :

لماذا اختُصّ بنو إسرائيل بالذّكر هنا ، وعرضوا فى معرض اللوم والتقريع ؟

والجواب على هذا ، هو أن ذلك تحذير للمسلمين من الخلاف الذى يجيئهم من واردات العلم ، كما اختلف الذين من قبلهم من بعد ما جاءهم العلم .

وقد نبه النبى الكريم فى هذا ، وحذر منه . . فقال صلوات الله وسلامه عليه : « لتتّبِعُنّ سَنَنَ الذين من قبلكم شِبراً بشِبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبّ لاتبعتموهم » .

ويقول النبي الكريم أيضاً ؟ وقد تنبأ بهذا الخلاف « اختلف اليهود

على ثلاث وسبعين فِرقة ، واختلف النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتختلف أمتى على إحدى وسبعين فرقة .. كلها فى النار إلا فرقة واحدة ، قالوا يا رسول الله : مَن هى ؟ قال : ماعليه أنا وأصحابى » .

وقد صدق الله العظيم ، وصدق رسوله الكريم .. فما أن ورد المسلمون موارد العلم ، وأخذوا بحظهم من الحكمة والفلسفة والمنطق وغيرها، حتى أجلبوا بكل هذا الذى أخذوه ، إلى كتاب الله ، وخرّجوا آياته عليه ، فوقع بينهم هذا الخلاف الذى عرفته الحياة ، وسجله التاريخ .. فقالوا بالجبر والاختيار ، وقالوا بالتنزيه والتجسيد ، وقالوا بخَلْق القرآن ، وبقدم القرآن ، وقالوا بإمكان رؤية الله ، وبعدم إمكان الرؤية .. وهكذا كان لهم فى كل مسألة آراء ، ينقض بعضها بعضاً .. وكانوا فرقاً بلغت إحدى وسبعين فرقة ، كما قال الرسول الكريم ..

ولكنْ هنا سؤال أيضاً :

كيف يتفق هذا ، ودعوة الإسلام إلى العلم ، وطلبه طلباً مفروضاً فى بعض الأحيان ، ومندوباً إليه فى بعض الأحيان الأخرى ؟ وكيف يتفق هذا وقد رفع الإسلام من قدر العلماء ، ونوّه بهم فى أكثر من موضع من القرآن الكريم ، وفى أكثر من حديث من أحاديث الرسول ؟

والجواب على هذا ، هو أن دعوة القرآن إلى العلم وطلبه ، والجدّ فى تحصيله لا يمنع من التحذير منه .. فهو سلاح ذو حدين .. إن لم يكن مع العلم تقوى وخشيةٌ من الله ، قتل به صاحبُه نفسَه ، وقتل كثيراً من الناس به ..

والخلاف فى الرأى — إذا تجرد من الهوى — خلاف لا ينكره الإسلام بل يزكيه ، لأنه اجتهاد فى طلب الحقيقة ، وتقليب للنظر فى التماسها ، وتعاون بين المختلفين على الوصول إليها .. يجيئون إليها من طرق شتّى ، وقد يلتقون

عندها ، وقد لا يلتقون ، ولكنهم جميعاً ينشدونها ، ويباركون من يَدُلّهم عليها ، ويَحمدون له اجتهاده وسبقه . .

وقد اختلف صحابة رسول الله فيما بينهم على كثير من المسائل .. ولكن هذا الاختلاف ، كان تمحيصاً للرأى ، وطلباً للحق ، وبلوغاً بالقلب والعقل إلى مقام اليقين والاطمئنان . .

فهذا هو العلم الذى يدعو إليه الإسلام ، ويبارك على أهله ، ويفتح لأبصارهم وبصائرهم صفحاتِ الكون كله ، ينظرون فيها نظراً مطلقاً غير مقيد بقيد . . وغاية ما يطلبه الإسلام من العالِم هنا ، هو أن يطوّف ما يطوف فى آفاق العلم ، ومعه إيمانه وتقواه . . ثم يعودُ آخر المطاف ، ومعه إيمانه وتقواه .

— وفى قوله تعالى : « إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » — إشارة إلى أن هذا الخلاف الذى وقع بينهم ، سواء كان عن طلب حقّ وهدى ، أو كان جرياً وراء هوى ومكرٍ بالناس ، فإن الله يعلم المحقّ من المبطل ، وسيجزى كلاً بما انعقدت عليه نيته . .

* قوله تعالى : « فإن كنت فى شكّ مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك . . لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين * ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونَ من الخاسرين » .

لم يكن الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى شكّ مما أنزل عليه من ربه ، ولم يكن يَطُوف به أى طائف من الشكّ أو الامتراء ، أو التكذيب .. وكيف وهو يرى ملكوت السماء عِياناً ؟ وكيف وقد ثبّت الله قلبه ، وأخلاه من كل وَسواس ؟ . وهل يشك صاحب الرسالة فى رسالة تلقّاها من ربه ، وأقرأه إياها مَلَك كريم من ملائكته . . يغدو ويروح إليه أياما ، وشهوراً ، وسنين ، وكيف يكون منه أثارة من شك أو تكذيب ؟ وهو الذى احتمل فى سبيل

رسالته تلك ما لا تحتمل الجبال من ضر وأذى ؟ أيكون من شكٍّ أو تكذيب ، ممن يُساوَم على هذا الذى بين يديه بالمال والسلطان ، فيقول : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر أو أهلك فيه ما تركته ! » . .

وإذن فما تأويل ما نجد فى الآيتين الكريمتين ، من هذا الحديث الموجّه إلى النبى الكريم من ربه سبحانه وتعالى ، من التحذير من أن يكون من الممترين أو من المكذبين ؟ . .

والجواب ـ والله أعلم ـ أن ذلك تعريض بأولئك الذين يكذبون بآيات الله ويمترون فيها ، من المشركين ، وأهل الكتاب ، ثم هو تهديد لهم ، ووعيد بالخيبة والخسران ، إن هم لم يبادروا ويأخذوا بحظهم من هذا الخير المرسَل من الله ، إلى عباد الله ! . .

ومن جهة أخرى ، فإن خطاب النبى من ربه هذا الخطاب ، يضع النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يضعه والناس جميعاً على سواء بالنسبة للقرآن الكريم ، وأنه ليس له فيه شىء . . إنه من عند الله ، ومن كلام الله ، وليس من كلام النبى ، ولا من كلام أحد من البشر ، وإنه عِلم يحمل إلى الناس فى آيات الله وكلماته . وأنه إذا كان للناس أن يشكّوا فى هذا العلم ويضعوه موضع الاختبار فليشكّوا ، وأنه إذا كان لهم أن يختلفوا على معطياته فيما بينهم فليختلفوا ـ ولكن على شريطةِ أن يكون ذلك فى سبيل الاهتداء إلى الحق والتعرف على ما يملأ العقل نوراً به ، والقلب اطمئناناً وسَكَناً إليه . . وإلا فهو اختلاف يفرّق ولا يجمع ، ويضر ولا ينفع ، كاختلاف بنى إسرائيل حين جاءهم العلم . .

وإذن ، فالنبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ، والناس جميعاً ـ هم على سواء أمام تلك الحقيقة العليا ، المنزلة من السماء . . ينظرون فيها ، ويتعرفون وجه

الحق منها ، وأنه يمكن فرضاً ـ وإن كان مستحيلا واقعاً ـ أن يشكّ النبى فى هذا القرآن ، وأن يُلقىَ نظرة فاحصة عليه ، ليتثبّت من الحقائق التى يُدعى إلى الإيمان بها .. وهذا حق مشروع له ، كإنسان ، قبل ألا يكون نبياً ..

وفى هذا ـ كما قلنا ـ ردّ مفحم على المشركين والكافرين الذين يدّعون أن هذا القرآن من عند محمد ، ومن مقولاته .. إذ مستحيل فرضاً وواقعاً أن يشكّ إنسان فى قول صدر منه ، أو يفترى ويكذّب بقول ، يعرضه على الناس ، ويدعوهم إلى التصديق به !!

— وفى قوله تعالى : « فاسأل الذين يقرءون الكتابَ من قبلك » . . هو دعوة لأهل الكتاب أن ينظروا فى هذا الكتاب العجيب ، الذى يشكّ فيه صاحبه ، وواضعه ، كما يزعمون ! ..

إن ذلك إغراء لهم بدراسة هذا الكتاب وتفحّصه ، إذ كان كتاباً شأنُ صاحبه معه ، هو هذا الشأن . .

ولا تطلب الدعوة الإسلامية إليهم وإلى غيرهم من المنكرين المكذبين أكثرَ من أن ينظروا فى هذا الكتاب نظر تفحص ، وإمعان . .

وإنهم لو فعلوا ، لعرفوا أنه الحق من ربهم .. وأنه إذا كان هذا الكتاب مُنزّلا على محمد ، هو منزل إليهم أيضاً .. كما يقول الله تبارك وتعالى : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباطِ .. » (١٣٦ : البقرة)

ومن جهة ثالثة ، فإننا إذ نقرأ قوله تعالى ، للنبى الكريم : « فإن كنتَ فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك » ـ نلمح فى وجه الآية الكريمة دعوةً إلى البحث والنظر ، وتقليب حقائق الأمور ، وعرضها

على العقل، ووزنها بميزانه ، قبل الأخذ بها ، وألاّ يقبلها قبولَ استسلام وإذعان من غير اقتناع قائم على الدراسة والتأمل ، ومهما كانت ثقة الإنسان فى مصدرها ، فإن هذا لا يَحرم العقلَ حقه من النظر فيها ، نظر بحث وتفحص !..

إن الشك ـ كما يقولون ـ هو أول مراتب اليقين ..

والمراد بالشك هنا هو الشك المثمر ، الذى يلقّح العقل بلقاح حب المعرفة والبحث عن الحقيقة ، وارتياد مظانّها ، وكشف وجهها سافراً مشرقاً . . فهذا شك وَلود للمعارف ، يضع بين يدى صاحبه محصولا وافراً من العلم الراسخ ، والحقائق الموثّقة ..

أما الشك الذى يصدر عن وَسواس ووهم ، فهو داء ، يقيم صاحبه دائماً على عِداء مع كل حقيقة واردة ، أو علم مستحدث.. وهذا هو الشك الذى ينكره العلم ، كما يبغضه الدين ، ويبغض أهله ..

الشك الذى تتحدث عنه الآية الكريمة فى قوله تعالى : « فإن كنت فى شكٍّ مما أنزلنا إليك » هو الشك الذى يدعو العقلَ إلى البحث الجادّ ، والنظر المدقق فى الحقيقة التى بين يديه ، فلا يهدأ ، ولا يستقر حتى يقع من الحقيقة على ما يملأ عقله وقلبه يقيناً بها ، واطمئناناً إليها .. ولقد جاء قوله تعالى بعد ذلك : « فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك » .. ثم جاء قوله تعالى بعد هذا . : « لقد جاءك الحق من ربك» تثبيتاً لهذا اليقين الذى يقع فى القلب من النظر فى آيات الله .. ثم جاء بعد ذلك قوله تعالى : « فلا تكونن من الممترين» دعوة إلى تجنب الامتراء والجدل فى البحث عن الحقيقة .. فإن هذا الامتراء هو الآفة التى تمسك يد الإنسان عن أن تصل إلى حقيقة أبداً .. ثم جاء بعد ذلك قوله تعالى : « ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين » دعوةٌ أخرى إلى تجنب التكذيب بالحقيقة حين يُسفر وجهها . . فذلك من

شأنه أن يَحرم الإنسان ثمرة بحثه عنها، وسعيه من أجل الحصول عليها .. وفى ذلك خسران أىّ خسران ..

فراحل البحث عن الحقيقة، كما تصورها الآيتان الكريمتان .. هى ثلاث مراحل :

● مرحلة الشك .. وفيها يتجه المرء بوجوده كله، إدراكا، وشعوراً، ونيّة ـ للبحث عن الحقيقة، والعمل فى إخلاص ودأب على الوصول إليها ..

* ومرحلة التمحيص لما يقع فى مجال النظر، من حقائق، تمحيصا معزولا عن المِراء والجدل ـ لمجرد الجدل ..

* ومرحلة الأخذ بما يؤدّى إليه النظر من البحث والتمحيص ..سلوكاً وعملاً .

ولا شك أن هذه هى أقوم السبل، وأعدل المناهج فى البحث عن الحقيقة في مجال العلم، والفنّ، والدين ..

« والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » ..

الآيات : (٩٦ — ١٠٣)

* « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ

عَلَى ٱلَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلِ ٱنْظُرُوا مَاذَا فِى ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْآيَاتُ وَٱلنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِّنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ آمَنُوا كَذٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ » (١٠٣)

التفسير :

حقت عليهم : أى وقعت عليهم ، ووجبت . .

كلمة ربك : قضاؤه وحكمه الذى أوجبه وأوقعه عليهم . .

والآية الكريمة تشير إلى ما لله سبحانه وتعالى من سلطان مطلق فى عباده ، يخلقهم كما يشاء ، لِما يشاء . . فتلك إرادته النافذة فيهم ، ومشيئته الحاكمة عليهم . .

وفى عباد الله ، مَن خلقهم الله لا يقبلون الإيمان ، ولا يكونون فى المؤمنين أبداً . . كما يقول سبحانه : « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » . . وكما يقول النبى الكريم: « إن الله سبحانه خلق الخلق فقبض قبضة بيده وقال هؤلاء للجنة ولا أبالى ، وقبض قبضة وقال هؤلاء للنار ولا أبالى . . رُفعت الأقلام وجَفّت الصحف » فقال الصحابة : « يا رسول ألا نتّكل وندع العمل بقدرنا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « اعملوا . فكلٌّ ميَسّر لما خُلق له . . فأهل الجنة للجنة ولها يعملون وأهل النار للنار ولها يعملون » .

* « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يَرَوُا العذاب الأليم » إنهم لا يؤمنون أبداً إيمانَ اختيار ورِضا ،

ولو جاءتهم كل آية قاهرة معجزة . . إن قَدَرهم يمسك بهم على ما أرادهم الله له ، ولن يتحولوا عنه . .

أما إيمانهم عند الموت ، أو عند مشاهدة أهوال يوم القيامة ، فلن يُحسب إيمانا ، لأنه كما قلنا إيمان المكره المضطر ، وإنه : « لا إكراه فى الدين » .

وهنا تثور فى النفس خواطر ، وتدور فى الرءوس تساؤلات .

لم هذه التفرقة بين الناس ، وهم جميعاً عباد الله وصنعة يده . . فيكون فيهم السعيد والشقى ، بِقَدَرٍ مقدور عليه ، قبل أن يولد ؟

وعلى أى أساس قامت هـذه التفرقة بين أصحاب الجنة وأصحاب النـار ؟ فمواليد يولدون للجنة ، ومواليد يولدون للنار ؟

أسئلة كثيرة تدور هنا ، قلّ أن يكون إنسان فى الناس ــ إلا من عصم الله ــ لم تعرض له هذه القضية ــ قضية القضاء والقدر ــ فيلقاها مواجهاً ، أو مجانباً ، أو حذراً ، أو متخوفاً . .

فالنـاس جميعاً مبتلوْن بهـذه المشكلة . . وإن اختلفت مواقفهم منها ، وتباينت نظراتهم إليها . .

وسيكون لنا موقف — إن شاء الله — مع هذه القضية ، نستعرض فيه بعضاً من نظرات الناظرين إليها ، وما حصّلته تلك النظرات من خير أو شر . ثم نعرض رأى « الإسلام » وموقف المسلم من هذه القضية . .

* قوله تعالى : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانُها إلا قوم يونس لمـا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » .

« لولا » هنا بمعنى هلاّ ، يراد بها الاستفهام ، ويراد من الاستفهام بها الحثّ والحض على فعل المستفهَم عنه بعدها ، والإغراء به .

والمعنى : هلاّ كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ؟!

والمراد بالقرية هنا ، « مكة » . . وقد أشار إليها القرآن الكريم بهذا الاسم فى أكثر موضع ، فقال تعالى : « وكأىٍّ من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصِرَ لهم » (١٣ : محمد) وقال سبحانه : « وقالوا لولا نُزِّل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (٣١ : الزخرف) . . وهذه مقولة المشركين من أهل مكة ، يحكيها القرآن عنهم ، وهم يريدون بالقريتين ، مكة ، والطائف . .

والمفسرون مجمعون على أن هذه القرية مجرد قرية ، أية قرية من تلك القرى التى أهلكها الله ، ولم تؤمن كما آمنت قرية « يونس » وهى « نِينَوَى » .

والذى نستريح إليه ، ونطمئن له ، هو هذا الرأى الذى ذهبنا إليه ، وهو أن المراد بالقرية هو « مكة » . . وقد جئنا من القرآن الكريم بما يدل على أنه يطلق عليها اسم « قرية » ، وإن كان القرآن قد ذكرها مرة بأنها أم القرى !

ولنا على ذلك أيضاً :

أولا : أن تنكير القرية يكاد يصرح بأنها « مكة » وأن كلمة قرية هو عَلَم عليها ، وذلك بالإشارة بدلالة الحال عليها . . والتقدير : فهلا كانت قرية اسمها مكة آمنت فنفعها إيمانها ؟

ثانياً : فى قوله تعالى بعد هذه الآية مباشرة : « ولو شاء ربك لآمن مَن فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » . . وفى هذا عزاء للنبى ، وتسرية عنه ، مما يحتمل فى نفسه من هموم على أهل هذه القرية التى يأبى عليه أهلها — وهم أهله وعشيرته — أن يستجيبوا له ، وأن يأخذوا طريق النجاة الذى يدعوهم إليه .

وثالثاً : فى قوله تعالى : « آمنت فنفعها إيمانها » ـ وفى هذا الحديث عن القرية بالماضى ، وهو الذى لفَتَ أنظار المفسرين إلى أنها من القرى الغابرة ـ فى هـذا إشارة إلى أن المراد بالقرية هى مكة . . والحديث عنها بالفعل المـاضى يشير إلى أن إيمانها قد تأخر كثيراً ، وأنه كان المتوقع منها أن تـكون أولَ من يستجيب للنبى . . لأنه أحد أبنائها . . تعرفه ، وتعرف نسبه فيها ، ونشأته بين أبنائها ، وما عهدت فيه من صدق ، وأمانة ، وعفة ، واستقامة ، مما لم تعهده فى شبابها أو شيبها . . ولأنها تملك اللسان العربى الذى التقت عليه ألسنة العرب جميعاً ، والذى نزل القرآن به . . فهى أقدر العرب جميعاً على النظر فى المعجزة التى جاءها بها هذا النبى ، فى كتاب كريم ، تنزيل من رب العالمين .

فلو أن هـذه القرية استجابت للنبى الـكريم من يوم أن حَمل إليها رسالة ربه ، ودعاها إلى الإيمان به ، لنفعها إيمانها ، ولـكانت فى ذلك الوقت ، الذى تسمع فيه قول الله هذا ، على حال غير حالها تلك ، وعلى صفة غير صفتها هذه ، التى هى عليها الآن ، من كفر ، وضلال . .

— وفى قوله تعالى : « إلاَّ قومَ يونس لمـا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » .

فى هذا ما يُسأل عنه ، وهو :

مامعنى « إلا » الاستثنائية هنا ؟ وأين المستثنى منه ؟

ونقول إن « إلا » هنا ليست أداة استثناء ، وإنمـا هى حرف استدراك بمعنى « لـكن » . . ولمـا كان الاستثناء ، يفيد فى مضمونه معنى الاستدراك والتعقيب على المستثنى منه فقد حَسُن استعمال « إلا » مكان « لـكن » إذ كانت قرية يونس تـكاد تـكون استثناء بين القرى التى جاءها رسل الله ، فـكفرت ، ولم يؤمن منها إلا هذه القرية . فأداة الاستثناء هنا تفيد استثناء

واستدراكا معاً . . لفظها الاستثناء ، ومعناها الاستدراك . . وذلك من خصوصيات النظم القرآنى وحده !

وعلى هذا فمعنى الآية الكريمة : هلا أسرعت مكة إلى الإيمان بالنبى المبعوث منها وفيها ، فانتفعت بهذا الإيمان قبل غيرها ، لأنها أولى به ، إذ كان مطلعه فى أفقها ؟ ولكن الواقع أنها لم تؤمن ، فحرمت هذا الخير ، وأصبحت فى معرض نقمة الله وبلائه .. هذا هو موقف هذه القرية ، وذلك هو حال معظم الأقوام مع أنبيائهم . . إلا قوم يونس ، فإنهم آمنوا ، فنجاهم الله من العذاب الذى أوشك أن يحل بهم ، ومتعهم بما كانوا فيه ، إلى أن انتهت آجالهم المقدورة لهم . .

— وفى قوله تعالى : « لمّا آمنوا » إشارة إلى أن قوم يونس لم يبادروا بالاستجابة لرسولهم ، بل كان منهم تلكؤ وتعللٌ ، ولكنهم آمنوا آخر الأمر ، فتداركهم الله برحمته ، وشملهم بعفوه .

وانظر فى « لمّا » هذه ، واستمع إلى مايقع لأذنك من نغمها الممتد المتماوج ، وما فيه من رِعشة واهتزاز ، تجد أنها تحكى فى دقة وروعة تلبث القوم ، وتلكأهم واضطراب خطوهم ، قبل أن يؤمنوا ، ويستقيموا على طريق الحق !

وانظر مرة أخرى فى هذا الذى لمحته من الحرف « لمّا » وما طلع عليك به من إشارات مضيئة ، كشفت لك عن حال تلك القرية ، قرية يونس ، وما كان من توقفها ، وتلكئها ، ثم استجابتها لرسولها ، والإيمان بربها ، والانتفاع بهذا الإيمان — تجد وجهاً آخر من وجوه الإعجاز القرآنى ، فيما يجىء به من أنباء الغيب ، وأن قريشاً ستأخذ مأخذ قوم يونس ، وأنهم إذ يقفون من النبى هذا الموقف العنيد العنيف ، ستكون خاتمة أمرهم ، الإيمانُ بالله ، والانتفاع بهذا

الإيمان ، كما كان الشأن فى قوم يونس . . وقد كان ! فآمنت قريش ، وانتفعت بإيمانها وانتفع الإسلام بهذا الإيمان .

* قوله تعالى : « ولو شاء ربك لآمن مَنْ فى الأرض كلُّهم جميعاً أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » .

وإذا كان قوم يونس قد آمنوا ، وإذا كانت قريش ستدخل فى الإيمان . فإن ذلك كله رهن بمشيئة الله . . فما آمن مؤمن إلا كان إيمانه عن مشيئة الله ، وقدره المقدور له . .

وإذن فهؤلاء الذين سبقوا إلى الإيمان من أهل مكة ، هم ممن شاء الله لهم الإيمان ، وأرادَ لهم الخير . . وهؤلاء الذين لا يزالون على كفرهم وضلالهم ، هم ممن لم تدركهم رحمة الله بعد ، وهذا منادِى الحق يناديهم إلى الله ، ويدعوهم إلى ظلال رحمته . . فليستجيبوا لله ، وليَسعَوْا إلى هذا الخير ، وليأخذوا بحظهم منه ، فقد يكونون ممن شاء الله لهم الإيمان ، فتلْقاهم مشيئته ، وهم على الطريق إليه ..

إنه مطلوب من كل إنسان أن يسعى ، وأن يطلب الرزق من مظانّه.. والإيمان بالله هو أعظم الرزق وأطيبه — فإذا كان ممن أراد الله لهم الخير ، أخذ حظه منه ، وإلا فقد سعى سعيه ، ولكن إرادة الله هى الغالبة ، ومشيئته هى النافذة . . «ولو شاء ربك لآمن مَنْ فى الأرض كلُّهم جميعا» ولأصبح الناس كلهم على طريق مستقيم . . ولكن لله حكمة ، فى أن فرق بين الناس ، فكان منهم الصالح ، والطالح ، والمستقيم ، والمنحرف ، والمؤمن ، والكافر ، « ولا يزالون مختلفين إلاّ من رحِم ربك.. ولذلك خلقهم » (١١٩ : هود) .

— وفى قوله تعالى : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » — عزاء للنبي الكريم . ومواساة له عن مصابه فى قومه الذين أبوا أن يستجيبوا له ، وأن يتقبلوا الخير الذى جاءهم به . .

إنه لا إكراه فى الدين ، وذلك لأمرين :

الأمر الأول : أن الدّين عقيدة ، والعقيدة إيمان بالمعتقَد فيه ، والإيمان بالشىء لا يكون حتى يرضاه العقل ، وتميل إليه النفس ، ويطمئن له القلب .. وليس فى شىء من هذا مكان للإكراه ، بل إن الإكراه هو الآفة التى تحجب القلب عن الإيمان ، وتغتال الإيمان إذا هو وجد طريقاً إلى القلب .

والأمر الثانى : أن القلوب وهى مستودع الإيمان ، هى يد الله سبحانه وتعالى ، إن شاء ساق إليها الإيمان ، وهيأها لاستقباله ، ونفعها به ، فأزهر فيها وأثمر ، وإن شاء صَرَفها عن الإيمان ، وختم عليها ، فلم تقبله ، ولم تنتفع به .. « ولو شاء ربك لآمن مَن فى الأرض كلهم جميعاً » ..

وعلى هذا ، فإنه غير مطلوب من الرسول أن يُكره أحداً على الإيمان بالله .. لأنه لن يؤمن مؤمن إلا عن مشيئة الله وإرادته .. ثم لأن الإيمان عن إكراه هو زرع فى أرض مجدبة ، لا تنبت زرعاً ولا تطلع ثمراً . ! « فإنما عليك البلاغُ وعلينا الحساب » (٤٠ : الرعد) .

* قوله تعالى : « وما كان لنفسٍ أن تؤمِنَ إلا بإذن الله ويَجْعَلُ الرِّجس على الذين لا يعقلون » هو تعليل للإنكار الذى تضمنه الاستفهام فى الآية السابقة : « أفأنت تُكرهُ الناس حتى يكونوا مؤمنين » .. ذلك أنه إذا كان الإيمان رهناً بمشيئة الله ، فليس يُجدى بحال أبداً هذا الحرص الشديد ، الذى يبدو من النبىّ ، وهو يدعو أهله وقومَه إلى الإيمان بالله ، وإن المطلوب منه هو أن يرفع مصباح الهدى للناس ، وأن يكشف لهم به الطريق إلى الله .. فمن كان ممن أراد الله لهم الهداية اهتدى ، ومن كان ممن أضلّهم الله ، فلا هادى له .. والله سبحانه وتعالى يقول : « وما أكثرُ الناس ولو حرصتَ بمؤمنين » .

— وفى قوله تعالى : « ويجعلُ الرِّجْس على الذين لا يعقلون » .

الرجس : القَذَر ، والنجَس ..

ووضع الرجس فى مقابل الإيمان ، إشارة إلى أن الإيمان طُهرٌ ، وتزكية ، وتطييب للمؤمن .. على خلاف الكفر ، فإنه قَذَر ، ونَجَسٌ ، ورجسٌ ، يلبس صاحبَه ، ويشتمل عليه ، كما يَلْبَس الجلدُ الجسدَ ويحتويه !

وفى وضع الذين « لايعقلون » ، بدل الذين « لايؤمنون » كما يقضى بذلك السياق ـ إشارة أخرى إلى أن الكفر هو وليد الجهل والحمق ، وعدم استعمال العقل وتوجيهه إلى تعقّل الآيات المبثوثة فى هذا الكون ، الذى تتجلّى فى آفاقه آيات الخالق ، المبدع ، وقدرة الحكيم العليم ، الخالق ، المصوِّر .

ولهذا جاء قوله تعالى بعد ذلك :

* « قُل انظروا ماذا فى السموات والأرض وَما تغنى الآيات والنُّذُر عن قوم لايؤمنون » جاء داعياً إلى توجيه العقل إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وقراءة ماسطرته يد القدرة على هذا الوجود من آياتٍ ناطقة ، تحدِّث عن الخالق العظيم ، وتسبِّح بحمده ، فى وَلاء ، وانقياد وخشوع !

— وفى قوله تعالى : « وما تغنى الآياتُ والنُّذر عن قوم لايؤمنون » ـ توكيدٌ لما قررته الآيات السابقة ، من أنه لاتؤمن نفس إلا بإذن الله .. وأن النظر فى ملكوت السموات والأرض، وإن كان مطلوباً من كل عاقل أن ينظر فى هذا الملكوت ، وأن يطيل النظر فيه دارساً متفحصاً ، باحثاً عن دلائل وجود الله ، وما له فى هذا الملكوت من إبداع ، وما له عليه من سلطان ـ هذا النظر لن يصل بصاحبه إلى الإيمان ، ولن يفتح قلبَه له ، إلا إذا كان هذا الناظر ممن أراد الله لهم أن يكونوا مؤمنين .. أما الذين قدّر الله عليهم ألا يؤمنوا ، فلن يؤمنوا ، أبداً ، ولو نطقت أمامهم الآيات ، وأسمعتهم ما أودع الخالق فيها من بديع صُنعه ، وروائع حكمته وقدرته .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « إن الذين

كفروا سَوَاءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تُنْذرهم لا يؤمنون » (٦ : البقرة) .

وهذه هى قضية القضاء والقدر .. وقد وعدنا أن نعرِض لها ، وسنعرض لها إن شاء الله فى سورة الكهف .

* قوله تعالى : « فهل ينتظرون إلاّ مِثْلَ أيام الذّين خلَوْا من قَبْلِهم قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين » هو تهديد لهؤلاء الكافرين ، ووعيد لهم ، بما ينتظرهم من بلاء وعذاب ، وإنه كما أُخذ الذين كفروا من قبلهم بالهلاك ، سيؤخذون هم به .. فلينتظروا فلينظروا ، وليستقبلوا مايطلع عليهم من وراء هذا الانتظار ، من نقم الله ، وما تحمل إليهم من مهلكات . وماتسوق إليهم من بلاء ونكال ..

* قوله تعالى : « ثم نُنجّى رُسُلَنَا والذينَ آمنوا كذلك حقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ المؤمنين » ..

هو تبشير للمؤمنين ، وتطمين لهم من أن يصيبهم شىء من هذا المكروه الذى سيحّل بالكافرين .. فالمؤمنون بمنجاة من هذا المكروه .. إنهم مع رُسل الله ، وإن الله سبحانه وتعالى لن يتخلّى عن رسله ، ولن يُريهم منه إلا مايسرّهم من الأمن والعافية ، والدرجات العليا عنده .. وكذلك المؤمنون الذين اتّبعوا الرسل .. إنهم معهم حيث يكونون .. فالمرء مع من أحبّ .. وفى هذا خزىٌ للكافرين ، إذ حُرِموا من أن ينالوا شيئاً من هذا الذى يَنْعم فيه المؤمنون مع رسل الله .. من نصر الله وتأييده ..

— وفى قوله تعالى : « كذلك حقًّا علينا نُنْج المؤمنين » إشارة إلى أن هذا الوعد الذى وعده الله رسلَه والمؤمنين ، هو وعدٌ حقٌّ لاشكّ فيه ، قد أوجبه الله على نفسه ، فضلا وكرماً ، كما يقول سبحانه وتعالى : « وكان حقًّا علينا نَصرُ المؤمنين » .. وكما يقول سبحانه : « كَتَبَ الله لأغلبَنّ أنا ورُسُلى إن الله قوىٌّ عزيز » . (٢١ : المجادلة)

وفى جزم الفعل « نُنْجِ » ما يكشف عن مزيد من فضل الله وكرمه وإحسانه إلى عباده المؤمنين .. ففى مجىء الفعل « ننج » مجزوماً ، ولاجازم له ، يفتح الطريق إلى تقدير فعل أمر ، ليقع هذا الفعل تحت سلطان الأمر من الله سبحانه وتعالى .. وهو أمر من الله سبحانه ، إلى الله سبحانه ! !

والتقدير : كذلك حقًّا علينا إنجاء المؤمنين .. فلْنُنْجِهم إذن ! !

فسبحانه من ربّ كريم ، يفُيض على المؤمنين من عباده مالا يفيض الأب البرّ الرحيم على صغاره ، من حدبه ، وعطفه ، وتبسطه معهم ، وتدليله لهم . !

الآيات : (١٠٤ — ١٠٧)

* « قُلْ يٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى شَكٍّ مِّنْ دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ ٱلظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ » (١٠٧)

التفسير :

* قوله تعالى : « قل يٰأيُّها الناسُ إن كنتم فى شكٍّ من دينى فلآ أعبدُ الذين تعبدُون من دون الله ولٰكنْ أعْبُدُ الله الذى يتوفا كم وأُمرتُ أن أكون من المؤمنين » .

المراد بالنّاس هنا هم المشركون ، الذين لم يستجيبوا للرسول ، وأمسكوا بما هم عليه من شرك وضلال .. وجواب الشرط هنا جاء على غير مايقتضيه السياق ..

فالشرط وهو قوله تعالى : « إن كنتم فى شك من دينى » مطلوبه أن يكون الجواب على هذا النحو .. فلا تدخلوا فى هذا الدين .. أو : فأنتم وشأنكم ..

ولكن الجواب الذى جاء به القرآن الكريم ، هو الجواب الذى لايجىء إلاّ من الحكيم العليم .. رب العالمين .. هكذا : « فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله » .. وفى هذا الجواب تنكشف أمور :

فأولاً : أن النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ متمسِّك بهذا الدين ، الذى يشكّ فيه هؤلاء الشاكّون ، وأن شكوكهم لاتثير فى نفسه أىّ ريب فى هذا الحق الذى بين يديه . . وفى هذا ماينبىء عن ثقة النبىّ ، ويقينه ، بهذا الدّين الذى يؤمن به ، ويدعو إليه .

وثانياً : أن النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لن يتحول عن هذا الدّين ، إلى الدّين الذى عليه هؤلاء المشركون ، ولن يعبد تلك الآلهة التى يعبدونها من دون الله ..

وثالثاً : أن هذه الآلهة التى يعبدونها هى الضلال .. ولايعبدها إلاّ الضالّون ، ولا يمسك بهـا إلاّ المبطلون .. وأن آلهتهم تلك لاتملك لهم ضرًّا ، وأنهم لو تركوها ، ونفضوا أيديهم منها ، فلن تضرّهم شيئاً .. أما الله سبحانه وتعالى ، الذى يعبده « محمد » ويدعو إلى عبادته ، فهو الذى يملك الضُّرّ لهم .. إنه هو الذى يتوفّاهم ، ويتولىّ حسابهم وجزاءهم على ما كان منهم من كفر وضلال .

رابعاً : أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ متّبع لما أُمِرَ به ، وهو أن يكون

من المؤمنين .. فهو من المؤمنين ، لأنه مؤمن بهذا الدّين الذى أمر أن يَدين به ، وهم غير مؤمنين ، لأنهم لا يدينون بدين الله ..

* قوله تعالى : « وأن أَقِم وجْهك للدِّين حنيفاً ولا تكونَنّ من المشركين » .

« الواو » هنا فى قوله تعالى : « وأنْ أقم وجهك » هى واو العطف ، على تقدير أن الخبر قبلها وهو قوله تعالى : « وأمرت أن أكون من المؤمنين » هو فى معنى الأمر ، أى تلقيت هذا الأمر ، بأن قيل لى : كن من المؤمنين ، «وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ، ولا تكونن من المشركين » فجملَ قولَ الله سبحانه وتعالى له ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أمراً لازماً لا انفكاك له منه ، وهذا أبلغ فى الدلالة على الامتثال والطاعة والولاء ..

وإقامة الوجه على الأمر : فى قوله تعالى : « وأن أقم وجهك للدين حنيفاً » كناية عن الاشتغال به وحده ، دون التفاتٍ إلى سواه .. ومنه قوله تعالى : «يَخْلُ لكم وجه أبيكم » (٩ : يوسف) .. وذلك أن الوجه إذ يستقيم على طريق، فإنه لا يلتفت إلى طرق أخرى .. فإقامة الوجه على الدّين : توجيه الوجه إليه كله ، دون أن يخطف خطفة ببصرٍ إلى غيره ..

والحنيف : هو المائل عن طريق إلى طريق .. والمستقيم على دين الله ، قد مال باستقامته تلك عن كل طريق ، وأخذ طريق الله طريقاً ..

وفى التعبير بلفظ « الحنيف » بمعنى المائل عن الضلال إلى الحق ، إشارة إلى أن أكثر الطرق هى طرق الضلال ، وأكثر الناس هم الضالون ، القائمون على هذه الطرق .. وخروج إنسان من الناس عن هذه الطرق ، وميله عن الجماعات التى تسلكها ، هو أمرٌ يحتاج إلى مكابدة وعناء ، كما أنه أمر مُلفتٌ للنظر ، جديرٌ بالتنويه .. فهو أشبه بالخروج على الإجماع !

ـــ وفى قوله تعالى : « ولا تكونَنّ من المشركين » تعريض بالمشركين ،

وتهديد لهم، إذ كانوا على أمرٍ محظور منهىٍّ عنه، يتعرض مقترفُه للنقمة والبلاء ..

* قوله تعالى: « ولا تَدعُ من دون الله مالا ينفعُك ولا يضرُّك فإن فعلْتَ فإنّك إذا من الظالمين » هو تعريض أيضاً بالمشركين، وتهديد لهم، وأنهم يعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرّهم، وأنهم بهذا قد ظلموا أنفسهم، وباعوها فى سوق الضلال، بهذا النقد الزائف، الذى لاقيمة له إذا عُرض فى سوق الحق!

وفى خطاب النبيّ صلوات الله وسلامه عليه بهذا النهى، تغليظ لشناعة المنهىّ عنه، وتهويل للخطر الذى يتهدد الناسَ منه، وأن على كل إنسان أن يوقظ وجودَه كله، حتى لايقع فى هذا المحذور أو يدنو منه .. وكفى أن يكون المنهى عنه هو الشرك بالله، وكفى أن ينبّه النبيّ الكريم إلى هذا الخطر، وهو أعلم الناس به، وأبعدهم عنه.

* قوله تعالى: « وإن يَمْسَسْكَ الله بضر فلا كاشف له إلاّ هو وإن يُرِدْك بخير فلا رآدَّ لفضله يُصيبُ به من يشاء من عباده وهو الغفور الرّحيمُ ».

إن الذى يعبده المشركون من آلهة، هو سرابٌ خادع، ووهمٌ باطل .. إنها لاتملك ضرًّا ولا نفعاً .. وإن الذى يملك الضرّ والنفع هو الله سبحانه وتعالى وحده، لاشريك له فى هذا الوجود، ولا فيما يجرى على هذا الوجود من أمور

فإذا مَسّ الإنسانَ ضُرٌّ ـ أىّ ضُر ـ فلا يكشف هذا الضرّ عنه إلا الله ..
وإن أصابَ الإنسانَ خيرٌ ـ أى خير ـ فهو مما أراده الله، وقدّره، وأجراه له .. لايستطيع أحدٌ فى هذا الوجود أن يُردّه، أو يُنقِصَ منه، أو يؤخر وقته المقدور فى علم الله ..

وفى توجيه الخطاب إلى النبىّ بهذا الحكم الذى قضى الله به فى عباده، مايُشعر بأن النبىّ ـ وهو مَن هو عند الله، قرباً وحبّاً ـ خاضع لهذا القضاء ..

فما يصيبه من خير هو من عند الله .. إنه لايملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً .. فكيف بمن هم ليسوا على هذه المنزلة عند الله ، من قرب وحب ؟

— وفى قوله تعالى : « وهو الغفور الرحيم » إشارة إلى أن المغفرة والرحمة من الله لعباده ، هى شأنه فى خلقه..حتى مايقع بهم من مكروه وضرٍّ ، هو محفوف بالمغفرة ، محمول بيد الرحمة .. وحتى مايلقى المشركون والضّالون من نقمة الله وعذابه ، هو واقع تحت رحمة الله بهم ومغفرته لهم ، ولولا ذلك لما تنفّسوا نفَساً واحداً فى هذه الدنيا .. ! كما يقول سبحانه : « ولو يؤاخذ الله النّاسَ بظلمهم ماترك عليها من دابة » (٦١ : النحل) .

الآيتان : (١٠٨—١٠٩)

« قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ * وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ » (١٠٩)

التفسير :

بهاتين الآيتين تُختتم السورة الكريمة ، فيجىء ختامها متلاقياً مع بدئها ، ويكون مابين البدء والختام ، عرضاً شارحاً لمضمون البدء والختام !

فقد بدأت السورة هكذا : « الر * تلك آيات الكتاب الحكيم * أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشرِّ الذين آمنوا أن لهم قَدَم صِدْقٍ عند ربّهم قال الكافرون إنّ هذا لساحر مبين » .. وفى هذا البدء إعلان عن هذا الكتاب الحكيم الذى بُعث به النبىّ الكريم إلى الناس ، يدعوهم إلى الإيمان بالله ، وينذرهم بعقابه ، ويبشرهم برحمته ورضوانه ، فعجبوا أن يكون ذلك الكتاب السماوىّ فى يد رجلٍ منهم ، وقال الكافرون تلك القولة المنكرة : « إنّ هذا لساحرٌ مبين » .

ثم تأخذ السورة بعد ذلك فى عرض قدرة الله ، وما أبدع وصوّر فى هذا الوجود ، وفيما يقع لنظر الناظرين فيه من دلائل وجود الله ، وعلمه ، وحكمته .. فأخذ بعض الناس بحظهم من النظر السّليم فآمنوا ، وزاغت أبصار كثير منهم ، فكفروا .. ثم تعرض السورة بعضاً من مشاهد القيامة ، وما يلقى الكافرون المكذّبون من بلاء وعذاب ، وما ينالُ المؤمنون من نعيم ورضوان .. ثم تعود فتنقل النّاس من مشاهد القيامة إلى هذه الدنيا التى هم فيها ، وتَعرِض لأبصارهم ما أخذ الله به الظالمين ، من القرون الماضية ، من بأسه ونقمته ، على حين عافَى المؤمنين من هذا البأس وتلك النقمة ، وأولاهم عزّاً ونصراً ..

ثم تختتم السورة بهاتين الآيتين ، بهذا الإعلان العامّ ، الذى بدأت به ، فتصل منه ما انقطع : « قل يـٰأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم » وهو هذا الكتاب الحكيم ، الذى جاءكم من ربكم : « فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه » إذ ارتاد الخير لها ، وغرس فى مغارس الخير ، وهو الذى يجنى ثمر هذا الخير ، ويضمه إلى يده ، لا يناله غيره .. « ومن ضلّ فإنما يضلُّ عليها » ، إذ عمى عن طريق الحق ، وركب مركب الضلال ، فإذا ورد موارد الهلاك ، فلا يلومَنَّ إلا نفسَه .. « وما أنا عليكم بوكيل » .. إذ ليس الرسول وكيلاً عنهم ، يعمل لهم ، كما يعمل الوكيل لمن وكله عنه . . فليس أحد مغنياً عن أحد ، ولا أحد موكَّلاً عن أحد ، بل هى المسئولية الذاتية ، يحملها كل إنسان عن نفسه .. إذ كان للإنسان وجوده ، وكانت له ذاتيته وشخصيته ، وبهذا فلا يصح أن يضع إنسان نفسَه تحت وَصاية أحدٍ ، أو يُعفِى نفسه من العمل ، بإقامة وكيل عنه ، لأن هذا الوكيل الذى يريد أن يقيمه ، هو نفسُه مطالب بالعمل لنفسه ، وبتحصيل الخير لها .. حتى ولو كان رسولَ الله نفسَه ..

وفى هذا تكريم للإنسان ، وتصحيح لوجوده ، وتسليم بحقه الكامل فى

هذا الوجود ، وأن عليه أن ينظر إلى نفسه وحده ، وأن يأخذ لها بحظها من سعيه وعمله .. إنه إنسان رشيدٌ عاقل ، فكيف يقبل هو ، أو يُقبل منه أن يُحِلَّ نفسَه من إنسانيته ، وعقله ، ورشده ، ليكون طفلا قاصراً ، يفكّر له غيره ، ويعمل له سواه ؟ ذلك حساب مغلوط لا يُقبل منه أبداً ، ولو قبله هو على نفســه .. !

— وفى قوله تعالى : « وما أنا عليكم بوكيل » ، وفى تعدية اسم المفعول : « وكيل » الذى هو بمعنى موكّل بحرف الاستعلاء « على » بدلا من حرف المجاوزة « عن » ـ فى هذا ما يُشعر بأن النبي الكريم ـ وهو مَن هوّ فى مقامه الرفيع فوق الناس جميعاً ـ ليس له أن يكون وكيلا عن أحد من الناس ، وإنما كل إنســان له وعليه مسؤليته الكاملة ، يحملها وحده . .

وهذا ـ كما قلنا ـ تشريف للإنسان ، وتكريم له .. وأن كل إنسان جدير به أن يأخذ مكانه فى الناس ، وأن يعمل ما وسعه العمل ، ليبلغ المكان الذى يستطيعه بعمله واجتهاده . . فالطريق أمامه مفتوح ، لا يقف فى سبيله أحد ! ..

* قوله تعالى : « واتبع ما يوحىٓ إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » .. فذلك هو الرسول الإنسان .. إنه يحمل مسئوليته كاملة . . . فيتّبع ما يوحى إليه من ربه ، ويستقيم عليه .. إن ذلك هو ميدانه الذى يعمل فيه ، ويدعو الناسَ إلى العمل فيه معه .. فمن استجاب له ، قَبِلَه ،وضمّه إليه ، ومن أبى فما على الرسول إلا البلاغ ، وليصبر الرسول حتى يحكم الله بما قضى به فى عباده ، وهو خير الحاكمين .. لا يحكم إلا بالعدل ، ولا يقضى إلا بالحقّ ، فيجزى المحسنين بإحسانهم ، ويأخذ المذنبين بذنوبهم ، إن شاء ، أو يعفو عنهــم .. !

١١ - سورة هود

نزولها : مكية . . بإجماع . .

عدد آياتها : مائة وثلاث وعشرون آية .

عدد كلماتها : ألف وتسعمائة وإحدى عشرة كلمة .

عدد حروفها : سبعة آلاف وستمائة وخمسة أحرف .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٥)

* « الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » (٥)

التفسير : تبدأ هذه السورة الكريمة بما بدأت به السورة التي قبلها ، سورة « يونس » بذكر الكتاب الحكيم ، الذى أوحى إلى الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه .. فهى تصف الكتاب بالحكمة ، « كتاب أحكمت آياته » وقد وصفته السورة التى قبلها بأنه كتاب حكيم : « تلك آيات الكتاب الحكيم » ثم تعطيه وصفاً آخر ، هو أن الحكمة التى اشتمل عليها ، لم تكن حكمة مجملة مغلقة ،

بل هى حكمة مفصلة ، واضحة مشرقة ، تنالها أفهام الناس جميعاً ، ويشارك فيها الحكماء وغير الحكماء ، لأن الذى أحكمها هو الذى فصّلها . . فهو « حكيم » يملك الحكمة كلها .. « خبير » يضع كل شيء موضعه . .

— وفى قوله تعالى : « آلر » إشارة إلى أن هذه الكلمة ، فى حروفها الثلاثة ، الألف ، واللام ، والراء . . هى الكتاب كله ، وهى الحكمة كلها.. ولكنها غير مدركة لأفهام البشر ، فهى مجمل المجمل من الحكمة ، وعلم مجملها ومفصّلها عند « الحكيم » وحده ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

— وفى قوله تعالى : « أُحكمت آياته » هو تفصيل مجمل لهذه الحكمة المجملة « فى آلر » .

— وفى قوله تعالى : « ثم فُصّلت من لدنْ حكيم خبير » هو تفصيل لمجمل هذه الحكمة المجملة ، وقد فصّلها حكيم خبير .

* وقوله تعالى : « ألاَّ تعبدُوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير »

هو من تفصيل هذه الحكمة التى حملها هكذا الكتاب الحكيم ، واشتمل عليها ..

فالدعوة إلى الإيمان بالله ، وإخلاص العبادة له وحده ، والتحذير من عقاب الله ، والتبشير بثوابه — هى مضمون هذا الكتاب الحكيم ، ومحتواه !.

والضمير فى « منه » يعود إلى الله سبحانه وتعالى : « ألاَّ تعبدوا إلا الله . إننى لكم منه » أى من الله ، « نذير وبشير » ..

* قوله تعالى : « وأن استغفروا ربّكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى

أجلٍ مسمًّى ويؤتِ كلَّ ذِى فضلٍ فَضْلَه وإن تولَّوا فإنىٍّ أخاف عليكم عذابَ يوم كبير » ..

هو معطوف على قوله تعالى : « ألاّ تعبْدوا إلا الله ».. و « تولوا » مضارع أصله تتولّوا ، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً ، أى إن الذى أدعوكم إليه بهـذا الـكتاب الحـكيم ، هو : « ألا تعبدوا إلا الله » .. «وأن استغفروا ربكم ثم توبو ا إليه » .. استغفروه مما يقع منكم من معاصٍ، ثم توبوا إليه مما ترتـكبون من آثام ..

وفى العطف « بثم » إشارة إلى أن الاستغفار مطلوب دائماً من كل مؤمن إذ كان الإنسان فى معرض الزلل والانحراف ، وهو يعالج شئون الحياة . . أما التوبة فهى رجوع الى الله بعد أن يبعد الإنسان كثيراً عنه، بارتـكاب منكر من المنـكرات .. فالتوبة يكون الإنسان فيها فى مواجهة موقف محدد ، يراجع فيه الإنسان نفسه ، فيرجع إلى ربه من قريب ، قبل أن تشطّ به الطريق ، ويبعد عن ربه . . أما الاستغفار فهو دعاء متصل بين الإنسان وربه ، وهذا يعنى أن الإنسان وإن اجتهد فى الطاعة ، وأخلص فى العبادة ، وبالغ فى تحرّى الاستقامة لا يسلم أبداً من أن تقع منه هنات وزلات .. وإذن فهو على شعور بالنقص دائماً ، وفى مداومة الاستغفار ، التجاء إلى الله أن يطهره ، وأن يمحو ما علق به من ذنوب !

— وفى قوله تعالى : « يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمًّى » بيـان لثمرة الإيمان بالله ، ودوام الاتصال بالاستغفار والتوبة ، ففى ذلك ضمان لسلامة الإنسان ، وإمساك به على طريق الحق والخير ، فيكون بذلك محفوفاً برحمة الله ، مستوجباً لرضاه ، قريرَ العين ، مطمئن القلب ، بالاستظلال بظله، فيعيش عمره

المقدورَ له فى هذه الدنيا ، سعيداً هانئاً ، يجنى أطيب الثمرات ، لِما غرس ، من خير ، وما قدم من إحسان . . فهو بهذا مُمَتَّعٌ متاعاً حسناً

والضمير فى قوله تعالى : « فَضْلَه » . . يعود إلى الله سبحانه وتعالى ، ويكون معناه : أن الله سبحانه وتعالى يجزى أهل الفضل والإحسان ، فضلا من فضله وإحساناً من إحسانه . . كذلك يمكن أن يعود هذا الضمير إلى الإنسان ، صاحب هذا الفضل ، بمعنى أنه سيجد فضله الذى قدمه حاضراً بين يديه ، قد ادخره الله سبحانه وتعالى له ، وبارك عليه ، وثمّره ، ونمّاه له .

— وفى قوله تعالى : « وإن تولَّوْا فإنى أخاف عليكم عذابَ يوم كبير » دعوة للمعاندين والسّادرين فى غيّهم وضلالهم ، أن يستمعوا إلى الرسول ، وأن يستجيبوا له ، وإلا فهم فى مواجهة بلاء ، وعذاب ، يوم القيامة . .

وفى خوف النبى عليهم من عذاب هذا اليوم ما يُشعر بحرص النبى على هدايتهم ، وإشفاقه عليهم ، من هذا المصير المشئوم الذى هم صائرون إليه . . « فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير »

وفى وصف اليوم بأنه « كبير » إشارة إلى ما فيه من أهوال ثِقال ، وأن كل لحظة ، فيه لثقلها على النفس ، تعدل أياماً وسنين . . هكذا لحظات الشدائد والمحن ، تمر ثقيلة بطيئة ، يحسبها الذين يعيشونها دهراً طويلا . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا » (٢٧ : الإنسان) .

* قوله تعالى : « ألاَ إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألاَ حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يُسِرّون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور » .

يثنون صدورهم : أى يُطبقونها ، ويطوونها على ما بداخلها من شر ، وزور ، وبهتان . .

يستغشون ثيابهم : أى يلبسونها ، ويتخذونها غشاء لهم . .

« ألاَ إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه » .. هذا تقرير لواقع المشركين وأصحاب الضلالات ، مع أنفسهم ، إذ لِما فى صدورهم من منكَرات الأمور ، وعُوارها ، يحاولون جاهدين أن يُخْفُوا هذا المنكر الذى ضُمَّت عليه صدورهم ، ويداروا هذا العُوار الذى إن ظهر للناس فاحت منه ريح خبيثة ، تفضحهم وتخزيهم بين الناس . . فهم أبداً على حذر وحرص ، من أن يطلع أحد على هذا الفعل الفاضح الذى اتخذوا له من صدورهم مسرحاً يتحرك عليه ، ويعيش فيه ..

فالأسلوب هنا خبرى ، يقرر حقيقة واقعة ، وهى أن هؤلاء أصحاب منكرات ، يَطْوون عليها صدورهم حتى لا يطلع عليها أحد ، وقد بلغ بهم سوء ظنهم بالله ، وجهلهم بما له من صفات الكمال ، أنهم يظنون بهذا الفعل أنهم يحولون بين الله تعالى ، وبين أن يعلم ما هم عليه من منكر . .

— وفى قوله تعالى : « ألا حين يستغشون ثيابَهم يعلم ما يسرون وما يعلنون » هو ردٌّ على سوء فهمهم لكمالات الله ، وجهلهم بنفوذ علمه وسلطانه إلى كل ذرّة فى هذا الوجود . . وأنهم مقهورون تحت سلطان هذا العلم ، لن يستطيعوا أن يُخفوا منه شيئاً ، ولو مزجوه بلحمهم وخلطوه بدمهم . . فهم حين يستغشون ثيابهم ليستروا بها عوراتهم ، لا يسترونها عن الله ، كما لا يسترون عنه ، ما أطبقوا عليه صدورهم من عورات ومنكرات : « إنه عليم بذات الصدور » أى بما فى داخلها ، وما أطبقت عليه ، فكيف بالصدور نفسها ؟

وذات الصدور ، حقيقتها.. وعلم الله سبحانه وتعالى بها ، هو علم كامل ، إذ هو سبحانه الذى خلقها ، وأودع ما فيها من قوى ، فكيف يدخل عليها شىء ثم يخفى عن الخالق سبحانه ؟ « ألا يعلم من خَلَق وهو اللطيف الخبير » ؟ .

الآيات : (٦ ـ ١١)

* « وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى ٱللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦) وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨) وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » (١١)

التفسير :

مناسبة قوله تعالى : « وما من دابّة فى الأرض إلا على الله رزقها » للآيات التى قبلها ، هى أن الآيات السابقة كشفت عن سوء ظن المشركين والمنافقين بالله ، وجهلهم بما له من علم ، وقدرة ، وأنه ـ سبحانه ـ يعلم سرّهم وجهرهم ، ويطلع على ما طوَوْا عليه صدورهم من ضلال وإلحاد . .

وفى هذه الآية والآية التى بعدها ، يكشف سبحانه وتعالى عن بعض مظاهر علمه وقدرته ، فيقول سبحانه :

* « وما من دابّة فى الأرض إلاّ على الله رزقُها ويعلم مستقرّها ومستودَعها كلٌّ فى كتاب مبين » . .

والدابة كل مادب على الأرض من كائنات حيّة . . من الحشرات والهوامّ . . إلى الإنسان . . واختصاص دوابّ الأرض بالذكر ، لأنها هى التى تشاركنا الحياة على هذه الأرض ، وهى التى تقع لحواسنا ومدركاتنا . وهى التى تحتاج إلى ما يُمسك عليها حياتَها ، من طعام وشراب ، ومأوى . . ونحو هذا . .

فكل ما على الأرض من كائنات ، ومنها الإنسان ـ مكفول له رزقه من الله . . فهو ـ سبحانه ـ الذى خلقه ، وهو ـ سبحانه ـ الذى يقدر رزقه ، ويسوقه إليه من فضله وكرمه . .

ـ وفى قوله تعالى : « إلاّ على الله رزقها » إشارة إلى أن الله ـ سبحانه ـ قد أوجب ذلك على نفسه ، حتى لكأن كل حى له عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ حق يطالب به . . وذلك من كرم الكريم ، ورحمة الرحيم . .

وإذا كان فى الناس من يوجب على نفسه ما لا يجب من أفعال الخير ، كما يقول الشاعر :

على مُكثريهم رِزْقُ مَن يعتريهمُ   وعند المقلّين السماحةُ والبَذْلُ

ـ نقول إذا كان فى الناس من يوجب على نفسه مالا يجب ، من فضل وإحسان ، فكيف برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس . . من لا تنفد خزائنُه ، ولا تنقص بكثرة العطاء نعمه ؟ وكيف بمن خلق هذه الأحياء . . ألا يضمن حياتَها ، ويُمسك وجودها ؟ إن الخلق لا تظهر حكمته ، ولا تتجلى آثاره ، إلا إذا قام معه ما يضمن بقاءه ، ويحفظ الحياة التى أودعها الخالق فيه ، وإلا كانت عملية الخلق عبثاً ، يتنزه الله سبحانه وتعالى عنه . .

وفى قوله تعالى : « ويعلم مستقرّها ومستودَعها كلٌّ فى كتاب مبين » إشارة إلى تمكن علم الله ، وإحاطته بالموجودات ، وأنه يعلمها علم تفصيل لا علم إجمال وحَسْب ، فيعلم الكائنات ، فرداً فرداً ، مستقرها فى أصلاب آبائها ، ويعلم مستودعها فى أرحام أمهاتها .. فهى قبل أن تكون كائناً فى هذا الوجود ، ودابة من دواب هذه الأرض ، كان علم الله قائماً عليها ، وعنايته موكَّلةً بها ، حتى إذا أودعها رحمُ الأم ظهرَ الأرض ، كان على الله رزقُها وكفالتُها . . وهـذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع » (٩٨ : الأنعام) .

* قوله تعالى : « وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيُّكم أحسن عملا ولئن قلتَ إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » .

هو استعراض أيضاً لبعض مظاهر قدرة الله . . فهو ـ سبحانه ـ الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام .

وقد أشرنا من قبل إلى أن هذا الزمن الذى خلقت فيه السموات والأرض ، إنما هو الوعاء الزمنى ، الذى يتمّ فيه خلق هذين الكائنين واستواء خلقهما ، ونضجه ، شأنهما فى هذا شأن أى مخلوق ..

فكما يتم خلق الجنين الإنسانى ـ مثلا ـ فى تسعة أشهر ، تمّ خلق السموات والأرض فى ستة أيام .. فالسموات والأرض أشبه بالكائنات الحية فى الخلق ، كان لهما عند الله سبحانه أجل استوفيا فيه خَلْقَهما .

أما القول بأن الله سبحانه قد شُغل بخلق السموات والأرض ستة أيام ، ثم استراح فى اليوم السابع ، فهو مما تحدّثت به التوراة التى عبث بهـا بنو إسرائيل ..

وقوله تعالى : « وكان عرشه على الماء » إشارة إلى أن خلق السموات والأرض جاء متأخراً عن خلق الماء

وهذا ما ينبغي أن نقف عنده ، ولا نسأل عما وراءه ، فذلك مما لاتدركه مدركاتنا ، وهو مما ينبغي أن نؤمن به إيمان تسليم وتصديق ، دون أن نبحث أو نسأل عن العرش ما هو ؟ وأين هو ؟ فالسؤال عن مثل هذا مَضَلّة ، والبحث فيه عناء . . والله سبحانه وتعالى يقول : « ومَا أوتيتم من العلم إلا قليلا » . (٨٥ : الإسراء)

وقوله تعالى : « ليبلوكم أيّكم أحسنُ عملا » . . الابتلاء الاختبار ، ولام التعليل متعلقة بقوله تعالى : « خلق السموات والأرض » ، أى وخلقكم أيها الناس وجعلكم خلائف فى الأرض ، ومكّن لكم فيها بما أودع فيكم من عقل ، وما سخر لكم من مخلوقات ، ليتبين من ذلك كيف تعملون ، وكيف تكون خلافتكم فيما استخلفكم الله فيه .. ولولا هذا ما كان لكم وجود ، ولا كان منكم هذا الذى أنتم عليه ، من إيمان وكفر ، وهدى ، وضلال . .

وفى قصر الابتلاء والمفاضلة فيما ابتُلوا فيه ، على الأعمال الحسنة ـ إشارة إلى ما يجب أن يكون من الناس ، وهو العمل فى ميدان الإحسان وحده ، والتنافس بينهم فى هذا المجال . . ففى ذلك ينبغى أن يتنافس المتنافسون .

ـــ وفى قوله تعالى : « ولئن قلتَ إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولَنّ الذين كفروا إنْ هذا إلا سحر مبين » إشارة إلى ما كشف عنه هذا الابتلاء والامتحان . . فقد كشف عن بعض نفوس خبيثة ، وعقول فاسدة ، وقلوب مريضة ، لم تتعرف إلى الله ، ولم تهتد إليه ، ولم تستمع لدعاة الداعين إلى الإيمان بالله ، وباليوم الآخر . . فإذا استمعوا إلى شيء من كلام الله ، يحدثهم بأنهم مبعوثون بعد موتهم ، أنكروا هذا القول ، وقالوا : « إنْ هذا إلاّ سِحْرٌ مبين » ..

يقولون ذلك على القطع والتوكيد ، حتى لـكأنّ لهم عليه برهاناً مبيناً ، أو حجة بالغة .

* قوله تعالى .« ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمّة معدودةٍ ليقولن ما يَحْبِسُه؟ ألاَ يومَ يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » .

الأمة : الجماعة من الناس ، على مشرب واحـد . . فهم قطعة من المجتمع الإنسانى .

والأمة : القطعة من الزمن ، كما فى قوله تعالى : « وادّكر بعـد أُمّة » (٤٥ : يوسف) .

والأمة : الحال المقتطعة من أحوال الناس ، كما فى قوله سبحانه : « إنا وجدنا آباءنا على أمة » (٢٢ : الزخرف) أى على حال .

يحبسه : يؤخره . . وحاق بهم : أى أحاط بهم ، واشتمل عليهم .

وهذا أيضاً مما تـكشّف عنه الابتلاء الذى ابتُلى به الناس ، إذ خلقهم الله وأقامهم على هذه الأرض . . فقدكان فى الناس من كذبوا بآيات الله ورسل الله ، واليوم الآخر . . وكان منهم من بالغ فى هذا التـكذيب ، وبلغ الغاية فى السفاهة والحمق .. فهم إذا أُنذروا بالعذاب يومَ القيامة قالوا : متى هو ؟ وإذا أُنذِروا بالعذاب والهلاك فى الدنيا قالوا : ما يحبسه ؟ يقولون ذلك فى تحدّ وعناد ، وإصرار على الـكفر والتـكذيب ، بهذا الوعيد الذى توعدهم الله به .. ولو عقلوا ما استعجلوا هذا البلاء ، ولأخذوا أنفسهم بما ينجيهم منه .

وقد رد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله : « ألاَ يومَ يأتيهم ليس مصروفاً عنهم » أى أنه لو وقع بهم هذا العذاب فلن يُدفع عنهم ، ولن يكون لهم فيـه إلا البلاء والهلاك . . فـما بالهم — قاتَلَهم الله — يستعجلون ما فيه دمارهم وهلاكهم ؟

* قوله تعالى : « ولئن أذقنا الإنسانَ منّا رحمة ثم نزعناها منهُ إنه ليئوس كفور * ولئن أذقناه نعماء بعد ضرّاء مسته ليقولن ذهب السيئاتُ عنّى إنه لفرح فخور » .

هو عرض كاشف لحال الإنسان ، وموقفه من نعم الله ونقمه . .

فهو إذَا أذاقه الله سبحانه وتعالى طعمَ نعمة من نعمه ، وذلك من رحمة الله به ، وإحسانه إليه — سَكَن إليها واطمأن بها ، وشغله الاستمتاع بها عن ذكر الله ، بل وعن الإيمان بالله . . !

فإذا نزع الله سبحانه وتعالى منه هذه النعمة ـ وذلك بسبب ما كان منه من انحراف عن الله ، ليكون له من ذلك نخسة تذكره بالله — إذا فعل الله سبحانه وتعالى ذلك به ، يئس من رحمة الله ، وكفر به وبآلائه ، ولم يعد يذكر شيئاً مما كان لله عليه من فضل . . فإذا عاد الله بفضله عليه ، وأذاقه من رحمته ، لم يذكر الله ، وإنما يذكر نفسه ، ويشغل عن الله بالفرحة ، بزوال هذا البلاء الذى كان فيه ، ويستعلى على الناس تِيهاً وفخراً .

وفى التعبير عن النعم بالرحمة ، إشارة إلى أنها من فيض رحمة الله على عبـاده . .

وفى التعبير عن زوال النعمة بالنزع ، إشارة إلى أن هذه النعمة كانت ثوباً ستر الله به من أنعم عليه بها ، فلما لم يؤدّ ما لهذه النعمة من واجب الشكر لله عليها ، واتخذ منها سلاحاً يحارب به الله ، ومطيةً يمتطيها إلى تخطى حدوده ـ انتزع الله هذا الثوب الذى كان يستره به ، وأخذه بقوله سبحانه : « ذلك بأن الله لم يك مغيِّراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (٥٣ : الأنفال) .

*وقوله تعالى : « إلاّ الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » — هو استثناء من هذا الحكم العام الواقع على الإنسان فى جنسه كله ،

وهو أنه إذا أنعم الله عليه بطِر ، واستكبر ، وكفر.. وإن مسته ضراء ، جزِع ويئس ، وازداد كفراً ، وإن عادت عليه النعمة ، عاد سيرته الأولى معها.. كفراناً وطغياناً .. هذا هو الشأن الغالب فى الناس .. « إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات » فإنهم يستقبلون نعم الله بالحمد والشكر ، ويتقبلون امتحان الله لهم حين يمسهم بضر — بالتسليم والصبر .. « أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » .. لهم مغفرة لذنوبهم بما صبروا على المكروه ، ولهم أجر عظيم على ما كانوا فيه من طاعات وأعمال صالحة ، مع هذه النعم التى أنعمها الله عليهم .

الآيات : (١٢ — ١٦)

* « فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (١٦)

التفسير :

* قوله تعالى : « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرُك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك .. إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل » .

مناسبة هذه الآية لِمَا قبلها ، هى أن الآيات السابقة ، التى استُفتحت بها السورة الكريمة ، قد ذكَرت القرآن الكريم ، وأنه كتاب أُحكمت آياته ، ثم فُصّلت من لدن حكيم خبير ، وأنه مع مافى هذا الكتاب من علوّ ، وإشراق ، فقد مكر المشركون به ، وجعلوا يكيدون له ، ويسخرون من النبي الكريم الذى يدعوهم به إلى الله ، ويقولون عن هذا القرآن : إنه سحر ، وعن النبى : إنه ساحر ، وشاعر ، ومجنون — فناسب أن يُذكر بعد هذا ما كان يَجِدُ النبىُّ — صلوات الله وسلامه عليه — فى صدره من ضيق وحرج ، من بَهْتِ قومه له ، وسخريتهم به ، وخلافهم عليه .. فجاء قوله تعالى : « فلعلك تارك بعضَ مايوحَى إليك وضائق به صدرك » — جاء كاشفاً للنبى عن تلك الحال التى يعانيها ، ويجد من آثارها فى نفسه ، همًّا وقلقاً ، واستثقالا من مواجهة قومه بما يكرهون من عيب آلهتهم ، وتسفيه أحلامهم ، ووعيدهم بالعذاب الهُون فى الآخرة . . كقوله تعالى : « إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم أنتم لها واردون » (٩٨ : الأنبياء) ، وكقوله سبحانه : « وذَرْنِى والمكذِّبين أُولى النَّعمةِ ومهّلهم قليلا . إنّ لدينا أنكالا وجحيما . وطعاماً ذا غُصّةٍ وعذاباً أليماً » (١٠ — ١٣ : المزمل) فكان النبي — صلوات الله وسلامه عليه — يجد حرجاً من أن يَلْقَى قومه بمثل هذه الحرب السافرة ، التى تزيد من حَنَقهم عليه ، وعداوتهم له ، وقطع مابينه وبينهم من أواصر المودة والقربى .. إنه — صلوات الله وسلامه عليه — حريصٌ على امتثال أمر ربه ، بتبليغ ماأنزل إليه من كلماته ، ثم هو حريصٌ على أن يَشُدَّ قومه إليه ، وألا يَدَع حبَال القربى تتقطع بينهم وبينه ..! فكان من هذا وذاك فى ضيق وحرج !

— وفى قوله تعالى « فلعلك تارك بعضَ ما يوحَى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أُنزِل عليه كنزٌ أو جاء معه ملك . . إنما أنت نذيرٌ والله على

كل شىء وكيل » — فى هـــذا عزاء للنبى ، وتسرية له ، وتثبيت لفؤاده على طريق دعوته . .

وتركُ النبى لبعض ما يوحَى إليه ، هو إمساكه دون مواجهة المشركين به ، وذلك فيما يسوؤهم فى آلهتهم ، أو فى أنفسهم ، أو فيهما معاً . .

أما مايضيق به صدر النبى فهو مايرمونه به من كذب ، وما يقترحون عليه من مقترحات ، بأن يأتيهم بآيات مادية ، تُجابه حواسهم.. كأن يُنزَّل عليه كنز ، أو يجىء معه مَلَك من السماء ، يشهد له بأن الكتاب الذى معه ، هو من عند الله!

— وقد جاء قوله تعالى : « إنمـا أنت نذيرٌ والله على كل شىء وكيل » ردًّا على المشركين ، وعلى مقترحاتهم التى يقترحونها ، وأن الرسول الذى جاءهم ، إنما رسالته فيهم هو أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه ، وينذر الذين لا يؤمنون بالله ، ولا برسوله ، ولا باليوم الآخر .. « والله على كل شىء وكيل » أى قائم على كل شىء . . لا يملك أحد معه شيئاً . . فليس للنبى أن يغيّر أو يبدّل فيما أمره الله بتبليغه إلى الناس ، ولو كان فيه مايسفّه أحلامهم ، ويكشف ضلالهم .

* قوله تعالى : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سُوَرٍ مثله مفتريات وادعوا من اســتطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لــكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لآ إله إلا هو .. فهل أنتم مسلمون » .

هو حكاية لمقولة من مقولات المشركين فى القرآن الــكريم ، مما يضيق به صدر النبى ، ويألم منه .. وهو قولهم إن هذا القرآن حديث افتراه محمد على الله ، ونسبه إليه ، وما هو إلا من أساطير الأولين ، اكتتبها ، فهى تُملى عليـه بكرة وأصيلا .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى النبى الــكريم أن يلقاهم متحديًا أن يأتوا « بعشر سُوَرٍ مثله مفتريات » .. أى إذا كان هذا القرآن من مفتريات « محمـد »

— وكذبوا وخَرِسوا — فإن فى عالم الافتراء متسعا لمن شاء أن يتعامل معه ، ويحمل من معطياته ما يشاء . . فليفتروا عشر سور من مثل هذا القرآن ، فى بيانه المعجز ، وآياته المشرقة ، وفى تعاليمه الحكيمة ، ووصاياه الرشيدة . . ثم إن لهم أن يستعينوا بمن يستطيعون الاستعانة به ، من أحبار وكهان ، ومن شعراء وخطباء ، ومن قصّاص ومحدّثين . . فهذه هى الدنيا كلها ، وهؤلاء هم أهلها جميعاً ، فليقلّبوا وجوه الأرض كلها ، وليجمعوا إليهم أهل العلم جميعاً . . ثم ليأتوا بعشر سور مثله مفتريات . . فإنهم إن فعلوا — وهيهات — فقد صحّ قولهم فى القرآن إنه مفترى ، وصَدَق حكمهم عليه بأنه من عمل محمدٍ ، ولا نسبة له إلى الله . .

أما إن عجزوا ، بعد أن يَجْهدوا جهدهم ، وَيَبْلُوا بلاءهم ، ويدعوا من استطاعوا ، فليحكموا هم على أنفسهم بأنهم هم المفترون ، وأنهم هم الكاذبون ، فيما قالوه فى القرآن الكريم . . وليعلموا أن هذا القرآن إنما أنزل بعلم الله ، ومن عند الله . . فهل يَرجعون بعد هذا عن غَيِّهم وضلالهم ، ويُذعِنون للحق الذى فضح نوره ما قد علا وجوهَهم من خزى وذلّة ، بين يدى هذا الامتحان الذى خرّوا فيه صَرْعى لأول جولةٍ ، فى ميدان التحدّى ؟

والضمير فى قوله تعالى « فإن لم يستجيبوا لكم » يعود إلى من يدعوهم المشركون ، من الأعوان والأنصار ، ويستعينون بهم فى افتراء عشر سور من مثل هذا القرآن . . وفى هذا إشارة إلى أن المشركين أنفسهم لا يستطيعون أن يَرِدُوا هذا المورد ، ولا أن تحدثهم أنفسهم بالوقوف أمام القرآن الكريم فقد عرفوه ، وعرفوا علوّ منزلته ، وأنه أبعد من أن تَطُوله يد إنسان . . وإذن ، فهم إذا اتجهوا إلى التحدّى فلن يتجهوا إلى أنفسهم ، إذ قد فرغ حسابهم معها من أول لقاء مع القرآن . . وأنه إذا كان سبيل إلى لقاء

هذا التحدّى ، فليكن بالبحث عن قوة أخرى غيرهم . . فليبحثوا عنها . . فإن استجابت لهم تلك القوة ، أو القوى ، فليأتوا بما حَصّلوا عليه منها ، ولْيُلقوا به بين يدى القرآن !

— وفى قوله تعالى : « فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله » إشارة إلى أن القرآن الكريم نزل مُحمَّلاً بعلم الله . . أى يحمل علم الله ، وإذا كان هذا شأنه ، فكيف تقوم قوة فى هذا الوجود ، تتحدّى هذا العلم ، وتقف له . . « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (٨٨ : الإسراء) ويمكن أن يحمل قوله تعالى : « فاعلموا أنما أنزل بعلم الله » على معنى أنه أنزل عن علم من الله ، وأن ما أوْحَى به جبريل إلى النبى ، كان بأمر الله سبحانه وبعلمه .

— وفى قوله تعالى : « فهل أنتم مسلمون » تحريض للمشركين على أن ينتهزوا هذه الفرصة ، وأن يستسلموا للقرآن الكريم ، وأن يُعطوه أيديهم كما يُعطى الأسير يده لمن صرعه فى ميدان القتال !

* قوله تعالى : « من كان يريدُ الحياةَ الدنيا وزينتَها نُوَفِّ إليهم أعمالَهم فيها وهم فيها لا يُبْخَسون * أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النارُ وحبط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » .

البخْس : النقص ، والخسران فى الميزان أو المكيال ، وفى كل ماهو مطلوب أداؤه من حقوق .. حبط ماصنعوا : أى بطل وفسد .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أنّ المشركين ، وقد أعجزهم العجز عن أن يَثْبتُوا فى هذا الامتحان بين يدى القرآن — لم يكن أمامهم إلا أحد طريقين ..

فإما أن يستسلموا للقرآن ، ويُسلموا له ، ويؤمنوا به ، وبالله الذى أنزله ،

وبالرسول الذى أُنزل عليه .. وبهذا يدخلون فى عداد المؤمنين ، ويعملون عمل المؤمنين للدنيا والآخرة معاً ..

وإما أن يظلوا على ماهم فيه من شرك وضلال ، فيعيشوا لدنياهم ، ويعملوا لها ، غير ملتفتين إلى ماوراء هذه الدنيا ، ولا منتظرين حساباً ولا جزاء .. إنهم إن فعلوا ، فلهم ما أرادوا ، فليعملوا للدنيا ، وليقطفوا من ثمارها ماتغرس أيديهم ، فلن يَحرِمهم الله ثمرةَ عملهم فيها .. ولن يعجل الله لهم العذاب ، ولن يأخذهم بذنوبهم فى هذه الدنيا .. فإذا كان يوم القيامة ، وبُعثوا من القبور ، وسيقوا إلى الحساب والجزاء .. فهنالك يروْن سوء مصيرهم ، وأنهم قد جاءوا إلى هذا اليوم مُفْلسين ، لأنهم لم يعملوا له عملاً .. وإنه « ليس لهم فى الآخرة إلا النار » .. أما ماعملوه فى الدنيا فهو باطل وقبضُ الريح ، حتى ما كان لهم من أعمال تُحسب من الصالحات فى أعمال المؤمنين ، هى أعمال باطلة ، لأنها لم تستند إلى الإيمان بالله ، ولم تُعْمل لحساب الآخرة .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : «ويوم يُعْرَض الذين كفروا على النّار أذهبتم طيباتِكم فى حياتِكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تُجْزَون عذابَ الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحقّ وبما كنتم تَفْسُقون » (٢٠ : الأحقاف)

وفى الإشارة إلى هؤلاء المشركين بقوله تعالى : « أولئك » مواجهةٌ لهم بهذا الحكم الذى حُكم به عليهم ، وهو حكم يُساقون به إلى النار ، فيجدون مسّ لهيبها قبل أن يُغمسوا فيها .. !

الآيات : (١٧ — ٢٤)

* « أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْ رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ

ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُولَـٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَادُ هَـٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ (١٨) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَـٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) * مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » (٢٤)

التفسير :

* قوله تعالى : « أفمن كان على بينةٍ من ربّه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتابُ موسى إماماً ورحمةً أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنّار موعده فلا تك فى مريةٍ منه إنه الحقُّ من ربك ولـكن أكثر الناس لايؤمنون » .

البيّنة : الحجة ، والدليل للوصل إلى مايتبينه الإنسان من أمور .. فهى من البيان ، وهو الظهور ، وقد سمّى الرسول بيّنة ، لأنه يبين للناس طريق الحق

والخير .. وفى هذا يقول الله تعالى : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكّين حتى تأتيهم البيّنة * رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة » .

المِرية : الشك والارتياب .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ، أنّها تعرض صورة لأهل الإيمان ، ومافى نفوسهم من استعدادٍ لتقبّله ، والاستجابة له ، بعد أن عرضت الآيات السابقة صورة لأهل الزيغ والضلال ، ومن فى قلوبهم مرض ..

والبيّنة هنا هى الاستبصار الذى يتعرف به الإنسان إلى الحق ، مستهدياً إليه بعقله ، فيتعرف إلى الله ، ويؤمن به ، ولا دليل معه ، سوى عقله ، الذى ينظر به فى هذا الوجود ، فيطلعه على أن لهذا الكون والنظام الممسك به ، إلـهاً قديراً ، عليماً حكيما ..

وكثير من الناس تعرفوا على الله ، وآمنوا به ، عن هذا الطريق ، طريق النظر الشخصى ، المنقطع عن دعوات الأنبياء ، وتوجيهات الرسل . . ففى الإنسان فطرة ، ومعه عقل من شأنهما أن يهدياه إلى الله ، وأن يكشفا له الطريق إليه ، لو أنه ظل محتفظاً بسلامة فطرته ، حارساً عقلَه من دوافع الهوى ، ونزغات الشيطان . .

— وفى قوله تعالى : « ويتلوه شاهد منه » — ضميران :

الضمير الأول ، فى « يتلوه » وهو يعود إلى البيّنة ، بمعنى أنها برهان ودليلٌ ، أو بمعنى أنها نور من عند الله ، يضىء القلوب ، وينير البصائر . .
وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نورٍ من ربّه » (٢٢ : الزمر) ..

ويكون معنى « يتلوه » : أى يجىء بعده ، أى بعد هذا النور ، أو هذا

البرهان ، أو هذا الدليل ـ يجيء شاهد يؤكّد صدق هذا البرهان ، ويدْعَم هذا الدليل ، ويلقى إلى هذا النور نوراً .. أما هذا الشاهد ، فهو القرآن الكريم ، وما فيه من دلائل الإعجاز التى من شأنها أن تفتح القلوب للإيمان بالله . .

والضمير الثانى ، فى قوله تعالى : « منه » ويعود إلى الله سبحانه وتعالى ، وقد ذكر سبحانه ، فى قوله تعالى : « أفمن كان على بيّنة من ربّه .. » والشاهد ، هو القرآن الكريم ، كما قلنا من قبل .

ويكون المعنى على هذا : أيستوى من كان على نورٍ من ربّه ، بما أودع الله سبحانهوتعالى ، فيه ، من فطرة سليمة ، فينظر إلى هذا الوجود ببصيرة مبصرة ، وقلب سليم ، حتى يعرف ربّه ، ويؤمن به ، مستهدياً إلى هذا الإيمان عن طريق التدبّر والنظر .. ثم يزداد معرفة ، ويزداد إيماناً واطمئناناً ، حين يلتقى برسول الله ، ويستمع إلى كلمات الله ، فيجد منها شاهداً مبيناً يشهد بصدق ماوقع لنظره وما اهتدى إليه بعقله ، من التعرف على الله والإيمان به ـ أيستوى مَن هذا شأنه ومن خَتَمَ الله على قلبه وسمعه ،وجعل على بصره غشاوة ، فلم يَهده نظره إلى الإيمان ، إذ كان أعمى ، ولم يستجب لمن يقوده إليه ؟ شتان ما بين النور والظلام ، والحق والباطل . .

— وفى قوله تعالى : « ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة » .

الضمير فى « قبله » يعود إلى الشاهد ، وهو القرآن الكريم . .

والمعنى أن من قبل هذا القرآن كان كتاب موسى ، وكان هذا الكتاب « إماماً » ، أى متقدماً فى الكتب السماوية « ورحمةً » لما حمل إلى الناس من هدًى ونور .. فليس هذا الكتاب الذى جاء به محمدٌ من ربّه حَدَثاً لم يقع فى الناس ، بل لقد سبقته كتب جاءت من عند الله .. فكيف يُنكر هؤلاء الضالّون أن يأتى إنسان بكتاب من عند الله ؟ وكيف يقولون هذا القول الذى حكاه القرآن عنهم ، منكراً متوعداً فقال تعالى : « وما قَدَروا الله حقَّ قدره إذ قالوا

ما أنزل الله على بشر من شيء .. قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس » (٩١ : الأنعام) .

فإذا لم يكن فى الكتاب الذى جاء به محمد ما يرون فى وجهه أنه من عند الله ـ عمًى منهم ، وكفراً وعناداً ـ فليكن لهم فى واقع التاريخ ما يمسك بهم عن المكابرة ، أن يقولوا ما أنزل الله على بشرٍ من شيء .. فذلك إنكار لواقع محسوس ، حيث هؤلاء الرسل الذين ذكرهم التاريخ ، وحيث هذه الكتب السماوية التى يَدين بها ألوف البشر .. وهذه التوراة .. كتاب موسى ، وهؤلاء هم اليهود الذين يدينون بها .. فكيف يسمح لعاقل عقلُه أن يقول : ما أنزل الله على بشر من شيء .. ؟

— فى قوله تعالى : « أولئك يؤمنون به » ..

الإشارة هنا بأولئك ، موجهة إلى المذكورين فى قوله تعالى : « أفمن كان على بينة من ربه » .. وقد استخدم القرآن الكريم ، الاسم الموصول « من » بلفظه أولاً ، فأفرد العائد إليه ، ثم استخدمه بمعناه ثانياً ، فجمع العائد إليه .. وفى الإفراد ، والجمع ، إعجاز من إعجاز القرآن ..

ذلك أن الإيمان بالله ، عن طريق الاستدلال العقلى ، وعن النظر فى ملكوت السموات والأرض ، ثم عن الاستماع إلى آيات الله ، وتفهم ما فيها من حق وخير ـ هذا الإيمان لا يكون إيماناً حقاً إلا إذا كان عن معاناة ذاتية ، ونظر شخصى .. بحيث يرى الإنسان مواقع الهدى بنفسه ، ويتبيّن وجه الحقّ بعقله .. وهنا يَفتح قلبه للإيمان ، ويُنزله منزلا مطمئنًّا فيه ، لأن إيمانه حينئذ قد جاء إليه عن طريق نظره ، وإدراكه ، واستدلاله ، لا عن تلقين ، أو محاكاة ..

هذا هو الموقف الذى ينبغى أن يأخذه الإنسان فى طريق التعرف على الله والإيمان به . . إنه يبدو وكأنه يقف وحده ، لا ينظر إلى غيره مقلداً ، أو متابعا ..

ولكنّ الواقع أن أعداداً كثيرة من الناس تقف مثل هذا الموقف ، تتهدّى إلى الله بنظرها ، وتتعرف إليه بعقلها ، وتؤمن به بقلبها . . فهم إذ جاءوا إلى الإيمان ، جاء إليه كل واحد منهم باستعداده الخاص ، وبتقديره الذاتى الشخصى .. ثم هم إذا دخلوا فى الإيمان كانوا أعداداً كثيرة .. « أولئك يؤمنون به » .. أى أولئك الذين هم على بينة من ربهم ، يؤمنون بهذا القرآن ، لأنه يلتقى مع نظرتهم السليمة التى نظروا بها فى ملكوت السموات والأرض . . فهم ـ والأمر كذلك ـ أفراد حين ينظرون فى ملكوت السموات والأرض ، وفى دلائل الإيمان ودعوات الهدى .. وهم جماعات كثيرة ، حين يدخلون فى دين الله ، ويُصبحون فى المؤمنين ..« أفمن كان على بيّنة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة .. أولئك يؤمنون به » ..

فهو ـ أى المؤمن ـ وحده ، حين يتلقى الإيمان ، ويتقبله .. ثم هو واحد فى جماعات كثيرة تلقت الإيمان وتقبلته ! !

وفى قوله تعالى : « ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده » هو تهديد لأولئك الذين يقفون من القرآن الكريم موقف المستهزئين المكذبين . . فالنّار موعدهم التى يلتقون عندها بعد أن يقطعوا مرحلة عمرهم ، وهم يتخبطون فى هذا الضلال والظلام ..

والأحزاب ، جمع حزب ، وهم طوائف الضالين ، من كل بيت ، ومن

كل قبيلة ، إذ ألّف بينهم الضلال ، فجمع أحزابهم التى تحزبت ، واجتمعت على الوقوف فى وجه الدعوة التى يدعو إليها رسول الله ..

— وفى قوله تعالى : « فلا تك فى مرية مِنه .. إنه الحق من ربك .. ولكن أكثر الناس لايؤمنون » ..

تثبيت للنبىّ — صلوات الله وسلامه عليه — وشدٌّ لأزره ، وربط على قلبه ، وهو فى مواجهة هذه الموجات العاتية الصاخبة ، من الضلال ..

وليس النبىّ بالذى يرتاب أو يشكّ فيما بين يديه من آيات ربه ، ولكن الذى يحتاج إليه وهو فى هذه المعركة ، هو أن يُمَدّ من ربه بما يزيده يقينا ، وثباتا .. ولهذا جاء بعد ذلك ، قوله تعالى : « إنه الحق من ربك » والنبىّ على يقين من الكتاب الذى معه ، وبأنه الحق من ربه ، ولكن المعركة المحتدمة بينه وبين تلك القوى العاتية تحتاج إلى أمدادٍ سماوية يمده بها الله ، فتكون أشبه بجنود السماء فى معركة بدر ، التى أمده الله بها ، وجعلها بشرى له وللمؤمنين ، واطمئناناً لقلبه وقلب المقاتلين : « وما جعله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم » (١٠ : الأنفال) .. ولهذا أيضا جاء قوله تعالى : « ولكن أكثر الناس لايؤمنون » مشيراً إلى كثافة هذا الظلام المنعقد من الكفر والضلال حول دائرة النور والإيمان ! ..

فالنبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ محتاج فى هذا الموقف إلى أمداد من ربه ، تثبت فؤاده ، وترَبِط على قلبه ، حتى يصمد فى هذه المعركة المحتدمة ، ويصبر على مايساق إليه من مكاره ..

* قوله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أولئك يعرضون على

ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كَذَبوا على ربهم .. ألا لعنة الله على الظالمين » ..

الأشهاد : جمع شاهد ، أو شهيد ، مثل صاحب وأصحاب ، ومثل شريف وأشراف . .

والمراد بهم هنا ، الأنبياء ، الذين يشهدون على أقوامهم . .

والاستفهام هنا مراد به النفى .. وقد جاء فى صيغة الاستفهام ، ليكون أبلغ فى تقرير النفى ، ذلك أن هذا الاستفهام يستدعى جواباً ، الأمر الذى يُلفت السامعين إلى البحث عن هذا الجواب ، وتفرس وجوه الظالمين جميعا ، وتقليب أحوالهم ، لتقع العين على من هم أظلم ممن افترى على الله الكذب .. ثم إذا دارت العين فى كل مدار ، وتطلعت فى كل أفق ، ثم لم تجد أحداً أظلم من هؤلاء الظالمين الذين افتروا على الله الكذب ـ كان الجواب بالنفى : لا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب ! ! وحين يتقرر ذلك ، يجىء التعقيب على السؤال وجوابه . . « أولئك يعرضون على ربّهم » أى هؤلاء الذين تقرر أنهم أظلم الظالمين ، لأنهم افتروْا على الله الكذب « أولئك يعرضون على ربّهم » وقد أشير إليهم بأداة الإشارة « أولئك » بعد أن تحددت صفتهم ، وعُرفت وجوههم ، ليكونوا بمعزلٍ عن المجتمع الإنسانىّ كلّه ، وحتى لا يُصيبَ أحدًا شىء من هذا البلاء الذى يحلّ بهم ! فالإشارة إليهم ، إلفات إلى ذواتهم ، حتى يبتعد الناس عنهم ، ويحذروا الدنوّ منهم ، لئلا يؤخذوا معهم ، ويساقوا مساقهم .

والعرض على الله ، هو عرض شامل للناس جميعاً . . ولكنّ إفراد هؤلاء الذين افتروْا على الله الكذب ، بالعرض ، وحدهم . . يشير إلى أنّهم سيعرضون عرضاً خاصاً ، فى ذلك المكان الذى عزلوا فيه عن الناس جميعاً . .

— « ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم » . . الأشهاد ، هم الرسل ، الذين يحضُرون عرضَ هؤلاء المفترين ، على ربّهم . ويشهدون عليهم بما كان منهم ، من تكذيبٍ بالله ، وافتراء عليه ، بما كانوا ينسبون إليه سبحانه من صاحبةٍ وولد . . فكل نبى شهيد على من بُعث فيهم . . وفى هذا يقول الله تعالى : « ويومَ نبعث فى كلّ أمةٍ شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء » (٨٩ : النحل) .

ويقول سبحانه : « فكيفَ إذا جئنا من كل أمةٍ بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » (٤١ : النساء) .

وشهادة الرسل على هؤلاء المفترين على الله ، هى شهادة تُخزى هؤلاء المكذبين المفترين ، وتَبهتهم ، وتُدينهم بين يدى الله ، وتقيم أسباب الحكم عليهم بالعذاب الأليم . وفى هذا مضاعفة لآلامهم ، حتى لكأن هذه الشهادات قيود وأغلال تمسك بهم أن يُفلتوا من العذاب .

وفى إشارة الرسل إليهم بقولهم : « أولئك » تأكيد لذوات هؤلاء المجرمين ، وإحكام للدائرة المطبقة عليهم ، فلا يُفلت منهم أحدٌ ، ولا يدخل عليهم من ليس منهم . . فهم وحدهم فى هذا المكان المنعزل ، وفى ذلك المنزل السوء . . .

— « ألاَ لعنةُ الله على الظالمين » . . قد يكون هذا تعقيباً من الرسل بعد أن أدَّوْا الشهادة على هؤلاء الظالمين من أقوامهم ، الذين كذبوهم ، وآذوهم . . أو قد يكون تعقيباً من النَّظّارة جميعاً ، من الخلائق التى شهدت هذا العرض ، من الناس والملائكة . .

وفى وصفهم « بالظالمين » ، بدلا من « الكاذبين » الذى يقتضيه سياق النظم ، إشارة إلى أنهم لم يكونوا كاذبين وحسب ، بل كانوا متجاوزين الحدود

فى الكذب ، مبالغين فيه، غير مقتصدين ، أو واقفين به عند حدّ .. لقد كذّبوا على الله ، وكذَبوا على أنفسهم ، وكذبوا على الناس ، وقلبوا وجوه الحقائق قلباً منكراً ، فكانوا بهذا كاذبين وظالمين معاً .

* قوله : «الذين يَصُدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون » ــ هو بيان شارح لظلم هؤلاء الظالمين، وافتراء هؤلاء المفترين .. إنهم يَصدّون عن سبيل الله .. يصدّون أنفسهم عن الإيمان ، ويَصدّون غيرَهم عن أن يؤمنوا ، ويقعدون لهم بكل سبيل ، وإنهم ليريدون أن تكون سبيل الله معوجّة ، بما يدخلون على الحق من ضلال ، وبما يفترون عليه من كذب .. وإنهم آخر الأمر ليكفرون بالله وباليوم الآخر .. وتلك هى حصيلتهم التى حصلوها فى الدنيا ، وجاءوا يحملونها على ظهورهم فى الآخرة .

* قوله تعالى : أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء .. يضاعف لهم العذاب .. ما كانوا يستطيعون السّمعَ وما كانوا يبصرون .. أولئك الذين خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون » .

أى إن هؤلاء الظالمين ، الذين بلغ ظلمهم ما بلغ من الشناعة والفحش ، والذين كان تعجيل العذاب لهم ، بأخذهم بظلمهم فى الدنيا ، أمراً تستدعيه الحال ــ هؤلاء لم يعجّل الله لهم العذاب فى الدنيا ، لا لأن قوةً تعصمهم من الله ، أو تردّ عنهم بأسه ــ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .. فما كانوا « معجزين فى الأرض » أى ما كانوا ليعجزوا لله عن أن يأخذهم بالبلاء والهلاك ، كما أخذ الظالمين من قبلهم ، وما كان لهم من أولياء يدفعون بأس الله عنهم ، ولكنه سبحانه أخّرهم إلى يوم القيامة ، حيث أن عقاب الدنيا ، لا يستوفى منهم ما هم أهلٌ له من بلاء ونكال .. والله سبحانه وتعالى يقول : « ولا تحسبَنّ اللهَ غافِلاً عما يَعْمل الظالمون إنّما يؤخرهم ليوم تشخَص فيه الأبصارُ *

مهطعين مُقنِعِى رءوسِهم لا يرتدُّ إليهم طَرْفُهم . . وأفئدتهم هَوَاء » (٤٢ ـ ٤٣ : إبراهيم)

ـــ وفى قوله تعالى : « يُضَاعفُ لهم العذاب » إشارة إلى عذاب الآخرة الذى سيلقونه ، وأنه أضعافٌ مضاعفة لعذاب الدنيا الذى حَلَّ بالظالمين قبلَهم ، وأنهم إذا كانوا قد أفلتوا فى الدنيا من عذاب الله ، فإنه سيضاف إلى عذابهم فى الآخرة ، ويضاعف لهم العذاب .

ـــ وفى قوله تعالى : « ما كانوا يستطيعون السَّمع وما كانوا يبصرون » تعليل لما هم فيه فى هذا اليوم من بلاء عظيم ، إذ أنهم فى دنياهم قد عطَّلوا حواسّهم ، فلم ينتفعوا بها فى الاستماع إلى آيات الله ، أو فى النظر إلى ملكوت السموات والأرض ، وما يتجلّى فيه من آيات الخلاق المبدع العظيم !

ـــ وفى قوله تعالى : « أولئك الذين خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون » تعقيب على تلك المحاكمة التى أُدين فيها هؤلاء الظالمون . . إنهم قد خسروا أنفسهم ، وأوردوها هذا المورد الوبيل . أمّا ما كان بين أيديهم من مفتريات وأباطيل ، فقد صَفِرَتْ أيديهم منه ، ولم يبق لهم إلا ما أعقب من الحسرة والندامة !

* قوله تعالى : « لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون »

لا جرم : أى لا شكّ ولا ريب . .

والمعنى أنه لا جدال ، ولا شكّ فى نظر أى عاقل ينظر فى أحوال هؤلاء الظالمين ، وما جَنوْا على أنفسهم ـ أنهم هم أخسر الناس صفقةً ، إذ اشتروْا الحياة الدنيا بالآخرة « فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » . .

فكما أنهم كانوا بفعلهم المنكر أظلم الظالمين ، كذلك هم يوم توفّى كلّ نفس ما كسبت ، ويدال كل عامل جزاء ما عمل ـ هم أخسر الخاسرين فى

هذا اليوم ، يوم الجزاء .

* قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون »

أخبتوا إلى ربهم : الإخبات : الولاء والخضوع ، وأرض خبيت أى مطمئنة مستوية ..

والمعنى أنه إذا كانت النار مثوى الظالمين ، فإن الجنة هى دار المتقين ، الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأسلموا أنفسهم لله ، وأخلصوا له الولاء والطاعة ، واستقبلوا آيات الله فى غير عناد واستكبار ، ونظروا إليها بغير استعلاء وازدراء ، فعرفوا أنها الحقّ ، فاتبعوه .

وفى المقابلة بين أصحاب النار وأصحاب الجنة ، نظر لناظر ، وعبرة لمعتبر . . فهناك شقاء ، وبلاء ، ونكال ، وهنا نعيم ، ورحمة ، ورضوان . . ولكلٍّ منزلة أهلها ، والعمل هو الذى يضع كل إنسان موضعه .

* قوله تعالى : « مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصمّ والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون »

هو عرض للفريقين معاً ـ الذين كفروا ، والذين آمنوا . . أصحاب النار ، وأصحاب الجنة ـ فى هذه الصورة الحسّيّة ، التى يراها الناس رأى العين ، والتى تمثل حالَ كلٍّ منهما فى وضوح وجلاء . .

فالذين كفروا يرون صورتهم على صفحة مرآةٍ ، لا تتحرك عليها إلا أشباح آدميين ، معطوبين ، مصابين بآفات العَمى والصمم . .

وإن الذى ينظر فى هذه الأشباح المتحركة على تلك الصفحة ، يرى عالَمًا يضرب فى تيهٍ وضلال ، ويتخبط فى ظلامٍ وضباب . !

فالأعمى .. إذا دعَا لا يجد لدعائه من يسمع ويستجيب ! .. وهو لا يملك غير الدعاء . .

والأصمّ . . إذا أشار ، لا يجد من يبصر إشارته ، ويُترجم مضمونها . . وهو لا يملك غير الإشارة . . فهذا هو عالم الضَّالين والكافرين..هم بين أعمى ، لا يجد من الصمّ الذين بين يديه ، مَن يستمع له . . وبين أصمّ ، لا يجد من العُمْى الذين معه من يستجيب لإشارته . . فكل منهم ضالٌّ يحتاج إلى من يهديه ، ويسدّ النقص الذى فيه ، فكيف إذا كانوا كلُّهم عمياً وصُمًّا ؟

أما الذين آمنوا .. فهم عالم نابض بالحياة ، مستكملٌ كل أسباب الوجود الكريم . . فهم بين سامع ومُبْصرٍ ، وسميع وبصير . . ليس فى عالَمهم مَئُوفٌ فى حاسّتيه هاتين . . وإنما هم متفاوتون فى درجات السّمع والبصر . . فإذا كان فيهم السامع ، فإن فيهم من هو أرهف سمعاً ، وهو « السميع » ، وإذا كان فيهم من هو مبصر ، فإن فيهم من هو أحد بصراً وهو « البصير » . . وبهذا يكمّل بعضهم بعضاً ، ويصبحون آخر الأمر جهازاً سليما كاملا ، للمسموعات ، والمبصرات جميعاً . . يلتقطون كل مسموع ، ويتبادلون المعرفة فيما سمعوا ، ويكشفون كل منظور ، ويتعاطوْن العلم لكل ما أبصروا واستبصروا !

— وفى قوله تعالى : « هل يستويان مثلا » استفهام يراد به تقرير النفى . . أى لا يستوى الفريقان أبداً .

« ومثلا » : تمييز . . أى هل يستوى هذان الفريقان من جهة المماثلة بينهما ، والموازنة بين قدريهما ؟

ـ وفى قوله تعالى : « أفلا تذكرون » تحريض لذوى الألباب أن يقفوا عند

هذا المثل ، وأن ينظروا إلى ما فيه من عبرة واعتبار ! . . فعلى ضوء هـذا المثل ينكشف الفرق بين المؤمنين والـكافرين !

الآيات : (٢٥ — ٣١)

* « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ » (٣١)

التفسير :

* قوله تعالى : «ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم منه نذيرٌ مبين * ألاَّ تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم » . .

مناسبة هذه القصّة ، لما قبلها أنها تعرض من الماضى صورةً للصراع بين

الحق والباطل ، وبين المحقّين والمبطلين ، بعد أن عرضت الآيات السابقة موقفاً قائماً بين النبيّ وقومه ، وما يدعوهم إليه من هدًى وخير ، وما يلقوْنه به من صدّ وتكذيب !

وفى ذكر أخبار الأولين ، وما فى تلك الأخبار من مواقف مشابهة للأحداث الجارية التى يعيش فيها الناس يومَهم هذا ، تذكير لهم بتلك الحقيقة التى تقررت بحكم الواقع ، وهى أن النصر دائماً للمؤمنين ، وأن الخزى والهوان دائماً على المكذبين الكافرين . .

وقصة نوح وقومه ، هى أولَى الأحداث الإنسانية ، التى اصطدم فيها رسول من رسل الله بقومه .. ثم تجىء بعد هذا قصص مشابهة لها ، يجىء بها القرآن مرتبة ترتيباً زمنياً ، حسب وقوعها . . قصة « عاد » ونبيّهم « هود » وقصة « ثمود » ونبيّهم « صالح » .. وهكذا .. إبرهيم ، ولوط ، وموسى ، وعيسى .

فهذا نوحٌ ـ عليه السلام ـ يَلْقَى قومَه برسالة ربه ، منذراً إياهم بالعذاب الأليم ، إن هم لم يستجيبوا له ، ويؤمنوا بالله رب العالمين . . ومبشراً لهم بالجنة والرضوان إنهم آمنوا بالله ، وأخلصوا دينه له .. « إنى لكم نذيرٌ مبين » وهذا أول صوت نسمعه من نوحٍ ، يؤذّن به فى قومه ، فى هذه القصة . .

ولا شك أن هناك أحداثاً كثيرة ، طواها النظم القرآنى ، ولم يذكرها ، إذ هى مما يُفهم بداهة .. كمجىء نوحٍ إلى قومه ، ودعوته لهم ، وشرحه لرسالته فيهم . . ومن قبل ذلك ، كان إعلام الله سبحانه وتعالى إيّاه باختياره للنبوة ، واصطفائه بالرسالة ، ثم تلقيه مضمون هذه الرسالة . . وهكذا . .

وفى قول نوح لقومه : « إنى لكم نذيرٌ مبين . ألاّ تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليمٍ » هو تلخيص لمضمون رسالته ، وضبط لمحتواها . . فهو نذير بليغ ، يحذرهم عذاب الآخرة . .

— والضمير فى قوله تعالى : « منه » يعود إلى الله سبحانه وتعالى . . وهو ـ جلّ شأنه ـ وإن يكن لم يجر ذكره فى اللفظ ، فهو مذكور على كل حال ، وفى كل زمان ، ومكان ، وفى هـذا إشارة إلى أن ما فيه الضالون من غفـلة عن الله ، وشرود عن ذكره ، هو أمر خارج عن مقتضى الطبيعة الإنسانية السليمة الرشيدة . .

* قوله تعالى : « فقال الملأُ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادىَ الرأى وما نرى لـكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » .

هذا هو الجواب الذى استقبله نوحٌ من قومه ، ردًّا على دعوته إياهم ، إلى الإيمان بالله . .

« مانراك إلا بشراً مثلنا » .. فهذا هو مارابهم من أمرِ نوح ومن دعوته . . إنه بشر مثلُهم . . وليس لبشر ـ كما قدّروا ضلالاً وجهلا ـ أن يكون أهلاً للسفارة بين الله والناس !

وقد كان الأولى بهم أن ينظروا أولاً فى وجه الدعوة التى يدعوهم إليها رسولُ الله ، قبل أن ينظروا فى وجه هذا الرسول . . فإذا كانت دعوةً فيها خيرهم ورشدهم، كان من الحـكمة والرأى ،أن يقبلوها، ولا ينظروا فيما وراءها.. وإلا كان لهم أن يقفوا منها الموقف الذى يدلّهم عليه العقل والرأى . .

ـ وقوله تعالى : « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادِىَ الرأى » هو إشارة إلى مدخل من مداخل الريب والشك عندهم ، فى أمر نوحٍ وفى دعوته ، وهو أن الذين استجابوا لنوح ، هم من ضَعَفة القوم والمرذولين فيهم ، والرّذل من كل شىء هو الخسيس منه ..

فالذين استجابوا لدعوة نوح ، كانوا من الذين لم تقم لهم فى مجتمعهم رياسة ، أو تقع لأيديهم سلطة ، يخشون عليها من هذا الطارق الجديد ، الذى يطرقهم بتلك الدعوة ، التى يخشى منها أرباب الجاه والسلطان ، أن تكون سبباً فى تغيير الأحوال التى اطمأنوا إليها ، وشدّوا أيديهم عليها . .

وهكذا ، يكون الموقف دائماً فى مواجهة كل جديد ، يطلع على الناس . . فأصحاب الجاه والسيادة والسلطان، يتصدّون له ، ويقفون فى وجهه ، لأنه غالباً لا يطلع عليهم إلا بما يبدّل من أحوالهم ، ويغيّر من أوضاعهم . . أما من لاسلطان لهم ولا جاه ، فإنهم يستقبلون الجديد ، وينظرون فيه نظراً غير محجوز بهذه الحواجز التى يقيمها المال والجاه والسلطان ، بين أهله وبين كل جديد . .

— وفى قولهم : « بادِىَ الرأى » إشارة إلى أن الذين اتبعوا نوحاً هم — فى نظر أصحاب السيادة والسلطان — من أراذل القوم ، الذين لايخفى أمرهم على أحدٍ ، ولا يحتاج التعرف عليهم إلى بحث ونظر ، بل إن النظرة الأولى تحدِّث عنهم ، وتمسك بهم ! فلا خلاف بين القوم على منزلتهم الاجتماعية فيهم ، وأنهم بحكم فقرهم وضعفهم ، موضوعون فى أدنى درجات السُّلّم الاجتماعى ! هكذا ينظر إليهم القوم ، وهكذا يحكمون عليهم . .

— وفى قوله تعالى : « وما نَرَى لكم علينا من فضلٍ بل نظنكم كاذبين » تأكيدٌ للرأى الذى رآه القوم فى نوحٍ وفيمن اتبعه ، وأنه لا فضل لنوحٍ والذين معه على القوم ، فكيف يدعونهم إلى متابعتهم ، والتابع من شأنه أن يكون دون المتبوع ووراءه . . فهل يُعقل — والأمر كذلك — أن يكون نوح ومن معه متبوعين ، ويكون القوم أتباعاً لهم ؟

ثم لا يكتفى القوم بهذا ، بل يرمون نوحاً ومن اتبعه بالكذب والبهتان

على الله . . والظن هنا يقينٌ . . بدأ عنـد القوم ظنًّا ، ثم استحال مع الجدل والعناد ، يقيناً . .

* قوله تعالى : « قال يا قوم أرأيتُمْ إن كنْتُ على بيّنةٍ من ربّى وآتانى رحمةً من عنده فعُمّيت عليكم . . أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » .

البيّنَة : الحجة والبرهان والدليل ، الذى به يتبين الإنسانُ موقفه من الأمر الذى معه . .

والرحمة : النعمة التى أنعم الله بها عليه ، وهى التعرف على الله ، والإيمان به . .

عُمّيت عليكم : أى خفى عليكم أمرها ، وعَميت أبصاركم عنها . .

أنلزِمكموها : أصلها أنلزمكم إياها . . والإلزام بالأمر : الحمْل عليه بالقهر والقوة . .

و « ها » فى قوله تعالى : « أنلزمكموها » ضمير يعود إلى الرحمة ، وهى الإيمان بالله .

وفى هـذا الردّ الذى ردّ به نوح على قومه إشارة إلى أن المعتقـد الدينى لايكون عن قهر وإكراه ، وإنما هو أمر لايتمّ إلا عن اقتناع ، وقبول ، ورضًا . . وهـذا ما يشير إليـه قوله تعالى : « لا إكراه فى الدين » . . وقد أشرنا من قبـل إلى معنى البينة عند تفسير قوله تعالى : « أفمن كان على بيّنة من ربه ويتـلوه شاهد منه » (الآية ١٧ من هذه السورة) وقلنا إن البينة هى الفطرة السليمة المركوزة فى كيان الإنسان ، والتى يجد منها صاحبها الدليلَ الذى يَدُلّه على الله سبحانه وتعالى ، من غير أن يرد عليه وارد من الخارج يَدُلّه على الله . . فإذا جاء هـذا الوارد ، كان رحمةً وفضلا من الله سبحانه ، إلى ما أودع الله فى الإنسان من فطرة سليمة . ، وعقل مدرك مبصر .

* قوله تعالى : « ويا قوم لآأسألكم عليه مالاً إن أجرِىَ إلاّ على اللهِ وما أنا بطاردِ الذينَ آمنوا إنّهُمْ مُلاَقُو ربِّهم ولكنى أراكُمْ قوْماً تجهلون » .

ومن حجّة نوح على قومه ، أنه إذ يدعوهم إلى مايدعوهم إليه ، وإذ يحتمل فى سبيل ذلك مايحتمل من جَهْد وبلاء ـ أنه لايسألهم أجراً على هذا العمل ، الذى يحتمل من أجله ما يحتمل من عَنَاء ، وإنما هو حِسبة لله .. ولو أن نوحاً كان يبغى بما يدعوهم إليه أجراً منهم ، أو نفعاً ذاتياً له ، لكان لهم أن يظنّوا به الظنون ، وأن يرتابوا فى أمره ، وفى هذا الإلحاح الّذى يُلحّ به عليهم ، رغم ما يَجْبَهونه من تكذيب ، ومايرمونه به من ضُرٍّ ..

وإذ كان الأمر كذلك ، فإنه مقيمٌ على دعوته ، ممسك بمن استجاب له من قومه ، وإن كانوا كما يقولون فيهم ، إنهم أراذلهم ! .. ذلك أن القوم جميعاً مدعوون إلى الله ، ولايأخذ الداعِى أجراً من المدعوّين ، سواء أكانوا أغنياء أم فقراء .. أصحاب جاه وسلطان ، أم مجردين من كل جاه وسلطان .. فالباب مفتوح ، لكل من يريد الدخول إلى ساحة الله ، ومن دخلها مستجيباً لدعوة الله ، فإنه من غير المقبول أو المعقول أن يطرد بعد أن أجاب .. فهؤلاء الذين آمنوا هم فى طريقهم إلى الله ، ولن يطردهم ويردّهم من دعاهم إليه .. ولكنّ القوم فى جهلٍ وضلالٍ ، لايرون حتى هذه البَدَهيّات من الأمور .

* قوله تعالى : « ويا قوم من ينصرنى من اللهِ إن طردتهم .. أفلا تذكّرون » .

أى إن الجماعة الذين آمنوا قد أصبحوا فى ضيافة الله ، فكيف أعتدى على ضيوف الله ؟ وكيف أطردهم من ساحته وقد تحصّنوا به ، ونزلوا فى حماه ؟

أفلا يحمى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ضيوفَه ؟ أفلا يأخذ على يد من يعتدى على من كان فى ضيافته، ومن احتمى فى حماه ؟ إن ذلك ما لابد أن يكون .. فلله سبحانه وتعالى غَيْرةٌ على حرماته أن تُنْتهك . . فهل إذا انتهك نوحٌ حرمة الله، وطرد المتحرمين بهذه الحرمة ، ثم أخذه الله ببأسه . . أفى القوم من ينصر نوحاً ويدفع عنه بأس الله إن جاءه ؟ . . ذلك محال ..

وإذن فلن يطرد نوح من آمن بالله ، ولن يُخْلِىَ مكانهم لهؤلاء السادة الذين يأبون أن يكونوا هم وهؤلاء « الأرذلون » على مائدة واحدة ، ولو كانت مائدةَ الله ، الممدودةَ لعباد الله !!

* قوله تعالى : « ولا أقولُ لكم عِنْدى خزائن الله ولا أعلم الغيبَ ولا أقولُ إنى مَلَكٌ ولا أقول للذين تزدرى أعيُنكم لن يؤتيَهم الله خيراً . . الله أعلم بما فى أنفسهم .. إنى إذًا لمن الظالمين » .

إنه ليس بين يدى نوح مايقدّمه لهؤلاء القوم ، الذين يُقَدّرون خطواتهم التى يخطونها نحو أمرٍ من الأمور ، بقدر مايمكّن لهم هذا الأمر من سلطان ، وما يكثّر فى أيديهم من أموال . .

إنه ليس معه شىء يغريهم به ، ويشدّهم إليه نحو هذه الدعوة التى يدعوهم إليها ..

إنه ليس عِنده خزائن الله ، حتى يملأ أيديهم منها . . فذلك إلى الله وحده . .

وإنه لايعلم الغيب ، حتى يكشف لهم عن مسالك الطرق التى يأخذونها إلى غايات النجاح والفلاح ، وإنه ليس مَلَكاً من السماء ، يملك من القوى مالا يملكون . . إنه بشرٌ مثلهم ! !

وإنه ليس له أنَ يحكم فى أمر هؤلاء الذين يحقِرونهم ، ويزدرونهمْ ويرونَ أنهم ليسوا أهلا لأن يلبسُوا فضلاً ، أو يسبقوا إلى خيرٍ ..الله أعلم بما فى أنفسهم ، وما استكنّ فى قلوبهم ، من إيمان أو نفاق . . فإن الحكم عليهم من جهة نوح بما استكنّ فى سرائرهم ، هو ظلم ، لأنه حكم بغير بينة ، إذ لا يعلم ما فى السرائر إلا الله ..

فهذا هو نوحٌ ، الذى يدعوهم إلى الله .. إنه بشر مثلهم ، وإنه لا يملك لأحد ضَرًّا ولا نفعاً .. فإن قبلوه على ماهو عليه ، وآمنوا بالله ، فذلك من حظّهم .. وإن أبوْا عليه ، وخالفوه .. فلهم ما شاءوا .. « أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » إنه لا إكراه فى الدين . . !

الآيات : (٣٢ — ٣٥)

* « قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ » (٣٥)

التفسير : قوله تعالى * : « قالُوا يانُوح قد جادلتنا فأكثرتَ جِدَالنا فأتِنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » . . إنه بهذا اللقاء الذى يفيض بالجفاء ، والضجر ــ يلتقى القومُ بنوح ، فيُلقون إليه بهذه الكلمات المتهجّمة المتوعدة :

« يا نوح : قد جادلتنا فأكثرتَ جِدالنا » . . وإنه لجدل عقيم ، قد تصدّعت له الرءوس . . فأعْفِنا من جَدَلك هذا ، وهيّا ائتنا بما تَعِدُنا من العذاب ، إن كنت من الصادقين ! !

هكذا منطق السفهاء والحمقى ، مع دعاة الخير ، وقادة الناس إلى الهدى والرشاد ! تطاولٌ ، وسفاهة ، وسخرية ، واستهزاء . . ثم تحدٍّ وَقاح لما أُنْذِروا به من عذاب الله . . إنهم ينكرون أن يكون نوحٌ على صلة بالله ، ويرون ما أنذرهم به ليس إلا من مفترياته على الله . . فليأت بهذا العذاب إن كان من الصادقين .

وفى لطف ووداعة ولين ، وتواضع ، يَلْقَى هذا التحدى . . فيقول ماحكاه القرآن عنه ، فى قوله تعالى :

* : « قال إنما يأتيكم به اللهُ إن شاء وما أنتم بمعجزين » .

فذلك ليس أمره إلى يَدى ، وإنما أمره إلى الله ، يُنزله بكم حيث شاءعلمه، وقضت إرادته . . ولستم بالذين يُعجزون الله ، أو يجدون مهرباً من وجه العذاب الذى يأخذكم به ، حين يشاء !

* : « ولا ينفعكم نصحى إن أَردت أَن أَنصح لكم إن كان الله يريدُ أَن يُغويكم هو ربكم وإليه تُرجعون » .

وليس لى كذلك أمر هدايتكم وإرشادكم ، والانتقال بكم من الضلال إلى الهدى ، ومن الكفر إلى الإيمان . . فذلك أمره إلى الله وحده . . فإن كان الله سبحانه وتعالى قد أراد بكم ألاّ تبصروا من عمًى ، وألا تهتدوا من ضلال، فذلك شأنه فيكم ، وحكمه عليكم ، وأنتم مربوبون له ، وهو ربكم ، وإليه مرجعكم .. إن شاء عذّبكم ، وإن شاء عفا عنكم . .

وفى قَصْر الحديث معهم على الإغواء ، وهو الإضلال ، دون الحديث عن الهداية والإرشاد إلى الإيمان - إشارة إلى أنَّهم لن يكونوا إلا هكذا ، وأن الله سبحانه وتعالى ، قد أخبر أنهم لن يؤمنوا ، كما قال تعالى بعد ذلك : « وأوحىَ إلى نوح أنه لن يؤمن قومك إلاّ من قد آمن » ..

ـــوفى قوله : « إن أردتُ أن أنصح لكم » مع أنه ينصح لهم فعلا ، إشارة إلى أنه لو أراد معاودة النصح ، ومراجعتهم فى موقفهم ، بعد أن قطعوا عليه الطريق بقولهم : « يانوح .. قد جادلتنا فأكثَرت جدالنا » - إنه إن أراد أن يجدّد النصح ويعاوده ، فلن ينفعهم ذلك ، إن كان الله قد أراد لهم الضلال وكتب عليهم الكفر .

* قوله تعالى : « أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلىَّ إجرامى وأنا برىء مّما تُجرمون » - هو حديث إلى المشركين من قريش وأحزابهم ، وفضحٌ لما يدور فى خواطرهم ، ويتردد فى صدورهم ، ويتحرك على شفاههم من اتهام للنبىّ بأنه افترى هذا الحديث الذى تحدّث به عن نوح وقومه ، أو أنه افترى هذا القرآن الذى يحدثهم به ، وأنه ليس وحياً من عند الله ، كما يقول ..

وقد ردّ الله عليهم بقوله للنبىّ : «قل إن افتريتُه فعلىّ إجرامى وأنا برىء مما تجرمون »أى إن يكن ماجئت به هو اختلاق وكذب ، فهو جريمة منكَرة ، وإثم غليظ .. ولكن تبعة هذا الجرم علىّ وحْدى ، إن يكن ماجئت به مفترًى على الله .. وليس عليكم منه شىء ، وإنما عليكم تبعة هذا الجرم الذى أنتم فيه ، وهو الكفر بالله .. وأنا برىء مما أجرمتم ، ومّما يصيبكم منه من عذاب عظيم .

وقد جاءت هذه الآية فى ثنايا قصة « نوح » ليلتفت إليها المشركون ، وكأنَّها قصتهم .. ثم لينتبهوا إلى ماسيجىء بعدها .. من أخذ الله سبحانه وتعالى للظالمين والمكذبين .

الآيات : (٣٦ — ٣٩)

* « وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ » (٣٩)

التفسير :

* : « وأوحِىَ إلى نوح أنه لن يؤمِنَ من قومك إلاّ من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » .

هذا عزاءٌ وتسرية عن نوح .. من ربّه ، بعد أن جابهه قومُه بالقطيعة والتحدّى ، بقولهم : « قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصّادقين » .. فقد لَبِث فيهم نوح .. كما يحدّث القرآن الكريم .. ألف سنةٍ إلاّ خمسين عاماً ، يدعوهم إلى الله ، فما استقاموا له ، ولا لانت قلوبهم القاسية !

« فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » .. والابتئاس : الحزن ، والألم ، أى لا تحزن ولا تتألم ، لما يلقونك به من بهت وتكذيب ، فقد عاقبهم الله أشدّ عقاب ، وهو أنه أمسك بهم على الكفر ، وحجزهم عن أن يكونوا من المهتدين المؤمنين !

* « واصنع الفُلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون » .. وهذا عقابٌ آخر معجّلٌ لهم فى الدنيا .. « إنّهم مغرقون » .

وقوله تعالى : « بأعيننا » أى تحت رعايتنا وعنايتنا ، وبتوفيقنا وتوجيهنا ..

وقوله تعالى: «وَوَحْيِنا» أى بإرشادنا لك، بما نوحيه إليك من أمر السفينة، وكيف تصنعها، وعلى أى وجه وصورة تقيمها..

— وفى قوله تعالى: «ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا».. إشارة إلى شدّة نقمة الله على هؤلاء المكذبين الضالين، واستبعادٌ لكل شفيع يشفع لهم، كما فى قوله تعالى: «وذَرْنِى والمكذبين أولى النَّعْمة ومهلهم قليلا» (١١ ـ المزمل) وقوله سبحانه: «ذَرْنِى ومن خَلَقْت وحيداً» (١١ : المدثر).

وفى قوله تعالى: «إنهم مغرقون» حكم قاطع لامردّ له..

* : «ويَصنعُ الفُلْكَ وكلّما مَرَّ عَلَيْه ملأٌ من قوْمِهِ سَخِروا مِنْه قال إن تَسْخَروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون * فسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يُخْزِيه ويَحِلُّ عليه عذاب مقِيم».

امتثل نوح أمرَ ربّه، وأخذ يصنع السفينة كما أمره الله، وكما أرشده ووجهه.. وكان كلّما مرّ عليه «ملأ» أى جماعة من قومه وهو يعمل فى السفينة، هزئوا منه وأسمعوه ما يؤذيه من قوارص الكلم، وقالوا ماحكاه القرآن عنهم فى قوله تعالى: «فكذّبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر» (٩ : القمر).. ولكنّ نوحاً يعلم ماوراء هذا الأمر الذى هو قائم عليه.. إنه النجاة له، والهلاك للقوم الظالمين.. فهم إن سخروا منه اليوم، فإنه سيسخر منهم غداً، حين ينكشف لهم الأمر. ويحلّ بهم البلاء. «إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون».

(الآيات : (٤٠ — ٤٤)

* «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ

إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَابُنَىَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِى مَآءَكِ وَيَا سَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ الْمَآءُ وَقُضِىَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » (٤٤)

التفسير :

* قوله تعالى : « حتى إذا جاء أمرنا » هو غاية لقوله تعالى : « ويصنع الفلك » أى وظل نوح يصنع الفلك ، وينتظر أمر ربه فيما صنع ، حتى جاءه أمر الله ، وقد فار التنور حين اتصل الماء النابع من الأرض بالنار الموقدة فى التنور .. والتنور : هو مستوقد النار .

* « قلنا احمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل » هذه هى شحنة السفينة التى صنعها نوح .. قد أركب فيها من كل صنف من أصناف الحيوان زوجين ، ذكراً وأنثى .. ثم أهله ، إلاّ من سبق عليه قضاء الله منهم ، فلم يستجب له ، ولم يؤمن بالله .. ثم من آمن من قومه : « وما آمن معه إلا قليل »

* « وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم » .. فباسم الله تجرى على هذا الماء، وباسم الله تستقر على اليابسة ، بعد أن يأذن الله للماء أن يغيض ، وللأرض أن تستقبل السفينة . فالله سبحانه هو المسيّر لها ، وهو

المسك بها . « إن ربى لغفور » يتجاوز عن سيئاتِ من يبسط له يده بالتوبة « رحيم » لايؤاخذ الناس بظلم الظالمين منهم : « ولو يؤاخذ الله النّاس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابّةٍ ولكن يؤخّرُهم إلى أجلٍ مسمًّى » (٤٥ : فاطر) .

* قوله تعالى : « وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوحٌ ابنَه وكان فى معزلٍ يابنىَّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوى إلى جَبَلٍ يعصمنى من الماء قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلا مَنْ رَحِمَ وحال بينهما الموج فكان من المغرقين » .

وهكذا يفرّق الضلال بين الابن وأبيه .. حتى ليأبى الولد وهو بين يدى هذا البلاء المحيط به ، أن يستجيب لأبيه ، وأن يستمع له .. فيخرج عن أمره ، وهو يدعوه إلى مافيه سلامته ونجاته .. وهكذا يوفّى كلٌّ من الأب والابن جزاء ماكسب .. فينجو الأب بإيمانه ، ويهلِك الابنِ الكافر بكفره ..

* قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعى مآءك وياسماء أقلِعِى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الْجودىّ وقيل بُعدًا للقوم الظالمين » .

لقد دارت السفينة دورتها ، وبلغت المدى المقدور لها ، وأَذِن الله سبحانه وتعالى لها أن تستقر على اليابسة ..

— «وقيل يا أرض ابلعى ماءك » . . والقائل هو الله سبحانه وتعالى ، وعدم ذكره ، إشارة إلى أن المقام يحدّث عنه ، والحال ينطق به . . إذ لايُسمع الأرضَ غيرُه ، ولا يأمر السماء فتمتثل أمره ، سواه !

وإقلاع السماء : هنا ، أن تكفّ عن إنزال الماء المتدفق من أبوابها ، كما يقول سبحانه وتعالى : « ففتحنآ أبوابَ السّماء بماء منهمرٍ » ..

والجودىّ : قيل هو جبل بالموصل ، وقيل هو كل أرض صلبة مستوية ..

— قوله تعالى : « وقيل بُعداً للقوم الظالمين » .. القائل هنا يمكن أن يكون الله سبحانه وتعالى ، أو أن يكون نوح ومن كان معه فى السفينة ، ويجوز أن يكون قولَ كل إنسان يعلم من أمر القوم ما كان منهم من ضلال ، وعناد !

وهنا أمور نحب أن نقف عندها :

أولاً : قد تحدّث المفسّرون أحاديث كثيرة عن السفينة ، وأوصافها ، وطولها ، وعرضها .. وهذا مالم يحدِّث به القرآن ، تصريحاً أوتلميحاً .. فلنحترم صمت القرآن ، ويكفى أن نعلم أنها سفينة حملت ما أمر الله نوحاً أن يحمله فيها ، من أُناس وأنعام .

وثانياً : صنوف الحيوان التى حملتها السفينة .. فقد جلَب إليها المفسّرون كلّ شارد ووارد من حيوان الأرض .. من دوابّ ، وأنعام ، وطيور ، وزواحف .. مما لايمكن أن يُرى فى أكبر حدائق الحيوان فى العالم ..

وهذا أمر غير متصوَّر .. اللهم إلا أن تكون السفينة كوكباً آخر ، غير الكوكب الأرضى .. نُقل إليه ماعلى ظهر الأرض من أحياء !

والذى يُعقل ، هو أن يكون نوح قد حمل معه بعضَ الحيوانات الأليفة ، التى ينتفع بها الإنسان ، مما يُركب ، أو يحمل عليه ، أو يؤكل لحمه ويُشرب لبنه ، مما لايتجاوز بعضَ مايقتنيه الإنسان ويربيه ، مقتصراً منه على ذكر وأنثى ، من كل نوع ، حتى تتوالد ، وتكثر ، وتستبقى نسلها ، شأنه فى هذا شأن أسرة تعتزل ناحية من الحياة ، فتأخذ معها كل مايصلح لحياتها فى الوطن الجديد المنعزل ..

أما أن يحمل نوح فى سفينته كل حىّ ، من الأسود والنمور والذئاب والضباع ، والثعابين والحيات ، والفئران والعقارب ، وغير هذا مما تحمل الأرض ـ فهذا

مالا يُتصور أن تحمله سفينة ، كما أنه ضَربٌ من العبث ، بل وإنه لمن الضلال والضياع أن يصحب الإنسان هذه الحيوانات المهلكة . .

وثالثاً : ما وُصف به الماء الذى كانت تجرى عليه السفينة ـ وأنها تجرى فى موج كالجبال ـ هذا الوصف قد أثار عند المحدّثين تساؤلاتٍ كثيرة ـ خاصة عند من يُنكرون أن الطوفان كان عامًّا شمل الأرض كلها ـ فيقول قائلهم : وأين هى الأمواج التى تكون كالجبال ؟ ثم ما داعيتها إذا كان المراد هو إغراق جماعة ضلّت طريقها إلى الله ؟ ألا يكفى أن يكون سيْلا جارفاً ينزل بهم ، ويقضى عليهم ؟

والجواب : أن تشبيه الأمواج بالجبال لا يعنى أن تكون مثل الجبال حجما وعلواً ، سواءً بسواء ، بل يكفى أن يكون هناك وصف مشترك بينهما . . وفى الأمواج ما يرتفع إلى علو يبدو وكأنه فوق صفحة الماء هضاب وجبال على ظهر الأرض . . فالأمواج العالية ، هى جبال فوق سطح الماء ، وإن لم تبلغ الجبال التى على ظهر الأرض.. ضخامةً وارتفاعاً . .

فإذا نظرنا إلى « الطوفان » باعتبار أنه كان ظاهرةً من ظواهر الطبيعة ، وثورة من ثوراتها العاتية ، كان لنا أن نرى هذه الصورة التى رسمها القرآن، أمراً ممكناً ، إذ يقع كثير من الطوفانات فى العالم بفعل الأعاصير العاتية ، فتجتاح المدن ، ويرتفع الماء ، إلى عشرات الأمتار فوق سطح البحر . . فكيف إذا كان طوفان نوح هذا ، ظاهرةً فريدة بين تلك الظاهرات ؟ إنه معجزة قاهرة متحدية .. لن يقع مثلها ، ولن يتكرر أبداً ! . .

رابعاً : هذا الطوفان .. هل كان محليا ، شمل المنطقة التى كان يعيش فيها نوح وقومه . . أم تجاوزها فشمل اليابسة كلها ، بحيث لم يكن هناك شبر منها لم يغطّه الماء ؟

إننا نميل كثيراً إلى القول بأنه كان طوفانا محليا .. إذ ليست هناك حكمة ظاهرة لأن تتغير معالم الأرض ، وتتحول كلها إلى محيط يشتمل عليها .. وإنه ليكفى ـ لكى تقوم المعجزة ، وتؤدى الغرض منها ـ أن تحدث ثورة من ثورات الطبيعة فى هذا المكان ، فيُغرق اليابسة ومن عليها ، ويُهلك الحرث والنسل ..

وخامسا : ابن نوح . . اختلف المفسرون فى نسبته إلى نوح . . وهل هو ابنه ،أو ابن زوجه من رجل غيره .. ويجيئون إلى ذلك بقراءة من يقرأ « ابنَه » : « ابنَها » . . هكذا : « ونادى نوح ابنَها » . . ويؤيدون هذا بأن نوحا قال : « إن ابنى من أهلى » ولم يقل « إنه منى » ! بمعنى أنه من زوجه ، إذ كانت زوجة الرجل أهلَه ، التى أقام منها أهله ونسله . . وكأنهم بهذا إنما يستكثرون أن يكون ابنُ نبى من الأنبياء كافرا ، خارجا على سلطان أبيه ، وأن الله سبحانه وتعالى لم يُكرِم هذا النبىّ ، فيحفظ ابنه من الضلال ، ويقيمه على طريق الهدى !

وهذه كلها مماحكات ـ وأكاد أقول إنها ضروب من اللهو ـ ينبغى أن ننزه القرآن الكريم عنها . . !

وماذا يقول نوح لكى يكشف عن وجه ابنه ، أكثرَ من أن يقول :« رب إن ابنى من أهلى » ؟ وهل ليس ابن الإنسان من أهله ؟

بل وماذا يقول الذين يقولون هذه الشناعات ـ ماذا يقولون فى قول الله تعالى : « ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنىّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين » بل ماذا يكون من أب نحو ابنه من حنوّ وإشفاق ، ومن جزع وحزن ، أكثرَ مما فعل نوح مع ابنه هذا ؟ . لقد هتف به أن يركب السفينة معه ، وذلك حين تفقّده فلم يجده بين أهله الراكبين فيها . . ثم لقد برّح به الحزن ، واشتد عليه الألم بعد أن هلك هذا الابن ، وكان من المغرقين ـ فجعل نوح يندب ابنه ويبكيه ، ويطلب من الله العزاء والسلوان الذى حكاه القرآن

بقوله : « ونادى نوح ربّه فقال ربّ إن ابنى من أهلى ؟ وإن وعدك الحق ! وأنت أحكم الحاكمين ! »

فبهذا القلب الحزين الذى يتمزق أسًى وحسرة يناجى نوح ربه ، وكأنه يعاتبه أو يُراجعه فيما قضى به سبحانه وتعالى فى هذا الابن العاقّ !

أفبعد هذا يقال فى ابن نوح قول غيرِ أنه ابنه ؟ اللهم إلا أن تفقد الألفاظ مدلولها ، وتتحول إلى ألغاز وطلاسم ! وهنا يحتاج الأمر إلى منجّمين .. لامفسرين لقرآنٍ كريم ، بلسان عربى مبين .

الآيات : (٤٥ — ٤٩)

* « وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ » (٤٩)

التفسير :

الذين شكّوا فى نسبة ابن نوح إليه ، وقالوا إنه ابن زوجته .. لاأدرى كيف

قبلوا على أنفسهم هذا القول ، وبين أيديهم أكثر من شاهد يشهد ببنوة هذا الابن إلى نوح ، بنوّة حقيقية لا لَبْس فيها .. وأنه إذا كان من الممكن حمل الألفاظ على غير محاملها ، ونقلها من الحقيقة إلى المجاز ، فإنه من غير الممكن أن يكون ذلك بالنسبة للعواطف الإنسانية ، التى تحكمها صلات النسب ، كالبنوّة ، والأبوة ، والأخوة ونحوها ، والتى تحتل عاطفة الأبوة المكانَ المكين منها ؟.

فهذا « نوح » لا ينسى ابنه الغارق ، مع أنه كان من المخالفين له ، الخارجين على طاعته ، المكذبين له ، الكافرين بالله .. ولكنها عاطفةُ الأبوة المتأججة ، التى لا يطفىء وَقْدَتَها ما يكون من الأبناء من عقوق ، وما يكون فيهم من انحراف ، واعوجاج ! وإن الابن ليكون على حال من السوء والسّفه ، حتى ليلفظه المجتمع كله .. ولكن عاطفة واحدة تظل ملتحمة به ، متّسعة لقبوله على ما هو عليه ، أيًّا كان هذا الذى هو عليه .. من سوء وسفه .. تلك هى عاطفةالأبوة .. الممثلة فى الأبوين معا .. الأب والأم ..

فكيف يسوغ بعد هذا لقائل أن يقول فى ابن نوح إنه ليس ابناً حقيقياً له ؟ لقد كانت امرأة نوح من الجبهة المناوئة له ، الخارجةعلى دعوته ، الكافرة بالله ، وقد أغرقها الله مع من أغرق من قوم نوح ، فلم يأسَ عليها نوح ، بل ولم يلتفت إليها ، وقد جرفها التيار ، واحتواها الموج .. فكيف يأسى على ابنها ويمسك به ، ويشدّه إليه ؟ ثم كيف يعود إلى ربه باكياً متوجعاً ، يطلب العزاء والسلوان .؟

* « ونادى نوحٌ ربّه فقال ربِّ إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين »

— وفى قول نوح : « ربِّ إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق » إشارة إلى قول الله سبحانه وتعالى ، لنوح : « احملْ فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلك

إلا من سبق عليه القول » . . فقد كان نوح يعلم أن من أهله مَن حَقّ عليه القول بأنه من المغرقين ، ولكن عاطفة الأبوة قد حجبت عنه رؤية ابنه أن يكون فى هؤلاء الغرقى ، ولهذا ظل ممسكا به إلى أن حال بينهما الموج فكان من المغرقين . .

ومع أن نوحاً على يقين بأن ابنه قد هلك ، ولا سبيل إلى أن يلقاه حيًّا فى هذه الدنيا ــ فإن ما به من لذعة الألم ، وحُرقة الأسى ، قد حمله على أن يشكو إلى ربه هذا الذى يجده . . ليسمع من ربه كلمة يبرّد بها صدره ، ويطفىء لهيب النار المشتعلة فيه . .

وقد عاد الله سبحانه وتعالى على « نوح » بفضله ، فناجاه وواساه ، ووقف به على الحد الذى يجب أن يلتزمه نوح مع أمر ربه ، وعلمه ، وحكمته .

« قال يا نوح . . إنه ليس من أهلك . . إنه عمل غير صالح . . فلا تَسْأَلْنِ ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين » . .

ــ وفى قوله تعالى : « يانوح » عزاء جميل ، ومواساة كريمة من ربّ كريم . . إذ ناداه الحقّ جلّ وعلا باسمه ، كما يدعو الحبيب حبيبه ، ويناجى الخليل خليله . . « يا نوح » !

ــ وفى قوله تعالى : « إنه ليس من أهلك » إشارة إلى أن هذا الابن ليس من أهل « نوح » الذين يُنسبون إليه نسبةَ ولاء ، وطاعة . . إن أهلَه هم المؤمنون به . .

ولهذا كشف الله سبحانه وتعالى لنوح عن السبب الذى من أجله لم يكن ابنُه من أهله ، فقال سبحانه : « إنه عَمَلٌ غير صالح » أى إنه عمل من غير الأعمال الصالحة ، التى يتقبلها الله ، وما كان لنوح أن يُمسك بين يديه عملا غير صالح . .

وسمّى الابن « عملاً » لأنه غَرْسٌ من غرس أبيه ، وثمرة من زرعه . .

ولـكن هذا الابن كان غريباً ، غُرِس فى منبت سوء ، هى أمّه . فجاء ثمرة معطوبةً فاسدة !

— وفى قوله تعالى : « فلا تسألْنِ ماليْس لك به علم .. إنى أَعظك أن تـكون من الجاهلين » ـ ما يسأل عنه :

إذ كيف ينهاه الله سبحانه وتعالى عن أن يسأله ماليس له به علم ؟ وهل يسأل الإنسان إلا عن الذى ليس له به علم ؟ والجواب : أن المراد بالعلم هنا ، العلم الذى لايقع فى متناول العقل البشرى ، لأنه علم فوق مستوى هذا العقل ، وقد استأثر به الله سبحانه وتعالى وحده . .

فالنهى الواقع على السؤال عما لا يعلم نوح ، هو نهى واقع على العلم الإلهى الذى لايدركه نوحٌ ، ولا يتّسع له عقله . . !

وفى قصة موسى والعبد الصالح مايشير إلى شىء من هذا ، فقد سأل موسى العبدَ الصالح أن يعلّمه شيئاً من هذا العلم الذى وهبه الله العبدَ الصالح ، واختصه به ، وذلك فى قوله تعالى : « فوَجدا عبـداً من عبادنا آتيناه رحمةً من عنـدنا وعلمناه من لدنّا علماً . . » ولهذا قال له موسى : « هل أتبعك على أن تعلمن مما عُلّمتَ رُشداً » ؟ وكان جواب العبد الصالح له : « إنك لن تستطيع معى صبراً * وكيف تصبر على مالم تحط به خُبراً » ؟ إنه عـلم تَحارُ أمامه العقول ، وتَزيغُ به الأبصار . . لأنه علمٌ فوق مستواها ، وأكبر ممـا تحتمل . . كالضوء الباهر تحدّق فيه العين ، فيحجبها ضوءه عن أن ترى شيئاً ، حتى لـكأنها فى ظلام دامس مطبق !

ولهـذا جاء قوله تعالى لنوحٍ : « إنى أعظك أن تـكون من الجاهلين » منبهاً له إلى أن هناك علماً لايعلمه نوح ، ولا يحتمل وقعه على مدركاته . . فليعلمْ

أن له علماً ، وأن لله سبحانه وتعالى علماً فوق هـذا العلم ، لا تناله الأفهام ، ولا تدركه العقول . .

وقد عَـلِمَ نوح أين يقف به علمُه .. فقال :

* « قال ربِّ إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به عـلمٌ وإلاَّ تغفرْ لى وترحمنى أكن من الخاسرين » .

فهو يستعيذ بالله أن يجهَلَ حدّ ما بين المخلوق والخالق ، فيجاوز هذا الحد ، فيـكون ظالمـاً لنفسه ، معتدياً على حدود الله . . ولهذا ، فقد عَرَف أن ما كان منه من سؤال عن ابنه ، وعن حكمة الله فى إغراقه مع المغرقين — هو أمرٌ جاوز به الحدَّ الذى ينبغى أن يقف عنده مع الله ، فجاء إلى الله تائباً مستغفراً . . فتلقّاه الله سبحانه بالقبول والمغفرة . .

فقال سبحانه :

* « قيل يانوح اهبط بسلامٍ منّا وبركات عليك وعلى أممٍ ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسُّهم منّا عذاب أليمٌ » .

ولقـد هبط نوحٌ إلى الأرض ، يصحبه السلام والبركة من الله : « اهبطْ بسلام منَّا وبركاتٍ عليك ، وعلى أمم ممن معك » .. وقد أَخَذَ الذين كانوا مع نوح حظهم من هـذا السلام وتلك البركة ، فـكانوا جميعاً محفوفين بالسلام والبركة من رب العالمين . .

— وفى قوله تعالى : « وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عـذاب أليم » — إشارة إلى أن من مواليد هؤلاء الذين كانوا مع نوحٍ ستنشأ أمم كثيرة ، وأن هذه الأمم التى ستنشأ من ذرِّية هؤلاء القوم المؤمنين ، لن يكونوا على شاكلة واحدة ، بل سيـكون منهم المؤمنون الذين يمسّهم السلام ، وتحفّهم البركة من الله ،

وهم أمم ، ويكون منهم الذين يتخلّوْن عن نصيبهم من السلام ، ويتعرّوْن عن حظهم من البركة ، فيكفرون بالله ، فيمتعهم الله فى الدنيا هذا المتاع القليل ، ثم يلقون العذابَ الأليم فى الآخرة ، جزاء كفرهم بالله . . ! وهم أمم أيضاً .

وفى هذا إشارة إلى نوحٍ وابنه . . وأن نوحاً إذا كان ممن ألبسهم الله لباس السلام والبركة ، فإن ذلك ليس مما يرثه الأبناء عن الآباء . . وأن المؤمن قد يكون من ذريته المؤمن والكافر . . كما أن الكافر قد يكون من ذريته الكافرُ والمؤمنُ . . وفى هذا إشارة ثالثة إلى أن للإنسان إرادة ، وله سعى وعمل ، وأنه بإرادته وسعيه وعمله ، يأخذ الطريق الذى يريده ، ويخرج به عن حكم الوراثة ، الذى إن تسلط على جميع الكائنات الحية ، وألزم الخَلَفَ منها طريقَ السلف ، فإنه لن يتسلط على الإنسان ، ذى العقل ، والإدراك ، والإرادة ..

هذا ، ومن إعجاز الصياغة فى النظم القرآنى ، أنك تقرأ قوله تعالى : « قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » — فتجد هذا النغم الموسيقى الهادر ، فى وقار وسكينة وجلال ، أشبه بأنفاس الموج ، وقد أخذت تهدأ بعد انحسار العاصفة !

ففى الآية الكريمة سبعةَ عشرَ ميما ، موزّعة بين حروفها ، هذا التوزيع الذى يقيم منها ذلك النغم الرائع ، الذى يصحب السفينة فى عودتها إلى موطن السلامة والأمن ، وكأنه أهازيج النصر ، يُنشدها العائدون من أرض المعركة ، بعد قتال ضارٍ مرير !

* قوله تعالى : « تلك من أنباء الغيب نوحيهآ إليك ما كنت تعلمُها أنت ولا قومُك من قبل هذا .. فاصبر إن العاقبة للمتقين » .

الخطاب هنا للنبيّ — صلوات الله وسلامه عليه — وأنباء الغيب المشارُ إليها ، هى ماذكره القرآن الكريم من قصة نوح ، وهى من الأنباء التى غاب عن النبيّ وعن قومه العلمُ بها ، وإن كان عند أهل الكتاب علم بها . . فهو غيبٌ نسبيّ . . وليس غيباً مطلقاً . . ثم إن ما عند أهل الكتاب هو حق مختلط بباطل . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى فى وصفه لقصص القرآن : « إنّ هذا لهو القصص الحق » (٦٢ : آل عمران) .

— وفى قوله تعالى : « فاصبر إن العاقبة للمتقين » إشارة ملفتة للنبى إلى مضمون هذه القصة ومحتواها ، وهى أنه كما كانت العاقبة لنوحٍ ومن آمن معه ، فكذلك ستكون العاقبة للنبى ومن آمن معه ، ويكون البلاء والوبال على المكذبين الكافرين ، كما كان ذلك جزاء قوم نوح . .

والأمر يحتاج إلى صبر على المكروه ، فإن وراء هذا المكروه الذى يجده النبى والمؤمنون ، فرجاً ، وسلامة ، وأمناً .

الآيات : (٥٠ — ٦٠)

* « وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ

فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوٓا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ » (٦٠)

التفسير : تعرض هذه الآيات قصةً أخرى من قصص الصِّراع بين الحق والباطل . . كما عرضت الآيات السابقة قصّة من قصص هذا الصراع .. ليكون فى ذلك مزيد من العبر والعظات ، يتمثلها النبىّ ومن آمن معه ، من جهة ـ فيجدون فيها عزاء لهم ، وصبراً على مايلقون من عَنَتٍ وعنادٍ ، كما يتمثّلها الكافرون والمشركون من أهل مكة ـ من جهة أخرى ـ فيجد أهلُ النظر فيها دعوةً مجدّدة إلى الإيمان بالله ، واللّحاق بركب المؤمنين ، قبل أن يحل بهم ما يَحلّ بالمكذبين من بلاء ووبال . .

قوله تعالى :

* « وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون » .

تلك هى دعوة هودٍ إلى قومه : « اعبدوا الله مالكم من إله غيره » وهى دعوة كلّ نبى إلى قومه . . الإيمان بالله ، وإخلاص العبودية له وحده .

— وفى قوله تعالى : « أخاهم هوداً » . إشارة إلى أن « هوداً » ليس غريباً عن القوم ، وإنما هو منهم ، وأخٌ لهم ، كما أن « محمداً » هو من قريش ، وأخ ، وابن أخٍ لهم . .

— وفى قوله تعالى : « إن أنتم إلا مفترون » كشفٌ لهذا الباطل والضلال الذى يمسك به القوم ، ويعيشون فيه . . إنه من مفترياتهم التى ولّدتْها أوهامهم وأهواؤهم .

* « ياقومِ لآ أسالكم عليه أجراً إن أجرىَ إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون » . .

والدعوة إلى الله ، دعوة خالصة لله ، لايطلب الداعون — وخاصة الأنبياء — أجراً عليها ، فالله سبحانه وتعالى هو الذى دعاهم إلى حمل هذه الدعوة ، وهو سبحانه ، الذى يتولى جزاءهم ، ويوفّيهم أجرهم . .

وقوله : « فَطَرنى » أى أنشأنى من عدم ، وأخرجنى من الأرض كما تخْرج النبتة ، فينفطر لها (أى ينشق) أديمُها حتى ترى النور ، وتتنفس أنفاس الحياة . .

وفى هذا ما يكشف عن قدرة الله ، وآثار رحمته فى هذا الإنسان ، الذى كان نطفة . . ثم إذا هو خصيم مبين !

* « ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يُرسِل السماء عليكم مِدْراراً ويزدْكم قوةً إلى قوتكم ولا تتولَّوْا مجرمين » .

المدرار : الكثير المتتابع ، وأصله من درّ اللبن ، إذا اجتمع فى الضرع ، وغَزُر . .

والمدرار الذى يرسله الله من السماء : هو الغيث الذى تحيا به الأرض ، وتُخرج به الحبّ والنبات ، والذى به تطيب حياة النّاس ، ويكثر فيهم الخير ، وتقوى به أيديهم على أن تطول الكثير مما يشاءون من أسباب القوة ، والحياة ، والسلطان . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « ويزدكم قوةً إلى قوتكم » .

— وفى قوله تعالى : « ولا تتولوا مجرمين » تحذير لهم من أن يرفضوا هذه الدعوة المباركة ، التى تصلهم بالله ، وتفتح لهم أبواب رحمته ، وتسوق إليهم غيوث رزقه . . فإن هم أعرضوا وتولّوْا فقد أجرموا فى حقٍّ أنفسهم ، وجنوْا عليها . .

— وقوله تعالى : « مجرمين » حال من الفاعل ، وهو الواو فى تتولوا . . أى لاتُعرضوا عن الاستجابة لى ، محمّلين بهذا الجرم الذى أنتم فيه ، والذى لايخلصكم منه إلا الاستجابة لما أدعوكم إليه ، والإيمان بالله .

* « قالوا ياهودُ ماجئتنا ببَيِّنَةٍ ومانحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » .

البيّنة : البرهان ، والدليل . . اعتراك : أى أصابك ، وأصله من العَوَر ، والعُوار ، وهو آفة تعرض للشىء فتفسده ، ومنه اعتوره بالسيف ، أى ضربه به ، فأفسد بعض أعضائه ، أو أفسد كيانه كلّه . . ومنه العوَر ، وهو عمى إحدى العينين .

والردُّ الذى ردّ به القوم على « هود » ـ عليه السلام ـ هو الذى يلقَى به المكابرون المعاندون كلّ دعوة حق .

إنهم يطلبون بيّنةً من « هود » وإلاّ فإنهم لايأخذون بأية دعوة قوليّة ،

ولو كانت تحمل الخير خالصاً مطلقاً . . « ما جئتنا ببينة ؟ وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك » .

والبينة التى يطلبونها ، هى آية مادية ، تقهرهم ، وتضطرهم اضطراراً إلى الإيمان .. ولو أنه جاءهم بكل آيةٍ ما آمنوا ، لأنهم غير مستعدِّين للإيمان .. فإن المستعدّ للإيمان ، وتقبل الخير ، لايحتاج إلى دليل يظاهره ، ولا إلى بيّنةٍ تشهد له ، وحسب الإيمان بالله ، مايحمل فى ذاته من أمارات الفلاح ، وما يسوق بين يديه من عافية ورزق كريم !

ولـكن العناد كثيراً مايفسد على المرء رأيه ، ويقطع عليه الطريق إلى الخير .. لالشىء إلا لأنه مدعوٌّ إليه من إنسان مثله ، ومحمول له على يد واحـد من أبناء جنسه !

— « وما نحن لك بمؤمنين » . كأنهم إنما يؤمنون لحساب « هود » وكأن إيمانهم ـ إذا آمنوا ـ مما يُـكسب هودًا سلطاناً عليهم ، ويقيم له دولة فيهم .. فهم لهذا يَضِنُّون عليه بالاستجابة له ، ولو كان فى ذلك تفويتٌ للخير الـكثير الذى يقع لأيديهم من الإيمان . . إذ يرون ـ فى تصورهم الباطل هذا ـ أن مايصيبهم من خير ـ إن كان فى دعوة هودٍ خير ـ هو دون مايصيب هوداً نفسه ، إذاهم آمنوا له .. فليـكن منهم هذا الإعراض عنه ، حتى لايستحدث بإيمانهم له مكاناً عالياً فيهم .. وهكذا يفعل الجهل ، والحسد .. بالناس !

— وقوله تعالى : « إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » ـ هو قول منهم فى مقابل القول الذى قاله « هود » لهم .. فالأمر فى نظرهم لايعدو أن يكون كلاماً فى كلام ، وأنه إذا كان لهودٍ أن يقول ماقاله لهم ، فليقولوا هم له ، وليرموه بالضلال كما رماهم هو بالضـلال .. « إن نقول إلاّ اعتراك بعض آلهتنا بسوء » أى ليس لنا ردّ على قولك إلا هذا القول ، وهو أنك قد أُصبْت فى

عقلك بخَبلٍ أو جنون ، من بعض آلهتنا التى تطاولتَ عليها ، ودعوتَنا إلى ترك عبادتها .. نخذ منها الجزاء الذى تستحقه !

* « قال إنى أُشهِدُ اللهَ واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه » أى إنى أشهد الله عليكم ، بأنى قد بلغتكم ما أُرسلت به إليكم ، كما أُشهدكم أنى برىء من هذا الشرك الذى أنتم فيه ، ومن التعامل مع هذه الآلهة التى تعبدونها من دون الله ..

* « فكيدونى جميعاً ثم لاتنظرون * إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دَابَّةٍ إلاّ هو آخذٌ بناصيتها إن ربّى على صراطٍ مستقيم » .

كيدونى : أى كيدوا لى ، وخذونى بما تستطيعون من كيد ، والكيد : إعمال الحيلة ، وإحكام التدبير ، لما يراد من الأمور .. ويستعمل الكيد غالباً فى الشر ..

ثم لاتنظِرونِ : أى لاتتوانوا فى إعمال كيدكم لى ، والمبادرة به .

وهكذا ينتهى الموقف بين هود وقومه ، كما انتهى إليه الأمر بين نوح وقومه ، وكما انتهى إليه أمر كل نبى مع قومه .. القطيعة ، والترامى بالنُّذر ، وانتظار كلٌّ لمفعول ما أُنْذِر به صاحبَه .

إنى أُشهد الله عليكم بما بلغتكم من رسالته إليكم ، وأُشهدكم أننى برىء مما تعبدون من دونه من أصنام .. وهأنذا بين أيديكم ، أنتم وآلهتكم ، فكيدوا إلى كيدكم ، وعجلوا به . « إنىّ توكلت على الله ربّى وربكم » فأنا من توكلى عليه فى قوة ، وفى مَنَعة . « مامن دابّةٍ إلاّ هو آخذ بناصيتها » أى مامن دابة تدب على هذه الأرض إلا والله سبحانه وتعالى ، مستول على أمرها ، ومالك التصرفِ فيها : لاتتحرك حركة ولا تتنفس نفساً إلا بإذنه ، وبعلمه .

وإذا كان ذلك هو سلطان الإله الذى أعبده وأتوكل عليه ، فإنى لن أعبأ بكم ولا بآلهتكم .. « إن ربّى على صراطٍ مستقيم » أى إن الإله الذى أعبده ، أمره واضح ، وسلطانه قاهر ، وحكمه نافــذ ، وأثره فى الوجود لايخفى على ذى نظر .. فالطريق إليه مستقيم واضح ، لمن طلب التعرف عليه ، والإيمان به.

وفى قوله « ربى وربكم » مع أنهم لايعترفون بربّه ربًّا لهم ، هو تقرير لأمر واقع ، وحقيقة ملزمة ، لافكاك لأحدٍ منها ، رضِىَ أو لم يَرْضَ ، آمن أو لم يؤمن .. ولهذا فإنه بعد أن قرر هذه الحقيقة ، عاد فخصّ نفسه بالإيمان بها وحده ، ولم يدخلهم معه فى الإيمان ، فقال : « إن ربى على صراط مستقيم » .

قوله تعالى :

* «فإن تولَّوْا فقد أبلغتكم ما أُرسلتُ به إليكم ويستخلفُ ربِّى قوماً غيركم ولا تضرّونه شيئاً إن ربّى على كل شىء حفيظ » .

أى فإن آمنتم بالإله الذى آمنت به ، والذى أدعوكم إليه ، فقــد اهتديتم ، وَرَشَدْتم ، وإن تتولَّوا فلا متعلّق لــكم بى .. « فقد أبلغتكم ما أُرسلتُ به إليكم » .. « وما على الرسول إلا البلاغ » .. ولستم أنتم عباد الله وحدكم ، بل إن لله عباداً كثيرين ، يؤمنون به ، ويقدرونه حق قدره ، يجيئون بعدكم ، ويقيمهم الله خلفاء بعدكم على هذه الأرض ، وإنــكم لن تضرُّوا الله شيئاً ، ولن تنقصوا أو تزيدوا من ملــكه شيئاً ، ذهبتم أو بقيتم ، كفرتم أو آمنتم .. « إن ربّى على كل شىء حفيظ » أى مالك كل شىء ، حفيظ على كل شىء ، لايستطيع مخلوق أن يغيِّر أو يبدّل فى ملــكه ذرة من ذرات هذا الوجود .

قوله تعالى :

* « ولمّا جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمةٍ منّا ونجيناهم من عذاب غليظ » ..

الأمر : الحــكم ، والقضاء الذى قضى به على هؤلاء القوم الظالمين ،

وهو الهلاك .. سمّى أمراً ، لأنه قضاء نافذ لا يُرَدّ ، فكلّ ماقضى الله سبحانه وتعالى به ، هو أمرٌ ، واجب تنفيذه على من وقع عليه ، طوعاً أو كَرْهاً .. « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » (٨٢ : يس) .

وقد كان هذا الأمر الذى وقع على « عاد » هو مارماهم الله سبحانه وتعالى به من مهلكات حملتها إليهم ريح صرصر عاتية .. وفى هذا يقول سبحانه : « وأمّا عادٌ فأهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتية * سخّرها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانية أيامٍ حُسُوماً فترى القوم فيها صَرْعَى كأنهم أعجازُ نَخْلٍ خاوية * فهل ترى لهم من باقية » (٦ ـ ٨ : الحاقة) .

وكرر فعل النجاة ، لأن الله نجّى « هوداً » ومن معه من هذا البلاء فى الدنيا ، ومن العذاب فى الآخرة ، وذلك بما ساق إليهم من رحمته فهداهم إلى الإيمان ، وصرفهم عن الكفر ، وعزلهم عن القوم الكافرين ، فى الدنيا ، والآخرة ، على حين هلك الظالمون مَهْلَكَيْن .. مهلكا فى الدنيا ، ومَهْلكا فى الآخرة ..

قوله تعالى :

* « وتلك عادٌ جحدوا بآيات ربّهم وعَصَوْا رُسُلَه واتّبعوآ أمر كل جبّار عَنِيدٍ » ..

فى الإشارة إلى جَمْع العقلاء بتلك ، إشارة إلى أنهم ليسوا جمعاً ، وليسوا عقلاء .. ذلك أنهم قد صاروا تراباً فى التراب ، لم يبق من آثارهم إلا تلك الأطلال المتداعية ، التى يمرّ عليها أهل مكة فى تجارتهم إلى الشام .. فلا يجدون إلا خراباً مخيفاً ، يحدّث عن انقلاب حلّ فى هذه المواطن ، فمسخ طبيعة كل شىء فيها .. أرضها ، وسمائها وجوها .. فلا تنبت الأرض شيئاً ، حتى الشوك ، ولا تحمل السماء شيئاً .. حتى السحاب الجهام ، ولا يتحرك بين أرضها وسمائها ريح .. حتى السَّموم !

فتلك هى ديار القوم ، وهذا هو حصيد مازرعوا .. فلينظر المشركون من أهل مكة ماذا حلّ بديار الظالمين ، ولينتظروا ماذا يحلّ بهم هم ، إن ظلوا على ماهم عليه من كفر وعناد .

ــ وفى قوله تعالى : « جحدوا بآيات ربهم وعصوْا رُسله واتبعوا أمر كل جبّار عنيد » إجابة عن سؤال هو : ما ذا كان من أهل تلك الديار حتى حلّ بهم هذا المسخ ؟ فكان الجواب : « جحدوا بآيات ربهم وعَصَوْا رُسُلَه واتبعوا أمر كلِّ جبّارٍ عنيد » !

والجبار العنيد ، هو كل رأس من رءوس الكفرة والمشركين ، الذين يتولّون كِبْر الحرب التى يعلنها أعداء الله ، على رسل الله .

ــ وفى قوله تعالى : « وعصوْا رسُلَه » ما يسأل عنه ؟

كيف جاء النظم القرآنى ، محدِّثا عن أنهم عصوا رسل الله ، مع أنهم لم يعصَوْا إلا رسولهم « هوداً » الذى أرسل إليهم ؟

والجواب : أن رسل الله على طريق واحد ، يقومون على أداء رسالة واحدة .. هى الدعوة إلى الله سبحانه ، والإيمان به ، وبكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر . .

فهم ــ من جهة ــ بمنزلة رسول واحد ، يتجدد مع الزمن فى صورة مَن ظهر منهم من الرسل . . وهم ــ من جهة أخرى ــ رسل كثيرون يجىء بعضهم إثرَ بعض فى صورة رسول .. إذ لا يختلف أحد منهم عن صاحبه فى مفهوم الرسول، وفى مضمون رسالته ومحتواها . .

فهم رُسل فى رسول ، وهم رسول فى رسل !

* قوله تعالى : « وأُتبعوا فى هــذه الدنيا لعنةً ويومَ القيامة ألآ إن عاداً كفروا ربهم ألآ بُعداً لعادٍ قوم هود » .

أى أن هؤلاء القوم لم يتركوا وراءهم فى هــذه الدنيا خيراً يُذْكرون به ،

ولم يخلفوا أثراً طيباً ينتفع به الناس بعدهم . . وإنما الذى تركوه هو ما يشهد عليهم بالبغى والضلال ، والفساد فى الأرض . . فكل من يمر بديارهم ، أو يستمع إلى أخبارهم ، لا يجد منهم إلا ريحاً خبيثة ، تجعله ينفر منها ، ويلعن الجهة التى صدرت عنها . . « وأتبعوا فى هـذه الدنيا لعنة » أى تبعتهم اللعنات بعد أن تركوا هذه الدنيا ، وذلك هو بعض ما غرسوا فيها من شر ، إذ لم تكن لهم صالحة فيما غرسوا . .

راحوا فما بكت الدنيا لمصرعهم ولا تعطّلت الأعيادُ والجمعُ

وكذلك شأنهم فى الآخرة . . فإن أهل الإيمان ، إذ يرون ما ساق إليهم إيمانهم من نعيم ورضوان ، يجدون لذة إلى لذة فى أن يذكروا أهل الكفر ، وما ركبوا فى دنياهم من ضلال ، وأن يرموهم باللعنة إذ فوّتوا على أنفسهم هذا المقام الكريم ، وباعوها فى الدنيا بثمن بخس رذل ! وفى هذا يقول الله تعالى : «ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا ؟ قالوا نعم . . فأذّن مؤذّن بينهم أن لعنة الله على الظالمين » (٤٤ : الأعراف)

ـ وفى قوله تعالى : « ألآ إنَّ عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود . . » تشهير بالقوم ، وإذاعة لجريمتهم فى الناس ، واستدعاء لكل ذى سمع ونظر ، أن يشهد هؤلاء القوم ، وينظر إليهم وهم متلبسون بهذا الجرم الغليظ ، فلا يقول فيهم إلا ما يسوءهم ويُخزيهم .

وفى تكرار حرف الاستفتاح « ألا » وفى ذِكر « قوم هود » بعد ذِكر « عاد » . . فى هذا كله تأكيد لذواتهم ، التى توجّه إليها هذه اللعنات ، والتى تعرض فى معرض التشهير ، والتجريم ، حتى لا يقع أىُّ لَبْس فى أنهم هم المقصودون بهذا ، وحتى لا يختلط أمرهم بغيرهم . . فإن التهمة خطيرة ، والحساب

عسير ، والمصير سيِّء ، بالغ الغاية فى السوء . . فكان من الحكمة التى يدعو إليها مقتضى الحال أن ينبّه على هذا الخطر ، وأن تقوم إلى جانب هذا التنبيه مؤكدات له ، أشبه بتلك الإشارات الضوئية الحمراء ، التى تظهر فى مواطن الخطر ، منبهةً إليه ، محذرة منه،قائلة بلسان الحال .. هنا « خطر » !!فخذ حذرك منه ! وإلا فأنت وما جنت يداك !

الآيات : (٦١ — ٦٨)

* « وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ » (٦٨)

التفسير :

فى هذه الآيات عرض لقصة نبىٍّ آخر من أنبياء الله ، هو « صالح » عليه السلام ، وقد بعثه الله إلى «قومه ثمود » . . وكانوا يسكنون « الحِجر » بين المدينة والشام .

ولم يكن موقفهم من هذا النبى الكريم بأحسن من موقف مَن سبقوهم مِن أهل الضلال والعناد .. قوم نوح ، وقوم هود ..

* « وإلى ثمود أخاهم صالحاً » . . والعطف هنا عطف قصة على قصة ، وحَدث على حَدث .. وقد نُصب « أخاهم » بفعل محذوف ، تقديره : أرسلنا ، أو بعثنا .

وهو أخو القوم .. أى منهم .. نسباً ، وموطناً ، ولغة .

* « قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره ».. فهذا مجمل كل دعوة دعا بها نبىٌّ قومه . . الإيمان بالله ، والانخلاع عن كل معبود سواه . . من بشر ، أو حجر !

* «هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها» . .أى هو وحده ـ سبحانه ـ المستحق للألوهية ، المستوجب للربوبية . . لأنه ـ سبحانه ـ هو الخالق الذى أوجد الناسَ من عدم . . « هو أنشأكم من الأرض » أى خلقكم من تراب هذه الأرض ، وأنبتكم منها ، كما ينبت الزرع ، وينمو ، وينضر ، ويزهر ، ويثمر .. كما يقول سبحانه : « والله أنبتكم من الأرض نباتاً » (١٧ : نوح) .. « واستعمركم فيها » أى هيأ لكم أسباب الحياة فيها ، ومكن لكم من عمرانها ، فعمرتموها بإقامة المدن ، وغرس الحدائق ، وزرع النبات والحبّ ، وتسخير الدواب والأنعام . . كما يقول تبارك وتعالى : « والله جعل لكم من بيوتكم

سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين » والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيلَ تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تُسلمون »(٨٠ـ٨١:النحل) فذلكم مما لله فى عباده .. خلقهم ، ورزقهم ، وأمدهم بأنعام وبنين وجنات وعيون .. فهل فى شرع العقلاء ما يقضى بالولاء لغيره ، والتعبد لسواه ؟

* « فاستغفروه .. ثم توبوا إليه .. إن ربى قريب مجيب » .

ومع أن كثيراً من الناس فى غفلةٍ عن الله ، وفى عمًى وضلال عن السبيل المستقيم إليه فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ يبسط لعباده يدَ المغفرة والقبول ، ويبعث للضالين رسلا من عنده ، يدعونهم إليه ، ويذكرونهم بآلائه ونعمه ، ويهتفون بهم : « أن استغفروا ربَّكم ثم توبوا إليه » ..

والاستغفار ، هو طلب المغفرة : مما كان منهم من كفر وضلال ، قبل أن يهتدوا ويَرشدوا ، ويؤمنوا بالله ..

والتوبة ، هى الرجوع إلى الله ، بعد الشرود عنه ، وذلك فى حال الإيمان ، حيث يقع المرء فى معصية ، فيبعد بها عن الله ، فيكون رجوعه إليه سبحانه بالتوبة عما وقع فيه ..

ولهذا جاء العطف « بثم » .. لأنها تعطف مرحلة على مرحلة قبلها .. مرحلة الإيمان ، على مرحلة ماقبل الإيمان ، وهذا إشعار بأن كلاً منهما من عالم غير عالم الآخر .. وشتّان بين الإيمان والكفر ، والنور والظلام !

* « قالوا ياصالح قد كنتَ فينا مَرْجُوًّا قبل هذا » .

بهذا السّفه ، كان ردّ القوم على تلك الدعوة الكريمة التى دعاهم إليها

صالح ، عليه السلام . . لقد أنكروه حين سمعوا هـذه الدعوة منه ، وتغيرت فى الحال حاله عندهم ، وشاهت صورته فى أعينهم . فلقد كان عندهم الرجلَ المرجوَّ لكل مُلمّة ، المدعوّ لكل معضلة ، المؤمّلَ لكل طالب خير ، ومرتاد فلاح ورشاد . . ولكنه الآن ـ وقد دعاهم إلى هذه الدعوة ـ قد صار فى نظرهم إنساناً غير هـذا الإنسان الذى عرفوه ! . « يا صالح قد كنت فينا مرجُوًّا قبل هذا » أى كنت مرجوًّا للخير والفلاح قبل أن تدعونا إلى هذا الذى تدعونا إليه .. أما الآن فلا رجاء فيك ، ولا خير يؤمّل منك .

* أتنهانا أن نعبد ما يعبُد آباؤنا ؟ » أى ماهذا الذى جئتنا به ؟ وكيف طوّعت لك نفسُك أن تقول هذا القول المنكر ؟ وإذا لم نعبد ما كان يعبد آباؤنا ، فمن نعبد ؟ أنعبد إلهك الذى تدعونا إليه ؟

* « وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب » ! . فكيف نترك ما نحن عليه من يقين ، قد اطمأنت قلوبنا به ، وسكنت نفوسنا إليه — إلى هذا المعبود الجديد الذى تحدثنا عنه ، ولم نعرفه ، ولم نتعامل معه من قبل ؟ أذلك مما يقول به عاقل ، ويرضى به العقلاء ؟

قوله تعالى :

* « قال ياقوم أرأيتم إن كنتُ على بينةٍ من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غيرَ تخسير » .

البينة . البرهان ، والدليل ، والحجة .

والتخسير : الخسران بعد الخسران . .

إن صالحاً — عليه السلام — لعلى هدًى من ربه ، وعلى يقين من إيمانه به ، وإنها لرحمة من رحمات ربه ، أن هداه إلى الحق ، وشرح صدره للإيمان . . وإنه — لهـذا — لن يعصىَ الله ، ولن يخرج عن طاعته ، وامتثال أمره ،

فذلك بعض ما يوجبه عليه ولاؤه لمن خَلَقه ، ورزقه ، وهداه إلى الإيمان ، وإلا كان مستحقاً للانتقام ، والعقاب . . وإنه لن يجد ناصراً ينصره ، ويدفع عنه مايريد الله به !

وشتّان بين ما يدعوهم إليه صالح ، مما فيه رشدهم وخيرهم ، وما يدعونه هم إليه ، مما يعرضه لنقمة الله وعذابه . .

— وفى قوله تعالى : « فما تزيدوننى غير تخير » إشارة إلى أنه إذا أخذ برأى قومه ، وخرج عن طاعة الله ، ووقع تحت نقمته ، ثم دعاهم إلى نُصرته من دون الله ، فلن يكون له منهم إلا بلاء إلى بلاء ، وخسران إلى خسران ! لأنه إنما ينتصر بمخذولين ، واقعين تحت النقمة والبلاء ، فلن يقدموا له — إن قدموا شيئاً — إلا ماعندهم من بلاء وعذاب ! « فما تزيدوننى غير تخسير » .

قوله تعالى :

* « وياقوم هذه ناقةُ الله لكم آيةً فذروها تأكلْ فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب » .

وبين يدى تلك الدعوة ، التى دعا بها صالح قومَه إلى الإيمان بالله ، أقام لهم آية متحدية من آيات الله ، تشهد له بأنه رسول الله . . فهذه ناقة الله . قد نصبها الله لهم آية ، ورفعها لأعينهم ، ليشهدوا منها مالم يشهدوا من النّياق التى عرفوها . . إنها ناقة على صفة عجيبة . . إنها آية من آيات الله ، ولهذا جاء وصفها بأنها « ناقة الله » ، أى آيته إليهم . . فليأخذوا منها الشاهد الذى يشهد بقدرة الله ، ويحدّث عن علمه ، وحكمته ، ومن ثَمّ يقوم لهم منها دليل آخر على صدق الرسول ، الذى جاءهم يدعوهم إلى الله . . فليصدقوه وليؤمنوا به ، وليَدَعُوا الناقة تأكل فى أرض الله — شأنها فى هذا شأنهم ، ولها فى الأرض مالهم ، لأنها ناقة الله ، والأرض أرض الله ، وهم عبيد الله ، والأرض التى يعيشون عليها

أرض الله . . وإذن فليَدَعوا ناقة لله تأخذ رزقها من أرض الله ، ولا يمسُّوها بسوء ! فإن اعتدوا عليها ، وخالفوا أمر الله فيها ، فلينتظروا العذاب القريب الذى سيحل بهم !

ولقد كان من سَفَه القوم ، وجهلهم ، وغلبة الشِّقوة عليهم ، أن تخطت نظرتهم إلى الناقة ، كل شيء فيها ، مما يكشف لهم الطريق إلى الله ، وإلى الإيمان به ـ ووقفوا عند العذاب، الذى أُنذِروا به منها ، إذا هم عرَضوا لها بسوء ـ فعملوا على كشف هذه الآية منها ، واستحلابها من ضرعها ! وذلك لأنهم كانوا على تكذيب بكل ماحدّثهم به « صالح » عنها ، وإنهم لكى يقيموا البرهان على كذبه ، استعجلوا العذاب الذى أنذرهم به إن هم مسُّوها بسوء . فما هو إلا أن يعقروا الناقة حتى يأتيهم هذا العذاب ، إن كان هناك عذاب ، وإلا فقد افتضح أمرُ صالح ، وظهر كذبه !

وقد فعلوها ! « فعقروا الناقة وعتَوْا عن أمر ربهم ، وقالوا ياصالح : ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين » (٧٧ : الأعراف) .

وهكذا يلعب الأطفال بالنار ، فتقع بهم الواقعة ، ويحلّ بهم العذاب الذى لا مردّ له !

قوله تعالى :

* « فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعدٌ غير مكذوب » .

وتلك آية أخرى . . إنها العذاب الذى سيأخذهم الله به ، بعد ثلاثة أيام . .

وفى توقيت وقوع العذاب بثلاثة أيام :

أولا : أن يظلوا خلال تلك المدة واقعين تحت وطأة تلك الخواطر المزعجة المقلقة ، بين التصديق والتكذيب ، وكانوا كلما مضت لحظة من الزمن ازداد قلقهم واضطرابهم ، انتظاراً لما يطلع به عليهم هذا الوعيد ، فى اليوم الثالث من تلك الأيام التى أُقتت لهلاكهم .

وثانياً : حصر الأجل المضروب لهلاكهم بثلاثة أيام ، هو غاية ما يمكن أن يقع فى النفس موقع الاهتمام له والالتفات إليه .. ولو امتد الزمن إلى أكثر من هذا لما التفتت إليه النفوس هذا الالتفات الذى يشدها إليه ، ويقيمها على همّ وقلق من لقائه .. ولو قَصُر الزمن إلى ما دون ذلك لقصرت فترة العذاب النفسى الذى عالجه القوم قبل أن يهلكوا ..

فهذه الأيام الثلاثة التى عاشها القوم قبل أن يحلّ بهم الهلاك قد أقتت بحكمة الحكيم العليم ، فكانت بوتقة عذاب ، تجرّع منها القوم جُرعاتِ الموت قبل أن يحل بهم الموت ..!

لقد شخصت أبصار القوم إلى هذه الأيام الثلاثة ومايطلع عليهم فى أعقابها. وقد طلع عليهم منها الويل والبلاء :

* « فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمةٍ منّا ومن خزْىِ يومئذٍ إن ربك هو القوى العزيز » ..لقد نجى الله صالحاً والذين آمنوا معه ، إذ عزلهم عن القوم الظالمين ، وما رماهم به من مهلكات ، فهو ـ سبحانه ـ الذى لا يُعجزه ما يعتزّ به الظالمون من قوة وسلطان ، وما يعتصمون به من قلاع وحصون ..

* « وأخذ الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين * كأن لم يَغْنَوْا فيها .. ألا إن ثمودَ كفروا ربهم ألا بُعْدًا لثمود » .

والصيحة التى أُخذ بها القوم ، هى صيحة الحق ، وهو صوت العذاب الذى نزل عليهم ، فرَجَفَتْ بهم الأرض منه ، « فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » .. أى جمد الدم فى عروقهم ، من رجفة الصيحة ، فلم يتحرك أحد منهم حركة ، ولم يتنفس نفساً ! إنها صيحة تحمل فى كيانها صاعقة ، أقربُ مثَل إليها الرعد المحمل بالصواعق المهلكة .. وهكذا صاروا جثثاً هامدة ، وتحولت ديارهم إلى

صمت مطبق .. لا حسّ ولا نفَس بها .. حتى لكأن لم تكن فيها حياة من قبل « كأن لم يغنوْا فيها » أى كأن لم تكن فيها إقامة ، وسكن ! لقد ذهب كل أثر من آثارهم إلا هذا الخراب الذى اشتمل على كل شىء كان هناك .

ـ وقوله تعالى : « ألاَ إنّ ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود » هو صدًى مردد لما شُيِّع به قوم هود من قبل ، « ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بُعدًا لعاد قوم هود » .. وقد بينا من قبل ما فى هذا الدعاء الذى أعقب هلاكهم . .

أما الناقة ، وما يقول المفسرون فى أوصافها ، فقد عرضنا لها من قبل عند تفسير قصة صالح فى سورة الأعراف . .

وحسبنا أن نذكر هنا أنها آية من آيات الله ، وُضعت بين يدى القوم ، لتكون امتحاناً لهم وابتلاء . . وليس من الحتم اللازم أن تكون على صفات جسدية خاصة ، تخرج بها عن طبيعة النياق .. بل يكفى أن تكون مجرد ناقة ، امتُحنوا بامتثال أمر الله فيها ، وهو تركها تأكل فى أرض الله ، وألاّ يمسوها بسوء ، فإن امتثلوا أمر الله نجوْا ، وإلا هلكوا .

وهى فى هــذا تشبه الشجرة التى نَهَى الله آدمَ عن أن يأكل منها . . ولم تكن هذه الشجرة إلا واحدة من أشجار الجنة ، ولم يكن النهى عنها إلا امتحاناً وابتلاء . .

الآيات : (٦٩ — ٧٦)

* « وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ

لُوطٍ (٧٠) وَٱمْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَآ إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » (٧٦)

التفسير :

وهذه قصة إبراهيم عليه السلام، وقد ضُمت إلى قصة لوط ، إذ كانت دعوتهما واحدة ، وكان قوماهما متجاورين متقاربين ، ديارا ونسباً ، وزمناً . . إذ كان لوط ـ كما يقول المؤرخون ـ ابن أخى إبراهيم . .

* « ولقد جاءت رسلُنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجلٍ حَنيذٍ » . .

الرسل هنا ، هم ملائكة الرحمن ، جاءوا إلى إبراهيم فى صورة بشريّة .

والبُشرى التى جاءوه بها ، هى ما بُشر به من الولد ، بعد أن بلغ من الكبر عِتيًّا ، ويمكن أن تكون البشرى ما حمله الملائكةُ إليه من أمر ربه بهلاك قوم لوط . . إذ لا شك أن فى هذا انتصارا للحق ، وخزياً وخذلاناً لأهل الضلال والزيغ ، وذلك مما يفرح له المؤمنون ، وتنشرح به صدورهم . . « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » .

والعجل الحنيذ : السَّمين الذى نضج شيًّا بالنار .

- وفى قوله تعالى : « قال سلام » إشارة إلى أن إبراهيم قد أخذ بمجىء هؤلاء الرسل ، وأنهم ظهروا فجأة فى بيته ، فلم يَدْرِ من أين جاءوا . . فأنكرهم ولكنه لم يردّهم ، وإنما ردّ عليهم تحيتهم ردًّا خاطفاً ، متجمّلاً ، يحمل أمارات الاستفهام والتعجب والإنكار ، والخوف .. « قالوا سلاماً ، قال .. سلام! »

وإلى هذا يشير قوله تعالى فى آية أخرى : « إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون » (٢٥ : الذاريات) .. ويقول سبحانه فى آية أخرى كذلك : « ونبّئهم عن ضيف إبراهيم ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجِلُونَ * قالوا لا تَوْجَل إنا نبشرك بغلامٍ عليم » (٥١ - ٥٣ : الحجر) . . فكان التبشير بالغلام على كبر ويأس ، هو الذى يذهب بكل ما وقع فى نفس إبراهيم من خوف ووجل ، سواء أكان وَجَلاً عارضاً من ظهور الملائكة له على تلك الصورة ، أم وجلا سكن فى نفسه من فوات الأوان لإنجاب ولد !

* قوله تعالى : « فلما رأى أيديَهم لا تصل إليه نَكِرَهم وأوجَسَ منهم خيفة قالوا لا تخف إنَّا أُرسلنا إلى قوم لوط » .

ولقد تكشف لإبراهيم من القوم ما قوّى ظنونه فيهم ، وأنهم على حال لا تبعث على الطمأنينة من جهتهم ، فها هو ذا يُقدِّم لهم ما يقدَّم للضِّيفان ، فلا يأبهون له ، ولا يمدون أيديهم إليه .! وهنا تتحرك دواعى الشك فى نفسه ، وتسرى رِعشة الخوف فى كيانه ، ولكنه يغالب خَوفه ، ويمسك به فى صدره - كما يقول سبحانه - « وأوجس منهم خيفة » أى وجد فى نفسه خوفاً . . فيسأل القوم سؤال المنكر المستريب : « ألا تأكلون ؟ » (٢٧ : الذاريات)

- « قالوا لا تخف » إنا رسل ربك .. « إنا أرسلنا إلى قوم لوط » .. فيسكن لذلك روْع إبراهيم ، وتطمئن نفسه ، ويعلم أنهم رسل الله ، قد أرسلوا بالهلاك

لقوم لوط .. إنهم لم يُرسلوا إلى لوط ، وإنما أرسلوا إلى قوم لوط ، وليس لقوم لوط عند الله إلاّ البلاء والهلاك .. !

* قوله تعالى : « وامرأته قائمة فضحكت فبشّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب * قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشىء عجيب » .

قائمة : أى كانت واقفة ترقب ما يكون بين إبراهيم وهؤلاء الضيفان الذين جاءوا إليه على تلك الصورة التى أخافته . فلما سمعت منهم أنهم رسل الله ذهب عنها الرّوع ، ولم تملك نفسها من إظهار الفرحة بهؤلاء الرسل الكرام الذين حلّوا بهم ضيوفاً . . فضحكت ..

وفى هذا ما يكشف عن طبيعة حبّ الاستطلاع عند المرأة، وأنها لاتملك نفسها من أن تتعرف إلى كل مايدور حولها ، مما يتصل بها أو لا يتصل بها .

هذا ويذهب بعض المفسرين فى تأويل كلمة « فضحكت » إلى أنها بمعنى « حاضت » ، وجاءوا لذلك بشاهد من اللغة ، وجدوه فى قول الشاعر :

وضِحْك الأرانب فوقَ الصّفَا كمثل دم الجوف يوم اللّقا

ومع أن الشاهد ـ إن صح ـ فإنه لا يدل على أكثر من أن استعمال الضحك بمعنى الحيض هو استعمال شاذ غير مألوف ، وحمل القرآن الكريم على هذا الشاذ مما لايليق ببيانه وبلاغته — ونقول مع هذا ، فإن فى قول امرأة إبراهيم : « يا ويلتى أألِد وأنا عجوز» منكرةً أن تلد بعد أن جاوزت سن اليأس ـ ما يبعد حمل لفظ الضحك على الحيض ، لأنها لوكانت قد حاضت لما

واجهت ما بشّرها به رسل الله بهذا الإنـكار الصريح ! « يا ويلتى . . أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً . . إنّ هذا لشيء عجيب ؟ » . .

وإسحق الذى بُشرت به ، هو ابنهـا . . أما يعقوب ، فهو ابن ابنها إسحق . . وفى هذا توكيد لهذه البشرى ، وأن ابنها هـذا الذى بُشرت به ، سيُولد له ولد هو يعقوب ، وأن هذا الحفيد ، هو أشبه بمولود ثانٍ لها !

* « قالوا أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليـكم أهلَ البيت . . إنه حميدٌ مجيد » .

إنه أمرٌ من أمر الله . . ومشيئة له . . فهـل فى أمر الله إذا كان على غير مايألف الناس ـ مايثير العجب والدّهش ؟ « إنما أمرُه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيـكون » (٨٢ : يس) .

ـــ وفى قوله تعالى : « رحمة الله وبركاته عليـكم أهلَ البيت » تطمين لها ، وتوكيد لهذه البشرى التى بشرت بها ، وأنها رحمة من الله وبركة ، على أهل هذا البيت الذين اختصهم الله برحمته وبركاته . . وإذ كانوا كذلك ، فإن ما يتلقوْنه من الله من فضل لا يكون موضع عجب ، وإن جاء على غير ما يَعهد الناس ، فإن لله سبحانه فى أوليائه ألطافاً ، لاينالها غيرهم ، ممن لم ينزلوا منازل رحمته ورضوانه !

وأهلَ البيت : منصوب على الاختصاص . . ويجوز أن يكون منصوباً بالنداء : أى يا أهل البيت . .

ـــ وفى قوله تعالى : « إنه حميد مجيد » إشارة إلى أنه ـ سبحانه ـ يَحْمَد لعباده الصالحين ما يتقربون به إليه من طاعات وقربات ، فيجزيهم على ذلك الجزاء الأوفى ، ويرفعهم إلى منازل العزة والمجادة والشرف . .

وإبراهيم عليه السلام ، ممن أعطى الله كيانه كله ، فأسلم له وجوده ظاهراً وباطناً .. فاستحق أن يحمد ، ويمجّد .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى بعد ذلك .

* « إن إبراهيم لحليمٌ أوّاهٌ منيبٌ » .

والأوّاه : كثير التأوه والشكاة إلى الله ، من تقصيره فى حقه ، والعجز عن الوفاء ببعض شكره .. وهذا شعورُ أهل التقوى .. لايرضيهم من أنفسهم مايقدمون من طاعات وقُرُبات ، وإن اجتهدوا ، وبالغوا فى الاجتهاد .. إنهم دائماً على شعور بأنهم مقصّرون فى حق الله .

والمنيب : الراجع إلى الله ، التائب إليه ..

وقد وَصَف الله سبحانه وتعالى إبراهيم بثلاث صفات : « إن إبراهيم لحليم .. أوّاه .. منيب » .. وهى صفات كلهن الكمال كله ، والحُسن جميعه .. وحَسْبه شرفاً ورفعة أن يُحلّيه ربه بصفة من صفاته سبحانه ، وهى صفة «الحليم» تلك الصفة التى تَزِينُ الوجود كله ، وتجمع الإحسان جميعه ، وفى الأثر : « الحلم سيد الأخلاق » .. فكيف إذا كان من حلم الحليم ، الله رب العالمين ؟ ولهذا قُدّم على الصفات التى أضفاها الله سبحانه على إبراهيم ، من التأوّه ، والإنابة .

والآية التى جاءت قبل هذه الآية وهى قوله تعالى : « ولما ذهب عن إبراهيم الرّوع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط » هى من سياق القصة ، وقد جاء قوله تعالى : « إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب » وصفاً كاشفاً لإبراهيم ، معترضاً بين حدَثَيْن : تبشيره بالولد ، ومجادلته فى قوم لوط .. وذلك ليأخذ كل حَدَث منهما بنصيبه من إبراهيم ، وما اشتمل عليه من خلق كريم ..

فهو أولاً ، قد استحق البشرى بهذا الولد ، لأنه من أهل الله ، وأنه حليم ، أوّاه ، منيب .

وهو ثانياً .. يسأل الله أن يَلْطُف بقوم لوط ، وأن يدفع عنهم هذا البلاء الموجّه إليهم .. لأنه حليم أواه منيب . . فهو إذ يرى فضلَ الله عليه ، ورحمته به ، يريد أن يكون للناس من حوله نصيب ، من هذا الفضل ، وحظ من تلك الرحمة ..

ولكن لله سبحانه وتعالى حكمة فى عباده . . يختص برحمته من يشاء . .

ـ وفى قوله سبحانه : « ولما ذهب عن إبراهيم الرّوع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط » وفى جعل جوابِ « لمّا » فعلا مضارعاً بدلا من الفعل الماضى الذى يقتضيه السياق ـ فى هذا إمساك بإبراهيم ، وهو فى موقف المجادلة ليتلقى وهو فى هذا الموقف ، الأمرَ الذى وجهه إليه ربه ، بالإعراض عما هو فيه ، من مجادلةٍ عن هؤلاء القوم ، ودفاعٍ عن جرمهم ، وهذا ماجاء فى قوله تعالى :

* « يا إبراهيم أعرِض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود » .

والتقدير : فلما ذهب عن إبراهيم الروْع ، أى الخوف ، وجاءته البشرى ، ها هو ذا يجادلنا فى قوم لوط ! ! وفى هذا إنكار على إبراهيم أن يقف فى هذا الموقف ، فيجادل عن قومٍ قد بلغوا من السوء ماأنكرته الأرض عليهم .

ثم لايكاد إبراهيم يأخذ فى المجادلة حتى يجيئه أمر الله : « ياإبراهيم..أعرِضْ عن هذا » .

ولو جاء جوابُ « لمّا » فعلا ماضياً هكذا « جَادَلَنَا » لَمَا كان لهذا الأمر ،

فى قوله تعالى : « يا إبراهيم أعرض عن هذا » ـ هذا الوقعُ الصادع على نفس إبراهيم ، ولأفلت من يده ما كان ممسكا به من المجادلة . . لأنه كان قد جادل فعلا ، وانتهى الأمر !

أمّا فى هذه الحالة ، فهو لايزال يسأل ربه العفو والرحمة لهؤلاء القوم ، ولا تزال الكلمات على شفتيه .. فإذا سمع أمر الله بالإعراض عن هذا ، أمسك لسانَه وابتلع ما كان يجرى عليه من كلمات !

وفى التعبير عن مراجعة إبراهيم ربّه فى قوم لوط بالجدل ، وتسميته جدلا ، إشارة إلى أن ما كان من إبراهيم ، هو مجرد جَدَل ، وأن الجدَل لا يثمر ثمراً نافعاً ، ولا يبلغ بصاحبه غايةً . .

وقد أشار القرآن الكريم إلى ما كان من إبراهيم فى هذا المقام ، فقال تعالى : « ولمّا جاءت رُسلُنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهلِ هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها » (٣١ — ٣٢ : العنكبوت) .

وأنت ترى أن إبراهيم كان مجادلا للملائكة ، ولم يكن مجادلا لله . . ولكنهم إذ كانوا رُسلَ الله ، والأمناء على ما أرسلوا به ، فقد جُعل جدله للملائكة ، جَدلا لله سبحانه وتعالى ، وفى هذا تكريم لرسل الله ، وإضافة لهم إلى الله رب العالمين .

الآيات : (٧٧ — ٨٣)

* « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ

وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ » (٨٣)

التفسير :

وتتصل أحداث قصة إبراهيم ، بأحداث قصة لوط . . وينتقل المشهد من بين يدى إبراهيم إلى يدى لوط ، وإذا هو وجهًا لوجهٍ مع هؤلاء الرسل الذين يحملون الهلاك إلى قومه . .

وكما كان لقاء الملائكة لإبراهيم لقاء مفاجئاً ، أثار فى نفسه ريبةً ، وأوقع فى قلبه خوفاً ، كذلك كان لقاؤهم للوط . . لقاء مباغتاً له ، ولكنه لم يلتفت إلى هؤلاء الوافدين عليه إلا من جهة واحدة ، كانت هى همّه ، ومبعث خوفه وقلقه ، وهى أن يَحْمِىَ هؤلاء الضيوف من عدوان قومه عليهم ، وفضحه فيهم . .

فقد طلع عليه الملائكة فى صورة سَوِيّة من صور البشر . . فيهم الشباب ، والنضارة ، والجمال ، وتلك هى مُغرياتُ قومه بهم . . وإنه ليرى عن غيبٍ ماسيكون من قومه ، إذا هم رأوا هؤلاء الضيوف الذين نزلوا بساحته . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى :

* « ولما جاءت رسلنا لوطاً سِيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب » .

سِيء بهم : أى ساءه وآلمه نزولهم عنده ، واحتماؤهم به .

وضاق بهم ذَرعاً : أى أحسّ العجز عن حمايتهم ، لأنه يتصدّى وحده لقومه جميعاً .. وأصل الذرع من الذراع التى يُعملها الإنسان فى تناول الأشياء .. ثم استعملت استعمالا مجازيا فى الدلالة على قدرة الإنسان أو عجزه ، حسب طول ذراعه أو قصرها .

والإحساس بالمسئولية الملقاة على لوط لحماية ضيوفه ، هو الذى آلمه وأوجعه، وضيّق مسالك النجاة بهم فى وجهه ، فقال : « هذا يوم عصيب » أى يوم قاس ، شديد الوقع على النفس ، لِما سيطلع عليه فيه من أحداثٍ مزلزلة ، توقعه فى هذا المأزق ، وتفتح بينه وبين قومه مجالاً فسيحاً للصراع بين جبهتين غير متكافئتين !

* « وجاءه قومُهُ يُهْرَعونَ إليه ومن قَبْلُ كانوا يعملون السيئات قال ياقوم هؤلاء بناتى هنّ أطهر لكم فاتّقوا الله ولا تُخْزُونِ فى ضيفى .. أليس منكم رجل رشيد ».

ولقد وقع ماتوقعه لوط .. وها هى ذى العاصفة تدور حول بيته ، وتحطّم الأبواب .. فيقتحم القوم عليه الدار ، وقد جاءوا سِراعاً من كل جهة ، يتسابقون لإدراك هذا الصيد ، قبل أن يُفلت من أيديهم ! «وجاءه قومه يُهرعون إليه» أى يسرعون إليه فى خفّةٍ وطيش .

وانظر كيف تبلغ السفاهة بالقوم . . إنهم ليأتون الفاحشة فى غير مبالاة ، ولا سِترٍ من حياء ! يأتونها جَهْرةً وفى صورة جماعية ، دون أن يجد أحدهم حَرَجاً

أو استحياء ! وهذا غاية التدنّى والإسفاف فى عالم الإنسان ، إلى درجة لاينزل إليها كثير من عالم الحيوان . . حيث تأبى على بعض الحيوان طبيعته أن يتصل بأنثاه على مرأى من بنى جنسه ! بَلْه اتصاله بذكر ! الأمر الذى لم تعرفه الكائنات الحيّة ، إلا فى هذا الصنف الرّذل الخسيس من الناس !

— وفى قوله تعالى : « ومن قبلُ كانوا يعملون السيئات » عَرْض لسيرة هؤلاء القوم ، وفضح لمخازيهم ، وأن هذا الذى جاءوا إليه ليس ابنَ يومه ، وإنما هو داء تعاطاه القوم من قبل ، فكان طبيعةً غلبت عليهم ، حتى لقد صار عادة مألوفة عندهم ، وأمراً مستقراً فيهم ، ليس فيه مايثير أى إحساس عندهم بالخزى أو الاستحياء . .

وقد عبّر القرآن عن هذا المنكر الذى يتعاطوْنه بالوصف المناسب له ، دون أن يذكر اسمَه ، تقززًا له ، وصيانة للأفواه أن تتلفظ به ، وللأسماع أن يقع عليها . .

ومن جهة أخرى ، فقد جاء القرآن بوصفه جمعاً . . هكذا : « السيئات » للدلالة على أنه منكر غليظ مركّب ، وأنه ليس سيئة ، بل هو سيئات ، وليس منكراً ، بل هو منكرات !

— وفى قوله تعالى : « ياقوم هؤلاء بناتى هُنّ أطهر لكم » دعوة لهم إلى أن يكون أَرَبُهم وشهوتهم للنساء . . لا للرجال ، فذلك هو الوضع الطبيعىّ للحياة الإنسانية . . فهو — عليه السلام — يدعوهم إلى التزوج ببناته ، وإلى التعفف بالزواج بالمرأة والاتصال بها ، حتى يعفّوا عن ارتكاب هذا المنكر ، والاتصال بالرجال . .

وفى هذا يقول الله تعالى على لسان لوط لهم : « إنكم لتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحدٍ من العالمين * أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيلَ وتأتون فى ناديكم المنكر » (٢٨ — ٢٩ العنكبوت) .

ويقول سبحانه فى موضع آخر على لسان لوط أيضا : « أتأتونَ الذُّكران من العالَمين، * وتَذَرُونَ ماخَلَق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قومٌ عادون » (١٦٥ ـ ١٦٦ : الشعراء) .

ـــ قوله تعالى : « فاتقوا الله ولاتُخْزونِ فى ضيفى أليس منكم رجلٌ رشيد » . .

والسؤال هنا : هل كان القوم مؤمنين بالله حتى يذكّرهم لوط باسمه تعالى ، ويدعوهم إلى تقواه ؟

والجواب : أنهم لو كانوا مؤمنين بالله ، لما استعلن فيهم هذا المنكر على تلك الصورة التى سجّلها القرآن عليهم .. فإن الإيمان بالله يردّ الإنسان عن كثير من المنكر ، ويقيم بين النّاس وازعاً يَزَعُهم من أن يخرجوا هذا الخروج السافر عن إنسانيتهم ، وأن يتدلّوا هذا التدلّى المسفّ إلى مادون الحيوان .

فذِكر الله هنا ، إنما هو تخويف لهم ، وتهديد بقوة الله ، إن لم يتقوه ، ويستقيموا على طريق المؤمنين .. وفى هذا تجاهل لإنكارهم اللهَ والإيمان به ، إذ لامُعتبر لهذا الإنكار فى وجه الدلائل القائمة بين أيديهم على وجود الله ، وكمال قدرته .

* « قالوا لقد علمتَ مالنا فى بناتك من حق وإنّك لتعلم مانريد » .

لقد أنكر القوم على « لوط » مادعاهم إليه من التزوج بالنساء ، ومنهن بناتُه اللائى عرضهنّ عليهم ، وذلك ليكون اتصالهم بالنساء صارفاً لهم عن إتيانهم هذا المنكر مع الرجال !

وقد جاء إنكارهم هذا فى صورة فريدة من الدناءة والخسّة والتجرّد من الحياء . .

— « لقد علمتَ مالنا فى بناتك من حقّ » أى إنك لم تعرض علينا أمراً جديداً لتصرفنا عما نطلب .. فأنت تعلم مالنا فى بناتك من حق ، وأننا نملك التزوج بهنّ من غير اعتراض .. فالتزوج بالنساء أمر متفق عليه بيننا وبينك ، كما هو متفق عليه بين الناس جميعاً .. ولكن ماذا عندك لنا فى هذا الذى نطلبه من الضيوف ؟ « وإنك لتعلم مانريد » !

فهل فى بناتك أو بنات غيرك مايحقق لنا هذا الذى نريده ؟

ولا يجد لوط لهذه السفاهة جواباً ، ولا يرى لهذا السوء الذى يُراد بضيوفه مردًّا ..

* « قال لو أن لى بكم قوةً أو آوى إلى ركن شديد » ! !

وماذا يفعل لوط أمام هؤلاء القوم ، الذين ركبوا رءوسهم ، فانقلبت فى أعينهم أوضاع الأشياء ، وتغيرت معالمها ؟ إنه لو كانت بين يديه قوة لأخذ على أيديهم بها ، ولعاملهم معاملة الكلاب المسعورة .. ولكن أنّى له القوة ، وهو وحده ، والقوم جميعاً حَرْبٌ عليه .. حتى امرأته ! ! كما أنه ليس هناك مَن يستعين به على هؤلاء القوم ، ويطلب غِياثَه واللّياذ به ، حتى يضمن الحماية لضيفه النازلين فى حماه ؟

وهنا تجىء نجدة السماء ، وتُفتح للوط أبواب حصن حصين يأوى إليه ، على حين تنزل على القوم صواعق الهلاك ، فتأتى عليهم فى لحظة خاطفة !

ومن عجب أن تطلع على « لوط » هذه القوى الرهيبة من موطن الضعف الذى كان يريد الدفاع عنه ، والحماية له .. الضَّيف الذين ظن أنهم وقعوا لقمة سائغة لأيدى هؤلاء القوم الآثمين ، هم مطلع هذه النجدة !

* « قالوا يالوط .. إنا رُسلُ ربّك .. لن يَصِلوا إليك .. فأسْرِ بأهلك بِقِطع

من الليل .. ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتَك .. إنه مُصيبُها مآ أصابهم .. إن موعدَهم الصبح .. أليس الصبح بقريب » .

لقد كشف الرسل عن أنفسهم للوط ، فعرف ، من هم ؟ وما الأمر الذى جاءوا له ؟ إنهم رُسل الله ، وقد جاءوا إليه بالمهلكات لقومه ، وليخرجوه من بين هؤلاء القوم ، حتى لايقع عليه مكروه من البلاء الذى سيحلّ بهم .

ـ « إنا رسل ربك » وإذ كنّا كذلك ، فإنهم « لن يصلوا إليك » ولن يستطيعوا أن يخلصوا إلينا ، وينتزعونا من يدك ..

ــ « فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحـد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم » ..

سَرى ، وأسرى ، أى سار ليلا .. والقِطع من الليل ، هى البقية منه ، قُبيل دخول النهار .

والأمر الذى توجه به الملائـكة إلى لوط ، هو أن يخرج بأهله فى بقية من الليل ، أى قبل أن يَطلع الصباح ، وألا يلتفت هو ومن معه إلى الوراء ، حيث القرية التى خلفوها وراء ظهورهم ..

وفى النهى عن الالتفات إلى تلك القرية ومن فيها ، إشارة إلى أنها دار إثم ، ومباءة فسق ، ينبغى أن يقطع المؤمن كل مشاعره نحوها ، فلا يُتْبِعها بَصَرَه ، ولا يُلقِى عليها نظرة وداع .. وهكذا ينبغى أن يكون شأن المؤمن مع كل منكر .. أن يعتزله ، ويعتزل مواطنه ، والمتعاملين به .. فلا يحوم حوله ، ولا يمرّ بداره ، ولا يتصل بأهله .. فإن المنـكر مرض خبيث ، يَعْلَقُ داؤه بكل من يدنو منه . أو يتنفس فى الجو الذى تفوح عفونته فيه ! . . ولهذا فقد أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم المسلمين حين مرّوا بديار ثمود ، وهم فى طريقهم إلى تَبُوك ـ أمرهم

أن يجدّوا فى السير ،وألا يلتفتوا إلى هذه المواطن ، وأن يُغلقوا حواسهم عنها ، حتى لا يدخل عليهم شىء منها .. شأنهم فى هذا شأن من يمرّ بجثث متعفنة ، تهب منها ريحٌ خبيثة ، فيسدّ أنفه، وينطلق مسرعاً حتى يبرحها .. وفى هذا درسٌ علىٌّ للتشنيع على المنكر وأهله .

— وفى قوله تعالى : « إلاّ امرأتَك » إشارة إلى أن امرأة لوط لاتملك من أمرها ألاّ تلتفت ، بل هى مقهورة على الالتفات ، والخروج عن هذا النهى ، وذلك لما أراد الله لها من هلاك .. « إنه مُصيبُها ما أصابَهم » .. لأنها كانت مع القوم بمشاعرها وعواطفها ، ولهذا التفتت إليهم ، وخالفت أمر الله . بألا يلتفت أحد ممن خرج مع لوط من أهله .. ولم تفرّ منهم كما يفرّ المرء من بلاء طلع عليه ، أو مكروه أحاط به ، فكان أن أخذها الله بما أخذ به هؤلاء القوم الآثمين .. إنها منهم ، وحُقَّ عليها ماحُق عليهم : « إنه مصيبها ما أصابهم » .

— « إن موعدَهم الصبح .. أليس الصبح بقريب » .. وفى هذا تطمين للوط ، وأن مابينه وبين القوم سينتهى مع مطلع هذا الصبح من ليلته تلك .. ثم هو من جهة أخرى حثٌّ للوط على أن يُبادر الصبح قبل أن يطلع عليه ، وأن يخرج من القرية ومعه بقيةٌ من الليل ، حتى يبتعد عن القرية قبل أن يقع هذا الانفجار المهول ، مع أول خيوطٍ من ضوء الصبح .. « أليس الصبح بقريب ؟ » فهذا استفهام تقريرى، بمعنى ألا ترى أن الصبح قريب .. فهيّا أسْرِع ، وخذ أُهبتك للخروج من هذه القرية ، قبل أن يدركك الصبح ، وتقع الواقعة !

* « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليَها سافلها وأمطرنا عليها حجارةً من سجيل منضود * مسوّمةً عند ربك .. وما هى من الظالمين ببعيد » .

أى ولما جاء الصبح الموعود ، وقع أمرنا الذى قضينا فيه بهلاك هذه القرية ، فجعلنا عاليها سافلها ، أى قلبناها رأساً على عقب ، فذهبت كلُّ معالمها ، وأمطرنا

على أهلها حجارةً من سجيل ، أى من صَوَّانٍ أملس .. « منضود » أى منتظم ، كما تنتظم الحبات فى العِقد . ا

وهى حجارة .. « مسوَّمةً » أى مُعْلَمة ، وموسومة بسمات خاصة ، « عند ربك » أى قد أعدّها الله سبحانه وتعالى ، لهلاك الظالمين ، أينما كانوا ، وحيثما وجدوا . .

— وفى قوله تعالى : « وما هى من الظالمين ببعيد » .. تهديد لمشركى قريش ، وتلويح بهذه الحجارة المرصودة لهلاك الكافرين والمحادّين لله ـ تلويح بها فى وجوه هؤلاء المشركين من أهل مكة وأنها قريبة منهم ، وأنّهم على وشك أن يُمطروا بها ، وأن يصيروا هم وقريتهم إلى هذا المصير الذى انتهى إليه قوم لوط وقريتهم .

الآيات : (٨٤ — ٨٨)

* « وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ

إِلاَّ ٱلْإِصْلاَحَ مَاٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلاَّ بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » (٨٨)

التفسير :

وموقف شعيب مع قومه ، هو موقف نوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، مع أقوامهم . . دعوة منه لهم إلى الله ، وإلى الإيمان به ، والاستقامة على صراطه المستقيم . . وخلاف منهم عليه ، وتنكّر لما كانوا يعرفونه منه ، من خُلُق ودين !

وأنبياء الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً ـ كانوا عند أقوامهم قبل دعوتهم إلى الله ، بالمنزلة العالية من الاحترام والتقدير ، لحسن سيرتهم ، واستقامة سلوكهم ، فلما أعلنوا فيهم أنهم رسل الله ، وأنهم يحملون إليهم كلمته ، شَغَبُوا عليهم ، وأنكروا منهم ما كانوا يعرفون .. حسداً ، وبغياً . .

فهذا صالح ـ عليه السلام ـ ، يقول له قومه : « يا صالح قد كنت فينا مرجُوًّا قبل هذا » وهذا شعيب ـ عليه السلام ـ يقول قومه له : « إنك لأنت الحليم الرشيد » !!

وهذا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يقول له الحق تبارك وتعالى عن قومه : « فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » . .

وهكذا الأنبياء جميعاً . . هم صفوة الله المصطفون من عباده . . يأخذون مكان الصدارة فى أقوامهم ، وينزلون منهم منازل الإعزاز والإكبار ، فى كمال الخلق ، وحسن السيرة ، حتى إذا آذنوهم بأنهم رسل الله إليهم ، أنكروا منهم ما عرفوا ، وأصبح ما كان بالأمس حبًّا وإكباراً ، عداوةً وطعناً وتسفيهاً .

ومدين : على أطراف الجزيرة العربية من جهة الشام .. وقد نُسب إليها القوم الذين كانوا يعيشون فيها ، وهم قوم شعيب !

ودعوة شعيب إلى قومه ، هى دعوة كل نبى ، جاء ليصحح عقيدة قومه التى لعبت بها الأهواء ، وأفسدها الجهل والسفه ..

فهو يدعوهم إلى الإيمان بالله ، وترك ما بين أيديهم من معبودات غيره :

* « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » .. تلك هى مفتتح دعوته ، بل وخاتمتها .. فالإيمان بالله ، وإفراده بالألوهية ، هو الفَلَك الذى تدور حوله تعاليم الأنبياء ، وهو الينبوع الذى ترتوى منه قلوب المؤمنين ، والمغترس الذى تغتذى منه وجداناتهم ومشاعرهم ، والمصباح الذى تستضىء به أبصارهم ، وتهتدى به بصائرهم .. فإذا عرف المرء ربه وآمن به ، عرف الطريق إلى كل خير ، وتفتح قلبه لاستقبال كل رشاد ..

ولهذا فقد جاءت دعوة شعيب لقومه ، بألاّ ينقصوا المكيال والميزان ـ بعد دعوتهم إلى الإيمان بالله : « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان » .. وذلك أنهم لو آمنوا بالله لكان تقبلهم لدعوته تلك ، أمراً مقبولا عندهم ، لا يراجعونه فيه ..

* وفى قوله : « إنى أراكم بخير .. وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط » تحريض لهم على الإيمان بالله ، وإغراء لهم باستنقاذ أنفسهم من الهلاك ، لأنه يتوسم فيهم الخير ، ويضنّ بهم أن يكونوا من أهل الشقْوَة والبلاء فى الدنيا ، والعذاب الأليم فى الآخرة .. ويصحّ أن يكون قوله : « إنى أراكم بخير » مراداً به أنهم فى حال من الرخاء والنعمة وسعة الرزق ، بحيث لا تضطرهم الحاجة إلى الخيانة فى الكيل والميزان . والرأى الأول أوْلى .

وفى وصف العذاب بأنه عذاب يوم محيط ، إشارة إلى شناعة هذا العذاب

وأنه عذاب لا يفلت منه من حقّ عليه ، ووقع تحت حكمه ..

* « ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين »

القسط ، والقسطاس : العدل .. والبخس : النقص ، واغتيال الحقوق .. وبَخْس الشىء : عدم أدائه على وجهه كاملا ..

ولاتعثوا فى الأرض : عاث ، يعيث عيثاً ، أى ضرب فيها من غير مبالاة ، فيكون من ذلك التخبط والفساد . . ولهذا لا يُستعمل هذا الفعلْ إلا مقترناً بالفساد .. تأكيداً له ، واستخراجاً لمحتواه ومضمونه .

وفى إعادة لوط دعوتَه إلى قومه بالوفاء بالكيل والميزان ، توكيد لهذه الدعوة وتقرير لها ، فهو قد نهاهم أولاً عن إتيان هذا الفعل المنكر ، ثم دعاهم إلى إتيان ما ينبغى لهم إتيانه ، بعد أن ينتهوا عما نُهُوا عنه .. وهو أن يُوفُوا المكيال والميزان ، وبهذا يجىء المطلوب منهم على وجهه كاملا . . فقد ينتهى المرء عن الشىء المكروه ، ولكنه لا يفعل المحبوب الذى يقابله . . وذلك وقوف منه عند منتصف الطريق إلى الغاية المدعوّ إليها من بلوغ الخير .. وهو موقف سلبى ، لا ترضاه الحياة منه .. وإنه لحسن أن ينتهى الإنسان عن الشر ، ولكنه ليس بالحسن أن يكون أداةً معطلة عن فعل الخير . .

* هذا ، ولم يكرر شعيب دعوتَه لقومه إلى الإيمان بالله ، لأنه جاءهم بها من أول الأمر ، أمراً لازماً : « اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره » ثم جاءهم بها فى دعوة تطبيقية لها ، فى قوله تعالى بعد ذلك :

« بقيّة الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ » أى أن ما تدخرونه عند الله من أجر ، وما تستبقونه عنده مما يفوتكم من حظوظ الدنيا ، هو خير لكم ، وأبقى .. وإنكم لتعلمون هذا إن كنتم مؤمنين بالله ،

وما له من سلطان وحكم فى عباده .. ولست عليكم رقيباً ، يحفظ عليكم أعمالـكم ، ويحاسبكم عليها ، إنما ذلك إلى الله وحده . . وإنما أنا نذير مبين ، أبلغكم ما أرسلت به إليكم .

* « قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء .. إنك لأنت الحليم الرشيد » .

وبهذا المنطق السفيه ، يردّ القوم على تلك الدعوة الـكريمة التى يدعوهم إليها نبى كريم ، بلسان عفّ ، وبأسلوب يفيض رقّة وحناناً ومودة . .

« يا شعيب » ! ؟ هكذا فى جفاء وغلظة ، ينادونه باسمه مجرداً ، دون أن يضيفوه إليهم بنسب ، كأن يقولوا : يا أخانا ، أو يا أبانا ، أو يا ابننا . . أو نحو هذا .. ثم يُتبعون هذا قولهم فى استهزاء وسخرية : « أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء » ؟ وهم يريدون بالصلاة ، الدّينَ الذى يدين به ، إذ كانت صلاته التى يرونها منه ، هى المظهر العملى لهذا الدين .! يعنون بهذا أن الدين الذى يَدين به ويدعوهم إليه ـ هو الذى حمل شعيباً على أن يدعوهم إلى ترك ما كان يعبد آباؤهم من آلهة ، وإلى ترك التصرف فى أموالهم ، والتسلط عليها حسب ما يشاءون ؟ أفهذا دين يدين به العقلاء ؟ وأى دين هذا الذى يُخرج الناس عن عبادة ما كان يعبد آباؤهم ؟ وأى دين هذا الذى يَدْخل على الإنسان فيما بينه وبين ما فى يديه من مال ، فلا يدعه يتصرف فيه كما يشاء .. ويشترى بالأسلوب الذى يرضاه ، ويبيع بالوجه الذى يعجبه ؟ فما للدين ولهذا ؟ فليزنْ المرء بالميزان الذى يحقق له الربح ، وليـكلْ بالمـكيال الذى يضاعف من ربحه ! فذلك حقُّنا فى أموالنا ! ولا ندرى كيف ساغ لشعيب هذا الدين الذى يذهب به هـذا المذهب المجانب للصواب ، والمجافى للعقل ، وهو ـ فيما نعلم ـ الحليم الرشيد ؟ أفهذا يكون من حليم رشيد ؟

هكذا كان منطق القوم مع تلك الدعوة الكريمة ، ومع هذا النبى الكريم .. يَسْخَرون منه ، ويسفهونه ، ويستحمقُونه ، وهم ـ على ما كانوا يعهدون منه ـ الحليم الرشيد .. « إنك لأنت الحليم الرشيد » .

والحليم : من الحلم ، وهو العقل . . وهو ضد السفاهة ، والجهل . . كما يقول الشاعر :

أَحلامنا تَزِن الجبال رزانةً وتخالُنا جِنًّا إذا مانجهلُ

والرشيد ، ذو الرشد ، وهو الكامل العقل ..

وكذلك كان شعيب عليه السلام ، غايةً فى كمال العقل . وسلامة الإدراك .

* « قال ياقوم أرأيتم إن كنتُ على بيّنةٍ من ربّى ورزقنى منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه . . إن أُريد إلاّ الإصلاحَ مااستطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب » .

وبمنطق الحليم الرشيد ، يردّ شعيب على قومه : « ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربّى ورزقنى منه رزقاً حسناً ؟ » .

أى إذا كان هذا ظنكم بى ، وتقديركم للدعوة التىأدعوكم إليها ، فكيف يكون الحال لوأننى كنت على بينة من ربّى ، وعلى نور وهدًى منه ، وأن ذلك رزق حسنٌ رزقنى الله إياه ، وأنا أدعوكم إلى مشاركتى فى هذا الرزق الحسن — كيف يكون الحال إذن لو فاتكم حظكم من هذا الخير الذى أرتاده لكم وأوردُكم موارده ؟ . . إننى لاأبغى من وراء هذا الذى أدعوكم إليه إلا خيرَكم ورُشدَكم ، وصلاحَ أمركم ، وما أريد أن أصرفكم عن هذا الذى أنهاكم عنه لأخلُفكم عليه ، وأستأثر به دونكم .. فما أنتم عليه إلا الضلال ، وإلا الهلاك ، الذى ليس للعاقل إلا اجتنابُه ، والفرار منه . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى

— « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه » . . أى لا أريد بدعوتكم إلى ترك عبادة الأصنام، أن أعبدها ، وأستخلص عبادتها لى من دونكم .. وما أبغى بدعوتكم إلى الوزن بالقسطاس ، والكيل بالعدل ، أن أعود أنا فأخسر المكيال والميزان ، وأستأثر بهذا الربح الحرام الذى كان يعود إليكم ، من تلاعبكم بالمكاييل والموازين . . كلا « ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه » . .

يقال : خَلَفه ، وخالَفه : أى جاء خَلْفَه ، وأخذ مكانه الذى كان فيه .

— « إنْ أريد إلا الإصلاح ما استطعت » أى هذا هو كل الذى أبغيه مما أدعوكم إليه ، ما أريد به إلا الإصلاح ، إصلاحَ أمركم ، وإقامة ما أنتم فيه من زيغ وعِوج ، وذلك فى حدود ما أقدر عليه . وهو النصح لكم ، وليس لى أن أكرهكم على شىء ولو كان فى يدى السلطان القاهر . .

— « وما توفيقى إلا بالله » فإذا وفِّقت إلى بلوغ هذه الغاية التى أريدها . أو إلى شىء منها ، فذلك بتوفيق من الله سبحانه وتعالى . . وليس ذلك من عملى ، فما أنا إلا زارع يزرع ، والله سبحانه هو الذى يُنبت الزرع ، ويُخرج الحبّ والثمر ..

— « عليه توكلت وإليه أنيب » .. أى أننى معتمد على الله ، مستند إليه فى سعيى وعملى ، وراجع إليه فيما أسعى وأعمل . . فهو سبحانه الذى يملك كل شىء .. ويملك منّى ما لا أملك من نفسى .

الآيات : (٨٩ — ٩٥)

* « وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩)

وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ » (٩٥)

التفسير :

* « ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثلُ ما أصاب قومَ نوحٍ أو قومَ هودٍ أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد » .

لا يَجْرِمنَّكم : أى لا يحملنَّكم على كسب الجُرْم ، وإتيان المنكر . . والشقاق : الخلاف عن عنادٍ . . وفى هذه الآية يتابع شعيبٌ — عليه السلام — النصحَ لقومه . . وفى كل مرة يدعوهم إليه بتلك الكلمة الودود : « يا قوم » أى يا أهلى ، ويا أحبابى . « لا يجرمنكم شقاقى » أى لا يكن عنادكم لى ، وخلافكم علىّ ، سبباً فى ارتكاب هذا الجُرم الغليظ فى حق أنفسكم ، فتقتلوا أنفسكم بأيديكم ! إن امتناعكم عن الاستجابة لى ، وعن قبول الخير الذى أبسط به يدى إليكم ، هو جريمة تقترفونها فى حق أنفسكم ، وتتعرضون لأن

يصيبكم من الله ما أصاب الظالمين من قبلكم .. قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط الذين لم يبعد الزمن كثيراً بينكم وبين ماحلّ بهم من عذاب الله ونقمته ..

وقد جاءت قصص هؤلاء الأقوام فى القرآن الكريم حسب ترتيبها الزمنى .. قوم نوح ، ثم قوم هود ، ثم قوم صالح ، ثم قوم إبراهيم وقوم لوط ، ثم قوم شعيب ، ثم موسى وقومه .. ولم يكن التزام القرآن لهذا الترتيب متابعة لمنطق التاريخ فى تسجيل الأحداث ، وإنما لغاية أبعَدَ من هذا وأعمق .. هى مايتكشف من تسلسل الأحداث على هذا الترتيب ، من تطوّر الإنسانية ، وانتقالها من طور الطفولة ، إلى أطوار الصبا ، والمراهقة ، والشباب .. حتى تبلغ تمامها عند التقائها بالرسالة الإسلامية [1] على يد خاتم المرسلين « محمد » عليه صلوات الله وسلامه .

* « واستغفروا ربّكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود » .. أى فإن استمعتم نُصحى ، واستجبتم لى ، فأقبِلوا على الله مستغفرين تائبين .. « إن ربى » الذى أدعوكم إليه « رحيم » بعباده ، « ودود » لهم ــ بما يضفى عليهم من رحمته ، وفضله ، ورضوانه !

وفى العدول عن لفظ « ربكم » الذى يقتضيه النظم ــ إلى قوله : « ربى » تحريض لهم على مشاركته فى الانتساب إلى هذا الرب الرحيم الودود ، ربّ شعيب الذى أضاف نفسه إليه ، ونال مانال من رحمته ووده .. أما إضافتهم إلى الله سبحانه وتعالى فى قوله تعالى : « واستغفروا ربّكم » فهى إضافة قهر وإلزام ، رَضُوا بذلك أم لم يرضوا ، آمنوا به أو لم يؤمنوا .. والمطلوب منهم

(١) اقرأ فى هذا دراستنا لهذه القضية فى كتابنا « إعجاز القرآن » ــ الجزء الثانى .

هو أن يُضيفوا هم أنفسَهم إلى الله ، وأن يؤمنوا به ، حتى ينالوا رحمَته ووده وبغير هذا ، فإنهم مطرودون من رحمة الله ، مُبعدون من وده .. « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدًّا » (٩٦ : مريم) .

* « قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ، ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز » .

« يا شعيب ! » هكذا ، وفى كل مرة ، ينادونه باسمه مجرداً .. فى جفاء ، وغلظة .. على حين أنه يناديهم أبداً بياقوم ، متودداً متلطفاً ! وشتان بين أدب النبوة ، ومنطق السفهاء !

ـ « ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً » .. أى إنك تخلط فى كلامك ، وتأتى بالمحال من القول ، فلا نفقه ما تقول ، ولا نرى له مدخلا إلى عقولنا . . وإنا إذ نَزِنُك بنا نجدك ضعيف الرأى ، طائش الحلم ، « ولولا رهطك » أى قرابتك وأهلك الأدنون ، « لرجمناك » إذ لا يحق للسفيه الأحمق أن يعيش بين العقلاء ! « وما أنت علينا بعزيز » إذ كانت تلك صفتك ، وهذا هذيانك فينا .. !

* « قال يا قوم أرهطى أعزُّ عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظِهرِيًّا إن ربى بما تعملون محيط » .

إن شعيباً ينتسب إلى الله ، ويُخلى يده من كل نسب إلى أهلٍ وقرابة . . فكيف يُبقون عليه من أجل رعايتهم لأهله ، ولا يجعلون لنسبته إلى الله حساباً عندهم ؟ « يا قوم . . أرهطى أعزّ عليكم من الله » وقد جئتكم من عنده ، أدعوكم إليه باسمه ، وأحمل إليكم رسالته ؟.. ولكن هكذا أنتم فى جهلكم وضلالكم ، قد نظرتم إلى أهلى ، وقدّرتموهم قَدْرهم ، ولم تنظروا إلى الله ،

سبحانه ، ولم تَقْدُرُوه قَدْرَه « واتخذتموه وراءكم ظِهرِيًّا » أى جعلتموه من وراء ظهوركم ، لا تنظرون إليه ، ولا تعملون له حساباً « إنّ ربّى بما تعملون محيط » أى عالم ، محيط علمه بكل ما تعملون ، ولن تُفلتوا من عقابه وعذابه ..

* « وياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يُخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب »

هذه هى خاتمة المطاف فيما بين شعيب وقومه .. إنه يتركهم وشأنهم ، بعد أن بلّغهم رسالة ربه ، وبالغ فى إبلاغها إياهم .. « اعملوا على مكانتكم » أى اعملوا على ما أنتم مقيمون فيه من كفر وضلال .. « إنى عامل » على ما أنا عليه ، مما تعلمونه منّى وتنكرونه علىّ .. « سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب » فسينجلى لكم الأمر ، وينكشف لكم الحال عن عملكم وعملى ، وسيطْلُع عليكم من عملكم عذاب يخزيكم ، ويومئذ تعلمون من هو الكاذب ، ومن كان فى ضلال مبين . . أما متى ذلك ؟ فعلمه عند ربىّ ، ولكنه آتٍ لا ريب فيه ، فانتظروا يومكم هذا « وارتقبوا إنى معكم رقيب » ..

وقد جاء النظم القرآنى بلفظ « رقيب » بدل « مرتقب » الذى يقتضيه النظم ليَدُلّ على أن شعيباً فى المكان الذى يُشرف منه على هؤلاء القوم ، وهم المنزل الدُّون الذى يلْقوْن فيه العذاب المهين ! إنه رقيب ، يقوم على مَرْقب عالٍ ، كما يقوم القاضى على منصة القضاء .

* « ولمّا جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » ..

وحين جاء أمر الله ، ودَنَت ساعة القصاص من هؤلاء القوم الضالين ، نجّى الله شعيباً والذين آمنوا معه ، وحملهم على جناح رحمته ، إلى مرفأ الأمن والسّلام ..

« وأخذت الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » فكان العذابُ الذى أُخذوا به هو « الصيحة » التى رَجَفَتْ بها الأرض من تحتهم ، فجمد الدم فى عروقهم ، خوفاً وفزعاً .. فلم يتنفس أحد منهم بعدها نَفَساً ..

وهذه الصيحة هى التى أهلك الله بها قوم صالح ، كما يقول سبحانه فى هذه السورة :

« وأخذ الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » (الآية ٦٧) .. ولهذا جاء قوله تعالى :

« كأن لم يغنوْا فيها .. ألا بُعْدًا لمدين كما بَعِدَت ثمود » .. فهو موقف واحد ، ومصير واحد .. موقف على مرتع الإثم والضلال ، ومصير إلى الهلاك والبلاء فى الدنيا ، وإلى النار وعذاب السعير فى الآخرة ..

الآيات : (٩٦ — ١٠٩)

* « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوٓا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِى هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ (٩٩) ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » (١٠٨)

التفسير :

هكذا تختم قصص هذا الصراع ، بقصة موسى مع فرعون .. ولا تذكر تفاصيل هذه القصة ، بل تجىء فى هذا العرض الموجز، المعجز، الذى يجمع — على إيجازه — كلّ مضمون القصة ، ويكشف عن الملامح البارزة فيها ، أما من أراد التفاصيل . ففى غير موضع من القرآن الكريم يجد ذكراً لهذه القصة ، وفى كل موضع ، يقع على مضمون القصة كاملا ، ثم يجد بين يديه حدَثاً من أحداثها التى تتشكل منها .. وهكذا يلتقى قارىء القرآن آخر الأمر بقصة موسى وفرعون كاملةً ، فى مجريات أحداثها ، ومواقف أشخاصها .. وإن التقى بها أكثر من مرة فى معارض مختلفة الشكل ، متفقة المضمون ..

كما سنبين ذلك فى مبحث « التكرار فى القصص القرآنى » ..

* « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وملائه فاتّبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد » ..

والآيات التى أرسل بها موسى هنا ، هى الآيات المادية ، التى أراها لفرعون ، معجزاتٍ متحدية ، تشهد له أنه رسول من ربّ العالمين ، وهى تسع آيات ، كما قال تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحوراً * قال لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلا ربُّ السموات والأرض بصائرَ وإنى لأظنك يا فرعون مثبوراً » (١٠١ — ١٠٢ : الإسراء)

والآيات التسع هى : العصا ، ويده التى كان يدخلها فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء ، وفى هذا يقول الله تعالى : « وأن ألق عصاك فلما رآها تهتزّ كأنها جَانٌّ ولّى مدبرا ولم يعقّبْ يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين * اسلك يدك فى جيبك تخرجْ بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب .. فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه » (٣١ — ٣٢ : القصص) ..

ثم خمس الآيات التى ذكرها الله تعالى فى قوله : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدّم .. آياتٍ مفصـــــلات » (١٣٣ : الأعراف) ..

أما الآيتان الأخريان ، فهما : أخذهم بالسنين الجدبة ، والنقص فى الثمرات ، كما يقول سبحانه وتعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذّكرون » (١٣٠ : الأعراف) ..

أما السلطان المبين ، فهو ما كان لموسى بهذه الآيات ، من قوة قاهرة على فرعون ، إذ أعجزه بها ، وأخزاه ، ثم ساقه قدره ، فكان من المغرقين ! ..

— وفى قوله تعالى : « فاتّبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد »

إشارة إلى ما كان من فرعون وملائه عند لقاء تلك المعجزات ، وأنهم كفروا بها ، واتبعوا فرعون فى خلافه على موسى .. ولم يكن اتّباعهم فرعونَ ليُدنيهم من خير ، أو يمكن لهم من هدًى .. فما دعاهم فرعون إلا إلى ضلال، وما ساقهم إلا إلى هلاك .. إنه أمرٌ بالفحشاء ، ودعوة إلى بلاء !..

* « يَقْدُم قومه يوم القيامة » .. إنه إمامهم فى الآخرة ، كما كان إمامهم فى الدنيا .. وهو إمام ضال ، لا يتبعه إلا ضالون .. وهكذا من يُلقى زمامه إلى غيره ، من غير نظر إليه ، أو تدبّر فى أمره .. « وبئس الورد المورود » أى بئس هذا المورد الذى ورده القوم .. إنه النار وكفى بالواردين إليها ضياعاً ، وبلاء !

وفى التعبير عن ورودهم النار ــ بالفعل الماضى ، مع أنهم لم يردوها بعد ، إشارة إلى أن ورودهم إياها أمر محقق ، وأن أعمالهم التى تلبسوا بها فى هذه الدنيا ، من كفر وضلال ، هى المركب الذى يسير بهم إلى النار .. فهم ــ والأمر كذلك ــ سائرون إلى النار ، موقوفون عليها ، لا مورد لهم سواها .

* « وأُتْبِعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة » . . الإشارة هنا إلى الدنيا ، ولم تذكر ، استخفافاً بها ، وامتهاناً لها ، لا من حيث أنها دنيا ، بل لأنها دنياهم هم التى لم يحسنوا العمل فيها ، ولم يخرجوا منها بزاد طيب يتزودون به ليوم القيامة . . وإلا فهى دار طيبة لمن أحسن العمل ، وغرس فى مغارس الخير والإحسان . .

واللعنة التى أُتبعتهم فى هذه الدنيا ، هى ما يرميهم به الناس بعدهم ، من لعنات،

حيث تُذكر سيرتهم ، فلا يرى فيها الناس إلاّ عِوجاً ، وزيغاً ، وفساداً فى الأرض .. وكذلك شأنهم فى الآخرة ، حيث يراهم المؤمنون ، وقد وردوا هذا المورد الوبيل ، وباعوا آخرتهم بهذا الثمن البخس الذى باعوها به فى دنياهم ، من متاع زائل ، وسلطان زائف ! فيُرمَوْن باللعنات .. « أولئك يلعنهم الله ويلعَنهم اللاّعنون » ..

* « بئس الرِّفد المرفود » .. الرفد : العطاء بعد العطاء ، ويستعمل فى مواضع الخير ، والإحسان .. وقد استُعمل هنا فى العذاب والبلاء ، ليدلّ على أن مايُرفدون به ، هو اللعنة ، وأنها هى الإحسان الذى يمكن أن يُحسنَ به إليهم ، إذ لاعطاء لهم إلا من هذا المورد الذى وردوه ، وليس فيه مايُعطى إلا النكال والسوء !

* « ذلك من أنباء القرى نقصّه عليك » الإشارة هنا إلى هذا القصص الذى قصه الله فى هذه الآيات ، الكريمة .. والخطاب للنبى صلوات الله وسلامه عليه ، والقرى : هى قُرى أولئك الأقوام الذين أهلكهم الله ، وصبّ عليهم نقمته ، بعد أن ساق إليهم رحمته على يَدِ رسله فردّوها ، وآذوا المرسلين إليهم بها ..

* « منها قائم وحصيد » أى من هذه القرى ماهو « قائم » أى باق لم تَضِع كل معالمه بعد ، ومنها ماهو « حصيد » قد اندثر ، وذهبت معالمه .. وقد شُبّهت القرى بالزرع ، لما فيها من حياة ، ولما تتعرّض له هذه الحياة من صور التبدّل والتحول .. فتخضرّ ، وتُورق ، وتزهر ، وتثمر .. ثم تنضج ، وتحصد .. وهكذا تلبس القرى من صور الحياة مايلبس الزرع من تلك الصور !

* « وما ظلمناهم ولكن ظَلَموا أنفسهم » أى أن أهل هذه القرى ، الذين أهلكهم الله ، لم يكن إهلاكهم بِظلم من الله لهم ، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم ، بحجزها عن الخير ، وسَوْقها إلى هذا البلاء الذى أخذهم الله به ..

« فما أغنت عنهم آلهتهم التى يَدْعون من دون الله من شيء » .. أى أن آلهتهم ، لم تردّ عنهم بأس الله إذ جاءهم ، ولم تمدّ إليهم يداً تستنقذهم من هذا البلاء الذى هم فيه .

« وما زادوهم غيرَ تَتْبِيب » أى أن هذه الآلهة التى عبدوها من دون الله لم تزدهم إلا خسراناً إلى خسران ، وعذاباً إلى عذاب ، وحسرة إلى حسرة ، وذلك حين ينادونهم فلا يسمعون لهم ، ويستصرخونهم ، فلا يَخِفّون إليهم .. وهنا يَرَوْن أنهم كانوا مخدوعين بهم ، وأن تلك الآلهة هى التى خَدَعتهم وأضلتهم .. حتى إذا جدّ الجدّ تبرءوا منهم ، وضلّوا عنهم .. وهذا ما يشير إليه سبحانه وتعالى فى قوله : « وقال الذين اتَّبعوا لو أنّ لنا كرّةً فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا .. كذلك يريهمُ الله أعمالهم حسراتٍ عليهم وما هم بخارجين من النار » (١٦٧ : البقرة) .. والتتبيب ، والتباب : الخسران ، والبلاء .

* « وكذلك أخْذُ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخْذه أليم شديد » أى مثل هذا الأخذ بالهلاك والعذاب ، يأخذ الله القرى الظالمة .. وفى هذا تهديد للمشركين من قريش ، وتلويح لهم ولقريتهم ، بهذا المصير الذى صارت إليه القرى الظالمة وأهلها ..

* « إن فى ذلك لآيةً لمن خاف عذاب الآخرة .. ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود » .. الإشارة هنا إلى هذه الأحداث التى مرت بتلك

القرى الظالمة ، وما حلّ بها وبأهلها من سوء . . فنى هذا عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة ، أى آمن بالله ، وباليوم الآخر ، وعمل لنفسه من أجل هذا اليوم ، حتى لا يقع تحت طائلة العذاب الذى أعده الله للظالمين ، المكذبين بالله ، وبهذا اليوم . . وهو يومٌ يجتمع له الناس جميعاً ، بعد أن يبعثهم الله من قبورهم ، وهو يوم مشهود ، يشهده الناس جميعاً ، ويرون مايقع فيه من أهوال ، وهو يوم عظيم .. للأحداث العظيمة التى تقع فيه .

* « وما نؤخره إلا لأجل معدود » . . أى إن هذا اليوم آت لا ريب فيه ، وإن تأخيره إنما هو لاستيفاء الأجل الذى قدّره الله لهذا اليوم .

* « يومَ يأتى لاتَكَلَّمُ نَفسٌ إلا بإذنه فمنهم شَقِىٌّ وسعيدٌ » أى يوم يأتى هذا اليوم ، ويُعرض فيه الناس على ربّهم ، لا تملك نفس من أمرها شيئاً ، فلا تنطق بكلمةٍ حتى يؤذَن لها من الله سبحانه .. وذلك لهول الموقف ، الذى تَخْمد فيه الأنفاس ،وتَخرسُ الألسنة .. وهم بين شقىّ وسعيد ..شقى بما حمل على ظهره من أوزار ، وما قدم بين يديه من سيئات .. وسعيد بما جاء به إلى ربّه من عمل صالح يزكّيه إيمان بالله ، وبهذا اليوم الذى هو فيه .

* « فأما الذين شَقُوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق » .. وتلك هى حالٌ من أحوال الذين غلبت عليهم شقوتهم ، وأدانهم الدّيان فى هذا اليوم المشهود .. وذلك هو بعض ما يكون لهم فى هذا اليوم ، ومايشهده أهل الموقف منهم .. « لهم فيها زفير وشهيق » . .

وفى تقديم « الزفير » وهو دفع النفس إلى الخارج، على « الشهيق » الذى هو أخذ النَّفَس إلى داخل الجوف .. وذلك على خلاف ماتتنفس الكائنات الحية ، حيث تأخذ الهواء شهيقاً ، ثم تدفع به إلى الخارج زفيراً . . فى هذا

مايكشف عن تلك الحال السيئة التى يعانيها هؤلاء الذين شقوا .. إنهم لايتنفسون كما يتنفس الناس ، فيأخذون الهواء شهيقاً ، ويتنفسون أنفاس الحياة منه ، ثم يُلقونه زفيراً ، بعد أن يأخذ الجسم حاجته منه .. كلا ، وإنما همّهم كلّه هو أن يُلْقوا بهذا الهواء الذى تَغلى به صدورهم ، فهم فى « زفير » متصل متقطع .. وأما الشهيق فهو نارٌ تَلَظّى ، لا يكاد أحدهم يأخذ جرعةً منه حتى يَرُدّها زفيراً .. ثم يعيدها شهيقاً .. وهكذا : يتنفّسون ناراً ، من داخل صدورهم ، ومن خارجها على السواء ..

* « خالدين فيها مادامت السموات والأرض .. إلا ماشاء ربّك إن ربّك فعّال لما يريد » أى أنهم يظلّون فى هذا العذاب أبداً ، لايتحولون عنه ، « مادامت السموات والأرض » .. والسموات باقية ، والأرض باقية ..فحياتهم فى النّار مرتبطة ببقاء السموات والأرض .. فهل عندهم من حيلةٍ ليبدّلوا هذا النظام القائم ؟ فليحاولوا إذن .. ولينطحوا هذا الصخر . . إن كان فيهم بقية من قدرة على أن يحرّكوا رءوسهم ! « إن ربّك فعال لما يريد » لايملك أحدٌ معه شيئاً ، ولا يستطيع أحدٌ أن ينقُضَ من حكمه شيئاً .. !

* « وأمّا الذين سُعِدوا ففى الجنّةِ خالدين فيها مادامتِ السموات والأرضُ إلا ماشاء ربُّك عطاء غير مجذوذ » ..

العطاء غير المجذوذ : أى غير الناقص . . أى عطاء كاملاً ، ونعمةً سابغةً ، لايدخل عليها مايكدر صفوها ، أو يذهب بشىء من لَذاذاتها التى وجدوها فى أنفسهم لها . .

وهنا سؤال . . وهو : ماذا يراد بقوله تعالى : « إلا ما شاء ربّك » ؟ وهل هو استثناء داخل على تأبيد الخلود فى النار أو فى الجنة ، الذى يفهم من قوله تعالى:

« خالدين فيها مادامت السموات والأرض» ؟ وكيف والله سبحانه وتعالى يقول فى أصحاب الجنة : «يبشرهم ربهم برحمةٍ منه ورضوان وجناتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ * خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجرٌ عظيم » (٢١ ـ ٢٢ : التوبة) ؟ ويقول سبحانه فى أصحاب النار : « إن الله لَعَن الكافرين وأعدّ لهم سعيراً * خالدين فيها أبداً لايجدون وليًا ولا نصيرًا » (٦٤ — ٦٥ : الأحزاب) ؟ ما تأويل هذا ؟ وقد جاء الخلود مؤكداً بالتأبيد ،لأصحاب النار فى النار، ولأصحاب الجنة فى الجنة ؟

والجواب ـ والله أعلم ـ أنه لما كان قوله تعالى : « خالدين فيها مادامت السموات والأرض » يشعر بأن هذا الخلود ، هو خلود قائم على حال واحدة ، لاتتحول فيه بأهل الجنة أو النار الأحوال ، ولما كان مثل هذا الخلود المطّرد على وجه واحد ، هو شبيه بالعدم ، لايجد فيه المنعّم طعمَ النعيم ، ولايذوق منه المعذّب آلام العذاب ، بعد أن يدوم ويتّصل على هذه الصورة المطردة ـ لما كان ذلك مما يمكن أن يُفهم من قوله تعالى : « خالدين فيها مادامت السموات والأرض » ـ فقد جاء قوله سبحانه : « إلاّ ماشاء ربّك » استثناء من مفهوم الخلود المطّرد ، الذى يقع تحت مشيئة الله ، فتجرى عليه أحكام التبديل ، والتحويل ، الذى هو سنّة الله فى خلقه ، كما يقول الحقّ جلّ وعلا : « يسأله من فى السموات والأرض كلّ يوم هو فى شأنٍ » (٢٩ : الرحمن).

وعلى هذا ، فإن خلود أهل الجنة فى الجنة ، وخلود أهل النار فى النّار ليس على صورة واحدة ، لاتتغير أبداً ، ولاتنتهى أبداً . . إذ لو كان ذلك لكان معناه المشاركة لله سبحانه فى دوامه الأبدى ، المنزّه عن التحول والتبدّل . .

ولكن خلود أهل الجنة وأهل النار ، إنما هو خلود يصحبه تنقّل من حال

إلى حال ، على مدى الأزمان الطويلة ، فتلبس أهلَ الجنة أحوالٌ وصور ، كما تلبس أهلَ النار أحوالٌ وصور . . فى رحلة طويلة على سفينة الكون السابحة فى رحاب هذا الوجود . . !

ومن يدرى . . فلعله يكون لأهل الجنة وأهل النار انتقال من دار إلى دار ، ومن عالم إلى عالم . . هكذا فى دورات وأطوار « مادامت السموات والأرض » أى مادام هذا النظام السماوى والأرضى قائمًا ، وهو نظام واقع تحت حكم التبدل والتحول ، كما يقول سبحانه « يومَ تُبدَّل الأرض غير الأرض والسموات » (٤٨ : إبراهيم) كما أنه واقع تحت حكم الزوال والفناء ، كما يقول جل شأنه : « كل شيء هالك إلاّ وجهه » (٨٨ : القصص) .

الآيات : (١٠٩ — ١١٥)

* « فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ

إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ » (١١٥)

التفسير :

بعد هذا العرض الذى حَشَرتْ فيه الآياتُ القرآنية الكريمة الناسَ إلى ربهم ، وساقتهم إلى موقف الحساب والجزاء بين يديه ، وسِيق أهل النار إلى النار ، وعذابها وبلائها ، وزُفَّ أهل الجنة إلى الجنة ، وطيباتها ونعيمها — عادت الآيات لتَلْقَى النبىَّ الكريم ، بما وجد فى مشاعره من تلك المشاهد التى شهدها ليوم القيامة ، وهو أنَّ للظالمين يوماً عبوساً قمطريراً ، وأن العاقبة للمتقين .. فيقول له الحقّ تبارك وتعالى :

* « فلاتَكُ فى مِريةٍ مما يعبُد هؤلاء .. ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبلُ وإنا لَمُوَفُّوهم نصيبَهم غيرَ منقوص » ..

والمِرية : الشكّ والارتياب .. وما بالنبىّ الكريم شكّ ولا ارتياب ،فى أنّ مايعبده قومه هو الضلال المُودِى بأهله ، والمورد لهم موارد الهلاك والبلاء .. ولكن هذا النهى ، هو تأكيد لما فى قلب النبىّ من إيمان بربّه ، وتثبيت له على الطريق الذى هو قائم عليه ، وإنْ لقى فيه مالقى من ضرّ وأذى !

وفى الإشارة إلى المشركين من قريش بقوله تعالى : « هؤلاء » دون ذكرهم ، هو تهوين لشأنهم ، واستخفاف بقدرهم ، إذ كانوا على هذا السخف والضلال ، وإذ كانوا بحيث يُعطون مِقودهم لأحجار ينحتونها بأيديهم ، ثم يقيمونها آلهة وأرباباً عليهم !

والآباء المذكورون فى قوله تعالى : « مايعبدون إلا كما يعبد آباؤهم » ..

قد يُراد بهم آباؤهم الأبعدون، من قوم نوح، وعادٍ وثمود، وقوم إبراهيم وقوم لوط، وأصحاب مدين ـ الذين تحدثت عنهم الآيات السابقة، وكشفت عن كفرهم وضلالهم.. وقد يراد بهم آباؤهم الأولون، من قريش! فالناس هم الناس، والأجيال اللاحقة غرس الأجيال السابقة.

وعلى أيٍّ فالنسب متصل إلى أن تضمه تلك الدائرة الكبرى التي تضم هؤلاء الآباء، قريبهم، وبعيدهم، جميعاً، وتجمعهم على طريق واحد، هو طريق الكفر والضلال.

ـ وفى قوله تعالى: «وإنّا لموفوهم نصيبهم غير منقوص» تهديد ووعيد لهؤلاء المشركين، وأنهم سيُوفّوْن نصيبهم من العذاب، كاملاً لايُنقص منه شيء..

* قوله تعالى: «ولقد آتينا موسى الكتابَ فاختُلفَ فيه ولولاَ كلمةٌ سَبَقتْ من ربِّك لقُضى بينَهم وإنهم لفى شكٍّ منه مريبٍ».

الكتاب هنا، هو التوراة.. وهو الذى نزل على موسى، كما نزل القرآن على محمدٍ ـ عليهما السلام ـ وقد اختلف بنو إسرائيل فى كتابهم هذا، وتغايرت أنظارهم عليه، وكثُر جَدَلهم فيه، فكانوا فرقاً وأشياعاً، يكفّر بعضهم بعضاً.. وإلى هذا يشير الله سبحانه وتعالى فى قوله: «وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم» (١٩ : آل عمران) ويقول سبحانه: «كان النّاس أمّةً واحدةً فبعث الله النبيين مُبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين النّاس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البيّناتُ بغياً بينهم» (٢١٣ : البقرة).

ـ وفى قوله تعالى: «ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم»..

الـكلمة هى كلمة الله بأن يؤخرهم إلى أجل مسمّى ، وألاّ يعجل لهم العذاب فى الدنيا ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وما تفرقوا إلاّ من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربّك إلى أجلٍ مسمّى لقُضىَ بينهم وإن الذين أورِثُوا الـكتاب من بعدهم لفى شَكٍّ منه مريبٍ » (١٤ : الشورى) فلولا هذه الـكلمة « لقُضىَ بينهم » وأَخذ الله الظالمين منهم بما أخذ به الظالمين من الأمم السّالفة قبلهم ، ولـكن يؤخرهم إلى أجلٍ مسمّى ، يلقوْن عنده جزاء الظالمين .

— وفى قوله تعالى : « وإنهم لفى شك منه مريب » . . الضمير فى : « إنهم » يعود إلى أهل الـكتاب المعاصرين للنبىّ ، وهم الذين أُوتوا الـكتاب من بعد آبائهم الذين اختلفوا فيه ، وقد أشار إليهم قوله تعالى : « وإن الذين أورِثُوا الـكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب » فآباؤهم قد اختلفوا فى كتابهم هذا ، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً ، وأبناؤهم الذين أورثوا هذا الـكتاب من بعدهم ، فى ريب منه وفى شك فيه ، إذ أورثهم هذا الخلاف الذى وقع بين آبائهم فى الـكتاب ـ حَيْرةً ، وقلقاً ، واضطراباً ، حيث يجدون لـكل أمرٍ جاءهم به الـكتاب أكثر من وجه من وجوه الرأى ، وأكثر من مذهب من مذاهب الخلاف ، فتتفرق بهم السبل ، وتزيغ الأبصار ، وتضل العقول .. فلا يكون لهم من نظرهم فى الـكتاب إلا الارتياب والشك .

* « وإن كُلاًّ لَمَّا ليوفّينهم ربُّك أعْمَالهم إنه بما يعملون خبيرٌ » .. أى وإن كلاًّ من الآباء الذين اختلفوا فى الـكتاب ، والأبناء الذين ورثوا هذا الـكتاب وارتابوا فيه ـ إن كلاًّ من هؤلاء وأولئك ليوفينهم ربك أعمالهم ، ويجزى كلاًّ ماهو أهل له .. « إنه بما يعملون خبير » .. يزن عمل كل واحدٍ بميزان العليم الخبير ، ويجازيه عليه جزاء القادر القاهر .

ووصف الله سبحانه وتعالى هنا بأنه « خبير » ، لأن هذه الصفة هى المناسبة للمقام ، إذ كان الخلاف الذى كان بين الآباء فى الكتاب ، والريب الذى فى صدور أبنائهم منه ، لايكشفه ، ولا يعلم الحق من الباطل فيه ، إلا عليم خبير .

— وفى قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه » تحذير لأصحاب القرآن الكريم من أن يختلفوا فيه ، فيضلّوا كما ضل اليهود قبلهم ، ثم لايقف الأمر عند هذا ، بل يُورّثون أبناءهم من بعدهم الشّك والريب فى القرآن ، كما ورّث اليهود أبناءهم من بعدهم الشكوك والرِّيب . فى التوراة ، الأمر الذى أوهى صِلَتهم بها ، وجرّأهم على التلاعب بأحكامها ، وتبديل كلماتها وتحريف نصوصها .. فكانوا كما وصفهم الله سبحانه بقوله : « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمَعْ غيرَ مُسمَع وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعناً فى الدّين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا » (٤٦ : النساء) . وهذه هى صفات من لايثق فيما بين يديه من الأمر الذى يُشغل به .. وقد وصفهم الله سبحانه كذلك فى موضع آخر بقوله : « فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلِهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبَعَ الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا » (١٥٥ : النساء) .. إنه إيمان لاينزل من القلب مكان الاطمئنان ، واليقين ، وإنما هو إيمان سَطحى .. له ظاهر وباطن ، أشبه بظاهر المنافق وباطنه !

* « فاستقم كما أُمِرْت ومن تابَ مَعَك ولا تطغَوْا إنه بما تعملون بصير » .

فهذا هو الذى ينبغى أن يكون عليه النبىّ والمؤمنون معه إزاء القرآن الكريم .. وهو الاستقامة على وجه واحدٍ فيه ، والوقوف به عند مفاهيمه التى تنطق بها كلماته ، دون الالتواء بها ، والجدل العقيم فيها .. حتى لايقع فيه

خلاف ، ولا يختلف فيه المسلمون ، مثل هذا الاختلاف الذى أفسد على اليهود دينهم . .

والأمر للنبىّ الكريم هنا ، هو توكيد لهذا الأمر بالنسبة إلى المؤمنين . . فالنبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مستقيمٌ استقامة مطلقة كما أمر الله مع الكتاب الذى أنزله الله عليه ، فإذا جاءه الأمر بعد هذا بالاستقامة ، فإنما ليُرِىَ للمؤمنين أن أمر الاستقامة مع القرآن الكريم ، يحتاج إلى احتراس شديد ، ورقابة دائمة ، حتى يحتفظ المؤمن بهذا الوضع المستقيم مع كتاب الله . وإلا انحرف وضلّ . . وأن النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مع ماهو عليه من استقامةٍ مع كتاب ربّه ، فإنه قد نُبّه إلى هذا ، وأُمر به ، فكيف بغيره من المؤمنين ؟

ـــ وفى قوله تعالى : « ولاتطغوْا » تأكيد للأمر بالاستقامة على كتاب الله ، كما أمر الله . . والطغيان هو مجاوزة حدّ الاعتدال فى أى أمر من الأمور ، والخروج به عن الوضع السليم الذى ينبغى أن يوضع فيه .

والمراد بالطغيان هنا ، الطغيان فى الاختلاف فى كتاب الله ، ومجاوزة الحدّ فيه ، وهذا يعنى أنّ الاختلاف فى ذاته أمر لاحرج منه ، بل إنه أمر لابدّ منه ، إذ كان من شأن النّاس أن ينظروا إلى الأمور بعقولهم ، ويزنوها بمدركاتهم . . وبعيدٌ أن تتلاقى عقولهم وأن تتعادل موازينهم ، على حد سواء . . فكان الاختلاف بينهم أمراً لايمكن اجتنابه ، بل لايمكن أن تقوم حياتهم بغيره . ولكن الذى لايحمد من أمر هذا الاختلاف ، هو أن يكون عن هوًى جامحٍ ، لايراد منه البحث عن الحقيقة ، بل غايته المِراء والإعنات ، وذلك هو طغيان ، وعدوان على الحقيقة ، وتضييع لها . .

ـــ وفى قوله تعالى : « إنه بما تعْملون بصير » إشارة مضيئة مشرقة ، إلى أن الاختلاف ينبغى أن يكون عن نَظرٍ باحث ، وبصيرةٍ نافذة ، ابتغاء التعرف

على الحق .. وبهذا يكون اختلاف وجهات النظر بين المختلفين ، أضواء مسلطة من كل جهة ، على الطريق الموصل إلى الحق ، والكاشف عنه ..

* قوله تعالى : « وَلاَ تَرْكَنوا إلى الذين ظَلَموا فتمسَّكُمُ النارُ ومالكم من دون الله من أولياء ثم لاتُنْصَرُونَ » .

— « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا » أى لاتميلوا إليهم ، ولا تتبعوا سبيلهم ، ولا تأمنوا جانبهم .

وهو نهى عام عن موالاة الظالمين ، ومناصرتهم ، واتباع سبيلهم .. ومن الذين ظلموا ، أولئك الذين يتأولون كتاب الله حَسْبَ ماتُمليه عليهم أهواؤهم ، فيَضلوّن ويُضِلون غيرهم ..

* قوله تعالى : « وأقم الصَّلاَةَ طرفِى النهارِ وزُلَفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئاتِ ذلك ذكرى للذاكرين ».

طرفا النهار : أوله ، وآخره .. وهما الصبح ، والمساء .

وزلفاً من الليل . الزُّلَف : جمع زُلْفَى ، مثل قُربى وقُرَب .. لفظاً ومعنى ، ومنه قوله تعالى : « وأزلِفت الجنّة للمتقين » أى أدنيت إليهم ، وقرّبت لهم بحيث ينالونها ..

والمراد بالزلف من الليل ، أوقاتٌ قريبة من الليل .. أى مايقرب من طرف النهار ، وفيها صلاة الصبح التى هى مدانية لأول النهار ، وفيها صلاتا المغرب والعشاء ، وهما مدانيتان لآخر النهار .

— وفى قوله تعالى : « إن الحسنات يذهبن السيئات » إشارة إلى أن فى إقامة الصّلاة حسناتٍ يكتسبها المرء منها ، فتذهب بالسيئات التى تقع منه .. وفى التعبير عن الصلاة بالحسنات ، إشارة إلى أن الصلاة إذا أديت على وجهها كانت حسناتٍ خالصة ..

— وفى قوله تعالى : « ذلك ذكرى للذاكرين » .. الإشارة إلى ماحدّثت به الآيات السابقة ، من الاستقامة مع كتاب الله كما أمر الله ، واجتناب الظالمين ، وعدم الركون إليهم ، وإقامة الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل ـ فهذه كلها عظات ، بالغات ، ينتفع بها الذاكرون ، أى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ..

— وفى قوله تعالى : « واصبر فإن الله لايضيع أجْرَ المحسنين » إشارة إلى أن التزام الطاعات ، واجتناب المنهيات أمر يحتاج إلى معاناة وصبر ، وأنّهما تكاليف لايقدر على الوفاء بها إلا من وطّن نفسه على الصّبْر.. وفى هذا يقول الحقّ تبارك وتعالى فى شأن الصّلاة : « وأْمُرْ أهْلَكَ بالصلاة واصطبر عليها » (١٣٢ : طه) وبهذا يستحق الإنسان الجزاء الحَسَن على ما احتمل من مشقة .. فالله سبحانه لايضيع أجر العاملين ، الذين يعملون فى مواطن الخير والإحسان !

الآيات : (١١٦ — ١١٩)

* « فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَآ أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ » (١١٩)

التفسير :

* قوله تعالى : « فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، أن الآيات السابقة جاءت آمرة بمعروف ، وناهية عن منكر ، ومنبهة إلى أن فيما أمرت به ونهت عنه ، ذِكرى لمن يعقل ، ولا يغفل عن مواقع العبرة والعظة .

ولما كان فى طبيعة الناس الغفلة عن مواقع الخير ، وهم لهذا يحتاجون دائماً إلى من يقوم فيهم مذكراً لهم ، آمراً بالخير ، ناهياً عن المنكر ـ فقد جاء قوله تعالى : « فلولا كان من القرون من قبلكم أُولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض » ـ ناعياً على الأمم السالفة التى أهلكها الله سبحانه بظلمها وضلالها ، أنها لم يكن فيها دعاة خير ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقفون بجوار أنبيائهم ، يشدون أزرهم ، ويُشيعون فى الناس دعوتهم ، ويسدون على السفهاء نوافذَ العدوان على الأنبياء وأتباع الأنبياء .

ـ وفى قوله تعالى : « فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية » إنكار لما كان عليه أهل القرون الماضية ، من فِقدان أهل الخير بينهم ، ودعاة الإصلاح فيهم .. وتحريض المسلمين ألا يكونوا كهؤلاء الأقوام ، بل يقوم من بينهم دعاة هدى وإصلاح ، كما يقول الله سبحانه وتعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » (١٠٤ : آل عمران) ، وبهذا تقوى جبهة المؤمنين ، ويشتد ركن الإيمان ، وينفتح للناس الطريق إلى الهدى ، والنجاة من عذاب الله .

ـ وقوله تعالى « أولو بقية » أى أصحاب دين وإيمان ، يعملون لما يبقى لهم عند الله فى الآخرة ، ومنه قوله تعالى : « بقيةُ اللهِ خير لكم » أى ما يبقى لكم

عند الله .. وأصحاب البقية ، هم العقلاء الراشدون ، الذين لا تلهيهم دنياهم عن آخرتهم ..

* وقوله تعالى : « إلا قليلا ممن أنجينا منهم » هو استثناء من النفى الواقع على أهل القرون الغابرة .. فقد كان فيهم جماعات قليلة استجابوا لدعوة الله ، وآمنوا به ، ودَعوْا إلى الله ، كما كان من الرجل الصالح من قوم فرعون .. أما كثرتهم فكانت تموج فى غيها وضلالها ، فلم يكن لأصحاب الدعوات فيهم من يسمع أو يجيب ، إذ كانت تضيع أصواتهم وسط هذه الأمواج المادرة من الغى والضلال .. وقد نجى الله سبحانه هؤلاء القلة المؤمنين ، من هذا البلاء الذى أخذ به أقوامهم ، الذين قاموا على ماهم فيه من ضلال ..

* قوله تعالى : « واتّبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ».. إشارة إلى أن أهل المنكر قد غَلَبُوا على أهل الخير والصلاح فيهم ، فلم يلتفتوا إليهم ، ولم ينتفعوا بنصحهم ، فمضوا على ما هم فيه من ضلال ، وغرقوا فيه من إلى أذقانهم ، وأترفوا فيه ، أى جعلوه نعيمهم فى الدنيا ، وحظهم منها .. — « وكانوا مجرمين » أى كانوا أهل إجرام وفجور ، وبغى وعدوان .. ولذلك أهلكهم الله .. ولو استقاموا على طريق الحق ، ما نزل بهم ما نزل من نقم الله عليهم .. كما يقول سبحانه بعد ذلك :

* « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .. أى أن الله سبحانه ، إنما أهلك القرى التى أهلكها بسبب ما كان من أهلها من ظلم وكفر وضلال .. وقد جرت سنة الله ألاّ يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، كما يقول سبحانه : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يُغَيِّروا ما بأنفسهم » (٥٣ : الأنفال) .

* قوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل النّاسَ أمةً واحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجِنة والناس أجمعين » ..

أى أن ما حلّ بالظالمين من هلاك هو قَدَرٌ من قدر الله الواقع بهم ، وأنه ـ سبحانه ـ لو شاء لهداهم إلى الحقّ ، ولعافاهم من هذا البلاء .. « ولو شاء ربك لجعل النّاس أمة واحدة » أى على حالٍ واحدة من الإيمان ، أو الكفر ، ومن الهدى ، أو الضلال .. فليس ذلك بعزيز على الله .. ولكنه ـ سبحانه ـ خالف بينهم ، فجعلهم مؤمنين وكافرين ، ومهتدين وضالين. كما يقول سبحانه : « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » (٢ : التغابن) ..

ـــ وفى قوله تعالى : « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك » إشارة إلى أن هذا الاختلاف فى الناس أمرٌ لازم اقتضته حكمة الله ،وجعلته سُنّة قائمة فيهم.. فكما اختلفوا فى صورهم وأشكالهم ، وفى ألسنتهم وألوانهم ، وفى أممهم وأوطانهم ، وفى وجوه أعمالهم وأرزاقهم ـ اختلفوا كذلك فى معتقدهم فى الله ، فنهم الكافرون ، ومنهم المؤمنون ، ومنهم أصحاب النار ، وأصحاب الجنة ، « إلا من رحم ربك » ممن ألف بين قلوبهم من المؤمنين ، فكانوا كيانا واحداً ، فى اتساق خطوهم على طريق الخير والهدى .. فكانوا كيانا واحداً ، وجسداً واحداً تنتظمه مشاعر واحدة .. وقليل ماهم ..

ـــ وفى قوله تعالى : « ولذلك خلقهم » توكيد لهذا الحكم الذى حكم الله به على العباد .. وأنهم هكذا خلقوا مختلفين ..

ـــ « وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجِنة والناسِ أجمعين » أى وجبت كلمة ربك ـ وحقت ، وجاءت على تمامها وكمالها ، لا استثناء فيها ، وهى

أن يملأ جهنم من الجنة والناس .. وإذا كان ذلك كذلك، فإنه لامَفَرّ من أن يكون لجهنم أهلها من الناس ، ولما يعملون ، وليصيروا إليها .. وبغير هذا لا يتحقق لكلمة الله التمام .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ..

الناس .. وهذا الاختلاف فى حظوظ الحياة

الاختلاف بين الناس ، أمر لازم لانتظام حياتهم .. فلو كانوا على حال سواء فى كل شىء ، لما كانوا إلا كتلة متضخمة اللحم ، ليس فيها عين تنظر ، أو أذن تسمع ، أو أنف يشم ، أو يد تبطش ، أو رجل تمشى ، أو رأس يفكر .. إلى غير ذلك من الأجهزة العاملة فى كيان الإنسان .. والتى بها صار الإنسان إنساناً ، بل بها صار الكائن الحىّ .. ذا حياة عاملة .. معطية وآخذة ..

وهكذا الناس .. هم هذا الإنسان فى صورة مكبرة .. بعضهم يأخذ مكان الرأس ، وبعضهم يأخذ مكان العين ، أو الأنف ، أو الأذن ، أو اليد ، أو الرجل وبهذا يقوم الجسد الاجتماعى بوظائفه العاملة فى الحياة حيث تأخذ كل جماعة فيه مكانها المناسب فى هذا الجسد ، كما تأخذ أعضاء الجسد فى الإنسان مكانها فيه .. سواء بسواء !

والسؤال هنا هو :

لماذا يكون بعض الناس رأساً ، وبعضهم قدماً ، أو إصبعاً ، أو عيناً ؟

ونقول : إن تلك هى مشيئة الخالق فى خلقه .. فكما خلق سبحانه الإنسان ووضع أعضاءه فيه بهذا النظام وعلى تلك الصورة — كذلك جعل الله سبحانه المجتمع الإنسانى موزعاً فى الوجود على هذا النظام .. بعضهم رأس ، وبعضهم ذنب ، وبعضهم قلب ، وبعضهم عقل ، وبعضهم أبيض ، وبعضهم أسود ..

وهكذا .. ليملئوا كل فراغ على الأرض ، ويسلكوا كل سبيل فيها .. فيكون منهم الزارع والصانع ، والتاجر ، وراكب البحر ، وساكن الفلاة ، وصاحب القصر ، وصاحب الكوخ !

تلك هى مشيئة الله فى عباده ، وإرادته النافذة فيهم ، وحكمته المقدِّرة لكل شيء قَدْره !

يقول الجاحظ فى تعليل هذا الاختلاف بين الناس ، وتباين حظوظهم فى هذه الدنيا : « اعلم أن الله تعالى إنما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم !

« ولم يحبّ أن يوفق بينهم فيما يخالف مصلحتهم !

« لأن الناس لو لم يكونوا مسخرين بالأسباب المختلفة ، وكانوا مخيَّرين فى الأمور المتفقة والمختلفة ، لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة ، وفى هذا ذَهاب العيش ، وبطلان المصلحة ، والبوار والتَّوَاء [1] ..

ثم يقول الجاحظ :

« ولو لم يكونوا — أى الناس — مسخرين بالأسباب ، مرتَهَنين بالعلل ، لرغبوا عن الحِجامة أجمعين ، وعن البيطرة ، والقصابة والدباغة [2] ولكن كل صنف من الناس مُزيّن عندهم ما هم فيه ، ومسهل عليهم ..

« فالحائك إذا رأى تقصيراً من صاحبه أو سوء خدمة ، أو خَرْقاً ، قال

---

(١) البوار : الفساد ، والتواء : الهلاك .

(٢) القصابة : الجزارة .. وهذه الصناعات التى ذكرها الجاحظ كانت محتقرة عند العرب .

له — على سبيل الذم : ياحجام ! والحجام لو رأى تقصيراً من صاحبه ، قال له : ياحائك !!

ثم يقول :

« ولولا أن الله تعالى أراد أن يجعل الاختلاف سبيلا للاتفاق والائتلاف ، لما جعل واحداً قصيراً ، وآخر طويلا ، وواحداً حسناً ، والآخر قبيحاً ، وواحداً غنياً وآخر فقيراً ، وواحداً عاقلا وآخر مجنوناً ، وواحداً ذكياً وآخر غبياً . . ولكن خالف بينهم ليختبرهم ، وبالاختيار يُطيعون ، وبالطاعة يسعدون . .

« ففرق بينهم ليجمعهم ، وأحب أن يجمعهم على الطاعة ليجمعهم على المثوبة ، فسبحانه وتعالى ، ما أحسن ما أبلى وأولى ، وأحكم ما صنع ، وأتقن ما دبر !

ثم يمضى الجاحظ فيقول :

« لأن الناس لو رغبوا كلهم عن عار الحياكة لبقينا عراة ، ولو رغبوا أجمعهم عن كدّ البناء لبقينا بالعَراء ، ولو رغبوا عن الفلاحة لذهبت الأقوات ، ولبطل أصل المعاش .. فسخرهم على غير إكراه ، ورغبهم من غير دُعاء .

ثم يقول :

« ولولا اختلاف طبائع الناس وعللهم ، لما اختاروا من الأشياء إلا أحسنَها ومن البلاد إلا أعدلها ، ومن الأمصار إلا أوسطها . . ولو كان ذلك لتناحروا على طلب الواسط[1] ، وتشاجروا على البلاد العليا ، ولما وسعهم بلد ، ولما تم بينهم صُلح !

(١) الواسط : أى الوسط مَن كل شىء ، وهو أحسنه وأعدله .

فقد صار بهم التسخير إلى غاية القناعة !

« وكيف لا يكون ذلك كذلك ، وأنت لو حركت ساكنى الآجام إلى الفياف ، وساكنى السهل إلى الجبال ، وساكنى الجبال إلى البحار ، وساكنى الوبر إلى المدر ، لأذاب قلوبَهم الهمّ ، ولأتى عليهم فرط النزاع !

« ولولا اختلاف الأسباب ، لتنازعوا بلدة واحدة ، واسماً واحداً وكُنية واحدة !

« فقد صاروا ــ كما ترى مع اختيار الأشياء المختلفة ــ إلى الأسماء القبيحة ، والألقاب السمجة .. والأسماء مبذولة ، والصناعات مباحة ، والمتاجر مطلقة ، ووجوه الطرق مُخْلاة !

« ولكنها مطلقة فى الظاهر ، مقسمة فى الباطن ، وإن كانوا لا يشعرون بالذى دبره الحكيم العليم من ذلك .

« فسبحان من حبب إلى واحد أن يسمى ابنه محمداً ، وحبب إلى آخر أن يسمى ابنه شيطاناً ، وحبب إلى آخر أن يسميه عبد الله ، وحبب إلى آخر أن يسميه حماراً .

« لأن الناس لو لم يخالف بين عللهم فى اختلاف الأسماء ، لجاز أن يجتمعوا على شىء واحد ، وكان فى ذلك بطلانُ العلامات ، وفساد المعاملات !

ثم يختم الجاحظ هذه القضية بقوله :

« وأنت إذا رأيت ألوانهم ، وشمائلهم ، واختلافَ صورهم ، وسمعت لغاتِهم ونغمهم ، علمت أن طبائعهم وعللهم المحجوبة الباطنة ، على حسب أمورهم الظاهرة (أى أنها مختلفة فى صورها وأشكالها كاختلاف أحوالهم الظاهرة) .

وقد حرصنا أن ننقل كلمات الجاحظ فى هذه القضية ، لأن الجاحظ لم

ينظر إلى هذه القضية من خلال العقيدة الدينية ، ولم يقمها على مقررات النصوص القرآنية ، بل نظر إليها نظراً قائماً على واقع الحياة ، وما ينطق به هذا الواقع الذى هو التطبيق العملى لما قررته الشريعة ، ونطقت به كلمات الله . .

فالاختلاف بين الناس على هـذا الوجه الذى يشمل ماديات حياتهم ومعنوياتها جميعاً ، هو سنة الله فى خلقه ، وحكمه الواقع عليهم ، بحيث لا انفكاك لهم منه أبداً . !

— فقوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » . . هو القانون السماوى الذى يحكم أوضاع الناس فى هـذه الدنيا . . حيث لا تستقيم حياتهم ، ولا ينتظم أمرهم إلا بهذا الاختلاف الواقع بينهم ، والذى لو ارتفع من دنياهم لجمدوا فى أماكنهم ، كما يجمد الدم فى جسد فارقته الحياة ، وفى هذا يقول الرسول الكريم : « الناس بخير ما تباينوا (أى اختلفوا) ، فإذا تساووا هلكوا » .

والاختلاف الذى تشير إليه الآية الكريمة ، ويحدّث به الرسول الكريم ليس بالاختلاف الذى يفرق بين الناس ، ويعزل بعضهم عن بعض ويضع بعضهم فى مكان السادة ، على حين يضع بعضهم الآخر فى منزلة العبيد .. كلا ، إنما هو اختلاف فى المنازع والمشارب ، وفى الملكات والحظوظ ، كما يختلف الإخوة الأشقاء ، فى منازعهم ومشاربهم ، وفى ملكاتهم ، وحظوظهم من الحياة . . بحيث لا يجعل هـذا الاختلاف بينهم ميزة لأحدهم على الآخر ، فى الحقوق والواجبات ، المنوطة بالإنسان ، من حيث هو إنسان . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .. فهذا الاختلاف بين الناس ، الذى جعلهم شعوباً وقبائل ، هو سبب التعارف بينهم ، وهو الذى يعطى كل

أمة أو شعب أو قبيلة ، السِّمة التى تُعرف بها ، وتكون مَعْلماً من المعالم الدالة عليها . . تماماً كالاختلاف بين الأفراد ، الذى به يعرف لكل فرد ذاتيته وشخصيته ، بحيث لا يكون الناس جميعاً على وجه واحد ، لا يختلف فيه إنسان عن إنسان .

وقول الرسول الكريم : « الناس سواسية كأسنان المشط » مكمل لقوله صلوات الله وسلامه عليه : « الناس بخير ما تباينوا » .. فهم على سواء فى المعنى الإنسانى الذى يجمعهم ، وهم فى الوقت نفسه أفراد متمايزون ، لكل فرد وجوده الخاص ، وذاتيته المشخّصة له ، وعالمه المتفرّد به . .

وعلى هذا المفهوم للإنسان ، قامت أحكام الشريعة الإسلامية ومبادئها . . فهى تتعامل مع الإنسان باعتبارين . . باعتبار أنه فرد له ذاتيته وله عالمه الخاص الذى يعيش فيه ، وباعتبار أنه عضو فى مجتمع ، أشبه بالعضو فى الجسد . . وهذا النظر الذى تنظر به الشريعة الإسلامية إلى الإنسان ، وتعامله به على أساسه ، هو الواقع الذى يعيش فيه الإنسان ، حيث كانت له حياة يعيش بها فى الناس ، وحيث كانت له ذاتية يعرف بها بينهم .

فالحياة تتعامل مع الإنسان بوجهيه معاً .. وجهه الشخصى الفردى ، ووجهه العضوى الاجتماعى . . فتستقبله الحياة فرداً .. تعطيه وتأخذ منه ، وتستقبله فى مجتمعه الأُسَرى ، والقَبَلىّ ، والشعبى ، والأممى ، والإنسانى عامة .. فتعطيه ، وتأخذ منه أيضاً . !

والحياة ، فى كلتا الحالين ، ترى الإنسان بكل مشخصاته ، لم يفتقد شيئاً من عناصر وجوده الذاتى ، ولو أُلقى به فى محيط العالم الإنسانى كله . . تراه مرة كما يبدو من خلال عين « المصورة » إذا كان بمفرده فى مجال هذه العين ، وتراه مرة أخرى كما يبدو من خلال هذه العين ، وقد وقع فى مجالها ملايين البشر !

وكذلك شأن الإنسان مع الحياة ومع الناس .. إنه يرى نفسه من خلال نظرتين .. نظرة لا يرى منها إلا نفســه هو ، ووجودَه هو ، ونظرة يرى منها نفسه ، عضواً ـ كبيراً أو صغيراً ـ فى المجتمع ..

فتعاليم الإسلام تعترف اعترافاً كاملا واضحاً بذاتيــة الإنسان وبفرديته ، وتُفسح لهذا الجانب من الإنسان مكانا بارزاً فى تشريعاتها وأحكامها.. فالإنسان فى نظر الإسلام ـ من هذه الجهة ـ عالم صغير ، له فَلَــكه الذى يدور فيه ، وله مشاعره التى يحيا بها ، وعواطفه التى يعيش فيها ، وضميره الذى يحتكم إليه .

ومن جهة أخرى ، فإن الشريعة الإسلامية ، لاتقف بالإنسان عند هذا الشأن من شئونه ، بل تلقاه عضواً فى المجتمع الإنسانى كله ، من أضيق حدوده ، فى مجتمع الأسْرة ، إلى غاية مداه ، فى الإنسانية جميعها ، بل إنها تتجاوز هذا إلى المجتمع الحيوانى ، بل إلى الوجود كله .. فهى تدعو الإنسان إلى أن يكون نَغَماً منسجماً مع هذا اللحن الخالد ، الذى يشترك فيه الــكون كله ، معبّرًا به عن جلال الخالق العظيم وقدرته ، وعلمه ، وحكمته .. وإنه لمن الشقاء الذى ليس بعده شقاء ، أن يكون الإنسانُ صَوْتاً [نشازاً] فى هذا اللّحن الــكونى الرائع .. إنه سينفصل حينئذ عن الوجود .. ثم لايكون له وجود !

* * *

وأرانا قد بَعُدنا عن موضوعنا الذى تحدثت عنه الآية الــكريمة : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلاَّ من رحم ربك ولذلك خلقهم » .. ولــكن عُذْرنا فى هذا ، هو أن قضية الاختلاف بين الناس ، ليست قضيةً ذات وجه واحد ، قائم على هذا الاختلاف الظاهر بين الأفراد ، بل هى قضية ـ كما قلنا ـ ذات وجهين : وجه ظاهر يقوم عليه هذا الاختلاف الذى تشهده الحياة بين الناس والناس ، ووجه خفىّ ، تضيع فى ثناياه وجوه هذا الاختلاف ، فيبدو الناس جميعاً كِياناً واحداً ، وجسداً واحداً .. الأمر الذى

ينقض حكم هذا الظاهر المشاهد ، ويوقع بعض الناس فى حيرة ، وبلبلة حينما يقصرون نظرهم على هذا الاختلاف القائم بين الناس والناس ، ولا يرون ماوراءه من تلاحم ، وتجاوب ، وائتلاف .: فيخيل إليهم أن الوجود الإنسانى وجود يحكمه الاضطراب ، ويسوده القلق ، ويستولى عليه الفساد ، بسبب هذا الاختلاف ، الذى يبدو وكأنه لايجتمع معه شمل ، ولا يستقر به حال !

ومن واقع هذه النظرة إلى ظاهر الحياة الإنسانية ، ومايطفو على سطحها من اختلاف بين الناس ـ حاول الكثير من الفلاسفة والمصلحين أن يعالجوا هذا الاختلاف بين الناس ، وأن يعملوا على صَوْغهم صياغة جديدة ، تجعل من مجموعهم إنساناً واحداً ، مكرراً .. فإن لم يكن ذلك فلا أقلّ من أن يُقَسّموا إلى مجموعات ، كل مجموعة منها تحوى أعداداً من الناس ، على هيئة واحدة ، لاخلاف بين إنسان وإنسان فيها ..

ومن أجل هذا ، وقع فى تفكير بعض الفلاسفة ماعُرف بالمَدن الفاضلة ، التى صُوِّر فيها الناس على هيئة جسدٍ بشرى .. تمثل فيه كل جماعة من الناس ، عضواً من أعضائه .. فهناك من يمثلون الرأس ، وهناك من يمثلون الأيدى ، أو الأرجل ، وهكذا .. كما نرى ذلك فى مدينة أفلاطون فى الغرب ، ومدينة الفارابى فى الشرق !

وإلى جانب هذه المدن الفاضلة التى ارتسمت فى أذهان الفلاسفة ، ولم يُقدّر لها أن تخرج إلى عالم الواقع ـ إلى جانب هذا قامت محاولات كثيرة ، ودعوات متعددة فى القديم والحديث ، يُراد بها المساواة بين الناس ، مساواة مطلقة ، وخاصة فيما يتصل بالملكية الخاصة ، فكانت تلك الدعوات التى ظهرت فى المجتمعات البشرية والتى تحمل إلى الناس فوضى الإباحة المطلقة لكل شىء فى المال ، والنساء ، والزرع ، والضرع ، وكل مايكون للناس فيه حاجة ..

والطبيعى أن هذه الدعوة قد أغرت عامة الناس على الاندفاع وراءها فى هوس جنونى ، إذ فتحت أمامهم أبواباً فسيحة يدخلون منها إلى مايشتهون .. وينالون من قريب كل مايحبون .. ولكن سرعان ما اصطدم الناس بالواقع ، بعد أن صحوا من هذا الحلم الجميل ، وأفاقوا من تلك الملوسة المحمومة .

فلم يروا بين أيديهم إلا سراباً خادعاً يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ..

ذلك أن الناس فى ظل هذه الدعوة ، تستولى عليهم مشاعر الأثرة والأنانية ، التى تحملهم على أن يأخذوا دون أن يعطوا ، وأن يحصدوا من غير أن يزرعوا .. وهذا من شأنه أن يحيل الخصب جدباً ، والعامر خراباً .. ثم ينتهى الأمر أخيراً إلى استبداد الأقوياء بالضعفاء ، استبداداً دونه مايجرى فى الغابة بين عالم الحيوان ! يأكل قويهم ضعيفهم فى غير شفقة أو مرحمة ، ثم تجىء الخاتمة المفجعة ، فإذا كلهم مأكول بيد الضياع والفناء .. وحسبنا أن نذكر هنا ماكان من دعوة « مزدك » ودعوة « بابك الخرمى » .. فقد كانتا أشبه بإعصار عاتٍ لف الناس فى كيانه ، وحملهم على جناحه ، ثم ألقى بهم من حالق .. فكانوا فى الهالكين !

الاختلاف إذن بين الناس ، ووضع كل إنسان موضعه فى الحياة ، حسب استعداده ، هو الذى يمكّن للمجتمع الإنسانى أن يحيا حياة خصبة ، تملأ هذه الدنيا خيراً يسعد به الناس جميعاً ، ويتساقون كئوسهم فيما بينهم ..

وغاية ماهو مطلوب هنا ـ كى تطيب للناس حياتهم ، وينتظم خطوهم فى موكب الحضارة والمدنية ـ هو أن تقوى بينهم مشاعر الأخوة الإنسانية ، وتؤلف بين قلوبهم عواطفُ التراحم ، والتوادّ ، حتى يتخففوا من دواعى الأثرة والأنانية .. وهذا ماجاءت له الشرائع السماوية ، وما قامت من أجله

القوانين الوضعية ، وعملت له دعوات القادة والمصلحين فى كل زمان ، وفى كل مجتمع صالح رشيد .

ونستمع إلى قوله تعالى : « أَهُمْ يقسمون رحمةَ ربّك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشَتَهم فى الحياة الدنيا ، ورفعْنا بعضهم فوق بعضٍ درجات ليتخذَ بعضهم بعضاً سُخريًّا ورحمة ربك خيرٌ مما يجمعون » (٣٢ : الزخرف) .

نستمع إلى كلمات ربّ العالمين هذه فنجد فى قوله تعالى : « ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْريًّا » مايكشف عن هذا السرّ العظيم الذى تُحدّث به بعض أسرار هذه الآية الكريمة .. فالناس بحكم هذا الاختلاف القائم بينهم ، وبحسب استعدادهم الفطرى ، وحكم ظروفهم وأحوالهم ــ هم جميعاً مسخّرون .. أى يخدم بعضهم بعضاً ، ليس فيهم خادم ومخدوم .. بل كلّهم يَخْدُم ويُخْدَم ، ويستوى فى هذا العالم والجاهل ، والزارع ، والصانع ، والقوىّ والضعيف ، والحاكم والمحكوم . . إنهم جميعاً أشبه بالآلة الميكانيكية ، لاتكون آلة عاملة ، ذات قوة محركة ، إلا إذا عمل كل جزء من أجزائها . . أيًّا كان وضعه فيها ، وأيًّا كانت قيمته الذاتية بين أجزائها . . بل أنهم أشبه بالجسد الإنسانى فى تجاوب أعضائه جميعاً فى العمل على كل ما من شأنه أن يحفظ عليه حياته ، ويوفر له أمنه وسعادته .

لقد عرف الناس هذه الحقيقة منذ كان لهم وجود اجتماعى ، بل إن هذا الوجود الاجتماعى نفسه إنما دعتهم إليه حاجة بعضهم إلى بعض ، وخدمة بعضهم لبعض . . وهذا ما يشير إليه قول الشاعر العربى .

الناس للناس من بدو ومن حَضَرٍ

بعضٌ لبعضٍ ــ وإن لم يشعروا ــ خَدَمُ

فلولا حاجة الناس بعضهم إلى بعض لَمَا اجتمع بعضهم إلى بعض .

ونرتّل قول الحق جلّ وعلا : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمّةً واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحِمَ ربك ولذلك خلَقهم » ـ فنجد أن هذا الاختلاف بين الناس ، هو حكم لازم لا انفكاك لهم منه ، إلاّ أن يخرجوا عن طبيعتهم البشرية ، ويتحولوا إلى عالم الحيوان .. هبوطاً ، أو عالم الملائكة .. صعوداً . . أما وهم فى عالم البشر فلن يكونوا إلا هذا الكوْن الذى هم فيه . . لكل إنسان مكانه فى الجسد الاجتماعى ، كما لكل عضو موضعه من جسد الكائن الحىّ .

— وفى قوله تعالى : « ولذلك خلقهم » تأكيد لهذا المعنى ، وتقرير له . . إذ كان هذا الاختلاف بينهم ليس أمراً طارئا عليهم ، وإنما هو سُنّة الخالق فيهم ، حكمته التى اقتضت أن تخالف بينهم ، ليكون فى هذا الاختلاف نظامُ حياتهم ، وانتظام معيشتهم !

* * *

الآيات : (١٢٠ ـ ١٢٣)

* « وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِى هٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » (١٢٣)

التفسير :

* قوله تعالى : « وكلاً نقص عليكَ من أنباء الرسل » الخطاب للنبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أى وكلّ هذا الذى نقصّ عليك من أنباء الرسل وأقوامهم ، إنما لتجد منه مايثبّت فؤادَك ، ويمُدّك باليقين والعزم ، حيث تجد إخوانك الرسل وقد استقبلهم أقوامهم بالسّفه ، ورموْهم بالأذى . . فإذا أنت أوذيت من قومك فقد أوذى الرسل قبلك من أقوامهم ! « ولقد كُذّبت رسلٌ من قبلك فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا حتّى أتاهم نَصْرُنا ولا مُبدّل لـكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين » (٣٤ : الأنعام) . .

* قوله تعالى : « وجاءك فى هذه الحق » . . الإشارة « هذه » إلى أنباء الرسل،أى وجاءك فى هذه الأنباء« الحقُّ »،أى الحق من أخبارها ، فهى الصدق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه : « وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين » أى وفيما جاءك من تلك الأنباء موعظة وذكرى للمؤمنين ، الذين يصدّقونك ، ويؤمنون بما نزل عليك . . فهم الذين يجدون العبرة والموعظة فى هذا القصص . أما الذين لا يؤمنون فإنهم يمرّون عليها وهم عنها معرضون . .

* قوله تعالى : « وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون * وانتظروا إنّا منتظرون » .

العطف هنا على المفهوم من قوله تعالى : « وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » أى إن المؤمنين سيجدون فى هذه الأنباء التى جاء بها القرآن عن الرسل وأقوامهم ـ ما يزيدهم إيمانا إلى إيمانٍ ، فقل للذين آمنوا استقيموا على طريقكم ، وأبشروا بالرحمة والرضوان من ربكم ، وقل للذين لا يؤمنون اعملوا مابدا لـكم أن تعملوه وأنتم على ما أنتم عليه من كفرٍ وضلال .

إنّا عاملون على ما نحن عليه من إيمان . . وانتظروا ثمرة ما تعملون ، إنا منتظرون ثمرة ما نعمل . . وسترون ما يطلع عليكم من أعمالكم من بلاء ووبال . .

* قوله تعالى : « ولله غيب السموات والأرض وإليه يُرْجَعُ الأمر كلّه فاعبده وتوكّلْ عليه وما ربّك بغافل عما تعملون » .

بهذه الآية الكريمة تختم السورة ، جاعلة لله سبحانه وتعالى وحده غيبَ ما فى السموات والأرض . . إذ قد استأثر - سبحانه - بعلم كل ما هو غائب عنّا . .

ومناسبة هذا الختام للسورة ، هى أنها اشتملت على كثير من أنباء الغيب التى ذُكرت فى قصص الأنبياء .. نوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وشعيب . . عليهم السلام . . وهى أنباء إن يكن عند أهل الكتاب بعض منها ، إلا أن كثيراً مما جاء به القرآن الكريم لم يكن عندهم به علم ، والذى كان لهم به علم ، هو خليط من الصدق والكذب ، ومزيج منْ الواقع والخيال . . أما الذى جاء به القرآن فهو الحقّ المطلق ، والصدق المصفّى . .

ثم إن هذا القصص كان غيباً بالنسبة للعرب ، والذى كان عندهم منه هو أوهام وظنون تلقوْها من أهل الكتاب شِبْهَ أحاجٍ بعيدة عن الحق ، وفى هذا يقول الله تعالى : فى هذه السورة : « تلك من أنباء الغيب نُوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » (الآية ٤٩ : هود) .

— قوله تعالى : « وإليه يرجعُ الأمر كلّه » أى إن مصائر الأمور كلها راجعة إليه سبحانه . . فهو - سبحانه - الذى يرسل الأمور ، فتجرى فى قدَرها المقدور لها ، ثم تستقرّ آخر الأمر عند الغاية التى أرادها الله لها . . فهو سبحانه

الذى يُجريها ، وهو سبحانه ، الذى يُرسيها . . « فاعبده وتوكلْ عليه » وإذ كان ذلك هو الله ربّ العالمين ، فهو المستحق وحده لأن يُعبد ، وأن يعتمد عليه ، وأن يُسْلِمَ المرء زمامَه إليه « فاعبده وتوكل عليه » . . فالعبادة هى الزاد الذى يتزود به الإنسان فى طريقه إلى ربّه . . فإذا عَبَده العابد ، وأخلص له العبادة ، قويت صلته به ، واطمأن قلبه إليه ، فتوكل عليه ، وأسلم إليه أمره . .

— « وما ربك بغافل عما تعملون » . . إنه رقيب على كل شىء ، عالم بكل شىء ، لا تخفى على الله خافية فى الأرض ولا فى السماء . . فهو ـ سبحانه ـ يُحصى علينا أعمالنا ، حَسَنها ، وسيئها ، ويحاسبنا عليها ، ويجزينا بالإحسان إحسانًا ، وبالسوء سوءًا . « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » . (٣١ : النجم)

وهكذا تبدأ السورة بتوجيه الخطاب إلى النبىّ الكريم ، وإلفاته إلى الكتاب ، الذى نزل إليه من ربّه : « الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير • ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير » ثم هى تنتهى بخطاب النبىّ أيضًا . . ودعوته إلى عبادة ربّه ، الذى أنزل عليه هذا الكتاب ، والتوكل عليه . . إذ هو أعرف الناس بربّه ، وأولاهم بعبادته والتوكل عليه . . وهو سبحانه رقيب على كل شىء ، عالم بكل شىء ـ يرى المحسنين والمسيئين ـ ويجزى كلاً بما كسب . . « وما ربك بغافلٍ عما تعملون »



١٢ - سورة يوسف

نزولها : نزلت بمكة ، فهى مكية — باتفاق .

عدد آياتها : مائة وإحدى عشرة آية . بلا خلاف

عدد كلماتها : ألف وسبعمائة وست وسبعون كلمة .

عدد حروفها : سبعة آلاف ومائة وستة وستون حرفا .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٦)

* « الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (٦)

التفسير :

* « الر تلك آيات الكتاب المبين » . .

بدأت هذه السورة بما بدأت به السورتان — يونس ، وهود — قبلها ، وكما بدأت به السورتان — إبراهيم والحجر بعدها .. لقد بدأت خمستها بهذه الأحرف الثلاثة : (ألف .. لام .. راء) . هكذا :

* « الر تلك آيات الكتاب الحكيم » .. (يونس)
* « الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .. (هود)
* « الر تلك آيات الكتاب المبين » . . (يوسف)
* « الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » (إبراهيم)
* « الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » .. (الحجر)

ويلاحظ :

أولا : ذِكر الكتاب ، أو آيات الكتاب بعد هذه الأحرف . . وهذا يشير إلى ما بين هذه الأحرف وهذا الكتاب ، وآيات الكتاب ، من صِلات .. وقد أشرنا إلى هذا فى أول سورة « هود » وقلنا : إن هذه الأحرف تشير إلى متشابه القرآن ، وأن أوائل السور التى من هذا القبيل هى الآيات المتشابهات التى أشار إليها قوله تعالى : « منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » وأن غيرها من آيات القرآن ؛ محكم ومفصل . .

وثانياً : أنه إذا ذُكر « الكتاب » لم يشر إليه ، وأنه إذا ذكرت « آيات الكتاب » أشير إليها بحرف الإشارة « تلك » :

وهذا يشير إلى أن القرآن الكريم نسجٌ واحدٌ ، وأنّه معجزة متحدّية ،

سواء باعتباره كلاً لايتجزأ ، بحيث يُنظر إليه من المبدأ إلى الختام ، نظرة يلتقى فيها متشابهه مع محكمه ، ومجمله مع مفصله ، وقصصه مع أحكامه وآدابه .. أو باعتباره آياتٍ تَعرِضُ أحداثاً ومواقف ، وتحدث عن أدلة وشواهد ، وتكشف عن أسرار ومغيبات ..

وثالثاً : فى ذكر الكتاب ، والتزام هذا الذكر بعد تلك الأحرف ، تحريض على العلم ، ودعوة إلى التعلم ، وأن من شأن من يتعامل مع القرآن الكريم أن يكون من أهل العلم ، الذى مارس الكتابة ، ودرس الكتب .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالِمون » (٤٣ : العنكبوت) .

ولا شك أن هذه اللفتة من القرآن الكريم ، إلى قوم أميين ، وأمة أمّية ، تحمل فى طياتها دعوةً إلى هؤلاء الأميين أن يخرجوا من تلك الأمية ، وأن ينزعوا عنهم لباس الجهل والجاهلية ، وأن يأخذوا بأسباب الحضارة التى لا تقوم إلا على ركائز العلم والمعرفة ! ولعلّ فى عرض هذه الأحرف المتقطعة : ألف .. لام .. راء .. وغيرها من الحروف التى بدأت بها بعض السور — لعلّ فى هذا أولَ درس عملىّ يقدمه القرآن ، ويفتح به الطريق إلى تعليم الكتابة والقراءة ، إذ كانت تلك الأحرف هى أولَ ما عرف العربىُّ الأمىّ من أجزاء الكلمة ، وعرف منها أن الكلمات التى ينطق بها ليست مركّبات مصمتة ، وإنما هى قوالب ، يتشكل من كل مجموعة منها بناء ، هو الكلمة ، كما يتشكل من الكلمات نظام ، يتألف منه الكلام ، الذى يتعامل به الناس فى لغة التخاطب ، وفى نظم القصيد ، أو إنشاء الخطبة .. فكما يتعلم المبتدىء القراءة والكتابة بتعلم الحروف الهجائية التى تُبنى منها الكلمات ، كذلك يتعلم العرب الأميون من هذه الأحرف المقطعة كيف

يشكّلون من هذه الأحرف الـكلمات التى ينطقونها ، ويصورون منها صوراً تُـكتب وتقرأ .

* « آلر تلك آيات الـكتاب المبين » . .

فى وصف الـكتاب هنا بأنه مبين ، توكيد لوصفه بأنه « حكيم » وبأنه « كتاب أحكمت آياته » . إذ أن الحـكمة لا تـكون حكمة ، والحـكيم لاتتم حكمته ، حتى تخرج تلك الحـكمة على صورة واضحة مشرقة ، يرى الناس على وجهها أضواء المعرفة ، وإلا كانت حكمة مضمرة ، لا يُنتفع بها ، أشبه باللآلىء فى أصدافها ، أو فى أغوار الماء الغالبين ، مبين وحكيم معاً .

* « إنَّا أنزلناه قُرْآناً عَرَبيًّا لعلـكم تعقلون » .

ومن بيان القرآن ، الذى يكشف عن الحـكمة المشتمل عليها ، أنه جاء إلى مَن يخاطبهم باللسان الذى يُحسنون التفاهم به ، وهو اللسان العربى . . ولو جاءهم بغير هذا اللسان ، لما عَقَلوا منه شيئاً ، ولما انتفعوا به ، ولأفلت من أيديهم كلُّ ما اشتمل عليه من حكمة . .

وإنه ليس بالحـكيم من يخاطب النّاس بالأسلوب الذى لايفهمونه ، وباللغة التى لايحسنون الفهم عنها . . إنه حينئذ لايجد أذنا تصغى إليه ، ولا قلباً ينفتح له ، ولا عقلاً يتجاوب معه . . إنه يكون فى وادٍ والناس فى وادٍ ، إذ يحدثهم بأصوات لامفهوم لها عندهم .

ولهذا ، فقد كان من مقتضيات البلاغة ، ومن بلاغة البليغ مراعاةُ مقتضَى الحال ، فلـكل مقام مقال ـ كما يقولون ، فلا يخاطَب الجاهلُ خطابَ العالم ، ولا العالم خطاب الجاهل ، ولا البدوىّ بمفاهيم الحضرىّ ، ولا الحضرىّ بمفاهيم البدوىّ . . وإلا فقدت اللغة قيمتها ، وضاعت معالمها ، وأصبحت أشبه بالنقد الزائف ، الذى ينـكره الناس ، ولا يتعاملون به .

وفى الحديث الشريف كما روى البخارى : « كلّموا الناس بما يَعْرفون ودعوا ما ينكرون . أتريدون أن يكذّب الله ورسوله ؟ » .

والمراد بمخاطبة الناس بما يعرفون، أى بما تبلغه مدركاتهم ، ويقع منها موقع الفهم .. والمراد بتكذيب الله ، هو اختلاط الأمر على الناس ، حين يتحدث إليهم علماؤهم أحاديث لا يفهمونها على وجهها الصحيح ، فيتلقون منهم وجوهاً من الكلام ، فيتصورونها تصوراً خاطئاً ، وإذا كل وجه يبدو لهم منها ينكر وجهَ صاحبه ، فيقع التضارب والاختلاف ، وتنشأ من هذا مفاهيمُ خاطئة ، يناقض بعضها بعضاً ، وكلها تحدث عن الله ، فيقع لذلك الشك ، والارتياب ثم التكذيب ، والكفر ! !

ومن تمام البيان فى الرسالة الإسلامية أنْ صرف الله الرسول عن قول الشعر وعن أن يكون شاعراً .. فقال تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » (٦٩ : يس) وذلك أن الشعر يحمل فى أسلوبه مضامين كثيرة ، لما يعتمد عليه من تصورات وتخيلات ، ولِما يقوم عليه نظمه من صور الكنايات والرمز ، والإيماء ، وغير ذلك،مما تتولد من الصورة الواحدة منه .. صور . .الأمر الذى لا يستقيم مع رسالة سماوية ، غايتها إقامة الناس على طريق واحدٍ مستقيم لاعوج فيه ، ولا خلاف عليه .. وهذا ما يشير إليه ويؤكده قوله تعالى فى التعقيب على قوله سبحانه : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » .. إذ يقول جل شأنه : « إنْ هو إلا ذكر وقرآن مبين » أى إن هذا القرآن ذكر ، ومن شأن الذكر أن يَلْقَى العقل لقاء صريحاً واضحاً ، حتى يأخذ عنه العبرة والموعظة ، صريحة واضحة ... وهذا القرآن هو قرآن مبين .. أى واضح البيان لا لبس فيه ولا خفاء .

* « نحن نقص عليك أحسنَ القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » .

الضمير « نحن » هو لله سبحانه وتعالى .. وفيه استدعاء للرسول ، ومداناة له من ربّه ، وتكريم لذاته بهذا الحديث الذى يتلقاه من ربه من غير واسطة .. « نحن نقص عليك » .. وهذا على خلاف لو جاء النظم هكذا : « الله يقص عليك » ..

والقصّ تتبع الأثر ، والتعرف على صاحبه . وقصّ الأخبار ، تتبعها والكشف عنها ..

وأحسن القصص ، أصدقه حديثاً ، وأشرفه غاية ، وأكرمه مقصداً ، وأقومه طريقاً ..

ولا نذهب مذهب القائلين بأن التفضيل هنا على غير حقيقته ، بمعنى أنه ليس هناك مفضلٌ ومفضلٌ عليه ، باعتبار أنْ لا حُسْنَ فى قصص غير قصص القرآن ، وأن القصص القرآنى هو الحسن ، وهو الأحسن . . بل نقول إن التفضيل على حقيقته ..

ونقول : إن القصص القرآنى وإن كان الغاية فى الحسن والكمال ، فإن ذلك لا يمنع أن يكون فى القصص غير القرآنى ، مما ألّفه المؤلفون ، وقصّه القاصّون ، سواء ما كان من نسيج الواقع ، أو من شِباك الخيال ، وسواء ما كان على ألسنة الناس أم على ألسنة البهائم والطير ــ إن ذلك لا يمنع أن يكون فى هذا القصص ما هو حسن يُتأدب به ، وتؤخذ منه العبرة والموعظة . . وليس ذلك بالذى يُنزل من قَدْر القصص القرآنى ، أو يزحمه فى منزلته العالية التى انفرد بها ، بل إن ذلك من شأنه أن يكشف عن جوهر القصص القرآنى ، ويُبين عن شرفه وعلوّ منزلته ، حين يُوزن بميزان الحسن ، ويوضع فى الكِفّة المقابلة للقصص القرآنى ، فيرجح القرآنُ كلّ ما عُرف من قصص حسن ، والشأن فى هذا ، شأن البيان القرآنى كلّه ، مع البلاغة العربية وبيانها . . فإن

اللغة العربية ببيانها المبين ، وببلاغتها البالغة غايةَ الحسن والروعة ، هى التى كشفت عن إعجاز القرآن ، وألقت بيديها مُستسلمة بين يدى بيانه وبلاغته ! ..

إن فضل الشيء ، وعِظَم قدره ، إنما يتُبيّن بالقياس إلى الشيء الذى فُضِّل عليه .. فالناس ينظرون إلى قيمة الفاضل من خلال نظرتهم إلى قدر المفضول .

ألم ترَ أن السيف يُزرى بقـــــدره
إذا قيل هذا السيفُ خيرٌ من العصا ؟

إنه لا يشهد لبطولة البطل إلا من كان يلبس ثوبَ البطولة ، بحيث يرى الناسُ من مواقفه فى ميادينها أنه بطل مشهود له ، فإذا صرعه بطل آخر ، كان ذلك شهادةً لهذا البطل أنه بطل الميدان ، وفارس المعركة . . !

– وفى قوله تعالى : « بما أوحينا إليك هذا القرآن » – إشارة إلى ما اشتمل عليه القرآن الكريم من قصص ، وأنه مع نزول القرآن الكريم على النبىّ الكريم ، نزل هذا القصص ، الذى كان بعضاً منه ، ومعجزة من إعجازه ، ودرساً من دروسه .. فالباء فى قوله تعالى : « بما » تفيد التبعيض .

– وقوله تعالى : « وإن كنت من قبله لمن الغافلين » .. المراد بالغفلة هنا عدم الالتفات إلى الشيء والاهتمام له ، إذ لم يكن من النبى قبل نزول القرآن عليه ، التفات إلى هذا القصص أو اشتغال به .

* قوله تعالى : « إذ قال يوسف لأبيه يا أبتِ إنى رأيتُ أحد عشر كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتهم لى ساجدين »

« إذ » ظرف متعلق بقوله تعالى « نقصّ عليك »

وفى تعلّق الظرف إذ بالفعل « نقصّ » إشارة إلى أن هذا القصص ليس على شاكلة مايَروِى القُصّاص من أخبار الماضين ، فهم يتبعون آثارها ، إذ لم

يكونوا من شهودها . . أما هـذا القصص ، فهو من شهود علم الله ، ماضياً ، وحاضراً ، ومستقبلا . . وإنما سُمّى قصصاً بالنسبة لمن يتلقونه ، بعـد أن مضى الزمن به .

— وقوله : « إنى رأيتُ » أى رؤيا فى المنام . . أى أن يوسف ـ عليه السلام ـ رأى فى منامه أحد عشر كوكباً والشمس والقمر . . رآهم جميعاً ساجدين له .

ولم يكشف يعقوب ليوسف ـ عليهما السلام ـ عن تأويل هذه الرؤيا ، بل أراه منها أنها تنبىء عن خير عظيم يناله ، ومنزلة عالية يبلغها . . وذلك فى قوله :

* « قال يا بُنىَّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيـكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين » لقد نهاه عن أن يتحدث بهذه الرؤيا إلى إخوته ، فإنها توحى إليهم بأنه سيكون له من إخوته الأحد عشر ، ما كان من تلك الـكواكب فى موقفها منه ، ساجدةً له ، متخاضعة بين يديه . . وذلك من شأنه أن يبعث الحسد والغيرة فى نفوسهم منه ، ويفتح للشيطان طريقاً للدخول بينه وبينهم ، فيغريهم به ، ويسلطهم عليه . .

أما تأويل هذه الرؤيا ، فقد وقع بعد ذلك بزمن بعيد ، طُويت فى أثنائه أحـداث كثيرة ، وقعت ليوسف ، حتى استقر به المقام فى مصر ، وأصبح متصرفاً فى شئونها المالية ، ثم جاء إليه أبوه ، وأمه ، وإخوته الأحـد عشر ، ودخلوا عليه الباب ساجدين . . وفى هـذا يقول الله تعالى فى آخر السورة : « ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سُجّداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبلُ قد جعلها ربّى حقًّا وقد أحسنَ بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نَزَغَ الشيطانُ بينى وبين إخوتى » (الآية : ١٠٠) .

وفى الحديث عن الـكواكب والشمس والقمر بضمير العقلاء « رأيتهم لى ساجدين » إشارة إلى إحساسه بها وهو يراها فى منامه ، إذ كانت تتصرف

تصرف العقلاء فتسجد له ، وتُظهر له الولاء والتعظيم ، وهذا لا يكون إلا من فعل العقلاء !. إنها تلبس صورة أبويه وإخوته ..فهى بشر فى صورة كواكب!

* قوله تعالى : « وكذلك يَجتبيك ربُّك ويُعلِّمك من تأويل الأحاديث ويُتِمُّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمَّها على أبويك من قبلُ إبراهيمَ وإسحقَ إن ربك عليم حكيم » .. هو من تمام كلام يعقوب فى تأويل رؤيا يوسف، أى كما بدأ الله بلطفه بك ، وتكريمه إياك صغيراً ، فإنه سيتولاك برعايته ، ويُفيض عليك من نِعمه كبيراً ، فيجتبيك ، أى يختارك ويصطفيك للرسالة والنبوّة ، « ويعلمك من تأويل الأحاديث » أى يكشف لبصيرتك خفايا الأمور وعواقبها فيما تشتمل عليه الأحاديث المتشابهة ، وهى التى لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون فى العلم ، كالرؤى المناميّة ونحوها .. وقد بينا ذلك فى تفسير الآية الكريمة : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأخر متشابهات . . فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابهَ منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم » (٧ : آل عمران)

وقد جاء فى السورة حدَثان ، كشف فيهما يوسف عن المضمون الذى اختفى وراء الصورة التى جاءا عليها فى الرؤيا المنامية ، كما سنرى ذلك بعد ، فى رؤيا صاحبيه فى السجن ، وفى رؤيا فرعون .

ـ وفى قوله تعالى : « ويُتِمُّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمَّها على أبويك من قبل إبراهيمَ وإسحقَ » إشارة إلى أنه سبحانه سيختاره للنبوة ، وهذا هو تمام النعمة ، وكمالها لمن أنعم الله عليهم من عباده ، وكذلك سيكون إخوته « آل يعقوب » أنبياء ، كما كان أبواهم إبراهيم وإسحق نبيّين . . !

— « إن ربك عليمٌ حكيمٌ » أى بعلمه سبحانه يعلم أولياءه المستحقين لاصطفائه ، كما يقول سبحانه : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » (١٢٤ : الأنعام)

وبحكمته، تنفذ مشيئته، فيما قضى به علمه.. فيدبّر الأسباب، الموصلة للمقدور الذى قدّره «إن ربى لطيفٌ لما يشاء..إنه هو العليم الحكيم» (١٠٠ : يوسف)

الآيات : (٧ — ١٤)

* « لَقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ » (١٤)

التفسير :

* قوله تعالى : « لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين »

السائلون : هم الذين سألوا النبى صلوات الله وسلامه عليه، عما وقع بين يوسف وإخوته من أحداث، وهؤلاء السائلون إما أن يكونوا اليهودَ، أو أهلَ مكة، بإيعاز من اليهود.. ويجوز أن يكون السائلون هم الذين يطلبون العلم بأخبار الماضين ويبحثون عنها.. فهم يسألون أبداً من يجدون عنده علماً بها..

والمعنى : لقد كان فيما وقع من أحداث بين يوسف وإخوته آيات لمن

سألوا عن أخبارهم .. إما سؤالَ امتحانٍ للنبىّ ، وتحدٍّ له ..

وإما سؤالَ تعلّم واستزادة من معرفة ، وها هوذا القرآن قد جاء بالحق لمن يطلب العلم ويرتاد المعرفة .. أما من أراد الامتحان والتحدى فلن تزيده هذه الآيات إلا ضلالا ، وإلا عمًى إلى عمًى ..

والسؤال هنا : كيف يجىء القرآن الكريم بهذا الحكم : « لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين » ، ولم يكن قد ذَكَر شيئاً عن يوسف وإخوته ؟ أليس من المنطق أن يكون هذا الحكم فى أعقاب القصّة ؟

ونعم إنه المنطق .. ولكنه منطق البشر ، الذين لا يَحكمون على أفعالهم إلا بعد أن ينكشف لهم وجهها ، وتأخذ مكانها فى واقع الحياة بينهم .. أما الله سبحانه وتعالى ، فعلمه محيط بكل شىء ، فما لم يقع منه فى نظرنا ، هو واقعٌ فى علم الله ، وما سيقع بعد آلاف السنين وملايينها هو واقع فى هذا العلم الشامل الكامل ..

فقصّة يوسف قبل أن يَعرضها القرآن الكريم ، هى واقعة فى علم الله الأزلىّ على الصورة التى ذكرها القرآن ، فكان حكمه عليها حكماً على أمرٍ واقع ! .
وهذه شهادة من شهادات كثيرة ، تشهد بأن مُنَزِّلَ القرآنِ هو عالم الغيب والشهادة ، وأنه ما كان لبشر أن يجد الشعور الذى يُملى عليه هذا الحكم ، الذى يسبق الحدث قبل أن يُحدَّث به ، ويستوفى عَرْضه ، ويضبط آثاره فى الناس ! ..

* قوله تعالى : « إذ قالوا لَيوسفُ وأخوه أحبّ إلى أبينا منّا ونحن عصبة إن أبانَا لفى ضلال مبين » .

« إذ » ظرف ، يتعلق بالفعل « كان » فى قوله تعالى : « لقد كان فى

يوسف وإخوته آيات للسائلين » أى أن هذا الظرف من حياتهم يحوى آياتٍ وعظاتٍ . . وهو ظرف يبدأ من قولهم لأبيهم : « يا أبانا مالك لا تأمنّا على يوسف » ثم يستمر إلى أن تنتهى القصّة . .

وتبدأ القصة ، بهذا الحديث الذى يُديرونه بينهم ، ويأخذون فيه على أبيهم أنه يؤثر عليهم « يوسف » ويختصّه بالمزيد من عطفه وحبّه ، هو وأخوه الشقيق له . . فقد كان يوسف وأخ له من أمّ ، وكان الإخوة العشرة الآخرون من أمّ . ! فكيف يستأثر هذان الأخوان بحبّ أبيهم دونهم ، وهم عصبة ، أى جماعة كبيرة ، لها شأنها واعتبارها ؟ وكيف يفضّل الأب الاثنين على العشرة ؟ إن ذلك أمر غير مستساغ ، وتقدير غير سليم ! وبخاصة فى بيئة بدوية تعتز بكثرة العدد ، وتأخذ مكانها فى مجتمعنا ، بما لها من رجال أكثر مما لها من أموال . . هكذا بدا لهم الأمر خارجاً على غير مألوف الحياة عندهم ، فكان منهم هذا الموقف ، الذى انتهى بهم إلى أن يقولوا فى أبيهم : « إن أبانا لفى ضلال مبين » أى إنّه قد انحرف برأيه فى أبنائه وفى موقفه منهم ، عن سواء السبيل ، فضلّ ضلالاً مبيناً . .

* « اقتلوا يوسُفَ أو اطرحوه أرضاً يخْلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين » .

وقد امتدّ بهم هذا الحديث الذى أداروه بينهم ، عن يوسف وأخيه ، وإيثار أبيهما لهما بحبّه ورعايته ، حتى انتهى بهم ذلك إلى القول بقتل يوسف ، أو إلقائه فى أرض بعيدة عنهم ، والتطويح به فى مَجْهل من مجاهلها ، حتى يغيب عن وجه أبيه ، فلا يراه أبداً ، وبهذا يخلو لهم وجه أبيهم ، أى يخلص لهم وجهه ، فلا يلتفت إلى غيرهم ، وهذا كناية عن تعلّق أبيهم بهم ، حيث لا يصرفه

صارف عنهم ، وقد كان من قبل متجهاً بكيانه كلّه إلى يوسف وأخيه . .

— وفى قولهم : « وتـكونوا من بعده قوماً صالحين » إشارة إلى استقرار أمرهم مع أبيهم ، وسكون العواصف التى يثيرها بينهم وبينه هذا الإيثار الذى يختصّ به ولديه الصغيرين هذين

وبهذا ينصلح شأن تلك الأسرة التى تـكاد تقوّض أركانُها بهذا الوضع القائم فيها . . هكذا فـكّروا وقدّروا !!

* « قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف وألقوه فى غَيَابة الجبّ يلتقطْه بعض السّيّارة إن كنتم فاعلين » .

وهذا رأى رآه أحدهم فى هذا الأمر الذى دبّروه ، وهو ألاّ يقتلوا « يوسف » بل يكتفوا بإبعاده عن أبيهم . وأن يُلقوه أرضاً ، ويطوّحوا به بعيداً عنه . . وذلك بأن يلقوه فى غيابة الجبّ ، فيلتقطه بعض المسافرين ، الذين يمرّون بهذا الجبّ ليستقوا من مائه ، ثم يحملونه معهم إلى البلد الذى هم ذاهبون إليه . .

والجبّ : البئر الواسعة الفوّهة القليلة الغوْر . . والسيارة : الجماعة المسافرون ، وسُمّوا سيّـارة لأن دأبهم السير ، والانتقال من مكان إلى مكان .

* قوله تعالى : « قالوا يا أبانا مالك لاتأمنّا على يوسف » استفهام إنكارى، يدل على أنه قد كانت بينهم وبين أبيهم مواقف من قبل هذا الموقف ، طلبوا إليه فيها أن يصحبوا معهم يوسف إلى حيث يَسْرحون بأغنامهم ، فأبَى عليهم ذلك ، متعلّلا بالخوف عليه من أن يصيبه مكروه . .

* وفى قولهم : « وإنّا له لناصحون » تأكيد لإنكارهم على أبيهم هذا الموقف . . فهو لا يأمنهم عليه ، حتى لكأنه يتهمهم بتدبير الشرّ له ، والعدوان عليه ، إذا هم انفردوا به . . وهم ينكرون عليه هذا ، ويدفعون عن أنفسهم تلك التهمة بالإنكار على أبيهم أن يكونوا متهمين عنده فى مشاعرهم نحو أخيهم . . وكيف ، وهم له ناصحون ؟ أى مرشدون ، يرعَوْنه ، وينصحون له ، إذ كان صغيراً ، يحتاج إلى من يُرشد وينصح ؟

* « أرْسِله معنا غداً يرتعْ ويلعبْ وإنا له لحافظون » .

وهكذا يجىء طلبهم الذى أرادوه من أبيهم ، بعد هذا الإنكار الذى واجهوه به ، وبعد هذا العتاب الذى عتبوه عليه ـ يجىء طلبهم هذا مباشرة ، دون أن يَدَعُوا لأبيهم فرصةً للرد عليهم وتوضيح الأمر لهم ، بتقدير أن الأمر واضح ، وأن ليس لأبيهم عذر يعتذر به إليهم ، وأنه ليس بمقبول عندهم أى عذر منه فى اتهامهم بأخيهم ، وعدم النصح له منهم ، وإنه لا يَرُدّ إليهم اعتبارَهم ، ولا يدفع هذه التهمة عنهم إلا بأن يرسله معهم : « أرسلْه معنا غداً » أى فى غير تردد أو انتظار . . فذلك هو الذى يقطعُ الشك عندهم فى اتهام أبيهم لهم !! وإلا فهو الاتهام ، والشك المريب !!

وهذا مالايرضونه من أبيهم ، ولايقبلونه لأنفسهم !!

— وفى قولهم : « يرتع ويلعب وإنا له لحافظون » إغراء لأبيهم على هذا الأمر الذى أرادوه عليه ، وجذبٌ له إلى تلك المصيدة التى نصبوها له ! فهو بإجابتهم إلى هذا الطلب يحقق أمرين : أولا : ردّ اعتبارهم عنده ، بدفع الشكوك التى ساورتهم من جهة اتهامه إياهم فى نصحهم لأخيهم ، وسلامة قلوبهم له . . وثانياً : إتاحة الفرصة ليوسف ، ليأخذ حظه مما يأخذه الصبيان

أمثاله ، من الانطلاق إلى الخلاء ، لاهياً ، لاعباً . . فى رعايةِ مَن يحفظه ، ويدفع عنه كل مكروه .

يقال : رَتَعَت الماشية ، أى رعت فى مرعًى خصيب ، والمرتع : المرعى الخصيب . .

وقرىء : « يرتعى » من الرَّعْى . . أى يَرْعَى معنا ، ويلعب .

* « قال إنِّى ليَحزُنُنى أن تذهبوا به وأخافُ أن يَأْكُلَهُ الذِّئب وأنتم عنه غافلون » .

لقد سلّم لهم أبوهم بما طلبوه ، ولـكنه أظهر لهم بعض مخاوفه ، إذا هو أجابهم إلى ماطلبوا . . فهو يحزن لبعد يوسف عنه ، ولو ليوم أو بعضِ يوم . . إذ كان سَلْوتَه ، وأُنْسَه . . ثم هو يخشى أن يصيبه مكروه إذا هم غفلوا عنه ، فيعدو عليه ذئب من تلك الذئاب المتربّصة لصيدٍ تناله من إنسان أو حيوان فى هذه الفلاة التى يرعون فيها ! .

وقد أخذ أبناء يعقوب من ردّ أبيهم حجّتهم عليه ، فيما فعلوا بيوسف :

فأولا : فى قوله : « إنى ليحزننى أن تذهبوا به » .. كشف لهم أبوهم عن حبّه ليوسف وتعلقه به ، فزاد ذلك من موجِدَتِهم عليه ، ومن حسدهم ليوسف ، وشدّ عزمهم على ما بيّتوه له من شر !

وثانياً : فى قوله : « وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » قد وضَعَ بين أيديهم السلاح الذى يستعملونه فى تنفيذ أمرهم الذى دبّروه ، وليـكون لهم منه ما يُصدِّق ظنون أبيهم ومخاوفه فيما ظنّه وتخوّفه . . فكانت قصّة الذئب التى جاءوا أباهم بها ، هى من وحى هذه الظنون وتلك المخاوف التى أعلنها أبوهم لهم .

* « قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون » .

إنهم التقطوا من أبيهم كلمة « الذئب » وجعلوها العدوّ المتربص بهم ، وأنهم سيأخذون حِذْرهم منه ، وهم عشرة رجال ، وإنه لن يستطيع أن ينال شيئاً منهم . .

وإنهم فى تلك اللحظة ليتمثل لهم الذئب الذى سيقودونه إلى أبيهم متهماً بأكل يوسف : « لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذًا لخاسرون » . . هكذا يقولونها « أكله الذئب » ولايقولون : اقترب منه ، أو جرحه ! بل يجعلون « يوسف » طعاماً مأكولا للذئب قبل أن ينتزعوه من بين يدى أبيهم !!

ومن جهة أخرى فإنهم لم يردّوا على قول أبيهم : « إنى ليحزننى أن تذهبوا به » . . فذلك مما لايحبون سماعه من أبيهم ، ولا يريدون أن يجعلوه حديثاً معاداً ، يتأكد به ما ليوسف فى قلب أبيه من حب خاص ، فوق حب الوالد لولده !

الآيات : (١٥ — ٢٣)

* « فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ

عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » (٢٢)

التفسير :

* قوله تعالى : « فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجبّ ».

جواب لمّا محذوف دلّ عليه المعطوف عليه بعده ، وهو قوله تعالى : « وأوحينآ إليه لتنبئنّهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون » .

والمعنى : أنهم حين انطلقوا بيوسف بعد أن أخذوه من أبيهم ، وأجمعوا رأيهم على أن يضعوه فى الجبّ ، وأن يتركوه لمصيره ، كانت عناية الله معه ، فحفظه الله من الشرّ الذى دفعوا به إليـه .. ثم صحبته عناية الله وحفّت به ألطافه .. وأوحى الله سبحانه وتعالى إليه أنه سيلتقى بإخوته يوماً ، وأنه سيخبرهم بهذا الذى كان منهم دون أن يعرفوه .. وهذا ماتحقق حين ملك يوسف أمر مصر ، وجاءه إخوته يمتارون من خيرات مصر ، حين حلّ الجدب بأرضهم ، كما سيجىء ذلك فى ختام هذه القصة .

* « وجاءوا أباهم عشآء يبكون * قالوا يآ أبانا إنّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسُفَ عند متاعنا فأكَلهُ الذئبُ ومآ أنتَ بمؤمنٍ لنَا ولو كنّا صادقين » .

وهكذا الباطل يفضح نفسه ، ويُخزى أهله .. !

— « وجاءوا أباهم عشاء يبكون » وتلك أول أمارة من أمارات الكذب الذى جاءوا به .. إنهم جاءوا ملففين فى ظلام الليل ، خوفاً من أن يفضحهم ضوء النهار ، ويمزق هذا القناع الزائف المموه بتلك الدموع الكاذبة ، التى بللوا بها خدودهم .

إن العين إذا التقت بالعين كشفت عن كثير من خفايا النفس ، وقرأت مالا يصرح به اللسان ، ولا تبوح به الكلمات .. ولهذا يجرؤ الإنسان على أن يقول فى الظلام ، مالم يكن يقوله فى النور ، حين تلتقى العين بالعين !!

إنه يخبط خبط عشواء ، ويرمى بالكلام فى غير مبالاة ! إن العين هى حاسة الحياء ، وموطن الاستحياء .. ولا ينكشف ذلك لها إلا وهى مبصرة .. ولهذا ، فإن أصحاب الحياء يضعون أيديهم على أعينهم ، حين يرون مايُستحيا منه ، أو ينطقون بكلمة تخدش الحياء ..

ثم كان البكاء فضيحة أخرى لهم .. إنه تباكٍ وليس بكاء .. إنه أصوات ليس فيها حرقة الكبد ، وزفرة الصدر الكليم ! والاذن قادرة على أن تميز التباكى من البكاء ، وتفرق بينهما ! وقد عرف يعقوب هذه القصة الملفقة من أول لقاء ببنيه ، ولأول كلمة سمعها منهم !

— وفى قولهم : « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنّا صادقين » فضيحة ثالثة ، تفضح هذا الباطل ، وتكشف عن هذا الزور .. إنهم يتهمون أباهم — مقدَّماً — بأنه لن يقبل شهادتهم تلك ، لأنهم هم — فى الواقع — لايقبلونها فيما بينهم وبين أنفسهم .. ولو أنهم كانوا صادقين حقًّا لما وقع فى تصورهم هذا ، ولما توقعوه قبل أن يقع .. إنهم اتهموا أنفسهم بقولهم : « وما أنت بمؤمن لنـــا ولو كنا صادقين » .. اتهموها قبل أن يتهمهم أبوهم .. وهكذا شأن كل متهم .. إنه يتهم

نفسه قبل أن يتهمه أحد .. فهو يطوف دائماً حول جريمته إن لم يكن بجسده ، فبمشاعره ، وهمس خواطره .

* « وجآءوا على قميصه بدمٍ كذبٍ قال بل سوّلتْ لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ والله المستعان على ماتصفون » .

والدم الذى جاءوا به ، هو دليل رابع على أن القصة ملفّقة .. فماذا يحملهم على حمل هذا الدم إلى أبيهم . ؟ أليسوا هم أولياء هذا الدم وأهلَه ؟ وهل يجد ولىّ الدم قدرةً من نفسه على حمل إصبع ، أو عين ، أو رأس ، من ابنه أو أخيه المقتول ، ثم يطوف بها ، ويقلبها بين يديه ، ويعرضها على الأنظار ؟ ذلك مالا يكون ، لو أن الذئب كان حقًّا هو الذى عَدَا على يوسف وأكله !

وإذا كان لابد من مجىء شاهد من هذا القتيل ، فإن الدم لايقوم شاهداً أبداً ، إذ ما أيسر أن يحصل الإنسان على الدم الذى يريد..من إنسان، أو حيوان بل ومن نفسه أيضاً .. فليكن الشاهد إذن ، رأسَه ، أو رجله ، أو يده .. إذ من غير المعقول أن يأتى الذئب على كل أجزاء ضحيته .. وخاصة إذا كان غلاماً فى سن يوسف ، الذى قيل إنه كان فى العاشرة أو أكثر من عمره !

ويقرر علم الإجرام ، أن المجرم ، مهما كان ذكياً حَذِراً ، لابد من أن يترك أثراً يدل عليه ، وأن يقع فى تدبيره خلل ما ، يكون مفتاحاً للكشف عنه !

قيل إن القميص الذى جاءوا به ملطخاً بالدم ، كان سليما لم يمسّه الذئب المزعوم ، بظفر أو ناب !! قالوا : ولهذا عجب يعقوب من هذا ، وقال متهكما : « تا الله مارأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا .. أَكَلَ ابنى ولم يمزّق قميصه !!؟

— وفى قوله تعالى : « بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً » إتهام صريح من يعقوب لبنيه ، وأن ذلك الأمر الذى فعلوه إنما هو مما سوّلته لهم أنفسهم ، أى زينته لهم ، وأغرتهم به .. ولكنه لايملك شيئاً يفعله إزاء هذه المحنة ، إلا الصبر :

« فصبرٌ جميلٌ » .. فذلك هو عزاؤه عن مصابه فى ابنه ، وفى بنيه أيضاً ! « والله المستعان على ما تصفون » .. أى إنه سبحانه وتعالى هو الذى يُمدّه بالعون على احتمال ما حملت إليه هذه القصة الملفقة من أنباء تصف هذه الفاجعة ، وتصور تلك المأساة .

* « وجاءت سيّارةٌ فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسرّوه بضاعةً والله عليم بما يعملون » .

وتُطوى الأحداث على عجل ، وينتقل المشهد فى سرعة خاطفة ، إلى حيث يوسف فى الجبّ ، يعانى مايعانى من وحشة ، وخوف ، وجوع . . !

وهنا تلوح « سيّارة » أى جماعة من المسافرين ، يمرّون بالجبّ ويحطّون رحالهم على مقربة منه ، ليستقوا ، ولتستقى دوابّهم ، ثم ليتزودوا بما يقدرون على حمله من الماء ..

— « وجاءتْ سيّارة » .. هكذا جاءت السيارة كما قدّر أبناء يعقوب .. لأن الجبّ على طريق يصل بين الشام ومصر ، ويكثر عليه مرور القوافل المسافرة .. وفى مجيئها تباطؤ وثقل .. إنها على طريق طويل ، قد كلّت ، وأعياها السير ! نجد ذلك فى الفعل « وجاءت سيارة » .. فى واو العطف ، والتقائه بحرف الجيم الممدودة هذا اللقاء المتثاقل المتمطّى ، وفى مدّة الجيم ، كما يقتضيها الترتيل القرآنى ـ فى ذلك كلّه ، مايوحى بأن القافلة فى غفلة تامة عن هذا الإنسان الذى فى الجبّ ، يعالج سكرات الموت ، وهى التى يسوقها القَدَر إليه ، لتنقذه ، ولتمسك عليه حياته .. وهنا يبلغ المشهد حدّاً بالغاً من التأزّم ، تُبْهر معه الأنفاس ، وتضطرب القلوب ، وتذهب النفوس عن الحاضر الذى تعيش فيه ، لتقف وراء هذه القافلة تستحثّها ، وتصرخ فيها ، لتدرك هذا الذى احتواه الجبّ ، واشتمل عليه الهلاك ! !

وحطّت ـ القافلة ـ رحالها ـ بعد لأيٍ ـ على مقربة من الجب ، وجعلت تعالج فى تثاقل أمتعتها ، وتسوى رحالها ، وتهيىء لها منزلا آمناً تجد فيه الراحة فى ظله ..

— « فأرسلوا واردَهم » ليرِدَ الماء ، وليستقى لهم منه .. والوارد ، هو الذى يرد الماء .

— « قال يابشرى هذا غلام » .. لقد جاء الدلو الذى أدلاه فى الجبّ بما لم يكن يتوقع أبداً .. جاءه بالغلام الذى كان ملقًى فيه ..

وفى كلمات قليلة موحية معجزة ، تُطوى الأحداث طياً ، فلا تُعرض منها إلا تلك الشواهد التى تقوم منها معالم مضيئة ، تتحرك بها أحداث القصة إلى نهايتها ..

— « وأسرّوه بضاعة » أى أخفوه فى أمتعتهم ، وجعلوه بضاعة من بضاعتهم ، يبيعونه فيما يبيعون من بضائع .. هكذا كان حكم من يقع من الآدميين حينئذ ، فى يد من يظفرون به فى حرب أو سلم ! .

— وفى قوله تعالى : « والله عليم بما يعملون » .. إشارة إلى أن هذا الذى يعملونه هو ما يقع فى علمه سبحانه وتعالى ، وأنه — جل شأنه — غير غافل عما يحدث ليوسف ، وفى هذا تطمين لتلك النفوس المشفقة على هذا الغلام ، والتى لم تشهد عن بُعد ما يكون من صنع الله به ..

* « وشرَوْه بثمن بخسٍ دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » ..

شروْه : أى باعوه ، يقال : شرى الشىء أى باعه ، واشتراه : أى أخذه بالثمن الذى ابتاعه به .

والثمن البخس : أى الذى فيه غبن على البائع ، حيث باع الذى حقُّه أن

يُبذل فيه المال الكثير ، بمال قليل .. « دراهم معدودة » ! ولو عرفوا قَدْرَ هذا الجوهر الكريم الذى فى أيديهم لضنّوا به ، ولبالغوا فى الثمن الذى يطلبونه فيه ، إن كان لابد لهم من بيعه .. ولكنهم كانوا تجارَ أمتعة ، لا تجار نفوس ! ونَقَدَةَ أموال ، لا نَقَدَةَ رجال !!

— وفى قوله تعالى : « وكانوا فيه من الزاهدين » تشنيع على جهلهم بأقدار الرجال ، وعَمَى بصيرتهم عن الكشف عن معادن النفوس !..

* « وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالبٌ على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ..

وها هو ذا يوسف ينتقل من يد إلى يد حتى يقع أخيراً ليد رجل من مصر ..

وإذن فيوسف الآن فى مصر .. فهل يستقرّ به المقام فيها ، أم تتناقله الأيدى من بلد إلى بلد ، ومن مصر إلى مصر ؟

تحدّثنا الآية الكريمة من أول الأمر أنه سوف يستقر به المقام فى مصر وأنه سيكون ابناً من أبنائها ..

فالرجل الذى اشتراه من مصر ، قد ضمّه إليه ، واتخذه ابناً له ، إذ لم يكن له ولد ، ودعا امرأته إلى أن تكرمه ، وتتولى تربيته ، وتنشئته ، على أنه ابنها ..

وهكذا يجد يوسف فى مصر أهلاً بدل أهله ، وأباً وأمّاً مكان أبيه وأمه . وهكذا صنع الله ليوسف .. وليس هذا فحسب ، فإنه سيصنع له أكثر وأكثر .. فسيمكن الله له فى الأرض ، ويعلمه من تأويل الأحاديث ، كما قال له أبوه من

قبل : « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث » ..

— وفى قوله تعالى : « والله غالب على أمره » أى أن ما يقدّره الله سبحانه وتعالى ويقضى به ، فإنه لابد أن ينفذ ، إذ هو سبحانه الغالب ، لا يغلبه أحد ولا ينازعه مخلوق .. « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » هذه الحقيقة ، ولا يَقْدُرون الله حق قدره ..

وفى إضافة الأمر إلى الله سبحانه وتعالى ، إشارة إلى أن الأمر كله لله سبحانه ، وليس له شريك ينازعه الأمر فى أى شىء .. فهو سبحانه ، الغالب على كلّ أمر ، لا ينازعه منازع ، ولا يعترض مشيئته معترض ، إذ أنه ليس لأحد معه أمر .. كما يقول سبحانه : « وإليه يرجع الأمر كله » .. (١٢٣ : هود) .

والآية الكريمة لم تكشف بعد عن وجه هذا الإنسان الذى ضَمَّ يوسف إليه ، وجعله ابناً له .. إنه من مصر ! ..

أمّا من هو فى مصر ، وما مكانته فى قومه ، فستكشف عنه أحداث القصة فيما بعد .. وفى هذا تشويق للنفوس ، وإثارة لحب الاستطلاع فيها ، حتى تظل شاخصة إلى هذا الرّجل ، باحثة عنه ، إلى أن يلقاها هذا اللقاء المثير الذى يطلع عليها به فى دَسْت الحكم ، وعلى كرسى الوزارة .. إنه عزيز مصر ..

* « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزى المحسنين » ..

الحكم : الحِكمة . وهى لمن آتاها الله ، سلطانٌ مبين ، يملك به ما لا يملك أصحاب الملك والسلطان ..

وقد استطاع يوسف — عليه السلام — أن يبلغ بتلك الحكمة هذا

السلطان الذى كان له فى مصر .. فكان — وهو فى السجن — بحكمته ، سيداً ، تُسمع كلمته ، ويُحتكم إليه فى المعضلات .. وبحكمته نفذ إلى خارج السجن ، وأملى شروطه على فرعون مصر !! ثم بحكمته ، وضع يده على مقاليد الأمور ، فى مصر وتصريف مقاديرها ..

والحكمة التى آتاها الله يوسف ـ عليه السلام ـ حكمة مستندة إلى علم ، وليست حكمة مودعة فى صدره ينفق منها ، بلا حساب أو تقدير .. وإنما هى حكمة قائمة على دراسة ، ونظر ، أقرب إلى الاكتساب منها إلى الفطرة .. وبهذا يجد لها صدًى فى نفسه ، وأثراً فى عقله وقلبه ..

— وفى قوله تعالى : « وكذلك نجزى المحسنين » إشارة إلى أنه ـ عليه السلام ـ كان من العاملين الذين أحسنوا العمل ، فكان جزاؤه أن أوتى الحكمة ، وحصّل العلم ..

[يوسف .. والفتنة المتحدّية]

الآيات : (٢٣ — ٢٩)

* « وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ

أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ » (٢٩)

التفسير :

* قوله تعالى : « وَرَاوَدَتْهُ التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هَيْتَ لَكَ » . . الواو للعطف ، وهو عطف حدث على حدث . .

والمراودة : المخادعة ، والمخاتلة ، والتدسس إلى النفس فى أسلوب من التلطف والاحتيال . .

وهيت لك: هو صوت استدعاء لهذا الأمر الذى يكون بين الرجل والمرأة ، وقد جاء به القرآن الكريم ، على هذه الصورة التى لم تعرفها اللغة العربية فى لسانها قبل نزول القرآن .. لأنه يحدث عن حال من شأنه أن يكون سراً بين الرجل والمرأة ، ولغة مفهومة لهما ، لا يعرفها غيرهما .. وذلك إعجاز من إعجاز القرآن .. ودع عنك ما ذهب إليه الذاهبون من تأويلات وتخريجات لكلمة « هيتَ » وخُذها على أنها حكاية صوت ، لا على أنها من لغة التخاطب المتعامل بها فى كل مقام !!.. إنها فى مقامها هذا كلمة استدعاء .. وكفى!!

— وفى قوله تعالى : « التى هو فى بيتها » إشارة إلى أنها ذات سلطانٍ

عليه ، وأنه ربيب نعمتها ، ونزيل بيتها .. وأن لها أن تأمر وعليه أن يطيع .. ولكنها جاءته مترفقة ، متلطفة .. إذ كان هذا الأمر الذى تدعوه إليه لا يجاء له بأسلوب الأمر والقهر !

ـ وفى قوله تعالى : « وغلّقت الأبوابَ وقالت هَيْتَ لَكَ » إشارة إلى أنها هى التى تولت بنفسها الإعداد لهذا الأمر الذى دَعَتْه إليه .. فهى التى راودته عن نفسه بما ألقت إليه من كلمات ، وإشارات ، وتلميحات .. وهى التى غلقت الأبواب ، فكانت تلك دعوةً صريحة منها إليه .. ثم هى التى ـ حين رأت أن ذلك كله لم يَدْعُه إليها ، ولم يقرّبه منها ـ دعته إلى نفسها ، وقالت : « هَيْتَ لك » أى هأنذا لك ، فأقبِل ! وهـذا ما لا تفعله الحرّة ذات الجاه والسلطان ، إلا إذا كانت قد استبدّت بها الرغبة ، ثم لم تجد من الجانب الآخر استجابةً منه لها .. عندئذ تخلع عِذَار حيائها ، وتتخلّى عن مكانتها كامرأة تُطْلَب ولا تَطْلُبُ ! .. وفى كل هذا ما يحدّث عن تعفّف يوسف عليه السلام ، وامتلاكه لداعى الشهوة أمام هـذه المغريات ، التى تنحلّ لها عزمات الرجال ، وتطيش معها أحلام ذوى الحلوم !

* « قال معاذ الله .. إنه ربّى أحسنَ مثواى .. إنه لا يفلح الظالمون »

ومع كل هـذا الذى ساقته المرأة إلى يوسف ـ عليه السلام ـ من جمالها ، وسلطانها ، ومن تلطّفها به ، واستدعائها له ، وعرض نفسها عليه ، ومع هـذا الشباب المتفجّر فيه ، والدماء الحارة المتدفقة فى عروقه ـ فإنه اعتصم بدينه ، واستمسك بمروءته ، فلم يقبل هذه الدعوة الآثمة ، قائلا : « مَعَاذَ اللهِ » أى عياذاً بالله ، ولجأ إليه لدفع هذا المكروه عنّى ..

ـ « إنه ربّى أحسن مثواى » ـ أى إن هذا الفعل فوق أنه عصيان لله ، وتعدٍّ لحدوده ، هو خيانة للمروءة ، وإنكار لإحسان هذا السيد الذى رباه ،

وأحسن مثواه .. والمثوَى : المأوى الذى يأوى إليه الإنسان . .

— « إنه لا يفلح الظالمون » . . الضمير فى «إنه» ضمير الشأن . . أى إنه فى أىّ حال وشأن لا يفلح الظالمون ، الذين يعتدون على حقوق الناس ، فيخونون الأمانة فيما اؤتمنوا عليه ، أو يجحدون نعمةَ من كان له نعمة وفضل عليهم . . !

* « ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهانَ ربّه . . كذلك لنصرفَ عنه السُّوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلَصين » .

اختلف المفسرون فى معنى الهمّ الذى همّ به يوسف . . أهو همُّ عزيمة ، أم همُّ رغبة ؟ وهل هو همُّ فعلٍ ، أم همّ ترك ؟

وصريح اللفظ أنه ـ عليه السلام ـ همّ بها ، كما همّت به . . « ولقد همّت به وهمّ بها » هكذا صريح اللفظ القرآنى . . فلا وجه إذًا للتفرقة بين أمرين متساويين ، لفظاً ومعنًى . . كذلك اختلف المفسِّرون فى قوله تعالى : « لولا أن رأى برهانَ ربه » ـ اختلفوا فى البرهان . . أهو مَلَك جاءه من الله ؟ أم شىء وجده فى نفسه ؟ أم صورة أبيه يعقوب ، وقد ظهر عاضًّا على إصبعه ، محذراً من هذا الخطر الذى هو مقبل عليه .. إلى غير ذلك من عشرات الصور التى صوّر فيها المفسِّرون هذا البرهان . !

وهم فى هذا كلّه إنما يريدون أن يدفعوا عن مقام هذا النبى الكريم أن يطوف به طائف من السوء ، أو تنحلّ عزيمته أمام أية فتنة ، أو تستجيب طبيعته لأى إغراء .. فمقام النبوة هو القمة التى لا ترقى إليها الشبه ، ولا يرتفع إلى سمائها هذا الدخان المتصاعد من شهوات النفوس وأهوائها ، حين تشبّ فيها نيران الشهوة ، ويتّقد لهيب الفتنة ؟ ولكن فات هؤلاء الذين ينظرون إلى النبى هـذه النظرة ـ ونحن ننظر إليه كما ينظرون ـ فاتهم أن النبى بشر

قبل أن يكون نبيًّا .. وأنه حين يلبس ثوب النبوة لا يخلع ثوب البشرية أبداً.. وغاية ما هنالك أنها بشرية فى أعلى مستواها وأشرف منازلها ..

وعلى هذا ، فإن الذى نطمئن إليه ، هو أن هذا البرهان كان شيئاً حسياً ، أو بمعنى آخر ، كان حدثاً وقع فى تلك اللحظة الحاسمة ، فحال دون وقوع هذا الأمر ، وكان صارفاً عنه .. والذى لولاه لوقع !

وهذا البرهان هو — والله أعلم — إشارة كانت تُعلِن عن قدوم العزيز إلى أهله .. إذ من المعقول جداً أن يكون للعزيز شارةٌ من الشارات ، ينبّه بها زوجه إلى أنه قادم إليها.. وذلك كرسول يتقدمه ، أو نفير يُعلن عنه.. أو نحو هذا .. شأن أصحاب السلطان، حين يغدون ، أو يروحون ، بين مجلس الحكم ، ومجلسه الخاص فى أهله وولده .

وعلى هذا يكون المراد بربه هنا ، هو سيده الذى ربّاه ، وهو « العزيز » الذى يقول عنه : « إنه ربّى أحسن مثواى » .. ويكون بذلك، الضمير فى « ربه » عائداً إلى ربه هذا .. وقد جاء على لسان يوسف أكثر من مرةٍ ، الحديثُ عن السيد بلفظ الرب .. « اذكرنى عند ربّك » .. « ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطّعْنَ أيديَهن » ..

وهذا الحَدَث الذى كان سبباً مباشراً فى الحيلولة دون وقوع المعصية ، هو بالنسبة ليوسف عليه السلام بُرهان من ربّه ، وآية من آيات فضله عليه ، وحراسته له .. !

فالأسباب الموصّلة إلى الأعمال الطيبة ، أو الحائلة دون السيئة ، هى دليل على عناية الله وتوفيقه .. كما أن الأسباب المؤدية إلى الشرّ ، أو الصارفة عن الخير ، دليل على خِذلان الله للعبد ، وتخليته وأهواء نفسه ونزغاتِ شيطانه !

فالذين اتقوْا بالأنبياء والرسل ، وكانوا من حوارييهم وخُلصائهم ، إنما

انتصبت لهم الأسباب المسعدة التى وصلتهم بهم ، ومكنت لهم من أن يقبسوا من الهدى الذى بين أيديهم !

وكذلك الذين التقوا بالرسل والأنبياء ، وكانوا حربا عليهم ، وظلاما يحجب ضوء الهدى عن الناس ـ إنما اجتمعت لهم الأسباب التى وقفت بهم هذا الموقف ، وساقتهم إلى هذا البلاء !

فالأسباب ، ألطاف من ألطاف الله ، وآيات من آيات رحمته ، يُدْنيها ـ سبحانه ـ من أوليائه ، وييسرهم لها . . أو هى مزالقُ وعثرات يَهوِى إليها أعداء الله ، ويتساقطون فيها . . « فأما مَن أعطى واتّقى * وصدّق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذّب بالحسنى * فسنيسره للعُسرى » (٥ ـ ١٠ : الليل)

ومجىء العزيز ، أو ظهور الشّارة الدالة على مجيئه فى تلك اللحظة الحاسمة ، هى آية من آيات الله ، ورحمة من رحمته ، ولطف من ألطافه ، وحراسة قائمة على هـذا النبى الكريم أن تزِلّ قدمه . . وهكذا تحفّ ألطاف الله بعباده المخلَصين ، وتتداركهم رحمته ، فى أمثال هذه الساعات الحرجة . . يقول الله تعالى فى يونس عليه السلام : « فلولا أنه كان من المسبّحين * لَلَبِثَ فى بطنه إلى يوم يُبْعثون » (١٤٣ ـ ١٤٤ : الصافات) . . فهذا التسبيح الذى ألهمه الله إياه ، هو اللطف الذى أمدّه الله به ، وهو حبل النجاة الذى أرسله إليه وهو فى بطن الحوت . . ويقول سبحانه فى يونس أيضا : « فاصبر لحكم ربّك ولا تكن كصاحبِ الحوت إذ نادى وهو مكظوم * لولا أن تداركه نعمةٌ من ربّه لنُبِذَ بالعراء وهو مذموم * فاجتباه ربه فجعله من الصالحين » (٤٨ ـ ٥٠ : القلم)

وفى هذا يقول تبارك وتعالى لمحمد صلوات الله وسلامه عليه : « ولولا أن ثبّتناك لقد كِدْتَ تَرْكَنُ إليهم شيئا قليلاً * إذًا لأذقناك ضِعْفَ الحياة وضِعْفَ

للمات ثم لاتجد لك علينا نصيرًا » (٧٤ ـ ٧٥ : الإسراء) ويقول سبحانه عن رسله جيمعاً : « حتى إذا استيئس الرُّسُلُ وَظَنُّوا أنهم قَدْ كُذِبُوا جاءهم نَصْرُنا »
(١١٠ : يوسف)

فالرسل ، والأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ مُبْتَلَوْنَ بما يُبْتَلَى به الناس من فِتَنٍ ، تُلحّ عليهم بأهوالها، فيتلقونها بعزماتهم ، ويصدّونها بإيمانهم، ويستعصمون منها بكل ما فى طاقاتهم من قوّى ، حتى إذا استنفدوا كل ما فى كيانهم من صبرٍ وبلاء ، وكادوا يُهزمون فى هـذا الصراع المحتدم ، جاءهم نصر الله ، وتوافدت عليهم أمداده وألطافه ، فربطت على قلوبهم ، وثبتت من أقدامهم ، وإذا هم فى مقامهم الرفيع الـكريم ، وإذا الفتن صَرْعَى بين أيديهم ، ملففة فى تراب الخزى والاندحار !

وأى فضلٍ لأنبياء الله ورسله على غيرهم من الناس ، إذا هم لم يُبْتَلَوْا هذا البلاء، وإذا هم لم يجاهدوا هذا الجهاد فى مواجهة الفتن ومغالبة الأهواء والشهوات؟ وأى فضلٍ لهم إذا كانت الفتن لا تحوم حولهم ، وكانت الأهواء والشهوات تتساقط من نفوسهم من غير جَهد وعنـاء ؟ وأى فضلٍ لهم يُحمدون عليه ، ويستأهلون به هـذا المقام العظيم الذى هم فيه ، إذا لم تتحرك فيهم دواعى الشهوات ، ولم تنازعهم الأهواء ؟

إن الثواب ـ كما يقولون ـ على قدر المشقة . .

وهذا يعنى : أن نصيب أنبياء الله ، ورسله ، وأوليائه من المعاناة والمشقة أكبرُ نصيب ، وأنه بقـدر ما واجهوا من بلاء وفتنة بقدر ما كان لهم من منزلة عند ربهم . .

وفى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المثلُ الأعلى فيما امتُحن به ، وفيما تعرض له ، من فتن وابتلاء ، فى مشاعره ، وعواطفه ، ونوازعه . . فلقد شهد

أهلَه يتمزّقون بين يديه شِيَماً ، ورأى أتباعَه وأحبابه يعذّبون بسياط الظلم بين يديه ، ويموتون تحت وطأة هذا العذاب ، كما رآهم وهم يَخرجون مهاجرين ، فارّين من وجه هذا البلاء ، مخلّفين وراءهم أهلهم وديارهم وأموالهم .. ثم رآهم فى ميدان القتال يخرون صَرْعى ، يفدّونه بأنفسهم ، وبودّه لو فداهم بنفسه .. وهكذا كانت حياة النبىّ ساعةً بساعة ، بل ولحظةً لحظة ، مسيرةً شاقّة على درب طويل من الآلام والمحن .. وبهذا استحقّ تلك المنزلة التى استوى بها على هامة الإنسانية كلها ، فكان سيد خلق الله ، وخاتم رسـل الله ، وإمام أنبياء الله ! !

وعلى هذا ، فإنّ لنا أن نفهم قوله تعالى : « ولقد همّتْ به وهمّ بها لولا أن رأى برهانَ ربّه » على أن امرأة العزيز قد همّت به ، وأنه ـ عليه السلام ـ همّ بها وكاد الأمر يقع ، لولا أن تداركه رحمةٌ من ربّه ، فأقام هذا السبب المادىّ حائلا دون وقوع الفاحشة . .

وفى هذا تتجلّى رحمة الله بأوليائه ، ورعايته لهم !

ومن جهة أخرى ، فإن رسل الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ليسوا من عالم الملائكة ، وإنما هم بشر ، تتحرك فى كيانهم نوازع الإنسان وشهواته ، وأنّهم يغالبون هذه النوازع ، ويمسكون زمام تلك الشهوات ، ولكن إلى مدًى ، هو غاية مايبلغه احتمال البشر .. حتى إذا كان النبىّ من أنبياء الله أو الرسول من رسله فى مواجهة تجربة كهذه التجربة ، التى استنفد فيها ـ كإنسان وكنبىّ معاً ـ كلّ مالديه من صبرٍ واحتمال ، بَشَرىّ ـ جاءت أمداد الله ، لتمد النبىّ فى هذه المعركة التى لابد أن يكسبها ، ويُكتب له النصر فيها ، وذلك لحساب النبوّة والرسالة ، ولحساب النبىّ كنبىّ والرسول كرسول .. تماماً كما جاءت أمداد السّماء لتشارك فى معركة بدر ، ولتقوم إلى جانب الجهد الإنسانىّ ، فى كسب أول معركة للإسلام ، تلك المعركة التى كان لابد له أن يكسبها ! !

وقد أحسن الإمام البيضاوى ، حين قال عن همّ امرأة العزيز بيوسف وهمّه هو بها : « قصدت مخالطته ، وقصد مخالطتها .. والهمّ بالشىء : قصده والعزم عليه .. والمراد بهمّه عليه السلام ، ميل الطبع ، ومنازعة الشهوة ، لا القصد الاختيارى ، وذلك مما لايدخل تحت التكليف ، بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله ، من يكفّ نفسه عند قيام هذا الهمّ ومشارفة الهمّ » .

— وفى قوله تعالى : « كذلك لنصرف عنه السّوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين » أى بمثل هذا البرهان نجىء به إليه ، لنصرف عنه « السّوء » أى الأذى ، الذى تتعرض له فطرته السليمة « والفحشاء » أى المنكر المثل فى الزّنا . « إنه من عبادنا المخلصين » هو تعليل لما أراد الله بهذا النبىّ الكريم من خير ، فصرف عنه السوء والفحشاء ، لأنه من عباد الله الذى اصطفاهم الله ، وجعلهم خالصةً له .

* « واستبقَا الباب وقدّت قميصه من دُبُرٍ وألْفَيَا سيدها لدى الباب قالت ماجزآء من أراد بأهلك سُوءا إلاّ أن يُسْجَنَ أو عذابٌ أليم » .

حين رأى يوسف برهانَ ربّه ، وهو الشارة الدالّة على مقدم العزيز إليهما ـ رأته معه كذلك امرأة العزيز ، فأسرعا إلى الباب المغلق دونهما ، وأسرع كل منهما طالباً الخروج من المخدع ، وقد كان يوسف أسرع منها ، فتناولته من خلف بيدها لتسبقه ، ولتنجو بنفسها ، فعلِقَت يدها بقميصه فقدّته من دبر ، أى قطعته طُولا ، من الخلف .. وما كاد يُفْتح الباب حتى كان « العزيز » معهما وجهاً لوجه .. وكان جوابها حاضراً ، إذ كانت تعيش فى هذه المحنة أياماً وليالىَ ، وتفكر فيها وتقلّبها على جميع وجوهها واحتمالاتها .. ومن هذه الاحتمالات أن يعلم زوجها بالأمر ، أو يضبطها متلبسة به .. فلما وقعت الواقعة ، وجدت الجواب الذى أعدته . « قالت ماجزآء من أراد بأهلك سوءا إلاّ أن يُسْجَنَ أو عذابٌ أليمٌ » .

وهكذا تتّهم ، وتحكم فى التهمة ، فلا تدع لزوجها فرصة للتفكير فيما ينبغى أن يواجه به هذه الموقف .. فهاهوذا الحلّ حاضر بين يديه ، لايحتاج منه إلى تفكير !

— وفى قولها : « من أراد بأهلك سوءا » إشارة إلى أن الأمر لم يجاوز حدّ الرغبة والإرادة .

— وفى قولها « بأهلك » بدلا من قولها « بى » لتضيف نفسها إلى العزيز ، فتثير عاطفته نحوها ، على حين أنها تغريه بهذا الذى اعتدى على العزيز فى أهله !

* « قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي .. وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا .. إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ » .

وكان ردّ يوسف على هذا الاتهام الجرىء له ، قوله : « هى راودتنى عن نفسى » .. ففى هذه الكلمات القليلة المستغنية بصدقها عن كل قول ، دفع يوسف التهمة الظالمة التى رُمى بها .. وهكذا شأن أصحاب الحقّ ، يجدون فى الكلمة المرسَلة على طبيعتها من غير حَلِف أو توكيد ، مايغنى عن كل قول .. وليس كذلك شأن أصحاب الزور والبهتان .. إنهم يكثرون من الثرثرة واللغو ، ويبالغون فى الأيمان الكاذبة الفاجرة ، ليداروا هذا الباطل الذى يُجرونه على ألسنتهم ، وليبعثوا فيه شيئاً من الحرارة والحياة !

— قوله تعالى : « وشهدَ شاهد من أهلها » .. هو جملة حاليّة ، جاءت مصدقة لقول يوسف : « هى راودتنى عن نفسى » .. أى قال هذا القول الذى صدّقه الحال ، والذى استدل به العزيز على صدق يوسف وكذبها ..

وقد اختلف المفسرون فى هذا الشاهد الذى شهد .. فقالوا إنه طفل ،

أنطقه الله، وقالوا إنه رجل من أهل العلم .. وقالوا، وقالوا!

والذى نراه ـ والله أعلم ـ أن هذا الشاهد هو العزيز نفسه، وأنه إذ نظر إلى يوسف، فرأى قميصه ممزقا، أدار بينه وبين نفسه حديثا عن هذا القميص: لِمَ مُزّق؟ ومن مزّقه؟ ولم كان ممزقا من خلف لا من أمام؟ وهل لذلك من دِلالة؟ .. ثم أسلم نفسه لتفكير عميق، وفى رأسه تدور الأفكار، وتموج الخواطر .. يقلّب الأمر على جميع وجوهه، ويعرضه على كل احتمالاته.. ثم ينتهى به الرأى إلى تلك الحقيقة التى هى فيصل الأمر، ومقطع الرأى: «إن كان قميصه قدَّ من قُبلٍ فصدقت وهو من الكاذبين * وإن كان قميصه قُدَّ من دبُرٍ فكذبت وهو من الصّادقين».. هذا ما أمسك به العزيز من الخواطر الكثيرة، والآراء المتدافعة التى كانت تتوارد عليه .. وقد أمسك أولا بالخاطر الذى يبرىء زوجه، ويدين يوسف، فذلك هو الذى كان يرجوه، ويودّ لو أن هذه الفاجعة قد أقامت له الدليل عليه! «إن كان قميصه قدّ من قُبُل فصَدقت ..»

وإذ استراح العزيز إلى هذا الرأى، تلفّت إلى يوسف، وأخذه بعينيه، ونظر إلى القميص، فرآه قد قُدّ من دُبُر!

* «فلما رأى قميصه قدّ من دبرٍ قال إنه من كيد كُنّ إن كيد كن عظيم» .. وهكذا بَرِئت ساحة يوسف ـ وهو البرىء دائما ـ وأقبل العزيز على المرأة، لا ليدينها فى شخصها، بل ليجعل هذه التهمة قسمةً مشاعة فى بنات جنسها جميعا. «إنه من كيدكنّ» أيتها النساء «إن كيد كنّ عظيم» إنّ فيكنّ المكر والدهاء، وسعة الحيلة فى هذا المجال .. وإذن فلا يستغرب منك هذا، بل ولا يُنكر منك، فما أنت إلاّ واحدة من بنات جنسك!! فلا عليك!

*«يوسفُ أعْرِض عن هذا واستغفرى لذنبك إنّك كُنتِ من الخاطئين».

ـ «يوسف» منادى، أى يا يوسف، والمنادِى له هو العزيز، يحذّره ـ وإن

ظهرت براءته عنده ـ من أن يحوم حول هذا الحمى! ثم يلتفت إلى المرأة يطلب إليها أن تستغفر لهذا الذنب ، وأن تطلب الصفح عن هذه الخطيئة التى كادت تقع فيها .. !

وليس من الحتم اللازم أن تكون هذه المرأة مؤمنة بالله ، حتى تستغفر لذنبها ـ كما يقول بذلك المفسرون ـ بل يجوز ـ وهو الغالب ـ أن تكون وثنيةً ، تطلب الصفح والمغفرة من وثنها الذى تعبده ، أو من الكاهن الذى يقوم على خدمة هذا الوثن !

ـــ وفى قوله تعالى : « إنكِ كنتِ من الخاطئين » بدلاً من قوله : إنك كنت من الخاطئات ، ليخفف على نفسها وقع هذه التهمة التى واجهها بها ، فلا يجعل تلك الخطيئة مقصورة على بنات جنسها وحدهن، بل يشاركهن الرجال فيها ، وهو منهم .. فلا عليها إذن أن تستغفر لذنبها هذا ، الذى كان الناس ـ من نساء ورجال ـ معرّضين له .. فإذا كنتِ قد أخطأت فما أكثر الخاطئين قبل الخاطئات ! ..

وقد رأينا من قبل كيف أنه لم يواجهها بالتهمة فى شخصها ، بل واجهها بها فى بنات جنسها : « إنه من كيدكن » ..

وقد اتهم بعض المفسرين « العزيز » بأنه كان ناقصاً فى رجولته ، ولم يكن له أرَب فى النساء ، لأنه استقبل فَعلة امرأته بهذا الاستخفاف والبرود ! ..

وهذا تعليل غير صحيح .. إذ المعروف أن من كان فى رجولتهم شىء من النقص ، داروه بتلك الغيرة الزائدة ، المجاوزة لكل حدّ ! ..

ولعل أقرب تعليل لموقف « العزيز » هذا ، هو أنه كان ينظر إلى يوسف نظرته إلى ابنه ، وأن ما كان من امرأته لم يكن إلا نزوة طائشة ، أعمتها عن أن

تنظر إلى يوسف نظرة الأم إلى ولدها ، وأنها سرعان ما تعود إلى رشـدها وتصحح نظرتها إليه ..

والذى جعلنا نميل إلى القول بأن الشاهد الذى شهد بإدانة امرأة العزيز ، هو العزيز نفسه ـ الذى جعلنا نميل إلى هذا القول ، هو ما يشهد به واقع الحال ، وهو أن « العزيز » وهو صاحب هذا المقام فى قومه ، ما كان له أن يفضح نفسه وأهله على الملأ ، وأن يستدعى من يحتكم إليه ، فى أمرٍ شهده هو بنفسه ، واطلع عليه من غير أن يدله عليه أحد !

وإنه لمن السفاهة والحمق ، بل والعجز ، أن يعرّض العزيز مكانته ، وشرفه وشرف أهله لهذه الفضيحة على الملأ .. فيصبح ، وإذا هو وزوجه على ألسنة الناس ، يطلقون فيهما قالة السوء ، ويولدون من هذا الحدث أحداثاً تنمو وتتضخم على الأيام !

فـكان من الحكمة إذاً أن يتدبر « العزيز » أمره بنفسه ، وأن يحصر الأمر فى أضيق حدوده ، وأن يحسمه هذا الحسم الرشيد ، فى غير صَخَب وضجيج .. فـكان حكمه هكذا :

— « يوسف : أعرض عن هذا » ..

— « واستغفرى لذنبك . . إنك كنت من الخاطئين » ..

لفتة إلى يوسف ، ولفتة إليها ..

ثم انتهى الأمر عند هذا الحد .. ولـكن إلى حين .. !

فلقد دبّر العزيز فى نفسه أمراً .. ولـكن بعد أن تنتهى هذه العاصفة .. فتحيّن ليوسف فرصة يدفع به إلى السجن بها .. ولـكن من غير أن يكون لامرأته ـ فى ظاهر الأمر ـ شأن يتعلق بها فى أمر يوسف وسجنه .. من قريب أو من بعيد ! على ما سنرى فى أحداث القصة .. بعد ..

(الآيات : (٣٠ — ٣٥)

* « وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَةُ ٱلْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٣٣) فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْآيَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ » (٣٥)

التفسير :

العزيز : السيد ذو السلطان والقوة ، فهو عزيز بسلطانه وقوته ..

شَغَفَهَا حبًّا : أى ملك قلبها ، واستبد به . . والشَّغاف : وسط القلب .
أعتدت لهن متكأً : أى أعدّت وأحضرت ، وشىء عتيد أى حاضر .. والمتكأ :

ما يُتكأ عليه ، من وساد ونحوه .. أصب إليهن : أى أميل ، والصبوة الميل إلى النساء خاصة ، وصبا وصبأ أى مال ، ومنه الصابئة ، وهم الذين مالوا مع هواهم إلى عبادة غير الله ..والصَّبا : ريح لطيفة ، تهب فى أصائل الأيام القائظة ، فتميل إليها النفوس ..

* قوله تعالى : « وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبًّا إنا لنراها فى ضلال مبين » .

لأول مرة يكشف القرآن الكريم عن شخصية المرأة التى راودت يوسف عن نفسه . فيحدّث عنها بأنها امرأة العزيز ، أى السيد الحاكم فى مصر ، ومن هذا نعرف أن البيت الذى ضم يوسفَ إليه واحتواه ، هو بيت حاكم مصر ..

ولم يكشف القرآن من قبل عن مركز هذه المرأة الاجتماعى ، لأن الأحداث كانت تجرى على المستوى المألوف فى حياة الناس ، عامتهم ، وخاصتهم على السواء .. فأى بيت كان يمكن أن يَضمّ يوسف إليه ، وأى امرأة كان من الممكن أن تراوده عن نفسه ، سواء كانت امرأة ملك أو سُوقة .. إنها امرأة أيًّا كان وضعها الاجتماعى ! إذ لم يكن ليوسف خيار فى اختيار السيد الذى يملكه ! .

أمّا حين يكون للحدث ذكر يراد به الكشف عن وقعه فى المجتمع وأثره فى الناس ، فإن الأمر يختلف بالنسبة لمن يتعلق به الحدث ، من حيث وضعه الاجتماعى ومكانته فى المجتمع ..

فالحدث يكبر أو يصغر ، وتتسع دائرته أو تضيق تبعاً لمن تعلق به الحدث . . ! إذ يُقتل الرجل من عامة الناس ، دون أن يشعر الناس بهذا الحدث أو يلتفتوا إليه ، على حين يُصاب الحاكم أو السيد من سادة القوم ، بخدش أو

جُرح ، فيكون ذلك حديث الناس فى الأندية والمحافل ، ليوم أو لبضعة أيام ، وربما لشهور أو سنين . .

فعيون الناس وآذانهم متعلقة بأصحاب السلطان والسيادة فيهم.. يتسمّعون أخبارهم ، ويرقبون أحوالهم ، ويشتغلون بالحديث عنهم ، فى كل ما يتصل بهم من صغير أمورهم وكبيرها . . هكذا الناس فى كل زمان ومكان . .

وعلى الرغم من أن حادثة امرأة العزيز كانت فى دائرة ضيقة ، لا تتعدى المرأة ، ويوسف وزوجها ، فإنه سرعان ما نفذت العيون من خدم القصر إلى هذا السر ، ووقعت الآذان عليه ، فكان همساً على الشفاه ، ثم كان حديثاً دائراً على الألسنة ، أقرب إلى الإشاعة منه إلى الحقيقة . . وذلك لِما كان من العزيز فى معالجة هذا الأمر ، بحكمة ، ولطف ، وحذر .

والنساء هن أكثر الناس بحثاً عن أسرار البيوت ، وأقدرهن على فتح مغالقها وكشفها ..

وها هى ذى امرأة العزيز تصبح هى وفَعلتها مع يوسف ، حديثَ الطبقة العالية فى نساء المجتمع ، ممن هنّ على مداناةٍ وقُربٍ منها .

* « وقال نسوةٌ فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه .. قد شَغَفَها حبًّا إنا لنراها فى ضلال مبين » . . هكذا يتحرك الخبر ، وتتحرك معه التعليقات المناسبة له .. « قد شغفها حبا !! » أى ملأ قلبها حبًّا ، واستولى عليه . . « إنّا لنراها فى ضلال مبين » !

إنها الفضيحة قد أخذت تتحرك بسرعة فى المجتمع ، وإنها اليومَ حديثُ نساء الحاشية ، وما حولها ، وغداً ستكون حديثَ البلاد كلها . . فلابد إذا من تدبير يمسك هذه الفضيحة ، أو يخفف من انطلاقها ، وإلاّ أفلت الزمام وساءت العاقبة !

وفى سرعة ، وحكمة ، أخذت امرأة العزيز تعمل وتعمل ! كما أخذ العزيز يفكر ويقدّر ..

* « فلمّا سمعت بمكرِهنّ أرسلت إليهن وأعتَدَتْ لهن مُتّكأً وآتت كلّ واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن .. ! »

« فلما رأينه أكبرنه .. وقطعن أيديَهن .. وقلن حاشَ لله .. ما هذا بشراً .. إنْ هذا إلا ملك كريم »

لقد أعدت امرأة العزيز وليمةً ، ودعت إليها هؤلاء النسوة اللاتى تحدّثن عنها بهذا الحديث الذى عرّضن فيه بها ، وجرّحنها بقوارص الكلم ، وطعنّها بألسنة الاتهام !

وكان من تدبيرها أنها هيأت لكل واحدة منهن مُتّكأ ، لتُسلم نفسها إليه ، مسترخيةً ، وتمسك فى يديها بسكين حادٍّ مرهف ، تعالج به بعض الفاكهة التى بين يديها ..

وهكذا أخذ النسوة مجلسهن هذا عند امرأة العزيز ، وهن متكئات على المساند الليّنة ، يتناولن الفاكهة بعد أن امتلأن بما قُدّم لهن من شهىّ الطعام ، على مائدة حفَلت بكل ما لذّ وطاب منه .. وما كاد يبدأ الفتور عليهن ، وهنّ مستسلمات لتلك الإغفاءة اللذيذة ، التى تطوف بالمرء بعد غذاء شهىّ ، يتجاذبن الأحاديث فى تكسّر وفتور أشبه بأحلام اليقظة ـ حتى تضرب المرأة ضربتها فتصيب منهن مقتلاً ! وإذا يوسف ، وقد أخذ زينته ، إلى ما حباه الله من جمال الصورة ، وجلال النبوة ، يَطْلُعُ عليهنّ ، وكأنه مَلَكٌ نزل من السماء ، لايدرين من أين جاء ، فيصحون صحوة السكران من خُماره ، حين يجد نفسه بين يدى ظاهرة من ظواهر الطبيعة الفاجئة المذهلة .. وإذا كيانهنّ كله يصبح عيوناً معلقة بهذه المعجزة التى طلع عليهن القدَر بها ! واستبدّ بهنّ الذهول ، ولم

يَمُدْن يَدْرِين ماذا يمسكن فى أيديهن . . وفى حركات لا شعوريّة أعملن السكاكين فى أيديهن ، فأصابت منهن ما كان من شأنه أن يصيب الفاكهة منها . . فسالت الجروح ، ونزفت الدماء !! وعندئذ تنبهن إلى وجودهن . . « وقلن حاش لله .. ما هذا بشراً ..! إنْ هذا إلا ملك كريم » !!

عندئذ استوثقت امرأة العزيز مما وقع فى قلوبهن من يوسف ، فصرّحت بمكنون سرّها ، ووجدت أن ذلك ليس مما يَعيبها ، إذ كان الأمر أكثر مما تحتمله هى أو غيرها من النساء ، فى مواجهة هـذه المعجزة التى لا قِبَلَ للنّاس أن يتحدوها .

* « قالَتْ فَذَلِكُنَّ الّذى لُمْتُنَّنِى فيه ولقد راودته عن نفسِهِ فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليُسْجَنَنّ وليكوناً من الصاغرين »

وهكذا كان انتقام المرأة لنفسها ممن أظهرن الشماتة بها .. لقد أذاقتهن من نفس الكأس التى شربتها ، فسكرن سكرتها ، ووقعن أسيرات لهـذا الجمال الآسر ، وعشْنَ معها بهذا الداء ، يعالجنه ، ويطلبن الشفاء له . . وهكذا أخرست تلك الألسنة التى كانت تُذيع قالة السوء فيهـا ، فشُغلت كل واحدةٍ منهن بهمومها ، وأشجانها ، مع هذا الجمال الملائكى القاهر .

أما يوسف ـ عليه السلام ـ فقد تضاعفت محنته ، وتكاثرت حوله الفخاخ والشباك المنصوبة لصيده ، والكيد له ، ولم يكن له إلا ربُّه ـ سبحانه وتعالى ـ يطلب العونَ منه ، والحماية والصوْنَ ممّا يكاد له .

* «قال ربّ السِّجْنُ أحبّ إلىّ ممايدعوننِى إليه وإلاّ تصْرف عنّى كيدَهن أصبُ إليْهن وأكن من الجاهلين » . . .

إنه بين يدى كيد يكاد له ، وفتنة ملحّة تتبدّى أمام ناظريْه ، وتجىء إليـه بكل مُغْرياتها .. وهو ـ بعدُ ـ إنسان .. معه قلبه ، وشبابه وشهوته

وإنه ـ فى دينه ومروءته ـ ليؤثر السِّجن على ما يدْعونه إليه من إثم . . ولـكنْ للاحتمال طاقة ، وللصبر حدّ ، ولن يمسك عليه دينَه ، ويدفع عنه هذا البلاء الذى لا يُحتمل ، إلاَّ عَوْنٌ يمينه الله به ، وقوة يضيفها الله إلى قوته . « وإلاَّ تصرفْ عنّى كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين » . . فصرْفُ هذا الـكيد ، وإبعاد تلك الفتنة من طريقه ، هو الذى يصرفه عن هذا البلاء ، ويعافيه من هذا الشرّ ، وذلك برعاية الله سبحانه وتعالى له ، وصرف السوء عنه .

* « فاستجاب له ربّه فصرف عنه كيدَهُنّ . . إنه هو السميعُ العليمُ » . . ولا تَسَلْ ما تدبير الله فى هذا ، فذلك من قدرة الله ، ومن آياته . .

* « ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليَسْجُنُنّه حتّى حينٍ » . . أى ثم بدا للعزيز ، مع ما شاهـد من الآيات الدالة على عفّة يوسف وبراءته مما رمته امرأته به ـ بدا له أن يأخذه بشىء من العقاب ، وأن يلقى به فى السجن ، وذلك بعد أن هدأت نار الفتنة ، ونسى الناس أمرها ، حتى لا يقال : إن العزيز قد ألقى بيوسف فى السجن عقاباً للحَدَث الذى كان بينه وبين امرأته .

وتعالت حكمة الله . . !!

لقد كان هذا السجن هو الصّارف الذى صرف به سبحانه وتعالى هـذا الـكيد الذى يُراد بعبدٍ من عباده المخلَصين . . فلقد عزَله هذا السجن عزلاً تامًّا عن موطن الفتنة ، وباعد بينه وبين آفقها التى تطلع عليه منها . .

ثم كان هذا السّجن الطريقَ الذى سلك به إلى هـذا المُلك الذى أراد سبحانه وتعالى أن يضمه بين يديه : « واللهُ غالبٌ على أمره ولـكن أكثر الناسِ لا يعلمون »

الآيات : (٣٦ — ٤٢)

* « وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (٣٧) وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ » (٤٢)

التفسير :

* « ودخل معه السجن فتيان » .. والفتى هو الخادم ، أو المملوك الذى فى خدمة سيده .

ويجوز أن يكون هذان الفتيان قد دخلا مع يوسف السّجن فى يوم واحد ، إثرَ حَدث وقع فى قصر الملك ، إذ كان هذان الغلامان ممن يخدمان الملك ، فحامت حولهما شبهة دفعت بهما إلى السّجن ، ودُفع بيوسف إليه معهما ، على حساب أنه ممن علقت به تلك الشبهة ، بتدبير من امرأة العزيز ، وممن معها من النّسوة اللائى كنّ فى حاشيتها .. أو بتدبير من العزيز نفسه انتقاماً لشرفه ، الذى لاكته الألسنة زمناً .. وكانت المؤامرة التى وقعت فى قصر الملك فرصة لأخذ يوسف مع من أُخذ بها .

* « قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه نبِّئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين » .

إنهما قد رأى كل منهما رؤيا منامية ، وقد عرفا فى يوسف علماً وحكمةً ، فتحدثا إليه بما رأيا ، وطلبا إليه أن يكشف لهما ماتنبىء عنه رؤيا كل منهما .

— وفى قول كل منهما : « إنى أرانى » ـ إشارة إلى أن كلَّ واحدٍ منهما رأى نفسه فى المنام على الصورة التى حدّثه بها .. فالرائى شخص والمرئى شخص آخر ، وإن كان صورةً منه .

* « قال لايأتيكما طعام تُرْزقانه إلا نبأتُكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علّمنى ربىّ إنى تركتُ ملّة قوم لايؤمنون بالله وهمْ بالآخرة هم كافرون * واتبعتُ ملّة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نُشْرك بالله من شىء ذلك من فَضْلِ الله علينا وعلى النّاس ولكنّ أكثر الناس لايشكرون * ياصاحبى السّجن أأربابٌ متفرقون خيرٌ أم اللهُ الواحدُ القهار * ماتعبدون من دونه إلاّ أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلاّ لله أمرَ ألاّ تعبدوا إلاّ إياه ذلك الدين القيمُ ولكن أكثر الناس لايعلمون » .

لم يلتفت يوسف كثيراً إلى هذه الرؤيا التى رآها صاحبا سجنه ، ولم يجعل

بالكشف لهما عن تأويلها ، إذ كانت إحداهما تحمل الموت إلى صاحبها ، على حين تحمل الأخرى لصاحبها الحياة والخلاص من السجن .. فآثر أن يتريث قليلا ، ولا يكشف لهما عن هذا الجانب المحزن من الرؤيا ..

ثم أخذ يحدثهما عمّا علمّه الله من علم ، وأنه إذا كان سيكشف لهما عن تأويل رؤياهما ، فذلك مما علّمه الله ، الذى يؤمن به ، بل إن الله سبحانه قد علّمه أكثر من تأويل الأحاديث ، فهو ـ بما علمه الله ـ يستطيع أن يخبرهما عن أىّ طعام يُحمل إليهما ، قبل أن يأتيهما ، وذلك على نحو ما كان لعيسى عليه السلام ، إذ يقول لبنى إسرائيل : « وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم » (٤٩ : آل عمران) .

ويثير هذا الحديث تساؤلات كثيرة عن صاحبى السجن ، تدور فى رأسيهما ، وتظهر على قسمات وجهيهما .. يبحثان عن هذا « الربّ » الذى يعلّم المؤمنين به ، والعابدين له ، هذا العلم .. إن لهما أربابا كثيرة ، فلم لم تمنحهما شيئا من هذا العلم ؟ وهل ربّ يوسف هذا على غير شاكلة الأرباب التى يعرفونها ويعبدونها ؟

ويراها « يوسف » فرصةً سانحة ، للدعوة إلى الله ، وإلى هداية هذين الضالّين إلى الإيمان ، فيكشف لهما عن وجه الحق ، ويفتح لهما الطريق إلى ربّه الذى يعبده !

ـــ « إنى تركت ملّة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون » .. إذن فقد كان من يوسف عمل ، حتى وصل إلى ما وصل إليه ، وهو أنه ترك دين قوم لايؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون . وإذن فإنهما إن أرادا أن يلحقا به ، فليتركا مِلّة من لايؤمن بالله واليوم لآخر ، كما ترك هو ملّة من لايؤمن بالله ، واليوم الآخر !

ويوسف عليه السلام لم يكن على غير دين التوحيد ، فقد وُلد مسلماً ، ابن مسلم ، ابن مسلم ، ابن مسلم ، فهو كما فى الحديث الشريف : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم » .. ولكنه يعنى بهذا أنه لم يكن مجرّد متابعٍ لدينٍ ورثه عن آبائه ، بل إنه نظر إلى الدين الذى يدين به آباؤه ، وإلى الأديان التى يدين بها الملحدون ، الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، فعَدَلَ عن هذه الأديان ، وتركها وراءه ظِهريًّا ، وأقبل على دين آبائه ، لأنه الدين الحقّ ، الذى يدين به العقلاء ! « واتبعتُ مِلّة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب » .

— وفى قوله : « ما كان لنآ أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس » — إشارة إلى أنه هو وآباؤه ، وقد عرفوا طريق الحق ، ما كان يصحّ عندهم أن يعدلا عن هذا الطريق إلى طريق الشك بالله . وذلك من فضل الله علينا ، وعلى الناس الذين هداهم إلى الإيمان ، وأقامهم على طريق الحق .. « ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون » الله على مافضّل به عليهم من نعم ، فإن عدم التعرف على الإله المنعم كفران بهذه النعم ، يقود إلى الكفر بالمنعِم ذاته .

ثم يمضى يوسف ، فيشرح لهما قضيّة الألوهية بمنطق الحسّ والمشاهدة : — « ياصاحبى السّجن أأرباب متفرقون خيرٌ أم الله الواحد القهار » ؟ إن العقل يقضى لأول خاطرة ، أن الواحد الذى يجتمع إليه كل مافى يد الآخرين من سلطان ، هو أولى بأن يُلجأ إليه ، ويُلاذُ به ..

فالله — سبحانه — هو ربّ الأرباب ، فكيف يُعْدَلُ عنه إلى من هم تحت سلطانه ؟ وكيف يُعبدون من دونه ؟ ذلك هو الضلال البعيد !

تلك هى القضية .. وهذا هو فيصل مابين إله يوسف ، والآلهة التى يعبدها القوم ..

— « ما تعبدون من دونه إلاّ أسماءً سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .

وذلك ما كشف عنه الواقع من الآلهة التى يعبدها صاحبا السجن وقومُهما .. مايعبدون من دون الله إلا أسماء .. أى مجرد أسماء ، لامدلولَ لها ، ولا قيمة لمسمّياتها .. هى أسماء ليس وراءها إلا خَوَاء ، وظلام .. تعلقت بها أوهام القوم ، وأعطتها تصوراتهم هذه المفاهيم الخاطئة التى يتعاملون بها معها .. !

— وفى قوله تعالى : « ما أنزل الله بها من سلطان » أى أن هذه الأسماء ومسمياتها التى تختفى وراءها ، لاتستند إلى حجة أو برهان ، وأنها لم تقم على دعوة من العقل ، أو على كتاب من عند الله .. وإنما هى من مواليد الباطل والضلال ، إذ اجاءها العقل لم يجدها شيئاً يقف عنده .

— « إن الحكم إلا لله . أمر ألاّ تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيّم .. ولكنّ أكثر الناس لايعلمون » . فالحكم بين الناس ، والفصل فيما هم مختلفون فيه ، فيما يعبدون — هو لله ، وسيجزى كلّ عاملٍ بما عمل .. وهو — سبحانه قد أمر ألاّ يُعبد غيرُه ، وذلك فيما حَمَل الرسلُ إلى الناس من رسالات الله إلى عباده ، فذلك هو الدّين الحقّ ، المستقيم الذى لاعوج فيه . « ولكن أكثر الناس لايعلمون » هذه الحقيقة ، فيضلّون ، ويكفرون بالله ، ويعبدون من دونه تلك الدّمَى التى يسمونها آلهة !

وإلى هنا يكون يوسف قد نفذ بدعوته إلى قلبى هذين الرجلين الضالّين ، فهداهما إلى الله ، وفتح لهما الطريق إلى صراطه المستقيم . . وهكذا لم ينس رسالته

إلى الناس وإلى هدايتهم ودعوتهم إلى الله ، وهو فى سجنه هذا ، يعالج المحنة ، ويتجرع مرارة الظلم ..

وإذ يستريح إلى أنه أدّى رسالته فى هذه الحدود الضيقة ، يعود فيكشف لصاحبيه عن السرّ المحجّب وراء رؤياهما ..

* « يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربّه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قُضِىَ الأمر الذى فيه تستفتيان .. »

وهكذا بعد أن قال يوسف لصاحبى سجنه ما أراد أن يقوله ـ من الدعوة إلى الإيمان بالله ، وهما مشدودان إليه بتلك الرغبة الملحة عليهما فى الاستماع إلى كلمته التى يقولها فى تأويل رؤياهما ـ أخذ يكشف لهما ـ مما أراه الله ـ عن تأويل هذه الرؤيا ..!

ـ « أما أحدكما فيسقى ربّه خمراً وأما الآخر فيُصلب فتأكل الطير من رأسه .. »

ويلاحظ أنه لم يقل لكل منهما على حِدَة تأويلَ رؤياه ، حتى لا يواجه الذى سيصلب بهذا الخبر المزعج ، بل ألقى إليهما تأويل رؤياهما معاً ، ليأخذ كل منهما بنفسه مايراه متفقاً مع رؤياه ..

ـ وفى قوله تعالى : « قضى الأمر الذى فيه تستفتيان » توكيد لما كشف عنه من تأويل الرؤيا ، وأن ذلك الذى كشف له عنهما من رؤياهما ، هوأمرٌ واقع ، قضى الله به ، ولا رادّ لما قضى الله ..!

* قوله تعالى : « وقال للذى ظَنّ أنه ناجٍ منهما اذكرنى عند ربّك فأنساه الشيطان ذكر ربّه فلبث فى السجن بضع سنين » ..

وحين علم يوسف من تأويل الرؤيا أن أحد صاحبى سجنه سيُخلَى سبيلُه ،

ويعود إلى مكانه من الملك ، ساقياً لشرابه ـ قال له : « اذكرنى عند ربك» أى تحدّثْ بشأنى عند الملك ، واكشف له عن الكيد الذى كاد لى به النسوة حتى ألقوْا بى فى السجن ، فلعله يفكّ قيدى ، ويُطلق سراحى . .

— وفى قوله تعالى : « ظن أنه ناج » إشارة إلى أن علمه بتأويل الرؤيا لم يبلغ مرتبة اليقين المطلق الذى يتلقاه وحياً من ربه ، ولكنه علم مستمد من بصيرة نافذة ، وقلب ملهم ، وهو ـ أيًّا كان ـ علم ذاتىٌّ ، يراه إلى جانب ما يوحى إليه من ربّه ، ظنًّا غير مستيقَنٍ . .

وفى غمرة الفرحة بالخلاص ، نسى صاحب السجن هذا الذى نجا ، ما عهد إليه به يوسف ، فلم يذكره عند سيده ، وهكذا نسى الناس أمره ، فلبث فى السجن بضع سنين !

الآيات : (٤٣ — ٤٩)

* « وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّى أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَٰأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُؤْيَاىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا

مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ » (٤٩)

التفسير :

* « وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات .. يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون » ..

العجاف : المهازيل ، واحدتها عجفاء ، وهى قليلة اللحم لضعفها وهزالها ..

أفتونى : من الفتيا ، وهى الكشف عن أمر خفىّ ، يُسأل عنه أهل الخبرة فيه ..

تعبرون : عبر الأمر ، سَبَره واختبره .. وتعبير الرؤيا : عبورها إلى ما وراءها من دلالات .. وعَبْر الوادى : جانبه الآخر ..

ورؤيا الملك .. هى رؤيا نائم ، حيث وقع له فى نومه هذا الذى رآه ، وطلب إلى أهل العلم تأويله ..

* « قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » ..

الأضغاث : الأخلاط من كل شىء ، ويجمع الغث والثمين ، واحدها ضغث ، ومنه قوله تعالى : « وخذ بيدك ضِغْثًا فاضرب به » (٤٤ : ص) أى مجموعة من أعواد الحطب ، وقيل سباطة نخل ..

لقد رأى الملك فى منامه تلك الرؤيا التى دعا لتأويلها أهل العلم والنظر من رجال دولته ، فلم ينكشف لهم منها شىء .. وقالوا هى أخلاط من الأحلام ، أشبه بالهلوسة ، لاتستقيم منها صورة سويّة يمكن أن يتحققها النظر ، ويقع منها على

مفهوم ، له معقول .. فكيف يجدون تأويلا لهذه الأخلاط من الأحلام ، وهم لايعلمون تأويل الأحلام ذاتها ؟ إن تأويل الحلم وحلّ رموزه يحتاج إلى بصيرة نافذة ، وقلب ملهم ، وهذا أمر غير ميسور ، لا يقع إلا لقلة قليلة من الناس ، ثم لا يكون لهم مع ذلك القدرة على تأويل كل حلم ، فكيف بأضغاث الأحلام ؟

والأحلام هى من واردات العقل الباطن للإنسان ، كما يقول علم النفس الحديث ، أو هى من حديث النفس إلى صاحبها ، وللنفوس أحاديث ذات منطق خاص بها ، لا يلتقى كثيراً مع منطق الحياة ، على مألوف الإنسان منها .. فحديثها فى الغالب إشارات ورموز ، لا يستجلى مراميها إلا أهل البصيرة النافذة . .

ولعل فى قوله تعالى عن يوسف عليه السلام : « ولنعلمه من تأويل الأحاديث » .. لعل فى هذا ما يشير إلى أن المراد بالأحاديث ، هو الأحلام ، وهى من حديث النفوس إلى أصحابها ..

ويشهد لهذا المعنى الذى ذهبنا إليه أن أبرز ما فى حياة يوسف عليه السلام ، كان من منطلق الرؤيا التى رآها فى أول حياته .. والتى ذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى على لسانه : « إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » .. وقد أولها له أبوه .. ثم أعلمه أن الله سبحانه وتعالى سيجتبيه ويعلمه من تأويل الأحاديث كما يقول سبحانه على لسان يعقوب: « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث » .. وذلك لما رأى من ابنه يوسف هذه النفس الصافية التى تتحدث إليه هذا الحديث .. فهو بمثل الحديث الذى تحدثه به نفسه ، يأخذ ، وبه يعطى . ! ثم كانت بعد هذا تلك المواقف التى وقفها يوسف فى تأويل الأحلام ، لصاحبي سجنه ، ثم للملك ، وعن

تأويل هذا الحلم خرج من السجن ، واعتلى منصب الوزارة ..!

هذا ، وقد جاء فى الحديث الشريف : « إن فيكم محدَّثين وإن منهم عمر » أى إن فى جماعة المسلمين من يُحدث إليهم من وراء مدركاتهم بأحاديث ملهمة .. سواء أكان ذلك فى اليقظة أو فى النوم ..

* « وقال الذى نجا منهما وادّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله . . »

الذى نجا منهما : هو أحد صاحبى السجن ، وهو الذى رأى أنه يعصر خمراً ..

ادَّكر : أى تذكر ، وأصله اذ تكر على وزن افتعل ، فقلبت تاء الافتعال دالاً لتقارُب مخرجيهما ، ثم أدغمت الذّال فى الدال ، لأنها أخفّ منها ، ويجوز أن يقال اذَّكر ، بإدغام الدال فى الذّال .

والأمّة : الجماعة من كل شىء والمراد بها هنا كتلة من الزّمن ، أى زمن طويل . . ومنه قوله تعالى : « إنا وَجدْنآ آباءنا على أُمّةٍ » (٢٢ : الزخرف) أى على مجموعة متضخمة من العادات والمعتقدات .

ـ وفى قوله تعالى : « وادّكر بعد أمة » إشارة إلى أنه قد عانى كثيراً من التفكير ، حتى تذكر يوسف .. ففى الفعل « ادّكر » معالجة ، ومعاناة ، وعسر . وكذلك فى كلمة « أمّة » التى تجمع مقاطع متفرقة من الزمن !

والسؤال هنا : كيف ينسى الرّجل وجه يوسف ، وكيف يغيب عنه شخصه ، وهو الذى كشف له عن رؤياه ، وأراه منها وجه النجاة ، بهذه البشرى المسعدة ؟

ونقول ـ والله أعلم ـ إنه ربما كان للأيام التى قضاها الرجل فى السجن ، والعذاب الذى أُخذ به ، والرعب الذى استولى عليه من الأهوال التى طلعت

عليه فى سجنه ـ نقول : ربما كان لذلك آثاره فى تفكير الرجل ، وفى ذاكرته على وجه خاص . . فما أكثر ما تضم السجون بين جدرانها من عذاب ، يرى المبتلوْن به شواهد من عذاب القيامة قبل أن تقوم !!

* « يوسفُ .. أيها الصِّدِّيق . . أفتِنا فى سبعِ بقراتٍ سِمانٍ يأكُلُهُنّ سبعٌ عِجافٌ وسبعِ سنبلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يابساتٍ لعلِّى أرْجِعُ إلى الناسِ لعلَّهم يعلمون »

هنا أحداث صغيرة وقعت ، قبل أن يلتقى الرجل بيوسف ، وقد ضرب القرآن الكريم عن ذكرها صفحاً ، لأنها مفهومة من السياق أولا ، ولأنها لا يتعلق بذكرها فائدة ، ثانيا . .

فالرجل حين قال : « أنا أنبئكم بتأويله » أثار فى الناس ـ وخاصة الذين دُعوا إلى تأويل رؤيا الملك ، تساؤلات كثيرة ، فكان من أقوال الناس له : كيف تفعل أنت هذا الذى لم يستطعه العلماء وأهل الخبرة ؟ ومن أين لك هذا العلم ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة المنكرة عليه ما قال !

ثم لابدّ أن الرجل أوضح لهم الأمر . . فقال إننى لست أنا الذى أنبئكم بتأويله ، ولكن هناك فى السجن رجل يعلم ما لا تعلمون من تأويل الأحلام . . وأن هذا الرجل هو يوسف ، فأرسلون إليه .. فأرسلوه إليه .

ثم إنه حين دخل على يوسف بَدَأه بما جاء إليه من أجله . . وقد كان من الطبيعى أن يجرى بينهما حديث وحديث ، قبل أن يذكر له ما أراد منه .. ولكن اللهفة إلى إسعاف الملك بما يذهب بحيْرته ، صرفته عن كل شىء !

ـ وفى قوله تعالى : « أيها الصِّدِّيق » إقرار من الرجل بما عرف من يوسف من صدقٍ ، فيما أوّل له ولصاحبه من رؤيا . .

ـ وفى قوله : « لعلى أرجع إلى الناس » ـ الرجاء هنا ليس واقعاً على عودته إلى النّاس ، إذ أن عودته إليهم أمر مقطوع به ، غير متعلق على شيء .. وإنما وَقَعَ الرجاء هنا على محذوف تقديره : لعلى أرجع إلى الناس بما يكشف لهم عما أصابهم من بلبلة واضطراب ، إزاء هذه الرؤيا التى رآها الملك ، وحار العلماء والسحرة والمنجمون فى فكّ طلاسمها وحلّ رموزها ..

أما الرجاء فى قوله : « لعلهم يعلمون » فهو واقع على الناس ، وعلى العلم الذى يجيئهم به من يوسف عن هذه الرؤيا . . أى لعلهم يعلمون مِن هذا قدْرَك وفضلك ، وأنك الصِّدِّيق الذى لا يُتَّهم ، وأنهم قد اتهموك ظلماً ، وأودعوك السجن بغير جريرة . . أو لعلهم يعلمون ما غاب عنهم علمه من هذه الرؤيا ، وأعجزهم الوصول إليه .

* « قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتى من بعد ذلك سَبْعٌ شِدَادٌ يأكلْن ما قدّمتُم لهنّ إلاقليلا مماتُحصنون ، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يُغاث الناس وفيه يَعْصرون »

الدأب : المستمر ، المتصل ، فى جِدٍ ومثابرة .

شِدَاد : أى فيها شدة ، وقسوة ، وجدب .

تُحصنون : أى تحفظون .. ومنه الحصن ، لأنه يحفظ من فيه ، والحصَان ، والمحصَنة ، لأنها تحفظ نفسها من الإثم .. والحِصان « بالكسر » لأنه يحفظ راكبه ، ويمنحه قوة على عدوّه . .

يُغاث الناس : أى ينزل عليهم الغيث ، وهو المطر ، الذى يحمل إليهم الحياة ، ويمدّهم بالخصب والنماء .

يَعْصرون : أى يصنعون الخمر من الأعناب ، التى تزدهر وتثمر فى هذا العام .

بهذا التأويل كشف يوسف عن مضمون رؤيا الملك ومحتواها ، وأنها تنبىء عن الأحداث المقبلة التى ستجرى على مصر خلال أربعة عشر عاماً آتية !

فالأعوام السبعة المقبلة ، هى أعوام خصب وزرع وثمر . .

والأعوام السبعة التى بعدها ، أعوام جدب وقحطٍ ، لا تُنبت زرعاً ، ولا تطلع ثمراً . .

ولم يكتف يوسف بتأويل الرؤيا ، بل أعطى التدبير الحكيم الذى ينبغى أن يقوم إلى جانب مدلولها . . وبهذا كشف للناس عن موهبة سياسية نادرة ، وأطلعهم منه على بصيرة نافذة ، فى الإمساك بدفّة السفينة فى متلاطم الأمواج ، ليبلغ بها مرفأ الأمان والسلامة .

فكان أن نصح لهم بأن يجدّوا الجدّ كله خلال السنوات السبع المقبلة ، فى زرع كل ما استطاعوا زرعه من الحبّ ، الذى هو عماد الغذاء للناس . . ثم أن يمسكوا هذا الذى يجيئهم مما زرعوا ، دون أن يأخذوا شيئاً منه ، إلا قليلا مما يأكلون . . ثم أن يَدَعُوا هذا الذى احتفظوا به فى سنابله حتى لا يناله السّوس ، أو يمسّه العطب !

ومن هذا الذى ادخروه فى سنوات الرخاء والخصب ، يكون غذاؤهم فى سنوات الشدة والجدب !

ذلك هو التدبير أحكم التدبير ، لملاقاة هذه السنوات السبع العجاف التى ستطلع على الناس ، بعد سبع سنين من الخصب والرخاء . .

ـ وفى قوله : « إلا قليلاً مما تأكلون » دعوة إلى التزام القصد والاعتدال خلال سنوات الخصب ، وأن على الناس فيها أن يأخذوا القليلَ مما يحتاجون إليه ، وأن يعيشوا فى حال أشبه بحال الحرب . . وبذلك يمكن أن يواجهوا هذه

المحنة المقبلة عليهم ، وأن يخرجوا منها سالمين ، وإلا فإنهم إن نَسُوا في خصبهم أيام الجدب المقبلة عليهم، هلكوا جميعاً . . إنهم مقدمون على حرب قاسية مع الجدب والقحط ، فإذا لم يستعدوا لهذه الحرب هلكوا بيد الجوع والحرمان .

ـ وفي قوله : « ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون» إجابة على سؤال يتردد في خواطر الناس . . وهو : ما ذا سيكون عليه الحال بعد هذه السّنوات المجدبة ؟ وهل يجيء بعدها الخصب الذي اعتادوه ، أم أنها ستكون سنة تجمع بين الخصب والجدب ؟ فكان هذا الذي بشّرهم به ، وأراهم منه طريق النجاة ، فسيحاً ، رحيباً : « عام فيه يُغاث الناس وفيه يَعْصِرون » .. إنه عام فيه خير كثير ، يذهب بكل ما عانى الناس من بلاء وشدة خلال هذه السنوات الأربع عشرة ! وفي هذا ما يشدّ عزمات الناس ، ويمسك بهم على طريق الصبر والاحتمال ، حيث تتوارد عليهم الحيــاة في شدتها ولينها ، وضرّائها وسرائها . .

الآيات : (٥٠ — ٥٢)

* « وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱللَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ » (٥٢)

التفسير :

ما خطبكن : أى ما شأنكن .. حاشَ لله : أى تنزيهاً لله .. وحاشا : فعل استثناء يعزل ما بعده عن الحكم الواقع على ما قبله ..

حصحص الحق : أى انكشف ، وظهر ، وتمحص .

* « وقال الملك ائتونى به » .. لقد وقع ما تأول به يوسف حُلمَ الملك موقع اليقين من الملك ، ورأي ما كان قد رآه مناماً أمراً واقعاً بين يديه ، ورأى فى يوسف الأمل الذى طلع عليه من حيث لا ينتظر ، ماداًّ يده إليه بحبل الخلاص والنجاة ، فهتف فيمن حوله : « ائتونى به » ! ! ولم يقل : ائتونى بيوسف ، استعجالاً لإحضاره ، واختصاراً للوقت الذى يضيع فى النطق باسمه ، مكتفياً بالإشارة إليه بضميره !

ــ « فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن .. إنّ ربى بكيدهن عليم »

لقد انتهز يوسف الفرصة السانحة له ، وقد أصبح مطلوباً من الملك ، لاطالباً له ، ومرغوباً لا راغباً ، فأراد أن يُملى شروطه ، ولم تُنسِه فرحة الخلاص من السجن بعد هذه السنين الطويلة التى قضاها بين جدرانه ــ لم يُنْسه ذلك أن يبدأ أولا بمحو هذه التهمة التى علقت به ، وأن يُقيم الملِك على رأى صحيح فيه ، وأن يعلم علم اليقين مَن هو هذا الإنسان الذى رُمى بهذا البهتان ، وقُذف بهذا المنكر ؟

فهناك واقعة لا يمكن إنكارها ، إذ كانت بمشهد من عدد كثير من النسوة ، كما كان أثرها المادى مما لا يخفى ، وربما لا يزال بعضه باقياً إلى يومه هذا .. « النسوة اللاتى قطّعن أيديهن » .. ما بالهن فعلن هذا الفعل ؟ وفى

أية مناسبة حدث هذا لهن ؟ ففى الإجابة عن هذا السؤال ما يكشف عن الكيد الذى كِدْنَ له به !

* « قال ما خطبكن إذ راودتُنّ يوسف عن نفسه » ؟ .

وسأل الملك عن أمر هؤلاء النسوة ، فلما أُخبر به ، دعاهن إليه ، وسألهنّ : « ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه » ؟ ويوسف لم يقل إنهن راودنه عن نفسه ، بل اكتفى بذكر الحادثة ، ولم يذكر مدلولها ، وذلك أدب من أدب النبوة الذى يأبى عليه أن يذكر كلمة السوء ، وأن يفضح الحرائر !

ولكن الملك قالها لهن صريحة : « ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه » ؟ لقد ملك يوسف عليه مشاعر الحب والإجلال ، وساءه أن يلقى هذا الإنسان الكريم ما لقى من هذا الاتهام الشنيع ، وهو العفّ الطاهر ، التقىّ النقىّ ، فأراد أن ينتقم له ، وأن يعرض هؤلاء النسوة على الملأ فى مقام الخزى والفضيحة ! .

ولم تجد النسوة فى يوسف ما يقُلْنَه فيه ، دفاعاً عن أنفسهن ، ولم تكن غير كلمة الحق كلمةٌ يمكن أن تنطق بها ألسنتهن ، إزاء هذه الشمس التى ملأ نورها الآفاق من حولهن ، حتى إن الملك نفسه ليستضىء بضوئها ، ويستهدى بهديها . . فكان جوابهن إقراراً منهن ليوسف بالعفة والطهارة . .

* « قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء » أى تنزيهاً لله عن كلِّ نقصٍ ، وكما ننزّه اللهَ عن كل عيب ونقص ، ننزه يوسف عن كل منكر وقبيح ! « ما علمنا عليه من سوء » .

ولم تقل النسوة : ما رأينا عليه من سوء وإنما قلن هذا القول : « ما علمنا عليه من سوء » تأكيداً لطهره وعفّته ، فإنهنّ لم يَرَيْنَ منه ما يسوء ولم يعلمن من أمره ما يشين . . سواء أكان ذلك معهن ، أو مع غيرهن .

وتتلفت الأنظار هنا إلى امرأة العزيز ، وتصغى الآذان إلى ما تقول فى هذا المقام ، وهى رأس هذا الأمر كله .. فماذا قالت امرأة العزيز ؟ .

* « قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين » لقد قهرها الحق ، فأقرت على نفسها بمشهد من هذا الملأ : « أنا راودته عن نفسه » . . فقد ظهر الحق ، ولم يعد ثَمَّة سبيل إلى إخفائه .

« أنا راودته عن نفسه » : تقولها هكذا صريحة مؤكَّدة « أنا راودته عن نفسه » ! ولم تكتف بهذا العرض الذى تعرض فيه نفسها فى معرض الاتهام الصريح المؤكد ، بل تستحضر يوسف الذى لا يزال فى سجنه ، وتستدعى صورته التى لا تزال تملأ خيالها فتقول : « وإنه لمن الصادقين » . . أى إننى لكاذبة فيما تقوّلته عليه ، وإنه لصادق فى نفى هذا الاتهام عنه . . وفى قول يوسف : « فاسأله ما بال النسوة » دون أن يشير إلى امرأة العزيز ـ أدب عالٍ لا يصدر إلا ممن تأدب بأدب السماء ، من أنبياء الله ورسله .

* « ذلك ليعلمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين » أى إنِّى أقرر ذلك ، وأشهد به على نفسى فى غير مواجهة ، وذلك ليعلم أنِّى لم أكذب عليه فى غيبته ، حيث لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، ودفع ما أتقوّله عليه .

وفى قولها : « ذلك ليعلم أنِّى لم أخنه بالغيب » اعتذارٌ منها ليوسف ، وتودّد إليه ، وفتح لباب الصفح والمغفرة بينها وبينه .

— وفى قولها : « وأن الله لا يهدى كيد الخائنين » تعليق على ما كان منها من كيد وخيانة ليوسف ، وأن هذا التدبير السيء قد فضحه الله ، وأخزى أهله . . وهكذا كل باطل لا بد أن تكشف الأيام زيفه ، وتفضح وجه المطلِّىّ بالزور والبهتان . . وفى هذا ما يدلّ على حسرتها على ما كان

منها فى حق هذا الإنسان العظيم ، الذى لم يكن له من ذنب ، إلا أن الله سبحانه صوّره فأحسن صورته ، وأكمل خَلْقَه !

هذا ، ويجوز أن يكون هذا القول من يوسف عليه السلام ، وأنه قاله بعد أن علم بإقرار النسوة ، وشهادة امرأة العزيز على نفسها ، قاله معلقاً ومعللاً لهذا الطلب الذى طلبه من الملك ، وهو أن يسأل النسوة اللاّتى قطعن أيديهنّ . وبهذا ينكشف له واقع الأمر ، وقد انكشف هذا الواقع عن براءة يوسف مما رُمى به ، وبهذا يعلم العزيز أن يوسف لم يَخُنْهُ فى غيبته وأنه كان أميناً على حرماته ، وأنه لو كان خائناً له أو لغيره ما هداه الله إلى كشف هذه الحقائق التى كشف عنها ، لأن هذا لا يكون إلا عن بصيرة استضاءت بنور الله ، واهتدت بهذا النور ، والله لا يهدى كيد الخائنين ، ولا يُنجح لهم أمراً ، ولا يجعل لهم نورًا : « ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور » .

ونحن نميل إلى القول بأن قوله تعالى : « ذلك ليعلم أنّى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين * وما أُبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربّى إن ربّى غفور رحيم » . . نميل إلى القول بأن هذا هو من حديث يوسف إلى نفسه ، تعليقاً على ما انكشف للملك من أمر النسوة ، وما ظهر من براءته .

وذلك لأنه قد جرى فى هاتين الآيتين ، ذكر الله سبحانه وتعالى ، ووصفه بصفات الكمال ، كقوله : « وأن الله لا يهدى كيد الخائنين » . . وقوله : « إلا ما رحم ربّى إنّ ربّى غفور رحيم » . . وهذا لا يصدر إلا من إنسان مؤمن بالله إيماناً مشرقاً متمكناً . . وامرأة العزيز ، لم تكن ـ فى غالب الظن ـ مؤمنة . . . وأنه إذا كانت مصر قد عرفت التوحيد فى فترة من

تاريخها الفرعونى ، فإنها فى فترات كثيرة كانت تعبد أنواعاً من الآلهة تتخذها من عالم الحيوان ، أو الكواكب ، وغير ذلك . .

ثم إن مصر فى هذه الفترة بالذات ، التى عاصرت يوسف عليه السلام ، كانت على غير دين التوحيد ، حيث رأينا يوسف فى سجنه يدعو صاحبيه إلى الإيمان بالله ، ويكشف لهما عن زيف الآلهة التى يعبدونها من دون الله ، كما يقول سبحانه وتعالى على لسانه : « يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ . إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ . . أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ . . وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » والله أعلم .

* * *

تم بعون الله الجزء الثانى عشر ، ويليه الجزء الثالث عشر ، إن شاء الله

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة